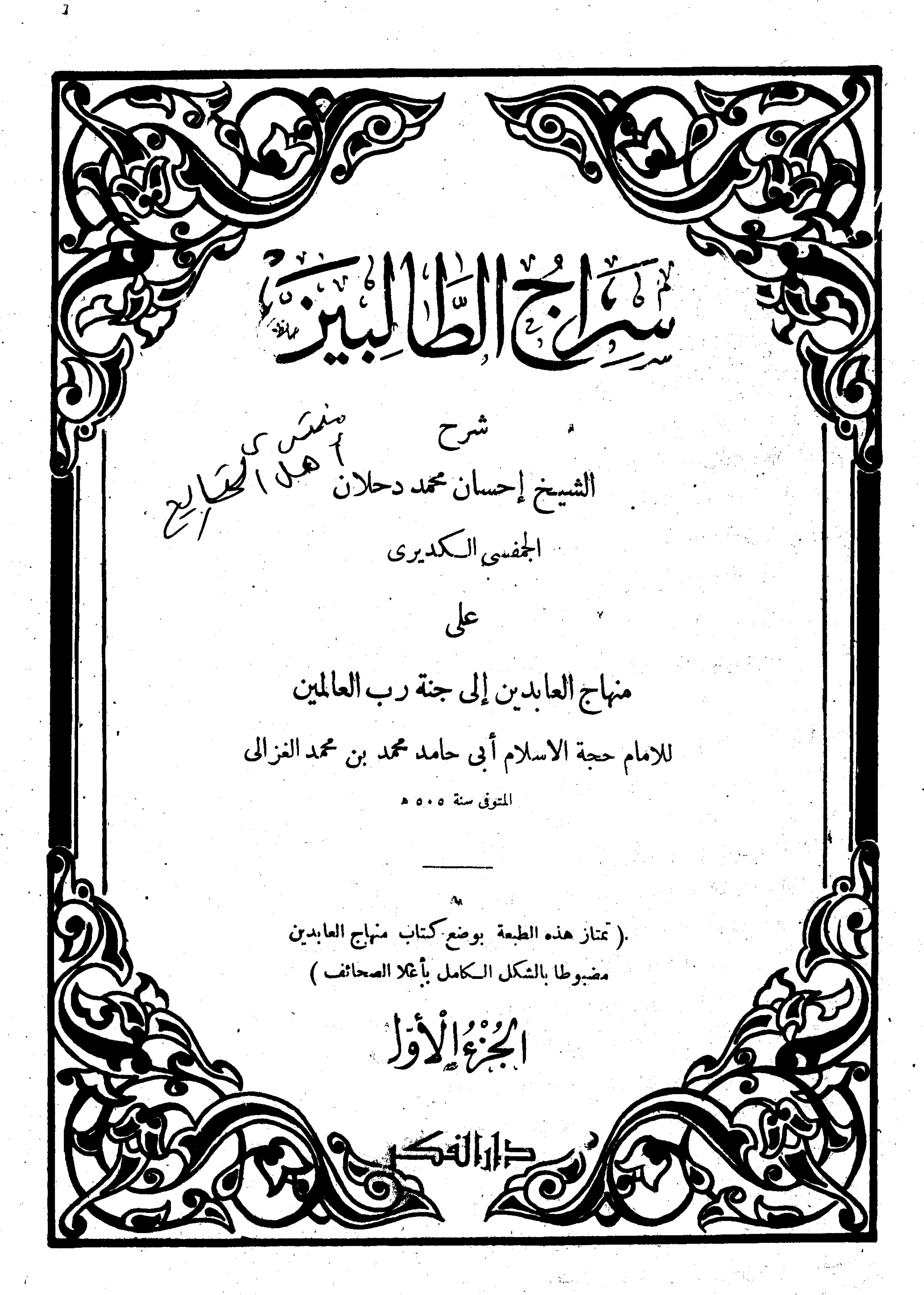


# سراج الطالبين

شرح

الشيخ إحسان محمد دحلان

الجمفسى الكديرى

على

## منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين

للامام حجة الاسلام أبى حامد محمد بن محمد الغزالى

المتوفى سنة ٥٠٥ هـ

---

(تمتاز هذه الطبعة بوضع كتاب منهاج العابدين
مضبوطا بالشكل الكامل بأعلا الصحائف)

## الجزء الأول

دار الفكر

« يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً »

( قرآن كريم )

# بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أسعد قوالب الأصفياء بعقبة المجاهدات . وأسعد قلوب الأولياء بالمشاهدات . وخلص أشباح المتقين من ظلم الشهوات . وأخلص أرواح الموقنين عن ظلم الشبهات . وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تضيء نجوم هدايتها فى أوج العنايات . وتزهر سرج يقينها من مشكاة الإصابات . نتمسك بها أبدا ما أبقانا . وندخرها لأهاويل ما يلقانا . فإنها عزيمة الايمان . وفاتحة الاحسان . ومرضاة الرحمن ومدحرة الشيطان . وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله سيد ولد عدنان . وخلاصة الخلاصة من نوع الانسان . المبعوث إلى كافة الإنس والجان . المؤيد بالحجة الباهرة وقواطع البرهان . من أعظمها القرآن الذى أعجز بلغاء كلّ عصر فى كلّ زمان . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الأئمة الأعيان . ذوى الفصاحة والبيان . والديانة والمتانة والإيقان والاتقان . وعلى التابعين لهم باحسان وإيمان مع الاطمئنان . وسلم تسليما كثيرا ما دارت الأفلاك والملوان .

( أما بعد ) فيقول المرتجى من ربه الغفران . الفقير إلى رحمته : إحسان ابن المرحوم محمد دحلان . الجمفسى ثم الكديرى ، أصلح له الله الحال والشان . وستر عيوبه فى الدارين : هذا شرح وجيز منيف . وتحرير رائق شريف . على كتاب « منهاج العابدين » . إلى جنة ربّ العالمين للامام الهمام مقتدى الخاص والعامّ ، حجة الاسلام ، وبركة الأنام ، وقطب رحا دائرة الاسلام . الذى ملأ ذكر كمالاته الخافقين فى مسامع الأعلام ، وقام صيت كتابه مقام الشمس فى رابعة النهار ، وعنت وجوه الأفاضل إليه من سائر الأقطار ( أبى حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى ) سقى الله ضريحه صوب الغفران المتوالى . وضعته تذكرة لنفسى ، وللقاصرين مثلى من أبناء جنسى . وسميته :

## سراج الطالبين : على منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين

وما لى فى هذا المجموع إلا النقل والجمع من كلام العلماء الراسخين ، والصلحاء العارفين . فاذا رأيت صوابا فمن هؤلاء الأعلام ، وإن رأيت خللا فمن وهم صدر منى بسوء الافهام ، لعدم

بسم الله الرحمن الرحيم

تأهلى لذلك . وقصورى عن الوصول إلى ما هنالك . فالمتصدى للتأليف . والمعتنى بالتصنيف . ولو بلغ السهى فى النهى فقد استهدف . ومن أنصف أسعف . ولله در بعض الأكياس حيث قال: من صنف فقد وضع عقله فى طبق وعرضه على الناس . لا سيما من كان مثلى قليل البضاعة . فى كل علم وصناعة . على أنى والله عز وجل يعلم فى أكثر مدة جمعى له فى هم وحزن ، ومع قلة المعين والناصر ، والمنبه والمذاكر . فإن تصفح الناظر فيه الغلط فليصفح ، ولا يكن من أناس بالأغاليط يفرحون ، وليصلح بعد التأمل ما يجده فاسدا ، فإن الله تعالى ذم رهطا قال فيهم : « يفسدون فى الأرض ولا يصلحون » .

وأسأل الله العظيم ، وأتوسل بنبيه الكريم ، أن يوفقنى وأحبابى لمرضاته ، وأن ينفع به كما نفع بأصله ، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، فإنه على كل شيء قدير ، وبالإجابة جدير .

وهذا أوان الشروع فى المقصود مستمدا من حضرة الملك المعبود .

قال المصنف رحمه الله تعالى ، ونفعنا به آمين ( بسم الله ) أى أبدأ بكل اسم للذات الأقدس لا بغيره متلبسا للتبرك (الرحمن) أى المنعم بجلائل النعم ، كالإيمان والعافية والعقل والغنى عن الناس ( الرحيم ) أى المنعم بدقائقها : أى قليلها وصغيرها ، كزيادة الرزق ونحوها ، ولا ينافى ذلك قولهم : إن نعمة الله كلها عظيمة ، لأن المراد القليلة ولو بالنسبة لشيء آخر .

واعلم أنه ينبغى لكل شارع فى كل فن أن يتكلم على البسملة بما يناسب الفن المشروع فيه ، والشروع الآن فى فن التصوف . فينبغى أولا أن نبين حده وموضوعه وبقية المبادئ ، ثم نلحق ذلك بالتكلم على البسملة فنقول :

أما حده : فهو علم يعرف به أحوال النفس وصفاتها الذميمة والحميدة .

وأما موضوعه : فهو النفس من حيث ما يعرض لها من الأحوال والصفات .

وأما ثمرته : فهو التوصل به إلى تخلية القلب عن الأغيار ، وتحليته بمشاهدات الملك الغفار .

وأما حكمه : فهو الوجوب العينى على كل مكلف ، وذلك لأنه كما يجب تعلم ما يصلح الظاهر ، كذلك يجب تعلم ما يصلح الباطن .

وأما فضله : فهو فوقانه على سائر العلوم من جهة أنه يوصل إلى ما ذكر .

وأما نسبته للعلوم : فهى أنه أصل كل علم وما سواه فرع ، ونسبته للباطن كنسبة الفقه إلى الظاهر .

وأما واضعوه : فهم الأئمة الأعيان ، العارفون بربهم المنان .

وأما استمداده : فهو من كلام الله ، وكلام رسوله سيد ولد عدنان، صلى الله عليه وسلم ، وذوى اليقين والعرفان .

قَالَ الشَّيْخُ الفَقِيهُ الصَّالِحُ

وأما مسائله : فهى قضاياه التى يبحث فيها عن عوارضه الذاتية ، كالفناء والبقاء والمراقبة وغير ذلك .

ومما يتعلق بالبسملة من المعانى الدقيقة ما قيل : إن الباء بهاء الله ، والسين سناء الله ، والميم مجد الله ، وقيل : الباء بكاء التائبين ، والسين سهو الغافلين ، والميم مغفرته للمذنبين . وقال بعض الصوفية : الله لأهل الصفا ، الرحمن لأهل الوفا ، الرحيم لأهل الجفا ، وقالوا : أودع الله جميع العلوم فى الباء : أى بى كان ما كان وبى يكون ما يكون ، فوجود العوالم بى ، وليس لغيرى وجود حقيق إلا بالاسم ، وهو معنى قولهم : ما نظرت فى شيء إلا ورأيت الله فيه أو قبله ، والرحمن أيضا : كثير الرحمة ، ورحمته عامة على جميع مخلوقاته ، فينبغى لكل شخص أن يرحم أخاه للموافقة له عز وجل .

قال كعب الأحبار : مكتوب فى الإنجيل : يا ابن آدم كما ترحم كذلك ترحم ، فكيف ترجو أن يرحمك الله وأنت لا ترحم عباد الله . والرحيم كما تقدم : من إذا سئل أعطى ، وإذا لم يسئل يغضب . وأتى بهذين الاسمين دون غيرهما من بقية أسماء الله تعالى إشارة إلى أن رحمة الله سبقت غضبه كما فى الحديث .

( قال الشيخ ) أى الشائخ ، فهو مصدر أريد به اسم الفاعل . وهو فى اللغة : من جاوز الأربعين ولو كافرا . وقيل : المنتهى فى السن . وفى العرف : من بلغ رتبة أهل الفضل ولو صبيا . وقال بعضهم : هو صاحب الفائدة والمائدة والحكمة الزائدة ( الفقيه ) أى العالم بعلم الشريعة ، من الفقه الذى هو الفهم مطلقا ، أو لما دق ؟ يقال : فقه يفقه بكسر القاف فى الماضى وفتحها فى المضارع : إذا فهم ، وفقه يفقه بالفتح فيهما إذا سبق غيره إلى الفهم ، وفقه يفقه بالضم فيهما : إذا صار الفقه سجية له : هذا هو المشهور . واصطلاحا : العلم بالأحكام الشرعية العملية ، المكتسب من أدلتها التفصيلية .

وذكر العلماء فى باب الوصية أن الفقيه : من يعرف من كل باب من الفقه طرفا صالحا يهتدى به إلى باقيه مدركا ، واستنباطا وإن لم يكن مجتهدا .

وقال شارح التعجيز : أولى الناس بالفقه فى الدين نور يقذف هيبة فى القلب : أى من فى قلبه ذلك ، وهذا القدر قد يحصل لبعض أهل العنايات موهبة من الله تعالى وهو المقصود الأعظم ، بخلاف ما يفهمه أكثر أهل الزمان فى ذلك . وسئل الحسن البصرى عن مسئلة فأجاب ، فقيل : إن فقهاءنا لا يقولون ذلك ، فقال: وهل رأيتم فقيها قط ؟ الفقيه هو القائم ليله الصائم نهاره ، الزاهد فى الدنيا ، الذى لا يدارى ولا يمارى ينشر حكمة الله فإن قبلت منه حمد الله تعالى ، وفقه عن الله أمره ونهيه ، وعلم ما يحبه وما يكرهه ، فذلك هو العالم الذى قيل فيه « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » فإذا لم يكن بهذه الصفة فهو من المغرورين ، ذكره الخطيب فى شرح المنهاج ( الصالح )

الزَّاهِدُ عَبْدُ الملِكِ بْنُ عَبْدِ اللهِ غفرَ اللهُ لَهُ : أَمْلَى عَلَيَّ شَيْخِي الأَجَلُّ

اسم فاعل من صلح : إذا استقامت أفعاله وأحواله فيما بينه وبين الله تعالى ، أو القائم بحقوق الله وحقوق عباده .

وقال البيضاوى : هو الذى صرف عمره فى طاعة الله ، وماله فى مرضاته ، وهو ناظر للصالح الكامل فلا ينافى أن من صرف مدة عمره عمل المعاصي ثم تاب توبة صحيحة ، وسلك طريق السلوك وقام بخدمة ملك الملوك يسمى صالحا ( الزاهد ) أى عن الدنيا الفانية . الزهد لغة : الإعراض عن الشيء احتقارا له . وشرعا : أخذ قدر الضرورة من الحلال المتيقن الحل ّ فهو أخص من الورع ، إذ هو ترك المشتبه ، وهذا هو زهد العارفين ، وهو المراد هنا وفيما يأتى . وأعلى منه زهد المقرّبين ، وهو الزهد فيما سوى الله من دنيا وجنة وغيرهما ، إذ ليس لصاحب هذا الزهد مقصد إلا الوصول إلى الله تعالى والقرب منه ( عبد الملك بن عبد الله ) وهمزة ابن تحذف إن لم تقع أوّل سطر ، لأنها وقعت بين علمين كما يأتى ( غفر الله له ) أى وللمسلمين آمين ، هذه جملة دعائية خبرية لفظا ، إنشائية معنى : أى اللهمّ اغفر له ذنوبه : أى امحها عنه من صحف الملائكة ، ويلزم من ذلك أنه لا يؤاخذه بها ، أو معناه : لاتؤاخذه بها وان كانت موجودة فى كتب الملائكة والأوّل أصح ، ويشهد له « إنّ الحسنات يذهبن السيئات » . وإنما آثر الفعلية لما يأتى فى شرح قوله : قدّس الله ، ومن هذا يؤخذ أن الدعاء جائز وأنه ينفع ، وهو ما عليه أهل السنة خلافا لبعض الصوفية فى قوله : إنّ الدّعاء قدح فى التوكل ، ولقول بعضهم : إنّ المدعوّ به إن كان قدّر فهو واقع لا محالة دعا أولا ، وإن لم يقدر لم يقع وإن دعا ، فهو مدفوع بأن المقدور قدّر بأسباب منها الدّعاء ، فلم يقدر منها مجردا عن سببه بل بسببه ، فاذا وجد السبب وقع وإلا فلا . وما درى هذا الأحمق أن الله قد رتب مصالح الدنيا والآخرة على الأسباب ، ومن ترك الأسباب اتكالا على القضاء لزمه أن لا يأكل إذا جاع ولا يشربه إذا عطش ، ولا يتداوى إذا مرض ، وأن يلقى الكفار بلا سلاح ، ويقول : ما قضاه الله لا يردّ ، وهذا لا يقوله مسلم بل ولا عاقل ، كذا قاله عبد الكريم الدمياطى ( أملى علىّ شيخى ) أى ألقى على وقرأ الكتاب الآتى ، من الإملاء بمعنى إلقاء الكلام على من يكتبه ، هذه لغة بنى تميم وقيس ، ولغة الحجاز وبنى أسد أملل إملالا ، وجاء الكتاب العزيز بهما قال تعالى « فهى تملى عليه بكرة وأصيلا » . وقال تعالى « وليملل الذى عليه الحق » أفاده فى المصباح كما حرره العلامة عليش . وأصل الشيخ من شاخ فى السن وبلغ أربعين سنة إلى ثمانين سنة ، لكن المراد هنا الأستاذ المربى ولو صغيراً كما قاله الجرهزى ( الأجلّ ) أى الأعظم من غيره ممن عاصره فى الجملة . وقيل : إنه مجدد للقرن الخامس .

قال العلامة الزبيدى : روى أبو داود فى الملاحم والحاكم فى الفتن وصححه والبيهقى فى كتاب المعرفة له كلهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه رفعه « إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها » . قال العراقى وغيره سنده صحيح : أى يقيض لها على

**الإِمَامُ الزَّاهِدُ**

رأس كل مائة سنة من الهجرة أو غيرها رجلا كان أو أكثر من يبين السنة من البدعة ، ويكثر العلم وينصر أهله ، ويذل أهل البدعة . قالوا : ولا يكون إلا عالما بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة فكان فى المائة الأولى عمر بن عبد العزيز . والثانية الشافعى والثالثة الأشعرى أو ابن سريج . والرابعة الاسفراينى أو الصلعوكى أو الباقلانى . والخامسة حجة الاسلام الغزالى ، إلى أن قال : وكذلك ذكره الحافظ جلال الدين الأسيوطى فى أرجوزة له فقال :

والخامس الحبر هو الغزالى ... وعدّه ما فيه من جدال

وقال فيها : والشرط فى ذلك أن تمضى المائه ... وهو على حياته بين الفئه

يشار بالعلم إلي مقامه ... وينصر السنة فى كلامه

وأن يكون جامعا لكل فن ... وأن يعم علمه أهل الزمن

وأن يكون فى حديث قد روى ... من أهل بيت المصطفي وقد قوى

وكونه فردا هو المشهور ... قد نطق الحديث والجمهور

ونقل العراقى عن البعض أنه جعل فى الرابعة أبا إسحق الشيرازى ، والخامسة أبا طاهر السلفي ، ولا مانع من الجمع ، فقد يكون المجدد أكثر من واحد . قال الذهبي : من هنا للجمع لا للفرد ، فتقول مثلا على رأس الثلاثمائة ابن سريج فى الفقه ، والأشعرى فى الأصول ، والنسائى فى الحديث (الامام) أي المقتدى به والمتبع ، من أمك : أى صار أمامك : أى قدامك . قال السمين : هو فى اللغة اسم لكل ما يؤتم به كالإزار اسم لما يؤتزر به . وفى الاصطلاح : من تصح الصلاة خلفه ، ولا شك أن كلا من المعنيين كان موجودا فى المصنف . ويطلق الامام على الواحد والجمع ، فهو مما استوى فيه الفرد والجمع كفلك ، وكثيرا ما يجمع على أئمة كما أفاده المناوى على الجامع الصغير ( الزاهد ) أي المتصف بالزهد : وهو فراغ القلب من الدنيا مع الاقتصار بحلالها بقدر الحاجة ، كذا أفاده العلامة عبد الكريم الدمياطى . قال العلامة مرتضي الزبيدى ورأيت فى بعض المجامع أن سبب سياحته وزهده أنه كان يوما يعظ الناس فدخل عليه أخوه أحمد فأنشده :

أخذت بأعضادهم إذ ونوا ... وخلفك الجهد إذ أسرعوا

وأصبحت تهدى ولاتهتدى ... وتسمع وعظا ولا تسمع

فياحجز الشجر حتى متى ... تسنّ الحديد ولا تقطع

فكان ذلك سببا لتركه علائق الدنيا . وذكر عبد الغافر بن إسماعيل الفارسى خطيب نيسابور فى ترجمته بعد أن وصفه ، قال : وسلك حجة الاسلام طريق الزهد والتأله وترك الحشمة وطرح ما نال من الدرجة والاشتغال بأسباب التقوى وزاد الآخرة ، وقصد حج بيت الله الحرام ، ثم دخل الشام وأقام فى تلك الديار قريبا من عشر سنين يطوف ويزور المشاهد وأخذ فى التصانيف المشهورة

السَّعِيدُ الْمُوَفَّقُ حُجَّةُ الْإِسْلَامِ زَيْنُ الدِّينِ شَرَفُ الْأُمَّةِ أَبُو حَامِدٍ مُحَمَّدُ بْنُ مُحمدِ بنُ مُحَمَّدٍ

---

التى لم يسبق إليها : مثل إحياء علوم الدين والكتب المختصرة منها : مثل الأربعين وغيرها من الرسائل التى من تأملها علم محل الرجل : يعنى الغزالى من فنون العلم ، وأخذ فى مجاهدة النفس ، وتغيير الأخلاق ، وتحسين الشمائل ، وتهذيب المعاش ، والتزيي بزى الصالحين ، وقصر الأمل ، ووقف الأوقات على هداية الخلق ، ودعائهم إلى ما يعنيهم من أمر الآخرة وتبغيض الدنيا ، والاستعداد للرحيل إلى الدار الباقية ، والانقياد لكل من يتوسم فيه أو يشم منه رائحة المعرفة أو التيقظ بشىء من أنوار المشاهدة حتي مرن على ذلك ولان ، ثم عاد إلى وطنه لازما بيته مشتغلا بالفكر ملازما للوقت مقصودا ، وذخرا لكل من يقصده ويدخل عليه.. قال : فاتخذ فى جواره مدرسة لطلبة العلم وخانقاه للصوفية ، وكان قد وزّع أوقاته على وظائف الحاضرين من ختم القرآن ، ومجالسة أهل القلوب والقعود للتدريس بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ولحظات من معه عن فائدة ( السعيد ) أى الذى سبقت له السعادة الأزلية ( الموفق ) ببنائه للمفعول أي الذي وفق لتحصيل أسباب الدجات العلا ، وهى الطاعة لله تعالى ولرسوله . والتوفيق لغة : موافقة الشىء للشىء . واصطلاحا خلق قدرة الطاعة فى العبد ( حجة الإسلام ) أى الدليل للاسلام . قال بعضهم : الحجة من أحاط بأكثر السنة ولم يفته منها إلا اليسير وهو رحمه الله محجة الدين التى يتوصل بها إلى دار الإسلام جامع أشتات العلوم والمبرز فى المنطوق فيها والمفهوم ( زين الدين ) أى مزين الدين بتأليفاته وتقريراته ، وهذا بحسب الأصل وإلا فهو الآن لقب . واللقب من أقسام العلم الجامد فلا معنى له ، بل مدلوله الذات ، كذا قاله الشرقاوى . وفى المختار الزينة مايتزين به ، والزين ضد الشين ، وقدم اللقب على الاسم لاشتهاره مثل « إنما المسيح عيسي ابن مريم » أو جريا على عادة المؤرخين كما قاله ابن عمر البجيرمي ( شرف الأمة ) أى فى المقدار . والشرف بفتح الشين والراء : العلو والمكان العالى ، كذا فى المختار ، والأمة : كل جماعة يجمعها أمر ما من دين واحد أو زمان أو مكان أو نحو ذلك سواء كان الجمع تسخيرا أو اختيارا ؛ والمراد هنا أهل ملته صلى الله عليه وسلم المجتمعون على دينه القويم كما ذكره الفاسي ( أبو حامد ) وسبقه بهذا التكنى من شيوخه جمع : منهم أحمد بن بشر أبو حامد المروزى. توفى سنة ٣٦٢ وأحمد بن إسماعيل الفقيه أبو حامد الطوسي توفى سنة ٣٤٥ وأحمد بن الحسين الحافظ أبو حامد ، توفى سنة ٣٢٥ ( محمد بن محمد بن محمد ) وابن إذا وقع بين علمين ثانيهما أب للأول ، تحذف ألفه مالم تكن فى أول سطر — وفى سيرة الشامي أن ألف ابن تثبت فى تسعة مواضع : إذا أضيف إلى مضمر كهذا ابنك ، أو نسب إلى الأب الأعلى كقولك : محمد ابن شهاب التابعى فشهاب جده أو أضيف إلى غير أبيه كالمقداد ابن الأسود أبوه عمرو ، وتبناه الأسود ، ومحمد ابن الحنفية ، فالحنفية أمه ، أو عدل عن الصفة إلى الخبر كقولك : أظن محمدا ابن عبد الله ، أو إلى الإستفهام كقولك : هل تيم ابن

مرة ، أو ثنى كقولك زيد وعمرو ابنا محمد ، أو ذكر بغير اسم : كجاء ابن عبد الله ، أو كتب أول سطر أو اتصل بصفة كقولك : زيد الفاضل ابن عمرو . قال بعضهم : ومثل ابن ابنة ، وقد نظم العلامة الأجهورى تلك المواضع فقال :

احذف من ابن ألفا إن وقعا ... فى وسط اسمين تكن متبعا
إلا إذا أضيف للضمير ... فالألف اكتب فيه يا سميرى
ومثله أن اسمه قد حذفا ... كأكرم ابن عمر من أنصفا
قلت وفى استثناء ذين نظر ... إذ ليس بين اسمين من يذكر
كذاك مكتوب بصدر السطر ... أو مانسبته لجد فادر
أو من لغير أبيه قد انتسب ... كخاله فالحكم ذا له وجب
وما به لصفة قد عدلا ... لخبر كذلك اللذ فصلا
موصوفه منه وما يثنى ... أو عدل الاستفهام صدّعنا
قد قال ذا الشامي وبعض ابنه ... كالابن فى ذا وعليه العهده

ولد رحمه الله تعالى بطوس سنة خمسين وأربعمائة ، وتوفى بها صبيحة يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة ، فكان عمره خمسا وخمسين سنة ، وفى كتاب الثبات عند الممات لابن الجوزى . قال أحمد أخو الغزالى : لما كان يوم الاثنين وقت الصبح توضأ أخى وصلى وقال علىّ بالكفن فأخذه وقبله ووضعه على عينيه وقال سمعا وطاعة للدخول على الملك ، ثم مد رجليه واستقبل فانتقل إلى رضوان الله تعالى قبل الاسفار طيب الثناء أعلى منزلة من نجم السماء لايكرهه إلا حاسد أو زنديق ولا يسومه بالسوء إلا من كان فى قلبه ريب أو حاد عن سواء الطريق . وقال فخر الدين بن عساكر : ودفن رحمه الله بظاهر قصبة طابران ، والله يخصه بأنواع الكرامة فى أخراه كما خصه بفنون العلم فى دنياه بمنه وفضله ولم يعقب إلا البنات ، وكان له من الأسباب إرثا وكسبا مايقوم بكفايته ونفقة أهله وأولاده ، فما كان يباسط أحدا فى الأمور الدنيوية ، وقد عرضت عليه فما قبلها وأعرض عنها واكتفى بالقدر الذى يصون به دينه ولا يحتاج معه إلى التعرض للسؤال والنال من غيره . قال ابن السمعانى : وقد زرت قبره بالطابران قصبة طوس سمعت أبا جعفر عمر بن محمد بن أحمد الطوسي مذاكرة يقول : تمثل الامام إسماعيل الحاكمى بعد وفاة الامام أبى حامد الغزالى بهذا البيت :

عجبت لصبرى بعده وهو ميت ... وكنت امرأ أبكى دما وهو غائب

وقال أبو المظفر الأبيوردى يرثيه :

بكي على حجة الإسلام حين توى ... من كل حى عظيم القدر أشرفه
فما لمن يمترى فى الله عبرته ... على أبى حامد لاح يعنفه

الْغَزَالِيُّ الطُّوسِيُّ قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ وَرَفَعَ اللهُ فِي الْجَنَّةِ دَرَجَتَهُ. هٰذَا الْكِتَابَ الْمُخْتَصَرَ، وَهُوَ آخِرُ كِتَابٍ صَنَّفَهُ

---

تلك الرزية تستوهي قوى جلدي ... والطرف تسهره والدمع تنزفه
فما له خلة في الزهد تنكرها ... وماله شبه في العلم تعرفه
مضي فأعظم مفقود فجعت به ... من لانظير له في الناس يخلفه

وقال القاضي عبد الملك بن أحمد بن محمد بن المعافى :

بكيت بعين واجم القلب واله ... فتى لم يوال الحق من لم يواله
وسيت دمعا طالما قد حبسته ... وقلت لجفنى واله ثم واله
أبا حامد محي العلوم ومن بقى ... لشد عرى الإسلام وفق مقاله

(الغزالى) بتخفيف الزاى خلافا لابن الأثير فى قوله إنه بالتشديد نسبة إلى غزالة : قرية من قرى طوس (الطوسى) بضم الطاء : نسبة إلى طوس بلدة من أعمال نيسابور ( قدس الله روحه ، ورفع الله فى الجنة دار الثواب درجته ) جملة دعائية خبرية لفظا ، إنشائية معنى ، إذ المقصود بها الدعاء بالتقديس ورفع الدرجة ، وهو أبلغ من اللهم قدس وارفع لاشعاره بتحقيق الوقوع تفاؤلا ، وآثر الفعلية الدالة على التجدد والحدوث لحدوث المسئول بها كما أفاده العلامة ابن المدابغى وهذا الدعاء من الفقيه عبد الملك لشيخه حجة الإسلام كما علمت ، وإنما دعا له بما ذكر لكونه سعى فى إحياء السنة ونشر العلم الذى هو أعظم أنواع البرّ وبه قوام الدنيا والآخرة فيكون عاملا بقوله صلى الله عليه وسلم « من أسدى إليكم معروفا فكافئوه ، فان لم تكافئوه فادعوا له » . قال الفقيه : أملى علىّ شيخى الامام أبو حامد ( هذا الكتاب ) وهو فى الأصل مصدر كتب إذا خط وهو مصدر سماعي والقياس كتبا فأطلق على المكتوب مجازا ثم صار حقيقة عرفية فى المكتوب ، والعبارة على حذف مضاف : أي مدلول الكتاب ، لأن الألفاظ مدلول للمكتوب الذى هو النقوش ثم إن الكتاب صار حقيقة عرفية فى الألفاظ فلا يحتاج لتقدير مضاف كما ذكره العلامة العدوى ( المختصر ) اسم مفعول من الاختصار : وهو الذى قل لفظه وكثر معناه ، المسمى : [منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين ] كما قاله العلامة الزبيدى . قال السجاعى : إن المختصر لغة : ماقل لفظه وكثر معناه . واصطلاحا : ما قل لفظه سواء كثر معناه أو قل أو ساوى ، فالقيد معتبر لغة لا اصطلاحا ، لأنه قد تكون المعانى قليلة كالألفاظ . قال الخليل بن أحمد : الكتاب يختصر ليحفظ ويبسط ليفهم . والاختصار ممدوح شرعا . قال صلى الله عليه وسلم « أوتيت جوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصارا » ( وهو ) أى هذا الكتاب ( آخر كتاب صنفه ) أى جمعه وجعله أصنافا بتمييز بعضها عن بعض ، فمؤلف الكتاب يفرد الصنف الذى هو فيه عن غيره ، ويفرد كل صنف مما هو فيه عن الآخر ، فالصوفى يفرد مثلا باب العلم عن باب التوبة . قيل : أول من صنف الكتب

ولمْ يسْتَمْلِهِ مِنْهُ إلا خَوَاصُّ أَصْحَابِهِ وَهُوَ : ( الحمدُ لِلهِ ) المَلِكِ الحَكيمِ الجَوَادِ الكَريمِ

الربيع ابن صبيح . وقيل : سعد بن أبى عروبة . وقيل : ابن جريج كما قاله الخطيب فى شرح المنهاج ، والتصنيف هنا بمعنى التأليف ؛ وهو فى العلوم الواجبة لا المندوبة : كعلم العروض ، خلافا لمن عده من جملة فروض الكفاية من البدع الواجبة التى حدثت بعد عصر الصحابة كما ذكره العلامة ابن حجر ، ولعل محل الوجوب إذا توقف عليه حفظ العلم عن الضياع . وفى الكنز للأستاذ البكرى : وتصنيف العلم مستحب ، كذا ذكره الشروانى عن ابن قاسم . وكتابة العلم مستحبة ، وقيل واجبة ، وهو وجيه فى الأزمنة المتأخرة وإلا لضاع العلم ، وإذا وجبت كتابة الوثائق لحفظ الحقوق فالعلم أولى كما ذكره العلامة ابن حجر أيضا ( ولم يستمله منه ) أى لم يطلب بالإقبال على هذا المختصر من الشيخ ( إلا خواص أصحابه ) وهم المفضلون بالعقل الصافى والفهم الثاقب حتى لا تزلزل عقائدهم شبهة كما قاله الجرهزى ( وهو ) أى الكتاب المختصر : أى مضمونه ( الحمد ) هو لغة: الثناء . واصطلاحا : فعل ينبي عن تعظيم المنعم لإنعامه قولا أو فعلا أو اعتقادا مملوك ( لله ) فلا فرد منه لغيره تعالى وإن انتقم .

افتتح رحمه الله بعد التيمن بالبسملة بحمد الله تعالى أداء لحق شيء مما يجب عليه شكر نعمائه التى تأليف هذا الكتاب أثر من آثارها ، واقتداء بالكتاب العزيز وعملا بخبر « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع . وفى رواية: بالحمد لله ، وفى رواية: بحمد الله، وفى رواية: بالحمد ، وفى رواية: كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم » . رواه أبو داود وغيره وحسنه ابن الصلاح وغيره . قال بعضهم : الحمد تعتريه أحكام أربعة : الوجوب كالحمد فى العمر مرة عند المالكية كالحج وكلمتى الشهادة والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى خطبة الجمعة عند الشافعية . والندب كالحمد فى خطبة النكاح ، وفى ابتداء الدعاء وبعد الأكل والشرب . والكراهة كالحمد فى المواضع القذرة كالمجزرة والمزبلة والحرمة . كالحمد عند الفرح بوقوع المعصية ، كذا فى حاشية العشماوية ( الملك ) أى المتصرف فى جميع الموجودات بالأمر والنهى كما قاله الشبراملسى ، وقيل : هو الذى يستغنى فى ذاته وصفاته عن كل موجود ويحتاج إليه كل موجود ( الحكيم) فى صنعه : أى الذى يكون مصيبا فى التقدير ومحسنا فى التدبير ، وقيل ذو الحكمة : وهى عبارة عن كمال العلم وإحسان العمل . وقيل مبالغة فى الحاكم ( الجواد ) بتخفيف الواو : أى الواسع العطاء . وقيل : المتفضل بالنعم قبل استحقاقها ، المتكفل للأمم بأرزاقها . وقيل: الكثير الجود : أى العطاء .

وقد أخرج الترمذى فى جامعه حديثا مرفوعا ذكر فيه عن الرب سبحانه وتعالى أنه قال « وذلك أنى جواد ماجد » ويجمع على أجواد وأجاويد وجود كما ذكره الخطيب فى شرح المنهاج ( الكريم ) أى الذى لا تنقطع نعمه العظمى عمن التجأ إليه فى مهماته التى من جملتها تيسير مثل

الْعزِيزِ الرَّحِيمِ ، الَّذِى خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، وَفَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقُدْرَتِهِ وَدَبَّرَ الْأُمُورَ فِى الدَّارَيْنِ بِحِكْمَتِهِ ، وَمَا خَلَقَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِعِبَادَتِهِ . فَالطَّرِيقُ إِلَيْهِ وَاضِحٌ لِلْقَاصِدِينَ ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ لَائِحٌ لِلنَّاظِرِينَ ،

---

هذا الكتاب ، بل ولا عمن أعرض عن طاعته وشكره ، كما قاله العلامة ابن حجر فى شرح الأربعين . وقيل هو الذى يعطى من غير منة ، ومن كرمه تلقين الجواب حالة العتاب فى قوله تعالى «يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم» . ولا جواب له هنا سوى قوله : كرمك يارب (العزيز) أى الغالب على أمره ، فلا يمنعه شيء من إنجاز وعده ووعيده . وقيل : هو عديم المثل فيرجع إلى التنزيه ؛ والعزة فى الأصل : القوة والشدة والغلبة . تقول : عزّ يعز بالكسر : إذا صار عزيزا ، وعز يعز بالفتح : إذا اشتد ( الرحيم ) أى الرفيق بتعطف ، ذى الرحمة الكثيرة ( الذى خلق الإنسان ) أى جنسه ( فى أحسن تقويم ) أى تعديل لصورته ، لأنه تعالى خلق كل ذى روح مكبا على وجهه إلا الإنسان فإنه مديد القامة ، يتناول مأكوله بيده ، مزين بالعلم والفهم والعقل وغير ذلك ، فهو أحسن بحسب الظاهر والباطن ، وهذا مقتبس من قوله تعالى «لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم» ( وفطر السموات والأرض ) أي خلقهما بغير مثال ، وإنما جمع السماء لاختلافها بالآثار والحركات فى الحس وتباينها فى الجنس ، كما ورد فى كتاب المعراج ، للأستاذ القشيرى : إن السماء الأولى موج مكفوف : أى محبوس ، والثانية من نحاس ، والثالثة من الفضة ، والرابعة من الذهب ، والخامسة من الياقوت ، والسادسة من زمرذ ، والسابعة من نور ، وجمعها باعتبار كونها أفلاك الكواكب السبعة السيارة ، وقدمها لشرفها وعلوّ مكانها ، كذا نقله ابن الدابغى عن السعد فى حواشي الأربعين . قال النووي : والجمهور على تفضيل السماء على الأرض : أي ماعدا البقعة الشريفة النبوية ( بقدرته ) وإرادته ( ودبر الأمور ) أى أوجدها على وجه محكم متقن ، هذا معناه إن أضيف إلى الله كما هنا ، وإن أضيف إلى العبد فمعناه النظر فى عواقب الأمور ( فى الدارين ) أى فى الدنيا والآخرة ( بحكمته ) فلا يخلو شيء من المخلوقات عن الحكمة كما هو مذكور فى التنزيل ( وما خلق الجن والإنس إلا لعبادته ) أى إلا مهيئين ومستعدين لعبادته ، بأن خلق فيهم العقل والحواس والقدرة التى تتحصل بها العبادة ، وهذا لا ينافى تخلف العبادة بالفعل من بعضهم ؛ لأن هذا البعض وإن لم يعبد الله لكن فيه التهيؤ والاستعداد ، ولا يخفى أن هذا منتزع من قوله تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ولعل تقديم خلق الجن فى الذكر لتقدمه على خلق الإنس فى الوجود كما نقله بعض المفسرين ( فالطريق إليه ) أى إلى خدمته وطاعته ( واضح للقاصدين ، والدليل عليه ) أي على وحدانيته ( لائح ) أى ظاهر ( للناظرين ) بقلوبهم نظر اعتبار . قال الشاعر :

أيا عجبا كيف يعصي الإلـــه أم كيف يجحده جاحد

وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ . والصَّلَاةُ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ،

---

ولله في كل تحريكة وتسكينة أبدا شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

( ولكن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ) لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ( وهو أعلم ) أى عالم ، لأن المقدورات بالنسبة إلى قدرته تعالى لا تتفاوت ( بالمهتدين ) أى بمن هو أهل للهداية (والصلاة) أى الرحمة المقرونة بالتعظيم (على سيد المرسلين)أى أشرفهم وأفضلهم ؛ وإذا كان أشرف المرسلين الذين هم أفضل الخلق فهو أشرف من غيرهم بالأولى ، فهو صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق على الإطلاق ، وقد حكى الفخر الرازى الإجماع خلافا للزمخشرى فى تفسير كشافه حيث شذ بتفضيل جبريل عليه صلى الله عليه وسلم مستدلا بقوله تعالى « إنه لقول رسول كريم » الآية . حيث عدّ فيه فضائل جبريل فإنه وصف فيه بأنه رسول كريم إلى قوله « أمين » واقتصر على نفى الجنون عنه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالي « وما صاحبكم بمجنون » . وقد خرق فى ذلك الاجماع ولا دلالة فى الآية لما ادعاه ، لأن المقصود منها نفى قولهم « إنما يعلمه بشر » وقوله « أفترى على الله كذبا أم به جنة » وليس المقصود المفاضلة بينهما ، وإنما هو شىء اقتضاه الحال ، ولا عبرة بما قد يتوهم من تفضيل جبريل عليه لكونه كان يعلمه صلى الله عليه وسلم ، فكم من معلم بالفتح أفضل من معلم بالكسر ؛ على أنه قد ذكر الشيخ ابن العربى فى الفتوحات أن القرآن أنزل عليه صلى الله عليه وسلم قبل نزول جبريل به عليه ، لكن قال الشعرانى بعد أن نقل ذلك عنه : وفيه نظر ، ولم أطلع على ذلك فى حديث والله أعلم . قال بعضهم : ولولا أنه تاب لكان حقيقا بالعذاب ، وما ورد من النهى عن تفضيله صلى الله عليه وسلم كقوله « لاتفضلونى عن الأنبياء » وقوله « لاتفضلونى على يونس ابن متى » . وقوله « لاتخيرونى على موسى » ونحو ذلك فمحمول على تفضيل يؤدى إلى تنقيص غيره من الأنبياء ، أو أنه قاله قبل أن يعلم أنه أفضل ، ويحتمل أنه قاله تأدبا وتواضعا . وقيل معنى «لاتفضلونى على يونس بن متى » لاتعتقدوا أنى أقرب إلى الله من يونس فى الحس حيث ناجيت الله فوق السموات السبع وهو ناجى ربه فى بطن الحوت فى قاع البحر لتنزهه تعالى عن الجهة والمكان ، فيستوى فى حقه من فوق السموات ومن فى قاع البحار ، وعدم التفضيل بهذا الاعتبار لاينافى أنه صلى الله عليه وسلم أفضل الجميع ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « أنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر أعظم من ذلك » أو ولا أقول فخرا ، بل تحدثا بالنعمة ، كذا فى تحفة المريد . قال بعضهم : وتفضيله صلى الله عليه وسلم ليس لمزيه زائدة فيه على غيره ، وإنما ذلك من الله تعالى ، إذ للسيد أن يفضل من عبيده من شاء على من شاء : أى ففضله ذاتى لا كسبى كما قاله عبد الكريم الدمياطى .

وَعَلَى آلِهِ الأَبْرَارِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ ، وَسَلِّمْ وَعَظِّمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

واعلم أن النبي ينتفع بصلاتنا عليه ، لكن لا ينبغي للمصلى أن يقصد ذلك ، وإنما يقصد نفع نفسه كما يزداد نفعه بتكرر العمل بالأحكام الشرعية الواردة عنه ، وكذلك الشيخ إذا علم إنسانا حكما فصار يعمل به ويعلمه للناس فإنه يزداد نفعه بتكرر العمل به كما قاله القطب الدسوقى وغيره .

﴿ فائدة ﴾ هل تجوز قراءة الفاتحة للنبي صلي الله عليه وسلم أولا ؟ قال الأجهورى : لانص فى هذه المسئلة عندنا : أى معاشر المالكية ، والمعتمد عند الشافعية جواز ذلك فنرجع لمذهبهم فلا يحرم عندنا والكامل يقبل زيادة الكمال قاله الشيخ أحمد بن تركى فى حاشية الخرشى ( وعلي آله ) أى أتباعه ، إذ هى أحد معنى الآل فى مقام الدعاء فلا يرد على المصنف إهمال الصلاة على الأصحاب مع استحبابها عليهم كالآل ، بل فيه إيهام حسن لايخفي على أرباب الكمال ، وهو المسمى بالتورية أيضا فى الاصطلاح ، وهو أن يكون للفظ معنيان : قريب ، وبعيد ، فيراد البعيد لقرينة خفية ، فالمعنى القريب المتبادر من آل النبي صلى الله عليه وسلم أهل بيته ، والمعنى البعيد بالنسبة إليه الأتباع ، والقرينة على إرادته قيل مقام الدعاء ، وقيل حال المصنف فإنها تقتضى أنه لم يهمل الأصحاب وأنه أراد بالآل مايعمهم فيكون إيهاما ، والمراد بكون هذا الإيهام الموجود هنا حسنا أنه زائد فى الحسن ، وإلا فكل إيهام حسن لأنه من المحسنات البديعية كما أفاده الصبان فى حواشيه على شرح العصام ( الأبرار ) جمع بارّ كما فى القاموس : وهو الكثيرالبر كالصلة والإحسان ، أفاده الجرهزى فىخريدته . والبر بالكسر : اسمجامع للخير والصدق . وقال الحسن : هم الذين لايؤذون الذر ولا يرضون الشر ( الطيبين ) أى الخالصين من شوائب الكدورات ( الطاهرين ) أى الخالصين من النقائص الحسية والمعنوية ( وسلم ) أى سلمه الله من النقائص ، وهو إما من التسليم وهى زيادة التحية والاكرام ، أو من السلامة وهى بمعنى السلامة من النقائص بمعنى لازمها وهو طلب الكمال بمعنى زيادته ، لأن الكامل يقبل الكمال زيادة على كماله ، أو السلام بمعنى الأمان : أى أمان الله عليه . فإن قلت تفسير السلام بالأمان يقتضي حصول الخوف له صلى الله عليه وسلم مع أن الجنة لم تخلق إلا لأجله ، بل الأشياء كلها لم تخلق إلا لأجله صلي الله عليه وسلم . فالجواب أن خوفه خوف إجلال وتعظيم لاخوف عقاب ، ذكره العلامة يوسف فى حاشية العشماوية ( وعظم ) أى عظمه عليه الصلاة والسلام فى الدنيا باعلاء ذكره إظهار دعوته وإبقاء شريعته ، وفى الآخرة بشفاعته فى أمته وغير ذلك ( إلى يوم الدين ) أى والصلاة وما بعدها كائنة إلى يوم الدين ، والغرض من ذلك التعميم فى جميع الأوقات على طريق الكناية كما هو عادة العرب كما جرى عليه الأخضرى . والدين يطلق فى اللغة على معان كثيرة المناسب منها هنا الجزاء : أى إلى يوم الجزاء وهو يوم القيامة . والجزاء إيصال مايليق بكل عامل إليه وفى الاصطلاح المسائل التى أتى بها النبي صلي الله عليه وسلم ، وأموره : أى علاماته الدالة على وجوده فى الشخص أربعة : صدق القصد : أى أداء العبادة بالنية والاخلاص ، والوفاء بالعهد : أى الإتيان بالواجبات ، وترك

أَعْلَمُوا إِخْوَانِى أَسْعَدَكُمُ اللهُ وَإِيَّاىَ بِمَرْضَاتِهِ أَنَّ الْعِبَادَةَ ثَمَرَةُ الْعِلْمِ وَفَائِدَةُ الْعُمْرِ وَحَاصِلُ الْعَبِيدِ الْأَقْوِيَاءِ وَبِضَاعَةُ الْأَوْلِيَاءِ

---

المنهى : أى اجتناب الحرام ، وصحة العقد : أى جزمه بما عليه أهل السنة من التوحيد ، كذا ذكره الحجازى ( اعلموا ) نزل المصنف رحمه الله تعالى لفظة اعلم المسند لضمير الجمع منزلة « أما بعد » فى الدلالة على الشروع فى المقصود لنكتة حسنة ، وهى التنبيه على أن غير العلم لا يطلبه العاقل ولا يرضاه سببا : أى حرفة وصنعة ، لأن فى الأشتغال بالعلم مع الإخلاص سعادة الدارين خصوصا العلم الموصل إلى معرفة الله تعالى ، وبهذا يجاب عن الاعتراض على المصنف فى مخالفته لغيره فى تعبيره بذلك دون أما بعد ، وحاصل ذلك الاعتراض أن الاتباع خير من الابتداع . فحاصل الجواب أن ذلك الابتداع للنكتة المذكورة فتأمل ( إخوانى ) أى يا إخوانى فهو نداء تعطف وشفقة ليكون أدعى إلى الامتثال والقبول . قال الله تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » والإخوان بكسر الهمزة على الأشهر وضمها لغة ضعيفة جمع أخ ، والأخ يطلق على من شاركك فى رحم أو فى صلب أو فيهما معا أو فى رضاع ، ويطلق على من شاركك فى صفة حميدة كالإسلام ، وهو المراد هنا وأكثر ما يجمع أخ على إخوان فى الصدقة ، وفى النسب على إخوة ؛ وقد يجمع أخ على إخوة فى الصداقة ، ومنه قوله تعالى « إنما المؤمنون إخوة » قاله العلامة يوسف فى حواشى العشماوية ( أسعدكم الله ) أى أعطاكم الله السعادة ( وإياى بمرضاته ) جملة دعائية ( أن العبادة ) وهى القيام بالفعل المطلوب شرعا ( ثمرة العلم ) الذى هو الأصل الأعظم فى كل مقام من مقامات الإيمان ، ولولاه لم تكن عبادة ( وفائدة العمر ) النفيس ، وبهذا يعلم أن العمر الخالى عن العبادة لا ينال فائدة ولا نفعا ، بل الخسران مآله ومرجعه وهو ظاهر (وحاصل العبيد) أى ما يحصل لهم من اجتهادهم فى طلبها وهو بمعنى العباد جمع عابد من العبادة بمعنى الخدمة والطاعة إلا أنه أبلغ كما ذكره الفاسى ( الأقوياء ) جمع قوىّ ضد الضعيف : وهم من بذلوا نفوسهم فى الطاعة يبتغون فضلا من الله تعالى (وبضاعة الأولياء) والبضاعة فى الأصل : قطعة وافرة من المال تقتنى للتجارة . قاله العلامة الزبيدى . والأولياء جمع ولىّ : وهو العارف بالله وصفاته حسبما يمكن المواظب على الطاعات ، المجتنب المعاصى ، والمعرض عن الانهماك فى اللذات والشهوات كما قاله العلامة ابن الدابغى نقلا عن السعد ، ففعيل بمعنى فاعل ؛ وعلم منه أن تعاطى الشهوات لا ينافى الولاية ، أو من تولى الله أمره فلم يكله لنفسه ، ففعيل بمعنى مفعول . قال الأستاذ أبو القاسم : الولى له معنيان : أحدهما فعيل بمعنى مفعول ، وهو من يتولى الله سبحانه أمره . قال الله تعالى « وهو يتولى الصالحين » فلا يكله إلى نفسه لحظة ، بل يتولى الحق سبحانه رعايته ، والثانى فعيل مبالغة من الفاعل ، وهو الذى يتولى عبادة الله تعالى وطاعته ، فعبادته تجرى على التوالى من غير أن يتخللها عصيان ، وكلا الوصفين واجب حتى يكون الولى وليا يجب قيامه بحقوق الله تعالى على

الاستقصاء والاستيفاء ، ودوام حفظ الله تعالى إياه فى السراء والضراء ، ومن شرط الولىّ أن يكون محفوظا كما أن من شرط النبي أن يكون معصوما ، فكل من كان للشرع عليه اعتراض فهو مغرور مخدوع ، قال سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق يقول : قصد أبو يزيد البسطامي بعض من وصف بالولاية فلما وافى مسجده قعد ينتظر خروجه ، فخرج الرجل وتنخم فى المسجد فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه . وقال : هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب الشريعة ، فكيف يكون أمينا على أسرار الحق التي وهبها لأوليائه . قال شيخ الإسلام : والغرض من ذلك تحذير الناس من الاغترار بجمال الأفعال وحسن المقال ، وجريان خوارق العادات ، وانتشار الثناء ، وشيوع الذكر فى الخلق من غير استقامة ؛ فلا يراعى فى الولىّ إلا الاستقامة على ما ثبت بالأدلة الصحيحة وجريان خوارق العادة على يد العبد لا يدل على ولايته ، بل قد يكون ممكورا به وكذابا على ربه ، ويكفى فى ذلك دليلا خروج الدجال فى آخر الزمان ومعه جنة ونار ويحي ويميت ، وهو عدوّ الرحمن . قال الأستاذ أبو القاسم : واختلفوا فى أن الولىّ هل يجوز أن يعلم أنه ولىّ أم لا ؟ فمنهم من قال لا يجوز ذلك ، وقال إن الولىّ يلاحظ نفسه بعين التصغير ، وإن ظهر عليه شىء من الكرامات خاف أن يكون مكرا ، وهو يستشعر الخوف دائما أبدا ، وإنما يخاف سقوطه عما هو فيه وأن تكون عاقبته بخلاف حاله ، وهؤلاء يجعلون من شرط الولاية وفاء المآل ، وقد ورد فى هذا الباب حكايات كثيرة عن الشيوخ ، وإليه ذهب من شيوخ هذه الطائفة جماعة لا يحصون ، ولو اشتغلنا بذكر ما قالوا لخرجنا عن حد الاختصار ، ومنهم من قال يجوز أن يعلم الولىّ أنه ولىّ ، وليس من شرط الولاية فى الحال الوفاء فى المآل ؛ ثم إن كان ذلك من شرطه أيضا فيجوز أن يكون هذا الولىّ خص بكرامة هى تعريف الحق إياه أنه مأمون العاقبة ، إذ القول بجواز كرامات الأولياء واجب ، وهو وإن فارقه خوف العاقبة فما هو عليه من الهيبة والتعظيم والإجلال فى الحال أتم وأشد . فإن اليسير من التعظيم والهيبة أهدى للقلوب من كثير من الخوف ، ولما قال صلى الله عليه وسلم « عشرة في الجنة من أصحابه » فالعشرة لا محالة صدقوا الرسول صلى الله عليه وسلم وعرفوا سلامة عاقبتهم ثم لم يقدح ذلك فى حالهم ، ولأن من شرط صحة المعرفة بالنبوة الوقوف على حد المعجزة ، ويدخل فى جملته العلم بحقيقة الكرامات ، فإذا رأى الكرامات ظاهرة عليه لا يمكنه أن لا يميز بينها وبين غيرها ، فإذا رأى شيئا من ذلك علم أنه في الحال على الحق ؛ ثم يجوز أنه يعرف أنه فى المآل يبقى على هذه الحالة ويكون هذا التعريف كرامة له ، والقول بكرامات الأولياء صحيح وكثير من حكايات القوم تدل على ذلك كما هو مبسوط في محله ، وإلى هذا القول كان يذهب من الشيوخ الأستاذ أبو على الدقاق رحمه الله تعالى . وقيل : إن إبراهيم بن أدهم قال لرجل أتحب أن تكون لله وليا ؟ فقال نعم ، فقال لا ترغب فى شيء من الدنيا والآخرة ، وفرّغ نفسك لله تعالى وأقبل بوجهك عليه ليقبل عليك ويواليك . وقال يحي بن معاذ فى صفة الأولياء :

هم عباد تسربلوا بالأنس بعد المكابدة ، واعتنقوا الروح بعد المجاهدة بوصولهم إلى مقام الولاية . قال الأستاذ أبوالقاسم : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى، يقول: سمعت منصور بن عبد الله ، يقول: سمعت عمى البسطامي يقول : سمعت أبى يقول : سمعت أبا يزيد يقول : أولياء الله عرائس الله تعالى ولا يرى العرائس إلا المحرمون فهم مخدرون عنده فى حجاب الأنس لا يراهم أحد فى الدنيا ولا فى الآخرة ، قال : سمعت أبا بكر الصيدلانى وكان رجلا صالحا قال : كنت أصلح اللوح في قبر أبى بكر الطمستانى أنقر فيه اسمه فى مقبرة الحيرة كثيرا ؛ وكان يقام ذلك اللوح ، ويسرق ولم يقلع من غيره من القبور فكنت أتعجب منه فسألت الأستاذ أبا علىّ الدقاق رحمه الله يوما عن ذلك فقال إن ذلك الشيخ آثر الخفاء في الدنيا ، وأنت تريد أن تشهر قبره باللوح الذى تصلحه فيه ، وأن الحق سبحانه يأبى إلا إخفاء قبره كما آثر هو ستر نفسه . وقال أبو عثمان المغربى الولىّ قد يكون مشهورا ولكن لا يكون مفتونا بأن تكون شهرته بركة عليه وعلى غيره بأن لا تشغله عن ربه فيسعد بها وتضاعف أعماله بكثرة من يقتدى به ، بخلاف من أشغلته شهرته عن ربه فإنه يكون مفتونا بها ، وكان النصراباذى يقول : ليس للأولياء فى أغلب أحوالهم سؤال بألسنتهم ، إنما هو : أى سؤالهم فى بواطنهم الذبول والخمول والتذلل تحت جريان المقادير والرضى بما يجريه الحق عليهم فأ كثر أعمالهم بقلوبهم لأنها محل نظر ربهم ، ولأن أعمالها أشد من أعمال الجوارح ، وكان أيضا يقول : نهايات الأولياء بدايات الأنبياء . وقال سهل بن عبد الله : الولىّ الذى توالت أفعاله على الموافقة وقال يحي بن معاذ : الولىّ لا يرائى ولا ينافق ، وما أقلّ صديق من كان هذا حاله . وقال أبو على الجوزجانى : الولىّ هو الفانى فى حاله ، الباقى فى مشاهدة الحق سبحانه تولى الله سياسته فتوالت عليه أنوار التولى لم يكن له عن نفسه أخبار ، ولا مع غير الله قرار . وقال أبو يزيد : حظوظ الأولياء مع تباينها من أربعة أسماء ، وقيام كل فريق منهم باسم منها وهو الأول والآخر والظاهر والباطن ، فمتى فنى عنها بعد ملابستها فهو الكامل التام ، فمن كان حظه من اسمه الظاهر لاحظ عجائب قدرته ، ومن كان حظه من اسمه الباطن لاحظ ما جرى فى السرائر من أنواره ، ومن كان حظه من اسمه الأول كان شغله بما سبق ، ومن كان حظه من اسمه الآخر كان مرتبطا بما يستقبله ، وكلّ كوشف على قدر طاقته إلا من تولاه الحق سبحانه ببره ، وقام عنه بنفسه ، وهذا الذى قاله أبو يزيد يشير إلى أن الخواصّ من عباده ارتقوا عن هذه الأقسام فلا العواقب هم فى ذكرها ، ولا السوابق هم فى فكرها ، ولا الطوارق هم فى أسرها ، وكذا أصحاب الحقائق يكونون محوا عن نعوت الخلائق . قال الله تعالى « وتحسبهم أيقاظا وهم رقود » وقال يحي بن معاذ : الولىّ ريحان الله تعالى فى الأرض يشمه الصديقون فتصل رائحته إلى قلوبهم فيشتاقون به إلى مولاهم ويزدادون عبادة على تفاوت أحوالهم ، وسئل الواسطى كيف يغذي الوليّ فى ولايته ، فقال فى بدايته بعبادته وفى كهولته بستره بلطافته ثم يجذبه إلي ما سبق له من نعوته وصفاته ، ثم يذيقه طعم قيامه به فى أوقاته . وقيل علامة الولى ثلاثة : شغله بالله تعالى

وَطَرِيقُ الْأَتْقِيَاءِ وَقِسْمَةُ الْأَعِزَّةِ وَمَقْصِدُ ذَوِى الْهِمَّةِ وَشِعَارُ الْكِرَامِ ، وَحِرْفَةُ الرِّجَالِ وَاخْتِيَارُ أُولِى الْأَبْصَارِ وَهِيَ سَبِيلُ السَّعَادَةِ وَمِنْهَاجُ الْجَنَّةِ

---

وفراره إلى الله تعالى وهمه إلى الله عز وجل . قال الخراز : إذا أراد الله تعالى أن يوالى عبدا من عبيده فتح عليه باب ذكره ، فإذا استلذ الذكر فتح عليه باب القرب ثم رفعه إلى مجالس الأنس به ثم أجلسه على كرسى التوحيد ثم رفع عنه الحجب وأدخله دار الفردانية وكشف له عن الجلال والعظمة ، فاذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقى بلا هو ، فحينئذ صار العبد زمنا فانيا فوقع فى حفظه سبحانه وبرئ من دعاوى نفسه .وقال أبو تراب النخشبي : إذا ألف القلب الإعراض عن الله تعالى صحبته الوقيعة فى أولياء الله تعالى ، ويقال صفة الولي أن لا يكون له خوف لأن الخوف ترقب مكروه يحل فى المستقبل أو انتظار محبوب يفوت فى المستأنف والولى ابن وقته ليس له مستقبل فيخاف شيئا وكما لاخوف له لا رجاء له ، لأن الرجاء انتظار محبوب يحصل أو مكروه يكشف وذلك فى الثانى من الوقت ، وكذلك لا حزن له ؟ ، لأن الحزن من حزونة الوقت ، ومن كان فى ضياء الرضى وبرد الموافقة فأنى يكون له حزن ؟. قال الله تعالى « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ( وطريق الأتقياء ) أي المؤمنين الموصوفين بالتقوى ( وقسمة الأعزة ) جمع عزيز ويجمع أيضا على عزائز وعلى أعزاء ويطلق العزيز على معان ، منها أنه الذى لا مثل له فى عصره وهو المناسب هنا كما قيل ( ومقصد ذوى الهمة ) العلية والهمة قوة راسخة في النفس طالبة لمعالى الأمور كما أفادة الزبيدى ( وشعار الكرام ) أى علامتهم ، جمع كريم ، وهو الجامع لأنواع الشرف وأوصاف الكمال أو هو المتصف بصفة تصدر عنها الأمور كالإعطاء ونحوه بسهولة أو هو شريف الأصل أو هو المفضل على غيره بحكم من الله كما نقله بعضهم عن الفاسى فى شرح الدلائل ، ومطلق الكريم في اللغة ضد اللئيم كما يؤخذ من المختار ( وحرفة الرجال ) الأعلام : أى صناعتهم ومعاملتهم ( واختيار أولى الأبصار ) أى أصحاب الأبصار والبصائر (وهى ) أى العبادة (سبيل السعادة) الأبدية فى الدار الآخرة ، وهى الموت على الإيمان ، ويترتب عليها الخلود في الجنة : قال الله تعالى « وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها » كما قاله الشمس الرملي في غاية البيان ( ومنهاج الجنة ) أى طريقها الموصلة إليها . قال القشيرى في الرسالة : سمعت أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول : العبودية أتم من العبادة فأولا عبادة ، ثم عبودية ، ثم عبودة ، فالعبادة للعوام من المؤمنين ، والعبودية للخواص ، والعبودة لخاص الخاص اه . قال شيخ الاسلام زكريا وكونها لخاص الخاص لكمال معرفته بربه حيث أتى بما طلب منه ، ورأى نفسه محلا لجريان قضاء الله فيه ولتوفيقه له في فعل ما طلب منه فقلبه أقرب إلى مقام الجمع ، وهو إفراد الحق بالفعل من الثانى ، لأن الثانى شاهد لنفسه كسبا واختيارا وإن كان مفتقرا لعون ربه فيما يختاره ، والأول أقرب إلى مقام التفرقة لكونه يرى نفسه عابدا محسنا مطيعا ويطلب الجزاء على عمله : وقال أيضا العبودية : هى التبرى

قالَ اللهُ تعالَى : وَأنَا رَبُّكُمْ فاعْبُدُونِ . وقالَ تعالَى : إنَّ هٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا . ثُمَّ إنَّا نَظَرْنَا فيهَا وَتَأمَّلْنَا طَرِيقَهَا مِنْ مَبادِيهَا إلى مَقاصِدِهَا الَّتِي هِيَ أَمَانِي سَالِكِيهَا ، فَإذَا هِيَ طَرِيقٌ وَعْرٌ وَسَبِيلٌ صَعْبٌ كَثِيرَةُ الْعَقَبَاتِ ، شَدِيدَةُ الْمَشَقَّاتِ بَعِيدَةُ المَسَافَاتِ ، عَظِيمَةُ الآفَاتِ كَثِيرَةُ الْعَوَائِقِ وَالْمَوَانِعِ ، حَفِيفَةُ المَهالِكِ وَالمَقاطِعِ غَزِيرَةُ الْأَعْدَاءِ وَالْقُطَّاعِ ، عَزِيزَةُ الْأَشْيَاعِ وَالْأَتْبَاعِ ، وَهٰكَذَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ لِأَنَّهَا طَرِيقُ الْجَنَّةِ فَيَصِيرُ هٰذَا تَصْدِيقاً لِمَا قَالَهُ صلى اللهُ عليه وسلم : أَلاَ وَإنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ ، وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ .

---

من الحول والقوة في عبادته وأصلها العبادة ، وبهذا علم أن كلام المصنف رحمه الله يشمل العبودية فليتأمل ( قال الله تعالى : وأنا ربكم فاعبدون ) وقال عز من قائل « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » ( وقال تعالى إن هذا ) أى نعيم الجنة (كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا ) أى مرضيا مقبولا مقابلا بالثواب كما نقله الجمل عن الكرخى ( ثم إنا نظرنا فيها ) أى العبادة ( وتأملنا طريقها من مباديها ) أى من أوائلها ( إلى مقاصدها ) وهى سعادة القرب من الرب عز وجل (التى هى أمانى سالكيها ) أى مطالبهم . والأماني جمع أمنية بتشديد الياء فيهما وتخفيفها فيهما ، وهو في الأصل ما يقدّر الانسان في نفسه ، من منى إذا قدر ، ولذلك تطاق على الكذب ، وعلى مايتمنى وما يقرأ وما يطلب كما قاله السمين ( فاذا هى طريق وعر ) أى صعب على السالك ( وسبيل صعب ) أى عسير في المدارك ( كثيرة العقبات ) وهى فى الأصل الثنايا بين الجبال ( شديدة المشقات بعيدة المسافات عظيمة الآفات كثيرة العوائق ) أى الشواغل عن العبادة . قال فى القاموس : عوائق الدهر : الشواغل من أحداثه ( والموانع ) عطف تفسير ( حفيفة المهالك والمقاطع ) أى محفوفة بهما ( غزيرة الأعداء ) ومعنى الغزارة الكثرة ( والقطاع ) وهم الذين يخيفون المارة بالإضرار والإتلاف ( عزيزة الأشياع ) أى قليلة الأتباع جدا . وفى المختار : وشيعة الرجل أتباعه وأنصاره ، وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأى بعض فهم شيع . وقوله تعالى « كما فعل بأشياعهم » أى بأمثالهم . قال القرطبي : والأشياع جمع شيع ، وشيع جمع شيعة ، فالأشياع جمع الجمع (والأتباع) عطف تفسير وهو بفتح الهمزة جمع تبع كسبب وأسباب ، ولا يخفى أن بين الغزيرة والعزيزة وبين الأشياع والأتباع جناس مصحف ، وهو اختلاف الحروف فى النقط ، ومثله حديث الصحيحين « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » ( وهكذا يجب ) أى يحق (أن تكون ) أى توجد تلك العبادة ( لأنها طريق الجنة فيصير هذا ) أى كون طريق العبادة على الصفات المذكورة من الوعر وغيره ( تصديقا لما قاله صلى الله عليه وسلم : ألا ) بفتح الهمزة والتخفيف حرف افتتاح معناه التنبيه ( وإن الجنة حفت ) بضم الحاء ، أى أحيطت ( بالمكاره وإن النار حفت بالشهوات )

وَقَالَ صلى ٱللهُ عليه وسلم : أَلاَ وَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ حَزْنٌ بِرُبْوَةٍ أَلاَ وَإِنَّ ٱلنَّارَ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ

هكذا رواه مسلم حفت ووقع للبخارى حفت ووقع فيه أيضا حجبت وكلاهما صحيح ومعناه لا يوصل إلى الجنة إلا بارتكاب المكاره ، والنار إلا بارتكاب الشهوات ، وكذلك هما محجوبتان بهما ، فمن هتك الحجاب وصل إلى المحجوب ، فهتك حجاب الجنة : اقتحام المكاره ، وهتك حجاب النار بارتكاب الشهوات . قال القرطبى فى التذكرة قال العلماء : والمكاره كل ما يشق على النفس فعله ويصعب عليها عمله كالطهارة فى شدة البرد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والصبر على ما يقاسيه من أهل المنكر ، والصبر على المصائب وجميع المكروهات اه فيدخل فيها الاجتهاد فى العبادة والمواظبة عليها ، والصبر على مشقاتها ، وكظم الغيظ ، والحلم ، والصدقة ، والاحسان إلى المسىء والصبر عن الشهوات ، كذا قاله النووى ، وأطلق عليها مكاره لمشقتها على العامل وصعوبتها عليه قاله القسطلانى ، وأما الشهوات التى النار محفوفة بها ، فالظاهر أنها الشهوات المحرمة كالخمر والزنا والنظر إلى الأجنبية والغيبة واستعمال الملاهى ونحو ذلك ، وأما الشهوات المباحة فلا تدخل في هذه ، لكن يكره الإكثار منها مخافة أن يجره إلى المحرمة أو يقسى القلب أو يشغل عن الطاعات أو يحوج إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا للصرف فيها ونحو ذلك كما قاله في شرح مسلم وأصل الحفاف هو الدائر بالشىء المحيط به الذى لا يتوصل إليه إلا بعد أن يتخطى ، وأما معنى الشهوات فهو كل ما يوافق هوى النفس ويلائمها وتدعو إليه ويوافقها كترك الطهارة عند النوم في البرد وترك التورّع فى المأكل والمنطق ونحوه ، كذا ذكره القرطبى ، وهذا الحديث من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم وبديع بلاغته في ذم الشهوات وإن مالت إليها النفوس والحضّ على الطاعات وإن كرهتها النفوس وشقت عليها ، وفي رواية للترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لما خلق الله الجنة أرسل جبريل إلى الجنة فقال : انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : فجاء جبريل عليه السلام ونظر إليها وإلى ما أعده الله تعالى لأهلها فيها قال : فيرجع إليه ، فقال فوعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، فأمر بها فحفت بالمكاره ، وقال : ارجع إليها فانظر ما أعددت لأهلها فيها ، قال فرجع إليها فإذا هى قد حفت بالمكاره فرجع إليه سبحانه وتعالى وقال فوعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد ، ثم قال له اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فإذا هى يركب بعضها بعضا ، فرجع إليه فقال : فوعزتك لقد خفت أن لا يسمع بها أحد فيدخلها فأمر بها فحفت بالشهوات ، فقال ارجع إليها فرجع إليها فقال : وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها . ( وقال صلى الله عليه وسلم ألا وإن الجنة ) أى إن عملها الذى يوصل إليها كما في الجامع الصغير ( حزن ) أى صعب شاق على النفس ( بربوة ) بضم الراء أفصح من فتحها وكسرها : أى بمكان مرتفع فلا يصله الشخص إلا بمشقة كما في الخبر السابق «حفت الجنة بالمكاره» ( ألا وإن النار ) أى إن عمل النار الموصل إليها ( سهل ) أى على النفس لموافقته لشهواتها ( بسهوة ) بسين مهملة ، أى بأرض لينة ، قال في النهاية : السهوة : الأرض اللينة التربة ، شبه المعصية في

سهولتها على مرتكبها بالأرض السهلة التي لا خشونة فيها ، وهذا بعض حديث طويل رواه ابن سعد في الطبقات والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي البجير ، وذكره السيوطي في الجامع الصغير بطوله وضعفه .

( فائدة ) قد رخص في سوق الحديث بالمعنى دون سياقه على اللفظ جماعة منهم : على ، وابن عباس ، وأنس بن مالك ، وأبو الدرداء ، وواثلة بن الأسقع ، وأبو هريرة رضى الله عنهم ، ثم جماعة من التابعين يكثر عددهم : منهم إمام الأئمة الحسن البصرى ثم الشعبي وعمرو بن دينار وإبراهيم النخعي ومجاهد وعكرمة ، نقل ذلك عنهم في كتب سيرهم بأخبار مختلفة الألفاظ . وقال ابن سيرين : كنت أسمع الحديث من عشرة ، المعنى واحد والألفاظ مختلفة ، وكذلك اختلفت ألفاظ الصحابة في رواية الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمنهم من يرويه تاما ، ومنهم من يأتى بالمعنى ، ومنهم من يورده مختصرا ، وبعضهم يغاير بين اللفظين ويراه واسعا إذا لم يخالف المعنى وكلهم لا يتعمد الكذب وجميعهم يقصد الصدق ومعنى ما سمع ، فلذلك وسعهم وكانوا يقولون إنما الكذب على من تعمده ، وقد روى عن عمران بن مسلم قال : قال رجل للحسن يا أبا سعيد إنك تحدث بالحديث أنت أحسن له سياقا وأجود تحبيرا وأفصح به لسانا منه إذا حدثنا به ، فقال إذا أصبت المعنى فلا بأس بذلك ، وقد قال النضر بن شميل : كان هشيم لحانا فكسوت لكم حديثا كسوة حسنة ، يعنى بالإعراب ، وكان النضر نحويا ، وكان سفيان يقول : إذا رأيتم الرجل يشدد في ألفاظ الحديث في المجلس فاعلم أنه يقول : اعرفونى ، قال وجعل رجل يسأل يحيى بن سعيد القطان عن حرف في الحديث على لفظه ، فقال له يحيى : يا هذا ليس في الدنيا أجلّ من كتاب الله قد رخص للقراءة فيه بالكلمة على سبعة أحرف فلا تشدد ، وفي شرح التقريب للحافظ السيوطى فى النوع السادس والعشرين في الفرع الرابع منه مانصه مع بعض اختصار : إن لم يكن الراوى عالما بالألفاظ خبيرا بما يحيل معانيها لم تجزله الرواية لما سمعه بالمعنى بلا خلاف ، بل يتعين اللفظ الذى سمعه ، فإن كان عالما بذلك ، فقالت طائفة من أهل الحديث والفقه والأصول لا يجوز إلا بلفظه ، وإليه ذهب ابن سيرين وثعلب وأبو بكر الرازى من الحنفية ، وروى عن ابن عمرو قال جمهور السلف والخلف من الطوائف ، منهم الأئمة الأربعة : يجوز بالمعنى في جميع ذلك إذا قطع بأداء المعنى لأن ذلك هو الذى يشهد به أحوال الصحابة والسلف ، ويدل عليه روايتهم اللفظة الواحدة بألفاظ مختلفة ، وقد ورد في المسئلة حديث مرفوع رواه ابن منده في معرفة الصحابة والطبرانى في الكبير من حديث عبد الله بن سليمان بن أكثم الليثى قال : قلت يارسول الله إنى إذا سمعت منك الحديث لا أستطيع أن أرويه كما أسمع منك يزيد حرفا أو ينقص حرفا ، فقال إذا لم تحلوا حراما ولم تحرموا حلالا وأصبتم المعنى فلا بأس ، فذكر ذلك للحسن ، فقال لولا هذا ما حدثنا ، وقد استدل الشافعى لذلك بحديث « أنزل القرآن على سبعة أحرف » : وروى البيهقى عن مكحول قال : دخلت أنا

ثُمَّ مَعَ ذٰلِكَ كُلِّهِ فَإِنَّ الْعَبْدَ ضَعِيفٌ، وَالزَّمَانُ صَعْبٌ، وَأَمْرُ الدِّينِ مُتَرَاجِعٌ

---

وأبو الأزهر على واثلة بن الأسقع ، فقلنا له حدثنا بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس فيه وهم ولا تزيد ولا نسيان ، فقال هل قرأ أحد منكم من القرآن شيئا ؟ فقلنا نعم وما نحن له بحافظين جدا إنا لنزيد الواو والألف وننقص ، قال فهذا القرآن مكتوب بين أظهركم لا تألونه حفظا ، وإنكم تزعمون أنكم تزيدون وتنقصون ، فكيف بأحاديث سمعناها من رسول الله صلى الله عليه وسلم عسى أن لا يكون سمعنا لها منه إلا مرة واحدة ، حسبكم إذا حدثناكم بالحديث على المعنى ، وأسند أيضا في المدخل عن جابر بن عبد الله قال : قال حذيفة إنا قوم عرب نورد الحديث فنقدم ونؤخر ، وأسند أيضا عن شعيب بن الحبحاب قال : دخلت أنا وعبدان على الحسن فقلنا : يا أبا سعيد الرجل يحدث بالحديث فيزيد فيه أو ينقص منه قال : إنما الكذب من تعمد ذلك ، وأسند أيضا عن جرير بن حازم قال : سمعت الحسن يحدث بأحاديث ، الأصل واحد والكلام مختلف ، وأسند عن ابن عون قال كان الحسن وإبراهيم والشعبي يأتون بالحديث على المعانى ، وأسند عن أويس قال : سألنا الزهرى عن التقديم والتأخير في الحديث فقال :هذا يجوز فى القرآن فكيف به فى الحديث ، وإذا أصيب معنى الحديث فلم يحل به حراما ولم يحرم به حلالا فلا بأس ، ونقل ذلك سفيان عن عمرو بن دينار وأسند عن وكيع . قال : إن لم يكن المعنى واسعا فقد هلك الناس ، انتهى ماتعلق الغرض به ، وقوله فى سياقه : منهم الأئمة الأربعة ، أى أئمة المذاهب ، والمشهور عن الامام الأعظم أبى حنيفة رحمه الله تعالى عند الأصحاب أنه لايجوز نقل الحديث إلا باللفظ دون المعنى ، قالوا وبهذا الاعتبار قلت روايته للحديث ، ورويناعن الامام أبى جعفر الطحاوى أنه قال : حدثنا سليمان بن شعيب ، حدثنا أبى قال : أملى علينا أبو يوسف قال قال أبو حنيفة رحمه الله : لاينبغى للرجل أن يحدث من الحديث إلا بما حفظه من يوم سمعه إلى يوم يحدث به ، وهكذا ذكره الحافظ الذهبي فى ترجمة الامام من تاريخه عن أبى يوسف عنه فافهمه فان اطلاقه فى العبارة ربما يوهم ماذكرناه ، وإليه ذهب القاضى عياض من المالكية حيث قال فيما نقله السيوطى فى شرح الكتاب المذكور : ينبغى سد باب الرواية بالمعنى لئلا يتسلط من لايحسن ممن يظن أنه يحسن كما وقع للرواة قديما وحديثا ، وعلى الجواز الأولى إيراد الحديث بلفظه دون التصرف فيه ، كذا ذكره فى الإتحاف . قال المصنف رحمه الله (ثم مع ذلك) أى الذى ذكرناه (كله فان العبد ضعيف والزمان صعب) بسبب مايقع فيه من المصائب والمحرمات ، لأن الزمان نفسه صعب ، واختلف فى الزمان فقيل إنه حركة الفلك . وقيل : نفس الفلك . وقيل : متجدد موهوم قارنه متجدد معلوم إزالة للايهام . وقيل : نفس المقارنة المذكورة ، أى أنه مقارنة متجدد موهوم لمتجدد معلوم كمقارنة إتيانك لطلوع الشمس ، كذا قاله الدسوقى . قال المحلي : والثالث قول المتكلمين (وأمر الدين متراجع) أى عائد إلى النقصان والضعف ، كذا فى سراج السالكين

وَالْفَرَاغُ قَلِيلٌ وَالشُّغْلُ كَثِيرٌ وَالعُمُرُ قَصِيرٌ وَفِي الْعَمَلِ تَقْصِيرٌ ، وَالنَّاقِدُ بَصِيرٌ وَالْأَجَلُ قَرِيبٌ وَالسَّفَرُ بَعِيدٌ ، وَالطَّاعَةُ هِيَ الزَّادُ فَلَا بُدَّ مِنْهَا ، وَهِيَ فَائِتَةٌ فَلَا مَرَدَّ لَهَا

---

( والفراغ ) من الشواغل ( قليل والشغل ) بما يصرف عن العبادة ( كثير والعمر ) وهو بالضم اسم لمدة عمارة البدن بالحياة (قصير ، وفى العمل تقصير ، والناقد) أى الرقيب (بصير ، والأجل) المضروب ( قريب ) جدا ، والمراد بالأجل هنا مدة حلول الموت ، لأن الأجل كما يطلق عليها يطلق على مدة العمر بتمامها ؛ فالأجل عندهم واحد لا يقبل الزيادة والنقصان . قال الله تعالى « فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » وقد دلت الأحاديث على أن كل هالك يستوفى أجله من غير تقدم عليه ولا تأخر عنه ؛ ولا يعارض هذه القواطع ماورد أن بعض الطاعات كصلة الرحم يزيد فى العمر لأنه خبر آحاد ، أو أن الزيادة فيه بحسب الخير والبركة ، أو بالنسبة لما فى صحف الملائكة فقد يثبت الشيء مطلقا وهو فى علم الله مقيد كأن يكون فى صحف الملائكة أن عمر زيد خمسون مثلا مطلقا وهو فى علم الله مقيد بأن لا يفعل كذا من الطاعات وإن فعلها فله ستون ، فان سبق فى علمه تعالى أن يفعلها فلا يتخلف عن فعلها وكان عمره ستين فازيادة بحسب الظاهر على مافى صحف الملائكة وإلا فلا بد من تحقق مافى علمه تعالى كما يشير إليه « يمحوا الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » أى أصل اللوح المحفوظ ، وهو علمه تعالى الذى لا محو فيه ولا إثبات ، وأما اللوح المحفوظ فالحق قبول مافيه للمحو والاثبات كصحف الملائكة ، وبعضهم فسر أم الكتاب باللوح المحفوظ ، لأنه مامن كائن إلا وهو مكتوب فيه ، والراجح الأول ، كذا فى تحفة المريد ( والسفر) للآخرة ( بعيد ) لكثرة عقباته ( والطاعة ) وهى كل مافيه رضا وتقرب إلى الله تعالى ( هى الزاد ) المحمول لأجله ( فلا بد منها ) أى وحيث كان الأمر كما ذكر فلا بد من الطاعة . قال الشيخ يحى فى قوله فلا بد : أصله فى الاثبات بدّ الأمر فرق وتبدد تفرق وجاءت الخيل بدادا : أى متفرقة ، فاذا انتفت التفرقة والمفارقة بين شيئين حصل تلازم بينهما دائما فصار أحدهما واجبا للاخر ، ومن ثم فسروه بوجب فاعرف ذلك كذا قاله العلامة الدسوقى ( وهى ) أى الطاعة بمعنى المعاملات الباطنة التى تقتضيها أحوال العبد وواردات قلبه المتلونة عليه ( فائتة فلامردّ ) أى فلاعودة ولا رجوع ( لها ) أى إذا فاتت لأنها حقوق الأوقات التى لا يمكن قضاؤها إذ لله تعالى على كل عبد عند كل حال يحل به ووارد يرد عليه حق جديد وأمر أكيد ولا يسعه إلا أن يوفيه إذ ذاك ، فان فاته لم يجد مجالا لقضائه ولا يمكنه ذلك ، فعلى العبد أن يكون مراقبا لقلبه حتى يقوم بمراعاة تلك الحقوق التى لا يمكنه قضاؤها إن فاتت ، قال أبو العباس المرسى قدس سره : أوقات العبد أربعة لاخامس لها : النعمة ، والبلية ، والطاعة ، والمعصية ، ولله تعالى عليك فى كل وقت سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية . قال العلامة محمد بن إبراهيم الرندى رحمه الله : فمن كان وقته الطاعة فسبيله شهود المنة من الله عليه أن هداه لها ووفقه للقيام بها ،

فَمَنْ ظَفِرَ بِهَا فَقَدْ فَازَ وَسَعِدَ أَبَدَ الآبِدِينَ وَدَهْرَ الدَّاهِرِينَ ، وَمَنْ فَاتَهُ ذَٰلِكَ خَسِرَ مَعَ الْخَاسِرِينَ ، وَهَلَكَ مَعَ الْهَالِكِينَ ، فَصَارَ هَٰذَا الْخَطْبُ إِذًا وَاللهِ مُعْضَلاً ، وَالْخَطَرُ عَظِيماً

---

ومن كان وقته المعصية فمقتضى الحق منه وجود الاستغفار والندم ، ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر وهو فرح القلب بالله ، ومن كان وقته البلية فسبيله الرضا بالقضاء والصبر ، والرضا رضا النفس عن الله ، والصبر مشتق من الإصبار . وهو نصب الغرض للسهام ، وكذلك الصابر ينصب نفسه غرضا لسهام القضاء ، فان ثبت لها فهو صابر ، والصبر ثبات القلب بين يدى الرب . هـذا تفصيل قول أبى العباس قدس سره ، وهذا كله فى حقوق الأوقات التي هى المعاملات الباطنة . وأما الحقوق الكائنة فى الأوقات التى هى وظائف العبادة الظاهرة : من صلاة وصيام وغيرهما ، فمن فاته شىء منها فى وقته المعين أمكنه قضاؤه فى وقت آخر . إذ قد جعل له فى ذلك مجال رحب ، فيستدرك فيه مايفوته من تلك الحقوق ، كذا قرره بعض شيوخنا فى هذا المقام فليتأمل فانه مهم ( فمن ظفر ) أى حصل تلك الطاعة بقسميها ونال ( بها ) فى الدنيا ( فقد فاز ) أى نجا من العذاب ( وسعد ) بلقاء الله تعالى فى الجنة مع الملك الكبير والنعيم المقيم الذى لايحول ولا يزول ، وإليه يرشد قوله تعالى « نعيما وملكا كبيرا » ( أبد الآبدين ) ظرف زمان لسعد ، وفيه مبالغة فى التأبيد ( ودهر الداهرين ) فالأبد والدهر قيل معناهما واحد كما فى المختار ، فالعطف يشبه أن يكون مرادفا ، وقول بعضهم يشبه أن يكون تفسيرا ففيه شىء . لأن عطف التفسير ضابطه أن يكون الثانى أوضح من الأول كما قاله العلامة يوسف فى حواشى العشماوية ، مع أن الأول هنا أوضح من الثانى فليتأمل ( ومن فاته ذلك ) أى المذكور من الطاعة كما مر فقد ( خسر ) بالبعد من الله تعالى مع الأنكال والأغلال والعذاب الأليم فى دركات الجحيم كما أشار اليه قوله تعالى « إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما » ( مع الخاسرين ) وهم المغرورون بالدنيا والشيطان الذين يفرحون كل يوم بزيادة أموالهم مع نقصان أعمارهم ( وهلك مع الهالكين ) فى النار كذلك ، أى أبد الآبدين ودهر الداهرين ( فصار هذا الخطب ) وهو العظيم من الأمور كما قاله الزبيدى ، والمراد هنا الاشتغال بأعمال الآخرة والإعراض عن أعمال الدنيا كما فى سراج السالكين ( إذن ) أى إذا كان العبد ضعيفا وإذا هنا بالتنوين عوضا من لفظ الجملة المضاف إليها كقوله تعالى «ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون » وإلحاقا بإذ فى جواز ذلك كما ذكره العلامة الصبان فى حواشى الأشمونى عن الكافيجى ، وفيه أقوال كثيرة كما هو مقرر فى محله ( والله ) العظيم ، ولفظ الجلالة بجر بواو القسم ( معضلا ) بفتح الضاد وكسرها ، أى أمرا شاقا لا يهتدى لوجهه كما فى المختار ( و ) صار ( الخطر ) فى هذا الأمر ، أى أمر العبادة ( عظيما ) الخطر بفتح الخاء والطاء فى الأصل : الاشراف على الهلاك وخوف التلف قالوا هو على خطر عظيم ، ثم سمى كل أمر عظيم خطرا

فَلِذٰلِكَ عَزَّ مَنْ يَقْصِدُ هٰذَا الطَّرِيقَ وَقَلَّ ثُمَّ عَزَّ مِنَ الْقَاصِدِينَ مَنْ يَسْلُكُهُ ثُمَّ عَزَّ مِنَ السَّالِكِينَ مَنْ يَصِلُ إِلَى الْمَقْصُودِ وَيَظْفَرُ بِالْمَطْلُوبِ ، وَهُمُ الْأَعِزَّةُ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَسَدَّدَهُمْ بِتَوْفِيقِهِ وَعِصْمَتِهِ ، ثُمَّ أَوْصَلَهُمْ بِفَضْلِهِ إِلَى رِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ . فَنَسْأَلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ أَنْ يَجْعَلَكُمْ وَإِيَّانَا مِنْ أُولٰئِكَ الْفَائِزِينَ بِرَحْمَتِهِ .

---

لذلك كما قاله الزبيدى ، والمراد هنا المشقة المترتبة على هذا الأمر العظيم ( فلذلك ) أى المذكور من صيرورة الخطب والخطر معضلا وعظيما ( عز ) أى قلّ وندر ( من يقصد هذا الطريق ) أى طريق العبادة ( وقلّ ثم عز من القاصدين من يسلكه ثم عز من السالكين ) أى السائرين فى هذا الطريق ( من يصل إلى المقصود ) الذى هو القرب من الله تعالى والترقى إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين من عباده ( ويظفر بالمطلوب ) وهى السعادة الأبدية التى لا شقاء بعدها ، واعلم أنه ليس قصد المصنف رحمه الله بتلك العبارة التنفير من مجاهدة النفس ، بل هى مأمور بها ممدوح عليها ، سلك أو لم يسلك ، لقوله تعالى « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » وإنما المقصود زيادة التحريض على تلك المقامات السنية كما نبه عليه الصاوى فى شرح الخريدة ( وهم ) أى الواصلون ( الأعزة ) جمع عزيز ( الذين اصطفاهم الله ) أى اختارهم (عز) أى انفرد بصفة الجلال ، أو غلب لأنه قاهر لجميع الأشياء ( وجل ) أى اتصف بالصفة الدالة على العظمة كالقدرة والإرادة ونحوهما التى لا تماثل ، وتنزه عما لا يليق به كما قاله العلامة ابن منصور الهدهدي (لمعرفته) الخاصة التى لا يشركهم فيها غيرهم ، وهى أعلى المطالب وأسنى المواهب ، وهى ما يقع من تجلى الحق تعالى لقلوب خواصه وتحقق أسرارهم بأحديته ، وذلك لما أفضى عليهم سبحانه من أنوار الشهود وأطلعهم عليه من مكنون الوجود فانغمسوا فى بحار الأنوار وغرقوا فى المعانى والأسرار . وأما معرفة الله العامة التى يشترك فيها الخاص والعام ، بل هى أول الواجبات على كل مكلف ، فالمراد بها معرفة وجوده تعالى وما يجب له من إثبات أمور ونفى أمور وهى المعرفة الإيمانية والبرهانية ، لا الإدراك والإحاطة لامتناعه ، فالمعرفة عامة وخاصة ، والعامة بها يخرج المكلف عن عهدة الواجب ، لكنها ليست مرادة فى كلام المصنف رحمه الله هنا ، بل مراده الخاصة كما هو ظاهر ، فالمعرفة الأولى كرؤية نار أو موج بحر . والثانية كالاصطلاء بالنار ، والغوص فى البحر : وهى ثمرة البصيرة والمكاشفة ثم المشاهدة ، وكل يحصل له منها ما كتب له كما نبه عليه الكردى ملخصا ( ومحبته ) وسيأتى معناها ( وسدّدهم ) أى أرشدهم إلى السداد : أى الصواب من القول والعمل ( بتوفيقه وعصمته ) أى حفظه عن المخالفات ( ثم أوصلهم بفضله ) أى إحسانه من غير قهر له ( إلى رضوانه وجنته ) تعالى : وهى دار الثواب فى الآخرة ( فنسأله جل ذكره ) وتعالت عظمته ( أن يجعلكم وإيانا من أولئك الفائزين ) أى الناجين من عذاب الله ( برحمته )

نَعَمْ وَلَمَّا وَجَدْنَا هٰذِهِ الطَّرِيقَ بِهٰذِهِ الصِّفَةِ نَظَرْنا فأَمْعَنَّا النَّظَرَ فى كَيفيّةِ قَطْعِهَا وما يَحْتاجُ إليْهِ الْعَبْدُ مِنَ الأُهْبةِ والعُدَّةِ والآلةِ والحِيلةِ مِنْ عِلْمٍ وعَمَلٍ عَسَى أَنْ يَقْطعَهَا بحُسْنِ تَوْفيقِ اللهِ فى سَلامَةٍ ، ولا يَنقَطِعُ فى عَقَباتِها المُهْلِكَةِ فَيَهْلِكَ معَ الهالِكينَ ، والعياذُ باللهِ . فصنفْنا فى قَطْعِ هٰذِهِ الطَّرِيقِ وسُلُوكِها كُتُبًا كإحْيَاءِ عُلومِ الدِّينِ والقُرْبةِ إلى اللهِ تعالى ، وغَيْرِ ذٰلِكَ احْتَوَتْ عَلَى دَقائِقَ مِنَ العلُومِ اعْتاصَتْ

---

اللاحقين بالخير ( نعم ) استدراك على قوله : هى طريق وعر كما قرره شيخنا . قال العلامة عبد الحق ابن شاه فى سراج السالكين : هو جواب لمن قال : هل يمكن للانسان أن يسلك هذا الطريق فيصل إلى مقصوده ؟ . قيل فى جوابه نعم ( ولما وجدنا هذه الطريق بهذه الصفة ) أى من الصعوبة المذكورة والموانع الموصوفة ( نظرنا فأمعنا النظر ) من الإمعان ، وأصله أن يتباعد الفرس : أى جريه كما قاله الحريرى ، والمراد هنا بالغنا فى النظر ( فى كيفية قطعها وما يحتاج إليه العبد ) وهو الانسان مطلقا ذكرا كان أو أنثى كما فى القاموس ، وله معان أربعة : عبد بالايجاد وهو كل مخلوق لله ، وعبد الدينار والدرهم وهو المنهمك فى تحصيلهما وخدمتهما دائما ؛ وعبد العبودية وهو المنهمك فى طاعة مولاه ، وعبد البيع والشراء وهو الذى يجوز بيعه وشراؤه سواء كان أبيض أو أسود ، والذى فى القاموس معنى خامس كما ذكره العلامة يوسف السفطى ( من الأهبة والعدة ) بضم العين : أى الاستعداد فهو عطف تفسير . قال فى المصباح : والأهبة العدة ، والجمع أهب ، مثل غرفة وغرف ( والآلة والحيلة ) اسم من الاحتيال ( من علم وعمل عسى أن يقطعها ) أى الطريق لأنها تذكر وتؤنث ( بحسن توفيق الله فى سلامة ) من مهالكها ( ولا ينقطع فى عقباتها المهلكة فيهلك مع الهالكين) وخسر مع الخاسرين ( والعياذ بالله ) من الوقوع فى العقبة المهلكة ( فضفنا ) بعد إمعان النظر هذا جواب لما وجدنا ( فى ) بيان ( قطع هذه الطريق وسلوكها كتبا ) متعددة ( كإحياء علوم الدين و ) كتاب ( القربة إلى الله تعالى وغير ذلك ) : ومنه : معراج السالكين ، والقسطاس المستقيم ، وكيمياء السعادة ، ومشكاة الأنوار ونحوها مما ذكره الزبيدى فى شرح الإحياء مستوفى ، لأن له تصانيف فى غالب الفنون حتى فى علوم الحرف وأسرار الروحانيات . وخواص الأعداد ، ولطائف الأسماء الإلهية وغيرها . قال المناوى : نقل النووي في بستانه عن شيخه التغليسى قال نقلا عن بعضهم أنه قال : أحصيت كتب الغزالى التى صنفها ووزعت على عمره فخص كل يوم أربعة كراريس . قال السيد مرتضى : وهذا من قبيل نشر الزمان لهم ، وهو من أعظم الكرامات ، وقد وقع كذلك لغير واحد من الأئمة ، كابن جرير الطبرى وابن شاهين وابن النقيب والنووى والسبكى والسيوطى وغيرهم ( احتوت ) أى أحاطت هذه الكتب ( على دقائق ) جمع دقيق وهو الأمر الخفى ( من العلوم اعتاصت ) ضد انقادت : أى عسر كشفها ، يقال اعتاص

عَلَى أَفْهَامِ العَامَّةِ فَقَدَحُوا فِيهَا وَخَاضُوا فِيما لَمْ يُحْسِنُوهُ مِنْهَا ، فَأَيُّ كَلامٍ أَفْصَحُ مِنْ كَلامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وقَدْ قَالُوا فيهِ : إِنَّهُ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ،

---

عليه الأمر : إذا أشكل فلم يهتد إلى جهة الصواب فيه ( على أفهام العامة ) لقصورها ( فقدحوا ) أي طعنوا وشنعوا ( فيها ) لأن الناس أعداء ما جهلوا ( وخاضوا ) أى دخلوا فى التكلم والتحدث فى الباطل ( فيما لم يحسنوه ) أى لم يعرفوه ولم يحيطوا بعلمه ( منها ) ومع ذلك لا غرو ولا عجب (فأىّ كلام أفصح ) أى لا كلام أبلغ وأحسن ( من كلام رب العالمين ، و ) الحال أنهم ( قد قالوا فيه : إنه أساطير الأولين) أى حكاياتهم التى سطرت قديما ، جمع أسطورة بالضم أو إسطارة بالكسر كما قاله بعض المفسرين .

ومن الدقائق التى أنكرها المنكرون وطعنوا فيها على المصنف أبى حامد الغزالى ما وقعت فى مواضع من الإحياء : منها ما هو قول منسوب إليه ، ومنها ما نقله عن غيره من العارفين ، وأثبته وسكت عليه ، فالآن نذكر بعضها من شرح الإحياء ملخصا للايجاز كما هو مقتضى هذه التعليقات . فأقول وبالله التوفيق : فمن ذلك قوله فيه : المقصود بالرياضة تفريغ القلب وليس ذلك إلا بالخلوة والجلوس فى مكان مظلم ، فان لم يكن مظلما لف رأسه فى جيبه أو تدثر بكساء أو رداء فانه فى مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق تعالى ويشاهد جلال الربوبية . قال المنكر : انظروا إلى هذه الترهات العجيبة وكيف صدرت من فقيه ومن أين له أن الذى يسمعه إذ ذاك هو نداء الحق تعالى أو أن الذى يشاهده جلال الربوبية وما يؤمنه أن يكون ما يجده هو من الوساوس والخيالات الفاسدة وهذا هو الغالب ممن يستعمل التقلل فى المطعم فإنه يغلب عليه الماليخوليا . والجواب أن ما قاله الغزالى تبعا لغيره صحيح ، لكن له شروط عند أهل الطريق من بلوغه فى الورع الغاية القصوى ومداومة مراقبة الله مع الأنفاس وعدم شغل قلبه بنعيم الدنيا والآخرة ، وهناك يخرج العبد من مواطن التلبيس من النفس والشيطان وتصير روحه ملكية فيشاهد جلال الربوبية كما تشاهده الملائكة ، وكل من دخل الخلوة على مصطلح أهل الله عرف ما أقول ، ومن لم يدخل فهو معذور فى إنكاره لعدم وجدانه ما ذكره الغزالى فى نفسه ، ومما أنكروا عليه أيضا تقريره فى الإحياء قول أبى سليمان الدّارانى: إذا طلب الرجل الحديث أو سافر فى طلب المعاش أو تزوج فقد ركن إلى الدنيا قال المنكر : هذه الثلاثة أشياء مخالفة لقواعد الشريعة ، وكيف لا يطلب الحديث وقد ورد « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم » . وكيف لا يطلب المعاش وقد قال عمر رضى الله عنه : لأن أموت من سعى رجلى أطلب كفاف وجهى أحبّ إلى من أن أموت غازيا فى سبيل الله ، وكيف لا يطلب التزويج وصاحب الشرع صلى الله عليه وسلم يقول « تناكحوا تناسلوا » فما أدرى هذه الأوضاع من الصوفية إلا على خلاف الشرع . والجواب أن مثل الإمام الغزالى لا يجهل مثل هذه الأمور بدليل مدحها فى مواضع أخر من كتاب الإحياء ، وإنما مراده أن الدخول فى هذه

الأمور من لازمه غالبا دخول الآفات التي تحبطها ، فإن من طلب الحديث لزمته الرياسة وصار مقدما عند الناس في التعظيم والإكرام على من لم يطلبه ، وقل من يتخلص من الميل والمحبة لمثل ذلك . وأما التجارة والبيع والشراء مع الخلاص من الميل إلى الدنيا فلا يكون إلا ممن كمل سلوكه ودخل حضرة الله وعرف المواقع كلها ، فكلام أبي سليمان جرى على الغالب فلا لوم على حجة الإسلام الغزالى فى تقريره إياه . وأما كون التزويج من جملة الميل إلى الدنيا فهو ظاهر لأنه الغالب يطلب الاستمتاع ، وذلك لا يحصل إلا بالوقوع فى الآفات التي كان عنها بمعزل أيام عزوبته ، لاسيما إن كان متجردا عن القيام فى الأسباب التي تجلب له أمر معاشه فإنه يتلف بالكلية ، ويلزمه الرياء لكل من أحسن إليه بلقمة أو خرقة أو غيرها ، فأبغض الخلق إليه من يذمه عنده خوفا أن يتغير اعتقاده فيه فيقطع عنه بره فكأن عبادة هذا كلها لأجل الذى أحسن إليه . وفى الحديث « خيركم بعد المائتين الخفيف الحاذّ » : أى الذى لا زوجة له ولا ولد . وفى الحديث أيضا «سيأتى على أمتي زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وولده ـ فذكر الحديث إلى أن قال : وذلك أنهم يعيرونه بضيق المعيشة إلى أن يورده موارد الهلاك » وقد استشار شخص سيدى عليا الخواص فى التزويج فقال له شاور غيرى ، فقال له فقيه ما منعك أن تشير عليه بفعل السنة ؟ فقال له الشيخ أنت ماحفظت إلا كونه سنة ، أما تنظر الآفات المترتبة عليه من هلاك الدين وأكل الحرام والشبهات فاعلم ذلك . ومما أنكروه عليه تقريره فى الإحياء قول الجنيد : إذا كان الأولاد عقوبة شهوة الحلال فما ظنكم بعقوبة شهوة الحرام . قال ابن القيم : هذا غلط من الجنيد ومن أقره على ذلك ، فإن الجماع سنة أو مباح وكلاهما لا عقوبة على فاعله جريا على قواعد الشريعة . والجواب أن مراد الجنيد العقوبة التي تحصل بلازم ذلك لا بعينه . قال الله تعالى « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » . وقا تعالى «إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » . ولا يحذر الله تعالى إلا ما فيه رائحة الإثم . ومن مصطلح القوم أن يؤاخذوا المريد على فعل المباح ويعاقبوه عليه من حيث كونه يوقف على الترقى ، ولكل مقام رجال . ومما أنكروه عليه أيضا تقريره قول أبي حمزة البغدادى : إنى لأستحى من الله أن أدخل البادية وأنا شبعان ، وقد اعتقدت التوكل لئلا يكون شبعى زادا تزودت به . قال المنكر : ومن العجب اعتذاره عن أبي حمزة بقوله : كلام أبي حمزة صحيح ، لكن محتاج إلى شرطين : أحدهما أن تكون للانسان قدرة من نفسه بحيث يمكنه الصبر عن الطعام أسبوعا ونحوه . والثانى أن يمكنه التقوّت بالحشيش ولا تخلو البادية من أن يلقاه الذى معه طعام بعد أسبوع أو ينتهى إلى محلة أو حشيش يجد به ما يقوته . قال ابن القيم : أقبح ما فى هذا القول صدوره من فقيه فإنه قد لا يلقى أحدا وقد يضل وقد يمرض فلا يصلح له الحشيش وقد يلقاه من لا يطعمه وقد يموت فلا يدفنه أحد . فالجواب أما كلام أبي حمزة فهو فى نهاية الاخلاص وكذلك ماشرطه الغزالى هو صحيح يتمشى على قواعد الفقه . وأما ما ذكره ابن القيم فلا ينهض حجة واضحة على أبي حمزة

والغزالى لأنه لو حمل أيضا الزاد يجوز أن يقع له مايقع لمن لم يحمله من الأحوال التي ذكرها لكن لا يخفي أن حمل الزاد سنة ، ومن فعل السنة كان تحت نظر الله تعالى بالإمداد واللطف لأنه فعل ما كلفه ، بخلاف من لم يحمل زادا فإنه موكول إلى نفسه ولو كان ممن صحت تجربته للحق تعالى فإن الحق جل وعلا لا تقييد عليه ، يفعل ما يشاء إلا إن قيد على نفسه بشيء فللعبد طلبه منه عبودية . وقد قال رجل للحسن البصرى : إنى أريد أن أجلس فى مسجد وأترك السبب لاعتقادى أن الله لا يضيعنى ، فقال له الحسن البصرى : إن كنت على يقين السيد إبراهيم الخليل عليه السلام فافعل وإلا فالزم الحرفة ، والله أعلم .

ومما أنكروه عليه أيضا تقريره ما حكاه عن بعضهم أنه بات عند السباع فى برّية ليمتحن توكله على الله تعالى هل صح أم لا ؟ . قال المنكر : كيف يجوز للغزالى أن يسكت على مافعله هذا الرجل مع تعرضه لأسباب الهلاك ببياته عند السباع لا سيما إن كانت جيعانة . وقد قال تعالى « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » . والجواب أن ذلك فى حق أرباب الأحوال الذين يغلب حالهم حال السبع ويركبونه ويعركون أذنه وينقاد لهم بل يخاف هو منهم ، وهذا مقام يبلغه المريد أوائل دخوله فى الطريق فيمسح الله من قلبه الخوف من شيء من المخلوقات جملة واحدة ، وقد وقع ذلك لجملة من الأولياء ؛ وفوق هذا مقام أرفع من هذا وهو الخوف من كل شيء يؤذى والتباعد عنه ، ولو علمنا أن الحق تعالى قدر علينا ما يؤذينا فنتحفظ من الأذى حسب طاقاتنا ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء ويثاب على ذلك الحذر لا سيما إن كان مشهد أحدنا أن نفسنا وديعة عند الله تعالى وقد أمرنا بمدافعة الأقدار عنها ، والله أعلم .

ومما أنكروه عليه أيضا تقرير ما حكاه عن أبى الحسن الدينورى أنه حج اثنتى عشرة حجة وهو حاف مكشوف الرأس . قال ابن القيم : هذا من أعظم الجهل لما فى ذلك من الأذى للرأس والرجلين ، ولا تسلم الأرض من الشوك والوعر ، وكأن هؤلاء الصوفية ابتكروا من عند أنفسهم شريعة سموها [ بالتصوف ] وتركوا شريعة محمد صلى الله عليه وسلم بجانب ، نعوذ بالله من تلبيس إبليس ، فإن مثل هذه الحكايات تفسد عقائد العوام ويظنون أن فعله من الصواب . والجواب لاينبغى المبادرة بالإنكار على من أتلف جسمه في مرضاة الله تعالى وتعظيم حرماته ، وربما كان من خرج للحج حافيا مكشوف الرأس وقع في ذنب عظيم عنده وظن أن الحق تعالى قد سخط عليه بسببه فخرج بتلك الهيئة يطلب التنصل من ذنوبه على وجه الذل والانكسار ، وقد وقع لسفيان الثورىّ أنه حج من البصرة حافيا فتلقاه الفضيل بن عياض وابن أدهم وابن عيينة من خارج مكة فقالوا له : يا أبا عبد الله : أما كان من الرفق بذاتك أن تركب ولو حمارا ؟ فقال : أما يرضى العبد الآبق من سيده أن يأتى إلى مصالحته إلا راكبا ، فبكى الفضيل والجماعة ، فانظر ذلك واقتد به ، والله أعلم .

ومما أنكروه عليه أيضا ما أجاب به من سأله عن رجل يدخل البادية بلا زاد من قوله : هذا من فعل رجال الله . قيل له فإن مات ؟ قال الدية على العاقلة . قال المنكر : هذه فتوى جاهل بقواعد الشريعة ، إذ لا خلاف بين فقهاء الإسلام أنه لا يجوز لأحد دخول البادية بغير زاد ، وإن فعل كل ذلك ومات بالجوع فهو عاص مستحق للعقوبة في الآخرة . والجواب أن يكون مراد الغزالي من رجال الله أرباب الأحوال الذين غلبت عليهم أحوالهم لا العارفين من مشايخ الطريق بقرينة مامر في الجواب قبله ؛ فلالوم على الغزالى إلا لو جعل ذلك شائعا فى كل الناس .

ومما أنكروه عليه أيضا تقريره عن أبى الخير الأقطع التينانى قوله : إنى عقدت مع الله عهدا أن لا آكل شيئا من الشهوات ؛ فمددت يدى إلى ثمرة في شجرة فقطعتها فبينما أنا أمضغها إذ ذكرت العهد فرميت بها من فمى ، فدار بى فرسان وقالوا قم وأخرجونى إلى ساحل بحر أسكندرية ، وإذا أمير وحوله خيل وجند ، فقالوا أنت من اللصوص وإذا معهم جماعة ، من لصوص السودان ، فسألوهم عنى ؛ فقالوا لا نعرفه ؛ فكذبهم الأمير وشرع يقدم يدا ويقطعها إلى أن وصل إلى وقال لى تقدم ومد يدك ؛ فمددتها فقطعت إلى آخرها . قال المنكر : فانظروا إلى هذا الجهل العظيم مافعل بصاحبه ، ولو أن عند التينانى رائحة علم لعلم أن مافعله حرام عليه وليس لإبليس عون على الزهاد والعباد أكثر من الجهل ، و ما أظن غالب مايقع لهؤلاء إلا من الماليخوليات . والجواب لاينبغى الانكار على أبى الخير ولا على الغزالى فانهما مجتهدان فى ذلك ، فرأيا أن نقض العهد عند الأكابر أعظم من سرقة ربع دينار ، وأيضا فان مشهد الأكابر حضرة التقدير الإلهى فهم مع الذى قدر القطع لامع الجلاد الذى يقطع اليد مثلا ، وكلام الغزالى فى حق الأكابر ، وكلام المنكر فى حق الأصاغر فانه كان يكفى عقوبة أحدهم أن يتوب ويستغفر من نقض العهد وليس له أن يمكن الجلاد من قطع يده ما أمكن لأن ذلك لم يأمر به الشرع ، والله أعلم .

ومما أنكروا عليه أيضا قوله : ان الاشتغال بعلم الظاهر بطالة . قال ابن القيم : هذا جهل مفرط منه ، وأصل ذم الصوفية العلم أنهم رأوا طريق الاشتغال به لايوصلهم إلى الرياسة إلا بعد طول زمان ، بخلاف طريقتهم المبتدعة من لبسهم الزى وصلاتهم بالليل وصيامهم بالنهار وتقصير الثياب والأكمام . والجواب لاينكر عليه ذلك ، فإن مراده الاشتغال به على طريق الجدال بطالة بالنسبة إلى طريق العلماء العاملين ، لاأن مراده بطالة من كل وجه ، وكيف يظن به أن يريد مافهمه المنكر وهو يعلم أن علم الشريعة هو أساس علم الحقيقة ، إذ الشريعة لها تقويم صور العبادات الظاهرة والحقيقة لها تقويم صور العبادات الباطنة بحيث تستحق أن يقبلها الله تفضلا منه ، وقد بلغنا أن الغزالي ماقال ذلك إلا فى حق نفسه لما دخل طريق القوم ورأى كمالها وآدابها ، فقال ضيعنا عمرنا فى البطالة .

ومما أنكروا عليه أيضا قوله : اعلم أن ميل قلوب أهل التصوف إنما هو إلى تحصيل العلوم اللدنية دون العلوم النقلية ، ولذلك لم يحضوا على دراسة العلم ولا تحصيل ماصنفه المصنفون ، وإنما حضوا على الاشتغال بالله تعالى وحده والاشتغال بذكر الله فقط إلى آخر ماقال ، وعدّ المنكرون ذلك من جملة ماغلط فيه الغزالى وقالوا : قد حث الشارع على طلب العلم فكيف يمدح من لم يحض على تحصيله من الصوفية وقالوا : عزيز هذا الكلام أن يصدر من متشرع فانه لايخفى قبحه وهى كالطىّ لبساط الشريعة حقيقة ، ثم على هذا المذهب فقد فاتت الفضائل علماء الأمصار كلهم فانهم لم يسلكوا طريق الصوفية على هذا النحو الذى ذكره الغزالى ، وإذا ترك الانسان الاشتغال بعلم الشريعة خلت النفس بوساوسها وخيالاتها ولم يبق عندها من العلم مايطرد ذلك فيلعب بها مع إبليس أيّ ملعب . والجواب أن مراد الغزالى فيما حكاه عنهم إنما هو بعد إحكام الفقير علم الشريعة ، فانه حكى إجماع القوم على أنه لاينبغى لأحد أن يدخل طريق القوم إلا بعد تضلعه من علم الشريعة بحيث يصير يقطع علماء الشريعة بالحجج فى مجلس المناظرة فلا ينبغى حمل مثل كلامه على أن مراده مدح الاشتغال بأحوال طريق القوم من غير تقدم علمهم للشريعة فان ذلك أبعد من البعيد ، فالغزالى فى واد ، والمنكر فى واد ، والله أعلم .

ومما أنكروه عليه أيضا فى تفسير قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام « واجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام» أن الأصنام هو الذهب والفضة ، وعبادتهما حبهما والاغترار بهما . قال ابن القيم . وهذا تفسير لم يقل به أحد من المفسرين . والجواب لاينبغى أن ينكر عليه بسبب ذلك ، فقد ورد الحديث « تعس عبد الدينار والدرهم وعبد الخميصة » فسمى محب هذه الأمور عبدا لها مع أنها لاتعقل ولا تدرك من يحبها ولا من يبغضها فكانت كالأصنام ، والعبادة فى اللغة : الميل للشىء والطاعة له . قال تعالى «ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لاتعبدوا الشيطان » أى لاتطيعوه فى وسوسته لكم بالسوء ، فلما كنى الحق تعالى عن طاعة إبليس بالعبادة له استعارة مجازية كذلك صح للغزالي استعارة العبادة للذهب والفضة الذى هو عبارة عن شدة محبتهما ومقاتلة الناس لأجلهما بجامع أن القلب يشتغل بهما عن الله تعالى كما يشتغل عباد الأصنام عن الله تعالى ، والله أعلم .

ومما أنكروه عليه تقريره فى الإحياء قول سهل التسترى : إن للربوبية سرا لو ظهر لبطلت النبوة ، وإن للنبوة سرا لو ظهر لبطل العلم ، وإن للعلماء سرا لو ظهر لبطلت الأحكام والشرائع . قال ابن القيم : انظروا إلى هذا التخليط القبيح ودعواه أن باطن الشريعة يخالف ظاهرها وذلك من الهذيان . والجواب لاينكر على سهل ولا على الغزالي ، لأن ماذكراه إنما هو على سبيل الفرض والتقدير : أى أن لله تعالى فى عباده وشرائعه أسرارا اختص بها دون خلقه لشدة حجابهم ولو رفع ذلك الحجاب لتساوى علمهم وعلم سيدهم ، ولا قائل بذلك ، ومن أراد أن يشم رائحة

ماذكرناه فلينظر إلى حضرة ربه سبحانه قبل خلقه الخلق يجد أحدا فردا لاثانى معه يشهد أبدا ثم يستصحب هذا المشهد وهو نازل فى المراتب من غير تخلل غفلة أو حجاب ، وأكثر من هذا لايقال وإذا لم يكن إلا واحدا لاخلق معه ذهبت الرسالة والرسول لعدم من تتوجه عليهم الأحكام فكان بقاء الرسالة وأحكامها بعدم كشف أسرار الربوبية فافهمه ، والله أعلم .

ومما أنكروه عليه أيضا حكايته عن أبى تراب النخشبى أنه قال لمريد له : لو رأيت أبا يزيد البسطامى مرة واحدة كان أنفع لك من رؤية الله عز وجل سبعين مرة . قال ابن القيم : هذا الكلام فوق الجنون بدرجات . والجواب لا ينكر تقريره أبا تراب عن مقلته لأن مراده أن ذلك المريد يجهل مقام الأدب والمعرفة بالله تعالى ، فهو لا ينتفع برؤيته ، ولايصح أن يمنحه الحق تعالى بشىء من الآداب ، بخلاف رؤية أبى يزيد فإنها تعلمه طريق الآداب مع الله تعالى ومع خلقه ، فكانت أنفع له من رؤية ربه ، وهو لا يعرف أنه هو ، وهذا شأن أكثر الناس اليوم فلا يصح لهم الأخذ عن الله تعالى لكثرة حجبهم التى بينهم وبينه ، فهذا معنى قول أبى تراب ، وليس مراده أن رؤية أبى يزيد أفضل من رؤية الله تعالى لمن يعرفه فافهمه ، والله أعلم .

ومما أنكروا عليه أيضا فى حكايته عن ابن الكرنبى شيخ الجنيد أنه قال : نزلت فى محلة فعرفت فيها بالصلاح ، فشتّ قلبى ونفر منى فدخلت الحمام وسرقت ثيابا فاخرة ولبستها ، ثم لبست مرقعتى فوقها وخرجت ، فجعلت أمشى قليلا قليلا ، فلحقونى وأخذوا منى الثياب وصفعونى وسمونى لص الحمام فسكنت نفسى . قال الغزالى : فهكذا كانوا يروّضون نفوسهم حتى يخلصهم الله تعالى من فتنة النظر إلى الخلق ومراعاتهم ، ثم أهل النظر إلى النفس وأرباب الأحوال ربما عالجوا أنفسهم بما لا يفتى به الفقيه مهما رأوا صلاح قلوبهم بذلك ثم يتداركون ما فرط منهم من صورة التقصير كما فعل هذا فى الحمام . قال ابن القيم : سبحان من أخرج أبا حامد الغزالى من دائرة الفقه بتصنيفه كتاب الإحياء ، فليته لم يحك فيه مثل هذه الأمور التى لا يحل لأحد السكوت عليها ، والعجب أنه يحكى هذه الأمور ويستحسنها ؛ ويسمى أصحابها أرباب الأحوال ؛ وأى حالة أقبح من حال من خالف الشريعة ، ورأى المصلحة فى النهى عن اتباعها ؛ وكيف يجوز أن يطلب صلاح القلب بفعل المعاصى ، ثم كيف يجوز التصرف فى مال الغير بغير إذنه ، فان فى نصّ الإمام أحمد والشافعى : أن من سرق من الحمام ثيابا عليها حافظ وجب قطع يده ، ثم أين أرباب الأحوال أولا حتى يعمل العبد على وفاقهم من الرياضة ، كلا والله إنها شريعة لو رام مثل أبى بكر رضى الله عنه أن يخرج عنها لما وجد لذلك مساغا ، ولو أنه خالفها وعمل برأيه لكان عمله مردودا عليه ، إذ الحق تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان على وفق الشريعة المطهرة . قال : وتعجبى من هذا الفقيه الذى استلب التصوف علمه وعقله أكثر من تعجبى من هذا المستلب للثياب من الحمام ، فياليت أبا حامد بقى مع قواعد الفقه ، واستغنى عن هذه الهذيانات ، والجواب عن هذا كله أن القوم مجتهدون ، إ

فى أحكام الطريق ؛ فكل ما رأوه أصلح لقلوبهم عملوا به. وذلك من باب تعارض المفسدتين ، فيجب ارتكاب الأخف منهما . وأما ما يترتب على ذلك الفعل شرعا فقد جربوا حمايتهم من وقوع العقوبة لهم بسببه . بل تعرفهم الناس بعد ذلك ويقبلون أيديهم فاعلم ذلك . قال السيد مرتضى : ونقل الغزالى مثل هذه الحكاية التى جرت فى الحمام لابن الكرنبى عن إبراهيم الخواص ، وأنكر عليه ابن القيم كإنكاره من الأول ، وتعجب من أبى حامد وقال فياليته لم يتصوف ، والجواب واحد ، وأن للفقير أن يداوى قلبه ببعض المحرمات ليدفع عنه محرما آخر هو أشد منه قياسا على مداواة الأجسام ، والأمراض إنما تداوى بأضداد عللها ، وأين هلاك الأبدان من هلاك القلوب والله أعلم .

ومما أنكروا عليه أيضا قوله ضاع لبعض الصوفية ولد صغير فقيل له : لو سألت الله أن يرده عليك ؛ فقال اعتراضى عليه أشد من ذهاب ولدى . قال ابن القيم : لقد طال تعجبي من أبى حامد هذا كيف يحكى هذه الحكايات على وجه الاستحسان لها والرضى عن أصحابها ، ويعد الدعاء والسؤال لله تعالى اعتراضا : لقد طوى هذا بساط الشريعة طيا ، إذ الدعاء مشروع بالاجماع . والجواب أن مراد الغزالى أن ذلك فيه معنى الاعتراض لا أنه اعتراض ، وإيضاحه أن الاعتراض يرجع إلى تمنى غير ماسبق فى علم الله عز وجل ، وقد سبق فى علمه تعالى ضياع ولد هذا الصوفى فرضى بقضاء ربه ، ولم يطلب رجوع ولده ، ليتساوى وجود ولده وعدمه عنده فى أى مكان كان ولا فرق بين كونه فى داره أو أقصى الأرض لأنه عبد الله تعالى لا عبد لولده فافهمه .

فهذا بعض ما تيسر بيانه مما أنكروا على أبى حامد الغزالى فى كتابه [ الاحياء ] ملخصا من شرحه للعلامة الزبيدى ، وإن أردت الاستيفاء فانظر هناك تجد ماتريد ، وهم : أى المنكرون من طوائف شتى مابين مغاربة ومشارقة ومالكية وشافعية وحنابلة . وقد رد ما اعترضوا عليه كما هو مقرر فى شرح الزبيدى ، وفى الجزء التاسع عشر من تذكرة الحافظ جلال الدين السيوطى قال : ومما وقع للعلماء من ضرب المثل لأهل عصرهم بالآيات ماوقع لحجة الإسلام الغزالى فى كتابه [ الانتصار لما فى الاحياء من الأسرار ] حين أنكر عليه علماء عصره مواضع منه ألف الكتاب المذكور لجواب ما أنكروه ، فقال فى أوله ما نصه : سألت يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها وقرب لك مقامات الولاية تحل معاليها فى بعض ما وقع فى الاملاء الملقب بالاحياء مما أشكل على من حجب فهمه وقصر علمه ولم يفز بشىء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه وأظهرت التحزن لما شاش به شركاء الطغام ، وأمثال الأنعام ، وإجماع العوام ، وسفهاء الأحلام ، وذعار أهل الإسلام حتي طعنوا عليه ، ونهروا عن قراءته ومطالعته ، وأفتوا بمجرد الهوى على غير بصيرة باطراحه ومنابذته ، ونسبوا ممليه إلى ضلال وإضلال ، ونبذوا قراءه ومنتحليه بزيغ فى الشريعة واختلال فإلى الله انصرافهم ومآبهم ، وعليه فى العرض الأكبر إيقافهم وحسابهم ، فستكتب شهادتهم ويسئلون «وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون» «بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه» «وإذ لم يهتدوا به فسيقولون

( ٣ — سراج الطالبين — ١ )

هذا إفك قديم» ، «ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم» ، ولكن الظالمون فى شقاق بعيد .

ولا عجب فقد توى أولاء الطريق ، وذهب أرباب التحقيق ، فلم يبق فى الغالب إلا أهل الزور والفسوق ، متشبثين بدعاوى كاذبة ، متصفين بحكايات موضوعة ، متزينين بصفات منمقة . متظاهرين بظواهر بالعلم فاسدة ، ومتقاطعين بحجج غير صادقة ، كل ذلك لطلب دنيا ، أو محبة ثناء أو مغالبة نظراء ، قد ذهبت المواصلة بينهم بالبر ، وتألفوا جميعا على الفعل المنكر ، وعدمت النصائح منهم فى الأمر ، وتصافوا بأسرهم على الخديعة والمكر : إن نصحتهم العلماء أغروا بهم ، وإن صمت عنهم العقلاء أزروا عليهم ، أولئك الجهال فى علمهم ، الفقراء فى طولهم البخلاء عن الله عز وجل بأنفسهم ، لا يفلحون ولا ينجح تابعهم ، ولذلك لا تظهر عليهم موارثة الصدق ، ولا تستطع حولهم أنوار الولاية ، ولا تحقق لديهم أعلام المعرفة ، ولا يستر عوراتهم لباس الخشية لأنهم لم ينالوا أحوال النقباء ، ومراتب النجباء ، وخصوصية البدلاء ، وكرامات الأوتاد ، وفوائد القطب وفى هذه أسباب السعادة ، وتتمة الطهارة ، لو عرفوا أنفسهم لظهر لهم الحق ، وعلموا علة أهل الباطن ، وداء أهل الغضب ، ودواء أهل القوة ، ولكن ليس هذا بضائعهم ، حجبوا عن الحقيقة بأربعة بالجهل والإصرار ومحبة الدنيا وإظهار الدعوى ، فالجهل أورثهم السخف ، والإصرار أورثهم التهاون ، ومحبة الدنيا أورثتهم طول الغفلة ، وإظهار الدعوى أورثهم الكبر والاعجاب والرياء ، والله من ورائهم محيط ، وهو على كل شىء شهيد ، فلا يغرنك ، أعاذنا الله وإياك من أحوالهم شأنهم ، ولا يذهلنك عن الاشتغال بصلاح نفسك تمردهم وطغيانهم ، ولا يغوينك بما زين لهم من سوء أعمالهم شيطانهم ، فكأن قد جمع الخلائق فى صعيد وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد وتلا « لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » فياله موقفا قد أذهل ذوى العقول من القال والقيل ومتابعة الأباطيل ، فأعرض عن الجاهلين ولا تطع كل أفاك أثيم ، فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة فاصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين . «كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » . إلى هنا كلام الغزالى ، وما زالت الأخيار تبتلى بالأشرار . قال السيد مرتضى الحسينى : وجلالة قدره ، أى الغزالى ، وفخامة كتابه أشهر من الشمس فى رابعة النهار ، وما أحاط بمقام كتابه إلا من أفاض الله على قلبه الأنوار ، إذ كتابه متكفل ببيان العلوم الشرعية التى هى علم العقل ، وعلم الأحوال ، وعلم الأسرار ، وما فيه من علم الأحوال فلا سبيل إلى معرفته إلا بالذوق ، ولا يقدر عاقل على ذوقه ولا وجدانه ، ولا أن يقيم على معرفته دليلا ، وهو متوسط بين علم العقل وعلم الأسرار ، وهو إلى علم الأسرار أقرب منه إلى علم العقل النظرى ، ولا يكاد يلتذ به إذا جاء من غير نبى إلا أصحاب الأذواق السليمة ، وعلامة هذا الذوق كونه خارجا عن موازين العقول عكس العلم المكتسب ، إذ العلم المكتسب من شأنه أن يكون داخلا فى ميزان العقول

أَلَمْ تَسْمَعْ إلى قَوْلِ زينِ العابِدِينَ عليِّ بنِ الُحسَيْنِ بْنِ عليِّ بن أبى طالِبٍ ، رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

---

ولذلك لا تتسارع الناس إلى إنكاره . وعلم الأذواق لما كان خارجا عن موازين العقول تسارعت الناس إلى إنكاره وردّه ، وهذا القدر كاف فى بيان المقصود والله أعلم . قال المصنف رحمه الله تعالى ( ألم تسمع ) إلى ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم جرابين من العلم ، أما أحدهما فبثثته للناس ، وأما الآخر فلو بثثته لقطعتم منى هذا الحلقوم ، وإلى قول ابن عباس رضى الله عنه فى قوله تعالى « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن » لو ذكرت تفسيره كما علمته لرجمتمونى ، أى لم تحتمل عقولكم لدركه فتنكرون علىّ ذلك ، وفى لفظ آخر : لقلتم إنه كافر ، وألم تسمع أيضاً إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم « ما فضلكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشىء وقر فى صدره » و ( إلى قول زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضوان الله عليهم ) أى رضوان من الله تعالى على سيدنا زين العابدين ومن بعده ، فالإضافة بمعنى من بدليل تصريحها فى قوله تعالى : « ورضوان من الله والله بصير بالعباد » وقوله « ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » . ومذاهب السلف أن الرضا ثابت لله تعالى ولا يعلمه إلا هو ، ومذهب الخلف يؤولونه بالإنعام أو إرادته ، فهو إما صفة فعل بمعنى الإنعام ، أو صفة ذات بمعنى إرادة الإنعام ، والأول هنا أولى ، لأن هذه جملة دعائية ، والدعاء إنما يكون بمستقبل لم يجدّ فى الحال ، وإرادة الله تعالى قديمة يستحيل تجددها حتى يتعلق بها الدعاء ، ويجوز إرادة الثانى باعتبار تعلق الإرادة التنجيزىّ الحادث ، لأنه لا يستحيل تجدده ، وذلك التعلق هو الإنعام فيرجع للأول ، والرضا أعلى رتبة من العفو والمغفرة ، لأن العفو محو الذنب وعدم العقوبة عليه ، والمغفرة ستره وعدم العقوبة عليه وان لم يمح، فلذا قال مطرف بن عبد الله بن الشحير : اللهم ارض عنا فان لم ترض عنا فاعف ، فان المولى يعفو عن عبده وهو غير راض عنه ، ويسن الترضى والترحم على الصحابة ومن بعدهم من العلماء والعباد والأخيار ولا يختص بالصحابة ، كذا أفاده العلامة عبد الله الشرقاوى ( أجمعين ) أتى به تأكيدا للضمير المجرور ليفيد الإحاطة والشمول لجميعهم . قال السعد : إذا أكد بلفظ أجمعين نظر ، فان سبقه لفظ يدل على الشمول كان المقصود منه الجمعية ، يعنى اجتماع المحكوم عليهم فى الحكم فى آن واحد كما إذا قيل : جاء القوم كلهم أجمعون ، فأجمعون فى معنى الحال ، وكأنه قيل : جاءوا كلهم أجمعين ، أى فى آن واحد ، وان لم يسبقه لفظ يدل عليه ، أى الشمول كان المقصود منه الشمول كما هنا سواء كان فى الاثبات أو النفى اه ، ومقول القول هذا النظم من

إِنِّى لأَكْتُمُ مِنْ عِلْمِى جَوَاهِرَهُ ... كَيْلاَ يَرَى ذَاكَ ذُو جَهْلٍ فَيَفْتَتِنَا
وقدْ تَقَدَّمَ فِى هٰذَا أَبُو حَسَنٍ ... إلى الْحُسَيْنِ وَوَصَّى قَبْلَهُ الحَسَنَا
يَارُبَّ جَوْهَرِ عِلْمٍ لوْ أَبُوحُ بِهِ ... لَقِيلَ لِى أَنْتَ مِمَّنْ يَعْبُدُ الوَثَنَا
وَلاَسْتَحَلَّ رِجَالٌ مُسْلِمُونَ دَمِى ... يَرَوْنَ أَقْبَحَ مايأْتُونَهُ حَسَنَا

وَٱقْتَضَتِ الحَالُ عِنْدَ ذَوِى الدِّينِ هُمْ أَشرَفُ خَلْقِ اللهِ تَعالى النظَّرَ إلى كَافَّةِ خَلْقِ اللهِ تعالى

بحر البسيط ( إنى لأكتم ) أى لأستر ( من علمى جواهره ) وهي أسرار الدين ( كيلا يرى ذاك ) فى نسخة كيلا يرى الحق ( ذو جهل فيفتتنا ) لقصور فهمه عن دقائق العلوم ( وقد تقدم فى هذا ) أى بكتم جواهرالعلم (أبوحسن * إلى الحسين) إلى بمعنى على (ووصى قبله الحسنا . يا)أيها الناس (رب جوهر علم) ربحرف جر (لوأبوحبه) أى أظهر علم السر الذى هومثل الجوهرالنفيس (لقيل لى : أنت ممن يعبد الوثنا ) والألف للاطلاق. والوثن قيل : مرادف الصنم. وقيل متغايران، فالوثن ماكان له صورة وله جثة منحوتة معمولة منحجارة أوجص أوخشب أو غيرها منجواهر الأرض.والصنم : الصورة التى بغير جثة ، وقيل الصنم: هو المنحوت علىخلقة البشر. والوثن ماكان منحوتا على غير خلقة البشر،وقيل الصنم:ماكان من حجر أونحوه، ولايقال وثن إلا ماكانمنذهب أو فضة أو نحاس، وقيل عكسه ، وإنما خصها بالذكر دون غيرها منالمعبودات كالنار والكواكب لأنها معبودات العرب بجزيرتهم ، والناظم أصله منهم ، وهم الذين بعث فيهم النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد أنقذ جميعهم من عبادتها ، فلم يبق فى جزيرة العرب إلا دين واحد، وهو دين الاسلام بخلاف غيرها من المعبودات فإنها باقية إلى الآن ، والأوثان والأصنام أخس المعبودات ، إذ هي من عمل اليد وعرضة للتغير بالدثور والانشقاق والانكسار وغير ذلك والتصرف فيها بالزيادة والنقص ومن جنس الأرض ولا نورية فيها ،كذا ذكره المهدى بن أحمد الفاسى ( ولا ستحل رجال مسلمون دمى ) كما قتلوا منصورا الحلاج بإفشاء شيء من ذلك حيث قال: ما فى الجبة إلا الله وذلك أن أهل الله لا يدركون وجود الله فى الأشياء ، أى قيامه وظهوره فيها ، وهذه غاية ما يمكن أن يعبر عن مقصودهم ، وإلا فهو أمر لا يدرك إلا بالذوق ، فمصدوق ما سئل وما شهد وما علم واحد ، وإنما يختلف باعتبار السؤال عنه وإنشائه بالعبارة وعموم ذكره ( يرون ) أى يعتقدون ( أقبح ما يأتونه ) من استحلال قتلى ( حسنا . واقتضت الحال ) أى طلبت الحال والمصلحة ( عند ذوى الدين ) والصلاح ( الذين هم أشرف خلق الله تعالى النظر ) مفعول اقتضت ( إلى كافة خلق الله تعالى ) أى جميعهم . قال الأزهرى : هو مصدر على فاعلة كالعافية والعاقبة ولا يثنى ولا يجمع

بِعَيْنِ الرَّحْمَةِ وَتَرْكِ الْمُمَارَاةِ ، فَابْتَهَلْتُ إِلَى مَنْ بِيَدِهِ الخَلْقُ وَالأَمْرُ أَنْ يُوَفِّقَنِي لِتَصْنِيفِ كِتَابٍ يَقَعُ عَلَيْهِ الإِجْمَاعُ وَيَحْصُلُ بِقِرَاءَتِهِ الانتفَاعُ ، فَأَجَابَنِي إِلَى ذَلِكَ الَّذِي يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ،

---

وفى المصباح : وجاء الناس كافة : قيل : منصوب على الحال نصبا لازما لايستعمل إلا كذلك ، وعليه قوله تعالى « وما أرسلناك إلا كافة للناس » أى إلا للناس جميعا . وقال أبو البقاء إضافة كافة إلى ما بعدها خطأ ، لأنه لا يقع إلا حالا ، وإنما قيل للناس كافة ، لأنه ينكف بعضهم إلى بعض ، وبالإضافة تصير إضافة الشىء إلى نفسه اه ، هذا إذا أريد بالكافة الجماعة ، وإذا ذهب إلى أنه مصدر كما قاله الأزهرى فلا يلزم منه إضافة الشىء إلى نفسه كما قاله الزبيدى فتأمل ( بعين الرحمة ) والرأفة ( وترك المماراة ) والمجادلة ( فابتهلت ) أى تضرعت ( إلى من بيده ) أى بقدرته ( الخلق والأمر ) فإنه الموجد والمتصرف ، فالخلق هو المخلوقات . والأمرهو الكلام . فالأول حادث والثانى قديم كما صرح به القسطلانى ( أن يوفقنى ) أى أن يقدرنى ويصرف عنى الشواغل ويقوى إدراكى ويصحح حواسى ( لتصنيف كتاب ) والتصنيف : ضم صنف من الكلام إلى صنف آخر وإن لم يكن على وجه الألفة ، بخلاف التأليف فإنه يشترط فيه أن يكون على وجه الألفة فالتأليف أخص من التصنيف . كذا قاله البيجورى ( يقع عليه الإجماع ) أى الاتفاق لذوى الألباب نظروا بعين الانصاف ( ويحصل ) للطالبين الأنجاب لهذا الكتاب المشتغلين ( بقراءته الانتفاع ) فى الدنيا والآخرة والانتفاع به أيضا لمصنفه كذلك ، ومعنى النفع فى حقه رحمه الله فى الدنيا اشتغال الناس به ، وفى الآخرة أن يكون سببا لحلوله فى دار النعيم ، ومعنى نفعهم به فى الحياة هو أن يلهمهم الله الاعتناء به تفهما وحفظا . قال بعضهم : ولو بمجرد كتابة ونقل ووقف ويمن عليهم بإدراك علم التصوف بسببه ، وبعد الممات بالفوز بدار السلام كما قاله ابن عبد البارى ( فأجابنى إلى ذلك ) التصنيف ( الذى يجيب المضطر إذا دعاه ) كما هو مذكور فى الكتاب العزيز فى قوله تعالى « أجيب دعوة الداع إذا دعان » وقوله صلى الله عليه وسلم « ما من رجل يدعو بدعاء إلا استجيب له فإما أن يعجل له فى الدنيا ، وإما أن يؤخر له فى الآخرة ، وإما أن يكفر عنه من ذنوبه بمقدار ما دعا ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم أو يستعجل ، قالوا يا رسول الله وكيف يستعجل ؟ قال : يقول دعوت فما استجاب » أخرجه الترمذى ، وقال حديث غريب . والمراد بالإجابة ترتب نفع على الدعاء ، إما بعين ما طلب أو بغيره ، وعلى كل إما فى الحال أو المستقبل كل ذلك إن أراد الله الإجابة ، وإلا فلا يجب عليه شىء من ذلك ، ذكره ابن سلمان السويفى . قال الزبيدى : وأما حقيقته ، يعنى الدعاء ، فمعنى قائم بالنفس وهو نوع من أنواع الكلام النفسى ، وله صيغ تخصه فى الايجاب : افعل ، وفى النفى لا تفعل ، وقد اجتمعا فى قوله « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا » الآية . وقال الخطابى : حقيقة الدعاء استدعاء العبد ربه العناية واستمداده إياه المعونة

وَأَطْلَعَنِي بِفَضْلِهِ عَلَى أَسْرَارِ ذَلِكَ وَأَلْهَمَنِي فِيهِ تَرْتِيبًا عَجِيبًا لَمْ أَذْكُرْهُ فِى المُصَنَّفَاتِ الَّتِى تَقَدَّمَتْ فِى أَسْرَارِ مُعَامَلَاتِ الدِّينِ ، وَهُوَ الَّذِى أَنَا لَهُ وَاصِفٌ فَأَقُولُ ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ :

إِنَّ أَوَّلَ مَا يُنَبِّهُ العَبْدُ لِلعِبَادَةِ وَيَتَجَرَّدُ لِسُلُوكِ طَرِيقِهَا بِخَطْرَةٍ سَمَاوِيَّةٍ مِنَ اللهِ وَتَوْفِيقٍ خَاصٍّ إِلَهِيٍّ ، وَهُوَ المَعْنِيُّ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ :

---

وحقيقته إظهار الافتقار إليه ، والبراءة من الحول والقوة التى له ، وهو بسمة العبودية ، وإظهار الدعاء الذلة البشرية ، وفيه معنى الثناء على الله تعالى ، وإضافة الجود والكرم إليه اه .

قال: والمضطر هو الملجأ بضم الميم وسكون اللام : أى الذى اشتدت حاجته ، وتبرأ من الحول والقوة فلا غياث له إلا مولاه .

واعلم أن المضطر أخص من الفقير ، لأن الفقير معناه المحتاج سواء كان مختارا أم لا ، بخلاف المضطر فهو الفقير الذى ليس بمختار كما قاله العلامة يوسف السفطى ، وفيه أن العبد وإن علت منزلته فهو دائم الاضطرار تعطيه حقيقة العبد إذ هو ممكن ، وكل ممكن مضطر إلى ممد يمده ، وكما أن الحق تعالى هو الغنى المطلق ، فالعبد مضطر إليه أبدا ، ومن اتسعت أنواره لم يتوقف اضطراره وقد عتب الله قوما اضطروا إليه عند وجود أسباب ألجأتهم إلى الاضطرار ، فلما زالت زال اضطرارهم ( وأطلعنى ) أى أعلمنى ( بفضله ) أى بمحض إحسانه ، إذ لا يجب لأحد عليه تعالى شىء خلافا لزعم المعتزلة وجوب الأصلح عليه تعالى عن ذلك ، ولله در اللقانى :

وقولهم إن الصلاح واجب عليه زور ما عليه واجب

(على أسرار ذلك) أى خفيات المعانى فى ذلك التصنيف (وألهمنى فيه) أى وفقنى ولقننى فى التصنيف من الالهام ، وهو إلقاء الخير فى القلب بطريق الفيض لا الاكتساب . قال فى القاموس : ألهمه الله لقنه إياه : أى ألقاه فى قلبه ( ترتيبا عجيبا ) منه ، ومقصوده رحمة الله الاستحسان والاخبار عن رضاه به كما يعلم من المصباح ( لم أذكره فى المصنفات التى تقدمت فى أسرار معاملات الدين ) من إحياء العلوم وغيره ( وهو ) أى الكتاب المصنف على هذا الترتيب العجيب ( الذى أنا له واصف ) بقولنا هذا ( فأقول وبالله التوفيق ) والمستعان ، وقدم الجار والمجرور للاهتمام . قال العلامة العدوى : قدمه للحصر : أى وليس التوفيق إلا بالله اه . وفيه بحث لأن الحصر لا يخاطب به إلا من عنده إنكار ، فيلقى عليه الكلام حينئذ ليزول ما عنده ، ومعلوم أن المخاطب بهذا ليس منكرا إلا أن يقال : إن هذا منكر على سبيل الفرض والتقدير كما أفاده العلامة السفطى فتأمل ( إن أول ما ينبه العبد) أى ما يستيقظه من سنة الغفلة إلى عز التيقظ (للعبادة)ْ. قال فى التعريفات هل فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيما لربه ؟ وقد مر بيان ذلك ( ويتجرد لسلوك طريقها بخطرة سماوية من الله وتوفيق خاص إلهىّ وهو المعنىّ ) أى المراد ( بقوله سبحانه ) هو

« أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ » وَأَشَارَ إِلَيْهِ صاحبُ الشَّرْعِ صَلَوَاتُ اللهِ وسَلَامُه عليه فقالَ : « إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ الْقَلْبَ انفَسَحَ وَانْشَرَحَ . فقيلَ يَارَسُولَ اللهِ هَلْ لِذَلِكَ مِنْ عَلَامَةٍ يُعْرَفُ بِهَا ؟ فقالَ: التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ ، وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِ الموْتِ .

---

اسم ملازم للنصب مأخوذ من سبح في الماء إذا غاب ومعناه تنزيهه تعالى عما لا يليق به ( وتعالى ) أي تنزه وارتفع عن الشركاء ( أفمن شرح الله صدره للاسلام ) وشرح الصدر للاسلام عبارة عن تكميل الاستعداد له فإنه محل للقلب الذي هو منبع للروح التي تتعلق بها النفس القابلة للاسلام فانشراحه مستدع لانشراح القلب كما قاله الجمل عن أبي السعود ( فهو على نور ) أي معرفة واهتداء إلى الحق ( من ربه ، وأشار إليه ) أي الشرح ( صاحب الشرع ، صلوات الله وسلامه عليه ، فقال : إن النور إذا دخل القلب انفسح وانشرح ) . وقال القرطبي : والتحقيق في معنى النور أنه مظهر لما ينسب إليه وهو يختلف بحسبه ، فنور السمع مظهر للمسموعات ، ونور البصر كاشف للمبصرات ، ونور القلب كاشف عن المعلومات ، ونور الجوارح مايبدو عليها من أعمال الطاعات ( فقيل يا رسول الله هل لذلك ) أي لانفساح القلب وانشراحه ( من علامة يعرف بها ؟ فقال ) صلى الله عليه وسلم ( التجافي ) أي التباعد ( عن دار الغرور ) أي الدنيا ( والإنابة ) أي الرجوع ( إلي دار الخلود ) أي الآخرة ( والاستعداد ) أي التهيؤ بالعمل الصالح ( للموت قبل نزول الموت ) أورده صاحب القوت هكذا فذكر سببه الزهد في الدنيا والإقبال على خدمة المولى ، فحسن التواضع والإصابة في العلم مواهب من الله عز وجل ، وأثرة يخص بها من يشاء .

وقال العراقي : رواه الحاكم في المستدرك من رواية عدي بن الفضل عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن ابن مسعود قال « تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « فمن يرد الله » الآية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن النور إذا دخل الصدر انفسح ، فقيل يارسول الله : هل لذلك من علم يعرف ؟ قال نعم فذكره » قال : وقد سكت عليه الحاكم وهو ضعيف ، ورواه البيهقي في الزهد من رواية عمرو بن مرة عن عبد الله بن الحارث عن ابن مسعود ، رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق قال : أخبرنا عبد الرحمن المسعودي عن عمرو ابن مرة عن أبي جعفر رجل من بني هاشم وليس محمد بن علي قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ، فذكر مثل رواية الحاكم إلا أنه قال : قيل هل لذلك من آية يعرف بها ، وقال في آخره قبل الموت ، وهذا مرسل ضعيف ، وهو الصواب في رواية هذا الحديث ، وما قبله ضعيف كما بينه الدارقطني في العلل ، وسئل عنه فقال : يرويه عمرو بن مرة ، واختلف فيه عنه فرواه مالك بن مغول عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله قاله عبد الله بن محمد ابن المغيرة تفرّد بذلك ، ورواه زيد بن أبي أنيسة عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله

فإذَا خُطِرَ بِقَلْبِ الْعَبْدِ أَوَّلَ كلِّ شَيْءٍ أَنِّي أَجِدُنِي مُنَعَّمًا بضرُوبٍ مِنَ النِّعَمِ عَلَيَّ كالحيَاةِ والقُدْرَةِ وَالْعَقْلِ وَالنُّطْقِ وسائِرِ المَعانِي الشَّرِيفَةِ وَاللَّذَّاتِ مَعَ مَا يَنصرِفُ عَنِّي مِنْ ضُرُوبِ المَضارِّ والآفاتِ ، وَإِنَّ لِهٰذِهِ النِّعَمِ مُنْعِمًا يُطالِبُنِي بِشُكْرِهِ وَخِدْمَتِهِ ، فَإِنْ غَفَلْتُ عَنْ ذَلِكَ فَيُزِيلُ عَنِّي نِعْمَتَهُ ، وَيُذِيقُنِي بَأْسَهُ وَنِقْمَتَهُ ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيَّ رَسُولاً

---

قاله أبو عبد الرحمن عن زيد ، وخالفه يزيد بن سنان فرواه عن زيد عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله وكلاهما وهم ، والصواب عن عمرو بن مرة عن أبي جعفرعبد الله بن المسور مرسلا عن النبي صلي الله عليه وسلم ، كذلك قاله الثوري . قال وعبد الله بن المسور : هذا متروك ، كذا قاله الزبيدى ( فاذا خطر ) بضم الخاء مبنيا للمفعول ، والنائب جملة أني : أي أدير وحرك ( بقلب العبد أول كل شيء ) منصوب على الظرفية : أي قبل الشروع في العبادة كما قرره بعضهم ( أني أجدني ) أي أجد نفسي ( منعما ) بضم الميم مع فتح العين على صيغة اسم المفعول ( بضروب ) أي بأنواع ( من النعم عليّ ) جمع نعمة . قال ابن مالك : ولفعلة فعل ، وهي كلّ ملائم تحمد عاقبته كما في التحفة : وقال الفخر الرازى : هي المنفعة المفعولة على جهة الاحسان إلي الغير ، وفي شرح الأربعين : هي لين العيش وخصبه ، أو الشيء المنعم به ( كالحياة والقدرة والعقل والنطق وسائر المعاني الشريفة ) كالسمع والبصر ( واللذات مع ماينصرف ) أي ينعزل ويندفع ( عنى من ضروب المضارّ والآفات ) . واعلم أن نعم الله تعالي وإن كانت لاتحصى باعتبار الأفراد كما في قوله تعالى « وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها » لكنها تنحصر باعتبار الأجناس في جنسين: دنيوى ، وأخروى ، والأول قسمان : كسبيّ ووهبيّ ، والوهبي قسمان : روحاني كنفخ الروح فيه وإشراقه بالعقل وما يتبعه من القوى كالفكر والفهم والنطق ، وجسمانيّ كتخليق البدن والقوى الحالة فيه والهيئات العارضة له من الصحة وكمال الأعضاء ، والكسبي تزكية النفس عن الرذائل وتحليتها بالأخلاق والملكات الفاضلة وتزيين البدن بالهيئات المطبوعة والحلى المستحسنة وحصول الجاه والمال ، والثاني أن يعفو عما فرط منه ويرضى عنه ، ويبوئه في أعلى عليين مع الملائكة المقربين كما قاله الرملي في النهاية والسفطي فيحاشية العشماوية (و) خطر بقلبه أيضا ( أن لهذه النعم ) المذكورات ( منعما ) بكسر العين وهو الله سبحانه وتعالى (يطالبني بشكره وخدمته) أى طاعته ( فان غفلت عن ذلك ) الشكر والطاعة ( فيزيل عنى نعمته ويذيقنى ) أي يلقى عليّ ( بأسه ) أي عذابه ( ونقمته ) أي عقوبته ، فهما مترادفان علي قول بعضهم ( وقد بعث إليّ رسولا ) أي أرسل إلينا معاشر المخلوقين جنا وإنسا رسولا ، وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إجماعا فهو معلوم من الدين بالضرورة فيكفرجاحده مبشرا ومنذرا ومبينا للناس مايحتاجون إليه من أمور الدنيا والدين لإقامة حجته علي خلقه . قال تعالى « ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله

أَيَّدَهُ بِالْمُعْجِزَاتِ الخَارِقَةِ لِلعَادَاتِ الخَارِجَةِ عَنْ مَقْدُورِ الْبَشَرِ ، وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ لِي رَبًّا جَلَّ ذِكْرُهُ قَادِرًا عَلِيماً حَيًّا مُرِيدًا مُتَكَلِّماً ، يَأْمُرُ وَيَنْهَى ، قَادِرًا عَلَى أَنْ يُعَاقِبَ إِنْ عَصَيْتُهُ ، وَيُثِيبُ إِنْ أَطَعْتُهُ عَالِمًا بِأَسْرَارِي وَمَا يَخْتَلِجُ فِي أَفْكَارِي ، وَقَدْ وَعَدَ وَأَوْعَدَ ، وَأَمَرَ بِالْتِزَامِ قَوَانِينِ الشَّرْعِ ، فَيَقَعُ فِي قَلْبِهِ أَنَّهُ

---

لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك » . قال الزبيدى : من أن أصل الرسل الانبعاث علي تؤدة ، ومنه ناقة رسلة أى سهلة الانقياد، وإبل مراسيل، ويصدرمنه تارة الرفق وتارة الانبعاث ومنه اشتق الرسول ، والجمع رسل بضمتين ويطلق الرسول تارة علي المتحمل بالرسالة ، وتارة على القول المتحمل ، وتارة يطابق مايراد به، وتارة يفرد وإن أريد به غير الواحد، وقد يراد بالرسل الملائكة ، وفى الاصطلاح إنسان بعثه الله لتبليغ الأحكام ( أيده ) أى قواه ( بالمعجزات ) جمع معجزة ، وهى أمر خارق للعادة يظهر على مدعى الرسالة عند تحدّى المنكرين ، أى يدعوهم ويسوقهم إلى الله تعالى، إذ مدعى الرسالة لابد له من دليل علي دعواه والمعجزة دليله (الخارقة) أى المخالفة (للعادات الخارجة عن مقدور البشر) لعجزهم عن الاتيان بمثلها ، وعبر عن عالم الانسان بالبشر اعتبارا بظاهر جلده من الشعر ، بخلاف الحيوان الذى عليه نحو صوف ووبر كذا فى شرح الاحياء .

﴿ فائدة ﴾ روى أن عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، وقيل غير ذلك ، وأن عدد الرسل ثلثمائة وثلاثة عشر ، وقيل غير ذلك ( وأخبرنى ) الرسول صلى الله عليه وسلم ( بأن لى ربا ) أى خالقا معبودا ( جل ذكره ) وعلت عظمته ( قادرا ) أى له قدرة قديمة ، وهى صفة أزلية تؤثر فى الممكن عند تعلقها به ( عليما ) أى له علم قديم ، وهى صفة أزلية لها تعلق بالشيء على وجه الإحاطة به على ما هو عليه ( حيا ) أى له حياة قديمة ، وهى صفة أزلية تقتضى صحة العلم لموصوفها ( مريدا ) أى له إرادة قديمة ، وهى صفة أزلية تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه من وجود أو عدم ومقدار وزمان ومكان وجهة ( متكلما ) أى له كلام ، وهى صفة أزلية عبر عنها بالنظم المعروف المسمى بكلام الله تعالى وبالقرآن أيضا ، وهذه الصفات مع زيادة السمع وغيره منظومة فى قول بعضهم :

حياة وعلم قدرة وإرادة ... كلام وإبصار وسمع مع البقا
فهذه صفات الله جل قديمة ... لدى الأشعرى الحبر ذى العلم والتقى

( يأمر ) الرب جل ذكره بالمعروف ( وينهى ) عن الفحشاء والمنكر ( قادرا على أن يعاقب ) علىّ بعدله ( إن عصيته ويثيب ) لى بمحض فضله ( إن أطعته عالما بأسرارى ) جمع سر وهو باطن القلب كما قاله بعضهم ( وما يختلج ) أى يتحرك وينبعث ( فى أفكارى وقد وعد ) من آمن وعمل صالحا بالثواب والجنة ( وأوعد ) من كفر وعصى بالعقاب والنار ( وأمر بالتزام قوانين الشرع ) وحدوده (فيقع) جواب الشرط الذى فى قوله فإذا خطر الخ ( فى قلبه ) أى العبد ( أنه ) أى المذكور

مُمكِنٌ ، إِذْ لاَ اسْتِحَالَةَ لِذٰلِكَ فِى العَقْلِ بِأَوَّلِ الْبَدِيهةِ فَيَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ عِنْدَ ذٰلِكَ وَيَفْزَعُ فَهٰذَا خاطِرُ الْفَزَعِ الَّذِى يُنَبِّهُ الْعَبْدَ وَيُلْزِمُهُ الْحُجَّةَ ، وَيقْطَعُ عَنْهُ الْمَعْذِرَةَ ، وَيُزْعِجُهُ إِلى النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلاَلِ ، فَيَهْتَاجُ الْعَبْدُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَقْلَقُ وَيَنْظُرُ فِى طَرِيقِ الخَلاَصِ وَحُصُولِ الأَمَانِ لهُ مِمَّا وَقَعَ بِقَلْبِهِ ، أَوْ سَمِعَ بِأُذْنِهِ ، فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ سَبِيلاً سِوَى النَّظَرِ بِعَقْلِهِ فِى الدَّلاَئِلِ وَالِاسْتِدْلاَلِ بالصَّنْعَةِ عَلَى الصَّانِعِ

---

من مطالبة الرب بشكر نعمته ( ممكن إذ لا استحالة لذلك ) الوقوع ( فى العقل بأول البديهة ) أى الفجأة من دون توقف ولا تفكر ( فيخاف ) أى ذلك العبد ( على نفسه عند ذلك ) أى عند وقوع الامكان فى قلبه ( ويفزع ) أى يخاف ( فهذا خاطر الفزع ) والخوف ( الذى ينبه العبد ) أى يوقظه من نوم الغفلة ( ويلزمه الحجة ) أى الدليل القاطع بأن له ربا يعطيه أنواع النعم ( ويقطع عنه المعذرة ) أى الاعتذار ( ويزعجه ) أى يحركه ، وفى المختار أزعجه : أقلعه وقاعه من مكانه ( إلى النظر ) بعقله فى الدلائل ( والاستدلال ) الآثار على المؤثر ، والفاعل سبحانه وتعالى ( فيهتاج العبد ) أى يتحرك ويثور ( عند ذلك ) أى خاطر الفزع ، أى عند وقوعه وإزعاجه إلى ما ذكر ( ويقلق ) أى يضطرب ويعتريه الخوف ، وهو بفتح اللام من باب طرب ، فهوقلق ، يقال بات فلان قلقا وأقلقه غيره كما فى المختار ( وينظر ) أى يتأمل العبد ( فى طريق الخلاص وحصول الأمان له مما وقع بقلبه) أى من الخاطر المذكور ( أو سمع بأذنه فلم يجد فيه سبيلا ) أى طريقا يخلص ويأمن فيه ( سوى النظر بعقله فى الدلائل ) متعلق بالنظر جمع دلالة : بمعنى الدليل ، وهو لغة : المرشد ، واصطلاحا : ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى علم أو ظن نقليا كان ، وهو الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، أوعقليا وهوالبرهان الاصطلاحى ، وهو ما تركب من قضيتين متى سلمتا لزمهما قول ثالث : كالعالم متغير وكل متغير حادث ، ينتج العالم حادث على ما هو مقرر فى محله من كتب الميزان كذا فى شرح الأربعين ( والاستدلال بالصنعة على الصانع ) كالعالم على وجوده تعالى ، والدليل المطلوب من العبد هو الدليل الجملى ، وهو المعجوز عن تقريره وحل شبهه كما إذا قيل له : إن الله موجود فيقول : نعم ، فيقول له وما دليلك على ذلك ؟ فيقول: هذه المخلوقات ، ويعجز عن التقرير المرتب على جهة دلالتها هل هى من جهة حدوثها أو إمكانها أو هما معا أو نحو ذلك كما قاله القطب السنوسى .

واختلف المتكلمون فى دلالة العالم على الصانع على أقوال أربعة : أولها من جهة حدوثه : أى وجوده بعد العدم ، ونظم الدليل عليه أن تقول: العالم حادث وكل حادث له صانع فالعالم له صانع. ثانيها من جهة إمكانه: أى استواء وجوده وعدمه . ونظم الدليل عليه أن تقول: العالم ممكن وكل ممكن له صانع ، فالعالم له صانع . ثالثها من جهتهما معا . رابعها من جهة الإمكان بشرط الحدوث ، ونظم الدليل عليهما أن تقول: العالم ممكن حادث وكل ممكن حادث له صانع ، فالعالم له صانع ، قاله العلامة ابن حجازى

لِيَحْصُلَ لَهُ عِلْمُ الْيَقِينِ بِمَا هُوَ مَغِيبٌ ، وَيَعْلَمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا كَلَّفَهُ وَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ .

فَهَذِهِ أَوَّلُ عَقَبَةٍ اسْتَقْبَلَتْهُ فِى طَرِيقِ العِبَادَةِ، وَهِىَ عَقَبَةُ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ لِيَكُونَ مِنَ الأَمْرِ عَلَى بَصِيرَةٍ فَيَأْخُذَ فِى قَطْعِهَا

---

الشرقاوى ( ليحصل له علم اليقين بمـا هو مغيب ويعلم أن له ربا ) أنعم عليه و ( كلفه ) شكره ( وأمره ) بالخدمة والطاعة ( ونهاه ) عن الـكفر وضروب المعاصى . واعلم أن اليقين عندجماعة هو توالى العلم بالمعلوم حتى لايكاد يغفل عنه فهو أخص من العلم ، قاله شيخ الاسلام زكريا ، وعن آخرين هو العلم الذى لا يتداخل صاحبه ريب على مطلق العرف ولا يطلق فى وصف الحق سبحانه لعدم التوقيف ، والعبارات التى تطلق على العلوم الجلية ثلاثة : علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين فعلم اليقين بموجب اصطلاحهم ما كان بشرط البرهان، وعين اليقين ما كان بحكم البيان: أى بطريق الـكشف والنوال ، وحق اليقين ما كان بنعت البيان ، والأول لأرباب العقول ، والثانى لأصحاب العلوم ، والثالث لأصحاب المعارف كما قاله القشيرى فى الرسالة ، وإيضاحه قول بعض العارفين علم اليقين يشهدك قربه تعالى منك ، وعين اليقين يشهدك عدمك لوجوده تعالى ، وحق اليقين يشهدك وجوده لا عدمك ولا وجودك، وبينه بقوله: إن الذى ينـكشف بالنور الأول قرب الله منك، وثمرة ذلك مراقبته تعالى والاستحياء منه حتى لايراك حيث نهاك،ولا يفقدك حيث أمرك، والذى ينـكشف بالثانى عدمية كل موجود فى وجود الحق تعالى فيشهد الأكوان عدما فلا يعبأ بها ولا يلتفت إليها إذ وجودها عارية والوجود الحقيقى له سبحانه وتعالى وثمرة ذلك أن لا يبقى فى نظرك ماتستند إليه ولا ما تستأنس به فيتم لك التوكل والتفويض والرضا والاستسلام ، والذى ينـكشف بالثالث الذات المقدسة ، وثمرة ذلك الفناء الـكامل الذى هو دهليز البقاء فيفنى عن فنائه وعدمه استهلاكا فى وجود سيده ، وناهيك بما يحصل له حينئذ من المواهب والأسرار الإلهية ، فإذا ترقى عن ذلك حل فى مقام البقاء . قال السهروردى فى العوارف : والباقى فى مقام لا يحجبه الحق عن الخلق ، ولا الخلق عن الحق ، والفانى محجوب بالحق عن الخلق اهـ ( فهذه ) أى المذكورة من النظر والاستدلال ( أول عقبة ) وهى فى الأصل الطريق الصعب فى الجبل ، والمراد بها المجاهدة كما قرره بعضهم ( استقبلته فى طريق العبادة وهى عقبة العلم والمعرفة )وهما مترادفان بمعنى واحد على الصحيح وهو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع الناشىء عن دليل ( ليـكون ) أى العبد( من الأمر )أى الشأن والحال ( على بصيرة ) أى علم وخبرة . قال السيد الجرجانى : البصيرة قوة للقلب بنور القدس يرى بها حقائق الأشياء وبواطنها بمثابة البصر للنفس يرى به صور الأشياء وظواهرها، وهى التى يسميها الحـكماء القوة العاقلة والقوة القدسية ، كذا نقله بعضهم ( فيأخذ ) أى يشرع العبد ( فى قطعها

مِنْ غَيْرِ بُدٍّ بِحُسْنِ النَّظَرِ فى الدَّلاَئِلِ وَوُفُورِ التَّأَمُّلِ وَالتَّعَلُّمِ وَالسُّؤَالِ مِنْ عُلَماءِ الآخِرَةِ أَدِلَّاءِ الطَّرِيقِ ، سُرُجِ الْأُمَّةِ ،

من غير بدّ ) أى فراق وغنى ( بحسن النظر فى الدلائل ووفور التأمل ) أى إتمامه ( والتعلم ) وهو تنبه النفس لتصور المعانى ، وقد أجمع العلماء على فضل التعلم من أفواه المشايخ على التعلم من الكتب خلافا لمن شذ فيه وذلك لوجوه ، منها: وصول المعانى من النسيب إلى النسيب خلاف وصولها من غير النسيب ، والنسيب الناطق أفهم للتعليم وهو المعلم ، وغير النسيب له جماد وهو الكتاب ومنها: أن المتعلم إذا استعجم عليه ما يفهم من لفظه نقله إلى لفظ آخر ، والكتاب لا ينقل . فالمعلم فى إيصال العلم أصلح للتعليم من الكتاب . ومنها أنه يوجد فى الكتاب أشياء تعوق عن العلم وهى معدومة عند المعلم كالتصحيف العارض من اشتباه الحروف وقلة الخبرة وسقم النسخ ورداءة النقل وإدماج القارىء مواضع المقاطع وخلط مبادى التعليم وذكر ألفاظ مصطلح عليها فى تلك الصناعة ، فهذه كلها معوقة عن العلم وقد استراح المتعلم من تكلفها عند قراءته على المعلم ، وإذ كان الأمر على هذه الصورة فالقراءة على العلماء أجدى وأفضل من قراءة الإنسان لنفسه . قال الصفدى : ولهذا قال العلماء : لا تأخذ العلم من صحفى ومن مصحفى ، يعنى لا تقرأ القرآن على من قرأ من المصحف ولا الحديث وغيره على من أخذ ذلك من الصحف ، كذا ذكره الزبيدى فى شرح الإحياء . قال وهو كلام حسن ينبغى الاهتمام بمعرفته ( والسؤال من علماء الآخرة ) وهم علماء الدين ولهم علامات تميزهم من علماء الدنيا ، وهم علماء السوء الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها ، ومنها أن لا يطلبوا الدنيا بعلم المسائل التى تعلموها ولله در القائل :

ولعالم الأخرى علامات ترى  لا يطلب الدنيا بعلم مسائلا

فان أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها وعظم الآخرة وجلالة ملكها وصفاء نعيمها ودوامها ويعلم أنهما متضادتان لأنهما كالضرتين مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى وأنهما ككفتى الميزان مهما رجحت إحداهما خفت الأخرى وأنهما كالمشرق والمغرب مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر ، وأنهما كقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ فبقدر ما تصب منه فى الآخر حتى يمتلىء يفرغ الآخر ، فان من لا يعرف ذلك فهو فاسد العقل ، كذا أفاده الغزالى فى الإحياء ، ومنها أن يكون يعنى عالم الآخرة معتنيا بتحصيل العلم النافع المرغب فى الطاعة ، الناهى عن الدنيا ويكون متوقيا علما يكون مكثرا قليلا وقالا :أى فضول ما يتحدث به المتجالسون وهكذا إلى آخر ما ذكره العلامة السيد بكرى من العلامات الثمانية فى شرح هداية الأتقياء ( أدلاء ) جمع دليل ( الطريق ) إلى الله ( سرج الأمة ) أى كالسرج فيهم ، والسرج بضمتين جمع سراج هو المصباح وهذا الذى ذكره قد جاء مصداقه فى الحديث الذى أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس عن أنس رفعه بسند فيه القاسم بن إبراهيم الملطى . قال الدارقطنى : كذاب . اتبعوا العلماء فإنهم سرج الدنيا ومصابيح الآخرة ، والحديث وان كان أورده ابن الجوزى فى الموضوعات ، وجزم به

وقادَةِ الأئمَّةِ ، وَالاستفادَةِ مِنهُمْ ، وَاستهداء الدُّعاءِ الصَّالِحِ منهُمْ ، لِلتَّوفيقِ وَالإِعَانَةِ إلى أَنْ يَقْطَعَهَا بِتَوْفِيقِ اللهِ سُبْحَانَهُ ، فَيَحْصُلَ لَهُ عِلْمُ اليَقِينِ بالغَيْبِ ، وهوَ أَنَّ لهُ إلهاً وَاحِدًا لاَ شَرِيكَ لهُ ، هُوَ الَّذِى خَلَقَهُ وَأَنْعَمَ عليهِ بِكُلِّ هٰذِهِ النِّعَمِ ، وأَنَّهُ كَلَّفَهُ شُكْرَهُ ، وأَمَرَهُ بِخِدْمَتِهِ وطاعَتِهِ بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ ، وحَذَّرَهُ الكُفْرَ وضُرُوبَ المَعاصِى ، وحكَمَ لهُ بالثَّوابِ الخَالِدِ إنْ أطَاعهُ ،

---

السيوطي وغيره فالمعنى صحيح : أى يستضاء بهم من ظلمات الجهل كما ينجلى ظلام الليل بالسراج المنير بالليل ويهتدى به فيه ، فمن اقتدى بهم اهتدى بنورهم ، وشبه العالم بالسراج لأنه تقتبس منه الأنوار بسهولة وتبقى فروعه بعده ، وكذا العالم، ولأن البيت إذا كان فيه سراج لم يتجاسر اللص على دخوله مخالفة أن يفتضح ، وكذا العلماء إذا كانوا بين الناس اهتدوا بهم إلى طلب الحق وإزاحة ظلمة الجهل والبدعة ، ولأنه إذا كان فى البيت سراج موضوع فى كوة مسدودة بالزجاج أضاء داخل البيت وخارجه ، وكذا سراج العلم يضىء فى القلب وخارج القلب حتى يشرق نوره على الأذنين والعينين واللسان فتظهر فنون الطاعة من هذه الأعضاء ، ولأن البيت الذى فيه السراج فصاحبه متأنس مسرور فإذا طفىء استوحش ، فكذلك العلماء ما داموا فى الناس فهم مستأنسون مسرورون، فاذا ماتوا صار الناس فى غم وحزن، فإن قلت ما الحكمة فى التشبيه بخصوص السراج وما المناسبة التامة بينهما . قلت : المصباح تضره الرياح والعلم يضره الوسواس والشبهات والسراج لا يبقى بغير دهن ، والعلم لا يبقى بغير توفيق ، ولابد للسراج من حافظ يتعهده ، ولا بد لمصباح العلم من متعهد وهو فضل الله وهدايته ، كذا أفاده العلامة الزبيدى ( وقادة الأئمة ) أى رؤسائهم ( والاستفادة منهم واستهداء الدعاء الصالح منهم ) أى طلب هداية الدعاء الصالح من علماء الآخرة بمعنى الدلالة على طرق الحق والإيصال إليها ( للتوفيق ) أى لصرف الهمة كما قرره بعضهم لامعناه المعروف الذى هو خلق قدرة الطاعة فى العبد لأن كل مقام له مقال ( والإعانة ) أى الإقدار ( إلى أن يقطعها ) أى العقبة المذكورة ( بتوفيق الله سبحانه فيحصل له علم اليقين بالغيب ، وهو ) أى علم اليقين ( أن له إلها واحدا ) أى منفردا بذاته (لا شريك له) أى لا مشارك له فى صفاته وأفعاله وهو ردّ على المعتزلة القائلين بأن العبد يخلق أفعاله نفسه ( هو الذى خلقه ) أى أوجده بعد عدم ( وأنعم عليه بكل هذه النعم ) أى المذكورات من الحياة ونحوها (و) علم علما يقينا ( أنه ) سبحانه ( كلفه ) أى حمل العبد على المشقة ( شكره وأمره بخدمته وطاعته ) عطف تفسير ( بظاهره ) كالصلاة والزكاة وغيرها من العبادات وكترك الزنا والقتل وغيرها من المحرمات ( وباطنه ) كالعلم بالله والحبّ له والتوكل عليه والخوف منه ( وحذره ) أى خوف الإله العبد ( الكفر وضروب المعاصى) أى أنواعها ( وحكم له بالثواب الخالد ) فى الجنة ( إن أطاعه ) بفضله تعالى ورحمته

وَبِالعِقَابِ الخَالِدِ إِنْ عَصَاهُ وَتَوَلَّى عَنْهُ . فَعِنْدَ ذَلِكَ تَبْعَثُهُ هٰذِهِ المَعْرِفَةُ وَالْيَقِينُ بِالغَيْبِ عَلَى التَّشْمِيرِ لِلْخِدْمَةِ وَلِإِقْبَالِ عَلَى الْعِبَادَةِ لِهٰذَا السَّيِّدِ الْمُنعِمِ الَّذِى طَلَبَهُ فَوَجَدَهُ ، وَعَرَفَهُ بَعْدَ مَاجَهِلَهُ ، ولٰكِنَّهُ لَايَدْرِى كَيْفَ يَعْبُدُهُ وَمَاذَا يَلْزَمُهُ فِى خِدْمَتِهِ بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ ، فَبَعْدَ هَوْلِ هٰذِهِ المَعْرِفَةِ بِاللهِ

---

(و) حكم ذليه (بالعقاب الخالد) فى النار (إن عصاه وتولى) أى أعرض عنه بعدله تعالى كما فى قوله :

وإن يثبنا فبمحض الفضل وان يعذب فبمحض العدل

فإثابته تعالى لنا إنما هى بفضله المحض : أى الخالص ، ومعنى الفضل المحض : الإعطاء عن اختيار كامل ، لا عن إيجاب بحيث يثيبنا ولا اختيار له فى الإثابة أبدا لكونه علة تنشأ عنها معلولاتها من غير اختيارلها كما يقوله الحكماء ، ولا عن وجوب بحيث تصيرالإثابة مستحقة لازمة يقبح عليه تعالى تركها ، فيثيبنا باختياره لكن مع الوجوب كما يقوله المعتزلة ، فمذهب أهل السنة أن إثابته تعالى لنا بالفضل الخالص غير مشوبة بإيجاب ولا وجوب ، فقولنا بالفضل رد لكلام الحكماء ، وقولنا الخالص رد لكلام المعتزلة ، ويدل لمذهب أهل السنة أن طاعات العبد وإن كثرت لا تفى بشكر بعض ما أنعم الله به عليه فكيف يتصور استحقاقه عوضا عليها وإن يعذبنا فتعذيبه إنما هو بالعدل المحض ، ومعنى العدل المحض وضع الشىء فى محله من غير اعتراض على الفاعل، ضد الظلم الذى هو وضع الشىء فى غير محله مع الاعتراض على فاعله وبالجملة فهو سبحانه وتعالى لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية والكل بخلقه ، فليست الطاعة مستلزمة للثواب وليست المعصية مستلزمة للعقاب وإنما هما أمارتان تدلان على الثواب لمن أطاع ؛ والعقاب لمن عصى حتي لو عكس دلالتهما بأن قال : من أطاعنى عذبته ، ومن عصانى أثبته لكان ذلك منه حسنا فلا حرج عليه لا يسئل عما يفعل ، وهذا كله بحسب العقل ، وأما بحسب الشرع فلا يجوز خلف الوعد لأنه سفه وهو يستحيل عليه تعالى ، وأما الوعيد فيجوز الخلف فيه لأنه كرم وفضل كما نبه عليه بعضهم ( فعند ذلك ) أى حصول علم اليقين ( تبعثه ) أى تحمله ( هذه المعرفة واليقين بالغيب على التشمير ) أى التهيؤ ، يقال شمر عن ساقه وشمر فى أمره : أى خف ، وتشمر : أى تهيأ ( للخدمة ) أى الطاعة ( والإقبال ) بكنه الهمة ( على العبادة لهذا السيد المنعم ) جل وعز ، وفى السيد مذاهب ثلاثة : أحدها جواز إطلاقه على الله وعلى غيره . ثانيها وينسب للامام مالك أنه لا يطلق على الله أبدا . ثالثها أنه لا يطلق إلا على الله ، وفى الكتاب والسنة ما يرد هذا الثالث . قال تعالى فى حق يحيي ابن زكريا عليهما السلام «وسيدا وحصورا» وفى الحديث «إن ابنى هذا» أى الحسن «سيد» (الذى طلبه ) أى طلب العبد السيد المنعم ( ووجده وعرفه بعد ماجهله ولكنه ) أى العبد ( لايدرى كيف يعبده وماذا يلزمه فى خدمته بظاهره وباطنه فبعد هول ) أي مخيف ( هذه المعرفة بالله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَهِدَ حَتَّى يَتعلَّمَ مَايَلْزَمُهُ مِنَ الْفَرَائِضِ الشَّرْعِيَةِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا . فَلَمَّا أَسْتَكْمَلَ الْعِلْمَ وَالْمَعْرِفَةَ بِالْفَرَائِضِ انْبَعَثَ لِيَأْخُذَ فِى الْعِبَادَةِ وَيَشْتَغِلَ بِهَا فَنَظَرَ فَإِذَا هُوَ صَاحِبُ جِنَايَاتٍ وَذُنُوبٍ. وَهٰذَا حَالُ الأَكْثَرِ مِنَ النَّاسِ فَيَقُولُ : كَيْفَ أُقْبِلُ عَلَى الْعِبَادَةِ وَأَنَا مُصِرٌّ عَلَى الْمَعْصِيَةِ مُتَلَطِّخٌ بِهَا فَيَجِبُ عَلَيَّ أَوَّلاً أَنْ أَتُوبَ إِلَيْهِ لِيَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي وَيُخَلِّصَنِي مِنْ أَسْرِهَا ، وَيُطَهِّرَنِي مِنْ أَقْذَارِهَا فَأَصْلُحَ لِلْخِدْمَةِ وَبِسَاطِ الْقُرْبَةِ ، فَتَسْتَقْبِلُهُ ههُنَا ( عَقَبَةُ التَّوْبَةِ ) .

---

سبحانه وتعالى) قال بعضهم : والهول الأمر المخيف الشاق (جهد) العبد واجتهد(حتى يتعلم مايلزمه من الفرائض الشرعية ) كالطهارة والصلاة وغيرهما ( ظاهرا وباطنا ، فلما استكمل العلم والمعرفة بالفرائض) الشرعية ( انبعث ) أى قام ( ليأخذ ) أى ليشرع ( فى العبادة ويشتغل بها فنظر ) من النظر بمعنى إعمال الفكر ومزيد التدبر والتأمل (فاذا هوصاحب جنايات وذنوب) هما مترادفان ( وهذا ) المذكور من المصاحبة ( حال الأكثر من الناس فيقول كيف أقبل علي العبادة ) وأشتغل بها ( وأنا مصرّ ) أى مقيم ( على المعصية متلطخ ) أى متلوّث كما فى المختار ( بها فيجب عليّ أوّلا ) أى قبل الإقبال على العبادة ( أن أتوب اليه ) سبحانه وتعالى ( ليغفر لى ذنوبى ) ويخلصنى أى يجعلنى الله خالصا ونجاه ( من أسرها ) أى المعصية أى حبسها وقيدها كما فى القاموس ( ويطهرنى من أقذارها ) جمع قذر ضد النظافة ( فأصلح للخدمة وبساط القربة ) إلى الله تعالى أي البساط الذى كل من جلس إليه حصل له القرب وهو تلك الحضرة الالهية فشبهت ببساط الملك يستريح الوفود إذا وصلوا إليه وجلسوا على بساطه ( فتستقبله ههنا ) فى وجوب التوبة ( عقبة التوبة ) أى التوبة الشبيهة بالعقبة بجامع أن كلا منهما طريق صعب على النفس ، وكذا يقال فيما يأتى ، والعقبة فى الأصل الطريق الصعب فى الجبل ، وليس هذا المعنى مرادا هنا ، بل المراد بها هنا مجاهدة النفس فى الطاعات وترك الذنوب المهلكات مطلقا. وقال الحسن هى والله عقبة شديدة مجاهدة نفسه وهواه وعداوة الشيطان ، أفاده القرطبي . قال بعضهم : ذكر العقبة ههنا مثل ضرب لمجاهدة النفس والهوى والشيطان فى أعمال البر فجعل كالذى يتكلف صعود العقبة . والتوبة لغة : مطلق الرجوع ، واصطلاحا: الرجوع عما كان مذموما فى الشرع إلى ماهو محمود فيه وسيأتى ماهو قريب منه فى بابها ، ولها بداية ونهاية ، فبدايتها التوبة من الكبائر ثم الصغائر ثم المكروهات ثم خلاف الأولى ثم من رؤية الحسنات ثم من رؤية أنه صار معدودا من فقراء الزمان ثم من رؤية أنه صدق فى التوبة ثم من خاطر له فى غير مرضاة الله عز وجل ، وأما نهايتها فكلما غفل عن شهود ربه طرفة عين ، بدأ بالتوبة لأنها أساس لكل مقام يرتقى إليه العبد حتى يموت ، فكما أن من لا أرض له فلا بناء له ، فكذلك من لا توبة له فلاحال له ولامقام ، ومن كلام العارفين :

فَيَحْتَاجُ لَا مَحَالَةَ إِلَى قَطْعِهَا لِيَصِلَ إِلَى مَا هُوَ الْمَقْصُودُ مِنْهَا فَيَأْخُذَ فِي ذٰلِكَ بِإِقَامَةِ التَّوْبَةِ بِحُقُوقِهَا وَشَرَائِطِهَا إِلَى أَنْ يَقْطَعَهَا فَلَمَّا أَنْ حَصَلَتْ لَهُ التَّوْبَةُ الصَّادِقَةُ وَفَرَغَ مِنْ هٰذِهِ الْعَقَبَةِ حَنَّ إِلَى الْعِبَادَةِ لِيَأْخُذَ فِيهَا فَنَظَرَ فَإِذَا حَوْلَهُ عَوَائِقُ مُحْدِقَةٌ بِهِ ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا يَعُوقُهُ عَمَّا قَصَدَ مِنَ الْعِبَادَةِ بِضَرْبٍ مِنَ التَّعْوِيقِ ، فَتَأَمَّلَ فَإِذَا هِيَ أَرْبَعَةٌ : الدُّنْيَا وَالْخَلْقُ وَالشَّيْطَانُ وَالنَّفْسُ ، فَاحْتَاجَ لَا مَحَالَةَ إِلَى دَفْعِ هٰذِهِ الْعَوَائِقِ وَإِزَاحَتِهَا عَنْهُ ، وَإِلَّا فَلَا يَتَأَتَّى لَهُ مُرَادُهُ مِنَ الْعِبَادَةِ فَاسْتَقْبَلَتْهُ هٰهُنَا .

---

من أحكم مقام توبته حفظه الله تعالى من سائر الشوائب فى الأعمال ، كذا قاله الصاوى فى شرحه على الخريدة ( فيحتاج لا محالة ) بفتح الميم مصدر ميمى من حال يحول ، يقال: لا محالة، أى لا بد وبالضم اسم مفعول من أحال يحيل ، يقال هو محال : أى باطل كما نقله الجمل عن الكرخى ( إلى قطعها ) وجوازها ( ليصل إلي ما هو المقصود منها ) وهو أمران كما يأتى فى بابها توفيق الطاعة وقبولها ( فيأخذ ) أى يشرع ( فى ذلك ) أى قطع العقبة ( بإقامة التوبة بحقوقها وشرائطها ) وستأتى فى الباب ( إلى أن يقطعها ) أى يتجاوزها ( فلما أن ) زائدة وتطرد زيادتها فى موضعين : أحدهما بعد لما كما هنا . والثانى قبل لو مسبوقة بقسم كقوله :

فأقسم أن لو التقينا وأنتم ... لكان لنا يوم من الشر مظلم

كذا قاله الجمل عن السمين ( حصلت له التوبة الصادقة ) أى التى استجمعت شرائطها ( وفرغ من هذه العقبة ) أى قطعها ( حنّ ) أى اشتاق ( إلى العبادة ليأخذ فيها فنظر فإذا ) أى حين إذ نظر ( حوله عوائق ) أى موانع تشغله عنها ( محدقة ) أى محيطة ( به كل واحد منها يعوقه ) أى يمنعه ( عما قصد من العبادة بضرب ) أى بنوع ( من التعويق ) أى المنع والشغل ( فتأمل ) وأمعن النظر فى معرفة تلك العوائق ( فإذا هى ) أى العوائق ( أربعة: الدنيا ) لأنها قطعت الطريق علي عباد الله ، ولذلك لم ينظر إليها منذ خلقها ( والخلق ) فان أكثرهم يشغلون عن عبادة الله ( والشيطان ) فإنه يدعو إلى المعصية وفعل المحرمات . قال بعضهم : الشيطان كل جنّ كافر ، سمى شيطانا لأنه شطن : أى بعد عن رحمة الله ، وقيل لأنه شاط بأعماله : أى احترق بسببها . قال الجاحظ : الجن إذا كفر وظلم وتعدى وأفسد فهو شيطان ، فان قوى على حمل المشاق وعلي الشيء الثقيل وعلى استراقه السمع فهو مارد ، فان زاد على ذلك فهو عفريت ، كذا قاله الشبراملسى فى حواشى النهاية ( والنفس ) فانها أبدا تدعو الى الدعة والراحة والقعود عن عبادة ربها ( فاحتاج ) العبد ( لا محالة إلى دفع هذه العوائق وإزاحتها ) أى إزالتها ( عنه وإلا ) أى وإن لم يدفعها عنه ( فلا يتأتى ) أى فلا يسهل ولا يحصل ( له مراده من العبادة فاستقبلته ههنا )

(عَقَبَةُ الْعَوَائِقِ) فَيَحْتَاجُ إِلَى قَطْعِهَا بِأَرْبَعَةِ أُمُورٍ : التَّجَرُّدِ عَنِ الدنيَا وَالتَّفَرُّدِ عَنِ الْخَلْقِ وَالْمُحَارَبَةِ مَعَ الشَّيْطَانِ وَالْقَهْرِ لِلنَّفْسِ ، فَأَمَّا النَّفْسُ فَأَشَدُّهَا إِذْ لاَ يُمْكِنُهُ التَّجَرُّدُ عَنْهَا وَلاَ أَنْ يَقْهَرَهَا بِمَرَّةٍ وَيَقْمَعَهَا كَالشَّيْطَانِ ،

---

أى فى احتياجه إلى دفع هذه العوائق والموانع (عقبة العوائق فيحتاج إلى قطعها بأربعة أمور) أحدها (التجرد عن الدنيا) والزهد فيها لتستقيم له العبادة وتكثر ، فان الرغبة فى الدنيا تشغله . (و) ثانيها (التفرد عن الخلق) لتسلم له عبادته عن دواعى الرياء والتزين . (و) ثالثها (المحاربة مع الشيطان) لأنه عدو مضل مبين ومجبول على عداوته . (و) رابعها (القهر للنفس) لأنه أضر الأعداء ، وبلاؤها أصعب البلاء ، وعلاجها أعسر الأشياء ، وإليه أشار بقوله (فأما النفس فأشدها) أى الأمور الأربعة مجاهدة (إذ لا يمكنه التجرد عنها ولا أن يقهرها بمرة) أى بالكلية (و) لا (يقمعها) أى يذلها ويقهرها ، وقمعه وأقمعه : أى قهره وأذله كما فى المختار (كالشيطان) وسائر الأعداء ، والمراد بالنفس هنا : المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الانسان ، وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف ، لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات فيقولون لابد من مجاهدة النفس وكسرها ، وإليه الاشارة بقوله عليه الصلاة والسلام «أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك» والنفس بهذا المعنى لا يتصور رجوعها إلى الله ، فانها مبعدة من حضرة الله وهى من حزب الشيطان كما قاله الغزالى . قال السيد مرتضى إلا أن صاحبها إذا لوحظ بعين الإمداد وجذبته العناية بأزمة السداد أهزل من أنفتها ما كان سمينا ، وحقر من افتخارها ما كان سمينا وأفرضها من الرياضة فى جبل صعب المسالك ، بعيد الذرى والمدارك ، ليس لعشاق الرياسة له من سبيل ، ولا للهمم الدنية عليه تعويل اهـ .

والنفوس سبعة بحسب أوصافها ، وإلا فهى واحدة : الأولى النفس الأمارة بالسوء ، وهى مأخوذة من قوله تعالى «إن النفس لأمارة بالسوء» وهى التى لا تأمر صاحبها بخير خالص من العلل ، فلا ينافى أنها قد تأمر بخير معلول ، فإذا جاهدها صاحبها وخالفها فى شهواتها حتى أذعنت لاتباع الحق وسكنت تحت الأمر التكليفى ، ولكنها تغاب صاحبها فى أكثر أحوالها ، ثم ترجع إليه باللوم على ما وقع سميت لوامة وهى الثانية ، مأخوذة من قوله تعالى «ولا أقسم بالنفس اللوامة» فإذا أخذ فى المجاهدة والكد حتى مالت إلى عالم القدس واستنارت بحيث ألهمت فجورها وتقواها سميت ملهمة وهى الثالثة ، مأخوذة من قوله تعالى «فألهمها فجورها وتقواها» وعلامتها أن يعرف صاحبها دسائسها الخفية الدقيقة من الرياء والعجب وغير ذلك ، فإذا لزم المجاهدة حتى زالت عنها الشهوات وتبدلت الصفات المذمومة بالمحمودة ، وتخلقت بأخلاق الله تعالى الجمالية من الرأفة والرحمة واللطف والكرم والود سميت مطمئنة وهى الرابعة ، هذه وما بعدها إلى السابعة مأخوذة من قوله تعالى «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى

وادخلي جنتي » . وهذا المقام مبدأ الوصول إلى الله تعالى ولكنها لا تخلو من دسائس خفية جدا كالشرك الخفي وحب الرياسة إلا أنها لخفائها ودقتها لا يدركها إلا أهلها الذين نور الله بصائرهم ، لأن ظاهرها الصلاح والاتصاف بالصفات الحميدة من الكرم والحلم والتوكل والزهد والورع والشكر والصبر والتسليم والرضا بالقضاء مع انكشاف بعض أسرار ، وانخراق بعض عادات وظهور بعض كرامات ، فلربما ظن صاحبها أنه الامام الأعظم ، وأن مقامه هو المقام الأفخم ، وهذه من جملة الدسائس . فإذا أدركته العناية الإلهية ، واستند إلى شيخه بالكلية ، ولازم المجاهدة حتى تمكن من الصفات المحمودة وانقطع عنه عرق الرياء ، وصارت نفسه ذليلة ، واستوى عنده المدح والذم ، ودخلت في مقام الفناء ورضيت بكل ما يقع في الكون من غير اعتراض أصلا ، سميت راضية وهي الخامسة ولكن رؤية الفناء والإخلاص ربما أوقع في شيء من الإعجاب فيرجع به القهقرى ؛ فليستعذ بالله من ذلك مع مداومة الذكر والالتجاء إلى الله ، وملاحظة أنه لا يتم له الخلاص إلا بمدد الشيخ ؛ فإذا فنى عن الفناء ، وخلص من رؤية الإخلاص : تجلى عليها بالرضى ، وعفا عن كل ما مضى ، وتبدلت سيئاتها حسنات ، وانفتح لها أبواب الأذواق والتجليات ، فصارت غريقة في بحار التوحيد ولذا سميت مرضية ، لأنها بعنايات الله مرعية ، وهي السادسة ، إلا أن صاحب الهمة العلية لا يرضى بالوقوف عند هذه المقامات وإن كانت سنية ، بل يسير من الفناء إلى البقاء ، ويطلب الوصول بتمام اللقاء ، فتناديه حقائق الأكوان : أي ذواتها « إنما نحن فتنة فلا تكفر — وأن إلى ربك المنتهى » : أي فلا تلتفت لغيره فإنه فتنة شاغلة لك عن مقصودك ، فإذا صار إلى منازل الأبطال : أي الشجعان ، وخلف الدنيا وراء ظهره ، ناداه ربه بأحسن مقال « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » فيدخلها ربها في عباد الإحسان ، ويخلع عليها خلع الرضوان ، ويدخلها جنات الشهود ، ويجلسها في مقعد صدق عند الملك المعبود .

وفي هذا المقام قد تمت المجاهدة والمكابدة ، ومع ذلك فلا يأمن لنفسه ، بل دائما يتعهدها ويربيها . قال السيد بكري رحمه الله : النفس حية تسعى ولو بلغت مراتبها السبعة اهـ . وذلك : أي تمام هذه المجاهدة لأن صفات الكمال صارت لها طبعا وسجية ، وتسمى النفس فيه بالكاملة وهي السابعة ، وهي أعظم النفوس قدرا وأكملها فخرا ، ومع ذلك لا ينقطع ترقيها أبدا ، لأن الكامل يقبل الكمال ، فلم تزل تترقى حتى تشهد الحق تعالى قبل الأكوان ؛ ومشاهدته تعالى قبل كل شيء هو المسمى عندهم بالمعاينة ، وهذا عين اليقين بعد أن حازت علم اليقين الذي هو معرفته تعالى بالبراهين ثم حق اليقين ؛ وهي مشاهدته في كل شيء من غير حلول ولا اتحاد ولا اتصال ولا انفصال كالمرآة ترى فيها وجهك من غير حلول الوجه فيها ولا اتحاد ؛ وهذا مشهد ذوقي لا يدركه إلا أهله ؛ وصاحب هذا المقام لا يفتر عن العبادة ؛ لأنها صارت طبعه إما باللسان وإما بالجنان وإما بالأركان ؛ فحركاته حسنات ، وأنفاسه عبادات ؛ فهو محفوظ من الوقوع في المخالفات الحضور .

دائما مع الله فى جميع الحالات ؛ كذا حققه العلامة سيدى أحمد الدردير والعلامة سيدى أحمد ابن محمد الصاوي .

ولتمام هذه الفائدة نذكر عبارة الإحياء مع شرحه . وأما أفعاله فذكره خلق السموات والأرض وغيرها كالجبال والبحار ، فليفهم التالى من ذلك صفات الله تعالى وجلاله وعظمته وكمال قدرته ؛ إذ الفعل يدل على الفاعل وهو الذى صدر منه الفعل فتدل عظمته على عظمته وجلاله على جلاله ؛ فينبغى أن يشهد فى الفعل الفاعل دون الفعل ؛ فمن عرف الحق تعالى رآه فى كل شىء فهو منه وإليه وبه وله ؟ يعنى أن معرفة الله سبحانه بطريق الأسماء والصفات والأفعال بالكمال لايكون إلا لله ، إلا أنا إذا علمنا ذاتا عالمة فقد علمنا شيئا مبهما لا ندرى حقيقته لكن ندرى أن له صفة العلم وإن كانت صفة العلم معلومة لنا حقيقة كان علمنا بأنه عالم أيضا علما تاما بحقيقة هذه الصفة وإلا فلا ؛ ولا يعرف أحد حقيقة علم الله تعالى إلا من له مثل علمه وليس ذلك إلا له جل وعز ، فلا يعرفه سواه تعالى وإنما يعرفه بالتشبيه بعلم نفسه ، وعلم الله لا يشبهه علم الخلق ألبتة ، فلا تكون معرفته به معرفة تامة أصلا بل إيهامية تشبيهية ، وكذلك الحاصل عندنا من قدرة الله تعالى ، وأنه ثمرة وصفه وأثره وجود الأشياء ، وينطلق عليه اسم القدرة ، لأنه يناسب قدرتنا كمناسبة لذة الجماع لذة السكر ، وهذا كله بمعزل عن حقيقة تلك القدرة . نعم كلما ازداد العبد إحاطة بتفاصيل المقدورات وعجائب الصنائع فى ملكوت الأرض والسموات كان حقه من معرفة صفة القدرة أوفر ، لأن الثمرة تدل على المثمر ، وإلى هذا يرجع تفاوت العارفين فى معرفة الله تعالى ، فمن قال لا أعرف إلا الله فقد صدق ، فإنه ليس فى الوجود إلا الله وأفعاله ، فإذا نظر إلى أفعاله من حيث هي أفعاله وكان مقصور النظر عليها ولم يرها من حيث إنها سماء وأرض وشجر ، بل من حيث إنها صفة ، فلم تجاوز معرفة حضرة الربوبية فيمكنه أن يقول : ما أعرف إلا الله ولا أدرى إلا الله ، وهذا معنى قول المصنف : أى الغزالى : فمن رأى الحق رآه فى كل شىء الخ ، ولو تصور شخص لا يرى إلا الشمس ونورها المنتشر فى الآفاق يصح أن يقول: ما أرى إلا الشمس ، فإن النور الفائض منها هو من جملتها ليس خارجا عنها ، وكل ما فى الوجود نور من أنوار القدرة الأزلية وأثر من آثارها؛ وكما أن الشمس ينبوع النور الفائض على كل موجود فليس فى الوجود إلا الله ، ومن عرفه عرف أن كل شىء ما خلا الله باطل ، وأن كل شىء هالك إلا وجهه لا أنه سيبطل ويهلك فى حال ثان : أى فى وقت من الأوقات ، بل هو الآن باطل وهالك أزلا وأبدا لا يتصور إلا كذلك ، فإن كل شىء إن اعتبر ذاته من حيث هو : أى من حيث ذاته فهو عدم محض إلا أن يعتبر وجوده من حيث إنه موجود بالله عز وجل وقدرته : أى من الوجه الذى يسرى إليه الوجود من الأول ، فيكون له بطريق التبعية ثبات أى وجود إلا فى ذاته ، لكن من الوجه الذى يلى موجده ، فيكون الموجد أصالة وجه الله فقط ، وبطريق الاستقلال والأصالة بطلان محض .

إِذْ هِيَ الْمَطِيَّةُ وَالْآلَةُ، وَلاَ مَطْمَعَ أَيْضًا

والحاصل أن لكل شيء وجهين : وجه إلى نفسه ووجه إلى ربه ؛ فهو باعتبار وجه نفسه عدم ، وباعتبار وجه الله موجود ، فإذن لا موجود إلا الله ، فإذن كل شيء هالك إلا وجهه أزلا وأبدا ، ولم يفتقر هؤلاء إلى قيام الساعة ليسمعوا نداء البارى « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » بل هذا النداء لا يفارق سمعهم أبدا وهذا الذى ذكر مبدأ من مبادئ علوم المكاشفة ، ووراء ذلك أسرار يطول الخوض فيها ؛ فوجه فى كل ذى وجه إليه « فأينما تولوا فثم وجه الله » فإذن لا إله إلا هو فلا هو إلا هو ؛ لأن هو عبارة عما إليه إشارة كيفما كان فلا إشارة إلا إليه ؛ بل كل ما أشرت إليه فهو بالحقيقة إشارة إليه ؛ وإن كنت لا تعرفه أنت بغفلتك فكل ما فى الوجود فنسبته إليه فى ظاهر المثال كنسبة النور إلى الشمس ؛ فإذن لا إله إلا الله توحيد العوام ، ولا هو إلا هو توحيد الخواص ؛ لأن هذا أدخل لصاحبه فى الفردانية المحضة والوحدانية الصرفة ؛ ومنتهى معراج الخلائق مملكة الفردانية ؛ فليس وراء ذلك مرقى ؛ إذ المرقى لا يتصور بكثرة فإنه نوع إضافة يستدعى ما منه الارتقاء وما إليه الارتقاء وإذا ارتفعت الكثرة حقت الوحدة ؛ وبطلت الاضافة ؛ وطاحت الاشارة ؛ فلم يبق علو ولا سفل ولا نازل ولا مرتفع ؛ فاستحال الترقى واستحال العروج فليس وراء الأعلى علو ولا مع الوحدة كثرة ، ولا مع انتفاء الكثرة عروج ؛ فهذا غاية الغايات ومنتهى الطلبات يعلمه من لا يعلمه وينكره من يجهله ، وهو من العلم الذى هو كهيئة المكنون انتهت عبارته ملخصا . وأما قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه : سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته ؛ فقال الأستاذ أبو القاسم القشيرى : ليس يريد الصديق رضى الله عنه أنه لا يعرف لأن العجز عند المحققين عجز عن الموجود دون المعدوم كالمقعد عاجز عن قعوده ؛ إذ ليس بكسب له ولا فعل ، والقعود موجود فيه ؛ كذلك العارف عاجز عن معرفته ، والمعرفة موجودة فيه لأنها ضرورية . وعند هذه الطائفة المعرفة به سبحانه فى الانتهاء ضرورية ؛ فالمعرفة الكسبية فى الابتداء ، وإن كانت معرفة على التحقيق فلم يعدها الصديق رضى الله عنه شيئا بالاضافة إلى المعرفة الضرورية كالسراج عند طلوع الشمس وانبساط شعاعها عليه اهـ فلا مزيد لحسنه .

وأرى الآن قبض عنان البيان فما أراك تطيق من هذا الفن أكثر من هذا المقدار ، ولنرجع إلى شرح كلام المصنف ( إذ هى ) أى النفس ( المطية ) أى المركب للروح ( والآلة ولا مطمع ) أى لا طمع ولا رجاء ( أيضا ) أى كما أنه لا يمكنه قهرها بالكلية كالشيطان . قال العلامة عبد الرحمن البنانى نقلا عن شيخ الاسلام زكريا : ولفظ أيضا هو مصدر آض يئيض أيضا : إذا رجع يرجع رجوعا وهو مفعول مطلق حذف عامله : أى ارجع إلى الإخبار بكذا رجوعا أو حال حذف عاملها وصاحبها: أى خبر بكذا راجعا إلى الإخبار به ، وإنما تستعمل بين شيئين بينهما توافق ، ويغنى كل منهما عن الآخر ، فلا يجوز جاء زيد أيضا ، ولا جاء زيد وقام عمرو أيضا ،

فى مُوَافقتِهَا عَلَى مَا يَقْصِدُهُ الْعَبْدُ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالْإِقْبَالِ عَلَيْهَا ، إِذْ هِىَ مَجْبُولَةٌ عَلَى ضِدِّ الْخَيْرِ كَاللَّهْوِ وَاتِّبَاعِهَا لَهُ ، فَاحْتَاجَ إِذًا إِلَى أَنْ يُلْجِمَهَا بِلِجَامِ التَّقْوَى لِتَبْقَى لَهُ فَلَا تَنْقَطِعَ وَتَنْقَادَ لَهُ فَلَا تَطْغَى ، فَيَسْتَعْمِلُهَا فى الْمَصَالِحِ وَالْمَرَاشِدِ وَيَمْنَعُهَا مِنَ الْمَهَالِكِ وَالْمَفَاسِدِ فَيَأْخُذُ إِذًا فى قَطْعِ هٰذِهِ الْعَقَبَةِ وَيَسْتَعِينُ بِاللهِ جَلَّ ذِكْرُهُ عَلَى ذٰلِكَ ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَطْعِهَا رَجَعَ إِلَي قَصْدِ الْعِبَادَةِ ، فَإِذَا عَوَارِضُ تَعْتَرِضُهُ فَتَشْغَلُهُ عَنِ الْإِقْبَالِ عَلَى مَقْصُودِهِ مِنَ الْعِبَادَةِ وَتَصُدُّهُ عَنِ التَّفَرُّغِ لِذٰلِكَ كَمَا يَنْبَغِى، فَتَأَمَّلَ فَإِذَا هِىَ أَرْبَعَةٌ : الرِّزْقُ

---

ولااختصم زيد وعمرو أيضا ( فى موافقتها على مايقصده العبد من العبادة والاقبال عليها ) أى العبادة ( إذ هى ) أى النفس ( مجبولة ) أى مطبوعة ومخلوقة . قال فى المختار : وجبله الله : أى خلقه ( على ضد الخير ) وحب الشر ( كاللهو ) أى كالشىء الذى تفرح النفس به ، فيلهيها : أى يشغلها عما ينفعها ثم ينقضى كلهو الفتيان . قال الطرطوشى : وأصل اللهو الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة، كذا فى المصباح ( واتباعها له ) أى لضد الخير ( فاحتاج إذن) أى إذا كانت النفس مجبولة على الشر ( إلى أن يلجمها ) أى يقيدها ، وهو بضم الياء وكسر الجيم من ألجم . وفى القاموس : وألجم الدابة : ألبسها اللجام، والجمع لجم مثل كتاب وكتب . قيل هو عربى . وقيل معرب ( بلجام التقوى ) أى التقوى الشبيهة باللجام فى أن كلا يمنع صاحبه عن الاسترسال والاهمال . والتقوى عبارة عن امتثال أوامر الله واجتناب مناهيه ، وسمى ذلك تقوى؛ لأنه يق : أى يحفظ صاحبه من المهالك الدنيوية والأخروية ، وسيأتى بسط ذلك ( لتبقى له ) أى لتبقى النفس لصاحبه مطيعة ( فلا تنقطع ) عن سلوكها ( وتنقاد له ) أى تطيع وتذعن لصاحبها . وفى المصباح : انقاد فلان للأمر وأعطى القياد : إذا أذعن طوعا أو كرها ( فلا تطغى ) أى لاتجاوز حدها ( فيستعملها فى المصالح والمراشد ويمنعها من ) الوقوع فى ( المهالك والمفاسد فيأخذ إذن ) أى حين احتياجه إلي إلجام النفس بالتقوى ( فى قطع هــذه العقبة ) أى عقبة العوائق ( ويستعين بالله جل ذكره على ذلك ) أى قطع هذه العقبة ( فلما فرغ ) العبد السالك ( من قطعها رجع إلى قصد العبادة ) والإقبال عليها ( فإذا ) حوله ( عوارض ) جمع عارضة : أى موانع ( تعترضه ) أى تأتيه عارضة ومستقبلة كما يعلم من القاموس ( فتشغله ) بفتح التاء ، من باب قطع لا بضمها إلا على لغة رديئة ( عن الإقبال على مقصوده من العبادة وتصده ) أى تمنعه تلك العوارض ( عن التفرغ ) والبذل ( لذلك ) المقصود ( كما ينبغى ) أى على الوجه الذى ينبغى : أى يطلبه ( فتأمل ) فى تلك العوارض ( فإذا هى أربعة ) : الأول ( الرزق ) وهو مايسوقه الله تعالى إلى الحيوان فيأكله . وقيل هو

تُطَالِبُهُ النَّفْسُ بِهِ وَتَقُولُ : لاَبُدَّ لِي مِنْ رِزْقٍ وَقِوامٍ وَقَدْ تَجَرَّدْتُ عَنِ الدُّنْيا وَتَفَرَّدْتُ أَيْضاً عَنِ الخَلْقِ فَمِنْ أَيْنَ يَكُونُ قِوَامِي وَرِزْقِي . وَالثَّانِي الأَخْطارُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَخَافُهُ أَوْ يَرْجُوهُ أَوْ يُرِيدُهُ أَوْ يَكْرَهُهُ وَلاَ يَدْرِي صَلاَحَهُ فِي ذٰلِكَ أَوْ فَسَادَهُ ، لِأَنَّ عَوَاقِبَ الأُمُورِ مُبْهَمَةٌ فَيَشْتَغِلُ قَلْبُهُ بِهَا فَإِنَّهُ رُبَّما وَقَعَ فِي فَسَادٍ أَوْ مَهْلَكَةٍ . وَالثَّالِثُ الشَّدَائِدُ وَالمَصَائِبُ تُنْصَبُ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ لاَ سِيَّمَا وَقَدِ انْتَصَبَ لِمُخَالَفَةِ الخَلْقِ وَمُحَارَبَةِ الشَّيْطَانِ وَمُضَادَّةِ النَّفْسِ ، فَكَمْ مِنْ غُصَّةٍ يَتَجَرَّعُهَا، وَكَمْ مِنْ شِدَّةٍ تَسْتَقْبِلُهُ ، وَكَمْ مِنْ هَمٍّ وَحَزَنٍ يَعْتَرِضُهُ ، وَكَمْ مِنْ مُصِيبَةٍ تَتَلَقَّاهُ ؟ . وَالرَّابِعُ أَنْوَاعُ القَضَاءِ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

---

ما ساقه الله تعالى إلى الحيوان فانتفع به بالتغذى أو غيره ، وبحث فيه بالعارية . وأجيب بأن العارية الرزق فيها مقدار الانتفاع بها رزق ، فاندفع البحث وكونها ينتفع به أمر قطعي محسوس وفى الحديث المتكلم عليه إن الرزق يكثر بالأسباب بتقدير الله عز وجل قد جاءت فى ذلك أحاديث كثيرة قولية وفعلية ، وقد أفردها بالتأليف : الحافظ جلال الدين السيوطى ، رحمه الله سماه [حصول الرفق بأصول الرزق] كما أفاده الفاسى (تطالبه النفس به وتقول لا بد) أى لا غنى (لى من رزق وقوام) أى ما تقوم به بنيتى (وقد تجردت) أى تخليت وتعريت (عن الدنيا وتفردت أيضا) أى كما أنى تجردت عن الدنيا (عن الخلق ، فمن أين يكون قوامى ورزقى ؟ والثانى الأخطار) جمع خطر : وهو ما يخاف على عاقبته (من كل شيء يخافه أو يرجوه أو يريده، أو يكرهه ولا يدرى) العبد (صلاحه فى ذلك) الشيء الذى يخطره (أو فساده ، لأن عواقب الأمور مبهمة) فكم من شر فى صورة خير ، وكم من ضر فى حلية نفع (فيشتغل قلبه بها) أى بالأخطار (فإنه ربما وقع فى فساد أو مهلكة . والثالث الشدائد والمصائب تنصب) بالبناء للمفعول : أى تقام (عليه من كل جانب لا سيما) كلمة يؤتى بها للدلالة على أن ما بعدها أولى بالحكم مما قبلها وترد مخففة ومشددة ، والسي : المثل ، وما زائدة كما فى القاموس أو موصولة كما قاله ابن حجر أفاده الجرهزى (وقد انتصب) أى تصدى وأقبل كما قاله الحريرى (لمخالفة الخلق ومحاربة الشيطان ومضادة النفس) أى مخالفتها (فكم من غصة) أى مرارة (يتجرعها) أى يشربها ، وهو كناية عن التكره كما قاله الحريرى (وكم من شدة) ومصيبة (تستقبله ، وكم من هم وحزن) بفتحتين مصدر قياسى أو بضم فسكون : اسم مصدر . قال العلامة الفاسى : هما متقاربان مؤداهما ما يحزن القلب ويغمه ويلازمه ويأخذ بالنفس بسبب ما يخاف ويتوقع من الأسواء والحالات المكروهة . وقال الشرقاوى : إن الهم متعلق بما يكون فى المستقبل ، والحزن متعلق بما يكون فى الماضى (يعترضه ، وكم من مصيبة تتلقاه . والرابع أنواع القضاء من الله سبحانه وتعالى) والقضاء عند

بِالْحُلْوِ وَالْمُرِّ تَرِدُ عَلَيْهِ حَالاً فَحَالاً ، وَالنَّفْسُ تُسَارِعُ إِلَى السُّخْطِ وَتُبَادِرُ إِلَى الْفِتْنَةِ فَاسْتَقْبَلَتْهُ هٰهُنَا (عَقَبَةُ الْعَوَارِضِ الْأَرْبَعَةِ) فَاحْتَاجَ إِلَى قَطْعِهَا بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ : التَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِى مَوْضِعِ الرِّزْقِ ، وَالتَّفْوِيضِ إِلَيْهِ جَلَّ وَعَزَّ فِى مَوْضِعِ الْخَطَرِ ،

---

الأشعرية : إرادته الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هى عليه فما لايزال : أى فى المستقبل ، وأما القدر فهو إيجاده إياها على قدر مخصوص وتقدير معين فى ذواتها وأفعالها . والقضاء علمه أولا بالأشياء على ما هي عليه ؛ والقدر إيجاده إياها على ما يطابق العلم ، كذا فى شرح الأربعين لابن حجر ( بالحلو والمر ) فحلو القضاء ما لاءم الطبع ووافق النفس كالتنعم والتلذذ بجميع الملاذ كالعافية والمأكل والمشرب والمنكح ، ومره جميع ما نفر الطبع وخالفه كالآلام والأسقام والأمراض والأوجاع والجوع والعطش والخوف كما قاله الفشنى ( ترد ) أى تجيء ( عليه حالا فحالا ، والنفس تسارع ) أى تبادر ( إلى السخط ) والبغض ( وتبادر إلى الفتنة ) وتقول لم كان كذا ولم يكون كذا ؟ ( فاستقبلته ههنا ) أى فى عقبة العوائق كما قرره بعضهم ( عقبة العوارض الأربعة فاحتاج ) أى العبد ( إلى قطعها بأربعة أشياء ) : أحدها ( التوكل على الله سبحانه وتعالى فى موضع الرزق) أى اعتماد القلب على الوكيل الحق وحده ثقة بوعده واعتمادا على كمال كرمه ورحمته . فانه سبحانه وتعالى ضمن فى كتابه حيث قال « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » وأقسم عليه بقوله « وفى السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون» كما سيأتى بسطه . فمن لم يعتمد على ضمان هذا الكريم ولم يثق بجود هذا الغنى الرحيم ، ولم يطمئن قلبه بوعده . فكيف يستقر الإيمان فى قلبه ، ومن أين معرفته ؟ .

سئل سلطان العارفين : أبو يزيد البسطامي من أين تأكل ؟ فقال : مولاى يطعم الكلب والخنزير . أفترى أن لايطعم أبا يزيد . وقال إبراهيم بن أدهم : سألت بعض الرهبان من أين تأكل ؟ قال ليس هذا العلم عندى ولكن اسأل ربك من أين يطعمنى ؟ .

والعجب ممن يدعى العقل وهو جرب ثلاثين أو أربعين أو خمسين سنة ليلا أو نهارا ولم يفته غداؤه ولا عشاؤه . أما يكفيه هذه التجربة إن لم يوجد العلم والمعرفة . نعوذ بالله من الجهل الدائم والحرص الهائم . وقد قيل : مكتوب فى التوراة : ملعون من ثقته إنسان مثله . وقال النبى صلى الله عليه وسلم « من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لايحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها » فنسأل الله الكريم أن يمن علينا بالثقة بوعده وجوده ، إنه على مايشاء قدير ، وبالاجابة جدير ، كذا قاله السيد بكرى ( و ) ثانيها ( التفويض إليه جل وعز فى موضع الخطر) يقال فوض أمره إليه تفويضا : سلم أمره إليه كما فى المصباح :

وَالصَّبْرِ عِنْدَ نُزُولِ الشَّدَائِدِ ، وَالرِّضَا عِنْدَ نُزُولِ الْقَضَاءِ .

أى تسليم الأمور إلى الله تعالى فى الموضع المذكور ، وذلك لطمأنينة القلب فى الحال ، وحصول الصلاح والخير فى الاستقبال . (و) ثالثها ( الصبر ) أى حبس النفس على العبادات ومشاقها ، و ( عند نزول الشدائد ) أى المصائب عليه وحرارتها ، والصبر عن المنهيات والشهوات ولذاتها ، وأفضل أنواعه الأخير ، فالأول لخبر ابن أبى الدنيا وابن جرير ، لكن باسناد ضعيف « إن الصبر على المصيبة يكتب به للعبد ثلثمائة درجة ، وإن الصبر على الطاعة يكتب به للعبد ستمائة درجة ، وإن الصبر عن المعاصى يكتب له به تسعمائة درجة » ولله در القائل .

وقل من جد فى أمر يطالبه　　　واستعمل الصبر إلا فاز بالظفر

وللعارفين فيه عبارات مآلها إلى معنى واحد نحو قولهم : الصبر هو الثبات على الكتاب والسنة ، وقولهم : هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب ، وقولهم أيضا : هو أن لا يعترض على المقدور ، فلا ينافيه إظهار البلاء على وجه الشكوى . قال الله تعالى فى أيوب عليه السلام : « إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب » مع أنه قال « مسنى الضر » كما أفاده العلامة ابن حجر فى شرح الأربعين . قال حجة الاسلام : وذلك للوصول إلى العبادة وحصول المقصود ، فان مبنى أمر العبادة كلها على الصبر واحتمال المشقات ، فمن لم يكن صبورا لم يصل إلى شىء من حقيقة العبادة . (و) رابعها ( الرضا عند نزول القضاء ) أى فيما حكم به فى الأزل من إشقاء وإسعاد وتقريب وإبعاد وشدة ورخاء . قال الله تعالى « رضى الله عنهم ورضوا عنه » فرضا الرب سبحانه سبب لرضا العبد عن الله ورضا العبد بالله وعن الله سبب لرضا الله عن عبده ، والرضا الأول ذاتى لتعلقه بتخصيص الإرادة ، والرضا الثانى فعل لأنه ثواب الله يفيضه على عبده الراضى زيادة على جزائه ، ثم قال « ذلك لمن خشى ربه » فان الخشية ملاك الأمر والباعث على كل خير ، وفى الخبر « طوبى لمن هدى للاسلام وكان رزقه كفافا ورضى به » . رواه مسلم من حديث فضالة بن عبيد . وقال صلى الله عليه وسلم « من رضى من الله تعالى بالقليل من الرزق رضى الله تعالى منه بالقليل من العمل » قال العراقى : رويناه فى أمالى المحاملى من حديث على كرم الله وجهه . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أحب الله عبدا ابتلاه ، فان صبر اجتباه ، وإن رضى اصطفاه » . رواه صاحب القوت من طريق أهل البيت ، وقال صلى الله عليه وسلم « أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا » رواه الديلمى فى مسند الفردوس . وقال أبو بكر بن طاهر : الرضا إخراج الكراهية من القلب حتى لا يكون فيه إلا فرح وسرور . وقال ابن خفيف : الرضا سكون القلب إلى أحكامه وموافقة القلب بما رضى الله به واختاره . وسئلت رابعة متى يكون العبد راضيا ؟ فقالت : إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة . وبالجملة من عرف خفى لطف الله تعالى رضى بفعله على كل حال ، ويروى فى الاسرائيليات أن عيسى عليه السلام مر برجل أعمى أبرص مقعد مضروب الجنبين بفالج وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيرا من خلقه ، فقال له يا هذا أى شىء

فَأَخَذَ فِي قَطْعِ هٰذِهِ الْعَقَبَةِ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى وَحُسْنِ تَأْيِيدِهِ ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَطْعِهَا وَعَادَ إِلَى قَصْدِ الْعِبَادَةِ نَظَرَ فَإِذَا النَّفْسُ فَاتِرَةٌ ضَعِيفَةٌ كَسْلَى لَا تَنْشَطُ وَلَا تَنْبَعِثُ لِلْخَيْرِ كَمَا يَحِقُّ وَيَنْبَغِي ، وَإِنَّمَا مَيْلُهَا أَبَدًا إِلَى غَفْلَةٍ وَدَعَةٍ وَرَاحَةٍ وَبَطَالَةٍ ، بَلْ إِلَى شَرٍّ وَفُضُولٍ وَبَلِيَّةٍ وَجَهَالَةٍ ، فَاحْتَاجَ مَعَهَا هٰهُنَا إِلَى سَائِقٍ يَسُوقُهَا إِلَى الْخَيْرِ وَالطَّاعَةِ وَيُنَشِّطُهَا لَهُ ، وَزَاجِرٌ يَزْجُرُهَا عَنِ الشَّرِّ وَالْمَعْصِيَةِ وَيُفَتِّرُهَا عَنْهُ وَهُوَ الرَّجَاءُ وَالْخَوْفُ ؛ فَالرَّجَاءُ فِي عَظِيمِ ثَوَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَحُسْنِ مَا وَعَدَ مِنْ أَنْوَاعِ الْكَرَامَةِ ، وَتَذَكُّرِ ذٰلِكَ

---

من البلاء أراه مصروفا عنك ؟ فقال يا روح الله أنا خير ممن لم يجعل الله فى قلبه ماجعل فى قلبي من معرفته ، فقال له صدقت هات يدك فناوله يده فأبرأه الله مما كان به فاذا هو أحسن الناس وجها وأفضلهم هيئة قد أذهب الله عنه ما كان به ببركة رضاه عن ربه ، فصحب عيسى عليه السلام مدة وتعبد معه . قال حجة الاسلام : وذلك ، أى مطلوب الرضا للتفرغ للعبادة وخطر مافى السخط من غضب الله تعالى (فأخذ ) أى العبد ( فى قطع هذه العقبة بإذن الله تعالى وحسن تأييده ) أى تقويته وتوفيقه ( فلما فرغ من قطعها وعاد إلى قصد العبادة نظر ) جواب لما : أى فكر بقلبه ( فاذا النفس فاترة ) أى بطيئة عنها ( ضعيفة كسلى ) بوزن فعلى أى ثقيلة ( لا تنشط ) بفتح الشين من باب تعب : أى لا تسرع ولا تخف ( ولا تنبعث لخير ) أى لفعله ( كما يحق ، و ) كما ( ينبغى ) أى الذى يطلبه ( وإنما ميلها أبدا إلى غفلة ودعة وراحة ) هما بمعنى واحد : وهو الاستراحة والتلذذ بالمشتهيات ( وبطالة ) بفتح الباء وحكى بعضهم بالكسر وقال هو أفصح : أى خالية عن العمل وعاطلة من الشواغل ( بل ) تميل ( إلى شر وفضول ) وهو ما لا يعنيه فى الدنيا والآخرة ( وبلية ) أى مصيبة ( وجهالة ) بالحق ( فاحتاج معها ههنا ) أى فى فتور النفس وكسلها عن العبادة ( إلى سائق ) أى باعث ( يسوقها ) أي يبعثها ( إلى الخير والطاعة وينشطها له ) أى لفعلها ( و ) احتاج أيضا إلى ( زاجر ) أى مانع ( يزجرها ) أى يمنعها وينهاها وهو من باب نصر ( عن الشر والمعصية ويفترها ) بفتح الياء من باب دخل : أى يضعفها ويكسرها ( عنه ) أى عن المذكور من الشر والمعصية ( وهما ) أي السائق والزاجر ( الرجاء والخوف ) . اعلم أنهما حالتان لابد لكل شخص منهما ولايخلو منهما أحد سلك الطريق أولا وسيأتى بيان ذلك . وقال العارفون : إن خوف السائر إلى الله يسمى قبضا ، ورجاءه يسمى بسطا ، والمتوسط يسمى أنسا وهيبة ، والكامل يسمى جلالا وجمالا ( فالرجاء ) مبتدأ خبره سائق ( فى عظيم ثواب الله سبحانه ) أى المتوقف على فعل الحسنات وترك السيئات ( وحسن ما وعد من أنواع الكرامة وتذكر ذلك ) أى عظيم الثواب

سَائِقٌ يَسُوقُهَا فَيَبْعَثُهَا عَلَى الطَّاعَةِ ، وَيُحَرِّكُهَا لِذَلِكَ وَيُنَشِّطُهَا ، وَالْخَوْفُ مِنْ أَلِيمِ عِقَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَصُعُوبَةِ مَا أَوْعَدَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُقُوبَةِ وَالْإِهَانَةِ زَاجِرٌ يَزْجُرُهَا عَنِ الْمَعْصِيَةِ وَيُجَنِّبُهَا وَيَفْتُرُهَا عَنْ ذَلِكَ . ( فَهَذِهِ عَقَبَةُ الْبَوَاعِثِ ) اسْتَقْبَلَتْهُ هُهُنَا فَاحْتَاجَ إِلَى قَطْعِهَا بِهَذَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ فَأَخَذَ فِيهَا بِحُسْنِ تَوْفِيقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَطَعَهَا فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا رَجَعَ إِلَى الْإِقْبَالِ عَلَى الْعِبَادَةِ فَلَمْ يَرَ عَائِقاً وَلَا شَاغِلاً وَوَجَدَ بَاعِثاً وَدَاعِياً ، فَنَشِطَ فِي الْعِبَادَةِ فَأَقَامَهَا وَعَانَقَهَا بِتَمَامِ الشَّوْقِ وَالرَّغْبَةِ فَأَدَامَهَا ، فَنَظَرَ فَإِذَا أَنَّهُ تَبْدُو لِهَذِهِ الْعِبَادَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي احْتَمَلَ فِيهَا كُلَّ ذَلِكَ آفَتَانِ عَظِيمَتَانِ وَهُمَا الرِّيَاءُ وَالْعُجْبُ ، تَارَةً يُرَائِي بِطَاعَتِهِ النَّاسَ فَيُفْسِدُهَا ،

---

وحسن الكرامة ( سائق يسوقها ) أي النفس ( فيبعثها ) أى يحملها ( على الطاعة ويحركها لذلك ) أى الطاعة ونحو ذلك من أنواع الخيرات ( وينشطها ، والخوف ) مبتدأ خبره زاجر ( من أليم عقاب الله عز وجل ) فى الآخرة ( وصعوبة ما أوعد من أنواع العقوبة والإهانة زاجر يزجرها عن المعصية ويجنبها ) أى يبعدها ( ويفترها ) أى يقطعها ( عن ذلك ) أي المعصية ، وذلك أن العبد إذا سمع ما يترتب على فعل الطاعة من الثواب أو على فعل المعصية من العقاب انساق إلى فعل الأول وترك الثانى كما ذكره العلامة الأمير (فهذه عقبة البواعث استقبلته ههنا )أي فى احتياجه إلى الرجاء والخوف ( فاحتاج إلى قطعها بهذين المذكورين فأخذ فيها بحسن توفيق الله عز وجل فقطعها ) أى جاوزها ( فلما فرغ منها رجع إلى الإقبال على العبادة فلم ير عائقا ) يعوقه عنها ( ولا شاغلا ) يشغله عن ذلك ( ووجد باعثا ) للخير والطاعة ( وداعيا ) إليها ( فنشط فى العبادة ) أى أقبل عليها ( فأقامها ) أى العبادة بفرائضها وسننها ( وعانقها ) أى حصلها ( بتمام الشوق ) أى الميل إليها ميلا يحترق به الأحشاء بحيث لا يسكن إلا بإتيان قصده كما أفاده الفاسى ( والرغبة ) أى التوجه والإقبال ( فأدامها ) على ذلك ( فنظر ) أى العبد فى حاله من إدمان العبادة ( فإذا ) أى فحين حصل النظر والتأمل فى ذلك استشعر فى قلبه ( أنه ) أى الحال والشأن ( تبدو ) أى تظهر ( لهذه العبادة العظيمة التى احتمل ) وأقام ( فيها كل ذلك ) أى تمام الشوق والرغبة ( آفتان عظيمتان : وهما الرياء ) وهو الشرك الأصغر كما فى الخبر ( والعجب ) أى الإعجاب : أى تحسينه فعل نفسه على غيره وإن كان قبيحا ( تارة يرائى بطاعته الناس ) وذلك طلبه المنزلة فى قلوبهم لينال بها الجاه والحشمة وحب الجاه من الهوى المتبع وفيه هلك أكثر الناس ، ذكره حجة الاسلام ( فيفسدها ) أى يفسد الرياء طاعته ، يعنى يحبط ثوابها كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «إن المرائى ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء : ياكافر يافاجر ياغادر ياخاسر ، ضل سعيك وبطل أجرك فلا خلاق لك اليوم ، التمس الأجر ممن كنت تعمل له » .

وَأُخْرَى يَمْتَنِعُ عَنْ ذٰلِكَ وَيَلُومُ نَفْسَهُ فَيَعْجَبُ بِنَفْسِهِ فَيُحْبِطُ الْعِبَادَةَ عَلَيْهِ وَيُتْلِفُهَا وَيُفْسِدُهَا فَاسْتَقْبَلَتْهُ هٰهُنَا (عقبةُ الْقَوَادِحِ) فَاحْتَاجَ إِلَى قَطْعِهَا بِالْإِخْلَاصِ وَذِكْرِ الْمِنَّةِ وَنَحْوِهَا لِيَسْلَمَ لَهُ مَا يَعْمَلُ مِنْ خَيْرٍ فَأَخَذَ فِي قَطْعِ هٰذِهِ الْعَقَبَةِ بِإِذْنِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِجِدٍّ وَاحْتِيَاطٍ وَتَيَقُّظٍ بِحُسْنِ عِصْمَةِ الْجَبَّارِ تَعَالَى وَتَأْيِيدِهِ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ هٰذِهِ كُلِّهَا حَصَلَتْ لَهُ الْعِبَادَةُ

---

واعلم أن المراءى به كثير يجمعه خمسة أقسام : الأول الرياء فى الدين بالبدن كاظهار النحول والصفار وتشعيث الشعر ليدل بالنحول على قلة الأكل ، وبالصفار على سهر الليل ، وعظم الحزن على الدين ، وبالتشعيث على استغراق الهم بالدين ، وعدم التفرغ لتسريح الشعر. والثانى الرياء بالهيئة والزى كاطراق الرأس في المشى والهدوء فى الحركة وإبقاء أثر السجود على الوجه وغلظ الثياب وترك تنظيف الثوب وتركه مخرقا ولبس المرقعة . والثالث الرياء بالقول كالنطق بالحكمة وتحريك الشفتين بالذكر فى محضر الناس ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بمشهد الخلق ، وإظهار الغضب للمنكرات ، وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصى وتضعيف الصوت فى الكلام وترقيق الصوت بقراءة القرآن ليدل بذلك على الخوف والحزن . والرابع الرياء بالعمل كمراءاة المصلى بطول القيام والسجود والركوع وترك الالتفات وإظهار السكون وتسوية القدمين واليدين ، وكذلك فى الصوم والحج والصدقة وإطعام الطعام . والخامس المراءاة بالأصحاب والزائرين والمخالطين كالذى يتكلف أن يستزير عالما أو عابدا أو ملكا أو عاملا من أعمال السلطان ليقال إنهم يتبركون به لعظم رتبته فى الدين ، وكالذى يكثر ذكر الشيوخ ليرى أنه لقى شيوخا كثيرة واستفاد منهم فيتباهى بشيوخه أفاده بعض المحققين ( وأخرى ) أى تارة أخرى ( يمتنع عن ذلك ) الرياء ( ويلوم ) أى يعتب على ذلك ( نفسه فيعجب بنفسه فيحبط ) أى العجب ( العبادة ) أى ثوابها ( عليه ) بالكلية . ومعنى الإحباط : الإفساد والإهدار كما فى المصباح ( ويتلفها ويفسدها ) بمعنى واحد ( فاستقبلته ههنا ) أى فى ظهور الآفتين العظيمتين وهما الرياء والعجب ( عقبة القوادح ) جمع قادح ، وهو العيب والنقص كما فى المصباح ، والمراد هنا الصفات المهلكات للعبادة ، وهى الرياء والعجب (فاحتاج إلى قطعها بالإخلاص) لله تعالى ( وذكر المنة ) منه ( ونحوها ) أى كاستحضار نظر الله العليم بأسراره حال بروز العبادة منه ( ليسلم له ما يعمل من خير فأخذ فى قطع هذه العقبة بإذن الله سبحانه وتعالى بجد ) بكسر الجيم : أى اجتهاد ومبالغة فى الأمر ( واحتياط وتيقظ ) أى تنبه ( بحسن عصمة ) أى حفظ ( الجبار ) اسم من أسمائه ( تعالى ) وهو فى الأصل : إصلاح الشىء بضرب من القهر ؛ فمعناه المصلح لخلل العباد بردهم للتوبة أو بغير ذلك ، وقيل معناه الذى يقهر العباد على كل ما أراد ( وتأييده ) أى تقويته ( فلما فرغ من هذه ) أى من قطع هذه العقبات ( كلها حصلت له العبادة )

كما يَحِقُّ وَيَنْبَغِي وَسَلِمَتْ مِنْ كُلِّ آفةٍ ، وَلَـكِنَّهُ نَظَرَ فَإِذَا هُوَ غَرِيقٌ فى بُحُورِ مِنَنِ اللهِ تَعالَى وَأَيَادِيهِ مِنْ كَثْرَةِ مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ إِمْدَادِ التَّوْفِيقِ وَالْعِصْمَةِ وَأَنْوَاعِ التَّأْيِيدِ وَالْحِرَاسَةِ وَالْكَرَامَةِ وَخَافَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ إِغْفَالٌ لِلشُّكْرِ فَيَقَعُ فى الْكُفْرَانِ فَيَنْحَطُّ عَنْ تِلْكَ المَرْتَبَةِ الرَّفِيعَةِ الَّتِي هِيَ مَرْتَبَةُ الْخَدَمِ الْخَالِصِينَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَزُولُ عَنْهُ تِلْكَ النِّعَمُ الْكَرِيمَةُ مِنْ ضُرُوبِ أَلْطَافِ اللهِ تَعَالَى وَحُسْنِ نَظَرِهِ إِلَيْهِ فَاسْتَقْبَلَتْهُ هٰهُنَا . ( عقبةُ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ )

---

الخالصة ( كما يحق وينبغي ، وسلمت ) أى العبادة (من كل آفة) من الآفات المذكورة ( ولـكنه ) أى العبد السالك ( نظر ) أى تفكر بقلبه ( فاذا هو غريق فى بحور منن ) جمع منة : بمعنى النعمة مطلقا أو بقيد كونها ثقيلة مبتدأة من غير مقابل كما ذكره باعشن : أى نعم ( الله تعالى وأياديه ) جمع يد ، وهى النعمة والإحسان ( من كثرة ما أنعم الله عليه من إمداد التوفيق ) الاضافة بيانية : أى الامداد الذى هو التوفيق كما قرره بعضهم ( والعصمة ) أى الحفظ عن الوقوع فى المخالفات ( وأنواع التأييد ) أى التقوية ( والحراسة ) من الأعداء ( والكرامة ) وهي الأمر الخارق للعادة غير مقارن لدعوى النبوة ( وخاف أن يكون منه إغفال ) أي غفلة ( للشكر ) على تلك المنن والنعم ( فيقع فى الكفران ) أى الجحد لها إن أغفله ( فينحط ) أى ينزل ( عن تلك المرتبة الرفيعة التى هى مرتبة الخدم ) جمع خادم ( الخالصين ) أى من المكدرات التى تحبط العمل كحب الظهور والشهرة والمحمدة . قال السيد الجرجانى : الإخلاص فى اللغة : ترك الرياء فى الطاعات ، وفي الاصطلاح : تخليص القلب عن شائبة الشوب المكدر لصفائه ، وتحقيقه أن كل شىء يتصور أن يشوبه غيره ، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه يسمى خالصا ، ويسمى الفعل المخلص إخلاصا قال الله تعالى « من بين فرث ودم لبنا خالصا » فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيـه شوب من الفرث والدم ، ويأتى بيان الإخلاص فى بابه ( لله عز وجـل ) أي لوجهه ورضاه لا لغرض من الأغراض الفاسدة ( وتزول عنه ) أي عن العبد ( تلك النعم الكريمة من ضروب ) أي أنواع ( ألطاف الله تعالى ) والألطاف جمع لطف : وهو لغة يطلق على الرفق والإحسان ، يقال لطف به كنصر لطفا بالضم وعلى الصغر والدقة ، يقال لطف ككرم لطفا بالضم ولطافة . وفى اصطلاح جمهور المتكلمين : الإقدار على الطاعة فهو مساو عندهم للتوفيق ، وحمله هنا على معنى الرفق والإحسان أولى لعمومه من حمله على الصغر . والدقة : بمعنى النعم الصغيرة ، أو الإقدار على الطاعة كما أفاده الصبان فى حواشى العصام ( وحسن نظره ) تعالى ( إليه ) أى إلى العبد ( فاستقبلته ههنا ) أى فى غرقه فى بحور منن الله تعالى ( عقبة الحمد والشكر ) وسيأتى بيانهما .

اعلم أنهم قد اختلفوا فى الفرق بين الحمد والشكر أيهما أفضل ؟ وفى الحديث « الحمد رأس

فَأَخَذَ فِيهَا فَقَطَعَهَا بِمَا أَمْكَنَهُ مِنْ كَثْرَةِ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ عَلَى كَثِيرِ نِعَمِهِ ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَطْعِ هٰذِهِ الْعَقَبَةِ وَنَزَلَ فَإِذَا هُوَ بِمَقْصُودِهِ وَمُبْتَغَاهُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَمْ يَسِرْ إِلاَّ قَلِيلاً حَتَّى وَقَعَ فِى سَهْلِ الْفَضْلِ وَصَحْرَاءِ الشَّوْقِ

---

الشكر فمن لم يحمد الله لم يشكره » والفرق بينهما أن الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه وأخص من جهة متعلقاته ، والحمد أعم من جهة المتعلقات وأخص من جهة الأسباب ؛ معنى هذا أن الشكر يكون بالقلب خضوعا واستكانة ، وباللسان ثناء واعترافا ، وبالجوارح طاعة وانقيادا ، ومتعلقه النعم دون الأوصاف الذاتية ؛ فلا يقال شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه وهو المحمود بها كما هو محمود على إحسانه وعدله ، والشكر يكون على الإحسان والنعم ، فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس ، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس ، فإن الشكر يقع بالجوارح ، والحمد باللسان ، كذا قاله الزبيدى ( فأخذ ) أى شرع العبد السالك وسار ( فيها ) أى فى سلوكها وقطعها ( فقطعها بما أمكنه من كثرة الحمد والشكر على كثير نعمه ) بعد قطع هذه العقبات كلها والظفر بالمقصود من هذه العبادة السالمة من الآفات ( فلما فرغ من قطع هذه العقبة ونزل فإذا هو بمقصوده ومبتغاه ) أى مطلوبه الذى طلبه بجد واجتهاد كما قاله الراغب ، وقال الحرانى : الابتغاء افتعال تكلف البغى وهو أشد الطلب ( بين يديه ) أى العبد ( فلم يسر ) فى سلوكه ( إلا قليلا حتى وقع فى سهل الفضل ) وسعته ( وصحراء الشوق ) أى الشوق الشبيه بالصحراء فى السعة وهو ثمرة المحبة . قال العلامة الفاسى : والشوق هو ولوع باطن المحب حال الفراق إلى وصل محبوبه ، وهو من الأحوال السنية والمقامات العلية . وقيل فيه : إنه عبارة عن هبوب قواصف رياح المحبة بشدة ميلها إلى لحاق المشتاق بمشوقه ، فالشوق نتيجة المحبة وثمرتها ، فإذا استقرت المحبة ظهر الشوق فلا يكون المحب إلا مشوقا أبدا فهو من ضرورة صحتها والصدق فيها . قال : والشوق زيادة وصف المحبة ، فالعمل عليه عمل على المحبة الخالصة ، وهو شوق واشتياق ، فالشوق : هو شغف المحبة فى حال منع المحب من المحبوب . والاشتياق : هو زيادة الشغف فى حال وصل المحب بالمحبوب مخافة القطيعة بعد الوصلة ، فالشوق يكون بالتلاقى والرؤية ، والاشتياق لا يزول باللقاء ، وفى معناه أنشدوا :

ما يرجع الطرف عنه عند رؤيته  حتى يعود إليه الطرف مشتاقا

ومن ثم قيل إن الاشتياق أعلى من الشوق لأنه لا يسكن بلقاء المشتاق إليه . وقال الشيخ أبو العباس المرسى قدس سره : الشوق على قسمين : شوق على الغيبة لا يسكن إلا بلقاء الحبيب وهو شوق النفوس . وشوق الأرواح على الحضور والمعاينة انتهى ، وكأن شوق الأرواح هو الذى سماه غيره بالاشتياق كما صرح به الفاسى ، فالمحب أبدا مستغرق الهم فى شأن محبوبه كما أشار إلى ذلك الشيخ عمر بن الفارض رضى الله عنه حيث قال :

وما بين شوق واشتياق فنيت فى  تول بحظر أو تجل بحضرة

وَعَرَصَاتِ المَحَبَّةِ

وقال أبو عثمان : علامة الشوق حب الموت مع الراحة . وقال يحي بن معاذ : علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات ، قال شيخ الاسلام وذلك بأن يعرض العبد عنها شوقا إلى ربه كما يعرض الطفل عن اللبن حين يطيب له الطعام ويشتاق إليه .

وسئل ابن عطاء : الشوق أعلى أم المحبة ؟ فقال : المحبة لأن الشوق منها يتولد وهو أفضل من الأنس ولذلك قدمه ، لأن الآنس قصر نظره على ما انكشف له من جمال المحبوب ولم يمتد نظره إلى استكشاف ما غاب عنه . والمشتاق كالعطشان الذى لا ترويه البحار لمعرفته بأن الذى انكشف له من الأمور الإلهية بالنسبة إلى ما غاب عنه كالذرة بالنسبة إلى سعة الوجود ، ولله المثل الأعلى ( وعرصات المحبة ) والعرصات فى الأصل جمع عرصة يوزن ضربة ، وهي كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء ، ومحبة الحق سبحانه للعبد إرادته لإنعام مخصوص عليه كما أن رحمته له إرادة الإنعام ؛ فالرحمة أخص من الإرادة ، والمحبة أخص من الرحمة ، فإرادة الله تعالى لأن يوصل إلى العبد الثواب والإنعام تسمى رحمة ، وإرادته لأن يخصه بالقرب والأحوال العلية تسمى محبة ، فإرادته سبحانه صفة واحدة فبحسب تفاوت متعلقاتها تختلف أسماؤها ، فإذا تعلقت بالعقوبة تسمى غضبا ، وإذا تعلقت بعموم النعم تسمى رحمة ، وإذا تعلقت بخصوصها تسمى محبة ، وقوم قالوا محبة الحق سبحانه للعبد مدحه له وثناؤه عليه بالجميل فيعود معنى محبته له على هـذا القول إلى كلامه وكلامه قديم . وقال قوم محبته للعبد من صفات فعله ، وهو إحسان مخصوص يلقى الله العبد به من الصفات الخيرية ، فأطلقوا اللفظ وتوقفوا عن التفسير . فأما ما عدا هذه الجملة مما هو فى المعقول من صفة محبة الخلق كالميل إلى الشىء والاستئناس وكحالة يجدها المحب مع محبوبه من المخلوقين ، فالقديم سبحانه يتعالى عن ذلك .

وأما محبة العبـد لله تعالى فحالة يجدها من قلبه تلطف عن العبارة ، وقد تحمله تلك الحالة على تعظيمه وإيثار رضاه وقلة الصبر عنه مع الاستئناس بدوام ذكره له بقلبه ، وليست محبة العبد له ميلا ولا اختلاطا ، كيف وحقيقة الصمدية مقدسة عن اللحوق والإحاطة ، والمحب بوصف الاستهلاك فى المحبوب أولى منه بوصف الاختلاط ، ولا توصف المحبة بوصف ولا تحد بحد أوضح ولا أقرب إلى الفهم من لفظ المحبة . قال جعفر : سمعت سمنونا يقول : ذهب المحبون لله تعالى بشرف الدنيا والآخرة ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال « المرء مع من أحبه » . فهم مع الله تعالى . وقال النصراباذى : المحبة مجانبة السلو على كل حال ثم أنشد :

ومن كان فى طول الهوى ذاق سلوة ... فانى من ليلى لها غير ذائق
وأ كثر شىء نلته من وصالها ... أمانى لم تصدق كلمحة بارق

وقال محمد بن الفضل : المحبة سقوط كل محبة من القلب إلا محبة الحبيب . وقال الجنيد : المحبة إفراط الميل بلا نيل ، ويقال المحبة تشويش فى القلوب يقع من المحبوب ، وقال الحسين بن منصور

ثُمَّ يَقَعُ فِى رِيَاضِ الرِّضْوَانِ وَبَسَاتِينِ الْأُنْسِ إِلَى بِسَاطِ الْانْبِسَاطِ وَمَرْتَبَةِ التَّقْرِيبِ

حقيقة المحبة قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك ، كذا قاله القشيرى فى الرسالة ( ثم يقع فى رياض الرضوان ) والرياض : جمع روضة : وهى البستان ، والرضوان : ضد السخط .

وقد اختلف العراقيون والخراسانيون فى الرضا هل هو من الأحوال أو من المقامات ؟ فأهل خراسان قالوا : الرضا من جملة المقامات وهو نهاية التوكل ، ومعناه أنه يئول إلى أنه مما يئول إليه العبد باكتسابه ، وأما العراقيون فانهم قالوا الرضا من جملة الأحوال وليس ذلك كسبا للعبد ، بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال . ويمكن الجمع بين قول الفريقين فيقال : بداية الرضا مكتسبة للعبد وهى من المقامات ، ونهايته من جملة الأحوال وليست بمكتسبة له كالنوازل الضرورية كالرعشة والرعدة بالحمى .

واعلم أن الواجب على العبد الرضا بالقضاء الذى أمر بالرضا به ، إذ ليس كل ماهو بقضائه يجوز للعبد أو يجب عليه الرضا به كالمعاصى وفنون محن المسلمين . قال القشيرى : قال عبد الواحد بن زيد : الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا .

واعلم أن العبد لايكاد يرضى عن الحق سبحانه إلا بعد أن يرضى عنه الحق سبحانه ، لأن الله عز وجل قال : رضى الله عنهم ورضوا عنه . قال ابن عطاء : الرضا نظر القلب إلى قديم اختيار الله تعالى للعبد ، وهو ترك التسخط . وقال المحاسبى : الرضا سكون القلب تحت مجارى الأحكام . وقال النوورى : الرضا سرور القلب بمر القضاء ، وسيأتى حقيقة ذلك ، وحكمه فى العارض الثالث ( وبساتين الأنس إلى بساط الانبساط ) أى البساط الذى كل من جلس عليه حصل له الانبساط وهو ترك الاحتشام : أى الغضب وهو تلك الحضرة الإلهية فشبهها ببساط ملك عظيم تستريح الوفود إذا وصلوا إليه وجلسوا على بساطه . قال شيخ الاسلام : والأنس ناشىء من البسط الناشىء من الرجاء ، لأن من خاف الله تعالى وعرف تقصيره فى حقه تعالى انقبض قلبه وبقى مشغولا بالله فيحصل له الهيبة منه ، ومن أمل وصوله إلى خير انبسط قلبه وبقى مشغولا بالله فيحصل له الأنس به ، ولذا قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى : والأنس أتم من البسط ( ومرتبة التقريب ) من الله تعالى ، قال القشيرى : أول رتبة فى القرب القرب من طاعته والاتصاف فى دوام الأوقات بعباداته إلى أن قال : فقرب العبد أولا قرب بإيمانه وتصديقه ، ثم قرب باحسانه وتحقيقه ، وقرب الحق سبحانه مايخصه فى الدنيا به من العرفان ، وفى الآخرة مايكرمه به من الشهود والعيان ، وفيما بين ذلك بوجوه اللطف والامتنان ؛ فقرب الحق سبحانه بالعلم والقدرة عام للكافة ، وباللطف والنصرة خاص بالمؤمنين ثم بخصائص التأنيس مختص بالأولياء . قال الله تعالى « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » وقال تعالى « ونحن أقرب إليه منكم » وقال تعالى « وهو معكم أينما كنتم »

وَمَجْلِسِ الْمُنَاجَاةِ وَنَيْلِ الْخِلَعِ وَالْكَرَامَاتِ ، فَهُوَ يَتَنَعَّمُ فِى هٰذِهِ الْحَالَاتِ وَيَتَقَلَّبُ فِى طِيبِهَا أَيَّامَ بَقَائِهِ وَبَقِيَّةَ عُمْرِهِ بِشَخْصٍ فِى الدُّنْيَا وَقَلْبٍ فِى الْعُقْبَى يَنْتَظِرُ الْبَرِيدَ يَوْمًا فَيَوْمًا حَتَّى يَمَلَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ وَيَسْتَقْذِرَ الدُّنْيَا وَيَحِنَّ إِلَى الْمَوْتِ وَيَسْتَكْمِلَ الشَّوْقَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى فَإِذَا هُوَ بِرُسُلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ :

---

وقال تعالي « مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم » . اه ملخصا ( ومجلس المناجاة ) أي مجلس المحادثة في سره بالمعارف والأسرار ( ونيل الخلع ) أى حصول العطايا ، وهى بكسر الخاء وفتح اللام جمع خلعة بكسر الخاء وسكون اللام ، وهى فى الأصل مايعطيه الملوك والكبراء غيرهم من الثياب كما أفاده بعضهم (و) حصول ( الكرامات ) أى الحقيقية : وهى حصول الاستقامة والوصول إلي كماله ومرجعها إلى أمرين : صحة الايمان بالله عز وجل، واتباع ماجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرا وباطنا .

وأما الكرامة بمعنى خرق العادة فلا عبرة بها عند المحققين ، إذ قد يرزق ذلك من لم تكمل له الاستقامة ، ولذلك قال بعض العارفين : ليس الشأن من تطوى له الأرض فاذا هو بمكة وغيرها من البلدان ، إنما الشأن من تطوى عنه أوصاف نفسه فإذا هو عند ربه ، وقال أبو يزيد قدس سره : لو أن رجلا بسط مصلاه على الماء وتربع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه فى الأمر والنهى . وقيل له : إن فلانا يقال إنه يمر فى ليلة إلي مكة ، فقال : الشيطان يمر فى لحظة من المشرق إلي المغرب ، وهو فى لعنة الله ( فهو يتنعم فى هذه الحالات ) المذكورات ( ويتقلب ) أى يتنزه ويتردد ( فى طيبها أيام بقائه وبقية عمره بشخص ) أى بجسم ( فى الدنيا وقلب فى العقبى ) أى فى الآخرة ، وهذا شأن من علت همته ولم يتعلق بالدنيا قلبه ، ولله در القائل :

فكن رجلا رجله فى الثرى وهامة همته فى الثريا

( ينتظر البريد ) أى الرسول ، وهو ملك الموت (يوما فيوما حتي يمل الخلق) من الملال بمعنى السآمة : أى يسأمهم ( كلهم ويستقذر الدنيا ) أى يعدها قذرا وخبثا ( ويحن ) أى يشتاق ( إلي الموت ويستكمل الشوق ) أى الميل ( إلى الملأ ) وهم الجماعة من الأشراف وذوى الرأى من القوم يملئون العيون والقلوب جلالة وبهاء ( الأعلى ) نعت له ، وهو أفعل من العلو دال على زيادته وكثرته ، والمراد به الملائكة . وقيل : الملائكة العلوية ومحلهم السماء ، وهى أعلى من الأرض وهم دائمون فى حضرة القدس ومحل القرب والمشاهدة والسماع للوحى ( فإذا هو برسل ) الله وهم ملائكة الموت (رب) أى ملك أوسيد أو مصلح أو مربى أو خالق أو معبود ( العالمين ) جمع عالم شذوذا لأنه اسم جمع كالأنام، وجمعه بالواو والنون أشذ لعدم استكماله شروط هذا الجمع ، لكن لما كان بعض مدلوله وهم العقلاء أشرف غلبوا ، ومنع المحقق ابن مالك كونه جمعا لعالم ، بل هو اسم جمع كما هو مقرر فى محله .

إِلَيْهِ يَرِدُونَ عَلَيْهِ بِالرَّوْحِ وَالرَّيْحَانِ ، وَالْبُشْرَى وَالرِّضْوَانِ مِنْ عِنْدِ رَبٍّ رَاضٍ غَيْرِ غَضْبَانَ فَيَنْقُلُونَهُ فِى طِيبَةِ النَّفْسِ وَتَمَامِ الْبِشْرِ وَالْأُنْسِ مِنْ هٰذِهِ الدَّارِ الْفَانِيَةِ الْمُفْتِنَةِ إِلَى الْحَضْرَةِ الْإِلٰهِيَّةِ وَمُسْتَقَرِّ رِيَاضِ الْجَنَّةِ فَيَرَى لِنَفْسِهِ الضَّعِيفَةِ الْفَقِيرَةِ نَعِيماً مُقِيماً وَمُلْكاً كَبِيرًا عَظِيماً وَيَلْقَى هُنَالِكَ مِنْ سَيِّدِهِ الرَّحِيمِ الْمُتَفَضِّلِ الْكَرِيمِ جَلَّ ذِكْرُهُ مِنَ اللُّطْفِ بِهِ وَالْعَطْفِ وَالتَّرْحِيبِ وَالتَّقْرِيبِ وَالْإِنْعَامِ وَالْإِكْرَامِ مَالاَ يُحِيطُ بِهِ وَصْفُ الْوَاصِفِينَ وَنَعْتُ النَّاعِتِينَ

---

ونقل عن المتقدمين أعداد مختلفة فى العالمين وفى مقارّها الله أعلم بالصحيح منها ، كقول مقاتل: هى ثمانون ألف عالم ، والضحاك ثلاثمائة وستون عالما حفاة عراة لايعرفون خالقهم، وستون ألفا مكسيون يعرفونه ، قال ابن المسيب : لله ألف عالم ستمائة فى البحر وأربعمائة فى البر ، وقال مقاتل ثمانون ألفا نصفها فى البر ونصفها فى البحر ، وقال وهب . ثمانية عشر ألفا : عالم الدنيا عالم منها. وما العمران فى الخراب إلا كفسطاط فى صحراء ، وقال كعب الأحبار : لا يحصى عدد العالمين أحد غير الله تعالى . قال الله تعالى ـ وما يعلم جنود ربك إلا هو ـ كذا قاله العلامة ابن حجر فى شرح الأربعين ( إليه يردون ) بفتح الياء وكسر الراء : أى يحضرون ( عليه بالروح ) بالفتح : الراحة والرحمة والسعة والفرج ( والريحان ) أي المشموم من الجنة ، ويطلق على الرزق وعلى الاستراحة وعلى الطيب مطلقا وعلى الشجر المعروف وعلى كل نبت مشموم الرائحة ، فالريحان ما تنبسط إليه النفوس فهو دليل علي النعم فالمطلوب أن يلقى ريحانا من الجنة كما قررته . قال بعضهم : أريد به مطلق الرزق فى القبور ، وفى قوله : روح وريحان ضرب من التجنيس ( والبشرى ) بالجنة ( والرضوان من عند رب راض غير غضبان ) ويعرف رضاه سبحانه إذا وجد العبد قلبه راضيا عنه ، وقيل : قال موسى عليه السلام : إلهى دلني على عمل إذا عملته رضيت به عنى ، فقال إنك لا تطيق ذلك فخر موسى عليه السلام ساجدا متضرعا ، فأوحى الله تعالى إليه يا ابن عمران : إن رضاى فى رضاك بقضائى ( فينقلونه ) أى ينقله الرسل ( فى طيبة النفس وتمام البشر ) بكسر الباء : أى طلاقة الوجه ( والأنس من هذه الدار الفانية المفتنة ) وهى دار الدنيا ( إلى الحضرة الإلهية ) أى الحضرة المنسوبة إلى الإله جل ذكره ( ومستقر رياض الجنة ) أي محل استقرار بساتينها ( فيرى ) العبد ( لنفسه الضعيفة ) العاجزة ( الفقيرة ) أى الدائمة الحاجة ( نعيما مقيما وملكا كبيرا ) أى ( عظيما ويلقى هنالك ) أى فى الحضرة الإلهية ( من سيده الرحيم المتفضل الكريم ) أى ذى الكرم والجود ( جل ذكره من اللطف ) بيان مقدم لما فى قوله : ما لا يحيط وهو مفعول يلقى ( به والعطف ) والرحمة (والترحيب) أي التوسيع بقوله تعالى : مرحبا يا عبدي ( والتقريب ) قربا معنويا ( والإنعام ) بكسر الهمزة : أي إعطاء النعمة ( والإكرام ما لا يحيط به وصف الواصفين ونعت الناعتين ) هما مترادفان .

فَهُوَ فى كُلِّ يَوْمٍ فى زِيَادَةٍ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ فَيَالَهَا مِنْ سَعَادَةٍ عَظِيمَةٍ ، وَيَالَهَا مِنْ دَوْلَةٍ عَالِيَةٍ ، وَيَالَهُ مِنْ عَبْدٍ مَسْعُودٍ وَامْرِئٍ مَغْبُوطٍ وَشَأْنٍ مَحْمُودٍ ، وَطُوبَى لَهُ وَحُسْنُ مَآب ، نَسْأَلُ اللهَ الْبَرَّ الرَّحِيمَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ بِهٰذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ وَالمِنَّةِ الجَسِيمَةِ

---

وفى القاموس : إن النعت والوصف مصدران بمعنى واحد ، وبعضهم جعل النعت أخص منه فلا يقال نعت إلا فيما هو محقق بخلاف الوصف ، والظاهر الأول كما قاله الزبيدى . والترادف كما فى جمع الجوامع : اتحاد المعنى دون اللفظ كالإنسان والبشر لترادفهما : أي تواليهما على معنى واحد . وعكسه هو المشترك ، وهو أن يتحد اللفظ ويتعدد المعنى كأن يكون للفظ معنيان إن كان اللفظ حقيقة فيهما مثلا كالقرء للحيض والطهر لاشتراكهما فيه ، وإلا فحقيقة ومجاز كالأسد للحيوان المفترس وللرجل الشجاع . قال فى البدر اللامع :

فان يك المعنى هو الذي اتحد لا اللفظ فهو مترادف يعد
وعكسه إن كان فى الشيئين حقيقة مشترك كالعين

والعين تقع بالاشتراك على أشياء مختلفة ، فمنها الباصرة وعين الماء وعين الشمس والعين الجارية والعين الطليعة وعين الشيء نفسه ، كذا فى المصباح (فهو فى كل يوم فى زيادة ) من العطايا ( إلى أبد الآبدين فيالها ) أى يا قوم تعجبوا للنعمة التى أعطاها الله إياه التى هى السعادة العظيمة ( من سعادة عظيمة ) بيان للضمير واللام فى يالها للتعجب مثلها فى قوله :

فيالك من خد أسيل ومنطق رخيم ومن وجه تعلل عاذبه

كما نبه عليه الحريري فى مقاماته ، وكذا يقال فى قوله ( ويالها من دولة ) أي رتبة ( عالية ويالة ) أي يا قوم تعجبوا للعبد ( من عبد مسعود ) أي عبد أعطى سعادة عظيمة فى الدارين ( وامرئ ) أى شخص ( مغبوط ) اسم مفعول من غبطته غبطا من باب ضرب إذا تمنيت مثل ما ناله من غير أن تريد زواله عنه لما أعجبك منه وعظم عندك كذا فى المصباح ( وشأن محمود ) أى حال يحمد عند الله ( وطوبى ) أي الحسن والخيرة والشجرة التى فى الجنة التى تخرج منها ثياب وحلى ( له وحسن مآب ) أي مرجع ( نسأل الله البر ) بفتح الموحدة : أي المحسن . وقيل : الصادق فيما وعد وقيل خالق البر بكسر الباء الذى هو اسم جامع للخير ، وقيل اللطيف . وقيل : هو الذى إذا عبد أثاب وإذا سئل أجاب . وقيل : هو المعطوف على عباده ببره ولطفه كما قاله الخطيب فى شرح المنهاج ( الرحيم ) أي ذي الرحمة الكثيرة ( سبحانه وتعالى أن يمن ) أى أن يتفضل ( علينا وعليكم بهذه المنة العظيمة والنعمة الجسيمة ) مرادف العظيمة ؛ وهى غير منحصرة فلا تستبعدوا الوصول إلى

وَمَا ذٰلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ ، وَأَنْ لاَ يَجْعَلَنَا مِنَ الَّذِينَ لاَ نَصِيبَ لَهُمْ مِنْ هٰذَا الْأَمْرِ إِلا وَصْفٌ وَسَمَاعٌ وَعِلْمٌ وَتَمَنٍّ بِلاَ انْتِفَاعٍ ، وَأَنْ لاَ يَجْعَلَ مَا تَعَلَّمْنَاهُ مِنَ الْعِلْمِ حُجَّةً عَلَيْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَنْ يُوَفِّقَنَا جَمِيعاً لِلْعَمَلِ بِذٰلِكَ وَالْقِيَامِ بِهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَأَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ وَشَرَّفَ وَكَرَّمَ . فَهٰذَا هُوَ التَّرْتِيبُ الَّذِي أَلْهَمَنِي مَوْلاَيَ فِي طَرِيقِ الْعِبَادَةِ .

( فَاعْلَمِ الْآنَ ) بِتَوْفِيقِ اللهِ أَنَّ الْحَاصِلَ مِنَ الْجُمْلَةِ سَبْعُ عَقَبَاتٍ : الْأُولَى عَقَبَةُ الْعِلْمِ ، الثَّانِيَةُ عَقَبَةُ التَّوْبَةِ ، الثَّالِثَةُ عَقَبَةُ الْعَوَائِقِ ، الرَّابِعَةُ عَقَبَةُ الْعَوَارِضِ ، الْخَامِسَةُ عَقَبَةُ الْبَوَاعِثِ ، السَّادِسَةُ عَقَبَةُ الْقَوَادِحِ ، السَّابِعَةُ عَقَبَةُ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ وَبِتَمَامِهَا يَتِمُّ كِتَابُ مِنْهَاجِ الْعَابِدِينَ إِلَى الْجَنَّةِ . وَنَحْنُ الْآنَ نَتَتَبَّعُ هٰذِهِ الْعَقَبَاتِ بِشَرْحٍ مُوجَزِ اللَّفْظِ مُشْتَمِلٍ عَلَى النُّكَتِ

---

هذا المقام الكريم ( وما ذلك ) أى ليس إعطاء هذا الفضل العظيم والإيصال إلى المقام الكريم ( على الله بعزيز ) أى عسير لأنه قادر على كل شيء ، وعليكم إخوانى القيام بحق الأسباب ومن الله رفع الحجاب ( وأن لا يجعلنا من الذين لانصيب ) أى لاحصة ولا حظ ( لهم من هذا الأمر ) يعنى السعادة الأبدية التى هى القرب من الله (إلا وصف) بلا اتصاف ( وسماع ) من أذن إلى أخرى بلا تأمل وتدبر (وعلم) بلا عمل ( وتمن بلا انتفاع ، وأن لايجعل ما تعلمناه ) وما علمناه ( من العلم حجة علينا يوم القيامة) فنكون من الخاسرين ( وأن يوفقنا جميعا ) أى أن يخلق لنا جميعنا قدرة وقوة ( للعمل بذلك ) بمقتضى ما تعلمناه وما علمناه ( والقيام به كما يحب ويرضى إنه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله ) أى أتباعه (وسلم وشرف وكرم . فهذا ) أى ترتيب العقبات الذى ذكرناه ( هو الترتيب الذى ألهمنى ) أى أعطانى إلهاما ( مولاى ) المنفرد (فى) بيان ( طريق العبادة ، فاعلم الآن ) أى بعد الترتيب المذكور ( بتوفيق الله أن الحاصل من الجملة ) التى رتبناها ( سبع عقبات : الأولى عقبة العلم ) قدمه على غيره لشرفه ولكونه مدار أمر العبودية ( الثانية عقبة التوبة . الثالثة عقبة العوائق . الرابعة عقبة العوارض الخامسة عقبة البواعث . السادسة عقبة القوادح . السابعة عقبة الحمد والشكر ، وبتمامها ) أى السبع العقبات ( يتم كتاب منهاج العابدين إلى الجنة ) أى جنة رب العالمين ( ونحن الآن نتتبع ) أى نتبحث ونفتش تفتيشا تاما ( هذه العقباب ) السبعة أى عليها ( بشرح ) أى كشف وإيضاح كما فى اللغة ، وفى الاصطلاح : ألفاظ مخصوصة دالة على معان مخصوصة ( موجز اللفظ ) أى قصير اللفظ كثير المعنى ( مشتمل على النكت ) وهي الأحاديث المروية عن النبى صلى الله عليه وسلم

الْمَقْصُودَةِ مِنْ هٰذَا الشَّأْنِ كُلٌّ مِنْهُمَا فِى بَابٍ مُفْرَدٍ إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ وَالتَّسْدِيدِ بِمَنِّهِ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

---

والأقاويل المنقولة عن السلف فى أثناء هذا الشرح ، هذا هو المراد هنا ، وهى فى الأصل جمع نكتة مأخوذة من النكت ، وهو الحفر فى الأرض بعود مثلا فيؤثر فيها ، وقد تطلق على الأمر الدقيق كما هنا ، لأن الإنسان عند ما يتدبر أمرا دقيقا ويفكر فيه يحفر فى الأرض وهو لا يشعر فتسمية الشىء الدقيق بالنكتة من باب تسمية الشىء باسم مجاوره ، وهو مجاز متعارف كما قاله الدسوقى ( المقصودة ) تلك النكت ( من هذا الشأن ) وهو طريق العبادة ( كل منها ) أى من سبع عقبات ( فى باب مفرد إن شاء الله عز وجل ، والله سبحانه ولي التوفيق ) قال أبو البقاء : هو الهداية إلي وفق الشىء وقدره وما يوافقه ، وقال غيره : هو جعل الله فعل عبده موافقا لما يحبه ويرضاه ( والتسديد ) أى موافقة الصواب ( بمنه ) أى إنعامه ، ويطلق المن على ثلاثة معان : أحدها الإنعام وهو المراد هنا ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « ما من الناس أحد أمن علينا فى صحبته ولا ذات يده من ابن أبى قحافة » يريد أكثر إنعاما . وثانيها القطع ، ومنه قوله تعالى ـ فلهم أجر غير ممنون ـ أى مقطوع . وثالثها تعداد النعم بأن يقول المنعم لمن أنعم عليه فعلت معك كذا وكذا وهو مذموم إلا من الله والشيخ والوالدين فليس مذموما . قال بعضهم: إن حق الشيخ أقوى من حق الوالدين ، ولذا قالوا : إذا عق التلميذ شيخه لا تقبل توبته ، وحينئذ فافتخار الشيخ ليس بحرام ، وإنما كان حق الشيخ أقوى من حق الوالدين لأن تربيته لحفظ الروح باقية وتربية الوالدين لحفظ الجسم وهو فان وهالك وما أحسن قول بعضهم :

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته    أتطلب الربح مما فيه خسران
انهض إلى الروح فاستكمل فضائلها    فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

كما أفاده العلامة يوسف فى حواشى العشماوية ( ولا حول ) أى لا حركة ولا استطاعة عن المعصية ( ولا قوة ) أى على هذا الشرح وغيره من بقية الأعمال الصالحة ( إلا بالله ) أى بعون الله ( العلىّ ) من العلو : وهو الرفعة ، وعلوه تعالى معنوى لا حسى لاستحالته عليه تعالى ، وهو عبارة عن تنزيهه تعالى عن كل نقص واتصافه بكل كمال ( العظيم ) أى الذى ليس لعظمته بداية ، ولا لكنه جلاله نهاية . فقد ثبت عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال « كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتدرى ما تفسيرها ، فقلت لا . قال : لا حول عن معصية الله ، ولا قوة على طاعة الله إلا بعون الله ، ثم ضرب بيديه على منكبى ، وقال : هكذا أخبرنى جبريل عليه السلام » . وفى الصحيحين « لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة » أى أجرها مدخر لقائلها كما يدخر الكنز كما نقله بعضهم عن المغنى ، وورد أنه صلى الله عليه وسلم قال « أكثروا من لا حول ولا قوة إلا بالله فإن ذكرها يدفع

## العقبةُ الأُولى ، وَهِيَ عقبةُ العِلْمِ

فَأَقُولُ وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ : يَا طَالِبَ الْخَلَاصِ وَالْعِبَادَةِ عَلَيْكَ أَوَّلاً ، وَفَّقَكَ اللهُ بِالْعِلْمِ فَإِنَّهُ الْقُطْبُ وَعَلَيْهِ الْمَدَارُ .

---

تسعة وتسعين داء ، أدناها اللمم وهو طرف من الجنون » . وعن مكحول « أن من قالها كشف الله عنه سبعين بابا من البلاء » . وفي رواية « من الهم أدناها الفقر » كذا نقله بعضهم عن الجمل ، والله أعلم .

هـذا شرح ( العقبة الأولى ) من السبـع التي رتبها أولا ( وهي عقبة العلم )

قدمه في البيان على لاحقه لشرفه ، ولأنه في الحقيقة غاية مايقصده الإنسان ويهتم له وينتهي إليه ، وحده : صفة توجد تميزا لا يحتمل النقيض في الأمور المعنوية ، واحترزوا بقولهم : لا يحتمل النقيض عن مثل الظن ، وبقولهم في الأمور المعنوية عن إدراك الحواس لأن إدراكها في الأمور الظاهرة المحسوسة ، كذا قاله القسطلاني وهو الحد المختار عند المتكلمين ، وقيل : لا يحد لعسر تحديده ، وهذا رأى إمام الحرمين وتلميذه المصنف ، وقيل : حده اعتقاد جازم مطابق لموجب إما ضرورة أو دليل فيـه ، وفيه أنه يخرج عنه التصور لعدم اندراجه في الاعتقاد مع أنه علم ، ويخرج علم الله تعالى أيضا لأن الاعتقاد لا يطلق عليه ، ولأنه ليس بضرورة أو دليل ، وهـذا للفخر الرازي عرفه به بعد تنزيله كونه ضروريا ، وقيل : هو حصول صـورة الشيء في العقل قال ابن صدر الدين : هو أصح الحدود عند المحققين من الحكماء وبعض المتكلمين ولكن فيه أنه يتناول الظن والجهل المركب والتقليد والشك والوهم ، وقيل : هو صفة يتجلى بها المذكور لمن قامت هي به . قال السيد الشريف . وهو أحسن ما قيل في الكشف عن ماهية العلم ، ومعناه أنه صفة ينـكشف بها لمن قامت به ما من شأنه أن يذكر انكشافا تاما لا اشتباه فيه ( فأقول ) أي فإذا أردت بيان ذلك أقول ( وبالله ) تعالى لا بغيره ( التوفيق ) إلى مرضاته وفهم حكمه وأسراره ( يا طالب الخلاص ) أي النجاة من المهلكات ( والعبادة ) الخالصة لرب المخلوقات ( عليك ) أي الزم ( أولا ) أي أول كل شيء ( وفقك الله ) أي أقدرك الله على الطاعة بخلق قدرتها فيك ، وإنما دعا رحمه الله بالتوفيق لعزته ، لأنه لم يذكر في القرآن إلا مرة واحدة في قوله تعالى « وما توفيقي إلا بالله » . وأما قوله تعالى « إن يريدا إصـلاحا يوفق الله بينهما » فهو من الموافقة لا من التوفيق كما قاله بعض محشى الشماوية ( بالعلم ) أي الاشتغال بمطلبه متعلق بعليك ( فإنه القطب ) أي أصل أمر العبادة وملاكه ( وعليه المدار ) أي مدار العبودية وهو بمعنى ما قبله لأن من معنى القطب ملاك الشيء ومداره كما في القاموس ، وينقسم العلم بانقسام المعلومات وهي لا تحصى ، فمنها الظاهر والمراد به العلم الشرعي المقيد بما يلزم المكلف في أمر دينه عبادة ومعاملة ، وهو يدور على التفسير والفقه والحديث .

وَاعْلَمْ أَنَّ الْعِلْمَ وَالْعِبَادَةَ جَوْهَرَانِ لِأَجْلِهِمَا كَانَ كُلُّ مَا تَرَى وَتَسْمَعُ مِنْ تَصْنِيفِ الْمُصَنِّفِينَ وَتَعْلِيمِ الْمُعَلِّمِينَ وَوَعْظِ الْوَاعِظِينَ وَنَظَرِ النَّاظِرِينَ ، بَلْ لِأَجْلِهِمَا أُنْزِلَتِ الْكُتُبُ

---

وقد عد الشيخ عز الدين بن عبد السلام تعلم النحو ، وحفظ غريب الكتاب والسنة ، وتدوين أصول الفقه من البدع الواجبة . ومنها علم الباطن وهو نوعان : الأول علم المعاملة ، وهو فرض عين فى فتوي علماء الآخرة ، فالمعرض عنه هالك بسطوة مالك الملوك فى الآخرة ، كما أن المعرض عن الاعمال الظاهرة هالك بسيف سلاطين الدنيا بحكم فتوى علماء الدنيا ، وحقيقته النظر فى تصفية القلب وتهذيب النفس باتقاء الأخلاق الذميمة التى ذمها الشارع كالرياء والعجب والغش وحب العلو والثناء والفخر والطمع ليتصف بالأخلاق الحميدة المحمدية كالإخلاص والشكر والصبر والزهد والتقوى والقناعة ليصلح عند إحكامه ذلك لعمله بعلمه ليرث مالم يعلم ؛ فعلمه بلاعمال وسيلة بلا غاية ، وعكسه جناية ، وإتقانهما بلا ورع كلفة بلا أجرة ، فأهم الأمور زهد واستقامة لينتفع بعلمه وعمله .

وأما النوع الثانى فهو علم المكاشفة ، وهو نور يظهر فى القلب عند تزكيته فتظهر به المعانى المجملة فتحصل له المعرفة بالله تعالى وأسمائه وصفاته وكتبه ورسله وتنكشف له الأستار عن مخبئات الأسرار فافهم ، وسلم تسلم ، ولا تكن من المنكرين تهلك مع الهالكين . قال بعض العارفين : من لم يكن له من هذا العلم شيء أخشى عليه سوء الخاتمة ، وأدنى الغيب منه التصديق به وتسليمه لأهله ، والله تعالي أعلم ، كذا ذكره القسطلانى . وفى الإحياء مع شرحه ، وهذه هى العلوم التي أمر بكتمانها وأنها لا تسطر فى الكتب ، لأنها علوم ذوقية كشفية تدرك عن مشاهدة لا عن دليل وبرهان ، ولأن المسطور فى كتاب يقع فى يد الأهل وغير الأهل ، فإن لم يكن أهلا لمعرفته يقع فى حيرة عظيمة تترتب عليها مفاسد ، ولا يتحدث بها من أنعم الله عليه بشيء منها إلا مع أهله وإلا فقد وضع الشيء فى غير محله ، وقد نهى عن ذلك ، وهو : أى أهله المشارك فيه بذوقه السليم وفهمه المستقيم ، ويكون ذلك التحدث على سبيل المذاكرة وبطريق الأسرار ، وهذا هو العلم الخفى الذى أراده صلى الله عليه وسلم بقوله « إن من العلم كهيئة المكنون لا يعرفه إلا أهل المعرفة بالله فاذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الاغترار به فلا تحقروا عالما آتاه الله علما ، فإن الله لم يحقره إذ آتاه العلم » اه ملخصا .

( واعلم أن العلم والعبادة جوهران ) أى مثلهما فى النفاسة إذ لاخير سواهما ، والجوهرة فى الأصل حجر ينتفع به ( لأجلهما كان كل ماترى وتسمع من تصنيف المصنفين ، وتعليم المعلمين ، ووعظ الواعظين ، ونظر الناظرين ) أى وفكر المتفكرين ( بل لأجلهما أنزلت الكتب )

وَأُرْسِلَتِ الرُّسُلُ ، بَلْ لِأَجْلِهِمَا خُلِقَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا فِيهِنَّ مِنَ الْخَلْقِ . وَتَأَمَّلْ آيَتَيْنِ فِى كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، إِحْدَاهُمَا : قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ «اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا» وَكَفَى بِهٰذِهِ الْآيَةِ دَلِيلاً عَلَى شَرَفِ الْعِلْمِ لَاسِيَّمَا عِلْمَ التَّوْحِيدِ . وَالْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» .

---

السماوية ( وأرسلت الرسل ) عليهم الصلاة والسلام ( بل لأجلهما خلقت السماوات والأرض وما فيهن من الخلق ، وتأمل آيتين فى كتاب الله عز وجل : إحداهما قوله جل ذكره ) فى سورة الطلاق ( الله الذى خلق سبع سموات ) مبتدأ وخبر ( ومن الأرض مثلهن ) أى وخلق مثلهن فى العدد من الأرض ( يتنزل الأمر بينهن ) أي يجرى أمر الله وقضاؤه بينهن وينفذ حكمه فيهن ، كذا فسره البيضاوى . وقيل هو مايدبر فيهن من عجائب تدبيره : ينزل المطر ، ويخرج النبات ، ويأتى بالليل والنهار ، وبالصيف والشتاء ، ويخلق الحيوان على هيئته ، وينقله من حال إلى حال فيحكم بحياة بعض وموت بعض ، وسلامة هـذا وهلاك هـذا . وقيل فى كل سماء من سمواته وأرض من أرضيه خلق من خلقه ، وأمر من أمره ، وقضاء من قضائه كما قاله الخازن ( لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ) يعنى أنه سبحانه وتعالى عالم بكل شيء لاتخفى عليه خافية ، وأنه قادر على الإنشاء بعد الإفناء ، وكل الكائنات جارية تحت قدرته داخلة فى علمه كما فى الخازن ( وكفى بهذه الآية دليلا على شرف العلم ) ولو لم يكن من فضيلة العلم إلا قوله تعالى « شهد أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم » كفى ذلك ، فبدأ الله تعالى بنفسه وثنى بملائكته ، وثلث بأهل العلم ، وناهيك بهذا شرفا ، والعلماء ورثة الأنبياء كما فى الحديث ، وإذا كان لارتبة فوق النبوة فلا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة ، وغاية العلم العمل لانه ثمرته ، وفائدة العمر وزاد الآخرة ، فمن ظفر به سعد ، ومن فاته خسر ، فاذن العلم أفضل من العمل به لأن شرفه بشرف معلومه ، والعمل بلا علم لايسمى عملا بل رد وباطل ، ولله در القائل :

وكل فضيلة فيها سناء ... وجدت العلم من هاتيك أسنى
فلا تعتقد غير العلم ذخرا ... فإن العلم كنز ليس يفنى

والأخبار والآثار فى فضله كثيرة شهيرة ويأتى بعض ذلك ( لاسيما علم التوحيد ) وسيأتى بيانه ( والآية الثانية قوله جل من قائل ) فى سورة والذاريات ( وما خلقت الجن والإنس ) أى من المؤمنين ( إلا ليعبدون ) قيل هذا خاص بأهل طاعته من الفريقين يدل عليه قراءة ابن عباس وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون ، ولذلك قال المصنف وغيره معناه : أى إلا

وَكَفَى بِهَٰذِهِ الآيَةِ دَلِيلاً عَلَى شَرَفِ الْعِبَادَةِ وَلُزُومِ الإِقْبَالِ عَلَيْهَا فَأَعْظِمْ بِأَمْرَيْنِ هُمَا الْمَقْصُودُ مِنْ خَلْقِ الدَّارَيْنِ فَحَقٌّ لِلْعَبْدِ أَنْ لاَ يَشْتَغِلَ إِلاَّ بِهِمَا وَلاَ يَتْعَبَ إِلاَّ لَهُمَا ، وَلاَ يَنْظُرَ إِلاَّ فِيهِمَا . وَاعْلَمْ أَنَّ مَا سِوَاهُمَا مِنَ الأُمُورِ بَاطِلٌ لاَ خَيْرَ فِيهِ ، وَلَغْوٌ لاَ حَاصِلَ لَهُ

---

ليعرفون أو يكونوا عبيدا لى خاصة ولا يكون العبد عبدا مالم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية ولابد أن يعرف نفسه وربه كما يرشد إليه الخبر «من عرف نفسه عرف ربه» فهذا هو المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام إلى الخلق ليرشدوهم إلى ذلك ، وكذا بإرسال الكتب من السماء ، وتقديم خلق الجن فى الذكر من بيانه فى أول الكتاب (وكفى بهذه الآية دليلا) يدل (على شرف العبادة) لرب العالمين (ولزوم الإقبال) والمواظبة (عليها) أى وتصريحا بأنهم خلقوا للعبادة ، فحق عليهم الاعتناء بما خلقوا له والاعراض عن حظوظ الدنيا بالزهادة ، فانها دار نفاد لامحل إخلاد ، ومركب عبور لامنزل حبور ، ومشرع انفصام لاموطن دوام ، فلهذا كان الأيقاظ من أهلها هم العباد ، وأعقل الناس فيها هم الزهاد . قال الله تعالى « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السما فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » والآيات فى هذا المعنى كثيرة ، ولقد أحسن القائل حيث قال :

إن لله عبادا فطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحىّ وطنا
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

كذا قاله فى رياض الصالحين (فأعظم بأمرين) أى العلم والعبادة : وقوله فأعظم بوزن أفعل بكسر العين التعجب على صورة الأمر ، والباء زائدة لتحسين اللفظ ، لأن مجيء المرفوع بعد صورة الأمر قبيح كما قرره بعضهم (هما المقصود من الدارين) أى الدنيا والآخرة ، فاذا كان الهما : أى العلم والعبادة ماوصفته ، وحالنا وما خلقنا له ماقدمته (فحق للعبد) أى وجب عليه (أن لايشتغل إلا بهما ولا يتعب) نفسه (إلا لهما) أى لتحصيلهما (ولا ينظر) بقلبه (إلا فيهما . واعلم أن ماسواهما من الأمور) الدنيوية (باطل) أى فاسد (لا خير فيه) بل هو وبال على متعاطيه (ولغو) أى ساقط لانفع به (لا حاصل له) وهذا مصداق ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « الدنيا ملعونة ملعون مافيها إلا ذكر الله وما والاه أو معلم ومتعلم » قال السيد مرتضى : يعنى أن الدنيا مطرودة مبعودة من الله تعالى فانه لم ينظر إليها منذ خلقها ، ملعون

فَإِذَا عَلِمْتَ ذٰلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِلْمَ أَشْرَفُ الْجَوْهَرَيْنِ وَأَفْضَلُهُمَا ، وَلِذٰلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم «إِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَى رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي» . وَقَالَ صلى الله عليه وسلم «نَظْرَةٌ إِلَى الْعَالِمِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا» .

---

مافيها : أى ماشغل عن الله تعالى وأبعد عنه إلا ماقرب إليه فإنه محبوب محمود كما أشار إليه قوله: إلا ذكر الله وماوالاه : أى ماأحبه الله من الدنيا وهو العمل الصالح ، والموالاة : المحبة بين اثنين وقد تكون واحدا وهو المراد هنا ، وماكان طريقا إليه من العلم والتعلم فهو المستثنى من اللعنة ، واللعنة واقعة على ماعداه ، إذ هو بعيد عن الله وعن محابه وعن دينه ، فهو متعلق العقاب، والله سبحانه إنما يحب من عباده ذكره وعبادته ومعرفته ومحبته ولوازم ذلك ، وما أفضى إليه ، وما عداه فهو مبغوض له مذموم عنده ، كذا أفاده بعض المحققين ( فاذا علمت ذلك ) أى ماتقرر أن العلم هو قطب العبادة ومدار أمر العبودية ( فاعلم أن العلم أشرف الجوهرين ) أى من العبادة (وأفضلهما) لأنها ثمرته كما سبق (ولذلك) أى أشرفية العلم على العبادة . ( قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن فضل العالم ) أى العامل بعلمه ( على العابد كفضلى على أدنى رجل من أمتى ) . المراد بالفضل : كثرة الثواب الشامل لما يعطيه الله للعبد فى الآخرة من درجات الجنة ولذاتها ومآكلها ومشاربها ومناكحها ومايعطيه الله تعالى للعبد من مقامات القرب ولذة النظر إليه وسماع كلامه كذا قاله العزيزى ، وهذا الحديث رواه الحارث بن أبي أسامة عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه . وفى رواية للترمذى عن أبي أمامة «فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم» أى نسبة شرف العالم على شرف العابد كنسبة شرف النبي إلى أدنى شرف الصحابة لأن المخاطبين بقوله : أدناكم : الصحب . قال الغزالى : فانظر كيف جعل العلم مقارنا لدرجة النبوة ، وكيف حط رتبة العمل المجرد عن العلم وإن كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التى يواظب عليها ولولاه لم تكن عبادة، كذا أفاده فى شرح اللباب . وقال الطيبي : ولاتظنن أن العالم المفضل عار عن العمل ، ولا العابد عن العلم ، بل إن علم ذلك غالب على عمله ، وعمل هذا غالب على علمه ، ولذلك جعل العلماء ورثة الأنبياء الذين فازوا بالحسنيين : العلم والعمل ، وحازوا الفضيلتين : الكمال والتكميل ، وإذاعرفت ذلك ظهر لك سر قول الغزالى فيما قبل اهـ .

ثم إن المراد فى هذه الأخبار بالعالم من صرف نفسه للتعليم والإرشاد والتصنيف ، وبالعابد من انقطع للعبادة تاركا ذلك وإن كان عالما كما قاله العلامة السيد مرتضى فى شرح الإحياء . وقال الذهبي : إنما كان العلم أفضل ، لأن العالم إذا لم يكن عابدا فعلمه وبال عليه ، وأما العابد بغير فقه فمنع نقصه هو أفضل بكثير من فقيه بلا تعبد كفقيه همته فى الشغل بالرياسة فليتأمل . ( وقال صلى الله عليه وسلم : نظرة ) أى واحدة بنظر المحبة ( إلى العالم ) أى إلى وجهه كما فى رواية ( أحب إلى من عبادة سنة صيامها وقيامها ) . وقال صلى الله عليه وسلم « فقيه متورع أشد على الشيطان من ألف عابد مجتهد جاهل ورع » . وفى رواية للترمذى وابن ماجه عن ابن عباس «فقيه

وَقَالَ صلى اللهُ عليهِ وَسلم « أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَشْرَفِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : هُمْ عُلَماءُ أُمَّتِي »

---

واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » اهـ . وذلك لأن الشيطان كلما فتح بابا على الناس من الأهواء ، وزين الشهوات فى قلوبهم بين الفقيه العارف مكايده ، فيسد ذلك الباب ويجعله خائبا خاسرا ، بخلاف العابد فإنه ربما يشتغل بالعبادة وهو فى حبائل الشيطان ولا يدرى ، أفاد ذلك العزيزى نقلا عن الطيبى . ( وقال صلى الله عليه وسلم : ألا أدلكم على أشرف أهل الجنة ؟ قالوا ) أى الحاضرون عنده من الصحابة ( بلى ) دلنا ( يا رسول الله ، قال : هم علماء أمتى ) وقال صلى الله عليه وسلم « العلماء أهل الجنة خلفاء الأنبياء » كذا أورده الفشنى . قال عمر بن الخطاب : قال صلى الله عليه وسلم : « من مشى إلى حلقة عالم كان له بكل خطوة مائة حسنة ، فإذا جلس عنده واستمع ما يقول كان له بكل كلمة حسنة » كذا ذكره النووى فى رياض الصالحين . وعن سهل بن سعد رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلى رضى الله عنه : لأن يهدى بك الله رجلا واحدا خير لك من حمر النعم » . وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » . وقال صلى الله عليه وسلم « نظرك إلى وجه العالم خير لك من ألف فرس تتصدق بها فى سبيل الله ، وسلامك على العالم خير لك من عبادة ألف سنة » كذا ذكره الحافظ المنذرى فى الدرة اليتيمة . وقال صلى الله عليه وسلم « أكرموا العلماء فإنهم ورثة الأنبياء ، فمن أكرمهم فقد أكرم الله ورسوله » رواه الخطيب البغدادى عن جابر . وقال صلى الله عليه وسلم « من أكرم عالما فقد أكرمنى ، ومن أكرمنى فقد أكرم الله ، ومن أكرم الله فمأواه الجنة » كذا ذكره الجلال السيوطى فى اللباب . وقال صلى الله عليه وسلم « من انتقل ليتعلم علما غفر له قبل أن يخطو » . قال بعضهم : أى خطوة من موضعه إذا أراد بذلك وجه الله تعالى : رواه الشيرازى عن عائشة . وقال صلى الله عليه وسلم « من نظر إلى وجه العالم نظرة ففرح بها خلق الله تعالى من تلك النظرة ملكا يستغفر له إلى يوم القيامة » كذا ذكره فى اللباب ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وإن العالم يستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء » . وورد « أن العالم يشفع فى جيرانه وإخوانه ومن قضى له حاجة واحدة أو أطعمه لقمة إذا جاع أو سقاه شربة ماء إذا عطش » كذا ذكره فى حواشى الشبراوية . وقال صلى الله عليه وسلم « من خرج لطلب علم كان كالمجاهد ، فإن مات مات شهيدا ، وإن عاد عاد بأجر وغنيمة » . وقال صلى الله عليه وسلم « معلم الخير إذا مات يبكى عليه طير السماء ودواب الأرض » . هذا من الأخبار . وأما من الآثار فما روى عن على

رضى الله عنه « كفى بالعلم شرفا أن يدعيه من لا يحسنه ، ويفرح به إذا نسب إليه ، وكفى بالجهل ذما أن يتبرأ منه من هو فيه » كما قيل : فالله در العلم ومن به تردى ، وتعسا للجهل ومن فى أوديته تردى . وقال أبو مسلم الخولانى : مثل العلماء فى الأرض مثل النجوم فى السماء إذا برزت للناس اهتدوا بها ، وإذا خفيت عليهم تحيروا . وعن معاذ رضى الله عنه « تعلم العلم فإن تعلمه لك حسنة ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قربة » . وقال على رضى الله عنه : العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو بالإنفاق . وقال الشافعى رضى الله عنه : من لا يحب العلم لا خير فيه ، فلا يكن بينك وبينه معرفة ولا صداقة فإنه حياة القلوب ومصباح البصائر . وقال : طلب العلم أفضل من صلاة النافلة . وقال : ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم ، يدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قالوا : يا رسول الله وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر » . قال عطاء : مجالس الذكر هى مجالس الحلال والحرام كيف تشترى وتبيع وتصلى وتصوم وتنكح وتطلق وتحج وأشباه ذلك . وقال « من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم » أى فإنه يحتاج إليه فى كل منهما . وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال « مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة » يدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم « يسير الفقه خير من كثير العبادة » والأخبار والآثار فى ذا الباب كثيرة لا تحصى .

ثم اعلم أن ما ذكر فى فضل العلم إنما هو فيمن طلبه مريدا به وجه الله تعالى ، فمن أراده لغرض دنيوى كمال أو رياسة أو منصب أو جاه أو شهرة أو استمالة الناس إليه أو نحو ذلك فهو مذموم . قال تعالى « من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب » . وقال صلى الله عليه وسلم « من تعلم علما ينتفع به فى الآخرة يريد به غرضا من الدنيا لم يرح رائحة الجنة » : أى لم يجد ريحها . وقال صلى الله عليه وسلم « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لا ينتفع بعلمه » . وقال صلى الله عليه وسلم « شرار الناس شرار العلماء » . وقال على رضى الله عنه : يا حملة العلم اعملوا به ، فإنما العالم من عمل بما علم ووافق علمه عمله ، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم يخالف عملهم علمهم وتخالف سريرتهم علانيتهم يجلسون حلقا يباهى بعضهم بعضا حتى أن الرجل يغضب على جليسه أن يجالس إلى غيره ويدعه أولئك لا تصعد أعمالهم فى مجالسهم تلك إلى الله تعالى . وقال سفيان : ما ازداد عبد علما فازداد فى الدنيا رغبة إلا ازداد من الله بعدا . وقال حاتم الأصم : ليس فى القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علما فعملوا به ولم يعمل هو به ففازوا بسببه ، وهلك .

وبالجملة فالأحاديث فى ذم علماء السوء وتوبيخ من لم يعمل بعلمه ومن خالف قوله عمله كثيرة جدا وفى هذا القدر كفاية ، فنسأل الله تعالى أن يوفقنا بفضله ، وأن يحفظنا من الشيطان وجنده

فَبَانَ لَكَ أَنَّ الْعِلْمَ أَشْرَفُ جَوْهَرًا مِنَ الْعِبَادَةِ ، وَلَـكِنْ لاَبُدَّ مِنَ الْعِبَادَةِ مَعَ الْعِلْمِ وَإِلاَّ كَانَ عِلْمُهُ هَبَاءًا مَنْثُورًا . فَإِنَّ الْعِلْمَ بِمَنْزِلَةِ الشَّجَرَةِ وَالْعِبَادَةَ بِمَنْزِلَةِ ثَمَرَةٍ مِنْ ثَمَرَاتِهَا ، فالشَّرَفُ لِلشَّجَرَةِ إِذْ هِيَ الْأَصْلُ ، لَـكِنْ الاِنْتِفَاعُ بِمَا يَحْصُلُ بِثَمَرَتِهَا فَإِذًا لاَبُدَّ لِلْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْ كِلاَ الْأَمْرَيْنِ حَظٌّ وَنَصِيبٌ وَلِهٰذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبِصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: أُطْلُبُوا هٰذَا الْعِلْمَ طَلَبًا لاَ يَضُرُّ بِالْعِبَادَةِ ، وَاطْلُبُوا هٰذِهِ الْعِبَادَةَ طَلَبًا لاَيَضُرُّ بِالْعِلْمِ .

---

( فبان ) أى ظهر ( لك أن العلم أشرف جوهرا ) على الإطلاق من غير إضافة ونسبة إلى شيء آخر ، بل أصل كل الفضائل الداخلية لأنه وصف لـكمال الله تعالى ، وبه شرف الملائكة والأنبياء وغيرهم ( من العبادة ولـكن لابد للعبد من العبادة مع العلم ، وإلا كان علمه هباء منثورا ) أي غبارا لطيفا متفرقا فلا استقرار له ولا اجتماع ، بل تضيعه الرياح : يعنى مثله فى عدم النفع به لما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما من عالم لا يعمل بعلمه إلا نزع الله روحه علي غير الشهادة ، وناداه مناد من السماء : يا فاجر خسرت الدنيا والآخرة » . وعن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قال سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن العالم إذا لم يعمل بعلمه لعنه العلم من جوفه ، ويلعنه كل شيء طلعت عليه الشمس ، وتـكتب الحفظة كل يوم ختما على صحيفته : هذا عبد آيس من رحمة الله ، يا عبد الله يا مضيع حقوق سيده ، يا من لا يعمل بعلمه عليك لعنة الله ، فإذا مات نزع الله روحه على غير الشهادة ويحرم الموت على الإيمان » كذا فى شرح اللباب ( فإن العلم ) أصل ( بمنزلة الشجرة ، والعبادة ) ناشئة من ذلك الأصل ، فهى ( بمنزلة ثمرة من ثمراتها ) أى شجرة العلم ( فالشرف للشجرة إذ هى الأصل لـكن الانتفاع ) التام ( إنما يحصل بثمراتها ) أى الشجرة وهى العبادة ( فإذا ) أى إذا كان الانتفاع لا يحصل إلا بذلك ( لابد ) أى وجب ( للعبد من أن يكون له من كلا الأمرين ) أى العلم والعبادة ( حظ ونصيب ) عطف تفسير كما يعلم من قول المصباح : والحظ : النصيب ، والجمع : حظوظ ، مثل فلس وفلوس ( ولهذا ) أى المذكور من قوله: لابد للعبد أن يكون له من الأمرين حظ. (قال الحسن) بن يسار (البصرى رحمه الله) هو مولى زيد بن ثابت ، وقيل مولى حمل بن قطبة ، وأبوه يسار من سبى ميسان أعتقته بنت النضر ولد الحسن زمن عمر وسمع عثمان وشهد الدار ابن إحدى عشرة سنة ، وروى عن عمران بن حصين وأبى موسى وابن عباس وجندب ، وعنه ابن عون ويونس كان كبير الشأن رفيع الذكر رأسا فى العلم ، مات فى رجب سنة ١١٠ كذا قاله العلامة السيد مرتضى فى الإتحاف ( اطلبوا ) أيها المسلمون ( هذا العلم طلبا لا يضر بالعبادة ) بأن كان الطالب عاملا بمطلوبه الذى هو العلم وإلا دخل فى الوعيد الشديد المتقدم ذكره ( واطلبوا هذه العبادة طلبا لا يضر بالعلم ) بأن كان العابد عالما

وَلَمَّا اسْتَقَرَّ أَنَّهُ لاَ بُدَّ لِلْعَبْدِ مِنْهُمَا جَمِيعًا ، فَالعِلْمُ أَوْلَى بِالتَّقْدِيمِ لاَ مَحَالَةَ ، لِأَنَّهُ الْأَصْلُ وَالدَّلِيلُ ، وَلِذَلِكَ قَالَ صلى الله عليهِ وسلم «الْعِلْمُ إِمَامُ الْعَمَلِ وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ» وَإِنَّمَا صَارَ الْعِلْمُ أَصْلاً مَتْبُوعاً يَلْزَمُكَ تَقْدِيمُهُ عَلَى الْعِبَادَةِ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا لِتَحْصُلَ لَكَ الْعِبَادَةُ وَتَسْلَمَ فَإِنَّكَ أَوَّلاً يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْرِفَ الْمَعْبُودَ ثُمَّ تَعْبُدَهُ وَكَيْفَ تَعْبُدُ مَنْ لاَ تَعْرِفُهُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِ ذَاتِهِ وَمَا يَجِبُ لَهُ وَمَا يَسْتَحِيلُ فِى نَعْتِهِ ، فَرُبَّمَا تَعْتَقِدُ فِيهِ وَفِى صِفَاتِهِ شَيْئاً وَالْعِيَاذُ بِاللهِ مِمَّا يُخَالِفُ

---

بأحوال عبادته ، وإلا كانت أعماله مردودة ، ولله در القائل :

وكل من بغير علم يعمل أعماله مردودة لا تقبل

لأن الجاهل لا يعلم ما يضره في عبادته ، بخلاف العالم ولو فاسقا فإنه يعلم ذلك لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم « العالم حبيب الله ولو كان فاسقا ، والجاهل عدو الله ولو كان عابدا » .

وحكي أن بعض الناس اختلف فى شرف العالم الفاسق وشرف الجاهل العابد فخرج أحد منهم وذهب إلى صومعة العابد الجاهل فقال يا عبدى : قبلت دعوتك وغفرت لك ذنبك فاترك العبادة واسترح ، فقال العابد إلهى إني أرجو منك هذا وإنى أحمدك وأشكرك وأعبدك من زمان كذا فصار مخطئا وكافرا بجهله ، ثم ذهب أحد منهم إلى العالم الفاسق فإذا هو يشرب الخمرفقال : يا عبدى اتق منى وأنا ربك أستر ذنبك وأنت لا تستحى منى فإنى أريد أن أهلكك ، فسل العالم الفاسق سيفه وخرج من مكانه ، فقال يا ملعون أنت لاتعلم ربك ، فإنى أعلمك ربك الآن ففر ذلك القائل ، فعلم بذلك شرف العلم وأهله ، كذا فى شرح البداية ( ولما استقر أنه ) أى الحال والشأن ( لابد للعبد منهما ) أى من العلم والعبادة ( جميعا فالعلم أولى ) أى أفضل وأحق ( بالتقديم ) من غيره ( لا محالة لأنه الأصل ، و ) لأنه (الدليل) أى الموصل للهداية والمثمر لخشية الله عز وجل (ولذلك) أى لكون العلم أصلا ودليلا ( قال صلى الله عليه وسلم : العلم إمام العمل والعمل تابعه) تمامه « يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء » . هكذا رواه أبو نعيم فى الحلية وأبو طالب المكى فى القوت والخطيب وابن القيم وغيرهم موقوفا ، ورواه أبو نعيم فى المعجم وابن عبد البر كما تقدم مرفوعا . وقال فى آخره : وهوحديث حسن ولكن ليس له إسناد قوى (وإنما صار العلم أصلا متبوعا يلزمك تقديمه على العبادة لأمرين : أحدهما لتحصل لك العبادة وتسلم ) لك من غير آفة ( فإنك أولا يجب عليك أن تعرف المعبود) بأسمائه وصفاته (ثم تعبده ، وكيف تعبد من لا تعرفه بأسمائه وصفات ذاته و ) أن تعرف ( ما يجب له ) من صفاته وما يجوز ( وما يستحيل فى نعته ) أى وصفه ( فربما تعتقد فيه ) أى المعبود ( وفى صفاته شيئا ) منكرا عند ذوى البصائر ( والعياذ بالله مما يخالف ) الاعتقاد

الْحَقَّ فَتَكُونُ عِبَادَتُكَ هَبَاءً مَنْثُورًا . وَقَدْ شَرَحْنَا مَا فِى ذَلِكَ مِنَ الْخَطَرِ الْعَظِيمِ فِى بَيَانِ مَعْنَى سُوءِ الْخَاتِمَةِ مِنْ كِتَابِ الْخَوْفِ مِنْ جُمْلَةِ كُتُبِ إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ .

---

الحق فتكون عبادتك هباء منثورا ) أى مثله فى عدم نفعها (وقد شرحنا ما فى ذلك) أى فى الاعتقاد (من الخطر) أى الخوف (العظيم فى بيان معنى سوء الخاتمة من كتاب الخوف من جملة كتب إحياء علوم الدين ) وعبارته مع شرحها مختصرا ، فإن قلت : إن أكثر هؤلاء أى الصالحين يرجع خوفهم إلى سوء الخاتمة . فاعلم هداك الله تعالى أن سوء الخاتمة على رتبتين : إحداهما أعظم من الأخرى ، فأما الرتبة العظيمة الهائلة فأن يغلب على القلب عند سكرات الموت وشدائده وظهور أهواله ، إما الشك وإما الجحود فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك ، فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجابا بينه وبين الله تعالى أبدا ، وذلك يقتضى البعد الدائم والعذاب المخلد الملازم . والرتبة الثانية : وهى دونها ؛ أى دون الأولى: أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها فيتمثل ذلك فى قلبه ويستغرقه أى يغمره حتى لا يبقى فى تلك الحالة متسع لغيره فيتفق قبض روحه فى تلك الحالة ، فيكون استغراق قلبه به منكسا رأسه إلى الدنيا وصارفا وجهه إليها ، ومهما انصرف الوجه عن الله حصل الحجاب ، ومهما حصل الحجاب عن الله تعالى نزل العذاب لا محالة ، إذ نار الله الموقدة المشار إليها فى الآية لا تأخذ إلا المحجوبين عنه . فأما المؤمن السليم قلبه عن حب الدنيا المصروف إلى الله تعالى المشار إليه فى قوله تعالى – يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم – أى سليم عن حب الدنيا تقول له النار: جز يا مؤمن فإن نورك قد أطفأ لهبى ، روى ذلك من حديث يعلى بن منية ، فمهما اتفق قبض الروح فى حالة غلبة حب الدنيا فإن الأمر مخطر ، لأن المرء يموت على ما عاش عليه كما أنه يبعث على ما مات عليه . فان قلت : فما السبب الذى يفضى إلى سوء الخاتمة ؟ فاعلم أن أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها إما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه فى شيئين : أحدهما يتصور مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح فى الأعمال كالمبتدع الزاهد دخلت عليه المشاهدة من قبل المواجهة بالإنصاف والعدل بعيار العقل وإتلاف الحد من قبل قوة النظر فى الأكساب فعاقبته مخطرة جدا وإن كانت أعماله صالحة ؛ ويدلك على ذلك أن أكثر هذه المخاوف كانت فى البصريين وأهل عبادان والعسكر ، وكان مذهبهم القدر فوقعوا فى غاية الخطر ، ولست أعنى مذهبا فأقول إنه بدعة ، فإن بيان ذلك يطول القول فيه ، بل أعنى بالبدعة أن يعتقد الرجل فى ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف ما هو الحق فيعتقد على خلاف ما هو عليه ، إما برأيه ومعقوله ونظره الذى به يجادل الخصم ؛ وعليه يعول وبه يغتر وإما أخذا بالتقليد فمن هذا حاله ، فاذا قرب الموت وظهر له ناصية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه فربما ينكشف له فى حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلا فيتمنى أنه لم يعط عقلا إذ حال الموت حال كشف الغطاء ومبادى سكراته منه ، فقد ينكشف به بعض

الأمور ، فمهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعاً به وجازما متيقنا له عند نفسه لم يظن بنفسه أنه أخطأ فى هذا الاعتقاد لالتجائه فيه إلى رأيه الفاسد وعقله الناقص ، بل ظن أن كل ما اعتقده لا أصل له إن لم يكن عنده فرق بين إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد ، فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سبباً لبطلان بقية اعتقاداته وسببا لشكه فيها فإن اتفق زهوق روحه فى هذه الخطرة قبل أن يتشبث ويعود إلى أصل الإيمان فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعياذ بالله منه ، فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » وبقوله تعالى « وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » وبقوله تعالى « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » فكم من مغبوط فى أحواله تقلبت عليه الحال ومنى بمقارفة قبيح الأعمال ، فبدل بالأنس وحشة وبالحضور غيبة ، وكل من اعتقد فى الله تعالى وفى صفاته وأفعاله شيئا على خلاف ما هو به ، إما تقليدا لآبائه ومشايخه وإما نظرا بالرأى والمعقول فهو فى هذا الخطر ، والزهد والصلاح لا يكفى لدفع هذا الخطر ، بل لا ينجى منه إلا الاعتقاد الحق ، والبله الغافلون بمعزل عن هذا الخطر ، أعنى الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيمانا مجملا راسخا قويا كالأعراب والسوادية وسائر العوام الذين لم يخوضوا فى البحث والنظر ، ولم يشرعوا فى الكلام استقلالا ، ولا أصغوا إلى أصناف المتكلمين فى تقليد أقاويلهم المختلفة ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أكثر أهل الجنة البله» رواه البيهقى فى شعب الايمان ، ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض فى الكلام والتفتيش عن هذه الأمور ، وأمروا الخلق على أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله عز وجل جميعا وبكل ماجاء من الظواهر فى الكتاب والسنة مع اعتقاد نفى التشبيه وإثبات التنزيه والتقديس ، ومنعوهم فى الخوض عن التأويل وفتح هذا الباب رأسا ، لأن الخطر فى البحث عن الصفات عظيم ، وعقباته كئودة : أى متعبة ، ومسالكه وعرة : أى صعبة ، والعقول عن درك جلال الله تعالى وعظمته قاصرة ، وهداية الله بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا محجوبة فلا تهدى إليها . وأما السبب الثانى فى سوء الخاتمة فهو ضعف الإيمان فى الأصل ثم استيلاء حب الدنيا على القلب وغلبته عليه ، ومهما ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى وقوى حب الدنيا لأنهما ضدان ، فيصير بحيث لا يبقى فى القلب موضع لحب الله تعالى إلا من حيث حديث نفس لا يظهر له أثر فى مخالفة النفس والعدول عن طريق الشيطان ، فيورث ذلك الانهماك فى اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو ويسود وتتراكم ظلمة الذنوب على القلب ، ولا يزال يطفىء ما فيه عن نور الإيمان على ضعفه حتى يصير طبعا ورينا ، وإليه يشير قوله تعالى « فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » . وقوله تعالى « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » فاذا جاءت سكرات الموت وشدته ازداد ذلك الحب ، أعنى حب الله تعالى ضعفاً لما يبدو من استشعار فراق الدنيا ، وهى المحبوب الغالب على القلب ، فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا ويرى ذلك من الله ، فيختلج ضميره : أى يتحرك بإنكار ما قدر عليه من الموت

ثُمَّ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَعَلَّمَ مَا يَلْزَمُكَ فِعْلُهُ مِنَ الْوَاجِبَاتِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى مَا أُمِرْتَ بِهِ لِتَفْعَلَ ذٰلِكَ ، وَمَا يَلْزَمُكَ تَرْكُهُ مِنَ الْمَنَاهِي لِتَتْرُكَ ذٰلِكَ ، وَإِلَّا فَكَيْفَ تَقُومُ بِطَاعَاتٍ لَا تَعْرِفُهَا مَاهِيَ ، وَكَيْفَ هِيَ ، وَكَيْفَ يَجِبُ أَنْ تَفْعَلَ ، أَمْ كَيْفَ تَجْتَنِبُ مَعَاصِيَ لَا تَعْلَمُ أَنَّهَا مَعَاصٍ ، حَتَّى لَا تُوقِعَ نَفْسَكَ فِيهَا ، فَالْعِبَادَاتُ الشَّرْعِيَّةُ كَالطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَغَيْرِهَا يَجِبُ أَنْ تَعَلَّمَهَا بِأَحْكَامِهَا وَشَرَائِطِهَا حَتَّى تُقِيمَهَا فَرُبَّمَا أَنْتَ مُقِيمٌ عَلَى شَيْءٍ سِنِينَ وَأَزْمَانًا مِمَّا يُفْسِدُ عَلَيْكَ طَهَارَتَكَ وَصَلَوَاتِكَ وَيُخْرِجُهُمَا عَنْ كَوْنِهِمَا وَاقِعَتَيْنِ عَلَى وِفَاقِ السُّنَّةِ وَأَنْتَ لَا تَشْعُرُ بِذٰلِكَ ، وَرُبَّمَا يَعْتَرِضُ لَكَ مُشْكِلٌ وَلَا تَجِدُ مَنْ تَسْأَلُهُ عَنْ ذٰلِكَ وَأَنْتَ مَا تَعَلَّمْتَهُ . ثُمَّ مَدَارُ هٰذَا الشَّأْنِ أَيْضًا عَلَى الْعِبَادَاتِ الْبَاطِنَةِ الَّتِي هِيَ مَسَاعِي الْقَلْبِ يَجِبُ أَنْ تَعَلَّمَهَا مِنَ التَّوَكُّلِ وَالتَّفْوِيضِ وَالرِّضَا ، وَالصَّبْرِ وَالتَّوْبَةِ

---

وكراهته ذلك من حيث أنه من الله فيخشى أن يثور فى باطنه بغض الله تعالى بدل الحب اهـ ملخصاً ( ثم يجب عليك أن تعلم ما يلزمك فعله من الواجبات الشرعية ) كالصلاة والصوم وغيرهما (على ما أمرت به لتفعل ذلك و ) تعلم ( ما يلزمك تركه من المناهى ) كالرياء والعجب وغيرهما من الصفات المذمومة (لتترك ذلك ، وإلا ) أى وإن لم تعلم ما يلزمك فعله وتركه ( فكيف تقوم بطاعات لا تعرفها ما هى ) أى أى شىء يسمى طاعة ( وكيف هى؟ ) أى كيف الإتيان بها (وكيف يجب أن تفعل ) أى الطاعة ( أم كيف تجتنب ) أنت ( معاصى ) وأنت ( لا تعلم أنها ) أى الخصلة التى تفعلها (معاصى حتى لاتوقع نفسك فيها ، فالعبادة الشرعية كالطهارة والصلاة والصوم وغيرها ) أى من الوظائف الدينية ( يجب أن تعلمها بأحكامها وشرائطها حتى تقيمها ) على وفاق السنة ، وبيان ذلك مقرر فى الفقهية ( فربما أنت مقيم على شىء ) تظنه خيرا ( سنين وأزمانا ) وحقيقته أنه ( مما يفسد عليك طهارتك وصلواتك ويخرجهما عن كونهما واقعتين على وفاق السنة وأنت لاتشعر ) أى لاتعلم ( بذلك ) أى المفسد على طاعتك لجهلك بأحكامها وشرائطها ( وربما يعترض ) أى يقع ويظهر ( لك مشكل ) أى أمر مشكل من علم أو عمل ( ولا تجد من تسأله عن ذلك ) أى المشكل ( وأنت ماتعلمته ) لعدم تعلمك له ( ثم مدار هذا الشأن ) أى أصل هذا الشأن المعتبر وهو العلم ( أيضا ) أى كما تقدم من العبادات الشرعية (على العبادات الباطنة التى هى مساعى القلب ) أى أعماله وهى جمع مسعى وهو مصدر ميمى ومعناه العمل ( يجب أن تعلمها من التوكل ) على الله تعالى ( والتفويض ) أى تسليم الأمور إليه تعالى ( والرضا ) بقضائه تعالى خيره وشره ( والصبر ) على

وَالْإِخْلَاصِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ إِنْ شَاءَ اللّٰهُ تعالى. وَيَجِبُ أَنْ تَعْلَمَ مَنَاهِيَهَا الَّتِي هِيَ أَضْدَادُ هٰذِهِ الْأُمُورِ: كَالسُّخْطِ وَالْأَمَلِ وَالرِّيَاءِ وَالْكِبْرِ لِتَجْتَنِبَ ذٰلِكَ، فَإِنَّ هٰذِهِ فَرَائِضُ وَنَصَّ اللّٰهُ تعالى عَلَى الْأَمْرِ بِهَا وَالنَّهْيِ عَنْ أَضْدَادِهَا فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صلى اللّٰهُ عليه وَسلم كَمَا قَالَ تعالى: وَعَلَى اللّٰهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ـ وَاشْكُرُوا لِلّٰهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ـ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللّٰهِ. وَقَوْلُهُ: وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً، أَيْ أَخْلِصْ إِلَيْهِ إِخْلَاصاً

---

فعل الطاعة وعن المعصية (والتوبة) من الذنوب صغيرها وكبيرها (والإخلاص) أي ترك الرياء في العمل (وغير ذلك مما سيأتى) مبينا (ذكره إن شاء الله تعالى. ويجب أن تعلم مناهيها) أى المذكورات من التوكل وما بعده (التى هى) أى المناهى (أضداد هذه الأمور: كالسخط والأمل والرياء والكبر) وغير ذلك (لتجتنب ذلك) أى المذكور من المناهى فهو علة لقوله أن تعلم لأنه لايمكن الاجتناب إلا بعد العلم (فان هذه) أى الأمور من التوكل ونحوه (فرائض ونص الله تعالى على الأمر بها والنهى عن أضدادها فى كتابه العزيز وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى وعلى الله فتوكلوا) بالنصرة (إن كنتم مؤمنين) أى مؤمنين به ومصدقين لوعده وقوله تعالى «يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم» (واشكروا لله) على مارزقكم وأحل لكم (إن كنتم إياه تعبدون) إن صح أنكم تخصونه بالعبادة وتقرون أنه مولى النعم، فان عبادته تعالى لاتتم إلا بالشكر، فان المعلق بفعل العبادة هو الأمر بالشكر لاتمامه وهو عدم عند عدمه، وعن النبى صلى الله عليه وسلم «يقول الله تعالى: إنى والإنس والجن فى نبأ عظيم أخلق ويعبد غيرى وأرزق ويشكر غيرى» وقوله تعالى (واصبر وماصبرك إلا بالله) بتوفيقه وتثبيته (وقوله) تعالى (وتبتل إليه تبتيلا) أى انقطع إليه انقطاعا، قال المصنف معناه (أى أخلص إليه إخلاصا) وكقوله صلى الله عليه وسلم «من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لايحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها» وقوله صلى الله عليه وسلم «توبوا إلى الله فانى أتوب إليه كل يوم مائة مرة». وقوله صلى الله عليه وسلم «إذا تاب العبد أنسى الله الحفظة ذنوبه وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض حتى يلقى الله وليس عليه شاهد بذنب». وقوله صلى الله عليه وسلم «من أخلص لله أربعين يوما أظهر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» وقوله صلى الله عليه وسلم «من فارق الدنيا على الاخلاص لله وحده لاشريك له وأقام الصلاة وآتى الزكاة فارقها والله عنه راض» وقوله صلى الله عليه وسلم «الصبر نصف الايمان» وقوله صلى الله عليه وسلم «الصبر كنز من كنوز الجنة» وقوله صلى الله عليه وسلم «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر» وقوله صلى الله عليه وسلم «من رضى من الله تعالى بالقليل من الرزق رضى الله تعالى منه بالقليل من العمل» وفى مناجاة موسى عليه السلام «أى رب أى خلقك أحب إليك؟

وَنَحْوَ ذٰلِكَ مِنَ الآيَاتِ كَمَا نَصَّ عَلَى الْأَمْرِ بِالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ فَمَا لَكَ أَقْبَلْتَ عَلَى الصَّلَاةِ أَوِ الصَّوْمِ وَتَرَكْتَ هٰذِهِ الْفَرَائِضَ وَالْأَمْرَ بِهِمَا مِنْ رَبٍّ وَاحِدٍ فِي كِتَابٍ وَاحِدٍ ، بَلْ غَفَلْتَ عَنْهَا فَلَا تَعْرِفُ شَيْئًا مِنْهَا بِفَتْوَى مَنْ أَصْبَحَ بِعَاجِلِ حَظِّهِ مَشْغُوفًا حَتَّى صَيَّرَ الْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا ، وَمَنْ أَهْمَلَ الْعُلُومَ الَّتِي سَمَّاهَا اللّٰهُ فِي كِتَابِهِ نُورًا وَحِكْمَةً وَهُدًى وَأَقْبَلَ عَلَى مَا بِهِ يَكْتَسِبُ الْحَرَامَ وَيَكُونُ مَصِيدَةً لِلْحُطَامِ ، أَمَا تَخَافُ أَيُّهَا الْمُسْتَرْشِدُ أَنْ تَكُونَ مُضَيِّعًا لِشَيْءٍ مِنْ هٰذِهِ الْوَاجِبَاتِ بَلْ لِأَكْثَرِهَا ، وَتَشْتَغِلُ بِصَلَاةِ التَّطَوُّعِ وَصَوْمِ النَّفْلِ فَتَكُونُ فِي لَاشَيْءٍ وَرُبَّمَا أَنْتَ مُصِرٌّ عَلَى مَعْصِيَةٍ مِنْ هٰذِهِ الْمَعَاصِي تَسْتَوْجِبُ بِهَا النَّارَ وَتَتْرُكُ مُبَاحًا

---

قال من إذا أخذت منه المحبوب سالمني . قال فأي خلقك أنت عليه ساخط ؟ قال من يستخيرني في الأمر فاذا قضيت له سخط قضائي » ( ونحو ذلك من الآيات ) والأخبار ( كما نص ) الله تعالى ( على الأمر بالصلاة والصوم ) في قوله عز وجل « وأقيموا الصلاة » وقوله جلّ من قائل « فليصمه » ( فمالك ) أي ما شأنك ( أقبلت على الصلاة أو الصوم وتركت هذه الفرائض ) أي المذكورات من التوكل وغيره ( والأمر بهما ) أي بالأمرين وهما الصلاة أوالصوم والفرائض ( من رب واحد ) أي ثبت منه جلّ وعز ( في كتاب واحد ، بل غفلت ) أي تركت ( عنها ) أي عن الفرائض ( فلا تعرف شيئا منها بفتوى من أصبح ) أي صار ( بعاجل ) الباء بمعنى اللام ، أي لعاجل ( حظه ) أي نصيبه من الدنيا ( مشغوفا ) أي دخل الحب شغاف قلبه : أي غلافه وهو جلدة دونه كالحجاب ، وهذا كناية عن شدة حبه الدنيا ( حتى صير المعروف ) وهو ما قبله العقل وأقره الشرع ووافقه كرم الطبع ( منكرا ) وهو ماليس فيه رضا الله تعالى من قول أو فعل ( و ) صير (المنكر معروفا و ) بفتوى ( من أهمل العلوم ) أي تركها ( التي سماها الله في كتابه نورا وحكمة وهدى وأقبل على ما ) أي من علم الخصومة ( به يكتسب الحرام و ) ما ( يكون مصيدة ) بوزن معيشة : أي ما يصاد به ( للحطام ) أي متاع الدنيا الذي يصير آخره فانيا ( أما تخاف أيها المسترشد ) أي طالب الرشد والصواب ( أن تكون مضيعا ) أي مهلكا ، يقال ضاع الشيء ضياعا بفتح الضاد وكسرها : أي هلك ، والاضاعة والتضييع بمعنى، كذا في المختار ( لشيء من هذه الواجبات ) أي الفرائض المذكورات ( بل لأكثرها وتشتغل بصلاة التطوع وصوم النفل فتكون في لاشيء ) بالجر لما يأتي آنفا ، وذلك لأنك قد ضيعت هذه الأمور ( وربما أنت مصرّ ) أي مقيم ( على معصية ) واحدة ( من هذه المعاصي ) وهي السخط والأمل والرياء والكبر وغيرها ( التي تستوجب ) أي تستحق ( بها ) بسببها ( النار ) أي دخولها ( وتترك مباحا ) وهو مالا يثاب

مِنْ طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ أَوْ نَوْمٍ تَبْتَغِي بِهِ قُرْبَةً إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَتَكُونُ فِي لَا شَيْءٍ ، وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنَّكَ تَكُونُ فِي أَسْرِ الْأَمَلِ وَالْأَمَلُ مَعْصِيَةٌ مَحْضَةٌ فَتَظُنُّهُ نِيَّةَ خَيْرٍ بِجَهْلِكَ بِالْفَرْقِ بَيْنَهُمَا وَتَقَارُبِهِمَا فِي بَعْضِ الْوُجُوهِ ،

---

على فعله ولا يعاقب على تركه ( من طعام أو شراب أو نوم ) حال كونك ( تبتغى ) أى تطلب (به) أى بترك المباح ( قربة إلى الله عز وجل فتكون فى لاشىء ) بالجر لأن الجار إذا دخل على لا خفض النكرة نحو: جئت بلا زاد وغضبت من لاشىء كما قاله الأشمونى ، ولاملغاة معترضة بين الجار ومجروره، وعن الكوفيين أن لاحينئذ اسم بمعنى غير مجرور بالحرف وما بعده مجرور بالإضافة لا إليه كما أفاده الصبان ، وشذ جئت بلا شىء بالفتح ؛ والمعنى لانصيب لك لتضييعك الواجبات ( وأشد من ذلك ) أى المذكور من تضييع الواجبات وترك المباحات (كله أنك تكون فى أسر الأمل ) أى حبسه ( والأمل ) أى إرادة الحياة والبقاء لجمع الدنيا والتمتع بها ( معصية محضة ) أى خالصة ( فتظنه نية خير لجهلك بالفرق بينهما ) أى بين الأمل ونية الخير ( وتقاربهما فى بعض الوجوه ) قال الأكثرون : والأمل إرادة الحياة للوقت المتراخى بالحكم ، والنية المحمودة هى إرادة أخذ عمل مبتدأ به قبل سائر الأعمال بالحكم مع إرادة إتمامه بالتفويض والاستثناء كما يأتى فى باب الأمل . قال السيد مرتضى الزبيدى : وقد تلتبس النية بالأمنية فتحق والهمة والوسوسة فتشتبه . والنية ما كان يراد به وجه الله ويطلب به ماعنده ، والأمنية ماتعلق بالخلق طلب منه عاجل الحظ من الملك الفانى ؛ وقد تلتبس الارادة بالمحبة والحاجة بالشهوة . فالارادة أن يريد وقوع الأمر وقد لايحب كونه أو يريه أيضا وجود ضده . والمحبة ماقهر العقل وغلب الوجد وحل فى مجامع القلب وكره وجودغيره ولم يرد فقده. والحاجة مااضطرت إليه ولم يكن منه بدّ ولايستغنى عنه بغيره والشهوة مزيدة لذة واستدعاء فضل فاقة واجتلاب تقدم عادة ، وقد يختلط الذكر بالقلب بالفكر فى معانى القرب . فالذكر ما أظهر المنسى وكشف الغى وأذكر الشىء ؛ والفكر ما صور الأمر وأظهر الخبر، وقد يلتبس الرجاء بالمحبة والهوى بالنية ، فالرجاء : ما طمعت فيه بسبب ما أو لسبب ما ، والمحبة ما تطعمت ذوقه ووجدته بغير سبب تستخرجه ، وقد يلتبس ذل القلب بضعفه وقوته للطمع فى الخلق بذل النفس لمشاهدة غيرة الحق سبحانه ، وقد يتداخل ذل الطمع لدناءة الهمة والنفس بذل العقل للاعتراف بالحق وخضوع العلم له ، وقد يلتبس ذل النفس لغلبة الهوى وقهره للعقل بذل القلب لسرعة الانقياد للعالم المحق ، وقد تختلط عزة القلب بعقله بدوام النظر إليه وعزة العقل بعلمه الذى كثر عنده ، وقد تلتبس عزة النفس بوصفها المتسلط بعزة الإيمان المعزز بغيبته اليقين ، فهذه فروق ظاهرة للعارفين وخروق متسعة توهت العاقلين ، وقد تلتبس العبادة بالعادة مثل أن تكون للعبد نية فى علم أو عمل أو صدقة أو نفقة الشهر أو السنة ثم تعزب نيته فيبقى على عادته يرث حال الذى قد عرف به لا يحب أن يخرج من عرف الناس له فيستعمل لاستقامة الحال على

وَكَذَٰلِكَ تَكُونُ فِى جَزَعٍ وَسُخْطٍ فَتَظُنُّهُ تَضَرُّعًا وَابْتِهَالاً إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَكُونُ فِى رِيَاءٍ مَحْضٍ وَتَحْسِبُهُ حَمْدًا لِلّٰهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَوْ دَعْوَةً لِلنَّاسِ إِلَى خَيْرٍ فَتَأْخُذُ تَعُدُّ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ الْمَعَاصِىَ بِالطَّاعَاتِ ، وَتَحْتَسِبُ الثَّوَابَ الْعَظِيمَ فِى مَوَاضِعِ الْعُقُوبَاتِ فَتَكُونُ فِى غُرُورٍ عَظِيمٍ وَغَفْلَةٍ قَبِيحَةٍ ، فَهٰذِهِ وَاللهِ مُصِيبَةٌ فَظِيعَةٌ لِلْعَامِلِينَ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ

---

التكلف لتلك الأعمال فتذهب النية وتبقى العادة فيخرج به من إرادة الآخرة والسعى لها ويدخل فى إرادة الدنيا بالشهوات على جريان العادة بها ، وقد تلتبس طرقات الدنيا من طلب الرياسة لوجود الهوى بطرقات الآخرة فى معنى العلوم والأعمال، فما طلب من علوم السلف وأريد به تأديب النفس ويعلم به الزهد فى الدنيا فهذه طرقات الآخرة ، وما كان على ضده فهو طرقات الدنيا إذ هى ضدها،وقد يلتبس إظهار الأعمال وكشف ما كتم من الأحوال لأجل التأديب به والاتباع عليه أولاظهار قدرة الله عز وجل وآياته لمزيد السامع من المعرفة به يفعل مثل ذلك للتزين والفخر أو للمدعى به وطلب الذكر .

وسئل أبو سليمان الدارانى عن الرجل يخبر بالشىء عن نفسه فقال : إذا كان إماما يقتدى به فنعم ، وقال مرة هو أو غيره يختلف ذلك على قدر الارادة به إن أراد التأديب للنفس حسن ذلك فهذا يلتبس بمداخلة النفس أو بغنائها بغيوبة شاهد اليقين للرب عز وجل ( وكذلك ) أى مثل كونك فى أسر الأمل فتظنه نية الخير ( تكون فى جزع ) محركة ضد الصبر ( وسخط ) بفتحتين ضد الرضا ( فتظنه ) أى المذكور من الجزع والسخط ( تضرعا وابتهالا ) عطف تفسير كما يعلم من صنيع المختار : أى إخلاصا فى الدعاء ( إلى الله عز وجل.و ) التحقيق أنك ( تكون فى رياء محض ) أو سمعة محضة ( وتحسبه ) أى تظن الرياء أو السمعة الخالصين ( حمدا ) وثناء ( لله سبحانه وتعالى ) وذلك لجهلك بآفات الأعمال ( أو ) تحسبه ( دعوة للناس إلى خير فتأخذ ) أى فتشرع ( تعدّ على الله سبحانه المعاصى بالطاعات ) الباء زائدة ، بأن تقول يا رب عملت كذا وكذا ( وتحتسب الثواب العظيم فى مواضع العقوبات فتكون فى غرور عظيم ) أى ضرر عظيم وخدع بما يغتر به ظاهره حسن ومآله قبيح ، وأصل الغرور : الغفلة وسكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع ، كذا قاله العلامة الزبيدى ( وغفلة قبيحة ) والغفلة عبارة عن فقد الشعور بما حقه أن يشعر به أو هى الذهول عن الشىء . وقال بعضهم : هى سهو يعترى عن قلة التحفظ والتيقظ ، وقيل بل هى متابعة النفس على ما تشتهيه . وأما القبح : فهو ضد الحسن كما فى المختار ( فهذه ) أى الحالة التى تكون عليها من الغرور والغفلة ( والله ) العظيم (مصيبة فظيعة) أى شديدة شنيعة كما فى المختار ( للعاملين ) أى الذين يعملون أعمالا ( من غير علم ) أو بصيرة، فإن منشأ هذا

الغرور الجهل بآفات الأعمال ومهلكاتها، ويكفى فى ذم الغرور قوله تعالى « فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » وقوله صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » .

والمغترون على أربعة أصناف كل صنف منها فروق كثيرة . وقد أشبع القول فيها مصنفنا أبو حامد الغزالى فى الإحياء ، وأذكر هنا قدرا يسيرا منه ملخصا للاختصار .

[الصنف الأول] أهل العلم والمغترون منهم فرق : ففرقة أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها واشتغلوا بها وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصى وإلزامها الطاعات واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان ومنزلة وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذب الله مثلهم بل يقبل فى الخلق شفاعتهم وأنه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله وهم مغرورون ، فإنهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أن العلم علمان : علم معاملة ، وعلم مكاشفة وهو العلم بالله وبصفاته المسمى بالعادة علم المعرفة .

فأما العلم بالمعاملة كمعرفة الحلال والحرام ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها فهى علوم لا تراد إلا للعمل، ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة ، وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل. والفقيه الذى أحكم علم الطاعات ولم يعملها، وأحكم علم المعاصى ولم يجتنبها، وأحكم علم الأخلاق المذمومة ومازكى نفسه منها، وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتصف بها فهو مغرور إذ قال تعالى « قد أفلح من زكاها » ولم يقل أفلح من تعلم كيفية تزكيتها وكتب علم ذلك وعلمه الناس ، وعند هذا يقول له الشيطان لا يغرنّ هذا فإنما مطلبك القرب من الله وثوابه والعلم يجلب الثواب ويتلو عليه الأخبار الواردة فى فضل العلم ، فإن كان المسكين معتوها مغرورا وافق ذلك مراده وهواه فاطمأن إليه وأهمل العمل ، وإن كان كيسا فطنا حاذقا فيقول للشيطان أتذكرنى فضائل العلم وتنسينى ما ورد فى العالم الفاجر الذى لا يعمل بعلمه ، كقوله تعالى: « فمثله كمثل الكلب » وكقوله تعالى « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » فأى خزى أعظم من التمثيل بالكلب والحمار : أى وهما من أخس خلق الله تعالى ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعدا » إلى غير ذلك من الأخبار التى وردت فى الصفات المذمومة ؛ فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» فتعهدوا الأعمال وما تعهدوا القلوب والقلب هو الأصل إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم .

[ الصنف الثانى ] أرباب العبادة والعمل ، والمغرورون منهم فرق كثيرة : فمنهم فرقة أهملوا الفرائض واشتغلوا بالفضائل والنوافل وربما تعمقوا فى الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان والسرف كالذى تغلب عليه الوسوسة فى الوضوء فيبالغ فيه ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته فى فتوى الشرع ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة فى النجاسة ، وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال قدّر الاحتمالات القريبة بعيدة وربما أكل الحرام المحض ، ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان

أشبه بسيرة الصحابة ، إذ توضأ عمر رضى الله عنه بماء فى جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة وكان مع هذا يدع أبوابا من الحلال مخافة من الوقوع فى الحرام كما هو معروف من سيرته . وفرقة أخرى غلب عليها الوسوسة فى نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة ، بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة ويخرج الصلاة عن الوقت وإن تم تكبيره فيكون فى قلبه بعد تردد فى صحة نيته ، وقد يوسوسون فى التكبير حتى يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط فيه يفعلون ذلك فى أول الصلاة ثم يغفلون فى جميع الصلاة فلا يحضرون قلوبهم ويغترون بذلك ويظنون أنهم إذا أتعبوا أنفسهم فى تصحيح النية فى أول الصلاة وتميزوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط فهم على خير عند ربهم . وفرقة أخرى تغلب عليهم الوسوسة فى إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها فلا يزال يحتاج فى التشديدات والفرق بين الضاد والظاء وتصحيح مخارج الحروف فى جميع صلاته لايهمه غيره ولا يتفكر فيما سواه ذاهلا عن معنى القرآن الذى هو المقصود بالذات وعن الاتعاظ به وعن صرف الفهم إلى أسراره ، وهذا من أقبح أنواع الغرور فإنه لم يكلف الخلق فى تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم فى الكلام والمحاورة ، ولهذا لم ينقل عن أحد من السلف هذا التشدد . وفرقة أخرى جاوروا بمكة أو المدينة واغتروا بذلك ولم يراقبوا قلوبهم ولم يطهروا ظاهرهم وباطنهم فقلوبهم معلقة ببلادهم لا تنفك عن خيالهم مع تمنيهم أن يكونوا بها فيعدّون لذلك الأيام عدا ملتفتة إلى قول من يعرفه ان فلانا مجاور بمكة أو بالمدينة ، وتراه يتحدث مع الناس ويقول : قد جاورت بمكة أو بالمدينة كذا وكذا سنة وحضرت كذا وكذا موسما ولقيت بها فلانا وفلانا وإذا سمع أن ذلك قبيح ترك صريح التحدث وأحب فى باطنه أن يعرفه الناس بذلك وهوغرور ، ثم إنه يجاور بهما ويمد عين طمعه إلى أوساخ أموال الناس من الصدقات التى تفرق هناك ، فإذا جمع من ذلك شيئا شح عليه وأمسكه بخلا ولم تسمح نفسه بلقمة واحدة يتصدق بها على فقراء أهله فيظهر فيه الرياء والبخل والطمع وجملة من المهلكات كان هو عنها بمعزل لو ترك المجاورة ، ولكن حب المحمدة والثناء وأن يقال إنه من المجاورين ألزمه المجاورة مع التضمخ بهذه الرذائل والخبائث فهو أيضا مغرور ، وما من عمل من الأعمال وعبادة من العبادات إلا وفيها آفات ظاهرة وباطنة ، فمَن لم يعرف مداخل آفاتها ، واعتمد عليها فهو مغرور .

[ الصنف الثالث ] المتصوفة وما أغلب الغرور عليهم . والمغترون منهم فرق كثيرة ، ففرقة منهم وهم متصوفة أهل الزمان إلا من عصمه الله ادعوا علم المعرفة ومشاهدة الحق من عين القلب ومجاوزة المقامات والأحوال والملازمة فى عين الشهود والوصول إلى القرب ولا يعرف واحد منهم هذه الأمور إلا بالأسامى والألفاظ لأنه تلقف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يرددها ، ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء والاحتقار فضلا عن العوام ، فانهم عنده كالأنعام ، حتى إن الفلاح يترك فلاحته ، أى حراثة الأرض والحائك يترك حياكته ويلازمهم أياما معدودة ويتلقف منهم الكلمات المزيفة فهو يرددها كأنه

يتكلم بها عن الوحى السماوى وعن سر الأسرار المكتوبة ، ويستحقر فى ذلك مطلقا لسانه فى جميع العباد والعلماء الذين هم من خواص عباد الله فيقول فى العباد إنهم متعبون ويقول فى العلماء إنهم بالحديث والقال والقيل عن الله محجوبون ، ويدعى لنفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه عنده من المقربين فى حضرته ، وهو فى الحقيقة عند الله من الفجار المنافقين ، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين المغرورين لم يحكم قط علما : أى لم يتقنه، ولم يهذب قلبا بالمجاهدة ، ولم يرتب عملا يكون به واصلا ، ولم يراقب قلبا بالذكر سوى اتباع الهوى والشهوات وتلقف الهذيان وحفظه فما أشد غرور هذا. وفرقة أخرى اشتغلوا بالمجاهدة وتهذيب الأخلاق وتطهير النفس من عيوبها وصاروا يتعمقون فيها فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خداعها علما وحرفة ، فهم فى جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس واستنباط دقيق الكلام فى آفاتها فيقولون هذا فى النفس عيب والغفلة عن كونه عيبا عيب والالتفات إلى كونه عيبا عيب ويشغفون فيه بكلمات سلسة تضيع الأوقات فى تلفيقها ، ومن جعل طول عمره فى التفتيش عن العيوب وتحرير علم علاجها كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج وآفاته ولم يسلك طريق الحج فذلك لا يغنيه ولا يعد من السالكين .

[ الصنف الرابع ] أرباب الأموال ، والمغترون منهم فرق : ففرقة منهم ينفقون الأموال فى الصدقات على الفقراء والمساكين ويطلبون به المحافل الجامعة ، ومن الفقراء من عادته الشكر والإفشاء للمعروف ويكرهون التصدق فى السر ويرون إخفاء الفقير لما يأخذه منهم جناية عليهم وكفرانا ، وربما يحرصون على إنفاق المال فى الحج فيحجون مرة بعد أخرى ، وربما تركوا جيرانهم جياعا ، ولذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه : فى آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب يهون عليهم السفر ، أى لما يتعودونه ويبسط لهم فى الرزق أو يكثر دخلهم بالتجارات وغيرها ويرجعون محرومين عن الأجر مسلوبين عن الثواب يهوى بأحدهم بعيره بين القفار والرمال وجاره مأسور أى مربوط إلى جنبه لا يواسيه ولا يسأل عنه . وفرقة أخرى من أرباب الأموال اشتغلوا بها يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التى لا يحتاج فيها إلى نفقة كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن وهم مغرورون لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم فهو يحتاج إلى قمعه باخراج المال فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها ، فغرور هؤلاء فى ترك الأهم الأنفع . وفرقة أخرى من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم واتخذوا ذلك عادة لا يفارقونها ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتعاظ أجرا من الله تعالى وهم مغرورون ، لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغبا فى الخير فإن لم يهيج الرغبة فيه فلا خير فيه ، والرغبة محمودة لأنها تبعث على العمل . فإن ضعفت عن الحمل على العمل فلا خير فيها ، وما يراد لغيره فإذا قصر عن الأداء إلى ذلك الغير فلا قيمة له ، وربما يغتر بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس وفضل البكاء ، وربما تدخله رقة كرقة النساء فيبكي ، وربما يسمع كلاما مخوفا فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول يارب

ثُمَّ مَعَ ذَٰلِكَ كُلِّهِ فَإِنَّ لِلْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ

**سلم سلم ، أويقول نعوذ بالله أو سبحان الله أو نحو ذلك ، ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور؛ فهذا وأمثاله من الغرور لا يحصى ، وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور ليقاس عليه** ما لم أذكره . فان قلت : فبم ينجو العبد من الغرور ؟ فاعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور بالعقل والعلم والمعرفة . أما العقل فالمراد به الفطرة الغريزية التى فطر عليها الإنسان والنور الأصلى الذى به يدرك حقائق الأشياء ، فالفطنة والكيس فطرة والحمق والبلادة فطرة ، والبليد لايقدر على التحفظ عن الغرور ، فصفاء العقل وذكاء الفهم لابد منه فى أصل الفطرة ، فهذا إن لم يفطر عليه الإنسان من الأصل فاكتسابه غير ممكن ، نعم إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة ، فأصل السعادات كلها العقل والكياسة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تبارك الذى قسم العقل بين عباده أشتاتا إن الرجلين ليستوى عملهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان فى العقل كالذرة فى جنب أحد » أى الجبل المشهور « وما قسم الله لخلقه حظا هو أفضل من العقل واليقين » .

وأما المعرفة: فالمراد بها أن يعرف أربعة أمور : يعرف نفسه ، ويعرف ربه ، ويعرف الدنيا ، ويعرف الآخرة ، فيعرف نفسه بالعبودية والذل والافتقار ، ويعرف ربه بالسيادة والعظمة والاقتدار ، ويعرف أيضاً بكونه غريباً فى هذا العالم مسافرا منه إلى دار الآخرة وأجنبيا من هذه الشهوات البهيمية ، وإنما الموافق له طبعا هو معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه فقط ؛ ولا يتصور أن يعرف هذا مالم يعرف نفسه ولم يعرف ربه فليستعن على هذا بما فى كتاب المحبة وفى كتاب شرح عجائب القلب وكتاب التفكر والشكر من كتب إحياء علوم الدين ، إذ فيها إشارات إلى وصف النفس وإلى وصف جلال الله ، ويحصل به التنبيه على الجملة ، ويعرف الدنيا والآخرة بما فى كتاب ذم الدنيا وكتاب ذكر الموت من ذلك ليتبين له أن لا نسبة للدنيا إلى الآخرة ، فاذا عرف نفسه وربه وعرف الدنيا والآخرة ثار من قلبه من معرفة الله تعالى حب الله ، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها ، وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها ، ويصير أهم أموره ما يوصله إلى الله تعالى وينفعه فى الآخرة ؛ وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صحت نيته فى الأمور كلها ، فإن كان أكل مثلا أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منها الاستعانة على سلوك طريق الآخرة وصحت نيته واندفع عنه كل غرور منشؤه تجاذب الأغراض والنزوع إلى جانب الدنيا والجاه والمال والتطلع إليها فإن ذلك هو المفسد للنية .

وأما العلم : فالمراد به العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله والعلم بما يقربه من الله وبما يبعد عنه ، والعلم بآفات الطريق وعقباته وغوائله وجميع ذلك مما أكثره مسطور فى هذا الكتاب والله سبحانه وتعالى أعلم . قال رحمه الله تعالى ( ثم مع ذلك ) أى الغرور والتنبيه أى بعد بيانهما كما قرره بعضهم ( كله ، فإن ) أى فاعلم أن ( للأعمال الظاهرة ) كالصلاة والصوم

عَلاَئِقَ مِنَ الْمَسَاعِي الْبَاطِنَةِ تُصْلِحُهَا وَتُفْسِدُهَا : كَالْإِخْلَاصِ وَالرِّيَاءِ وَالْعُجْبِ وَذِكْرِ الْمِنَّةِ وَغَيْرِهِ ، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ هٰذِهِ الْمَسَاعِيَ الْبَاطِنَةَ وَوُجُوهَ تَأْثِيرِهَا فِى الْعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ وَكَيْفِيَّةَ الْاِحْتِرَاسِ مِنْهَا وَحِفْظَ الْعَمَلِ عَنْهَا ، فَقَلَّمَا يَسْلَمُ لَهُ عَمَلُ الظَّاهِرِ أَيْضًا فَتَفُوتُهُ طَاعَاتُ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ وَلَا يَبْقَى بِيَدِهِ إِلَّا الشَّقَاءُ وَالْكَدَرُ وَهٰذَا هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ وَلِهٰذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلم فى صِفَةِ الْعِلْمِ : « إِنَّ نَوْمًا عَلَى عِلْمٍ خَيْرٌ مِنْ صَلَاةٍ عَلَى جَهْلٍ ، فَإِنَّ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ » . وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فِى الْعِلْمِ « إِنَّهُ يُلْهَمُهُ السُّعَدَاءُ

---

( علائق ) جمع علاقة كسحابة : ما يتعلق بالمرء من صناعة وغيرها وما يتبلغ به من عيش ومن المهر ما يتعلقون به على الزوج كما ذكره فى القاموس. والمراد هنا ما يتعلق بالأعمال الظاهرة (من المساعى) أى الأعمال ( الباطنة تصلحها ) بضم التاء من أصلح : أى تصلح العلائق تلك الأعمال الظاهرة ( وتفسدها ) وذلك (كالإخلاص والرياء والعجب وذكر المنة وغيره ) أى المذكور من الأمور الأربعة وسيأتى بيانها فى بابها ( فمن لم يعرف هذه المساعى الباطنة و ) لم يعرف ( وجوه تأثيرها فى العبادات الظاهرة و ) لم يعرف أيضا ( كيفية الاحتراس ) أى الحفظ ( منها و ) كيفية ( حفظ العمل عنها ) أى عن المساعى الباطنة ( فقلما ) أى قل جدا ، وما زائدة للتأكيد ( يسلم له ) أى العبد ( عمل الظاهر أيضا ) أى كالعمل الباطن ( فتفوته طاعات الظاهر والباطن ولا يبقى بيده إلا الشقاء ) بالفتح ضد السعادة كما فى المختار ( والكد ) بالفتح : أى الشدة فى العمل كذا فى المختار ( هذا ) أى فوت الطاعات بقسميها وبقاء الشقاء والتعب فى العمل (هو الخسران المبين) لأنه أتعب نفسه فى عمل يرجو به فضلا فنال هلاكا ( ولهذا ) أى لقلة سلامة الأعمال عن الآفات إلا بمعرفتها وعلمها ( قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صفة العلم ) أى وصفه ببيان فضيلته ( إن نوما على علم ) أى مع علم ( خير من صلاة على جهل ) أى معه لأن تركها خير من فعلها مع الجهل فقد يظن المبطل مصحا والممنوع جائزا كما قاله العزيزى ، رواه أبو نعيم فى الحلية بإسناد ضعيف وذكره الجلال السيوطى فى اللباب بلفظ « نوم العالم أفضل من عبادة الجاهل » : أى نوم العالم الذى يراعى آداب العلم أفضل من عبادة الجاهل الذى لم يعلم آداب العبادة، وعلله المصنف رحمه الله بقوله (فإن العامل بغير علم يفسد أكثر مما يصلح ) أى يصلحه كما قال ضرار بن الأزور الصحابى: من عبد الله بجهل كان ما يفسد أكثر مما يصلح ، وكما قال واثلة بن الأسقع : المتعبد بغير فقه كحمار الطاحون ، كذا فى شرح اللباب ( وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العلم ) هو إمام والعمل تابعه ( إنه يلهمه ) بضم الياء مع فتح الهاء : أى ألهم بالعلم ( السعداء ) أى من سبقت

وَيُحْرَمُهُ الْأَشْقِياء » وَالْمَعنَى وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ سُبْحَانَهُ أَنَّ إِحْدَى شِقْوَتَيْهِ أَنْ لاَ يَتَعَلَّمَ الْعِلْمَ ثُمَّ يَشْقَى وَيَتْعَبُ فِى الْعِبَادَةِ عَلَى خَبْطٍ فَمَا يَكُونُ لَهُ مِنْ ذٰلِكَ إِلاَّ الْعَنَاء ، وَالْعِيَاذُ بِاللهِ مِنْ عِلْمٍ وَعَمَلٍ لاَ يَنْفَعُ ، وَلِهٰذَا عَظُمَتْ عِنَايَةُ الْعُلَمَاءِ الزُّهَّادِ الْعَامِلِينَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ

لهم السعادة الأزلية (ويحرمه) بضم الياء مع فتح الراء : أى يمنع منه ( الأشقياء ) أى من سبقت له الشقاوة الأزلية يعنى ليس لهم نصيب منه ، هكذا رواه أبو نعيم فى الحلية وأبو طالب المكى فى القوت والخطيب وابن القيم وغيرهم موقوفا ، ورواه أبو نعيم فى المعجم وابن عبد البر مرفوعا . وقال فى آخره : وهو حديث حسن ، ولكن ليس له إسناد قوى ، كذا فى شرح الإحياء (والمعنى) أى معنى الحديث ( والعلم عند الله سبحانه ) هذه جملة معترضة بين المبتدأ والخبر ، أتى رحمه الله بهذه الجملة تبركا وتبريا من علمه إلى علم الله تعالى : أى علمه محيط بكل شىء ، وهذا نظير ما يقول المفتى فى آخر جوابه والله أعلم ، فيكل علمه إلى علم الله تعالى ويتبرأ من أن يقول فى دين الله ما ليس مطابقا لما هو فى نفس الأمر ( إن إحدى شقوتيه ) أى إحدى شقوتى العامل بغير علم ( أن لا يتعلم العلم ثم يشقى ويتعب ) بفتح العين ( فى العبادة على خبط ) أى فساد ، وهذه إحداهما ، والشقوة الأخرى الكفر كما فى [سراج السالكين] (فما يكون له) أى ليس للعامل (من ذلك ) العمل والتعب فيه ( إلا العناء ) بالفتح : أى التعب والمشقة بلا نفع ولا فائدة ( والعياذ بالله من علم وعمل ) أى كل منهما ( لا ينفع ) وعدم نفع العلم إما لأنه لا يصحبه العمل أو لم يؤذن فى تعلمه شرعا أو لا يهذب الأخلاق كما قاله بعضهم وعدم نفع العمل إما الرياء أو فقد إخلاص لكون صاحبه مغضوبا عليه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كثيرا فى الدعاء تعليما لأمته « اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، وعمل لا يرفع ، ودعاء لا يسمع » . وفى رواية « لا يستجاب » رواه أحمد بن حنبل وابن حبان والحاكم عن أنس لكن بإسقاط « وقلب لا يخشع » ( ولهذا ) أى لأجل أن العمل بغير علم لا يفيد إلا العناء والتعب ( عظمت عناية العلماء ) أى اهتمامهم ، والعلماء : جمع عالم ، وهو العارف بالأحكام الشرعية التى عليها مدار صحة الدين اعتقادية كانت أو عملية ، والمراد بهم السلف الصالح ومن تبعهم باحسان ( الزهاد ) جمع زاهد وسبق معنى الزهد أول الكتاب ( العاملين ) بعلومهم ، وهذا كالتأكيد لقوله العلماء ، لأنه لا يقال له عالم حقيقة إلا إذا كان عاملا بعلمه . قال بعضهم :

العلم زين بالعمل    لا بالتباهى والأمل    فمن أتى فى وصفه    بالقول والفعل كمل
ومن نأى عن فعله    فهو حمار أو جمل    يحمل أسفارا فلا    يدرى لمعنى ما حمل

( رضى الله عنهم ) أى حفظهم من سخطه ، إذ الرضا والرضوان ضد السخط كما قاله العلامة

بِالْعِلْمِ خَاصَّةً مِنْ بَيْنِ سَائِرِ النَّاسِ ، فَإِنَّ مَدَارَ أَمْرِ الْعُبُودِيَّةِ وَمِلَاكَ الْعِبَادَةِ وَالْخِدْمَةِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى الْعِلْمِ ، وَهٰكَذَا يَكُونُ نَظَرُ أُولِي الْأَبْصارِ وَأَهْلِ التَّأْيِيدِ وَالتَّوْفِيقِ ؛ فَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ بِهٰذِهِ الْجُمْلَةِ أَنَّ الطَّاعَةَ تَحْصُلُ لِلْعَبْدِ وَلَا تَسْلَمُ لَهُ إِلَّا بِالْعِلْمِ فَيَلْزَمُ إِذًا تَقْدِيمُهُ فِى شَأْنِ الْعِبَادَةِ .

( وَأَمَّا الْخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ ) الَّتِي تُوجِبُ تَقْدِيمَ الْعِلْمِ : فَهِيَ أَنَّ الْعِلْمَ النَّافِعَ

---

ابن المدابغى فى حواشى الأربعين ( بالعلم ) متعلق بالعناية : أى بتحصيله قبل العمل ( خاصة ) أى خصوصا وانفرادا ( من بين سائر الناس ) أى عوامهم ( فان مدار أمر العبودية وملاك العبادة ) وسبق أول الكتاب معنى العبودية والعبادة مع الفرق بين أربابهما ، والملاك : مابه إحكام الشىء وتقويته ، وأهل اللغة يكسرون الميم ويفتحونها ( والخدمة ) أى الطاعة ( لله رب العالمين ) أى مالكهم ومصلحهم ( على العلم ) خبر إن: أى معه ( وهكذا ) أى العناية (يكون نظر أولى الأبصار) والبصائر ( و ) نظر ( أهل التأييد والتوفيق ) من الله تعالى ( فاذا تبين لك بهذه الجملة ) التى ذكرناها (أن الطاعة لاتحصل للعبد) يقينا (ولاتسلم له) قطعا (إلا بالعلم فيلزم إذا) أى حين إذ كانت الطاعة لاتحصل ولا تسلم إلا بالعلم ( تقديمه ) أى العلم على غيره ( فى شأن العبادة ) أى فى أمرها .

﴿ وأما الخصلة الثانية ﴾ من الأمرين السابقين ( التى توجب تقديم العلم ) أى على العبادة ( فهى أن العلم النافع ) هو العلم بالله تعالى وصفاته وأسمائه والعلم بكيفية التعبد له والتأدب بين يديه فهذا هو العلم الذى يبسط فى الصدر شعاعه فيتسع ، وينشرح للاسلام وينكشف عن القلب قناعه فتزول عنه الشكوك والأوهام ، وفى حكمة داود عليه الصلاة والسلام : العلم فى الصدر كالمصباح فى البيت : وقال محمد بن على الترمذى رضى الله عنه : العلم النافع هو الذى قد تمكن فى الصدور وتصور ؛ وذلك أن النور إذا أشرق فى الصدور تصورت الأمور حسنها وسيئها ، ووقع بذلك ظل فى الصدور فهو صورة الأمور ، فيأتى حسنها ويجتنب سيئها ، فذلك العلم النافع من نور القلب خرجت تلك العلائم إلى الصدور وهى علامات الهوى ؛ والعلم الذى قد تعلمه فذلك علم اللسان إنما هو شىء قد استودع الحفظ والشهوة غالبة عليه قد أحاطت به وأذهب بظلمتها ضوءه . وقال أبو محمد عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه : والعلم النافع هو علم الوقت ، وصفاء القلب ، والزهد فى الدنيا وما يقرب من الجنة وما يبعد عن النار والخوف من الله والرجاء فيه وآفات النفوس وطهارتها ، وهو النور المشار إليه أنه نور يقذفه الله فى قلب من يشاء دون علم اللسان المنقول والمعقول . وقال مالك بن أنس رضى الله عنه : ليس العلم بكثرة الرواية وإنما هو نور يقذفه الله تعالى فى القلوب اهـ .

وإنما منفعة العلم أن يقرب العبد من ربه ، ويبعده عن رؤية نفسه ، وذلك غاية سعادته ،

يُثْمِرُ خَشْيَةَ اللهِ تَعَالَى وَمَهَابَتَهُ ، قالَ اللهُ تَعَالَى : إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَمَاءُ . وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ لَمْ يَهَبْهُ حَقَّ مَهَابَتِهِ وَلَمْ يُعَظِّمْهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ وَحُرْمَتِهِ ، فَبِالْعِلْمِ يَعْرِفُهُ وَيُعَظِّمُهُ وَيَهَابُهُ ، فَصار الْعِلْمُ يُثْمِرُ الطَّاعَاتِ كُلَّهَا وَيَحْجُزُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ كُلِّهَا بِتَوْفِيقِ اللهِ

---

ومنتهى طلبه وإرادته . قال الجنيد رضى الله عنه : العلم أن تعرف ربك ولا تعدو قدرك : أى هو معرفة الله وحسن الأدب بين يديه ،وهذه هى العلوم التى ينبغى للانسان أن يستغرق فيها عمره الطويل ، ولا يقنع منها كثير ولا قليل . وقد قال الشاذلى رحمه الله : من لايتغلغل فى هذه العلوم يعنى علوم الصوفية مات مصرا على الكبائر وهو لايعلم ، وخير العلوم مايلزم وجود الخشية لله تعالى كما أشار إليه المصنف بقوله ( يثمر ) أى أن العلم النافع يثمر (خشية الله تعالى ومهابته) أى مخافته ، فكل علم لاخشية معه فلا خير فيه ، بل لايسمى صاحبه عالما على الحقيقة . قال الربيع ابن أنس رحمه الله : من لم يخش الله فليس بعالم ، ألا ترى أن داود عليه السلام قال ذلك بأنك جعلت العلم خشيتك ، والحكمة الايمان بك فما علم من لايخشاك ، وما حكمة من لم يؤمن بك . قال فى لطائف المنن : فشاهد العلم الذى هو مطلوب الله الخشية لله تعالى ، وشاهد الخشية موافقة الأمر . ( قال الله تعالى : إنما يخشى الله من عباده العلماء ) فبين أن الخشية تلازم العلم ، وفهم من هذا أن العلماء هم أهل الخشية ، وكذلك قوله تعالى « وقال الذين أوتوا العلم » . وقوله « والراسخون فى العلم » . وقوله « وقل رب زدنى علما » . وقوله صلى الله عليه وسلم « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم » . وقوله عليه الصلاة والسلام «العلماء ورثة الأنبياء» إنما المراد بالعلم فى هذه المواطن العلم النافع القاهر للهوى ، القامع للنفس وذلك يتعين بالضرورة ، لأن كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم أجل من أن يحمل على غير هذا ، كذا قاله ابن عباد الرندى ( وذلك ) أى بيان إثمار العلم للخشية ( أن من لم يعرفه ) سبحانه وتعالى ( حق معرفته لم يهبه ) أى لم يخفه ( حق مهابته ولم يعظمه ) سبحانه ( حق تعظيمه وحرمته، فبالعلم يعرفه ) تعالى ( ويعظمه ويهابه فصار العلم يثمر الطاعات كلها ويحجز ) أى يمنع ( عن المعصية كلها بتوفيق الله ) هـذا هو العالم النافع . وأما علم تكون معه الرغبة فى الدنيا ، والتملق لأربابها ، وصرف الهمة لاكتسابها ، والجمع والإدخار ، والمباهاة والاستكبار ، وطول الأمل ، ونسيان الآخرة ، فما أبعد من هذا العلم علمه من أن يكون ورثة الأنبياء ، وهل ينقل الشىء الموروث إلى الوارث إلا بالصفة التى كان بها عند الموروث عنه ، ومثل من هذه الأوصاف أوصافه من العلماء مثل الشمعة تضىء على غيرها وهى تحرق نفسها ، جعل الله العلم علمه من هـذا وصفه حجة عليه وسببا فى تكثير العقوبة لديه . وكان سهل بن عبد الله رحمه الله يقول . لاتقطعوا أمرا من أمور الدنيا والدين إلا بمشورة العلماء تحمدوا العاقبة عند الله تعالى . قيل ياأبا محمد : من العلماء ؟ قال الذين

وَلَيْسَ وَرَاءَ هٰذَيْنِ مَقْصِدٌ لِلْعَبْدِ فِى عِبَادَةِ اللّٰهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فَعَلَيْكَ بِالْعِلْمِ أَرْشَدَكَ اللّٰهُ يَاسَالِكَ طَرِيقِ الْآخِرَةِ أَوَّلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَاللّٰهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ . وَلَعَلَّكَ أَنْ تَقُولَ قَدْ وَرَدَ الْخَبَرُ عَنْ صَاحِبِ الشَّرْعِ صَلَوَاتُ اللّٰهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ : « طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » .

---

يؤثرون الآخرة على الدنيا ، ويؤثرون الله تعالى على نفوسهم . وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى وصيته : وشاور فى أمرك الذين يخشون الله تعالى . وقال الواسطى رحمه الله : أرحم الناس العلماء لخشيتهم من الله تعالى ، وإشفاقهم مما علمهم الله عز وجل ، ولذلك قال بعض العارفين: العلم إن قارنته الخشية فلك منفعته فى الدنيا والآخرة وإلا فعليك مضرته فيهما ، وهذا هو الفرق بين علماء الآخرة وعلماء الدنيا من حيث إن علماء الآخرة موصوفون بالخشية والرهبة وعلماء الدنيا موسومون بالأمن والعزة ، وقد بين علماؤنا رضى الله عنهم حال الفريقين وأوضحوا أمرهم بالنعوت والعلامات ، وأطالوا فى ذلك لما شاهدوا من انتشار الفساد فى الأرض بسبب جهل الناس بالعلم النافع أى شىء ؟ فمن أراد الشفاء فى ذلك واستيفاء الكلام عليه وما فى ذلك من الأخبار والآثار ، فعليه بالنظر فى كتاب العلم من كتاب [ إحياء علوم الدين ] لمصنفنا أبى حامد الغزالى رحمه الله تعالى رحمة واسعة ( وليس وراء هذين ) أى فعل الطاعات واجتناب المعصية ( مقصد للعبد فى عبادة الله سبحانه وتعالى ، فعليك ) أى الزم ( بالعلم ) أى بطلبه وتحصيله ( أرشدك الله ) جملة دعائية ( يا سالك طريق الآخرة أول كل شىء ) أى قبل كل عمل مطلوب شرعا ( والله ولى التوفيق ) والهداية ( بفضله ورحمته، ولعلك أن تقول قد ورد الخبر عن ) سيدنا محمد ( صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : طلب العلم فريضة ) بمعنى مفروضة خبر عن قوله طلب ، والتاء لتأكيد المبالغة لا للتأنيث كهى فى علامة ، فلا يقال إن الخبر لم يطابق المبتدأ فى التذكير ( على كل مسلم ) أى على كل فرد من أفراد المسلمين المكلفين كما يفيده التعبير بكل الدالة على الاستغراق ، ثم هذا لا يظهر معه التعميم السابق إلا إن جرينا على طريقة الجمهور ، ووافقهم السبكى من أن فرض الكفاية واجب على جميع المكلفين كفرض العين ، وإلا لما أثم الجميع بتركه ، وإنما سقط بفعل البعض تخفيفا . وأما إن جرينا على طريقة ابن السبكى من أن فرض الكفاية واجب على البعض ، وأن الواجب على الكل إنما فرض العين ، فلا يظهر ما ذكر ، بل يخص العلم بما وجب عينا لا غير ، وقوله : كل مسلم ليس قيدا فمثله الأنثى والخنثى ، لكن لما كان الغالب أن الرجال هم المتصدون لطلب العلم خصهم ، ونظير ذلك فى الأحاديث كثير كقوله صلى الله عليه وسلم « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » إلى غير ذلك من الأحاديث. إذا علمت هذا علمت أنه لا حاجة إلى زيادة مسلمة كما صنعه بعضهم مع أن هذه الزيادة ليست فى طريق من طرق الحديث كما قاله المحلى وغيره ، وهذا الحديث رواه ابن ماجه وابن عدى والبيهقى

فَمَا الْعِلْمُ الَّذِى طَلَبُهُ فَرْضٌ لاَزِمٌ وَمَا الْحَدُّ الَّذِى لاَ بُدَّ لِلْعَبْدِ مِنْ تَحْصِيلِهِ فِى أَمْرِ الْعِبَادَةِ؟. فَاعْلَمْ أَنَّ الْعُلُومَ الَّتِى طَلَبُهَا فَرْضٌ فِى الْجُمْلَةِ ثَلاَثَةٌ : عِلْمُ التَّوْحِيدِ ، وَعِلْمُ السِّرِّ أَعْنِى بِهِ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْقَلْبِ وَمَسَاعِيهِ ، وَعِلْمُ الشَّرِيعَةِ .

---

وابن عبدالبر عن أنس بن مالك ، ورواه الطبرانى فى الصغير والخطيب عن الحسين بن على ، ورواه الطبرانى فى الأوسط عن ابن عباس وتمام فى فوائده عن ابن عمر بن الخطاب ، ورواه الطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود ، ورواه الخطيب عن على ، ورواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى عن أبي سعيد ، وأسانيده كلها ضعيفة لكن تقوى بكثرة طرقه ، كذا فى سراج السالكين ( فما العلم الذى طلبه فرض لازم وما الحد الذى لابد للعبد من تحصيله ) أى العلم ( فى أمر العبادة ؟ فاعلم ) أرشدك الله تعالى ( أن العلوم التى طلبها فرض فى الجملة ) أى فى جميع الخلق ( ثلاثة ) : أحدها (علم التوحيد). والتوحيد مصدر وحد : إذا أوقع نسبة الواحد إلى موضوعه، ففى شرح الكبرى للسنوسى نقلا عن ابن التلمسانى : التوحيد اعتقاد الوحدة لله تعالى والإقرار بها . وقال بعض المحققين : حقيقته إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولا معطلة عن الصفات ، فليس كذاته ذات ولا كصفاته صفة . وقال ذو النون : حقيقة التوحيد أن تعلم أن قدرة الله فى الأشياء بلا علاج ، وصنعه بلا مزاج ، وعلة كل شىء صنعه ولا علة بصنعه . وقال بعضهم : من ترك أربعا كمل توحيده ، وهى وكيف ومتى وأين كم . فالأول سؤال عن الكيفية ، وجوابه « ليس كمثله شىء » . والثانى سؤال عن الزمان ، وجوابه ليس يتقيد بزمان . والثالث سؤال عن المكان وجوابه ليس يتقيد بمكان . والرابع سؤال عن العدد ، وجوابه وهو الواحد الأحد ، كذا قاله الزبيدى . (و) ثانيها ( علم السر : أعنى به مايتعلق بالقلب ومساعيه ) أى أعماله كالإخلاص والتوكل وغيرهما . ( و ) ثالثها ( علم الشريعة ) وهذا الذى ذكره هو المختار من اختلاف طويل فى تفسير هذا الحديث ، وفهم معناه على أقوال شتى . وقال ابن عبد البر فى كتابه [ بيان العلم ] للفظ العلم إطلاقات متباينة ، ويترتب على ذلك اختلاف الحد والحكم كلفظ العالم والعلماء ، ومن هنا اختلفوا فى فهم هذا الحديث وتجاذب معناه اه .

ولنذكر تلك الأقوال بأحوالها بمجموعها على التفصيل الغالب فنقول :

اختلف العلماء فى فهم معنى هذا الحديث : فمن متكلم يحمله على علم الكلام ، فيحتج لذلك بأنه العلم المتقدم رتبة لأنه علم التوحيد الذى هو المبنى . والقائلون بهذا اختلفوا فى كيفية الطلب ، فمنهم من قال من طريق الاستدلال والاعتبار ، ومنهم من قال من طريق البحث والنظر ، ومنهم من قال من طريق التوفيق والأثر ، ومن فقيه يحمله على علم الفقه مطلقا . قال ابن عبد البر : وذلك هو المتبادر من إطلاق العلم فى علم الشرع ، وتندرج فيه ثلاثة أقوال : فمن قائل هو علم العبادات بشروطها وفرائضها وسننها . ومن قائل هو معرفة الحلال من الحرام ، واستدل عليه

بحديث ابن مسعود « طلب الحلال فريضة بعد فريضة » . وبحديث أنس « طلب الحلال واجب على كل مسلم » . وبحديث ابن عباس وابن عمر « طلب الحلال جهاد » . وروى « إن من الذنوب مالا يكفرها إلا الهم فى طلب الحلال » . وعند البيهقى فى السنن والديلمى فى مسند الفردوس « طلب كسب الحلال فريضة بعد الفريضة » : أى لأن طلب كسب الحلال أصل الورع وأساس التقوى . وروى النووى فى بستانه عن خلف بن تميم قال : رأيت إبراهيم بن أدهم بالشام ، فقلت ما أقدمك ؟ قال لم أقدم لجهاد ولا لرباط ولكن لأشبع من خبز حلال ، وهذا قول عباد أهل الشام . وإليه مال يوسف بن أسباط وحبيب بن حرب ووهيب بن الورد وآخرون. ومن قائل هو علم المعاملات ، وهو قول أهل الكوفة كسفيان الثورى وأبى حنيفة وأتباعهما ، ومن مفسر يحمله على علم التفسير ، ومن محدث يحمله على علم الحديث ، إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها ، ومن نحوى يحمله على علم العربية ويقول : الشريعة إنما تتلقى من الكتاب والسنة . وقد قال تعالى « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » فلا بد من إتقان علم البيان : ذكره ابن عبد البر ، ومن طبيب يحمله على علم الطب الذى يعرف به الصحة والمرض . ويقول العلم علمان : علم الأبدان ، وعلم الأديان ، وعلم الأبدان مقدم على علم الأديان ذكره بعضهم وفيه نظر ، وإيراده فى فروض الكفاية أشبه . ومن صوفى يقول هو علم التصوف خاصة ، وتندرج فى هذا القول خمسة أقوال : الأول هو علم حال العبد من مقامه وهو قول سهل التسترى . والثانى طلب علم المعرفة وقيام العبد بحكم ساعته ، وهو قول بعض العراقيين . والثالث هو طلب علم الإخلاص ومعرفة آفات النفوس . وهو قول عبد الرحيم الأسود ومن تبعه من الشاميين ، نقله أبو طالب فى القوت والسهروردى فى عوارف المعارف . والرابع طلب علم القلوب ومعرفة الخواطر ، وهو قول مالك بن دينار وفرقد السبخى وعبدالواحد بن زيد وأتباعهم نقله صاحب القوت والسهروردى . والخامس هو علم الباطن ، نقله صاحب القوت عن نساك البصرة . وقال السهروردى فى العوارف : هو ما يزداد به العبد يقينا وهو الذى يكتسب بصحبة الأولياء فهم وارثو المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فهذه الأقوال الخمسة مندرجة فى علم التصوف . وأجود ماقيل قول القاضى : هو العلم الذى مالنا مندوحة عن تعلمه كمعرفة الصانع ونبوة رسله ؛ وكيفية الصلاة ونحوها فان تعلمه فرض عين . وقال ابن القيم فى مفتاح دار السعادة : العلم الذى هو فرض عين لايسع مسلما جهله أنواع .

النوع الأول : علم أصول الإيمان الخمسة الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله اليوم الآخر ؛ فان من لم يؤمن بهذه الخمسة لم يدخل فى باب الايمان ولايستحق اسم المؤمن . قال الله تعالى « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين » . وقال « ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا » . ولما سأل جبريل رسول الله صلى الله عليه

وسلم عن الايمان ؟ قال : تؤمن بالله وملائكته واليوم الآخر وكتبه ورسله قال صدقت ، فالايمان بهذه الأصول فرع معرفتها والعلم بها .

النوع الثانى : علم شرائع الاسلام، واللازم منها مايخص العبد من فعلها كعلم الوضوء والصلاة والصيام والحج والزكاة وتوابعها وشروطها ومبطلاتها .

النوع الثالث : علم المحرمات الخمسة التى اتفقت عليها الرسل والشرائع والكتب الإلهية ،وهى المذكورة فى قوله تعالى « قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون » فهذه محرمات على كل أحد فى كل حال على لسان كل رسول لاتباح قط ، ولهذا أتى بإنما المفيد للحصر مطلقا وغيرها محرم فى وقت مباح فى غيره كالميتة والدم ولحم الخنزير ونحوه ، فهذه ليست محرمة على الاطلاق والدوام فلم تدخل فى التحريم المحصور المطلق .

النوع الرابع : علم أحكام المعاشرة والمعاملة التى تحصل بينه وبين الناس خصوصا وعموما . والواجب فى هذا النوع يختلف باختلاف أحوال الناس ومنازلهم ؛ فليس الواجب على الامام مع رعيته كالواجب على الرجل مع أهله وجيرانه، وليس الواجب على من نصب نفسه لأنواع التجارات من تعلم أحكام البياعات كالواجب على من لايبيع ولا يشترى إلا ما تدعو الحاجة إليه ؛ وتفصيل هذه الجملة لاينضبط بحد لاختلاف الناس فى أسباب العلم الواجب ، وذلك يرجع إلى ثلاثة أصول : اعتقاد ، وفعل ، وترك ، فالواجب فى الاعتقاد مطابقة للحق فى نفسه ، والواجب فى العمل معرفة موافقة حركات العبد الظاهرة والباطنة الاختيارية للشرع أمرا وإباحة والواجب فى الترك معرفة موافقة الكف والسكون لمرضاة الله تعالى وأن المطلوب منه إبقاء هذا الفعل على عدمه المستعمل فلا يتحرك فى طلبه أو كف النفس عن فعله على الطريقتين ، وقد دخل فى هذه الجملة علم حركات القلوب والأبدان اه وهو نفيس .

وفى منية السالكين وبغية العارفين : قد اختلف العلماء فى للعلم الذى هو فريضة ولا يسع الانسان جهله ، وكثرت أقاويلهم فى ذلك ، وأقربها إلى المقصود من قال: هو علم الأوامر والنواهى، والمأمور مايثاب على فعله ويعاقب على تركه ، والمأمورات والمنهيات منها ماهو لازم مستمر للعبد بحكم الاسلام ، ومنها مايتوجه الأمر فيه والنهى عنه عند وجود الحادثة فما هو لازم مستمر لزومه متوجه بحكم الاسلام علمه واجب من ضرورة الاسلام وما يتجدد بالحوادث ويتوجه الأمر والنهى عنه علمه عند تجدده فرض لايسع مسلما على الاطلاق أن يجهله ، وينحصر ذلك فى ثلاثة أنواع من العلوم : علم بالأوامر الشرعية ، وعلم بالنواهى الشرعية ، وعلم بالمباحات الدنيوية ومدارك الحواس الضرورية والضرورة العقلية ، وتفصيل ذلك مستقصى فى كتب الفقه والأصول ولكن ننبهك بلمعة يسيرة تقف بالاشارات منها على مجمله وتفصيله .

أما علم الأوامر : فهو علم الفرائض والسنن والفضائل . وأما علم النهى فهو علم الحلال والحرام

وَأَمَّا حَدُّ مَا يَجِبُ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا فَالَّذِى يَتَعَيَّنُ فَرْضُهُ مِنْ عِلْمِ التَّوْحِيدِ مِقْدَارُ مَا تَعْرِفُ بِهِ أُصُولَ الدِّينِ ، وَهُوَ أَنَّ لَكَ إِلٰهًا عَالِمًا

---

والكراهة والتنزيه . وأما علم المباحات فهو العلم بالدنيا وأهلها وكيفية آداب المخالطة واكتساب المعيشة ، ولهذه الأقسام الثلاثة تعليم من طريق الشرع والسمع .

وأما مدارك الحواس والعلوم الضرورية فقد اشترك فيها الحيوان العاقل فلا يحتاج إلى اكتساب وإنما المراد هنا الكلام على الشرعية فقد عم العلم الظواهر كلها ، فلا يجوز لأحد أن يعمل عملا إلا يعلم بعلم الأمر الظاهر ، وهو موجود كله مضبوط فى كتب الفقه كالعلم بالاستنجاء فى الطهارة والصلاة وما يتعلق بها واختلاف أنواعها ، والزكاة وأنواعها ومصارفها ، وعلى من تجب ، والصوم والجهاد والحج وأنواعها ، وغير ذلك من الأحكام المأمور بها .

وأما علم النهى فالعلم بالمحرمات كلها على اختلاف أنواعها كالعلم بما يفسد الطهارة والصلاة والصوم والحج وغير ذلك ، وكالعلم بالأطعمة والأشربة المحرمة ، وأبواب الربا وغير ذلك وكالعلم بالمكروهات كلها ، وذلك كله موجود فى كتب الفقه . وأما علم المباح وأمور الدنيا فكالعلم بالصيد وآداب الأكل والشرب والجماع والمخالطة ومعرفة الدنيا وأسبابها ، وهذا كله موجود فى الكتب محررا ، فإذا أراد العبد أن لايتحرك بحركة إلا بالعلم وجد ذلك فى العلم لأن العلم واسع جدا ، مثال ذلك إذا أراد أن يسبح أو يمشى فى السوق فيقول : هل للسباحة والمشى فى السوق أصل فى العلم أم لا ؟ فيجده منصوصا عليه ، وكذا المزح واللعب وغير ذلك ، لكن مع سعة العلم قد ترك العمل به وأوثر العمل بالجهل ، فعليك بالعلم فى جميع الحركات والسكنات ، وهو العصمة فى مواطن المهلكات ، وليكن سبيلك فى العلوم اختيار أشرفها منزلة ، والميل إلى أنفعها ثمرة للدين والدنيا فتجعل نظرك فى نيل ذلك الفرع من العلم مما لابد لك منه ولا غنى لك عنه ، وتجعله مما ترضى أن ينسب إليك وتنسب إليه ، وتنزل غيرها من العلوم فى نفسك على قدر مراتبها ومواقع أقدارها من دينك ومنفعة نفسك فى دنياك وآخرتك ، الأوكد والأنفع فالأنفع ، وبالله التوفيق ؛ كذا ذكره المرتضى الزبيدى ( وأما حد مايجب من كل واحد منها ) أى من العلوم الثلاثة ( فالذى يتعين فرضه ) أى العلم الذى فرض عليك عينا ( من علم التوحيد مقدار ماتعرف به أصول الدين ) أى الإلهيات والنبوات والحشر والنشر كما نقله ابن المدابغى عن السعد ( وهو ) أن تعلم ( أن لك إلها ) أى معبودا بحق ( عالما ) بجميع الموجودات وعلمه محيط بجميع المعلومات على التفصيل فلا يعزب عن علمه الأزلى مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، صادقا فى قوله « وهو بكل شيء عليم » : ظاهره وباطنه ، دقيقه وجليله ، أوله وآخره ، وهذا من حيث الكشف على أتم ما يمكن فيه بحيث لايتصور مشاهدة وكشف أظهر منه ، ولا يكون مستفادا من المعلومات ، بل تكون المعلومات مستفادة منه .

## قادرًا

قال المصنف أبو حامد الغزالى فى المقصد الأسنى : للعبد حظ من وصف العلم ، ولكن يفارق علمه علم الله عز وجل فى خواص ثلاث : أحدها المعلومات فى كثرتها فان معلومات العبد وإن اتسعت فهى محصورة فى قلبه ، فأنى تناسب ما لا نهاية له ؟ والثانية إن كشفت أوانى العلم فلا يبلغ الغاية التي لاممكن وراءها ، بل يكون مشاهدته الأشياء كأنه يراها من وراء ستر رقيق ولا تنكر درجات الكشف فإن البصيرة الباطنة كالبصر الظاهر ، وفرق بين مايتضح وقت الإسفار وبين ماينضح أول ضحوة النهار . والثالثة أن علم الله تعالى بالأشياء غير مستفاد من الأشياء بل الأشياء مستفادة ، وعلم العبد بالأشياء تابع الأشياء وحاصل بها ، وشرف العبد من سبب العلم من حيث إنه من صفات الله تعالى ، ولكن العلم الأشرف مامعلومه أشرف ، وأشرف المعلومات هو الله تعالى ولذلك كانت معرفته أفضل المعارف ، بل معرفة سائر الأشياء إنما تشرف لأنها معرفة لأفعال الله تعالى أو معرفة للطريق الذى يقرب العبد من الله تعالى فلا نظر إذا إلا فى الله تعالى اه .

وأما المحدث فيستدل بقوله تعالى « قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة » وبحديث الاستخارة ، وفيه « فانك تعلم ولا أعلم » . وأما الصوفى فيقول العلم حقيقته من كانت الأشياء حاضرة لديه ، وليس من تكون الأشياء حاضرة لديه إلا من أفادها الشيئية ولا مفيد الأشياء شيئية إلا الله تعالى إذ هو المفيد لكل حقيقة عين تلك الحقيقة حتى المحال إن كانت له حقيقة عقلية أو وهمية فهو المفيد لها وهو المجلى لها فى الأذهان ، وبالضرورة من أجلى الحقائق لعبده فكيف لاتكون منجلية له ، بل لم تنجل بالتحقيق إلا له إذا ليس لغيره على التحقيق إحاطة بشىء والله أعلم ( قادرا ) أى ذا قدرة ، وهى عبارة عن المعنى الذى به يوجد الشيء مقدرا بتقدير الارادة والعلم واقعا على وفقهما ، فالقادر هو الذي إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل ، وليس من شرطه أن يشاء لامحالة ، فان الله تعالى قادر علي إقامة القيامة الآن ، فانه لوشاء أقامها وإن كان لايقيمها ، فإنه لم يشأها ، ولا يشاؤها لما جرى فى سابق علمه من تقدير أجلها ووقتها وذلك لايقدح فى القدرة والقادر المطلق هو الذي يخترع كل موجود اختراعا ينفرد به ويستغنى فيه عن معاونة غيره هو الله سبحانه وتعالى كذا قاله المرتضى نقلا عن قول المصنف أبى حامد الغزالى فى المقصد الأسنى . قال أبو منصور التميمى . قد وردت السنة بذكر القادر والمقتدر فى أسما الله تعالى ، وجاء القرآن بهذين الاسمين وبالقدير أيضا . والقدير أبلغ من القادر ، والمقتدر أبلغ من القادر ، وللقادر معنيان يكون بمعنى القدير من القدرة على كل شىء وذلك صفة لله تعالي وحده من دون غيره ، وإنما يوصف القادر منا بالقدرة على بعض المقدورات دون بعض . الوجه الثانى أن يكون بمعنى المقدور ، يقال قدر بالتخفيف وقدر بالتشديد ، وجائز فى الكلام العربى أن يقال قدر واقتدر بمعنى واحد مثل جذب واجتذب . وفى كتاب محجة الحق لأبى الخير القزوينى مانصه : أما الأصل الأول فى معرفة

مُرِيداً

كون البارى تعالى عالما قادرا ، والدليل عليه صدور الأفعال المحكمة المتقنة عنه مثل خلق السموات والأرض وغيرها من الصنائع والبدائع فى عجائب التركيب ، ويدل ذلك قطعا على كون صانعها عالما بها قادرا عليها ، فان من يرى خطا منظوما أو ديباجا منسوجا ويجوز . أى يظن صدوره من جاهل به عاجز عنه يكون عن حيز العقل خارجا عنه وفى تيه الجهل والجا اه

قال السبكي فى شرح الحاجبية . اعلم أن القادر عند أهل السنة هو المتمكن من الفعل والترك بحسب الداعى الذىهو الارادة وإن شئت تقول . هو الذى إنشاء فعل وإن شاء لم يفعل ، وتقول هو الفاعل علىمقتضى العلم والارادة ، وأهل النظرالعقلى من أهل السنة يقولون إن كل ماتتوقف دلالة السمع عليه لا يكفي فيه السمع ، فأقوى دليل لهم على أنه تعالى قادر بذلك التقدير أن يقال قد ثبت حدوث العالم كما مر ، فصانعه لولم يكن قادرا للزم تخلف المعلوم عن علته وهو محال . أما الملازمة فلأن صانع العالم قديم فلو لم يكن على ذلك التقدير قادرا فكان موجبا بالذات لزم التخلف المذكور ، وأيضا لو كان موجبا لزم منارتفاع العالم ارتفاعه ، لأن ارتفاعالملزوم من لوازم ارتفاع اللازم ، لكن ارتفاع الواجب محال .

﴿ تنبيه ﴾ والمحدث يقول : قال الله تعالى « قل هو القادر ، وهو على كل شيء قدير » وأما الصوفى فيقول كيف لا يكون قادرا وهو قد أقدر العباد على طاعته وجعل ذلك صفة كمال فيهم وهو أولى بالكمال ، بل هومنفرد به فلا قادر فى التحقيق إلاهو ، إذ لافاعل إلا هو ، وأيضا فإنا إذا نظرنا فى أنفسنا واستقرينا من أحوالنا وجدنا ما يبدو فى ذواتنا من الأفعال على قسمين : منها ما يكون مصحوبا باعتبارنا كزيادة مقدار أجسامنا طولا وعرضا ، وما كان من هذا القبيل فهو يقف عند أمر خاص ولا يمر إلى غير نهاية ، فنسبة وقوفه عند ذلك الحد كنسبة وقوفنا فى المتحرك فيه ووقوفنا فيما يتحرك فيه فعل اختيارى ، ووقوف أجسامنا عند حدها فعل اختيارى وكل اختيارى لا يكون عن موجب ولا عن طبع وما لا يكون عن موجب ولاعن طبع فهو قادر، فالفاعل لذواتنا قادر ، ولا يكون ذلك الفاعلإلا الله ، إذ ماسواه مثلنا ، والكلام فيه كالكلام فينا كذا أفاده العلامة الزبيدى ( مريدا ) لأفعاله جل وعز فلا موجود إلا وهو مستند إلى مشيئته وصادر عن إرادته ، فهو المبدئ المعيد ، والفعال لما يريد .

اعلم أن المريد لم يرد به السمع على هذه الصيغة وإنما ورد بصيغة الفعل ، ولكن إطلاق مريد مما ثبت بالإجماع ، وبالجملة فالمريد أو الذى يريد أو أراد هو الذى يخصص فعله بحالة دون حالة لصفة قائمة به اقتضت ذلك ، وتلك الصفة هى الإرادة وهى كما قال السنوسى : صفة أزلية تؤثر فى اختصاص أحد طرفى الممكن : من وجود وعدم أو طول أو قصر ونحوها بالوقوع بدلا عن مقابله اه .

حَيًّا

وقال النسفي في شرح العمدة : حدها عند المتكلمين معنى يوجب تخصيص المعقولات بوجه دون وجه . وقيل صفة تنفي عمن قامت به الجبر والاضطرار ، وفائدتها على هذا الحد أن يكون الموصوف بها مختارا فيما فعله غير مضطر إليه ، ثم صانع العالم ٭ ـجده باختياره ، إذ من لا اختيار له في فعله فهو مضطر والمضطر عاجز فيكون حادثا ، ولا اختيار بدون الإرادة فكان مريدا . وقال أبو منصور التميمي : الإرادة والمشيئة عندنا بمعنى القصد والاختيار ، وزعمت الكرامية أن المشيئة الأزلية صفة واحدة يتناول ما شاء الله عز وجل بها من حدث يحدث ، وإرادة الله غيرها وإرادته حادثة في ذاته قبل حدوث مراداته على عدد مراداته ، وقلنا مشيئته إرادته ، وهي متعلقة بحدوث جميع الحوادث على حسب تعلق علمه بها في معنى أنه أراد حدوث كل ما علم منها على ما علم من حدوثه عليه . وقد اختلفت عبارتهم في برهان الإرادة ، ففي التذكرة الشرقية لابن القشيري مانصه ، لأن فعله مرتب مختص بأوقات وأوصاف وترتيب الفعل دال على كون فاعله مريدا له قاصدا إليه ، وفي المدخل الأوسط لابن فورك : ظهور فعله دليل على قدرته ، لأن الفعل لا يظهر ممن لاقدرة له كما لايظهر ممن به عجز أو موت وكونه محكما متقنا دليل على علمه ، لأنه على إحكامه وإتقانه لايتأتى ممن لاعلم له ، وكونه متقنا دليل على إرادة فاعله إذ كما لايصح ظهوره من غير ذي علم كذلك لايصح ظهوره من غير ذي قصد إليه لولاه لم يكن وقوعه على وجه أولى من وقوعه على وجه آخر . وقال والد إمام الحرمين في كفاية المعتقد : والدليل علي إرادته تعالى وأنه مريد أن تخصيص حدوث الحدث بزمان دون زمان في مكان دون مكان على صفة دون صفة لايصير معقولا إلا بإرادة مريد . وقال أبو القاسم القشيري في كتاب الاعتقاد : الدليل عليه أن أفعاله مرتبة ترتيب الأفعال واختصاصها ببعض المجوزات يوجب أن يكون فاعله قاصدا إلى ترتيبه . وقال أبو الجبر القزويني في محجة الحق : الدليل علي كونه مريدا أن اختصاص الفعل شاهد يدل على كون فاعله مريدا ونحن نرى أفعال الباري تعالى مخصوصة بأوقات موصوفة بصفات مخصوصة جاز في العقل وقوعها على خلافها فتدل على كون فاعلها مريدا لها . وقال شيخ مشايخنا في إملائه : والدليل علي إرادته تعالى أنه لو لم يكن مريدا لكان كارها ، لأن الارادة هي القصد إلى تخصيص الجائز ببعض مايجوز عليه ، وقد تقرر أن ارادة الله تعالى عامة التعلق بجميع الممكنات فيستحيل وقوع شيء منها بغير إرادة منه تعالي لوقوع ذلك الشيء . وقال البكي في شرح الحاجبية قد ثبت أن صانع العالم فاعل بالاختيار ، وكل فاعل بالاختيار مريد ، فصانع العالم مريد . أما الصغرى فلما مر من حدوث العالم الدال على أنه قادر مختار وهو الذي إذا شاء فعل وإذا لم يشأ لم يفعل ، وأما الكبرى فلأن تخصيص الحوادث بحالة دون حالة وهو الارادة أوتعلقها والتخصيص حاصل ، فالارادة ثابتة وهو المطلوب قاله الزبيدي ( حيا ) أى ذا حياة ، وهي صفة أزلية توجب صحة العلم والارادة ، وباقي صفات المعاني والمعنوية . وذلك بأن تقول الله متصف بصفات المعاني

مُتَكَلِّمًا

والمعنوية ، وكل من كان كذلك تجب له الحياة ينتج : الله يجب له الحياة إذ لا يتصور قيامها بغير حي ، وحياة الله لا بروح بخلاف حياة الحادث فإنها بالروح كما أفاده الصاوى فثبت بهذا أن يكون جل وعز حيا مطلقا ، وهو الذى تندرج جميع المدركات تحت إدراكه وجميع الموجودات تحت فعله حتى لا يشذ عن علمه مدرك ولا عن فعله مفعول ، وذلك هو الله تعالى ، فهو الحى الكامل المطلق ، وكل حى سواه فحياته بقدر إدراكه وفعله ، وكل ذلك محصور فى قلة ، وبرهانه أن من ثبت علمه وقدرته ثبت بالضرورة حياته ، وأيضا دلنا عليه أن العالم فعله ويستحيل صدور الفعل عن الميت والجماد إذ لو تصور قادر عالم فاعل مدبر للكائنات دون أن يكون حيا لجاز أن يشك فى حياة الحيوانات عند ترددها فى الحركات والسكنات بل فى حياة أرباب الحرف والصناعة إذ لا يتصور قيام هذه الأوصاف المذكورة من القدرة والعلم والعقل والتدبر بغير حىّ وتصور قيامها بغير حى جحود وعناد ، بل انغماس فى غمرة الجهالات أعاذنا الله منها ( متكلما ) بكلام ، وهو وصف قائم بذاته ، أما قيامه بذاته فلأنه تعالى وصف نفسه بالكلام فى قوله تعالى « قلنا اهبطوا منها جميعا » وقوله « وقلنا يا آدم » ومواضع أخرى كثيرة ، والمتكلم الموصوف بالكلام لغة من قام الكلام بنفسه ، لامن أوجد الحروف فى غيره وليس بصوت ولاحرف ، بل لايشبه كلامه كلام غيره ، لأنه صفة من صفات الربوبية ولا مشابهة بين صفات البارى وصفات الآدميين ، فإن صفات الآدميين زائدة على ذواتهم لتكثر وحدتهم فتقوم أنفسهم بتلك الصفات وتتعين حدودهم ورسومهم بها وصفة البارى تعالى لا تحد ذاته ولا ترسم فليست إذا بشيء زئد على البارى تعالى .

ثم اعلم أن الكلام عند أهل الحق كما يقال على المعنيين ، يقال على النظم المركب من الأصوات والحروف ، وهو الكلام اللسانى ، وعلى المعنى القائم بالنفس ، وهو المسمى بالكلام النفسانى وهذا الإطلاق بالاشتراك اللفظى والحقيقة والمجاز . والمختار عند الأشاعرة الأول : أى أنه مشترك بين الألفاظ المسموعة وبين الكلام النفسي ، وذلك لأنه قد استعمل لغة وعرفا فيهما ، والأصل فى الإطلاق الحقيقة فيكون مشتركا ، أما استعماله فى العبارة فكثير كقوله تعالى « يسمعون كلام الله ثم يحرفونه ــ فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » ويقال سمعت كلام فلان وفصاحته : يعنى ألفاظه الفصيحة . وأما استعماله فى المعنى النفسي وهو مدلول العبارة فكقوله سبحانه « ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول ــ وأسروا قولكم أو اجهروا به » والقول يقال على ما يقال عليه الكلام إما بترادف أو تباين الخاص والعام . وقيل حقيقة فى اللسانى مجاز فى النفسانى . وقيل بالعكس ، وإليه أشار مصنفنا أبو حامد الغزالى فى الإحياء بقوله: والكلام بالحقيقة كلام النفس ، وإنما الأصوات قطعت حروفا للدلالات كما يدل عليها تارة بالحركات والإشارات . وقال إمام الحرمين وغيره : الكلام المطلق حقيقة هو ما فى النفس شاهدا وغائبا وإطلاق الكلام على الحروف والأصوات مجاز وإليه مال تلميذه أبو حامد الغزالى كما ترى . قال

سَمِيعاً بَصِيرًا

القطب سيدى أحمد الدردير ، وكلامه تعالى يقتضى معنى يدل عليه دلالة مستمرة بلا انقطاع أزلا وأبدا فهو تعالى به آمرناه مخبر فهو فى نفسه واحد وتكثره إنما هو بتكثر التعلقات كالعلم والقدرة ولذا قسموه إلى أمر ونهى وخبر واستخبار فمن حيث اقتضاؤه فعلا أو تركا يسمى أمرا ونهيا ومن حيث تعلقه بثبوت أمر لأمر أو نفيه يسمى خبرا . قال الشمس الرملي : القرآن العزيز يطلق عليه شرعا إطلاقا حقيقيا لا مجازيا أنه مكتوب فى ألواحنا ومصاحفنا بأشكال الكتابة وصور الحروف الدالة عليه . قال صلى الله عليه وسلم « لا تسافر القرآن إلى أرض العدو" مخافة أن يناله العدو" » ولهذا قال بعض أصحابنا إنه ينعقد اليمين بالمصحف فى حالة الإطلاق وأنه مقروء بألسنتنا بحروفه الملفوظة المسموعة بآذاننا ، ولهذا حرمت قراءة القرآن على ذى الحدث الأكبر وأنه محفوظ بأذهاننا فى صدورنا ، واتصاف القرآن بهذه الأوصاف الثلاثة ، وبأنه غير مخلوق : أى موجود أزلا وأبدا اتصاف له باعتبار وجودات الموجودات الأربعة ، فإن لكل موجود وجودا فى الخارج ووجودا فى الذهن ووجودا فى العبارة ووجودا فى الكتابة فهى تدل على العبارة ، وهى على ما فعل فى الذهن وهو على ما فى الخارج . فالقرآن باعتبار الوجود الذهنى محفوظ فى الصدور وباعتبار الوجود اللسانى مقروء بالألسنة ، وباعتبار الوجود البنانى مكتوب فى المصاحف ، وباعتبار الوجود الخارجى وهو المعنى القائم بالذات المقدسة ليس فى الصدور ولا فى الألسنة ولا فى المصاحف والله أعلم .

ودليل الأشاعرة والماتريدية فى إثبات صفة الكلام واحد قالوا لو لم يكن صانع العالم متكلما للزم النقص وهو محال ، أما الملازمة فإن صانع العالم حى وكل حى فهو اما متكلم أو مؤف والآفة نقص فتعين أن يكون متكلما وهو المطلوب ، وقد يستدل المحدث أيضا على إثبات صفة الكلام له تعالى بما تقدم ، وأما الصوفى فيقول : الكلام صفة كمالية إذ مرجع ذلك إلى الانباء عن الشىء وكل الأشياء قابلة للانباء ، فلا بد من حصول تلك الصفة على كمالها وحصولها على الكمال لا يكون إلا بحيث لا موقع لنقيضها ، وذلك لا يكون فى واجب الوجود فواجب الوجود له تلك الصفة الكمالية إذ هو الذى له الكمال المطلق وهو المطلوب ( سميعا بصيرا ) بلا جارحة وحدقة ولا أذن كما أنه تعالى عليم بلا دماغ وقلب فليس سمعه كسمع المخلوق الذى هو قوة مودعة فى مقعر الصماخ يتوقف إدراكها للاصوات على حصول الهواء الموصل إلى الحاسة وتأثر الحاسة ولا كبصر المخلوق الذى هو قوة مودعة فى العصبتين المجوفتين الخارجتين من الدماغ بل المراد بالسمع صفة وجودية قائمة بالذات شأنها إدراك كل مسموع وان خفى ، والمراد بالبصر صفة وجودية قائمة بالذات شأنها إدراك كل مبصر وان لطف لا يعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير . قال مصنفنا أبو حامد الغزالى فى المقصد الأسنى : البصير هو الذى يشاهد ويرى حتى لا يعزب عنه ما تحت الثرى مع التنزيه عن أن يكون بحدقة وأجفان والتقديس عن أن يرجع إلى انطباع الصور والألوان فى ذاته كما ينطبع فى حدقة الإنسان ، فإن ذلك من التغير والتأثر المقتضى للحدثان وإذا نزه عن

ذلك كان البصر فى حقه عبارة عن الصفة التي ينكشف بها كمال نعوت المبصرات وذلك أوضح وأجلى مما تفهمه من إدراك البصر القاصر على ظواهر المرئيات .

ثم اعلم أن ثبوت صفتي السمع والبصر بالسمع فقد ورد وصفه تعالى بهما فما لا يكاد يحصى من الكتاب والسنة ، وهو ما علم ضرورة من دينه صلى الله عليه وسلم فلا حاجة بنا إلى الاستدلال عليه كسائر ضروريات الدين ومع ذلك استدل عليه فى الإحياء بقوله وكيف لايكون سميعا بصيرا والسمع والبصر صفتا كمال وليس بنقص ، فكيف يكون المخلوق أكمل من الخالق والمصنوع أسنى وأتم من الصانع وكيف تعتدل القسمة مهما وقع النقص فى جهته والكمال فى خلقه وصنعته اه . هذا لايتصوره عاقل . وقال ابن فورك فى المدخل الأوسط : الدليل عليه أنه تعالي موجود حي لاتليق به الآفات التي تضاد السمع والبصر وكل حى ليس به آفة تضاد السمع والبصر فهو سميع بصير . وقال امام الحرمين فى لمع الأدلة : إذ قد ثبت كونه حيا والحى لا يخلف عن الاتصاف بالسمع والبصر والكلام وأضداها ، وأضداد هذه الصفات نقائص ، والرب يتقدس عن سمات النقص . وقال شيخ مشايخنا فى إملائه : لو لم يكن سميعا بصيرا لكان أصم أعمى ، وذلك نقص والنقص عليه تعالي محال لاحتياجه إلي من يكمله وذلك يستلزم حدوثه . وقال السبكي فى شرح الحاجبية أما كونه سميعا بصيرا فقد اتفق عليه أهل السنة . أما الأشعرى فيقول قد ثبت أن البارى تعالي عالم مريد حى وكل حى سميع أوقابل لذلك والواجب لايتصف بالقبول بل كل ما يجوز له فهو واجب له وأيضا فانهما صفتا كمال والخلو عنهما نقص أوقصور فى الكمال ، وأيضا قد أجمعت عليه الكتب السماوية وخصوصا القرآن ، وهذا دليل المحدث . وأما الصوفى فيقول : حديث التقرب بالنوافل بين لكل من هو إلى عبودية وأصل أن السميع والبصير هو الله فقط ( واحدا ) . قال أكثر العلماء ان الواحد والأحد بمعنى واحد . وقال الأزهرى : الفرق بين الواحد والأحد فى صفاته أن الأحد بنى لنفى ما يذكر معه العدد والواحد اسم لمفتتح العدد ، وتقول : ما أتانى منهم واحد وجاءنى منهم واحد والواحد بنى لانقطاع النظير وعوز المثل . وقال بعضهم : الواحد فى الحقيقة هو الشيء الذي لاجزء له ألبتة ثم يطلق فى كل موجود حتى إنه ما من عدد إلا ويصح وصفه به فيقال : عشرة واحدة ومائة واحدة . وقال الراغب : الواحد لفظ مشترك يستعمل فى ستة أوجه . الأول ماكان واحدا فى الجنس أو فى النوع كقولنا : الإنسان والفرس واحد فى الجنس ، وزيد وعمرو واحد فى النوع ، الثانى ماكان واحدا بالاتصال ، إما من حيث الخلقة كقولنا شخص واحد ، وإما من حيث الصناعة كقولنا حرفة واحدة . الثالث ماكان واحدا لعدم نظيره ، إما فى الخلقة كقولنا الشمس واحدة وإما فى دعوى الفضيلة كقولنا فلان واحد دهره مثل نسيج وحده . الرابع ماكان واحدا لامتناع التجزؤ فيه إما لصغره كالهباء ، وإما لصلابته كالألماس . الخامس للمبتدإ إما لمبتدأ الأعداد كقولنا واحد اثنان ، أو لمبتدإ الخط كقولنا النقطة الواحدة والوحدة فى كلها عارضة ، قال وإذا

لاَ شَرِيكَ لَهُ ، مُتَّصِفاً بِصِفَاتِ الْكَمَالِ ، مُنَزَّهاً عَنِ النُّقْصَانِ

وصف الله تعالى به ، فمعناه أنه لا يجرى عليه التجزى ولا التكثر . وقال مصنفنا أبو حامد الغزالى فى المقصد الأسنى : الواحد هو الذى لا يتجزأ ولا يتثنى : أما الذى لا يتجزأ فكالجوهر الواحد الذى لا ينقسم فيقال إنه واحد بمعنى أنه لا جزء له ، وكذلك النقطة لاجزء لها والله تعالى واحد بمعنى أنه يستحيل تقدير الانقسام فى ذاته ، وأما الذى لا يتثنى فهو الذى لا نظير له كالشمس مثلا فإنها وان كانت قابلة للانقسام بالفعل بتجزئه فى ذاتها لأنها من قبيل الأجسام فهى لا نظير لها إلا أنه يمكن أن يكون لها نظير ، فإن كان فى الوجود موجود ينفرد ويتوحد بخصوص وجوده تفردا أو وحدة ( لا شريك له ) أى لا يتصور أن يشاركه غيره فيه أصلا فهو الواحد المطلق أزلا وأبدا ، والعبد إنما يكون واحدا إذا لم يكن له فى أبناء جنسه نظير فى خصلة من خصال الخير وذلك بالاضافة إلى أبناء جنسه ، وبالاضافة إلى الوقت إذ يمكن أن يظهر فى وقت آخر مثله ، وبالإضافة إلى بعض الخصال دون الجميع فلا وحدة على الاطلاق إلا لله عزّ وجلّ .

وذكر الشيخ أبو منصور البغدادى فى الفرق بين الواحد والأحد أقوالا منها قدتقدم ذكرها آنفا ، ومنها ما لم يذكر ، فمن ذلك قال بعض المتكلمين إنه واحد فى ذاته أحد فى صفاته . وقال آخرون : إنه واحد بلا كيف ، أحد بلاحيث . وقال آخرون : وصفه بأنه الواحد يدل على أوليته وأزليته ، لأن الواحد فى العدد أول الأعداد ، والأحد فى ذاته إشارة إلى توحيده فى صفاته . وقال آخرون : إنه واحد بلا شريك فى الصنع لانفراده بالخلق والاختراع ، ولذلك قال الله تعالى « أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » . أحد بنفي الابتداء والانتهاء والتشبيه عنه لقوله تعالى « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » فلما نفى الشرك من الصنع والاختراع وصف نفسه بأنه واحد ، ولما نفى عن نفسه الابتداء والانتهاء ونفى التشبيه وصف نفسه بأنه أحد ( متصفا بصفات الكمال ) أى العلم والقدرة والكلام والسمع والبصر والتكوين إلى ما لا يتناهى كما قاله بعض المحققين نقلا عن التونسى ( منزها عن النقصان ) أى مبرأ عما لا يليق بحاله وقدسه من كل عيب ونقص ومن كل صفة لا كمال فيها ولا نقصان على قول ، ومقدسا عن أن يحويه مكان فيشار إليه أو تضمه جهة ، وإنما اختصت السماء برفع الأيدى إليها عند الدعاء لأنها جعلت قبلة الأدعية كما أن الكعبة جعلت قبلة للمصلي يستقبلها فى الصلاة ولا يقال إن الله تعالى فى جهة الكعبة كما تقدس عن أن يحده زمان لأن المحدد محتو على أجزاء الماهية ، والله تعالى مبرّه عن ذلك ، بل كان تعالى قبل أن خلق الزمان والمكان والعرش والكرسى والسموات والأرضين وهو الآن على ماعليه من صفة الأزلية كما كان قبل خلقه الزمان والمكان وغيرهما وبائنا عن خلقه بصفاته العلية ليس فى ذاته سواه جل وعز ولا فى سواه ذاته الشريفة ، ومقدسا عن التغير من حال إلي حال والانتقال من مكان إلى مكان ، وكذا الاتصال والانفصال ، فإن كلا من ذلك من صفات المخلوقين ، وذلك النقصان كالجهل

وَالزَّوَالِ وَدَلاَلاَتِ الْحُدُوثِ مُنْفَرِدًا بِالْقِدَمِ عَنْ كُلِّ مُحْدَثِ

والعجز والخرس والصمم والعمى وأمثالها كما قاله العلامة التونسى ، بل لايزال فى نعوت جلاله وأوصاف كماله منزها عن الخلل ( و ) مبرأ عن ( الزوال ) بل فى زيادة كمال مستغنيا عن زيادة الإستكمال ، إذ كل كمال فإنما يفاض منه بدءا وإليه يعود ( و ) مقدسا عن (دلالات الحدوث) من الجهات الست وغيرها . وقال إمام الحرمين فى لمع الأدلة : والدليل على تقدسه تعالى عن الاختصاص بجهة والاتصاف بالمتحاذيات ، وأنه لا تحده الأقطار ولا تكتنفه الأقدار ويجل عن قبول الحد والمقدار ، كل مختص بجهة شاغل لها ، وكل متحيز قابل لملاقاة الجواهر ومفارقتها وكل ما يقبل الاجتماع والافتراق لا يخلو عنهما ومالا يخلو من الافتراق والاجتماع حادث كالجواهر ، وإذا ثبت تقدس البارى عن التحيز والاختصاص بالجهات فيترتب على ذلك تعاليه عن الاختصاص بمكان وملاقاة أجرام وأجسام ، فقد بان لك تنزيه ذاته سبحانه عن كل ما لايليق بجلاله وقدوسيته ( منفردا بالقدم عن كل محدث ) أى مخرج من العدم إلى الوجود ، والمراد القدم الذاتى بمعنى أنه تعالى قديم بذاته لا لعلة قديمة اقتضت وجوده تعالي عن ذلك ، وليس المراد بالقدم الذاتى ما قابل القدم بالغير كما يقول الفلسفى لقيام البرهان القاطع على أنه لا شيء قديم بالغير وأن كل ما سوى الله وصفاته حادث ، فمعنى القدم سلب الأولية : أي أنه تعالى لاأول لوجوده إذ لو لم يكن قديما لكان حادثا تعالى عن ذلك ، وكذا قاله العلامة أحمد الدردير ، فإن قيل القول بالقدم يلزمه منه وجود أزمنة لا نهاية لها إذ لايعقل استمرار وجود ، وبقاؤه إلا بزمان وأنتم لا تقولون به قلنا الزمان يطلق باعتبارات ثلاث وكلها منتفية بالنسبة إلى البارى تعالى . الأول الإطلاق العرفى وهو مرور الليالى والأيام ، وذلك تابع لحركات الأفلاك ، وقد أقمنا الدليل على حدوث العالم ، فقد كان الله ولا زمان بهذا الاعتبار ، وكان الله ولا شيء معه . الثانى ما اصطلح عليه المتكلمون ، وهو مقارنة متجدد لمتجدد توقيتا للمجهول بالمعلوم وذلك يختلف بالنسبة إلى السميع فتقول : ولد النبى صلى الله عليه وسلم عام الفيل فتجعله وقتا لمولده صلي الله عليه وسلم وزمانا له لمن يعلم عام الفيل ولا يعلم مولده صلى الله عليه وسلم ، وتقول عام الفيل مولد النبى صلى الله عليه وسلم فتوقته بمولده صلي الله عليه وسلم لمن يعلمه ولا يعلم عام الفيل وهو أمر فرضى ، وذلك لا يتحقق فى الأزل أو لا يتجدد فى الأزل ، ويطلق باصطلاح الحكماء علي أمر حركة الفلك وهو تابع لحركات الأفلاك فلا يكون أزليا فبأي معنى فسر الزمان لا يكون أزليا : كذا قاله الزبيدى نقلا عن ابن التلمسانى فى شرح اللمع لإمام الحرمين .

وأما دليل قدمه تعالى عن المحدث فنقول قال تعالى « لم يلد و ولم يولد » وقال تعالى « هو الأول » وقال صلى الله عليه وسلم « أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس دونك شيء » الحديث أخرجه أبو داود والترمذى ، فلو لم يكن قديما لكان حادثا ، ولو كان حادثا لكان قبله شيء ، وأما الصوفى فإنه يقول : كل قضية بديهية فلوازمها

وَأَنَّ مُحَمَّدًا

البينة بديهية ، وهذا لازم بين لثبوت الوجود الذاتي ، إذ كلما تصور القدم ووجود الواجب لزم جزم العقل بوجوبهما ،

﴿ تتمة ﴾ نذكر فى هذا المقام جميع مسائل التوحيد التى اشملتها كلتا الشهادة كما أشار إليه السنوسى وغيره ، وهو الذى تجب على جميع المكلفين معرفته ، وتفصيل ذلك أن معنى لاإله إلا الله: لا مستغنى عن كل ما سواه ومفتقر إليه كل ما عداه إلا الله . ومعنى الألوهية : استغناء الإله عن كل ماسواه وافتقار كل ما عداه إليه ، فدخل تحت الاستغناء ثمانية وعشرون عقيدة : الوجود ، والقدم ، والبقاء والمخالفة للحوادث ، والقيام بالنفس ، ووجوب السمع له والبصر والكلام ولوازمها ، وهى كونه سميعا بصيرا متكلما ، وتنزهه عن الغرض فى أفعاله وأحكامه وعن وجوب شيء عليه فعلا وتركا ، ومن كون شيء من الممكنات يؤثر بقوة أودعها الله فيه وأضدادها فجملتها ثمانية وعشرون عقيدة، ودخل تحت الافتقار اثنان وعشرون عقيدة: الحياة ، وعموم القدرة والإرادة والعلم ولوازمها وهى كونه : حيا ، وقادرا ، ومريدا ، وعالما ، والوحدانية ، وحدوث العالم بأسره ، وأن لا تأثير لشيء من الكائنات فى أثر ما بطبع وأضدادها ،فجملتها اثنان وعشرون عقيدة ، ودخل تحت قولنا : محمد رسول الله اثنتا عشرة عقيدة : وجوب الصدق للرسل والأنبياء والأمانة والتبليغ وأضدادها ، والإيمان بسائر الملائكة ، والكتب السماوية ، واليوم الآخر ، وجواز وقوع الأعراض البشرية عليهم وعدم وقوعها ، فقد ظهر لك أن قولنا : لا إله إلا الله محمد رسول الله تتضمن اثنتين وستين عقيدة : منها خمسون عقيده تحت لا إله إلا الله ، واثنتا عشرة تحت محمد رسول الله ، كذا أملاه شيخ مشايخنا الشيخ على الطولونى المحدث ، من تقرير شيخه سيدى على الجزائرى المغربى الحنفى رحمه الله تعالى ، كذا قاله العلامة مرتضى الزبيدى . ولنرجع إلى خدمة كلام المصنف البحر الزاخر بعون اللطيف الخبير ( و ) أن تعلم (أن محمدا )هو ابن عبدالله ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وهو علم منقول من اسم مفعول المضعف موضوع لمن كثرت خصاله الحميدة ، سمى به نبينا بإلهام من الله تعالى لجده عبد المطلب بذلك ليكون على وفق تسميته تعالى له به قبل الخلق بألفى عام على ما ورد عند أبى نعيم كما قاله العلامة ابن حجر ، وفى سيرة الحافظ اليعمرى : وروينا عن أبى القاسم السهيلى قال : لا يعرف فى العرب من سمى بهذا الاسم قبله صلي الله عليه وسلم إلا ثلاث : طمع آباؤهم حين سمعوا بذكر محمد صلى الله عليه وسلم وبقرب زمانه ، وأنه يبعث بالحجاز أن يكون ولدا لهم ، ذكرهم ابن فورك فى كتاب الفصول : وهم محمد بن سفيان بن مجاشع جد الفرزدق الشاعر ، والآخر محمد بن أحيحة بن الجلاح ، من الأوس ، والآخر محمد بن حمران من ربيعة ، وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك وكان عنده علم بالكتاب الأول ، فأخبرهم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم وباسمه وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملا ، فنذر كل واحد منهم إن ولد له ولد ذكر لأن يسميه محمدا ، ففعلوا

صلى اللهُ عليهِ وَسلَّمَ عَبْدُهُ

---

ذلك انتهى . وفيها عن القاضى عياض بعد كلام يتعلق باسم احمد مانصه : وكذلك محمد أيضا لم يسم به أحد إلا بعد أن شاع قبيل وجوده عليه الصلاة والسلام وميلاده أن نبيا يبعث اسمه محمد ، فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو، والله أعلم حيث يجعل رسالته . وهم محمد بن أحيحة بن الجلاح بتخفيف اللام الأوسي ، ومحمد بن مسلمة الأنصارى ، ومحمد بن براء البـكرى ، ومحمد بن سفيان بن مجاشع ، ومحمد بن حمران الجنفى، ومحمد بن خزاعى السلمى لاسابع لهم أى فيما أعلم ، ويقال إنَ أول من تسمى به محمد بن سفيان ، واليمن تقول بل محمد بن اليحمد الأزدى ، ثم حمى الله : أى منع كل من تسمى به أن يدعى النبوة أو يدعيها أحد له حتى تحققت التسميات بمحمد وأحمد له صلى الله عليه وسلم ولم ينازع فيهما . وفى سيرة الشيخ الحلبي عن بعضهم أنه عدهم ستة عشر ونظمهم فقال :

إن الذى سموا باسم محمد ... من قبل خير الخلق ضعف ثمان

ابن البراء مجاشع بن ربيعة ... ثم ابن مسلم يحمد حمرانى

ليلثي السلمى وابن أسامة ... سعدى وابن سوأة همدانى

وابن الجلاح مع الأسيدى يافتى ... ثم الفقيمى هكذا الحرمانى

قال بعضهم : وفاته آخران لم يذكرها ، وهما محمد بن الحارث ،ومحمد بن عمر بن مغفل بضم أوله وسكون المعجمة ثم لام ، وقد نظمها شيخنا القاضي فى بيت يضم إلى هذه الأبيات فقال :

وابنا الحارث زد لعدهم وزد ... ابن المغفل جاءنا فى بيان

وأما أحمد فلم يتسم به أحد قبله ولا فى زمانه ، بل هو أول من تسمى به ثم بعده والد الخليل الفراهيدى ، هكذا جزم بأنه من خصائصه الحافظ السيوطى وأقروه إلا أن البرهان اللقانى حكي فى شرح عقيدته الـكبير أنه تسمى به أربعة بزمان طويل ، وجزم الشيخ زكريا فى شرح رسالة القشيرى بأن الخضر اسمه أحمد، والله أعلم ، كذا ذكره ابن المدابغى ( صلى الله عليه وسلم ) من الصلاة ، وهى من الله تعالى الرحمة ، وتعلق لفظ على بها لتضمن معنى النزول ، والسلام التسليم من الآفات المنفية لغاية الـكمال ، وجمع بينهما لـكراهة إفراد أحدهما عن الآخر أى لفظا لاخطا أو مطلقا ، وقد تقدم الـكلام فى خطبة الـكتاب (عبده) تعالى قدمه امتثالا لما فى الحديث الصحيح « ولـكن قولوا عبد الله ورسوله » ولأنه أحب الأسماء إلى الله وأرفعها إليه ، ومن ثم وصفه الله تعالى به فى أشرف المقامات فذكره بإنزال القرآن عليه فى قوله تعـالى « مما نزلنا على عبدنا » وقوله « أنزل على عبده الـكتاب » . وقوله « نزل الفرقان على عبده » وفى مقام الدعوة إليه « وأنه لما قام عبد الله يدعوه » ، وفى مقام الإسراء والوحى إليه فى « أسرى بعبده » « فأوحى إلى عبده ماأوحى » فلو كان له وصف أشرف منه لذكره به فى تلك المقامات العلية ،

وَرَسُولُهُ الصَّادِقُ فِيمَا جَاءَ بِهِ عَنِ اللهِ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ، وَفِيمَا وَرَدَ عَلَى لِسَانِهِ مِنْ أُمُورِ الآخِرَةِ .

ومن ثم خير صلى الله عليه وسلم بين أن يكون نبيا ملكا أو نبيا عبدا فاختار الثانى وسليمان عليه الصلاة والسلام سأل الأول فانظر بعد مابين المرتبتين ، وسبب أشرفية هذا الوصف أن الألوهية والسيادة والربوبية إنما هى فى الحقيقة لله تعالى لاغير والعبودية بالحقيقة لمن دونه ، فى الوصف بها إشارة إلى غاية كماله تعالى وتعاليه واحتياج غيره إليه فى سائر أحواله ، كذا فى شرح الأربعين لابن حجر ، وكيف لا والعبودية هى ترك الاختيار والاختبار والثقة بالفاعل المختار ، وعدم منازعة الأقدار والتسليم لأمر الواحد القهار ، ومما ينسب للقاضى عياض :

ومما زادنى شرفا وتيها ... وكدت بأخمصى أطأ الثريا
دخولى تحت قولك ياعبادى ... وأن صيرت أحمد لى نبيا

ولبعضهم :
يا قوم إن قلبي عند زهراء ... يعرفها السامع والرائى
لا تدعنى إلا يا عبدها ... فانه أشرف أسمائى

( ورسوله ) رسالة عامة فى الزمان والمكان جميع الخلق ، وأثر رحمه الله ذكره إشارة إلى رد ماعليه ابن عبد السلام من تفضيل النبوة لتعلقها بالحق على الرسالة لتعلقها بالخلق ، والفرق بينهما أن الأولى هي الانصراف من حضرة الخلق إلى الحق ، والثانية الانصراف من حضرة الحق إلى الخلق كما قاله بعض المحققين ، ووجه رده أن الرسالة فيها التعلقان بالحق والخلق كما هو ظاهر ، والكلام فى نبوة الرسول مع رسالته ، وإلا فالرسول أفضل من النبى قطعا كما قاله العلامة ابن حجر فى الأربعين ، وتعلم أنه صلى الله عليه وسلم ( الصادق ) والمحق (فى) جميع ( ماجاء ) وأخبر (به عن الله تعالى وتقدس ) أى من الأحكام والأمور المغيبة ، بل جميع أقواله وإن لم تكن عن الله فيلزمنا الإيمان فى ذلك ، فمن أنكر شيئا من ذلك وكان معلوما من الدين بالضرورة كفر ( و ) الصادق ( فيما ورد على لسانه ) صلى الله عليه وسلم ( من أمور ) الدنيا و (الآخرة) أى المتعلقة بهما بعد أن خصه الله صلى الله عليه وسلم كما خص إخوانه من الأنبياء والرسل الكرام بالصدق والأمانة والتبليغ والفطانة ، فهذا أربع صفات تجب فى حقهم ، فالصدق وهو الإخبار بالحق الثابت فى نفس الأمر أى كون مابلغوا به عن الله تعالى موافقا لما عند الله تعالى إيجابا كان أو سلبا ، والأمانة كونهم لاتصدر عنهم مخالفة أصلا ، وهي المعبر عنها عند بعضهم بالعصمة ، والتبليغ هو أنهم بلغوا جميع ما أمروا به اعتقاديا كان أو عمليا ولم يكتموا منه شيئا ، والفطانة : هى التيقظ لإلزام الخصوم وطرق إبطال تخيلهم ودعاويهم الباطلة :

ومما جاء به عليه الصلاة والسلام من أمور الآخرة : عذاب القبر ونعيمه والصراط والميزان والحوض والشفاعة ونحو ذلك مما يطول تتابعه ، وهو مفصل فى الكتاب والسنة وتآليف علماء الشريعة ، وسيأتى بعض ذلك عند كلام المصنف فيما ورد على لسان صاحب الشرع عليه الصلاة

ثُمَّ مَسَائِلُ فِى شَعَائِرِ السُّنَّةِ تَجِبُ مَعْرِفَتُهَا ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَبْتَدِعَ فِى دِينِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَالَمْ يَأْتِ بِهِ كِتَابٌ وَلاَ أَثَرٌ فَتَكُونَ مَعَ اللهِ سُبْحَانَهُ عَلَى أَعْظَمِ خَطَرٍ

---

والسلام (ثم) تتعين عليك (مسائل) أى مسائل أمور الدين جمع مسـئلة : وهى المطلب الذى يبرهن عليه فى العلم ويكون الغرض من ذلك العلم معرفتها كذا أفاده شيخ مشايخنا (فى شعائر) أى علامات (السنة) أى الطريقة النبوية (تجب معرفتها) أى المسائل (وإياك) أى احذر تلاقيك (أن تبتدع) أى أن تخترع وتنشىء من قبلك أو من غيرك (فى دين الله سبحانه وتعالى) وهو ما شرعه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم واستمرّ العمل به (ما) أى أمراً حادثا (لم يأت به كتاب) من الله ولا خبر من رسوله صلى الله عليه وسلم أو إجماع من العلماء (ولا أثر) من الصحابة رضوان الله عليهم ، والفرق بين الخبر والأثر أن الخبر هو الحديث المنقول ، فهو مرادف للحديث عند الجمهور ، والأثر هو كلام السلف فى اصطلاح الفقهاء فإنهم يستعملونه فيه وفى ذلك بحث طويل محله كتب أصول الحديث (فتكون) أى فان فعلت البدعة المذمومة تكون (مع الله سبحانه على أعظم خطر) أى خوف لأن كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار كما فى الخبر.

وقسم ابن عبد السلام الحوادث إلى الأحكام الخمسة فقال : البدعة فعل ما لم يعهد فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة كتعلم النحو وغريب الكتاب والسنة ونحوهما مما يتوقف فهم الشريعة عليه . ومحرمة كمذهب القدرية والجبرية والمجسمة . ومندوبة كإحداث الربط والمدارس ، وبناء القناطر ، وكل إحسان لم يعهد فى العصر الأوّل . ومكروهة كزخرفة المساجد ، وتزويق المصاحف ، ومباحة كالمصافحة عقب صلاة الصبح والعصر ، والتوسع فى المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك كما أفاده الفشنى ، وقال الشافعى رضى الله عنه : ما أحدث وخالف كتابا أوسنة أو إجماعا أو أثرا فهو البدعة الضلالة ، وما أحدث من الخير ولم يخالف شيئا من ذلك فهو البدعة المحمودة . والحاصل أن البدعة الحسنة متفق على ندبها وهى ما وافق شيئا مما مر ولا يلزم من فعله محذورشرعى. ومنها ما هوفرض كفاية كتصنيف العلوم ونحوها مما مر. قال الإمام أبوشامة شيخ النووى رحمهما الله تعالى : ومن أحسن ما ابتدع فى زماننا ما يفعل كل عام فى اليوم الموافق ليوم مولده صلى الله عليه وسلم من الصدقة والمعروف وإظهار الزينة والسرور فان ذلك مع ما فيه من الإحسان إلى الفقراء مشعر بمحبته صلى الله عليه وسلم وتعظيمه وجلالته فى قلب فاعل ذلك ، وشكر الله تعالى على ما منّ به من إيجاد رسوله الذى أرسله رحمة للعالمين صلى الله عليه وسلم . وأما البدعة السيئة فهى ما خالف شيئا من ذلك صريحاً أو التزاماً قد تنتهى إلى ما يوجب التحريم تارة والكراهة، أخرى وإلى مايظن أنه طاعة وقربة . فمن الأول الانتماء إلى جماعة يزعمون التصوف ويخالفون ما كان عليه مشايخ الطريق من الزهد والورع وسائر الكمالات المشهورة عنهم ، بل كثير

وَجَمِيعُ أَدِلَّةِ التَّوْحِيدِ مَوْجُودٌ أَصْلُهَا فِى كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ

من أولئك إباحية لا يحرمون حراما لتلبيس الشيطان عليهم أحوالهم القبيحة الشنيعة ، فهم باسم الفسوق والكفر أحق منهم باسم التصوف أو الفقر، ومن الأول أيضاً ما عم به الابتلاء من تزيين الشيطان للعامة تخليق حائط : أى بأن يخلقوه بالخلوق وهو نوع من الطيب أو تخليق عمود وتعظيم نحو عين أو حجر أو شجرة لرجاء شفاء أو قضاء حاجة ، وقبائحهم فى هذا ظاهرة غنية عن الإيضاح والبيان . وقد صح أن الصحابة رضى الله تعالى عنهم مروا بشجرة سدر قبل حنين كان المشركون يعظمونها وينوطون بها أسلحتهم : أى يعلقونها بها ، فقالوا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر، هذا كما قال قوم موسى: « اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون ــ لتركبن سنن من كان قبلكم » ومن الثانى أى ما يظن أنه طاعة وقربة : نحو صوم يوم الشك أو التشريق ، والوصال وغيرها مما لو « قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون » . ومنه أيضاً الصلاة ليلة الرغائب أول جمعة فى رجب ، وليلة النصف من شعبان ، فهما بدعتان مذمومتان خلافا لمن استحسنهما ، وحديثهما موضوع كما بينه النووى رحمه الله فى شرح المهذب ومنه أيضاً : الوقود ليلة عرفة والمشعر الحرام ، والاجتماع ليالى الختوم آخر رمضان ، ونصب المنابر والخطب عليها ، فيكره مالم يكن فيه اختلاط الرجال بالنساء بأن تتضامّ أجسامهم فإنه حرام وفسق قيل : ومن البدع صوم رجب وليس كذلك بل هو سنة فاضلة كما بينه العلامة ابن حجر فى فتاويه كذا لخصناه من شرح الأربعين ( وجميع أدلة التوحيد ) وهى كلام الله وسنة رسوله وإجماع الأمة وقياس الفقهاء ( موجود أصلها فى كتاب الله سبحانه ) ومشحون بها لأهل العرفان الذين وفقهم الدّيان . قال الله تعالى « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ــ فاعلم أنه لا إله إلا الله » وقد جعلت كلمة التوحيد مفيدة لنفي ما سواه فى الألوهية وعدم غيره فى استحقاق العبودية مع اعتراف جميع الكفار بتوحيد الربوبية حيث قال تعالى « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » . وقال تعالى « قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض » قال العلامة على بن سلطان القارى فى شرح الفقه الأكبر : فى ابتداء كلامه سبحانه وتعالى بالفاتحة « الحمد لله رب العالمين » إشارة إلى تقرير توحيد الربوبية المترتب عليه توحيد الألوهية المقتضى من الخلق تحقيق العبودية ، وهو مما يجب على العبد أوّلا من معرفة الله سبحانه . والحاصل أنه يلزم من توحيد العبودية توحيد الربوبية دون العكس فى القضية لقوله سبحانه « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض » الآية ، وقوله حكاية عنهم « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » بل غالب سور القرآن وآياته متضمنة لنوعى التوحيد ، بل القرآن من أوّله إلى آخره فى بيانهما وتحقيق شأنهما ، فان القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمى الخبرى ، وإما دعوة إلي عبادته وحده لاشريك له وخلع ما يعبدون من دونه فهو التوحيد الإرادى

وَقَدْ ذَكَرَهَا شُيُوخُنَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فِى كُتُبِهِمُ الَّتِى صَنَّفُوهَا فِى أُصُولِ الدِّيَانَاتِ

الطلبى ، وإما أمر ونهى وإلزام بطاعته ، فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته ، وإما خبر عن إكرامه أهل توحيده وإهانته لأهل الكفر ، وما فعل بهم فى الدنيا من النكال ، وما يحلّ بهم فى العقبى من العذاب والسلاسل والأغلال ، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد ، فالقرآن كله فى التوحيد وحقوق أهله ، وفى شأن ذمّ الشرك وعقوق أهله وجزائهم ، فالحمد لله ربّ العالمين : توحيد ، الرحمن الرحيم توحيد ، مالك يوم الدّين توحيد ، إياك نعبد وإياك نستعين توحيد، اهدنا الصراط المستقيم توحيد ، متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أصل التوحيد ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ــ الذين فارقوا التوحيد عنادا وجهلا وإفسادا ، وكذا السنة تأتى مبينة أو مقررة لما دلّ عليه القرآن ، فلم يحوجنا ربنا سبحانه وتعالى إلى رأى فلان وذوق فلان ووجه فلان فى أصول ديننا ، ولذا تجد من خالف الكتاب والسنة مختلفين مضطربين ، بل قال تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » فلا نحتاج فى تكميله إلى أمر خارج عن الكتاب والسنة كما قال « هذا بلاغ للناس » . وقال « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » وقال « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » : وإلى هذا المعنى أشار الطحاوى بقوله فى أوّل عقيدته : لا ندخل فى ذلك متأولين رأينا ولا متوهمين بأهوائنا ، فإنه ما سلم فى دينه إلا من سلم الله عز وجل انتهى كلامه ، وإنما أوردته بطوله لكونه فى غاية الحسن ، فلله دره وشكر الله صنعه ( وقد ذكرها ) أى أدلة التوحيد ( شيوخنا رضي الله عنهم ) أى حفظهم من سخطه ( فى كتبهم التى صنفوها فى أصول الديانات) قد أوسع الكلام فى أدلة التوحيد فما رأيت الإمام أبو منصور التميمى فى الأسماء والصفات فأورد فيه خمسة أدلة ، وشرط فى برهان التمانع شروطا لم أرمن تعرّض لها من المتكلمين . ونحن نورد لك كلامه بتمامه ليكون تبصرة للناظر يستفيد منه ، ولغرابة هذا الكتاب ربما لا يوجد فى أكثر البلاد ، فنقول : قال فى بيان أدلة الموحدين على توحيد الصانع :

ومما يدل على ذلك أنه إذا ثبت لنا حدوث العالم ، وثبت أنه لا بدّ من محدث لاستحالة وجود فعل بلا فاعل كاستحالة وجود ضرب بلا ضارب ، ووجود نسخ وكتابة بلا ناسخ وكاتب ، كان إثبات محدث واحد لجميع الحوادث صحيحا ، وكانت الأعداد ما زاد عليه متعارضة ؛ فلو جاز أن يكون للعالم صانعان لجاز أن يكون له ثلاثة صانعين ، ولجاز أربعة وأكثر منها لا إلى نهاية ، ولا يلزمنا على هذا الدليل إذا أوجبنا صانعا واحدا أن نجيز أكثر منه ، لأن الواحد أوجبه الدّليل بوجود الصنع ، وظهور الحوادث ، والزيادة على الواحد لا يوجبها دليل ، لأن الصنع لا يقتضي أكثر من صانع واحد .

ودليل آخر هو أنه لو جاز أن يكون للعقلاء والجمادات وسائر الحوادث صانعان أو أكثر من صانع واحد لم يصل الواحد من العقلاء إلى معرفة صانعه بعينه ليعبده ويشكره على إنعامه عليه

ولم يكن صانعه قادرا على تعريفه إياه ، وأنه هو الذى صنعه دون غيره ، لأن غيره قد يصنع مثل صنعه، وفى هذا تعجيز الصانع عن تعريف مصنوعه العاقل ما يدلّ عليه ، والعاجز لا يكون إلها صانعا .

ودليل ثالث لو كان للأجسام صانعان أو أكثر لم يخل أن يكون كلّ جزء من العالم فعلهما جميعا أو يكون بعض العالم فعل أحدهما وبعضه فعل الآخر ، ويستحيل حدوث كلّ واحد من فاعلين محدثين له ؛ لأنه باختراع أحدهما يوجد ، فلا معنى لاختراع الآخر منهما له ، ولأن قدرة كلّ واحد منهما إن كانت لا تصلح لاختراع الشىء إلا مع قدرة الآخر استحال صلاحهما مجموعتين لاختراعه لأن ما يصلح للاختراع مع ما لا يصلح للاختراع لا يقع بهما الاختراع ، لأن ما استحال فى الآحاد لم يتغير بالاجتماع ، وما وجب فى الآحاد لم يتغير بالاجتماع ، وليس كالحجر يحمله الجماعة ولا يحمله كلّ واحد منهما ولا كجواز الكذب على الآحاد وانتفائه عن أهل التواتر ، لأن هذا من باب الجواز فى الآحاد وما كان فى الآحاد على طرفى جواز جاز أن يتغير حكمه فى الاجتماع وما لزم فى الآحاد طريقة واحدة لم يتغير بالاجتماع والكثرة وإن كان كلّ واحد من الصانعين فاعلا لبعض العالم دون بعض لم يخل من أن يكون فعل كلّ واحد منهما من جنس فعل الآخر أو خلافه ، فإن اختلف فعلاهما مثل أن يكون أحدهما فاعلا للأجسام ، والآخر فاعلا للأعراض لم يجز اختصاص قدرة أحدهما بالأجسام دون الأعراض إلا بمخصص يخصصها بها ، وهذا يقتضى حدوث قدرتهما ، والقدرة المحدثة لا تحدث فى ذات الإله القديم لأن القديم لا يجوز أن يكون محلا للحوادث ، وإن كان فعل كلّ واحد منهما من جنس فعل الآخر وقدر كلّ واحد منهما على مثل ما قدر عليه الآخر من الأجسام والأعراض لم يخل من أن يكون مقدور كل واحد منهما مقدور الآخر أو غيره ، وإن كان من جنسه ، فإن كان مقدورات كلّ واحد منهما هى بعينها مقدورات الآخر ، وهما مع ذلك يجوز أن يتفقا فى إرادة إيقاع مقدور واحد لوجب حدوثه منهما ، ويستحيل وقوع حادث من محدثين كما يستحيل وقوع حركة واحدة من محركين فإن كان مقدورات كلّ واحد منهما غير مقدورات الآخر مع كونهما من جنسها فهو محال ، لأن كلّ شيئين من جنس واحد متماثلان يصحّ على كلّ واحد منهما ما يصحّ على الآخر ، وهذا يقتضى إذا كان مقدور أحدهما بقدرته أن تتعلق قدرة الآخر أيضا به ، وأن تتعلق قدرته بمقدور الآخر لأنه ليس من جنس مقدوره المتعلق بقدرته ، وإذا وجب هذا وآل الأمر إلى اشتراكهما فى المقدورات كلها أدّى إلى ما أفسدناه من حدوث مقدور واحد بقدرتين وليس ذلك كما نجيز وقوع كسب المكتسب بقدرته وحدوثه بقدرة الإله سبحانه ، لأنا لم نقل إنها مكتسبة بقدرتين ، بل قلنا إن حدوثه كان بقدرة واحدة وهى قدرة الإله ، واكتسابه بقدرة واحدة وهى قدرة المكتسب له وكان يصحّ حدوثه بقدرة إله غيره مكتسب لمكتسبه ، فبان الفرق بينهما .

ودليل رابع : وهو أنه لو كان للعالم صانعان وكان كلّ واحد منهما قادرا على إحداث كلّ ما يحدث الآخر ، فلا يخلو إذا أحدث أحدهما جسما أو عرضا أن يكون الآخر قادرا على إحداثه كما قدر عليه قبل حدوث ذلك الحادث أولا يكون قادرا عليه ، فإن قدر عليه قدر على إحداث ما هو

موجود حادث فهذا محال ، وإن خرج عن كونه قادرا عليه فصاحبه هو الذى منعه من إيجاد مقدوره وأخرجه عن القدرة عليه ، وهذا يوجب أن يكون ممنوعا ، والممنوع العاجز لا يكون إلها صانعا ، ولا يلزم على هذا وجود المقدور الواحد ، لأن الواحد لا يكون ممنوع نفسه؟ وقد يكون ممنوع غيره كما لا يصحّ أن يريد خلاف مراد نفسه ، ويجوز أن يريد خلاف مراد غيره ، والتمانع إنما يصحّ مع الاختلاف فى المراد .

ودليل خامس : وهو أنه لا بدّ للصانع من أن يكون حيا قادرا عالما مريدا مختارا ، ومن نازع فى هذه الصفات للصانع بينا الكلام معه عليها ؛ فاذا ثبت وصف الصانع بما ذكرناه قلنا لو كان للعالم صانعان وجب أن يكون كلّ واحد منهما حيا قادرا عالما مريدا مختارا ، والمختاران يجوز اختلافهما فى الاختيار ، لأن كلّ واحد منهما غير مجبر على موافقة الآخر فى اختياره ، فاذا صحّ هذا فلو أراد أحدهما خلاف مراد الآخر فى شىء لم يخل من أن يتمّ مرادهما أو لا يتمّ مرادهما أو يتمّ مراد أحدهما ولا يتم مراد الآخر ومحال تمام مراديهما لتضادّهما ، وإن لم يتم مرادهما فهما عاجزان ، وإن تم مراد أحدهما ولم يتم مراد الآخر فإن الذى لم يتم مراده عاجز ولا يكون العاجز إلها ولا قديما .

وهذه الدلالة معروفة عند الموحدين بدلالة التمانع ، ولها شروط : منها تفسير معنى التمانع وهو تفاعل من المنع ، وذلك أن يقصد كل منهما أن يمنع صاحبه . والشرط الثانى هو العلم بأن التمانع بين القادرين إنما يقع فى مخالفة أحدهما صاحبه فى المراد بأن يريد ما يكرهه صاحبه . فيكون حينئذ من لم يتم مراده منهما ممنوعا عن إيقاع مراده . وزعم بعض القدرية أن التمانع يقع فى الفعلين المقدورين لقادرين بأن يفعل أحدهما مقدوره فى محل يمتنع به القادر الآخر عن إيقاع مقدوره فيه ، ويلزمهم على هذا الأصل أن يكون البارى سبحانه ممنوعاً من فعل السكون فى محل قدرة غيره عندهم فيه حركة وهذا فاسد فما يؤدى إليه مثله . والشرط الثالث أن الحيين القادرين المتصرفين بإرادتين لا يستحيل منهما أن يريد أحدهما ما يكرهه الآخر لأن الذى ينفى إرادة أحدهما ليس هو النافى لإرادة الآخر لأن الشيئين لا يتضادان فى محلين ولولا جواز اختلاف المريدين فى المراد لما صح التمانع بينهما . والشرط الرابع أن التمانع بين القادرين لا يصح إلا بعد أن يكون محل فعلهما واحدا لولا ذلك لصح من أحدهما أن يوقع فى محل فعلا ويوقع الآخر خلافه فى محل آخر ، لأن المتضادّين لا يتضادان فى محلين كالسواد والبياض فى محلين . والشرط الخامس العلم بأن إرادة أحدهما يجب أن تكون بحيث لا يصح وجود إرادة الآخر منه ، إذ لو كان محل إرادتهما واحدا لوجب أن يصيرا معا مريدين بإرادة واحدة ولم يختلفا حينئذ فى المراد لوجوب كون كل واحد مريدا لما يريده الآخر بإرادته ، والشرط السادس العلم بأن إرادة كل واحد منهما يجب أن تكون غير مراده ، لأنه لو كانت الإرادة من المراد لكان كلما أراد أحدهما شيئا حصل مراده فى حال كونه مريدا ولم يصر ممنوعا عن مراده بحال . الشرط السابع العلم بأن المتمانعين يجب أن

وَعَلَى الْجُمْلَةِ كُلُّ مَا لاَ تَأْمَنُ الهَلاَكَ فِي جَهْلِهِ فَطَلَبُ عِلْمِهِ فَرْضٌ لاَيَسُوغُ لَكَ تَرْكُهُ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

وَأَمَّا الَّذِي يَتَعَيَّنُ فَرْضُهُ مِنْ عِلْمِ السِّرِّ فَمَعْرِفَةُ مَوَاجِبِهِ وَمَنَاهِيهِ حَتَّى يَحْصُلَ لَكَ تَعْظِيمُ اللهِ تَعالى وَالْإِخْلاَصُ لَهُ وَالنِّيَّةُ وَسَلاَمَةُ الْعَمَلِ، وَجَمِيعُ ذٰلِكَ يَأْتِي فِي كِتابِنَا هٰذَا إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ .

وَأَمَّا مَا يَتَعَيَّنُ مِنْ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ

---

يكون إرادة كل منهما قبل مراده ، لأن إرادته لو حصلت مع مراده لما صح منعه عن مراده ، لأن الحي لا يكون ممنوعا من فعل ما قد وجد. ولا يقع التمانع بين المتمانعين في المراد ممنوعا عن إتمام مراده عاجزا عنه ، والعاجز لا يجوز أن يكون قديما . والدليل على استحالة وجود قديم عاجز أن الفاعل القديم القادر قد وجب حصوله بدلالة الحوادث عليه ، فلو صح كون قديم عاجز معه وقد صح من أصلنا أن القادر يكون قادرا بقدرة والعاجز يكون عاجزا بعجز لوجب أن يكون اختصاص أحدهما بالقدرة والآخر بالعجز بعد استوائهما في الوجود والقدم والحياة والقيام بالنفس وسائر الأوصاف التي استحقها لأنفسها بمخصص خصصهما أو خص أحدهما بإحدى الصفتين وذلك يقتضى قيام معنى حادث بأحدهما وأن يكون محدث الحوادث محدثا غير قديم ، فهذا وجه بيان دلالة التمانع على التوحيد ، انتهى سياق الشيخ أبي منصور التميمي كما ذكره العلامة الزبيدي ( وعلى الجملة ) أي حاصل الكلام ( كلّ ما ) أي من الأقوال والأفعال ( لا تأمن الهلاك في جهله فطلب علمه فرض لا يسوغ ) أي لا يجوز ( لك تركه ) وإلا وقعت في الهلاك ( فهذه ) أي الجملة مبتدأ خبره ( هذه ) أي هي الموصوفة بالكمال والوصول إلى الغاية والنهاية، كذا في سراج السالكين ( وبالله ) تعالى لا بغيره ( التوفيق ) إلى مرضاته وفهم حكمه وأسراره . ( وأما ) العلم ( الذي يتعين فرضه ) عليك ( من علم السر ) أي خفيات صفات القلب ( فمعرفة مواجبه ) أي كعلم أحوال القلب المحمودة ، وذلك نحو الصبر والشكر والخوف والرجاء والرضا والزهد والقناعة ومعرفة المنة لله تعالى في جميع الأحوال وحسن الظن والإخلاص ونحو ذلك ( ومناهيه ) أي علم السر كخوف الفقر وسخط المقدور وطلب العلو وحب الثناء وحب طول البقاء في الدنيا للتمتع ونحو ذلك ( حتى يحصل لك تعظيم الله تعالى و ) يحصل ( الإخلاص له ) سبحانه ( والنية ) الحسنة ( وسلامة العمل ) من الآفات المهلكات ( وجميع ذلك ) أي المذكور من المواجب والمناهي والإخلاص والنية وسلامة العمل ( يأتي في كتابنا هذا ) أي هذا الكتاب المسمى : [ منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين ] ( إن شاء الله عز وجل . وأما ما يتعين ) عليك ( من علم الشريعة ) والشريعة لغة : مشرعة الماء . وشرعا : ما شرعه الله وأوضحه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام لعباده : أي ولو غير

فَـكُلُّ مَا يَتعيَّنُ عَلَيْكَ فَرْضُ فِعْلِهِ وَجَبَ عَلَيْكَ مَعْرِفَتُهُ لِتُؤَدِّيَهُ كَالطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ . وَأَمَّا الْحَجُّ وَالزَّكَاةُ وَالْجِهَادُ ، فَإِنْ تَعَيَّنَ عَلَيْكَ فَرْضُهُ وَجَبَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ

---

هذه الأمة ، قال تعالى « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » ( فكل ما ) أى كل عمل قلبي كالنية والاعتقاد ، أو بدنى كالطهارة والصلاة وغيرهما مما يأتى وسواء كان عبادة كما ذكر أو غير عبادة كمنا كحة ومعاملة ( يتعين عليك فرض فعله ) أى مفروض فعله فهو مصدر مضاف أريد به اسم المفعول والجار والمجرور قبله متعلق به : أى يتعين مفروض فعله عليك ، وقدمه عليه للاشارة إلى أن العمل المفروض قد يختلف باختلاف أحوال الناس لأنه قد يجب على شخص دون آخر ؛ فإن المالك لإبل أو بقر أو غنم أو ذهب أو فضة يجب عليه أن يتعلم أحكام الزكاة المتعلقة به ، وغير المالك لا يجب عليه ذلك ، وكذا يقال فى القادر على الصوم والعاجز عنه وهكذا فكأنه رحمه الله قال فكل ما يتعين فرض فعله عليك لا على غيرك فتأمل ، وذلك بأن عشت من ضحوة النهار مثلا إلى وقت الظهر بعد أن صرت أهلا لوجوب الصلاة عليك ببلوغ أو إسلام فيتجدد عليك بدخول وقت الظهر تعلم الطهارة والصلاة كما أشار إليه بقوله ( وجب عليك معرفته ) أى طلب علمه : أى تعلمه فورا فى الفورى وموسعا فى الموسع كما يأتى ( لتؤديه ) أى ما يفرض عليك عينا على وجه صحيح ( كالطهارة ) أى الشاملة للوضوء والغسل والتيمم وإزالة النجاسة ( والصلاة ) بأن تعرف شروطها وأركانها وتقديم الطهارة لكونها من مقدمات الصلاة وإن كنت صحيحا وكان بحيث لو صبرت إلى زوال الشمس لم تتمكن من تمام التعلم والعمل ولا من بعضهما فى الوقت بل يخرج الوقت لو اشتغلت بالتعلم فلا يبعد أن يقال الظاهر بقاؤه وهو الراجح كما قاله المصنف أبو حامد الغزالى فيجب عليك تقديم التعلم على الوقت ( و ) إن عشت إلى رمضان تجدد عليك بسبب دخولك فيه وجوب تعلم ( الصوم ) وهو أن تعلم أن وقته من طلوع الصبح إلى غروب قرص الشمس ، وأن الواجب النية ليلا ، والإمساك عن الأكل والشرب ، والوقاع وما فى معناه ، وأن ذلك يتمادى إلى وقت رؤية هلال شوال . ( وأما الحج ) إلى بيت الله الحرام ( والزكاة ) للأموال ( والجهاد ) أى القتال فى سبيل الله لإقامة الدين ، وهذا هو الجهاد الأصغر. وأما الجهاد الأكبر فهو مجاهدة النفس كما فى الخبر ( فإن تعين عليك فرضه ) أى المذكور من الثلاثة ( وجب عليك علمه ) وذلك بأن ملكت الزاد والراحلة ، وذلك مما فضل عن مسكنك وعما لا بد منه وعلى نفقة ذهابك وإيابك ونفقة عيالك كما هو مقرر فى محله حتى ربما ترى الحزم لنفسك فى المبادرة إليه ، فعند ذلك إذا عزمت عليه لزمك تعلم كيفية الحج ولم يلزمك ألا تعلم أركانه وواجباته دون نوافله ، فإن فعل ذلك نفل ، فعلمه أيضا نفل فلا يكون فرض عين وإن تجدد لك مال بكسب أو هبة أو إرث عند بلوغك أو قبل أن تبلغ بقليل كما قاله العلامة مرتضى لزمك تعلم ما يجب عليك من مسائل الزكاة ولا تلزمك الزكاة فى الحال إنما تلزمك عند تمام الحول من الإسلام بتحديد الشارع ، والمعتبر فيه

لِتُؤَدِّيَهُ وَإِلا فَلاَ ، فَهٰذَا حَدُّ مَا يَلْزَمُ الْعَبْدَ تَحْصِيلُهُ مِنَ الْعِلْمِ لاَ مَحَالَةَ ، وَتَعَيَّنَ فَرْضُهُ بِحَيْثُ لاَبُدَّ لَكَ مِنْ ذٰلِكَ .

فَإِنْ قُلْتَ فَهَلْ يَفْتَرِضُ عَلَيَّ أَنْ أَتَعَلَّمَ مِنْ عِلْمِ التَّوْحِيدِ مَا أَنْقُضُ بِهِ جَمِيعَ مِلَلِ الْكُفْرِ وَأَلْزِمُهُمْ

---

الشهور القمرية كما في البلوغ لا الشمسية ، فإن لم تملك إلا الإبل لم يلزمك تعلم زكاة الغنم ، وكذا فى عكسه ، وهكذا فى سائر الأصناف من الأموال ، ومثل الزكاة الجهاد فيما ذكر (لتؤديه) أى المذكور من الحج والزكاة والجهاد على أكمل وجه ( وإلا ) أى وإن لم يتعين عليك فرض فعله ( فلا ) يجب عليك معرفته وعلمه كما تقدم ( فهذا ) أى الذى ذكرناه مما يتعين عينا ( أحد مايلزم العبد تحصيله من العلم لامحالة ) أى لاتحول ولا انفكاك عن تحصيله ( وتعين فرضه بحيث لابد لك من ذلك ) أى التحصيل .

﴿ تنبيه ﴾ اعلم رحمك الله أنه لابد لسالك طريق الآخرة من الجمع بين الشريعة والطريقة والحقيقة وعدم التعطيل لشيء منها ، وذلك لأن الحقيقة بلا شريعة باطلة ، والشريعة بلا حقيقة عاطلة . مثال الأول أن تقول لشخص صلّ ، فيقول لك لاحاجة إلى الصلاة لأن السعيد سعيد فى الأزل ، فإن كنت سعيدا دخلت الجنة وإن لم أصلّ وإلا دخلت النار وإن صليت . ومثال الثانى من يعمل لأجل الجنة ويقول لولا عملى لما دخلتها فهذه شريعة عاطلة ؛ ومعنى كونها عاطلة أن وجودها كعدمها لأن دخول الجنة بفضل الله للحديث الشريف ، والشريعة هي المأمورات التى أمر الله بها ، والمنهيات التى نهى الله عنها ، والطريقة الجرى على ذلك والعمل به ، والحقيقة نظره لبواطن الأمور وشهود الفعل من الله ، فقوله تعالى تعليما لعباده « إياك نعبد » مراعى فيه ظاهر الشريعة لأنه منظور فيه إلى الكسب الظاهرى الذى هو فعل العبد . وقوله « وإياك نستعين » مراعى فيه الحقيقة ، لأن فيه تبرى العبد من حوله وقوته وشهود أن الفعل لايتم إلا بمعونة الله وقوته .

والحاصل يجب على العبد أن يعمل بجميع ماأمره الله به ويجتنب جميع مانهاه الله عنه لكنه لايلاحظ أن عمله هو الذى ينجيه وهو الذى يدخله الجنة ولولاه لماحصل له ذلك بل يلاحظ بالعمل امتثال أمر الله بقوله « فاعبد الله مخلصا له الدين » وإن أثابه على عمله فهو محض فضل منه سبحانه وتعالى ، وإن عاقبه فمحض عدل منه سبحانه وتعالى و« لايسئل عما يفعل » . قال الحسن البصرى : علم الحقيقة ترك ملاحظة ثواب العمل لاترك العمل . وقال على كرم الله وجهه : من ظن أنه بدون الجهد يصل إلى الجنة فهو متمنّ ، ومن ظن أنه يبذل الجهد يصل إلى الجنة فهو متعنّ . ( فان قلت ) لى ( فهل يفترض على أن أتعلم من علم التوحيد ماأنقض ) أى ماأبطل وأفسد ( به ) من إثبات النسبة الايجابية أو السلبية بين شيئين بطريق الاستدلال وتحرير الأدلة والتحقيق فيها ( جميع ملل الكفر وألزمهم ) أى

حُجَّةَ الْإِسْلَامِ وَأَنْقَضُ بِهِ جَمِيعَ الْبِدَعِ وَأَلْزَمُهُمْ حُجَّةَ السُّنَّةِ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذَا فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ ، وَإِنَّمَا يَتَعَيَّنُ عَلَيْكَ مَا تُصَحِّحُ بِهِ اعْتِقَادَكَ فِي أُصُولِ الدِّينِ لَا غَيْرُ

---

ألزم الكفار (حجة الإسلام) أى حجة للاسلام ، وهى الدليل ، وهو مايتوصل بصحيح النظر فيه إلى علم أو ظن فالمراد الأدلة الدينية التى أثبتت أمرا دينيا سواء كان علميا أو اعتقاديا فدخل فيها بعض الأدلة العقلية كقولنا : العالم متغير وكل متغير حادث ، فهذا دليل دينى مع أنه عقلى ، وسمى الدليل حجة لأنه يحج به الخصم ولذا سميت البينة حجة (و) ما (أنقض به جميع) ملل (البدع) الحادثة فأحتاج إلى معرفة أدلة تفصيلية عقلية وسمعية (وألزمهم حجة السنة) أى دليل أهل السنة الذى استدلوا به على وجوده تعالى وحدوث العالم (ف) أقول لك (اعلم) أيها السائل المريد للخير (أن هذا) أى التعلم لنقض المذكورات (فرض على الكفاية) بمعنى أنه إذا قام به البعض سقط أى حرجه عن الباقين : أى باقى المخاطبين بذلك على تفصيل ذكروه فى محله .

والحاصل أن فرض الكفاية لم ينظر للفاعل بالخصوص ، بل النظر إلى حصول ذلك الفرض من أى شخص كان كما أفاده بعض المحققين . قال الماوردى : وإنما يتوجه فرض الكفاية فى العلم على كل مكلف حر ذكر غير بليد مكفى ولو فاسقا لكن يسقط به إذ لاتقبل فتواه ، ويسقط بالعبد والمرأة على أحد وجهين وإن لم يدخلا .

واختلفوا هل الأفضل القائم بفرض العين أو القائم بفرض الكفاية . قال ابن السبكى فى جمع الجوامع : وزعمه ، يعنى فرض الكفاية الأستاذ وإمام الحرمين وأبوه أفضل من العين . قال شارحه المحقق لأنه يصان بقيام البعض به الكافى فى الخروج عن عهدته جميع المكلفين عن الاثم المرتب على تركهم له ، وفرض العين إنما يصان بالقيام به عن الاثم القائم به فقط ، والمتبادر إلى الأذهان وإن لم يتعرضوا له فيما علمت أن فرض العين أفضل لشدة اعتناء الشارع به بقصد حصوله من كل مكلف فى الأغلب انتهى ، وجرى العلامة ابن حجر فى التحفة على الأول وأقره فى الروضة خلافا للمحلى والمغنى والنهاية كما قاله الشيخ عبد الحميد الداغشتانى (وإنما يتعين عليك ماتصحح به اعتقادك فى أصول الدين) الذى تقدم ذكره (لاغير) أى لاغير المصحح لاعتقادك من سائر العلوم المدونة لأنه إما حرام أو مكروه أو مباح ، فالأول كالفلسفة والشعبذة والتنجيم والرمل وعلوم الطبائعيين ، وكذا السحر على الصحيح . والثانى كأشعار المولدين المشتملة على الغزل والبطالة . والثالث كأشعارهم التى ليس فيها سخف ولا شىء مما يكره ، كذا قاله الشمس الرملى فى شرحه على الزبد . والحق أن دخول لاعلى غير جائز خلافا لمن قال إن غير لاتنفى إلا بليس ، ويدل للجواز قول الشاعر من بحر الطويل :

جوابا به تنجو اعتمد فوربنا ... لعن عمل أسلفت لاغير تسئل

وَكَذٰلِكَ لاَ يَتَعَيَّنُ عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ فُرُوعِ عِلْمِ التَّوْحِيدِ وَدَقَائِقِهِ وَالإِتْيَانُ عَلَى جَمِيعِ مَسَائِلِهِ ، نَعَمْ إِنْ وَرَدَتْ عَلَيْكَ شُبْهَةٌ فِى أُصُولِ الدِّينِ تَخَافُ أَنْ تَقْدَحَ فِى اعْتِقَادِكَ فَيَتَعَيَّنُ عَلَيْكَ حَلُّ تِلْكَ الشُّبْهَةِ بِمَا أَمْكَنَ مِنَ الْكَلاَمِ الْمُقْنِعِ . وَإِيَّاكَ وَالْمُمَارَاةَ وَالْمُجَادَلَةَ

---

( وكذلك ) أى كما ذكر من فرض الكفاية كما قرره بعضهم ( لايتعين عليك معرفة فروع علم التوحيد ) أى الذى هو عبارة عن صناعة الكلام ، ومعرفة طريق المجادلة مع الخصوم ، والاحاطة بمناقضة أدلتهم إجمالا وتفصيلا ( ودقائقه ) ومثلها المسائل التي لاتعم بها البلوى كما قاله الشمس الرملى (و) لايتعين ( الإتيان على جميع مسائله ) أى علم التوحيد ( نعم ) لايتعين عليك معرفة الفروع والمسائل ( إن وردت ) أى جاءت (عليك شبهة) أى شبهة اعتقاد وهى مايظن دليلا وليس بدليل ، سميت بذلك لاشتباه أمرها على الناظر ، والمراد بها هنا مايشمل الاعتراضات كالتى أوردها الملحدة على دليل أهل السنة الذى استدلوا به على حدوث العالم كما هو مقرر فى محله ( فى أصول الدين تخاف ) من ( أن تقدح ) أى تضرّ ( فى اعتقادك فيتعين عليك حل تلك الشبهة ) أى وردها ( بما أمكن من ) علم ( الكلام المقنع ) بوزن مكرم اسم فاعل من أقنع الرباعى : أي المكفى أو مصدر ميمى بمعنى قناعة مبالغة على حد زيد عدل وذلك لأن مقصود علم الكلام كما قاله المصنف رحمه الله : حفظ المعتقدات التى نقلها أهل السنة والجماعة من السلف الصالحين لاغير وما وراء ذلك فانه طلب لكشف حقائق الأمور ، وإفشاء سر الربوبية من غير طريقه : من إيراد نقل البرهان والحجج ، وجلب الكلام من كل جهة إلى أن قال رحمه الله : والاقتصاد فيه مايبلغ قدر مائة ورقة فى المقدار وهو الذى أو ردناه فى كتاب [الاقتصاد فى الاعتقاد] ويحتاج إليه لمناظرة مبتدع ومعارضة بدعته بما يفسدها وينزعها عن قلب العامى ، وذلك لاينفع إلا مع العوام قبل اشتداد تعصبهم فى الدين : قال العلامة مرتضى : وأما الآن فاشتغالهم الكثير فى المختصرة على أم البراهين لمحمد ابن يوسف السنوسى ، وهو مختصر مفيد ، وعلي شروحه للمصنف والشهاب القاسمى ، وعلي الجوهرة للشيخ ابراهيم اللقانى . وشروحه الثلاثة ، وشروح ولده الشيخ عبد السلام ( وإياك ) أى احذر تلاقيك ( والمماراة ) أى المعارضة والمخاصمة ( والمجادلة ) هذا من عطف الأعمّ على الأخصّ لأن المراد هو الطعن فى القول والتزييف له والتصغير لقائله ، وليس فى ذلك غرض سوى ذلك ولا يكون المراء إلا اعتراضا على كلام سبق بخلاف الجدال فإنه يكون ابتداء واعتراضا ويتعلق باظهار المذاهب وتقريرها كما أفاده بعضهم خلافا للعلامة محمد بن عمير البقرى حيث قال : عطف المجادلة على المماراة عطف تفسير ، والجدال مقابلة الحجة بالحجة ، والمجادلة : المناظرة والمخاصمة ، والمذموم : الجدالُ لأجل المغالبة . وأما الجدال لإظهار الحق فهو محمود إن كان مبتغيا به وجه الله تعالى كما يأتى ؛ والمراء تقدم أنه تفسير للجدال . قال القرطبى فى مختصر الصحاح : ماريته

فَإِنَّهَا دَاءٌ مَحْضٌ لَا دَوَاءَ لَهُ ، فَاحْتَرِزْ مِنْهُ جُهْدَكَ فَإِنَّ مَنِ ارْتَدَاهُ لَمْ يُفْلِحْ إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَهُ اللهُ تَعَالَى بِرَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ . ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا كَانَ فِى كُلِّ قُطْرٍ دَاعٍ مِنْ دُعَاةِ أَهْلِ السُّنَّةِ يَحُلُّ الشُّبَهَ وَيَرُدُّ عَلَى أَهْلِ الْبِدَعِ وَيَسْتَقِلُّ بِهٰذَا الْعِلْمِ وَيُصَفِّى قُلُوبَ أَهْلِ الْحَقِّ عَنْ وَسَاوِسِ الْمُبْتَدِعَةِ ،

---

أماريه مراء : جادلته اهـ . فعلم من هذا أن الجدال والمراء مترادفان فعطف أحدهما على الآخر من عطف المترادفين ( فإنها ) أى المماراة والمجادلة ( داء محض ) أى خالص ( لادواء له فاحترز منه ) أى اجتنب من الداء اجتناب السم القاتل ( جهدك ) أى فى طاقتك ، لأنه الذى رد الفقهاء كلهم وصرفهم بسببه إلى طلب المنافسة والإعجاب والكبر والمباهاة وغير ذلك مما بينه المصنف رحمه الله تعالى من غوائلها وآفاتها فى كتاب : ذم الغرور من إحيائه . وفى الحديث فى معنى قوله تعالى : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه » هم أهل الجدل الذين عناهم الله تعالى بقوله « فاحذرهم » وفى الحديث « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » ثم قرأ « ماضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون » قال المناوى : يعنى من ترك سبيل الهدى وركب سنن الضلال لم يمش حاله إلا بالجدل : أى الخصومة بالباطل . وقال القاضى فى تفسيره : المراد التعصب لتخريج المذاهب الفاسدة والعقائد الزائغة لا المناظرة لإظهار الحق واستكشاف الحال واستعلام ماليس معلوما عنده فإنه فرض كفاية خارج عما نطق به الحديث ( فان من ارتداه ) أى لبسه رداء ( لم يفلح ) أى لم يظفر بمقصوده ومثله من يحاول حية نظرا للين مجسها وحسن شكلها فيجعلها طوقا فى عنقه فتلدغه كما قاله الزبيدى ( إلا أن يتغمده الله تعالى ) أى يستره ويعمه ، والمراد منه لازمه وهو التعميم ( برحمته ) أى بإحسانه ( ولطفه ) أى رأفته ورفقه . قال الخطيب الشربينى: واللطف الرأفة ، والرفق وهو من الله تعالى التوفيق والعصمة . قال الجوهرى : الرأفة أشد الرحمة ، والرفق ضد العنف (ثم اعلم) أيها المخاطب ، وهى كلمة يؤتى بها للاعتناء بما بعدها وإنما قال رحمه الله تعالى اعلم ولم يقل اعرف اقتداء بقوله تعالى « فاعلم أنه لا إله إلا الله » ( أنه ) معمول اعلم والضمير للشأن وهو مافسر بجملة سواء كانت اسمية أو فعلية . قال فى الكافية :

ومضمر الشأن ضميرا فسرا   بجملة كأنه زيد سرى

( إذا كان فى كل قطر ) أى ناحية وجانب فهو بضم القاف والجمع أقطار ( داع ) أى مناد ومرشد إلى طريق الحق فى أهل تلك الناحية ( من دعاة أهل السنة يحل ) بضم الحاء وبابه رد كما فى المختار : أى يفتح ويفك ( الشبه ) بفتحتين جمع شبهة ( ويرد ) أى يدفع ( على أهل البدع ) والأهواء ( ويستقل ) أي يتحمل وينفرد ( بهذا العلم ) أى علم الكلام الذى ردهم به ( ويصفى ) بضم الياء : أى يخلص هذا الداعى ( قلوب أهل الحق ) بسبب ردهم ( عن وساوس المبتدعة )

فَقَدْ سَقَطَ الْفَرْضُ عَمَّنْ سِوَاهُ ، كَذَلِكَ لاَ يَلْزَمُكَ مِنْ مَعْرِفَةِ دَقَائِقِ عِلْمِ السِّرِّ وَجَمِيعِ شَرْحِ عَجَائِبِ الْقَلْبِ إِلاَّ مَا يُفْسِدُ عَلَيْكَ عِبَادَتَكَ ، فَيَجِبُ عَلَيْكَ مَعْرِفَتُهُ لِتَجْتَنِبَهُ ، وَمَا يَلْزَمُكَ فِعْلُهُ كَالإِخْلاَصِ وَالْحَمْدِ وَالشُّكْرِ وَالتَّوَكُّلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَيَلْزَمُكَ مَعْرِفَتُهُ لِتُؤَدِّيَهُ ، وَأَمَّا مَاسِوَاهُ فَلاَ . وَكَذَلِكَ لاَ يَلْزَمُكَ مَعْرِفَةُ سَائِرِ أَبْوَابِ الْفِقْهِ مِنَ الْبُيُوعِ وَالإِجَارَاتِ وَالنِّكَاحِ وَالطَّلاَقِ وَالْجِنَايَاتِ ، إِنَّمَا كُلُّ ذَلِكَ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ .

---

ودعاويهم المخترعة ( فقد سقط الفرض ) جواب إذا ( عمن سواه ) أى سوى الداعى من أهل القطر هذا معنى فرض الكفاية المذكور ( وكذلك ) أى مثل عدم التعين عليك فى معرفة فروع علم التوحيد ودقائقه كما أفاده بعضهم ( لا يلزمك من معرفة دقائق علم السر ) وذلك كشهود الأسماء والصفات وشهود الذات وأسرار القرآن وأسرار المنع والجواز والعلوم الغيبية التى لا تكسب من معلم وإنما تفهم من الله ( وجميع شرح عجائب القلب ) وقد أشبع الكلام عليها مصنفنا رحمه الله فى أول الجزء الثالث من الإحياء ( إلا ما يفسد عليك عبادتك فيجب عليك معرفته ) كالرياء والعجب والسمعة وغير ذلك من الصفات المهلكات ( لتجتنبه ) وإلا وقعت فى الهلاك ، لأن من لا يعرف الشرّ يقع فيه لامحالة كذا قيل ؛ وهذا المفسد للأعمال مما تكثر شعبه ويطول تفريعه وكل ذلك مما يغلب مسيس الحاجة إليه وتعم به البلوى فى سلوك طريق الآخرة ويأتى أكثر ذلك فى بابه من هذا الكتاب ( وما يلزمك فعله ) من الصفات المحمودة ( كالإخلاص والحمد والشكر ) لله ربّ العالمين ( والتوكل ) عليه ( ونحو ذلك ) كالتفويض والرضا والصبر ( فيلزمك معرفته لتؤديه ) أى تفعله بوجهه فتكون من الفائزين ( وأما ماسواه ) أى غير مايفسد عبادتك وما يلزمك فعله ( فلا ) تجب عليك معرفته بل هو فرض كفاية كما يأتى ( وكذلك لايلزمك ) أى لا تجب ( معرفة سائر أبواب الفقه ) أى باقيها أو جميعها من السؤر أو سور البلد كما أفاده ابن حجر ( من ) باب ( البيوع والإجارات والنكاح والطلاق والجنايات ، إنما كل ذلك ) أى المذكور من البيوع وما بعدها ، أى معرفتها ( فرض على الكفاية ) ومثل ذلك علم النحو وغيره من علوم العربية وأصول الفقه والحساب المضطر إليه فى المواريث وغير ذلك . وبحث الفخر الرازى أنه لايحصل فرض الكفاية فى اللغة والنحو إلا بمعرفة جمع يبلغون حد التواتر ، وعلله بأن القرآن متواتر ومعرفته متوقفة على معرفة اللغة فلا بد أن تثبت بالتواتر حتى يحصل الوثوق بقولهم فيما سبيله القطع ؛ ويرد بأن كتبها متواترة وتواتر الكتب معتد به كما صرحوا به ، فينبغى حصول فرضهما بمعرفة الآحاد كما اقتضاه إطلاقهم لتمكنهم من إثبات ما نوزع فيه من تلك الأصول بالقطع المستند فى كتب ذلك الفن كما

فَإِنْ قُلْتَ هٰذَا الْقَدْرُ مِنَ عِلْمِ التَّوْحِيدِ هَلْ يَحْصُلُ بِنَظَرِ الْإِنْسَانِ مِنْ غَيْرِ مُعَلِّمٍ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ الْأُسْتَاذَ فَاتِحٌ وَمُسَهِّلٌ وَالتَّحْصِيلُ مَعَهُ أَسْهَلُ وَأَرْوَحُ ، وَاللّٰهُ تَعَالَى بِفَضْلِهِ يَمْتَنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَيَكُونُ هُوَ مُعَلِّمَهُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ الَّتِي هِيَ عَقَبَةُ الْعِلْمِ عَقَبَةٌ كَئُودٌ وَلٰكِنْ بِهَا يُنَالُ الْمَطْلُوبُ وَالْمَقْصُودُ ، نَفْعُهَا كَثِيرٌ، وَقَطْعُهَا شَدِيدٌ ، وَخَطَرُهَا عَظِيمٌ ، كَمْ مَنْ عَدَلَ عَنْهَا فَضَلَّ ، وَكَمْ مَنْ سَلَكَهَا فَزَلَّ ، وَكَمْ مِن تَائِهٍ فِيهَا مُتَحَيِّرٌ ، وَكَمْ مِنْ حَبْرٍ مُنْقَطِعٍ ، وَكَمْ مِنْ سَالِكٍ قَطَعَهَا

---

قاله بعض المحققين نقلا عن شرح المنهاج لابن حجر ( فان قلت ) لى ( هـذا القدر ) الذى ذكرته ( من علم التوحيد هل يحصل بنظر الانسان ) أى فكره الموصل إليه ( من غير ) واسطة ( معلم ) أو لا يحصل ذلك ؟ (ق) أقول لك أيها السائل ( اعلم ) أرشدك الله أن هذا يختلف باختلاف الناس ، فقد تحصل لبعضهم معرفة العقائد بالقاء الله تعالى فى قلبه بدون نظر واستدلال بنوع يسر وسهل ، وقد لاتحصل له أصلا ، وقد تحصل لبعض آخر بنوع عسر فى زمان طويل . وبالجملة ( إن الأستاذ ) أى المعلم للعلوم ، وأصل معنى الأستاذ الماهر بالشىء ، وهى كلمة أعجمية ، لأن السين والذال لا يجتمعان فى كلمة عربية وهمزته مضمومة كما أفاده فى المصباح ( فاتح ) للمريد ( ومسهل ) له ( والتحصيل ) أى تحصيل علم التوحيد وغيره ( معه ) أى مع إرشاد الأستاذ ( أسهل ) من غير إرشاده (وأروح) أى أعون للراحة للمتعلم ( والله تعالى بفضله يمتنّ على من يشاء من عباده ) بأن ألهمه الله تعالى معرفة العقائد بدون معلم كما وقع لبعض الخواص ( فيكون هو معلمهم سبحانه وتعالى . ثم اعلم أن هذه العقبة ) العظيمة لأنها مدار الكل ( التي هى عقبة العلم عقبة كئود ) أى صعبة المسالك (ولكن بها ) أى بقطعها ومجاوزتها ( ينال المطلوب والمقصود ) وهو الخلاص والعبادة ( نفعها كثير وقطعها شديد وخطرها عظيم ، كم من ) أى شخص ( عدل ) أى تجاوز ( عنها ) أى هـذه العقبة ، يعنى لم يتعلم من العلم ( فضل ) أى ضاع وهلك ولم يهتد للصواب ( وكم من سلكها ) من غير اجتهاد واحتياط ( فزل ) قدمه فى المسلك ( وكم من تائه ) أى ضالّ عن الطريق ، هو اسم فاعل من تاه الإنسان في المفازة يتيه تيها : ضل عن الطريق ، كذا فى المصباح ( فيها متحير ) أى الذى لم يهتد لوجهه ( وكم من حسير ) أى ضعيف متلهف . وفى نسخة : وكم من حائر ، وفى المختار : حار يحار حيرة وحيرا بسكون الياء فيهما تحير فى أمره فهو حيران وقوم حيارى ، وحيره فتحير ورجل حائر بائر إذا لم يتجه لشىء ، وفى نسخة : وكم من جسير بالجيم ، وفى المختار جسر على كذا أقدم يجسر بالضم جسارة بالفتح وتجاسر أيضا ، والجسور بالفتح : المقـدام اهـ . كما أفاده فى سراج السالكين ( منقطع ) عن الوصول إلى مقصوده وهو باق فى هذه العقبة ( وكم من سالك قطعها ) بتوفيق الله

فِى مُدَّةٍ يَسِيرَةٍ وَآخَرُ مُتَرَدِّدٌ فِيهَا سَبْعِينَ سَنَةً ، وَالْأَمْرُ كُلُّهُ بِيَدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَمَّا نَفْعُهُ فَعَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ شِدَّةِ الْحَاجَةِ لِلْعَبْدِ إِلَيْهِ وَبِنَاءِ أَمْرِ الْعِبَادَةِ كُلِّهِ عَلَيْهِ لَاسِيَّمَا عِلْمُ التَّوْحِيدِ وَعِلْمُ السِّرِّ .

---

وتأييده ( فى مدة يسيرة ، وآخر متردد فيها سبعين سنة والأمر كله ) من إسراع السالك وعدمه وسلامته وعدم ذلك ( بيد الله ) أى بقدرته (عز وجل) ثم فصل المصنف رحمه الله القول المذكور بعد الاجمال بقوله ( أما نفعه ) أى العلم ( فعلى ماذكرنا ) أى الذى ذكرناه ( من شدة الحاجة للعبد إليه و ) من ( بناء أمر العبادة كله عليه ) لأن العمل لايسمى عبادة إلا بالعلم ( لاسيما علم التوحيد ) أى إثبات الوحدانية لله سبحانه وتعالى ( وعلم السر ) أى علم دقائق آفات الأعمال وأحوال القلب كما قرره بعضهم .

﴿ تنبيه ﴾ لامن لاسيما نافية للجنس ، وسى كمثل وزنا ومعنى اسمها ,وخبرها محذوف وجوبا أى ثابت هذا هو المشهور ، وقيل إن مافى حالة رفع الاسم بعدها خبرها ورد بأنه يلزم عليه كف سىّ عن الإضافة من غير كاف ومانع ، وأصله سوى بكسر فسكون فعينه واو ، ودليله قولهم فى تصريف مادته تساويا تساوينا ومتساويان وتثنيته سيان ، واستغنوا بتثنيته عن تثنية سواء فلم يقولوا سوءآن إلا شاذا كقوله :

فيارب إن لم تجعل الحب بيننا سواءين فاجعل لى على حبها جلدا

فقلبت الواو من سوى ياء لاجتماعها مع الياء وسبق أحدهما بالسكون وأدغمت فى الياء ، ويجوز فى الاسم الواقع بعد ماالجر والرفع مطلقا : أى نكرة أو معرفة والنصب إن كان نكرة ، وقد روى بالأوجه الثلاثة قول امرئ القيس من بحر الطويل :

ألا رب يوم صالح لك منهما ولا سيما يوم بدارة جلجل

والجر أرجحها ، وهو على إضافة سى إليه ، وما زائدة بينهما مثلها فى « أيما الأجلين » . وأما الرفع فهو على أنه خبر لمبتدأ محذوف وما موصولة والجملة بعدها صلة لامحل لها من الإعراب أو نكرة موصوفة بالجملة بعدها : أى فهى فى محل جر والتقدير على اللف والنشر المرتب ولا مثل الذى هو علم التوحيد ولا مثل شيء هو علم التوحيد وما مضاف إليه فعلى كل من وجهى الجر والرفع تكون فتحة سى فتحة إعراب ، لأن اسم لاالنافية للجنس إذاكان مضافا يكون منصوبا ، وأما نصب النكرة بعدها فعلى التمييز وماكافة عن الإضافة والفتحة فتحة بناء مثلها فى لارجل هذا نصب النكرة بعدها ، وأما المعرفة فلا يجوز نصبها عند الجمهور وجوز بعضهم نصبها بجعل ماكافة ولا سيما بمنزلة إلا الاستثنائية فما بعدها منصوب على الاستثناء كما نقله فى حواشى الأشمونى ، وقد نظم بعضهم حاصل ماذكر بقوله :

وما يلى لاسيما إن نكرا فاجرر أو ارفع ثم نصبه اذكرا
فى الجر مازيدت وفى رفع ألف وصل لها قل وتنكير وصف

فَلَقَدْ رُوِيَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : يَا دَاوُدُ تَعَلَّمِ الْعِلْمَ النَّافِعَ ، فَقَالَ إِلٰهِي : وَمَا الْعِلْمُ النَّافِعُ ؟ فَقَالَ : أَنْ تَعْرِفَ جَلَالِي وَعَظَمَتِي وَكِبْرِيَائِي وَكَمَالَ قُدْرَتِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِنَّ هٰذَا الَّذِي يُقَرِّبُكَ إِلَيَّ .

---

وعند رفع مبتدأ قدر وفى ... رفع وجر أعربن سى تفى
وانصب مميزا وقل لاسيما ... يوم أحوال ثلاث فاعلما
والنصب إن يعرف اسم فامنعا ... وبعد سىّ جملة فوقعا
أجاز ذا الرضى ولا تحذف لا ... من سيما وسى خفف تفضلا
وامنع على الصحيح الاستثنا بها ... ثم الصلاة للنبى ذى إليها

(فلقد روى أن الله تعالى أوحى إلى داود) بن إيشا (عليه السلام فقال : يا داود تعلم العلم النافع فقال) داود يا (إلهى وما العلم النافع ؟ فقال) جل وعز هو (أن تعرف جلالى) أى اتصافى بصفة الكمال جلالية وجمالية ، وذلك لأنها من الصفات الجامعة وهو المراد هنا ، وقيل يطلق الجلال على مايقابل الجمال كقولهم . هذه الصفة صفة جلال وهذه الصفة صفة جمال ، فيكون المراد بصفة الجلال الصفة الدالة على البطش والقهر مثلا كجبار وقهار ومنتقم ، والمراد بصفة الجمال الصفة الدالة على البسط كباسط ورحمن وغفور ، إلى غير ذلك كما أفاده الدسوقى (وعظمتى) أى عظمة قدرى عن الحد والمقدار . قال السيد مرتضى : العظمة كون الشيء فى نفسه كاملا شريفا مستغنيا (وكبريائى) عن مشاهدة الحواس وإدراك العقول ؛ والكبرياء كناية عن كمال الذات ، وأعنى بكمال الذات كمال الوجود وكمال الوجود يرجع إلى الشيئين : أحدهما دوامه أزلا وأبدا . والثانى أن وجوده هو الوجود الذى يصدر عنه وجود كل موجود ، كذا قاله السيد مرتضى . وقال الشيخ شرف الدين التلمسانى رحمه الله تعالى قال القاضى : وهو مشعر بثبوت جميع الصفات النفسية والمعنوية وانتفاء النقائص . قال عليه الصلاة والسلام يقول الله تعالى : «الكبرياء ردائى والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحدا منهما قذفته فى النار» كذا فى الجمل (و) أن تعرف (كمال قدرتى على كل شىء) من الممكنات (فإن هذا) أى المذكور من المعرفة هو (الذى يقربك إلىّ) أى قربا معنويا ، وهذا الحديث على أن العلم والمعرفة متحدان وهو الأصح كما قاله الشرقاوى فى شرحه على السنوسية خلافا لصاحب البصائر فانه فرق بين العلم والمعرفة حيث قال والفرق بينهما عند المحققين أن المعرفة هى العلم الذى يقوم العالم بموجبه ومقتضاه فلا يطلقون المعرفة على مدلول العلم وحده ، بل لا يصفون بالمعرفة إلا من كان عالما بالله وبالطريق الموصل إليه وبآفاتها وقواطعها وله حال مع الله يشهد له بالمعرفة ، فالعارف عندهم من عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله ، ثم صدق الله فى معاملاته ، ثم أخلص له فى عقوده ونياته ، ثم انسلخ من أخلاقه الرديئة وآفاته ، ثم تطهر من أوساخه وأدرانه ومخالفاته ، ثم صبر على أحكامه فى نعمه وبلياته ، ثم دعا الله على بصيرة بدينه وإيمانه ، ثم جرد

وَعَنْ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ أَنَّهُ قَالَ : مَا يَسُرُّنِي أَنْ لَوْ مِتُّ طِفْلاً وَأُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ وَلَمْ أَكْبَرْ فَأَعْرِفَ رَبِّي ، فَإِنَّ أَعْلَمَ النَّاسِ بِاللهِ أَشَدُّهُمْ خَشْيَةً وَأَكْثَرُهُمْ عِبَادَةً وَأَحْسَنُهُمْ فِي اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَصِيحَةً .

---

الدعوة إليه وحده بما جاء به رسول الله صلي الله عليه وسلم ولم يشهد بآراء الرجال وأذواقهم ومواجيدهم ومقايسهم ومعقولاتهم ولم يزن بها ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهذا الذى يستحق اسم العارف على الحقيقة ، وإذا سمى به غيره فعلى الدعوى والاستعارة انتهى . وهذا المذكور هو العلم النافع . وأما الذى أكب الناس عليه وسموه علما فهو فضول لا يعنيهم بل يضرهم فى الدين وذلك كعلم السحر والنجوم والرمل ، وبالجملة إن العلم النافع المتفق عليه فيما سلف وخلف هو العلم الذى يؤدى صاحبه إلى الخوف والخشية وملازمة التواضع والذلة والتخلق بأخلاق الإيمان وتوافق الأسرار والاعلان إلى ما يتبع ذلك من بغض الدنيا والزهادة فيها وإيثار الآخرة عليها والموالاة فى الله والمعاداة فيه والحرص على التفطن للأسباب الباعثة له على الاستقامة ولزوم الأدب بين يدى الله فيراعيها حفظا وطلبا ومعرفة الأسباب المضادة له عن ذلك فيرفضها رفضا وهربا إلى غير ذلك من الصفات العلية والمناحى السنية ، فبهذا كله يحصل له فوائد العلم وثمراته الدنيوية والأخروية ؛ فاذا خلا طالب العلم عنها أو عن بعضها ، فإن كان ما يطلبه علما حقيقيا كان حجة عليه ، وإن كان رسميا كان وبالا واصلا إليه والعياذ بالله من ذلك ، كذا قاله العلامة الرندى (و) روى (عن علىّ) بن أبى طالب (كرم الله وجهه) أى ذاته فهو من إطلاق الجزء وإرادة الكل وخصّ الوجه لأنه أشرف الأعضاء كما هو ظاهر ؛ وإنما يقال فى حقه كرم الله وجهه لأنه لم يسجد لصنم قط مع إسلامه صغيرا ، فلا يرد أبو بكر رضى الله عنه مع أنه لم يسجد لصنم أيضاً . ويقال فى حقه رضى الله عنه لا كرم الله وجهه لأنه أسلم كبيرا كما أفاده العلامة العنانى . وقيل إنما قيل فيه : أى فى علىّ ذلك : أى كرم الله وجهه لأنه لم ير عورته قطّ (أنه قال : ما يسرنى) بضم السين : أى ما يفرحنى (أن لو مت طفلا) أى صغيرا فاعل يسرنى (وأدخلت الجنة) بضم الهمزة : أى أدخلنيها ربى (ولم أكبر) بالفتح من كبر فى سنه كعلم . وأما كبر يكبر بالضم ففى القدر (فأعرف ربى) أى فيفوتنى معرفة ربى وذلك مما لا أحب أصلا (فان أعلم الناس بالله أشدهم خشية) له (وأكثرهم عبادة وأحسنهم فى الله) أى لأجله (سبحانه وتعالى) لا لغرض من الأغراض الفاسدة (نصيحة) أى إرادة الخير للعباد ، ويدل على هذا قوله تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وقوله صلى الله عليه وسلم « أنا أعرفكم بالله وأشدّكم لله خشية » كما قاله أحمد بن عاصم . وقال آخر : من عرف الله ضاقت عليه الأرض بسعتها . وقال غيره : من عرف الله اتسع عليه كل ضيق ، ولا تنافى بين هذين الكلامين فإنه يضيق عليه كل مكان لا تساعه فيه على شأنه ومطلوبه ويتسع له ما ضاق على غيره لأنه ليس فيه ولا هو مساكن له بقلبه ، فقلبه غير محبوس فيه . والأول بداية المعرفة

وَأَمَّا شِدَّتُهَا فَابْذُلْ نَفْسَكَ فِى الْإِخْلَاصِ فِى طَلَبِ الْعِلْمِ وَلْيَكُنِ الطَّلَبُ طَلَبَ دِرَايَةٍ لَا طَلَبَ رِوَايَةٍ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْخَطَرَ عَظِيمٌ فَمَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ وَيُجَالِسَ بِهِ الْأُمَرَاءَ وَيُبَاهِيَ بِهِ النُّظَرَاءَ وَيَتَصَيَّدَ بِهِ الْحُطَامَ

---

والثاني فى غايتها التى يصل إليها العبد . وقال آخر : من عرف الله تعالى صفا له العيش وطابت له الحياة وهابه كل شىء وذهب عنه خوف المخلوقين وأنس بالله . وقال غيره : من عرف الله قرت عينه بالله وقرت به كل عين ، ومن لم يعرف الله تقطع قلبه على الدنيا حسرات ، ومن عرف الله لم تبق له رغبة فيما سواه . وعلامة العارف أن يكون قلبه مرآة إذا نظر فيها رأى فيها الغيب الذى دعى إلى الايمان به فعلى قدر جلاء تلك المرآة يتراءى له فيها سبحانه والدار الآخرة والجنة والنار والملائكة والرسل كما قيل من بحر الوافر :

إذا سكن الغدير على صفاء فيشبه أن يحركه النسيم
بدت فيه السماء بلا مراء كذاك الشمس تبدو والنجوم
كذاك قلوب أرباب التجلى يرى فى صفوها الله العظيم

كذا أفاده الزبيدى ( وأما شدتها ) أى عقبة العلم فهى كثرة الآفات والعوائق ومن ذلك عدم الاخلاص فى طلبه وحينئذ ( ف)ا جتهد و ( ابذل ) أى أعط (نفسك) ظاهرا وباطنا ( فى الإخلاص فى طلب العلم وليكن الطلب طلب دراية ) أى معرفة ، بأن تنوى بتحصيله إزالة الجهل عن نفسك وعن سائر الجهال ، وإحياء الدين ، وإبقاء الاسلام بالعلم والدار الآخرة ، ورضا الله تعالى ، وتنوى بذلك الشكر على نعمة العقل ونعمة صحة البدن كما أفاده بعضهم ( لا طلب ) مجرد ( رواية ) أى الحمل والنقل من العلماء لتخبر الناس ، ولذا قيل : كن عالما ولا تكن وعاء للعلم ، وإن كانت نيتك بالطلب كذلك أى الدراية والهداية ، فان الملائكة تبسط لك أجنحتها إذا مشيت ، وحيتان البحر تستغفر لك إذا سعيت وعلامة ذلك القصد أن يكون بحث العلم فى الخلاء أحب اليك من أن يكون فى الملأ ، وألا تفرق بين أن ينكشف الحق على لسانك أو على لسان غيرك ، كذا فى شرح البداية للنووى الجاوى . وأخرج أبو نعيم فى الحلية من طريق عون بن عبد الله بن مسعود قال : قال عبد الله بن مسعود : ليس العلم بكثرة الرواية لكن الخشية . ( واعلم أن الخطر ) أى الخوف فى عقبة العلم ( عظيم فمن طلب العلم ليصرف ) أى يميل ويطلب ( به وجوه الناس ) أى شرفاءهم بالإقبال ( إليه ويجالس به ) أى بسبب العلم ( الأمراء ) جمع أمير مع طلب الإكرام عندهم ( ويباهى ) أى يفاخر ( به النظراء ) أى الأمثال جمع نظير وهو من يساويك فى الدرجة كما أفاده بعضهم ( ويتصيد ) بفتح الياء والصاد مع الياء المشددة كما فى القاموس : وهو فى الأصل الخروج لطلب الصيد ، والمراد هنا أنه يطلب ( به ) أى بالعلم ( الحطام ) بالضم : أى متاع الدنيا

فَتِجَارَتُهُ بَائِرَةٌ وَصَفْقَتُهُ خَاسِرَةٌ . قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّم : « مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُفَاخِرَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ » .

قَالَ أَبُو يَزِيدَ الْبَسْطَامِي رَحِمَهُ اللهُ : عَمِلْتُ فِي الْمُجَاهَدَةِ ثَلَاثِينَ سَنَةً فَمَا وَجَدْتُ شَيْئاً أَشَدَّ عَلَيَّ مِنَ الْعِلْمِ وَخَطَرِهِ . وَإِيَّاكَ أَنْ يُزَيِّنَ لَكَ الشَّيْطَانُ فَيَقُولَ لَكَ : إِذَا كَانَ قَدْ وَرَدَ هٰذَا الْخَطَرُ الْعَظِيمُ فِي الْعِلْمِ فَتَرْكُهُ أَوْلَى ، فَلَا تَظُنَّنَّ ذٰلِكَ فَلَقَدْ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم أَنَّهُ قَالَ : « أُطْلِعْتُ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ

---

( فتجارته ) أى تصرفه فيه ( بائرة ) أى هالكة لا خير فيها ، وهذا كناية عن عدم النفع بذلك العلم ( وصفقته ) أى بيعته ( خاسرة ) أى ناقصة ، لأن الدنيا فى مقابلة ثواب الآخرة لا قيمة لها لحقارتها وخستها ( قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من طلب العلم ) أى لا لله بل ( ليفاخر به ( العلماء أو ليمارى ) أى يجادل ( به السفهاء ) الجهال جمع سفيه : قليل العقل ، والمراد به الجاهل كما تقرر ( أو ليصرف به ) أى يميل بالعلم ( وجوه الناس ) أى ساداتهم وشرفاءهم كما فى المصباح . لكن المراد هنا كما قاله صاحب السراج العوام ، أو الطلبة بالإقبال ( إليه ) أى ليعظموه أو يعطوا المال به ( أدخله الله النار ) . الظاهر أن هذا إخبار بأنه استحق دخول النار ، ويحتمل أن يكون جملة دعائية ، كذا فى سراج السالكين ، وهذا الحديث رواه الترمذى عن كعب بن مالك الأنصارى الخزرجى ، ورواه ابن ماجه عن ابن عمر ( قال ) سلطان العارفين ( أبو يزيد ) طيفور بن عيسى ( البسطامى ) بالفتح نسبة إلى بسطام : بلد بطريق نيسابور ( رحمه الله ) تعالى رحمة واسعة ؛ وكان جده مجوسيا أسلم ، وكانوا ثلاثة إخوة : آدم وطيفور وعلى ، وكلهم كانوا زهادا عبادا ، وأبو يزيد أجدهم حالا . قيل مات سنة إحدى وستين ومائتين ، وقيل أربع وثلاثين ومائتين ، ذكره القشيرى فى الرسالة ( عملت فى المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئا أشد على من العلم وخطره ) أى خطر متابعته بالأعمال لأنهما لا يتمان ولا يكملان للعبد إلا بمخالفة هواه واجتهاده فى تقواه ، وفى ذلك من المشقة ما لا يخفى ، لا سيما العلم المتعلق بالقلب من الرياء والعجب والكبر وغيرها من الأخلاق الذميمة ، والورع والزهد والإخلاص وغيرها من الأخلاق الحميدة كما ذكره شيخ الإسلام زكريا . قال المصنف رحمه الله تعالى ( وإياك ) أى احذر ( أن يزين لك الشيطان فيقول لك إذا كان ) أى الشأن ( قد ورد هذا الخطر العظيم فى العلم ) أى من قول أبى يزيد المذكور ( فتركه ) أى العلم ( أولى ) أى أفضل من طلبه . قال رحمه الله تعالى ( فلا تظنن ذلك ) أى ترك العلم أولى ( فلقد روى عن ) سيدنا ( رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : أطلعت ) بضم الهمزة وكسر اللام : أى أطلعنى ربى ( ليلة المعراج )

عَلَى النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ مِنَ الْمَالِ ؟ قَالَ لاَ : بَلْ مِنَ الْعِلْمِ فَمَنْ لاَ يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ لاَ يَتَأَتَّى لَهُ أَحْكَامُ الْعِبَادَاتِ وَالْقِيَامُ بِحُقُوقِهَا كَمَا يَنْبَغِي ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلاً عَبَدَ اللهَ سُبْحَانَهُ عِبَادَةَ مَلاَئِكَةِ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مِنَ الْخَاسِرِينَ . فَشَمِّرْ

---

أى الإسراء وكان يقظة بالروح والجسد من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بشهادة الكتاب والسنة وإجماع القرن الثانى من الأمة ومن بعدهم ، ثم إلى السماء بالأحاديث المشهورة ، ومنها إلى الجنة ، ثم إلى المستوى أو العرش أو طرف العالم بخبر الواحد وذلك سنة إحدى عشر من البعثة ، وقيل قبل الهجرة بسنة ، قيل فى شهر ربيع الأول ، وقيل فى رمضان ، وقيل فى رجب وهو المشهور ، وعليه عمل الناس ، وكان ليلة الاثنين السابع والعشرين منه ، والقصة قد أفردت بالتأليف فلا نطيل هنا بذلك .

وفى السيرة الحلبية : أن صخرة بيت المقدس لما أراد جبريل عليه السلام أن يربط بها البراق لانت له وعادت كهيئة العجين فخرقها وربط البراق بها . قال الإمام أبو بكر بن العربى فى شرح الموطأ : إن صخرة بيت المقدس من عجائب الله تعالى فانها صخرة قائمة فى وسط المسجد الأقصى قد انقطعت من كل جهة لا يمسكها إلا الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، فأعلاها من جهة الجنوب قدم النبي صلى الله عليه وسلم حين صعد عليها ، ومن الجهة الأخرى أصابع الملائكة التى أمسكتها لما مالت ، وتحتها المغارة التى انفصلت من كل جهة فهى معلقة بين السماء والأرض ، وامتنعت لهيبتها من أن أدخل تحتها ، لأنى كنت أخاف أن تسقط على بسبب ذنوبى ، ثم بعد مدة دخلتها فرأيت العجب العجاب تمشى فى جوانبها من كل جهة ، فتراها منفصلة عن الأرض لا يتصل بها من الأرض شىء ولا بعض شىء ، وبعض الجهات أشد انفصالا من بعض ، كذا نقله بعض المحققين ( على النار فرأيت أكثر أهلها الفقراء قالوا ) أى الصحابة رضوان الله عليهم ( يا رسول الله من المال ) أى أيكون الفقر منه ( قال ) رسول الله صلى الله عليه وسلم ( لا ) أى لا يكون من ذلك ( بل من العلم ) أى المحمود منه كما هو ظاهر . قال المصنف رحمه الله تعالى (فمن لا يتعلم العلم لا يتأتى) أى لا يتيسر ولا يسهل ولايمكن (له إحكام العبادات) بكسر الهمزة : أى إتقانها وإثباتها ( و ) لا يتأتى ( القيام بحقوقها ) وشروطها (كما ينبغى ) أى على الوجه الذى ينبغى ( ولو أن رجلا عبد الله سبحانه عبادة ) بالنصب على نزع الخافض : أى كعبادة (ملائكة السموات) السبع ( بغير علم كان من الخاسرين ) أى الذين أتعبوا أنفسهم فى عمل يرجون به فضلا ، فضلوا هلاكا لأن عمله لا يسمى عبادة وطاعة حقيقة ، وإنما هو بحسب الصورة والظاهر ، وإلا فالعلم مدار العبادة ولولاه لم تكن كما علمت ( فشمر ) أى اجتهد وهيئ ، وفى نسخة فتشمر : أى تهيأ

فى طَلَبِ الْعِلْمِ بِالْبَحْثِ وَالتَّلْقِينِ وَالتَّدْرِيسِ وَاُجْتَنِبِ الْكَسَلَ وَالْمَلَالَ وَإِلاَّ فَأَنْتَ فى خَطَرِ الضَّلَالِ، وَالْعِيَاذُ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ .

( ثُمَّ جُمْلَةُ الْأَمْرِ ) أَنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ فى دَلَائِلِ صُنْعِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَمْعَنْتَ النَّظَرَ عَلِمْتَ أَنَّ لَكَ وَلَنَا إِلٰهًا قَادِرًا عَالِمًا حَيًّا مُرِيداً سَمِيعاً بَصِيرًا

---

(فى طلب العلم بالبحث) وهو فى الأصل النبش فى الأرض بعود ، والمراد به هنا التفتيش والتتبع فى العلم باثبات النسبة الإيجابية أو السلبية بين شيئين بطريق الاستدلال ( والتلقين والتدريس ، واجتنب الكسل) بفتحتين : أى التثاقل فإنه انحطاط عن الرتبة العلية (والملال) بفتح الميم : أى السآمة فى طلب العلم ( وإلا ) أى إن لم تشمر فيه ولم تجتنبها ( فأنت فى خطر الضلال والعياذ بالله عز وجل) من ذلك ؛ وبالجملة لا تكن عن العلوم قاعدا تاركا لها كسلا أو تكبرا عن تعلم العلم ممن دونك سنا أو أقل منك منزلة فى الدنيا ، فإن ذلك من الأمور القاطعة عن الخير ، الموقعة فى المهالك ، أعاذنا الله من ذلك ، بل جد واجتهد فى الطلب فإن العلم لا ينال إلا بالتعلم ، فشمر له عن ساعد الجد والاجتهاد ، وقم له على قدم العناية والسداد ، فإن ذلك من سبيل الرشاد ؛ فقد روى أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « متعلم كسلان » يعنى لا يجتهد فى طلب العلم « أفضل عند الله من سبعمائة عابد مجتهد » وقال صلى الله عليه وسلم « من طلب العلم وأدركه كان له كفلان من الأجر ، ومن طلب العلم ولم يدركه كان له كفل من الأجر » وقال عليه الصلاة والسلام « من كانت همته فى طلب العلم سمى فى السماء نبيا ، وكتب الله له بكل شعرة فى جسده ثواب نبى ، وكأنما أعتق بكل قدم رقبة ، وبنى الله له بكل عرق فى جسده مدينة فى الجنة ، ويدخل مع النبيين بغير حساب » . وقال بعضهم : لا يسود حاسد ، ولا ينال الخير راقد ، ولا يحصل العلوم قاعد ، ومن يئس من رحمة الله فهو جاحد ؛ فإن الله تعالى هو الوهاب ، يهب فى الساعة الواحدة من الخيرات لمن يشاء ما لا يهبه لغيره فى طول الزمان ، فنسأل الله تعالى أن يمن علينا بزيادة إحسانه وفضله ، وبعفوه وغفرانه ، وهو رءوف رحيم ، جواد كريم ، كذا قاله العلامة محمد بن عمر البقرى رحمه الله تعالى ( ثم جملة الأمر ) أى ثم أقول لك : حاصل الكلام على الأمر المقصود والمطلوب بعد ما تقدم من المقالة ( أنك إذا نظرت ) أى أعملت فكرك ( فى دلائل صنع الله عز وجل ) على وحدانيته ( وأمعنت النظر ) أى بالغت وأكثرت التأمل والتدبر ( علمت ) علما يقينا ( أن لك ولنا إلها ) أى معبودا بحق ( قادرا ) على كل شىء من الممكنات ( عالما ) بجميع الموجودات ، ومحيطا بكل المخلوقات على التفصيل ، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ( حيا ) بلا زوح كاملا مطلقا ( مريدا ) لأفعاله ، فلا موجود إلا هو مستند إلى مشيئته وصادر عن إرادته ، فهو المبتدئ المعيد ، الفعال لما يريد ( سميعا بصيرا ) بلا جارحة وحدقة ولا أذن ، لا يعزب عن رؤيته

مُتَكَلِّمًا مُنَزَّهًا عَنْ حُدُوثِ الْكَلَامِ وَالْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ مُقَدَّسًا عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَآفَةٍ لَا يُوصَفُ بِصِفَاتِ الْمُحْدَثِينَ ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَى الْمَخْلُوقِينَ وَلَا يُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ خَلْقِهِ وَلَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ وَلَا تَتَضَمَّنُهُ الْأَمَاكِنُ وَالْجِهَاتُ ،

---

هواجس الضمير ، وخفايا الفهم والتفكير ، ولا يشذ عن سمعه صوت دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء (متكلما) بكلام ليس بصوت ولا حرف ، بل بكلام قديم لا أول له ولا آخر له . وأما معنى قوله تعالى « وكلم الله موسى تكليما » : أى أسمعه الله كلامه القديم بجميع أعضائه من جميع الجهات ، وكان جبريل معه فلم يسمع ما كلم الله به موسى ؛ وسمع كلامه القديم أيضا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ، وليس الله فى مكان ولا جهة ، بل المكان للسامع الحادث ، نسمع كلامه القديم أيضا فى القيامة والجنة بغير صوت ولا حرف ولاقرب ولا بعد، كما نرى ذاته تعالى فى الآخرة من غير شبه ولا مثل ولا داخل الجنة ولا خارجا عنها (منزها) أى مبرأ (عن حدوث الكلام والعلم والإرادة ، مقدسا عن كل نقص وآفة لا يوصف) تعالى (بصفات المحدثين) بفتح الدال : أى من الأجسام والأعراض وغيرهما من صفات المخلوقين (ولا يجوزعليه ما يجوز على المخلوقين) أى من كل حركة وسكون ، بل هو تعالى قديم لم يزل ، أزلى ليس لوجوده أول ؛ بل هو أول كل شيء ، وقبل كل ميت وحى (ولا يشبه) جل وعز (شيئا من خلقه ولا يشبهه شيء) من خلقه والمشابهة تتحقق من الطرفين ، إذ العالم جواهر وأعراض ، والله تعالى خالقها كلها ، بل هو الحى القيوم الذى ليس كمثله شيء ، وكيف يشبه المخلوق خالقه والمقدور مقدره والمصور مصوره ، والأجسام والأعراض كلها من خلقه وصنعه ، فاستحال القضاء عليها بمماثلته ومشابهته . قال العلامة القارى فى أماليه :

وما التشبيه للرحمن وجها    فصن عن ذاك أصناف الأهالى

(ولا تتضمنه) أى لا تحتويه وفي نسخة ولا تضمه : أى لا تجمعه (الأماكن) جمع مكان (والجهات) أى ليست ذاته المقدسة في جهة من الجهات الست ولا في مكان من الأمكنة فإن الجهة وهى منتهى الإشارة ومقصد المتحرك بحركته من حيث حصوله ، فهى من ذوات الأوضاع المادية ، ومرجعها إلى نفس الأمكنة أو حدودها وأطرافها ، وهى تنقسم بحسب المشير إلى ستة إما فوق وإما أسفل وإما يمين أو شمال أو قدام أو خلف ، وهذه الجهات هو الذى خلقها وأحدثها بواسطة خلق الإنسان إذ خلق له طرفين: أحدهما يعتمد على الآخر ويسمى رجلا ، والآخر يقابله ويسمى رأسا فحدث اسم الفوق لما يلى جهة الرأس : أى معنى الفوق ما حاذى رأسه من جهة السماء ، واسم الأسفل لما يلى جهة الأرض مما يحاذى رجله ، وخلق للانسان اليدين وإحداهما أقوى من الأخرى فى الغالب فحدث اسم اليمين الأقوى : أى اليمين ما يحاذى أقوى يديه غالبا ، والشمال لما يقابله ، وتسمى الجهة التى تلى اليمين يمينا والأخرى شمالا ، وخلق له جانبين يبصر من أحدهما ويتحرك إليه ، فحدث له

وَلاَ تَحُلُّهُ الْحَوَادِثُ وَالآفَاتُ ، وَنَظَرْتُ فِى مُعْجِزَاتِ الرَّسُولِ صلى اللهُ عَليه وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَآيَاتِهِ وَأَعْلاَمِ نُبُوَّتِهِ عَلِمْتُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وَأَمِينُهُ عَلَى وَحْيِهِ

اسم القدام للجهة التى يتقدم إليها بالحركة واسم الخلف لما يقابلها ، فالجهات حادثة بحدوث الإنسان فقبل خلق العالم لم يكن فوق ولا تحت ، إذ لم يكن ثم حيوان فلم يكن ثم رأس ولا رجل ولاظهر وهى مع ذلك اعتبارية لا حقيقية لا تتبدل ، ولو لم يخلق الإنسان بهذه الخلقة المعروفة ، وكذا كل حادث ، بل خلق مستديرا كالكرة لم يكن لهذه الجهات وجود ألبتة ، فكيف كان تعالى فى الأزل مختصا بجهة والجهة حادثة ، وهو تعالى كان موجودا فى الأزل ولم يكن شىء من الموجودات ، لأن كل موجود سواه حادث ، ولذلك قال العلامة القارى فى أماليه :

نسمى الله شيئا لا كالاشيا وذات عن جهات الست خالى

وفى المواقف أن الرب تعالى لو كان فى جهة ومكان لزم قدم المكان ، وقد برهنا : أى معاشر أهل الحق أن لا قديم سوى الله تعالى ، وعليه الاتفاق : أى من أهل الحق ، وفيه رد على المعتزلة والقدرية فإنهم قالوا إن الله فى كل مكان ، وعلى المشبهة والكرامية قالوا : إنه تعالى على العرش سبحانه وتعالى وهو رب العرش العظيم : أى خالقه وحامله ، فإنه قيوم العلويات والسفليات : أى قائم بتدبيرهما وما فيهما كما حققه بعض المحققين ( ولا تحله ) أى لا تدخله ولا تقعه ( الحوادث ) والتغيرات ( والآفات ) وجميع الصفات التى لا تليق به تعالى (و) إذا (نظرت فى معجزات الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم وآياته وأعلام نبوّته) جمع علم بمعنى العلامة : أى على صدقه ، والمعجزة هى الآية مع التحدى بها ، فكل معجزة آية لا العكس ، ثم المعجزة مأخوذة من العجز المقابل للقدرة ، وحقيقة الإعجاز إثبات العجز فاستعير لإظهاره ، ثم أسند مجازا إلى ماهو سبب للعجز ، ثم جعل اسما فقيل معجزة ، والتاء للنقل من الوصفية إلى الاسمية كما فى الحقيقة أوللمبالغة كما فى العلامة . وحقيقة المعجزة أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدى موافق للدعوى ، سالم من المعارض على يد مدعى النبوة ، وقد ذكرنا مثله فيما مر ، ومعجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحصى : منها انشقاق القمر له فلقتين بمكة ؛ وقيل بمنى ، ومنها تسبيح الحصى ، ونطق العجماء ، وانفجار الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ، ومن آياته الظاهرة التى تحدى بها مع كافة العرب القرآن العظيم فانهم مع تميزهم بالفصاحة والبلاغة تهدفوا لسبه ونهبه ولم يقدروا على معارضته بمثله ولو أقصر سورة منه .

[ غريبة ] أكرم الله موسى عليه السلام بفلق البحر فى الأرض ، وأكرم محمدا صلى الله عليه وسلم ففلق له القمر فى السماء ، فانظر إلى فرق مابين السماء والأرض كما فى تفسير الرازى فى سورة الكوثر كما ذكره الزبيدى ( علمت ) قطعا بلا شك ولا ريب ( أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ) إلى الخلق أجمعين بالهدى ودين الحق ( وأمينه ) أى مأمونه ( على ) سر ( وحيه )

أى وحيه الخفي ، والمراد بوحيه الأحكام التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنها كانت خفية علينا ولم تظهر إلا علي يده صلى الله عليه وسلم ، وعلمت أيضا أنه صلى الله عليه وسلم خاتم للنبيين وناسخ لما قبله من شرائع اليهود والنصارى والصابئين وغيرها .

ثم اعلم أن العلم بثبوت الشيء فرع تصور ذلك الشيء ، وتصور ذلك الشيء إن كان بحسب اسمه فلا يتوقف علي وجوده ، وإن كان بحسب حقيقته وماهيته فيتوقف علي وجوده ، والتصديق المفروض هو أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله المفهوم من سياق المصنف رحمه الله ، ولا بد لحصول هذا من العلم بوجود هذا الموضوع وتعينه إذ هو شخص ، وتصورالشخص إنما هو بتعيناته الشخصية ، فلا بد من الكلام على مابه يتعين شخصا ، وذلك بالاستقراء من حيث نسبه ومولده ووفاته وزمانه وأسماؤه الموجبة لشهرته وشمائله التى امتاز بها عن غيره، فإذا كان كذلك فلابد من ذكر ذلك على الايجاز والاختصار ليكمل المعتقد من كل الوجوه ، وقد ذكر القرافى فى ذخيرته ، وأشار إليه فى شرح الأربعين أن جميع الأحوال المتعلقة بالرسول كلها فضلا عما به يتعين ترجع إلى العقائد لاإلى العمل ، فيجب البحث عن ذلك لتحصيل كمال المعتقد بذلك .

أما وجوده صلى الله عليه وسلم ، فمعلوم بالضرورة تواترا عند أهل البرهان ، وكشفا عندأولى العيان ، فان الصوفى يقول : العلم بوجوده صلى الله عليه وسلم من قبيل المحسوسات المرئية بالأبصار يقظة عند المقربين ، ونوما عند غيرهم . وقد قال صلى الله عليه وسلم « من رآنى فقد رآنى حقا فان الشيطان لايتمثل بصورتى » إذ معنى الحديث عند الأكثر أن من رآه نوما فتلك الرؤية مساوية للرؤية الحسية يقظة بل معنى كما نبه عليه علماء الحديث فانظره .

وأما تعيينه فأما من حيث نسبه فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصىّ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وإليه انتهى النسب الصحيح وما فوق عدنان فمختلف فيه ، ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسمعيل بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام . وكنيته صلى الله عليه وسلم : أبو القاسم وهو الأشهر ، وأمه آمنة بنت وهب ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وهنا تجتمع مع أبيه فى النسب .

وأمامولده صلى الله عليه وسلم أمامن حيث المكان فهو بمكة باجماع فى شعب أبى طالب . وأمامن حيث الزمان فيوم الاثنين لاثنتى عشرة خلت من شهر ربيع الأول، وذلك بعد قدوم الفيل بشهر ، وقيل بأربعين يوما ، وقيل بخمسين يوما ، ومات والده عنه صلى الله عليه وسلم وهو حمل ، وقيل : ابن سبعة أشهر ، والأول الصحيح ، وماتت أمه بالأبواء ولم يستكمل له سبع سنين ، وكفله جده عبد المطلب، وله صلى الله عليه وسلم ثمان سنين، وبعث صلى الله عليه وسلم لثمان مضين من شهر ربيع الأول ، سنة إحدى وأربعين من عام الفيل، فأقام بمكة ثلاث عشرة سنة ، وقيل : خمس عشرة سنة ، وقيل عشر سنين ، والأول أشهر ، وقدم المدينة يوم الاثنين ، وهو الثانى من شهر ربيع الأول ،

سنة أربع وخمسين من عام الفيل ، ومكث بها عشرة سنين ، وتوفى صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وستين سنة فى بيت عائشة رضى الله عنها ، يوم نوبتها : يوم الاثنين ، أول يوم من شهر ربيع الأول، ودفن ليلة الأربعاء .

وأما صفته صلى الله عليه وسلم وشمائله الزكية فليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير المتردد ، ولا بالأبيض الأمهق ، ولا بالآدم ، ولا بالجعد القطط ، ولا بالسبط ، كان رجل الشعر أزهر اللون ، مشربا بحمرة فى بياض كأن وجهه القمر ، حسن العنق ، ضخم الكراديس ، أهدب الأشفار ؛ أدعج العينين ، حسن الثغر ، ضليع الفم ، حسن الأنف ، إذا مشى يتكفأ كأنما ينحط من صبب ، وإذا التفت التفت معا ، جلّ نظره إلى الأرض ، كانت له جمة لم تبلغ شحمة أذنيه صلى الله عليه وسلم . وأما أسماؤه صلى الله عليه وسلم فهى كثيرة بلغت ألفا وقد ألف الحافظ ابن دحية فى ضبطها كتابا سماه [ المستوفى ] فيه مقنع لمن أراد التطلع بها والمنقول توقيفا ، فقد روى مالك وغيره رفعه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى خمسة أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وأنا العاقب » ومن أسمائه فى القرآن : طه ، ويس ، والمدثر والمزمل ، وعبد الله ، والرءوف والرحيم ، ومن أسمائه أيضا : المقفى ، ونبى التوبة ، ونبى الملاحم ، والمتوكل ، صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا ، أفاده العلامة مرتضى الزبيدى ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة (و) علمت ( ماكان السلف الصالح ) من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، خصوصا الأئمة الأربعة المجتهدين الذين انعقد الاجماع على امتناع الخروج عن مذاهبهم فى الإفتاء والحكم . وأما عمل الشخص فى نفسه فيجوز تقليد غيرهم فيه كما فى حاشية اللقانى ، وقيل السلف من قبل الخمسمائة من الهجرة ، وقيل من قبل القرون الثلاثة ، والصالح هو القائم بحقوق الله وحقوق عباده ، وهذا أندر من الكبريت الأحمر ويطلق الصالح على النبى كما يطلق على الولى : إلا أن الصالح فى الأنبياء أكمل منه فى الأولياء ( يعتقدونه من أن الله يرى فى الآخرة ) نظم المصنف رحمه الله هذا الأصل فى سلك هذا المقام نظرا إلى أن نفى الجهة يوهم أنه مقتضى للانتفاء ، فاقتضى المقام دفع هذا التوهم ببيان جواز الرؤية عقلا ووقوعها سمعا ، فهو كالتتمة للكلام فى نفى الجهة والمكان : أى يراه المؤمنون الأبرار بالأعين والأبصار دون الكفار فإنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، رؤية بغير كيفية ولا إدراك إحاطة ، وتحصل الرؤية بأن ينكشف انكشافا تاما منزها عن المقابلة والمكان والجهة والصورة ، وقيل : حول نظر العين للقلب ، واليه مال شيخنا . وقال ابن العربى : إن رؤية الله جعلت تقوية للمعرفة الحاصلة فى الدنيا ، فما راء كمن سمعا ، وأنكرها المعتزلة ، ولله در القائل العلامة القارى فى أماليه :

يراه المؤمنون بغير كيف ... وإدراك وضرب من مثال
فينسون النعيم إذا رأوه ... فياخسران أهل الاعتزال

ومن الدليل على جواز الرؤية من الكتاب قوله تعالى « كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » خص الكفار بالحجاب تحقيرا لهم وإهانة ، فلو لم يكن المؤمنون بخلافهم لعم التحقير وبطل التخصيص . وقال النسفي : تخصيص الحجاب للكفار دليل على عدمه للأبرار ؛ وقال الربيع : سمعت الشافعي يقول في هذه الآية : علمنا بذلك أن قوما غير محجوبين ينظرون اليه لايضامون في رؤيته .

ومما دل على الرؤية من الكتاب أيضا قوله تعالى « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » فقد ورد من طرق صحيحة مرفوعة إلي النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن الزيادة فقال : النظر إلى الله تعالى . وأما في السنة فلما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضى الله عنه رفعه « هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لايارسول الله ، قال فانكم ترونه كذلك » وفي بعض الروايات « هل تضامون » وفي بعضها « فإنكم ترون ربكم كذلك » والمقصود به تشبيه الرؤية لاتشبيه المرئى بالمرئى . واخرج القشيري في رسالته حديثا طويلا من رواية جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، وفيه « فيكشف لهم الحجاب فينظرون الله فيتمتعون بنور الرحمن سبحانه حتى لايبصر بعضهم بعضا » وأحاديث الرؤية متواترة معنى ، فقد وردت بطرق كثيرة عن جمع كثير من الصحابة .

ثم إنهم بعد الجواز اختلفوا هل وقوع الرؤية مخصوص بالآخرة ؟ وهو قول جماعة وأحد قولى الأشعرى وظاهر قول مالك ، واليه مال المصنف رحمه الله تعالى كما صرح به في الإحياء ، ومنهم من قال وقوع الرؤية غير مخصوصة بالآخرة بل تقع في الدنيا ، وهو قول الكثير من السلف والخلف من أهل الحديث والتصوف والنظر ، وإذا قلنا بأنه غير مخصوص بالآخره فهل هو مخصوص بالأنبياء أو غير مخصوص ؟ بل يجوز للولى قولان للأشعري ، وعلى أنه مخصوص بالأنبياء فهل هو خاص بنبينا صلى الله عليه وسلم أو غير خاص ؟ .

وبالجملة فقد إتفق الكل على وقوعها في الآخرة لجميع المؤمنين .

وأما في الدنيا فاختلف فيه صلى الله عليه وسلم على ثلاثة أقوال : الأول أنه رأى ربه وهو قول أكثر السلف وجماعة الصوفية ؛ قال النووى : وهو الصحيح . الثاني أنه لم ير وهو قول أكثر الأشاعرة وبعض السلف: الثالث الوقف وهو اختيار القاضي عياض .

وبالجملة فاختلاف الصحابة في هذه المسئلة دليل على اعتقادهم جوازها ثم هل يجوز ذلك لأولياء أمته على سبيل الكرامة ؟ وطريق التبعية في ذلك قولان للأشعرى ، وأكثر أهل التصوف خصوصاً المتأخرين على أن ذلك يجوز كرامة ، وكرامة أولياء الله تعالى معجزة له صلى الله عليه وسلم ، هذا حال اليقظة ، وأما في النوم فاتفق الأكثر على جوازه ووقوعه ، ثم هذا المعتقد : أما جوازه فيصح التمسك فيه بالسمع والعقل وأما الوقوع فليس إلا بالسمع ، إذالعقل لايهتدى كما حققه العلامة الزبيدى

وَأَنَّهُ مَوْجُودٌ وَلَيْسَ فِى جِهَةٍ مَحْدُودَةٍ

(و) علمت (أنه) تعالى (موجود وليس فى جهة محدودة) لحدوثها ولأن ذلك من صفات المخلوقين. واعلم أن وجوده تعالى ذاتى بمعنى أنه لذاته لا لعلة، أى أن الغير ليس مؤثراً فى وجوده تعالى وليس المراد أن الذات أثرت نفسها إذ لا يقوله عاقل، وأما الوجود غير الذاتى كوجودنا فهو بفعله تعالى، وبعضهم لايشاهد لغيره تعالى وجودا، وهذا يسمى عندهم وحدة الوجود وقد غرق فيه من غرق حتى وقع من بعض الأولياء مايوهم الاتحاد والحلول كقول الحلاج: أنا الله، وكقول بعضهم: مافي الجبة إلا الله، وهذا اللفظ لا يجوز شرعا لإيهامه، لكن القوم تارة تغلبهم الأحوال فيؤول مايقع منهم بما يناسبه وممن أفتي بقتل الحلاج حين قال المقالة السابقة الجنيد كما في شرح الكبرى، ومن اللفظ الموهم ما شاع على ألسنة العوام من قولهم: موجود فى كل الوجود، ففيه إشارة إلى وحدة الوجود لكنه ممتنع لإيهامه الحلول.

وقد اختلف فى الوجود هل هو عين الموجود أو غيره؟ فقال الأشعرى: الوجود عين الموجود واختلف العلماء فى فهم المراد من عبارة الأشعرى، فبعضهم أبقاها على ظاهرها، وعليه يكون فى عد الوجود صفة تسامح لأنه يقع صفة فى مجرد اللفظ كأن يقال: الله موجود، والمحققون كالسعد وأضرابه أولوا عبارة الأشعرى، فقالوا ليس المراد العينية حقيقة بل المراد أنه ليس زائدا على الذات فى الخارج بحيث تصح رؤيته فلا ينافى أنه أمر اعتبارى وهو الحق الذى لا محيص عنه، وعليه فلا يكون فى عد الوجود صفة تسامح، لأن الصفة يكفى فيها مغايرة الموصوف وإن لم تكن زائدة لى الخارج، ونظيره الثوب مثلا إذا كان فى صندوق ثم أخرج منه فإنه يتصف بالظهور، فهذا الظهور ليس وصفا زائدا على الثوب إلا أن العقل يقدّره وصفا زائدا فافهم هذا، ودليله قوله تعالى «لا إله إلا أنا» وأيضاً لو لم يكن سبحانه وتعالى موجودا ما كان شىء من الخلق، وقال السبكى فى شرح عقيدة ابن الحاجب، وأما أهل الحديث فيقول: قد ثبت عن عمران بن حصين رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «كان الله ولا شىء قبله» وفى طريق «ولا شىء غيره» وفى طريق «ولا شىء معه».

وقد ثبت الإجماع بل إجماع الكتب السماوية كلها كما نقله الفخر فى شرح عيون الحكمة وجعل العمدة فى هذه المسئلة الإجماع، قال وأما طريق الصوفى فيقول بما تقدم ثم يقول بلسان التنبيه مشيرا إلى ما يخصه من وجود كلّ شىء له اعتباران: اعتبار من حيث صورة ذاته، واعتبار من حيث صورة العلم به. فالصورة الأولى صورة عينية. والثانية صورة علمية واعتبر نفسك فإنك تجد الآثار التى تبدو عنك لها صورتان: صورتها العلمية من حيث إنها فى ذهنك، وصورتها العينية وهو ما بدا عنك مطابقا لعلمك، فالأشياء أما من حيث صورتها العينية فحادثة قطعا، وذلك هو وجودنا الذى يدرك منه وفيه تعيننا، وهذا يجده كل مدرك عاقل من نفسه، والعالم كله متماثل

وَأَنَّ الْقُرْآنَ كَلاَمُ اللهِ تَعَالَى غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَلَيْسَ بِحُرُوفٍ مُقَطَّعَةٍ وَلاَ أَصْوَاتٍ إِذْ لَوْ كَانَ كَذَٰلِكَ لَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ

---

ولا تفاوت فيه ، وقد ارتفع النزاع فى ذلك ، قال الله تعالى – ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت – وقال – إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا – وقال عليه الصلاة والسلام « اللهم ربى ورب كل شىء أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة » . وأما من حيث صورتها العلمية : أعنى علم الله بها فذلك غيب عنا والله أعلم بغيبه ، فهذا ما نبه عليه الصوفى ، وغايته الرجوع إلى العجز الذى هو كمال الإدراك والتسليم لما فى علم الله من حيث علم الله ، ومن فهم هذا التنبيه فهم المسئلة الصعبة التى أشار إليها ابن عطاء الله فى أوّل التنوير ، وهذا البحث الذى ذكرناه لمن أراد الهمة العلية والرتبة الخاصة ، وإلا فإنه يكفى المكلف أن يعرف أن الله موجود ولا يجب عليه معرفة أن وجوده تعالى عين ذاته أو غير ذاته كما قاله سيدى محمد الصغير لأن ذلك من غوامض علم الكلام ( و ) علمت ( أن القرآن ) يطلق بحسب الاشتراك ويراد به القراءة، وهى المصدر الحاصل من القارىء ويراد به المصحف : أى المجموع المؤلف من الأصوات والحروف وهو بهذا المعنى حادث ، وإضافته إلى الله باعتبار أنه ليس من تأليفات البشر ، بل من تأليفات خالق القوى والقدر ، ولهذا يقال القرآن ( كلام الله تعالى غير مخلوق ) ولا يقال القرآن غير مخلوق لئلا يسبق إلى الفهم أن المؤلف من الأصوات والحروف قديم كما نقل عن بعض الحنابلة ، ويطلق ويراد به المقروء ، وهو الكلام النفسى ، وهو المعنى القائم بذات الله الذى هو صفة من صفاته ( و ) هو بهذا المعنى قديم ( ليس بحروف مقطعة ) أى متفرقة ( ولا أصوات ) هذا هو المراد من كلام المصنف رحمه الله ( إذ لو كان ) أى الكلام النفسى ( كذلك ) أى الحروف والأصوات ( لكان من جملة المخلوقات ) وهو باطل . وقال السنوسى وغيره من المتقدمين : إن الألفاظ التى نقرؤها تدلّ على الكلام القديم وهذا خلاف التحقيق ، لأن بعض مدلوله قديم كما فى قوله تعالى « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » وبعض مدلوله حادث كما فى قوله تعالى – إن قارون كان من قوم موسى – والتحقيق أن هذه الألفاظ تدلّ على بعض مدلول الكلام القديم لأنه يدل على جميع الواجبات والجائزات والمستحيلات والألفاظ التى نقرؤها تدل على بعض هذا المدلول ، فلو كشف عنا الحجاب وفهمنا من الكلام القديم طلب إقامة الصلاة مثلا نفهم ذلك من قوله تعالى – أقيموا الصلاة – ويصح أن يكون المراد أن الكلام اللفظى يدل على الكلام النفسى دلالة عقلية التزامية بحسب العرف ، فإن من أضيف له كلام لفظى دل عرفا على أن له كلاما نفسيا ، وقد أضيف له تعالى كلام لفظى كالقرآن فانه كلام الله قطعا بمعنى أنه خلقه فى اللوح المحفوظ ، فدلّ التزاما على أن له تعالى كلاما نفسيا ، وهذا هو المراد بقولهم القرآن حادث ومدلوله قديم ، فأرادوا بمدلوله الكلام النفسى وتكفى الإضافة الإجمالية وإن لم يكن اللفظى قائما بالذات ، وفهم القرافى رحمه الله أن المراد المدلول الوضعى فقال منه قديم وهو ذات الله وصفاته ، وحادث كخلق السموات ، ومستحيل كاتخذ الرحمن ولدا كما بسطه العلامة الملوى

وَأَنَّهُ لاَ يَكُونُ فى المُلْكِ وَالمَلَكُوتِ فَلْتَةُ خَاطِرٍ وَلاَ لَفْتَةُ نَاظِرٍ إلاَّ بِقَضَاءِ اللهِ تَعالَى وَقَدَرِهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ ، فَمِنْهُ الخَيْرُ وَالشَّرُّ وَالنَّفْعُ وَالضُّرُّ وَالْإِيمانُ وَالْكُفْرُ ،

---

والحاصل أن للألفاظ التي نقرؤها دلالتين أولاهما التزامية عقلية عرفا كدلالة اللفظ على حياة اللافظ ، والمدلول بهذه الدلالة هو الكلام القديم ، وهذا محمل كلام السنوسى ومن تبعه ، وثانيتهما وضعية لفظية ، والمدلول بهذه الدلالة بعضه قديم وبعضه حادث ، وهذا محمل كلام القرافى وغيره فلا تنافى بين القولين كما يصرح به بعض حواشى الكبرى ، كذا أفاده العلامة البيجورى (و) علمت ( أنه ) أى الشأن ( لا يكون فى الملك ) أى العالم السفلى ( والملكوت ) أى العالم العلوى ( فلتة ) أى فجأة ( خاطر ولالفتة ناظر ) أى حركة عين وبين الفلتة واللفتة جناس القلب كما هو معلوم عند من له أدنى مسكة من علم البديع ( إلا بقضاء الله تعالى وقدره ) والقضاء عند الأشاعرة يرجع إلى الارادة ، والقدر إلى الخلق كما فى شرح المواقف ، وعند الماتريدية هما غير الارادة فالقضاء بمعنى الخلق ، والقدر بمعنى التقدير خلافا للأشاعرة نبه عليه العلامة مرتضى ( وبإرادته ومشيئته ) عطف تفسير للارادة ، فإرادته تعالى متعلقة بكل كائن غير متعلقة بما ليس بكائن . ثم بين رحمه الله تعالى تلك الحوادث التى تقع مرادة لله تعالى فقال ( فمنه ) تعالى ( الخير والشرّ ) خلافا للمعتزلة فانهم قالوا : إن الخير من الله والشرّ من العبد . ونقول نعم يظهر من العبد بحسب كسبه ، لكن بخلق الله تعالى فيه ، واستدلوا بقوله تعالى « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » والجواب عنه ، أن التقدير من فعل نفسك لئلا يضيف الشرّ إلى الله عند الانفراد مراعاة للأدب وإن كان ذلك من العبد بتخليق الله تعالى ، لأن الاضافة على نوعين : إضافة تحقيق وإضافة إكرام ، فأما إضافة التحقيق فمثل قوله تعالى « ولله ملك السموات والأرض » وأما إضافة الإكرام فمثل قوله تعالى « ناقة الله ــ ورسول الله » ثم الطاعة مكرمة مرضية ، فجاز أن تضاف إلى الله عند الانفراد ، فيقال الخير من الله والمعصية ليست بمحل الاكرام حتى تضاف إلى الله عند الانفراد بل عند الجملة كما قال « قل كلّ من عند الله » فإنه لا يقال ياخالق الخنازير والعقارب والحيات مراعاة للأدب ، بل يقال يا خالق كل شىء كما حققه بعض المحققين ، وكذلك يحمل نحو هذه الآية من الأحاديث على ما يناسبه ، وتسمية المذكور شرا بالنسبة إلى تعلقه بنا وضرره لنا لا بالنسبة إلى صدوره منه سبحانه ، فخلق الشر ليس قبيحا إذ لا قبيح منه تعالى ، وهذا أحد معانى حديث « والشر ليس إليك » ( و ) منه تعالى ( النفع والضر والإيمان والكفر ) والحلو والمرّ والعرفان والنكر والفوز والخسران والغواية والرشد والطاعة والعصيان وكلّ عما ذكر ضد لصاحبه ، لا راد لقضائه الذى قضاه وأراده ، ولامعقب لحكمه الذى أمضاه ودبره يضل من يشاء أن يضل لاستحبابه الضلال وصرف اختياره إليه ، ويهدى من يشاء أن يهديه لصرف اختياره إلى

وَأَنَّهُ لاَ وَاجِبَ عَلَى اللهِ تَعَالَى لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، فَمَنْ أَثابَهُ فَبِفَضْلِهِ وَمَنْ عَاقَبَهُ فَبِعَدْلِهِ ، وَمَا وَرَدَ عَلَى لِسَانِ صَاحِبِ الشَّرْعِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِ الآخِرَةِ كَالْحَشْرِ وَالنَّشْرِ ،

---

الهداية (و) علمت يقينا (أنه لا واجب على الله تعالى لأحد من خلقه) سبحانه . حاصله كما قال العلامة مرتضى : أن جميع الـكائنات كيفما كانت على العموم كوجود العالم أو على الخصوص كوجود الإنسان ووجوده مابه مايكون كماله من العقل وتيسير المطالب والصحة وسلامة القوى وبعث الرسول والثواب والعقاب ، كل ذلك لا يجب عليه شيء منه لا بالوجوب الشرعى ولا العقلي ولا العادى ولا غير ذلك لجميع الـكائنات بالنسبة إليه على السوية ، وإنما المخصص لأحد الجانبين مشيئته ، وإرادته المتعلقة بالشيء تعلق التخصيص على نحو ما تعلق به العلم ، فجميع ما فعل مما فيه لطف بعبده بمحض فضل وكرم وإحسان منه إليه ، وما فيه من تعذيب وابتلاء فمحض عدل منه إليه ولو شاء لعكس كما أشار إليه رحمه الله بقوله ( فمن أثابه ففضله ) أى محض فضله ، ومعناه الإعطاء عن اختيار كامل لا عن إيجاب ونحوه ( ومن عاقبه ) أى عذبه ( فبعدله ) أى محض عدله وهو وضع الشيء فى محله من غير اعتراض على الفاعل ، ولله درّ العلامة اللقانى حيث قال :

فان يثبنا فبمحض الفضل وإن يعذّب فبمحض العدل

( و ) علمت (ماورد على لسان ) سيدنا ومولانا محمد ( صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه من أمور الآخرة ) وهو حق والتصديق به واجب ( كالحشر ) وهو عبارة عن سوق الخلق جميعا إلى الموقف ، وهو الموضع الذى يقفون فيه من أرض القدس المبدلة التى لم يعص الله عليها لفصل القضاء بينهم ، ولا فرق فى ذلك بين من يجازى ، وهم الإنس والجنّ والملك ، وبين من لا يجازى كالبهائم والوحوش على ما ذهب إليه المحققون وصححه النووى .

ومما ورد فيه ما أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس « إنـكم محشورون إلى الله » الحديث ومن حديث سهل « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء » الحديث . ومن حديث عائشة « يحشرون يوم القيامة حفاة » الحديث، ومن حديث أبى هريرة « يحشر الناس على ثلاثة طرائق» ولابن ماجه من حديث ميمونة مولاة النبى صلى الله عليه وسلم « أفتنافى بيت المقدس ؟ قال أرض المحشر والنشر » الحديث وإسناده جيد .

وأوّل من تنشقّ عنه الأرض نبينا صلى الله عليه وسلم ، فهو أول من يبعث ، وأول وارد الحشر كما أنه أول داخل الجنة وبعده سيدنا نوح كما ورد ، لـكن ورد أن بعده صلى الله عليه وسلم أبا بكر ، وحمل على أنه بعد الأنبياء ، ومراتب الناس فى الحشر متفاوتة ، فمنهم الراكب وهو التقى ومنهم الماشى على رجليه : وهو قليل العمل ، ومنهم الماشى على وجهه . وهو الـكافر ( والنشر ) وهو عبارة عن إحياء الموتى وإخراجهم من قبوهم بعد جمع الأجزاء الأصلية ، وهى التى من شأنها

وَعَذَابِ القَبْرِ وَسُؤَالِ مُنْـكَرٍ وَنَـكِيرٍ ،

البقاء من أول العمر إلى آخره ولو قطعت قبل موته ، بخلاف التي ليس من شأنها البقاء كالظفر ، والدليل علي جواز الإعادة ما أشار إليه نصوص الـكتاب وفحوى الخطاب من نسبة الاعادة بالنشأة الأولى ، إذا ما جاز على الشيء جاز على مثله . قال الله تعالى « قال من يحيي العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكلّ خلق عليم » . فاستدل بالابتداء علي الاعادة ( وعذاب القبر ) أى عذاب البرزخ ، وإنما أضيف إلى القبر لأنه الغالب وإلا فـكل ميت أراد الله تعذيبه عذب ، قبر أو لم يقبر ، ولو صلب ، أو غرق فى بحر ، أو أكلته الدواب ، أو حرق حتى صار رمادا وذرى فى الريح ، ولا يمنع من ذلك كون الميت تفرقت أجزاؤه ، والمعذب البدن والروح جميعاً باتفاق أهل الحق ، ويكون للـكافر والمنافق وعصاة المؤمنين ، ويدوم على الأولين وينقطع عن بعض عصاة المؤمنين ، وهو من خفت جرائمهم من العصاة فإنهم يعذبون بحسبها ، وقد يرفع عنهم بدعاء أو صدقة أو غير ذلك كما قاله ابن القيم ، وكل من لا يسئل فى قبره لا يعذب فيه أيضا .

ومن عذاب القبر ما أخرجه ابن أبى شيبة وابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يسلط الله على الـكافر فى قبره تسعة وتسعين تنينا تنهشه وتلدغه حتى تقوم الساعة ، لو أن تنينا منها نفخ على الأرض ما أنبتت خضراء » ، والتنين بكسر المثناة الفوقية وتشديد النون : وهـو أكبر الثعابين ، قيل : وحكمة هذا العدد أنه كفر بأسماء الله الحسنى وهى تسعة وتسعون ، ومن عذابه أيضا ضغطته : وهى التقاء حافتيه ، وورد أن الأرض تضمه حتى تختلف أضلاعه ؛ ولا ينجو منها أحد ، ولو صغيرا سواء كان صالحا إلا الأنبياء وإلا فاطمة بنت أسد ، وإلا من قرأ سورة الإخلاص فى مرضه ، ولو نجا منها أحد لنجا منها سعـد ابن معاذ الذي اهتزّ العرش لموته .

ومـمـا ورد نعيم القبر ويكون للمؤمنين لـما ورد من ذلك من النصوص البالغة مبلغ التواتر وإنما أضيف إلي القبر لأنه الغالب وإلا فلا يختص بالمقبور ولا يختص بمؤمنى هذه الأمة ولا بالمكلفين . ومن نعيمه توسيعه سبعين ذراعا عرضا وكذا طولا ، ومنه أيضا فتح طاقة فيه من الجنـة وامتلاؤه بالريحان وجعله روضة من رياض الجنة ، وجعل قنديل بكسر القاف فيه تنوّر له قبره كالقمر ليلة البدر .

وقد ورد أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام « تعلم الخير وعلمه الناس فانى منوّر لمعلم العلم ومتعلمه قبورهم حتى لا يستوحشوا لمـكانهم » وعن عمر مرفوعا « من نوّر فى مساجد الله نور الله له فى قبره » وكل هـذا محمول على حقيقته عند العلماء كما نبه عليه العلامة البيجورى ( وسؤال منـكر ) بفتح الـكاف ( ونـكير ) للشخص فى قبره أو مقره عن ربه ودينـه كما ورد فى الحديث الصحيح « فيقول المؤمن ربى الله ودينى الإسلام ونبيي محمد عليه الصلاة والسلام ، ويقول الـكافر

والفاجر هاء هاء لا أدرى» . وفى الخلاصة وفتاوى البزازية من أئمة الحنفية : أن من جعل فى التابوت أياما لينقل ما لم يدفن لم يسئل ، وهو ظاهر الأحاديث فتأمل ، ومن أكله السبع فالسؤال فى بطنه كما صرّحوا به ، وأما سؤال الصغير فمنقول عن السيد أبى شجاع من الحنفية ، واعتمده صاحب الخلاصة والبزازى فى فتاويه ، وجرى عليه النسفى فى العمدة لكن جزم صاحب بحر الكلام بخلافه وهو مقتضى قولة النووى فى الروضة والفتاوى وتوقف التاج الفاكهانى فى سؤال المجنون ونحوه . وأما الأنبياء عليهم السلام فالأصح أنهم لا يسئلون كما جزم به النسفى فى بحره ، وما ورد فى الصحيحين من استعاذة النبى صلى الله عليه وسلم من فتنة القبر وعذابه . أجاب عنه القاضى عياض فى شرح مسلم بأن ذلك التزام لحق الله تعالى وإعظامه ، والافتقار إليه وليقتدى به أمته وليبين لهم صفة الدعاء والمهم منه ، وأما الجن فمال بعض المتأخرين إلى أنهم يسئلون لعموم الأدلة الشاملة لهم ولغيرهم . وأما الملائكة فقال الفاكهانى : الظاهر أنهم لا يسئلون ، وميل القرطبى إلى خلافه والأظهر الأول . وقال ابن عبد البر : لا يسئل الكافر الصريح بل يعذب من غير سؤال وإنما السؤال للمنافق وخالفه القرطبى وابن القيم فقالا بسؤال كل منهما ، هذا .

وقد وردت أحاديث باستثناء عدة فلا يسئلون : منهم الشهيد والمرابط يوما وليلة فى سبيل الله ومن مات يوم الجمعة أو ليلتها ، ومن قرأ سورة الملك فى كل ليلة والمبطون ، والمراد بالبطن الاستسقاء أو الإسهال قولان للعلماء كما ذكره القرطبى . أما ما ذكره البلقينى من أن سؤال القبر يكون بالسريانى فغير معروف بين المتكلمين ولا بين المحدثين ، قال البرهان اللقانى ثم الحق أنه يسئل كل واحد بلسانه ، وذكر الترمذى وابن عبد البر أن سؤال القبر من خصائص هذه الأمة ، ولعل الحكمة فى ذلك أن يعجل عذابهم فى البرزخ فيوافون القيامة والذنوب ممحصة ، وسمى الملكان المذكوران بمنكر ونكير لأن الشخص ينكرهما حين يراهما بصورة منكرة فان صفتهما «أنهما أسودان أزرقان أعينهما كقدور النحاس» وفى رواية « كالبرق وأصواتهما كالرعد إذا تكلما يخرج من أفواههما لهيب النار ، بيد كل واحد منهما مطرق من حديد لو ضرب به الجبال لذابت » . وفى رواية « بيد أحدهما مرزبة لو اجتمع عليها أهل منى ما أقلوها » وهما للمؤمن الطائع وغيره على الصحيح ، لكن يرفقان بالمؤمن ويقولان له إذا وفق للجواب : نم نومة العروس وينهران المنافق والكافر ، وقيل المؤمن الموفق له مبشر وبشير . وأما الكافر والمؤمن العاصى فلهما منكر ونكير كما أفاده بعضهم عن فتح القادر . قال العلامة النوبى : وإنما يسألانه بعد رد حياته إليه ، وهى غير الحياة المعهودة ، بل يحصل للبدن حياة أخرى ، كما أن حياة النائم غير حياة المستيقظ ، وهذه الحياة لا تزال متعلقة بالبدن وإن بلى وتمزق أو رد روحه إلى جسده كله أو إلى نصفه الأعلى فقط قال البرهان اللقانى نقلا عن ابن حجر ، وظاهر الخبر أنها تحل فى نصف الميت الأعلى ، فيسئل البدن وفيه الروح وهو مذهب الجمهور . وقالت طائفة : السؤال للبدن بلا روح ، وأنكره الجمهور كما غلطوا من قال إن السؤال للروح بلا بدن ، وعلى كل حال هى حياة لا تنفى إطلاق اسم الميت عليه ، بل هى أمر متوسط بين الموت والحياة كتوسط النوم بينهما انتهى بمعناه .

وَالْمِيزَانِ وَالصِّرَاطِ ، فَهٰذِهِ أُصُولُ دَرَجَ السَّلَفُ الصَّالِحُ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ عَلَى اعْتِقَادِهَا وَالتَّمَسُّكِ بِهَا ، وَوَقَعَ عَلَيْهَا الْإِجْمَاعُ قَبْلَ تَنَوُّعِ الْبِدَعِ وَظُهُورِ الْأَهْوَاءِ ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الْابْتِدَاعِ فِى الدِّينِ وَاتِّبَاعِ الْهَوَى بِغَيْرِ دَلِيلٍ ،

---

وقد اتفقوا على أن الله لم يخلق فى الميت القدرة والأفعال الاختيارية وأنه لا يدرك الحاضرون حياته كمن أصابته السكتة . قال السعد ، وهو مشكل بجوابه للملكين . قلت يمكن التخصيص بغيره كما أفاده بعض المحققين نقلا عن التونسى ( والميزان ) وهو كميزان الدنيا قصبة وعمود وكفتان كلّ واحدة أوسع من طبقات السموات والأرض : كفة الحسنات عن يمين العرش مقابل الجنة ، وكفة السيئات عن يسار العرش مقابل النار ، يزن به جبريل على الصراط بعد الحسنات فيأخذ بعموده وينظر إلى لسانه وميكائيل أمين عليه ، والثقيل ينزل إلى أسفل ، والخفيف يرتفع كميزان الدّنيا كما هو ظاهر الأحاديث أفاده بعضهم عن السحيمى ( والصراط ) وهو جسر منصوب على ظهر جهنم : أوله فى الموقف ، وآخره على باب الجنة ، يمر عليه الأولون والآخرون وهو أدق من الشعرة وأحدّ من السيف ، فهو مثل الموسى ، وأول من يجوز عليه نبينا وأمته ، فالسالمون من الذنوب يمرون كطرف العين ، وبعضهم الذين يجوزون كالبرق الخاطف ، وبعضهم الذين يجوزون كالريح العاصف : أى الشديد ، وبعضهم كالطير ، وبعضهم كالفرس السابق ، وبعضهم كأجود البهائم ، ثم بعضهم عدوا ومشيا ، ثم حبوا وهو الذى تطول عليه مسافة الصراط فيقول ربى لم أبطأت بى ؟ فيقول لم أبطىء بك إنما أبطأ بك عملك . وروى « إذا كان يوم القيامة يأتى قوم فيقفون على الصراط يبكون فيقال لهم . جوزوا على الصراط ، فيقولون نخاف من النار ، فيقول جبريل كيف كنتم تمرون على البحر ؟ فيقولون بالسفن ، فيؤتى بمساجد كانوا يصلون فيها كالسفن فيركبونها ويمرون على الصراط » ذكره السحيمى ، وأما حقيقة الصراط فانه شعرة من جفون عين مالك عليه السلام ، حكاه الرملى عن برهان الدين الحليمى كما أفاده بعضهم .

ومما ورد على لسان صاحب الشرع عليه الصلاة والسلام : القيامة ، والحساب ، والثواب ، والعقاب ، والنار ، والحوض ، والشفاعة ، والجنة ، والخلود ، والرؤية لله تعالى فى الجنة وغير ذلك مما تقدم ذكره ( فهذه ) أى المعتقدات المذكورة من أن الله يرى فى الآخرة إلى آخره ( أصول درج ) أى سلك ومضى ( السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين على اعتقادها ) أى المذكورات ( والتمسك ) أى الاعتصام ( بها ووقع عليها الإجماع ) أى إجماع أهل السنة ( قبل تنوع البدع ) وفى نسخة نبوع : أى خروجها (و) قبل ( ظهور الأهواء ) والضلالة ( نعوذ بالله من الابتداع ) أى الإحداث والاختراع ( فى الدين واتباع ) بوصل الهمزة ( الهوى بغير دليل ) متعلق بقوله الابتداع فلا يصح تعلقه على الاتباع إلا أن يكون للكشف لأن من المعلوم أن اتباع الهوى فاسد وباطل

ثُمَّ نَظَرْتَ فى أَعْمَالِ الْقَلْبِ وَالْمَوَاجِبِ الْبَاطِنَةِ وَالْمَنَاهِى الَّتِى تَأْتِى فى هٰذَا الْكِتَابِ لِيَحْصُلَ لَكَ عِلْمُهُ ثُمَّ تَعْرِفُ جُمْلَةَ مَا تَحْتَاجُ إِلَى اسْتِعْمَالِهِ كَالطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَنَحْوِهِ ، فَلَقَدْ أَدَّيْتَ فَرْضَ اللهِ تَعَالَى عَلَيْكَ الَّذِى تَعَبَّدَكَ فى بَابِ الْعِلْمِ ، وَلَقَدْ صِرْتَ مِنْ عُلَمَاءِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسلم الرَّاسِخِينَ فى الْعِلْمِ ، فَإِنْ عَمِلْتَ بِعِلْمِكَ وَأَقْبَلْتَ عَلَى عِمَارَةِ مَعَادِكَ كُنْتَ عَبْدًا عَالِمًا عَامِلًا لِلهِ تَعَالَى عَلَى بَصِيرَةٍ غَيْرَ جَاهِلٍ ، وَلَا مُقَلِّدٍ وَلَا غَافِلٍ ، فَلَكَ الشَّرَفُ الْعَظِيمُ . وَلِعِلْمِكَ الْقِيمَةُ الْكَبِيرَةُ وَالثَّوَابُ الْجَزِيلُ ، وَكُنْتَ قَدْ قَطَعْتَ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ وَخَلَّفْتَهَا وَرَاءَكَ وَقَضَيْتَ حَقَّهَا بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ مَسْئُولٌ أَنْ يُمِدَّكَ وَإِيَّانَا بِحُسْنِ تَوْفِيقِهِ وَتَيْسِيرِهِ ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

---

وسبب الانحطاط عن الرتبة العلية فلا دليل له أصلا ( ثم نظرت فى أعمال القلب والمواجب الباطنة والمناهي التى تأتى فى هذا الكتاب ) أى كتاب [ منهاج العابدين ] لأن التعريف للحضور كما علمت (ليحصل لك علمه ) أى مافى القلب ( ثم تعرف جملة ماتحتاج إلى استعماله كالطهارة والصلاة والصوم ونحوه ) أى من الفرائض الشرعية ( فلقد أديت فرض الله تعالى عليك الذى تعبدك ) وكلفك ( فى باب العلم ولقد صرت من جملة علماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم الراسخين ) أى الثابتين (فى) العمل بمقتضى ( العلم فإن عملت بعلمك ) أى بمقتضاه ( وأقبلت على عمارة معادك ) أى آخرتك بالتقوى سميت بذلك لأنه معاد الخلق كلهم ( كنت عبدا ) كاملا ( عالما عاملا لله تعالى على بصيرة غير جاهل ) حال ( ولا مقلد ) للغير ( ولا غافل فلك الشرف العظيم )والنعيم الدائم (ولعلمك القيمة الكبيرة والثواب الجزيل ) أى العظيم ( وكنت قد قطعت هذه العقبة وخلفتها ) أى تركتها ( ووراءك وقضيت ) أى أديت ( حقها باذن الله تعالى ) أى إرادته ( والله سبحانه مسئول أن يمدك ) بضم الياء وكسر الميم من الإمداد بمعنى التوفيق ( وايانا بحسن توفيقه وتيسيره إنه أرحم الراحمين ) وأكرم الأكرمين ( ولا حول ) أى لاقدرة ولا حركة ( ولا قوة ) أى ولا استطاعة ( إلا بالله ) أى بعونه ( العلى ) أى الرفيع فوق خلقه ، وليس فوقه شىء ، فالمراد به علو قدر ومنزلة ، وقيل العلى بالملك والسلطنة والقهر فلا أعلى منه فيها ( العظيم ) أى الجليل الكبير شأنه وقدره ، ولا يخفى عليك وجه إتيانه رحمه الله تعالى بالحوقلة هنا ، كيف وهى كنز من كنوز الجنة كما ورد فى الحديث ، ومن الأدعية المستجابة كما فى الفشنى أنه إذا نزل بالشخص أمر ضيق يطبق أصابع يده اليمنى ثم يفتحها بكلمة : لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم : "اللهم لك الحمد ، ومنك الفرج ، وإليك المشتكى ، وبك المستعان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وهى فائدة عظيمة .

قال بعض الصالحين : وبالجملة فلا حول ولا قوة إلا بالله ، له تأثير عظيم فى طرد الشياطين والجن ، وفى جلب الرزق والغنى والشفاء ، وتحصيل القوة ، ودفع العجز وغير ذلك ، والله أعلم .

هذا شرح ( العقبة الثانية ) من السبع التى رتبها ( وهى عقبة التوبة )
ولواحقها الفرار والإنابة والإخبات

وهى أهم قواعد الدين ، وأول منازل السالكين ، وأصل مقامات الطالبين، وجاء فيها آيات كثيرة وأحاديث شهيرة ، فمن الآيات قوله تعالى « وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون» وقوله تعالى «إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين» .ومن الأحاديث قوله عليه الصلاة والسلام « توبوا إلى الله فإنى أتوب إليه كل يوم مائة مرة» . وقوله عليه الصلاة والسلام « فتح باب التوبة من المغرب لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها » . وقوله عليه الصلاة والسلام «من تاب قبل أن يغرغر قبله الله » . وقوله عليه الصلاة والسلام «التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه » . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما « أن وحشيا قاتل حمزة عمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة : إنى أريد أن أسلم ، ولكن يمنعنى عن الإسلام آية من القرآن نزلت عليك وهى قوله تعالى « والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما » وإنى قد فعلت هذه الأشياء الثلاثة فهل لى من توبة ؟ فنزلت هذه الآية « إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » فكتب بذلك إلى وحشى فكتب إليه : إن فى الآية شرطا وهو العمل الصالح ، ولا أدرى هل أقدر على العمل الصالح أم لا ؟ فنزل قوله تعالى « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » فكتب بذلك إلى وحشى فكتب إليه : إن فى الآية شرطا أيضا ، فلا أدرى أيشاء أن يغفر لى أم لا ؟ فنزل قوله تعالى « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم » فكتب إلى وحشى فلم يجد فيها شرطا فقدم المدينة وأسلم . وروى محمد بن عجلان عن مكحول قال « بلغنى أن إبراهيم عليه السلام لما عرج به إلى ملكوت السموات أبصر عبدا يزنى ، فدعا عليه فأهلكه الله تعالى ثم رأى عبدا يسرق فدعا عليه فأهلكه الله تعالى ، فقال الله تعالى : يا إبراهيم دع عنك عبادى فإن عبدى بين ثلاث خصال : بين أن يتوب فأتوب عليه ، وبين أن أستخرج له ذرية تعبدنى ، وبين أن يتغلب عليه الشقاء فمن ورائه جهنم » . قال أبو الليث السمرقندى : فى هذا الخبر دليل على أن العبد إذا تاب قبل الله توبته ، فلا ينبغى للعبد أن ييأس من رحمة الله تعالى ، فإن الله تعالى قال « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » : يعنى من رحمة الله تعالى ، فينبغى للعاقل أن يتوب إلى الله فى كل وقت ولا يكون مصرا على الذنب ،

ثُمَّ عَلَيْكَ يَا طَالِبَ الْعِبَادَةِ ـ وَفَّقَكَ اللهُ ـ بِالتَّوْبَةِ وَذَلِكَ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا لِيَحْصُلَ لَكَ تَوْفِيقُ الطَّاعَةِ فَإِنَّ شُؤْمَ الذُّنُوبِ يُورِثُ الْحِرْمَانَ وَيُعْقِبُ الْخِذْلَانَ وَأَنَّ قَيْدَ الذُّنُوبِ يَمْنَعُ عَنِ الْمَشْيِ إِلَى طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى خِدْمَتِهِ لِأَنَّ ثِقَلَ الذُّنُوبِ يَمْنَعُ مِنَ الْخِفَّةِ لِلْخَيْرَاتِ وَالنَّشَاطِ فِى الطَّاعَاتِ ، وَأَنَّ الْإِصْرَارَ

---

فان الراجع عن ذنبه لا يكون مصرا وإن عاد فى اليوم سبعين مرة كما روى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما أصرّ من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة » . ولذا قال المصنف رحمه الله تعالى ( ثم عليك ) أى الزم وتمسك ( يا طالب العبادة ) أى الخالصة ( وفقك الله ) جملة دعائية ( بالتوبة ) وهى كما قال أبو على الدقاق على ثلاثة أقسام : أولها التوبة ، وأوسطها الإنابة ، وآخرها الأوبة ، فجعل التوبة بداية ، والأوبة نهاية ، والإنابة واسطتهما فكل من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة ، ومن تاب طمعا فى الثواب فهو صاحب إنابة ، ومن تاب مراعاة للأمر لا لرغبة فى الثواب أو رهبة من العقاب فهو صاحب أوبة . قال العلامة القشنى : كما تجب التوبة من الكبائر تجب من الصغائر ، وهو فى الكبيرة باتفاق وفى الصغيرة قول الجمهور ، وتبعهم التاج السبكى ، وكان والده يتوقف فى ذلك لتكفيرها باجتناب الكبائر ، ومقتضاه أن الواجب فيها اجتناب الكبائر على أن المنقول عن الأستاذ الاسفرائينى أنه لا صغيرة لعظمة من يعصى . قال أبو حامد الغزالى : وهذا ضعيف ، إذ قال تعالى « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما » قال السدى : والسيئات : الصغار ، ففى الآية دليل على تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر ( وذلك ) أى وجوب التوبة عليك ، ومعناه هنا ما هو واجب فى الوصول إلى سعادة الأبد ، وهى الفوز بلقاء الله ، والنجاة من هلاك الأبد وهو البعد عن حضرة الله فانه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشىء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجبا معنى يعقل ( لأمرين : أحدها ليحصل لك توفيق الطاعة ) لأن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب مفتاح للطاعات ، وللفتوحات الدينية والدنيوية ، وأساس لكل الخيرات ، فعليها تنبنى المقامات ، فكل من أراد أن يبنى مقامه ، ولا يحكم أساسه لا يرتفع بل ينهدم ، ولله در القائل :

فالتوب مفتاح لكل إطاعة     وأساس كل الخير أجمع أشملا

( فان شؤم ) أى سوء ( الذنوب ) جمع ذنب أصله الأخذ بذنب الشىء ، وفى العرف الشرعى عبارة عن كل ماهو مخالف لأمر الله فى ترك أو فعل ماتستوخم عاقبته ، ولذلك سمى تبعة اعتبارا بما يحصل من عاقبته ، وهو عند أهل الله ما يحجب عن الله كما أشار إليه بقوله ( يورث الحرمان ) أى المنع عن أنواع الخيرات (ويعقب الخذلان) أى يعقب صاحبه الخذلان والهوان (وأن قيد الذنوب يمنع عن المشى إلى طاعة الله عز وجل و ) عن ( المسارعة إلى خدمته ) أى طاعته ( لأن ثقل الذنوب يمنع) المذنب (من الخفة للخيرات والنشاط) أى حركة السرور (فى الطاعات وأن الإصرار)

عَلَى الذُّنُوبِ مِمَّا يُسَوِّدُ الْقُلُوبَ فَتَجِدُهَا فِى ظُلْمَةٍ وَقَسَاوَةٍ لاَ خُلُوصَ فِيهَا وَلاَ صَفَاوَةَ وَلاَ لَذَّةَ وَلاَ حَلاَوَةَ ، وَإِنْ لَمْ يَرْحَمِ اللهُ فَتَسْتَجِرُّ صَاحِبَهَا إِلَى الْكُفْرِ وَالشَّقَاوَةِ ، فَيَا عَجَباً كَيْفَ يُوَفَّقُ لِلطَّاعَةِ مَنْ هُوَ فِى شُؤْمٍ وَقَسْوَةٍ ، وَكَيْفَ يُدْعَى إِلَى الْخِدْمَةِ مَنْ هُوَ مُصِرٌّ عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَمُقِيمٌ عَلَى الْجَفْوَةِ ، وَكَيْفَ يُقَرَّبُ لِلْمُنَاجَاةِ مَنْ هُوَ مُتَلَطِّخٌ بِالْأَقْذَارِ وَالنَّجَاسَاتِ ، فَفِى الْخَبَرِ عَنِ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : « إِذَا كَذَبَ الْعَبْدُ تَنَحَّى عَنْهُ الْمَلَكَانِ مِنْ نَتْنِ مَا يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ » فَكَيْفَ يَصْلُحُ هٰذَا اللِّسَانُ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَلاَ جَرَمَ لاَيَكَادُ يَجِدُ الْمُصِرُّ عَلَى الْعِصْيَانِ تَوْفِيقاً ،

---

أى الإقامة ( على الذنوب مما يسود القلوب فتجدها ) أى القلوب ( فى ظلمة وقساوة لاخلوص فيها ولا صفاوة ولا لذة ولا حلاوة وإن لم يرحم الله ) برحمته ( فتستجر ) أى تجذب الذنوب تدريجا ( صاحبها إلي الكفر والشقاوة ) هما ضدا الإسلام والسعادة(فيا عجبا كيف يوفق للطاعة من هو فى شؤم وقسوة ، وكيف يدعى إلى الخدمة ) والطاعة ( من هو مصرّ على ) ارتكاب (المعصية ومقيم) ومستمر ( على الجفوة) ضد البر ( وكيف يقرب ) بضم الياء مع تشديد الراء من التقريب ( للمناجاة من هو متلطخ ) أى متلوث (بالأقذار) جمع قذر ضد النظافة ( والنجاسات ، ففى الخبر عن الصادق ) فى جميع مايقوله ، إذ هو الحق الصدق والمطابق للواقع ( المصدوق ) فما أوحى الله، لأن الملك يأتيه بالصدق ؛ والله سبحانه وتعالى يصدقه فما وعده به ، والجمع بينهما للتأكيد ، كذا قيل : إذ يلزم من أحدهما الآخر ، وعكس ذلك نحو ابن صياد فهو كاذب مكذوب ، ومن ثم لما قال للنبى صلى الله عليه وسلم : يأتينى صادق وكاذب ، وأرى عرشا علي الماء قال له : خلط عليك . ( رسول الله صلى الله عليه وسلم ) بدل مما قبله أو خبر مبتدأ مقدر ( أنه قال : إذا كذب العبد ) أى الإنسان ( تنحى ) أى تباعد ( عنه الملكان من نتن ) بفتح النون وسكون التاء : أى عفونة ( مايخرج من فيه ) أى من نتن الكذب الذى يخرج من فمه ، وأخرج الترمذى فى الزهد وأبو نعيم فى الحلية عن ابن عمر « إذا كذب العبد كذبة تباعد عنه الملك ميلا من نتن ماجاء به » ( فكيف يصلح هذا اللسان ) الذى ينطق بالكذب ( لذكر الله عزّ وجلّ فلا جرم ) أى لابد ، أو حقا أو لامحالة ( لايكاد يجد المصرّ ) أى المقيم ( على العصيان توفيقا ) علي الطاعة .

[ تنبيهان : الأول ] لاجرم سياقه على مذهب البصريين أن يجعل لازما ، وجرم فعل بمعنى حق أو كسب ، ويجوز أن يقال إن لاجرم نظير لابد فعل من الجرم وهو القطع ، كما أن بدا فعل من التبديد وهو التفريق ، فمعنى قوله تعالى « لاجرم أن لهم النار » : أى لاقطع لذلك بمعنى أنهم أبدا يستحقون النار . وروى عن العرب أنه لاجرم أنه يفعل بضم الجيم وسكون الراء على زنة

وَلاَ تَخِفَّ أَرْكَانُهُ لِعِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى ، فَإِنِ اتَّفَقَ فَبِكَدٍّ لاَ حَلاَوَةَ مَعَهُ وَلاَ صَفْوَةَ ، وَكُلُّ ذَلِكَ لِشُؤْمِ الذُّنُوبِ وَتَرْكِ التَّوْبَةِ ، وَلَقَدْ صَدَقَ مَنْ قَالَ : إِذَا لَمْ تَقْوَ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ فَاعْلَمْ أَنَّكَ مُكْبُولٌ قَدْ كَبَّلَتْكَ خَطِيئَتُكَ

---

بد وفعل وفعل أخوان ، كرشد ورشد ، كذا فى الكشاف . وحاصل كلامه أن جرم فعل ماض بمعنى حق وثبت وما بعده فاعل ، أو بمعنى كسب ، وفاعله ضمير يعود إلى ماقبله وما بعده مفعول أو اسم بمعنى القطع ، ولا لنفى الجنس وما بعده خبر بتقدير حرف الجر . وأما مثل لاجرم فعلنا كذا ، فمن كلام المولدين ومن يجرى مجراهم كأنه قيل حقا فعلنا كذا ، وذكر فى الصحاح الجزم والقطع ، وقد جرم النخل واجترمه : أى صرمه ، وقولهم لاجرم . قال الفراء هى كلمة كانت فى الأصل بمنزلة لابد ولا محالة ، فجرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم وصارت بمنزلة حقا ، فلذلك يجاب عنه باللام كما يجاب بها عن القسم ، ألا ترى أنهم يقولون لاجرم لآتينك . وقال قوم : إن لازائدة ، ونقل فى المغنى عن الفراء أن لا لاتزاد فى أول الكلام ، وذكر فى حاشية المفتاح الشريفى أن لاجرم قد يكون لمجرد التأكيد بدون اعتبار معنى القسم ، كذا أفاده الهروى فى دره .

[ الثانى ] يكاد واوى العين فوزنه يكود كيعلم نقلت فتحة الواو إلى الساكن قبلها ثم يقال تحركت الواو بحسب الأصل وانفتح ماقبلها بحسب الآن فقلبت ألفا فصار يكاد بوزن يخاف ، وماضيه كود بكسر العين كخوف ، ومصدره الكود كالخوف ، وهذا فى كاد الناقصة كما هنا ، وأما كاد التامة فهى يائية العين المفتوحة فى الماضى كباع ومصدره الكيد كالبيع ، ولذلك جاء المضارع فى القرآن مختلفا « يكاد زيتها يضىء ـ فيكيدوا لك كيدا » . ومعنى التامة المكر ، ومعنى الناقصة المقاربة ، كذا قاله الجمل عن شيخه ( ولا تخف ) بفتح التاء وكسر الخاء مع تشديد الفاء : أى لاتسرع ولا تنشط ( أركانه ) أى أعضاؤه ( لعبادة الله تعالى ، فان اتفق ) أى فعل العبادة ( فبكد ) أى شدة فيه ( لاحلاوة معه ) أى مع فعلها ( ولا صفوة ، وكل ذلك ) أى المذكور من عدم وجدان الحلاوة والصفوة ( لشؤم الذنوب ) أى سوءها وقبحها ( وترك التوبة ) منها ( ولقد صدق ) أى وافق الحق ( من قال ) وهو فضيل بن عياض رحمه الله ( إذا لم تقو ) أى لم تستطع ( على قيام الليل ) أى من الصلاة ونحوها من الأوراد ( وصيام النهار فاعلم أنك مكبول ) أى مقيد ( قد كبلتك ) أى قيدتك ( خطيئتك ) أخرجه أبو نعيم فى الحلية فقال : حدثنا محمد بن على حدثنا الفضل بن محمد الجندى حدثنى إسحاق بن إبراهيم الطبرى قال سمعت الفضيل يقول : إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم مكبل كبلتك خطيئتك ، ومثله قال رجل للحسن البصري : ياأبا سعيد إنى أبيت معافى ، وأحب قيام الليل ، وأعد طهورى ، فما بالى أتكاسل ولا أقوم هل لذلك من سبب ؟ فقال : ذنوبك قيدتك : أى هى التى منعتك عن القيام ، نقله صاحب

فَهٰذِهِ هٰذِهِ . وَالثَّانِي مِنَ الْأَمْرَيْنِ إِنَّمَا تَلْزَمُكَ التَّوْبَةُ لِتُقْبَلَ مِنْكَ عِبَادَتُكَ ، فَإِنَّ رَبَّ الدَّيْنِ لَا يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ وَذٰلِكَ أَنَّ التَّوْبَةَ عَنِ الْمَعَاصِي وَإِرْضَاءَ الْخُصُومِ فَرْضٌ لَازِمٌ وَعَامَّةُ الْعِبَادَةِ الَّتِي تَقْصِدُهَا نَفْلٌ فَكَيْفَ يُقْبَلُ مِنْكَ تَبَرُّعُكَ وَالدَّيْنُ عَلَيْكَ حَالٌّ لَمْ تَقْضِهِ ؟ وَكَيْفَ تَتْرُكُ لِأَجْلِهِ الْحَلَالَ وَالْمُبَاحَ وَأَنْتَ مُصِرٌّ عَلَى فِعْلِ الْمَحْظُورِ وَالْحَرَامِ ؟ وَكَيْفَ تُنَاجِيهِ وَتَدْعُوهُ وَتُثْنِي عَلَيْهِ وَهُوَ — وَالْعِيَاذُ بِاللهِ — عَلَيْكَ غَضْبَانُ فَهٰذَا ظَاهِرُ حَالِ الْعُصَاةِ الْمُصِرِّينَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ .

فَإِنْ قُلْتَ فَمَا مَعْنَى التَّوْبَةِ النَّصُوحِ ، وَمَا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَفْعَلَهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنَ الذُّنُوبِ كُلِّهَا ؟ فَأَقُولُ :

---

القوت والعوارف . وقال رجل لبعض الحكماء : إني لأضعف عن قيام الليل : يعني فما السبب في ذلك وما دواؤه ؟ فقال له : ياأخي لاتعص الله بالنهار ، ولا تقم بالليل : يعني شؤم ذنوبك هو الذى يمنعك من قيام الليل ( فهذه ) الجملة ( هذه ) أى عظيمة . ( والثانى من الأمرين ، إنما تلزمك التوبة لتقبل منك عبادتك فان رب ) أي صاحب ( الدين ) بفتح الدال : أى الذى عليك له ( لايقبل الهدية ، وذلك ) أى بيان اللزوم ( أن التوبة عن المعاصى وإرضاء الخصوم فرض لازم وعامة العبادة ) أى كثرتها ( التي تقصدها نفل ، فكيف يقبل منك تبرعك ) أى هديتك (والدين) الذى ( عليك حال ) أى نقد ( لم تقضه ، وكيف تترك لأجله الحلال والمباح وأنت مصر ) أى مقيم ( على فعل المحظور والحرام ) عطف تفسير ( وكيف تناجيه ) أى رب الدين ( وتدعوه وتثنى عليه ، وهو والعياذ ) أى أعوذ وأعتصم ( بالله ) تعالى من ذلك ، جملة معترضة بين المبتدإ والخبر ( عليك غضبان ، فهذا ) أى الحال المذكور وهو ترك الحلال والمباح مع الاصرار على فعل المحظور ( ظاهر حال العصاة المصرين على ) فعل ( المعصية ، والله المستعان . فان قلت ) لى ( فما معنى التوبة النصوح ) التي ذكرت فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا » ( وما حدها وما ينبغي للعبد أن يفعله حتي يخرج من الذنوب كلها ) أى صغائرها وكبائرها ( فأقول ) اعلم أيها السائل الراغب فى الخير أن حقيقة التوبة من كل ذنب عشرة أعمال إلا أن يكون العبد توابا يحبه الله ، ولا تكون توبته نصوحا التى شرطها الله تعالي وفسرتها النبوة إلا أن يحكم العبد عشر توبات من كل ذنب : أولها ترك العود إلى فعل الذنب ، ثم يتوب من القول به ، ثم يتوب من الاجتماع مع سبب الذنب ، ثم التوبة من السعى فى مثله ، ثم التوبة من النظر إليه ، ثم التوبة من الاستماع إلى القائلين به ، ثم التوبة من الهمة به ، ثم التوبة من التقصير فى حق التوبة ، ثم التوبة من أن لا يكون أراد إلا وجه الله خالصا بجميع ما تركه لوجهه ، ثم التوبة فى النظر إلى التوبة

أَمَّا التَّوْبَةُ فَإِنَّهَا سَعْيٌ مِنْ مَسَاعِي الْقَلْبِ

والسكون إليها والإدلال بها ، وهذا مطالعة التوحيد ، وعلو الإشراق بالمريد ، ثم يشهد بعد ذلك تقصيره كله عن القيام بحق الربوبية لعظم ما يشهد من جلاله ، فتكون توبته بعد ذلك من تقصيره عن القيام بحقيقة مشاهدته ، ويكون استغفاره من توبته لما ضعف قلبه ونقص همه عن معاينة مشاهده لعلو مقامه ، ودوام مزيده وإعلامه ، ولكل مقام توبة ، ولكل حال من مقامات التوبة توبة ، ولكل مشاهدة ومكاشفة توبة ، فهذا حال التائب المنيب الذى هو من الله مقرب وعنده حبيب ، وهذا مقام مفتن تواب : أى مختبر بالأشياء ، مبتلى بها تواب إلى الله تعالى منها ، راجع إليه عنها ، ناظر إليه بها لينظر مولاه ، أو ينظر بقلبه إليه أو إليها ، أو يعتكف عليه أو عليها ، أو يطمئن بوجودها إليه ، أو إليها ، أو يطالب إياه هربا منها أو إياها ، فعليه من كل مشاهدة لسواه ذنب ، وعليه من كل سكون إلى سواه عتب ، كما له من كل شهادة علو ، ومن كل إظهار فى الكون حكم ، فذنوبه وتوباته إلى الله لا تحصى .

وسئل ذو النون المصرى عن التوبة ؟ فقال : توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة . وقال أبو الحسن النورى : التوبة أن تتوب من كل شىء سوى الله عز وجل . وقال عبد الله بن على التميمى : شتان ما بين تائب يتوب من الزلات ، وتائب يتوب من الغفلات ، وتائب يتوب من رؤية الحسنات . وقال صاحب العوارف : توبة الاستجابة هى أن تستحى من الله لقربه منك إذا تحقق بها ربما تاب فى صلاته من كل خاطر يلمّ به سوى الله ، ويستغفر الله منه ، وهى لازمة لبواطن القرب كما قيل : وجودك ذنب لايقاس به ذنب. وقال : وسئل أبو يعقوب السوسى عن التوبة ؟ فقال : التوبة من كل شىء ذمه العلم إلى ما مدحه العلم . قال : وهذا وصف يعم الظاهر والباطن لمن كوشف بصريح العلم ، لأنه لا بقاء للجهل مع العلم كما لا بقاء لليل مع طلوع الشمس ، وهذا يستوعب أقسام التوبة بالوصف الخاص والعام ، وهذا العلم يكون علم الظاهر والباطن لتطهر الظاهر والباطن بأخص أوصاف التوبة وأعم أوصافها . قال المصنف رحمه الله : وكثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ، ويجعل العلم كالسابق ، والمقدمة والترك كالثمرة ، والتابع المتأخر ، وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام «الندم التوبة» إذ لا يخلو الندم عن علم أرجبه ، وعن عزم يتبعه ويتلوه ، فيكون الندم محفوظا بطرفيه : أعنى ثمرته ومثمره ، وبهذا الاعتبار قيل فى حد التوبة : إنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ ، فان هذا يعرض لمجرد الألم ، ولذلك قيل هو نار فى القلب تلتهب ، وصدع فى الكبد لا ينشعب ، وباعتبار معنى الترك قيل فى حد التوبة : إنه خلع لباس الجفاء ، ونشر بساط الوفاء . وقال سهل بن عبد الله التسترى : التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة ، ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت ، وأكل الحلال ، وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة ، والأقاويل فى حدود التوبة لا تنحصر ، ولذلك بينه رحمه الله تعالى على الاختصار فقال ( أما التوبة ) النصوح ( فإنها سعى من مساعى القلب )

وَهِيَ عِنْدَ التَّحْصِيلِ فِى قَوْلِ الْعُلَمَاءِ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ تَنْزِيهُ الْقَلْبِ عَنِ الذَّنْبِ . قَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ فِى حَدِّ التَّوْبَةِ : إِنَّهُ تَرْكُ اخْتِيَارِ ذَنْبٍ سَبَقَ مِثْلُهُ عَنْهُ مَنْزِلاً صُورَةً تَعْظِيماً لِلّهِ تَعَالَى وَحَذَرًا مِنْ سَخَطِهِ ، فَلَهَا إِذًا أَرْبَعَةُ شَرَائِطَ : إِحْدَاهَا تَرْكُ اخْتِيَارِ الذَّنْبِ وَهُوَ أَنْ يُوَطِّنَ قَلْبَهُ وَيُجَرِّدَ عَزْمَهُ عَلَى أَنَّهُ لاَ يَعُودُ إِلَى الذَّنْبِ أَلْبَتَّةَ ، فَأَمَّا إِنْ تَرَكَ الذَّنْبَ وَفِى نَفْسِهِ أَنَّهُ رُبَّمَا يَعُودُ إِلَيْهِ أَوْ لاَ يَعْزِمُ

---

أي عمل من أعماله ، ومعنى النصوح : الخالص لله خاليا عن الشوائب ، وهو من النصح بضم فسكون فعول للمبالغة فى النصح ، وهو الخلوص ، ومنه قولهم : نصح العسل : إذا صفاه . وفى القوت ، وقيل اشتقاقه من النصاح بالكسر وهو الخيط ، والمعنى حينئذ ، أى مجردة لا تتعلق بشيء ولا يتعلق بها شيء ، وهو الاستقامة على الطاعة من غير روغان إلى معصية كما تروغ الثعالب وأن لا يحدث نفسه بعود إلى ذنب متي قدر عليه ، وأن يترك الدنيا لأجل الله خالصة لوجهه ، كما ارتكبه لأجل هواه مجمعا عليه بقلبه ، فمتى لقى الله تعالى بقلب سليم من الهوى ، وعمل مستقيم على السنة فقد ختم الله له بحسن الخاتمة ،فحينئذ أدركته الحسنى السابقة ، وهذا هو التوبة النصوح وهذا العبد التواب ، المتطهر الحبيب .

وسئل الحسن عن التوبة النصوح ؟ فقال هي : ندم بالقلب ، واستغفار باللسان ، وتزكية الجوارح ، وإضمار أن لا يعود . وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه من حديث أبي بن كعب « التوبة النصوح الندم علي الذنب حين يفرط منك ، فتستغفر الله ثم لا تعود إليه أبدا » . قال القرطبي فى تفسير التوبة النصوح ثلاثة عشر قولا ( وهى ) أى التوبة النصوح ( عند التحصيل في قول العلماء رضي الله عنهم : تنزيه القلب ) أى تبعيده وتصفيته ( عن الذنب . قال شيخنا ) وهو الشيخ أبوبكر الطرطوسي كما فى سراج السالكين ( رحمه الله فى حد التوبة إنه ترك اختيار ذنب ) أى فعله وإيقاعه ( سبق مثله ) أى الذنب ( عنه ) أى عن العبد ( منزلة لا صورة تعظيما لله تعالى وحذرا ) أى خوفا ( من سخطه ) أى غضبه تعالي ، ولذلك الندم على شرب الخمر مثلا لاضراره بالبدن ليس بتوبة كما يأتى ( فلها ) أي للتوبة ( إذا ) أى إذا جرينا على قول شيخنا وهو التحقيق ( أربعة شرائط : إحداها ترك اختيار ) فعل ( الذنب ، وهو ) أى الترك ( أن يوطن ) بفتح الواو وكسر الطاء مع التشديد : أى يقرر العبد السالك ( قلبه ويجرد ) أى يخلص (عزمه) أى قصده ( على أنه ) أى السالك ( لا يعود إلى الذنب ألبتة ) أى لا رجعة فيه ولا تردد قطعا ، وهو مصدر منصوب بفعل مقدر والتاء للمبالغة ، وأل فى ألبتة للجنس ، والمسموع قطع همزتها على غير قياس ، وحكم سيبويه بأن أل فيها لا زمة ( فأما إن ترك الذنب وفى نفسه ) أى قلبه خاطر من ( أنه ربما يعود إليه ) أى فعل الذنب ( أولا يعزم ) بفتح الياء وكسر الزاى من باب ضرب

عَلَى ذٰلِكَ بَلْ يَتَرَدَّدُ فَإِنَّهُ رُبَّمَا يَقَعُ لَهُ الْعَوْدُ فَإِنَّهُ مُمْتَنِـعٌ عَنِ الذَّنْبِ غَيْرُ تَائِبٍ مِنْهُ . وَالثَّانِيَةُ أَنْ يَتُوبَ مِنْ ذَنْبٍ قَدْ سَبَقَ عَنْهُ مِثْلُهُ إِذْ لَوْ لَمْ يَسْبِقْ عَنْهُ مِثْلُهُ لَـكَانَ مُتَّقِياً غَيْرَ تَائِبٍ ، أَلاَ تَرَى أَنَّهُ يَصِحُّ الْقَوْلُ بِأَنَّ النَّبِيَّ صلى ٱللهُ عليه وسلم كَانَ مُتَّقِياً عَنِ الْـكُفْرِ وَلاَ يَصِحُّ الْقَوْلُ بِأَنَّهُ كَانَ تَائِباً عَنِ الْـكُفْرِ إِذْ لَمْ يَسْبِقْ عَنْهُ كُفْرٌ بِحَالٍ ، وَأَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِىَ ٱللهُ عَنْهُ كَانَ تَائِباً عَنِ الْـكُفْرِ لِمَا سَبَقَ عَنْهُ ذٰلِكَ . وَالثَّالِثَةُ أَنَّ الَّذِى سَبَقَ عَنْهُ يَـكُونُ مِثْلَ الَّذِى يَتْرُكُ ٱخْتِيَارَهُ فِى الْمَنْزِلَةِ وَالدَّرَجَةِ لاَ فِى الصُّورَةِ ، أَلاَ تَرَى أَنَّ الشَّيْخَ الْهَرِمَ الْفَانِىَ الَّذِى سَبَقَ مِنْهُ الزِّنَا وَقَطْعُ الطَّرِيقِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتُوبَ عَنْ ذٰلِكَ تُمْـكِنُهُ التَّوْبَةُ لاَ مَحَالَةَ إِذْ لَمْ يُغْلَقْ عَنْهُ بَابُهَا ، وَلاَ يُمْـكِنُهُ تَرْكُ ٱخْتِيَارِ الزِّنَا وَقَطْعُ الطَّرِيقِ ،

---

أى لا يريد فعله ولا يقطع بفعله ( على ذلك بل ) هو ( يتردد ) بين العود إلى الذنب وعدم العزم عليه ( فإنه ) أى العبد المتردد ( ربمـا يقع له العود ) إلى ذلك الذنب ( فإنه ) جواب أما ( ممتنع عن الذنب غير تائب منه . والثانية ) من الشروط الأربعة ( أن يتوب من ذنب قد سبق عنه ) أى عن العبد ( مثله ، إذ لو لم يسبق ) بكسر الباء من باب ضرب (عنه مثله لـكان متقيا) أى مجتنبا عن الذنب (غير تائب ، ألا ترى أنه ) أى الحال والشان ، ألا حرف تنبيه واستفتاح وليست مركبة من همزة الاستفهام ولا النافية ، بل هى بسيطة ولـكنه لفظ مشترك بين التنبيه والاستفتاح فتدخل على الجملة اسمية كانت أو فعلية ، وبين العرض والتحضيض فتختص بالأفعال لفظا أو تقديرا كما أفاده الجمل عن السمين ( يصح القول بأن النبى صلى الله عليه وسلم كان متقيا عن الـكفر ، ولا يصح القول بأنه ) صلى الله عليه وسلم ( كان تائبا عن الـكفر ، إذ لم يسبق عنه ) عليه الصلاة والسلام ( كفر بحال ) من الأحوال ( و ) يصح القول بـ(أن عمر بن الخطاب رضى الله عنـه كان تائبا عن الـكفر ، لمـا سبق عنه ) أى عن سـيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ( ذلك ) الـكفر . ( والثالثة ) من الأربعة ( أن الذى ) أى الذنب الذى ( سبق عنه ) أى عن الشخص ( يكون مثل الذى يترك ) أى الشخص (اختياره فى المنزلة والدرجة ) عطف تفسير (لا فى الصورة، ألا ترى أن الشيخ الهرم ) بكسر الراء : أى الـكبير والضعيف ( الفانى ) أى القريب الفناء . قال الفيومى : وقيل للشيخ الهرم ذلك مجازا لقربه ودنوه من الفناء ( الذى سبق ) أى فى حال الشباب ( منه ) أى من الشيخ ( الزنا وقطع الطريق ) أى قطع المرور فيها بالتعرض للمار : أى منعه منه ( إذا أراد أن يتوب عن ذلك ) الزنا وقطع الطريق ( تمـكنه التوبة لا محالة إذ لم يغلق) بضم الياء أى لم يسد ( عنه بابها ) أى التوبة ( ولا يمكنه ) أى الشيخ ( ترك اختيار الزنا وقطع الطريق ،

إِذْ هُوَ لاَ يَقْدِرُ السَّاعَةَ عَلَى فِعْلِ ذٰلِكَ . فَلاَ يَقْدِرُ عَلَى تَرْكِ اخْتِيَارِهِ ، فَلاَ يَصِحُّ وَصْفُهُ بِأَنَّهُ تَارِكٌ لَهُ مُمْتَنِعٌ عَنْهُ وَهُوَ عَاجِزٌ عَنْهُ غَيْرُ مُتَمَكِّنٍ مِنْهُ ، لٰكِنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى فِعْلِ مَا هُوَ مِثْلُ الزِّنَا وَقَطْعِ الطَّرِيقِ فِى الْمَنْزِلَةِ وَالدَّرَجَةِ كَالْكَذِبِ وَالْقَذْفِ وَالْغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ ، إِذْ جَمِيعُ ذٰلِكَ مَعَاصٍ وَإِنْ كَانَ الْإِثْمُ يَتَفَاوَتُ فِى كُلٍّ وَاحِدَةٍ بِقَدْرِهَا ، لٰكِنْ جَمِيعُ هٰذِهِ الْمَعَاصِى الْفَرْعِيَّةِ كُلُّهَا بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِىَ دُونَ مَنْزِلَةِ الْبِدْعَةِ ، وَمَنْزِلَةُ الْبِدْعَةِ دُونَ مَنْزِلَةِ الْكُفْرِ فَلِذٰلِكَ تَصِحُّ مِنْهُ

---

إذ هو لا يقدر الساعة ) منصوب على الظرفية : أى فى وقت الهرم ( على فعل ذلك ) أى المذكور ( فلا يقدر على ترك اختياره ) وحينئذ ( فلا يصح وصفه ) أى ذلك الشيخ ( بأنه تارك له ) أى للمذكور من الزنا ونحوه ( ممتنع عنه وهو عاجز عنه غير متمكن منه ) أى مما ذكر ( لكنه ) أى الشيخ ( يقدر على فعل ماهومثل الزنا وقطع الطريق فى المنزلة والدرجة ) وذلك ( كالكذب ) أى لغير مصلحة (والقذف) وهوالرمى بالزنا فى مقام التعيير والتوبيخ ، وهو من الكبائر ؛ ويتعلق به الحد بالكتاب والسنة وإجماع الأمة كما أفاده الحصنى ( والغيبة ) بكسر الغين ، وهى ذكرك أخاك المسلم بما يكرهه لو بلغه ، سواء ذكرته بنقص فى بدنه ، أو نسبه ، أو فى خلقه ، أوفى فعله ، أوفى قوله ، أو دينه أو فى دنياه ، حتى فى ثوبه وداره ودابته ، كقولك : الأحول والأسود ، وقولك : أبوه هندى أو فاسق ، وقولك : إنه بخيل أو سيء الخلق ، وقولك : سارق أو قليل الأدب ، وقولك : إنه وسخ الثياب وإن كان المذكور بلسانك موجودا فى أخيك المسلم ، لقوله صلى الله عليه وسلم « اغتبتم أخاكم ، قالوا يا رسول الله قلنا ما فيه ، قال : إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتموه» وهى الصاعقة المهلكة كما سيأتي فى باب حفظ اللسان ( والنميمة ) وهى نقل القول للافساد . وحد النميمة كما قاله المصنف رحمه الله : كشف ما يكره كشفه ، سواء كرهه المنقول عنه أوالمنقول إليه ، أوكرهه ثالث ، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتاب أو بالرمز أو بالإيماء ، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيبا ، أو نقصا فى المنقول عنه أو لم يكن ، بل حقيقة النميمة إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه ، بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس فينبغى أن يسكت عنه إلا ما فى حكايته فائدة لمسلم ، أو دفع لمعصية . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة نمام » ( إذ جميع ذلك ) أى الكذب وما بعده ( معاص وإن كان الإثم يتفاوت فى كل واحدة ) أى من الكذب ونحوه ( بقدرها ، لكن جميع هذه المعاصى الفرعية كلها بمنزلة واحدة وهى ) أى منزلة المعاصى الفرعية ( دون منزلة البدعة ) فى الدين ( ومنزلة البدعة دون منزلة الكفر فلذلك ) أى فلكون جميع المعاصى الفرعية كلها بمنزلة واحدة ( تصح منه ) أى من الشيخ

التَّوْبَةُ عَنِ الزِّنَا وَقَطْعِ الطَّرِيقِ وَسَائِرِ مَا مَضَى مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي هُوَ عَاجِزٌ عَنْ أَمْثَالِهَا الْيَوْمَ فِي الصُّورَةِ . وَالرَّابِعَةُ أَنْ يَكُونَ تَرْكُ اخْتِيَارِهِ لِذَٰلِكَ تَعْظِيماً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحَذَرًا مِنْ سَخَطِهِ وَأَلِيمِ عِقَابِهِ مُجَرَّدًا لَا لِرَغْبَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ أَوْ رَهْبَةٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ طَلَبِ ثَنَاءٍ أَوْ صِيتٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ ضَعْفٍ فِي النَّفْسِ أَوْ فَقْرٍ أَوْ غَيْرِ ذَٰلِكَ ، فَهَٰذِهِ شَرَائِطُ التَّوْبَةِ وَأَرْكَانُهَا ، فَإِذَا حَصَّلْتَ وَاسْتَكْمَلْتَ فَهِيَ تَوْبَةٌ حَقِيقِيَّةٌ صَادِقَةٌ .

وَأَمَّا مُقَدِّمَاتُ التَّوْبَةِ فَثَلَاثٌ : إِحْدَاهَا ذِكْرُ غَايَةِ قُبْحِ الذُّنُوبِ .

---

الهرم ( التوبة عن الزنا وقطع الطريق وسائر ما مضى من الذنوب التى هو عاجز عن ) إتيان ( أمثالها اليوم ) أى زمن الهرم ( فى الصورة ) لا فى المنزلة . (والرابعة) هذه آخر الشرائط الأربعة ( أن يكون ترك اختياره ) أى العبد السالك ( لذلك ) أى الذنب ( تعظيما لله عزّ وجلّ وحذرا من سخطه وأليم عقابه ) أى عذابه فى الدّار الآخرة ( مجردا ) أى عن نفع الدنيا ( لا لرغبة دنيوية أو رهبة ) أى خوف ( من الناس أو طلب ثناء أو صيت ) أى ذكر جميل ينتشر فى الناس دون القبيح ، يقال : ذهب صيته فى الناس ، وربما قالوا : انتشر صوته فى الناس بمعنى صيته كما فى المختار ( أو جاه ) أى قدر ومنزلة ( أو ضعف فى النفس أو فقر أو غير ذلك ) أى من الأمور الصارفة له عن تعظيم مولاه جل وعز ( فهذه ) أى الشرائط الأربعة ( شرائط التوبة وأركانها ، فاذا حصلت ) ذلك ( واستكملت ) أى بالعمل به ( فهى ) أى توبتك التى استجمعت الشروط والأركان ( توبة حقيقية صادقة ) فهى مقبولة لا محالة بفضل الله تعالى لا بطريق الوجوب ، إذ لا يجب شىء على الخالق لأنه لا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا . قال الله تعالى « ولا يخاف عقباها » .

قال المصنف رحمه الله تعالى : فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم من المعاصى مقبول عند الله تعالى ، ومتنعم فى الآخرة فى جوار الله تعالى ، ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى ، وعلموا أن القلب خلق سليما فى الأصل ، وكل مولود يولد على الفطرة ، وإنما تفوقه السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها ، وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة ، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة ، وأنه لا طاقة لظلام المعاصى مع نور الحسنات ، كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار ، بل ينسخه ويمحوه ؛ بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون ، وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى ولا يليق أن يكون فى جواره وحظيرته (وأما مقدمات التوبة) بكسر الدال أو فتحها : أى فى أمور متقدمة أو مقدمة على المقصود ، وهو التوبة للانتفاع بها فيه مع تحريض الدواعى ( فثلاث : إحداها ذكر غاية قبح الذنوب ) وضررها وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب ، فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم ، فان كان فواته بفعله تأسف على

وَالثَّانِيَةُ ذِكْرُ شِدَّةِ عُقُوبَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَلِيمِ سَخَطِهِ وَغَضَبِهِ الَّذِى لاَ طَاقَةَ لَكَ بِهِ . وَالثَّالِثَةُ ذِكْرُ ضَعْفِكَ وَقِلَّةِ حِيلَتِكَ فى ذٰلِكَ ، فَإِنَّ مَنْ لاَ يَحْتَمِلُ حَرَّ شَمْسٍ وَلاَ لَطْمَةِ شُرْطِيٍّ

---

الفعل المفوت ، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندما ، فإذا غلب هـذا الألم على القلب واستولى انبعث من هذا الألم فى القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصد إلى فعل له تعلق بالحال وبالماضى وبالاستقبال . أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذى كان ملابسا له ومصاحبا به ، وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب ، وأما بالماضى فبتدارك ما فات وفرط من أمره بالجبر والقضاء إن كان قابلا للجبر (والثانية ذكر شدة عقوبة الله عز وجل وأليم سخطه وغضبه) عطف تفسير كما يعلم من المختار . والغضب فى الأصل : غليان الدم الموجب لإرادة الانتقام أطلق هنا وأريد به لازمه القريب وهو إرادة الانتقام ، أو البعيد وهو الانتقام لاستحالة المعنى الحقيقى عليه تعالى ، فالغضب صفة ذات على الأول ، وصفة فعل على الثانى ، وفى الكلام حذف مضاف : أى محل غضب الله وهو جهنم كما أفاده بعضهم (الذى لا طاقة) أى لا قدرة ولا قوة (لك به) أى بغضبه تعالى . وهذه العقوبات فى الآخرة ، وأما فى الدنيا فتعجيل العقوبة متوقع على الذنوب ، بل كل ما يصيب العبد من المصائب والبلايا فهو بسبب جنايته التى صدرت منه ، فان الذنوب كلها يتعجل فى الدنيا شؤمها فى غالب الأمر حتى إنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه ، وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولى عليه أعداؤه . قال صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » رواه ابن ماجه والحاكم واللفظ له وصحح إسناده . قال المظهر : اللام فى الرجل للعهد ، والمعهود بعض الجنس من المسلمين ، فلا يقدح فيه ما يرى من أن الكفرة والفسقة أعظم مالا وصحة من العلماء ، لأن الكلام فى مسلم يريد الله رفع درجته فى الآخرة فيصيبه من ذنوبه فى الدنيا ، وبه عرف أنه لا تناقض بينه وبين خبر « إن الرزق لا تنقصه المعصية » ولهذا وجه بعضهم الخبر بأن لله لطائف يحدثها للمؤمن ليصرف وجهه إليه عن اتباع شهوته والانهماك فى نهمته ، فاذا اشتغل بذلك عن ربه حرم رزقه ، فيكون زجرا له إليه عما أقبل عليه وتأديبا له ، لأن لا يعود لمثله . (والثالثة ذكر ضعفك) بفتح الضاد وضمها : أى عجزك وعدم قوتك (و) ذكر (قلة حيلتك) أى قوتك بل عدمها أصلا ، وفى نسخة حيائك والصحيح الأول كما فى سراج السالكين (فى ذلك) أى شدة عقوبة الله وغضبه (فان من لا يحتمل حر شمس) مع أنه خفيف بالنسبة إلى عذابه الأليم ، بل لا نسبة بينهما (ولا لطمة) فى المختار : اللطم الضرب على الوجه بباطن الراحة ، وبابه ضرب : أى ضربة (شرطى) أى جندى ، وهم أول كتيبة تشهد الحرب وتتهيأ للموت ، وطائفة من خيار أعوان الولاة ، وهم رؤساء الضابطية الواحد شرطة ، سموا بذلك لأنهم أعلموا أنفسهم بعلامات يعرفون بها كما أفاده القاموس وغيره . وفى

وَلَا قَرْصِ نَمْلَةٍ كَيْفَ يَحْتَمِلُ حَرَّ نَارِ جَهَنَّمَ وَضَرْبَ مَقَامِعَ الزَّبَانِيَةِ وَلَسْعَ حَيَّاتٍ كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ وَعَقَارِبَ كَالْبِغَالِ خُلِقَتْ مِنَ النَّارِ فِى دَارِ الْغَضَبِ وَالْبَوَارِ ، نَعُوذُ بِاللهِ ثُمَّ نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سَخَطِهِ وَعَذَابِهِ ، فَإِذَا وَاظَبْتَ عَلَى هٰذِهِ الْأَذْكَارِ وَعَاوَدْتَهَا آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فَإِنَّهَا سَتَحْمِلُكَ عَلَى التَّوْبَةِ النَّصُوحِ مِنَ الذُّنُوبِ وَاللهُ الْمُوَفِّقُ بِفَضْلِهِ .

فَإِنْ قِيلَ : أَلَيْسَ قَدْ قَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلم : « النَّدَمُ تَوْبَةٌ »

---

المصباح :- الشرطة بالسكون والفتح أيضا : الجند ، والجمع شرط ، مثل رطب ، والشرط على لفظ الجمع : أعوان السلطان ، لأنهم جعلوا لأنفسهم علامات يعرفون بها للأعداء ، الواحد : شرطة ، مثل غرف جمع غرفة ، وإذا نسبنا إلى هذا قيل شرطى بالسكون رداً إلى واحده ( ولا قرص ) أى عض (نملة كيف يحتمل حر نار جهنم وضرب مقامع الزبانية) جمع مقمعة بالكسر ، والمقامع : هي سياط من حديد رءوسها معوجة ، والزبانية : الملائكة الغلاظ الشداد ، سموا زبانية لأنهم يزبنون الكفار : أى يدفعونهم فى جهنم ، كذا قاله العلامة عبد الحى ابن شاه فى سراجه ( و ) كيف يحتمل ( لسع ) أى لدغ ( حيات كأعناق البخت ) بضم الباء الموحدة وسكون الخاء المعجمة ؛ نوع من الإبل طوال الأعناق (و) لسع (عقارب كالبغال) جمع بغل ، وهوحيوان معروف ( خلقت ) أى تلك الحيات والعقارب ( من النار في دار الغضب والبوار ) أى الهلاك ( نعوذ ) أى نتحصن ( بالله ثم نعوذ بالله ) تأكيد ( من سخطه وعذابه ، فاذا واظبت ) أى داومت ( على هذه الأذكار ) الثلاثة ( وعاودتها ) أى راجعتها مرة بعد أخرى ( آناء ) أى أطراف ( الليل والنهار فإنها ) أى الأذكار الثلاثة ( ستحملك ) أى ستبعثك ( على التوبة النصوح ) أى الخالص ( من الذنوب ، والله الموفق بفضله) وإحسانه . قال بعض الفضلاء :لفظ الموفق لم يعلم وروده لا فى كتاب ولا سنة ، وأسماء الله توفيقية على الصحيح ، فلعل المصنف رحمه الله تعالى مشى على غير مذهب الجمهور من أن كل وصف يشعر بمدح يجوز إطلاقه عليه تعالى وإن لم يرد كتابا ولا سنة ، أو يقال إن المصنف رحمه الله رأى نصا بأن لفظ موفق يطلق على الله تعالى ، وهذا اللفظ وقع لكثير من المصنفين والمؤلفين ، وحاشاهم أن يفعلوا ذلك إلا لاستنادهم لنص ( فان قيل أليس ) الشأن ( قد قال النبي صلى الله عليه وسلم : الندم توبة ) والمراد أن الندم لما كان معظم أركانها ، خصه بالذكر تنويها لشأنه ، لا أن الندم وحده كاف فيها ، فهو إذا من قبيل « الحج عرفة » قاله القشيرى فى الرسالة ، وهذا الحديث قال العراقي : رواه ابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث أنس ، وقال صحيح على شرط الشيخين . قال العلامة الزبيدى رواه ابن ماجه من طريق عبد الكريم الجزرى عن زياد بن أبى مريم عن ابن معقل قال : دخلت مع أبى على ابن مسعود فسمعته يقول : أقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « التوبة ندم ؟ » قال نعم ، ومن هذا الوجه أخرجه الطيالسى فى مسنده .

وَلَمْ يَذْكُرْ مِمَّا ذَكَرْتُمْ مِنْ شَرَائِطِهَا وَشَدَّدْتُمْ شَيْئاً ؟ يُقَالُ لَهُ : اُعْلَمْ أَوَّلاً أَنَّ النَّدَمَ غَيْرُ مَقْدُورٍ لِلْعَبْدِ ، أَلاَ تَرَى أَنَّهُ تَقَعُ النَّدَامَةُ عَنْ أُمُورٍ فِي قَلْبِهِ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ لاَ يَكُونَ ذٰلِكَ وَالتَّوْبَةُ مَقْدُورَةٌ لِلْعَبْدِ مَأْمُورٌ بِهَا . ثُمَّ إِنَّا قَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُ لَوْ نَدِمَ عَلَى الذُّنُوبِ لَمَّا ذَهَبَ بِذٰلِكَ جَاهُهُ بَيْنَ النَّاسِ أَوْ مَالُهُ فِي النَّفَقَةِ فِيهَا ، فَإِنَّ ذٰلِكَ لاَ يَكُونُ تَوْبَةً بِلاَ رَيْبٍ ، فَعَلِمْتَ بِذٰلِكَ أَنَّ فِي الْخَبَرِ مَعْنًى لَمْ تَفْهَمْهُ مِنْ ظَاهِرِهِ ، وَهُوَ أَنَّ النَّدَمَ لِتَعْظِيمِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَخَوْفِ عِقَابِهِ مِمَّا يَبْعَثُ عَلَى التَّوْبَةِ النَّصُوحِ . فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْ صِفَاتِ التَّائِبِينَ وَحَالِهِمْ ،

---

واختلف فى حد الندم ، فقال الراغب : هو التحسر من تغرر : أى فى أمر فائت . وقال أبو البقاء : هو أن يلوم نفسه على تفريط وقع منه . وقال غيره : وهو غم يصحب الانسان يتمنى أن ما وقع منه لم يقع ، وكل هذه المعانى متقاربة ( ولم يذكر ) أى النبي صلى الله عليه وسلم ( مما ذكرتم من شرائطها ) أى شرائط التوبة الأربعة وأركانها ومقدماتها ( وشددتم ) على ( شيئا ) لم يذكر عن النبي عليه الصلاة والسلام ( يقال له ) أي للقائل ( اعلم أولا ) أى قبل بيان معنى الخبر ( أن الندم غير مقدور للعبد ، ألا ترى أنه ) أى الشأن (تقع الندامة عن أمور فى قلبه وهو ) أى العبد ( يريد أن لا يكون ) أى لا يلحقه ( ذلك ) أى الندم ( والتوبة مقدورة للعبد مأمور بها ، ثم إنا علمنا ) يقينا ( أنه ) أى العبد ( لو ندم ) بكسر الدال من باب طرب ( على ) ما فعله من ( الذنوب لما ذهب ) علة ندم وما زائدة أو مصدرية ( بذلك ) أى بارتكاب الذنوب وفعلها (جاهه) فاعل ذهب أى قدره ( بين الناس أو ماله فى النفقة فيها ) أى في التصرف والانفاق فى سبب تلك الذنوب ( فان ذلك ) أى الندم لما ذكر ( لا يكون توبة ) لعدم تعظيم الله تعالى وخوف عقابه ( بلا ريب ) أى بلا شك وحقيقة الريب كما قاله الزمخشرى : قلق النفس واضطرابها ، ومنه الحديث « دع ما يريبك » وليس قول من قال : الريب الشك مطلقا بجيد ، بل هو أخص من الشك . وقال بعضهم: فى الريب ثلاث معان : أحدها الشك . وثانيها التهمة . وثالثها الحاجة ، أفاده السمين ( فعلمت بذلك ) أى بقولنا إنه لو ندم إلى آخره ( أن فى الخبر ) المذكور ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم « الندم توبة » ( معنى لم تفهمه من ظاهره ) أى الخبر ( وهو ) أى ذلك المعنى ( أن الندم ) على فعل الذنوب هو ( لتعظيم الله سبحانه وخوف عقابه ) أى لا لخوف من الناس أو سقوط المنزلة وغير ذلك من الأغراض الدنيوية ، وذلك ( مما يبعث ) أى يحمل ( على التوبة النصوح فان ذلك ) أى الندم لتعظيم الله سبحانه وخوف عقابه ( من صفات التائبين وحالهم ) وباعتبار اختلاف مراتبهم ، يقال : التوبة صفة المؤمنين ، والإنابة صفة المقربين ، والأوبة صفة الأنبياء المرسلين ، ويقال : إن التوبة من طريق المعنى على ثلاثة أنواع : فالأول التوبة من ذنب يكون بين العبد وبين ربه ، وهذه تكون بندامة الجنان واستغفار اللسان . والثانى التوبة من

فَإِنَّهُ إِذَا ذَكَرَ الْأَذْكَارَ الثَّلَاثَةَ الَّتِي هِيَ مُقَدِّمَاتُ التَّوْبَةِ نَدِمَ وَحَمَلَتْهُ النَّدَامَةُ عَلَى تَرْكِ اخْتِيَارِ الذُّنُوبِ وَتَبْقَى نَدَامَتُهُ فِى قَلْبِهِ فِى الْمُسْتَقْبَلِ فَتَحْمِلُهُ عَلَى الْاِبْتِهَالِ وَالتَّضَرُّعِ ، فَلَمَّا كَانَ ذَٰلِكَ مِنْ أَسْبَابِ التَّوْبَةِ وَصِفَاتِ التَّائِبِ سَمَّاهُ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بِاسْمِ التَّوْبَةِ ، فَافْهَمْ ذَٰلِكَ مُوَفَّقًا إِنْ شاء اللهُ تعالى .

فَإِنْ قُلْتَ كَيْفَ يُمْكِنُ

---

ذنب يكون بين العبد وبين طاعة الرب ، وهذه تكون بجبر النقصان الواقع فيها . والثالث من ذنب يكون بين العبد وبين الخلق ، وهذه تكون بارضاء الخصوم بأى وجه من الامكان ، ومن طريق اللفظ ، وسبيل اللطف على ثلاثة وثلاثين درجة منها لاتكون مثمرة حتى يتم أمرها ، ولا تظن أنك مزيد فيها ، فان أباك آدم عليه السلام كان مقدم التائبين . وإذا أردت التوبة فهو المريد لتوبتك ، فاذا تاب فتوبته عليك جزاؤه بمحبته ، ولا تقبل توبة من يدخرها من الوقت ، ولا ينال مقام التوبة إلا بتوفيق الله ، وإذا تاب المؤمن أقبل الله عليه بالقبول ، وكفل له نيل المأمول ، ومن تاب كان في أمان الايمان مصاحبا لسلاح الصلاح ، ومن تاب وقصد الباب حصل له الفرج أفضل الأسباب ، إذا أقبل العبد على باب التوبة استحكم عقد أخوته مع أهل الايمان ، ومن أثار غبار المعاصى وأتبعه برشاش الندم غلبت الحكمة الإلهية طاعته على معصيته ومن لاذ بحرم التوبة قبل القدرة عليه فلا سبيل للايذاء عليه . وروى صاحب نهج البلاغة أن عليا رضى الله عنه قال لرجل قال بحضرته أستغفر الله : ثكلتك أمك ، أتدرى ما الاستغفار ؟ قال: الاستغفار درجة العليين ، وهو اسم واقع على ستة معان : أولها الندم على ما مضى ، والثانى العزم على ترك العود إليه أبدا . والثالث أن تؤدى إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله عز وجل ليس عليك تبعة . والرابع أن تعمد إلى كل فريضة ضيعتها فتؤدى حقها . والخامس أن تعمد إلى اللحم الذى على السحت فتذيبه بالأحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد . والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية ، فعند ذلك تقول أستغفر الله ( فانه ) أى العبد المذنب ( إذا ذكر ) فى قلبه ( الأذكار الثلاثة التى هى مقدمات التوبة ندم ) على فعله ما يخالف الشرع ( وحملته الندامة على ترك اختيار الذنوب وتبقى ندامته فى قلبه فى المستقبل فتحمله ) هذه الندامة ( على الابتهال والتضرع ) إلى الله تعالى ، هما مترادفان كما قيل ( فلما كان ذلك ) أى الندم لما ذكر ( من أسباب التوبة وصفات التائب سماه ) أى الندم لذلك ( رسول الله صلى الله عليه وسلم باسم التوبة ) مجازا مرسلا من قبيل تسمية السبب باسم المسبب ( فافهم ذلك ) أى التسمية (موفقا) أى حال كونك أعطيت التوفيق من الله (إن شاء الله تعالى . فإن قلت : كيف يمكن

الْإِنْسَانُ أَنْ يَصِيرَ بِحَيْثُ لاَ يَقَعُ مِنْهُ ذَنْبٌ أَلْبَتَّةَ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ ، كَيْفَ وَأَنْبِيَاءُ اللهِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ الَّذِينَ هُمْ أَشْرَفُ خَلْقِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، قَدِ اخْتَلَفَ فِيهِمْ أَهْلُ الْعِلْمِ : هَلْ نَالُوا هٰذِهِ الدَّرَجَةَ أَمْ لاَ ؟

---

الإنسان أن يصير بحيث لايقع منه ذنب ألبتة) أى قطعا (من صغير أو كبير ، كيف ) يمكن ذلك (و) الحال أن (أنبياء الله صلوات الله عليهم وسلامه الذين هم أشرف خلق الله سبحانه وتعالى قد اختلف فيهم) أي الأنبياء عليهم السلام (أهل العلم هل نالوا هذه الدرجة) وهى عدم وقوع الذنب مطلقا (أم لا) نالوا وحصلوا ذلك ، وفي ضوء المعالي لبدء الأمالى للعلامة على القارى رحمه الله : فالأنبياء عليهم السلام معصومون عن أنواع الكفر مطلقا قبل البعثة وبعدها بالإجماع وكذا عن سائر الكبائر عمدا باتفاق العلماء المعتبرين ، ومحله بعد البعثة ؛ وأما سهوا فجوزوا وقوعها منهم عند الأكثرين كما فى شرح العقائد انتهى . وفي شرح المواقف . وأما صدور الكبائر منهم سهوا أو على سبيل الخطأ فى التأويل فجوزه الأكثرون والمختار خلافه . وفى [ضوء المعالى] أيضا : وأما الصغائر فما كان منها دالا على الخسة كسرقة لقمة فلا خلاف فى عصمتهم منه مطلقا ، ومالا يدل على ذلك فالمختار لجمهور أهل السنة عصمتهم عن عمده . وأما سهوه فنقل ابن جماعة أن المعصية ضد الطاعة ، وأن الأنبياء معصومون من الكبائر والصغائر عمدا وسهوا خلافا للحنفية فى سهو الصغائر انتهى . وهو مخالف لما حكي التفتازانى فيه الاتفاق . وأما قول شارح [المقدس] لعل مراده اتفاق الحنفية فغير صحيح لما بينه في شرح العقائد أنه أراد به الإجماع ، ولعل مراده إجماع المتقدمين أو جمهورهم فلا ينافيه المنقول عن الأستاذ أبي إسحاق الإسفرايني ، وأبى الفتح الشهرستانى والقاضى عياض أنهم معصومون عن الكبائر والصغائر عمدا وسهوا ، واختاره السبكي ولا يبعد أن يقال المراد بالاتفاق هو التجويز ، ومورد الاختلاف الوقوع ، والله أعلم .

قال العلامة النوبى : الذى أعتقده وأدين به وأعتمده تبعا للأستاذ أبى إسحاق الاسفرايني وأبى الفتح الشهرستانى والقاضى عياض وكثير من المتأخرين منهم الإمام السبكى والإمام البلقيني ، ونقله فى زيادات الروضة عن المحققين ، واعتمده القاضى حسين : هو أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الكبائر والصغائر عمدا وسهوا قبل النبوة وبعدها ، لأن المعصية ولو قبل النبوة تورث معرة وشبهة فى تبليغ الأحكام تمنع من اتباعهم فتفوت مصلحة البعثة ، ويؤيد عصمتهم قبل النبوة قوله تعالي «لا ينال عهدي الظالمين» ، وما نقل عنهما آحادا أو تواترا فمؤول بترك الأفضل كأ كل آدم وفعل إخوة يوسف ، على أن أ كل آدم من الشجرة إنما كان باجتهاد منه ، وهو أنه فهم من قوله تعالى «ولا تقربا هذه الشجرة» أن النهى خاص بشجرة معينة مستدلا بأن النهى جائز تخصيصه ، فلم يقرب تلك الشجرة المعينة ، فأكل من جنسها لامن عينها

فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذَا أَمْرٌ مُمْكِنٌ غَيْرُ مُسْتَحِيلٍ ثُمَّ هُوَ هَيِّنٌ، وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ . ثُمَّ مِنْ شَرْطِ التَّوْبَةِ أَنْ لاَ يَتَعَمَّدَ ذَنْباً ، فَأَمَّا إِنْ وَقَعَ مِنْهُ بِسَهْوٍ أَوْ خَطَإٍ فَهُوَ مَعْفُوٌّ عَنْهُ بِفَضْلِ اللهِ تَعَالَى، وَهٰذَا هَيِّنٌ عَلَى مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تَعَالَى .

فَإِنْ قُلْتَ إِنَّمَا يَمْنَعُنِي مِنَ التَّوْبَةِ أَنِّي أَعْلَمُ مِنْ نَفْسِي أَنِّي أَعُودُ إِلَى الذَّنْبِ وَلاَ أَثْبُتُ عَلَى التَّوْبَةِ فَلاَ فَائِدَةَ فِي ذٰلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذَا مِنْ غُرُورِ الشَّيْطَانِ وَمِنْ أَيْنَ لَكَ هٰذَا الْعِلْمُ فَعَسَى أَنْ تَمُوتَ تَائِباً قَبْلَ أَنْ تَعُودَ إِلَى الذَّنْبِ .

وَأَمَّا الْخَوْفُ مِنَ الْعَوْدِ فَعَلَيْكَ الْعَزْمُ وَالصِّدْقُ فِي ذٰلِكَ وَعَلَيْهِ الْإِتْمَامُ ، فَإِنْ أَتَمَّ فَذَاكَ الْمَقْصُودُ مِنْ فَضْلِهِ وَإِنْ لَمْ يَتِمَّ فَقَدْ غُفِرَتْ ذُنُوبُكَ السَّالِفَةُ كُلُّهَا وَتَخَلَّصْتَ مِنْهَا وَتَطَهَّرْتَ وَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلاَّ هٰذَا الذَّنْبُ الَّذِي أَحْدَثْتَهُ الآنَ

---

وبيع الحر كان مباحا فى ملتهم بالسرقة والدين والإقرار ، وقد سكت يوسف عليه السلام عند البيع وسكوته يؤذن بالإقرار ، فتبين بهذا أن ما اختاره القاضى عياض والبلقينى والسبكى هو الصحيح ، وإلى هذا أشار بقوله ( فاعلم أن هـذا ) أى صيرورة الإنسان بحيث لايقع منه ذنب قطعا مطلقا ( أمر ممكن غير مستحيل ، ثم هو ) أى هذا الأمر ( هين ) أى سهل (والله) سبحانه وتعالى ( يختص برحمته من يشاء ) من عباده لاراد لما أعطى ( ثم من شرط التوبة أن لايتعمد ) أى لايقصد العبد ( ذنبا فأما إن وقع ) أى الذنب ( منه ) أى من العبد ( بسهو أو خطأ ) أى غير عمد ( فهو ) أى الذنب الواقع بلا عمد وقصد ( معفوٌّ عنه بفضل الله تعالى ، وهذا ) أى عدم قصد الذنب ( هين على من وفقه الله تعالى . فان قلت : إنما يمنعنى من ) إرادة ( التوبة أنى أعلم من نفسى أنى أعود ) أى أرجع ( إلى الذنب ) بعد التوبة ( ولا أثبت على التوبة فلا فائدة ) لي ( فى ذلك ) أى التوبة ( فاعلم أن هذا ) أى علمك بعودك إلى الذنب المانع من التوبة ( من غرور الشيطان ) وخداعه ( ومن أين ) حصل ( لك هـذا العلم ) بالعود إلى الذنب ( فعسى أن تموت تائبا قبل أن تعود إلي الذنب . وأما الخوف من العود ف ) يلزم (عليك العزم) أى القصد ( والصدق فى ذلك ) أى الخوف منه ( وعليه ) تعالى على سـبيل الفضل والانعام ( الإتمام ) على مقصودك ، بأن استعملك علي استمرار التوبة وعدم العود إلى المعصية ( فان أتم ) الله تعالى مرادك ( فذاك ) الاتمام هو ( المقصود ) الأعظم ( من فضله ) تعالى ( وإن لم يتم ) سبحانه وتعالى قصدك الاستمرار لما ذكر وذلك بأن استعملك علي ارتـكاب المعصية بعد التوبة ( فقد غفرت ذنوبك السالفة كلها وتخلصت منها وتطهرت وليس عليك إلا هذا الذنب الذى أحدثته ) أى فعلته ( الآن ) أى بعد التوبة المقبولة . قال العلامة الجمل : الآن ظرف زمان يقتضى الحال ويخلص المضارع له عـند

وَهٰذَا هُوَ الرِّبْحُ الْعَظِيمُ وَالْفَائِدَةُ الْعَظِيمَةُ الْكَبِيرَةُ فَلَا يَمْنَعْكَ خَوْفُ الْعَوْدِ عَنِ التَّوْبَةِ فَإِنَّكَ مِنَ التَّوْبَةِ أَبَدًا بَيْنَ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَاللّٰهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ وَالْهِدَايَةِ فَهٰذِهِ هٰذِهِ .

---

جمهور النحويين ، وهو لازم للظرفية لا يتصرف غالبا بنى لتضمنه معنى حرف الإشارة ، كأنك قلت هذا الوقت ؛ واختلف فى أل التى فيه . فقيل للتعريف الحضوري ، وقيل زائدة لازمة (فهذا) أي غفران الذنوب والتخليص والتطهير منها بفضل علام الغيوب ( هو الربح العظيم والفائدة العظيمة الكبيرة فلا يمنعك خوف العود ) إلى الذنب ( عن التوبة ، فانك من التوبة أبدا بين إحدي الحسنيين ) أي المتقدمتين وهما حصول المقصود إن أعطيت الإتمام ، وغفران الذنوب إن لم تعط ذلك من الملك العلام ( والله ولى التوفيق والهداية ) إلى سبيل الرشاد ( فهذه ) الجملة ( هذه ) أى عظيمة .

[ قسمة ] اعلم أن الذنوب كما قاله أبو حامد الغزالى وغيره تنقسم إلى صغائر وكبائر ، وقد كثر اختلاف الناس فيها ، فقال قائلون : لا صغيرة ولا كبيرة ، بل كل مخالفة لله فهي كبيرة ، وهذا ضعيف إذ قال تعالى « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما » وقال تعالي « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم» وقال صلى الله عليه وسلم « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرن ما بينهن إن اجتنبت الكبائر » وفى لفظ آخر « كفارات لما بينهن إلا الكبائر » . رواه أبو نعيم فى الحلية من حديث أنس . وقد قال صلى الله عليه وسلم فما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص « الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الولدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس » .

واختلف الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم فى عدد الكبائر من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك ، فقال ابن مسعود رضى الله عنه : هي أربع : الاشراك بالله ، واليأس من روح الله ، والقنوط من رحمة الله ، والأمن من مكر الله . رواه عبد الرزاق وعبد ابن حميد وابن أبى الدنيا فى التوبة وابن جرير وابن المنذر والطبرانى . وقال ابن عمر : «هى سبع الإشراك بالله ، وقذف المحصنة ، وقتل النفس المؤمنة ، والفرار من الزحف ، والسحر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم » أخرجه على ابن الجعد فى الجعديات والبيهقى عن طيلسة . وقال عبد الله ابن عمرو بن العاص : هى تسع : الاشراك بالله ، وقتل النسمة ، يعنى بغير حق ، وقذف المحصنة ، والفرار من الزحف ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والذى يستسحر ، وإلحاد فى المسجد الحرام ، وبكاء الوالدين من العقوق ، رواه البخارى فى الأدب المفرد وابن راهويه وعبد بن حميد وابن جرير والقاضى إسمعيل فى أحكام القرآن وابن المنذر بسند حسن كلهم من طريق طيلسة ، وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر: الكبائر سبع ، يقول : هى إلى سبعين أقرب منها إلى سبع رواه عبد الرزاق وعبد بن حميد . وقال ابن عباس مرة : كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة :

وَأَمَّا الْخُرُوجُ عَنِ الذُّنُوبِ وَالتَّخَلُّصُ مِنْهَا . فَاعْلَمْ أَنَّ الذُّنُوبَ فِى الْجُمْلَةِ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ :
أَحَدُهَا: تَرْكُ وَاجِبَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْكَ مِنْ صَلَاةٍ أَوْ صَوْمٍ أَوْ زَكَاةٍ

---

وقال غيره من السلف : كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر . وقال بعض السلف : كل ما أوجب عليه الحد فى الدنيا فهو كبيرة : كزنا، ولواط ، وشرب خمر وإن قل ولم يسكر ، ونبيذ ولم يعتقد حله ، وسرقة ، وقذف ، فهذه فيها حدود . وأما الصغائر عندهم من اللمم : وهو ما لا حد فيه وما لم يتهدد بالنار عليه . وقال بعضهم : إنها : أى الكبائر مبهمة لا يعرف حقيقة عددها كليلة القدر ، وساعة يوم الجمعة ، والصلاة الوسطى ليكون الناس على خوف ورجاء ، فلا يقطعون بشيء ولا يسكنون إلى شيء ، كذا فى القوت . وقد قال ابن مسعود رضى الله عنه فيها قولا حسنا من طريق الاستنباط لما سئل عنها : اقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله تعالى « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه » فكل ما نهى الله عنه فى هذه السورة إلى هنا فهى كبيرة . قال العلامة مرتضى : ومن حدود الكبيرة كل جريمة تؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين ورقة الديانة مبطلة للعدالة . وكل جريمة لا تؤذن بذلك بل لسبق حسن الظن ظاهرا بصاحبها لا تحبط العدالة ، وهذا أحسن ما يتميز به أحد الضدين عن الآخر كما قاله إمام الحرمين . ومن حدود الكبيرة ما قاله المصنف أبو حامد الغزالى فى بعض كتبه : كل معصية يقدم المرء عليها من غير استشعار خوف ووجدان ندم تهاونا واستجراء عليها فهى كبيرة ، وما يحمل على فلتات النفس ولا ينفك عن ندم يمتزج بها وينقص التلذذ بها فليس بكبيرة ( وأما الخروج عن الذنوب والتخلص منها ) أى من الذنوب ( فاعلم أن الذنوب فى الجملة ) أى من غير تفصيل لكلها ( ثلاثة أقسام : أحدها ترك واجبات الله سبحانه وتعالى عليك من صلاة ) فان كنت قد تركت صلاة من الخمس ، أو صليتها فى ثوب نجس أو بدن نجس أو مكان نجس ، أو صليتها بنية غير صحيحة لجهلك بشرط النية فتقضيها عن آخرها ، فان شككت فى عدد ما فاتك منها حسب من مدة بلوغك ، وترك القدر الذى تتيقن أنك أديته وتقضى الباقى ، ولك أن تأخذ فيه بغالب الظن الذى تصل إليه على سبيل التحري والاجتهاد ( أو صوم ) فان كنت قد تركته فى سفر ولم تقضه ، أو أفطرت عمدا ، أو نسيت النية بالليل ولم تقض فتتعرف مجموع ذلك بالتحرى والاجتهاد وتشتغل بقضائه ( أو زكاة ) فتحسب جميع مالك وعدد السنين من أول ملكه لا من زمان البلوغ ، فان الزكاة واجبة فى مال الصبى ، خلافا لأبى حنيفة فتؤدى ما علمت بغالب الظن أنه فى ذمتك ، فان أديته لا على وجه يوافق مذهبك بأن لم تصرف إلى الأصناف الثمانية بل إلى بعضها كما هو مذهب أبى حنيفة ، أو أخرجت البدل كما هو مذهبه والحال أنك على مذهب الشافعى فتقضى جميع ذلك ، فان ذلك لا تجزيه أصلا ؛ وبالجملة إن حساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول ، ويحتاج فيه إلى تأمل شاف ، واحتياط واف

أَوْ كَفَّارَةٍ أَوْ غَيْرِها فَتَقضِي مَا امْكَنَكَ مِنها . وَالثَّانِي: ذُنُوبٌ بَيْنَك وَبَيْنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتعَالَى كَشُرْبِ الخَمْرِ وَضَرْبِ المَزَامِيرِ وَأَكْلِ الرِّبَا وَنَحْوِ ذٰلِكَ ، فَتَنْدَمُ عَلَى ذٰلِكَ وَتُوَطِّنُ قَلْبَكَ عَلَى تَرْكِ العَوْدِ إِلى مِثْلِها أَبَدًا . وَالثَّالِثُ : ذُنُوبٌ بَيْنكَ وَبَيْنَ العِبادِ ، وَهذَا

---

( أو كفارة )وهي كثيرة كما هو مبسوط فى محله ( أوغيرها ) أىالصلاة والصوم والزكاة والكفارة ومنه الحج ( فتقضى ما أمكنك ) بالتتبع والتفتيش كما سبق ( منها ) أى من الواجبات المتروكة ، ( و ) القسم ( الثانى ذنوب بينك وبين الله سبحانه وتعالى كشرب الخمر وضرب المزامير ) جمع مزمار بكسر الميم: وهو ما يضرب به مع الأوتار. وهو مزمارعراقى كما قاله شيخ الاسلام فىالفتح ، والمراد هنا مايعم فيه من آلة الملاهى . وفى الحديث « من استمع آلة الملاهي فىالدنيا لم يسمع قراءة قراء أهلالجنة » . ومنهم يوسف ومحمد صلى الله عليه وسلم أفاده بعض المحققين ( وأكل الربا ونحو ذلك ) كنظر إلى غير محرم وقعود فى مسجد مع الجنابة ، ومس مصحف بغير وضوء ولا تيمم ، واعتقاد بدعة غير مخرجة عن الملة ؛ وإلقاء المال فى البحر وإنفاقه فى المعصية وغير ذلك ( فتندم ) وتتحسر ( على ذلك ) أى المذكور من الذنوب التى لاتتعلق بالعباد ( وتوطن ) أى تقرر ( قلبك على ترك العود إلى مثلها ) أى الذنوب المذكورة ( أبدا ) أى ثم تأتى من الحسنات بمقدار تلك السيئات بعد أن تحسب مقدارها من حيث كبرك ومدتك ، وتطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها أخذا من قوله صلى الله عليه وسلم « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » . رواه الترمذى وصححه ، بل من قوله تعالى « إن الحسنات يذهبن السيئات » فتكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه ، كالتصدق بشرب السكر مثلا تجعله فى كيزان وتسقى الناس فى المجامع ، أو تقف به فى ممر الناس فى أوقات شدة الحر والعطش ؛ وتكفر سماع الملاهي بسماع القرآن ، وبمجالس الذكر والعلم ، وتكفر أكل الربا بالتصدق بالطعام الحلال ، وتكفر القعود فى المسجد جنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة ؛ وتكفر مس لمصحف محدثا باكرام المصحف ، وكثرة قراءة القرآن منه ، وكثرة تقبيله ، وبأن تكتب مصحفا وتجعله وقفا وهكذا إلى مايناسب الذنوب ، وعد جميع المعاصى غير ممكن ، وإنما المقصود سلوك طريق المضادة ، فإن المرض إنما يعالج بضده ليقاومه فيعتدل المزاج ، وكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور ارتفعت إليها بطاعة من جنسها ، لكن تضادها والمضادات هى المتناسبات ، فلذلك ينبغي أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها مع المضادات ، فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة ، وهذا التدريج من التلطف فى طريق المحو ، فالرجاء فيه أصدق ، والثقة أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات ، وإن كان أيضا مؤثرا فى المحو ، فهذا حكم مابينه وبين الله تعالى ( و ) القسم ( الثالث ذنوب بينك وبين العباد وهذا ) أى أمر

أَشْكَلُ وَأَصْعَبُ ، وَهِىَ أَقْسَامٌ قَدْ تَكُونُ فِى الْمَالِ وَفِى النَّفْسِ وَفِى الْعِرْضِ وَفِى الْحُرْمَةِ وَفِى الدِّينِ . فَمَا كَانَ فِى الْمَالِ فَيَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَرُدَّهُ عَلَيْهِ إِنْ أَمْكَنَكَ ، فَإِنْ عَجَزْتَ عَنْ ذٰلِكَ لِعَدَمٍ وَفَقْرٍ فَتَسْتَحِلَّ مِنْهُ ، فَإِنْ عَجَزْتَ عَنْ ذٰلِكَ لِغَيْبَةِ الرَّجُلِ أَوْ مَوْتِهِ وَأَمْكَنَ التَّصَدُّقُ عَنْهُ فَافْعَلْ ، وَإِنْ لَمْ يُمْكِنْ فَعَلَيْكَ بِتَكْثِيرِ حَسَنَاتِكَ وَالرُّجُوعِ إِلَى اللهِ بِالتَّضَرُّعِ وَالِابْتِهَالِ أَنْ يُرْضِيَهُ عَنْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

---

هذه الذنوب ( أشكل وأصعب ) لكثرة مطالبه ووعور مسالكه (وهى) أى تلك الذنوب المتعلقة بينك وبين العباد ( أقسام ) أى خمسة (قد تكون فى المال وفى النفس وفى العرض ) بكسر العين: موضع المدح والذم من الإنسان سواء كان فى نفسه أو سلفه كما فى المرقاة . وفى المصباح : العرض بالكسر : النفس والحسب (وفى الحرمة) بالضم : مالا يحل انتهاكه كما فى المصباح ( وفى الدين ، فما كان فى المال ) أى من غصب ، أو خيانة ، أو غبن فى معاملة بنوع تلبيس ، كترويج زائف أو ستر عيب من المبيع ، أو نقص أجرة أجير استأجرته بأن تعطيه أقل مما تعطى أمثاله ، فكل ذلك يجب أن تفتش وتبحث عنه لامن حد بلوغك ، بل من أول مدة وجودك ، فان مايجب فى مال الصبى يجب على الصبى إخراجه بعد البلوغ إن كان الولى قد قصر فيه ، فان لم يفعل كان ظالما مطالبا به يوم القيامة ، إذ يستوى فى الحقوق المالية الصبى والبالغ . ولتحاسب نفسك على الحبات والدوانق من أول يوم حياتك إلى يوم توبتك قبل أن تحاسب فى القيامة ؛ ولتناقش قبل أن تناقش ، فمن لم يحاسب نفسه فى الدنيا طال فى الآخرة حسابه ، فإذا حصلت مجموع ماعليك بظن غالب ونوع من الاجتهاد ممكن ( فيجب عليك أن ترده ) أى ماعليك من المال ( عليه ) أى على مالكه إن وجدته وإلا فورثته الأقرب فالأقرب كما قاله العلامة مرتضى ، هذا ( إن أمكنك ) الرد بأن حصلته كما ذكر ( فإن عجزت عن ذلك ) أى رد المال على مالكه ( لعدم ) أى لعدم ماأخذته ( وفقر ) أي عدم ماعندك من مال وغيره ( فتستحل منه ) أى تطلب من المالك أن يحل لك ( فإن عجزت عن ذلك ) أى الاستحلال ( لغيبة الرجل ) أى الذى هو مالك المال أو ذهابه ( أو موته وأمكن التصدق عنه ) أى عن ذلك الرجل ( فافعل ) أى التصدق ، ولكن بنية الغرامة إذا وجدته كما قاله العلامة عبد الحق بن شاه ( وإن لم يمكن ) التصدق ( فعليك ) أى الزم ( بتكثير حسناتك ) حتى تفيض عنك فتؤخذ حسناتك وتوضع فى موازين أرباب المظالم ، كما ورد فى الخبر ، ولتكن كثرة حسناتك بقدر كثرة مظالمك ، فإنه إن لم تف بها حسناتك حملت من سيئات أرباب المظالم فتهلك بسيئات غيرك ، فهذا طريق كل تائب فى رد المظالم ( والرجوع إلى الله بالتضرع والابتهال ) ظاهرا وباطنا ( أن يرضيه ) أى خصمك الذى يملك الحق ( عنك يوم القيامة ؛

وَأَمَّا مَا كَانَ فِى النَّفْسِ فَتُمَكِّنُهُ مِنَ الْقِصَاصِ أَوْ أَوْلِيَاءَهُ ، حَتَّى يَقْتَصَّ مِنْكَ أَوْ يَجْعَلَكَ فِى حَلٍّ فَإِنْ عَجَزْتَ فَالرُّجُوعُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَالِابْتِهَالُ إِلَيْهِ أَنْ يُرْضِيَهُ عَنْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَأَمَّا فِى الْعِرْضِ فَإِنِ اغْتَبْتَهُ أَوْ بَهَتَّهُ أَوْ شَتَمْتَهُ فَحَقُّكَ أَنْ تُكَذِّبَ نَفْسَكَ بَيْنَ يَدَىْ مَنْ فَعَلْتَ ذٰلِكَ عِنْدَهُ وَأَنْ تَسْتَحِلَّ مِنْ صَاحِبِهِ إِنْ أَمْكَنَكَ هٰذَا إِذَا لَمْ تَخْشَ زِيَادَةَ غَيْظٍ أَوْ هَيْجِ فِتْنَةٍ فِى إِظْهَارِ ذٰلِكَ أَوْ تَجْدِيدِهِ ، فَإِنْ خَشِيتَ ذٰلِكَ فَالرُّجُوعُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِيُرْضِيَهُ عَنْكَ وَيَجْعَلَ لَهُ خَيْرًا كَثِيرًا فِى مُقَابَلَتِهِ ،

---

وأما ما كان فى النفس ) من قتل أو قذف ( فتمكنه ) أى المستحق ( من القصاص ) أو الحد (أو) تمكن منه ( أولياءه ) أى ورثته الأقرب فالأقرب كما تقدم ، هـذا إن لم تجد المستحق بعينه ( حتى يقتص ) أى كل منهما ( منك أو يجعلك فى حل ) وعفو ( فإن عجزت ) عن تمكين المستحق وأهله لكونهم غائبين أو ميتين أو غير ذلك ( فالرجوع ) بتكثير الحسنات وأنواع الخيرات ( إلى الله سبحانه والابتهال ) أى التضرع بإخلاص الدعاء ( إليه ) جلّ وعز ( أن يرضيه ) أى بأن يرضيه الله تعالى بإسقاط المظالم ( عنك يوم القيامة . وأما ) المظالم التي كانت ( فى العرض ) ففيها تفصيل ( فإن اغتبته ) أى الإنسان ( أو بهته ) بفتحتين مع تشديد التاء للمخاطب وبابه نفع : أى قذفته وافتريت عليه الكذب ( أو شتمته فحقك أن تكذب نفسك بين يدى من فعلت ذلك ) أى ماذكر من الغيبة أو البهتان أو الشتم ( عنده ) أى عند من فعلت ذلك بأن تقول كذبت في قولى كذا وكذا فى حق ذلك الإنسان (و) حقك أيضا ( أن تستحل ) أى تطلب الاستحلال ( من صاحبه ) أي المذكور من الغيبة وما بعده . والصاحب هو الانسان الذى اغتبته أو نسبته إلى البهتان أو شتمته ، والاستحلال المذكور هو مع التفصيل ، وذلك بأن تعرفه قدر جنايتك وتعرضك له ، لأن الاستحلال المبهم لايكفى كما قاله فى الإحياء وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديك عليه لم تطب نفسه بالإحلال ، وادخر ذلك فى القيامه ذخيرة يأخذها من حسناتك أو يحملك من سيئاته ، هذا ( إن أمكنك ) الاستحلال وإلا بأن لم يمكنك ذلك لخوف فتنة أو موت أو غائب ، فقد فات أمر المستحق ، فلا سبيل لك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منك عوضا فى القيامة عند المحاسبة ، أو يرضيه الله عنك كما أشار بقوله رحمه الله تعالى ( هـذا ) أى وجوب الاستحلال عليك ( إذا لم تخش زيادة غيظ ) أى غضب ( أو هيج فتنة ) أي إثارتها وتحركها ( في إظهار ذلك ) أى مافعلته من الجناية القلبية ( أو تجديده ) أى تجديد غيظ أو إثارة فتنة بسبب الذكر والتعريف ، لأن هذا سيئة جديدة يجب الاستحلال منها ( فإن خشيت ذلك ) أى زيادة الغيظ وما بعدها بسبب الإظهار (ف)لا سبيل لك إلا ( الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى ليرضيه عنك ويجعل له ) أى لصاحب الحق ( خيرا كثيرا فى مقابلته ) أي معارضة ما فعلته مما ذكر

وَالاسْتِغْفَارُ الْـكَثِيرُ لِصاحِبِهِ ، وَأَمّا الْحُرْمَةُ بِأَنْ خُنْتَهُ فى أَهْلِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ نَحْوِهِ فَلَا وَجْهَ لِلاسْتِحْلالِ وَالْإِظْهارِ لِأَنهُ يُوَلِّدُ فِتْنَةً وَغَيْظًا بَلْ تَتَضَرَّعُ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ لِيُرْضِيَهُ عَنْكَ وَيَجْعَلَ لَهُ خَيْرًا كَثِيرًا فى مُقَابَلَتِهِ ، فَإِنْ أَمِنْتَ الْفِتْنَةَ وَالْهَيْجَ وَهُوَ نَادِرٌ فَتَسْتَحِلُّ مِنْهُ

(و) إلا ( الاستغفار الـكثير لصاحبه ) هذا طريق تائب عن المظالم يتعذر عليـه الاستحلال ( وأما الحرمة بأن خنته ) بضم الخاء من باب قال أى فعلت الخيانة للشخص ( فى أهله ) أى زوجته أو أمته أو غيرهما من محجوراته كأن زنيت بهـا ( أو ولده أو نحوه ) أى كل من أهله وولده من قريبته البعيدة والقريبة ( فلا وجه للاستحلال والإظهار ، لأنه ) أى كلا منهما ( يولد ) أى يخرج وينتج ( فتنة وغيظا بل تتضرع إلى الله سـبحانه ليرضيه ) الله تعالى ذلك الشخص ( عنك ويجعل له خيرا كثيرا فى مقابلته ، فإن أمنت الفتنة والهيج ) أى هيج الفتنة : أى تحركها (وهو) أى هذا الأمن ( نادر ) جدا ( فتستحل منه ) أى من الشخص المستحق لمـا ذكر ، فإن كان الشخص الذى طلبت منه الاستحلال قد أحله لك بطيب قلب منه ، وانشراح صـدر ، فذلك كفارته كما قاله المصنف أبو حامد الغزالى فى بعض كتبه ، ومهما ذكرت جنايتك وعرفه المجنى عليه فلم تسمح نفسه بالاستحلال بقيت المظلمة عليك ، فإن هـذا حقه ، فعليك أن تتلطف به ، وتسعى فى مهماته . وأغراضه الدنيوية ، وتظهر من حبه والشفقة عليه ، فإن الإنسان عبد الإحسان ، فيحب المحسن إليـه بطبعه ، ويميل إليه بقلبه ، وكل من نفر عنك بسيئة مال إليك بحسنة ، فإذا طاب قلبه بكثرة توددك وتلطفك سمحت نفسه بالإحلال لا محالة ، فإن أبى إلا الإصرار على عدم السماح فيـكون تلطفك به واعتذارك إليه من جملة حسناتك التى يمكن أن تجبر بها فى القيامة جنايته ؛ وليـكن قدر سعيك فى فرحه وسرور قلبه بتوددك وتلطفك كقدر سعيك فى أذاه حتى إذا قاوم أحدهما الآخر وزاد عليه أخذ ذلك منك عوضا فى القيامة بحكم الله به عليك وهذا كمن أتلف فى الدنيا مالا لآخر فجاء المتلف بمثله فامتنع من له المال عن القبول وعن الإبراء ، فإن الحا كم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبى رضى أم كره ، وكذلك يحكم فى صعيد القيامة أحكم الحا كمين وأعدل المقسطين جل جلاله . وفى الصحيحين عن أبى سعـيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «كان فيمن كان قبلـكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال إنه يعنى نفسه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ قال لا ، فقتله فـكمل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال له إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ قال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة ، انطلق إلى أرض كذا وكذا فان بها أناسا يعبدون الله عز وجل فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه ملك الموت فاختصمت فيه ملائـكة الرحمة وملائـكة العذاب ، فقال

وَأَمَّا فى الدِّينِ بِأَن كَفَّرْتَهُ أَوْ بَدَّعْتَهُ أَوَ ضَلَّلْتَهُ ، فَهُوَ أَصعبُ الْأُمُورِ فَتَحْتَاجُ إِلَى تَكْذِيبِ نَفْسِكَ بَيْنَ يَدَىْ مَنْ قُلْتَ لَهُ ذٰلِكَ وَأَنْ تَسْتَحِلَّ مِنْ صَاحِبِكَ إِنْ أَمْكَنَكَ وَإِلاَّ فَالِابْتِهَالُ إِلى اللهِ تعالى جِدّ وَالتَّنَدُّمُ عَلَى ذٰلِكَ لِيُرْضِيَهُ عَنْكَ . وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ فَمَا أَمْكَنَكَ مِنْ إِرْضاءِ الْخُصُومِ عَمِلْتَ وَمَا لَمْ يُمْكِنْكَ رَجَعْتَ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالتَّضَرُّعِ وَالِابْتِهالِ وَالتَّصَدُّقِ لِيُرْضِيَهُ عَنْكَ فَيَكُونُ ذٰلِكَ فى مَشِيئَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ

---

ملائكة الرحمة جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله ، وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرا قط ، فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه حكما بينهم ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد فقبضته ملائكة الرحمة» وفى رواية لمسلم «فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر ، فجعل من أهلها » وفى رواية « فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقربى وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر ، فغفر له » فبهذا الحديث يعرف أنه لا خلاص إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثقال ذرة ، فلا بد للتائب من تكثير الحسنات كذا قاله أبو حامد الغزالى وغيره (وأما) المظالم (فى الدين ) وذلك ( بأن كفرته ) أى نسبت الإنسان إلى الكفر بأن قلت يا كافر ( أو بدعته ) أى نسبته إلى البدعة بأن قلت يا مبتدع ( أو ضللته ) أى نسبته إلى الضلال ( فهو ) أى التكفير وما بعده ( أصعب الأمور ) وأشقها ( فتحتاج إلى تكذيب نفسك بين يدى من قلت له ذلك ) أى التكفير ونحوه بأن تقول إنى كذبت فى قولى كذا وكذا فى حق فلان ( وأن تستحل من صاحبك ) أى الذى هو الإنسان الكفر مثلا ( إن أمكنك ) الاستحلال ( وإلا ) أى وإن لم يمكن ذلك لموته أو غيره (ف)الواجب عليك (الابتهال ) والتضرع باخلاص الدعاء ( إلى الله تعالى جدا ) بكسر الجيم أى اجتهادا كاملا ( والتندم ) أى تكلف الندم حتى يصير كالطبع بسبب فعلك ( على ذلك ) أى تكفير الغير وغيره من المظلمة ( ليرضيه ) الله تعالى ( عنك ) يوم القيامة عند محاسبة الأعمال ( وجملة الأمر ) أى حاصل الكلام ( فما أمكنك من إرضاء الخصوم ) بضم الخاء جمع خصم ، والخصم يقع على المفرد وغيره والذكر والأنثى بلفظ واحد ويجمع أيضا على خصام مثل بحر وبحار وبحور كما فى المصباح ، والمراد هنا المستحقون ما فيك من الحسنات (عملت ) به مع التلطف بالإحسان إليهم (وما لم يمكنك) من الإرضاء لهم ( رجعت إلى الله سبحانه وتعالى بالتضرع والابتهال والتصدق ) على الفقراء بالمال الحلال ( ليرضيه ) أى ذلك الخصم ( عنك فيكون ذلك ) أى الإرضاء ( فى مشيئة الله ) وإرادته ( سبحانه يوم القيامة ) وقال فى الإحياء وغيره : فمتى تعلق به حق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر مع التضرع والابتهال وترك ماله فى المستقبل والإتيان بالحسنات التى هى أضدادنا : أى المعاصى ،

وَالرَّجَاءِ مِنْهُ بِفَضْلِهِ الْعَظِيمِ وَإِحْسَانِهِ الْعَمِيمِ أَنَّهُ إِذَا عَلِمَ الصِّدْقَ مِنْ قَلْبِ الْعَبْدِ فَإِنَّهُ يُرْضِي خُصَمَاءَهُ مِنْ خِزَانَةِ فَضْلِهِ

---

فيقابل إيذاء الناس أي إن كان آذاهم بالإحسان إليهم ، ويكفر غصب أموالهم بالتصدق على الفقراء بملكه الحلال ، ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين والصلاح ، وإظهار ما يعرف به من خصال الخيرمن أقرانه وأمثاله ، وبث ذلك بين الناس، ويكفر قتل النفوس باعتاق الرقاب ، لأن ذلك إحياء إذ العبد مفقود لنفسه موجود لسيده ، فالاعتاق إيجاد : أي بمنزلته لا يقدر الإنسان على أكثر منه ، إذ ليس في وسعه الإيجاد الحقيق ، فجعل الاعتاق قائما مقامه رحمة من الله على عباده ومنة منه عليهم ، فيقابل الإعدام الذى هو قتل النفس بالإيجاد الذى هو عتق الرقبة ، وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة فى التكفير والمحو مشهود له فى الشرع حيث كفر القتل باعتاق الرقبة ؛ وهذا من الأسرار الإلهية التي لا يدركها إلا خواص البشر ، ثم إذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد ، ولذا يطلب منه الرجوع إلى الله تعالى ليرضيهم عنه ( والرجاء منه ) تعالى ( بفضله العظيم وإحسانه العميم ) لجميع العوالم ( أنه ) سبحانه وتعالى ( إذا علم ) أى علم ظهور ( الصدق من قلب العبد ) وصدق العبد بأن يكثر من حسناته ليوم القصاص ويخفى بعض الحسنات بينه وبين الله بكمال الإخلاص بحيث لا يطلع عليه إلا الله ( فإنه ) جل وعز ( يرضى خصماءه ) أى العبد ( من خزانة فضله ) تعالى ، والخزانة بكسر الخاء والجمع خزائن : أى من فضله تعالى ولطفه الذى ادخره لأحبابه المؤمنين فى دفع مظالم العباد ، كما روى عن أنس رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر رضى الله عنه مايضحكك يارسول الله بأبى أنت وأمى ؟ قال رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة ، فقال أحدهما : يارب خذلى مظلمتى من أخى ، فقال الله تعالى : أعط أخاك مظلمته ، فقال يارب لم يبق من حسناتى شيء ، فقال الله تعالى للطالب كيف تصنع بأخيك ولم يبق من حسناته شيء ؟ قال يارب يتحمل عنى من أوزارى ، قال : وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال إن ذلك ليوم عظيم ، يوم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم ، قال فقال الله للطالب ارفع رأسك فانظر فى الجنان ، فرفع رأسه فقال يارب أرى مدائن من فضة مرتفعة ، وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ لأى نبى هذا أو لأي صديق هذا ، أو لأى شهيد هذا ؟ قال لمن أعطانى الثمن ، قال يارب : ومن يملك ثمنه ، قال أنت تملكه ، قال وما هو ؟ قال عفوك عن أخيك ، قال يارب إنى قد عفوت عنه ، قال الله تعالى خذ بيد أخيك فأدخله الجنة ، وفى رواية : فادخلا الجنة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فان الله يصلح بين المؤمنين » . قال أبو حامد الغزالى رحمه الله تعالى : وهذا تنبيه على أن ذلك إنما ينال بالتخلق

وَلاَ حكمَ فاعْلَمْ هٰذِهِ حَقُّها رَاشِدًا فَهٰذِهِ هٰذِهِ . فإِذَا أَنْتَ عَمِلْتَ مَا وَصَفْنَاهُ وَبَرَّأْتَ الْقَلْبَ عَنِ اخْتِيَارِ مِثْلِهَا فِى الْمُسْتَقْبَلِ فَقَدْ خَرَجْتَ مِنَ الذُّنُوبِ كُلِّهَا ، وَإِنْ حَصَلَتْ مِنْكَ تَبْرِئَةُ الْقَلْبِ وَلَمْ يَحْصُلْ مِنْكَ قَضَاءُ الْفَوَائِتِ وَإِرْضَاءُ الْخُصُومِ فَالتَّبِعَاتُ لاَزِمَةٌ وَسَائِرُ الذُّنُوبِ مَغْفُورَةٌ . وَلِهٰذَا الْبَابِ شَرْحٌ يطُولُ فَلاَ يَحْتَمِلُهُ هٰذَا الْمُخْتَصَرُ ، وَانْظُرْ كِتَابِ التَّوْبَةِ مِنْ كِتَابِ إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ أَوَّلاً ، وَكِتَابِ الْقُرْبَةِ إِلى اللهِ تعَالَى ثانِياً ، وَكِتابِ الْغَايَةِ الْقُصْوَى ثالِثاً

---

بأخلاق الله ، وهو إصلاح ذات البين ، وسائر الأخلاق المحمودة ، فتفكر الآن فى نفسك إن خلت صحيفتك عن المظالم أو تلطف لك حتى عفا عنك وأيقنت بسعادة الأبد كيف يكون سرورك فى منصرفك من مفصل القضاء ، وقد خلع عليك خلعة الرضا ، وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء ، وبنعيم لايدور بحواشيه الفناء والله أعلم . قال رحمه الله تعالى : ( ولاحكم ) الآن بإرضاء الخصوم ( فاعلم هذه ) أى جملة الأمر و( حقها ) هو التخلق بأخلاق الله والإتيان بحقوق عباده كما هو ظاهر ( راشدا ) أي إصابة للصواب ( فهذه ) الجملة ( هذه ) أي الموصوفة بالكمال والوصول إلى النهاية كذا فى سراج السالكين ( فإذا أنت عملت ماوصفناه ) لك من الندم على ارتكاب الذنب مع الابتهال إلى الله ( وبرأت القلب عن اختيار مثلها ) أى الذنوب التي تبت عنها ، وذلك بأن توطن قلبك على ترك العود إلى ذلك المثل أبدا ( فى المستقبل ) أى فيما يستقبل من الزمان وأرضيت الخصم عن الحقوق التى هى له عليك ( فقد خرجت من الذنوب كلها ) من حقوق الله وحقوق عباده ( وإن حصلت منك تبرئة القلب ) من اختيار مثل الذنوب (و) لكن ( لم يحصل منك قضاء الفوائت ) من الصلاة أو الصوم أو غيرهما فتوبتك صحيحة ولكن يجب عليك قضاء ما فات منها ، لأن التوبة عبادة الوقت لوجوبها على الفور وقد قمت بها ولا وقت لها معين والذمة مشغولة بك ، كذا أفاده الزبيدي ، وان لم تقض الفوائت فهى لازمة لك ( و ) كذا ( إرضاء الخصوم فالتبعات ) بفتح التاء وكسر الباء الوحدة جمع تبعة بفتح التاء وكسر الباء : أي حقوق الآدميين ( لازمة ) لك غير منفكة (و) أما ( سائر الذنوب ) غير التبعات فهى ( مغفورة ) بفضله تعالى ورحمته ( ولهذا الباب ) أى باب التوبة ( شرح ) أى بيان ( يطول ) ذكره ( فلا يحتمله هذا المختصر ) المسمى ( منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين ) لأن إيراد الشرح الكثير هنا خلاف الوعد الذي هو الإيجاز والاختصار لهذا الكتاب (و) إن أردت بسط الكلام ( انظر ) الكتاب الذى صنفناه ، أعنى ( كتاب التوبة ) فى ربع المنجيات ( من كتاب إحياء علوم الدين أولا ، و ) أنظر ( كتاب القربة إلى الله تعالى ثانيا ، وكتاب الغاية القصوي ثالثا ) وكلاهما أيضا للمصنف أبى حامد الغزالى أيضا ، لكن لايوجدان الآن فى أكثر البلاد حتي فى مصر والشام كما قد بحثه وتتبعه بعض

تَجِدْ فَوَائِدَ كَثِيرَةً وَشَرْحًا جَمًّا ، وَالَّذِى ذَكَرْنَاهُ هاهُنا هُوَ الْأَصْلُ الَّذِى لَا بُدَّ مِنْهُ ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

﴿ فصل ﴾ ثُمَّ اعْلَمْ يَقِيناً أَنَّ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ عَقَبَةٌ صَعْبَةٌ أَمْرُهَا مُهِمٌّ وَضَرَرُهَا عَظِيمٌ . فَلَقَدْ بَلَغَنَا عَنِ الْأُسْتَاذِ أَبِى إِسْحٰقَ الإِسْفَرَايِنِى رَحِمَهُ اللهُ ، وَكَانَ مِنَ الرَّاسِخِينَ فِى الْعِلْمِ الْعَامِلِينَ بِهِ أَنَّهُ قَالَ : دَعَوْتُ اللهَ سُبْحَانَهُ ثَلَاثِينَ سَنَةً أَنْ يَرْزُقَنِى تَوْبَةً نَصُوحًا ، ثُمَّ تَعَجَّبْتُ فِى نَفْسِى فَقُلْتُ : سُبْحَانَ اللهِ حَاجَةٌ

---

أصحاب المطبعة المصرية للاعتناء بخدمة العلوم حتى رحل البعض الي الأستانة العلية والعراق وكردستان فلم يجدها ، وإن نظرت هذه الكتب الثلاثة ( تجد فوائد كثيرة وشرحا جما ) أى بيانا كثيرا ، نعم لقد لقطنا دررا من كتاب ( الإحياء ) فى أثناء شرح هذا الباب كما تري ( والذى ذكرناه ههنا )أي فى هذا المختصر ( هو الأصل الذى لابد منه ) أى من تحصيل هـذا الأصل ( وبالله ) أى بسبب تفضله ومنته على من يشاء من خلقه ( التوفيق ) وهو خلق قدرة الطاعة ، ويرادفه باعتبار المآل اللطف ، وهو صلاح مابه العبد عند خاتمة عمره فمآلهما واحد ، وإن اختلف مفهومهما كما فى شرح الأربعين .

﴿ فصل ﴾ معنى الفصل فى اللغة : الحاجز بين الشيئين ، وفى الأصطلاح : طائفة من المسائل تغيرت أحكامها بالنسبة إلي ما قبلها ، فإن فصل عما بعـده نون وإلا فلا ، كذا فى الأكملية ، فارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ على تقدير الوصف : أى فصل من الفصول فى عظم ضرر هذه العقبة ، وضرر الخوف فى تأخير التوبة ( ثم اعلم ) هداك الله ( يقينا ) أى علما يقينا بلا ريب ( أن هذه العقبة ) أى عقبة التوبة ( عقبة صعبة ) أى شديدة ( أمرها مهم ) ينبغى الاهتمام على كل راغب فى الآخرة ( وضررها عظيم ) لما فيها من تعب المجاهدة المترتب عليها الرتبة العلية ، وهى محبة الله لسالكها الواصل إلي مقصوده المسمى بالتائب الناصح ( فلقد بلغنا عن الأستاذ أبى إسحاق الإسفراينى رحمه الله ) بكسر الهمزة وفتح الفاء والراء وكسر التحتية الاسفراين : بلدة بنواحى نيسابور ، وهو الأستاذ إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الفقيه العارف المتكلم الأصولى الشافعى صاحب التصانيف الجليلة ، توفى يوم عاشوراء سنة ثمان وعشرة وأربعمائة كما فى سراج السالكين ، خلافا لبعض حواشى أم البراهين ، واختلف إلى مجلسه أبو القاسم القشيرى صاحب الرسالة ، وأكثر الحافظ أبو بكر البيهقى عنه فى تصانيفه ، وغيره من المصنفين رحمهم الله أجمعين ( وكان ) أى الأستاذ أبو إسحاق ( من الراسخين ) أى الثابتين ( فى العلم العاملين به ) أى بمقتضاه ( أنه ) فاعل بلغنا ( قال : دعوت الله سبحانه ثلاثين سنة أن يرزقنى توبة نصوحا ) أى خالصا لله تعالى عن الشوائب ( ثم تعجبت فى نفسى فقلت ) أى فى قلبى ( سبحان الله حاجة )

دَعَوْتُ اللهَ فِيهاَ ثَلاثِينَ سَنَةً فَما قضيتْ إِلى الآنَ فرأيتُ فِيماَ يَرَى النَّائِمُ كَأَنَّ قائلاً يَقولُ لِي: أَتَتَعَجَّبْ مِنْ ذٰلِكَ ، أَتَدْرِي ماذَا تَسْأَلُ اللهَ ؟ إِنَّما تَسْأَلُ اللهُ سُبْحانهُ أَنْ يُحِبَّكَ ، أَمَا سَمِعْتَ قوْلَهُ جَلَّ جَلالُهُ : « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » أَفَهٰذِهِ حاجَةٌ هَيِّنَةٌ ؟ فانظُرْ إِلَي هؤُلاَءِ الْأَئِمَّةِ وَاهْتِمَامِهِمْ وَمُوَاظَبَتِهِمْ عَلَى صَلاَحِ قُلُوبِهِمْ وَالتَّزَوُّدِ لِمَعَادِهِمْ . وَأَمَّا الضَّرَرُ الْمَخُوفُ فى تأْخِيرِ التَّوْبَةِ فَإِنَّ أَوَّلَ الذَّنْبِ قَسْوَةٌ وَآخِرُهُ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ شُؤْمٌ وَشِقْوَةٌ ،

---

أى لنا حاجة ( دعوت الله فيها ) أي سألت الله أن يقضيني حاجتي ( ثلاثين سنة فما قضيت ) أى تلك الحاجة ( إلى الآن ) أى إلى الزمان الحاضر وهو بعد مدة ثلاثين سنة ( فرأيت فيما يرى النائم كأن قائلا يقول لى ) ياأبا إسحق ( أتتعجب ) أى أتستشعر فى نفسك عجبا ( من ذلك ) أى من تأخير قضاء الحاجة ( أتدرى ماذا ؟ ) أى أى شيء ( تسأل الله إنما تسأل الله سبحانه ) فى الحقيقة ( أن يحبك ، أما سمعت قوله جل جلاله : إن الله يحب التوابين ) من الذنوب ( ويحب المتطهرين ) أى المتنزهين عن الفواحش والأقذار كمجامعة الحائض والإتيان فى غير المأتى كما قاله القاضى البيضاوى ( أفهذه ) أى أتظن أن هذه المحبة ( حاجة هينة ) أى سهلة ( فانظر إلى ) حال ( هؤلاء الأئمة ) منهم الأستاذ أبو إسحاق وكهمس بن الحسن الآتي ( واهتمامهم ومواظبتهم ) أي ملازمتهم ( على صلاح قلوبهم ) بالمجاهدة والمراقبة ( والتزود ) أى أخذ الزاد ( لمعادهم ) أى آخرتهم لأنها معاد الخلق كلهم .

﴿ تنبيه ﴾ وحيث أطلق القلب فى لسان الشرع فليس المراد به الجسم الصنوبرى الشكل فإنه للبهائم والأموات ، بل المراد به معنى آخر يسمى بالقلب أيضا ، وهو جسم لطيف قائم بالقلب اللحمانى قيام العرض بمحله أو قيام الحرارة بالفحم ، وهذا القلب هو الذى يحصل منه الإدراك ، وترتسم فيه العلوم والمعارف ( وأما الضرر المخوف فى تأخير التوبة فإن أول الذنب قسوة ) أى قسوة القلب بتراكم الظلمة عليه من المعاصي حتى تصير رينا وطبعا فلا تقبل المحو ( وآخره ) أي عاقبة الذنب ( والعياذ بالله ) أى أعوذ بالله من ذلك ( شؤم ) أى قبيح ( وشقوة ) ضد السعادة . قال لقمان لابنه : «يابنى لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتى بغتة » أخرجه عبد الله بن أحمد فى زوائده والبيهقي عن عثمان بن زائدة .

قال المصنف أبو حامد وغيره : ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف : أى المطل والتأخير ، وأصله أن يقول لمن وعده بالوفاء : سوف أفعل مرة بعد أخرى كان بين خطرين عظيمين : أحدهما أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى حتى تصير رينا وطبعا فلا تقبل المحو . الثانى أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو لذلك، وورد فى الخبر « إن أكثر صياح أهل النار من

**فإيَّاكَ أنْ تَنْسَى أمْرَ إبْليس**

**التسويف فما هلك من هلك إلا بالتسويف »** . **وفى القوت : حقيقة التوبة أن لا يسوف أبدا ،** إنما يلزم أنها فى الوقت ، فيكون تسويده للقلب بتلك المعاصى نقدا حاضرا وجلاؤه بالطاعة نسيئة وما زال كذلك إلى أن يخطفه الأجل بسرعة فيأتى الله يوم العرض بقلب غير سالم من الغش ، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم ، والقلب أمانة الله عند عبده ، والعمر أمانة الله عنده ، وكذا سائر أسباب الطاعة ، فمن خان فى الأمانة ولم يتدارك خيانته فأمره مخطر جدا ( **فإياك** ) أى احذر ( أن تنسي أمر إبليس ) عدو الله . قال كعب الأحبار : إن إبليس كان خازن الجنة أربعين ألف سنة ، ومع الملائكة ثمانين ألف سنة ، ووعظ الملائكة عشرين ألف سنة ، وسيد الكروبيين ثلاثين ألف سنة ، وسيد الروحانيين ألف سنة ، وطاف حول العرش أربعة عشر ألف سنة ، وكان اسمه فى سماء الدنيا العابد ، وفى السماء الثانية الزاهد ، وفى السماء الثالثة العارف ، وفى الرابعة الولى ، وفى الخامسة التقي ، وفي السادسة الخازن ، وفى السابعة عزازيل، وفى اللوح المحفوظ إبليس ، وهوغافل عن عاقبة أمره ، كذا نقله الجمل عن كشف البيان للسمرقندى . قال الجوهرى وغيره : كنيته أبو مرة .

واختلف العلماء فى أنه من الملائكة من طائفة يقال لهم الجن أم ليس من الملائكة ؟ وفي أنه اسم عربى أم عجمى ؟ والصحيح أنه من الملائكة وأنه عجمى . قال الإمام أبو الحسن الواحدى : قال أكثر أهل اللغة والتفسير : سمى إبليس لأنه أبلس من رحمة الله تعالى ، أى أيس ، والمبلس : المكتئب الحزين الآيس . قال : وعلي هذا هو عربى مشتق . قال : وقال ابن الأنبارى : لا يجوز أن يكون مشتقا من أبلس ، لأنه لو كان مشتقا لصرف ، كما أن إسحاق إذا كان عربيا مأخوذا من أسحقه الله إسحاقا : انصرف ، فلو كان إبليس مشتقا لصرف كاكليل وبابه ، فلما لم يصرف دل على أنه عجمى ، والعجمى ليس مشتقا . وقال ابن جرير : إنما لم يصرف وإن كان عربيا لقلة نظيره فى كلام العرب فشبهوه بالأعجمى ، وهذا الذى قاله ابن جرير يبطل بباب إفعيل ، فإنه مصروف كله إلا إبليس . قال الواحدي : والاختيار أنه ليس بمشتق لاجماع النحويين على أنه منع الصرف للعجمة والمعرفة . قال : واختلفوا فى أنه من الملائكة ، فروى عن طاوس ومجاهد عن ابن عباس أنه كان من الملائكة ، وكان عزازيل بالسريانية ، وبالعربية الحارث ، فلما عصى الله لعنه الله وجعله شيطانا مريدا وسماه إبليس ، وبهذا قال ابن مسعود وابن المسيب وقتادة وابن جريج وابن جرير ؛ واختاره الزجاج وابن الأنبارى . قالوا : وهو مستثنى من جنس المستثنى منه . قالوا : وقول الله تعالى « كان من الجن » : أى طائفة من الملائكة يقال لهم الجن . وقال الحسن وعبدالرحمن بن زيد وشهر بن حوشب : ما كان من الملائكة قط ، والاستثناء منقطع ، والمعنى عندهم : أن الملائكة وإبليس أمروا بالسجود ، فأطاعت الملائكة كلهم ، وعصى إبليس ، والصحيح أنه من الملائكة كما تقدم ، لأنه لم ينقل أن غير الملائكة أمر بالسجود ، والأصل

وَبَلْعَمَ بْنِ بَاعُورَاءَ إِذْ كَانَ مَبْدَأُ أَمْرِهِمَا ذَنباً وَآخِرُهُ كُفْرًا فَهَلَكَا مَعَ الْهَالِكِينَ أَبَدَ الآبِدِينَ ، فَعَلَيْكَ رَحِمَكَ اللهُ بِالتَّيَقُّظِ وَالْجَهْدِ عَسَى أَنْ تَقْلَعَ مِنْ قَلْبِكَ عِرْقَ هٰذَا الإِصْرَارِ وَتُخَلِّصَ رَقَبَتَكَ مِنْ هٰذِهِ الأَوْزَارِ ، وَلاَ تَأْمَنْ قَسَاوَةَ الْقَلْبِ مِنَ الذُّنُوبِ وَتَأَمَّلْ حَالَكَ فَلَقَدْ قَالَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ : إِنَّ سَوَادَ الْقَلْبِ مِنَ الذُّنُوبِ،

---

فى الاستثناء أن يكون من جنس المستثنى منه ، وأما إنظاره إلى يوم القيامة فزيادة فى عقوبته ، وتكثير معاصيه وعواقبه . نسأل الله الكريم اللطف وخاتمة الخير ، كذا ذكره العلامة عبد الحق ابن شاه فى سراجه (و) احذر أنْ تنسى أمر ( بلعم بن باعوراء ) وكان عنده اسم الله الأعظم ويدعو به حيث شاء ، فيجاب بعين ما طلب فى الحال . وفى القرطبي : وكان بلعم من بني إسرائيل فى زمن موسى عليه السلام وكان بحيث إذا نظر رأى العرش ، وهو المعنى بقوله تعالى « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا » ولم يقل آية ، وكان فى مجلسه اثنا عشر ألف محبرة للمتعلمين الذين يكتبون عنه ، ثم صار بحيث كان أول من صنف كتابا وذكر فيه أن ليس للعالم صانع ، نعوذ بالله من ذلك ( إذ كان مبدأ أمرهما ) أى إبليس وبلعم ( ذنبا ) وهو الحسد لآدم عليه السلام : هذا لإبليس ، وأما بلعم فاتباع هواه فى الميل إلى الدنيا ، حيث يحمله إلى الدعاء على موسى عليه السلام ، وأهداه هدية جماعته السائلون له فى الدعاء ، فدعا فانقلب عليه واندلع لسانه على صدره فأدركه الشيطان فكان من الغاوين ، وقد ذكر قصته الطويلة الخطيب فى تفسيره ، وسيأتى فى الكلام على الخوف ذكر قصته عن ابن عباس رضى الله عنهما (و) كان ( آخره ) أى عاقبة أمرهما ( كفرا فهلكا مع الهالكين أبد الآبدين . فعليك ) أى الزم ( رحمك الله ) جملة دعائية ( بالتيقظ ) أى التنبه من نوم الغفلة ( والجهد ) أى بذل الطاقة فى الأعمال ومراقبتها ( عسى أن تقلع ) بفتح التاء واللام ، من باب قطع : أى تنزع ( من قلبك عرق هذا الإصرار ) أى إصرار الذنب وإقامته المشبه بالعرق للجسد ، أو للشجرة فى الرسوخ والثبوت ( وتخلص ) من باب قعد ( رقبتك ) أى بدنك ظاهرا وباطنا من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل ( من هذه الأوزار ) أى الآثام ( ولا تأمن قساوة القلب من الذنوب ، وتأمل ) أى اعمل فكرك ونظرك ( فى حالك ) أى أنت متصف بالذنب أم لا ، فإن كنت متصفا به فابذل الجهد فى إقلاعه وتوبته ، وإن كنت غير متصف بذلك الذنب فاشكر الله تعالى بطاعته ( فلقد قال بعض الصالحين ) رحمه الله ( إن سواد القلب ) ناشىء ( من الذنوب ) ومصداقه فى حديث أبى هريرة « إذا أذنب العبد نكت فى قلبه نكتة سوداء ، فان تاب صقل منها ، فان عاد زادت حتى تعظم فى قلبه » رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه والحاكم ، وقد كان الحسن يقول : إن بين العبد وبين الله تعالى حدا من المعاصى معلوما إذا بلغه العبد طبع على قلبه فلا يوفق بعدها لخير . قال أبو حامد الغزالى وغيره : حكي عن أبى عمرو بن علوان فى قصة يطول ذكرها قال فيها : كنت قائما ذات يوم أصلى فخامر قلبي :

وَعَلامَةُ سَوادِ القَلْبِ أَنْ لا تَجِدَ مِنَ الذُّنُوبِ مَفْزَعًا وَلا لِلطَّاعَةِ مَوْقِعاً وَلا لِلْمَوْعِظَةِ مَنْجَعاً وَلا تَسْتَحْقِرَنَ مِنَ الذُّنُوبِ شَيْئاً فَتَحْسِبَ نَفْسَكَ تَائِباً وَأَنْتَ مُصِرٌّ عَلَى الْكَبائِرِ . فَلَقَدْ بَلَغَنا عَنْ كَهْمَسِ بْنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قالَ : أَذْنَبْتُ ذَنْباً فَأَنَا أَبْكِي عَلَيْهِ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، قِيلَ ما هُوَ يا أَبا عَبْدِ اللهِ ؟

---

أى خلطه هوى : أى ميل نفسانى طاولته بفكرتى حتى تولد منه شهوة الرجل ، فوقعت فى الأرض واسود جسدى كله ، فاستترت فى البيت فلم أخرج ثلاثة أيام ، وكنت فى أثناء هذه الأيام أعالج فى الحمام بالصابون والألوان الغاسلة فلا يزداد إلا سوادا ، ثم انكشف عنى بعد ثلاث ، فرجعت إلى لون البياض ، فلقيت أبا القاسم الجنيد رضى الله عنه وكان قد وجه إلى ، فأشخصنى من الرقة ، فلما أتيته قال : أما استحييت من الله تعالى كنت قائما بين يديه؟ فساررت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برقة وأخرجتك من بين يدى الله تعالى ، فلولا أنى دعوت الله لك وتبت إليه عنك للقيت الله بذلك اللون ، قال : فعجبت كيف علم بذلك وهو ببغداد وأنا بالرقة وبينهما مسافة ولم يطلع إلا الله تعالى ، فذكر ذلك لبعض الأولياء ، فقال : هذا رفق من الله تعالى به وخيرة له إذا لم يسود قلبه ، وظهر السواد على جسده ، ولو بطن فى قلبه لأهلكه ، ثم قال : مامن ذنب يرتكبه يصر عليه إلا اسود القلب مثل سواد الجسم الذي ذكر ولا يجلوه إلا التوبة ، ولكن ليس كل عبد يصنع به صنع ابن علوان ، ولا يجد من يتيقظ له مثل أبى القاسم الجنيد رحمه الله تعالى ، ولذلك قال أبو حامد الغزالى رحمه الله : اعلم أنه لايذنب العبد ذنبا إلا ويسود وجه قلبه ، فان كان سعيدا ظهر السواد على ظاهره لينزجر ، وإن كان شقيا أُخفى عنه حتى ينهمك ويستوجب النار ( وعلامة سواد القلب أن لاتجد من ) ارتكاب ( الذنوب مفزعا ) أى خوفا بل سرورا ( ولا للطاعة موقعا ) أي قدرا وتأثيرا ( ولا للموعظة ) أى النصيحة والتذكرة بالعواقب ( منجعا ) أى مدخلا وتأثيرا ظاهرا ، بل من شؤم الذنب فى الدنيا على الجملة كما قاله أبو حامد الغزالى أن يكسب مابعده صفته ، فإن ابتلى بشىء كان عقوبة له ، ويحرم جميل الرزق حتى يتضاعف شقاؤه ، وإن أصابته نعمة كانت استدراجا له ، ويحرم جميل الشكر حتي يعاقب على كفرانه ، هذا حال العاصى ، وأما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة فى حقه جزاء على طاعته ويوفق لشكرها ، أو تكون كل بلية كفارة لذنوبه وزيادة فى درجاته ( ولا تستحقرن من الذنوب شيئا ) ولو قليلا صغيرا ، لأن معظم النار من مستصغر الشرر كما قاله بعضهم ( فتحسب ) بفتح السين وكسرها : أى تظن ( نفسك تائبا وأنت ) فى الحقيقية ( مصر ) أى مقيم ( على ) ارتكاب ( الكبائر ، فلقد بلغنا عن كهمس بن الحسن ) التميمى البصري رحمه الله ، كان ثقة ، مات سنة تسع وأربعين بعد المائة ، كذا فى سراج السالكين ( أنه قال : أذنبت ذنبا فأنا أبكى عليه ) أى لأجل الذنب ( منذ ) أى وقت ( أربعين سنة ، قيل ماهو ) أي ذلك الذنب ( يا أبا عبد الله )

قالَ : زَارَنِى أخٌ لِى فى اللهِ فَاشْتَرَيْتُ لَهُ سَمَكاً فَأَكَلَ ثُمَّ قُمْتُ إلَى حَائِطِ جَارِى فَأَخَذْتُ مِنهُ قِطْعَةَ طِينٍ فغَسَلَ بِها يَدَهُ . فَنَاقِشْ نَفْسَكَ وَحَاسِبْها وَسَارِعْ إلَى التَّوْبَةِ وَبَادِرْ فَإِنَّ الأجَلَ مَكْتُومٌ ، وَالدُّنْيَا غُرُورٌ ،

---

كنية كهمس بن الحسن ( قال : زارنى أخ لى فى ) دين ( الله فاشتريت ) بدانق ( له ) أى لإكرام أخى كما هو حق المضيف ( سمكا ) مشويا وقدمت إليه ( فأكل ) أخى ( ثم قمت إلى حائط جارى فأخذت منه قطعة طين فغسل ) أي أخى ( بها ) أى القطعة ( يده ) ولم أستحله قبل أخذي له كما قاله القشيري فى الرسالة ، قال شيخ الاسلام : فبكاؤه على أخذه مع علمه بتحريمه ، وترك الاستحلال قبل أخذه ، وفى ذلك دلالة علي غاية احترازه من الذنوب المستحقرة عند الناس . ورؤي عتبة الغلام بمكان يتصبب عرقا فى الشتاء ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : إنه مكان عصيت الله فيه ، فسئل عنه ؟ فقال : كشطت من هذا الجدار قطعة طين غسل بها ضيف لى يده ولم أستحل من صاحبه . قيل : وكان رجل من الصالحين يكتب رقعة وهو فى بيت بكراء ، فأراد أن يترب الكتاب من جدار البيت ، فخطر بباله أن البيت بالكراء ، ثم إنه خطر بباله أنه لاخطر لهذا ، فترب الكتاب ، فسمع هاتفا يقول : سيعلم المستخف بالتراب مايلقاه غدا من طول الحساب . قال شيخ الإسلام : فى ذلك تنبيه علي رفعة منزلة هذا الرجل عند الله تعالى لكونه نبه هذا العبد فى مثل ذلك . قال المصنف ( فناقش ) أى فبعد أن عرفت هذه القصة ناقش ، أمر من المناقشة ، بمعنى الاستقصاء فى الحساب حتى لايترك منه شيء ( نفسك وحاسبها ) أى قبل أن تحاسب يوم القيامة ( وسارع إلى التوبة ) قبل انقضاء عمرك ( وبادر ) أي سارع إليها ( فان الأجل ) أى مدة حلول الموت ( مكتوم ) أى مستور ، فلا بد من هجومه على كل حال ، فالاستعداد له بالتوبة النصوح والعمل الصالح أحق من الاستعداد بالدنيا الزائدة على قدر الحاجة ، وأنت تعلم علم اليقين أنك لا تبقى فى دار الدنيا إلا مدة قليلة ، ولعله لم يبق من مدة حياتك إلا يوم واحد أو نفس واحد ، فقدر هجوم الموت فى لحظتك أو فى وقتك فى قلبك كل يوم . قال صلى الله عليه وسلم « تحفة المؤمن الموت » وإنما قال هذا لأن الدنيا سجن المؤمن ، إذ لا يزال فيها فى تعب من تحمل مشقة نفسه وكسر شهواته ، ومدافعة شيطانه ، فالموت إطلاق له من هذا العذاب ، والإطلاق تحفة : أى هدية فى حقه . وكان الربيع بن خثيم يقول : لوفارق ذكر الموت قلبي ساعة واحدة لفسد ، وكلف نفسك الصبر على طاعة الله يوما فيوما ، ولا تشتغل بالدنيا لأنها غرة : أى سبب فى الاغترار بها كما أشار بقوله رحمه الله ( والدنيا ) أى متاعها وزهرتها ، وكل مايمكن أن يكون للنفس فيه حظ ( غرور ) بضم الغين : أى خديعة لأنها حسنة الظاهر قبيحة الباطن كما قيل :

على وجه مى مسحة من ملاحة  وتحت الثياب العار لو كان باديا

فهى من حيث ظاهرها محبوبة خضرة ، وبالنظر إلي باطنها جيفة قذرة ، فالنفس تنظر زينتها

وَالنَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ عَدُوَّانِ ، وَتَضَرَّعْ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَابْتَهِلْ إِلَيْهِ وَاذْكُرْ حَالَ أَبِينَا آدَمَ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ الَّذِي خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى بِيَدِهِ وَنفخَ فِيهِ ،

---

الظاهرة فتغتر بها فتهلك صاحبها ، والقلب ينظر إلي قبائحها الباطنة فيعتبر بها فيسلم من شرها . قال أبو طالب المكى : فمن شهد الدنيا بأول وصفها لم يغتر بآخره ، ومن عرفها بباطن حقيقتها لم يعجب بظاهرها ، ومن كشف له بعاقبتها لم يستهوه زخرفها . وكان عيسى عليه السلام يقول : ويلكم ياعلماء السوء مثلكم مثل قناة حشى ظاهرها جص وباطنها نتن ( والنفس ) عدو العدو لا يؤمن ، بل هى أعدى الأعداء كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك » وهى أيضا خداعة أمارة بالسوء كما قال خالقها العالم جل جلاله « إن النفس لأمارة بالسوء » فكفي بهذا تنبيها لمن عقل ( والشيطان ) يكفيك فيه ما قال الله تعالي لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم « وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون » وبذلك علم يقينا أنهما ( عدوان ) قاطعان لطريق الله تعالي . قال الله تعالى حكاية عن إبليس « لأقعدن لهم صراطك المستقيم » ( وتضرع إلى الله سبحانه ) بقلبك ( وابتهل ) بلسانك ( إليه ) تعالي . وفى المختار : تضرع إلى الله : أى ابتهل اهـ . وأيضا فيه الابتهال : التضرع ، وقيل فى قوله تعالي « ثم نبتهل » : أى نخلص فى الدعاء ، انتهى فافهم ( واذكر حال أبينا آدم صلى الله عليه وسلم ) وهو كما فى الجامع الصغير « خلق من ثلاث تربات : سوداء ، وبيضاء ، وحمراء » رواه ابن سعد عن أبى ذر الغفارى . قال العلامة الحفنى : أشار فى هذا الحديث إلى سبب اختلاف بنى آدم . قال الفقيه أبو الليث السمرقندى : فأول المرسلين كان آدم صلى الله عليه وسلم وكان رسولا إلى أولاده ، خلقه الله من تراب ، وخلق زوجته حواء من ضلعه اليسرى ، وقد ولدت منه حواء أربعين ولدا فى عشرين بطنا من ذكر وأنثي ، وتوالدوا حتى كثروا كما قال الله تعالى « خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » . وكانت كنيته فى الجنة أبا محمد ، لأن محمدا صلي الله عليه وسلم كان أكرم ولده . وكان يكنى به وكنيته فى الأرض أبا البشر ، وأنزل الله تعالى إليه تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وعاش تسعمائة وثلاثين سنة ، هكذا ذكر أهل التوراة . وروى عن وهب بن منبه : أنه عاش ألف سنة . وفى شرح المواهب للزرقانى مانصه :

واختلفوا فى أن حواء خلقت فى الجنة ؟ فقال ابن إسحاق : خلقت قبل دخول آدم الجنة لقوله تعالى « اسكن أنت وزوجك الجنة » . وقيل : خلقت فى الجنة بعد دخول آدم الجنة ، لأنه لما أسكن الجنة مشى فيها مستوحشا ، فلما نام خلقت من ضلعه القصرى من شقه الأيسر ليسكن إليها ويأنس بها ، قاله ابن عباس ، وينسب لأكثر المفسرين . وعلى هذا قيل : قال الله تعالى « اسكن أنت وزجك الجنة » بعد خلقها وهما فى الجنة ، وقيل : قبل خلقها ، وتوجه الخطاب للمعدوم لوجوده فى علم الله تعالى ( الذى خلقه الله تعالى بيده ) أى بقدرته ( ونفخ فيه )

مِنْ رُوحِهِ وَحَمَلَهُ إلى جَنَّتِهِ عَلَى أَعْنَاقِ الْمَلَائِكَةِ لَمْ يُذْنِبْ إِلاَّ ذَنْباً وَاحِداً فَنَزَلَ بِهِ مَا نَزَلَ حَتَّى رُوِىَ أَنَّ اللهَ تعالى قالَ لَهُ : يَا آدَمُ أَىُّ جَارٍ كُنْتُ لَكَ ، قالَ نِعْمَ الْجَارُ يَا رَبِّ ، قالَ يَا آدَمُ أُخْرُجْ مِنْ جِوَارِى وَضَعْ عَنْ رَأْسِكَ

---

عليه السلام (من روحه) وأسجد له ملائكته ، وألبسه ثوب كرامته ، وتوجه بتاج وقاره. (وحمله إلى جنته على أعناق الملائكة) وسجودهم له عليه السلام قبل دخول الجنة كما قاله الجمل. وعن جعفر الصادق أنه قال : كان أول من سجد لآدم جبريل ، ثم ميكائيل ، ثم إسرافيل ، ثم عزرائيل ، ثم الملائكة المقربون ، وكان السجود يوم الجمعة من وقت الزوال إلى العصر ، نقله الجمل من المواهب ، وقيل : بقيت الملائكة المقربون فى سجودهم مائة سنة ، وقال خمسمائة سنة ، ذكره الشبراملسى (لم يذنب) آدم عليه السلام (إلا ذنبا واحدا) وهو أكله من الشجرة التى نهى عن الأكل منها ، وهذا الذنب فى الظاهر بالنظر لما فى علم الناس ، وفى نفس الأمر : أمره الله تعالى بالأكل منها لاقتضاء الحكمة الإلهية كونه عليه السلام خليفة فى الأرض ، فأكله منها فى الحقيقة امتثال للأمر الباطنى ، كذا ذكره العلامة الحفنى فى حواشى الجامع الصغير (فنزل) على آدم عليه السلام (به) أى بسبب الذنب الواحد (مانزل) من الإخراج من الجنة والإهباط إلى الأرض ، وهل هى جنة الخلد أو جنة كانت فى الدنيا ؟ فيه خلاف كثير بين العلماء أورده ابن القيم فى أوائل كتاب (مفتاح عنوان دار السعادة) . قال محمد بن قيس : ناداه ربه يا آدم لم أكلت منها وقد نهيتك ؟ قال أطعمتنى حواء ، قال لحواء لم أطعمتيه ؟ قالت أمرتنى الحية ، قال للحية لم أمرتيها ؟ قالت أمرنى إبليس . قال الله : أما أنت ياحواء فلأدمينك كل شهر كما أدميت الشجرة ، وأما أنت ياحية فأقطع رجليك فتمشين على وجهك ، وليشدخن رأسك كل من لقيك ، وأما أنت ياإبليس فملعون ، ذكره الخازن ، فهبط آدم بسرنديب : جبل بالهند ، وحواء بجدة ، وقيل بعرفة ، وقيل بمزدلفة ، وإبليس بالأبلة بضم الهمزة والموحدة وتشديد اللام : جبل بقرب البصرة ، وقيل بجدة ، والحية أهبطت بسجستان ، وقيل بأصبهان ، ذكره بعض شراح المواهب . وفى أخبار آدم عليه السلام : أنه لما أكل من الشجرة تحركت معدته لخروج الثفل ، ولم يكن ذلك مجعولا في شيء من أطعمة الجنة إلا فى هذه الشجرة ، فلذلك نهيا عن أكلها . قال : فجعل يدور فى الجنة ، فأمر الله تعالى ملكا يخاطبه ، فقال قل له أي شيء تريد ؟ قال آدم : أريد أن أضع مافى بطنى من الأذى ، فقيل للملك : قل له فى أى مكان تضعه أتحت العرش ، أم على السرر ، أم تحت ظلال الأشجار ؟ هل ترى ههنا مكانا يصلح لذلك ؟ اهبط إلي الدنيا ، كذا نقله العلامة الجمل عن الإحياء (حتى روى) فى بعض الأخبار (أن الله تعالى قال له يا آدم : أى جار كنت لك ؟ قال) آدم عليه السلام (نعم الجار) أنت (يارب ، قال) عز وجل : لما أكل من الشجرة التي نهى عن أكلها (يا آدم اخرج من جوارى) فى الجنة مجاورة معنوية (وضع عن رأسك

تاجَ كَرَامَتِي فَإِنَّهُ لاَ يُجَاوِرُنِي مَنْ عَصَانِي حَتَّى أَنَّهُ فِيمَا رُوِيَ بَكَى عَلَى ذَنْبِهِ مِائَتَيْ سَنَةٍ حَتَّى قَبِلَ اللهُ تَوْبَتَهُ وَغَفَرَ ذَنْبَهُ الْوَاحِدَ .

---

تاج كرامتي فانه) أي الشأن (لايجاورني من عصاني) فالتفت آدم إلى حواء باكيا وقال : هذا أول شؤم المعصية أخرجنا من جوار الحبيب ، نقله صاحب القوت . وأخرج أبونعيم وابن عساكر عن مجاهد قال « أوحى الله إلى الملكين أخرجا آدم وحواء من جواري فإنهما عصياني ، فالتفت آدم إلى حواء باكيا ، قال : استعدي للخروج من جوار الله ؛ هذا أول شؤم المعصية ، فنزع جبريل التاج وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه ، وتعلق به عضو فظن آدم أنه قد عوجل بالعقوبة فنكس رأسه يقول : العفو العفو ، فقال الله تعالى فرارا مني ؟ فقال بل حياء منك ياسيدي » .

وقد اختلف في الحلل التي كانت على آدم وحواء عليهما السلام ؟ فقيل هي من حلل الجنة ، وقيل من الظفر ، فلما أصاب الخطيئة سلب السربال فبقي في أطراف أصابعه ، ويروي عنه « كان لباس آدم الظفر بمنزلة الريش على الطير ، فلما عصى سقط عنه لباسه وبقيت الأظفار زينة ومنافع » . رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أنس بن مالك قال « كان لباس آدم في الجنة الياقوت ، فلما عصى قلص فصار الظفر » (حتى إنه فيما روى بكى على ذنبه) عليه السلام (مائتي سنة حتى قبل الله توبته وغفر ذنبه الواحد) . قالت عائشة رضى الله عنها : « لما أراد الله عز وجل أن يتوب على آدم عليه السلام طاف بالبيت سبعا وهو يومئذ ليس بمبنى بل ربوة حمراء ، ثم قام فصلى ركعتين ، ثم قال : اللهم إنك تعلم سري وعلانيتي فاقبل معذرتي ، وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي ، وتعلم مافي نفسي فاغفر لي ذنبي ، اللهم إني أسألك إيمانا يباشر قلبي ، ويقينا صادقا حتى أعلم أنه لن يصيبني إلا ما كتبت علي ، ورضني بما قسمت لي ياذا الجلال والإكرام ، فأوحى الله عز وجل إليه أني قد غفرت لك ، ولم يأت أحد من ذريتك فيدعوني بمثل الذي دعوتني به إلا غفرت له ذنوبه ، وكشفت غمومه وهمومه ، ونزعت الفقر من بين عينيه ، واتجرت له من وراء كل تاجر ، وجاءت الدنيا وهي راغمة وان كان لايريدها » رواه أبو طالب المكي من طريق هشام بن عروة عن أبيه . وأخرج ابن الجوزي في مثير العزم الساكن عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « لما أهبط الله عز وجل آدم عليه السلام طاف بالبيت سبعا ، وصلى خلف المقام ركعتين ، ثم قال : اللهم إنك » فساقه إلى آخر الدعاء ، ثم قال : فأوحى الله عز وجل « يا آدم قد دعوتني دعاء استجبت لك فيه ، ولن يدعوني به أحد من ذريتك إلا استجبت له ، وغفرت له ذنوبه ، وفرجت همومه ، واتجرت له من وراء كل تاجر ، فأتته الدنيا وهي راغمة ، وإن كان لا يريدها » . وأخرجه أبوبكر بن أبي الدنيا في كتاب اليقين بسنده عن عوف بن خالد قال : « وجدت في بعض الكتب أن آدم عليه السلام ركع إلى جانب الركن اليماني ركعتين ثم قال : اللهم إني أسألك إيمانا يباشر قلبي إلى آخر الدعاء . قال : فأوحى

الله عز وجل : يا آدم إنه حق على أن لا يلزم أحد من ذريتك هذا الدعاء إلا أعطيته ما يحب ، ونجيته مما يكره ، ونزعت أمل الدنيا والفقر من بين عينيه ، وملأت جوفه حكمة » . وروى البزار بسند فيه أبو مهدى بن سنان ، وهو ضعيف من حديث ابن عمر رفعه أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول هذه الكلمات « اللهم إني أسألك إيمانا يباشر قلبي، إلى آخره » وليس فيه ويقينا صادقا ، كذا أفاده الزبيدى . وحكى عن الجنيد رضى الله عنه قال : رأيت آدم عليه السلام فى النام وهو يبكي ، فقلت له ما يبكيك ؟ أليس قد غفر الله تعالى لك ووعدك بالرجوع إلى الجنة ، فناولني ورقة مكتوبة ، فاستيقظت من منامى ووجدتها فى يدى وإذا فيها :

أحرقنى بالنار نار من النوى ونار النوى نار أحر من النار
شغفت بجار لابدار سكنتها على الجار أبكي لاعلي سكنة الدار
ولو لم يعدنى بالرجوع إلى المنى هلكت ولكنى نلت بالوعد أوطارى

هكذا ذكره اليافعى فى روضه . وكذلك ما وقع لداود عليه السلام من خطيئته . قال مجاهد رحمه الله تعالى : بكي داود عليه السلام أربعين يوما ساجدا لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموعه وحتى غطى رأسه ، فنودى : يا داود أجائع أنت فتطعم ؟ أم ظمآن فتسقى ؟ أم عار فتكسى ؟ فنحب نحبة هاج العود فاحترق من جوفه ، ثم أنزل الله عليه التوبة والمغفرة . فقال يارب اجعل خطيئتى في كفي ، فصارت خطيئته في كفه مكتوبة ، فكان لا يبسط كفه لطعام ولا لشراب إلا رآها فأبكته . قال : وكان يؤتى بالقدح ثلثاه ماء فاذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه . وروى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن عبد الله بن عمير الليثى : أن داود سجد حتى نبت ما حوله خضرا من دموعه ، فأوحى الله إليه : أن ياداود أتريد أن أزيدك فى مالك وعمرك ؟ فقال يارب أهذا تزيد على ؟ أريد أن تغفرلى ، وروى عبد بن حميد عن كعب قال : سجد داود نبي الله أربعين يوما وأربعين ليلة لا يرفع رأسه حتى رقأ دمعه ويبس فكان من آخر دعائه وهو ساجد أن قال : يارب رزقتنى العافية فسألتك علما ، فلما ابتليتنى لم أصبر فإن تعذبنى فأنا أهل ذلك ، وإن تغفرلى فأنت أهل ذلك . وروى الحكيم وابن جرير وابن أبى حاتم بسند ضعيف عن أنس رفعه قال « سجد داود أربعين ليلة حتي نبت الزرع من دموعه على رأسه ؟ وأكلت الأرض جبينه وهو يقول فى سجوده : رب زل داود زلة أبعد ما بين المشرق والمغرب ، رب إن لم ترحم ضعف داود وتغفر ذنبه جعلت ذنبه حديثا في الخلوف من بعدى فغفر له » وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام لما عوقب على خطيئته لأجل التمثال الذى عبد فى داره أربعين يوما ، قيل إنه غزا صيدون من الجزائر ، فقتل ملكها وأصاب ابنته فأحبها ، وكان لا يرقأ دمعها جزعا على أبيها ، فأمر الشياطين فمثلوا لها صورته . وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها فيسجدون لها كعادتهن فى ملكه ، فأخبره آصف فكسر الصورة وضرب المرأة وخرج باكيا إلى الفلاة متضرعا ، فالخطيئة تغافله عن حال أهله ، لأن اتخاذ التماثيل كان جائزا حينئذ ،

هٰذَا حَالُهُ مَعَ نَبِيِّهِ وَصَفِيِّهِ فِى ذَنْبٍ ، وَاحِدٍ فَكَيْفَ حَالُ الْغَيْرِ فِى ذُنُوبٍ لَا تُحْصَى ؟ وَهٰذَا تَضَرُّعُ التَّائِبِ وَابْتِهَالُهُ ، فَكَيْفَ بِالْمُصِرِّ الْمُتَعَسِّفِ ؟ وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ :

يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ مَنْ يَتُوبُ ... فَكَيْفَ تَرَى حَالَ مَنْ لَا يَتُوبُ

فَإِنْ تُبْتَ ثُمَّ نَقَضْتَ التَّوْبَةَ وَعُدْتَ إِلَى الذَّنْبِ ثَانِياً فَعُدْ إِلَى التَّوْبَةِ مُبَادِرًا

---

والسجود للصورة بغير علمه لا يضره ، كذا ذكره البيضاوى ، وقيل لأن المرأة سألته أن يحكم لأبيها ، فقال نعم ولم يفعل ، وقيل بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانها منه ؟ هكذا ذكره في القوت ، فسلب ملكه أربعين يوما ، فهرب تائها على وجهه ؛ فكان يسأل بكفه فلا يطعم ، فإذا قال : أطعمونى فإنى سليمان بن داود : شج وطرد وضرب . وحكي أنه استطعم من بيت لامرأته فطردته وبصقت فى وجهه . وفي رواية « أخرجت عجوز جرة فيها بول فصبته على رأسه إلى أن أخرج الله له الخاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الأربعين أيام العقوبة . قال : فجاءت الطيور فعكفت على رأسه ؛ وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله ؛ فاعتذر إليه بعض من كان جنى عليه ، فقال : لا ألومكم فيما فعلتم من قبل ، ولا أحمدكم فى عذركم الآن ؛ إن هذا أمر كان من السماء ولابد منه » . وقيل :كان إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا ذكر خطيئته يغشى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلا فى ميل ، فيأتيه جبريل فيقول له ربك يقرئك السلام ويقول : هل رأيت خليلا يخاف خليله ؟ فيقول يا جبريل : إنى إذا ذكرت خطيئتي نسيت خلتى . رواه ابن أبي الدنيا فى كتاب [ الخائفين ] . ( هـذا ) أى الذي ذكرناه ( حاله ) عز وجل ( مع نبيه وصفيه فى ذنب واحد ) مع أنهم أعرف خلق الله بالله وصفاته ، وقس نفسك وتأمل في قصورك عن لحوق درجاتهم ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ( فكيف حال الغير فى ) ارتكاب ( ذنوب لا تحصى ، وهـذا ) أى بكاء آدم وغيره عليهم السلام ( تضرع التائب وابتهاله ) إلى مولاه الغفور الرحيم ( فكيف ) الحال ( بالمصرّ ) أى المقيم على الذنوب الغافل عن ستار العيوب (المتعسف) أى الخارج عن الطريق الظاهر كما قاله الشبراملسى . وفى المختار : العسف الأخذ على غير الطريق وبابه ضرب ، وكذا التعسف والاعتساف ( ولقد أحسن من قال ) شعرا من بحر المتقارب ( يخاف على نفسه ) الضمير عائد إلى متأخر فى اللفظ متقدم فى الرتبة ، لأن قوله من يتوب فاعل لقوله يخاف ، فرتبته التقدم على قوله على نفسه ( من يتوب ) إلى الله ( فكيف ترى حال من لا يتوب ) بل ينهمك في شهوته ، ويغفل عن عاقبة أمره لجهله بربه تعالى ، وهذا جدير بأن يعذبه الله عذابا أليما إن لم يرحمه أرحم الراحمين ( فإن تبت ) توبة صحيحة بتوفرشروطها ( ثم نقضت التوبة ، و ) ذلك بأن (عدت إلي الذنب) الذى ارتكبته بعدها (ثانيا) فإنه لا يضر توبة مضت، بل المعاودة ذنب آخر تجب منه التوبة كما أشار بقوله (فعد إلى التوبة مبادرا)

وَقُلْ لِنَفْسِكَ لَعَلِّي أَمُوتُ قَبْلَ أَنْ أَعُودَ إِلَى الذَّنْبِ هٰذِهِ الْمَرَّةَ ، وَكَذٰلِكَ ثَالِثاً وَرَابِعاً ، وَكَمَا اتَّخَذْتَ الذَّنْبَ وَالْعَوْدَ إِلَيْهِ حِرْفَةً فَاتَّخِذِ التَّوْبَةَ أَيْضاً وَالْعَوْدَ إِلَيْهَا حِرْفَةً ، وَلَا تَكُنْ فِي التَّوْبَةِ أَعْجَزَ مِنْكَ فِي الذَّنْبِ وَلَا تَيْأَسْ وَلَا يَمْنَعْكَ الشَّيْطَانُ مِنَ التَّوْبَةِ بِسَبَبِ ذٰلِكَ ، فَإِنَّهُ دِلَالَةُ الْخَيْرِ ، أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ صلى اللهُ عليه وسلم : « خِيَارُكُمْ كُلُّ مُتَفَتِّنٍ تَوَّابٍ » أَيْ كَثِيرُ الِابْتِلَاءِ بِالذَّنْبِ كَثِيرُ التَّوْبَةِ مِنْهُ وَالرُّجُوعِ إِلَى اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ بِالنَّدَامَةِ .

---

أي مُسرعا ليرتفع عنك إثم فعله بالتوبة التي وعد الله بقبولها فضلا منه ، وظاهر إطلاقه يشمل ما إذا تاب من صغيرة ثم عاد إليها مع إصراره على ذنب آخر ولو كبيرا فى أنه تصح توبته منها ، وهو كذلك عند الجمهور كما قاله الفشنى ( وقل لنفسك ) يا نفسى بادرى إلى التوبة ولا تكسلى عنها ( لعلى أموت قبل أن أعود إلى الذنب هذه المرة ، وكذلك ) أى مثل فعلك بأن عدت إلى الذنب فبادر التوبة ( ثالثا ورابعا ) وهكذا ( وكما اتخذت الذنب ، و ) اتخذت ( العود إليه ) أى إلى ارتكاب الذنب ( حرفة ) أى صناعة ( فاتخذ التوبة أيضا ) أى كما اتخذت الذنب حرفة ( و ) اتخذ ( العود إليها ) أى التوبة ( حرفة ولا تكن فى التوبة أعجز منك فى الذنب ولا تيأس ) من مغفرة الله ورحمته ( ولا يمنعك الشيطان من التوبة بسبب ذلك ) أى بسبب نقض التوبة ( فإنه ) أي اتخاذ التوبة حرفة لكثرة الابتلاء بالذنب ( دلالة الخير ، أما تسمع ) قوله تعالى « إن الله يحب التوّابين ويحب المتطهرين » . والتواب من أبنية المبالغة الدالة على التكرار ، فلا يطلق إلا على من تكررت منه التوبة مرات ، وإطلاقه يقتضى أنه تكرر منه التوبة سواء أوقعت منه معصية أخرى مع التوبة أم لا ، كما قاله الفشنى ، والعود إلى الذنب أقبح من ابتدائه لأنه انضم إلى الذنب نقض التوبة ، والعود إلى التوبة أحسن من ابتدائها ، لأنه انضم إليها ملازمة الإلحاح بباب الكريم وأنه لاغافر للذنب سواه .

﴿ فائدة ﴾ قال ابن الأثير فى معنى اسمه تعالى الغفار : هو الذى يغفر ذنوب عباده مرة بعد مرة وقال بعضهم : فى معنى اسمه التواب هو فى حق الله تعالى رجوعه إلى عبده بالقبول ، فهو التواب على من تاب ، وفى حق العبد رجوعه إلى الندم والطاعة ، والأحاديث فى ذلك كثيرة شهيرة فاسمع ( قوله صلى الله عليه وسلم : خياركم كل متفتن ) بمثناة فوقية مشددة ( تواب ) أى كل ممتحن يمتحنه الله بالذنب ، ثم يتوب : ثم يعود ، ثم يتوب ، قال العراقى . رواه البيهقى فى الشعب بسند ضعيف عن على كرم الله وجهه : وروى أبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عباس « إن المؤمن من خلق مفتانا توابا ناسيا إذا ذكر ذكر » . وفى رواية له « إن المؤمن خلق تاسيا ، فاذا ذكر ذكر » وروى أحمد من حديث على « إن الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب » . قال المصنف ( أى كثير الابتلاء بالذنب كثير التوبة منه ) أى من الذنب ( والرجوع إلى الله جل جلاله بالندامة

وَٱلاسْتِغْفَارِ ، وَتَذَكَّرْ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ : ( وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَحِيماً )

---

والاستغفار) وفي خبر آخر «المؤمن كالسنبلة يفيء أحيانا ويميل أحيانا» . رواه أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس ، وفى حديث جابر « مثل المؤمن مثل السنبلة تستقيم مرة وتخرّ مرة ومثل الكافر مثل الأرزة لا تزال مستقيمة حتى تخر ولا تشعر » . رواه أحمد وعبد بن حميد والسائسى والضياء فى المختارة ، وفى معناه ما رواه الشيخان من حديث أبى هريرة « مثل المؤمن كمثل خامة الزرع من حيث أتتها الريح كفتها ، فاذا سكنت اعتدلت ، وكذلك المؤمن يكفى بالبلاء ، ومثل الفاجر كالأرزة صماء معتدلة حتى يقصمها الله عز وجل إذا شاء» ، ومن حديث كعب بن مالك « مثل المؤمن كالخامة من الزرع تفيئها الريح مرة وتعدلها مرة ، ومثل المنافق كالأرزة لا تزال حتى يكون انجفافها مرة واحدة » ، وكذلك رواه أحمد أيضا ، وفى لفظ لأحمد من حديث أبى هريرة « مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تكفئه ، ولا يزال المؤمن يصيبه بلاء ، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرزة لا تستهزّ حتى تستحصد » . ورواه كذلك الترمذى وقال حسن صحيح وروى الطبراني في الكبير « مامن عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة ، أو ذنب هو يقيم عليه لا يفارقه حتى يفارق الدنيا ، إن المؤمن خلق مفتنا توابا نسيا إذا ذكر ذكر » . وفى لفظ له « مامن مسلم إلا وله ذنب يصيبه الفينة بعد الفينة ، إن المؤمن نساء إذا ذكر ذكر » . قال أبو حامد الغزالى رحمه الله فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرّين ، ولا يؤيس هذا عن درجة التائبين ( وتذكر ) أى استحضر فى قلبك قوله تعالى « واستغفره إنه كان توابا » . وقوله عز وجل « والمستغفرين بالأسحار » . و ( قوله سبحانه ومن يعمل سوءا ) أى قبيحا يسوء به غيره ( أو يظلم نفسه ) بما يختص به ولا يتعدّاه ، وقيل المراد بالسوء ما دون الشرك ، وقيل الصغيرة والكبيرة ( ثم يستغفر الله ) بالتوبة ( يجد الله غفورا ) لذنوبه ( رحيما ) أى متفضلا عليه كما فى البيضاوى . قال علقمة ابن قيس والأسود بن يزيد النخعى رحمهما الله تعالى : قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : فى كتاب الله آيتان ما أذنب عبد ذنبا فقرأهما واستغفر الله عز وجل إلا غفر الله له : الأولى قوله عز وجل « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم » : الآية . والثانية قوله عز وجل « ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما » : وروى عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أى عبد أصاب ذنبا وربما قال أذنب ذنبا ، فقال : رب أذنبت ذنبا ، وربما قال: أصبت ذنبا فاغفره لى،فقال ربه : أعلم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به غفرت لعبدى ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ذنبا فقال : رب أذنبت أوأصبت آخر فاغفره ، فقال: أعلم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به غفرت لعبدى ، ثم مكث ما شاء الله ، وربما قال : ثم أصاب ذنبا أو أذنب ذنبا ، فقال : رب أذنبت أو أصبت آخر فاغفره لى فيقول : أعلم عبدى أن له ربا

فَهٰذِهِ هٰذِهِ وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

﴿ فصل ﴾ وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ أَنَّكَ إِذَا ابْتَدَأْتَ فَبَرَّأْتَ قَلْبَكَ عَنِ الذُّنُوبِ كُلِّهَا بِأَنْ تُوَطِّنَهُ عَلَى أَنْ لَا تَعُودَ إِلَى الذَّنْبِ أَبَدًا أَلْبَتَّةَ إِلَّا مَا كَانَ مِنْكَ فِى عِلْمِ اللهِ عَلَى وَجْهِ عِلْمِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صِدْقَ عَزْمِكَ مِنْ قَلْبٍ نَقِيٍّ وَتُرْضِى الْخُصُومَ بِمَا أَمْكَنَكَ وَتَقْضِى الْفَوَائِتَ بِمَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ وَتَرْجِعُ فِى الْبَوَاقِى إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالِابْتِهَالِ وَالتَّضَرُّعِ لِيَكْفِيَكَ

---

يغفر الذنب ويأخذ به ، غفرت لعبدى ثلاثا فليعمل ما شاء » . وقال صلى الله عليه وسلم « من أذنب ذنبا فعلم أن الله قد اطلع عليه غفر له وإن لم يستغفر » . قال المناوى ، ليس المراد منه الحث على فعل الذنب أو الترخيص فيه كما توهمه بعض أهل الغرة ، فإن الرسل إنما بعثوا للردع من غشيان الذنوب ، بل ورد مورد البيان لعفو الله عن المذنبين وحسن التجاوز عنهم ليعظموا الرغبة فيما عنده من الخير ، والمراد أنه سبحانه كما يحب أن يحسن يحب أن يتجاوز عن المسىء ، والقصد بإيراده بهذا اللفظ الرد على منكر صدور الذنب من المؤمنين ، وأنه قادح فى إيمانهم انتهى . قال العراقى : رواه الطبرانى فى الأوسط من حديث ابن مسعود بسند ضعيف ، والأدلة فى فضيلة الاستغفار أكثر من أن تحصى ، وفى هذا القدر الذى ذكرناه كفاية لأولى الألباب ( فهذه ) أى الجملة ( هذه ) أى عظيمة ( وبالله التوفيق ) هو خلق القدرة على الطاعة ، فهو أخص من الإعانة التى هى خلق القدرة على الفعل سواء كان طاعة أم لا ، فبينهما عموم وخصوص مطلق ، فالإعانة أعم ، وقيل : إن التوفيق خلق الطاعة وهذا أقرب ، لأن التوفيق مأخوذ من الوفاق وهو يحصل بالطاعة .

﴿ فصل ﴾ قال الدلجونى : الفصل فى اللغة معناه الحاجز بين الشيئين ، فهو بمعنى اسم الفاعل : أى هذا اللفظ فاصل : أى مميز لما ذكر بعده عما ذكر قبله ، أو بمعنى اسم المفعول بمعنى مفصول عما قبله . واصطلاحا : عنوان بحث سابق عن لاحق انتهى ، وذلك أن التراجم اسم للألفاظ ، فمدلولها الألفاظ التى تذكر بعدها تأمل ( وجملة الأمر ) أى حاصله ( أنك إذا ابتدأت ) التوبة ( فبرأت ) بتشديد الراء ( قلبك عن الذنوب كلها بأن توطنه ) أى تقرر القلب ( على أن لا تعود إلى الذنب أبدا ألبتة ) أى قطعا ( إلا ما كان منك ) من الهفوة على سبيل الفلتة من غير قصد ( فى علم الله على وجه علم الله سبحانه وتعالى صدق عزمك من قلب نقى ) أى خالص من الكدورات ( وترضى الخصوم ) من الإرضاء عطف على توطن ( بما أمكنك وتقضى الفوائت ) أى من صلاة وصيام وغيرهما ( بما تقدر عليه وترجع ) أى أن ترجع ( فى البواقى ) أى من الفوائت التى لم تقدر على قضائها ( إلى الله سبحانه وتعالى بالابتهال ) أى باللسان ( والتضرع ) أى بالقلب ( ليكفيك

ذٰلِكَ ثُمَّ تَذْهَبَ فَتَغْتَسِلَ وَتَغسِلَ ثِيَابَكَ وَتُصَلِّيَ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ كَمَا يَجِبُ ، وَتَضَعَ وَجْهَكَ عَلَى الْأَرْضِ فِى مَكَانٍ خَالٍ لَا يَرَاكَ إِلَّا اللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثُمَّ تَجْعَلَ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِكَ وَتُمَرِّغَ وَجْهَكَ الَّذِى هُوَ أَعَزُّ أَعْضَائِكَ فِى التُّرَابِ بِدَمْعٍ جَارٍ وَقَلْبٍ حَزِينٍ وَصَوْتٍ عَالٍ وَتَذْكُرَ ذُنُوبَكَ وَاحِدًا وَاحِدًا مَا أَمْكَنَكَ وَتَلُومَ نَفْسَكَ الْعَاصِيَةَ عَلَيْهَا وَتُوَبِّخَهَا وَتَقُولَ : أَمَا تَسْتَحِينَ يَا نَفْسُ ، أَمَا آنَ لَكِ أَنْ تَتُوبِى ، أَلَكِ طَاقَةٌ بِعَذَابِ اللّٰهِ سُبْحَانَهُ ، أَلَكِ حَاجَةٌ بِسَخَطِ اللّٰهِ سُبْحَانَهُ ، وَتَذْكُرُ مِنْ هٰذَا كَثِيرًا وَتَبْكِى . ثُمَّ تَرْفَعُ يَدَيْكَ إِلَى الرَّبِّ الرَّحِيمِ سُبْحَانَهُ وَتَقُولُ : إِلٰهِى عَبْدُكَ الآبِقُ

---

ذلك ) أى البواقي ( ثم تذهب فتغتسل ) أى بدنك ( وتغسل ) بكسر السين من باب ضرب كما فى المختار ( ثيابك وتصلى أربع ركعات كما يجب ) فى التطويل والقراءة كما فى سراج السالكين . قال الشعرانى : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من عبد يذنب ذنبا ثم يقوم فيتطهر ثم يصلى ثم يستغفر الله إلا غفر له ثم يقرأ : والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم الآية » . وفى رواية « ثم يصلى ركعتين أو أربعا مفروضة أو غير مفروضة » . وكان ثوبان رضى الله عنه يقول : التوبة من الذنب هى أن تتوضأ وتصلى ، ثم يقول : سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ( وتضع وجهك على الأرض فى مكان خال ) عن الناس حيث ( لا يراك ) فيه ( إلا الله سبحانه وتعالى ، ثم تجعل التراب على رأسك وتمرغ ) بصيغة المضارع : أى تمعك وتدلك ( وجهك الذى هو أعز أعضائك فى التراب ) مع البكاء ( بدمع جار ) أى سيلان ( وقلب حزين ) أى شديد الحزن على ما فرط من التقصير فى عبادة مولاك المقتدر ( وصوت عال وتذكر ) أى فى قلبك ( ذنوبك واحدا واحدا ) على التفصيل ( ما أمكنك وتلوم ) أى تذم ( نفسك ) الأمارة بالسوء ( العاصية عليها ) أى على صاحبها ، لأن النفس مجبولة على سوء الأدب والعبد مأمور بملازمة الأدب ، فالنفس تجرى بطبعها فى ميدان المخالفة ، والعبد يردها بجهده عن سوء المطالبة ، فمن أطلق عنانها فهو شريكها فى فسادها كما قاله ابن عطاء ( وتوبخها وتقول : أما تستحين يا نفس ) من خالقك ومولاك إذ قد فعلت كذا وكذا من الذنوب ( أما آن لك ) أى حان أى أما جاء لك وقت ( أن تتوبى ) إلى خالقك ( ألك طاقة ) أى قوة ( بعذاب الله سبحانه ألك حاجة ) وفى نسخة حاجز : أى مانع ( بسخط الله سبحانه وتذكر من هـذا ) أى المذكور من عذاب الله وسخطه ( كثيرا ) أى ذكرا كثيرا فى قلبك ( وتبكى ثم ترفع يديك إلى الرب ) الغفور ( الرحيم سبحانه وتقول : إلهى ) أى يا معبودى بحق ( عبدك الآبق ) بالمد . قال أهل اللغة : يقال أبق العبد : إذا هرب من سيده بفتح الباء يأبق بضمها وكسرها فهو آبق ، وحكى ابن فارس أبق العبد بكسر الباء يأبق بفتحها . قال الثعالبى فى سر اللغة : لا يقال للعبد آبق إلا إذا كان

رَجَعَ إِلى بَابِكَ، عَبْدُكَ الْعَاصِي، رَجَعَ إِلى الصُّلْحِ عَبْدُكَ الْمُذْنِبُ أَتَاكَ بِالْعُذْرِ فَاعْفُ عَنِّي بِجُودِكَ وَتَقَبَّلْنِي بِفَضْلِكَ وَانْظُرْ إِلَيَّ بِرَحْمَتِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا سَلَفَ مِنَ الذُّنُوبِ وَاعْصِمْنِي فِيمَا بَقِيَ مِنَ الْأَجَلِ فَإِنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ بِيَدِكَ وَأَنْتَ بِنَا رَءُوفٌ

---

ذهابه من غير خوف ولا كدّ عمل وإلا فهو هارب، وذكره ابن اللقن فى الإشارة: أى عبدك الهارب منك يا رب (رجع إلي بابك) أى باب رحمتك، إلهى (عبدك العاصى رجع إلي الصلح) إلهى (عبدك المذنب) أى متحمل الذنب (أتاك بالعذر) أى الاعتذار (فاعف عنى) أى امح عنى جميع ما اقترفته من المعاصى والزلات (بجودك) وعطائك (وتقبلنى بفضلك) أى إحسانك (وانظر إلىّ برحمتك) ولا تنظر على بغضبك (اللهم) فيه مذهبان للنحويين، فقال الفراء والكوفيون: إن أصله يا ألله أم بخير فكره استعماله، فحذفت الهمزة تخفيفا، وتركت الميم مفتوحة وقال الخليل والبصريون: إن أصله يا ألله، فلما استعملت الكلمة دون حرف النداء الذى هو يا عوضوا منه هذه الميم المشددة، والضمة فى الهاء هى ضمة الاسم المنادى المفرد، وذهب حرفان فعوض بحرفين، والميم مفتوحة لسكونها وسكون الميم قبلها، ولا يقال: يا أللهم لئلا يجمع بين البدل والمبدل منه، وقد سمع فى الشعر، وأنكره الزجاج، والله أعلم، ذكره العلامة الفاسى (اغفر لى ما سلف من الذنوب واعصمنى) أى احفظنى (فيما بقى من الأجل) أى من العمر (فإن الخير) أى الشر (كله بيدك) أى بقدرتك. هذا ما عليه الخلف من التأويل، وأما مذهب السلف فهو جرى على ظاهره من إثبات يد له تعالى منزه عن سمات الحدوث. قال بعضهم: طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أحكم، ورد غيره بأنه غير مستقيم لأنه ظن أن طريقة السلف مجرّد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه فى ذلك، وأن طريقة الخلف هى استخراج معانى النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات، فجمع هذا القائل بين الجهل بطريقة السلف والدعوى فى طريقة الخلف، وليس الأمر كما ظن، بل السلف فى غاية المعرفة بما يليق بالله تعالى وفى غاية التعظيم له، والخضوع لأمره، والتسليم لمراده، وليس من سلك طريقة الخلف واثقا بأن الذى يتأوله هو المراد، ولا يمكنه القطع بصحة تأويله انتهى، ولهذا قال إمام الحرمين فى الرسالة النظامية بعد حكاية الطريقتين: والذى نرتضيه رأيا وندين الله به عقيدة اتباع سلف الأمة للدليل القاطع أن إجماع الأمة حجة، فلو كان تأويل هذه الظواهر حتما فلا شك أن يكون اهتمامهم به فوق اهتمامهم بفروع الشريعة، وإذا انصرم عصر الصحابة والتابعين على الإضراب عن التأويل كان ذلك هو الوجه المتبع والله أعلم، كذا أفاده بعض المحققين (وأنت بنا رءوف) من الرأفة وهى شدة الرحمة. قال الجمل: الرءوف: ذو الرأفة، وهى نهاية الرحمة، فهو أخص من الرحيم وهو المعطف على المذنبين بالتوبة، وعلى الأولياء بالعصمة، وقيل: هو الذى ستر ما رأى من العيوب ثم عفا عما ستر من الذنوب، وقيل: الذى صان أولياءه عن ملاحظة الأشكال، وكفاهم

رَحِيمٌ ، ثُمَّ تَدْعُو دُعَاءَ الشِّدَّةِ وَهُوَ: يَا مُجْلِيَ عَظَائِمَ الْأُمُورِ يَا مُنْتَهَى هِمَّةِ الْمَهْمُومِينَ ، يَا مَنْ إِذَا أَرَادَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ أَحَاطَتْ بِنَا ذُنُوبُنَا أَنْتَ الْمَذْخُورُ لَهَا يَا مَذْخُورًا لِكُلِّ شِدَّةٍ كُنْتُ أَدَّخِرُكَ لِهَذِهِ السَّاعَةِ فَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ، ثُمَّ أَكْثِرْ مِنَ الْبُكَاءِ وَالتَّذَلُّلِ وَالتَّضَرُّعِ وَقُلْ : يَامَنْ لا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ وَلَا سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ ،

---

بفضله مؤنة الأشغال ( رحيم ) الذى رحمته الخاصة لخواص عباده من المؤمنين ( ثم تدعو دعاء الشدة ) أى الكربة ( وهو: يا مجلى عظائم الأمور ) أى يا مظهر كبائرها (يامنتهى همة المهمومين) أى غاية عزم الذين يتصفون بالهموم والأحزان ( يا من إذا أراد أمرا ) أى شيئا : أى خلق شىء ( فإنما يقول له كن فيكون ) أى فهو يكون : أى يحدث ، ومعنى يقول كن : يكوّنه ، فهو تمثيل لتأثير قدرته تعالى فى مراده بأمر المطاع للمطيع فى حصول المأمور من غير امتناع وتوقف وافتقار إلى أولية عمل ، واستعمال آلة قطعا لمادة الشبهة ، وقياس قدرة الله على قدرة الخلق كما قاله القارى ، فمعنى يقول له كن أن تتعلق به قدرته تعلقا تنجيزيا ، والإرادة نزوع : أى اشتياق النفس وميلها إلى فعل بحيث يحملها عليه، أو هى قوة هى مبدأ النزوع، والأول مع الفعل ، والثانى قبله ، وكلاهما مما لا يتصور فى حق الله تعالى ، وإرادته تعالى ترجيح أحد مقدوريه على الآخر بالإيقاع أو معنى يوجب هذا الترجيح ، بخلاف القدرة فإنها لاتخصص الفعل ببعض الوجوه ، بل هى موجدة للفعل مطلقا ، ومعلوم أن الارادة صفة ذاتية قديمة زائدة على العلم ( أحاطت بنا ذنوبنا أنت المذخور لها ) أى أنت المختار لغفران الذنوب ( يامذخورا لكل شدة كنت أدخرك ) أى أختارك أو أتخذك أو أجعلك ذخيرة نافعة ( لهذه الساعة ) أى زمن الشدة والكربة ( فتب علىّ ) أى تقبل توبتى ( إنك أنت التواب الرحيم ، ثم أكثر ) أيها العبد المذنب ( من البكاء والتذلل ) والتواضع والخضوع والخشوع ( والتضرع ) أى الخلوص فى الدعاء ( وقل : يامن لايشغله شأن عن شأن ) آخر ، بخلاف المخلوق إذا كان فى شغل يشغله عن شغل آخر ، فانه إذا فرغ من ذلك الشغل شرع فى آخر (ولا) يشغله سبحانه ( سمع عن سمع ) أى مسموع آخر ، بل هو تعالى كل يوم فى شأن . قال سفيان بن عيينة : الدهر كله عند الله يومان : أحدهما مدة أيام الدنيا ، والآخر مدة الآخرة ، وشأنه فى يوم الدنيا الاختبار بالأمر والنهى ، والإحياء والإماتة ، والإعطاء والمنع وغير ذلك ، وشأنه فى يوم القيامة : الجزاء والحساب ، والثواب والعقاب وغير ذلك ،وقيل شأنه تعالى أنه يخرج فى كل يوم ثلاثة عساكر : عسكرا من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات ،وعسكرا من الأرحام إلى الدنيا ، وعسكرا من الدنيا إلى القبور ، ثم يرتحلون جميعا إليه تعالى ، كذا ذكره الخازن . وفي الحديث « من شأنه أن يغفر ذنبا ، ويفرج كربا ، ويرفع قوما ويضع آخرين »

يَا مَنْ لاَ تُغَلِّطُهُ كَثْرَةُ المَسَائِلِ ، يَا مَنْ لاَ يَبْرَمُهُ إِلْحَاحُ المُلِحِّينَ ، أَذِقْنَا بَرْدَ عَفْوِكَ وَحَلاَوَةَ مَغْفِرَتِكَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . ثُمَّ تُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ،

---

وهذا رد لقول اليهود : إن الله لايقضى يوم السبت شيئا كما قاله القاضى البيضاوى ( يامن لاتغلطه) أى تخطئه ( كثرة المسائل ) من عباده ( يامن لايبرمه ) بفتح الياء من باب تعب : أى لايضجره ولا يمله ( إلحاح الملحين ) بكسر الهمزة : أى إقبال المقبلين المواظبين على السؤال ( أذقنا برد )أى راحة ( عفوك ) أى محوك السيئات وتجاوزك عن المعاصى ( وحلاوة ) أى لذة (مغفرتك برحمتك) أى وارحمنا بفضلك الواسع لا بالوجوب عليك ، فيكون فيه إلى ما فى الصحيح « سددوا وقاربوا ، واعلموا أنه لن يدخل الجنة أحد بعمله قالوا ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولاأنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » وقد ورد فى الحديث عن سلمان رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تبارك وتعالى خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة كل رحمة طباق مابين السماء والأرض ، فأنزل منها إلى الأرض رحمة واحدة ، فبها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض ، حتى أن الفرس لترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه فإذا كان يوم القيامة رد الله تعالى هذه الرحمة إلى التسعة والتسعين فأكملها مائة رحمة فيرحم بها عباده » ( ياأرحم الراحمين ) أى بعباده فإنه تعالى أرحم بالعبد من نفسه ، وأشفق عليه من والديه ولذا أحب توبته ورجوعه إليه . قال صلى الله عليه وسلم « لله أشد فرحا بتوبة عبده من أحدكم إذا سقط عليه بعيره قد أضله بأرض فلاة » رواه الشيخان . وفى الحديث « إن لله ملكا موكلا بمن يقول ياأرحم الراحمين ، فمن قالها ثلاثا قال له الملك: إن أرحم الراحمين قد أقبل عليك فسل » رواه الحاكم عن أبى أمامة ، ويا أرحم الراحمين كنز من كنوز الجنة ،ومن دعا به ألف مرة فى جوف الليل لأى حاجة كانت من الحاجات الدنيوية والأخروية قضى الله حاجته . اللهم يا أرحم الراحمين ، يا أرحم الراحمين ، ياأرحم الراحمين اقض حوائجنا الدنيوية والأخروية ، ووفقنا لإصلاح النية ، بجاه سيدنا محمد خير البرية ، وأهل بيته ذوى النفوس الزكية . قال الشيخ أبو عبد الله العربى رحمه الله تعالى : وأرحم اسم تفضيل ، وصف لله تعالى ، والراحمون جمع راحم ، والرحمة جميعها منه تعالى ، وإنما يوصف غيره بالرحمة بجعله هو له ذلك ، فباعتبار نسبة الرحمة المجعولة فيهم لهم قيل لهم راحمون ، وليست لهم رحمة من قبل أنفسهم ، فهى رحمة منه ظهرت فيهم فنسبت إليهم فلما نسبه إليهم صح لهم الوصف حتى اعتد به موقعا للتفضل عليه فى الاسم الكريم ( إنك على كل شىء قدير ) والمراد بشىء كل موجود يمكن إيجاده ، لأن الله تعالى وإن دخل فى قوله كل شىء فانه شىء لا كالأشياء ، فقد خص العقل ذاته تعالى فليس عليها بقادر : أى لأن القدرة إنما تتعلق بالممكنات لابالواجبات ولا بالمستحيلات ( ثم تصلى ) وتسلم ( على النبى ) محمد بن عبد الله المختص

صلى اللهُ عليهِ وَسلم وَعَلَى آلِهِ ثُمَّ تَسْتَغْفِرُ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ

بالنبوة الكلية المطلقة ، فلا يشارك فيها ولا فى حملها عليه حمل اشتقاق ، فأل للعهد الذهنى ، وقد يقال للعهد الحضورى : أى النبي الحاضر بين أظهر المخاطبين حينئذ . وعن أبى عثمان الواعظ قال : سمعت سهل بن محمد يقول هذا التشريف الذى شرف الله تعالى به محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله « إن الله وملائكته يصلون على النبي » الآية أتمّ وأجمع من تشريف آدم عليه الصلاة والسلام بأمر الملائكة بالسجود له ، لأنه لا يجوز أن يكون الله مع الملائكة فى ذلك التشريف ، فتشريف يصدر عنه أبلغ من تشريف تختص به الملائكة . وقال أبو الليث السمرقندى رحمه الله إذا أردت أن تعرف أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من سائر العبادات فانظر هذه الآية ، فأمر الله عباده بسائر العبادات ، وصلى عليه بنفسه أولا ، وأمر ملائكته بالصلاة عليه ، ثم أمر المؤمنين بأن يصلوا عليه انتهى ، والاغتنام للاكثار من الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم والجمع لذكره صلى الله عليه وسلم مع ذكر ربه عز وجل تأسيا بقوله تعالى « ورفعنا لك ذكرك » فقد روى جماعة من حديث أبي سعيد رضى الله عنه أن معناه : لاأذكر إلا ذكرت معى، وللأداء لبعض ما يجب له صلى الله عليه وسلم ، إذ هو الواسطة بين الله سبحانه وتعالى وبين العباد وجميع النعم الواصلة إليهم التى أعظمها الهداية للاسلام إنما هى ببركته وعلى يديه . وقد قال صلى الله عليه وسلم « لايشكر الله من لايشكر الناس » والقيام برسم العبودية بالرجوع لما يقتضى الأصل نفيه فهو أبلغ فى الامتثال ، ومن أجل ذلك كانت فضيلة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم علي كل عمل ، والذى يقتضى الأصل نفيه هو كون العبد يتقرب إلى الله تعالى بالاشتغال بحق غيره ، لأن قولنا : اللهم صل على محمد هو اشتغال بحق محمد صلى الله عليه وسلم ، وأصل التعبدات أن لايتقرب إلي الله تعالى إلا بالاشتغال بحقه ، ولكن لما كان الاشتغال بالصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم بإذن من الله تعالى كان الاشتغال بها أبلغ فى امتثال أمر الآمر بها ، فهى بمثابة أمر الله سبحانه للملائكة بالسجود لآدم عليه وعليهم الصلاة والسلام ، فكان شرفهم فى امتثال أمر الله تعالى ، وكانت إهانة إبليس لعنه الله فى مخالفة أمره سبحانه ، والامتثال لأمر الله تعالى فى قوله تعالى «ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » . وقد قال القاضى أبو بكر بن بكير فى الآية : افترض الله تعالى على خلقه أن يصلوا على نبيه صلى الله عليه وسلم ويسلموا تسليما ولم يجعل لذلك وقتا معلوما فالواجب أن يكثر المرء منها ولا يغفل عنها ، كذا ذكره العلامة ابن يوسف الفاسى ( صلى الله عليه وسلم ، و ) تصلى وتسلم ( على آله ) بدون الصحب لانطباق لفظ الآل عليهم ، أو اقتصارا على مورد النص ( ثم تستغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات ) من الإنس والجن ، ويحتمل شمول الأمم الماضية ، وهو ظاهر حديث أنس الآتى ، وذلك لما ينبغى له أن يعم فى دعائه جميع المؤمنين . وقد قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم « واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » . وقال إخبارا عن نوح عليه السلام فى دعائه « رب اغفرلى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ».

وَتَرْجِعُ إِلَى طاعَةِ ٱللهِ جَلَّ جَلاَلُهُ فَتَكُونُ قدْ تُبْتَ تَوْبَةً نَصُوحاً وَقَدْ خَرَجْتَ مِنَ الذُّنُوبِ طَاهِرًا كَيَوْمِ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ ، وَأَحَبَّكَ اللهُ سُبْحانَهُ وَلَكَ مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ وَعلَيْكَ مِنَ الْبَرَكَةِ وَالرَّحْمَةِ ما لاَ يُحِيطُ بِهِ وَصْفُ الْوَاصِفِينَ ، وَحَصَلَ لكَ الْأَمْنُ وَالْخَلاَصُ وَنَجَوْتَ مِنْ غَضَبِهِ وَغُصَّةِ الْمَعاصِي ،

---

ودليل الاستغفار لهم ماروى الشيخ ابن حبان فى الثواب والمستغفرى فى الدعوات من حديث أنس بسند ضعيف « من استغفر للمؤمنين والمؤمنات رد الله عليه من كل مؤمن مضى من أول الدهر أو هو كائن إلى يوم القيامة » . وأخرج الطبرانى فى الكبير عن عبادة بن الصامت « من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة » ( وترجع إلى طاعة الله جل ) من الجلال ، وهو من الصفات الجامعة للغنى المطلق، والملك المحيط الدائم والتقدس عن كل نقص وكمال العلم والقدرة وسائر صفات الكمال ( جلاله ) أى عظمته تعالى ( فتكون قد تبت ) جواب إذا ابتدأت ( توبة نصوحا ) أى خالصا ( وقد خرجت من الذنوب طاهرا ) كمن لاذنب له كما ورد في الخبر ( كيوم ولدتك أمك ) أى خروجا مثل خروجك يوم ولدتك أمك ، أو حال كونك مشابها لنفسك يوم ولادتك فى البراءة ، فهو إما صفة لمصدر محذوف ، أو فى محل نصب على الحال (وأحبك الله سبحانه ) وذلك لقوله تعالى « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » ووجب له على الناس أربعة أشياء : أولها أن يحبوه فان الله تعالى قد أحبه . والثانى أن يحفظوه بالدعاء على أن يثبته الله على التوبة . والثالث أن لا يعيروه بما سلف من ذنوبه . والرابع أن يجالسوه ويذاكروه ويعينوه ، ويكرمه الله تعالى بأربع كرامات : أحدها أن يخرجه الله تعالى من الذنوب كأنه لم يذنب قط . والثانى أن يحبه الله تعالى . والثالث أن لايسلط عليه الشيطان ويحفظه منه . والرابع أن يؤمنه من الخوف قبل أن يخرج من الدنيا ، لأنه عز وجل قال « تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » . وروى عن خالد بن معدان أنه قال « إذا دخل التوابون الجنة قالوا ألم يعدنا ربنا أن نرد النار قبل أن ندخل الجنة ؟ قيل لهم : إنكم مررتم بها وهي خامدة» ذكره أبو الليث السمرقندى ( ولك ) ما لايحصى ( من الأجر والثواب ، وعليك من البركة ) أى الخير الإلهى ( والرحمة ما لايحيط به وصف الواصفين وحصل لك الأمن ) من المخاوف (والخلاص) أى النجاة من المهالك (ونجوت من غضبه) تعالى هو فى الأصل : غلظة عارضة للنفس تقتضى الانتقام بالايقاع أو الذم ، وتستعمل تارة فى مجرد غير هذه الغلظة ، وتارة فى مجرد الانتقام ، ويصاحبها غليان الدم واستشاطته فى الطبيعة ، وهى تابعة للسخط ، وهو عدم مطابقة الواقع لإرادة المريد الموجب لاعتراضه وعدم قبوله ، والمراد بغضبه تعالى انتقامه أو فى الكلام حذف مضاف : أى من محل غضبه تعالى وهو جهنم ، كذا قاله بعضهم ( و ) سلمت من ( غصة المعاصى ) أى مرارتها

وَبليَّتِها فى الدُّنيَا وَالآخِرَةِ . وَكُنْتُ قَدْ قَطَعْتَ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ بِإِذْنِ اللّٰهِ سُبْحَانَهُ وَتعالى ، وَاللّٰهُ وَلِيُّ الهِدَايَةِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ .

﴿ الْعقبةُ الثَّالِثَةُ : وَهِيَ عقبةُ الْعوَائِقِ ﴾

ثُمَّ عَلَيْكَ يَاطَالِبَ الْعِبَادَةِ ـ وَفَّقَكَ اللّٰهُ تعَالى ـ بِدَفْعِ الْعَوَائِقِ حَتَّى تَسْتَقِيمَ عِبادَتُك وَقدْ ذَكَرْنا أَنَّ الْعَوَائِقَ أَرْبَعَةٌ : أَحَدُهَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا

---

(و) من (بليتها) أي عذابها كما فى شرح الدلائل (فى الدنيا) بأن يعافيك من محنها وشدائدها (والآخرة) بأن لا يؤاخذك بذنوبك ولا يوبقك بأعمالك ( وكنت قد قطعت ) أى جاوزت ( هذه العقبة ) أى عقبة التوبة ( بإذن الله ) أى بارادته (سبحانه وتعالى ، والله ولىّ الهداية ) أى متولى دلالة الخلق على سلوك سبيل الهدى ( بمنه ) أى بإنعامه وإحسانه ( وفضله ) أى ما تفضل به على عباده من إسداء غاية الإحسان إليهم ، وفيه رد على المعتزلة الذين يوجبون فعل الصلاح والأصلح على الله تعالى ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

هذا باب شرح ( العقبة الثالثة ) من السبع المتقدمة ( وهى عقبة العوائق ) أى الموانع ( ثم عليك) أى الزم (يا طالب العبادة وفقك الله تعالى) جملة دعائية ( بدفع العوائق حتى تستقيم عبادتك) أى تعتدل ، وذلك زوال الاعوجاج والميل ، ويقال الاستقامة فى الأقوال بترك الغيبة وفى الأفعال بنفى البدعة ، وفى الأعمال بنفى الفترة ،وفى الأحوال بنفى الحجبة ( وقد ذكرنا ) من قبل (أن العوائق) أى الموانع الشاغلة عن العبادة ( أربعة : أحدها الدنيا وما فيها ) فانها قطعت الطريق على عباد الله ولذلك لم ينظر الله إليها نظر عناية مند خلقها، كما ورد ذلك فى الخبر : إلا ما يعين على أعمال الآخرة كقدر القوت من الطعام الذى به يتغذى ، ومن الماء الذى به يروى ، والقميص الواحد الخشن الذى يوارى عورته ، وكل ما لا بد منه ليتأتى للانسان البقاء والصحة التي بها يتوصل إلى العلم والعمل فان ذلك ليس من الدنيا ، لأنه معين عليهما ، فمهما تناوله العبد بما لا يمكن التبلغ بأقل منه على قصد الاستعانة به على العلم والعمل فمعذور بل مشكور ومأجور ، ولم يكن به متناولا للدنيا ، ولم يصر به من أبناء الدنيا ولم يلحقه الذم وان كان باعثه الحظ العاجل دون الاستعانة على التقوى صار من جملة أبناء الدنيا المذمومة ، ولو كان المتناول حقيرا فى نفسه ، وبالجملة لا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات: الأولى صفاء القلب : أي طهارته من أدناس الدنيا وأوساخها. والثانية أنسه بذكر الله تعالى . والثالثة حبه الله تعالى ، وصفاء القلب وطهارته لا يحصلان إلا بالكف عن شهوات الدنيا وحظوظها ، والأنس لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله والمواظبة عليه ، والحب لا يحصل إلا بالمعرفة ، إذ من لم يعرف لم يحب ، ولا تحصل معرفة الله إلا بدوام الفكر فى جلال الله وعظمته ، وهذه الصفات الثلاث هى المنجيات المسعدات للعبد بعد الموت كما ذكره المصنف

وَدَفْعِهَا ، إِنَّمَا هُوَ بِالتَّجَرُّدِ عَنْهَا وَالزُّهْدِ فِيهَا وَإِنَّمَا لَزِمَكَ هٰذَا التَّجَرُّدُ وَالزُّهْدُ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا لِتَسْتَقِيمَ لَكَ الْعِبَادَةُ وَتَكْثُرَ ، فَإِنَّ الرَّغْبَةَ فِى الدُّنْيَا تَشْغَلُكَ ، أَمَّا ظَاهِرُكَ فَبِالطَّلَبِ ، وَأَمَّا بَاطِنُكَ فَبِالْإِرَادَةِ وَحَدِيثِ النَّفْسِ وَكِلَاهُمَا يَمْنَعُ الْعِبَادَةَ ، فَإِنَّ النَّفْسَ وَاحِدَةٌ ، وَالْقَلْبَ وَاحِدٌ ، فَإِذَا اشْتَغَلَ بِشَىْءٍ انْقَطَعَ عَنْ ضِدِّهِ ، وَإِنَّ مَثَلَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَثَلِ الضَّرَّتَيْنِ إِنْ أَرْضَيْتَ إِحْدَاهُمَا أَسْخَطْتَ الْأُخْرَى ، وَأَنَّهُمَا كَالْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ بِقَدْرِ مَا تَمِيلُ إِلَى أَحَدِهِمَا أَعْرَضْتَ عَنِ الْآخَرِ ،

---

وغيره (ودفعها) أى الدنيا (إنما هو بالتجرد) أى الانزواء والتخلى (عنها) أي عن حبها (والزهد فيها) أى الاعراض عنها . وللزهد مراتب ودرجات . وذلك بحسب علو الهمة وانحطاطها وعلو الهمة بحسب ما يشرق من النور فى القلب فينشرح له الصدر ويحصل عنه العلم بأن المرغوب فيه أفضل من المزهود فيه (وإنما لزمك هذا التجرد والزهد لأمرين : أحدهما لتستقيم لك العبادة وتكثر ، فان الرغبة) أى التوجه والإقبال (فى الدنيا تشغلك) بفتح التاء والغين : من شغله شغلا وشغلا ثلاثيا مجردا : ضد الفراغ ، وأما أشغله مزيدا فلغة رديئة ، قاله الجوهري وابن القوطية وابن طريف : أى تشغلك عن العبادة ظاهرا وباطنا (أما ظاهرك) أى الاشتغال بظاهرك (فبالطلب) أى تحصيلها (وأما باطنك فبالإرادة) بالقلب (وحديث النفس . وكلاهما) أى الطلب والإرادة ظاهرا وباطنا (يمنع العبادة فان النفس واحدة والقلب واحد) وما جعل الله لرجل من قلبين (فاذا اشتغل) أى ذلك القلب (بشىء انقطع عن ضده) أى الشىء المشتغل به . وقال مالك بن دينار : بقدر ماتحزن للدنيا يخرج همّ الآخرة من قلبك . وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك (و) هذا اقتباس مما قاله على رضى الله عنه حيث قال فى تشبيه الدنيا والآخرة (إن مثل الدنيا والآخرة كمثل الضرتين) تثنية ضرة ، وضرة المرأة : امرأة زوجها كما فى المختار (إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى ، وإنهما) أى الدنيا والآخرة (كالمشرق والمغرب بقدر ما تميل إلى أحدهما أعرضت عن الآخر) ومثل إناءين أحدهما فارغ ، والآخر ملآن بقدر ما تصبّ فى الفارغ ينقص الملآن ، وقد روى ذلك أيضا من قول وهب بن منبه كما فى الحلية ، ومثله قول عوف بن عبد الله المسعودى : الدنيا والآخرة فى العبد ككفتى الميزان ، ترجح إحداهما فتخفّ الأخرى ، وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله تعالى : إذا كانت الآخرة فى القلب جاءت الدنيا تزاحمها للؤمها ، وإذا كانت الدنيا فى القلب لم تزاحمها الآخرة لكرمها ، نقله صاحب القوت ، وقال معناه إن يسير الدنيا يخرج كثير الآخرة ، وكثير من شأن الآخرة لا يخرج يسيرا من الدنيا وان كثيرا من أمر الآخرة قد يزيله قليل من أمر الدنيا ، وإن قليلا من أمر الدنيا قد لا يزيله الكثير من أمر الآخرة . هذا لعزة شأن الآخرة وقلة النصيب منها ، وللؤم شأن الدنيا ودناءتها

أَمَّا شَغْلُهَا فِى الظَّاهِرِ فَقَدْ رَوَيْنا عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: زَاوَلْتُ أَنْ أَجْمَعَ بَيْنَ الْعِبادَةِ وَالتِّجَارَةِ فَلَمْ يَجْتَمِعَا فَأَقْبَلْتُ عَلَى الْعِبَادَةِ وتَرَكْتُ التِّجَارَةَ . وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ

---

وكثرة النصيب منها ، وعظم البلوى بها . قال المصنف الغزالى : وهـذا تشديد عظيم ونرجو أن يكون ما ذكره سيار بن الحكم أصح ، إذ قال : الدنيا والآخرة يجتمعان فى القلب فأيهما غلب كان الآخر تبعا له : أى فالحكم للغالب ، وهـذا لا يمنع مزاحمة الدنيا مع الآخرة (أما شغلها) أى الدنيا عن العبادة ( فى الظاهر ) فهو عدم اجتماعها مع العبادة ، فتصير مشوشة مكدرة لها ، وحينئذ فالأولى ترك ما وراء الحاجة والاقبال على الطاعة كما أشار له بقوله رحمه الله ( فقد روينا عن أبي الدرداء رضى الله عنه) أى الصحابي ، اسمه عويمر ، وقيل عامر بن زيد بن قيس بن عائشة بن أمية ابن مالك بن عامر بن عدى بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج الأنصارى ، روى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة حديث وتسعة وسبعون حديثا ، اتفق البخارى ومسلم منها على حديثين وانفرد البخارى بثلاثة ، ومسلم بثمانية ، روى عنه ابن عمر وابن عباس وأنس وأبو أمامة وفضالة بن عبيد ويوسف بن عبدالله بن سلام رضى الله تعالى عنهم ، وروى عنه خلائق من التابعين : منهم خالد بن معدان ، ومعدان بن أبي طلحة وأسد بن وداعة وجبير بن نفير وعلقمة ابن قيس وعمرو وابنه بلال وزوجته أم الدرداء الصغرى وخلائق ، وكان فقيها حكيما زاهدا شهد مابعد أحد من المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

واختلفوا فى شهوده أحدا لو كان إسلامه تأخر قليلا عن أول الهجرة ، وولي قضاء دمشق فى خلافة عثمان ، توفى بدمشق فى خلافة عثمان سنة إحدى؛ وقيل ثنتين وثلاثين من الهجرة ، وقبره وقبر زوجته أم الدرداء الصغرى بباب الصغير من دمشق مشهوران ، وكان له امرأتان كل واحدة يقال لها أم الدرداء صحابية وتابعية ، تزوج التابعية بعـد وفاة الصحابية ، اسم الصحابية خيرة ، والتابعية هجيمة فقيهة حكيمة ، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أبي الدرداء وسلمان الفارسى ، وحديث زيارة سلمان له فى حياة رسول الله صـلى الله عليه وسلم مشهور فى صحيح البخارى وغيره وعن أبي الدرداء قال « إني لأدعو لسبعين رجلا من إخوانى فى صلاتى أسميهم وأسمى آباءهم » ( أنه قال زاولت ) أى أردت وفى نسخة حاولت ( أن أجمع بين العبادة والتجارة فلم يجتمعا فأقبلت على العبادة وتركت التجارة) وفى الحديث : « الدنيا طالبة ومطلوبة ، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه ، وطالب الدنيا تطلبها الآخرة حتى يجىء الموت فيأخذ بعنقه » . أخرجه ابن أبي الدنيا فى كتاب ذم الدنيا ( و ) روى ( عن عمر ) بن الخطاب ( رضى الله عنه ) اتفقوا على تسميته الفاروق ، واتفقوا على أنه أول من سمى أمير المؤمنين ، وإنما كان يقال لأبى بكر رضى الله عنه خليفة رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، وعمر رضى الله عنه أحد

أَنَّهُ قالَ : « لَوْ كَانَتَا مُجْتَمِعَيْنِ لِأَحَدٍ غَيْرِى لَاجْتَمَعَتَا لِى لِمَا أَعْطَانِى اللهُ سُبْحَانَهُ مِنَ الْقُوَّةِ وَاللِّيْنِ » فَإِذَا كَانَ الْحَدِيثُ كَذَلِكَ فَأَضِرَّ بِالفَانِيَةِ وَاخْتَرِ السَّلامَةَ ، والسَّلَامُ . وَأَمَّا شَغْلُهَا

---

السابقين إلى الإسلام ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ؟ وأحد الخلفاء الراشدين ؛ وأحد أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحد كبار علماء الصحابة وزهادهم ، روى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسمائة حديث وتسعة وثلاثون حديثا اتفق البخارى ومسلم منها على ستة وعشرين حديثا ، وانفرد البخارى بأربعة وثلاثين ، ومسلم بأحد وعشرين ، روى عنه عثمان ابن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وابن مسعود ، وأبو ذر ، وعمرو بن عبسة ، وابنه عبد الله ، وابن عمر وابن عباس وابن الزبير ، وأنس ، وأبو موسى الأشعرى ، وجابر بن عبد الله ، وعمرو بن العاصى ، وأبو لبابة ابن عبد المنذر ، والبراء بن عازب ، وأبو سعيد الخدرى ، وأبو هريرة ، وابن السعدى ، وعقبة ابن عامر ، والنعمان بن بشير ، وعدى بن حاتم ، ويعلى بن أمية ، وسفيان بن وهب ، وعبد الله ابن سرجس ، والفلتان بن عاصم ، وخالد بن عرفطة ، والأشعث بن قيس ، وأبو أمامة الباهلى ، وعبد الله بن أنيس ، وبريدة الأسلمى ، وفضالة بن عبيد ، وشداد بن أوس ، وسعيد بن العاصى ، وكعب بن عجرة ، والمسور بن مخرمة ، والسائب بن يزيد ، وعبد الله بن أرقم ، وجابر بن سمرة ، وجبير بن مسلمة ، وعبد الرحمن بن أبزى ، وعمرو بن حريث ، وطارق بن شهاب ، ومعمر ابن عبد الله ، والمسيب بن حزن ، وسفيان بن عبد الله ، وأبو الطفيل ، وعائشة ، وحفصة رضى الله عنهم ، وكلهم صحابة ، روى عنه من التابعين خلائق : منهم ابنه عاصم ومالك بن أوس ، وعلقمة ابن وقاص ، وأبو عثمان النهدى ، وأسلم مولاه ، وقيس بن أبى حازم وخلق سواهم ، وأجمعوا على كثرة علمه رضى الله عنه ووفور فهمه وزهده وتواضعه ورفقه بالمسلمين وإكرامه أهل الفضل والخير ، وهى سنة أكثر من أن تستقصى ، وطعن رضى الله عنه يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من شهر ذى الحجة ، سنة ثلاث وعشرين من الهجرة ، ودفن يوم الأحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين ، وكانت خلافته عشر سنين وخمسة أشهر وأحدا وعشرين يوما ، وقيل غير ذلك ، وتوفى وهو ابن ثلاث وستين فى الصحيح المشهور ذكره فى سراج السالكين ( أنه قال : لو كانتا ) أى الدنيا والآخرة ( مجتمعتين لأحد غيرى لاجتمعتا لى لما أعطانى الله سبحانه من القوة ) أى القلبية ( واللين ) بالياء مع فتح اللام المشددة : ضد الخشونة . قال المصنف رحمه الله ( فإذا كان الحديث ) أى ما قاله عمر رضى الله عنه ( كذلك ) أى المذكور من عدم اجتماع الدنيا والآخرة له مع قوته ولينه ( فأضرّ ) من الإضرار ( بالفانية ) أى الدنيا التى لا بقاء لها ( واختر السلامة ) بالاقبال على الآخرة الباقية بطاعة الواحد القهار ( والسلام ) أى على من اتبع الهدى ( وأما شغلها ) أى الدنيا

بِالْقَلْبِ وهُوَ الْبَاطِنُ لِمَكَانِ الْإِرَادَةِ فَمَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى » فَبَانَ لَكَ أَنَّهُ إِذَا اشْتَغَلَ ظَاهِرُكَ بِالدُّنْيَا وَبَاطِنُكَ بِإِرَادَتِهَا فَلاَ تَتَيَسَّرُ لَكَ الْعِبَادَةُ حَقَّهَا ، وَأَمَّا إِذَا زَهِدْتَ فِيهَا فَتَفَرَّغْتَ بِظَاهِرِكَ وَبَاطِنِكَ تَتَيَسَّرُ لكَ الْعِبَادَةُ ، بَلْ تُعَاوِنُكَ أَعْضَاؤُكَ عَلَيْهَا . وَلَقَدْ رُوِيَ عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

---

(بالقلب وهو الباطن لمكان الارادة ) فهو أن حبها إضرار بالآخرة لما أشار له بقوله ( فما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من أحب دنياه أضر بآخرته ) لأن حب الدنيا يشغله عن تفريغ قلبه لحب ربه ولسانه لذكره فيضر آخرته ولابد ( ومن أحب آخرته أضر بدنياه ) لأن حب الآخرة يعطل عليه أسباب الكسب والمعاش فيضر بدنياه ولابد ، والباء في الموضعين للتعدية فهما ككفتي ميزان ، فإذا رجحت إحدى الكفتين خفت الأخرى ( فآثروا ) أى اختاروا (مايبقى على ما يفنى ) قال العلامة عبد الحق بن شاه : رواه الإمام أحمد والحاكم عن أبي موسى الأشعرى قال العراقي : رواه أحمد والبزار والطبراني وابن حبان والحاكم وصححه على شرط الشيخين . قال الزبيدي : وهو منقطع بين المطلب بن عبد الله وبين أبي موسى ، وسبقه إلى ذلك الذهبي ، وقد رواه كذلك القضاعي في مسند الشهاب والبيهقي في الشعب ؟ وقال المنذري : رجال أحمد ثقات ، وعند بعضهم : ألا فآثروا بزيادة ألا التنبيهية ( فبان ) أى ظهر ( لك ) بهذا الحديث ( أنه ) أى الشان ( إذا اشتغل ظاهرك بالدنيا ) أى بطلبها ( وباطنك بإرادتها فلا تتيسر لك العبادة حقها ) من الحضور القلبي وغيره ، بل تتيسر صورتها الظاهرة ، لأنك قد أديتها بعدم الحضور والخشوع فتكون كالجسد بلا روح ( وأما إذا زهدت فيها ) أىالدنيا ، يقال : زهد يزهد من باب منع وسمع وكرم كما قاله الشوبرى، وهولغة: الإعراض عن الشيء لاستصغاره وارتفاع الهمة عنه لاحتقاره ، من قولهم : شيء زهيد ، أى قليل ، وشرعا : أخذ قدر الضرورة من المال المتيقن الحل فهو أخص من الورع إذ هو ترك المشتبه ، وأحسن حدوده كما قال ابن القيم : أنه فراغ القلب من الدنيا ، لافراغ اليد ، وهذا زهد العارفين وأعلى منه زهد المقربين وهو الزهد فيما سوى الله من دنيا وجنة وغيرها إذ ليس لصاحب هذا الزهد مقصد إلا الوصول إليه تعالى والقرب منه ( فتفرغت ) أى اتصفت بالخلو من الميل إلي فان والثقة بزائل كما قرره بعضهم ( بظاهرك وباطنك تتيسر لك العبادة ) أى حقها ( بل تعاونك أعضاؤك عليها ) أى العبادة ( ولقد روى عن سلمان الفارسى رضى الله عنه ) أى الصحابي : وهو أبو عبد الله سلمان الخير مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن نسبه ؟ فقال أنا سلمان ابن الإسلام ، أصله من فرس من جى بفتح الجم وتشديد الياء : قرية من قرى أصبهان ، وقيل من رامهرمز ، روى ابن أبي خيثمة في تاريخه عن ابن عباس قال حدثنى سلمان رضي الله تعالى عنه قال : كنت من أهل أصبهان من قرية يقال لها جى ، وكان

أبي دهقانها . وسبب إسلامه مشهور ، وأنه هرب من أبيه وكان مجوسيا ، فلحق براهب ، ثم جماعة من الرهبان واحدا بعد واحد يصحبهم إلى وفاتهم إلى أن دله الأخير إلى الذهاب إلي الحجاز وأخبره بظهور النبي صلى الله عليه وسلم ، فقصده مع عرب ، فغدروا به وباعوه في وادي القرى ليهودي ، ثم اشتراه منه يهودي من قريظة ، فقدم به المدينة فأقام به مدة حتى قدم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتاه بصدقة فلم يأكل منها ، ثم بعد مدة أتاه بهدية فأكل منها ، ثم رأى خاتم النبوة ، وكان الراهب الأخير وصف هذه العلامات الثلاث للنبي صلى الله عليه وسلم . قال سلمان: فرأيت الخاتم فقبلته وبكيت، فأجلسني رسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه، فحدثني بشأني كله، وفاتني بدر وأحد بسبب الرق، فقال لي ياسلمان كاتب عن نفسك ، فلم أزل بصاحبي حتى كاتبته أن أغرس له ثلثمائة نخلة وعلى أربعين أوقية ذهب ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم . أعينوا أخاكم سلمان بالنخل ، فأعانوني حتى اجتمعت لي قال فقرّبها ولا تضع منها شيئا حتى أضعه بيدى ففعلت ؛ فأعانني أصحابه حتى فرغت ، فأتيته فكنت آتيه بالنخلة فيضعها ؛ ويسوى عليها التراب ؛ فوالذي بعثه بالحق نبيا ما ماتت واحدة وبقي الذهب ؛ فجاء رجل بمثل البيضة من ذهب أصابه من بعض المعادن ؛ فقال ادع سلمان المسكين الفارسي المكاتب ؛ فقال أدّ هذه ؛ وروينا عنه قال تداولني بضعة عشر ربا من رب إلى رب . وأول مشاهده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق ، ولم يتخلف عن مشهد بعدها ، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أبي الدرداء وبين سلمان ، ثبت ذلك في صحيح البخاري ، وكان من فضلاء الصحابة ، وزهادهم وعلمائهم وذوى القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق حين جاءت الأحزاب ، وسكن العراق ، وكان يعمل الخوص بيده فيأكل منه ، وكان عطاؤه خمسة آلاف فإذا خرج فرّقه ، وكان أبو الدرداء قد سكن الشام، فكتب إلى سلمان:

أما بعد ، فإن الله قد رزقني مالا وولدا ، ونزلت الأرض المقدسة؛ فكتب إليه سلمان : سلام عليك أما بعد ؛ فإنك كتبت إلى أن الله تعالى قد رزقك مالا وولدا ، فاعلم أن الخير ليس بكثرة المال والولد ؛ ولكن الخير أن يكثر حلمك وأن ينفعك علمك وكتبت إلى أنك بالأرض المقدسة وإن الأرض لا تقدس أحدا ؛ ونقلوا اتفاق العلماء على أن سلمان الفاسى عاش مائتين وخمسين سنة ، وقيل : ثلثمائة وخمسين سنة ؛ وقيل إنه أدرك وحى عيسى ابن مريم ؛ على نبينا وعليه الصلاة والسلام . روى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ستون حديثا ، اتفق البخارى ومسلم على ثلاثة ؛ ولمسلم ثلاثة ؛ وروى عنه ابن عباس وأنس وعقبة بن عامر وأبو سعيد وكعب بن عجرة وأبو الطفيل رضى الله عنهم ؛ وروى جماعات من التابعين : توفى سلمان بالمدائن فى أول سنة ست وثلاثين ، وقيل: سنة خمس وثلاثين ، ويقال فى خلافة عمر رضى الله عنه ، وهو غلط . قال أبو بكر ابن أبى داود وغيره : لسلمان ثلاث بنات بأصبهان ، وروى الترمذى بإسناده عن أنس رضى الله تعالى عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة : على ، وعمار ،

أَنَّهُ قالَ : « إِنّ الْعَبْدَ إِذَا زَهِدَ فِى الدُّنْيَا اسْتَنَارَ قَلْبُهُ بِالْحِكْمَةِ وَتعاوَنَتْ أَعْضاؤُهُ فِى الْعِبَادَةِ » فَهٰذِهِ هٰذِهِ . وَالثَّانِى مِنَ الْأَمْرَيْنِ أَنَّهُ يكثِّرُ قِيمَةَ عَمَلِكَ وَيُعَظِّمُ قدْرَهُ وَشَرَفَهُ ، فَلَقَدْ قالَ صلى اللهُ عليْهِ وسلم : « رَكْعَتَانِ مِنْ رَجُلٍ عَالِمٍ زَاهِدٍ قَلْبُهُ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلى اللهِ جَلّ جَلاَلُهُ مِنْ عِبادَةِ الْمُتَعَبِّدِينَ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ »

---

وسلمان رضى الله تعالى عنهم » قال الترمذى حديث حسن ( أنه قال : إن العبد إذا زهد فى الدنيا استنار ) أى أضاء ( قلبه ) قال حجة الإسلام : القلب لطيفة ربانية هى المخاطبة وهى التى تثاب وتعاقب ولها تعلق بالقلب اللحمانى الصنوبرى الشكل تعلق العرض بالجوهر ، ويسمى روحا ونفسا ( بالحكمة ) أى العلم النافع كما قاله بعضهم وهو العلم بالله ، وكذا العلم بأحكام الله (وتعاونت أعضاؤه فى العبادة فهذه ) أى الجملة (هذه) أى هى الموصوفة بالكمال والعظمة ؛ وبالجملة إن الزهد هو الآلة التى لا يستغنى عنها عابد ولا عارف ، لأن الدنيا عدوة محبوبة ، أما كونها عدوة فلأنها قاطعة شاغلة ، وأما كونها محبوبة فلأن أصل الحياة وكمالها لا يتأتى إلا بها ، وأصل الحياة هو المقصود للعبادة والمعرفة ، وكمال الحياة بالنعيم هو القاطع إن كان محظورا ، والشاغل إن كان مباحا ؛ وأما الزهد فلا يتعلق إلا بترك المباح ، وترك المباح منوط بثلاث آفات : الآفة الأولى: أن الانهماك فيه يحمل على ترك الواجبات وفعل المحظورات ، ولا يقدر على فعل الواجبات وترك المحظورات إلا بترك فضول الشهوات المباحات . الآفة الثانية : اعتياد النفس وإلفها به : أى بالمباح فيشق عليها مفارقته ، والمفارقة للدنيا ضرورة . الآفة الثالثة: الاشتغال به عن معرفة الله التى ما خلقت إلا لأجلها ، والقلب لا يتسع الحالين : إما إقبال على الدنيا أو على الآخرة ، أو على الله تعالى ؛ فإذا عرفت هذا عرفت أن الزهد فى الدنيا صرورة السالك ، فأما السبب الموجب للزهد ، فقد قال الله تعالى : « لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة » وقال : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » فقد عرفك طريق الفكر فى الآية الأولى ، وهو أن تنظر إلى فناء الدنيا وسرعة ذهابها حتى كأنها لم تكن ، وفى بقاء الآخرة وثباتها حتى كأنها لم تزل مع ما اشتملت عليه الدنيا من الخساسة والقذارة والمكابدة ومحاصرة الشركاء ، وكذلك ما اشتملت عليه الآخرة من النفاسة والبهاء وعدم الآفات ، والإيمان بهاتين المعرفتين واجب لأنهما من عقود الإيمان بالله ، فإذا أضفت المعرفة بالآخرة إلى المعرفة بالدنيا وكانت إرادتك مائلة إلى الدنيا انصرفت إرادتك من الدنيا إلى الآخرة فحينئذ تعرف حقيقة الزهد بالذوق إن كنت مصدقا برهانا أو تقليدا ، فحقيقة الزهد انصراف الإرادة عن الدنيا حقارة لاستعظام ما عاين من نفاسة الآخرة كما ذكره العلامة الزبيدى . ( و ) الأمر ( الثانى ) الذى لزمك الزهد له ( من الأمرين أنه ) أى الزهد ( يكثر قيمة عملك ويعظم ) أى ذلك الزهد ( قدره )أى قدر العمل ( وشرفه فلقد قال ) رسول الله ( صلى الله عليه وسلم : ركعتان من رجل عالم زاهد قلبه خير وأحب إلى الله جل جلاله من عباده المتعبدين إلى آخر الدهر ) أى آخر الزمان الطويل والأبد المحدود

أَبَدًا سَرْمَدًا » فَإِذَا كَانَتِ الْعِبَادَةُ تَشْرُفُ وَتَكْثُرُ بِذَلِكَ فَحَقٌّ لِمَنْ طَلَبَ الْعِبَادَةَ أَنْ يَزْهَدَ فِى الدُّنْيَا وَيَتَجَرَّدَ عَنْهَا .

---

ويطلق أيضا على ألف سنة ، وفى المشارق : الدهر مدة الدنيا . وقال بعضهم : وقد يقع الدهر على بعض الزمان انتهى . وفى كتاب [ القرى ] للمحب الطبرى قال ثم الزمان والدهر واحد ؛ وأنكر ذلك أبو الهيثم وقال: الزمان زمان الحر وزمان البرد وزمان الرطب ، ويكون الزمان من الشهرين إلى ستة أشهر ، والدهر لاينقطع إلا أن يشاء الله تعالى . وقال الأزهرى : الدهر عند العرب يقع على بعض الدهر وعلى مدة الدنيا كلها يقولون : أقمنا علي كذا دهرا انتهى . وقال حجة الإسلام الغزالى فى لباب المعارف العقلية : الزمان عدد حركات الفلك بعد الحصر والعدد ، والدهر حركات الفلك قبل العدد والحساب ، ولهذا قيل : إن الدهر أصل الزمان ، لأن الزمان ممتد مع السفليات ، والدهر ممتد مع العلويات ، كذا ذكره الفاسى (أبدا سرمدا) أى دائما ، روى هذا الحديث مسروق عن ابن مسعود كما فى القوت . قال الزبيدى : وقد روى نحوه مرفوعا من حديث أنس «ركعتان من رجل ورع أفضل من ألف ركعة من مخلط» . رواه أبو نعيم ، وروى ابن النجار عن موسى بن جعفر عن أبيه عن جده « ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من غير عالم » . وروى الشيرازى فى الألقاب من طريق مالك بن دينار عن الحسن عن أنس عن عليّ رفعه « ركعتان من عالم بالله خير من ألف ركعة من متجاهل بالله » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم العبد قد أعطى صمتا وزهدا فى الدنيا فاقتربوا منه فإنه يلقى الحكمة » وقال تعالى « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » ، ولذلك قيل : من زهد فى الدنيا أربعين يوما أجرى الله ينابيع الحكمة فى قلبه ، وأنطق بها لسانه . وقال صلى الله عليه وسلم « إن أردت أن يحبك الله فازهد فى الدنيا » فجعل الزهد سببا للمحبة ، فمن أحبه الله تعالى فهو فى أعلى الدرجات ، فينبغى أن يكون الزهد فى الدنيا من أفضل المقامات وصار الزاهد حبيب الله ، ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الشرح فى قوله تعالى . « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، وقيل له ماهذا الشرح ؟ فقال : إن النور إذا دخل فى القلب انشرح له الصدر وانفسح قيل يارسول الله وهل لذلك من علامة ، قال نعم : التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله » فانظر كيف جعل الزهد فى علامة شرح الصدر بالنور ، وهو نور التصديق الذى هو عموم وصف المؤمنين ، لأنه هو التحقيق بالاسلام ، فهذا هو الزهد جعله شرطا للاسلام ، وهو التجافى عن دار الغرور ، وروى عن ابن المسيب عن أبى ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من زهد فى الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه فأنطق بها لسانه ، وعرفه داء الدنيا ودواءها ، وأخرجه منها سالما إلى دار السلام » ، والأدلة فى بيان فضيلة الزهد أكثر من أن تحصى ، وفيما ذكرناه كفاية لأولى الألباب ( فاذا كانت العبادة تشرف وتكثر بذلك ) أى بسبب الزهد ( فحق ) أى ثبت ووجب ( لمن طلب العبادة ) حقها ( أن يزهد فى الدنيا ويتجرد عنها )

فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا مَعْنَى الزُّهْدِ فِى الدُّنْيَا وَمَا حَقِيقَةُ ذَلِكَ . فَاعْلَمْ أَنَّ الزُّهْدَ عِنْدَ عُلَمَائِنَا رَحِمَهُمُ اللهُ زُهْدَانِ : زُهْدٌ مَقْدُورٌ لِلْعَبْدِ وَزُهْدٌ غَيْرُ مَقْدُورٍ ، فَالَّذِى هُوَ مَقْدُورٌ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ : تَرْكُ طَلَبِ الْمَفْقُودِ مِنَ الدُّنْيَا وَتَفْرِيقُ الْمَجْمُوعِ مِنْهَا وَتَرْكُ إِرَادَتِهَا وَاخْتِيَارِهَا .

---

مع الاحتياط فإنه وان كان شاقا فمدته قريبة ، والاحتماء مدة يسيرة للتنعم على التأبيد لايثقل على أهل المعرفة القاهرين أنفسهم بسياسة الشرع ، المعتصمين بعروة اليقين من معرفة المضادة التى بين الدنيا والدين . ( فإن قلت ) لى ( فما معنى الزهد فى الدنيا وما حقيقة ذلك ؟ فاعلم )هداك الله تعالى ( أن الزهد عند علمائنا ) أى معاشر الصوفية ( رحمهم الله زهدان : زهد مقدور للعبد ، وزهد غير مقدور ) أى له ( فالذى ) أى الزهد الذى ( هو مقدور ثلاثة أشياء ) أحدها ( ترك طلب المفقود من الدنيا . و ) ثانيها ( تفريق المجموع منها. و ) ثالثها (ترك إرادتها) بالقلب (واختيارها) وهذا الذى ذكره قريب مما قاله الجنيد : الزهد معنيان : ظاهر وباطن ، فالظاهر نفض مافى الأيدي من الأملاك وترك طلب المفقود، والباطن زوال الرغبة عن القلب ووجود العزوف والانصراف عن ذكر ذلك . وفى الزهد أقاويل كثيرة بعضها عند التأمل يرجع إلى بعض ماذكر ، فمن ذلك قول بعضهم : الزهد أن لاتفرح بموجود من الدنيا ، ولا تتأسف على مفقود منها ، نزع بذلك إلى قوله تعالى « لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » . وقال أبو عثمان : الزهد أن تترك الدنيا ثم لاتبالى من أخذها . وقال أبوعلى الدقاق : الزهد أن تترك الدنيا كما هى لا تقول : أبنى رباطا ، ولا أعمر مسجدا . وقال ابن الجلاء : الزهد هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال لتصغر فى عينك ، فيسهل عليك الإعراض عنها . وقال الجنيد : الزهد : خلو القلب مما خلت منه اليد . وقال ابن المبارك : الزهد هو الثقة بالله مع حبّ الفقر ، وبه قال شقيق البلخى ويوسف بن أسباط . قال القشيرى : وهذا أيضا من أمارات الزهد ، فإنه لايقوى العبد على الزهد إلا بالثقة بالله . قال عبد الله بن زيد : الزهد ترك الدنيا والدرهم . وسأل رويم الجنيد عن الزهد ؟ فقال هو استصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب ، ويروى عنه أيضا : الزهد خلو اليد من الملك ، وخلو القلب من التتبع . وقال الشبلى : الزهد أن تزهد فيما سوى الله تعالى . وقال ذو النون : الزهد فى الدنيا هو الزهد فى النفس . وقال الحسن البصرى : الزهد فى الدنيا أن تبغض أهلها وتبغض مافيها . وقال بعضهم : الزهد فى الدنيا ، هو ترك ما فيها على من فيها ، فهذه ثلاثة عشر قولا نقلها القشيرى فى الرسالة وفى القوت لأبى طالب المكى . وقالت طائفة : الزهد هو بغض المحمدة ، وأن لا تحبّ أن تحمد على شيء من أعمالك ، وقال آخرون : الدنيا هى الأكل واللباس والمال ، والزهد : هو ترك فضول هذه الأشياء . وقال آخرون : حقيقة الدنيا هو حب الشرف والعلو وطلب العز والرياسة ، فينبغى أن يكون الزهد عند هؤلاء هو حب الخمول والذلة

وطلب الخضوع والضعة . وقال آخرون : الزهد مفارقة حظوظ النفس فى كل شىء . وكان سفيان يقول : الزهد فى الدنيا هو الصبر على الحق فى كل شىء . وسئل حاتم الأصم عن الزهد ، فقال : رأسه الثقة بالله ، ووسطه الصبر ، وآخره الإخلاص ؛ فأدخل فيه التوكل وجعله أوله لأنه لا يزهد حتى يثق بالله فى الرزق ؛ ويتوكل عليه فيه ؛ وجعل الصبر حالا منه أراد الثبات لئلا يميل أو يخرج فيرجع إلى الرغبة ؛ وجعل نهايته الإخلاص وهذا إخلاص الصادقين أن تريد بذلك وجه الله وحده وابتغاء مرضاته ، لا تطلعا إلى عوض ، ولا تطلبا لسبب هو دون الله تعالى ، وكذلك جعل أحمد ابن حنبل الإخلاص هو الزهد ففسره به لأنه إذا بلغ حقيقة الإخلاص لله وحده فقد زهد فيما سواه فاتفقا بمعنى تقاربا فيه ، أما أحدهما ففسر الزهد بالإخلاص جعله نهايته وهو حاتم ، وأحمد عبر عن الإخلاص بالزهد لأنه حقيقته ، وأما أيوب السختياني فإنه سئل عن الزهد ما هو ؟ فقال هو أن تقعد فى بيتك ، فان كان قعودك لله رضا وإلا خرجت تنفق درهمك ، فإن كان رضا وإلا أمسكت تمسك مالك ، فإن كان رضا وإلا أخرجته تسكت ، فإن كان سكوتك لله رضا ، وإلا تكلمت تتكلم ، فإن كلامك لله رضا وإلا سكت ، وهذا هو الزهد وإلا فلا تلعبوا ، وهذا مقام المحاسبة للنفس ، وحال المراقب للرب ووصف المراعى للوقت ، فجعل الدنيا هي ترك موافقة رضا الله تعالى فى كل شىء إذ جعل الزهد فيها هو اتباع مرضاته فى الأشياء . وقال مجاهد : الزهد الأثرة لله على ماسواه إذا أتاه شىء من الدنيا استعمل الخوف والحياء فيؤدى إلى كل ذى حق حقه . وكان ابن عيينة يقول : حدالزهد أن يكون شاكرا عند الرخاء صابرا عندالبلاء ، فهذا قد صير الشاكر على النعمة ، والصابر على البلية زاهدا ، وجمع له الزهد باجتماع الشكر والصبر ، وهذا زهد عموم المؤمنين ، وقيل ليحيي بن معاذ متى يكون الرجل زاهدا ؟ فقال : إذا بلغ حرصه فى ترك الدنيا حرص الطالب لها كان زاهدا . قال الداراني : الزهد : التخلى من الدنيا والاشتغال بالعبادة ؛ فأما من تركها وتبطل فانما طلب الراحة لنفسه . وقال سهل : أول الزهد التوكل، وأوسطه إظهار القدرة . وقال أيضا : لايزهد العبد زهدا حقيقيا لا رجعة بعده إلا بعد مشاهدة قدرة . وقال بعضهم : الزهد هو إخفاء الزهد . وقال سهل : لا ينال الزهد إلا بالخوف ، لأن من خاف ترك ، فجعل الزهد مقاما فى الخوف رفعة عليه . وفى الخبر « إنما الزهد أن تكون بما فى يد الله تعالى أوثق منك بما فى يدك » فهذا مقام التوكل . وقال قوم : الزهد هو ترك الادخار ، فكانت الدنيا عندهم الجمع . وقال بعضهم : الدنيا ما شغل القلب واهتم به ، فجعلوا الزهد ترك الاهتمام وطرح النفس تحت تصريف الأحكام وهذا هو التفويض والرضا . وقال الداراني : التورع أول الزهد . وقال أبو هشام المغازلي : الزهد قطع الآمال وإعطاء المجهود وخلع الراحة . وقال ابن السماك : الزهد أن لا يفرح بشىء من الدنيا أتاه ، ولا يحزن على شىء منها فاته لايبالى على عسر أصبح أم يسر . وقال طيفور البسطامي : الزهد أن لا يملك ولايملك . وقال علماء الظاهر الزهد فى الدنيا : موافقة العلم والقيام بأحكام الشرع وأخذ الشىء من وجهه ووضعه فى حقه ، وما خالف العلم فهو جهل كله وهوى ، فذكروا فرض الزهد وظاهره ولم يعرفوا غرائبه وباطنه ، ذلك مبلغهم من العلم ونصيبهم من الفهم ، وهو مقامهم من المقال وطريقهم المشوب بالاعتلال . قال

وَأَمَّا الزُّهْدُ الَّذِي هُوَ غَيْرُ مَقْدُورٍ لِلْعَبْدِ فَهُوَ بُرُودَةُ الشَّيْءِ عَلَى قَلْبِ الزَّاهِدِ . ثُمَّ الزُّهْدُ الَّذِي هُوَ مَقْدُورٌ لِلعَبْدِ مُقَدِّمَاتٌ لِلزُّهْدِ الذي هُوَ غَيْرُ مَقْدُورٍ لِلعَبْدِ ، فَإِذَا أَتَى بِهِ العَبْدُ بِأَنْ لَا يَطْلُبَ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَيُفَرِّقَ مَا عِنْدَهُ مِنْهَا وَيَتْرُكَ بِالقَلْبِ إِرَادَتَهَا وَاخْتِيَارَهَا لِأَجْلِ اللهِ وَعَظِيمِ ثَوَابِهِ بِتَذَكُّرِهِ لِآفَاتِهَا أَوْرَثَتْهُ تِلْكَ بُرُودَةَ

---

حجة الإسلام : وهؤلاء كلهم اقتصروا لا لقصور فى البصيرة ، ولكنهم ذكروا ماذكروه عند الحاجة فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة ، والحاجات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف ، وقد يكون سبب الاقتصار الإخبار عن الحاجة الراهنة التى هى مقام العبد فى نفسه والأحوال تختلف ، فلا جرم الأقوال المخبرة عنها تختلف ، وأما الحق فى نفسه فلا يكون إلا واحدا ، ولا يتصور أن يختلف : أى على الصحيح من مذهب الأصوليين ، وإنما الجامع لهذه الأقاويل الكامل فى نفسه وإن لم يكن فيه تفصيل ما قاله أبو سليمان الداراني ، إذ قال : سمعنا فى الزهد كلاما كثيرا ، والزهد عندنا : ترك كل شيء يشغلك عن الله عز وجل . قال الزبيدى . وكأن الزهد عنده . دوام التفرغ لله تعالى بحسن الإقبال عليه . وقال شارح الرسالة : أراد بترك ما يشغل عن الله : أى بقلبه وإلا فهو من ثمرات الزهد ، فقد يترك الإنسان ما يشغله عن الله لزهده بل لشغله بما هو أشرف منه . وقد فصل الدارانى وقال : من تزوج أو سافر فى طلب المعيشة أو كتب الحديث فقد ركن إلى الدنيا فجعل جميع ذلك ضدا للزهد ، وقد قرأ قوله تعالى « إلا من أتى الله بقلب سليم » قال : هو القلب الذى ليس فيه غير الله . قال الزبيدى : فهذا زهد الصديقين، وإنما تكون هذه الثلاث دنيا لمن أراد الدنيا لعاجل متعة النفس بها ، فأما من أراد بها الآخرة فهى طرقات له إلى الآخرة . وقال الدارانى مرة : إنما زهدوا فى الدنيا لتفرغ قلوبهم عن همومها للآخرة . قال بعضهم : فإذا رزق العبد فراغ القلب مع وجود هذه الثلاث التى ذكرت كن له قربات إلى المذكور ، وقد كان رحمه الله تعالى ذا عيال ولم يكن يشغله ذلك عن أوقاته مع الله ، ولا يدخلون عليه فى مقامه فيخرجونه من المقام ، كذا فى القوت . قال المصنف رحمه الله تعالى ( وأما الزهد الذى هو غير مقدور للعبد فهو برودة الشيء على قلب الزاهد ) أى لا يحبه ( ثم الزهد الذى هو مقدور للعبد ) وهو الثلاثة المذكورة ( مقدمات للزهد الذى هو غير مقدور للعبد ) وهو برودة الشيء على قلبه بمعنى عدم محبته له ( فإذا أتى به ) أى بالزهد المقدور له ( العبد ) وذلك ( بأن لا يطلب ماليس عنده من الدنيا و ) أن ( يفرق ) أى يقسم على وجه مرضى عند الله ( ما عنده منها ) أى من متاع الدنيا ( و ) أن ( يترك بالقلب إرادتها واختيارها لأجل الله ) أى لا لغرض من الأغراض الفاسدة ( وعظيم ثوابه بتذكره ) أى العبد ( لآفاتها ) أى الدنيا ، فإن التذكر لها يخففه على مافعله من الأمور الثلاثة ( أورثته ) جواب إذا فى قوله فإذا أتى ( تلك ) أى الأمور الثلاثة ( برودة

الدُّنْيَا عَلَى قَلْبِهِ ، وَهٰذَا عِنْدِي هُوَ الزُّهْدُ الْحَقِيقِيُّ . ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ أَصْعَبَ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ إِنَّمَا هُوَ تَرْكُ الْإِرَادَةِ بِالْقَلْبِ، إِذْ كَمْ مِنْ تَارِكٍ لَهَا بِظَاهِرِهِ مُحِبٌّ ، مُرِيدٍ لَهَا بِبَاطِنِهِ فَهُوَ فِي مُكَافَحَاتٍ وَمُقَاسَاةٍ

---

الدنيا على قلبه ، وهذا ) أي عدم حب الدنيا المعبر عنه بالبرودة ( عندى هو الزهد الحقيقى ) . وقال أبو سعيد بن الأعرابى عن أشياخه : إنما الزهد عندهم خروج قدر الدنيا من القلب إذ هي لا شيء، وهذا لعمرى هو الزهد لأنه زهد ثم لم ينظر إلى زهده فزهد فيه إذ لم يره شيئا لأنه زهد في لا شيء ، وهذا يشبه ما يقال إن حقيقة الزهد هو الزهد فى النفس ، لأنه قد يزهد فى الدنيا لنفسه طلبا للعوض ، فيكون ذلك رغبة على صفة ، فإذا زهد فى النفس التى يريد لها الأعواض على الزهد فهو حقيقة الزهد وهو يشبه قول من قال : أن حقيقة الزهد فى الغنى هو الزهد فى البقاء لأن العبد ربما زهد فى الغنى ولم يزهد فى البقاء فيكون فيه بقية من الرغبة ، فإذا زهد فى البقاء فهو حقيقة الزهد في الغنى إذ كان الغنى يراد للبقاء وإذ لا متعة بالبقاء بغير غنى ، كذا فى القوت .

﴿ تبيه ﴾ اعلم أن الزهد على قسمين : مراد لذاته ، وهو الزهد فما سوى الله تعالى من كل مايشغل عن عين الشهود ، وهو من عقود الإيمان بالله لتعلقه بالجلال والكمال ، ومراد لغيره وهو فراغ القلب لهذه المعرفة، وكلما ازددت تركا للدنيا ازددت بالله معرفة ، والقدر الواجب من الزهد المراد لغيره ما يحث علي الفراغ لأوقات الواجبات ، وهو لعمرى سبب لإقامة الإخلاص الذى هو شرط فى صحة العبادات ، فلا يقدر علي ترك جملة من الشرور الظاهرة والباطنة إلا بترك الدنيا إلا أن ما ينهى عنه لغيره غير ما ينهى عنه لأجل نفسه . والمباحات منهى عنها لأدائها إلي ما ذكرنا فى الغالب ، ومن أهل التمكين من يعطى قوة يدبر بها العالمين ، ولا يشغله شيء عن الله ، فمنهم من وصل إلي هذا المقام الشريف بالكسب والاجتهاد ، وهو المسمى مريدا ، ومنهم من وصل إليه بنفس نفخ الرحمة فى كشف الحجاب عن قلبه ، حتى وقف على حقيقة الأمر بغير مدافع ولا منازع وهو المسمى عند القوم مرادا ، وكل منهما مراد إلا أن هذا مراد بوسائط كثيرة ، وهذا مراد بغير واسطة ، وقد أخبر الله عن كلا الحالين فقال : « الله يجتبي إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب » وينبغى أن يجرى بينهما الخلاف الجارى فى التفاضل بين أفاضل المؤمنين وأفاضل الملائكة لمناسبة الجذب والترقى ، هذا إذا اتحدت المعرفتان ، فإن اختلفا كانت الفضيلة على حسب المعرفة فافهم ، كذا ذكره العلامة الزبيدى ( ثم اعلم ) أرشدك الله ( أن أصعب الأمور الثلاثة ) وهى ترك طلب المفقود من الدنيا ، وتفريق المجموع منها ، وترك إرادتها واختيارها ( إنما هو ) أى الأصعب ( ترك الإرادة ) والمحبة للدنيا ( بالقلب ، إذ كم من ) شخص ( تارك لها بظاهره ) وهو ( محب مريد لها بباطنه فهو فى مكافحات ) أى مواجهات . قال الأصمعى : كافحوهم إذا استقبلوهم فى الحرب بوجوههم ليس دونها ترس ولا غيره، وفلان يكافح الأمور : أى يباشرها بنفسه (ومقاساة)

شَدِيدَةٍ مِنْ نفسِهِ ، وَالشَّأْنُ كُلُّهُ فى هذِهِ ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلى قوْلِهِ سُبْحَانهُ عزّ مِنْ قَائِلٍ : « تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فى الْأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا » عَلّقَ الحكْمَ بِنَفْىِ الْإِرَادَةِ دُونَ الطّلَبِ وَالْفِعْلِ المُرَادِ ، وَقوْلِهِ سُبْحَانهُ : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فى حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْها وَمَا لَهُ فى الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ » وقوْلِهِ تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيها مَا نَشاء » وقوْلِهِ : « وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَها سَعْيَها الآية » أَمَا تَرَى الْإِشارَةَ كُلَّهَا إِلَى الْإِرادَةِ فَأَمْرُهَا هُوَ المُهِمُّ إِذَنْ ، لَكِنِ الْعَبْدُ إِذَا وَاظَبَ وَاسْتَقامَ عَلَى الْأَوَّلَيْنِ ، أَعْنِى التَّفْرِيقَ

---

أى مكابدة ( شديدة من نفسه ) . وفى المختار : قاسى الأمر : كابده انتهى . وأيضا فيه كابد الأمر قاسى شدته ( والشأن ) أى شأن الزهد ( كله فى هذه ) أى الإرادة : أى تركها بالقلب (ألم تسمع إلي قوله سبحانه ) أى تنزيها له عما لا يليق به ، وتعالت عظمته ( عز من قائل ) بيان للضمير الذى فى قوله عز ، أى عز الله من قائل : أى غلب الله الذى هو القائل على جميع القائلين . قال: بعضهم فيه وجهان : الأول أن من زائدة ، وقائل حال من فاعل عز ، أى عز قائلا . والثانى أن من زائدة ، وقائل تمييز : أى عز من جهة القائلية ، وهو محول ، وأصله حينئذ عز قائليته، لأن التميز فاعل فى المعنى ، فهو يرفع الإبهام عن النسبة ، كذا فى سراج السالكين (تلك الدار الآخرة ) أى الجنة ( نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ) بالبغى ( ولا فسادا ) بعمل المعاصى . قال المنصف ( علق ) سبحانه وتعالى ( الحكم ) وهو الجعل المذكور ( بنفى الإرادة ) للعلو والفساد ( دون الطلب والفعل المراد ، و ) ألم تسمع أيضا إلى ( قوله سبحانه : من كان يريد) بعمله(حرث الآخرة ) أى كسبها وهو الثواب ( نزد له فى حرثه ) بالتضعيف فيه الحسنة إلي عشر وأكثر.قال الزبيدى : معنى نزد له فى حرثه ، أى لا نحاسبه بما نعطيه منها بعد أن لا يريدها وأن لا يكون من همه ، فما أدخل عليه منها يخرج منه العبد من غير محاسبة ، فهذا مجاز الدنيا لأن الرزق لا يزاد فيه ذرة على ما قسم له أول مرة، فجعل ذلك له مجعل المجازاة على زهده فيها وجرى مجرى المكافأة لخروج همه منها ( ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ) بلا تضعيف ما قسم له ( وما له فى الآخرة من نصيب ) أى حظ ( و ) إلي ( قوله تعالى : من كان يريد ) بعمله ( العاجلة ) أى الدنيا ( عجلنا له فيها ما نشاء ) لا ما يشاء ( و ) إلى ( قوله ) تعالى ( ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها ) أى عمل عملها اللائق بها ( الآية ) أى اقرأ بقية الآية وهى قوله «وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا» ( أما ترى الإشارة كلها إلى الإرادة ، فأمرها هو المهمّ إذن ) أى حين وجدت الإشارة ( لكن العبد إذا واظب واستقام ) أى طلب الاستقامة ( على الأولين : أعنى ) بهما ( التفريق ) لما عنده

وَالتَّرْكَ فَمَأْمُولٌ مِنْ فَضْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يُوَفِّقَهُ لِدَفْعِ هٰذِهِ الْإِرَادَةِ وَالْاُخْتِيَارِ عَنْ قَلْبِهِ ، فَإِنَّهُ الْمُتَفَضِّلُ الْكَرِيمُ عَزَّ وَجَلَّ . ثُمَّ الَّذِي يَبْعَثُ عَلَى التَّرْكِ وَالتَّفْرِيقِ وَيُهَوِّنُ عَلَيْكَ ذٰلِكَ ذِكْرُ آفَاتِ الدُّنْيَا وَعُيُوبِهَا ،

---

من الدنيا ( والترك ) أى ترك طلب المفقود منها ( فمأمول ) أى فهو مرجوّ ( من فضل الله سبحانه أن يوفقه لدفع هذه الإرادة ) للدّنيا ( والاختيار ) لها ( عن قلبه فإنه ) تعالى ( المتفضل ) على عباده ( الكريم ) أى ذو الإعطاء ، وقيل ذو القدرة التامة على الإعطاء ، فعلى الأوّل يكون الكرم صفة فعل وهى الإعطاء ، وعلى الثانى صفة ذات : وهى القدرة على الإعطاء ( عز ) ربنا عن الشركاء ( وجلّ ) عن الأغراض وعن الأعوان ( ثم الذى يبعث ) أى يحمل ( على الترك ) أى ترك الطلب ( والتفريق ) للمجموع ( ويهوّن عليك ذلك ) أى المذكور من الترك والتفريق هو ( ذكر آفات الدنيا وعيوبها ) وهوانها وذمّها ، فقد روى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ على شاة ميتة فقال أترون هذه الشاة هينة على أهلها ؟ قالوا : من هوانها ألقوها ، قال : والذى نفسى بيده للدّنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ، ولو كانت الدنيا تعدل جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء » قال العراقي : رواه ابن ماجه والحاكم ، وصحح إسناده من حديث سهل بن سعد . وقال صلى الله عليه وسلم » الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » قال العراقى : رواه مسلم من حديث أبى هريرة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها » . قال العراقي : رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى هريرة . وقال صلى الله عليه وسلم « يا عجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور» قال العراقى : رواه بن أبى الدنيا فى كتاب [ ذمّ الدنيا ] من حديث أبى جعفر مرسلا وقال صلى الله عليه وسلم « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون إن بنى إسرائيل لما بسطت لهم الدنيا ومهدت ، تاهوا فى الحلية والنساء والطيب والثياب » . رواه ابن أبى الدنيا من حديث الحسن مرسلا . وقال موسى بن يسار : قال النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل لم يخلق خلقا أبغض إليه من الدنيا ، وإنه منذ خلقها لم ينظر إليها ، أى نظر رضا ، وإلا فهو ينظر إليها نظر تدبير ، ولولا ذلك لاضمحلت » . رواه بن أبى الدنيا فى ذم الدنيا ، وقال عيسى عليه السلام « ياطالب الدنيا لتبر بها تركك الدنيا أبر » . أخرجه بن أبى الدنيا « وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : يا موسى لا تركنن إلى حب الدنيا فلن تأتينى بكبيرة أشد عليك منها » أخرجه صاحب الحلية من طريق سفيان عن منصور بن المعتمر عن مجاهد عن كعب . وقال عيسى ابن مريم عليه السلام « ويل لصاحب الدنيا كيف يموت ويتركها ويأمنها وتغره ، ويثق بها وتخذله ، ويل للمغترين كيف أرتهم ما يكرهون ، وفارقهم ما يحبون ، وجاءهم ما يوعدون ، ويل لمن الدنيا همه ، والخطايا عمله كيف يفتضح غدا بذنبه » أخرجه ابن أبى الدنيا

وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ الْقَوْلَ فى ذٰلِكَ فَمِنْهُ .

وقيل « أوحى الله إلى موسى عليه السلام : ياموسى مالك ولدار الظالمين إنها ليست لك بدار أخرج منها همك وفارقها بعقلك ، فبئست الدار هى إلا لعامل يعمل فيها ، فنعمت الدار هى ، يا موسى إنى مرصد للظالم حتى آخذ منه للمظلوم » أخرجه ابن أبى الدنيا فى ذم الدنيا ، وعلى الجملة فالأخبار فى هذا الباب أكثر من أن تحصى ، وأبعد من أن تستقصى ، وفيما أشرنا إليه كفاية ، وعبرة لمن يعتبر وتذكرة لمن يتذكر ، وما يتذكر إلا من ينيب (وقد أكثر الناس) أي العلماء من إطلاق العام وإرادة الخاص ( القول فى ذلك ) أى في ذكر آفات الدنيا وعيوبها ( فمنه ) قول يحيي ابن معاذ « الدنيا حانوت الشيطان فلا تسرق من حانوته شيئا ، فيجيء فى طلبه فيأخذك » أخرجه ابن أبى الدنيا ، ومنه قول الفضيل بن عياض رحمه الله : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من خزف يبقي ، لكان ينبغى لنا أن نختار خزفا يبقي على ذهب يفنى، فكيف وقد اخترنا خزفا يفنى على ذهب يبقي ؟ . أخرجه أبو نعيم فى الحلية ، وقول أبى الدرداء رضي الله عنه : من هوان الدنيا على الله أن لا يعصى إلا فيها ، ولا ينال ماعنده إلا بتركها . أخرجه ابن أبى الدنيا . وقول بعضهم : الدنيا جيفة ، فمن أراد منها شيئا فليصبر على معاشرة الكلاب ، وفي هذا المعنى قال الشافعى رحمه الله تعالى :

وما هى إلا جيفه مستحيلة ... عليها كلاب همهن اجتذابها

ومن هنا يؤخذ القول المشهور على الألسنة : الدنيا جيفة وطلابها كلاب . وفى القوت: ولقد أشهد ذلك بعض المكاشفين فقال : رأيت الدنيا في صورة جيفة ، ورأيت إبليس فى صورة كلب وهو جاثم عليها ، ومناد ينادى من فوق : أنت كلب من كلابي ، وهذه جيفة من خلقي ، ولقد جعلتها نصيبك فمن نازعك شيئا منها فقد سلطتك عليه ، ومن ذلك قول بشر بن الحارث : من سأل الله الدنيا فإنما يسأله طول الوقوف بين يديه . نقله صاحب القوت ، وقول الحسن البصرى : لاتخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث : أنه لم يشبع مما جمع ، ولم يدرك ما أمل ، ولم يحسن الزاد لما يقدم عليه ، وقول أبى سليمان الدارانى : لايصبر عن شهوات الدنيا إلا من كان فى قلبه ما يشغله بالآخرة ، وقول أبى حازم : يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة وإنك تجد الرجل يشغل نفسه بهم غيره حتى لهو أشد اهتماما من صاحب الهم بهم نفسه هكذا رواه صاحب الحلية ، وقول داود الطائى : ياابن آدم فرحت ببلوغ أملك وإنما بلغته بانقضاء أجلك ، ثم سوفت بعملك كأن منفعته لغيرك . وقول وهب بن منبه ، من فرح قلبه بشيء من الدنيا فقد أخطأ الحكمة ، ومن جعل شهوته تحت قدميه فرق الشيطان من ظله ، ومن غلب علمه هواه فهو الغالب ، رواه أبو نعيم فى الحلية ، وقول حكيم من الحكماء لما قيل له الدنيا لمن هى ؟ قال لمن تركها ، فقيل الآخرة لمن هى؟ فقال لمن طلبها ، وقول أبى القاسم الجنيد : كان الشافعي رحمه الله من المؤيدين الناطقين بلسان

قَوْلُ بَعْضِهِمْ : تَرَكْتُ الدُّنْيا لِقِلَّةِ غَنَائِهَا وَكَثْرَةِ عنَائِها ، وسُرْعَةِ فَنائِهَا وَخِسَّةِ شُرَكَائِها . قالَ شَيْخِي الْإِمَامُ رَحِمَهُ اللّٰهُ :

---

الحق فى الدنيا ، وعظ أخا له فى الله وخوفه بالله فقال يا أخى إن الدنيا دحض مذلة ودار مذلة عمرانها إلى الحرب صائر وساكنها إلى القبور زائر شملها على الفرقة مدقوف وغناها إلى الفقر مصروف الإكثار فيها إعسار ، والاعسار فيها يسار فافزع إلى الله وأرض برزق الله لاتتسلف من دار فنائك إلى دار بقائك ، فإن عيشك فىء زائل وجدار مائل ، أكثر من عملك ،وأقصر من أملك . وقول يحي بن معاذ : الدنيا بلغ من شؤمها أن تمنيك لها يلهيك عن طاعة الله ، فكيف الوقوع فيها . أخرجه أبو نعيم فى الحلية ، وقول بكر بن عبد الله : من أراد أن يستغنى عن الدنيا بالدنيا كان كمطفىء النار بالتبن . أخرجه ابن أبي الدنيا ، وقول حكيم : الدنيا دار خراب وأخرب منها قلب من يعمرها ، والجنة دار عمران وأعمر منها قلب من يطلبها . أخرجه ابن أبى الدنيا . وقول بعض الحكماء : إنك لن تصبح فى شيء فى الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك ، وسيكون له أهل بعدك ، وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلة وغداء يوم فلا تهالك فى أكلة ، وصم عن الدنيا وأفطر على الآخرة ، وإن رأس مال الدنيا الهوى ، وربحها النار، أخرجه ابن أبى الدنيا . وقول بعض الناس لبعض الرهبان : كيف ترى الدهر ؟ قال يخلق الأبدان ويجدّد الآمال ويقرب المنية ويبعد الأمنية قال فما حاله أهله ؟ قال من ظفر به تعب ومن فاته نصب ، وقد قيل فى معنى ذلك :

ومن يحمد الدنيا لعيش يسره ... فسوف لعمرى عن قليل يلومها

إذا أدبرت كانت على المرء حسرة ... وإن أقبلت كانت كثيرا همومها

وقول بعض بعض الحكماء : كانت الدنيا ولم أكن فيها ، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها فلا أسكن إليها ، فإن عيشها نكد ، وصفوها كدر ، وأهلها منها على وجل ، إنا بنعمة زائلة ستزول قريبا ، أو بلية نازلة ستنزل قريبا ، أو منية قاضية . وقال بعضهم : من عيب الدنيا أنها لاتعطى أحدا مايستحق ، لكنها إما أن تزيد فوق استحقاقه وإما أن تنقص من استحقاقه . وقال أبو سليمان الداراني : من طلب الدنيا على المحبة لها لم يعط منها شيئا إلا أراد أكثر مما طلب الآخرة على المحبة لها لم يعط منها شيئا إلا أراد أكثر منه ، وليس لهذا غاية ، ولا لهذا غاية . أخرجه أبو نعيم فى الحلية ، ومما ذكر (قول بعضهم) وهو يحي بن معاذ الرازي رحمه الله كما قاله ابن علوى الحداد فى رسالته (تركت الدنيا لقلة غنائها ) بالفتح والمدّ: أى نفعها ( وكثرة عنائها ) بالفتح والمد : أى تعبها ، وبين الغناء والعناء الجناس المصحف ، وهو اختلاف الحروف فى النقط . قال فى عقود الجمان :

فى النقط إذ يوجد فالمصحف ... أو حركات فهو المحرّف

( وسرعة فنائها وخسة شركائها ، قال شيخى الإمام رحمه الله ) وهو أبو بكر الوراق رحمه الله

لَـكِنْ يَجِيءُ مِنْ هٰذَا رَائِحَةُ الرَّغْبَةِ الْفَائِحَةُ لِأَنَّ مَنْ شَـكَا فِرَاقَ أَحَدٍ أَحَبَّ وِصَالَهُ، وَمَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِمَـكَانِ الشُّرَكَاءِ فِيهِ أَحَبَّ لَوِ انْفَرَدَ بِهِ ، فَالْقَوْلُ الْبَالِغُ فِيهِ مَا قَالَهُ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللّٰهُ تَعَالَى : إِنَّ الدُّنْيَا عَدُوُّ اللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَنْتَ مُحِبُّهُ ، وَمَنْ أَحَبَّ أَحَدًا أَبْغَضَ عَدُوَّهُ ، قَالَ : وَلِأَنَّهَا فِي أَصْلِهَا وَسِخَةٌ جِيفَةٌ ، أَلَا تَرَى أَنَّ آخِرَهَا إِلَى الْقَذَرِ وَالْفَسَادِ وَالتَّلَاشِي وَالِاضْمِحْلَالِ وَالنَّفَادِ ، لَـكِنَّهَا جِيفَةٌ ضُمِّخَتْ بِطِيبٍ وَطُوِيَتْ بِزِينَةٍ فَاغْتَرَّ بِظَاهِرِهَا الْغَافِلُونَ ،

---

كما فى سراج السالكين ( لـكن يجيء من هذا ) أى الذى ذكره بعضهم ( رائحة الرغبة الفائحة ) أى المنتشرة ريحها ، وعلله رحمه الله بقوله ( لأن من شكا فراق أحد أحب وصاله ) أى وكره فراقه ( ومن ترك شيئا لمكان الشركاء فيه أحب ) أنه ( لو انفرد به ) ولم يشاركه فيه غيره . قال المصنف (فالقول البالغ) أى الكامل (فيه) أى فى ذكر آفات الدنيا الذى يبعث على الترك والتفريق ( ماقاله شيخنا ) وهو أبو بكر الطوسى (رحمه الله تعالى : إن الدنيا عدو الله عزّ وجل وأنت محبه ، ومن أحب أحدا أبغض عدوه ) أي عدو ذلك الأحد ، جعلنا الله من المبغضين للدنيا والمحبين للآخرة ( قال ) شيخنا ( ولأنها ) أي الدنيا عطف على قوله إن الدنيا عطفا تلقينيا وضابطه أن يفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بقال أو قيل ونحوهما كما يقال سأكرمك فتقول : وزيدا : أي وتكرم زيدا ، وتريد تلقينه ذلك ، وفى جواز العطف التلقيني خلاف والجمهور على المنع ، وأجازه بعضهم كما فى حاشية الشهاب على البيضاوى ، وعبارته ، وقد ذكر هذه المسئلة الأسنوي وغيره فى أصوله فقالوا : هل يتركب الكلام من كلمات متكلمين ؟ أجازه بعضهم ، ومنعه الجمهور ، وإلا لزم أن من قال امرأتى فقال آخر طالق يقع به الطلاق . ولا قائل به ، وأولوا كلام من قال بصحته بأن كلا منهما يضمر فى كلامه ما ذكره الآخر بقرينة المقام ، ولكن يعد كلاما واحدا على التسامح ، ثم إنهم ذكروا أن التلقين ورد بالواو وغيرها من الحروف وأنه وقع فى الاستثناء كما فى الحديث « إن الله حرم شجر الحرم قالوا إلا الإذخر يا رسول الله » : ذكره الكرمانى فى شرح البخارى . وقال : إنه استثناء تلقينى ، كذا ذكرا بعض المحققين ( فى أصلها وسخة جيفة ) بكسر الجيم : أى بمنزلتها والجيفة جثة الميت المنتنة (ألا ترى أن آخرها) صائر ( إلى القذر ) ضد النظافة ( والفساد والتلاشى ) أى البطلان والهلاك ( والاضمحلال ) بكسر الهمزة . أى الزوال والذهاب ( والنفاد ) فى المختار : نفد الشىء نفادا : فنى ( لـكنها ) أى الدنيا ( ضمخت ) أى تلطخت وتلوثت ( بطيب وطويت ) بالبناء للمفعول : أى أخفيت . وفى نسخة : وطريت : أى حددت ، وفى أخرى : وطليت ( بزينة ) أى ما يتزين به ( فاغتر ) أى وقع في الاغترار والانخداع ( بظاهرها ) لحسنها وبهجتها ( الغافلون ) أى الجاهلون بعاقبتها ، لأن الدنيا كما قال ابن عطاء الله وغيره : ظاهرها غرة ، وباطنها عبرة

وَزَهَدَ فِيهَا الْعَاقِلُونَ .

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا حُكْمُ الزُّهْدِ فِى الدُّنْيَا ، أَهُوَ فَرْضٌ أَمْ نَفْلٌ ؟ فَاعْلَمْ : أَنَّ الزُّهْدَ يَقَعُ عِنْدَنَا فِى الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، فَهُوَ فِى الْحَرَامِ فَرْضٌ ، وَفِى الْحَلَالِ نَفْلٌ ،

---

لقبحها وخستها فهى من حيث ظاهرها محبوبة حلوة خضرة ، وبالنظر إلى باطنها جيفة قذرة ، فالنفس تنظر إلى زينتها الظاهرة فتغتر بها فتهلك صاحبها والقلب ينظر إلى قبائحها الباطنة فيعتبر بها فيسلم من شرها . وقد روى فى الكتب السالفة : أن الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام : ياروح الله صف لنا أولياء الله تعالى الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فقال عليه السلام : هم الذين بهم نطق الكتاب وبه نطقوا ، وبهم علم الكتاب وبه علموا ، وبهم قام الكتاب وبه قاموا نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها ، وعاينوا آجل الدنيا حين عاين الناس عاجلها فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم ، وتركوا منها ما علموا أن سيتركهم فصار ذكرهم فيها قوتا وفرحهم فيها حزنا ، ما عارضهم منها رفضوه وماأشرف لهم بغيرالحق وضعوه خلقت الدنيا عندهم فلم يجددوها وخربت فيها بينهم فلم يعمروها ، وماتت فى صدورهم فلم يحيوها بعد موتها وبنوا بها آخرتهم : أحيوا ذكر الموت وأماتوا ذكر الحياة : يحبون الله ويحبون ذكره ويستضيئون بنوره ويضيئون به : لهم الخبر العجب وعندهم الخبر العجيب . وكان بعض الأولياء يقول : ما سطع لى زينة من زخرف الدنيا إلا كشف لى باطنه فظهر لى غرور عنها . قال أبوطالب المكى : فهذه عناية من الله تعالى لمن وليه من أوليائه المقربين منه ، فمن شهد الدنيا بأول وصفها لم يغتر بآخره ، ومن عرفها بباطن حقيقتها لم يعجب بظاهرها ، ومن كشف له بعاقبتها لم يستهوه زخرفها . وكان عيسى عليه السلام يقول: ويلكم علماء السوء مثلكم مثل قناة حش ظاهرها جص وباطنها نتن ، والأدلة فى هذا الباب أكثر من أن تحصى ، وفى هذا القدر الذى ذكرناه كفاية لأولى الألباب ( وزهد فيها ) أى الدنيا ( العاقلون ) أى العالمون بباطنها ( فإن قيل فما حكم الزهد فى الدنيا أهوفرض أم نفل ؟ فاعلم أن الزهد يقع عندنا فى الحلال والحرام فهو فى الحرام فرض ، وفى الحلال نفل ) وزاد إبراهيم ابن أدهم : السلامة وهو الزهد فى الشبهات إذ قيل لمالك بن أنس : ما الزهد ؟ قال التقوى . قال العلامة الزبيدى : فأصل التقوى اتقاء الشرك ، ثم بعده اتقاء المعاصى والسيئات ، ثم بعده اتقاء الشبهات ثم يدع بعده الفضلات كذلك . وقال أبو حفص : التقوى فى الحلال المحض لاغير . وقال الدارانى : الورع أول الزهد كما أن القناعة طرف الرضا : وقال ابن عطاء : للتقوى ظاهر وباطن فظاهره محافظة الحدود وباطنه النية والإخلاص ، وكان سهل يقول : أزهد الناس فى الدنيا أصفاهم مطعما : وقال أيضا أقصى مقام من الورع أو فى مقام من الزهد ، وتحقيق ذلك أن الدنيا هى نصيب كل عبد من الهوى وما دنا من قلبه من الشهوات فمن زهد فى نصيبه وملكه من هواه المذموم ، فهذا هو الزهد المفترض ، ومن زهد فى نصيبه من المباح وهو فضول الحاجات من كل شئ فهذا

ثُمَّ مَنْزِلَةُ هٰذَا الْحَرَامِ لِمُسْتَقِيمِي الطَّاعَاتِ بِمَنْزِلَةِ الْمَيْتَةِ الْمُسْتَقْذَرَةِ لا يَقْدُمُ عَلَيْهَا إِلاَّ عِنْدَ الضَّرُورَةِ بِمِقْدَارِ دَفْعِ الضَّرَرِ . وَأَمَّا الزُّهْدُ فِي الْحَلَالِ فَإِنَّمَا يَكُونُ فِي مَنْزِلَةِ الأَبْدَالِ يَكُونُ عِنْدَهُمُ الْحَلَالُ بِمَنْزِلَةِ الْمَيْتَةِ لاَ يَتَنَاوَلُونَ مِنْهَا إِلاَّ قَدْرًا لاَ بُدَّ مِنْهُ ،

---

هو الزهد المفضل يرجع ذلك إلى حظوظ جوارحه التي هي أبواب الدنيا منه وطرقها إليه فالزهد في محرماتها زهد المسلمين به يحسن إسلامهم : والزهد في شبهاتها زهد الورعين به يكمل إيمانهم والزهد في حلالها من فضل حاجات النفس زهد الزاهدين ، به يصفو يقينهم . وفي حديث عمرو ابن ميمون عن الزبير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يا زبير اجهد نفسك عند نزول الشهوات والشبهات بالورع الصادق ، وعن محارم الله وادخل الجنة بغير حساب » . وقال سلام بن أبي مطيع الزهد على ثلاثة وجوه : الأول أن يخلص العمل لله والقول فلا يريد بشيء منه الدنيا ولا ما عند الخلق . والثاني: ترك ما لا يطلح القلب والدين . والثالث : الحلال أن يزهد في فضله وهذا تطوع . قال القشيري : اختلف الناس في الزهد فمنهم من قال : الزهد في الحرام لأن الحلال مباح من قبل الله تعالى فإذا أنعم الله على عبد بمال من حلال وتعبده بالشكر عليه فتركه باختياره ويحق لا يقدم على إمساكه بحق إذنه ، ومنهم من قال : الزهد في الحرام واجب وفي الحلال فضيلة ، فإن إقلال المال والعبد صابر في حال راض بما قسم الله له قانع بما يعطيه أتم من توسعه وتبسطه في الدنيا . ومنهم من قال : إذ انفق ماله في الطاعة وعلم من حاله الصبر وترك التعرض لما ينهاه الشرع عنه في حال التيسر فحينئذ يكون زهده في المال الحلال أتم منه في الحرام ، ومنهم من قال ينبغي أن لا يختار ترك الحلال بتكلفه ولا طلب الفضول فيما يحتاج إليه ويراعى القسمة فإن رزقه الله مالا من حلال شكره وان وقفه الله على حد الكفاف لم يتكلف في طلب ما هو فضول المال ، فالصبر أحسن بصاحب الفقر ، والشكر أليق بصاحب المال . وقال صاحب القوت : وكان الشاميون من العلماء يقولون : أليس الزهادة في الدنيا تحريم المال ولا إضاعة المال ولكن أن يكون ذامك ومادحك سواء ، وتكون حالك في المصيبة وحالك إذا لم تصب بها سواء وتكون بما في يد الله أوثق منك بما في يد غيرك ، فهذا مقام التوكل وحال الرضا ( ثم منزلة هذا الحرام لمستقيمي الطاعات بمنزلة الميتة المستقذرة لا يقدم عليها إلا عند ) حال ( الضرورة بمقدار دفع الضرر )وهو قدر سد الرمق ( وأما الزهد في الحلال فإنما يكون في منزلة الأبدال ) في القاموس : الأبدال : قوم يقيم بهم الله عز وجل الأرض ، وهم سبعون ، أربعون بالشام . وثلاثون بغيرها لا يموت أحدهم إلا قام مقامه آخر من سائر الناس . وقال ابن دريد : الواحد بديل ( يكون عندهم الحلال بمنزلة الميتة ) المستقذرة ( لايتناولون منها إلا قدرا لابد منه ) وهو قدر الضرورة والحاجة عملا بقوله صلى الله عليه وسلم« الدنيا جيفة قذرة» ولم يأخذوا منها عليهم الرحمة والرضوان إلا شبه زاد المسافر المستعجل وقوله صلى الله عليه وسلم « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » أي فلا تحصل من الدنيا

وَالْحَرَامُ عِنْدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ النَّارِ لاَ يَخْطُرُ بِبَالِهِمْ قصدُ تَنَاوُلِهَا بِحَالٍ، وَهٰذَا مَعْنَى الْبُرُودَةِ عَلَى الْقَلْبِ بِأَنْ يَقْطَعَ هِمَّتَهُ عَنْهَا وَيَسْتَقْذِرَهَا وَيَسْتَنْكِرَهَا جِدًّا فَلاَ يَبْقَى لَهَا فِى قَلْبِهِ اخْتِيَارٌ وَلاَ إِرَادَةٌ .

فَإِنْ قُلْتَ : كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تَصِيرَ الدُّنْيَا فِى شَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا الْعَجِيبَةِ الْمَطْلُوبَةِ عِنْدَ الْإِنْسَانِ بِمَنْزِلَةِ النَّارِ أَوْ بِمَنْزِلَةِ الْجِيفَةِ الْمُسْتَقْذَرَةِ الْمُسْتَحِيلَةِ ، وَالْبِنْيَةُ بِنْيَتُنَا وَالطَّبْعُ طَبْعُنَا ؟ فَاعْلَمْ : أَنَّ مَنْ وُفِّقَ التَّوْفِيقَ الْخَاصَّ وَعَلِمَ آفَاتِهَا

---

إلا الشيء القليل بقدر الضرورة لأن أن يكون لك أسوة بالأنبياء خيرة الله من خلقه ( والحرام عندهم ) أىهؤلاء الأبدال ( بمنزلة النار لايخطر ببالهم )أىبقلبهم ( قصد تناولها بحال ) من الأحوال يعنى عند الضرورة أو غير الضرورة ( وهذا ) أى عدم الخطر على قصد تناولها ( معنى البرودة على القلب ) وذلك ( بأن يقطع ) أى العبد ( همته عنها ) أى عن الدنيا ( ويستقذرها ويستنكرها جدا ) بالكسر : أىغاية ومبالغة ( فلا يبقى لها فىقلبه اختيار ولا إرادة ) ولا التفات إليها أصلا بل وجودها كعدمها ( فإن قلت : كيف يمكن أن تصير الدنيا فى شهواتها ) الحبيبة ( ولذاتها العجيبة المطلوبة عند الإنسان ) الغافل عن عاقبة أمره ( بمنزلة النار ) خبرتصير ( أو بمنزلة الجيفة المستقذرة المستحيلة ) أى المتغيرة ( والبنية ) أى الخلقة ( بنيتنا ) والحال أنها ضعيفة ( والطبع طبعنا ) وهو شديد الحرص على الدنيا ( فاعلم أن من وفق التوفيق الخاص وعلم ) علما يقينيا ( آفاتها ) أى الدنيا وهى كثيرة : منها أن الدنيا تمنع إخلاص العبادة ، وأنها لايفي مرجوها بمخوفها ، ولله در القائل :

وليس يفى مرجوها بمخوفها ومكروهها إما تأملت راجح

ومنها أن الدنيا غدارة خداعة قد تزخرفت للناس بغرورها وفتنتهم بأمانيها وتزينت لخطابها ، فأصبحت كالعروس المجلية عند إهدائها لزوجها : العيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها عاكفة ، والنفوس لها عاشقة ، فكم من عاشق لها قتلت ، ومطمئن إليها خذلت ، فانظروا إليها بعين الحقيقة فإنها دار كثرت بوائقها وذمها خالقها ، فهو أعرف بها منا ، جديدها يبلى ، وملكها يفنى وعزيزها يذل ، وكثيرها يقل ، وحيها يموت ، وخيرها يفوت . وقال أبو نعيم فى الحلية : حدثنا أبو حامد بن جبلة حدثنا محمد بن إسحاق وحدثنا محمد بن الصباح حدثناسفيان قال : قال أبو حازم اشتدت مؤنة الدنيا والدين ، قالوا يا أبا حازم : هذا الدين فكيف الدنيا ؟ قال لأنك لاتمد يديك إلى شيء إلا وجدت فاجرا قد سبقك إليه . قال حجة الإسلام : فأما مؤنة الآخرة فانك لاتجد عليها أعوانا ، وقال سعد بن مسعود : إذا رأيت العبد تزداد دنياه وتنقص آخرته وهو به راض فذلك المغبون الذى يلعب بوجهه وهو لايشعر . وقال الحسن البصرى رحمه الله : والله لقد عبدت

وقَدَرَها فى أصْلِها فَتَصِيرُ عِنْدَهُ كَذٰلِكَ ، وَإِنَّمَا يَتَعَجَّبُ مِنْ هٰذَا الرَّاغِبُونَ الْعُمْيَانُ عَنْ عُيُوبِ الدُّنْيَا وَآفَاتِهَا ، الْمُغْتَرُّونَ بِظَاهِرِهَا وَزِينَتِهَا . وَسَأَضْرِبُ لَكَ مَثَلاً لِذٰلِكَ ، فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذَا يُمَثَّلُ بِإِنْسَانٍ صَنَعَ خَبِيصاً بِشَرَائِطِهِ مِنَ السُّكَّرِ وَغَيْرِهِ ثُمَّ طَرَحَ فِيهِ قِطْعَةَ سُمٍّ قَاتِلٍ ، وَأَبْصَرَ ذٰلِكَ رَجُلٌ ، وَلَمْ يُبْصِرْهُ آخَرُ ، وَوَضَعَ الْخَبِيصَ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا مُزَيَّنًا مُزَخْرَفًا ، فَالرَّجُلُ الَّذِى أَبْصَرَ مَا جُعِلَ ،

---

بنو إسرائيل الأصنام بعد عبادتهم الرحمن بحبهم الدنيا فأوقعتهم فى الشرك ، والأدلة فى ذم الدنيا وآفاتها لاتحصى ، وفيما ذكرناه كفاية لأولى الألباب ( وقدرها ) أى وعلم الموفق قذر الدنيا وخبثها ( فى أصلها فتصير عنده كذلك ) أى بمنزلة النار والجيفة ( وإنما يتعجب من هذا ) أى من أن تكون بمنزلة النار أو بمنزلة الجيفة ( الراغبون ) أى المقبلون على الدنيا والمتوجهون إليها ( العميان ) جمع الأعمى ، والمراد عمى القلوب ( عن عيوب الدنيا وآفاتها المغترون ) أى المخدوعون ( بظاهرها وزينتها ) لأن أوائلها تبدو هينة لينة يظن الخائض فيها أن حلاوة خفضها كحلاوة الخوض فيها ، وهيهات فإن الخوض فى الدنيا سهل والخروج منها مع السلامة شديد ، وبهذا يتبين أن الدنيا مزينة الظواهر قبيحة السرائر وهي شبه عجوز متزينة تخدع الناس بظاهرها فاذا وقفوا على باطنها وكشفوا القناع عن وجهها تمثل لهم قبائحها فندموا على اتباعها وخجلوا من ضعف عقولهم فى الاغترار بظاهرها . قال أبو نصر العلاء بن زياد العدوي : رأيت فى النوم عجوزا كبيرة السن يابسة الجلد عليها من كل زينة الدنيا من الملابس الفاخرة والحلى والناس عكوف عليها قائمون لديها متعجبون ينظرون إليها ، ونظرت وتعجبت من نظرهم إليها وإقبالهم عليها ، وقلت لها : ويلك من أنت ؟ قالت : أما تعرفنى ؟ فقلت لاأدرى من أنت . قالت: إنى أنا الدنيا ، فقلت : أعوذ بالله من شرك ، قالت : فإن أحببت أن تعاذ من شرى فابغض الدرهم . وقال أبو بكر بن عياش : رأيت الدنيا فى النوم عجوزا مشوهة شمطاء تصفق بيديها ، وخلفها خلق يتبعونها يصفقون ويرقصون ، فلما كانت بحذائى أقبلت على، فقالت : لوظفرت بك لصنعت بك مثل ماصنعت بهؤلاء ، ثم بكى أبو بكر وقال رأيت هذا قبل أن أقدم إلى بغداد . قال المزى : وهو من مشهورى مشايخ الكوفة ومن قرائهم وقد دخل بغداد ونشر بها العلم وروى عنه أكابر الشيوخ ، مات سنة ٢٣٣ عن ست وسبعين سنة ( وسأضرب ) أى سأبين ( لك مثلا لذلك ) أى لصيرورة الدنيا بمنزلة النار أو الجيفة ( فاعلم أن هذا ) المذكور من الصيرورة ( يمثل بإنسان صنع خبيصا ) هو نوع من الحلاوات تعمله العرب من التمر والسمن والخضر من الأرز والدبس وهو مأخوذ من الخبص بمعنى الخلط ( بشرائطه من السكر وغيره ) كالتمر ( ثم طرح ) ذلك الإنسان ( فيه ) أي فى الخبيص ( قطعة سم قاتل وأبصر ذلك ) أى السم ( رجل ولم يبصره ) رجل ( آخر ووضع ) الإنسان ( الخبيص بين أيديهما ) أى الرجلين ( مزينا مزخرفا ) هما بمعنى واحد كما فى المختار ( فالرجل الذى أبصر ماجعل ) بالبناء للمفعول

فِيهِ مِنَ السُّمِّ يَكُونُ زَاهِدًا فى ذٰلِكَ الْخَبِيصِ لاَ يَخْطُرُ بِبَالِهِ أَنْ يَتَنَاوَلَ مِنْهُ بِحَالٍ أَلْبَتَّةَ وَيَكُونُ ذٰلِكَ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ النَّارِ بَلْ أَصْعَبُ لِمَكَانِ مَا يَعْلَمُ مِنْ آفَاتِهِ فَلاَ يَغْتَرُّ بِظَاهِرِهِ وَزِينَتِهِ. وَأَمَّا الرَّجُلُ الآخَرُ الَّذِى لَمْ يُبْصِرْ مَا جُعِلَ فِيهِ، اغْتَرَّ بِظَاهِرِهِ الْمُزَخْرَفِ وَحَرَصَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَصْبِرْ عَنْهُ وَأَخَذَ يَتَعَجَّبُ مِنْ صَاحِبِهِ الزَّاهِدِ فِيهِ وَرُبَّمَا يَسْفَهُهُ فى ذٰلِكَ فَهٰذَا مَثَلُ حَرَامِ الدُّنْيَا مَعَ الْبُصَرَاءِ الْمُسْتَقِيمِينَ وَالْجُهَّالِ الرَّاغِبِينَ فَإِنْ لَمْ يُطْرَحْ فِيهِ السُّمُّ وَلٰكِنْ بَصَقَ فِيهِ أَوِ امْتَخَطَ ثُمَّ ضَمَّخَهُ وَزَيَّنَهُ، فَالرَّجُلُ الَّذِى شَاهَدَ مِنْهُ ذٰلِكَ الْفِعْلَ يَكُونُ مُسْتَقْذِرًا لِذٰلِكَ الْخَبِيصِ نَافِرًا عَنْهُ لاَ يَكَادُ يَقْدُمُ عَلَيْهِ إِلاَّ عِنْدَ الضَّرُورَةِ وَشِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَالَّذِى لَمْ يُشَاهِدْ ذٰلِكَ فَهُوَ جَاهِلٌ بِمَا فِيهِ،

---

أى ماجعله الانسان (فيه) أى الخبيص (من السم) القاتل (يكون زاهـدا) أى مجتنبا (فى ذلك الخبيص) الموضوع بين يديه (لايخطر بباله) أى بقلبه (أن يتناول منه بحال) من الأحوال (ألبتة) أى قطعا (ويكون ذلك) الخبيص (عنده بمنزلة النار بل أصعب) منها (لمكان مايعلم من آفاته) المهلكات (فلا يغتر بظاهره) المزين (وزينته، وأما الرجل الآخر الذي لم يبصر ماجعل) من السم المهلك (فيه) أى الخبيص (اغتر) أى انخدع (بظاهره المزخرف) أىالمزين (وحرص) بفتح الراء من باب ضرب: أى رغب رغبة مذمومة (عليه) أى أكل ذلك الخبيص (ولم يصبر عنه) أى عن تناوله (وأخذ) أى شرع الآخر (يتعجب من صاحبه) الذى أبصر ما فيه (الزاهد فيه وربما يسفهه) بفتح الفاء من باب تعب: أى يجهل الحارص صاحبه (فى ذلك) أى زهده فى ذلك الخبيص ويقول له: أنت السفيه، ألا تعرف أن هذا طيب لذيذ، والحال أنه جاهل مغرور بظاهر الخبيص ولم يعرف باطنه (فهذا) المذكور من التمثيل (مثل حرام الدنيا مع البصراء) لحقيقتها (المستقيمين) فى اجتنابها (والجهال الراغبين) فى الدنيا المنهمكين فى تحصيلها الغافلين عن عاقبة أمرها (فإن لم يطرح) بالبناء للمفعول: أى لم يجعل ولم يرم (فيه) الخبيص (السم ولـكن بصق) فى المختار: البصاق: البزاق، وقد بصق من باب نصر: أى بصق الصانع لذلك الخبيص (فيه أو امتخط) أى أخرج المخاط من أنفه، والمخاط: مايسيل من الأنف (ثم ضمخه) أى لطخه (وزينه) بظاهره (فالرجل الذى شاهد) أى أبصر (منه) أى من صانع الخبيص (ذلك الفعل) وهو البصق أو الامتخاط (يكون مستقذرا) أى مستخبثا (لذلك الخبيص نافرا) أى متجافيا ومتباعدا (عنه لايكاد يقدم عليه) أى الخبيص (إلا عند الضرورة وشدة الحاجة إليه و) أما الرجل (الذى لم يشاهد ذلك) الفعل (فهو جاهل) أى غير عالم (بما فيه) أى فى الخبيص

مُغْتَرٌّ بِظَاهِرِهِ حَرِيصٌ عَلَيْهِ مُكِبٌّ مُعْجَبٌ مُحِبٌّ فَهٰذَا مَثَلُ حَلَالِ الدُّنْيَا مَعَ الْفَرِيقَيْنِ : أَهْلِ الْبَصِيرَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ ، وَأَهْلِ الرَّغْبَةِ وَالْغَفْلَةِ ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ حَالُ الرَّجُلَيْنِ مَعَ تَسَاوِيهِمَا فِي الطَّبْعِ وَالْبِنْيَةِ لِبَصَارَةٍ وَعِلْمٍ كَانَ لِأَحَدِهِمَا ، وَجَهْلٍ وَجَفَاءٍ كَانَ لِلْآخَرِ ، فَلَوْ عَلِمَ الرَّاغِبُ وَأَبْصَرَ مَا عَلِمَهُ الزَّاهِدُ لَكَانَ زَاهِدًا مِثْلَهُ ، وَلَوْ جَهِلَ الزَّاهِدُ وَعَمِيَ عَمَّا عَمِيَ عَنْهُ الرَّاغِبُ لَكَانَ رَاغِبًا مِثْلَهُ ، فَعَلِمْتُ بِذٰلِكَ أَنَّ هٰذَا التَّمْيِيزَ لِمَكَانِ الْبَصَائِرِ دُونَ الطَّبَائِعِ ، وَهٰذَا أَصْلٌ مُفِيدٌ وَكَلَامٌ بَيِّنٌ سَدِيدٌ اعْتَرَفَ بِهِ مَنْ عَقَلَ وَأَنْصَفَ ، وَاللّٰهُ تَعَالَى وَلِيُّ الْهِدَايَةِ

---

من البصاق والمخاط ( مغتر بظاهره حريص عليه مكب ) أي مقبل ( معجب محب ، فهذا ) أي المذكور من التمثيل الثانى ( مثل حلال الدنيا مع الفريقين ) : الأول أهل البصيرة والاستقامة . ( و ) الثانى ( أهل الرغبة ) فى الدنيا ( والغفلة ) عن عاقبة أمرها (وإنما اختلف حال الرجلين ) أي أهل البصيرة وأهل الرغبة ( مع تساويهما فى الطبع والبنية ) بكسر الباء : أى الخلقة ( لبصارة وعلم كان ) كل منهما ( لأحدهما ) أى الرجلين وهو أهل البصيرة والاستقامة ( وجهل وجفاء ) أى غلظة وفظاظة ( كان للآخر ) وهو أهل الرغبة والغفلة ( فلو علم الراغب وأبصر ) فى الدنيا مثل (ما علمه الزاهد) من آفاتها التي لا تحصي (لكان) الراغب ( زاهدا مثله ، ولو جهل الزاهد وعمى عما عمى عنه الراغب ) من الآفات ( لكان ) الزاهد الجاهل ( راغبا مثله ، فعلمت بذلك ) أى بسبب اختلافهما المذكور وهو العلم والجهل ( أن هذا التميز ) بين حالهما ( لمكان البصائر دون الطبائع ، وهذا ) المذكور من المثال ( أصل مفيد وكلام سديد ) أى صواب ( اعترف ) أى أقرّ ( به ) أى بهذا الأصل ( من عقل ) وتأمل بالفكر الصافى ( وأنصف ) أى نظر بعين الإنصاف ( والله تعالى ولىّ الهداية ) أى متولى الدلالة للعباد على سلوك سبيل الهدى ، فإن الهدى هدى الله فهو مخصوص به تعالى . قال الجمل نقلا عن البيضاوى : الهداية دلالة بلطف ، ولذلك تستعمل فى الخير ، وهداية الله تعالى أنواع لا يحصيها عد ، لكنها تنحصر فى أجناس مترتبة : الأول إفاضة القوى التى بها يتمكن المرء من الاهتداء إلى مصالحه كالقوة العقلية : أى العاقلة والحواسّ الباطنة والمشاعر الظاهرة . والثانى نصب الدلائل الفارقة بين الحقّ والباطل والصلاح والفساد . والثالث الهداية بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب . والرابع أن يكشف لقلوبهم السرائر ، ويريهم الأشياء كما هى بالوحى والإلهام والمنامات الصادقة ، وهذا القسم تختص بنيله الأنبياء والأولياء انتهى .قال العلامة الكردى ، وقد يستعمل الهدى فى حقّ البارى بمعنى الدلالة . قال تعالى « وأما ثمود فهديناهم » : أى دللناهم « فاستحبوا العمى على الهدى » . ولو أوصلهم لم يستحبوا العمى على الهدى؛ والهداية فى حقّ الله تعالى بمعنى الدلالة . قال تعالى « وإنك لتهدى إلى صراط

وَالتَّوْفيقِ بِفَضْلِهِ .

فَإِنْ قِيلَ: فَلَا بُدَّ مِنْ قَدْرٍ مِنَ الدُّنْيَا لِيَكُونَ قِوَامًا لنَا، فَكَيْفَ نَزْهَدُ فِيهَا ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ الزُّهْدَ فِي الْفضُولِ مِمَّا لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي قِوَامِ الْبِنْيَةِ فَالْمَقْصُودُ الْقِوَامُ وَالْقُوَّةُ حَتَّى تَعْبُدَ اللهَ سُبْحَانَهُ لَا الْأَكْلُ وَالشُّرْبُ وَالتَّلَذُّذُ ، وَاللهُ تعالى إِنْ شاءَ أَقَامَهَا بِشَيْءٍ وَسَبَبٍ وَإِنْ شاءَ تعالى أَقامَهَا بِغَيْرِ سَبَبٍ كَالْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، ثُمَّ إِنْ كانَ بِشَيْءٍ إِنْ شاءَ فَبِشَيْءٍ حاصِلٍ عِنْدَكَ أَوْ بِطَلَبِكَ وَكَسْبِكَ ، وَإِنْ شَاءَ بِشَيْءٍ غَيْرِهِ

---

مستقيم » أى لتدل إليه . وقال تعالى « إنك لاتهدى من أحببت » : أى لا توصله إنما لك الدلالة ، وقس على ذلك ما يمرّ عليك من معنى الهداية ، كذا ذكره بعض المحققين ( والتوفيق ) وهو خلق قدرة الطاعة فى العبد مع فعل الطاعة ، لأنها عند الأشعرى العرض القارن للفعل (بفضله) أى ما تفضل به على عباده من إسداء غاية الإحسان إليهم . ( فإن قيل : فلا بد لنا من قدر ) أى قدر ما يقوّت ( من الدنيا ليكون ) هذا القدر (قواما) وقوّة (لنا) . قال فى المختار: قوام الأمر ملاكه الذى يقوم به ( فكيف نزهد فيها فاعلم أن الزهد فى الفضول ) أى يجب فى الفضول كما فى نسخة ، وهو ما زاد على الحاجة كالخيل المسوّمة ، إذ غالب الناس إنما يقتنيها للترفه بركوبها ، وهو قادر على رجليه أو على خيل أقلّ منها ، وأصناف الفضول لا تنحصر لكثرتها ، وأجمله المصنف بقوله ( مما لا يحتاج إليه فى قوام البنية ، فالمقصود القوام والقوّة حتى تعبد الله سبحانه لا الأكل والشرب والتلذّذ) والتنعم بأنواع المشتهيات ، فإن ذلك شأن السفلة الجاهلين ( والله تعالى إن شاء أقامها ) أى البنية ( بشىء وسبب ) كالأكل والشرب ( وإن شاء تعالى أقامها بغير سبب ) من المأكولات والمشروبات ، بل بالتسبيح وغيره (كالملائكة عليهم ) الصلاة و( السلام ) جمع ملك ، وهو جسم لطيف نورانىّ يظهر فى صور مختلفة ، ويقدر علي أفعال شاقة لا يقدر عليها البشر ، وهذا على مذهب من ينفى المجرّد ، ويحصر الممكن فى الجوهر والعرض ، وهو رأى أكثر الأشاعرة ؛ وأما من أثبته وهم بعض الأشاعرة : كالغزالى والراغب والحليمى ، وهو قول جميع المحققين من الصوفية ، ويعنون به ممكنا ليس بمتحيز ولا قائم بمتحيز فالملك عندهم مجرّد مخصوص بظهور الخير ودوام الذكر . وتوقف المقترح والفخر في بعض كتبه فى إثبات المجرّد ، وعلي كلّ حال فالملائكة عند الجميع عباد مكرمون مواظبون علي الطاعات لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وأل فى الملائكة للجنس أو للعهد فى قوله تعالى « إن الله وملائكته يصلون على النبىّ » أو عوض من الضمير : أي ملائكته ليطابق الآية ، كذا ذكره العلامة المهدى بن أحمد الفاسى فى شرح الدلائل ( ثم إن كان ) تعالى أقامها ( بشىء إن شاء ) ذلك ( فبشىء ) أي فإما أقامها وقوّاها بشىء ( حاصل عندك ) من غير طلب وكسب (أو) إما ( بطلبك وكسبك ، وإن شاء بشىء غيره )

يُسَيِّبْهُ لَكَ مِنْ حَيْثُ لا تَحْتَسِبُ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ مِنْكَ وَكَسْبٍ كَمَا قَالَ اللَّهُ تعالى : « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ » فَإِذًا لاَ تَحْتَاجُ بِحَالٍ إِلى طَلَبٍ وَإِرَادَةٍ ، فَإِنْ لَمْ تَقْوَ عَلَى ذَلِكَ الزُّهْدِ وطَلَبْتَ وَأَرَدْتَ فَانْوِ بِذَلِكَ الْعُدَّةَ وَالتَّقْوِّيَ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ سُبْحَانهُ وَتَعَالى ، دُونَ الشهوَةِ وَاللَّذَّةِ ، فَإِنَّكَ إِذَا نَوَيْتَ ذَلِكَ كَانَ الطَّلَبُ وَالْإِرَادَةُ مِنْكَ خَيْرًا وَطلَبًا لِلْآخِرَةِ بِالْحَقِيقَةِ لاَ لِلدُّنْيَا وَلاَ يَقْدَحُ فى زُهْدِكَ وتَجَرُّدِكَ ، فَاعْلَمْ هٰذِهِ الْجُمْلَةَ رَاشِدًا ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

---

أى غير الطلب والكسب ( يسيبه ) بضمّ الياء الأولى مع فتح السين وكسر الياء الثانية المشدّدة أى يعطيه الله ( لك من حيث لا تحتسب من غير طلب منك وكسب كما قال الله تعالى : ومن يتق الله) أى بامتثال الأوامر واجتناب النواهي (يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب ، فإذا) أى إن كان المقصود القوام والقوّة للبنية لا الأكل والشراب ( لاتحتاج بحال إلى طلب وإرادة ) للقدر المذكور من الدنيا ( فإن لم تقو على ذلك الزهد ) لضعفك ( وطلبت وأردت فانو بذلك ) أى الطلب والإرادة ( العدّة ) بضم العين : أى الاستعداد والتأهب ( والتقوّى ) أى طلب القوّة (على عبادة الله سبحانه وتعالى دون ) قصد ( الشهوة واللذة فإنك إذا نويت ذلك ) أى الاستعداد والتقوى على العبادة ( كان الطلب والإرادة منك خيرا وطلبا للآخرة بالحقيقة ) لأن ما لا يتوصل إلى الشيء إلا به فهو منه ( لا للدنيا ولا يقدح ) أى لا يعيب ولا ينقص هذا الطلب ( فى زهدك وتجردك ) للعبادة . وإن قلت فلا بد وأن أتلذذ بالأكل عند الجوع فاعلم أن ذلك لا يضرك إذا لم يكن قصدك التلذذ ، فإن شارب الماء البارد قد يستلذ الشرب ويرجع حاصله إلى زوال ألم العطش ، ومن يقض حاجته فقد يستريح بذلك ولكن لايكون ذلك مقصودا عنده ومطلوبا بالقصد فلايكون القلب منصرفا إليه كما قاله المصنف فى غيرهذا الكتاب ( فاعلم هذه الجملة ) التى ذكرناها ( راشدا ) أى إصابة للصواب ( وبالله التوفيق ) والعصمة .

[ تتمة ] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الزهادة فى الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا بإضاعة المال ولكن الزهادة فى الدنيا أن لا تكون بما فى يديك أوثق بما فى يد الله وأن تكون فى ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها أو أنها أبقيت لك» رواه الترمذى وقال غريب ضعيف من حديث أبى ذر . ورواه البيهقى فى الزهد كذلك ، ورواه أبو نعيم فى الحلية من حديث أبى الدرداء . وروى الديلمى من حديث ابن عباس « الزهد فى زمانى هذا فى الدنانير والدراهم وليأتين زمان الزهد فى الناس أنفع لهم من الزهد فى الدنانير والدراهم » . وروى أيضا من حديث أبى هريرة « الزهد أن تحب مايحب خالقك ، وأن تبغض ما يبغض خالقك وأن تتحرج من حلال الدنيا كما تتحرج من حرامها فإن حلالها حساب وحرامها عذاب وأن ترحم جميع المسلمين كما ترحم لنفسك

وأن تتحرج عن الكلام فيما لا يعنيك كما تتحرج من الحرام ، وأن تتحرج من كثرة الأكل كما تتحرج من الميتة التى قد اشتد نتنها ، وأن تتحرج من حطام الدنيا وزينتها كما تتحرج من النار ، وأن تقصر أملك من الدنيا فهذا هو الزهد فى الدنيا » فهذه الأخبار الثلاثة جامعة لحقائق الزهد

وذكر العلامة الزبيدى : أن الزهد فى الدنيا على ثلاثة أحوال : رجل قد غلبها موجودة ومفقودة ورجل قد غلبته موجودة ومفقودة ورجل قد غلبها مفقودة وغلبته موجودة ، تفسيره : أن من الناس من قهر هواه وملك نفسه وشهوته وهو قادر عليها وهى موجودة له فذلك أحرى أن يغلب نفسه فيما فقد من الدنيا وغاب عنه وهذا مقام الصديقين . والثانى قد غلبته نفسه وأهواء الهوى وأمالته الشهوات موجودة إذا قدر عليها ومفقودة له بالاهتمام بها والفكر والخواطر فيها والإرادة لها فهذا ساقط لاقط لا مقام ولا وصف ، وهذا حال الجاهلين ونعت الغافلين . والثالث قد غلبته نفسه فى الموجود من الهوى والحاضر من الشهوة فإذا غاب ذلك عنه غلبها فى العدم وملكها عند الفقد وهذا حال المجاهدين وطريق السائرين ونعت المريدين . وقيل ليحي بن معاذ : أيصل العبد إلى درجة يسلم فيها من الذنب ومن الزهد إلى درجة يستغنى فيها عن الدنيا ، فقال : هذا لا يكون لا يستغنى عن الدنيا أحد وإنما وقع التفاضل بين الناس على القليل والكثير ، فأزهدهم فيها أقلهم حظا منها ، كما لايسلم من الدنيا أحد ولكن أفضلهم أقلهم ذنبا . وكان رحمه الله يقول فى العدل قولا فصلا قال إن زهادكم يأمرونكم بأن يكون الدرهم أول شىء تتركونه من الدنيا وأنا آمركم أن يكون الدرهم آخر شىء تتركونه منها . قيل له لم ذلك ؟ قال لأن الدرهم معلق على شهوة النفس والشهوة معلقة على النفس فترك الدرهم من قبل إزالة الشهوة عن النفس بالسياسة خطأ ودخول فى الطمع لمن عنده الدرهم ووقوع البلاء حتى إذا زالت بحسن السياسة هذه الشهوة عن نفسك ذهب عنك حب الدرهم شئت أم أبيت ضرورة إذ كانت علة حبك له الشهوة والشهوة قد ذهبت وبالدرهم يتم أمر هذه السياسة فلهذا قلت : اجعل الدرهم آخر شى تتركه بعد الفراغ من النفس . واعلم أن إمساك الدرهم على هذا التدبير لايكون علاقة ولكنه يكون سياسة يصلح به . وكان يقول: راحة الأبدان فى زهد القلوب ومشقة الأبدان فى حرص القلوب . وقال طلبت الدنيا فلم أسترح وطلبت العلو فلم أسترح وطلبت العبادة والعلم فلم أسترح ودخلت فى الزهد واستوطنت الثقة بالله فاسترحت ، وكان يقول : ما دامت شهوة النفس معك فأنت مطية الدنيا وتساق المطية حيث يريد صاحبها لا حيث تريد هى ، وإذا ذهبت الشهوة فالدنيا مطيته يسوقها حيث يريد . وقال بعض أهل المعرفة : إن الله لا يرضى ممن عرفه أن يعلق بشىء دونه فإن فعل ذلك غمه الله ولوعه من ذلك حتى يرجع إليه . ويقال : إن من صح زهده فى الدنيا حتي يستوى عنده ذهبها وحجرها مشي على الماء وفيه قال الشاعر :

لو كان زهدك فى الدنيا كزهدك فى ... وصلى مشيت بلا شك علي الماء

وقال يحي بن معاذ : أولياء الآخرة ثلاثة : قانع ، وزاهد ، وصديق ، فالقانع المحترف الطالب للحلال المنفق على السبيل والسنة النازل عن جناح الرغبة فى طلب الفضول من حطام الدنيا ،

( الْعَائِقُ الثَّانِي : الْخَلْق ) ثُمَّ عَلَيْكَ وَفَّقَكَ اللهُ وَإِيَّانا لِطَاعَتِهِ بِالتَّفَرُّدِ عَنِ الْخَلْقِ

والزاهد التارك للطلب ومعه شهوته ، فإن أصاب نعيم الدنيا من غير كلفة أكل ونكح ، وإن مع صبر ورضى ، والصديق هو واجد النعيم لا يريده لمزايلة الشهوة إياه . وقال أيضا : ليس بزاهد من استخدم غيره بما يصل هو إلى فعله ، وقد قال أبو سليمان لأحمد بن أبي الحوارى إذ قال : قلت لبعض أصحابنا اسقني ماء فناولني شربة فقال لي أبو سليمان : رأيت من زهد في الدنيا يستخدم ويقول اسقني ماء . وكان يحي بن معاذ يدخل العلم والعبادة في الزهد يجعل الثلاثة كالشيء الواحد لايتم بعضه إلا ببعض ، فقال الزهد والعبادة والعلم مثل الثوب سداه الزهد ولحمته العبادة ونساجه العلم لا يلتحم الثوب بغير هذه الثلاث ، كذا لايلتحم أمر الآخرة إلا بثلاثتها . وكان يحي بن معاذ يقول : إذا وصل فرح فإذا اتصل استأنس ، فقيل له نراك بين الوصول والاتصال فتجعل الاتصال أعلى وأقرب ، فقال أضرب لكم مثل رجل سار طريقا وقصد ملكا كريما ثم وصل إليه حتى إذا قدم عليه فقد وصل ثم يتصل بمنادمة الملك شيئا بعد شيء يتقرب إليه ويقرب منه حتى يدنيه الملك ويؤنسه ؛ فالسير والتعب لقطع المنازل والفرح في الوصول والأنس في الاتصال والاتصال كان مقام أبي يزيد والوصول كان مقام يحي بن معاذ رحمه الله عليهما . وقال أبو يزيد البسطامي : حقيقة الزهد لا يكون إلا عند ظهور القدرة والعاجز لا يصح زهده وهو أن يعطيه كن ويطلعه على الاسم ويقدره على الأشياء بإظهار الكون فيزهد في ذلك حبا لله تعالي أن يعمل عمله ويتركه حبا لله تعالى أن يقوم مقام القدرة وكشف هذا المقام يخرج إلى علم غريب لا يعرف وسر عجيب لا يوصف وفقنا الله وإياكم لما يحب ، وبلغنا ما نؤمل منه بفضله ورحمته . قال المصنف رحمه الله تعالى .

﴿العائق الثاني﴾ من العوائق الأربعة التي تمنع عن العبادة ( الخلق . ثم عليك ) أي الزم ( وفقك الله وإيانا لطاعته) تعالى (بالتفرد عن الخلق) أي طلب الانفراد والعزلة والخلوة عنهم ، فالخلوة أعلى مقاما من العزلة ، ومنهم قال : الخلوة تكون من الأغيار والعزلة تكون من النفس وما تدعو إليه ويشغل عن الله ؛ فالخلوة كثيرة والعزلة قليلة ، وإليه جنح صاحب العوارف ، والمعروف الأول ، فقد كان صلي الله عليه وسلم أتم مقاما وأحسن حالا فقد حبب إليه الخلاء . وقال النووي : اختلف العلماء في العزلة والاختلاط أيهما أفضل ؛ فمذهب الشافعي والأكثرين تفضيل الخلطة لما فيها من إكساب الفوائد وشهود شعائر الإسلام وتكثير سواد المسلمين وإيصال الخير إليهم ، والتعاون على البر والتقوى وإغاثة المحتاج ، فإن كان صاحب علم أو زهد تأكد فضل اختلاطه ، وذهب آخرون إلى تفضيل العزلة لما فيها من السلامة المحققة لكن بشرط أن يكون عارفا بوظائف العبادة التي تلزمه وقال الكرماني في شرح البخاري : المختار في عصرنا تفضيل الاعتزال لندور خلو المحافل من المعاصي . وقال البدر العيني ، أنا موافق له فيما قال ، فإن الاختلاط مع الناس في هذا الزمان لا يجلب إلا الشرور . وقال أبو البقاء الأحمدي : أنا أقول بأفضلية العزلة لبعدها عن الرياء في العمل وخلو الخاطر وشهود سر الوحدانية في الأزل . قال العلامة الزبيدي : وأنا موافق لما قالوا

وَذلِكَ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُمْ يَشْغَلُونَكَ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى ما حُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ : مَرَرْتُ بِجَمَاعَةٍ يَتَرَامَوْنَ، وَوَاحِدٌ جَالِسٌ بَعِيدًا مِنْهُمْ فَأَرَدْتُ أَنْ أُكَلِّمَهُ فَقَالَ : ذِكْرُ اللهِ أَشْهَى إِلَيَّ مِنْ كَلَامِكَ ، فَقُلْتُ أَنْتَ وَحْدَكَ ؟ فَقَالَ مَعِي رَبِّي وَمَلَكَايَ فَقُلْتُ : مَنْ سَبَقَ مِنْ هٰؤُلَاءِ ؟ فَقَالَ : مَنْ غَفَرَ اللهُ لَهُ ، فَقُلْتُ : أَيْنَ الطَّرِيقُ ؟ فَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ السَّمَاءِ ، وَقَامَ وَتَرَكَنِي وَقَالَ : أَكْثَرُ خَلْقِكَ عَنْكَ شَاغِلٌ ،

---

من تفضيل العزلة لفساد الزمان والإخوان وإليه أشار المصنف بقوله ( وذلك )أي مطلوبية الانفراد عن الخلق ( لأمرين أحدهما أنهم ) أي أكثر الخلق ( يشغلونك عن عبادة الله عز وجل ) وذلك بإدخال الهموم عليك ونحوه ( علي ما حكي عن بعضهم ) أي بعض العلماء ( أنه قال مررت بجماعة يترامون ) بالسهام ويتسابقون فيها ( وواحد ) منهم ( جالس ) حال كونه ( بعيدا منهم فأردت أن أكلمه فقال ) الجالس ( ذكر الله أشهى ) أي أشد شهوة وحبا ( إلى من كلامك ، فقلت : أنت وحدك) أي منفردا بنفسك (فقال) ما أنا وحدى ، بل (معى ربي وملكاى) أي ملك اليمين والشمال ( فقلت : من سبق من هؤلاء ) الذين يترامون ( فقال ) هم ( من غفر الله له ، فقلت أين الطريق فأشار ) ذلك الجالس ( بيده نحو السماء ) لأنها قبلة الداعى ( وقام ) من مجلسه ( وتركنى وقال ) أى دعا يا ربى ( أكثر خلقك عنك شاغل ) فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالي لا يتكلم إلا منه ولا يسمع إلا فيه ، فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فانها لا تتحرك إلا بما هوفيه . وقيل لغزوان الرقاشي هبك لا تضحك فما يمنعك من مجالسة إخوانك ، . قال : إنى أصبت راحة قلبى فى مجالسة من عنده حاجتى . وقيل للحسن البصرى ههنا : أي فى مسجد البصرة رجل لم نره جالسا قط إلا وحده خلف سارية من سوارى المسجد : فقال الحسن إذا رأيتموه فأخبرونى به فنظروا إليه ذات يوم فقالوا للحسن هذا الرجل الذى أخبرناك به وأشاروا إليه ، فمضى إليه الحسن وقال له ياعبد الله أراك قد حببت إليك العزلة والانفراد فما الذى يمنعك من مجالسة الناس ؟ فقال أمر شغلنى عن الناس ، قال فما يمنعك أن تأتى هذا الرجل الذى يقال له الحسن يعنى نفسه فتجلس إليه فتستفيد منه ؟ فقال أمر شغلنى عن الناس وعن الحسن ، فقال له الحسن وما ذاك الشغل يرحمك الله ؟ قال إنى أصبح وأمسى بين نعمة وذنب فرأيت أن أشغل نفسى بشكر الله على النعمة والاستغفار من الذنب ، قال له الحسن : أنت يا عبد الله أفقه عندى من الحسن فالزم ما أنت عليه . وقال الفضيل رحمه الله : إذا رأيت الليل مقبلا فرحت به وقلت أخلو بربى : أى لقلة مخالطة الناس عامة ، وإذا رأيت الصبح قد انفجر وأدركنى استرجعت : أى قلت إنا لله وإنا إليه راجعون ، وهى كلمة تقال عند حلول المصيبة كراهية لقاء الناس ، وأن يجيئنى من يشغلنى عن ربي ، أخرجه أبو نعيم فى الحلية . وقال ذو النون المصرى قدس سره : سرور المؤمن ولذته فى الخلوة بمناجاة ربه . وقال مالك

فَالْخَلْقُ إِذًا يَشْغَلُونَكَ عَنِ الْعِبَادَةِ بَلْ يَمْنَعُونَكَ مِنْهَا ، بَلْ يُوقِعُونَكَ فِى الشَّرِّ وَالْهَلَاكِ عَلَى مَا قَالَ حَاتِمٌ الْأَصَمُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : طَلَبْتُ مِنْ هَٰذَا الْخَلْقِ خَمْسَةَ أَشْيَاءَ فَلَمْ أَجِدْهَا : طَلَبْتُ مِنْهُمُ الطَّاعَةَ وَالزَّهَادَةَ فَلَمْ يَفْعَلُوا ، فَقُلْتُ أَعِينُونِى عَلَيْهِمَا إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَلَمْ يَفْعَلُوا ، فَقُلْتُ ارْضَوْا عَنِّى إِنْ فَعَلْتُ فَلَمْ يَفْعَلُوا ، فَقُلْتُ لَا تَمْنَعُونِى عَنْهُمَا إِذًا فَمَنَعُونِى ، فَقُلْتُ لَا تَدْعُونِى إِلَى مَا لَا يَرْضَى اللَّهُ الْعَظِيمُ وَلَا تُعَادُونِى عَلَيْهِ إِنْ لَمْ أُتَابِعْكُمْ

---

ابن دينار: من لم يأنس بمحادثة الله عز وجل عن محادثة المخلوقين فقد قل علمه وعمى قلبه وضيع عمره . وقال ابن المبارك : ما أحسن حال من انقطع إلى الله عز وجل ! قال الزبيدى فى معناه أى اعتزل عن الخالطة وحبب إليه الانقطاع إلى الله بالخلوة ، وتفرغ الفكر لعبادته ، وقيل لبعض الرهبان من الاسلاميين إذ رآه منتبذا عن الناس ما أصبرك على الوحدة ! فقال ما أنا وحدى أنا جليس الله تعالى إذا شئت أن يناجيني قرأت كتابه ، وإذا شئت أن أناجيه صليت . وقيل لبعض الحكماء أى شيء أفضى بهم الزهد عن الدنيا والخلوة عن الناس أو الاعتزال عنهم ، فقال إلا الأنس بالله عز وجل . قال الزبيدى أشار بذلك إلى ثمرتهما ؛ وقيل لبعضهم ما الذى أرادوا بالخلوة واختيار العزلة ، فقال ليستدعوا : أي ليستجلوا بذلك دوام الفكرة وتثبيت العلوم الإلهية التى وهبوها فضلا فى قلوبهم ليحيوا حياة طيبة فى الدارين ويذوقوا حلاوة المعرفة بالله (فالخلق إذا) أى حين إذ كان الأمر على الأقوال المذكورات (يشغلونك عن العبادة بل يمنعونك منها بل يوقعونك فى الشر والهلاك) لأن أكثرهم لا يعلمون حقيقة العبودية ، بل يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ،وهم عن الآخرة هم غافلون ولا يتدبرونها وذلك (على ماقال) أبو عبد الرحمن (حاتم) بن علوان (الأصم رحمه الله) ويقال حاتم بن يوسف من أكابر مشايخ خراسان وكان تلميذ شقيق وأستاذ أحمد بن خضرويه ، مات سنة سبع وثلاثين ومائتين . قيل لم يكن أصم ، وإنما تصم مرة فسمى به . قال أبو القاسم القشيرى فى الرسالة : سمعت الأستاذ أبا على الدقاق رحمه الله يقول : جاءت امرأة فسألت حاتما عن مسئلة اتفق أنه خرج منها فى تلك الحالة صوت فخجلت فقال حاتم ارفعى صوتك فأرى من نفسه أنه أصم فسرت المرأة بذلك وقالت : إنه لم يسمع الصوت ، فغلب عليه اسم الصمم رحمة الله عليه (طلبت من هذا الخلق خمسة أشياء فلم أجدها) أصلا : أحدها (طلبت منهم الطاعة والزهادة) فى الدنيا (فلم يفعلوا) . وثانيها (فقلت) لهم (أعينونى عليهما إن لم تفعلوا) ذلك . (فلم يفعلوا) الاعانة على ماذكر. وثالثها (فقلت : ارضوا عنى إن فعلت) بهما (فلم يفعلوا) الإرضاء بل سخطوا على من فعلها . ورابعها (فقلت لاتمنعونى عنهما إذا) أى حين فعلت ذلك (فمنعونى) من فعلها . وخامسها (فقلت لا تدعونى إلى ما لا يرضي الله العظيم ولا تعادونى) أى لا تنتجوا العداوة لي (عليه) أي مطلوبكم من ارتكاب مالا يرضاه تعالى (إن لم أتابعكم) على ذلك المطلوب

فَلَمْ يَفْعَلُوا ، فَتَرَكْتُهُمْ وَاشْتَغَلْتُ بِخَاصَّةِ نَفْسِي . وَاعْلَمْ أَيُّهَا الْأَخُ فِي الدِّينِ أَنَّ نَبِيَّكَ مُحَمَّدًا صلى اللهُ عليه وسلم وَصَفَ زَمَانَ الْعُزْلَةِ وَبَيَّنَ نَعْتَهُ وَنَعْتَ أَهْلِهِ وَأَمَرَ فِيهِ بِالتَّفَرُّدِ وَكَانَ صلى اللهُ عليهِ وَسلم لاَ مَحَالَةَ أَعْلَمَ بِالصَّالِحِ وَأَنْصَحَ لَنَا مِنَّا لِأَنْفُسِنَا ، فَإِنْ وَجَدْتَ زَمَانَكَ عَلَى مَا وَصَفَ وَبَيَّنَ فَامْتَثِلْ أَمْرَهُ صلى اللهُ عليه وسلم وَاقْبَلْ نَصِيحَتَهُ ، وَلاَ تَشُكَّ فِي أَنَّهُ صلى اللهُ عليه وسلم كَانَ أَعْرَفَ بِمَا يَصْلُحُ لَكَ فِي زَمَانِكَ ، وَلاَ تَتَعَلَّلْ بِالْعِلَلِ الْكَاذِبَةِ

---

( فلم يفعلوا ) ترك العداوة ( فتركتهم ) جانبا ( واشتغلت بخاصة نفسى ) وهى الطاعة والزهادة فنلت وخسروا ما خسروا ، ولذلك قال أبو الدرداء رضي الله عنه : كان الناس ورقا لا شوك فيه، والناس اليوم شوك لا ورق فيه ، إن ناقدتهم ناقدوك وإن تركتهم لم يتركوك ، كذا فى القوت . وأخرجه أبو نعيم في الحلية ، أشار به إلى ماحصل من الاختلاف والتغير والفتن واتباع الأهواء . قال حجة الاسلام : وإذا كان هذا حكم زمانه وهو فى آخر القرن الأول فلاينبغى أن يشك فى أن الأخير شر . قال العلامة الزبيدى : وأنشدنا فى معناه شيخنا المرحوم السيد عبد الله بن إبراهيم الحسينى نزيل الطائف قدس سره لنفسه وكتبته من خطه :

إنما الناس كشوك نابت   كيف ينجو من بذا الشواك اشتبك

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : اتقوا الله واحذروا الناس فإنهم ما ركبوا ظهر بعير إلا أدبروه ، ولا ظهر جواد إلا عقروه ، ولا قلب مؤمن إلا خربوه : أى بأن يشغلوه عن الله تعالى بإدخال الهموم عليه : وقال بعضهم : أقلل من المعارف فإنه أسلم لدينك وقلبك ، وأخف لسقوط الحقوق عنك ، لأنه يقال كلما كثرت المعارف كثرت الحقوق ، وكلما طالت الصحبة تأكدت المراعاة وعسر القيام بالجميع ، نقله صاحب القوت ، وزاد وقال بعضهم : هل رأيت شرا إلا ممن تعرفه ؟ فكلما نقص من هذا فهو خير . ( واعلم أيها الأخ فى الدين أن نبيك محمدا صلى الله عليه وسلم وصف زمان العزلة ) اسم من الاعتزال ، وهو تجنب السوى أو الخروج عن مخالطة الخلق بالانزواء والانقطاع ، كذا ذكره الزبيدى ( وبين نعته ) فيه مرادف للوصف ( ونعت أهله وأمر ) صلى الله عليه وسلم ( فيه ) أى فى ذلك الزمان ( بالتفرد ) عن الناس ( وكان ) نبينا محمد ( صلى الله عليه وسلم لا محالة ) أى قطعا ( أعلم ) منا ( بالمصالح ) أى بالأمور التى تصلحنا فى ديننا ودنيانا ( وأنصح ) أى أشد إرادة للخير ( لنا منا لأنفسنا ، فإن وجدت زمانك على ما وصف ) رسول الله صلي الله عليه وسلم من كثرة الفتن كما يأتي ( و ) على ما ( بين ) صلى الله عليه وسلم ( فامتثل ) أنت أيها الأخ ( أمره صلى الله عليه وسلم واقبل ) بكنه الهمة ( نصيحته ولا تشك فى أنه صلى الله عليه وسلم كان أعرف بما يصلح لك ) من أمر الدنيا والدين ( فى زمانك ولا تتعلل ) أنت ( بالعلل الكاذبة ) وفى المختار

وَلاَ تُخَادِعْ نَفْسَكَ وَإلا فَأَنْتَ هَالِكٌ وَلاَ عُذْرَ لَكَ ، وَالْوَصْفُ الَّذِى ذَكَرْنَاهُ مِنْهَا مَا هُوَ فِى الْخَبَرِ الْمَشْهُورِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ : بَيْنَا

---

علله بالشيء تعليلا : أى لهاه به كما يعلل الصبى بشيء من الطعام يتجزأ به عن اللبن ، ويقال : فلان يعلل نفسه بتعلة وتعلل به: أي تلهى به (ولا تخادع نفسك وإلا) بأن تتعلل بالكاذبة وتخادع نفسك ( فأنت هالك ) أبدا إن لم يعف الله الكريم ( ولا عذر ) أى لا اعتذار ( لك ) فى ذلك . قال السمين : وأصل الخداع الإخفاء ، ومنه الأخدعان عرقان مستبطنان فى العنق ، ومنه مخدع البيت . قال الطيبي : وقد يكون الخداع حسنا إذا كان الغرض منه استدراج الغير من الضلال إلي الرشد ، ومن ذلك استدراجات التنزيل على لسان الرسل فى دعوة الأمم ( والوصف الذى ذكرناه منها ) أى العزلة : أى وصفها ( ماهو فى الخبر المشهور عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى عنهما ) هو أبو محمد ، وقيل أبو عبد الرحمن ، وقيل أبو نصير بضم النون عبد الله بن عمرو بن العاص بغير ياء هو الصحيح ابن وائل بن هاشم بن سعيد بضم السين وفتح العين ابن سهم بن عمرو ابن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى السهمى الزاهد العابد الصحابى ابن الصحابى رضى الله عنهما كان بينه وبين أبيه فى السن اثنتا عشرة سنة ، وأمه ريطة بنت منبه بن الحجاج ابن عامر بن حذيفة بن سعيد بن سهم ، أسلمت ، قالوا : وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : نعم أهل البيت : عبد الله وأم عبد الله ، أسلم عبد الله قبل أبيه ، وكان كثير العلم مجتهدا فى العبادة وتلاوة القرآن ، وكان أكثر الناس أخذا للحديث والعلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثبت فى الصحيح عن أبي هريرة قال « ما كان أحد أكثر حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منى إلا عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب » روى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعمائة حديث ، اتفق الشيخان على سبعة عشر منها ، وانفرد البخارى بثمانية ومسلم بعشرين ، وإنما قلت الرواية عنه مع كثرة ما حمل لأنه سكن مصر ، وكان الواردون إليها قليلا ، بخلاف أبى هريرة فإنه استوطن المدينة : وهي مقصد المسلمين من كل جهة ، روى عنه سعيد بن المسيب وعروة وأبو سلمة وحميد ابنا عبد الرحمن ومسروق وخلائق من كبار التابعين ، ونقلوا عنه أنه قال : حفظت عن النبى صلى الله عليه وسلم ألف مثل ، وأنه قال لخير أعلمه اليوم أحب مالى من مثليه ، من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تهمنا الآخرة ولا تهمنا الدنيا ، وإنا اليوم مالت بنا الدنيا . وشهد مع أبيه فتح الشام معه راية أبيه يوم اليرموك ، وتوفى عبد الله سنة ثلاث وستين ، وقيل خمس وستين بمصر ، وقيل سنة سبع وستين بمكة ، وقيل سنة خمس وخمسين بالطائف ، وقيل سنة ثمان وستين ، وقيل سنة ثلاث وسبعين وهو ضعيف ، وقيل توفى بفلسطين سنة خمس وستين ، وكان عمره ثنتين وسبعين سنة ، كذا فى سراج السالكين ( أنه قال: بينا ) أصلها بين فتولدت الألف من إشباع الفتحة ثم زيدت الميم وقد لا تزاد فيقال بينا ثم ضمنت معنى الشرط ، فلذا كانت لابد لها من جواب وجوابها لابد أن يكون مقرونا

نَحْنُ حَوْلَ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلم إِذْ ذُكِرَتِ الْفِتْنَةُ فَقَالَ : « إِذَا رَأَيْتُمُ النَّاسَ مَرَجَتْ عُهُودُهُمْ وَخفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ وَكَانُوا هٰكَذَا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ، قُلْتُ : مَا أَصْنَعُ عِنْدَ ذٰلِكَ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ ؟ قالَ : الْزَمْ بَيْتَكَ وَأَمْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَخُذْ مَا تَعْرِفُ وَدَعْ مَا تُنْكِرُ وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ الْخَاصَّةِ وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ » وَذَكَرَ

---

بإذ أو إذا الفجائيتين كما ذكره سيدى أحمد الدردير ( نحن حول النبي صلى الله عليه وسلم إذ ذكرت الفتنة فقال ) صلى الله عليه وسلم ( إذا رأيتم ) وفى رواية « إذا رأيت » ( الناس مرجت وفى رواية « قد مرجت » ( عهودهم ) بالميم والجيم المفتوحتين بينهما راء مكسورة : أى اختلت وفسدت وقلت فيهم أسباب الديانات كما قاله العزيزى ( وخفت ) بالتشديد : أى قلت ( أماناتهم ) جمع أمانة . وهى ضد الخيانة ( وكانوا هكذا ) وبين الراوى ماوقعت عليه الاشارة بقوله (وشبك) أى خلط صلى الله عليه وسلم ( بين أصابعه ) وفىرواية « بينأنامله » : أى أنامل أصابع يده إشارة إلى تموج بعضهم في بعض وتلبيس أمر دينهم . قال عبد الله بن عمرو ( قلت : ماأصنع عند ذلك ) أى المذكور من فساد أسباب الديانات وقلة الأمانات ( جعلنى الله فداءك ) يا رسول الله . ( قال ) صلى الله عليه وسلم ( الزم بيتك ) وفى رواية « فالزم » بالفاء : أى اعتزل الناس وامتنع عنهم كما قاله المناوى ( وأملك ) بكسر اللام وقطع الهمزة المفتوحة ، أمر من الإملاك بمعنى الشد والإحكام يعنى أمسك ( عليك لسانك ) أى احفظه وصنه ولا تتكلم فى أحوال الناس كيلا يؤذوك ، قال العلقمى : قال ابن رسلان : أى أمسكه عما لايعنيك ولاتخرجه عن فيكولا تجره إلا بما يكون لك لاعليك ، وللطبرانى « طوبى لمن ملك لسانه » ( وخذ ماتعرف ) أى من أمر دينك ( ودع ) أى اترك ( ماتنكر ) من أمر الناس المخالف للشرع ( وعليك بأمر الخاصة ) وفىرواية « وعليك بخاصة أمر نفسك » : أى استعملها فى المشروع وكفها عن النهى كما فى العزيزى ( ودع عنك أمر العامة ) أى اتركه فاذا غلب ظنك أن المنكر لايزول بإنكارك أو خفت محذورا فأنت فى سعة من تركه ، وأنكره بالقلب مع الامتناع . قال الزمخشرى : والمراد بالخاصة حادثة الوقت التي تخص الإنسان ، وهذا الحديث رواه الحاكم وقال صحيح وأقره الذهبى ، قاله ابن عبد الحق . وقال العراقى : رواه أبو داود والنسائى فى اليوم والليلة بإسناد حسن . قال الزبيدى : ورواه الطبرانى من حديث سهل ابن سعد بلفظ « كيف ترون إذا أخرتم فىزمان حثالة الناس قدمرجت عهودهم ونذورهم فاشتبكوا فكانوا هكذا وشبك بينأصابعه ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : تأخذون ماتعرفون ، وتدعون ماتنكرون ، ويقبل أحدكم على خاصة نفسه ، ويذر أمر العامة » ورواه البزار من حديث ثوبان بلفظ « كيف أنتم فى قوم مرجت عهودهم وأيمانهم وأماناتهم وصاروا هكذا وشبك بين أصابعه ؟ قالوا : كيف نصنع يا رسولالله ؟ قال اصبروا وخالقوا الناس بأخلاقهم وخالفوهم فى أعمالهم» (وذكر

فى خَبَرٍ آخَرَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصلاَةَ وَالسَّلاَمُ قالَ ذٰلِكَ أَيَّامَ الْهَرْجِ ، قِيلَ : وَمَا أَيَّامُ الْهَرْجِ ؟ قالَ : حِينَ لاَ يَأْمَنُ الرَّجُلُ جَلِيسَهُ . وَذَكَرَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فى خَبَرٍ آخَرَ لِلْحَارِثِ بْنِ عَمِيرَةَ ،

---

فى خبر آخر أنه عليه الصلاة والسلام قال ذلك ) أى أيام الفتنة كما فى الإحياء ( أيام الهرج ) بفتح فسكون : أى الاختلاف والاختلاط ، هذا معناه فى اللغة العربية ، أما على اللغة الفارسية فمعناه القتل كما قاله العلامة الحفنى . قال العلقمى : وأخطأ من قال : نسبة تفسير الهرج بالقتل للسان الحبشة وهم من بعض الرواة وإلا فهى عربية صحيحة ، ووجه الخطأ أنها لاتستعمل فى اللغة العربية بمعنى القتل إلا على طريق المجاز لكون الاختلاط مع الاختلاف يفضى كثيرا إلى القتل ، وكثيرا مايسمون الشيء باسم مايئول إليه ، واستعمال الهرج فى القتل بطريق الحقيقة هو بلسان الحبشة ، نقله العزيزى . ( قيل ) والقائل هو ابن مسعود كما فى رواية أخرى ( وما أيام الهرج ) . وفى رواية : « قلت متى الهرج يارسول الله ؟ ( قال ) صلى الله عليه وسلم ( حين لايأمن الرجل جليسه ) أى من بوائقه ودواهيه ، وتمام هذا الحديث « قلت فبم تأمرنى إن أدركت ذلك الزمان ؟ قال كف نفسك ويديك وادخل دارك . قال: قلت أرأيت يا رسول الله إن دخل على دارى قال فادخل بيتك : أى داخل الدار ، قال إن دخل علي بيتى ؟ قال فادخل مسجدك واصنع هكذا وقبض على الكوع وقل : ربى الله حتى تموت » قال العراقى: رواه أبو داود مختصرا ، والخطابى فى العزلة بتمامه ، وفى إسناده عند الخطابى انقطاع ، وصله أبوداود بزيادة رجل اسمه سالم يحتاج إلى معرفته . قال العلامة الزبيدي : إن كان هو الراوى عن ابن مسعود فهو سالم البراد أبو عبد الله الكوفى روى عنه عبد الملك بن عمير وإسماعيل بن أبى خالد وثقه صالح جرزة (وذكر ابن مسعود) الصحابى ( رضى الله عنه ) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود بن غافل بالغين المعجمة والفاء ابن حبيب الهذلى ، روى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانمائة وثمانية وأربعون حديثا ، اتفق الشيخان منها على أربعة وستين ، وانفرد البخارى بأحد وعشرين ، ومسلم بخمسة وثلاثين روى عنه ابن عمر وابن عباس وابن الزبير وأبو موسى الأشعرى وأنس وجابر وابن سعيد وعمران ابن حصين وعمر بن حريث وأبو هريرة وغيرهم من الصحابة وخلائق لا يحصون من كبار التابعين نزل الكوفة فى آخر أمره ، وتوفى بها سنة ثنتين وثلاثين ، وقيل سنة ثلاث وثلاثين ، وقيل عاد إلي المدينة ، واتفقوا علي أنه توفى وهو ابن بضع وستين سنة ، والذين قالوا : توفى بالمدينة قالوا دفن بالبقيع . قيل وصلى عليه عثمان ، وقيل الزبير ، وقيل عمار بن ياسر ، وكان من كبار الصحابة وساداتهم وفقهائهم ومقدميهم فى القرآن والفقه والفتوى وأصحاب الاتباع فى العلم ، كذا ذكره ابن عبد الحق ( فى خبر آخر للحارث بن عميرة ) بضم العين الهذلى ، ولد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، روى عن عمر وابن مسعود أحاديث ، توفى سنة سبعين ، قاله ابن عبد الحق نقلا

أَنَّهُ صلى اللهُ عليْه وسلم قالَ لَهُ : « إِنْ يُدْفَعْ عَنْ عُمْرِكَ فَسَيَأْتِى عَلَيْكَ زَمَانٌ كَثِيرٌ خُطَبَاؤُهُ قَلِيلٌ عُلَمَاؤُهُ كَثِيرٌ سُؤَّالُهُ قَلِيلٌ مُعْطُوهُ ، الْهَوَى فِيهِ قَائِدُ الْعِلْمِ ، قالَ : وَمَتَى ذَاكَ ؟ قالَ إِذَا أُمِيتَتِ الصَّلَاةُ وَقُبِلَتِ الرِّشَا وَيُبَاعُ الدِّينُ بِعَرَضٍ يَسِيرٍ مِنَ الدُّنْيَا ، فَالنَّجَاءَ النَّجَاءَ وَيْحَكَ ثُمَّ النَّجَاءَ »

---

عن أسد الغابة ( أنه صلى الله عليه وسلم قال له إن يدفع ) أى يعطى (عن عمرك ) أى إن طال عمرك ( فسيأتى عليك زمان كثير خطباؤه ) جمع خطيب ( قليل علماؤه كثير سؤاله ) جمع سائل ( قليل معطوه ، الهوى فيه ) اى فى ذلك الزمان ( قائد العلم ) من إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله ، يعنى يكون العلم فيه تابعا للهوى كما قاله ابن مسعود رضى الله عنه . قال صاحب القوت . والمراد بالعلم هو نص القرآن والسنة أو مادلا عليه واستنبط منهما أو وجد فيهما اسمه ومعناه من قول وفعل : والتأويل إذا لم يخرج من الإجماع داخل فى العلم ، والاستنباط إذا كان مستودعا فى الكتاب شهد به المجمل ولا ينافيه النص فهو علم ، والمراد من الهوى ما عدا ذلك من العلوم ، وكان أحمد بن حنبل رحمه الله يقول : تركوا العلم وأقبلوا على الغرائب ما أقل العلم ما أقل العلم فيهم ، والله المستعان، ولذلك كان الشعبى إذا نظر ما أحدث الناس من الرأى والهوى يقول : لقد كان القعود فى هذا المسجد أحب إلى مما يعدل به ، فمذ صار فيه هؤلاء الرائيون فقد بغضوا إلى الجلوس فيه ، ولأن أقعد على مزبلة أحب إلى من أن أجلس فيه ، وكان يقول ما حدثوك عن السنن والآثار نخذ به ، وما حدثوك بما أحدثوا من رأيهم فاخط عليه ، وقال مرة : فبل عليه ( قال ) ابن عميرة ( ومتى ذاك ) الزمان ( قال ) صلى الله عليه وسلم ( إذا أميتت الصلاة ) بضم الهمزة : أى أهينت كما فى نسخة بأن تركت أصلا أو فعلت لكن بلا مراعاة الشروط والأركان ( وقبلت الرشا ) جمع رشوة بالضم والكسر ، وهى ما يعطى لإبطال حق ولإحقاق باطل ، كذا فى التعريفات ( ويباع الدين بعرض يسير من الدنيا ) أى بمتاع قليل من الدنيا وهو المال ، سمى عرضا لأنه متعرض للزوال سريعا ، قاله الخازن ، فإن العرض بفتح الراء : ما لاثبات له ، ومنه استعار المتكلمون العرض لمقابل الجوهر وقال أبو عبيدة : العرض بالفتح جميع متاع الدنيا غير النقدين ، وبالسكون المال والقيم ، ومنه : الدنيا عرض حاضر وظل زائل ، نقله الجمل عن الشهاب ( فالنجاء النجاء ) مصدر بمعنى الإسراع ويجوز أن يكون ممدودا ومقصورا ، وهو من باب الإغراء منصوب بفعل محذوف ، تقديره : الزم النجاء ( ويحك ثم النجاء ) ، فى المختار : ويح كلمة رحمة ، وقيل بمعنى ويل ، وويل كلمة عذاب وقيل هما بمعنى واحد ، تقول : ويح لزيد وويل لزيد ، فترفعهما على الابتداء ، ولك أن تنصبهما بإضمار فعل تقديره ألزمه الله ويحا وويلا ونحو ذلك : ويحك وويلك ، وويح زيد ، وويل زيد منصوب بفعل مضمر انتهى ، وأيضا فيه ويل كلمة مثل ويح إلا أنها كلمة عذاب ، وفى مسند الإمام أحمد من رواية حجاج بن الأسود : سمعت أبا الصديق يحدث ثابتا عن رجل عن أبى ذر « أن

( قُلْتُ ) وَجَمِيعُ مَا ذُكِرَ فِى هٰذِهِ الْأَخْبَارِ تَرَاهُ بِعَيْنِكَ فِى زَمَانِكَ وَأَهْلِهِ ، فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ .

ثُمَّ إِنَّ السَّلَفَ الصَّالِحَ رِضْوَانُ اللّٰهِ عَلَيْهِمْ ،

---

النبي صلي الله عليه وسلم قال : إنكم فى زمان علماؤه كثير وخطباؤه قليل ، من ترك فيه عشر ما يعلم هوى أو قال هلك ، وسيأتى على الناس زمان يقل علماؤه ويكثر خطباؤه: من تمسك فيه بعشر ما يعلم نجا » . وللحديث المذكور شواهد : منها عند الترمذى من حديث أبى هريرة « إنكم فى زمان من ترك فيه عشر ما أمر هلك ، ثم يأتى زمان من عمل منهم عشر ما أمر به نجا » ، وعند الطبرانى فى الأوسط والحاكم فى التاريخ عن أبى هريرة أيضا « سيأتى زمان تكثر فيه القراء وتقل الفقهاء ، ويقبض العلم ويكثر الهرج ، ثم يأتى بعد ذلك زمان يقرأ القرآن رجال من أمتى لا يجاوز تراقيهم ، ثم يأتى بعد ذلك زمان يجادل المشرك بالله المؤمن فى مثل ما يقول » . وأخرج أبو القاسم اللالكائى فى سننه من طريق علقمة عن عبد الله قال : كيف أنتم إذا لبستم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير إذا ترك فيها شئ ؟ قيل ترك السنة ، قيل متى ذلك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : ذلك إذا ذهب علماؤكم وكثرت جهالكم وكثرت قراؤكم وقلت فقهاؤكم ، كذا نقله العلامة الزبيدى ( قلت : وجميع ما ذكر فى هذه الأخبار ) من الفتن وغيرها ( تراه بعينك فى زمانك وأهله فانظر ) أى فتفكر ( لنفسك ) أى فيما يصلح لنفسك ( ثم ) اعلم ( أن السلف الصالح ) ذوى البصائر ؛ والصالح من استقامت أفعاله وأقواله ، أو القائم بما عليه من حقوق الله وحقوق العباد ، أو الآتى بما ينبغى والمتحرز عما لا ينبغى ، كذا قاله الفاسى ، ويطلق الصالح على النبى كما يطلق على الولى إلا أن الصلاح فى الأنبياء أكمل منه فى الأولياء ( رضوان الله عليهم ) جملة خبرية اللفظ دعائية المعنى ، ورضى يتعدى بعلى كما يتعدى بعن ، قال القحيف العامرى العقيلى :

إذا رضيت على بنو قشير لعمر الله أعجبنى رضاها

أى عنى ، وقال ابن هشام : ويحتمل أن رضى ضمن معنى عطف . وقال الكسائى : حمل على نقيضه وهو سخطه كما يحمل على نظيره . قال ابن جنى : وكان أبو على يستحسن قوله ، وقد سلك سيبويه هذا الطريق فى المصادر كثيرا . وقال أبو عبيدة وغيره : إنما ساغ هذا لأن معناه أحببته وأقبلت عليه بوجه ود . قال الشيخ أبو عبد الله العربى الفارسى رحمه الله : وقد سلكوا فى الدعاء إيراد على مع المصدر سواء كان فعله يتعدى بنفسه كالرحمة واللعنة ، أم بحرف جر غير على كالرضوان ، وكأنهم راعوا وقوع المدعو به على المدعو له أو عليه ؛ نقله الفاسى فى شرح الدلائل

أَجْمَعُوا عَلَى التَّحْذِيرِ مِنْ زَمَانِهِمْ وَأَهْلِهِ وَآثَرُوا الْعُزْلَةَ وَأَمَرُوا بِذَلِكَ وَتَوَاصَوْا بِهِ وَلاَ شَكَّ أَنَّهُمْ كَانُوا أَبْصَرَ وَأَنْصَحَ وَأَنَّ الزَّمَانَ لَمْ يَصِرْ بَعْدَهُمْ خَيْرًا مِمَّا كَانَ بَلْ هُوَ أَشَرُّ مِنْهُ وأَمَرُّ ، وَهٰذَا مَا ذُكِرَ عَنْ يُوسُفَ بْنِ أَسْبَاطٍ أَنَّهُ قَالَ : سَمِعْتُ الثَّوْرِيَّ يَقُولُ : وَاللهِ الَّذِي لاَ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ لَقَدْ حَلَّتِ الْعُزْلَةُ فِي هٰذَا الزَّمَانِ ،

---

( أجمعوا ) خبر أن : أى اتفقوا ( على التحذير ) أى التخويف ( من زمانهم وأهله وآثروا ) أى أى اختاروا (العزلة) والانفراد عن الناس ( وأمروا بذلك ) أى المذكور من العزلة (وتواصوا) أى أوصى بعضهم بعضا ( به ) أى بالعزلة ( ولا شك أنهم ) أى السلف الصالحين ( كانوا أبصر ) أى أكثر بصيرة ( وأنصح ) أى أكثر نصيحة وإرادة للخير ( و ) لا شك ( أن الزمان لم يصر بعدهم خيرا مما كان ) أى مما مضى ( بل ) صار ( أشر منه وأمرّ ) أى أشد مرارة منه ( وهو ) أى زمان الشر، أى بيانه من حل العزلة والانفراد فى ذلك الزمان (ما ذكر عن يوسف بن أسباط) الشيبانى رحمه الله تعالى أقام أربعين سنة ليس له إلا قميصان إذا غسل أحدهما لبس الآخر ، وكان يعمل الخوص بيده ويتقوت حتى مات ، توفى سنة نيف وتسعين ومائة وليس على جسمه أوقية لحم ، قاله ابن عبد الحق ( أنه قال : سمعت ) سفيان بن سعيد بن مسروق ( الثورى ) الكوفى كان إماما فى علم الحديث وغيره من العلوم ، وهو من تابعى التابعين ، سمع أبا إسحاق السبيعى وعبد الملك بن عمير وعمرو بن مرة وخلائق من كبار التابعين وغيرهم ، روى عنه محمد بن عجلان والأعمش وهما تابعيان ومعمر والأوزاعى وابن أبى إسحاق ومالك وابن عيينة وشعبة والفضيل ابن عياض وأبو الأحوص وأبو إسحق الفزارى وابن المبارك وزائدة وابن مهدى ووكيع وأبو نعيم ويحيى القطان ومحمد بن يوسف الفريابى وخلائق ، وأجمع الناس على دينه وورعه وزهده وثقته ، وهو أحد الأئمة المجتهدين ، مولده فى سنة خمس ، وقيل ست ، وقيل سبع وتسعين من الهجرة ، وتوفى بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة متواريا من السلطان ، ودفن عشاء . رحمه الله ولم يعقب والثورى بفتح الثاء المثلثة وبعدها واو ساكنة وراء نسبة إلى ثور بن عبد مناة رحمه الله ( يقول : والله الذى لا إله إلا هو لقد حلت العزلة فى هذا الزمان) أخرجه أبو نعيم فى الحلية فقال : وحدثنا أحمد بن إسحاق ، حدثنا أحمد بن روح حدثنا أحمد بن عتيق سمعت يوسف بن أسباط يقول : كنت مع سفيان الثورى فى المسجد الحرام ، فقال : والله الذى لا إله إلا هو ورب هذه الكعبة لقد حلت العزلة . وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال « خذوا بحظكم من العزلة » . وقال ابن سيرين : العزلة عبادة وذلك لأنها تدعو إلى السلامة من المحظورات . وقال الفضيل بن عياض : كفى بالله محبا ، وبالقرآن مؤنسا ، وبالموت واعظا . وقيل : اتخذ الله صاحبا ودع الناس جانبا ، وروى ابن عساكر فى تاريخه من غريب المسلسل ما لفظه : أنبأنا أبو الفرج غيث بن على الخطيب ، أخبرنا أبو بكر الخطيب ، أخبرنا القاضى أبو محمد بن رامين الاستراباذى ،

قُلْتُ أَنَا : وَلَئِنْ حَلَّتْ فى زَمَانِهِ فَفِى زَمَانِنَا هـٰذا وَجَبَتْ وَافْتُرِضَتْ . وَعَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ أَيْضًا أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى عَبَّادٍ الْخَوَّاصِ رَحِمَهُمَا اللهُ : أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّكَ فى زَمَانٍ كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسلم يَتَعَوَّذُونَ بِاللهِ مِنْ أَنْ يُدْرِكُوهُ فِيمَا بَلَغَنَا وَلَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ،

---

أخبرنا عبد الله بن محمد الحميدى الشيرازى ، حدثنا القاضى أحمد بن محمود بن خرزاد الأهوازى ، حدثنا على بن محمد النصرى ، حدثنا أحمد بن محمد الحلبى قال : سمعت سريا السقطى يقول سمعت بشرا ، يعنى ابن الحارث يقول : قال إبراهيم بن أدهم وقفت على راهب فى جبل لبنان فناديته ؛ فأشرف على فقلت له عظنى ، فأنشأ يقول :

خذ عن الناس جانبا كى يعدوك راهبا
إن دهرا أظلنى قد أرانى العجائبا
قلب الناس كيف شئت تجدهم عقاربا

قال بشر: هذه موعظة الراهب لك ، فعظنى أنت ، فأنشأ يقول :

توحش من الإخوان لا تبغ مؤنسا ولا تتخذ أخا ولا تبغ صاحبا
وكن سامرى الفعل من نسل آدم وكن أوحديا ما قدرت مجانبا
فقد فسد الإخوان والحب والإخا فلست ترى إلا مزوقا كاذبا

قال سرى ، فقلت لبشر : هذه موعظة إبراهيم لك فعظنى أنت ، فساق الكلام بتمامه ، وفيه: فقال أبو بكر الخطيب ، فقلت للقاضى بن رامين هذه موعظة الحميدى لك فعظنى ، فقال اتق الله وثق به ولا تتهمه فإن اختياره لك خير من اختيارك لنفسك ، وأنشأ :

اتخذ الله صاحبا وذر الناس جانبا
جرب الناس كيف شئت تجدهم عقاربا

وقال بشر بن عبد الله : أقل من معرفة الناس فإنك لا تدرى ما يكون يوم القيامة ، فإن تكن فضيحة كان من يعرفك قليلا ، ودخل بعض الأمراء على حاتم الأصم فقال : ألك حاجة ؟ قال نعم . قال ما هى ؟ قال لا ترانى ولا أراك . قال الزبيدى : أشار بذلك إلى أن الاعتزال عنهم أسلم للدين ( قلت أنا : ولئن حلت) تلك العزلة ( فى زمانه) وهو فى أوائل القرن الثانى (ففى زماننا هذا) يعنى فى أواخر القرن الخامس (وجبت وافترضت) هما مترادفان : أى وجبت العزلة والانفراد : هذا فى زمانه رحمه الله تعالى فكيف الحال فى هذا الزمان ! فلا حول ، ولا قوة إلا بالله (و ) روى (عن سفيان ) بن سعيد ( الثورى أيضا أنه كتب إلى عباد الخواص رحمهما الله : أما بعد ) أى بعد إهداء السلام ونحوه ( فإنك فى زمان كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يتعوذون بالله من أن يدركوه ) أى هذا الزمان ( فيما بلغنا ) أى من الأخبار ( و ) الحال أن ( لهم من العلم ) بمهمات

مَا لَيْسَ لَنَا ، فَكَيْفَ بِنَا حِينَ أَدْرَكْنَاهُ عَلَى قِلَّةِ عِلْمٍ وَقِلَّةِ صَبْرٍ وَقِلَّةِ أَعْوَانٍ عَلَى الْخَيْرِ وَكَدَرٍ مِنَ الدُّنْيا وَفَسَادٍ مِنَ النَّاسِ، فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ قالَ : فى الْعُزْلَةِ رَاحَةٌ مِنَ خُلَطَاءِ السُّوءِ ، وَفى مِثْلِ هٰذَا قِيلَ :

هٰذَا الزَّمَانُ الَّذِى كُنَّا نُحَاذِرُهُ فى قَوْلِ كَعْبٍ وَفى قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودِ
دَهْرٌ بِهِ الْحَقُّ مَرْدُودٌ بِأَجْمَعِهِ وَالظُّلْمُ وَالْبَغْىُ فِيهِ غَيْرُ مَرْدُودِ
أَعْمَى أَصَمٌّ مِنَ الأَزْمَانِ مُلْتَبِسٌ فِيهِ لِإِبْلِيسَ تَصْوِيبٌ وَتَصْعِيدُ

---

الدين ( ما ليس لنا فكيف ) الحال ( بنا حين أدركناه على ) أى مع ( قلة علم وقلة صبر ) على الأذى ( وقلة أعوان ) جمع عون بمعنى معين ( على الخير ، و ) مع ( كدر ) ضد الصفو ( وفساد من الناس ، فإن عمر بن الخطاب) أمير المؤمنين مشهور جم المناقب (رضى الله عنه قال : فى العزلة راحة من خلطاء السوء ) جمع خليط ، وذلك لأن أنواع الشرور الذى يلقاه الإنسان من معارفه وممن يختلط به كثيرة ، وبالعزلة ينتفى ذلك . وقد ترجم البخارى فى الصحيح : العزلة راحة من خلطاء السوء ، وذكر حديث أبى سعيد مرفوعا « ورجل يعبد فى شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره » . وقال بعضهم لعبد الله بن الزبير ألا تأتى المدينة ؟ قال ما بقى إلا حاسد نعمة أو فرح بنقمة ، فإن رأى صاحبه فى نعمة حسده عليها، وإن رأى به نقمة فرح بها ، وكان بعضهم لزم مطالعة الكتب فى أى فن كان وزيارة المقابر فى طرف النهار ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال لم أر أسلم من وحدة ، ولا أوعظ من قبر ، ولا جليسا أمتع من دفتر ، وفى ذلك قيل :

نعم المحدث والجليس كتاب تلهو به إن خانك الأصحاب
لا مفشيا سرا إذا أودعتـه يوما إذا ما ملك الأحباب

وقال ابن السماك : كتب صاحب لنا : أما بعد فإن الناس كانوا دواء يتداوى به فصاروا داء لادواء له ففر منهم فرارك من الأسد (وفى مثل هذا) المعنى (قيل) فى الشعر من بحر البسيط ( هذا الزمان الذى كنا نحاذره ) وفى نسخة نحذره : أى نخاف منه (فى) بمعنى عن (قول كعب) بن مانع الحميرى ، ولقبه الأحبار على المشهور، وكنيته أبو إسحاق ثقة مخضرم ، كان من أهل اليمن فسكن الشام ، مات فى آخر خلافة عثمان وقد زاد على المائة . قال الحافظ ابن حجر : وليس له فى البخارى رواية ولا فى مسلم إلا حكاية ويروى كذلك عن على وابن عباس و(فى) أى عن ( قول ابن مسعود . دهر به الحق مردود بأجمعه . والظلم والبغى) مترادفان (فيه) أى الزمان (غير مردود أعمى أصم من الأزمان ملتبس) أى مختلط (فيه) خبر مقدم (لابليس تصويب) مبتدأ مؤخر والتصويب النزول . وتصعيد

إِنْ دَامَ هذَا وَلَمْ يَحْدُثْ لَهُ غِيَرٌ　　لَمْ يُبْكَ مَيْتٌ وَلَمْ يُفْرَحْ بِمَوْلُودِ

وَلَقَدْ وَجَدْتُ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ أَنَّهُ قَالَ : قُلْتُ لِلثَّوْرِيِّ أَوْصِنِي ، قَالَ : أَقْلِلْ مِنْ مَعْرِفَةِ النَّاسِ ، قُلْتُ يَرْحَمُكَ اللهُ ، أَلَيْسَ قَدْ جَاءَ فِي الْخَبَرِ : « أَكْثِرُوا مِنْ مَعْرِفَةِ النَّاسِ فَإِنَّ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ شَفَاعَةً » قَالَ : لَا أَحْسِبُكَ رَأَيْتَ قَطُّ مَا تَكْرَهُهُ إِلَّا مِمَّنْ تَعْرِفُ ، قُلْتُ أَجَلْ . ثُمَّ مَاتَ رَحِمَهُ اللهُ فَرَأَيْتُهُ

---

إن دام هذا ) الزمان (ولم يحدث له غير) بوزن عنب اسم من قولك غيرت الشيء فتغير كما في المختار (لم يبك ميت ولم يفرح بمولود) يولد . وفي بعض النسخ :

إن دام ذا الأمر لم تحزن على أحد　　منا بموت ولم نفرح بمولود

( ولقد وجدت عن) أبي محمد (سفيان بن عيينة) الهلالي، وهو من تابعي التابعين؛ سمع الزهري وعمرو بن دينار والشعبي وعبد الله بن دينار ومحمد بن المنكدر وخلائق من التابعين وغيرهم . روى عنه الأعمش والثوري ومسعر وابن جريج وشعبة وهمام ووكيع وابن المبارك وابن مهدي والقطان وحماد بن زيد وقيس بن الربيع والحسن بن صالح والشافعي وابن وهب وأحمد بن حنبل وابن المديني وابن معين وابن راهويه والحميدي وخلائق لايحصون من الأئمة ، وروى الثوري عن القطان عن ابن عيينة واتفقوا على إمامته وجلالته وعظم مرتبته ، ولد سفيان سنة سبع ومائة ، وتوفي يوم السبت غرة رجب سنة ثمان وتسعين ومائة رحمه الله تعالى ( أنه قال : قلت للثوري أوصني . قال : أقلل من معرفة الناس ) فإن التخلص منهم شديد . قال ابن عيينة ( قلت : يرحمك الله أليس قد جاء في الخبر أكثروا من معرفة الناس فان لكل مؤمن شفاعة ) . أخرج الحاكم في تاريخه عن أنس « أكثروا من المعارف من المؤمنين فإن لكل مؤمن شفاعة عند الله يوم القيامة » . ( قال ) الثوري ( لاأحسبك رأيت قط ) إذا أردت بقط الزمان فهي مشددة مضمومة أبدا غير منونة ، تقول : ما رأيت مثله قط ، فإن أردت التقليل بها فسكنها مخففة ؛ تقول: ماعندي إلا هذا قط ، فإن لقيتها همزة وصل كسرت ، تقول ماعلمت هذا قط الدهر ، وهي على كل حال تختص بالنفي في الماضي ، والعامة تقول : لاأفعله قط وهو غلط ، وسمع بعد الاثبات كنت أره قط: أي دائما ، وتوضأ ثلاثا قط ، وهو نادر لايقاس عليه (لاتكره إلا ممن تعرف . قلت أجل) حرف جواب مثل نعم . قال الأخفش : هو أحسن من نعم في التصديق ونعم أحسن منه في الاستفهام كما أفاده المختار ( ثم مات ) الثوري ( رحمه الله ) ، قال ابن عيينة ( فرأيته ) أي رأيت مثاله ، لأن المرئي في المنام إنما هو المثال ، لكن إطلاق رؤية الشخص على رؤية المثال صحيح عقلا ونقلا ؛ ثم الرؤيا المنامية منها مايرى على حقيقته فلا يحتاج إلى تعبير ، ومنها ماهو أمثلة يخلقها الله بواسطة الملك الموكل بها بتحديثه وإلقائه المعاني للروح في صور المحسوسات المتخيلة فتكون تلك الصورة

بَعْدَ مَوْتِهِ فى الْمَنَامِ بِحُجَجٍ ، فَقُلْتُ : يَا أَبَا عَبْدَ اللهِ أَوْصِنِي ، قالَ أَقْلِلْ مِنْ مَعْرِفَةِ النَّاسِ مَا أَسْتَطَعْتَ ، فَإِنَّ التَّخَلُّصَ مِنْهُمْ شَدِيدٌ . وَقَدْ قِيلَ فى مَعْنَى هٰــذَا الْخَبَرِ نَظْماً :

---

المثل بها دليلا على تلك المعانى ، وذلك كما كانت الأصوات والحروف والرقوم الكتابية دليلا على المعانى حسا وهـذه هى التى تحتاج إلى التعبير . قال المهدى بن أحمد الفاسى : قال شيخ شيوخنا جدىّ للأب والأم : أبو محمد عبد الرحمن بن محمد الفاسى رضى الله تعالى عنه : وسر جعلها فى قوالب الصور الحسية مجانسة مافى النفس من خيالات الحس وتلونها بالمحسوسات حتي لو تجردت وصفت من ذلك لكوشفت بالحقائق والمعانى صرفا من غير مثال ، ولذلك كان المثال بداية الوحى وأوائله ثم تدرج إلى المكالمة بصرف الحقائق والمعانى يقظة ونوما ، وكذلك من له نصيب من إرثه عليه الصلاة والسلام من الأولياء انتهى ( بعد موته ) أى الثورى رحمه الله ، والموت مفارقة الحياة للحى أو هو صفة يخلفها ضد لها ( فى المنام ) هو اسم مصدر نام نوما ، والنوم قال سديد الدين الكازروني . هو عبارة عن رجوع الحرارة الغريزية إلى الباطن طلبا للانضاج فلذلك يتبعها الروح النفساني وقواها ليتم ذلك الفعل . وقال غيره : النوم حال يعرض للحيوان من استرخاء الدماغ على رطوبة الأبخرة المتصاعدة من الجسد إلى الرأس بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الاحساس رأسا ، وذلك أن الأبخرة متصاعدة على الدوام من المعدة إلى الدماغ ، فمتى صادفت منه فتورا أوعيا استولت عليه وهومعدن الحس والحركة فيحصل فيه فتور وهوالسنة، فان عم الاستيلاء حاسة البصر فهو الغفوة والنوم الخفيف والنعاس ويكون صاحبه بين النائم واليقظان ، وإن عم جميع الجسد وحل بالقلب وأزال القوة والعقل فهوالنوم الثقيل ، وإنما تحصل الرؤيا كما قاله الأستاذ أبو القاسم القشيرى إذا لم يستغرق النوم جميع الاستشعار ، أفاده فى شرح الدلائل ( بحجج ) بوزن عنب جمع حجة بمعنى السنة كما فى المختار : أى بسنين أى بعد سنين ( فقلت ) له : أى لذلك المثالى المؤدى مافى الشخص الذى هو مثاله والمظهر لما عنده ( يا أبا عبد الله ) كنية الثورى رحمه الله ( أوصنى . قال : أقلل من معرفة الناس مااستطعت فان التخلص منهم شديد ) أى جدا . أما قوله فى حياته فأخرجه أبو نعيم فى الحلية من طريق ابن حنيف ، حدثنا خلف بن تميم سمعت سفيان الثورى يقول : أقلل من معرفة الناس يقل عيبك . ومن طريق ابن المقرى قال : سمعت سفيان ابن عيينة يقول : رأيت سفيان الثورى فى المنام فقلت أوصنى . فقال : أقلل من معرفة الناس أو كما قال . ومن طريق إبراهيم بن أيوب : حدثنا سفيان بن عيينة قال : رأيت سفيان الثورى فى المنام فقلت أوصنى . قال : أقلل من مخالطة الناس : قلت زدنى . قال سترد فتعلم ، ذكره العلامة الزبيدى ( وقد قيل فى معنى هذا الخبر نظما ) من بحر الطويل :

وَمَا زِلْتُ مُذْ لاَحَ الْمَشِيبُ بِمَفْرِقِي ... أُفَتِّشُ عَلَى هٰذَا الْوَرَى وَأُكَشِّفُ
فَمَا أَنْ عَرَفْتُ النَّاسَ إِلاَّ ذَمَمْتُهُمْ ... جَزَى اللهُ خَيْرًا كُلَّ مَنْ لَسْتُ أَعْرِفُ
وَمَالِيَ ذَنْبٌ أَسْتَحِقُّ بِهِ الْجَفَا ... سِوَى أَنَّنِي أَحْبَبْتُ مَنْ لَيْسَ يُنْصِفُ

قَالَ : وَقِيلَ كُتِبَ عَلَى بَابِ الدَّارِ : جَزَى اللهُ مَنْ لاَ يَعْرِفُنَا خَيْرًا ، وَلاَ جَزَى بِذٰلِكَ أَصْدِقَاءَنَا ، فَمَا أُوذِينَا قَطُّ إِلاَّ مِنْهُمْ ، وَأَنْشَدُوا فِيهِ :

جَزَى اللهُ عَنَّا الْخَيْرَ مَنْ لَيْسَ بَيْنَنَا ... وَلاَ بَيْنَهُ وُدٌّ وَلاَ نَتَعَارَفُ
فَمَا صَابَنَا هَمٌّ وَلاَ نَالَنَا أَذًى ... مِنَ النَّاسِ إِلاَّ مَنْ نَوَدُّ وَنَعْرِفُ

---

( وما زلت ) من الأفعال الناقصة ( مذلاح ) أى حين ظهر ( المشيب ) أى الشيب ( بمفرق ) بفتح الراء وكسرها : أى وسط رأسى وهو الموضع الذى يفرق فيه الشعر كما فى المختار ( أفتش ) بضم الهمزة وكسر التاء من التفتيش بمعنى التفحص ( عن هـذا الورى ) أى الخلق ( وأكشف ) أى أبين عن حالهم ( فما ) نافية ( إن ) زائدة ( عرفت الناس إلا ذممتهم ) والذم خلاف المدح ( جزى الله خيرا ) جملة دعائية ( كل من لست أعرف ) لإفادته التخفيف لسقوط الحقوق عنه لأنه يقال : كلما كثرت المعارف كثرت الحقوق ، وكلما طالت الصحبة تأكـدت المراعاة ( ومالى ذنب أستحق به ) أى الذنب ( الجفا ) بالقصر للضرورة وهو ضد البر ( سوى أنى أحببت من ليس ينصف ) بضم الياء : أى يعدل من نفسه ، بخلاف من هو متصف بالعدل من نفسه فانه الجليس الصالح الذى يذكرك الله رؤيته وسيرته وإن وجدته كذلك فالزمه واعتقد قلبك علي خلطته ولا تفارقه واغتنمه ولا تستحقره فانها غنيمة العاقل وضالة المؤمن ، وتحقق أن الجليس الصالح خير من الوحدة ، وأن الوحدة خير من الجليس السوء ، ومهما فهمت هذه المعانى ولا حظت طبعك والتفت إلى حال من أردت مخالطته لم يخف عليك أن الأولى التباعد عنه بالعزلة أو التقرب إليه بالخلطة ، وإياك أن تحكم مطلقا على العزلة أو الخلطة بأن أحدهما أولى من الآخر إذ كل مفصل ، فاطلاق القول فيه بلا أو نعم خلف محض ولا حق فى المفصل إلا التفصيل فيعطى كل ذى حق حقه كذا فى الإحياء ( قال ) ابن عيينة ( وقيل كتب على باب الدار ) أى دار الثورى ( جزى الله ) جملة دعائية ( من لا يعرفنا خيرا ولا جزى ) الله ( بذلك ) الخير ( أصدقاءنا ) جمع صديق ( فما أوذينا قط إلا منهم ، وأنشدوا ) شعرا من بحر الطويل ( فيه ) أى فى معنى المكتوب على باب الدار ( جزى الله عنا الخير من ليس بيننا. ولا بينه ود ) بضم الواو وفتحها وكسرها : أى مودة ومحبة ( ولا نتعارف . فما صابنا ) صاب من باب باع لغة فى أصاب ( هم ) وحزن ( ولا نالنا أذى . من الناس إلا من نود ) أى نحب ( و ) من ( نعرف ) من حاله .

قالَ الْفُضَيْلُ رَحِمَهُ اللهُ : هٰذَا زَمَانٌ احْفَظْ لِسَانَكَ وَأَخْفِ مَكَانَكَ .

(قال) أبو على (الفضيل) ابن عياض بن مسعود بن بشر التميمى اليربوعى الزاهد ، ولد (رحمه الله) بسمرقند ، ونشأ بابيورد وكتب الحديث بالكوفة ، ثم تحول إلى مكة فاستوطنها حتى توفى بها أول سنة سبع وثمانين ومائة . سمع سليمان التيمى وحصين بن عبد الرحمن ومنصور بن معتمر والأعمش وحميدا الطويل ويحيي الأنصارى وعبد الله بن عمر العمرى والعلاء بن المسيب ومحمد بن جعفر الصادق وعطاء بن السائب وزياد بن سعد ومسلما الأعور وأشعث بن سوار وأبا هارون العبدى وعوفا الأعرابي ومخالد بن سعيد وبيان بن بشر وأبا إسحاق الشيباني وعبد العزيز بن الرفيع ومحمد بن عجلان ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وأبان بن أبي عياش وفطر بن خليفة وليث بن أبي سليم وسفيان الثورى ويحي بن عبد الله وهشام ابن حسان وغيرهم من الأئمة ، روى عنه خلائق من الأئمة : منهم الثورى وابن عيينة ويحي القطان وحسين بن على الجعفى وابن المبارك والشافعى والحميدى والقعنبى وابن مهدى ويحي بن يحي ويحي ابن صالح ومسدد وقتيبة ويحي الحمانى ومؤمل بن إسماعيل وإسحاق بن منصور وآخرون ، وأجمعوا على توثيقه والاحتجاج به وصلاحه وزهده وورعه ونحوها من طرائق الآخرة. قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى سمعت محمد بن الحسين يقول : أخبرنا أبو بكر محمد بن جعفر قال: حدثنا الحسن بن عبد الله العسكرى قال : حدثنا ابن أخى ذرعة قال : حدثنا محمد بن إسحاق بن راهويه قال : حدثنا أبو عمار عن الفضيل بن موسى قال : كان الفضيل شاطرا يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس ، وكان سبب توبته أنه عشق جارية فبينما هو يرتقى الجدران إليها سمع تاليا يتلو « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » . فقال يارب قد آن ، فرجع فآواه الليل إلى خربة فإذا فيها رفقة ، فقال بعضهم نرتحل ، وقال قوم حتى نصبح فإن فضيلا على الطريق يقطع علينا فتاب الفضيل وأمنهم وجاور الحرام حتى مات . وقال الفضيل بن عياض : إذا أحب الله عبدا أكثر غمه ، وإذا أبغض عبدا وسع عليه دنياه . وقال ابن المبارك : إذا مات الفضيل ارتفع الحزن . وقال الفضيل : لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت علىّ ولا أحاسب بها لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مرّ بها أن تصيب ثوبه . وقال الفضيل : لو حلفت إنى مراء أحب إلىّ من أن أحلف إني لست بمراء . وقال الفضيل : ترك العمل لأجل الناس هو الرياء والعمل لأجل الناس هو الشرك . وقال أبو على الرازى : صحبت الفضيل ثلاثين سنة ما رأيته ضاحكا ولا متبسما إلا يوم مات ابنه على ، فقلت له فى ذلك ؟ فقال إن الله أحب أمرا فأحببت ذلك . وقال الفضيل : إني لأعصى الله فأعرف ذلك فى خلق حمارى وخادمى . وقال أيضا (هذا) الزمان هو (زمان احفظ) فيه (لسانك) عن الكلام الذى لا يعنيك ولا ينفعك فى الدارين (واخف) أمر من خفاه من باب رمي : أى استروا كتم (مكانك) لكيلا يشغلك الناس عن عبادة ربك لأن شأنهم كذلك

وَعَالِجْ قَلْبَكَ وَخُذْ مَا تَعْرِفُ وَدَعْ مَا تُنْكِرُ . وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ : هٰذَا زَمَانُ السُّكُوتِ وَلُزُومُ الْبُيُوتِ وَالرِّضَا بِالْقُوتِ إِلَى أَنْ تَمُوتَ .

( وَعَنْ دَاوُدَ الطَّائِيِّ ) رَحِمَهُ اللهُ : صُمْ عَنِ الدُّنْيَا وَاجْعَلْ فِطْرَكَ الْآخِرَةَ

---

كما هو ظاهر ( وعالج ) أى زاول وداو ( قلبك ) أى بأنواع الخيرات ( وخذ ماتعرف ) من الخير ( ودع ) أى اترك ( ما تنكر ) من الشر . قال الشافعى رضى الله عنه ليونس بن عبد الأعلى والله ما أقول لك إلا نصحا ، إنه ليس إلى السلامة من الناس من سبيل فانظر ماذا يصلحك فافعله ودع الناس وما هم فيه . وقال أيضا : ما من أحد إلا له محب ومبغض ، فإذا كان هكذا فكن مع أهل طاعة الله ، أخرجه البيهقى فى مناقبه . وقيل للحسن البصرى يا أبا سعيد إن قوما يحضرون مجلسك ليس بغيتهم الفائدة منك ولا الأخذ منك إلا تتبع سقطات كلامك وتعنتك فى السؤال ليعيبوك بذلك ، فتبسم الحسن وقال هون على نفسك يا ابن أخى فانى حدثت نفسى بسكنى الجنان ومجاورة الرحمن فطمعت ولم تطمع فى السلامة من الناس لأنى قد علمت أن خالقهم ورازقهم ومحييهم لم يسلم منهم فكيف أحدث نفسى بالسلامة ، ولذلك قال الثورى : رضا الناس غاية لاتدرك فأحمق الناس من طلب مالا درك فيه ، فرضا الله تعالى أولى بالطلب (وقال سفيان) بن سعيد ( الثورى ) رحمه الله ( هذا زمان السكوت ولزوم البيوت ) وزاد غيره فقال : والقناعة بأقل القوت (والرضا بالقوت) وفى نسخة: والرضا بما يقوت ( إلى أن تموت ) . وقال وهيب بن الورد : بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء : تسعة منها فى الصمت والعاشر فى عزلة الناس ، أخرجه أبو نعيم فى الحلية . وقال يوسف بن مسلم لعلى بن بكار المصيصى : ما أصبرك على الوحدة وقد كان لزم البيت فقال كنت وأنا شاب أصبر على أكثر من هذا كنت أجالس الناس ولا أكلمهم ، وقد جرى لداود الطائى هكذا فإنه جلس فى مجلس أبى حنيفة سنة ترد عليه الفتاوى والأسئلة وهو لا يكلمهم ثم اعتزل الناس، وقد علم من ذلك أن مخالطة الناس مع عدم الكلام معهم أشد من الانفراد والوحدة . وقال بعضهم : كنت فى سفينة ومعنا شاب من العلوية فمكث معنا سبع ليال لا نسمع له كلاما فقلنا له : يا هذا قد جمعنا الله وإياك منذ سبع ليال فى هذه السفينة ، ولا نراك تخالطنا ولا تكلمنا ، فأنشأ يقول :

قليل الهم لا ولد يموت ... ولا أمر يحاذره يفوت

قضى وطر الصبا وأفاد علما ... فغايته التفرد والسكوت

( وعن ) الأستاذ أبى القاسم القشيرى قال : أخبرنا عبد الله بن يوسف الأصبهانى قال أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن يحيى المزكى قال : حدثنا قاسم بن أحمد قال : سمعت ميمونا الغزال قال : قال أبو الربيع الواسطى : قلت لأبى سليمان ( داود ) بن نصير ( الطائى ) الكوفى ( رحمه الله أوصنى ) فقال ( صم عن الدنيا ) بزهدك فيها وإمساكك عن نعيمها ( واجعل فطرك الآخرة )

وَفِرَّ مِنَ النَّاسِ فِرَارَكَ مِنَ الأَسَدِ .

لأن ذلك سبب سلامة دينك وبدنك وعرضك ومعين على صومك عن الدنيا ( وفر من الناس فرارك من الأسد ) أخرج أبو نعيم قال : حدثنا إبراهيم بن عبيد الله حدثنا محمد بن إسحاق زكريا عن أبى الربيع الأعرج قال : أتيت داود الطائى وكان داود لايخرج من منزله حتى يقول المؤذن قد قامت الصلاة فيخرج فيصلى فإذا سلم الإمام أخذ نعله ودخل منزله ، فلما طال ذلك علي أدركته و فقلت له علي رسلك فوقف لى ، فقلت : أبا سليمان أوصنى ، قال : اتق الله وإن كان لك والدان فبرهما ثلاث مرات ، ثم قال فى الرابعة ويحك صم عن الدنيا واجعل الفطر موتك واجتنب الناس غير تارك لجماعتهم . وقال أيضا : حدثنا إبراهيم بن عبد الله حدثنا محمد إسحاق ، وحدثنا عبد الله ابن محمد حدثنا محمد بن عبد الحميد التيمى حدثنا عبد الله بن إدريس قال قلت لداود الطائى أوصنى فقال : أقلل من معرفة الناس ، قلت زدنى قال : ارض باليسير من الدنيا مع سلامة الدين كما رضى أهل الدنيا بالدنيا مع فساد الدين . قلت ، زدنى قال : اجعل الدنيا كيوم صمته ثم أفطر على الموت . وأما قوله فر من الناس فرارك من الأسد فأخرجه أبو نعيم من طريق عثمان بن زفر حدثنا سعيد قال : كان داود شديد الانقباض ولقد جئته يوما فى وقت الصلاة فانتظرته حتى خرج فمشيت معه والمسجد منه قريب فسلك بى غيرطريقه ، فقلت أين تريد ؟ فسلك بى فى سكك خالية حتى خرج على المسجد ، فقلت الطريق ثم أقرب عليك ، فقال يا سعيد فر من الناس فرارك من السبع ، إنه ما خالط أحد إلا نسى العهد . وأخرج أيضا من طريق حسن بن مالك عن بكر العابد قال : سمعت داود الطائي يقول : توحش من الناس كما تتوحش من السباع ، ذكره العلامة الزبيدى .

﴿ تنبيه ﴾ قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى أخبرنا الشيخ أبوعبد الرحمن السلمى رحمه الله قال أخبرنا أبوعمر بن مطر قال : حدثنا محمد بن المسيب قال : حدثنا ابن خبيق قال قال يوسف ورث داود الطائى عشرين دينارا فأ كلها فى عشرين سنة ؛ وقال : سمعت الأستاذ أبا على الدقاق رحمه الله يقول : كان سبب زهد داود الطائي أنه كان يمر ببغداد فمر يوما فنحاه المطرقون بين يدى حميد الطوسى فالتفت داود فرأى حميدا فقال داود أف لدنيا سبقك بها حميد ولزم البيت وأخذ فى الجهد والعبادة . وسمعت ببغداد بعض الفقراء يقول إن سبب زهده أنه سمع نائحة تنوح وتقول :

بأى خديك تبدى البلى وأى عينيك إذن سالا

وقيل كان سبب زهده أنه كان يجالس أباحنيفة رضى الله عنه فقال له أبو حنيفة يوما يا أبا سليمان أما الأداة فقد أحكمناها ، فقال له داود فأي شيء بقي ؟ فقال العمل به . قال داود فنازعتنى نفسى إلى العزلة . فقلت لنفسى حتى تجالسهم ولا تتكلم فى مسئلة ، قال فجالستهم سنة لا أتكلم فى مسئلة وكانت المسئلة تمر بى وأنا إلى الكلام فيها أشد نزاعا من العطشان إلى الماء البارد ولا أتكلم به ثم

وَعَنْ أَبِى عُبَيْدَةَ : « مَا رَأَيْتُ حَكِيماً قَطُّ إِلاَّ قَالَ لِى فِى عَقِبِ كَلاَمِهِ : إِنْ أَحْبَبْتَ أَلاَّ تُعْرَفَ فَأَنْتَ مِنَ اللهِ عَلَى بَالٍ . وَالْأَخْبَارُ فِى هٰذَا الْبَابِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَحْتَمِلَهَا هٰذَا الْكِتَابُ .

---

صار أمره إلى ماصار . وقيل حجم جنيد الحجام داود الطائى فأعطاه دينارا فقيل هذا إسراف فقال لا عبادة لمن لامروءة له ؛ وكان يقول بالليل : إلهى همك عطل علي الهموم الدنيوية وحال بينى وبين الرقاد ؛ وقال الأستاذ أيضا سمعت محمد بن عبد الله الصوفى يقول حدثنا محمد بن يوسف قال : حدثنا سعيد بن عمرو قال : حدثنا علي بن حرب الموصلى قال : حدثنا إسماعيل بن زياد الطائى قال : قالت جارية داود الطائى له أما تشتهى الخبز ؟ فقال : بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية . ولما توفى داود رآه بعض الصالحين فى المنام وهو يعدو فقال له مالك ؟ فقال : الساعة تخلصت من السجن فاستيقظ الرجل من منامه فارتفع الصياح بقول الناس مات داود الطائى ، وقال له رجل أوصنى : فقال عسكر الموت ينتظرونك . ودخل بعضهم عليه فرأى جرة ماء انبسطت عليها الشمس ، فقال له ألا تحولها إلى الظل ، فقال حين وضعتها لم يكن شمس وأنا أستحى أن يرانى الله أمشى لما فيه حظ نفسى . ودخل عليه بعضهم فجعل ينظر إليه ، فقال أما علمت أنهم كانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام . قال شيخ الإسلام : فيه تنبيه على كمال النصح لزائره ، ووعظه بما ينتفع به فى آخرته من ترك الفضول لعموم الخبر الصحيح « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » وهو مالا تدعو إليه حاجة دينية ، وقال العلامة محمد عبد الحق : توفى داود الطائى سنة ستين أو خمس وستين ومائة رحمه الله تعالى ( وعن أبى عبيدة ) القاسم بن سلام بتشديد اللام رحمه الله وهو معدود فيمن أخذوا الفقه عن الشافعى رضى الله عنه ، وكان إماما بارعا فى علوم كثيرة منها التفسير والقراءة والحديث والفقه واللغة والنحو والتاريخ ، توفى بمكة سنة اثنتين أو ثلاث وعشرين ومائتين ، وقال البخارى سنة أربع وعشرين وزاد غيره فى المحرم . وقال الخطيب فى تاريخ بغداد : بلغنى أنه عاش سبعا وستين سنة ( مارأيت حكيما ) وهو العالم صاحب الحكمة المتقن للأمور . قيل لايسمى الرجل حكيما حتى يجمع العلم والعمل ، وعليه قول أبى الأسود الدؤلى لبعضهم :

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها  فإذا فعلت بذا فأنت حكيم

( قط إلا قال ) الحكيم (لى فى عقب كلامه : إن أحببت أن لاتعرف) الناس ( فأنت من الله علي بال ) أى حال تحمد عاقبته ، ومن ذلك الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها والدخول فى غمارها والتعرض لأخطارها ، وقلما تخلو البلاد فى كل عصر وأوان عن تعصبات دنيوية وفتن وخصومات وشرور فالمعتزل عنهم فى سلامة منهم ( والأخبار فى هذا الباب ) أى باب العزلة ( أكثر من أن يحتملها هذا الكتاب ) المختصر المسمى [ منهاج العابدين إلي جنة

وَقَدْ صَنفنَا فِيهِ كِتابًا مُفْرَدًا وَسمّيْناهُ : [ كِتَابَ أَخْلاَقِ الْأَبْرَارِ وَالنَّجَاةِ مِنَ الْأَشْرَارِ] فَقِفْ عَلَيْهِ تَرَى الْعَجَبَ الْعُجَابَ، وَالْعَاقِلُ يُكْفِيهِ إِشارَةٌ، وَاللهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ، وَالْهِدَايَةُ بِفَضْلِهِ .

وَأَمَّا الْخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي تَقْتَضِي التَّفَرُّدَ عَنِ النَّاسِ فِي هٰذَا الشَّأْنِ أَنَّ النَّاسَ يُفْسِدُونَ عَلَيْكَ مَا يَحْصُلُ لَكَ مِنَ الْعِبَادَةِ إِنْ لَمْ يَعْصِمِ اللهُ سُبْحَانَهُ بِسَبَبِ مَا يَعْرِضُ مِنْ قِبَلِهِمْ مِنْ دَوَاعِي الرِّيَاءِ وَالتَّزَيُّنِ ، وَلَقَدْ صَدَقَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللهُ حَيْثُ قَالَ: رُؤْيَةُ النَّاسِ بِسَاطُ الرِّيَاءِ وَهٰؤُلَاءِ الزُّهَادُ قَدْ خَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ هٰذَا الْمَعْنَى

---

ربّ العالمين ] ( وقد صنفنا فيه ) أى فى هذا الباب ( كتابا مفردا وسميناه : كتاب أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار فقف ) أى فاطلع وانظر ( عليه ) أى الكتاب المفرد ( تر العجب العجاب ) أى الشىء الغريب بالنسبة لأمثاله مما هو على حجمه : قاله الشبراملسي . قال بعضهم : العجاب ماجاوز حد العجب، وأمر عجب وعجاب بتخفيف الجيم وتشديدها للمبالغة ، أى يتعجب منه وعجب عجاب مبالغة ، قال البيضاوى فى تفسير قوله تعالى « إن هذا لشىء عجاب » : أى بليغ فى العجب فإنه خلاف ماأطبق عليه آباؤنا وما نشاهده من أن الواحد لايكفى علمه وقدرته بالأشياء الكثيرة ( والقائل يكفيه إشارة ) والغافل لايفيده صريح عبارة ( والله ولىّ التوفيق والهداية بفضله ) أى منه وإحسانه [ وأما الخصلة الثانية ] من الأمرين ( التى تقتضى ) أى تطلب ( التفرّد ) أى الانفراد والعزلة ( عن الناس فى هذا الشأن ) المحمود ( أن الناس ) أى أكثرهم ( يفسدون عليك مايحصل لك من العبادة ) وهذا ( إن لم يعصمه الله ) أى يحفظه ( سبحانه بسبب مايعرض ) أى يحصل ويظهر ( من قبلهم ) بكسر القاف وفتح الباء : أى من جهتهم ( من دواعى ) أى أسباب ( الرياء والتزين ، ولقد صدق ) أبو زكريا الواعظ ( يحيي بن معاذ الرازي ) أحد رجال الطريقة ، توفى يوم الاثنين لست عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ثمان وخمسين ومائتين ( رحمه الله حيث قال : رؤية الناس بساط الرياء) بالكسر ممدودا مشتق من الرؤية : وهى النظر بحاسة البصر ؛ وقد رأى الشخص رؤية ، وأصل الرياء طلب المنزلة فى قلوب الناس بإرائهم خصال الخير فيظنون به خيرا ويكرمونه إلا أن الجاه والمنزلة تطلب فى القلب بأعمال سوى العبادات ،وتارة تطلب بالعبادات واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة فى القلوب بالعبادات وإظهارها للناس فحد الرياء هو إرادة المنزلة عند العباد بطاعة الله . فالمرائى هو العابد يرائى الناس بعبادته ، والمرائي له هم الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة فى قلوبهم ، والمراءى به هو اسم الخصال التى قصد المرائى إظهارها لهم ، والرياء هو قصده إظهار ذلك ولا يقع غالبا إلا عن غفلة عن الخالق وعمايته عنه . قال المصنف ( وهؤلاء الزهاد ) من السلف الصالحين ( قد خافوا على أنفسهم من هذا المعنى ) وهو

حَتَّى تَرَكُوا الْمُلاَقَاةَ وَالتَّزَاوُرَ ، وَلَقَدْ ذُكِرَ أَنَّ هَرِمَ بْنَ حَيَّانَ قَالَ لأُوَيْسٍ الْقَرَنِيِّ رَحِمَهُمَا اللهُ يا أُوَيْسُ صِلْنَا بِالزِّيَارَةِ وَاللِّقَاءِ فَقَالَ أُوَيْسٌ قَدْ وَصَلْتُكَ بِمَا هُوَ أَنْفَعُ لَكَ مِنْهُمَا وَهُوَ الدُّعَاءُ عَلَى ظَهْرِ الْغَيْبِ ، لِأَنَّ الزِّيَارَةَ وَاللِّقَاءَ يَعْرِضُ فِيهِمَا التَّزَيُّنُ وَالرِّيَاءُ . وَقِيلَ لِسُلَيْمَانَ الْخَوَّاصِ حِينَ قَدِمَ

---

الرياء والتزين للناس ، وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ . قال : الرياء ، يقول الله عزّ وجلّ : إذا جازى العباد بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ؟ » قال العراقي : رواه أحمد والبيهقي في الشعب من حديث محمود بن لبيد ، وقوله صلى الله عليه وسلم « استعيذوا بالله من جبّ الحزن . قيل: وما هو يارسول الله ؟ قال واد في جهنم أعدّ للقراء المرائين». قال العراقي : رواه الترمذي وقال غريب ؛ وابن ماجه من حديث أبي هريرة ، وقوله صلى الله عليه وسلم « يقول الله عزّ وجل من عمل عملا أشرك فيه غيري فهو له كله وأنا منه برئ وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك » . قال العراقي : رواه مالك في الموطأ ، وقوله صلى الله عليه وسلم « إن أدنى الرياء شرك » . رواه الطبراني ، وقوله صلى الله عليه وسلم « لا يقبل الله عملا فيه مثقال ذرة من رياء » . أخرجه أبو نعيم في الحلية إلى غير ذلك من الأخبار والآثار ( حتى تركوا ) أي هؤلاء الزهاد ( الملاقاة والتزاور ) أي زيارة بعضهم بعضا ( ولقد ذكر أن هرم ) ككتف ( ابن حيان ) أحد الأولياء المشهورين ترجمته في الحلية . قال الزبيدي : قال أحمد في الزهد حدثنا محمد بن مصعب سمعت مخلدا هو ابن حسين ذكر عن هشام ، يعني ابن حسان عن الحسين أن هرما مات في غزاة في يوم صائف فلما فرغ من دفنه جاءته سحابة حتى كانت حيال القبر فرشت القبر حتى روى لاتجاوز قطرة ثم عادت عودها على بدئها (قال لأويس) بن عامر (القرني) محركة روى له مسلم قصة مختصرة في آخر صحيحه وهو سيد التابعين قتل بصفين وله ترجمة واسعة ، وهو منسوب إلى قرن بن درعان ابن ناجية بن مراد أحد أجداده . روى عن علي مرفوعا «خير التابعين أويس» ، وروى بن عدى عن ابن عباس « سيكون في أمتي رجل يقال له أويس القرني ، وإن شفاعته في أمتي مثل ربيعة ومضر » (رحمهما الله) رحمة واسعة ( يا أويس صلنا بالزيارة واللقاء فقال أويس) يا هرم بن حيان ( قد وصلتك بما هو أنفع لك منهما ) أي الزيارة واللقاء ( وهو الدعاء على ظهر الغيب ) أي الغيب الشبيه بالظهر في القوة أو أن لفظ ظهر مقحم : أي زائد ( لأن الزيارة واللقاء يعرض ) أي قد يظهر ويحصل ( فيهما التزين والرياء ) . قال حجة الإسلام . وقيل : بينما أويس جالس إذ أتاه هرم بن حيان ، فقال له أويس : ما جاء بك ؟ قال جئت لآنس بك ، فقال أويس ما كنت أرى أن أحدا يعرف ربه فيأنس بغيره (وقيل لسليمان الخواص) رحمه الله ( حين قدم ) أبو إسحاق

إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَم أَفَلَا تَأْتِيهِ ؟ فَقَالَ لَأَنْ أَلْقَى شَيْطَانًا مَارِدًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لِقَائِهِ فَاسْتَنْكَرُوا ذَٰلِكَ مِنْ قَوْلِهِ ! فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ إِذَا لَقِيتُهُ أَنْ أَتَزَيَّنَ لَهُ وَإِذَا لَقِيتُ شَيْطَانًا امْتَنَعْتُ مِنْهُ .

---

( إبراهيم بن أدهم ) بن منصور من كورة بلخ ، كان من أبناء الملوك فخرج يوما متصيدا فأثار ثعلبا أو أرنبا وهو فى طلبه فهتف به هاتف : يا إبراهيم ألهذا خلقت ، أم بهذا أمرت ؟ ثم هتف به أيضا من قربوس سرجه . والله ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت ، فنزل عن دابته وصادف راعيا لأبيه فأخذ جبة للراعى من صوف ولبسها وأعطاه فرسه وما معه ، ثم إنه دخل البادية ثم دخل مكة وصحب بها سفيان الثورى والفضيل بن عياض ودخل الشام ومات بها سنة إحدى وستين ومائة وكان يأكل من يده مثل الحصاد وحفظ البستان وغير ذلك ، وأنه رأى فى البادية رجلا علمه اسم الله الأعظم فدعا به بعده فرأى الخضر عليه السلام وقال له إنما علمك أخى داود اسم الله الأعظم قال القشيرى : أخبرنا بذلك الشيخ أبوعبدالرحمن السلمى . قال حدثنا محمد بن الحسين بن الخشاب قال حدثنا أبو الحسين على بن محمد المصرى : قال حدثنا أبو سعيد الخراز قال : حدثنا إبراهيم ابن بشار قال : صحبت بن أدهم فقلت خبرنى عن بدء أمرك فذكر هذا ، وكان إبراهيم بن أدهم كبير الشأن فى باب الورع ، وقيل كان عامة دعائه اللهم انقلنى من ذل معصيتك إلي عز طاعتك ، وقيل لإبراهيم بن أدهم إن اللحم قد غلا فقال أرخصوه : أى لا تشتروه وأنشد فى ذلك :

وإذا غلا شىء على تركته     فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

وقال سهل بن إبراهيم صحبت إبراهيم بن أدهم فمرضت فأنفق على نفقته فاشتهيت شهوة فباع حماره وأنفق على ثمنه ، فلما تماثلت : أى قاربت البرء من مرضى قلت يا إبراهيم أين الحمار ؟ فقال بعناه فقلت فعلى ماذا أركب ؟ فقال يا أخى على عنق فحملنى ثلاث منازل ( أفلا تأتيه فقال ) الخواص ( لأن ألقى شيطانا ما ردا ) أى عاتيا عاصيا ذا إقدام وجرأة وبلوغ الغاية فى الشر ؛ كذا ذكره الفاسى ( أحب إلى من لقائه ) أى ابن أدهم ( فاستنكروا ) أى الحاضرون عند الخواص صدور (ذلك) المذكور (من قوله) أى الخواص مع جلالة قدر إبراهيم بن أدهم وورعه (فقال) الخواص بيانا لذلك الكلام الذى صدر منه ( إنى أخاف إذا لقيته ) أى ابن أدهم ( أن أتزين له ) فى كلامي وتصنعت فى أحوالى ( وإذا لقيت شيطانا امتنعت منه ) لأنه عدو مبين ، ومثل ذلك ما وقع للفضيل ابن عياض رحمه الله كان جالسا وحده في المسجد الحرام ، فجاء إليه أخ له فى الله تعالى ، فقال له الفضيل ما جاء بك؟ قال المؤانسة يا أبا على قال هى والله بالمواحشة أشبه منها بالمؤانسة هل تريد إلا أن تتزين لى فى كلامك وأتزين لك فى كلامى وتكذب لى وأكذب لك ؟ إما أن تقوم عنى وإما أن أقوم عنك ؛ كذا فى الإحياء . وأخرج أبونعيم نحوه فى الحلية من طريق أحمد بن إبراهيم الدورقى حدثنا على بن الحسين قال : بلغ فضيلا أن جريرا يريد أن يأتيه قال فأقفل الباب من خارج فجاء

وَلَقَدْ لَقِيَ شَيْخِي الْإِمَامُ بَعْضَ الْعَارِفِينَ فَتَذَاكَرَا مَلِيًّا ثُمَّ دَعَوَا فِي آخِرِ حَدِيثِهِمَا فَقَالَ شَيْخِي الْإِمَامُ للعارفِ ما أَظُنَّنِي جَلَسْتُ مَجْلِساً أَنَا بِهِ أَرْجَى مِنْ مَجْلِسِي هَذَا فَقَالَ لَهُ الْعَارِفُ لَكِنِّي مَاجَلَسْتُ مَجْلِساً أَنَا لَهُ أَخْوَفُ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا ، أَلَسْتَ تَعْمِدُ إِلَى أَحْسَنِ حَدِيثِكَ وَعُلُومِكَ فَتُحَدِّثُنِي بِهَا وَتُظْهِرُهَا بَيْنَ يَدَيَّ وَأَنَا كَذَلِكَ فَقَدْ وَقَعَ الرِّيَاءُ فَبَكَى شَيْخِي الْإِمَامُ مَلِيًّا ثُمَّ غُشِيَ عَلَيْهِ فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَمَثَّلُ بِهَذِهِ الْأَبْيَاتِ :

يَاوَيْلَتَا مِنْ مُوقِفٍ مابِهِ ... أَخْوَفُ مِنْ يَعْدِلُ الْحَاكِمُ

أُبَارِزُ اللهَ بِعِصْيَانِهِ ... وَلَيْسَ لِي مِنْ دُونِه رَاحِمُ

يَارَبِّ عَفْوًا مِنْكَ عَنْ مُذْنِبٍ ... أَسْرَفَ إِلَّا أَنَّهُ نَادِمُ

يَقُولُ فِي اللَّيْلِ إِذَا مَادَجَى ... آهاً لِذَنْبٍ سَتَرَ الْعَالِمُ

---

جرير فرأى الباب مقفلا فرجع قال عليّ فبلغني ذلك فأتيته فقلت جرير ؟ فقال ما يصنع بي يظهر لي محاسن كلامه وأظهر له محاسن كلامي فلا يتزين لي ولا أتزين له خير له (ولقد لقي شيخي الإمام) أبو بكر الوراق رحمه الله تعالى ( بعض العارفين فتذاكرا ) أي شيخي الإمام والعارف ( مليا ) أي زمانا واسعا ، وفي المختار الملي : الزمان الطويل ، ومنه قوله تعالى « واهجرني مليا » ( ثم دعوا ) أي شيخي والعارف ( في آخر حديثهما فقال شيخي الإمام للعارف ما أظنني ) أي ما أظن نفسي ( جلست مجلسا ) هو مقر الناس في بيوتهم ومحل اجتماعهم ( أنا له ) أي للمجلس ( أرجى ) أي أشد رجاء ( من مجلسي هذا فقال له العارف لكنني ما جلست مجلسا أنا له أخوف ) أي أشد خوفا ( من مجلسي هذا ألست ) يا أبا بكر الوراق ( تعمد ) أي تقصد من باب ضرب ( إلى أحسن حديثك وعلومك فتحدثني بها ) أي بالحديث والعلوم ( وتظهرها بين يدي وأنا كذلك ) أي مثل حالك من التحدث بالعلوم والإظهار بها ( فقد وقع الرياء فبكى شيخي الإمام مليا ) أي زمانا طويلا ( ثم غشي عليه فكان ) شيخي ( بعد ذلك ) البكاء ( يتمثل ) أي ينشد تكرارا ( بهذه الأبيات ) وهي ( ياويلتا ) أي هلاكنا وهو مصدر لافعل له من لفظه بل من معناه وهو هلك ( من موقف مابه ) أي ليس ذلك الموقف ( أخوف من أن يعدل الحاكم ) أي أشد وأكثر خوفا من عدله ( أبارز الله ) أي أظهر إليه تعالى ( بعصيانه و ) الحال أنه ( ليس لي من دونه ) أي غيره تعالى ( راحم يا رب ) أسألك ( عفوا منك عن مذنب ) اسم فاعل : أي مرتكب الذنب ( أسرف ) فعل ماض صفة مذنب : أي جاوز الحد ( إلا أنه ) أي لكنه ( نادم ) على الذنوب ( يقول في الليل إذا ما دجي ) وما زائدة ودجي من باب سما : أي إذا أظلم الليل ( آها ) بالمد مع تنوين الهاء : كلمة تحسر وتوجع كما صرح به الحريري في مقاماته ( لذنب ستر العالم )

فَهٰذِهِ حَالُ أَهْلِ الزُّهْدِ وَالرِّيَاضَةِ فِى مُلَاقَاتِهِمْ فَكَيْفَ حَالُ أَهْلِ الرَّغْبَةِ وَالْبَطَالَةِ بَلْ حَالُ أَهْلِ الشَّرِّ وَالْجَهَالَةِ .

اُعْلَمْ أَنَّ الزَّمَانَ قَدْ أَصْبَحَ فِى فَسَادٍ عَظِيمٍ وَأَصْبَحَ النَّاسُ فِى ضُرٍّ كَثِيرٍ فَإِنَّهُمْ يُشْغِلُونَكَ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى حَتَّى لَا يَكَادُ يَحْصُلُ لَكَ مِنْهَا شَىْءٌ ثُمَّ يُفْسِدُونَ عَلَيْكَ مَا حَصَلَ لَكَ حَتَّى لَا يَكَادُ يَسْلَمُ لَكَ مِنْهَا شَىْءٌ فَلَزِمَتْكَ الْعُزْلَةُ وَالتَّفَرُّدُ عَنِ النَّاسِ وَالْاسْتِعَاذَةُ بِاللهِ مِنْ شَرِّ هٰذَا الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ وَاللهُ تَعَالَى الْحَافِظُ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا حُكْمُ الْعُزْلَةِ وَالتَّفَرُّدِ عَنِ النَّاسِ فَبَيِّنْ لَنَا حَالَ طَبَقَاتِ الْخَلْقِ فِيهَا وَالْحَدَّ الَّذِى يَجِبُ مِنْهَا ؟ فَاعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ وَإِيَّانَا أَنَّ النَّاسَ فِى هٰذَا الْبَابِ رَجُلَانِ رَجُلٌ

---

سبحانه وتعالى ( فهذه ) الحال المذكورة ( حال أهل الزهد والرياضة ) أى رياضة النفس وتذليلها وتهذيب الأخلاق ( فى ملاقاتهم ) أى لقاء بعضهم بعضا مع أنهم أعرف بما ينفعهم فى الدنيا والآخرة ( فكيف حال أهل الرغبة ) فى الدنيا (والبطالة) بفتح الباء : أى التعطل والإهمال عن العبادة لربهم (بل) كيف (حال أهل الشر والجهالة) الذين هم كالأنعام يأكلون ألوان الطعام ويتكلمون أنواع الكلام الذى لا يعنيهم فى أخراهم أولئك شرار خلق الله تعالى (اعلم) أرشدك الله (أن) هذا (الزمان) يعنى زمان المصنف (قد أصبح) أى صار (فى فساد عظيم) لعدم انقياد أهله للحق وإعراضهم عن الطاعات وانهماكهم فى الشهوات واللذات ( وأصبح الناس فى ضر كثير فإنهم ) أى الناس : أى أكثرهم (يشغلونك عن عبادة الله تعالى ) بل قد يمنعونك عنها رأسا ( حتى لا يكاد ) أى لا يقرب ( يحصل لك منها شىء ثم يفسدون عليك ما حصل لك ) من العبادة ( حتى لا يكاد يسلم لك منها شىء فلزمتك ) أى وجبت عليك ( العزلة والتفرد عن الناس ) لأن فى العزلة النجاة من الفتن والخصومات ومن شر الناس ومن مشاهدة الثقلاء والسلامة من طمع الناس فيك ومن طمعك فى الناس ، فإن انقطاع طمع الناس عنك فيه فوائد ، فإن رضا الناس غاية لا تدرك ، فاشتغال المرء بإصلاح نفسه أولى ، وإن انقطاع طمعك عنهم فيه فائدة جزيلة فإن من نظر إلى زهرة الدنيا وزينتها تحرك حرصه وانبعث بقوة الحرص طمعه ، ومهما اعتزل لم يشاهد وإذا لم يشاهد لم يشته ولم يطمع ، أفاده العلامة محمد نووى الجاوى (و) لزمتك أيضا ( الاستعاذة بالله من شر هذا الزمان وأهله ) . قال بعض المحققين : ومن لطائف الاستعاذة أنه إقرار من العبد بالعجز والضعف واعتراف منه بقدرة البارى عز وجل وأنه الغنى القادر على دفع جميع المضرات والآفات ( والله تعالى الحافظ ) أولياءه عن اقتحام المعاصى والزلات (بفضله ورحمته . فإن قيل فما حكم العزلة والتفرد عن الناس فبين) أنت (لنا حال طبقات الخلق ) أى مراتبهم وحالاتهم (فيها) أى فى العزلة (و) بين لنا ( الحد الذى يجب منها ، فاعلم رحمك الله وإيانا أن الناس فى هذا الباب ) أى باب العزلة والانفراد عن الناس ( رجلان ) : الأول ( رجل

لَا حَاجَةَ بِالْخَلْقِ إِلَيْهِ فِى عِلْمٍ وَبَيَانِ حُكْمٍ فَالْأَوْلَى بِهٰذَا الرَّجُلِ التَّفَرُّدُ عَنِ النَّاسِ ، فَلَا يُخَالِطُهُمْ إِلَّا فِى جُمُعَةٍ أَوْ جَمَاعَةٍ أَوْ عِيدٍ أَوْ حَجٍّ أَوْ مَجْلِسِ عِلْمٍ بِالسُّنَّةِ أَوْ حَاجَةٍ فِى مَعِيشَةٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ ذٰلِكَ وَإِلَّا فَيُوَارِى شَخْصَهُ وَيَلْزَمُ كِنَّهُ لَا يَعْرِفُ وَلَا يُعْرَفُ ، فَأَمَّا إِنْ أَحَبَّ هٰذَا الرَّجُلُ أَنْ يَنْقَطِعَ عَنِ النَّاسِ فَلَا يُخَالِطُهُمْ فِى أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ أَلْبَتَّةَ مِنْ دِينٍ أَوْ دُنْيَا وَجَمَاعَةٍ وَجُمُعَةٍ أَوْ غَيْرِهِمَا لِمَا يَرَى لَهُ فِى ذٰلِكَ مِنْ مَصْلَحَتِهِ وَفَرَاغِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَسَعُهُ ذٰلِكَ إِلَّا بِأَحَدِ أَمْرَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَصِيرَ

---

لا حاجة بالخلق إليه ) أى الرجل ( فى علم وبيان حكم، فالأولى ) أى الأفضل والأحق ( بهذا الرجل التفرد عن الناس فلا يخالطهم إلا فى ) حضور ( جمعة ) لأنه قد ورد فى تركه وعيد فى أخبار صحيحة ( أو جماعة ) أى حضورها فى سائر الصلوات أيضا ، إذ لا رخصة في تركه إلا لخوف ضرر ظاهر كعدو يرتقبه فى طريقه سواء كان إنسانا أو حيوانا أو غريما يلازمه بحيث يقاوم مايفوت من فضيلة الجماعة ويزيد عليه وذلك لا يتفق إلا نادرا والنادر لا حكم له كما صرح به الزبيدى ( أو عيد ) للفطر والأضحى ( أو حج ) أى سفره إن استطاع إليه سبيلا كما هو ظاهر ( أو ) حضور ( مجلس علم بالسنة ) أى الطريقة النبوية ( أو ) طلب ( حاجة فى معيشة ) أى ما يعيش به ( لابد له ) أى لذلك الرجل ( من ذلك ) الحاجة فيه ( وإلا ) أى وإن لم ينفرد عن الناس بل أقام بينهم ( فيوارى ) أى يستر ( شخصه ) أى نفسه ( ويلزم كنه ) بكسر الكاف : أى بيته المخفي . قال فى المصباح : كننته أكنه من باب قتل ستره فى كنه بالكسر وهو السترة ( لا يعرف ) الرجل أحدا من الناس ( ولا يعرف ) لأحد منهم ، ولهذا قيل للفضيل بن عياض رحمه الله : إن عليا ابنك يقول لوددت أنى فى مكان أرى الناس ولا يرونى ، فبكى الفضيل وقال : يا ويح على أفلا أتمها ، فقال لا أراهم ولا يروني أخرجه صاحب الحلية . قال الزبيدى : أشار بذلك إلى أن المقام الثاني أفضل وأعلى درجة إذ فى رؤيته للناس شغل كبير عن الله تعالى . وقال ابن عباس رضى الله عنهما: أفضل المجالس مجلس فى قعر بيتك لا ترى أحدا ولا ترى أنت لأحد ( فأما إن أحب هذا الرجل أن ينقطع عن الناس ) بالكلية ( فلا يخالطهم فى أمر من الأمور ) المطلوبة ( ألبتة ) أى قطعا ( من دين أو دنيا وجماعة وجمعة وغيرها ) أى الدين والدنيا ( لما يرى ) بالبناء للمفعول : أى للأمر الذى يراه الرجل : أي يعتقده ( له ) أى لنفسه ( فى ذلك ) أى فى انقطاعه عن الناس وعدم مخالطتهم فى الأمر ( من مصلحته ) بيان لما ( وفراغه ) للعبادة بسبب فراره من الشواغل الدنيوية ( فإنه ) أى الحال والشأن هذا جواب قوله فأما إن أحب ( لا يسعه ) أى لا يجوز له ( ذلك ) أى المذكور من الانقطاع وعدم المخالفة ( إلا بأحد أمرين ) : الأول ( إما أن يصير ) أى يذهب الرجل

إلى مَوْضِعٍ لا يَلْزَمُهُ هُنَالِكَ هٰذِهِ الْفُرُوضُ كَرُءوسِ الْجِبالِ وَبُطُونِ الْأَوْدِيَةِ وَنَحْوِها، وَلَعَلَّ هٰذَا أَحَدُ الْوُجُوهِ الَّتِي دَعَتِ الْعِبادَ إِلَى تِلْكَ الْمَوَاضِعِ الْبَعِيدَةِ عَنِ النَّاسِ ، وَإِمَّا أَنْ يَتَيَقَّنَ بِالْحَقِيقَةِ أَنَّ الضَّرَرَ الَّذِي يُلْحِقُهُ فِي مُخَالَطَةِ النَّاسِ بِسَبَبِ هٰذِهِ الْفُرُوضِ أَعْظَمُ مِنْ تَرْكِهَا فَحِينَئِذٍ يَكُونُ لَهُ عُذْرٌ فِي تَرْكِها ؛ وَلَقَدْ رَأَيْتُ أَنَا بِمَكَّةَ حَرَسَهَا اللّٰهُ بَعْضَ الْمَشَايِخِ الْمُنْفَرِدِينَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَهُوَ لَا يَحْضُرُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ فِي الْجَمَاعَاتِ مَعَ قُرْبِهِ مِنْهُ وَسَلَامَةِ حَالِهِ ، فَحَاوَرْتُهُ فِي ذٰلِكَ يَوْماً فِي حَالِ تَرَدُّدِي إِلَيْهِ فَذَكَرَ

---

( إلى موضع لا يلزمه هنالك هذه الفروض ) المذكورة كالجمعة وغيرها وذلك ( كرءوس الجبال ) وشعابها ( وبطون الأودية ونحوها ) من المواضع البعيدة عن العمران ( ولعل هذا ) أى عدم لزوم هذه الفروض فى الموضع المذكور ( أحد الوجوه التى دعت ) أى حملت وبعثت ( العباد ) جمع عابد من العبادة ( إلى ) الإقامة والملازمة فى ( تلك المواضع البعيدة عن الناس ) كما وقع لبعض السلف الصالحين أنه ترك الجمعة والجماعة وبعضهم فارق الأمصار وانحاز إلى القرى فاتخذها دارا ، وبعضهم انحاز إلى قلل الجبال وشعابها ، وقيل : كان مالك بن أنس رضى الله عنه يشهد الجنائز ويعود المرضى ويعطى الإخوان حقوقهم ، فترك ذلك واحدا واحدا بالتدريج كلها واستمر على العزلة نحو اثنتى عشرة سنة ، وأقام عليه أهل عصره النكير وكثر فيه الكلام ، وكان إذا سئل عن انفراده يقول : لا يتهيأ للمرء أن يخبر بكل عذر ، فرب عذر ينبغى عدم إفشائه . وكان سعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد قد لزما بيوتهما بالعقيق فلم يكونا يأتيان المدينة لجمعة ولا غيرها حتى ماتا بالعقيق ، وكل ذلك تفرغا للعبادة وفرارا من الشواغل الدنيوية كما ذكره حجة الإسلام وغيره ( و ) الثانى من الأمرين ( إما أن يتيقن ) أى الرجل المعتزل ( بالحقيقة أن الضرر الذى يلحقه فى مخالطة الناس ) كالتأذى منهم وغيره ( بسبب هذه الفروض أعظم من تركها ) أى الفروض ( فحينئذ ) أى حين إذ تيقن ذلك ( يكون له ) أى للمعتزل ( عذر ) مرخص ( فى تركها ) وهذا العذر خاصّ له لأن العذر إما عامّ وإما خاص . قال العلامة العنانى : العموم والخصوص بالنسبة للأشخاص لا للأزمنة ، فالعام هو الذى لا يختص بواحد دون آخر والخاص بخلافه . قال المصنف رحمه الله ( ولقد رأيت أنا بمكة حرسها الله ) جملة دعائية بزيادة الحراسة عليها وإلا فهى محروسة ( بعض المشايخ المنفردين من أهل العلم وهو لا يحضر المسجد الحرام فى الجماعات مع قربه ) أى بعض المشايخ ( منه ) أى من المسجد الحرام ( و ) مع ( سلامة حاله ) من الأعذار الحسية ( فحاورته ) أى راجعته فى الكلام . قال بعضهم : حاوره محاورة وحواراً جاوبه وراجعه فى الكلام ( فى ذلك ) أى فى عدم الحضور مع قرب المكان ( يوما ) من الأيام ( فى حال ترددى إليه ) أى إلى البعض ( فذكر

مِنْ عُذْرِهِ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ وَهُوَ أَنَّ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الثَّوَابِ لاَ يَفِي بِمَا يَلْحَقُهُ مِنَ الآثَامِ وَالتَّبِعَاتِ فِى الْخُرُوجِ إِلَى الْمَسْجِدِ وَلِقَاءِ النَّاسِ . قُلْتُ أَنَا وَجُمْلَةُ الْأُمُورِ فَلاَ عَتْبَ عَلَى الْمَعْذُورِ ، وَاللهُ تعالى أَعْلَمُ بِالْعُذْرِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ، وَلٰكِنَّ الطَّرِيقَ الْعَدْلَ فِيهِ هُوَ الْأَوَّلُ بِأَنْ يُشَارِكَ النَّاسَ فِى الْجُمْعَةِ وَالْجَمَاعَاتِ وَضُرُوبِ الْخَيْرَاتِ وَيُبَايِنَهُمْ فِيمَا سِوَى ذٰلِكَ ، فَإِنْ أَحَبَّ الطَّرِيقَ الثَّانِىَ بِأَنْ يَنْقَطِعَ عَنِ النَّاسِ بِمَرَّةٍ فَسَبِيلُهُ الْخُرُوجُ إِلَى مَوَاضِعَ لاَ تَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ هٰذِهِ الْفُرُوضُ ثَمَّ ، لِأَنَّ الطَّرِيقَ الثَّالِثَ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مَعَ النَّاسِ فِى مِصْرٍ وَاحِدٍ وَلاَ يَحْضُرُ جُمُعَةً وَلاَ جَمَاعَةً لِعُذْرٍ يَرَاهُ فِى ذٰلِكَ مِنْ وِزْرٍ أَوْ تَبِعَةٍ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ دَقِيقٍ وَعَوَارِضَ عَظِيمَةٍ حَتَّى يَسْقُطَ ذٰلِكَ عَنْهُ

---

البعض ( من عذره ما أشرنا إليه وهو ) أى ما أشرناه من الكلام ( أن ما يحصل له ) أى للبعض ( من الثواب ) أى الأجر والجزاء على العمل ( لا يفى بما يلحقه ) أى ما يلحق البعض بل يقصر عنه ولا يوازيه ( من الآثام ) بيان لما جمع إثم وهو الذنب ( والتبعات ) جمع تبعة : وهى حقوق الآدميين ( فى الخروج ) للجماعات ( إلى المسجد ) الحرام ( ولقاء الناس ) فى الطريق وغيره . ( قلت أنا : وجملة الأمور ) أى حاصل الكلام فيها ( فلا عتب ) أى لا لوم ولا ذم ( على المعذور ) بما ذكر عن بعض المشايخ ( والله تعالى أعلم بالعذر وهو عليم بذات الصدور ) أى بما فى القلوب من العزم على فعل المعصية والطاعة ( ولكن الطريق العدل ) أى الصواب ( فيه ) أى فى ذلك المعذور ( هو الأول ) وهو (بأن يشارك) المعذور (الناس فى) حضور ( الجمعة والجماعات وضروب ) أى أنواع ( الخيرات ويباينهم ) أى يفارقهم ( فيما سوى ذلك ) أى المذكور من الجمعة وما بعدها ( فإن أحب ) أى المعذور واختار ( الطريق الثانى ) وهو ( بأن ينقطع عن الناس بمرة ) يعنى بالكلية فلا يعرف الناس ولا يعرفونه ( فسبيله ) أى طريق المعذور فى الانقطاع عنهم ( الخروج ) والارتحال ( إلى مواضع ) بعيدة كرءوس الجبال والمفازة ( لا تتوجه ) أى تستقبل ( عليه ) أى المعذور ( هذه الفروض ) المذكورة ( ثم ) بفتح الثاء : أى فى تلك المواضع البعيدة ( لأن الطريق الثالث ، وهو أن يكون مع الناس فى مصر واحد ) أى فى بلد واحد أو قرية واحدة ، ومع ذلك ( لايحضر جمعة ولا ) يحضر ( جماعة لعذر ) من الأعذار المعنوية ( يراه ) أى يرى المعذور ذلك العذر ( فى ذلك ) أى فى عدم الحضور إلى الجمعة والجماعة ( من وزر ) أى إثم ( أو تبعة ) أى ما يتبعه ( عليه ) أى على المعذور من الحقوق ( فإنه ) أى الطريق الثالث ، وهذا خبر قوله لأن الطريق ( يحتاج إلى نظر ) أى تأمل ( دقيق وعوارض ) أى ما يعترضه عليه من آفات ( عظيمة حتى يسقط ذلك ) أى المذكور من الفروض ( عنه ) أى عن الشخص المعذور

وَفِيهِ خَطَرٌ مِنَ الْغَلَطِ ، فَالْأَوَّلاَنِ أَسْلَمُ وَأَحْفَظُ لَهُ ، وَاللهُ وَلِيُّ الْهِدَايَةِ بِفَضْلِهِ .

وَأَمَّا الرَّجُلُ الثَّانِي : فَرَجُلٌ يَكُونُ قُدْوَةً فِي الْعِلْمِ بِحَيْثُ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِ دِينِهِمْ لِبَيَانِ حَقٍّ أَوْ رَدٍّ عَلَى مُبْتَدِعٍ أَوْ دَعْوَةٍ إِلَى خَيْرٍ بِفِعْلٍ أَوْ بِقَوْلٍ أَوْ نَحْوِ ذَٰلِكَ ، فَلاَ يَسَعُ مِثْلَ هَٰذَا الرَّجُلِ الْاعْتِزَالُ عَنِ النَّاسِ

---

(و) حاصل الكلام يثبت (فيه) أى فى الطريق الثالث (خطر من الغلط) وهو ضد الصواب (فالأولان) أى الطريق الأول والثانى ( أسلم وأحفظ له ) أى للشخص من الطريق الثالث ( والله ولى الهداية بفضله ) ومنته ( وأما الرجل الثانى فرجل يكون قدوة ) بكسر القاف ويجوز ضمها ، كذا قاله الرشيدى كما فى المصباح وعكس ذلك فى المصباح : أى يقتدى به ( فى العلم ) ومثل هذا الرجل كما قاله حجة الإسلام وغيره المحتاج إلى تعلم ما هو فرض عليه إما عينا أو كفاية فهو عاص بالعزلة لفواته وإن تعلم الفرض وكان لا يتأتى منه الخوض فى العلوم ورأى الاشتغال بالعبادة فليعتزل فإن ذلك القدر يكفيه وإن كان يقدر على التبرز فى علوم الشرع والعقل ويتأتى منه تحصيلها فالعزلة فى حقه قبل التعلم غاية الخسران ، ولهذا قال إبراهيم بن يزيد النخعى وغيره من أهل العلم : تفقه ثم اعتزل ، قال الزبيدى : أى حصل من علوم الشرع ما تؤدى به فرضك ليكون بناء أمرك على أساس محكم ، ومن اعتزل قبل التعلم لما هو لازم عليه فهو فى الأكثر مضيع أوقاته إما بنوم فى غالب أوقاته أو فكر فى هوس واختلاط ، وغايته أن يستغرق الأوقات بأوراد من أذكار وأحزاب يستوعبها ولا ينفك فى أعماله بالبدن والقلب عن أنواع من الغرور يغره الشيطان بها يخيب سعيه ويبطل عمله من حيث لا يدري ولا ينفك اعتقاده فى الله عز وجل وصفاته عن أوهام وأباطيل يتوهمها فى نفسه ويأنس بها ويألف إليها وعن خواطر فاسدة تعتريه فيها ولا يكاد يتخلص منها فيكون فى أكثر أحواله ضحكة للشيطان وهو يرى نفسه من العباد ويتخيل إليه أنه فى زمرتهم فالعلم هو أصل الدين وأساسه الذى لا يتم إلا به فلا خير إذا فى عزلة العوام والجهال ، بل الأفضل فى حقهم الاختلاط ومعاشرة أهل العلم ليتعلموا ما وجب عليهم ، أعني بهؤلاء من لا يحسن العبادة فى الخلوة ولا يعرف جميع ما يلزمه فيها ولو بطريق التقليد ؛ فمثال النفس مثال مريض يفتقر إلى طبيب متلطف ليعالجه فالمريض الجاهل إذا خلا بنفسه عن الطبيب قبل أن يتعلم الطب تضاعف لا محالة مرضه فلا تليق العزلة إلا بالعالم الماهر ؛ وأما كون الرجل مقتدي به فى العلم فهذا ( بحيث يحتاج الناس إليه ) أى المقتدي به ( فى أمر دينهم لبيان حق أو رد على مبتدع أو دعوة إلى خير بفعل أو بقول أو نحو ذلك ) أي من الخصلة الحميدة ( فلا يسع ) أى لا يجوز ( مثل هذا الرجل ) الذي يكون قدوة للناس ( الاعتزال ) أى الانفراد ( عن ) مخالطة ( الناس ) لأن ما ذكر من التعليم والتعلم أعظم العبادات فى الدنيا ولا يتصور ذلك إلا بالمخالطة مع الناس فإن الانسان لا يتعلم بنفسه فلا بد من

بَلْ يَنْصِبُ نَفْسَهُ بَيْنَهُمْ نَاصِحًا لِخَلْقِ اللهِ تَعَالَى ذَابًّا عَنْ دِينِ اللهِ تَعَالَى مُبَيِّناً لِأَحْكَامِ اللهِ ، فَلَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم أَنَّهُ قالَ : « إِذَا ظَهَرَتِ الْبِدَعُ وَسَكَتَ الْعَالِمُ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ » هذَا إِذَا كَانَ بَيْنَهُمْ ، وَإِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْنِهِمْ فَلاَ يَجُوزُ لَهُ أَيْضًا الِاعْتِزَالُ . وَلَقَدْ حُكِيَ أَنَّ الْأُسْتَاذَ أَبَا بَكْرِ بْنَ فَوْرَكَ رَحِمَهُ اللهُ قَصَدَ أَنْ يَنْفَرِدَ لِعِبَادَةِ اللهِ عَنِ النَّاسِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ فِي بَعْضِ الْجِبَالِ إِذْ سَمِعَ صَوْتاً يُنَادِي : يَا أَبَا بَكْرٍ إِذْ صِرْتَ مِنْ حُجَجِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ تَرَكْتَ عِبَادَ اللهِ ،

---

شيخ يريه طريق العلم ، وكذا التعليم يحتاج إلى تعديه للغير فلا بد من المخالطة ( بل ينصب ) بكسر الصاد من باب ضرب : أي يقيم ( نفسه بينهم ) أي الناس ( ناصحا ) أي مريدا للخير ( لخلق الله تعالى ذابا ) أي مانعا للباطل ( عن دين الله تعالى مبينا ) ومظهرا ( لأحكام الله ) جمع حكم وهو لغة : إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه . واصطلاحا: خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين من حيث إنهم مكلفون: أي كلامه القائم بذاته المتعلق بأفعال العباد تعلقا تنجيزيا كالمتعلق بالمكلفين ، أو تعلقا معنويا كالمتعلق بغير المكلفين فانه متعلق بهم بمعنى أنهم إذا كلفوا خوطبوا به على سبيل التنجيز ، أفاده الشوبرى ( فلقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا ظهرت البدع ) أي المذمومة المخالفة للشرع كما قاله العزيزى ( وسكت العالم ) عن علمه ( فعليه لعنة الله ) أى الإبعاد والطرد عن رحمته تعالى ، وهذا الحديث لم أظفر له بسند لكن معناه صحيح ، فنى الجامع الصغير « إذا ظهرت البدع ولعن آخر هذه الأمة أولها فمن كان عنده علم فلينشره فان كاتم العلم يومئذ ككاتم ما أنزل الله على محمد فليلجم يوم القيامة بلجام من نار » . رواه ابن عساكر فى تاريخه عن معاذ بن جبل ( هذا ) أى عدم جواز الاعتزال ( إذا كان ) أى الرجل المقتدى به مقيما ( بينهم وإذا خرج من بينهم فلا يجوز له أيضا ) أى كما لايجوز إذا كان مقيما عندهم ( الاعتزال ) بل هو أكبر الكبائر إن صودف طالب لله تعالى ومتقرب فى العلم إلي الله تعالى ، لأن منع العلم عن أهله ظلم كما قاله حجة الإسلام ( ولقد حكى أن الأستاذ أبا بكر بن فورك ) هو محمد بن الحسن بن فورك المتكلم الأصولى الأديب النحوى الواعظ الأصبهاني بلغت مصنفاته فى أصول الفقه والدين ومعاني القرآن قريبا من مائة مصنف ، وكانت وفاته سنة ست وأربعمائة . وفورك بضم الفاء وسكون الواو وفتح الراء وبعدها كاف وهو اسم علم كذا فى سراج السالكين ( رحمه الله ) رحمة واسعة ( قصد أن ينفرد لعبادة الله عن ) مخالطة ( الناس فبينما هو فى بعض الجبال إذ سمع ) جواب بينما ( صوتا ينادى يا أبا بكر إذ صرت من ) جملة من قام بحجة دينية من ( حجج الله ) بضم الحاء جمع حجة أى أدلة دينه ( على خلقه ) يعنى أن كلامه حجة لهم كالأدلة التى تثبت بها الأحكام لعلمهم بأن مايقوله هو المنقول كما أفاده العلامة الشبراملسي ( تركت عباد الله ) من غير أن تعلمهم فرائض

فَرَجَعَ وَكَانَ هٰذَا سَبَبَ صُحْبَتِهِ لِلْخَلْقِ . وَذَكَرَ لِى مَأْمُونُ بْنُ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ الْأُسْتَاذَ أَبَا إِسْحَاقَ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ لِعُبَّادِ جَبَلِ لُبْنَانَ : يَا أَكَلَةَ الْحَشِيشِ تَرَكْتُمْ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسلم فى أَيْدِى الْمُبْتَدِعَةِ وَاشْتَغَلْتُمْ هَاهُنَا بِأَكْلِ الْحَشِيشِ ، قَالُوا لَهُ : إِنَّا لَا نَقْوَى عَلَى صُحْبَةِ النَّاسِ ، وَإِنَّمَا أَعْطَاكَ اللهُ قُوَّةً فَلَزِمَكَ ذٰلِكَ ، فَصَنَّفَ بَعْدَ ذٰلِكَ كِتَابَهُ : [ الْجَامِعَ لِلْجَلِيِّ وَالْخَفِيِّ ] وَكَانَ لَهُمْ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ مَعَ غَزَارَةِ عِلْمِهِمُ الْعَمَلُ الْجَمُّ وَالنَّظَرُ الدَّقِيقُ فى سُلُوكِ طَرِيقِ الْآخِرَةِ . وَاعْلَمْ أَنَّ مِثْلَ هٰذَا الرَّجُلِ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهِ النَّاسُ فى طُرُقِ بَابِ الدِّينِ يَحْتَاجُ فى صُحْبَةِ الْخَلْقِ إِلَى أَمْرَيْنِ شَدِيدَيْنِ : أَحَدُهُمَا صَبْرٌ طَوِيلٌ

---

دينهم ونوافله ( فرجع ) أبو بكر إلى مخالطتهم ( وكان هذا ) أى سماع النداء ( سبب صحبته للخلق . وذكر لى مأمون بن أحمد رحمه الله أن الأستاذ أبا إسحاق ) إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الاسفرايني الملقب بركن الدين الفقيه الشافعي المتكلم الأصولى ، توفى سنة ثمان عشرة وأربعمائة ( رحمه الله قال لعباد ) جمع عابد ( جبل لبنان ) بضم اللام جبل بالشام كما فى القاموس ( يا أكلة الحشيش ) جمع آكل : أى الذين يأكلون الكلأ اليابس ( تركتم أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى أيدى المبتدعة واشتغلتم ههنا ) أى فى جبل لبنان ( بأكل الحشيش ، قالوا ) أى العباد ( له ) أى للأستاذ ( إنا لانقوى على صحبة النـاس ) ومخالطتهم ( وإنما أعطاك الله قوة ) عليها ( فلزمك ذلك ) أى المذكور من الصحبة والمخالطة ( فصنف ) الأستاذ ( بعد ذلك ) أى بعد سماع الجواب من عباد لبنان بقولهم : لا نقوى على الصحبة ( كتابه الجامع للجلى والخفى ) أى للظاهر والباطن ( وكان لهم ) أى لعباد لبنان ( رضى الله عنهم مع غزارة ) أى كثرة ( علمهم العمل الجم ) أى الكثير ( والنظر الدقيق فى سلوك طريق الآخرة . واعلم أن مثل هذا الرجل ) المقتدى به فى العلم ( المحتاج إليه الناس فى طرق باب الدين يحتاج فى صحبة الخلق ) ومعاشرتهم ( إلى أمرين شديدين : أحدهما صبر طويل ) على مايناله من الأذى الحاصل من صحبتهم ، وهو مقام شريف أثنى الله عليه فى كتابه وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له ، فقال عز من قائل « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » فجعل سبحانه وتعالى الصابرين أئمة المتقين ، وقرن الصبر باليقين ، وأن بالصبر واليقين ينال الأمانة فى الدين . وقال تعالى « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر فقد أوجب الجزاء للمتصف به بغير حساب وحد ، ودل ذلك على أنه من أفضل المقامات ، وقال تعالى « واصبروا إن الله مع الصابرين » فهذا إخبار منه تعالى أنه معهم .

قال العلامة الزبيدي : أي معية تتضمن حفظهم ونصرهم وتأييدهم ليست معية عامة ، أعنى معية العلم والإحاطة ، ومن كان معه الله غلب كمن كان معه عدة ، وهـذا كما قال « وأنتم الأعلون والله معكم » واستقصاء جميع الآيات فى مقام الصبر يطول . وأما الأخبار الواردة فى فضيلة الصبر فقد قال صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف الإيمان » . رواه أبو نعيم والخطيب والبهقي في الشعب من حديث ابن مسعود ، وقال صلى الله عليه وسلم « الصبر كنز من كنوز الجنة » هكذا ذكره الغزالى وقال صلى الله عليه وسلم « فى الصبر على ماتـكره خير » ، قال العراقي : رواه الترمذى من حديث ابن عباس ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو كان الصبر رجلا لـكان كريما والله يحب الصابرين »قال العراقى رواه الطبراني من حديث عائشة. وقال المسيح عليه السلام «إنـكم لاتدركون ماتحبون إلا بصبركم على ما تـكرهون » وقيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : ياداود تخلق بأخلاق وإن من أخلاقي أني أنا الصبور . نقله صاحب الرسالة . وقال على كرم الله وجهه : بنى الإيمان على أربع دعائم : اليقين ، والصبر ، والجهاد ، والعدل ، وكان حبيب بن أبى حبيب إذا قرأ هذه الآية « إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب » بكى وقال : واعجباه أعطى وأثنى : أى هو المعطى الصبر وهو المثنى . قال الزبيدى : والرب إذا أثنى على أعمال عباده فقد أثنى على فعل نفسه ، لأن أعمالهم من خلقه ، والأخبار والآثار فى ذا الباب مما لاتحصى ، وفيما ذكرناه كفاية لأولى الألباب : واعلم أن الصبر فى اللغة : الحبس والـكف فى ضيق ، ومنه قتل فلان صبرا إذا أمسك وحبس للقتل . قال تعالى « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم » الآية : أى احبس نفسك معهم ، وهو ضربان : ضرب بدني ، ويقال له الجسمى أيضا ، وذلك كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها على قدر قوة البدن ، ونهايته معلومة وأكثرها لذوى الجسوم الخشنة ، وليس ذلك بفضيلة تامة ، ولهذا قال الشاعر :

والصبر بالأرواح يعرف فضله    صبر الملوك وليس بالأجسام

وهو إما بالفعل كتعاطى الأعمال الشاقة : إما من العبادات كأن يصلى حتى ترم رجلاه أو يصوم مواصلا حتى تسقط قوته ، أو من غيرها كالمشى الـكثير ورفع الحجر الثقيل ، وإما بالاحتمال وهو الانفعالى كالصبر على الضرب الشديد بالمقارع والمرض العظيم والجراحات الهائلة ، وذلك قد يكون محمودا إذا وافق الشرع نصا أو قياسا أو استحبابا ولـكن المحمود التام هو الضرب الآخر ، وهو الصبر النفسى وذلك بأن يكف النفس عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى وبه تتعلق الفضيلة . ثم هذا الصبر ضربان : إن كان صبرا عن تناول شهوة البطن والفرج سمى عفة ، فالعفة لاتتعلق إلا بالقوى الشهوية ، ولا تتعلق من القوى الشهوية إلا بالملاذ الحيوانية وهى المعلقة بالغارين البطن والفرج دون الألوان الحسنة والألحان الطيبة والأشكال المنتظمة ، والعفة أس الفضائل وإنما تتعلق بضبط القلب عن التطلع للشهوات البدنية ، ومن اعتقاد ما يكون جالبا للبغى والعدوان ، وتمامها يتعلق بحفظ الجوارح ، وإن كان عن احتمال مكروه وهو الضرب الثانى ، فهذا قد اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المـكروه الذى غلب عليه الصبر ، وأخصر من ذلك اختلفت أساميه بحسب اختلاف مواقعه فان كان ذلك فى نزول مصيبة اقتصر به على اسم الصبر ولم يتعدّ به هذا الاسم

وَحِلْمٌ عَظِيمٌ وَنَظَرٌ لَطِيفٌ

---

وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع والحزن ، وهو إطلاق دواعى الهوى ليسترسل فى رفع الصوت وضرب الخدود ولدم الصدور وشق الجيوب وغيرها مما يشاكلها وإن كان ذلك فى احتمال الغنى ، فقد سمى ضبط النفس وتضاده حالة تسمى البطر . وقال بعضهم : ضبط النفس فى الأشياء الملذة ، والصبر يقال فى الأشياء المحزنة . وقال بعضهم : بل هما فى الأسماء المترادفة على معنى واحد ، وإن كان ذلك فى حرب ومقاتلة سمى شجاعة ويضاده الجبن ؛ وإن كان فى كظم وهو إمساك النفس عن قضاء وطر الغضب سمي حلما ويضاده التذمر بالذال المعجمة ؛ وإن كان فى بذل المال وإنفاقه سمى سخاء ويضاده التبذير ؛ وإن كان ذلك فى نائبة من نوائب الزمان مضجرة : أى مقلقة سمى سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر وإن كان فى إخفاء كلام وإمساكه فى الضمير سمى كتمان السر وسمى صاحبه كتوما ويضاده الإفشاء ؛ وإن كان من فضول العيش سمى زهدا ويضاده الحرص ؛ وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ويضاده الشره ، فأكثر أخلاق الإيمان داخل فى الصبر ولذلك لما سئل عليه الصلاة والسلام مرة عن الإيمان قال هو الصبر ، لأنه أكثر أعماله وأعزها فحينئذ أقسام الصبر مختلفة باختلاف متعلقاتها ؛ ومن يأخذ المعانى من الأسامي يظن أن هذه الأحوال مختلفة فى ذواتها وحقائقها من حيث رأى الأسامى مختلفة ، وهذا نظر قاصر ؛ والذى يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله مما أفيض به على بصيرته يلحظ المعاني أوّلا فليطلع على حقائقها الأصلية ، ثم يلاحظ الأسامى فإنها وضعت دالة على المعانى ؛ فالمعانى هى الأصول والألفاظ هى التوابع ، ومن يطلب الأصول من التوابع لابد وأن يزل قدمه ، وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى : « أفمن يمشى مكبا » يعثر كل ساعة ويخر « على وجهه أهدى » لوعرة طريقه واختلاف أجزائه ، ولذلك قابله بقبوله «أم من يمشى سويا» قائما سالما من العثار «على صراط مستقيم» مستوى الأجزاء والجهة . فإن الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات فكان سببا لعثارهم ، نسأل الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه آمين ( وحلم ) بكسر الحاء : أى ضبط النفس عند هيجان الغضب كما يأتي ( عظيم ونظر لطيف ) أى رفيق بالناس . واعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ ، لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم : أى تكلف الحلم ، لأن صيغة التفعل فى الأكثر للتكلف ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ويحتاج فى دفعه إلى مجاهدة شديدة ورياضة بليغة ، ولكن إذا تعوّد ذلك مدة صار ذلك اعتيادا فلا يهيج الغيظ بقوة ، وإن هاج يوما فلا يكون فى كظمه تعب لخفة وطأته وهو الحلم الطبيعى ، ولذا عبر عنه بعضهم بأنه الطمأنينة عند سورة الغضب ، ومنهم من قال هو ضبط النفس والطبع عند هيجان الغضب ، وفى معناه من قال : هو احتمال الأذى أو رفع المؤاخذة عن مستحقها بجناية فى حق مستعظم ، وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل بحيث لا تثور إلا حيثما يأمر العقل ، ولكن ابتداؤه التحلم وكظم الغيظ تكلفا . قال صلى الله عليه وسلم

وَٱسْتِعَانَةٌ بِاللّٰهِ تعَالَى دَائِمَةٌ . وَالثَّانِى : أَنْ يَكُونَ فِى هٰذَا الْمَعْنَى مُنْفَرِدًا عَنْهُمْ ، وَإِنْ كَانَ بِالشَّخْصِ مَعَهُمْ ، فَإِنْ كَلَّمُوهُ كَلَّمَهُمْ ، وَإِنْ زَارُوهُ عَظَّمَهُمْ

---

« إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتحر الخير يعطه ومن يتوق الشر يوقه » قال العراقى : رواه الطبراني من حديث أبي الدرداء . وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم « اللهم أغنى بالعلم وزينى بالحلم وأكرمنى بالتقوى وجملنى بالعافية » . قال الزبيدى رواه ابن النجار فى التاريخ ، والرافعى فى تاريخ قزوين من حديث ابن عمر . وقال عطاء بن أبي رباح : «يمشون على الأرض هونا» : أى حلما . وقال ابن أبي حبيب فى قوله تعالى « وكهلا » قال الكهل : منتهي الحلم ، وقال مجاهد : « وإذا مروا باللغو مروا كراما » : أى إذا أوذوا صفحوا . قال عمر رضى الله عنه : تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم . وقال على رضى الله عنه : ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك وأن لا تباهى الناس بعبادة الله وإذا أحسنت حمدت الله تعالى وإذا أسأت استغفرت الله تعالى . أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب والأدلة فى بيان فضيلة الحلم كثيرة وفيما ذكرنا كفاية لذوى العقول ( واستعانة بالله تعالى دائمة ) فى جميع أقواله وأفعاله ( والثانى ) من الأمرين الشديدين ( أن يكون ) الرجل المقتدى به فى العلم ( فى هذا المعنى ) أى من صحبة الناس ( منفردا ) بالقلب ( عنهم وإن كان بالشخص ) أى بالجسم ( معهم ) وفى الأثر : خالطوا الناس بأعمالهم وزايلوهم بالقلوب . كذا فى القوت؛ وأخرج العسكرى فى الأمثال من حديث ثوبان : خالطوا الناس بأخلاقكم وخالفوهم (فإن كلموه) أى إن كلم الناس للرجل بكلام حسن ( كلمهم ) أى وافق ذلك الرجل إياهم في الكلام ، لأن الموافقة فى الكلام والفعل والشفقة قوام الأخوة وأساسها كما قاله حجة الإسلام . قال أبو عثمان الحيرى : موافقة الإخوان خير من الشفقة عليهم : أى التى فيها المخالفة كما صرح به الزبيدى ؛ ولأن المخالفة والمماراة مذمومة ، وفى حديث أبي أمامة الباهلي رضى الله عنه قال « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتمارى فغضب وقال : ذروا المراء لقلة خيره ، وذروا المراء فإن نفعه قليل وإنه يهيج العداوة بين الإخوان» . قال العراقى أخرجه الطبرانى فى الكبير وقال بعض السلف : من لاحى الإخوان وماراهم قلت مروءته وذهبت كرامته ، وفى حديث على رضى الله عنه قال « من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوته وحرمت غيبته » كذا نقله الزبيدى عن القوت . وقال عبد الله بن الحسن البصرى : إياك ومماراة الرجال فإنك لن تعدم مكر حليم أو مفاجآة لئيم ( وإن زاروه عظمهم ) وأكرمهم بأنواع التعظيم والإكرام مع البشاشة والاستبشار وإظهار الفرح وقبول المنة وإذا رجعوا من مكانه شيعهم . قال الحسن البصرى رحمه الله : من شيع أخاه فى الله بعث الله له ملائكة من تحت عرشه يوم القيامة يشيعونه إلى الجنة ، كذا فى القوت ؛ ومعنى التشييع أن يتبعه عند رحيله إكراما له كما قاله الزبيدى

عَلَى قَدْرِهِمْ وَشُكْرِهِمْ ، وَإِنْ سَكَتُوا عَنْهُ وَأَعْرَضُوا عَنْهُ اسْتَغْنَمَ ذَلِكَ مِنْهُمْ ، وَإِنْ كَانُوا فِى حَقٍّ وَخَيْرٍ سَاعَدَهُمْ ، وَإِنْ صَارُوا إِلَى لَغْوٍ وَشَرٍّ خَالَفَهُمْ وَهَجَرَهُمْ بَلْ رَدَّ عَلَيْهِمْ وَزَجَرَهُمْ إِنْ رَجَا قَبُولَهُمْ ، ثُمَّ يَقُومُ بِجَمِيعِ حُقُوقِهِمْ مِنَ الزِّيَارَاتِ وَالْعِيَادَاتِ

---

( على قدرهم ) أى وذلك التعظيم على اختلاف مرتبة الزائرين ؛ وهو كما قال بعضهم : كن مع أبناء الدنيا بالأدب ، ومع أبناء الآخرة بالعلم ، ومع العارفين كيف شئت كذا فى القوت . قال العلامة الزبيدى : والمراد بالعلم معرفة الفقه الباطن ومن جملته حفظ الخواطر الرديئة (وشكرهم) أى شكر المزور فعل الزائرين وأثنى لهم بما يعرف من محاسن أحوالهم فإن ذلك من أعظم الأسباب فى جلب المحبة ، وكذلك الثناء على أولادهم وأهلهم حتى على علمهم وتصنيفهم وجميع ما يفرحون به وذلك من غير كذب وإفراط كما قاله بعض المحققين ( وإن سكتوا ) أى الخلق ( عنه ) أى عن التكلم بهذا الرجل ( وأعرضوا عنه ) أى عن الرجل بأن لم يقبلوا عليه ( استغنم ) أى طلب الغنيمة (ذلك) السكوت والإعراض (منهم) وذلك بأن يشتغل فى وظائفه الخاصة به ( وإن كانوا فى حق وخير ) من أنواع الطاعات ( ساعدهم ) أى عاونهم ، وفى المختار المساعدة المعاونة ( وإن صاروا إلى لغو وشر خالفهم ) لأنه ليس من الوفاء بالصحبة موافقتهم فيما يخالف الحقّ الصريح فى أمر يتعلق بالدين بل من الوفاء لهم المخالفة فيه كما صرحّ به حجة الاسلام ( وهجرهم ) أى تركهم فى الصحبة والمخالطة ؛ وعليه قيل : مقاطعة الأحمق قربان إلى الله تعالى ، وقد جاء فى بعض الأخبار : إياك أن تصحب جاهلا فتجهل بصحبته أو غافلا عن مولاه متبعا لهواه فيصدّك عن سبيله فتردى كما قال تعالى « فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لايعلمون » ( بل رد عليهم ) أفعالهم القبيحة ( وزجرهم ) أى نهاهم عن ذلك ونصحهم بأن يذكر آفات ذلك الفعل وفوائد تركه ويخوفهم بما يكرههم فى الدنيا والآخرة لينزجروا عنه وينبههم على عيوبهم ، ولكن ينبغى أن يكون ذلك فى سر لايطلع عليه أحد فما كان على الملأ فهو مقابح وفضيحة ، وما كان فى السر فهو شفقة ونصيحة . وقال الشافعى رضى الله عنه : من وعظ أخا سرا فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشأنه ، وذلك ( إن رجا قبولهم ) لذلك الزجل والنصح ( ثم يقوم بجميع حقوقهم من الزيارات ) لقوله صلى الله عليه وسلم « مازار رجل رجلا فى الله شوقا إليه ورغبة فى لقائه إلا ناداه ملك من خلفه طبت وطاب ممشاك وطابت لك الجنة » قال العراقى رواه ابن عدى من حديث أنس ، وقوله صلى الله عليه وسلم « إن رجلا زار أخا له فى الله فأرصد الله له ملكا فقال أين تريد ؟ قال أريد أن أزور أخى فلانا ، فقال لحاجة لك عنده ؟ قال لا ، قال لقرابة بينك وبينه ؟ قال لا ، قال فبنعمة له عندك ؟ قال لا ، قال فبم ؟ قال أحبه فى الله ، قال فان الله أرسلنى إليك يخبرك بأنه يحبك لحبك إياه وقد أوجب لك الجنة » قال العراقى رواه مسلم عن أبى هريرة ( والعيادات ) لمرضاهم

وَقَضَاءِ الْحَاجَاتِ الَّتِي تُرْفَعُ إِلَيْهِ مَا أَمْكَنَهُ وَلاَ يُطَالِبُهُمْ بِالْمُكَافَآتِ

فالمعرفة : أى التعرف والاسلام كافيان فى إثبات الحق ونيل فضله . قال الزبيدى : والظاهر أن كلا منهما شرط ، فاذا عدم أحدهما سقط حق العيادة ، وقد جاءت فى فضيلة العيادة أخبار : منها قوله صلى الله عليه وسلم « من عاد مريضا قعد فى مخارف الجنة » أى مجانى ثمارها «حتى إذا قام وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى الليل » قال العراقي رواه أصحاب السنن والحاكم من حديث علي . وقوله صلى الله عليه وسلم « إذا عاد الرجل المريض خاض فى الرحمة ، فاذا قعد عنده قرت» قال العراقى رواه الحاكم والبيهقي من حديث جابر. وقوله صلى الله عليه وسلم «إذا عاد المسلم أخاه أو زاره قال الله تعالى طبت وطاب ممشاك وتبوأت منزلا فى الجنة » : قال العراقى رواه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة . قال حجة الاسلام وغيره : وأدب العائد للمريض أمور : أحدها خفة الجلسة عنده لئلا يمل المريض منه ؛ فقد روى الديلمى من حديث أبى هريرة « من تمام العيادة خفة القيام عند المريض » . وثانيها قلة السؤال عن أحواله ،فإن كثرته تضجره . وثالثها إظهار الرقة له . ورابعها الدعاء له بالعافية . وخامسها غض البصرعن عورات الموضع ، فان هذا ربما يكدر خاطر المريض . وسادسها أنه إذا جلس عنده فعرض عليه طعام أو شراب فلا يأكل ولايشرب ، فقد روى الديلمى من حديث أبي أمامة « إذا عاد أحدكم مريضا فلا يأكل عنده فإنه حظه من عيادته » وآدابه عند الاستئذان أن لايقابل الباب فى وقوفه فإنه ربما يقع بصره عند فتحه على مالا يحل له النظر إليه ، بل يقف فى طرف منه وإذا دق الباب يدق برفق ولين لابانزعاج ولا يقول أنا إذا قيل من بالباب فقد ورد النهى عن ذلك ، ولا يقول ياغلام ياولد ياجارية لكن يحمد ويسبح ويهلل معلنا بذلك ، وإن قال فلان بن فلان فلا بأس بذلك ، لأن المقصود الإعلام وهو يحصل بذكر الاسم أكثر من التسبيح وإن جمع بينهما فحسن ( وقضاء الحاجات التى ترفع إليه ما أمكنه) ذلك القضاء والقيام بها قبل السؤال ، وتقديمها على الحاجات الخاصة المتعلقة بنفسه ولكن مع البشاشة وإظهار الفرج وقبول المنة . قال جعفر بن محمد : إنى لأتسارع إلى قضاء حوائج أعدائى مخافة أن أردهم فيستغنوا عنى كذا فى القوت . قال حجة الاسلام هذا فى الأعداء فكيف فى الأصدقاء . وقال بعضهم : إذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضهافذكره ثانية فلعله أن يكون قد نسى ، فان لم يقضها فعاوده ثالثة فقد يكون شغل عنها بعذر ، فإن لم يقضها بعد ذلك فكبر عليه واقرأ هذه الآية « والموتى يبعثهم الله » قال الزبيدى : أى صوره فى نفسك كأنه ميت فصل عليه صلاة الجنازة بالتكبيرات ، وإنما شبهه بالموتى إذ لا أنس فيه كما أن الميت لايستأنس به ؛ قضى ابن شبرمة حاجة لبعض إخوانه كبيرة ، فجاءه بهدية فقال ابن شبرمة ما هذا ؟ فقال لما أسديته إلى ، فقال خذ مالك عافاك الله إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه فى قضائها فتوضأ وضوءك للصلاة وكبر عليه أربع تكبيرات وعده فى الموتى ، نقله صاحب القوت ( ولا يطالبهم ) أى الخلق ( بالمكافآت ) أى المجازاة بالإحسان إليه ، بل لو فرض أنه كان أحسن إليهم

وَلاَ يَرْجُو ذٰلِكَ مِنْهُمْ وَلاَ يُرِيهِمْ مِنْ نَفْسِهِ اسْتِيحَاشاً لِذٰلِكَ وَيُبَاسِطهُمْ بِالْبَذْلِ إِنْ قَدَرَ وَيَنقَبِضُ عَنْهُمْ فِى الْأَخْذِ إِنْ أُعْطِيَ ، وَيَتَحَمَّلُ مِنْهُمُ الْأَذَى ، وَيُظْهِرُ لَهُمُ الْبِشْرَ وَيَتَجَمَّلُ بِظَاهِرِهِ لَهُمْ ، وَيَكْتُمُ حَاجَاتِهِ عَنْهُمْ فَيُقَاسِيهَا بِنَفْسِهِ وَيُعَالِجُهَا فِى سِرِّهِ وَبَاطِنِهِ ، ثُمَّ يَحْتَاجُ مَعَ ذٰلِكَ أَنْ يَنْظُرَ لِنَفْسِهِ خَاصَّةً فَيَجْعَلَ لَهَا حَظًّا مِنَ الْعِبَادَةِ الْخَالِصَةِ كَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ : إِنْ نِمْتُ اللَّيْلَ لَأُضَيِّعَنَّ نَفْسِى ؛ وَإِنْ نِمْتُ النَّهَارَ لَأُضَيِّعَنَّ الرَّعِيَّةَ . فَكَيْفَ لِي بِالنَّوْمِ بَيْنَ هَاتَيْنِ ،

---

ثم صار فقيرا فلا يطلب الإحسان منهم كما صرح به العلامة الدسوقى (ولا يرجو ذلك) المكافآت والمجازاة (منهم) أى الخلق بل يرجوها من خالقهم (ولا يريهم من نفسه استيحاشا) أى عدم استئناس . وفى المصباح : الوحشة بين الناس هى الانقطاع وبعد القلوب عن المودات (ويباسطهم بالبذل) أى يوسعهم بالعطاء (إن قدر) على ذلك (وينقبض) أى يتأخر ، وذلك بأن لا يأخذ (عنهم فى الأخذ) أى أخذ عطائهم (إن أعطى) بالبناء للمفعول (ويتحمل منهم الأذى ويظهر) بضم الياء من أظهر (لهم البشر) بكسر الباء : أى طلاقة الوجه والفرح والبشاشة (ويتجمل) أى يتزين (بظاهره لهم ويكتم) أى يخفى (حاجاته عنهم فيقاسيها) أى يلازم المكابدة والشدة فى حاجاته . وفى القاموس : قاسى الأمر كابده (بنفسه ويعالجها) أى يزاولها (في سره) أى قلبه (وباطنه) مرادف ماقبله كما قرره بعضهم (ثم يحتاج مع ذلك) أى المذكور من المقاساة والمكابدة (أن ينظر لنفسه خاصة) أى ما يختص به من الطاعات كما يدل عليه قوله (فيجعل لها) أى لنفسه (حظا) أى نصيبا (من العبادة الخالصة كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه) وهو أول من سمى بأمير المؤمنين . وأخرج ابن عساكر عن معاوية بن قرة قال : كان يكتب من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أرادوا أن يقولوا خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر : هذا يطول قالوا لا ولكنا أمرناك علينا وأنت أميرنا . قال نعم أنتم المؤمنون وأنا أميركم ، فكتب أمير المؤمنين ، ولا ينافى ماتقرر أن عبد الله بن جحش فى سريته التى نزل فيها قوله تعالى « يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه » الآية سمى أمير المؤمنين ، لأن تلك تسمية كانت خاصة والكلام فى تسمية الخليفة بذلك ، فعمر أول من وضع عليه هذا الاسم من حيث الخلافة . ومناقبه رضى الله عنه جمة ، وإن أردت ذلك فلتنظر إلى كتاب الصواعق للعلامة ابن حجر الهيتمى تجد ما تروم (إن نمت) بكسر النون (الليل لأضيعن) بالنون الثقيلة (نفسى) بترك أورادها الخاصة لها . وكان رضى الله عنه كثير الصلاة فى وسط الليل كما هو عند ابن شيبة وغيره (وإن نمت النهار لأضيعن الرعية) لأنه يشتغل عنهم فيضيع أمرهم . (فكيف لى بالنوم بين هاتين) المدتين ، وهما الليل والنهار ، وهذا يدل على

وَفِى هٰذَا الْمَعْنَى عُرِضَ لِى أَبْيَاتٌ مِنَ الشِّعْرِ ، وَهِيَ :

فَإِنْ كُنْتَ فِى هَدْيِ الْأَئِمَّةِ رَاغِباً     فَوَطِّنْ عَلَى أَنْ تَنْتَحِيكَ الْوَقَائِعُ
بِنَفْسٍ وَقُورٍ عِنْدَ كُلِّ كَرِيهَةٍ     وَقَلْبٍ صَبُورٍ وَهْوَ فِى الصَّدْرِ مَانِعُ
لِسَانُكَ مَخْزُونٌ وَطَرْفُكَ مُلْجَمٌ     وَسِرُّكَ مَكْتُومٌ لَدَى الرَّبِّ ذَائِعُ
وَذِكْرُكَ مَغْمُورٌ وَبَابُكَ مُغْلَقٌ     وَثَغْرُكَ بَسَّامٌ وَبَطْنُكَ جَائِعُ
وَقَلْبُكَ مَجْرُوحٌ وَسُوقُكَ كَاسِدٌ     وَفَضْلُكَ مَدْفُونٌ وَطَعْنُكَ شَائِعُ

---

شدة احتياطه في أمور الدين وإقباله عليها كما علم من مناقبه رضى الله عنه ، وقد فهمت بما ذكرناه أنه يتقدم على العبادات البدنية أمران : أحدهما العلم ، والآخر الرفق بالمسلمين والنظر فى مصالحهم ، لأن كل واحد من العلم وفعل المعروف عمل فى نفسه وعبادة تفضل سائر العبادات بتعدى فائدتهما إلى الغير وانتشار نفعهما فكانا مقدمين على سائر العبادات لذلك كذا فى الإحياء ( وفى هذا المعنى ) أى معنى قول سيدنا عمر رضي الله عنه ( عرض ) بالبناء للمفعول : أى أظهر وأبرز ( لى أبيات من الشعر ) الموسوم ببحر الطويل ( وهى ) أى الأبيات هذه ( فإن كنت فى هدى الأئمة ) أى سيرهم ( راغبا ) أى مريدا ومتوجها إلى ذلك ( فوطن ) أمر من التوطين بمعنى التمهيد ( على أن تنتحيك ) أى تقصدك ، يقال انتحاه انتحاء قصده وله اعتمد وعرض له وفى نسخة ترتكبك ، كذا فى سراج السالكين ( الوقائع ) أى الأمور التى تقع شديدة أو غيرها ، وهو جمع وقيعة كما يعلم من صنيع المختار ( بنفس وقور ) أى حليم ( عند كل كريهة ) أى أمور مكروهة للنفس ( وقلب صبور ) أى كثير الصبر ( وهو ) بسكون الهاء : أى ذلك القلب ( فى الصدر مانع ) عن الوقوع فيما لا يليق ، وهذا تكملة للبيت ( لسانك مخزون ) أى مصون ومكتوم ( وطرفك ) أى عينك ( ملجم ) بفتح الجيم على صيغة اسم المفعول : أى مقيد ومحبوس عن النظر فيما لا يحل ولا ينفع فى الدارين ( وسرك ) أى ما يخفيه قلبك ( مكتوم ) وهو ( لدى ) أى عند ( الرب ) تعالى ( ذائع ) أى ظاهر لا يخفى عليه شيء ، لأن الباطن كالظاهر بالنسبة لعلمه تعالى بخلافه عند الخلق ( وذكرك مغمور ) أى مستور ( وبابك مغلق وثغرك ) وهو ما تقدم من أسنانك ( بسام ) أى ضاحك كما قاله العلامة عبد الحق ( وبطنك جائع وقلبك مجروح ) أى كأنه أصابه الجرح من شدة تحمله ما يناله من صحبة الناس ومقاساة حوائج نفسه ( وسوقك كاسد ) أى غير نافق ورائج . قال العلامة عبد الحق : كسد الشيء وكسد يكسد كسادا وكسودا لم ينفق لقلة الرغاب فهو كاسد وكسيد ، وكسدت السوق لم ينفق ما بها فهى كاسد وكاسدة ( وفضلك مدفون وطعنك ) أى عيبك ( شائع ) أى منتشر .

وَفى كلِّ يَوْمٍ أَنْتَ جَارِعُ غُصَّةٍ مِنَ الدَّهرِ والْإِخْوَانِ وَالْقَلبُ طَائِعُ
نَهَارُكَ شَغْلُ النَّاسِ مِنْ غَيْرِ مِنَّةٍ وَلَيْلُكَ شَوْقٌ غَابَ عَنْهُ الطَّلَائِعُ
فَدُونَكَ هٰذَا اللَّيلَ خُذْهُ ذَرِيعَةً لِيَوْمٍ عَبُوسٍ عَزَّ فِيهِ الذَّرَائِعُ

نَعَمْ يَكُونُ بِالنَّفْسِ مَعَهُمْ ، وَالْقَلْبُ مَا أَبْعَدَهُ عَنْهُمْ ! وَذٰلِكَ لعمْرِى أَمْرٌ شَدِيدٌ وَعَيْشٌ نَكِدٌ ، وَفِيهِ يَقُولُ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ فى وَصِيَّتِهِ :

---

( وفي كل يوم أنت جارع ) أى بالع ( غصة ) أى ما تغص به ، وهـذا كناية عن التكره والأذى قد نالهما ( من ) حوادث ( الدهر ) أى الزمان ( و ) من ( الاخوان والقلب طائع ) أى مطيع ( نهارك شغل ) إصلاح ( الناس من غير منة ) أى تعداد النعم بأن تقول لمن أنعمت عليه فعلت معك كذا وكذا ، لأن ذلك مذموم إلا من الله والشيخ والوالدين فليس مذموماً ( وليلك شوق ) أى اشتياق ومحبة إلى ربك وذلك بملازمة الطاعات التى تختص بك من بين سائر الناس ( غاب عنه ) أى الشوق ( الطلائع ) أى النواظر ( فدونك هذا الليل ) قيل إنه اسم فعل أمر بمعنى خذ والكاف اللاحقة له حرف خطاب لا محل لها من الإعراب وفاعله ضمير مستتر فيه ، وهذا الليل مفعوله : أى خذ هـذا الليل ، والمراد بأخذه تعاطى العبادة فيه من ذكر أو صلاة أو غير ذلك . وقيل إنه اسم فعل أمر بمعنى الزم فالكاف اللاحقة له ضمير مفعول أول لاسم الفعل والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت ، وهذا الليل مفعول ثان والتقدير ألزم نفسك هذا الليل . وقيل إنه اسم فعل ماض بمعنى لزم والكاف اللاحقة له ضمير فاعل باسم الفعل ووضع ضمير غير الرفع موضع ضمير الرفع ؛ والمعنى لزمت هذا الليل . وقيل إنه اسم فعل وضع موضع المصدر والكاف اللاحقة له فى محل جر بالإضافة : أي إلزامك هذا الليل : أى ألزمك هذا الليل إلزاما منسوبا لك من حيث تعلقه بك ( خذه ) أى هذا الليل ( ذريعة ) أى وسيلة ( ليوم ) أى لهوله ( عبوس ) أى شديد : وهو يوم القيامة . قال الخازن رحمه الله : وصف اليوم بالعبوس مجاز فى الاسناد كما يقال نهاره صائم ، والمراد أهله والمعنى تعبس فيه الوجوه من طوله وشدته (عز) أى قل ( فيه ) أى فى ذلك اليوم ( الذرائع ) أى الوسائل وهو جمع ذريعة كما فى السراج ( نعم ) جواب لمن قال هل يمكن للرجل المذكور أن يصاحب الخلق ويخالطهم بما ذكر وهو كونه منفرداً عنهم بقلبه ومصاحبا لهم بجسمه ؟ قيل فى جوابه نعم ( يكون بالنفس معهم والقلب ما أبعده ) فعل تعجب ( عنهم و ) لكن ( ذلك ) أى الصحبة بالصفة المذكورة ( لعمرى ) أى لحياتى والقصد بهذا التأكيد لا حقيقة القسم إذ الأكابر يتحاشون عن الحلف بغير الله للنهى عنه ( أمر شديد وعيش ) أى معيشة ( نكد ) أى شديد العسر والضيق . قال الجريرى : والنكد : الشؤم وقلة الخير ( وفيه ) أى فى هذا الأمر الشديد ( يقول شيخنا ) أبو بكر الوراق ( رحمه الله فى وصيته )

يَا بُنَىَّ عِشْ مَعَ أَهْلِ زَمَانِكَ وَلاَ تَقْتَدِ بِهِمْ ، ثُمَّ قَالَ : مَا اشَدَّ هٰذَا الْعَيْشَ مَعَ الْاحْيَاءِ وَالِاقْتِدَاءِ بِالْأَمْوَاتِ .

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ : خَالِطِ النَّاسَ وَزَايِلْهُمْ وَدِينُكَ لاَ تَكْلُمَنَّهُ ، فَهٰذِهِ نُكْتَةٌ مُقْنِعَةٌ . ثُمَّ أَقُولُ إِذَا مَاجَ الْفِتَنُ بَعْضُهَا فِى بَعْضٍ ، وَتَرَاجَعَ الْأَمْرُ ، وَوَلَّى النَّاسُ عَنْ أَمْرِ الدِّينِ مُدْبِرِينَ لاَ يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلاًّ

---

لابنه ( يابنى عش مع أهل زمانك ) فيما وافق الحق ( ولا تقتد بهم ) فيما يخالفه ( ثم قال ) شيخنا أيضاً ( ما أشد هذا العيش ) فعل تعجب ( مع الأحياء ) من أهل هذا الزمان لقلة انقيادهم للحق والصواب ( والاقتداء بالأموات ) من السلف الصالحين فى سبقهم إلى الخيرات وتركهم الشهوات . (وعن ) أبى عبد الرحمن عبد الله ( بن مسعود رضى الله عنه : خالط الناس ) فى المعاملة والمبايعة وعند اللقاء ( وزايلهم ) أى فارقهم . وقال بعضهم : خالص المؤمن مخالصة ، وخالق الفاجر مخالقة فإن الفاجر يرضى بالخلق الحسن فى الظاهر ويميل إليه فيكون سببا لاستمالة قلبه ، نقله صاحب القوت . وأخرج أبو نعيم عن محمد بن الحنفية قال : ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدا حتى يجعل الله له فرجا ومخرجا ( ودينك لا تكلمنه ) بكسر اللام وفتح الميم والنون المشددة من الكلم بفتح الكاف وسكون اللام وهو الجرح : أى لا تجرحنه ودينك بالنصب فى الفرع : أى لا تكلمن دينك ، ويجوز الرفع مبتدأ خبره لا تكلمنه : أى خالط الناس بشرط أن لا يحصل فى دينك خلل . وهذا الأثر وصله الطبرانى فى الكبير بلفظ «خالطوا الناس وصافوهم بما يشتهون ودينكم فلا تكلمنه » بضم الميم « وزايلوهم » كما قاله القسطلانى ( فهذه ) أى الأقاويل التى ذكرناها ( نكتة ) أى نادرة مختارة من الكلام ( مقنعة ) أى مرضية من أقنعة الشىء : أى أرضاه ( ثم أقول إذا ماج الفتن ) أى اضطربت ( بعضها فى بعض وتراجع الأمر ) أى عاد أمر الدين إلى الضعف والنقصان ( وولى ) أى أدبر وأعرض ( الناس عن أمر الدين مدبرين ) حال مؤكدة كناية عن عدم مبالاتهم فى أمره ( لا يرقبون ) من باب دخل : أى لا يراعون ( فى مؤمن إلا ) منصوب بفتحة ظاهرة على المفعولية : أى قرابة ، وقيل حلفا وفى الإل أقوال لأهل اللغة : أحدها أن المراد به العهد قاله أبو عبيدة وابن زيد والسدى الثانى أن المراد به القرابة . وبه قال الفراء : الثالث أن المراد به الله تعالى : أى هو اسم من أسمائه . الرابع أن الإل الجؤار ، وهو رفع الصوت عند التحالف ، وذلك أنهم إذا تحالفوا جأروا بذلك جؤارا . الخامس أنه من أل البرق لمع ويجمع الإل فى القلة على آل والأصل أألل بزنة أفلس فأبدلت الهمزة الثانية ألفا لكونها بعد أخرى مفتوحة وأدغمت اللام فى اللام وفى الكثرة على الإلال كذئب وذئاب ، والأل بالفتح . قيل : شدة القنوط . قال الهروى فى الحديث « عجب ربكم من ألكم وقنوطكم » . وفى القاموس الإل بالكسر العهد والحلف وموضع والجؤار والقرابة والمعدن والحقد والعداوة والربوبية واسم الله

وَلاَ ذِمَّةً وَلاَ يَطْلُبُونَ عَالِمًا ، وَلاَ يَرْمُقُونَ مُفِيدًا وَلاَ يَعْنِيهِمْ أَمْرُ دِينِهِمْ أَلْبَتَةَ ، وَتَرَى الْفِتْنَةَ تَعُمُّ الْعَامَّةَ وَتَدِبُّ بَيْنَ الْخَاصَّةِ ، فَلِلْعَالِمِ الْعُذْرُ فِى الْعِزْلَةِ وَالتَّفَرُّدِ وَدَفْنِ الْعِلْمِ ، وَأَخَافُ أَنَّ مَا ذَكَرْنَاهُ هُوَ هٰذَا الزَّمَانُ النَّكِدُ الصَّعْبُ ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التُّكلاَنُ ، فَهٰذَا حُكْمُ الْعُزْلَةِ وَالتَّفَرُّدِ عَنِ النَّاسِ ، فَافْهَمْهُ فَإِنَّ الْغَلَطَ فيه عَظِيمٌ ، وَضَرَرُهُ

---

تعالى وكل اسم آخره أل أو إيل فمضاف إلى الله تعالى والرضا والأمان والجزع عند المصيبة ، ومنه ماروى « عجب ربكم من إلكم » فيمن رواه بالكسر ورواية الفتح أكثر (ولا) يرقبون (ذمة) أي عهدا كذا قيل فيكون مما كرر لاختلاف لفظه إذا قلنا إن الإل العهد أيضا فهو كقوله تعالى « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة » وقيل الذمة الضمان يقال هو فى ذمتى : أى فى ضمانى وبه سمى أهل الذمة لدخولهم فى ضمان المسلمين . وقال ابن عرفة : يقال له ذمة وذمام ومذمة وهى الذم . وقال الراغب : الذمام ما يذم الرجل على إضاعته من عهد ، وكذلك الذمة والمذمة يعنى بالفتح والكسر ، وقيل لى مذمة فلا تهتكها . وقال غيره سميت ذمة لأن كل حرمة يلزمك من تضييعها الذم يقال لها ذمة . وقال الأزهرى : الذمة الأمان ، وفى الحديث « يسعى بذمتهم أدناهم » (ولا يطلبون عالما) أى لإعراضهم عنه (ولا يرمقون) من باب نصر : أى لا ينظرون (مفيدا) يستفيدون منه أمر دينهم (ولا يعنيهم) أى لا يهمهم بفتح أوله من عناه الأمر إذا تعلقت عنايته به (أمر دينهم ألبتة) بل يشتغلون بأغراضهم الدنيوية الشهوية من التوسع فى الدنيا وطلب المناصب والرياسات وحب المحمدة والثناء والفضول فى الكلام والأفعال المباحة وغير ذلك مما لا يعود عليهم منه نفع أخروى ، وهو ضياع للوقت النفيس الذى لا يمكن أن يعوض فائته فيما لم يخلقوا لأجله ، وروى الترمذى وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » وفى هذا الحديث إشارة إلى أن الشىء إما أن يعنى الإنسان أولا ، وعلى كل إما أن يتركه أو يفعله ، فالأقسام أربعة : فعل ما يعنى ، وترك مالا يعنى وهما حسنان ، وترك ما يعنى ، وفعل مالا يعنى وهما قبيحان كما أفاده العلامة ابن حجر (وترى الفتنة تعم العامة) أى الجهال (وتدب) أى تمشى (بين الخاصة) أى العلماء (فللعالم) جواب إذا ماج الفتن أى يجوز له (العذر) أى الاعتذار (فى العزلة والتفرد) عن الناس (و) فى (دفن العلم) أى إخفائه (وأخاف أن ما ذكرناه) من زمان موج الفتن واضطرابه (هو هذا الزمان) الحاضر (النكد) أى الشديد (الصعب) والوعر وهذا فى زمان المصنف رحمه الله فكيف فى زماننا هذا بعد القرن الثالث عشر فلا حول ولا قوة إلا بالله (والله المستعان) على كل خير (وعليه التكلان) أى الاعتماد وإظهار العجز لا على غيره (فهذا) أى ما ذكرناه (حكم العزلة والتفرد عن الناس فافهمه) أى الحكم (فإن الغلط فيه) أى فى هذا الحكم (عظيم و) أن (ضرره) أى الغلط

كَثِيرٌ ، وَ بِاللهِ التَّوْفِيقُ .

---

( كثير وبالله التوفيق ) والهداية إلى طريق السداد والصواب . قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى : الخلوة صفة أهل الصفوة ، والعزلة من أمارات الوصلة ولا بد للمريد فى ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه ثم فى نهايته التحقق بأنسه والعزلة فى الحقيقة اعتزال الخصال المذمومة والتأثير لتبديل الصفات لا للتنائي عن الأوطان ، ولهذا قيل من العارف ؟ قالوا كائن بائن : يعنى كائنا مع الخلق بائنا عنهم بالسر . سمعت الأستاذ أبا على يقول : البس ما يلبسون وتناول ما يأكلون وانفرد عنهم بالسر ، وسمعته يقول : جاءنى إنسان وقال جئتك من مسافة بعدة ، فقلت ليس هذا الحديث من حديث قطع المسافات ومسافات الأسفار ففارق نفسك بخطوة وقد حصل مقصودك . وقيل : الانفراد بالخلوة أجمع لدواعى السلوة ، سمعت محمد بن الحسين ، سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت محمد بن حامد يقول : جاء رجل إلى زيارة أبى بكر الوراق فلما أراد أن يرجع قال أوصنى فقال وجدت خير الدنيا والآخرة فى الخلوة والقلة وشرهما فى الكثرة والاختلاط . وسئل الجريرى عن العزلة فقال : هى الدخول بين الزحام وتحفظ سرك أن لا يزاحموك فيه وتعزل نفسك عن الأنام ويكون سرك مربوطا بالحق . وقيل من آثر العزلة حصل له العزلة . وقال سهل : لا تصح العزلة إلا بأكل الحلال ولا يصح أكل الحلال إلا بأداء حق الله تعالى : وقال ذو النون لم أر شيئا أبعث فى الإخلاص من الخلوة وقال أبو عبد الله البرمكي : ليكن خدنك الخلوة وطعامك الجوع وحديثك المناجاة فإما أن تموت بذلك أو تصل إلي الله تعالى . وقال ذوالنون : من احتجب عن الخلق بالخلوة كمن احتجب عنهم بالله تعالى . وقال الجنيد : مكابدة العزلة أيسر من مداراة الخلطة . وقال مكحول : إن كان فى مخالطة الناس أنس فإن فى العزلة السلامة . وقال يحيى بن معاذ : الوحدة جليس الصديقين . وقال شعيب بن حرب : دخلت على مالك بن مغول بالكوفة وهو فى داره وحده فقلت له ماتستوحش وحدك ؟ فقال ما كنت أرى أن أحدا يستوحش من الله تعالى . وقال الجنيد : من أراد أن يسلم له دينه ويستريح بدنه وقلبه فليعتزل الناس فإن هذا زمان وحشة والعاقل من اختار فيه الوحدة . وقال أبو العباس الدامغاني : أوصانى الشبلى وقال الزم الوحدة وامح اسمك عن القوم واستقبل الجدار حتى تموت . وجاء رجل إلى شعيب بن حرب ، فقال ماجاء بك قال أكون معك ، قال يا أخى العبادة لا تكون بالشركة ومن لم يأنس بالله لم يأنس بشىء . وقيل لبعضهم ما هنا أحد تستأنس به ؟ فقال نعم ومد يده إلى مصحف فى حجره وقال هذا ، وفى معناه أنشدوا :

وكتبك حولى ما تفارق مضجعى وفيها شفاء للذى أنا كاتم

وقال رجل لذى النون متى تصح العزلة ، فقال إذا قويت على عزلة النفس . وقيل لابن المبارك ما رواء القلب ، قال : قلة الملاقاة للناس .

﴿ تتمة ﴾ قال العلامة الزبيدى نقلا عن الشيخ الأكبر قدس سره فى الباب الثمانين من الفتوحات فى العزلة :

إذا اعتزلت فلا تركن إلى أحد ... ولا تعرج على أهل ولا ولد
ولا توال إذا وليت منزلة ... وغب عن الشرك والتوحيد بالأحد
وافزع إلى طلب العلياء منفردا ... بغير فكر ولا نفس ولا جسد
وسابق الهمة العلياء تحظ بمن ... سما بأسمائه الحسنى بلا عدد
واعلم بأنك محبوس ومكتنف ... بالنور حبسا جليا لا إلى أمد

فلا يعتزل إلا من عرف نفسه وكل من عرف نفسه عرف ربه فليس له شهود إلا الله من حيث أسماؤه الحسنى وتخلقه بها ظاهرا وباطنا . وأسماؤه الحسنى على قسمين : أسماء يقبلها العقل ويثبتها ويسمى بها الله تعالى ، وأسماء أيضا إلهية لولا ورود الشرع ماقبلها فيقبلها إيمانا ولا يعقلها من حيث ذاته إلا إن أعلمه الحق بحقيقة نسبة الأسماء إليه ، فصاحب العزلة هو الذى يعتزل بما هو له من ربه من غير تخلق ، فمن رأى التخلق بها فلابد أن يظهر بها على الحد المشروع ، ولما رأى هذا المعتزل مزاحمة الحق فى النعوت التى ينبغى أن تكون للعبد كما هى فى نفس الأمر عنده قال الأليق فى أن أعتزل بأسماء ولا أزاحمه فيما يكون عارية عندى ، إذ كانت العارية أمانة مؤداة فاعتزل صاحب هذا النظر التخلق بالأسماء الحسنى ، وانفرد بفقره وذله ، وعجزه وقصوره وجهله فى بيته كلما قرع عليه الباب اسم إلهى قيل له ماهنا من يكلمك فاذا نقدح له بهذا الاعتزال أن الله أزلى الوجود فإما أن يعتزل عن الجميع وإما أن يتسمى بالجميع ، فقلنا له اعتزل عن الجميع واترك الحق إن شاء سماك بالأسماء كلها فاقبلها ولا تعترض وإن شاء سماك ببعضها وإن شاء لم يسمك ولا بواحد منها ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، فرجع العبد إلى خصوصيته التي هى العبودية فتحلى بها وقعد في بيته ينظر تصريف الحق فيه وهو معتزل عن التدبر فى ذلك ، فإن تسمى من هذه حاله بأى اسم كان فالله مسميه ماتسمى وليس له رد ماسماه به ، وتلك الأسماء هى خلع الحق على عباده وهي خلع تشريف ، فمن الأدب قبولها لأنها جاءته من غير سؤال ولا استشراف ، ووقف عند ذلك على أنه كان عاصيا لله فيما كان يزعم أنه له فاذا هو لله وهو قوله تعالى « وإليه يرجع الأمر كله » فأخذ منه جميع ماكان يزعم إلا العبادة فإنه لايأخذها إذ كانت ليست بصفة له ، فقال له تعالي لما مال إليه « وإليه يرجع الأمر كله فاعبده » : وهو أصله الذى خلق لأجله ، فقال تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » فالعبادة اسم حقيقى فهى ذاته وموطنه وحاله وعينه ونفسه وحقيقته ووجهه ؛ فمن اعتزل هذه العزلة فهى عزلة العلماء بالله لاهجران الخلائق ولا غلق الأبواب وملازمة البيوت وهى العزلة التى عند الناس أن يلزم الانسان بيته ولا يعاشر ولا يخالط ويطلب السلامة ما استطاع بعزلته ليسلم من الناس ويسلم الناس منه فهذا طلب عامة أهل الطريق بالعزلة ؛ ثم إن ارتقي إلى طور أعلى من هذا فيجعل عزلته رياضة وتقدمه

فَإنْ قِيلَ : أَلَيْسَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم قالَ : « عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّ يَدَ اللهِ تَعالى عَلَى الْجَماعَةِ ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الإِنْسانِ يَأْخُذُ الشَّاذَّةَ وَالنَّاجِيَةَ وَالْقاصِيَةَ وَالْفاذَّةَ» وَقالَ « إِنَّ الشَّيْطانَ مَعَ الْفَذِّ، وَهُوَ مِنَ الاُثْنَيْنِ أَبْعَدُ » .

---

بين يدى خلوته لتأليف النفس قطع المألوفات من الأنس بالخلوة فإن الأنس بالخلوة من العلائق الحائلة بينه وبين مطلوبه من الأنس بالله والانفراد به ، فإذا انتقل من العزلة بعد إحكامه شرائطها سهل عليه أمر الخلوة . هذا سبب العزلة عند خاصة أهل الله ، فهذه العزلة نسبة لامقام ، والعزلة الأولى التى ذكرناها مقام مطلوب وإذا كانت مقاما فهى من المقامات المستصحبة فى الدنيا والآخرة . ثم لنرجع إلى خدمة كلام المصنف رحمه الله تعالى . قال ( فإن قيل أليس النبى صلى الله عليه وسلم قال : عليكم بالجماعة ) أى الزموا ماعليه جماعة أهل السنة كما فى العزيزى ( فان يد الله تعالى ) كناية عن النصرة والغلبة أو الحفظ والرحمة ، أو معناه إحسانه وتوفيقه لاستنباط الأحكام والاطلاع علي ماكان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الاعتقاد والعمل ( على الجماعة ) الكثيرة المجتمعة من المسلمين . قال العلامة المناوى : يعنى أن جماعة أهل الاسلام فى كنف الله وحفظه فأقيموا فى كنف الله بين ظهرانيهم ولا تفارقوهم وتمامه عند مخرجه «ومن شذ شذ إلى النار» : أى من خرج من السواد الأعظم في الإحلال والحرام الذى لم تختلف فيه الأمة فقد زاغ عن سبيل الهدي وذلك يؤديه إلى دخول النار . رواه الترمذى عن ابن عباس . قال العلقمى : حديث حسن (و) قال رسول الله صلي الله عليه وسلم ( إن الشيطان ذئب الانسان ) أى مفسد للانسان ومهلك له باغوائه كإفساد الذئب إذا أرسل فى قطيع من الغنم ( يأخذ ) الشاة ( الشاذة ) بتشديد الذال المعجمة : أى النافرة التى لم تؤانس بأخواتها ولم تخلط بهن ( والناجية ) بالجيم : أى المنفردة عن صواحبتها وان لم تكن بعيدة كما قاله العلامة الحفنى ، وفى أكثر الروايات والنسخ بالحاء المهملة : أى التي غفل عنها وبقيت فى جانب منفردة فإن الناحية هي التي صارت فى ناحية من الأرض عن أخواتها لغفلتها ( والقاصية ) بصاد مهملة : أى البعيدة عن صواحباتها : أي التي قصدت البعد عنهن لأجل المرعى مثلا لا للتنفر ( والفاذة ) أى المنفردة ، وهذا تمثيل مثل حالة مفارقة الانسان الجماعة واعتزاله عنهم ، ثم تسلط الشيطان عليه بشاة منفردة عن الغنم ، ثم افتراس الذئب عنها بسبب انفرادها وانقطاعها وهذه قطعة حديث رواها أحمد والطبرانى عن معاذ بن جبل بلفظ «ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الشيطان ذئب الانسان كذئب الغنم يأخذ القاصية والناحية والشاردة إياكم والشعاب وعليكم بالعامة والجماعة والمساجد » . ( وقال ) صلى الله عليه وسلم ( إن الشيطان مع الفذ ) أى المنفرد ( وهو ) أى الشيطان ( من الاثنين أبعد ) وهو من الثلاثة أبعد منه من الاثنين وهكذا قاله العزيزى ، ولذا كان السفر من الاثنين أقل كراهة من السفر من الواحد كما صرح به العلامة الحفنى . رواه أحمد في مسنده والترمذى والحاكم فى مستدركه عن عمر

فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ وَرَدَتْ وَوَرَدَ أَيْضًا « الْزَمْ بَيْتَكَ وَعَلَيْكَ بِالْخَاصَّةِ وَدَعْ أَمْرَ الْعَامَّةِ » فَأَمَرَ بِالْعُزْلَةِ وَالتَّفَرُّدِ فِى الزَّمَانِ السُّوءِ وَلاَ تُنَاقُضَ فِى قَوْلِهِ صلى الله عليه وسلم ، وَلاَ بُدَّ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ الْخَبَرَيْنِ بِحَوْلِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ . فَأَقُولُ قَوْلُهُ صلى الله عليه وسلم : « عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ » يَحْتَمِلُ ثَلاَثَةَ أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ يَعْنِي بِهِ فِى الدِّينِ وَالْحُكْمِ ، إِذْ لاَ تَجْتَمِعُ هٰذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ضَلاَلَةٍ فَخَرْقُ الْإِجْمَاعِ وَالْحُكْمِ بِخِلاَفِ مَا عَلَيْهِ جُمْهُورُ الْأُمَّةِ وَالشُّذُوذُ عَنْهُمْ بَاطِلٌ وَضَلاَلٌ ، وَإِمَّا أَنْ يَعْتَزِلَ عَنْهُمْ لِصَلاَحٍ فِى دِينِهِ فَلَيْسَ هٰذَا مِنْ ذٰلِكَ

---

ابن الخطاب . وقال العزيزى : قال الشيخ حديث صحيح ، ورواه أبو الليث فى بستان العارفين بلفظ « إن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد » . ( فاعلم أن هذه )الأحاديث المذكورة ( وردت ) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ( وورد أيضا ) أى كما وردت الأحاديث المذكورة ( الزم بيتك ) أى محل سكنك بيتا أوخلوة أو غيرهما فالمراد بلزومك كما قال العلامة عبدالحق التنزه عن نحو الإمارة وإيثار الانجماع والعزلة ( وعليك ) أى الزم ( بالخاصة ) أى بخاصة أمرك (ودع) أى اترك ( أمر العامة ) . قال العلامة عبد الحق : وهـذا الحديث رواه الطبرانى عن ابن عمر رضى الله عنهما . قال المصنف رحمه الله تعالي ( فأمر ) النبي صلى الله عليه وسلم فى هـذا الحديث ( بالعزلة والتفرد ) عن الناس ( فى الزمان السوء ) أهله لعدم انقيادهم للحق ( ولا تناقض فى قوله صلى الله عليـه وسلم ولا بد ) لنا ( من الجمع بين ) معنى ( الخبرين ) المذكورين وهما قوله عليـه الصلاة والسلام «عليـكم بالجماعة» وقوله عليهالصلاة والسلام«الزم بيتك»(بحول الله وتوفيقه فأقول) أما ( قوله صلى الله عليه وسلم : عليـكم بالجماعة ) فهو ( يحتمل ثلاثة أوجه : أحدها أنه ) صلى الله عليه وسلم (يعنى) أى يريد (به) أى بقوله «عليـكم بالجماعة» الاجماع (فى الدين والحـكم ، إذ لاتجتمع هـذه الأمة ) أى أمة الإجابة كما صرح به العزيزى ( على ضـلالة ) ولهذا كان إجماعهم حجة كما روى عن أنس بن مالك «إن أمتى لن تجتمع على ضلالة ، فإذا رأيتم اختلافا فعليكم بالسواد الأعظم» قال العزيزى . أى الزموا جماهر المسلمين وأكثرهم فهو الحق الواجب فان من خالفهم مات ميتة جاهلية ( فخرق الإجماع ) أى مخالفة اتفاق هذه الأمة ( و ) خرق ( الحـكم ) وذلك بأن يفعل ما فعله من الدين والحـكم ( بخلاف ما عليه جمهور الأمة ) أى أكثرهم ( والشذوذ ) بالرفع عطف علي الخرق : أى الانفراد ( عنهم باطل وضلال ) لأنهم أبعد عن مواقعة الخطأ ( وإما أن يعتزل ) الإنسان ( عنهم لصلاح فى دينه ) أى المعتزل ( فليس هـذا ) أى اعتزاله لمصلحة دينه ( من ذلك ) أى خرق الإجماع ولا المخالفة لمقتضى قوله عليه الصلاة والسلام « عليـكم بالجماعة » لأن هذا المعتزل مجتمع بما عليه أهل السنة من الدين ومتدين به . وأما انفراده بجسمه لضعف هذا الرجل عن المخالطة فلا يسمى خرقا للاجماع ومخالفا له كما هو ظاهر ، وقد أجاب المصنف رحمه الله عن هذا الحديث

فى شَىْءٍ . وَالثَّانِى عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ بِأَلاَّ تنقطِعُوا عَنْهُمْ فى جُمعِهِمْ وَجَمَاعَاتِهِمْ وَنَحْوِهَا ، فَإِنَّ فِيهَا قُوَّةَ الدِّينِ وَكَمَالَ الْإِسْلاَمِ وَغَيْظَ الْكُفَّارِ وَالْمُلْحِدِينَ وَلاَ يَخْلُو ذٰلِكَ مِنْ بَرَكَاتٍ وَنَظَرٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالرَّحْمَةِ ، وَلِذٰلِكَ نَقُولُ : إِنَّ حَقَّ الْمُنْفَرِدِ أَنْ يُشَارِكَ النَّاسَ فى الْجُمُوعِ الْعَامَّةِ فى الْخَيْرِ وَأَنْ يُجَانِبَهُمْ فى الصُّحْبَةِ وَالْمُزَاحَمَةِ فى سَائِرِ الْأُمُورِ لِمَا فِيهَا مِنْ ضُرُوبِ الآفَاتِ . وَالثَّالِثُ أَنَّ ذٰلِكَ فى غَيْرِ زَمَانِ الْفِتْنَةِ لِلرَّجُلِ الضَّعِيفِ فى أَمْرِ الدِّينِ ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الْبَصِيرُ الْقَوِىُّ فى أَمْرِ اللهِ تعالى إِذَا رَأَى زَمَانَ الْفِتْنَةِ الَّذِى حَذَّرَ النَّبِىُّ صلى اللهُ عليه وسلم الْأُمَّةَ مِنْهُ وَأَمَرَهُمْ بِالْعُزْلَةِ ،

---

فى الإحياء بقوله : وهذا إنما أراد به من اعتزل الجماعة قبل تمام العلم الواجب عليه تعلمه ، ولذلك قال إبراهيم النخعى : تفقه ثم اعتزل . ( و ) الوجه ( الثانى ) أن المراد ( عليكم بالجماعة ) وذلك ( بأن لا تنقطعوا عنهم ) أى جماعة المسلمين ( فى جمعهم ) بضم الجيم جمع جمعة ( وجماعاتهم ) لبقية الصلوات ( ونحوها ) من الخيرات ( فإن فيها ) أى الجماعة بالمعنى المذكور (قوة الدين وكمال الإسلام وغيظ الكفار ؛ و ) غيظ (الملحدين) أى الزائغين عن طريق الصواب . قال بعض الأئمة . الملحدون فى زماننا هم الباطنية الذين يدعون أن للقرآن ظاهرا وباطنا ، وأنهم يعلمون الباطن فأحالوا بذلك الشريعة لأنهم تأولوا بما يخالف العربية التى نزل بها القرآن ، أفاده الفيومى ( ولا يخلو ذلك ) أى ما ذكر من الجماعة ( من بركات ) أى خيرات إلهية ( ونظر من الله عز وجل بالرحمة ، ولذلك ) أى لعدم خلو الجماعة عن البركات والنظر من الله بعين الرحمة ( نقول إن حق المنفرد ) المعتزل عن الناس ( أن يشارك الناس فى الجموع العامة فى الخير ، وأن يجانبهم ) أى يباعدهم ( فى الصحبة والمزاحمة ) والمخالطة ( فى سائر الأمور ) الدنيوية ( لما فيها ) أى الصحبة ( من ضروب ) أى أنواع ( الآفات ) جمع آفة ، وهى العاهة وما يصيب الإنسان مما ينقص به دينه أو بدنه أو دنياه ، كذا أفاده العلامة الفاسى ( و ) الوجه ( الثالث أن ذلك ) أى الأمر بلزوم الجماعة المذكورة ( فى غير زمان الفتنة ) أى المحنة والابتلاء وأصل الفتنة ، من قولك : فتنت الذهب والفضة : إذا أحرقته بالنار ليبين الجيد من الردىء كما فى المصباح ( للرجل الضعيف فى أمر الدين ) وأما فى زمان الفتنة فالضعيف كالقوى فى أن انفراده ولزوم بيته كان أليق به وأسلم عاقبة له من المخالطة المفضية إلى المتاعب ، فرب شخص تكون سلامته فى العزلة عن الناس لا فى المخالطة معهم ، لكن بعد التعلم فى دينه ومعرفة أدب العزلة فى حقه وإلا وقع فى وساوس الشيطان كما قاله أبو حامد رحمه الله . ( وأما الرجل البصير القوى فى أمر الله تعالى ) أى دينه ( إذا رأى زمان الفتنة الذى حذر ) أى خوّف ( النبى صلى الله عليه وسلم الأمة منه ) أى زمان الفتنة ( وأمرهم ) أى الأمة ( بالعزلة )

فِيهِ ، فَالْعُزْلَةُ أَوْلَى لِمَا فى الْخُلْطَةِ مِنَ الْفَسَادِ وَالآفَاتِ ، وَيَنْبَغِى لَهُ أَنْ لاَ يَنْقَطِعَ مِنْ جُمُوعِ الْإِسْلاَمِ وَالْخَيْرَاتِ الْعَامَّةِ ، وَإِنْ أَرَادَ أَنْ يَنْفَرِدَ عَنِ النَّاسِ بِمَرَّةٍ فَلْيَسْكُنْ بِشَاهِقِ جَبَلٍ أَوْ بَطْنِ فَلاَةٍ لِصَلاَحٍ يَرَاهُ فى دِينِهِ . ثُمَّ قُلْتُ : وَلاَ أَرَى مِثْلَ هٰذَا الرَّجُلِ أَيْنَمَا كَانَ إِلاَّ وَيُمَكِّنُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حُضُورِ الْجَمَاعَاتِ وَالْجُمُعَاتِ وَسَائِرِ جُمُوعِ الْإِسْلاَمِ ، فَيَحْضُرُ لِئَلاَّ يَفُوتَهُ الْحَظُّ مِنْهَا أَيْضاً ، فَإِنَّ جُمُوعَ الْإِسْلاَمِ مِنَ اللهِ تعالى بِمَكَانٍ وَإِنْ تَغَيَّرَ النَّاسُ وَفَسَدُوا ،

---

والتفرد عن الناس ( فيه ) أى فى ذلك الزمان ( فالعزلة أولى ) أى أفضل فى حقه ( لما في الخلطة ) والصحبة ( من الفساد والآفات ، وينبغي له ) أى الرجل البصير ( أن لا ينقطع من جموع الإسلام والخيرات العامة ، وإن أراد ) الرجل المذكور ( أن ينفرد عن الناس بمرة ) أى بالكلية بأن لا يخالطهم فى جموع الإسلام والخيرات العامة ( فليسكن بشاهق جبل ) أى رأسه ومرتفعه ( أو بطن فلاة ) أى صحراء ( لصلاح يراه ) أى يعتقد الرجل ما يصلحه ( فى دينه ) وعلى هذا اعتزل جماعة من السلف حتى سكن بعضهم فى الجبل كما روى عن بعض الصالحين أنه قال : بينما أنا أسير فى بعض بلاد الشام إذ أنا بعابد من العباد خارج من بعض مغارات تلك الجبال ، فلما نظر إلىّ تنحى والتجأ إلى أصل شجرة وتستر به فقلت سبحان الله ! تبخل على بالنظر إليك ؟ فقال يا هذا عذرى أنى أقمت فى هذا الجبل دهرا طويلا أعالج قلبي فى الصبر عن الدنيا وأهلها فطال فى ذلك تعبى وفنى فيه عمرى ولم أحصل ذلك ، فسألت الله عز وجل أن لا يجعل حظى من أيامى الباقية في مجاهدة قلبي ، فسكنه الله عز وجل عن الاضطراب والقلق وألفه الوحدة والانفراد ، فلما نظرت إليك خفت أن أقع فى الأمر الأول وهو الخلطة ، فإليك عنى فإنى أعوذ من شرك برب العالمين وحبيب القانتين ؟ ثم صاح وقال : واغماه من طول المكث في الدنيا ، ثم حوّل وجهه عنى ثم نفض يديه وقال إليك عنى يا دنيا لغيرى فتزيني وأهلك فغرى ، ثم قال سبحان من أذاق قلوب العارفين من لذّة الخدمة وحلاوة الانقطاع عن الخلق إليه ما ألهى قلوبهم عن ذكر الجنان وعن الحور الحسان وجمع همهم فى ذكره فلا شيء ألذّ عندهم من مناجاته ، ثم تركنى ومضى وهو يقول قدّوس قدّوس . قال الزبيدى : وهذا رجل قد استهلك فى حبّ الله وتنزه عما سواه ، ونزه الله عما لايليق بجلاله وكبريائه ألف بالوحدة نفورا عن الكثرة . (ثم قلت ولا أرى مثل هذا الرجل) البصير القوىّ المعتزل ( أينما كان ) أى فى أىّ مكان وجد ( إلا ويمكنه الله عزّ وجلّ من حضور الجماعات والجمعات ) بضمّ الجيم وسكون الميم وفتحها جمع جمعة ( وسائر جموع الإسلام فيحضر ) أى الرجل ( لئلا يفوته الحظّ منها ) أى جموع الإسلام ( أيضا ) أى كما أنه يحضر الجماعات والجمعات فإن ( جموع الإسلام من الله تعالى ) أى عنده ( بمكان ) أى رتبة ومنزلة ( وإن تغير الناس وفسدوا

كَذَا سَمِعْنَا مِنْ حَالِ الْأَبْدَالِ ،

كذا ) أى مثل الحضور ( سمعنا من حال الأبدال ) جمع بدل : وهم طائفة من الأولياء ، كأنهم أرادوا أنهم أبدال الأنبياء وخلفاؤهم ،وهم عندالقوم سبعة لايزيدون ولاينقصون ، قاله أبوالبقاء .وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : اعلم أن لله عبادا يقال لهم [ الأبدال ] خلف من الأنبياء هم أوتاد الأرض فلما انقضت النبوّة أبدل الله مكانهم قوما من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولاصلاة ولاحسب حلية ولكن بصدق الورع وحسن النية وسلامة الصدر لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر من غير تجبن وتواضع فى غير مذلة ، وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه ، وهم أربعون صديقا أو ثلاثون رجلا قلوبهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ، لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه .

واعلم يا أخى أنهم لا يلعنون شيئاولايؤذونه ولايحقرونه ولايتطاولون عليه ولا يحسدون أحدا على ما آتاه الله من فضله ولا يحرصون على الدّنيا ، هم أطيب الناس خبرا بضم فسكون : أى مخبرا وألينهم عريكة ، أى طبيعة ، وأسخاهم نفسا ، علامتهم السخاء وسجيتهم البشاشة وصفتهم السلامة ليسوا اليوم فى خشية وغدا فى غفلة ولكن مداومون على حالهم الظاهر وهم فيما بينهم وبين ربهم لا تدركهم الرياح العواصف ولا الخيل المجراة قلوبهم تصعد ارتياحا إلى الله واشتياقا إليه ؛ وقدما فى استباق الخيرات أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون . قال الراوى : قلت ياأبا الدرداء ما سمعت بصفة أشد علىّ من تلك الصفة فكيف لى أن أبلغها ؟ فقال ما بينك وبين أن تكون فى أوسعها إلا أن تكون تبغض الدنيا فإنك إذا أبغضت الدنيا أقبلت على حب الآخرة ، وبقدر حبك للآخرة تزهد فى الدنيا وبقدر ذلك تبصر ما ينفعك ، وإذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد واكتنفه بالعصمة .

واعلم ياأخى أن ذلك فى كتاب الله تعالى المنزل — إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون — قال يحي بن كثير الكاهلى الكوفى : فنظرنا فى ذلك فما تلذذ المتلذذون بمثل حب الله وطلب مرضاته ، هكذا أورده الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول بطوله من قول أبى الدرداء . وقال العلامة الزبيدى : اعلم أن حديث الأبدال قد روى عن جماعة من الصحابة مرفوعا وموقوفا : منهم أنس مالك وعبادة بن الصامت وعبد الله بن عمر وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود وعوف بن مالك وأبو هريرة ومعاذ بن جبل ، أما حديث أنس فله طرق بألفاظ مختلفة : منها للخلال فى كرامات الأولياء والديلمى فى مسند الفردوس بلفظ « الأبدال أربعون رجلا وأربعون إمرأة كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا ، وإذا ماتت امرأة أبدل الله مكانها امرأة » . ومنها للطبرانى فى الأوساط بلفظ « لن تخلو الأرض من أربعين رجلامثل خليل الرحمن ، فبهم يسقون وبهم ينصرون ، مامات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر » وإسناده حسن . ومنها لابن عدى فى كامله بلفظ « البدلاء أربعون رجلا : اثنان وعشرون بالشام ، وثمانية عشر بالعراق ، وكلما

مات منهم واحد أبدل الله مكانه آخر ، فاذا جاء الأمر قبضوا كلهم فعند ذلك تقوم الساعة » . وقد رواه أيضا الحكيم فى نوادر الأصول والخلال فى كرامات الأولياء . ومنها «أن بدلاء أمتى لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للمسلمين » رواه الدارقطنى فى كتاب [ الأجواد ] وابن لال فى [ مكارم الأخلاق ] . وقد رواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث أبى سعيد به نحوه . وقال فضيل بن عياض : لم يدرك عندنا من أدرك بكثرة صيام ولاصلاة وإنما أدرك بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للأمة . وأما حديث عبادة ابن الصامت فلفظه « الأبدال فى هـذه الأمة ثلاثون رجلا قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا » . رواه أحمد والحكيم والخلال فى كرامات الأولياء وإسناده حسن . وقال الهيتمى : رجال أحمد رجال الصحيح غير عبد الواحد بن قيس ، وثقه العجلى وأبو زرعة ، وضعفه غيرهما ، ويروى « لايزال فى هذه الأمة ثلاثون مثل إبراهيم خليل الرحمن ، كلما مات أحد أبدل الله مكانه آخر » . وروى أحمد والخلال وهو عند الطبرانى فى الكبير بلفظ « لايزال فى أمتى ثلاثون بهم تقوم الأرض وبهم يمطرون وبهم ينصرون » وأما حديث عبد الله ابن عمر فأخرجه الطبرانى في الكبير وعنه أبو نعيم فى الحلية قال : حدثنا محمد بن الحارث ، حدثنا سعيد بن أبى زيدون ، حدثنا عبد الله بن هارون الصورى ، حدثنا الأوزاعي عن الزهري عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خيار أمتي في كل قرن خمسمائة ، والأبدال أربعون فلا الخمسمائة ينقصون ولا الأربعون كلما مات رجل أبدل الله من الخمسمائة مكانه وأدخل من الأربعين مكانهم ، قالوا يارسول الله دلنا على أعمالهم ، قال يعفون عمن ظلمهم ، ويحسنون إلى من أساء إليهم ويتواسون فيما آتاهم الله » وقد رواه كذلك ابن عساكر ، وفى لفظ للخلال « لايزال أربعون رجلا يحفظ الله بهم الأرض كلما مات رجل أبدل الله مكانه آخر ، وهم فى الأرض كلها» . وأما حديث على بن أبى طالب فيروى بلفظ «الأبدال ستون رجلا ليسوا بالمتنطعين ولا بالمبتدعين ولا بالمتعمقين ولا بالمعجبين لم ينالوا مانالوا بكثرة صلاة ولا صيام ولا صدقة ولكن بسخاء الأنفس وسلامة القلوب والنصيحة لأئمتهم إنهم ياعلى فى أمتى أقل من الكبريت الأحمر» رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الأولياء والخلال فى كراماتهم ؛ ولأحمد فى مسنده من طريق ابن شريح يعنى ابن عبيد قال «ذكر أهل الشام عند على رضى الله عنه وهو بالعراق فقالوا العنهم يا أمير المؤمنين فقال لا إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « البدلاء » وفى لفظ « الأبدال يكونون بالشام وهم أربعون رجلا كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا يسقى بهم الغيث وينتصر بهم على الأعداء ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب » ورجاله من رواة الصحيح إلا شريحا وهو ثقة ورواه أيضا الطبرانى والحاكم من طرق تنوف على العشرة ، وأما حديث عبد الله بن مسعود فقال أبو نعيم في الحلية : حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن ، حدثنا محمد بن السرى القنطرى حدثنا قيس ابن إبراهيم بن قيس السامرى ، حدثنا عبد الرحيم بن يحيى ، حدثنا عثمان بن عمارة حدثنا المعافى ابن عمران عن سفيان الثورى عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عبد الله قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم «إن لله في الخلق ثلاثمائة قلوبهم على قلب آدم عليه السلام ، ولله في الخلق أربعون قلوبهم على قلب موسى عليه السلام ، ولله في الخلق سبعة قلوبهم على قلب ميكائيل عليه السلام ، ولله في الخلق خمسة قلوبهم على قلب عزرائيل عليه السلام ، ولله في الخلق ثلاثة قلوبهم على قلب جبريل عليه السلام ، ولله في الخلق واحد قلبه على قلب إسرافيل عليه السلام فإذا مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة ، وإذا مات من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة ، وإذا مات من الخمسة أبدل الله مكانه من السبعة ، وإذا مات من السبعة أبدل الله مكانه من الأربعين وإذا مات من الأربعين أبدل الله مكانه من الثلاثمائة ، وإذا مات من الثلاثمائة أبدل الله مكانه من العامة ، فبهم يحي ويميت ، ويمطر وينبت ويدفع البلاء ، قيل لابن مسعود : كيف بهم يحي ويميت ؟ قال : لأنهم يسألون الله إكثار الأمم فيكثرون ويدعون على الجبابرة فيقصمون ويستقون فيسقون ويسألون فتنبت لهم الأرض ويدعون فتدفع عنهم أنواع البلاء » وأما حديث عوف بن مالك فأخرجه الطبراني وابن عساكر بلفظ « الأبدال في أهل الشام وبهم ينصرون وبهم يرزقون » .

وأما حديث أبي هريرة فأخرجه ابن حبان في تاريخه بلفظ «لن تخلو الأرض من ثلاثين مثل إبراهيم خليل الرحمن بهم يعافون وبهم يرزقون وبهم يمطرون» وإسناده حسن . وأما حديث معاذ بن جبل فأخرجه أبو عبد الرحمن السلمي في سنن الصوفية والديلمي بلفظ « ثلاث من كن فيه فهو من الأبدال الذين بهم قوام الدنيا وأهلها : الرضا بالقضاء والصبر على محارم الله والغضب في ذات الله » . وقد روى موقوفا على عليّ كرم الله وجهه بلفظ « لا تسبوا أهل الشام جما غفيرا فإن بها الأبدال قالها ثلاثا » أخرجه عبد الرزاق ومن طريقه البيهقي في الدلائل ، بل أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه من قوله ، وكلهم رووه من طريق عبد الله بن صفوان عن عليّ ، وهذه الرواية صححها الضياء في المختارة ولفظ الحاكم « لاتسبوا أهل الشام فإن فيهم الأبدال » وقد رواه الطبراني في الأوساط وابن عساكر في التاريخ من حديث على مرفوعا . ومن المراسيل ما رواه أبو داود في مراسيله والحاكم في الكنى من حديث عطاء بن رباح « الأبدال من الموالي ، زاد الحاكم : ولا يبغض الموالي إلا منافق » وفي مسنده رحال بن سالم منكر الحديث ، ومنها ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء عن بكر ابن خنيس مرفوعا مرسلا « علامة أبدال أمتي أنهم لا يلعنون شيئا أبدا » ، وقال السخاوي : هو مرفوع معضل . وأما الآثار فسيأتي ذكرها ، وقد أورد ابن الجوزي أحاديث الأبدال في الموضوعات وطعن فيها واحدا واحدا ، وتعقبه الحافظ السيوطي بأن خبر الأبدال صحيح وإن شئت قلت متواتر وأطال ، ثم قال مثل هذا بالغ حد التواتر المعنوي بحيث يقطع بصحة وجود الأبدال ضرورة انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر في فتاويه : الأبدال وردت في عدة أخبار منها ما يصح ومنها مالا يصح . وأما القطب فورد في بعض الآثار . وأما الغوث بالوصف المشتهر بين الصوفية فلم يثبت انتهى .

وبما ذكر يظهر بطلان زعم ابن تيمية أنه لم يرد لفظ الأبدال في خبر صحيح ولا ضعيف إلا في خبر منقطع وليتة نفى الرؤية بل نفى الوجود وكذب من ادعى الورود ، فهذه الأخبار وإن فرض ضعفها جميعها لكن لا ينكر تقوّى الحديث الضعيف بكثرة طرقه وتعدد مخرجيه . قال مصنفنا

أبو حامد الغزالى رحمه الله : وإنما استتر الأبدال عن أعين الجمهور لأنهم لا يطيقون النظر إلى علماء الوقت لأنهم عندهم جهال بالله وهم عند أنفسهم الجهلاء علماء انتهى . ورأى بعضهم النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال أين بدلاء أمتك ؟ فأومأ بيده نحو الشام . قال فقلت يارسول الله أما بالعراق منهم أحد ؟ قال بلى وسمى جماعة . ومما يتقوى به هذا الحديث ويدل لانتشاره بين الأئمة قول الامام الشافعى رحمه الله تعالى فى بعضهم كنا نعده من الأبدال ، وقول البخارى فى غيره كانوا لا يشكون أنه من الأبدال ، وكذا وصف غيرهما من النقاد والحفاظ والأئمة غير واحد بأنهم من الأبدال . وقال بعضهم : الأبدال أكلهم فاقة وكلامهم ضرورة . وقال بعضهم : علامة الأبدال أن لا يولد لهم . وعن معروف الكرخى قال : من قال اللهم ارحم أمة محمد فى كل يوم كتبه الله من الأبدال وهو فى الحلية بلفظ « من قال كل يوم اللهم أصلح أمة محمد ، اللهم فرج عن أمة محمد ، اللهم ارحم أمة محمد كتب من الأبدال» . وقال يزيد بن هارون : الأبدال هم أهل العلم . وقال أحمد : إن لم يكونوا أصحاب الحديث فمن هم ؟ وقال أبو نعيم فى الحلية : حدثنا أبو الحسن أحمد بن محمد ابن مقسم ، حدثنا إلياس بن يوسف السكلى ، حدثنى محمد بن عبد المالك قال قال عبد البارى : قلت لذى النون المصرى صف لى الأبدال ، فقال : إنك لتسألنى عن دياجى الظلم لأكشفنها لك عبد البارى : هم قوم إذا ذكروا الله بقلوبهم تعظيما لربهم لمعرفتهم بجلاله فهم حجج الله على خلقه . ألبسهم النور الساطع من محبته ورفع لهم أعلام الهداية إلى مواصلته وأقامهم مقام الأبطال لإرادته وأفرغ عليهم الصبر عن مخالفتهم وطهر أبدانهم بمراقبته ، وطيبهم بطيب أهل معاملته وكساهم حللا من نسج مودته ووضع على رءوسهم تيجان مسرته ثم أودع القلوب من ذخائر العيوب فهى معلقة بمواصلته ، فهمومهم إليه ثائرة وأعينهم إليه بالغيب ناظرة إلى آخر ماقاله . وروى الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول « إن الأرض اشتكت إلى ربها انقطاع النبوة ، فقال تعالى سوف أجعل على ظهرك أربعين صديقا كلما مات منهم رجل أبدلت مكانه رجلا » ولذلك سموا أبدالا ، فهم أوتاد الأرض وبهم تقوم الأرض وبهم يمطرون . وقال القطب أبو العباس المرسى قدس سره : جلت فى الملكوت فرأيت أبا مدين معلقا بساق العرش رجل أشعر أزرق العين ، فقلت له ما علومك وما مقامك ؟ قال علومي أحد وسبعون علما ، ومقامى رابع الخلفاء ورأس الأبدال السبعة . قلت فالشاذلى ؟ قال ذاك بحر لا يحاط به . وقال المرسى أيضا : كنت جالسا بين يدى أستاذى الشاذلى فدخل جماعة ، فقال هؤلاء أبدال فنظرت ببصيرتى فلم أرهم أبدالا فتحيرت ، فقال الشيخ : من بدلت سيآته حسنات فهو بدل ، فعلمت أنه أول مراتب البدلية . وأخرج ابن عساكر أن ابن المثنى سأل أحمد بن حنبل ما تقول فى بشر بن الحارث ؟ قال رابع سبعة من الأبدال . وقال بلال الخواص فيما رويناه فى مناقب الشافعى ، وفى رسالة القشيرى : كنت فى تيه بنى إسرائيل ، فإذا رجل يماشينى فتعجبت منه وألهمت أنه الخضر ، فقلت بحق الحق من أنت ؟ قال : أنا أخوك الخضر . فقلت له أريد أن أسألك ، قال سل ، قلت : ماتقول فى الشافعى ؟ قال هو من الأوتاد . قلت : فما تقول فى أحمد ؟ قال رجل صديق . قلت : فما تقول فى بشر بن الحارث ، قال : رجل لم

يخلق بعده مثله . قلت : فبأى وسيلة رأيتك ، قال ببرك بأمك . وفى تاريخ الخطيب عن أبى بكر الكتانى قال : النقباء ثلاثمائة والنجباء سبعون ، والبدلاء أربعون ، والأخيار سبعة ، والعمد أربعة ، والغوث واحد ؛ فمسكن النقباء المغرب ، ومسكن النجباء مصر ، ومسكن البدلاء الشام ، والأخيار سياحون فى الأرض ، والعمد فى زوايا الأرض ، ومسكن الغوث مكة .

﴿ فصل ﴾ قال الشيخ الأكبر قدس سره فى كتاب [ حلية الأبدال ] أخبرنى صاحب لنا قال : بينا أنا ليلة فى مصلاى قد أكملت وردى وجعلت رأسى بين ركبتى أذكر الله تعالى ، إذ حسست بشخص قد نفض مصلاى من تحتى وبسط عوضه حصيراً ، وقال صل عليه وباب بيتى علىّ مغلق فداخلنى منه الفزع ، فقال لى : من يأنس بالله لم يجزع ، ثم قال اتق الله فى كل حال ، ثم إنى ألهمت الصوت ، فقلت يا سيدى بماذا يصير الأبدال أبدالا ؟ فقال بالأربعة التى ذكرها أبو طالب فى القوت : الصمت ، والعزلة ، والجوع ، والسهر ثم انصرف ولا أعرف كيف دخل ولا خرج وبابى مغلق انتهى . قال الشيخ الأكبر : وهذا رجل من الأبدال اسمه معاذ بن أشرس ، والأربعة المذكورة هى عماد هذا الطريق الأسنى وقوائمه ومن لا قدم له فيها ولا رسوخ تائه عن طريق الله تعالى ، وفى ذلك قلت :

يا من أراد منازل الأبدال ... من غير قصد منه للأعمال
لا تطمعن بها فلست من أهلها ... إن لم تزاحمهم على الأحوال
واصمت بقلبك واعتزل عن كل من ... يدنيك من غير الحبيب الدالى
وإذا سهرت وجعت نلت مقامهم ... وصحبتهم فى الحل والترحال
بيت الولاية قسمت أركانه ... ساداتنا فيه من الأبدال
ما بين صمت واعتزال دائم ... والجوع والسهر النزيه العالى

﴿ تنبيه ﴾ لا تناقض بين أخبار الأربعين والثلاثين ، لأن الجملة أربعون رجلا : منهم ثلاثون قلوبهم على قلب إبراهيم ، وعشرة ليسوا كذلك فلاخلاف كما صرح به خبر أبى هريرة عند الحكيم الترمذي . وقال الشيخ الأكبر قدس سره : الأوتاد الذين يحفظ الله بهم العالم أربعة فقط وهم أخص من الأبدال ، والإمامان أخص منهم ، والقطب أخص من الجماعة والأبدال لفظ مشترك يطلقونه على من تبدلت أوصافه المذمومة بالمحمودة ، ويطلقونه على عدد خاص وهم أربعون ، وقيل ثلاثون . وقيل سبعة ، وإنما سموا أبدالا لأنه إذا مات واحد منهم أبدل أولأنهم أعطوا من القوة أن يتركوا بدلهم حيث يريدون ، ولكل وتد من الأوتاد الأربعة ركن من أركان البيت ويكون على قلب نبى من الأنبياء . فالذى على قلب آدم له الركن الشامي ، والذي على قلب إبراهيم له الركن العراقى ، والذى على قلب يحي له الركن اليمانى ، والذي على قلب محمد صلى الله عليه وسلم له ركن الحجر الأسود ، وهو لنا بحمد الله تعالى . وقال فى الفتوحات : قوله فى حديث «على قلب إبراهيم» وفى حديث آخر «على قلب آدم» وكذا قوله فى غير هؤلاء ممن هو على قلب شخص من

أنهُمْ يَحضُرُونَ جُمُوعَ الإِسْلاَمِ أَيْنَمَا كَانَتْ ، وَيَسِيرُونَ مِنَ الْأَرْضِ حَيْثُ شَاءوا ، وَأَنَّ الْأَرْضَ لَهُمْ قَدَمٌ وَاحِدٌ . وَفِى الْأَخْبَارِ أَنَّ الْأَرْضَ تُطْوَى لَهُمْ وَيُنَادُونَ بِالتَّحِيَّاتِ وَيُتْحَفُونَ بِأَنْوَاعِ الْبِرِّ وَالْكَرَامَاتِ ، فَهَنِيئاً بِمَا ظَفَرُوا بِهِ ، وَأَحْسَنَ اللهُ عَزَاءَ مَنْ غَفَلَ عَنِ النَّظَرِ فِى خَلاَصِ نَفْسِهِ وَأَعَانَ الطَّالِبَ الَّذِى لَمْ يَصِلْ إِلَى الْمَقْصُودِ كَأَمْثَالِنَا ، وَلَقَدْ عُرِضَ لِى فِى صِفَةِ حَالِى أَبْيَاتٌ مِنَ الشِّعْرِ ، وَهِىَ :

ظفرَ الطَّالِبُونَ وَاتَّصَلَ الْوَصْلُ وَفازَ الْأَحْبَابُ بِالْأَحْبَابِ
وَبَقِينا مُذَبْذَبِينَ حَيَارَى بَيْنَ حَدِّ الوِصَالِ وَالاجْتِنابِ

---

أكابر البشر أو الملائكة ، معناه : أنهم يتقلبون فى المعارف الإلهية بدل ذلك الشخص ، إذ كانت واردات العلوم الإلهية إنما ترد على القلوب ، فكل علم يرد على قلب ذلك الكبير من ملك أو رسول يرد على هذه القلوب التي هي على قلبه ، وربما يقول بعضهم : فلان على قدم فلان ، ومعناه ماذكر ، والله أعلم .

وهذا مراد العلامة الحفنى بقوله : ومعنى كون الولىّ على قلب نبىّ أن نور ولاية النبى الذى كان ينزل عليه ينزل على قلب ذلك الولى : أى الأسرار التى تنزل على ذلك النبى تنزل على قلب الولى وإن اختلفت كيفا ، وهو معنى قولهم في سيدى أحمد البدوى عيسوى ، وأما مااشتهر من أن معنى عيسوى أنه كلما قدم الزمن زاد المدد فليس مرادا وإن كان صحيحا فى نفسه ، وبهذا تعلم معنى قول أهل التصوف : فلان مقامه محمدى ، وفلان عيسوى إلى آخره ، والمقام الأحمدى أعلى من المحمدى كما هو مبسوط فى كتب القوم يعرفه أهله سواء أظهروه أم كتموه ( أنهم ) أى الأبدال ( يحضرون جموع الاسلام أينما كانت ) أى فى أى ناحية كانت من مشارق الأرض أو مغاربها ( ويسيرون من الأرض حيث شاءوا وأن الأرض لهم قدم واحد ، و ) روى ( فى الأخبار : أن الأرض تطوى لهم وينادون ) أى ينادى بعضهم بعضا ( بالتحيات ) جمع تحية ، وهى مايحيا به من قول أو فعل ، والمراد : يسلم بعضهم علي بعض ( ويتحفون ) أي يعطون تحفة وهدية من الله تعالى ( بأنواع البر والكرامات فهنيئا ) أى فهنأهم الله هنيئا ( بما ظفروا ) أى فازوا ( به ) أى من أنواع الكرامات ، والقرب من رب الأرض والسموات ( وأحسن الله ) جملة دعائية كما قرره بعضهم ( عزاء ) أى صبر ( من غفل عن النظر ) أى التفكر والتأمل ( فى ) أسباب ( خلاص نفسه ، و ) من ( أعان الطالب الذى لم يصل إلى المقصود ) وذلك ( كأمثالنا ) وهذا تواضع من المصنف رحمه الله كما هو ظاهر ( ولقد عرض لى ) بالبناء للمفعول ( فى ) بيان ( صفة حالى أبيات من الشعر ) الموزون ببحر الخفيف ( وهى ) أى الأبيات ( ظفر الطالبون واتصل الوصل ) وهذا مدور نصفه الصاد : أى لقاء الله الملك الرحمن ( وفاز الأحباب بالأحباب . وبقينا مذبذبين ) أى مترددين بين أمرين ( حيارى ) جمع حيران ( بين حد الوصال ) إلى الله تعالى ( والاجتناب )

نَرْتَجِي الْقُرْبَ بِالْبِعَادِ وَهٰذَا نَفْسُ حَالِ الْمُحَـالِ لِلْأَلْبَابِ
فَاسْقِنَا مِنْكَ شَرْبَةً تُذْهِبُ الْغَمْ مَ وَتَهْدِي إِلَى طَرِيقِ الصَّوَابِ
يَا طَبِيبَ السَّقَامِ يَا مَرْهَمَ الْجُرْ حِ وَيَا مُنْقِذِي مِنَ الْأَوْصَابِ
لَسْتُ أَدْرِي بِمَا أُدَاوِي سِقَامِي أَوْ بِمَاذَا أَفُوزُ يَوْمَ الْحِسَابِ
وَلْنَقْبِضِ الْآنَ

من الله ( نرتجى القرب ) من الله تعالى ( بالبعاد ) الباء بمعنى مع ( وهـذا ) أى رجاء القرب مع ارتـكاب الأفعال المبعدة عن الله تعالى ( نفس حال المحال للألباب ) أى العقول . وفى المختار : اللب العقل وجمعه ألباب ( فاسقنا منك ) يارب ( شربة ) أى من المدد والتوفيق ( تذهب ) بضم التاء : أى الشربة ( الغم ) وهذا مدور أيضا ( وتهدى ) تلك الشربة ( إلى طريق الصواب . ياطبيب السقام ) أى ياشافى المرض . قال شيخ الإسلام الهروى : لايجوز إطلاق الطبيب عليه تعالى ، وهو الموافق لشرح العمدة ، وشرح المواقف ، وتبصرة الأدلة ، وشرح المقاصد ، والعمدة الفارسية ، وشرح المختصر العضدى فى بحث أن للقرآن مجازا ، لـكن نقل فى الفصول العمادية أنه قيل له : أى لأبى بكر رضى الله عنه : دعونا لك طبيبا ، فقال لقد رآنى الطبيب وقال إنى فعال لما أريد . وقيل لأبى الدرداء فى مرضه ماتشتكى ؟ قال ذنوبى . قيل فما تشتهى ؟ قال مغفرة ربى ، قالوا ألا ندعو لك طبيبا ؟ قال الطبيب أمرضنى ، ووقع فى كتاب [ القصاص من المصابيح ] : أنت الرفيق والله الطبيب ، فذكر الشارح التور بشتى : الرفق لين الجانب ، ولطافة الفعل : أى أنت المتصدى للعلاج بلطافة الفعل ، وإنمـا الشافى المزيل للداء هو الله ، وذهب فى ذلك إلى مقتضى المعنى من الطبيب لا إلى مقتضاه فى اللفظ ، ولا يوجب هـذا جواز تسمية الله طبيبا : بل الوجه فى ذلك كما فى قوله « إن الله هو الدهر » : أى الذى ينسبونه إلى الدهر فإن الله فاعله لا الدهر فتدبر ( يا مرهم الجـرح ) فيه ما تقدم : أى واضع المرهم فيه ، والمرهم : الذى يوضع فى الجراحات كما فى المختار ( ويا منقذى ) أى يا مخلصى ( من الأوصاب ) جمع الوصب بفتح الصاد : بمعنى المرض والوجع الدائم ( لست أدرى بمـا ) أى بأى شىء ( أداوى سقامى . أو بمـاذا أفوز يوم الحساب ) أى للأعمال ، وهو يوم القيامة ( ولنقبض ) أى نمسك ( الآن ) أى فى هذا الوقت الحاضر . قال بعض المحققين : والآن ظرف للوقت الحـاضر الذى هو فيه ولزم دخول الألف واللام ، وليس ذلك للتعريف لأنه تميز المشتركات ، وليس لذلك ما يشركه فى معناه ، ولذا ألغز فيه بعضهم بقوله :

مولاى قـد أبديت أحجيـة تخالهـا دررا فى السلك منظومه
ما كلمة قدروها وهى حاصلة فى اللفظ موجودة فى النطق مفهومه

عِنَانَ الْبَنَانِ وَنَرْجِعْ إِلَى الْمَقْصُودِ مِنْ شَأْنِ الْعُزْلَةِ فَقَدْ خَرَجْنَا عَنْ شَرْطِ الْبَابِ . فَإِنْ قِيلَ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم : « رَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِي الْجُلُوسُ فِي الْمَسَاجِدِ » وَفِيهِ زَجْرٌ عَنِ التَّفَرُّدِ ، فَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ فِي غَيْرِ زَمَنِ الْفِتْنَةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ ، وَأَيْضاً فَإِنَّهُ يَجْلِسُ فِي الْمَسْجِدِ وَلاَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَلاَ يُدَاخِلُهُمْ ، فَيَكُونُ بِالشَّخْصِ مَعَهُمْ ، وَفِي الْمَعْنَى مُنْفَرِدًا عَنْهُمْ ، وَهٰذَا هُوَ الْمَعْنِيُّ فِي الْعُزْلَةِ وَالتَّفَرُّدِ الَّذِي نَحْنُ فِي شَرْحِهِ ، لاَ التَّفَرُّدُ بِالشَّخْصِ وَالْمَكَانِ ، فَافْهَمْ ذَلِكَ رَحِمَكَ اللهُ ، وَفِيهِ يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ أَدْهَمَ رَحِمَهُ اللهُ : كُنْ وَاحِدًا جَامِعِيًّا ، وَمِنْ ،

---

وأجاب الشيخ أحمد الدمياطي رحمه الله بقوله :

الآن يا سيدي يأتي الجواب فلا تعجل بخالك في الأذهان معلومه
فالآن قد بينت لدى تضمنها لآل ولكنها في اللفظ مرقومه

( عنان ) أي لجام ( الجنان ) بالفتح : القلب ( ونرجع ) أي ولنرجع ( إلى المقصود من شأن العزلة فقد خرجنا عن شرط الباب ) أي باب العزلة . ( فان قيل أليس )الشأن ( قدقال النبي صلى الله عليه وسلم : رهبانية أمتي) أي تبتل عبادة أمتي وانقطاعهم لها ، وهو من الرهبة بمعنى الخوف ، وقد ترهب الراهب : انقطع للعبادة ، كذا في الإتحاف ( الجلوس في المساجد ) كذا في القوت . وقال العراقي : لم أجد له أصلا . وروى جرير من حديث أبي هريرة « من جلس في المسجد ينتظر الصلاة فهو في صلاة ، والملائكة تقول : اللهم اغفر له اللهم ارحمه مالم يحدث » . وروى مالك في الموطأ وابن حبان والطبراني والحاكم والبيهقي والضياء من حديث عبد الله بن سلام وأبي هريرة « من جلس في المسجد ينتظر الصلاة فهو في صلاة حتى تصلي » . وروى عبد بن حميد وابن جرير والطبراني من حديث سهل بن سعد « من جلس في المسجد ينتظر الصلاة فهو في صلاة » كذا ذكره الزبيدي ( وفيه ) أي مفهوم هذا الحديث ( زجر عن ) العزلة و ( التفرد ) عن الناس . ( فاعلم أن ذلك ) أي الجلوس في المساجد والمصاحبة معهم ( في غير زمن الفتنة كما ذكرناه ) في الوجه الثالث ( وأيضا فإنه ) أي العبد السالك ( يجلس في المسجد ولا يخالط الناس ولا يداخلهم ) أي يصاحبهم ( فيكون ) العبد ( بالشخص معهم وفي المعنى منفردا ) بالقلب ( عنهم وهذا ) أي كونه بالشخص معهم وانفراده بالقلب عنهم ( هو المعنى ) أي المراد ( في العزلة والتفرد الذي نحن في شرحه ، لا ) المراد بالعزلة ( التفرد بالشخص والمكان ، فافهم ذلك ) أي التفرد الذي شرحناه ( رحمك الله ) جملة دعائية ( وفيه ) أي في التفرد الذي أردناه (يقول إبراهيم بن أدهم) بن منصور (رحمه الله ) توفي سنة إحدي وستين ومائة ( كن واحدا ) بالقلب ( جامعيا ) بالنفس ( ومن

رَبِّكَ ذَا أُنْسٍ ، وَمِنَ النَّاسِ وَحْشِيًّا . فَإِنْ قِيلَ فَمَا تَقُولُ فِي مَدَارِسِ عُلَمَاءِ الآخِرَةِ وَرِبَاطَاتِ الصُّوفِيَّةِ سَالِكِي طَرِيقِ الآخِرَةِ وَالسُّكُونِ فِيهَا . فَاعْلَمْ أَنَّ تِلْكَ الطَّرِيقَةَ المُثْلَى فِي هَذَا الشَّأْنِ لِعَامَّةِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالاجْتِهَادِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا جَمَعَتِ الْمَعْنَيَيْنِ وَالْفَائِدَتَيْنِ اللَّتَيْنِ إِحْدَاهُمَا الْعُزْلَةُ عَنِ النَّاسِ وَالتَّفَرُّدُ عَنْهُمْ بِالصُّحْبَةِ وَالْمُخَالَطَةِ وَالْمُزَاحَمَةِ فِي أُمُورِهِمْ ، وَالثَّانِيَةُ الْمُشَارَكَةُ مَعَهُمْ فِي جَمْعِهِمْ وَجَمَاعَاتِهِمْ وَتَكْثِيرُ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ فَتَحْصُلُ السَّلَامَةُ الَّتِي هِيَ لِلْمُنْفَرِدِينَ وَالْخَيْرُ الْكَثِيرُ الَّذِي هُوَ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ مَا لِلنَّاسِ فِيهِمْ مِنَ الْقُدْوَةِ ،

---

ربك ذا أنس ، و ) كن ( من الناس وحشيا ) أى منقطعا وبعيدا بالقلب عن مودّاتهم ( فان قيل : فما تقول فى مدارس علماء الآخرة ، ورباطات الصوفية ) أى المواضع التى تبنى للذين هم متلبسون بالتصوف . قال الزبيدى : وأحسن ما قيل فى تعريف التصوف : الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا فيرى حكمها من الظاهر فى الباطن وباطنا فيرى حكمها من الباطن فى الظاهر . قال الشيخ أبو نعيم فى أول الحلية : فأما التصوف فاشتقاقه عند أهل الإشارات من الصفاء والوفاء والفناء ، واشتقاقه من حيث الحق التي أوجبت اللغة ، فانه عن أحد أربعة أشياء من الصوفانة : وهى بقلة زغباء قصيرة ، أو من صوفة : وهى قبيلة كانت فى الدهر الأول تجيز الحاج وتخدم الكعبة أو من صوفة القفا : وهى الشعرات النابتة فى مؤخره ، أو من الصوف المعروف على ظهور الضأن ثم أطال فى تقرير كل ذلك بدلائله وحججه . وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتاب [الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان] هذه الأقوال كلها ؛ ورجح قول من قال : إنه منسوب إلى صوفة : اسم قبيلة ، ورد بقية الأوجه ( سالكى طريق الآخرة ) أى سائرين لها ، وتحذف نون الجمع للاضافة كما تحذف نون التثنية ، لذلك قال الحريرى :

وتحذف النونان للاضافه نحو لقيت ساكنى الرصافه

(و) ماتقول فى ( السكون فيها ) أى فى المدارس والرباطات ( فاعلم أن تلك ) المدارس والرباطات مع السكون فيهما (الطريقة المثلى) أى الفضلى (فى هذا الشأن) أى شأن العزلة (لعامة أهل العلم) أى لكثرتهم ( و ) أهل (الاجتهاد) فى العبادة ( وذلك ) أى أفضلية هذه الطريقة ( لأنها ) أى الطريقة ( جمعت المعنيين والفائدتين اللتين إحداهما : العزلة عن الناس ) أى عن أكثرهم غير من ذكر من علماء الآخرة والصوفية ( والتفرد عنهم بالصحبة والمخالطة والمزاحمة فى أمورهم . و ) الفائدة ( الثانية المشاركة معهم ) أى علماء الآخرة ( فى جمعهم ) جمع جمعة ( وجماعاتهم وتكثير شعائر الإسلام ، فتحصل السلامة التي هى للمنفردين ، و ) يحصل ( الخير الكثير الذى هو لعامة ) أي كثرة ( المسلمين مع ما ) يحصل ( للناس فيهم ) أي علماء الآخرة ( من القدوة ) . وفى أكثر

وَالْبَرَكَةِ وَالنَّصِيحَةِ فَصَارَ السُّكُونُ فِيهَا أَعْدَلَ طَرِيقٍ، وَأَحْسَنَ حَالٍ، وَأَسْلَمَ سَبِيلٍ، وَلِهَذَا الشَّأْنِ أَقَامَ أَكْثَرُ الْعَارِفِينَ بَيْنَ النَّاسِ لِنَفْعِهِمْ لِعِبَادِ اللهِ تَعَالَى فِى بَابِ الدِّينِ وَقِلَّةِ أَذَاهُمْ وَمُشَاهَدَةِ الْخَلْقِ لِآدَابِهِمْ وَحُسْنِ رُسُومِهِمْ لِيَقْتَدُوا بِهِمْ، فَإِنَّ لِسَانَ الْحَالِ أَفْصَحُ مِنْ لِسَانِ الْمَقَالِ، فَصَارَ ذَلِكَ أَحْسَنَ تَدْبِيرٍ فِى أَمْرِ الدِّينِ لِلْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ وَأَحْكَمَ رَأْيٍ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا حَالُ الْمُرِيدِ مَعَ الْمُجْتَهِدِينَ وَالْمُرْتَاضِينَ أَيَصْحَبُهُمْ أَمْ يَعْتَزِلُهُمْ؟ فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا ثَابِتِينَ عَلَى رُسُومِهِمُ الْأُولَى وَسِيرَتِهِمُ الْمَوْرُوثَةِ عَنْ سَلَفِهِمْ فَهُمْ أَجَلُّ إِخْوَانٍ فِى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَصْحَابٍ وَأَعْوَانٍ

---

النسخ من العدة : أى للطاعة ( والبركة ) أى الخير الإلهى ( والنصيحة ) هى كالنصح بضم النون مصدر نصح ، وقيل : الأول اسم مصدر ، والثانى مصدر . وهى لغة : الإخلاص والتصفية ، من نصحت له القول والعمل : أخلصته ، ونصحت العسل : صفيته ، شبهوا تخليص الناصح قوله من الغش بتخليص العسل من شمعه ، أو من النصح بفتح النون : وهو الخياطة ، والمنصحة : الإبرة والنصاح بكسر النون : الخيط ، والناصح : الخياط ، شبهوا فعل الناصح فيما يتحراه من صلاح المنصوح وجمع شعثه بما تسده الإبرة وتضمه من خرق الثوب وخلله ، ونصحت له أفصح من نصحته . وشرعا : إخلاص الرأى من الغش للمنصوح وإيثار مصلحته ، ومن ثم كانت هذه الكلمة مع وجازة لفظها كلمة جامعة : معناها حيازة الخير للمنصوح له ليس فى كلام العرب أجمع منها ، ومن كلمة الفلاح لخيرى الدنيا والآخرة كما نبه عليه العلامة ابن حجر فى شرح الأربعين ( فصار السكون ) والاجتماع ( فيها ) أى المدارس والرباطات ( أعدل طريق وأحسن حال وأسلم سبيل ولهذا الشأن ) المحمود من القدوة ونحو ذلك ( أقام أكثر العارفين ) قدس الله أسرارهم ( بين الناس لنفعهم ) أى العارفين ( لعباد الله تعالى فى باب الدين وقلة أذاهم ومشاهدة الخلق لآدابهم وحسن رسومهم ) أى عاداتهم وطرقهم ( ليقتدوا ) أى الخلق ( بهم ) أى بأعمالهم وأحوالهم ( فإن لسان الحال أفصح ) أى أظهر دلالة إلى المراد ( من لسان المقال ) ولأن طباع الناس إلى المعاونة فى الأعمال أميل إليها من المتابعة فى الأقوال ( فصار ذلك ) أى إقامة أكثر العارفين بين الناس ( أحسن تدبير فى أمر الدين للعلم والعبادة ، وأحكم رأى ) أى أتقنه . ( فإن قيل : فما حال المريد مع المجتهدين ) فى العبادة ( والمرتاضين ) أى الذين يروضون ويجاهدون نفوسهم لامتثال الأوامر واجتناب النواهى ( أيصحبهم أم يعتزلهم ؟ فاعلم أنهم ) أى المجتهدين والمرتاضين ( إذا كانوا ثابتين على رسومهم ) أى طرقهم ( الأولى ) أى الموروثة عن أسلافهم ( وسيرتهم ) بكسر السين مع سكون الياء بمعنى الطريقة والحالة والهيئة ( الموروثة عن سلفهم ) الصالحين ( فهم ) أى المجتهدون والمرتاضون ( أجل ) أى أعظم ( إخوان فى ) طاعة ( الله عز وجل و ) أجل ( أصحاب وأعوان ) جمع

عَلَى عِبَادَةِ اللهِ تعالى ، فَلاَ تَسَعُكَ عُزْلَةٌ وَتَفَرُّدٌ ، وَإِنَّمَا مَثَلُهُمْ مَثَلُ مَا تَسْمَعُ مِنْ زُهَّادِ لُبْنَانَ وَغَيْرِهِمْ : أَنَّ مِنْهُمْ جَمَاعَاتٍ يَتَعَاوَنُونَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَيَتَوَاصَوْنَ بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ ، وَأَمَّا إِذَا تَغَيَّرُوا عَنْ سِيرَتِهِمْ وَتَرَكُوا رُسُومَهُمْ وَأَخَلُّوا بِطَرِيقَتِهِمُ الْمَوْرُوثَةِ عَنْ أَسْلاَفِهِمُ الصَّالِحِينَ فَحُكْمُ هٰذَا الْمُجْتَهِدِ الْمُرْتَاضِ مَعَهُمْ كَحُكْمِهِ مَعَ سَائِرِ النَّاسِ يَلْزَمُ زَاوِيَتَهُ وَيَكُفُّ لِسَانَهُ ،

---

عون: بمعنى معين ( على عبادة الله تعالى فلا تسعك ) أى لا تجوز لك ( عنهم عزلة وتفرد ، وإنما مثلهم ) أى مثل هؤلاء المجتهدين في أنهم أعظم إخوان فى الله تعالى ( مثل مانسمع من ) حال (زهاد لبنان) اسم جبل بالشام ( وغيرهم ) وذلك (أن منهم) أىهؤلاء الزهاد ( جماعات يتعاونون ) أى يعاون بعضهم بعضا ( على البر ) أى فعل ما أمروا به ( والتقوى ) .أى بترك ما نهوا عنه ( ويتواصون ) أى يوصى بعضهم بعضا ( بالحق ) أى الأمر الثابت ، وهو كل ما حكم الشرع بصحته ولا يسوغ إنكاره ، وهو الخير كله من توحيد الله تعالى وطاعته ، واتباع كتبه ورسله ، والزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة ؛ كذا قاله الخطيب ( و ) يتواصون بـ(الصبر) على الطاعة وعن المعصية . قال العلامة الكرخي : وتخصيص هذا التواصى بالذكر مع اندراجه تحت التواصي بالحق لإبراز كمال الاعتناء به ، أو لأن الأول عبارة عن رتبة العبادة التى هى فعل ما يرضى به الله تعالى . والثانى عبارة عن رتبة العبودية التى هى الرضا بما فعل الله ، فإن المراد بالصبر ليس مجرد حبس النفس عما تتوق إليه من فعل وترك ، بل هو تلقي ما ورد منه تعالى بالقبول ، والرضا به ظاهرا وباطنا (وأما إذا تغيروا ) أى أولئك المجتهدون والمرتاضون (عن سيرتهم وتركوا رسومهم ) أى علاماتهم ( وأخلوا ) أى تركوا ( بطريقتهم الموروثة عن أسلافهم الصالحين ، فحكم هذا ) المريد ( المجتهد ) فى العبادة ( المرتاض ) لنفسه المجاهد لها ( معهم ) أى مع أولئك المرتاضين ( كحكمه ) أى المجتهد ( مع سائر الناس ) أى باقيهم غير أولئك المذكورين ( يلزم زاويته ) أى ركن بيته أو مابنى كهيئة المسجد كما قاله بعض المحققين ( ويكف ) أى يحبس ( لسانه ) عن الشر ، لخبر الصحيحين « فليقل خيرا أو ليصمت » . وفى هذا إشارة إلى أن جهاد النفس بقمعها عن الكلام فيما يرديها ويؤذيها أشق عليها من جهاد الكفار وإن كان هذا هو الجهاد الأصغر وذاك هو الجهاد الأكبر، إذ منعها هواها من أجل ما اقتناه الإنسان . ومن أعظم آدابها : الصمت ، وترك الكلام فيما لا يعنى ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم « من صمت نجا » . فى الحديث الصحيح « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى لا يلقى لها بالا يكتب له رضوانه إلى يوم القيامة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يعلم أنها تقع حيث تقع فيكتب له فيها سخطه إلى يوم يلقاه أو قال يهوى بها فى النار سبعين خريفا » . وفى الحكمة : لسانك أسدك ، إن أطلقته فرسك ، وإن أمسكته حرسك . ومن ثم كان أبو بكر رضى الله عنه يمسك لسانه ، ويقول : هذا الذى أوردنى الموارد

وَيُشارِكَهُمْ فى خَيْرَاتِهِمْ، وَيُجَانِبَهُمْ فى سَائِرِ أَحْوَالِهِمْ وَآفَاتِهِمْ، فَيَكُونُ هُوَ فى عُزْلَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعُزْلَةِ مُنْفَرِدًا عَنِ الْمُنْفَرِدِينَ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَإِنِ اخْتَارَ هٰذَا الْمُجْتَهِدُ الْمُرْتَاضُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَيْنِهِمْ إِلى مَكَانٍ آخَرَ لِصَلَاحٍ يَرَاهُ فى نَفْسِهِ وَتَجَنُّبِ آفَةٍ تَدْخُلُ عَلَيْهِ فى صُحْبَتِهِمْ . فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ الْمَدَارِسَ وَالرِّبَاطَاتِ بِمَنْزِلَةِ حِصْنٍ حَصِينٍ يَتَحَصَّنُ بِهَا الْمُجْتَهِدُونَ عَنِ الْقُطَّاعِ وَالسُّرَّاقِ ، وَأَنَّ الْخَارِجَ بِمَنْزِلَةِ الصَّحْرَاءِ تَدُورُ فِيهَا فُرْسَانُ الشَّيَاطِينِ عَسْكَرًا عَسْكَرًا فَتَسْلُبُهُ أَوْ تَسْتَأْسِرُهُ ، فَكَيْفَ حَالُهُ إِذَا خَرَجَ إِلى الصَّحْرَاءِ وَتَمَكَّنَ الْعَدُوُّ مِنْهُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ يَعْمَلُ بِهِ مَا يَشَاءُ ؟ فَإِذًا لَيْسَ لِهٰذَا الضَّعِيفِ إِلاَّ لُزُومُ الْحِصْنِ ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الْقَوِىُّ الْبَصِيرُ الَّذِى لاَ يَغْلِبُهُ الْأَعْدَاءُ وَاسْتَوَى عِنْدَهُ الْحِصْنُ وَالصَّحْرَاءُ فَلاَ خَوْفَ عَلَيْهِ إِذَا خَرَجَ ، غَيْرَ

---

( ويشاركهم ) أي يشارك ذلك المريد المجتهدين والمرتاضين ( فى خيراتهم ويجانبهم ) أى يباعدهم ( فى سائر أحوالهم وآفاتهم ، فيكون هو ) أى المريد المجتهد ( فى عزلة من أهل العزلة منفرداً عن المنفردين . فان قلت : فان اختار هـذا المجتهد المرتاض أن يخرج من بينهم ) أى بأن لم يسكن مدارسهم ورباطاتهم ( إلى مكان آخر لصلاح يراه ) أى الصلاح ( فى نفسه و ) لأجل ( تجنب آفة ) من الآفات ( تدخل ) أى تلك الآفة ( عليه ) أى المريد ( فى صحبتهم . فاعلم أن هذه المدارس والرباطات بمنزلة حصن ) أى حجاب مانع ( حصين ) بفتح الحاء : أى كثير المنع ( يتحصن ) أى يتحفظ ( بها ) أى بداخل هذه المدارس والرباطات ( المجتهدون عن القطاع ) أى قطاع الطريق فى عبادة الله ( والسراق ) جمع سارق ( و ) اعلم أيضا ( أن ) المكان ( الخارج ) من تلك المدارس والرباطات ( بمنزلة الصحراء تدور فيها ) أى الصحراء ( فرسان ) بضم الفاء وكسرها مع سكون الراء جمع فارس ( الشياطين عسكرا عسكرا ) . قال ابن الجواليقى : فارسى معرب : أي جيشاً بعد جيش ( فتسلبه ) بضم اللام من باب قتل : أى فتخلس فرسان الشياطين من يكون فى المكان الخارج ( أو تستأسره )أى تطلبه بالتقييد والأسر (فكيف حاله) أى حال المريد الضعيف ( إذا خرج ) من داخل الحصن الحصين ( إلى الصحراء وتمكن العدو منه ) أى المريد الخارج من كل جانب يعمل ( ذلك العدو ) به مايشاء(فاذا ) أى إذا تمكن العدو من كل جانب إن خرج ذلك المريد الضعيف ( ليس ) أى لا يجوز ( لهذا الضعيف إلا لزوم الحصن ) الحصين ( وأما الرجل القوى البصير ) لأنواع المكايد ( الذى لا يغلبه الأعـداء واستوى عنده ) أى القوى البصير ( الحصن والصحراء فلا خوف عليه إذا خرج ) عن الحصن الحصين ( غير ) منصوب على الاستثناء

أَنَّ السُّكُونَ فى الحِصْنِ أَحْوَطُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، إِذْ لاَ يُؤْمَنُ مِنَ الفَلَتَاتِ وَالاتِّفَاقَاتِ مَعَ قُرَنَاءِ السُّوءِ ، وَإِذَا كَانَ الأَمْرُ بِهٰذِهِ المَثَابَةِ فَالسُّكُونُ مَعَ رِجَالِ اللهِ وَالصَّبْرُ عَلَى مَشَقَّةِ الصُّحْبَةِ أَوْلَى لِلْمُرْتَاضِ وَطَلَبِ الخَيْرِ بِكُلِّ حَالٍ ، وَأَنْ لاَ مَانِعَ لِلْقَوِىِّ البَالِغِ مَبْلَغَ الاِسْتِقَامَةِ عَنِ التَّفَرُّدِ مِنْهُمْ ، فَاعْلَمْ هٰذِهِ الجُمْلَةَ وَتَأَمَّلْهَا تَغْنَمْ وَتَسْلَمْ إِنْ شَاءَ اللهُ تعالى .

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا تَقُولُ فى زِيَارَةِ الإِخْوَانِ فى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ : وَمُوَاصَلَةِ الأَصْحَابِ بِالتَّلاَقِى وَالتَّذَاكُرِ . فَاعْلَمْ أَنَّ زِيَارَةَ الإِخْوَانِ فى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ جَوَاهِرِ عِبَادَةِ اللهِ تعالى

---

( أن السكون ) أى كون المريد المجتهد ثابتا ( فى الحصن أحوط ) أى أشد احتياطاً ( علي كل حال ) أى قويا كان أو ضعيفاً ( إذ لا يؤمن ) أى هـذا المريد ( من الفلتات ) جمع فلتة ، بمعنى بغتة ، وفلتات المجلس : هفواته وزلاته ، وحدث الأمر فلتة : أى فجأة من غير تردد ولا تدبر حتي كأنه افتلت سريعا . وفى نسخة : الغلتات بالغين المعجمة ، غلت يغلت غلتا : غلط ، أو الغلت فى الحساب والغلط فى القول ، والغلتة : اسم من الغلت ، غلتنى أغلتنى عليه اغتلاء : علاه بالشتم والضرب والقهر والغلبة . وفي نسخة أخرى : الغلبات ، كذا فى سراج السالكين ( و ) من ( الاتفاقات مع قرناء السوء ، وإذا كان الأمر ) أى حال المريد المجتهد كائنا ( بهذه المثابة ) أى المرجع من كونه فى الحصن أحوط ( فالسكون ) أي اجتماع هذا المريد ( مع رجال الله والصبر على مشقة الصحبة ) والمعاشرة ( أولى ) أى أفضل ( للمرتاض ) والمجاهد ( وطالب الخير بكل حال ، وأن لا مانع للقوى البالغ مبلغ الاستقامة ) فى طاعة الله ( عن التفرد منهم ) أي الناس . ( فاعلم هـذه الجملة ) التى ذكرناها ( وتأملها ) بقلب صاف ( تغنم ) أى تربح ( وتسلم ) أى من غوائل الأعداء ومكايدهم ( إن شاء الله تعالى . فإن قيل : فما تقول فى زيارة الإخوان فى ) دين ( الله عز وجل ومواصلة الأصحاب بالتلاقي والتذاكر ) وأنت تقول بالعزلة والانفراد عن الناس فكيف الجمع بينهما ( فاعلم أن زيارة الإخوان فى الله عز وجل من جواهر عبادة الله تعالى ) لما فيها من الألفة ، والألفة : ثمرة حسن الخلق ؛ فحسن الخلق يوجب التحاب والتآلف والتوافق ، ومهما كان المثمر محموداً كانت الثمرة محمودة ، وحسن الخلق لا تخفى فى الدين فضيلته ، وهـو الذى مدح الله سبحانه به نبيه عليه السـلام ، إذ قال ــ وإنك لعلى خلق عظيم ــ وقال النبى صـلى الله عليـه وسلم « أكثر ما يدخل الناس الجنة : تقوى الله وحسن الخلق » رواه الترمذى والحاكم من حديث أبى هريرة . وقال أسامة بن شريك « قلنا يا رسـول الله ما خير ما أعطى الإنسان ؟ فقال خلق حسن » . رواه ابن ماجه بإسناد صحيح . وقال صلى الله عليه وسلم « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » رواه أحمد والبيهقى والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة . قال الشيخ الأكبر قدس سره : معنى الحديث : أنه لما قسمت الأخلاق إلى مكارم وإلى سفساف ، وظهرت مكارم الأخلاق كلها

وَفِيها الزُّلْفَةُ الْكَرِيمَةُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مَعَ مَا فِيها مِنْ ضُرُوبِ الْفَوَائِدِ وَصَلَاحِ الْقَلْبِ وَلَكِنْ بِشَرْطَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ لا تَخْرُجَ فِي ذَلِكَ إِلَى الْإِكْثَارِ وَالْإِفْرَاطِ . قَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ ،

---

فى شرائع الرسل ، وتبين سفسافها من مكارمها عندهم وما فى العالم إلا أخلاق الله وكلها مكارم ، فما ثم سفساف أخلاق فبعث فبينها عليه السلام بالكلمة الجامعة إلى الناس كافة وأوتى جوامع الكلم وكل نبي يقدمه على شرع خاص ، فأخبر عليه السلام أنه بعث ليتمم صالح الأخلاق لأنها أخلاق الله . فالحق ما قيل فيه : إنه سفساف أخلاق بمكارم أخلاق ، فصار الكل مكارم أخلاق ، فما ترك عليه الصلاة والسلام فى العالم سفساف أخلاق جملة واحدة لمن عرف مقصد الشرع ، فأبان لنا مصارف لهذا المسمى سفسافا من نحو حرص وحسد وشره وبخل وكل صنعة مذمومة فأعطانا لها مصارف إذا أجريناها عليها عادت مكارم أخلاق وزال عنها اسم الذم ، فكانت محمودة ، فتمم الله به مكارم الأخلاق فلا ضد لها كما أنه لا ضد للحق ، لكن منا من عرف المصارف ومنا من جهلها ( وفيها ) أى الزيارة ( الزلفة ) أى القربة ( الكريمة إلى الله عز وجل مع ما فيها من ضروب ) أى أنواع ( الفوائد وصلاح القلب ) أي ومحبة الله للزائرين . قال الله تعالى « وجبت محبتى للمتحابين فىّ والمتجالسين فىّ والمتباذلين فىّ والمتزاورين فى » رواه أحمد وابن حبان والطبرانى والحاكم والبيهقى من حديث معاذ، وروى مسلم عن أبى هريرة «أن رجلا زار أخا فى الله تعالى فى قرية أخرى فأرصد الله تعالى على مدرجه ملكا فقال أين تريد ؟ قال أردت أخا فى هذه القرية ، قال هل بينك وبينه رحم تصلها أوله عليك نعمة تربها ؟ قال لا إنى أحببته فى الله عز وجل، قال فإنى رسول الله إليك إن الله تبارك وتعالى قد أحبك كما أحببته فيه » ( ولكن بشرطين أحدهما أن لا تخرج ) من منزلك (فى ذلك) أى المذكور من الزيارة والمواصلة ( إلى الإكثار والإفراط ) أى مجاوزة الحد (قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لأبى هريرة ) جره هو الأصل وصوبه جماعة ، لأن لفظ هريرة لا يمنع من الصرف نظراً للتأنيث اللفظى والعلمية لأنه ليس علما بل جزء علم ، إذ العلم مجموع المتضايفين وجزء العلم لا يمنع من الصرف . واختار آخرون منع صرفه كما هو الشائع على ألسنة العلماء من المحدثين وغيرهم لأن الكل :أى جزءى العلم وهما لفظ أبى ولفظ هريرة صار كالكلمة الواحدة ، يعنى أن بعضهم منع هريرة من الصرف نظرا لما فيه من التأنيث وتنزيلا لجزء العلم منزلة العلم لصيرورته مع المضاف كالشىء الواحد . قال ابن المدابغى :قال شيخ مشايخنا الشهاب السندوبي فى [المنح الوفية بشرح الخلاصة الألفية] أجري النحويون حكم الأعلام على المضاف إليه فمنعوا صرفه بعلة أخرى كبنات الأوبر وأبى هريرة وإن كان العلم إنما هو المجموع لا الأخير ، وقالوا جاءنى أبو بكر بن فلان بترك تنوين بكر وإن كان الموصوف بابن هو المجموع ، نقله شيخنا الشيخ يس عن ابن هشام ، وليس ذلك خاصا بالأعلام الجنسية كما عرفته خلافا للشيخ خالد ، واعترض السيد الصفوى بأنه يلزم عليه : أى منع

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : « زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا » .

---

الصرف رعاية الحال : أى حيث منعنا آخر العلم الصرف نظرا لصيرورة المتضايفين بالعلمية كالشيء الواحد ورعاية الأصل معا فى كلمة واحدة وهو أبو هريرة : أى حيث أعربنا الجزء الأول من العلم مضافا والجزء الثانى مضافا إليه نظراً للأصل : أى لما قبل العلمية وهو أنهما كلمتان بل فى لفظة هريرة إذا وقعت فاعلا مع المضاف مثلا كما إذا قيل جاء أبو هريرة فانها تعرب بإعراب المضاف إليه فتكون مجرورة بالفتحة نظراً للأصل وتمنع من الصرف نظرا للحال . ويجاب بأن الممتنع رعايتهما من جهة واحدة لا من جهتين كما هنا : أى فإنا راعينا الأصل من جهة الإعراب وراعينا الحال من جهة منع الصرف وكان الحامل عليه الخفة واشتهار هذه الكنية حتى نسى الاسم الأصلى بحيث اختلفوا فيه اختلافا كثيرا . وسبب تكنيته بذلك ما رواه ابن عبد البر عنه أنه قال « كنت أحمل يوما هرة فى كمى فرآنى النبى صلى الله عليه وسلم فقال لى ما هذه ؟ فقلت ، هرة . فقال يا أبا هريرة» وفى رواية ابن اسحاق : «وجدت هرة فحملتها فى كمى، فقيل لى ما هذه ؟ فقلت هرة فقيل لى : فأنت أبو هريرة » ورجح بعضهم الأول ، وقيل كان يلعب بها وهو صغير ، وقيل كان يحسن إليها . قال ابن المدابغى وهو راوى حديث « دخلت امرأة النار فى هرة » فلعله أخذ بقياس العكس ، ورجا الثواب فى الإحسان إليها ، وقيل المكنى له بذلك والده . واختلف فى اسمه واسم أبيه على خمسة وثلاثين قولا : أصحها عبد الرحمن ، روى ابن إسحاق عنه أنه أبدل به فى الإسلام عن شمس اسمه فى الجاهلية ابن صخر ( رضى الله عنه ) الدوسى ، أسلم عام خيبر وشهدها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لازمه الملازمة التامة رغبة فى العلم راضيا بشبع بطنه ، وكان يدور معه حيثما دار ومن ثم كان أحفظ الصحابة رضى الله عنهم ، وقد شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه حريص على العلم والحديث ، وقال « قلت يا رسول الله : إنى سمعت منك حديثاً كثيراً ، وإنى أخشى أن أنساه ، فقال ابسط رداءك فبسطته فضرب بيده فيه ثم قال : ضمه فضممته فما نسيت شيئا بعده » . قال البخارى : روى عنه أكثر من ثمانمائة ما بين صحابى وتابعى ، استعمله عمر على البحرين ثم عزله ، ثم راوده على العمل فأبى ، ولم يزل يسكن المدينة ، وبها توفى سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين عن ثمان وسبعين سنة ودفن بالبقيع . وما اشتهر أن قبره بقرب عسقلان لا أصل له ، وإنما ذلك صحابى آخر اسمه جندرة روى له خمسة آلاف وثلثمائة حديث وأربعة وسبعون حديثا اتفق الشيخان منها على ثلثمائة وخمسة وعشرين ، وانفرد البخارى بثلاثة وتسعين ، ومسلم بمائة وتسعين ( زر ) أخاك يا أبا هريرة ( غبا ) بكسر الغين المعجمة : أى وقتا بعد وقت ولا تلازم زيارته كل يوم ( تزدد ) عنده ( حبا ) وبقدر الملازمة تهون عليه ، وانتصاب غبا على الظرف ، وحبا على التمييز . رواه البزار فى مسنده والطبرانى فى المعجم المتوسط والبيهقى عن أبى هريرة قال « قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أين كنت بالأمس ؟ قال زرت ناسا من أهلى فذكره » قال المنذرى روى من طرق كثيرة ولم أقف له عن طريق صحيح ، بل له أسانيد حسان . وقال

وَالثَّانِي أَنْ تَحْفَظَ حَقَّ ذٰلِكَ بِالتَّجَنُّبِ عَنِ الرِّيَاءِ وَالتَّزَيُّنِ ، وَقَوْلِ اللَّغْوِ وَالْغِيبَةِ وَنَحْوِ ذٰلِكَ فَيَعُودُ عَلَيْكَ وَعَلَى أَخِيكَ الْوَبَالُ . فَلَقَدْ حُكِيَ أَنَّ الْفُضَيْلَ وَسُفْيَانَ رَحِمَهُمَا اللهُ تَذَاكَرَا فَبَكَيَا ، فَقَالَ سُفْيَانُ : يَا أَبَا عَلِيٍّ أَرْجُو أَنَّا مَا جَلَسْنَا مَجْلِساً أَرْجَى لَنَا مِنْ هٰذَا الْمَجْلِسِ ، فَقَالَ الْفُضَيْلُ : مَا جَلَسْتُ مَجْلِسًا أَخْوَفُ عَلَيَّ مِنْ هٰذَا ، فَقَالَ : وَكَيْفَ يَا أَبَا عَلِيٍّ ؟ قَالَ : أَلَسْتَ تَعْمَدُ إِلَى أَحْسَنِ حَدِيثِكَ فَتُحَدِّثُنِي بِهِ وَأَنَا عَمَدْتُ إِلَى أَحْسَنِ مَا عِنْدِي ، فَحَدَّثْتُكَ بِهِ فَتَزَيَّنْتَ لِي وَتَزَيَّنْتُ لَكَ فَبَكَى سُفْيَانُ ، فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ مُجَالَسَتُكَ لِلْإِخْوَانِ وَمُلَاقَاتِهِمْ عَلَى مِقْدَارِ قَصْدٍ وَاحْتِيَاطٍ وَنَظَرٍ لَطِيفٍ فَلَا يَقْدَحُ ذٰلِكَ حِينَئِذٍ

---

العزيزى : قال الشيخ حديث حسن ( والثانى ) من الشرطين ( أن تحفظ حق ذلك ) أى ما ذكر من الزيارة للاخوان ( بالتجنب عن الرياء والتزين ) والتصنع والسمعة ( و ) عن ( قول اللغو ) أى الباطل ( والغيبة ) بكسر الغين ، وهى ذكرك أخاك المسلم بما يكرهه ، سواء ذكرته بنقص فى بدنه أو نسبه أو فى خلقه أو فى فعله أو فى قوله أو فى دينه أو فى دنياه حتى فى ثوبه وداره ودابته كقولك الأحول والأسود ، وقولك أبوه هندى أو فاسق ، وقولك إنه بخيل أو سيء الخلق ، وقولك سارق أو قليل الأدب ، وقولك إنه وسخ الثياب وإن كان المذكور بلسانك موجودا فى أخيك المسلم لقوله صلى الله عليه وسلم « اغتبتم أخاكم ، قالوا يا رسول الله قلنا ما فيه ، قال إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتموه » ( ونحو ذلك ) من النميمة والكذب واليمين الكاذبة والقذف ( فيعود ) أى فان لم تحفظ حق ذلك يعود ( عليك وعلى أخيك الوبال ) أى سوء العاقبة والعذاب ( فلقد حكى أن الفضيل ) ابن عياض ( وسفيان رحمهما الله تذاكرا فبكيا ، فقال سفيان : يا أبا على ) كنية فضيل ( أرجو أنا ما جلسنا مجلسا أرجى لنا من هذا المجلس ، فقال الفضيل : ما جلست مجلسا أخوف ) أى أشد خوفا ( على من هذا ) المجلس الذى جلست معك ( فقال ) سفيان ( وكيف ) كان أخوف ( يا أبا على ؟ قال ) الفضيل ( ألست تعمد ) بكسر الميم أى تقصد ( إلى أحسن حديثك ) وكلامك ( فتحدثنى به ) أى الأحسن ( وأنا ) أيضا ( عمدت ) أى قصدت ( إلى أحسن ما عندى فحدثتك به فتزينت لى ) بأحسن حديثك ( وتزينت لك ) به فقد وقع الرياء ( فبكى سفيان ) رحمه الله تعالى . وقد وقع مثل هذه الحكاية للشيخ الإمام مع بعض العارفين ، وتقدم ذلك عند قول المصنف : وأما الخصلة الثانية ، فليراجع ( فيجب أن تكون مجالستك للاخوان وملاقاتهم على مقدار قصد ) أى عدل بين القليل والكثير ( واحتياط ونظر ) أى تفكر وتأمل ( لطيف ) أى دقيق ( فلا يقدح ) أى لا يطعن ولا يعيب ( ذلك ) أى المذكور من المجالسة والملاقاة ( حينئذ ) أى حين إذ تكون

فى عُزْلَتِكَ وَتَفَرُّدِكَ عَنِ النَّاسِ ، وَلا يَعُودُ عَلَيْكَ وَعَلَى أَخِيكَ بِضَرَرٍ وَآفَةٍ ، بَلْ بِخَيْرٍ كَثِيرٍ وَنَفْعٍ عَظِيمٍ ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا يَبْعَثُنِى عَلَى الْعُزْلَةِ عَنِ النَّاسِ وَالتَّفَرُّدِ وَيُهَوِّنُ عَلَىَّ ذٰلِكَ . فَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِى يُهَوِّنُ عَلَيْكَ ذٰلِكَ ثَلاثَةُ أُمُورٍ : أَحَدُهَا اسْتِغْرَاقُ أَوْقَاتِكَ فى الْعِبَادَةِ فَإِنَّ فى الْعِبَادَةِ شُغْلاً وَإِنَّ الْاسْتِئْنَاسَ بِالنَّاسِ مِنْ عَلاَمَاتِ الْإِفْلاَسِ ، فَإِذَا رَأَيْتَ نَفْسَكَ تَتَطَلَّعُ إِلَى مُلاَقَاةِ النَّاسِ وَكَلاَمِهِمْ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ وَضَرُورَةٍ فَاعْلَمْ أَنَّ ذٰلِكَ فُضُولٌ سَاقَهُ الْفَرَاغُ وَالْبَطَرُ ،

---

على مقدار العدل والاحتياط والنظر اللطيف ( فى عزلتك وتفردك عن الناس ولا يعود ) ما ذكر من ذلك ( عليك وعلى أخيك بضرر وآفة ، بل ) يعود ( بخير كثير ونفع عظيم ، والله الموفق ) للصواب ( فإن قلت فما يبعثنى ) أى ما الذى يحملني ( على العزلة عن الناس والتفرد ) عنهم ( و ) ما ( يهوّن ) أى يسهل ويخفف ( على ذلك ) العزلة والانفراد ( فاعلم أن الذى يهون عليك ذلك ثلاثة أمور : أحدها استغراق ) أى استيعاب ( أوقاتك فى العبادة فإن فى العبادة شغلا ) شاغلا عن ملاقاة الناس ( و ) قد قيل ( إن الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس ) يقال أفلس : إذا قل ماله . وقال القشيرى فى الرسالة : سمعت أبا على يقول : سمع الشبلى يقول : الإفلاس الإفلاس الإفلاس . فقيل له يا أبا بكر ما الافلاس ؟ قال من علامات الافلاس الاستئناس بالناس ، ولذلك قال بعض الحكماء : إنما يستوحش الإنسان من نفسه ، وأنكرها لخلو ذاته عن الفضيلة والكمال فيكثر حينئذ ملاقاة الناس والاستئناس بهم ويطرد الوحشة بذلك عن نفسه ، فاذا كانت ذاته فاضلة كاملة طلب الوحدة والانفراد وحبب إليها الخلاء ليستعين بها على الفكرة ويستخرج العلم النافع والحكمة الإلهية ، فإذا هذه فائدة جزيلة ، ولكن فى حق بعض الخواصّ ، وهم الذين كملهم الله بالمعارف الظاهرة ، وحلي باطنهم بالأنوار الباهرة ، ومن يتيسر له بدوام الذكر الأنس بالله أو بدوام الفكر التحقق فى معرفة الله أو فيما يكون وسيلة إليها فالتجرد له أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة والمعاشرة ، فإن غاية العبادات وثمرة المعاملات أن يموت الإنسان محباً لله عارفا بالله ، وإليه الإشارة فى الخبر « أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله » ولا محبة إلا بالأنس الحاصل بدوام الذكر القلبى ، ولا معرفة إلا بدوام الفكر الروحى وفراغ القلب من خطور خيال السوى شرط فى كل واحد منهما لا يتم إلا به ولا فراغ مع المخالطة إذ ليس فى الجوف قلبان ، كذا ذكره المصنف وغيره ( فاذا رأيت نفسك تتطلع ) أى تتشرف وتطلب مطلعك ومجيئك ( إلى ملاقاة الناس وكلامهم من غير حاجة ) داعية إليها ( و ) غير ( ضرورة فاعلم أن ذلك ) التطلع إلى الملاقاة والكلام بغير فائدة ( فضول ) أى ما لا يعنيك ( ساقه ) أى بعثه وحمله ( الفراغ ) من الشغل فى العبادة ( والبطر ) محركة : أى

وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ فِى هٰذَا الْمَعْنَى :

إِنَّ الفرَاغَ إِلى سَلاَمِكَ قَادَنِى   وَلَرُبَّمَا عَمِلَ الْفضُولُ الْفَارِغُ

فَأَنْتَ إِذَا عَانَقْتَ الْعِبَادَةَ بِحَقِّهَا وَجَدْتَ حَلَاوَةَ الْمُنَاجَاةِ فَاسْتَأْنَسْتَ بِكِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَاشْتَغَلْتَ عَنِ الْخَلْقِ وَاسْتَوْحَشْتَ مِنْ صُحْبَتِهِمْ وَكَلَامِهِمْ . وَفِى الْخَبَرِ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ إِذَا رَجَعَ عَنِ الْمُنَاجَاةِ يَسْتَوْحِشُ مِنَ النَّاسِ وَكَانَ يَجْعَلُ أُصْبُعَيْهِ فِى أُذُنَيْهِ لِئَلاَّ يَسْمَعَ كَلاَمَهُمْ ، وَكَانَ كَلاَمُهُمْ عِنْدَهُ فِى النُّفُورِ وَالْوَحْشَةِ فِى ذٰلِكَ الْوَقْتِ كَأَصْوَاتِ الْحَمِيرِ ، فَعَلَيْكَ بِمَا قَالَهُ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ :

---

كفر النعمة ( ولقد أحسن من قال ) شعرا من بحر الكامل ( فى هذا المعنى : إن الفراغ إلى سلامك ) وفى نسخة: إلى كلامك ( قادنى * ولربما عمل الفضول ) مفعول ( الفارغ ) فاعل عمل ( فأنت إذا عانقت ) أى حصلت ( العبادة بحقها وجدت ) فى قلبك ( حلاوة المناجاة ) إلى الله تعالى ( فاستأنست بكتاب الله سبحانه ) أى بقراءة كتابه فإنه كلامه منه إليه ( واشتغلت عن الخلق واستوحشت من صحبتهم ) ومعاشرتهم (وكلامهم ، و ) ورد ( فى الخبر أن موسى عليه السلام كان إذا رجع عن المناجاة ) إلى الله وسماع كلامه ( يستوحش من ) صحبة ( الناس ، وكان ) عليه السلام ( يجعل أصبعيه فى أذنيه ) يسدها ( لئلا يسمع كلامهم ) لأنه لا يستطيع ذلك ( وكان كلامهم عنده فى النفور والوحشة فى ذلك الوقت ) أى وقت رجوعه من المناجاة (كأصوات الحمير ) جمع حمار : أى أصواتها المنكرة بسبب ماذاق من اللذة التى لا يحاط بها عند سماع كلام من ليس كمثله شىء ، وقد أشرق وجهه من النور ، فما رآه أحد إلا عمى فتبرقع وبقى البرقع على وجهه إلى أن مات . والمراد بتكليمه تعالى له عليه السلام أنه تعالى أزال عنه الحجاب وأسمعه الكلام القديم ثم أعاد الحجاب ، وليس المراد أنه تعالى يبتدىء كلاما ثم يسكت ، لأنه لم يزل متكلما أزلا وأبدا ؛ وماروا القضاعى من أن الله ناجى موسى بمائة ألف وأربعين كلمة : معناه أنه فهم معانى يعبر عنها بهذه العدة لا لتبعيض فى نفس الكلام . وفى [لباب الحكمة الإلهية] للمصنف رحمه الله: كلام الله ليس سوى إفاضة مكنونات علمه على من يريد إكرامه كما قال تعالى « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه » شرفه الله بعزه وقربه بقدسه وأجلسه على بساط أنسه وشافهه بأجل صفاته وكلمه بعلم ذاته كما شاء كله وكما أراد سمع ، لايندرج كلامه تحت الكيفية ، ولا يحتاج إلى سؤال العلية ، ولا يوصف بالماهية والكمية ، بل كلامه كعلمه ، وعلمه كإرادته ، وإرادته كصفته ، وصفته كذاته ، وذاته أجل من التنزيه والتكبر ، وصفاته أجلى من التفسير والتفصيل ، خالق كلّ شىء وهو على كل شىء قدير ( فعليك ) أى الزم ( بما قاله شيخنا ) أبو بكر الوراق ( رحمه الله ) من بحر الخفيف المجزوء

ارْضَ بِاللهِ صَاحِباً وَذَرِ النَّاسِ جَانِباً
صَادِقَ الْوُدِّ شَاهِدًا كُنْتَ فِيهِمْ وَغَائِبَا
قَلِّبِ النَّاسَ كَيْفَ شِئْتَ تَجِدْهُمْ عَقَارِبَا

وَالثَّانِي قَطْعُ الطَّمَعِ عَنْهُمْ بِمَرَّةٍ فَيَهُونُ عَلَيْكَ أَمْرُهُمْ ، لأَنَّ مَنْ لاَ تَرْجُو نَفْعَهُ وَلاَ تَخَافُ ضَرَرَهُ فَوُجُودُهُ وَعَدَمُهُ سَوَاءٌ .

وَالثَّالِثُ تَبَصُّرُ آفَاتِهِمْ وَتَذَكُّرُ ذَلِكَ وَتُكَرِّرُهُ عَلَى قَلْبِكَ لأَنَّ هٰذِهِ الْأَرْكَانَ الثَّلَاثَةَ

---

( ارض بالله ) وفى نسخة : اتخذ الله ( صاحبا ) وذلك بملازمة الطاعة وإكثار الذكر واجتناب المعاصى كما أفاده بعض المحققين ( وذر ) أي اترك ( الناس جانبا ) وهذا شأن من عرف ربه حق معرفته ، ولله در القائل :

مذ عرفت الإله لم أر غيرا وكذا الغير عندنا ممنوع
مذ تجمعت ما خشيت افتراقا وأنا اليوم واصل مجموع

قال حجة الاسلام : فإن لم تقدر على ذلك فى جميع أوقاتك فإياك أن تخلى ليلك ونهارك عن وقت تخلو فيه بمولاك وتتلذذ معه بمناجاتك له ، وعند ذلك فعليك أن تتعلم آداب الصحبة مع الله تعالى وآدابها أربعة عشر : الأول إطراق الرأس ، وغض الطرف . والثانى جمع الهم مع الاعتماد عليه تعالى . والثالث دوام الصمت عما لا يفيد فى الدين . والرابع سكون الجوارح عن الملاغاة . والخامس مبادرة امتثال الأمر من الواجب والمندوب . والسادس اجتناب النهى . والسابع عدم الاعتراض على القدر . والثامن دوام الذكر باللسان والقلب . والتاسع ملازمة الفكر فى نعمة الله تعالى وفى جلاله تعالى . والعاشر إيثار الحق على الباطل . والحادى عشر الإياس عن الخلق . والثانى عشر الخضوع تحت الهيبة مع الله تعالى . والثالث عشر الانكسار تحت الحياء منه تعالى لتقصيرك فى العبادة . والرابع عشر السكون عن حيل الكسب ثقة بالضمان والاعتماد على فضله تعالى معرفة بحسن الاختيار ، فإن الله تعالى هو المدبر لعبده ( صادق الودّ شاهدا ) أى حاضرا ( كنت فيهم ) بالشخص ( وغائبا ) عنهم بالقلب ( قلب الناس ) أى أكثرهم ( كيف شئت تجدهم عقاربا ) أى بمنزلتها فى الإضرار ، لأن شأنهم صعب جدا كما قاله ابن العلاء الرقى ( والثانى ) من الأمور الثلاثة التى تهون عليك العزلة والتفرد عن الناس ( قطع الطمع عنهم بمرة ) أى عدم الاعتماد على الخلق بالكلية ، لأن الخلق لا تنفع ولا تضر ( فيهون ) أى يسهل ( عليك أمرهم ، لأن من لا ترجو نفعه ولا تخاف ضره فوجوده وعدمه سواء ) أى مستويان ( والثالث )من الأمور الثلاثة ( تبصر آفاتهم وتذكر ذلك ) المذكور من آفاتهم وهى كثيرة ( وتكرره ) أى التذكر ( على قلبك لأن هذه الأركان الثلاثة ) وهى استغراق الأوقات في العبادة وقطع الطمع عن الخلق بالكلية وإبصار آفاتهم

إِذَا لَزِمْتَهَا طَرَدْتَكَ عَنْ صُحْبَةِ الْخَلْقِ إِلَى بَابِ اللهِ تَعَالَى وَالتَّفَرُّدِ لِعِبَادَتِهِ وَحَبَّبَتْهُ إِلَيْكَ وَأَلْزَمَتْكَ بَابَهُ ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ .

﴿ الْعَائِقُ الثَّالِثُ الشَّيْطَانُ ﴾ ثُمَّ عَلَيْكَ يَا أَخِي بِمُحَارَبَةِ الشَّيْطَانِ وَقَهْرِهِ وَذَلِكَ لِخَصْلَتَيْنِ . إِحْدَاهُمَا أَنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ وَلاَ مَطْمَعَ فِيهِ لِمُصَالَحَةٍ وَإِبْقَاءٍ عَلَيْكَ بَلْ لاَ يُقْنِعُهُ إِلاَّ هَلاَكُكَ أَصْلاً فَلاَ وَجْهَ إِذًا لِلأَمْنِ مِنْ مِثْلِ هَـــذَا الْعَدُوِّ وَالْغَفْلَةِ عَنْهُ ، وَتَأَمَّلْ

---

مع تذكرها وتكرره على القلب ( إذا لزمتها طردتك ) أى أبعدتك هذه الثلاثة ( عن صحبة الخلق إلى باب ) رحمة ( الله تعالى و ) إلى ( التفرد لعبادته وحببته ) أى حببت هذه الثلاثة الله سبحانه ( إليك وألزمتك بابه ) أى باب رحمته وفضله ( وبالله ) تعالي لا بغيره ( التوفيق ) إلى مرضاته وفهم حكمه ( والعصمة ) أى الحفظ عن الوقوع فى المخالفات ، ويؤخذ من كلامه أنه يجوز الدعاء لنا بالعصمة وهو ظاهر إن أريد بها الحفظ من الذنب مع جواز وقوع خلافه . وأما من منع الدعاء بها مطلقا ، واعترض على الشيخ الأستاذ أبى الحسن الشاذلى فى الدعاء بها فى حزبه فلم يصب ، إذ لا دليل يعضده ولا قياس ساعده كما ذكره العلامة ابن حجر . ووجه أخذ جواز الدعاء بها من كلامه أن المقصود من قول المصنف وبالله العصمة طلبها وإن كان فى الظاهر إخبارا ، فان المعنى وبالله التوفيق والعصمة فاسألهما واطلبهما منه سبحانه ، كذا قرره العلامة ابن المدابغى ، والله سبحانه وتعالي أعلم .

﴿ العائق الثالث ﴾ من عوائق العبادة الأربعة ( الشيطان ) عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه الوعد بالشر والأمر بالفحشاء والتخويف عند الهم بالخير بالفقر لقوله تعالى « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء » وجنوده عشرة : الظلم ، والخيانة ، والكفر وترك حفظ الأمانة ، والنميمة ، والنفاق ، والخديعة ، والشك فى الواحد الخلاق ، والمخالفة لما أمر به ذو الجلال والاكرام ، والتغافل عن سنة النبى صلي الله عليه وسلم ، كذا أفاده بعضهم نقلا عن الهمدانى ( ثم عليك ) أى الزم ( يا أخى ) نداء تعطف وشفقة ليكون أدعى إلى الامتثال والقبول قال الله تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » . ( بمحاربة الشيطان وقهره وذلك ) أى لزوم المحاربة والقهر ( لخصلتين : إحداهما أنه ) أى الشيطان ( عدو مضل ) للانسان ( مبين ) أى بين العداوة والإضلال ( ولا مطمع ) أى لا طمع ( فيه ) أي الشيطان ( لمصالحة ) ومعاونة على الخير ( وإبقاء ) أى رحمة ( عليك بل لا يقنعه ) بفتح النون أى لا يرضاه ( إلا هلاكك أصلا فلا وجه ) أى لا سبيل ( إذا ) أى حين لا يرجى خيره بالكلية بل يخشى ضرره ( للأمن من مثل هذا العدو ) اللعين ( والغفلة عنه ) أى عن اللعين ( وتأمل ) أى

آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى إِحْدَاهُمَا قَوْلُهُ تَعَالَى : أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَالثَّانِيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا . وَهٰذَا أَقْصَى التَّحْذِيرِ وَغَايَتُهُ .

---

تفكر وتدبر ( آيتين من كتاب الله تعالى إحداهما قوله تعالى « ألم أعهد إليكم » ) أى ألم آمركم وأوصيكم ( يا بنى آدم ) على لسان رسلى . والعهد الوصية والتقدم بأمر فيه خير ومنفعة ، والمراد ههنا ما كلفهم الله به على ألسنة الرسل من الأوامر والنواهي . وقيل : المراد بالعهد هو السابق فى عالم الذر بقوله « ألست بربكم قالوا بلى » ولذا قال يا بنى آدم ( أن لا تعبدوا الشيطان) أن مفسرة لأنه تقدمها جملة فيها معنى القول دون حروفه ولاناهية والفعل مجزوم بها ، والمراد بعبادة الشيطان طاعته فيما يزينه عبر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها ولوقوعها فى مقابلة عبادة الله تعالى ( إنه لكم عدو مبين ) أى ظاهر العداوة تعليل للمنع عن عبادته بالطاعة فيما يحمله عليه كما صرح به البيضاوى وكون عدواته : أى الشيطان بينة بالنسبة لمن أنار الله قلبه ، وأما غيره فهو حليف له كما ذكره الجمل عن شيخه (و)الآية (الثانية قوله تعالى « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا » ) بطاعة الله ولا تطيعوه . فقد بين الله تعالى أن الشيطان عدو لبنى آدم ويريد ضلالتهم ليجرهم مع نفسه إلى النار ، فالواجب على العاقل أن يجتهد فى مجاهدته لكى يخلص نفسه منه فإنه عدو ظاهر للمؤمن ( وهذا ) المذكور من الآيتين ( أقصى التحذير ) لطاعة الشيطان ( وغايته ) أى التحذير وهذا مرادف لما قبله . وروت صفية بنت جحش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » وعن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : «قل أعوذ برب الناس» يعنى سيد الناس «ملك الناس» كلهم من الجن والانس « إله الناس » يقول خالق الناس «من شر الوسواس» يعنى الشيطان « الخناس » وهو الشيطان «الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس » يقول يدخل فى صدور الجن كما يدخل فى صدور الإنس فيوسوس فى صدورهم ، فاذا ذكر الله خنس وخرج من صدورهم . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « بعثت داعيا ومبلغا وليس إلي من الهداية شىء وخلق إبليس مزينا وليس إليه من الضلالة شىء » يعنى أنه يوسوس ويزين المعصية وليس بيده أكثر من ذلك . فينبغى للعبد أن يجتهد فى دفع الوسوسة عن نفسه ويجتهد فى مخالفة عدوه ، لأن الله تعالى قال « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا » وذكر عن وهب بن منبه رحمه الله أنه قال . إن إبليس لقى يحيي بن زكريا عليهما السلام ، فقال له يحيي بن زكريا : أخبرنى عن طبائع ابن آدم عندكم ؟ فقال إبليس : أما صنف منهم فهو مثلك معصومون لا نقدر منهم على شىء . والصنف الثانى فهم فى أيدينا كالكرة فى أيدى صبيانكم وقد كفونا أنفسهم ، والصنف الثالث فهم أشد الأصناف علينا فنقبل على أحدهم حتى ندرك منه حاجتنا ثم يفزع إلي الاستغفار فيفسد به علينا ما أدركنا منه ، فلا نحن نيأس منه

وَالْخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ أَنَّهُ مَجْبُولٌ عَلَى عَدَاوَتِكَ وَمُنْتَصِبٌ أَبَدًا لِمُحَارَبَتِكَ ، فَهُوَ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ يَرْمِيكَ بِسِهَامِهِ وَأَنْتَ غَافِلٌ عَنْهُ فَكَيْفَ يَكُونُ الْحَالُ .

---

ولا نحن ندرك حاجتنا منه ، وذكر فى الخبر « إن إبليس لعنه الله جاء إلى موسى عليه السلام وهو يناجى ربه ، فقال له ملك من الملائكة ويحك ما ترجو منه على هذه الحالة ! فقال أرجو منه ما رجوت من أبيه آدم وهو فى الجنة » . ويقال إذا حضر وقت الصلاة أمر إبليس جنوده بأن يتفرقوا ويأتوا الناس ويشغلوهم عن صلاتهم ، فيجيء الشيطان إلى من أراد الصلاة فيشغله ليؤخرها عن وقتها ، فان لم يقدر فإنه يأمره بأن لا يتم ركوعها وسجودها وقراءتها وتسبيحها ودعواتها : فإن لم يستطع فانه يشغل قلبه بأشغال الدنيا ، فإن لم يقدر على شيء من ذلك أمر إبليس بأن يوثق هذا الشيطان ويقذف به فى البحر ، فإن كان يقدر على شيء من ذلك فإنه يكرمه ويبجله . وقال الله عز وجل حكاية عن إبليس « لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم » يعنى على طريق الإسلام ولأرصدنهم ولأصدنهم « ثم لآتينهم من بين أيديهم » يعنى من أمر الآخرة حتى أجعلهم فى الشك « ومن خلفهم » لأزينن لهم الدنيا حتى يطمئنوا إليها « وعن أيمانهم » يعنى آتيهم من جهة الدين « وعن شمائلهم » يعنى من جهة المعاصى « ولا تجد أكثرهم شاكرين » يعنى على نعمك وذكر عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى قال : أمر الله تعالى إبليس أن يأتى محمدا صلى الله عليه وسلم ويجيبه عن كل ما يسأله ، فجاءه على صورة شيخ وبيده عكاز ، فقال له من أنت ؟ قال : أنا إبليس ، فقال لماذا جئت ؟ قال إن الله أمرنى أن آتيك وأجيبك عن كل ما تسألنى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يا ملعون كم أعداؤك من أمتي ! قال خمسة عشر ، أولهم أنت والثانى إمام عادل . والثالث غنى متواضع . والرابع تاجر صادق . والخامس عالم متخشع . والسادس مؤمن ناصح . والسابع مؤمن رحيم القلب . والثامن تائب ثابت على التوبة . والتاسع متورع عن الحرام . والعاشر مؤمن يديم على الطهارة . والحادى عشر مؤمن كثير الصدقة . والثانى عشر مؤمن حسن الخلق مع الناس . والثالث عشر مؤمن ينفع الناس . والرابع عشر حامل القرآن يديم على تلاوته . والخامس عشر قائم بالليل والناس نيام ، ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم : ومن رفقاؤك من أمتى ؟ قال عشرة : أولهم سلطان جائر . والثانى غنى متكبر . والثالث تاجر خائن . والرابع شارب الخمر . والخامس القتات . والسادس صاحب الزنا . والسابع آكل مال اليتيم . والثامن المتهاون بالصلاة . والتاسع مانع الزكاة . والعاشر الذي يطيل الأمل . فهؤلاء أصحابى وإخوانى كذا ذكره العلامة نصر بن محمد السمرقندي ( والخصلة الثانية أنه ) أى الشيطان ( مجبول ) أى مطبوع ومخلوق ( على عداوتك ومنتصب ) أي قائم ( أبدا لمحاربتك ) وقهرك ( فهو آناء الليل ) أى ساعاته وهو جمع أنى بالقصر مثل معى كما قاله الأخفش ( وأطراف النهار ) أى أجزاءه ( يرميك بسهامه ) أى بوسوسه الذى كالسهام ( وأنت غافل عنه ) أى عن سهامه ( فكيف يكون الحال ) فلنذكر مثالا لطريقه الواضح الذى لا يخفى إلا أن يضطر الآدمي إلى سلوكه ، وذلك كما روى

ثُمَّ وَقَعَتْ مَعَكَ نُكْتَةٌ أُخْرَى ، وَهِيَ أَنَّكَ فِى عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى وَدَعْوَةِ الْخَلْقِ إِلَى بَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ بِفِعْلِكَ وَقَوْلِكَ ، وَهٰذَا ضِدُّ صَنِيعِ الشَّيْطَانِ

---

فى الخبر « أنه كان فى بنى إسرائيل رجل متعبد فى صومعة يقال له برصيصا العابد كان مستجاب الدعوة وكان الناس يأتونه بمريضهم فكان يدعو فيبرأ المريض ، فدعا إبليس الشياطين لعنهم الله وقال من يفتن هذا فإنه قد أعياكم ؟ قال عفريت من الشياطين : أنا أفتنه فان لم أفتنه فلست لك بولى فقال له إبليس : أنت له فانطلق الشيطان حتى أتى منزل ملك من ملوك بنى إسرائيل وله ابنة من أحسن النساء وهى جالسة مع أبيها وأمها وأخواتها فخبلها ففزعوا لذلك فزعا شديداً فصارت بمنزلة المجنونة وكانت على ذلك أياما ، ثم أتاهم على صورة إنسان فقال لهم إن أردتم أن تبرأ فلانة فاذهبوا بها إلى فلان الراهب يعوذها ويدعو لها ، فذهبوا بها إليه فدعا لها فبرأت من علتها ، فلما رجعوا بها عاودها ذلك فأتاهم الشيطان فقال لهم : إن أردتم أن تبرأ فلانة فاجعلوها عنده أياما فانطلقوا بها إليه ليضعوها عنده فأبى الراهب أن يقبلها فألحوا عليه وتركوها عنده فكان الراهب يظل صائما ويمسى قائما فلا يتعرض الشيطان للجارية ، فإذا جلس الراهب ليطعم أظهر خبلها وكشفها فيعرض الراهب عنها بوجهه حتى طال ذلك فنظر يوما إلى وجهها وجسدها فرأى وجها وجسدا لم ير مثله فلم يصبر على ذلك حتى قربها فحبلت منه ، ثم أتاه الشيطان فقال له : إنك قد أحبلتها وليس ينجيك مما صنعت بها من عقوبة الملك إلا أن تقتلها وتدفنها عند صومعتك ، فاذا سألوك عنها فقل أتى عليها أجلها فماتت فانهم يصدقونك ، فقام إليها فذبحها ودفنها فجاءوا يسألون عنها فأخبرهم بأنها قد ماتت فصدقوه فرجعوا ، وفى رواية قال : إنها برئت وذهبت إلى منزلها فصدقوه فرجعوا وجعلوا يطلبونها من بيوت أقاربها ، فانطلق الشيطان فقال لهم : إن الراهب قد وقع عليها فأحبلها ، فلما خشى أن يطلع على ذلك ذبحها ودفنها فركب الملك فى الناس مقبلا نحو الراهب فحفروها فوجدوها مذبوحة فأخذوا الراهب فصلبوه . ثم جاءه الشيطان وهو مصلوب فقال أنا الذى فعلت بك ما فعلت ، وأنا أنجيك من ذلك وأخبرهم بأنه ذبحها غيرك وهم يصدقوننى بذلك إن أنت سجدت لى سجدة من دون الله ، فقال كيف أسجد على هذه الحالة ؟ قال أنا أرضى أن تومىء إلى برأسك فسجد له سجدة ، فقال له الشيطان : أنا برىء منك فلذلك قول الله تعالى : « كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين» ( ثم وقعت معك نكتة أخرى ) أى لطيفة متخرجة بالفكر مؤثرة فى القلب ، وأصله من نكت الأرض نكتا إذا أثر فيها بنحو قضيب ( وهى ) أى تلك النكتة ( أنك فى عبادة الله تعالى ودعوة الخلق إلى باب ) رحمة ( الله سبحانه بفعلك وقولك ، وهذا ) أى الذى فعلته من العبادة والدعوة ( ضد صنيع الشيطان )

وَهِمَّتِهِ وَمُرَادِهِ وَحِرْفَتِهِ فَصِرْتَ كَأَنَّكَ قُمْتَ وَشَدَدْتَ وَسَطَكَ لِتُغَايِظُ الشَّيْطَانَ وَتُكَايِدَهُ وَتُنَاقِضَهُ، فَهُوَ أَيْضاً يَشُدُّ وَسَطَهُ لِيُعَادِيَكَ وَيُقَاتِلَكَ وَيُمَاكِرَكَ، حَتَّى يُفْسِدَ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ عَلَيْكَ شَأْنَكَ، بَلْ حَتَّى يُهْلِكَكَ أَسًّا، إِذْ لَا يَأْمَنُ مِنْ جَانِبِكَ بَعْدُ، فَإِنَّهُ الَّذِي يُسِيءُ وَيَقْصِدُ بِالْهَلَاكِ إِلَى مَنْ لَا يُغَايِظُهُ وَلَا يُنَاقِضُهُ، بَلْ يُصَادِقُهُ وَيُوَافِقُهُ كَالْكُفَّارِ وَأَهْلِ الرَّغْبَةِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ فَكَيْفَ قَصْدُهُ لِمَنْ قَامَ لِمُغَايَظَتِهِ وَتَجَرَّدَ لِمُنَاقَضَتِهِ فَلَهُ إِذَنْ مَعَ سَائِرِ النَّاسِ عَدَاوَةٌ عَامَّةٌ وَمَعَكَ أَيُّهَا الْمُجْتَهِدُ فِي الْعِبَادَةِ وَالْعِلْمِ عَدَاوَةٌ خَاصَّةٌ، وَإِنَّ أَمْرَكَ لَهُ لَمُهِمٌّ وَمَعَهُ عَلَيْكَ أَعْوَانٌ أَشَدُّهَا عَلَيْكَ نَفْسُكَ وَهَوَاكَ، وَلَهُ أَسْبَابٌ وَمَدَاخِلُ وَأَبْوَابٌ أَنْتَ عَنْهَا غَافِلٌ.

---

أي ما يصنعه من الإضلال والإغواء (و) ضد (همته ومراده وحرفته) وشغله (فصرت كأنك قمت وشددت وسطك) أي بطنك بالإزار، وهذا كناية عن استعداده فى محاربة الشيطان (لتغايظ الشيطان) أي لتغضبه (وتكايده) أي تماكره (وتناقضه) أي تناقض مراده (فهو) أي الشيطان (أيضا) أي كما أنت عليه (يشد وسطه ليعاديك ويقاتلك ويماكرك حتى يفسد والعياذ بالله عليك شأنك بل) لا يقنعه ذلك الإفساد (حتى يهلكك رأسا) أي بالكلية (إذ لا يأمن) أي الشيطان (من جانبك بعد) معناه فى مثل هذا الموضع بالفارسية هنوز، وكان أصله بعد ما مضى من الزمان إلى هذا الوقت، ثم حذف المضاف إليه فبنى بعد على الضم (فإنه الذى يسيء ويقصد بالهلاك) الأبدى (إلى من لا يغايظه ولا يناقضه) ولا يخالفه (بل) يطيعه و (يصادقه) أي يأخذه صداقة ومحبة (ويوافقه) وذلك (كالكفار وأهل الضلال وأهل الرغبة فى بعض الأحوال، فكيف) أي فانظر كيف كان (قصده) أي اللعين (لمن قام لمغايظته) أي ذلك اللعين (وتجرد لمناقضته فله إذن) أي حين لا يؤمن شره وهلاكه لأعدائه وأصدقائه (مع سائر الناس عداوة عامة ومعك أيها المجتهد فى العبادة والعلم عداوة خاصة) من بين سائر الناس (وإن أمرك) أي شأنك وحالك (له) أي للشيطان اللعين (لمهم) لأنك قد أقبلت على الاجتهاد فى العبادة التي هي خلاف مراد اللعين فيجتهد فى إفسادك بقدر جهده (ومعه عليك) أي على محاربتك (أعوان) أي جنود (أشدها عليك نفسك) الأمارة بالسوء (وهواك) لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه (وله) أي الشيطان (أسباب ومداخل) إلى القلب (وأبواب) إليه (أنت عنها غافل) اعلم أن مداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد وهى كثيرة، ولكنا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب التى لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان. فمن أبوابه العظيمة الغضب والشهوة فإن الغضب هو غول العقل، وإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان، وجند العقل هو العلم

بالله واليقين ، وجند الشيطان الجهل والطمع وحب الدنيا ، ومهما غضب الإنسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبى بالكرة يدحرجه كيف يشاء ، كما روى فى الإسرائيليات أن موسى عليه السلام لقيه إبليس فقال : يا موسى أنت الذى اصطفاك الله برسالته وكلك تكليما ، وأنا خلق من خلق الله أذنبت وأريد أن أتوب فاشفع لي إلى ربى أن يتوب عليّ ، فقال له موسى نعم ، فدعا موسى ربه عز وجل ، فأوحى الله تعالى إلى موسى : ياموسى قد قضيت حاجتك مره أن يسجد لقبر آدم حتى يتاب عليه ، فلقى موسى إبليس فقال له : قد قضيت حاجتك أمرت أن تسجد لقبر آدم حتى يتاب عليه . فغضب إبليس واستكبر وقال : لم أسجد له حيا أأسجد له ميتاً ؟ ثم قال يا موسى إن لك عليّ حقا بما شفعت لى إلى ربك فاذكرنى عند ثلاث لا أهلكك فيهن : اذكرني حين تغضب ، فإن روحى فى قلبك ، وعينى فى عينك ، وأجري منك مجرى الدم ، واذكرنى حين تلقى الزحف فإنى آتى ابن آدم حين يلقى الزحف فأذكره زوجته وولده وأهله حتى يولى ظهره ، وإياك أن تجلس إلى امرأة ليست بذات محرم فأنا رسولها إليك ورسولك إليها ، فقد أشار إبليس بهذا إلى الشهوة والغضب والحرص ، فإن الفرار من الزحف حرص على الدنيا ، وامتناعه من السجود لآدم ميتا هو الحسد وهو أعظم مداخله . وقد ذكر فى بعض الكتب : أن بعض الأولياء قال لإبليس أرنى كيف تغلب ابن آدم ؟ فقال آخذه عند الغضب وعند الهوى : أى ميل للنفس إلى أمر دنيوى ، فقد حكى : أن إبليس ظهر لراهب من رهبان بنى إسرائيل ، فقال له الراهب : أى أخلاق بنى آدم أعون لك ؟ قال الحدة : وهى التسرع فى الغضب ، فإن العبد إذا كان حديداً فى غضبه قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة . وقيل إن الشيطان يقول كيف يغلبنى ابن آدم وإذا رضى جئت حتى أكون فى قلبه ، وإذا غضب طرت حتى أكون فى رأسه ، وابن آدم لا يخلو من تينك الحالتين ، وهو فيهما ملازم له يعده ويمنيه ويراه من حيث لا يراه فكيف يغلبه ؟ .

ومن أبوابه العظيمة : الحسد والحرص ، فمهما كان العبد حريصاً على كل شيء أعماه حرصه وأصمه ، إذ قال صلى الله عليه وسلم « حبك للشى يعمى ويصم » رواه أبو داود من حديث أبى الدرداء ، ونور البصيرة هو الذى يعرف مداخل الشيطان ، فإذا غطاه الحسد والحرص لم يبصر فحينئذ يجد الشيطان فرصة ، فيحسن ويزين عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته وإن كان منكراً وفاحشا ، لكنه موافق لما تشتهيه نفسه .

ومن أبوابه العظيمة : الشبع من الطعام وإن كان حلالا صافيا لاشبهة فيه ، فان الشبع يقوى الشهوات والشهوات أسلحة الشيطان . فقد روى أن إبليس ظهر ليحي بن زكريا عليهما السلام فرأى عليه معاليق من كل شيء ، فقال له يا إبليس ما هذه المعاليق ؟ قال هذه الشهوات التى أصبت بها ابن آدم ، فقال فهل لي فيها من شيء ؟ قال ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة وعن الذكر . قال فهل غير ذلك ؟ قال لا . قال : لله علي أن لا أملأ بطنى من الطعام

أبداً ، فقال إبليس : ولله عليّ أن لا أنصح مسلماً أبدا ، ويقال فى كثرة الأكل ست خصال مذمومة : أولها أن يذهب خوف الله من قلبه . والثانى أن يذهب رحمة الخلق من قلبه ، لأنه يظن أنهم كلهم شباع . والثالث أنه يثقل عن الطاعة . والرابع أنه إذاسمع كلام الحكمة لا يجد له رقة . والخامس أنه إذا تكلم بالموعظة والحكمة لا يقع فى قلوب الناس . والسادس أن يهيج فيه الأمراض .

ومن أبوابه : حب التزين من الأثاث والثياب ، والدار التى يسكنها ؛ فان الشيطان إذ رأى ذلك غالبا على قلب الإنسان باض فيه وفرخ ، فلا يزال يدعوه أولا إلى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها ، وتوسيع أبنيتها ، وكثرة مرافقها ، ويدعوه ثانيا إلى التزين بالثياب الفاخرة والدواب الفارهة ، ويستسخره فيها طول عمره ؛ وإذا أوقعه فى ذلك فقد استغنى أن يعود إليه ثانية فإن بعض ذلك يجره إلى البعض ، فلا يزال يؤديه من شىء إلى شىء مثله إلى أن يساق إليه أجله المحتوم ، فيموت وهو فى سبيل الشيطان واتباع الهوى النفسى ويخشى عليه من ذلك سوء العاقبة بالكفر ، نعود بالله منه ، وهذا مشاهد الآن في أكثر الناس .

ومن أبوابه العظيمة : الطمع فى الناس ، فاذا غلب الطمع على القلب لم يزل الشيطان يحبب إليه التصنع والتزين لمن طمع فى ماله أو جاهه بأنواع من الرياء والتلبيس حتي يصير المطموع فيه كأنه معبوده ، فلا يزال يتفكر فى حيلة التودد والتحبب إليه ، ويدخل كل مدخل للوصول إلى ذلك صعب ذلك المدخل أو هان . وأقل أحواله : الثناء عليه بما ليس فيه والمداهنة له بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقد روى صفوان بن سليم : أن إبليس تمثل لعبد الله بن حنظلة ابن أبي عامر الراهب الأنصارى ، فقال يا بن حنظلة احفظ عنى شيئا أعلمك به ؟ فقال لا حاجة لى به ، قال انظر فإن كان خيراً أخذت ، وإن كان شرا رددت ، يا ابن حنظلة لاتسأل أحداً غير الله سؤال رغبة ، وانظر كيف تكون إذا غضبت : يعنى كف نفسك عن إنزال حاجتها لغير الله ، واحفظها عند الغضب .

ومن أبوابه العظيمة : العجلة وترك التثبت فى الأمور ، قال صلى الله عليه وسلم « العجلة من الشيطان ، والتأنى من الله تعالي » رواه الترمذى من حديث سهل بن سعد . وقال عز وجل « خلق الإنسان من عجل » . وقال تعالي « وكان الإنسان عجولا » ، وقال سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه » . وهذا لأن الأعمال ينبغى أن تكون بعد التبصرة والمعرفة ، والتبصرة تحتاج إلى تأمل وتمهل ، والعجلة تمنع من ذلك ، فقد روى البيهقى من طريق عكرمة عن ابن عباس رفعه « إذا تأنيت أصبت أو كدت وإذا استعجلت اخطأت أو كدت تخطىء » . وقيل فى ذلك :

قد يدرك المتأنى بعض حاجته     وقد يكون مع المستعجل الزلل

وعند الاستعجال يروج الشيطان شره على الإنسان من حيث لا يدرى ، فقد روى « أنه لما ولد عيسى عليه السلام أتت الشياطين إبليس ، فقالوا : أصبحت الأصنام قد نكست رءوسها :

فقال هذا حادث قد حدث الزموا مكانكم حتى آتيكم بخبره ، فطار حتى أتى خافقي الأرض فلم يجد شيئا ، ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد وإذا بالملائكة حافين به ، فرجع إليهم فقال : إن نبيا قد ولد البارحة ما حملت أنثى قط ولا وضعت إلا وأنا حاضرها إلا هذا فأيسوا طمعكم من أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ، ولكن ائتوا بنى آدم من قبل العجلة والخفة : أى فلم يكن لكم مدخل فيهم إلا من هذا الباب فقط . قال العلامة الزبيدى : وقد حمي الله عيسى عليه السلام من حضور الشيطان عند ولادته والطعن فى خاصرته كما ثبت ذلك فى الأخبار الصحيحة ، فقد روى أحمد وابن أبى شيبة ومسلم من حديث أبى هريرة «ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخا من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه » : وعند ابن جرير «ما من مولود إلا وقدعصره الشيطان عصرة أو عصرتين إلا عيسى بن مريم ومريم » .

ومن أبوابه العظيمة : الدراهم والدنانير وسائر أصناف الأموال من العروض والدواب والعقار فكل ما يزيد على قدر القوت والحاجة فهو مستقر الشيطان ، فان من معه قوته فهو فارغ القلب عن هم المعيشة ، فلو وجد مائة دينار مثلا على طريق انبعث من قلبه عشر شهوات تحتاج كل شهوة منها إلى مائة دينار أخرى فلا يكفيه ما وجد بل يحتاج إلى تسعمائة أخرى وقد كان قبل وجود المائة مستغنيا فالآن لما وجد مائة ظن أنه صار بها غنيا ، وقد صار محتاجا إلى تسعمائة ليشترى من بعضها دارا يعمرها ويشترى من البعض جارية يتسراها ويشترى من البعض أثاث البيت من فرش وذخيرة ويشترى من البعض الثياب الفاخرة لنفسه وكل شىء من ذلك يستدعى أشياء أخرى تليق به مما لا يفى به ذلك المال ، وذلك لا آخر له فيقع فى هاوية آخرها عمق جهنم فلا آخر له سواه .

ومن أبوابه العظيمة : البخل . وخوف الفقر ، فإن ذلك هو الذى يمنع الإنسان من الانفاق فى سبيل الله ومن التصدق على المستحقين ويدعو إلى الإدخار والكنز والعذاب الأليم وهو الموعود للمكاثرين كما نطق به القرآن العزيز « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » . وقال خيثمة بن عبد الرحمن : إن الشيطان يقول ما غلبنى ابن آدم غلبة فلن يغلبنى على ثلاث : أن آمره أن يأخذ المال من غير حقه وإنفاقه فى غير حقه ومنعه من حقه . وقال سفيان الثورى : ليس للشيطان سلاح يقاتل به ابن آدم مثل خوف الفقر ، فإذا قبل ذلك منه أخذ فى الباطل ومنع من الحق وتكلم بالهوى وظن بربه ظن السوء ، وإليه الإشارة بقوله تعالى « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء » .

ومن آفات البخل الحرص على ملازمة الأسواق لجمع المال والأسواق هى معشش الشياطين : أى مجمعهم الذى يلازمونه ويركزون فيها راياتهم . وروى أبو أمامة الباهلى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن إبليس لما نزل إلى الأرض قال يارب أنزلتنى إلى الأرض وجعلتنى رجيما فاجعل لى بيتا ، قال الحمام : أى فهو يسكن فيه دائما إذ هو محل كشف العورات قال اجعل لى مجلسا أجلس فيه . قال الأسواق ومجامع الطرق . قال اجعل لى طعاما : قال طعامك

مالم يذكر اسم الله عليه . قال اجعل لى شرابا . قال كل مسكر. قال اجعل لي مؤذنا قال : المزامير : قال اجعل لى قرآنا قال : الشعر . قال اجعل لى كتابا : قال الوشم . قال اجعل لى حديثاً قال : الكذب . قال اجعل لى مكايد قال : النساء فهن حبائل الشيطان » كما رواه أبو نعيم فى الحلية من حديث عبد الرحمن بن عابس . ومن عظيم حيل الشيطان أن يشغل الإنسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس فى المذاهب والخصومة . قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : جلس قوم يذكرون الله تعالى فأتاهم الشيطان ليقيمهم عن مجلسهم ويفرق بينهم فلم يستطع لقوّة حالهم فى الذكر ، فأتى رفقة أخرى بالقرب من ذلك المجلس يتحدثون بحديث الدنيا فأفسد بينهم فقاموا يقتتلون ، وليس إياهم يريد ، وإنما يريد تفرقة أولئك القوم الذين يذكرون الله ، فقام الذين يذكرون الله فاشتغلوا يفصلون بينهم ويصالحونهم فتفرقوا عن مجلسهم وتركوا ذكر الله تعالى وذلك مراد الشيطان منهم .

ومن أبوابه العظيمة حمل العوام الذين لم يمارسوا العلم ولم يزاولوا فيه بالتعلم وبالدراسة والانكباب على الهيئة المعهودة ولم يتبحروا فيه بالغوص على مشكلاته على التفكر فى ذات الله تعالى وصفاته وفي أمور لا يبلغها حدّ عقولهم حتى يوقعهم فى الشك فى أصل الدين أو يخيل إليهم فى الله تعالى خيالات وظنونات يتعالى الله عنها ويجل شأنه عن نسبتها إليه يصير بها كافراً أو مبتدعا وهو به فرح مسرور مبتهج بما وقع فى صدره يظن ذلك هو المعرفة والبصيرة وأنه انكشف له ذلك بذكائه وزيادة عقله ، فأشد الناس حماقة أقواهم اعتقادا فى عقل نفسه إعجابا به ، وأثبت الناس عقلا أشدهم اتهاما لنفسه وأكثرهم سؤالا من العلماء . قالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان يأتى أحدكم فيقول : من خلقك ؟ فيقول الله تبارك وتعالى ، فيقول فمن خلق الله ؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله ورسوله » أى فليقل أخالف عدو الله المعاند وأومن بالله وبما جاء به رسول الله ، فان ذلك يذهب عنه ، والنبى صلى الله عليه وسلم لم يأمر بالبحث فى علاج هذا الوسواس من الشيطان فإن هذا وسواس يجده عوامّ الناس دون العلماء العارفين بنور البصيرة وقد استقر الايمان فى قلوبهم فلا يتزلزلون ، وإنما حقّ العوام أن يصدقوا بقلوبهم وينقادوا لأمور الدين ، ويشتغلوا بعبادتهم الظاهرة ومعايشهم ، ويتركوا العلم والغوص فى معانيه للعلماء الصادقين ، فالعامى لو يزنى ويسرق كان خيرا له من أن يتكلم فى العلم فإنه من تكلم فى الله وفى دينه من غير إتقان العلم وذلك بمعرفة حججه وبراهينه مع مساعدة تأييد الله تعالى وشهود نور اليقين وقع فى الكفر من حيث لا يدرى كمن يركب لجة البحر وهو لا يعرف السباحة ، ومن ذلك قول سهل التسترى : إفشاء الربوبية كفر فإن العوام إذا ورد على أسماعهم ما تنبو عنه طباعهم لم يقبلوه وصاروا أعداء ما جهلوه ؛ فالأولى أن لا يخاطبوا بمثل ذلك صيانة لهم عن الزيغ والوقوع فى الكفر ومكايد الشيطان فما يتعلق بالعقائد والمذاهب والأهواء والآراء لا تحصر ، وإنما أردنا بما أوردناه المثال لينبه على ماوراءه . فهذه المذكورات بعض مداخل

وَلَقَدْ صَدَقَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِى حَيْثُ قَالَ : الشَّيْطَانُ فَارِغٌ وَأَنْتَ مَشْغُولٌ وَالشَّيْطَانُ يَرَاكَ وَأَنْتَ لاَتَرَاهُ وَأَنْتَ تَنْسَاهُ وَهُوَ لاَيَنْسَاكَ وَمِنْ نَفْسِكَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْكَ أَعْوَانٌ ، فَإِذَنْ لاَبُدَّ مِنْ مُحَارَبَتِهِ وَقَهْرِهِ وَإِلاَّ فَلا تَأْمَنِ الْفَسَادَ وَالْهَلاَكَ .

فَإِنْ قُلْتَ فَبِأَيِّ شَيْءٍ أُحَارِبُ الشَّيْطَانَ وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَقْهَرُهُ وَأَدْفَعُهُ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ لِأَهْلِ هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ فِى هٰذِهِ الْمَسْئَلَةِ طَرِيقَيْنِ: أَحَدُهُمَا مَاقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ التَّدْبِيرَ فِى دَفْعِ الشَّيْطَانِ الْاسْتِعَاذَةُ بِاللّٰهِ سُبْحَانَهُ لاَغَيْرُ

---

الشيطان إلى القلب ولو أردت استقصاء جميعها على سبيل الاحاطة لم أقدر عليه . وفى هذا القدر الذى ذكر ما ينبه على غيره فليس فى الآدمى صفة مذمومة إلا وهي سلاح الشيطان يقاتل به المؤمن ومدخل من مداخله إلى القلب ( ولقد صدق يحي بن معاذ الرازى ) الواعظ نسيج وحده فى وقته له لسان فى الرجاء خصوصاً وكلام فى المعرفة ، خرج إلي بلخ وأقام بها مدة ورجع إلى نيسابور ومات بها سنة ثمان وخمسين ومائتين رحمه الله تعالى ( حيث قال : الشيطان فارغ ) عن الشواغل فلا يشغله إلا أن يهلكك ( وأنت مشغول ) بأنواع المشاغيل إما دنيوية أو أخروية ( والشيطان يراك وأنت لا تراه ) لكونه يجرى مجارى الدم ( وأنت تنساه ) أى الشيطان ( وهو لا ينساك ) يمنع الخير وإيقاع الشر عليك ( ومن نفسك للشيطان عليك ) أى على إفسادك ( أعوان ، فإذن ) أى إذا نظرت لقول ابن معاذ الرازى رحمه الله ( لا بد من محاربته ) أى الشيطان ( وقهره وإلا ) تحاربه وتقهره ( فلا تأمن الفساد والهلاك ) منه (فإن قلت فبأى شىء أحارب الشيطان) وأجاهده ( وبأى شىء أقهره وأدفعه فاعلم أن لأهل هذه الصناعة ) من الطائفة الصوفية ( فى هذه المسئلة ) أى مسئلة محاربة الشيطان ودفعه ( طريقين : أحدهما ما قال بعضهم : إن التدبير ) والحيلة ( فى دفع الشيطان الاستعاذة ) أى طلب التحصن والتحفظ منه ( بالله سبحانه لا غير ) بالضم : أى غير الاستعاذة ودليل ذلك قوله تعالى « فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » أى اطلب اللجأ إلى الله تعالى من شره . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : «التقى شيطان المؤمن وشيطان الكافر ، فإذا شيطان الكافر دهين سمين كاس ، وشيطان المؤمن مهزول : أى نحيف البدن أشعث أغبر عار ، فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن مالك مهزول ؟ قال أنا مع رجل إذا أكل سمي الله تعالى على أكله فأظل جائعاً ، وإذا شرب سمى الله تعالى علي شربه فأظل عطشانا ، وإذا لبس سمى الله تعالى على لباسه فأظل عريانا ، وإذا ادهن سمى الله تعالى عند ادهانه فأظل شعثا ، فقال شيطان الكافر ، لكنى مع رجل لا يفعل شيئا من ذلك فأنا أشاركه فى طعامه وشرابه ولباسه وادهانه» فقد روى مسلم من حديث جابر « إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه حتى يحضره عند طعامه ، فاذا سقطت من أحدكم اللقمة فليمط ما كان بها من أذى ثم ليأكلها ولا يدعها

فَإِنَّ الشَّيْطَانَ كَلْبٌ سَلَّطَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْكَ فَإِنِ اشْتَغَلْتَ بِمُحَارَبَتِهِ وَمُعَالَجَتِهِ تَعِبْتَ وَضَاعَ عَلَيْكَ وَقْتُكَ وَيَظْفَرُ بِكَ فَيَعْقِرُكَ وَيَجْرَحُكَ ، فَالرُّجُوعُ إِلَى رَبِّ الْكَلْبِ لِيَصْرِفَهُ عَنْكَ أَوْلَى . وَالثَّانِي مَا قَالَ آخَرُونَ : إِنَّ الطَّرِيقَ الْمُجَاهَدَةُ وَالْقِيَامُ عَلَيْهِ بِالدَّفْعِ وَالرَّدِّ وَالْمُخَالَفَةِ .

---

للشيطان » الحديث ، وروى الترمذى والحاكم من حديث أبي هريرة « إن الشيطان حساس لحاس من الطعام فاحذروه على أنفسكم » الحديث ، ودل أثر أبى هريرة السابق أن الشيطان يأكل ويشرب ويلبس ويشم حقيقة ، وقد شنع ابن العربى في شرح الترمذى على من قال : إن أكله إنما هو الشم فقط ، بل الصحيح أنه يشم ويأكل وله لذة فى الشم كلذة فى اللقمة كلذتنا فى كل طعمة ، وكان أبو عبد الله محمد بن واسع البصرى العابد يقول كل يوم بعد صلاة الصبح هذه الاستعاذة : اللهم إنك سلطت علينا عدوا بصيرا بعيوبنا : يعنى به الشيطان، يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم ، اللهم فأيسه منا كما أيسته من رحمتك ، وقنطه منا كما قنطته من عفوك ، وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين رحمتك إنك على كل شيء قدير . قال الراوى : فتمثل له إبليس يوما فى طريق المسجد ، فقال يا ابن واسع هل تعرفنى ؟ قال ومن أنت ؟ قال : أنا إبليس . قال وما تريد ؟ قال أريد أن لا تعلم أحدا هذه الاستعاذة ولا أتعرض لك . قال والله ما أمنعها ممن أرادها فاصنع ما شئت . وقال الحسن البصرى رحمه الله « نبئت أن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال إن عفريتا من الجن يكيدك ، فاذا أويت إلي فراشك فاقرأ آية الكرسى » رواه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان هكذا مرسلا ( فان الشيطان كلب ) أي بمنزلته ( سلطه الله سبحانه ) أى جعله قاهراً (عليك فان اشتغلت بمحاربته ) أى كلب الشيطان ( ومعالجته ) أى مزاولته ( تعبت وضاع ) أى هلك ( عليك وقتك ) الذى هو جوهر نفيس فان فات فلا مرد ( ويظفر بك ) أى يغلب ذلك الشيطان عليك ( فيعقرك ويجرحك ) مرادف لما قبله كما أفاده العلامة عبد الحق ( فالرجوع ) أى إن كان الأمر كذلك فالرجوع بالتفويض ( إلى رب الكلب ) أى خالقه سبحانه وتعالى ( ليصرفه عنك أولى ) أى أفضل من اشتغالك بالمحاربة والمعالجة ( والثاني ) من الطريقين ( ما قاله آخرون ) وهو ( أن الطريق ) في دفع الشيطان( المجاهدة ) بتطهير القلب من الصفات المذمومة ، وذلك مما يطول ذكره فلتنظر ربع المهلكات من الإحياء للمصنف تجده خير مسلك مبين فى ذلك ( والقيام ) أى المواظبة ( عليه ) أى الشيطان ( بالدفع والرد والمخالفة ) لمراده ، وذلك بتطهير القلب من الصفات المهلكات وسد مداخل الشيطان منها ، فاذاقطعت من القلب أصول هذه الصفات وسدت مداخله منها كان للشيطان بالقلب اجتيازات وخطرات ، ولم يكن له استقرار وتمكن بالكلية ، ويمنعه من الاجتياز ذكر الله تعالى ، لأن حقيقة الذكر لا تتمكن من القلب إلا بعد عمارته بالتقوى وتطهيره من الصفات المذمومة ، وذلك بعد

التنصل عن العلائق وصدق التوبة والإنابة، وإلا فيكون الذكر حديث نفس لا سلطان له على القلب فلا يدفع سلطان الشيطان ، ولذلك قال الله تعالى « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » فإنه خصص بذلك المتقى ، فقال « إن الذين اتقوا » فعلم من ذلك أن عمارة القلب بالتقوى شرط فى تأثير الذكر ودفع سورة الشيطان ، فمثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك ، فإن لم يكن بين يديك خبز أو لحم فانه ينزجر بأن تقول له اخسأ : أى تأخر، فمجرد الصوت يدفعه، فإن كان بين يديك لحم أو خبز وهو جائع فانه يهجم على اللحم أو الخبز ولا يندفع بمجرد الكلام الزاجر فالقلب الخالى عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر ولا يحتاج فى دفعه إلى معالجة . فأما الشهوة إذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذكر إلى حواشى القلب فلم يتمكن من داخله فيستقر الشيطان فى داخل القلب فيحتاج إلى معالجة شديدة لإخراجه عنه . وأما قلوب المتقين الخالية عن الهوى والصفات المذمومة فإنه يطرقها الشيطان لا للشهوات . بل لخلوها بالغفلة عن الذكر ، فإذا عاد إلى الذكر خنس الشيطان وتأخر . وقال صلى الله عليه وسلم « ماسلك عمر فجا إلا سلك الشيطان فجا غير الذى سلكه عمر » . رواه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان ، وهذا لأن القلوب كانت مطهرة عن مرعى الشيطان وقوته وهى الشهوات ، فمهما طمعت فى أن يندفع الشيطان عنك بمجرد الذكر كما اندفع عن عمر رضى الله عنه كان محالا وكنت كمن يسمع أن يشرب دواء قبل الاحتماء من المغلظات والمعدة مشغولة بغليظ الأطعمة ورديئها ، ويسمع أن ينفعه كما نفع الذى شربه بعد الاحتماء وتخلية المعدة لا يستويان ، فالذكر بمنزلة الدواء ، والتقوى بمنزلة الاحتماء وهى تخلى القلب عن الشهوات ، فإذا نزل الذكر قلبا فارغا عن غير الذكر اندفع الشيطان كما تندفع العلة بنزول الدواء فى المعدة الخالية عن الأطعمة . قال الله تعالى « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب » وقال تعالى « كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير » ومن ساعد الشيطان بعمله فهو مواليه ، وإن ذكر الله بلسانه فانه لا يمنع موالاته وإن قلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم فان هو ذكر الله تعالى خنس وإن نسى التقم قلبه » قال العراقي : رواه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان فهذا الحديث قد ورد مطلقا أن الذكر يطرد الشيطان ولم تفهم أن أكثر عمومات الشرع مخصوصة بشروط معروفة نقلها علماء الدين . فالجواب انظر إلى نفسك فليس الخبر كالعيان ، وتأمل أن منتهى ذكرك وعبادتك الصلاة إذ هى أعظم القربات إلى الله تعالى ؛ فراقب قلبك وتأمل إذا كنت فى صلاتك كيف يجاذبه الشيطان إلى الأسواق ، وحساب العاملين ، وجواب المعاندين وكيف يمر بك فى أودية الدنيا ومهالكها حتى إنك لا تذكر ما قد نسيته من فضول الدنيا إلا فى صلاتك ولا يزدحم الشيطان على قلبك إلا إذا صليت فيسوله بأنواع التسويلات ويشتته فى أودية لا آخر لها حتى لا يدرى تارة كم صلى، فالصلاة محك القلوب فبها يظهر محاسنها ومساويها فإن كانت مطهرة عن الشهوات ظهرت محاسنها فى الصلاة بالإقبال على الله بكنه الهمة وإلقاء الوسواس وراء ظهره والا فبعكس ذلك ، فالصلاة لا تقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا ، فلاجرم لا ينطرد عنك

قُلْتُ : وَالَّذِي عِنْدِي أَنَّ الطَّرِيقَ الْعَدْلَ الْجَامِعَ فِي أَمْرِهِ أَنْ تَجْمَعَ بَيْنَ الطَّرِيقَيْنِ ، فَتَسْتَعِيذُ بِاللهِ تَعالى أَوَّلاً مِنْ شَرِّهِ كَمَا أَمَرَنَا وَهُوَ الْكَافِي شَرَّهُ ، ثُمَّ إِنْ رَأَيْنَاهُ يَتَغَلَّبُ عَلَيْنَا عَلِمْنَا أَنَّهُ ابْتِلَاءٌ مِنَ اللهِ تَعالى لِيَرَى صِدْقَ مُجَاهَدَتِنَا وَقُوَّتِنَا فِي أَمْرِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعالى ، وَيَرَى صَبْرَنَا كَمَا أَنَّهُ سَلَّطَ عَلَيْنَا الْكُفَّارَ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى كِفَايَةِ أَمْرِهِمْ وَشَرِّهِمْ لِيَكُونَ لَنَا حَظٌّ مِنَ الْجِهَادِ وَالصَّبْرِ وَالتَّمْحِيصِ وَالشَّهَادَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : « وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ » وَقَالَ تَعَالَى : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ

---

الشيطان ولا ينزجر بالذكر بل ربما يزيد عليك الضرر . فان أردت الخلاص من الشيطان فقدم الاحتماء بالتقوى أولا ، ثم أردفه بدواء الذكر يفر الشيطان منك كما فر من عمر رضي الله عنه وهذا حال من انتهى به سلوكه وأشرقت عليه أنوار التوفيق فلبس لامة الصدق وتحلى بأسلحة العزل ودخل في حومة الحرب بين باعث الدين وداعي الهوى فكانت الغلبة لداعي الدين وفرت جيوش الشياطين ، ولذلك قال أبو حازم : ما الشيطان حتى يهاب فوالله لقد أطيع فما نفع ، وعصى فما ضر . وقال بعضهم لولا أن الحق سبحانه أمرنا بالاستعاذة منه ما استعذت منه لحقارته ، وهذا شأن المتقين ( قلت : والذي عندي أن الطريق العدل الجامع في أمره ) أي الشيطان : أي دفعه ( أن تجمع بين الطريقين ) وهما الاستعاذة والمجاهدة ( فتستعيذ بالله تعالى أولا من شره ) أي الشيطان ( كما أمرنا ) الله تعالى بقوله « فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » ( وهو ) تعالى ( الكافي والمانع ( شره ) أي اللعين ( ثم إن رأيناه يتغلب علينا علمنا ) علما يقينا ( أنه ) أي الشيطان اللعين ( ابتلاء من الله تعالى ليري ) تعالى ( صدق مجاهدتنا ) أي لذلك الشيطان ( وقوتنا في أمره سبحانه وتعالى ) بالمجاهدة ( ويرى صبرنا ، كما أنه ) تعالى ( سلط ) أي جعل القهر ( علينا الكفار مع قدرته ) تعالى ( علي كفاية أمرهم وشرهم ) وذلك ( ليكون لنا حظ ) أي نصيب ( من الجهاد والصبر والتمحيص ) أي التخليص من الذنوب ، وفي الخازن : وأصل المحص في اللغة التنقية والإزالة . وفي القاموس : ومحص الذهب بالنار من باب منع أخلصه مما يشوبه ، والتمحيص الابتلاء والاختبار ( والشهادة ) في سبيل الله ( كما قال تعالى : وليعلم الله ) علم ظهور : أي علم وجود : أي علما متعلقا بالوجود الخارجي ؟ والمراد الظهور : أي ليظهر لنا المؤمن من غيره وإلا فعلمه متعلق أزلا بكل شيء ( الذين آمنوا ) أي أخلصوا في إيمانهم من غيرهم ( ويتخذ ) سبحانه وتعالى ( منكم شهداء ) أي يكرمهم بالشهادة في سبيل الله ( وقال تعالى : أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما ) أي لم ( يعلم الله ) علم ظهور وهو الذي يتعلق به الثواب والعقاب كما علمه غيبا وله نظائر كثيرة في القرآن وإنما لم يحمل الكلام على حقيقته لدلالته على أن العلم يحصل بعد الفعل ، وعلم الله تعالى

الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » فَكَذَٰلِكَ هٰذَا ؛ ثُمَّ إِنَّ مُحَارَبَتَهُ وَقَهْرَهُ فِيمَا قَالَهُ عُلَمَاؤُنَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : أَحَدُهَا أَنْ تَتَعَرَّفَ وَتَتَعَلَّمَ مَكَايِدَهُ وَحِيَلَهُ فَلَا يَتَجَاسَرُ حِينَئِذٍ عَلَيْكَ كَاللِّصِّ إِذَا عَلِمَ أَنَّ صَاحِبَ الدَّارِ قَدْ أَحَسَّ بِهِ فَرَّ . وَالثَّانِي أَنْ تَسْتَخِفَّ بِدَعْوَتِهِ فَلَا تُعَلِّقْ قَلْبَكَ بِذَٰلِكَ وَلَا تَتْبَعْهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الْكَلْبِ النَّابِحِ إِنْ أَقْبَلْتَ عَلَيْهِ أُولِعَ بِكَ وَلَجَّ وَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْهُ سَكَتَ . وَالثَّالِثُ أَنْ تُدِيمَ ذِكْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِلِسَانِكَ وَقَلْبِكَ ،

---

لا يتصف بالحدوث كما صرح به العلامة الكرخي ( الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ) في الشدائد ( فكذلك هذا ) أي كما سلط الكفار سلط هذا الشيطان ( ثم إن محاربته ) أي الشيطان ( وقهره فيما قاله علماؤنا رضي الله عنهم في ثلاثة أشياء : أحدها أن تتعرف ) أي تطلب المعرفة ( وتتعلم مكايده ) أي مكره ( وحيله ) بكسر الحاء وفتح الياء جمع حيلة اسم من الاحتيال كما في المختار ، وسيأتي بيان ذلك عند قوله : فإن قلت ( فلا يتجاسر ) أي يجترئ ويقدم ( حينئذ ) أي حين إذ تعلم مكايده ( عليك ) وذلك ( كاللص ) بضم اللام وفتحها : أي السارق والجمع لصوص ( إذا علم ) أي السارق ( أن صاحب الدار قد أحسّ به فرّ ) أي هرب ذلك السارق خوفا من الأخذ ، وفي المصباح : فرّ من عدوه يفرّ من باب ضرب فرارا هرب ( والثاني أن تستخف ) أي تستهين ( بدعوته ) أي الشيطان إلى أنواع الشرور ( فلا تعلق قلبك بذلك ) أي بما دعاه إليها ( ولا تتبعه فإنه ) أي اللعين ( بمنزلة الكلب النابح ) النباح صوت الكلب ( إن أقبلت عليه أولع بك ) بالبناء للمجهول : أي علق بك شديدا ( ولج ) من باب ضرب ومن باب علم وهو أحسن : أي تمادى في الغلو إلى الفعل المزجور عنه في الخصومة وفي الأمر لازمه وواظبه وأبي أن ينصرف عنه ( وإن أعرضت عنه ) أي الكلب النابح ( سكت . والثالث أن تديم ذكر الله سبحانه بلسانك وقلبك ) وذلك لأن الشيطان هجام على قلب المؤمن غير غافل عن مكايده . قال رجل للحسن البصري : يا أبا سعيد أينام الشيطان ؟ فتبسم وقال : لو نام لاسترحنا . وقال بعض الحكماء : نظرت وتفكرت من أي باب يأتي الشيطان إلى الإنسان ، فاذا هو يأتي من عشرة أبواب : أولها يأتي من قبل الحرص وسوء الظن ، فقابلته بالثقة والقناعة ، فقلت بأي آية أتقوى عليه من كتاب الله تعالى ؟ فوجدت قول الله عز وجل « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » الآية فكسرته بذلك . والثاني نظرت فاذا هو يأتي من قبل الحياة وطول الأمل ، فقابلته بخوف مفاجأة الموت ، فقلت بأي آية أتقوي عليه ؟ فوجدت قول الله تعالى « وما تدري نفس بأي أرض تموت » فكسرته بها . والثالث نظرت فاذا هو يأتي من قبل طلب الراحة وطلب النعمة ، فقابلته بزوال النعمة وسوء الحساب ، فقلت بأي آية أتقوى عليه ؟ فوجدت قول الله تعالى « ذرهم يأكلوا

فَلَقَدْ قالَ صلى اللهُ عليه وسلم: « إِنَّ ذِكْرَ اللهِ تَعَالَى فِى جَنْبِ الشَّيْطَانِ كَالْآكِلَةِ فِى جَنْبِ ابْنِ آدَمَ » .

فَإِنْ قُلْتَ فَكَيْفَ تَعْلَمُ مَكَايِدَهُ وَكَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى مَعْرِفَةِ ذٰلِكَ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ لَهُ وَسَاوِسَ هِىَ بِمَنْزِلَةِ السِّهَامِ الَّتِى يَرْمِيهَا ، وَذٰلِكَ إِنَّمَا يَتَبَيَّنُ لَكَ بِمَعْرِفَةِ الْخَوَاطِرِ

---

ويتمتعوا » الآية ، وبقوله « أفرأيت إن متعناهم سنين » الآية ، فكسرته بذلك . والرابع نظرت فإذا هو يأتى من باب العجب ، فقابلته بالمنة وخوف العاقبة ؛ فقلت بأى آية أتقوى عليه ؟ فوجدت قول الله تعالى « فمنهم شقي وسعيد » فلا أدرى من أى الفريقين أكون ، فكسرته بها . والخامس رأيته يأتي من باب الاستخفاف بالإخوان وقلة حرمتهم ، فقابلته بمعرفة حقهم وحرمتهم ، فقلت بأى آية أتقوى عليه ؟ فوجدت قول الله تعالى فى كتابه « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » فكسرته بها . والسادس نظرت فاذا هو يأتى من باب الحسد ، فقابلته بالعدل وقسمة الله تعالى فى خلقه ، فقلت بأى آية أتقوي عليه ؟ فوجدت قول الله تعالى « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا » فكسرته بها . والسابع نظرت فاذا هو يأتي من قبل الرياء ومدح الناس ، فقابلته بالإخلاص ، فقلت بأى آية أتقوى عليه ؟ فوجدت قول الله تعالى « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » : يعنى مخلصا ، فكسرته بها . والثامن نظرت فإذا هو يأتى من باب البخل ، فقابلته بفناء ما فى أيدى الخلق وبقاء ما عند الله تعالى ، فقلت بأى آية أتقوى عليه ؟ فوجدت قول الله تعالى « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » فكسرته بها . والتاسع نظرته فإذا هو يأتي من باب الكبر ، فقابلته بالتواضع ، فقلت بأي آية أتقوى عليه ؟ فوجدت قول الله تعالى « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فكسرته بها . والعاشر نظرت فاذا هو يأتى من باب الطمع ، فقابلته بالإياس من الناس والثقة بما عند الله ، فقلت بأى آية أتقوي عليه ؟ فوجدت قول الله تعالى « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » : كذا ذكره العلامة أبو الليث السمرقندى ( فلقد قال صلى الله عليه وسلم : إن ذكر الله تعالى فى جنب الشيطان كالآكلة ) بمد الهمزة : مرض معروف ( فى جنب ابن آدم ) لم أقف عليه أصلا إلا أن معناه صحيح. أخرج أبو يعلى فى مسنده عن أبى بكر الصديق « عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار فأكثروا منهما ، فإن إبليس قال أهلكت الناس بالذنوب وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء » ( فان قلت فكيف نعلم مكايده ) أى الشيطان ( وكيف الطريق إلى معرفة ذلك ) أى المذكور من مكايده وخدعه ومكره (فاعلم أن له وساوس ) وهي الخطرة الرديئة (هى بمنزلة السهام التى يرميها وذلك) أى ما ذكر من وساوسه (إنما يتبين ) معرفتها ( لك ) بالأمرين : الأول ( بمعرفة الخواطر ) جمع خاطر اسم لما يتحرك فى القلب

وَأَقْسَامِهَا . وَالثَّانِي أَنَّ لَهُ حِيَلاً هِيَ بِمَنْزِلَةِ الشَّبَكَاتِ الَّتِي تَنْصِبُهَا ، وَذَلِكَ يَتَبَيَّنُ لَكَ بِمَعْرِفَةِ الْمَكَايِدِ وَأَوْصَافِهَا وَمَجَارِيهَا ، وَلَقَدْ ذَكَرَ عُلَمَاؤُنَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَبْوَابًا فِي الْخَوَاطِرِ ، وَقَدْ صَنَّفْنَا كِتَابًا سَمَّيْنَاهُ [ تَلْبِيسَ إِبْلِيسَ ] وَكِتَابُنَا هَذَا لاَ يَحْتَمِلُ الإِكْثَارَ ، لَكِنَّا نَذْكُرُ لَكَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى مِنْ كُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهَا أَصْلاً كَافِيًا إِذَا اعْتَصَمْتَ بِهِ . فَأَمَّا أَصْلُ الْخَوَاطِرِ فَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى وَكَّلَ بِقَلْبِ ابْنِ آدَمَ مَلَكًا يَدْعُوهُ إِلَى الْخَيْرِ يُقَالُ لَهُ الْمُلْهِمُ وَلِدَعْوَتِهِ إِلْهَامٌ ، وَسَلَّطَ فِي مُقَابَلَتِهِ شَيْطَانًا يَدْعُو الْعَبْدَ إِلَى الشَّرِّ يُقَالُ لَهُ : وَسْوَاسٌ وَلِدَعْوَتِهِ وَسْوَسَةٌ .

---

من رأى أو سعى ؛ ثم سمى محله باسم ذلك ، وهو من الصفات الغالبة ، وأصل تركيبه يدل على الاضطراب والحركة ، قاله الزبيدي نقلا عن المطرزي ( و ) معرفة ( أقسامها ) أى تلك الخواطر ( والثانى ) من الأمرين ( أن له ) أى للشيطان ( حيلا ) جمع حيلة ( هى بمنزلة الشبكات ) وهى التي يصاد بها كما فى المختار ( التى تنصبها ؟ وذلك ) أى الحيل ( يتبين لك بمعرفة المكايد ) أى مكايد الشيطان ومصايده ونحوه ( وأوصافها ) أى تلك المكايد ، وفى أكثر النسخ : وأوضاعها : أى مواضعها ( ومجاريها ، ولقد ذكر علماؤنا رضى الله عنهم أبوابا فى ) بيان ( الخواطر ، وقد صنفنا كتابا على الخصوص ( سميناه : تلبيس إبليس ) . وقد قلده جماعة ممن أتى بعده فألف كتابا سماه كذلك : منهم ابن الجوزي ، وذلك لأنه قد انتشر الآن تلبيسه فى البلاد والعباد ، لا سيما فى المذاهب والاعتقادات ، فركبوا كل صعب وذلول ، وتعصبوا ونبذوا الحق وراء ظهورهم وخدعهم إبليس بما تلقفوه وجمدوا عليه ( وكتابنا هذا ) المختصر المسمى :[ منهاج العابدين : إلي جنة رب العالمين ] : ( لا يحتمل الإكثار ) من بيان الخواطر لكون هذا الكتاب وضعته على الاختصار ( لكنا نذكر لك إن شاء الله تعالى من كل واحد منها ) أى الخواطر ( أصلا كافيا ) لمن تدبره وتأمله ، وذلك ( إذا اعتصمت به ) أى تمسكت بذلك الأصل فنقول : ( فأما أصل الخواطر ) وهى المحركات للإرادة ( فاعلم أن الله تعالى وكل بقلب ابن آدم ملكا ) والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى : شأنه إفاضة الخير ، وإفادة العلم ، وكشف الحق ، والوعد بالخير ، والأمر بالمعروف ، وقد خلقه وسخره ( يدعوه ) أى ابن آدم ( إلى الخير ) أى إلى ما ينفع فى الدار الآخرة ( يقال له ) أى الملك ( الملهم و ) يقال ( لدعوته ) أى ذلك الملك ودعوته هو الخاطر المحمود ( إلهام ) وهو ما يلقى فى الروع بطريق الفيض ( وسلط ) الله تعالى ( فى مقابلته ) أى الملك سببا داعيا إلى الشر يسمى ( شيطانا ) وهو عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه ضد شأن الملك ( يدعو العبد إلي الشر ) أى إلى ما يضر فى العاقبة ( يقال له ) أى الشيطان ( وسواس ) من الوسوسة : وهي الخطرة الرديئة ( و ) يقال ( لدعوته ) وهو الخاطر المذموم الداعى إلى الشر ( وسوسة ) واللطف الذى به يتهيأ

فَالْمُلْهِمُ لَايَدْعُوهُ إِلاَّ إِلَى الْخَيْرِ ، وَالْوَسْوَاسُ لَايَدْعُوهُ إِلا إِلَى الشَّرِّ فِى قَوْلِ أَكْثَرِ عُلَمَائِنَا .

وَقَدْ حُكِيَ عَنْ شَيْخِنَا رَحِمَهُ اللهُ انّ الشَّيْطَانَ رُبَّمَا يَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ وَقَصْدُهُ فِى ذَلِكَ الشرّ بِأَنْ يَدْعُوَهُ إِلَى الْمَفْضُولِ لِيَمْنَعَهُ عَنِ الْفَاضِلِ أَوْ يَدْعُوَهُ إِلَى خَيْرٍ لِيَجُرَّهُ إِلَى ذَنْبٍ عَظِيمٍ لاَيَفِى خَيْرُهُ بِذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ عُجْبٍ أَوْ غَيْرِهِ .

---

القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقا، والذى به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلانا ، فإن المعانى المختلفة تفتقر إلى أقسام مختلفة ، والوسوسة فى مقابلة الإلهام ، والشيطان فى مقابلة الملك والتوفيق فى مقابلة الخذلان ، فكل منهما زوج للآخر مقابل له ؛ منها ماهي أدوات الظاهر ، ومنها ماهى أعراض الباطن وهى حواس الجسم والقلب بأدوات الجسم هى الصفات الظاهرة وأعراض القلب هي المعاني الباطنة قد عدلها سبحانه بحكمته وسواها علي مشيئته وقومها إتقانا بصنعته : أولها النفس والروح وهما مكانان للالقاء ، والعدو والملك وهما شخصان يلقيان الفجور والتقوى. ومنها عرضان متمسكان فى مكانين ، وهما العقل والهوى عن حكمين من مشيئة حاكم وهما التوفيق والإغواء ، ومنها نوران ساطعان فى القلب عن تخصيص من رحمة راحم، وهما العلم،والإيمان فهذه أدوات القلب وحواسه ومعانيه وآلاته وإليه الإشارة بقوله تعالى «ومن كل شئ خلقنا زوجين» وقوله تعالي « الذى خلقك فسواك فعدلك » وقوله تعالى « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » فإن الموجودات كلها متقابلة مزدوجة مسواة معدولة مقومة إلا الله تعالى ، فإنه لا مقابل له ، كما أنه لاشريك له ، بل هو الواحد المطلق الخالق للأزواج كلها ( فالملهم لا يدعوه ) أى العبد ( إلا إلى الخير والوسواس لا يدعوه إلا إلى الشر في قول أكثر علمائنا ) رضى الله عنهم ( وقد حكى عن شيخنا ) أبى بكر الوراق ( رحمه الله ) أنه قال ( إن الشيطان ربما يدعو ) العباد ( إلى الخير ) لأن الشيطان لا يقدر على دعائهم إلى الشر الصريح ، فيصوّر الشر ويلقيه بصورة الخير فيشبه عليهم بذلك ، كذا قاله الغزالى وغيره ( وقصده ) أى الشيطان ( فى ذلك ) أى فى دعوته إلى الخير ( الشر ) حتى يلحقهم «بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » ( بأن يدعوه ) : الشيطان ( إلى المفضول ) من الأعمال ( ليمنعه ) أى العبد المدعو إلى المفضول ( عن الفاضل أو ) أن ( يدعوه إلى خير ليجره ) أى المدعو ( إلى ذنب عظيم لايفي خيره ) أى خير عمل الخير الذى دعاه الشيطان إليه ( بذلك الشر ) الذى هو مطلوب ذلك اللعين ( من عجب أو غيره ) كالرياء والسمعة ونحو ذلك من الصفات المذمومة ، وصورة ذلك أى دعوة الشيطان إلى الشر بصورة الخير ، كما يقول للعالم الماهر بطريق الوعظ للعامة : أما تنظر للخلق وهم موتى من الجهل هلكى من الغفلة ، قد أشرفوا على النار ، وكادوا أن يتساقطوا فيها ، أما لك رحمة على عباد الله تخلصهم من العطب والهلاك بنصحك ووعظك ، وقد أنعم الله عليك

فَهٰذَانِ دَاعِيَانِ قَائِمَانِ عَلَى قَلْبِهِ يَدْعُوَانِهِ وَهُوَ يَسْمَعُ قَلْبُهُ يُحِسُّ بِذٰلِكَ عَلَى مَا رُوِىَ فِى الْأَخْبَارِ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ : « إِذَا وُلِدَ لِابْنِ آدَمَ مَوْلُودٌ قَرَنَ اللهُ سُبْحَانَهُ بِهِ مَلَكاً وَقَرَنَ الشَّيْطَانُ بِهِ شَيْطَاناً ، فَالشَّيْطَانُ جَاثِمٌ عَلَى أُذُنِ قَلْبِ ابْنِ آدَمَ الْأَيْسَرِ وَالْمَلَكُ جَاثِمٌ عَلَى أُذُنِ قَلْبِهِ الْأَيْمَنِ ، فَهُمَا يَدْعُوَانِهِ .

---

بقلب بصير للمعانى ، ولسان ذلق : ولهجة مقبولة فكيف تكفر نعمة الله تعالى وتتعرض لسخطه وغضبه وتسكت عن إشاعة العلم وإفادته ، ودعوة الخلق إلى الصراط المستقيم ، ولا يزال اللعين يقرر ذلك وأمثاله ويستجره بلطيف الحيل ويستميله إلى ما يلقيه فى خياله إلى أن يشتغل بوعظ الناس مدة ، ثم يدعوه بعد ذلك إلى أن يتزين لهم ويتصنع بتحسين اللفظ وإظهار الخير، ويقول له إن لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك من قلوبهم ولا يهتدوا إلى الحق ، وإنما تجلب خواطرهم بتأثير كلامك فيهم إذا تزينت لهم بحسن الزى وأظهرت الفصاحة والبلاغة، ولا يزال يقرر ذلك عنده ويحسنه له وهو فى أثنائه يؤكد فيه شوائب الرياء ، وقبول الحق ولذة الجاه والتعزز بكثرة الأتباع والحشم والخدم ، وبكثرة العلم والنظر إلى الخلق بعين الاحتقار فيستدرج المسكين بالنصح إلى الهلاك فيتكلم على العامة وهو يظن أن قصده الخير ، وإنما قصده الجاه والقبول فيهلك بسببه وهو يظن فى نفسه أنه عند الله بمكان عظيم وهو ممن قال فيهم رسول الله صلي الله عليه وسلم « إن الله ليؤيد هذا الدين بقوم لاخلاق لهم » . رواه النسائى من حديث أنس بإسناد جيد وقال « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » متفق عليه من حديث أبى هريرة ؛ ولذلك روى أن إبليس جاء لعيسى عليه السلام فقال له قل لا إله إلا الله ، فقال عيسى كلمة حق لاأقولها بقولك ،وذلك لأن له أيضا تحت الخير تلبيسات ومخادعات ، وتلبيسات الشيطان من هذا الجنس لاتتناهى ،وبها تهلك العلماء والعباد والزهاد والفقراء والأغنياء وأصناف الخلق ممن يكرهون ظاهر الشر ولا يرضون لأنفسهم الخوض فى المعاصى المكشوفة الظاهر للناس ، فقد استمالهم بتلك الخدع : واستولى على قلوبهم فعميت بها أبصارهم ، كذا ذكره مصنفنا الغزالى وغيره ( فهذان ) أى الملهم والشيطان ( داعيان قائمان على قلبه ) أى العبد ( يدعوانه ) إلى مطلوبهما ( وهو يسمع قلبه يحس ) أى يعلم ( بذلك ) أى الذى يدعوانه إليه ( على ما روى فى الأخبار أنه عليه الصلاة والسلام قال : إذا ولد ولد لابن آدم مولود قرن الله سبحانه به ) أى المولود ( ملكا وقرن الشيطان به شيطانا فالشيطان جاثم ) أى قاعد ( على أذن قلب ابن آدم الأيسر والملك جاثم على أذن قلبه ) أى ابن آدم ( الأيمن ، فهما ) أى الملك والشيطان ( يدعوانه ) أى يدعو الملك ابن آدم إلى الخير والشيطان إلى الشر ، وهذا الحديث لم أر له أصلا يرجع إليه إلا أن معناه صحيح . روى من حديث ابن مسعود رضى الله عنه بلفظ « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة ، قالوا وإياك يارسول الله ؟ قال وإياى إلا أن الله عز وجل أعانني عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا بخير » وكذلك رواه أحمد .

وَقَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وَعَلَى آلِهِ وسلم : « لِلشَّيْطَانِ لَمَّةٌ بِابْنِ آدَمَ وَلِلْمَلَكِ لَمَّةٌ »
يَعْنِي نَزْلَةٌ بِالدَّعْوَةِ مِنْ قَوْلِهِمْ : لَمَّ بِالْمَكَانِ وَأَلَمَّ بِهِ إِذَا نَزَلَ بِهِ ،

---

( وقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : للشيطان ) أى إبليس أو بعض جنده ( لمة ) بالفتح وتشديد الميم فعلة من الإلمام ، ومعناه : النزول والقرب والإصابة ، والمراد بها ما يقع فى القلب بواسطة الشيطان أو الملك ( بابن آدم ) أى بهذا الجنس ، فالمراد به الإنسان ، ولمة الشيطان هو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير ، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا فى رواية أخرى ( وللملك لمة ) أى إيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فاعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله ، وهذا الحديث أخرجه الترمذى والنسائى وابن حبان عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه ( يعنى ) باللمة ( نزلة بالدعوة ) من الجانبين ، مأخوذ ( من قولهم لم ) الرجل ( بالمكان ، وألم به ) إلماما ؛ ومعناه ( إذا نزل به ) أى بذلك المكان . وفى المصباح : وألم الرجل بالقوم إلماما : أتاهم فنزل بهم ، ولممت الشىء لما : ضممته انتهى . وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى : إنما هما همان يجولان فى القلب : هم من الله تعالى ، وهم من العدو ؛ فرحم الله عبدا وقف عند همه ، فما كان من الله تعالى أمضاه ، وما كان من عدو جاهده ؛ فالقلب إذا متجاذب بين الشيطان والملك ؛ ولتجاذب القلب بين هذين المسلمين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمر ؛ فالله يتعالى عن أن يكون له أصبع مركبة من لحم وعظم ودم وعصب منقسمة بالأنامل ولكن روح الأصبع سرعة التقليب والقدرة على التحريك والتغيير ، فإنك لا تريد أصبعك لشخصه بل لفعله فى التقليب والترديد ، كما أنك تتعاطى الأفعال بأصابعك ، وجميع الألفاظ الموهومة فى الأخبار يكفى فى دفع إيهامها قرينة واحدة : وهى معرفة الله ، ومعرفة أنه ليس بجسم ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا والله تعالى إنما يفعل ما يفعله باستسخار الملك والشيطان ، وهما مسخران بقدرته فى تقليب القلوب : أى جرها إلى خير أو شر ، كما أن أصابعك مسخرة لك في تقليب الأجسام مثلا ، والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك ، ولقبول آثار الشيطان صلاحا مساويا بطرفيه ليس يترجح أحدهما على الآخر ، وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والإكباب على الشهوات أو الإعراض عنها ومخالفتها ، فإن اتبع الانسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسليط الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عش الشيطان ، لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه ، وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه بأن تنصل عنها واسترذلها وتشبه بأخلاق الملائكة عليهم السلام صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم ؛ وبالجملة إن المستولى على الإنسان أولا : شهوته وغضبه ، وبحسب مقتضاهما انبعاثه إلى أن يظهر فيه الرغبة فى طلب الكمال والنظر للعاقبة ، وعصيان مقتضى الشهوة والغضب ، فإن غلب الشهوة والغضب حتى ملكهما وضعفا عن تحريكه وتسكينه أخذ بذلك شبها من الملائكة ، وكذلك

ثُمَّ رَكَّبَ اللهُ تَعالَى فى بِنْيَةِ الإِنْسانِ طَبِيعَةً مائِلَةً إلى الشَّهَواتِ وَنَيْلِ اللَّذَّاتِ كَيْفَ كانَتْ مِنْ حُسْنٍ أَوْ قُبْحٍ فَذٰلِكَ هَوَى النَّفْسِ الصَّارِفَةِ إلى الآفاتِ ، فَهٰذِهِ ثَلاثَةُ دُعاةٍ .

ثُمَّ اعْلَمْ بَعْدَ هٰذِهِ المُقَدِّمَةِ أَنَّ الخَواطِرَ هِيَ آثارٌ تَحْدُثُ فى قَلْبِ العَبْدِ تَبْعَثُهُ عَلَى الأَفْعالِ وَالتُّروكِ وَتَدْعُوهُ

---

إن فطم نفسه عن الجحود والخيالات والمحسوسات وأنس بالادراك أخذ شبها آخر من الملائكة ، فان خاصية الحياة الادراك والفعل ، وإليهما يتطرق النقصان والكمال ، ومهما اقتدى بالملائكة فى هاتين الخاصيتين كان أقرب من الملائكة كما أفاده العلامة الزبيدى .

واعلم أن التميز بين اللمتين لا يهتدى إليه أكثر الناس وإنما يتشوف إلى معرفتهما ، وتمييز الخواطر طالب مريد يتشوف إلي ذلك كتشوف العطشان إلى الماء لما يعلم من وقع ذلك وخطره وصلاحه وفساده ، ويكون ذلك عبدا مرادا بالحظوة بصفو اليقين ومنح الموقنين ، وأكثر التشوف إلى ذلك للمقربين ، ومن أخذ به فى طريقهم ومن أخذ فى طريق الأبرار قد يتشوف إلى ذلك بعض التشوف ، لأن التشوف إليه يكون علي قدر الهمة والطلب والارادة والحظ من الله الكريم ومن هو فى مقام عامة المسلمين والمؤمنين لايتطلع إلى معرفة اللمتين ، ولا يهتم بتمييز الخواطر ( ثم ركب الله تعالى فى بنية الانسان ) أى خلقته ( طبيعة مائلة إلى الشهوات ) أى المشتهيات ( ونيل اللذات كيف كانت من حسن ) أى حلال ( أوقبيح ) أى حرام (فذلك) أى الميل إلي الشهوات ونيل اللذات ( هوى النفس الصارفة إلى الآفات ) . والهوى بالقصر : ميل النفس إلى مالا يليق شرعا ، وقد يطلق على ميل النفس المحمود ، كقول عائشة رضى الله عنها : ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك : أى فيما تميل إليه نفسك ، ولا تميل نفسه صلى الله عليه وسلم إلا إلي الممدوح ( فهذه ) أى المذكورات من الدعوات ( ثلاثة دعاة ) جمع داع ، وهى دعوة الملك ودعوة الشيطان ودعوه النفس . ( ثم اعلم بعد هذه المقدمة ) من بيان أصل الخواطر ، والمراد بها هنا مقدمة العلم التي هى اسم للمعانى المخصوصة ، وهى بكسر الدال من قدم اللازم بمعنى تقدم أو المتعدى لأنها مقدمة من فهمها على غيره ، وبالفتح من قدم المتعدى ، لأن أهل العقول قدموها لما اشتملت عليه ، والأول أولى لأنها تقدم غيرها ، وما قدم غيره أولى مما قدم نفسه ، لأن الغالب أن الشخص لا يقدم غيره إلا إذا كان مقدما كما أفاده العلامة ابن عمر البقرى ( أن الخواطر ) هى المحركات للارادات فإن النية والعزم والإراده إنما تكون بعد خطور المنوى بالبال لا محالة ، فمبدأ الأفعال الخواطر ، ثم الخاطر يحرك الرغبة ، والرغبة تحرك العزم ، والنية تحرك الأعضاء ، فعلم من ذلك أنها ( هى آثار تحدث ) وتحصل ( فى قلب العبد ) بعد أن كان القلب غافلا عنها ، ويعنى بما يحدث ويحصل فيه مما ذكر إدراكاته علوما إما على سبيل التجدد وإما على سبيل التذكر كما صرح به حجة الاسلام في غير هذا المحل (تبعثه) أى تحمله تلك الآثار الحاصلة في قلبه (على الأفعال والتروك وتدعوه )أى العبد

إِلَيْهَا ، وَسُمِّيَتْ خَوَاطِرَ لِاضْطِرَابِهَا مِنْ خَطَرَاتِ الرِّيحِ وَنَحْوِهَا وَحُدُوثِهَا جَمِيعاً فِي قَلْبِ الْعَبْدِ بِالْحَقِيقَةِ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

---

( إليها ) أى الأفعال أو التروك ( وسميت ) أى الآثار ( خواطر لاضطرابها ) أى تقلبها ، فذلك مأخوذ ( من خطرات الريح ) . وفى نسخة: الرمح ( ونحوها وحدوثها ) أى الخواطر ( جميعا فى قلب العبد بالحقيقة من الله سبحانه وتعالى ) فالخواطر الواردة على القلب أربعة : خاطر ملكى ؛ وخاطر شيطانى ، وهما الأصلان المفهومان من حديث اللمتين المتقدم ذكره قريبا ، وخاطر روحى وخاطر نفسى وهما الفرعان . وفى كلام بعضهم : أن حركة النفس والروح هما الموجبتان للمتين ، والصحيح أن اللمتين تتقدمان على حركة الروح والنفس ؛ فحركة الروح من لمة الملك ، والهمة العالية من حركة الروح ، وهذه الحركة من الروح ببركة لمة الملك ، وحركة النفس من لمة الشيطان ، ومن حركة النفس الهمة الدنيئة ، وهى شؤم لمة الشيطان ، فاذا وردت اللمتان ظهرت الحركتان وظهر سر العطاء والابتلاء من معط كريم ومبتل حكيم ، وقد تكون هاتان اللمتان متداركتين وينمحي أثر أحدهما بالآخر ؛ والمتفطن المتيقظ ينفتح عليه بمطالعة وجود هذه الآثار فى ذاته من باب أنس ويبقى أبدا مفتقدا حاله مطالعا آثار اللمتين ؛ وذكروا خاطرين آخرين : خاطر العقل ، وخاطر اليقين ؛ فخاطر العقل متوسط بين الخواطر الأربعة ؛ يكون مع النفس والعدو لوجود التميز وإثبات الحجة على العبد ليدخل العبد فى الشىء بوجود عقلي ، إذ لو فقد العقل سقط العتاب والعقاب ، وقد يكون مع الملك والروح ليوقع الفعل مختارا ويستوجب به الثواب ، وقد تقدمت الإشارة إلى أنه ليس من العقل خاطر على الاستقلال ؛ وإنما أصله تارة من خاطر الملك وتارة من خاطر النفس . وأما خاطر اليقين ، فهو روح الإيمان ومزيد اليقين ، وحاصله راجع إلى ما يرد من الحق سبحانه . وقال صاحب القوت : جمل الخواطر ستة : هى حدود القلب وقوادحه من ورائها خزائن القلب وملكوت القدرة وهى جنود الله تعالى ، والقلب خزانة من خزائن الملكوت ، وقد أودعه قبله من لطائف الرغبوت والرهبوت ، وشعشع فيه من أنوار العصمة والجبروت ، فأول التفصيل : خاطر النفس وخاطر العدو ، وهذان لا يعدمها عموم المؤمنين ، وهما مذمومان محكوم لهما بالسواء لا يردان إلا بالهوى وضد العلم ، وخاطر الروح وخاطر الملك ، وهذان لا يعدمهما خصوص المؤمنين ، وهما محمودان لا يردان إلا بحق وبما دل عليه العلم ، وخاطر العقل متوسط بين هذه الأربعة يصلح للمذمومين فيكون حجة على العبد لمكان تميز العقل وتقسيم المعقول ، ويصلح أيضا أن يكون للمدوحين فيكون شاهدا للملك ومؤيدا لخاطر الروح . والخاطر السادس هو خاطر اليقين وهو روح الإيمان ومزيد العلم يردان إليه ويصدران عنه ، وهذا الخاطر مخصوص لخصوص لا يجده إلا الموقنون ، وهم الشهداء والصديقون لا يرد إلا بحق وإن خفى وروده ودق ، ولا يقدح إلا بعلم اختيار المراد مختار وإن لطفت أدلته وبطن وجه الاستدلال به ، ولكن ليس يخفى هذا الخاطر على مقصود به مراد له ، وهم الذين وصفهم الله تعالى بالذكرى ، فقال « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب »

لَـكِنَّهَا أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ : مِنْهَا مَا يُحْدِثُهُ اللهُ تَعَالَى فى الْقَلْبِ ابْتِدَاءً فَيُقَالُ لَهُ الْخَاطِرُ فَقَط وَقِسْمٌ يُحْدِثُهُ مُوَافِقاً لِطَبْعِ الْإِنْسَانِ فَيُقَالُ لَهُ هَوَى النَّفْسِ وَيُنْسَبُ إِلَيْهَا . وَقِسْمٌ يُحْدِثُهُ عَقِيبَ دَعْوَةِ الْمُلْهِمِ فَيُنْسَبُ إِلَيْهِ وَيُقَالُ لَهُ الْإِلْهَامُ . وَقِسْمٌ يُحْدِثُهُ عَقِيبَ دَعْوَةِ الشَّيْطَانِ فَيُنْسَبُ إِلَيْهِ وَيُقَالُ لَهُ الْوَسْوَسَةُ وَتُنْسَبُ إِلَيْهِ بِأَنَّهَا خَوَاطِرُ مِنَ الشَّيْطَانِ وَإِنَّمَا هِيَ فى الْحَقِيقَةِ حَادِثَةٌ عِنْدَ دَعْوَتِهِ فَهُوَ كَالسَّبَبِ فى ذَلِكَ ، وَلَـكِنَّهُ يُنْسَبُ إِلَيْهِ ، فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ مِنَ الْخَوَاطِرِ .

---

أى من تولى الله حفظ قلبه ، وسائر ما ذكرناه من الخواطر لايعدمه المؤمنون . والقلب خزانة الله من خزائن الغيب ، وهذه المعانى جنود الله تعالى مقيمة حول القلب : يخفى منها ما يشاء ، ويظهر ويبدىء منها ما يريد ويعيد ، ويبسط القلب بمـا يشاء منها ، ويقبضه فما يشاء عنها ، ثم قال : وقد أجمل الله تعالى ذكر تقليب الـكون بمشيئته فى قوله « يقلب الله الليل والنهار » المعنى بمـا فيهما ، لأنهما ظرفان للأشياء المعبر عنهما ، فهما كقوله عز وجل « بل مكر الليل والنهار » والمعنى مكركم فى الليل والنهار ، فعبر بهما عن مكرهم لأنهما مكانان لمـكرهم ، كذا ذكره الزبيدى

وقد بين المصنف رحمه الله أقسام الخواطر فى هذا المختصر أربعة فقال ( لـكنها ) أى الخواطر ( أربعة أقسام : منها ) خبر مقدم : أى من الأقسام الأربعة ( ما يحدثه الله تعالى ) مبتدأ مؤخر : أى الخاطر الذى يوجده تعالى ( فى القلب ابتداء ، فيقال له الخاطر فقط ) أى بدون إضافة ونسبة ( وقسم ) ثان من الأربعة هو الخاطر الذى ( يحدثه ) الله تعالى ( موافقا لطبع الإنسان فيقال له ) أى للخاطر الثانى ( هوى النفس وينسب ) أى هذا الثانى ( إليها ) أى النفس ( وقسم ) ثالث منها هو الخاطر الذى ( يحدثه ) تعالى ( عقيب دعوة ) الملك ( الملهم فينسب ) أى الثالث ( إليه ) أى الملهم ( ويقال له ) أى هذا الثالث ( الإلهام . وقسم ) رابع منها الخاطر الذى ( يحدثه ) تعالى ( عقيب دعوة الشيطان ، فينسب) أى الخاطر الرابع (إليه) أى الشيطان (ويقال له) أى لهذا الرابع ( الوسوسة وتنسب ) أى الوسوسة ( إليه ) أى الشيطان ( بأنها ) أى تلك الوسوسة ( خواطر ) رديئة ( من الشيطان ، وإنمـا هي فى الحقيقة حادثة ) من الله تعالى ( عند دعوته ) أى الشيطان ( فهو ) أى ذلك الشيطان ( كالسبب فى ذلك ) الخواطر الرديئة ( ولـكنه ينسب ) أى السبب ( إليه ) أى الشيطان ( فهذه ) أى الأقسام المذكورات ( أربعة أقسام من الخواطر ) وقد قسم أبو طالب المـكى صاحب القوت الخواطر وفسر أسماءها فقال : ما وقع فى القلب من عمل الخير فهو إلهام ، وما وقع من عمل الشر فهو وسواس ، وما وقع فى القلب من المخاوف فهو إيجاس ، وما كان من تقدير الخير وأمله فهو نية ، وما كان من تدبير المباحات والطمع وترجيها ، فهو أمل وأمنية ، وما كان من تذكر أمر الآخرة والوعد والوعيد فهو تذكر وتفكر ، وما كان من

ثُمَّ اعْلَمْ بَعْدَ هٰذَا التَّقْسِيمِ أَنَّ الْخَاطِرَ الَّذِى مِنْ قِبَلِ اللهِ تَعَالَى ابْتِدَاءً قَدْ يَكُونُ بِخَيْرٍ إِكْرَامًا وَإِلْزَامًا لِلْحُجَّةِ ، وَقَدْ يَكُونُ بِشَرٍّ امْتِحَانًا وَتَغْلِيظًا لِلْمِحْنَةِ ؛ وَالْخَاطِرُ الَّذِى يَكُونُ مِنْ قِبَلِ الْمُلْهِمِ لا يَكُونُ إِلاَّ بِخَيْرٍ إِذْ هُوَ نَاصِحٌ مُرْشِدٌ لَمْ يُرْسَلْ

---

معاينة الغيب بعين اليقين فهو مشاهدة ، وما كان من تحدث النفس بمعاشها فهو هم ، وما كان من خواطر العادات ونوازع الشهوات فهو لم ، ويسمى جميع ذلك خواطر ، لأنه خطور همة نفس أو خطور عدو بحدس ، أو خطرة ملك بهمس ؛ ثم إن ترتيب الخواطر المنشأة من خزائن الغيب القادحة فى القلب على ستة معان ، وهى حدود الشىء المظهر ثلاثة منها معفوة ، وثلاثة مطالب بها ، فأول ذلك الهمة وهو ما يبدو من وسوسة النفس بالشيء يجده العبد بالحس كالبرق ، فإن صرفها بالذكر امتحت ، وإن تركها بالغفلة صارت خواطر ، وهى خطور العدو بالتزيين ، وإن نفى الخاطر ذهب ، وإن دنا منه قوى فصار وسوسة ، وهذه محادثة النفس للعدو وإصغاؤها إليه ، وإن نفى العبد هذه الوسوسة بذكر الله عز وجل خنس العدو وضعفت النفس ، وهذه الثلاثة معفوة رحمة من الله تعالى غير مؤاخذ بها العبد ، وإن مرح العدو والنفس فى محادثة العدو وطاولت النفس للعدو بالإصغاء والمحادثة قويت الوسوسة فصارت نية ، فان أبدل العبد هذه النية بنية خير أو استغفر منها وتاب وإلا قويت فصارت عقدا ، فان حل هذا العقد بالتوبة وهو الإصرار وإلا قوى فصار عزما ، وهو القصد ، وهذه الثلاثة من أعمال القلب مأخوذ بها العبد ومسئول عنها ، فان تداركه الله تعالى بعد العزم وإلا تمكن العزم فصار طلبا وسعيا ، وظهور العلم على الجوارح من خزانة الغيب والملكوت فصار من أعمال الجسم فى خزانة الملك والشهادة ، فهذه المعانى توجد من أعمال البر والإثم ، فما كان منها من البر همة ونية وعزما كان محسوبا للعبد فى باب النيات مكتوبا له فى ديوان الإرادات له به حسنات ، وما كان منها من الشر نية وعقدا وعزما ؛ فعلى العبد فيه مؤاخذة من باب أعمال القلوب ونيات السوء وعقود المعاصى ، وليس مجانس للعدو ومؤاخ له إلا النفس جمع بينهما فى الوسوسة : قال الله تعالى « الوسواس الخناس » . وقال تعالى « ونعلم ما توسوس به نفسه » وكل شىء خلقه الله تعالى فله مثل وضد ، فمثل النفس الشيطان ، وضدها الروح وأعمال الجوارح من النوعين الطاعة والمعصية أعظم فى الأجر والوزر معا إلا ما لا يتأتى أن يعلمه بظاهر الجسم من شهادة التوحيد أو وجود شك وكفر واعتقاد بدعة ، والله أعلم ، أفاده العلامة المحقق الزبيدى ( ثم اعلم بعد هذا التقسيم ) أى تقسيم الخواطر إلى أربعة أقسام كما ذكره المصنف ( أن الخاطر الذى ) يكون ( من قبل الله تعالى ) بكسر القاف وفتح الباء : أى من عنده ( ابتداء قد يكون بخير إكراما وإلزاما للحجة ، وقد يكون ) الخاطر ( بشر امتحانا وتغليظا ) أى تشديدا ( للمحنة ) أى البلية ( والخاطر الذى يكون من قبل الملهم ) أى جهته ( لا يكون إلا بخير إذ هو ) أى الملهم ( ناصح ) أى مريد للخير ( مرشد لم يرسل ) بالبناء للمفعول أى الملهم

إلاّ لِذٰلِكَ؛ وَالخَاطِرُ الَّذِى يَكُونُ مِنْ قِبَلِ الشَّيْطَانِ لاَ يَكُونُ إلاَّ بِشَرٍّ إِغْوَاءً وَاسْتِزْلاَلاً وَرُبَّمَا يَكُونُ بِالْخَيْرِ مَكْرًا وَاسْتِدْرَاجًا ؛ وَالَّذِى يَكُونُ مِنْ قِبَلِ هَوَى النَّفْسِ يَكُونُ بِالشَّرِّ وَبِمَا لاَ خَيْرَ فِيهِ تَمَنُّعًا وَتَعَسُّفًا ، وَلَقَدْ وَجَدْتُ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ أَنَّ هَوَى النَّفْسِ أَيْضًا قَدْ يَدْعُو إِلَى خَيْرٍ وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ شَرٌّ كَالشَّيْطَانِ فَهٰذِهِ أَنْوَاعُهَا .

---

( إلا لذلك ) الخير ( والخاطر الذى يكون من قبل الشيطان لا يكون إلا بشر إغواء ) أى إضلالا ( واستزلالا ) أى طلب للزلة ( وربما يكون ) خاطر الشيطان ( بالخير مكرا واستدراجا ) أى أخذا قليلا قليلا بمكيدته إلى غمرة الهلاك . قال بعضهم: الاستدراج استرسال النعم على العبد عند استرساله على المعاصى حتى يؤخذ بغتة ( و ) الخاطر ( الذى يكون من قبل هوى النفس يكون بالشر وبما لا خير فيه تمنعا ) أى منعا على الخير ( وتعسفا ) أى أخذا على غير الطريق ( ولقد وجدت عن بعض السلف ) الصالحين ( أن هوى النفس أيضا ) أى كالشيطان ( قد يدعو إلى خير والمقصود منه ) أى الخير الذى دعاه الهوى إليه ( شر كالشيطان ) هذا تأكيد لقوله أيضا ( فهذه ) أى الأنواع التى ذكرناها ( أنواعها ) أى الخواطر .

واعلم أنه قد تختلف اللمتان ، فربما تقدمت إليه لمة العدو بالأمر بالشر ويقدح بعدها لمة الملك نصرة للعبد ، وتثبيتا على الخير ، وعناية من الرب ، فينهى عن ذلك ؛ فعلى العبد أن يعصى الخاطر الأول ويتبع الثانى ، وقد يتقدم إلهام الملك بالخير ثم يقدح بعده خاطر العدو بالنهى عنه ، والإملاء بالتأخير عنه محنة من الله تعالى للعبد لينظر كيف يعمل ، فعليه أن يطيع الخاطر الأول ويعصى الثانى ، ثم ترقى الخاطر من إلهام ووسوسة ؛ وقد يتفاوت ذلك لقوة وضعف لتفاوت الأحكام والارادة من الحاكم ومن قبل تقدير القدرة وغرائب الأحكام بالمشيئة ، لأن له فى خزانة الخير خزائن شر إذا شاء ، وله فى خزانة الشر خزائن خير إذا أحب لمن يحب لئلا يسكن إلى سواه ، فإذا شهد العارف ذلك لم يقطع بخير ولا يدل به أبدا ، لأنه لا يأمن مكر الله بتقليب خزائن الشر من خزانة الخير ، إذ غلبه أبداه ولم ييأس من شر عليه أبدا ، لأنه يرجو تقليب خزائن الخير من حيث خزائن الشر ،فيكون بين الخوف والرجاء ، ولا يدرك ذلك إلا بدقائق العلوم ولطائف الفهوم وصفاء الأنوار من تعليم الرحيم الجبار ، فما كان العبد يجد بعد خطرة الشر خطرة خير تنهاه عنها فهو منظور إليه متدارك ، وهذا هو الواعظ القائم فى القلب ، والزاجر المؤيد العقل ؛ وقد تترادف خواطر الشر عن النفس والهوى ، فلا يعقبها خاطر خير من الملك ، وهذا علامة البعد ، ونهاية قسوة القلب ، وقد يتتابع خاطر الخير من الروح والملك ويعافى العبد من خاطر الهوى والنفس ، وهذه علامة القرب وهو حال المقربين ، وقد ترد خواطر العدو ووساوسه بالخير ابتلاء من الله تعالى لعبده وحيلة من العدو ومكرا من النفس ، يريد العدو بذلك الشر ، أو يخرجه آخرا إلى إثم أو ليقطعه بذلك عن واجب يشغله به عن الأفضل فى الحال فيكون ظاهره برا وباطنه إثما ويكون

ثُمَّ اعْلَمْ بَعْدَ هٰـذَا أَنَّكَ مُحْتَاجٌ إِلَى مَعْرِفَةِ ثَلَاثَةِ فُصُولٍ لَابُدَّ لَكَ مِنْهَا أَلْبَتَّةَ وَفِيهَا الْمَقْصُودُ : أَحَدُهَا الْفَرْقُ بَيْنَ خَاطِرِ الْخَيْرِ وَخَاطِرِ الشَّرِّ فِى الْجُمْلَةِ . وَالثَّانِى الْفَرْقُ بَيْنَ خَاطِرِ شَرٍّ ابْتِدَائِيٍّ أَوْ شَيْطَانِيٍّ أَوْ هَوَائِيٍّ ، وَبِمَاذَا يُفَرِّقُ بَيْنَهَا فَإِنَّ لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهَا دَفْعًا مِنْ نَوْعٍ آخَرَ وَالثَّالِثُ الْفَرْقُ بَيْنَ خَاطِرِ خَيْرٍ ابْتِدَائِيٍّ أَوْ إِلْهَامِيٍّ أَوْ شَيْطَانِيٍّ أَوْ هَوَائِيٍّ لِتَتَبَّعَ مَا يَكُونُ مِنَ اللهِ تَعَالَى أَوْ مِنَ الْمُلْهِمِ وَتَجْتَنِبَ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ . وَكَذَلِكَ الْهَوَى عَلَى قَوْلِ مَنْ يَقُولُ بِهِ

---

أوله خيرا وآخره شرا ، وبغية العدو من ذلك باطنه وآخره ، وشهوة النفس من ذلك هواها ومناها قد لبسا ظاهره بالخير وموها أوله بالبر تحسينا ، وهذا من أدق ما يبتلى به العاملون ، ولا يعرف بواطنه وسرائره إلا العالمون ، فأما خاطر الملك فلا يرد إلا بخير صريح وبر محض على كل حال إذا ورد ، لأن الخداع والحيله ليسا من وصف الملائكة ، ولكن قد تنقطع خواطر الملك من القلب إذا اشتدت قسوته ، ودامت معصيته من المبعدين ، فيخلى بين القلب وبين نوازع العدو اللعين ، ويتخلى العدو بهوى النفس فيستحوذ ويقترن بالعبد ، نعوذ بالله من إبعاده ، ولا يزال العبد من إلهام الملك فى مقام الايمان ، فإذا رفع إلى مقامات اليقين تولاه الله تعالى بواسطة أنوار الروح ، فكأن الروح مكان لقاء الحق سبحانه حتى يرد عليه من الله تعالى من السرائر مالا يطلع عليه الملك ، ولا يكون ذلك حتى تفنى خواطر النفس بالهوى فلا تبق منها بقية ، وتقوى النفس فتدرج فى الروح فلا تظهر منها داعية ، ثم يتولاه الله بنور اليقين فيستطع له نور اليقين من خزانة الغيب بمكاشفة الجبروت ، فيشهد العبد شهادة الحق بالحق معاينة الغيب بفقد كونه ووجد كينونته ، ومما لا يصلح بعد ذلك كشفه إلا لأهله أو لمن سأل عنه ، وهذا يكون فى مقام التوحيد وهو أنصبة المقربين ، ( ثم اعلم بعد هذا ) أى التقسيم المذكور ( أنك محتاج إلى معرفة ثلاثة فصول لابد ) أى لا غنى ( لك منها ) أى المعرفة ( البتة ) أى قطعا ( وفيها المقصود ) أى من التقسيم الذى ذكر ( أحدها ) أى الفصول الثلاثة ( الفرق بين خاطر الخير وخاطر الشر فى الجملة ) أى من الله ومن هوى النفس ومن الشيطان ( والثاني الفرق بين خاطر شر ابتدائى أو شيطانى أو هوائى وبماذا ) أى بأى شىء ( يفرق بينها ) أى الخواطر الثلاث ( فإن لكل واحد منها دفعا من نوع آخر . والثالث الفرق بين خاطر خير ابتدائى أو إلهامى أو شيطانى أو هوائى ) وذلك ( لتتبع ما ) أى الخاطر الذى ( يكون من الله تعالي أو ) الذى يكون ( من الملهم وتجتنب ما يكون من الشيطان وكذلك ) المذكور من الشيطان رأى فى الاجتناب ( الهوى على قول من يقول به ) لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه .

فَأَمَّا الْفَصْلُ الأَوَّلُ : فَقَالَ عُلَمَاؤُنَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ خَاطِرَ الْخَيْرِ مِنْ خَاطِرِ الشَّرِّ وَتُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا فَزِنْهُ بِأَحَدِ الْمَوَازِينِ الأَرْبَعَةِ يَتَبَيَّنْ لَكَ حَالُهُ : الأَوَّلُ أَنْ تَعْرِضَ الأَمْرَ الَّذِي خَطَرَ بِبَالِكَ عَلَى الشَّرْعِ ، فَإِنْ وَافَقَ جِنْسَهُ فَهُوَ خَيْرٌ ، وَإِنْ كَانَ بِالضِّدِّ بِرُخْصَةٍ أَوْ شُبْهَةٍ فَهُوَ شَرٌّ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَبِنْ لَكَ بِهَذَا الْمِيزَانِ فَاعْرِضْهُ عَلَى الاقْتِدَاءِ فَإِنْ كَانَ

---

﴿تنبيه﴾ وسبب اشتباه الخواطر أربعة أشياء لا خامس لها : إما ضعف اليقين أو قلة العلم بمعرفة صفات النفس وأخلاقها ، أو متابعة الهوى بخرم قواعد التقوى ، أو محبة الدنيا وجاهها ومالها ، وطلب الرفعة والمنزلة عند الناس ؛ فمن عصم عن هذه الأربعة يفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان ، ومن ابتلى بها لا يعلمها ولا يتطلبها ، وانكشاف بعض الخواطر دون البعض لوجود بعض هذه الأربعة دون البعض ، وأقوم الناس بتمييز الخواطر ، أقومهم بمعرفة النفس ، ومعرفة النفس عسر المنال ، لا يكاد يتيسر إلا بعد الاستقصاء في الزهد والتقوي .

واتفق المشايخ على أن من كان أكله من الحرام لا يفرق بين الإلهام والوسوسة . وقال أبو على الدقاق : من كان قوته معلوما لا يفرق بين الإلهام والوسوسة ، قال الزبيدى : وهذا لا يصح على الاطلاق إلا بقيد ؛ وذلك أن من المعلوم ما يقيمه الحق تعالى لعبد سبق إليه الإذن في الأخذ منه والتقوت ، ومثل هذا المعلوم لا يحجب عن تمييز الخواطر إنما يقال ذلك في حق من دخل في معلوم باختيار منه وإيثار ، لأنه يحجب لموضع اختياره والذى أشرنا إليه منسلخ عن إرادته ، ولا يحجبه المعلوم ، وفرقوا بين هواجس النفس ووسوسة الشيطان وقالوا إن النفس تطالب وتلح فلا تزال كذلك حتي تصل إلى مرادها ، والشيطان إذا دعا ولم يجب يوسوس بأخري ، إذا لا غرض له في تخصيص بل مراده الإغواء كيف أمكن . وتكلم الشيوخ في الخاطرين إذا كان من الحق أيهما يتبع . قال الجنيد : الخاطر الأول ، لأنه إذا بقي رجع صاحبه إلى التأمل ؛ وهذا بشرط العلم . وقال ابن عطاء : الثانى لأنه ازداد قوة بالأول . وقال أبو عبد الله بن حفيف : هما سواء ، لأنهما من الحق فلا مزية لأحدهما على الآخر .

وقد فصل المصنف رحمه الله ما أجمله أولا بقوله ( فأما الفصل الأول ) من الفصول الثلاثة ( فقال علماؤنا رضى الله عنهم : إذا أردت أن تعلم خاطر الخير من خاطر الشر ، و ) أردت أن ( تفرق بينهما ) أي الخاطرين ( فزنه ) أى الخاطر أولا ( بأحد الموازين الأربعة ) المناسب الثلاثة ( يتبين لك حاله ) أي الخاطر من خير أو شر : ( الأول أن تعرض الأمر الذى خطر ببالك ) أى بقلبك ( على ) ميزان ( الشرع فإن وافق ) الخاطر الذى بقلبك ( جنسه ) أى جنس أمر الشرع ( فهو خير وإن كان ) الخاطر ( بالضد ) كأن كان ( برخصة أو شبهة فهو شر ، فإن لم يستبن ) أى لم يظهر ( لك ) حاله ( بهذا الميزان ) الأول ( فاعرضه على الاقتداء ) بالصالحين ( فإن كان

فى فِعْلِهِ اقْتِدَاءٌ بِالصَّالِحِينَ فَهُوَ خَيْرٌ ، وَإِنْ كَانَ بِالضِّدِّ اتِّبَاعاً لِلطَّالِحِينَ فَهُوَ شَرٌّ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَبِنْ لَكَ بِهٰذَا الْمِيزَانِ فَاعْرِضْهُ عَلَى النَّفْسِ وَالْهَوَى فَانْظُرْ ، وَإِنْ كَانَ مِمَّا تَنْفِرُ عَنْهُ النَّفْسُ نُفْرَةَ طَبْعٍ لَا نُفْرَةَ خَشْيَةٍ وَتَرْهِيبٍ فَاعْلَمْ أَنَّهُ خَيْرٌ ، وَإِنْ كَانَ مِمَّا تَمِيلُ إِلَيْهِ النَّفْسُ مَيْلَ طَبْعٍ وَجِبِلَّةٍ لَا مَيْلَ رَجَاءٍ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَتَرْغِيبٍ فَهُوَ شَرٌّ إِذِ النَّفْسُ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ لَا تَمِيلُ بِأَصْلِهَا إِلَى خَيْرٍ فَبِأَحَدِ هٰذِهِ الْمَوَازِينِ إِذَا نَظَرْتَ وَأَمْعَنْتَ النَّظَرَ يَسْتَبِينُ لَكَ خَاطِرُ الْخَيْرِ مِنْ خَاطِرِ الشَّرِّ ، وَاللهُ تَعَالَى وَلِيُّ الْهِدَايَةِ بِفَضْلِهِ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ .

---

فى فعله) أى ما اقتضاه الخاطر (اقتداء بالصالحين فهو خير وإن كان) فى فعله (بالضد اتباعا للطالحين أى الفاجرين . قال العلامة عبد الحق : الطالح خلاف الصالح ( فهو شر ، فان لم يستبن لك ) حاله ( بهذا الميزان ) الثانى ( فاعرضه ) أى الخاطر ( على النفس والهوى فانظر إن كان ) مقتضى الخاطر ( مما تنفر عنه النفس نفرة طبع لا نفرة خشية ) من الله تعالى ( وترهيب ) أى خوف ( فاعلم أنه خير ، وإن كان ) مطلوبه ( مما تميل النفس إليه ميل طبع ) مفعول مطلق ( وجبلة ) أى خلقة وطبيعة ( لا ميل رجاء إلى الله تعالى وترغيب فهو ) أى ذلك الخاطر ( شرّ ) هذا هو الميزان الثالث ، ولم يذكر رحمه الله الميزان الرابع كما علمت ( إذ النفس أمارة بالسوء لا تميل بأصلها إلى خير ) أصلا بل تميل إلى دعة وراحة ( فبأحد هذه الموازين ) أى الثلاثة ( إذا نظرت وأمعنت ) أى بالغت ( النظر يستبين ) أى يظهر ( لك خاطر الخير من خاطر الشر والله تعالى ولىّ الهداية بفضله ) وإحسانه ( إنه جواد كريم ) ورءوف رحيم . وقد ذكر العلامة المحقق الزبيدى أن من قصر عن دقائق الزهد وتطلع إلي تمييز الخواطر بزن الخواطر أولا بميزان الشرع ؛ فما كان من ذلك فضلا أو فرضا يمضيه ، وما كان من ذلك محرما أو مكروها يتقيه.فاذا استوى الخاطران فى نظر العلم ينفذ أقربهما إلى مخالفة هوى النفس، فان النفس قد يكون لها هوى كامنا فى أحدهما والغالب من شأن النفس الاعوجاج والركون إلىالدون، وقد يلم الخاطر بنشاط النفس والعبد يظن أنه بنهوض القلب ، وقد يكون من القلب نفاق لسكونه إلى النفس ولايدرك نفاق الخواطر المتولدة منه إلا الراسخون ، وأكثر ما تدخل الآفات على أرباب القلوب والآخذين من اليقين واليقظة والحال، فهم من هذا القبيل وذلك لقلة العلم بالنفس والقلب وبقاء نصيب الهوى فيهم . وينبغى أن يعلم العبد أنه مهما بقى عليه أثر من الهوى وإن دق قد بقي عليه بحسبه بقية من اشتباه الخواطر ثم قد يغلط فى تمييز الخواطر من حرم قليل العلم ، ولا يؤاخذ بذلك ما لم تكن عليه من الشرع مطالبة وقد لا يسامح بذلك بعض الغالطين لما كوشفوا به من دقيق الخطأ فى التمييز ثم استعجالهم مع

وَأَمَّا الْفَصْلُ الثَّانِي ، فَقَالَ عُلَمَاؤُنَا : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُفَرِّقَ بَيْنَ خَاطِرِ شَرٍّ يَكُونُ مِنْ قِبَلِ الشَّيْطَانِ وَبَيْنَ خَاطِرِ شَرٍّ يَكُونُ مِنْ قِبَلِ هَوَى النَّفْسِ أَوْ مِنْ قِبَلِ اللهِ تَعَالَى ابْتِدَاءً فَانْظُرْ فِيهِ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا : إِنْ وَجَدْتَهُ مُصَمِّمًا رَاتِبًا عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ فَهُوَ مِنَ اللهِ تَعَالَى أَوْ مِنْ هَوَى النَّفْسِ ، وَإِنْ وَجَدْتَهُ مُتَرَدِّدًا مُضْطَرِبًا فَاعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ . وَكَانَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى يَقُولُ : مَثَلُ هَوَى النَّفْسِ مَثَلُ النَّمِرِ إِذَا حَارَبَ لَا يَنْصَرِفُ إِلَّا بِقَمْعٍ بَالِغٍ وَقَهْرٍ ظَاهِرٍ ، أَوْ مَثَلُ الْخَارِجِيِّ الَّذِي يُقَاتِلُ تَدَيُّنًا لَا يَكَادُ يَرْجِعُ حَتَّى يُقْتَلَ ، وَمَثَلُ الشَّيْطَانِ مَثَلُ الذِّئْبِ إِذَا طَرَدْتَهُ مِنْ جَانِبٍ دَخَلَ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ . وَثَانِيهَا : إِنْ وَجَدْتَهُ عَقِيبَ ذَنْبٍ أَحْدَثْتَهُ فَهُوَ مِنَ اللهِ تَعَالَى إِهَانَةً وَعُقُوبَةً بِشُؤْمِ ذَلِكَ الذَّنْبِ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ( كَلَّا بَلْ رَانَ

---

علمهم وقلة التثبت ، وهذا الذى ذكر لخصته من [ كتاب العوارف ] .

(وأما الفصل الثانى) من الفصول الثلاثة (فقال علماؤنا) رضى الله عنهم (إذا أردت أن تفرق بين خاطر شر يكون من قبل) أى جهة (الشيطان وبين خاطر شر يكون من قبل هوى النفس أو) يكون (من قبل الله تعالى ابتداء) امتحانا وتغليظا للبلية ( فانظر فيه ) أى الخاطر (من ثلاثة أوجه :أحدها إن وجدته مصمما ) أى محكما ( راتبا ) أى ثابتا ( على حالة واحدة فهو من الله تعالى ، أو من هوى النفس ، وإن وجدته ) أى ذلك الخاطر ( مترددا مضطربا ) أى متقلبا لا يثبت على حالة واحدة ( فاعلم أنه ) أى الخاطر المضطرب ( من الشيطان . وكان بعض الصالحين رحمه الله يقول : مثل هوى النفس مثل النمر) بوزن الكتف: سبع ، وجمعه نمور بالضم ، وقد جاء فى الشعر نمر بضمتين ، وهو شاذ والأنثى نمرة ، كذا فى المختار . وفى محيط المحيط : النمر بفتح النون وكسر الميم ، ويجوز إسكان الميم مع فتح النون وكسرها كنظائره : ضرب من السباع فيه شبه من الأسد ، إلا أنه أصغر منه وأخبث وأجرأ ، وهو منقط الجلد نقطا سودا وبيضا ، سمى به للنمر التى فيه ( إذا حارب ) أى النمر ( لا ينصرف ) أى لا يذهب ( إلا بقمع ) أى قهر وقلع ( بالغ ) أى كامل ( وقهر ظاهر أو هو ( مثل الخارجى ) نسبة للخارج ، وهو كل من خرج على الإمام الحق الذى اتفق الجماعة عليه سواء كان الخروج فى الصحابة على الأئمة الراشدين أو بعدهم على التابعين بإحسان ، والأئمة فى كل زمان ، كذا أفاده بعضهم ( الذى يقاتل تدينا ) أى لأجل الدين ( لا يكاد ) الخارجى ( يرجع حتى يقتل ، ومثل الشيطان مثل الذئب إذا طردته ) أى أبعدته ( من جانب دخل من جانب آخر . وثانيها ) أى الأوجه الثلاثة ( إن وجدته ) أى خاطر الشر ( عقيب ذنب أحدثته ) أى ارتكبته وفعلته (فهو من الله تعالى إهانة وعقوبة بشؤم ذلك الذنب) الذى أحدثته (قال الله تعالى: كلا بل ران)

عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ) قَالَ شَيْخِي الْإِمَامُ رَحِمَهُ اللهُ : هٰكَذَا تُؤَدِّي الذُّنُوبُ إِلَى قَسْوَةِ الْقَلْبِ أَوَّلُهَا خَاطِرٌ ، ثُمَّ يُؤَدِّي إِلَى الْقَسْوَةِ وَالرَّيْنِ ، وَإِنْ كَانَ هٰذَا الْخَاطِرُ مُبْتَدَأً لَا عَقِيبَ ذَنْبٍ كَانَ مِنْكَ . فَاعْلَمْ أَنَّهُ مِنْ قِبَلِ الشَّيْطَانِ ، هٰذَا فِي الْأَكْثَرِ لِأَنَّهُ يَبْتَدِئُ بِدَعْوَةِ الشَّرِّ وَيَطْلُبُ الْإِغْوَاءَ بِكُلِّ حَالٍ ، وَثَالِثُهَا : إِنْ وَجَدْتَهُ لَا يَضْعُفُ وَلَا يَقِلُّ بِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى وَلَا يَزُولُ فَهُوَ مِنَ الْهَوَى ، وَإِنْ وَجَدْتَهُ يَضْعُفُ وَيَقِلُّ بِذِكْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ فَهُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ كَمَا ذُكِرَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ) إِنَّ الشَّيْطَانَ جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ : إِذَا ذَكَرَ اللهَ تَعَالَى خَنَسَ ، وَإِذَا غَفَلَ وَسْوَسَ .

---

أى غلب ( على قلوبهم ) فغشيها ( ما كانوا يكسبون ) من المعاصى فهو كالصدأ . ( قال شيخى الإمام رحمه الله ) هو أبو بكر الوراق كما فى سراج السالكين ( هكذا تؤدى الذنوب إلى قسوة القلب : أولها ) أى الذنوب ( خاطر ثم يؤدى ) أى الخاطر الذى ينشأ منه الذنوب ( إلى القسوة والرين ) أي الغشاوة على القلب كالصدأ على الشيء الصقيل من سيف ومرآة ونحوهما ( وإن كان هذا الخاطر مبتدأ لا عقيب ذنب كان ) أى صدور ذلك الذنب ( منك فاعلم أنه ) أى الخاطر ( من قبل الشيطان ، هذا ) أى كون هذا الخاطر من جهة الشيطان ( فى الأكثر لأنه ) أى الشيطان ( يبتدئ بدعوة الشر ويطلب ) الشيطان اللعين بدعوته ( الإغواء ) والإضلال ( بكل حال ) سواء كان الخاطر مبتدأ أو عقيب ذنب . ( وثالثها ) أى الأوجه الثلاثة ( إن وجدته ) أى الخاطر ( لا يضعف ولا يقل بذكر الله تعالى ولا يزول ، فهو من الهوى ، وإن وجدته يضعف ويقل بذكر الله سبحانه فهو ) أى الخاطر الضعيف بذكر الله ( من الشيطان كما ذكر ) عن ابن عباس ( فى تفسير قوله تعالى « من شر الوسواس الخناس » : إن الشيطان جاثم ) أى قاعد ( على قلب ابن آدم إذا ذكر الله تعالى خنس ) أى انقبض وتأخر ، وبابه دخل ، فبعد الشيطان من الإنسان على قدر ملازمته للذكر ، والناس فى ذلك متفاوتون ( وإذا غفل ) أى ابن آدم عن ذكر الله تعالى ( وسوس ) الشيطان : أخرجه ابن أبى شيبة وابن جرير وابن مردويه ، وروى عن ابن عباس أيضا أنه قال « ما من مولود يولد إلا على قلبه الوسواس فإن ذكر الله تعالى خنس وإذا غفل عن ذكر الله وسوس ، فذلك قوله تعالى « الوسواس الخناس » أخرجه ابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى والضياء فى المختارة ، وروى عن مجاهد فى معنى قول الله تعالى « من شر الوسواس الخناس » . قال هو منبسط على القلب ، فاذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض ، وإذا غفل انبسط على قلبه ، هكذا نقله صاحب القوت ، فالتطارد بين ذكر الله.

وَأَمَّا الْفَصْلُ الثَّالِثُ : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُفَرِّقَ بَيْنَ خَاطِرِ خَيْرٍ يَكُونُ مِنَ اللهِ تعالى أَوْ مِنَ الْمَلَكِ، فَانْظُرْ فِي ذٰلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا : أَنْ تَنْظُرَ فَإِنْ كَانَ قَوِيًّا مُصَمَّمًا فَهُوَ مِنَ اللهِ تَعَالَى ، وَإِنْ كَانَ مُتَرَدِّدًا فَهُوَ مِنَ الْمَلَكِ ، إِذْ هُوَ بِمَنْزِلَةِ نَاصِحٍ يَدْخُلُ

---

ووسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظلام أحدهما ينسخ الثاني ، وبين الليل والنهار فاذا جاء الليل ذهب النهار وبالعكس ، فمن الناس من يكون ليله أطول من نهاره ، وآخر بضده ، ومنهم من يكون زمنه نهارا كله وآخر بضده ، ولتضادهما قال الله تعالى « استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » قال أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان واضع خرطومه علي قلب ابن آدم فإن هو ذكر الله تعالى خنس ، وإن نسى الله التقم قلبه ، فذلك الوسواس الخناس » . قال العراقي : رواه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان وابن عدى فى الكامل وفى الترغيب لابن شاهين عن أنس مرفوعا بلفظ « إن للوسواس خطما كخطم الطائر ، فإذا غفل ابن آدم وضع ذلك المنقار فى أذن القلب يوسوس ، فإذا ذكر الله خنس فذلك الوسواس الخناس » وأخرج أبو بكر بن أبى داود فى كتاب ذم الوسوسة عن معاوية فى قوله « الوسوس الخناس » قال مثل الشيطان كمثل عرس واضع فمه على فم القلب فيوسوس اليه ، فإذا ذكر الله خنس وإن سكت عاد إليه فهو الوسواس الخناس . قال حجة الإسلام : وكما أن الشهوات ممتزجة بلحم ابن آدم ودمه فسلطنة الشيطان أيضا سارية فى لحمه ودمه ومحيطة بالقلب من جوانبه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع » . رواه الشيخان وذلك لأن الجوع يكسر سورة الشهوات ومجرى الشيطان الشهوات فأمر بتضييقه بالجوع بكسر مايتولد منه ، ولأجل اكتناف الشهوات للقلب من جوانبه . قال الله تعالى إخبارا عن إبليس « لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم » ولذلك لايتصور أن ينفك عنه آدمى مادام حيا وإنما يختلفون بعصيانه ومتابعته ، فتارة يتابعه ، وتارة يخالفه ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مامنكم من أحد إلا وله شيطان قالوا ولك يا رسول الله ؟ قال: ولى ولكن الله أعانني عليه فأسلم » . رواه ابن حبان والبغوى والطبراني .

قال المصنف رحمه الله تعالى ( وأما الفصل الثالث ) هذا آخر الفصول الثلاثة التى لابد لك من معرفتها ( إذا أردت أن تفرق بين خاطر خير يكون من الله تعالى، أو ) يكون ( من الملك ) الملهم ( فانظر فى ذلك ) الخاطر ( من ثلاثة أوجه : أحدها أن تنظر ) فى ذلك الخاطر ( فان كان قويا مصمما ) أى محكما ( فهو ) أى الخاطر المصمم ( من الله تعالى، وإن كان مترددا ) لايثبت على حالة واحدة ( فهو من الملك إذ هو ) أى الملك ( بمنزلة ناصح ) أى مريد للخير ( يدخل ) ذلك الملك

مَعَكَ فى كُلِّ جَانِبٍ وَوَجْهٍ . وَيَعْرِضُ عَلَيْكَ كُلَّ نُصْحٍ رَجَاءَ إِجَابَتِكَ وَرَغْبَتِكَ فى الْخَيْرِ ، وَالثَّانِى إِنْ كَانَ عَقِيبَ اجْتِهَادٍ مِنْكَ وَطَاعَةٍ فَهُوَ مِنَ اللهِ تعالى، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ( وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ) وَإِنْ كَانَ مُبْتَدَأً فَهُوَ مِنَ الْمَلَكِ فى الْأَغْلَبِ ، وَالثَّالِثُ : إِنْ كَانَ فى الْأُصُولِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ فَهُوَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَإِنْ كَانَ فى الْفُرُوعِ وَالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ فَهُوَ مِنَ الْمَلَكِ فى الْأَكْثَرِ ، إِذِ الْمَلَكُ لَا سَبِيلَ لَهُ إِلَى مَعْرِفَةِ بَاطِنِ الْعَبْدِ فى قَوْلِ أَكْثَرِهِمْ . وَأَمَّا خَاطِرُ الْخَيْرِ الَّذِى يَكُونُ مِنْ قِبَلِ الشَّيْطَانِ اسْتِدْرَاجًا إِلَى شَرٍّ يَرْبِى عَلَيْهِ ، فَلَقَدْ قَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ : انْظُرْ إِنْ

---

( معك فى كل جانب ووجه ) من الخيرات ( ويعرض عليك كل نصح ) ورشد ( رجاء إجابتك ورغبتك فى الخير . و ) الوجه ( الثانى إن كان ) الخاطر الذى فيه الخير ( عقيب اجتهاد منك ، و ) عقيب (طاعة فهو من الله تعالى . قال الله تعالى: والذين جاهدوا فينا ) أى فى حقنا فإطلاق المجاهدة ليعم جهاد الأعادى الظاهرة والباطنة بأنواعه ( لنهدينهم سبلنا ) أى سبل السير إلينا والوصول إلى جنابنا أو لنهدينهم هداية إلى سبيل الخير وتوفيقا لسلوكها كقوله تعالى « والذين اهتدوا زادهم هدى » وفى الحديث « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم » كذا ذكره البيضاوى ( والذين اهتدوا ) هم المؤمنون (زادهم) الله ( هدى ، وإن كان ) الخاطر ( مبتدأ فهو من الملك فى الأغلب . و) الوجه ( الثالث إن كان فى الأصول ) أى فى الاعتقاد ( والأعمال الباطنة ) التى هى مساعى القلوب كالتوكل والرضا ( فهو من الله سبحانه ، وإن كان ) ذلك الخاطر ( فى الفروع ) أى فى المسئلة الفرعية ( والأعمال الظاهرة فهو من الملك فى الأكثر ، إذ الملك لاسبيل له إلى معرفة باطن العبد فى قول أكثرهم ) أى علمائنا رضى الله عنهم فقد قال بعض المكاشفين ظهر لي الملك فسألنى أن أملى عليه شيئا من ذكرى الخفى عن مشاهدتى من التوحيد ، وقال : مانكتب لك عملا ونحن نحب أن نصعد لك بعمل نتقرب به إلى الله تعالى فقلت : ألستما تكتبان الفرائض ؟ قالا : بلى . قلت فيكفيكما ذلك ، هكذا نقله صاحب القوت . قال المصنف رحمه الله : وهذه إشارة إلى أن الكرام الكاتبين لايطلعون على أسرار القلب وإنما يطلعون على الأعمال الظاهرة . وقال بعض العارفين : بل يطلعون على بعض أعمال القلب بقرائن خارجة ، فإن المؤمن إذا ذكر الله فى قلبه فاحت منه رائحة طيبة إلى فمه فيشمونها الملائكة فيدركون بها إذا ذكر الله تعالى فيكتبون ذلك فى صحيفة حسناته ، كذا أفاده الزبيدى ( وأما خاطر الخير الذى يكون من قبل الشيطان استدراجا إلي شر يربي عليه ) أى يزيد عليه الشر ( فلقد قال شيخنا ) أبو بكر الوراق ( رحمه الله : انظر إن

وَجَدْتَ نَفْسَكَ فى ذٰلِكَ الْفِعْلِ الَّذِى خَطَرَ بِقَلْبِكَ مَعَ نَشَاطٍ لاَ مَعَ خَشْيَةٍ وَمَعَ عَجَلَةٍ لاَ مَعَ تَأَنٍّ، وَمَعَ أَمْنٍ لاَ مَعَ خَوْفٍ، وَمَعَ عَمًى عَنِ الْعَاقِبَةِ لاَ مَعَ بَصِيرَةٍ. فَاعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبْهُ، وَإِنْ وَجَدْتَ نَفْسَكَ عَلَى ضِدِّ ذٰلِكَ مَعَ خَشْيَةٍ لاَ مَعَ نَشَاطٍ وَمَعَ تَأَنٍّ لاَ مَعَ عَجَلَةٍ، وَمَعَ خَوْفٍ لاَ مَعَ أَمْنٍ، وَمَعَ بَصَارَةٍ لِلْعَاقِبَةِ لاَ مَعَ عَمًى. فَاعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ أَوْ مِنَ الْمَلَكِ. قُلْتُ أَنَا: وَكَأَنَّ النَّشَاطَ خِفَّةٌ فى الْإِنْسَانِ لِلْفِعْلِ مِنْ غَيْرِ بَصِيرَةٍ وَذِكْرِ ثَوَابٍ يَنْشِطُهُ فى ذٰلِكَ ؛ وَأَمَّا التَّأَنِّى فَمَحْمُودٌ إِلاَّ فى مَوَاضِعَ مَعْلُومَةٍ مَعْدُودَةٍ، وَذُكِرَ فى الْخَبَرِ عَنِ النَّبِىِّ صلى اللهُ عليهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «الْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلاَّ فى خَمْسَةِ مَوَاضِعَ: تَزْوِيجُ الْبِكْرِ إِذَا أَدْرَكَتْ، وَقَضَاءُ الدَّيْنِ إِذَا وَجَبَ،

---

وجدت نفسك فى ذلك الفعل الذى خطر بقلبك مع نشاط ) أى خفة ( لامع خشية ) أى خوف من الله تعالى ( ومع عجلة ) أى إسراع ( لامع تأن ) أى تأخر ( ومع أمن لامع خوف ومع عمى عن العاقبة ) المحمودة ، وفى بعض النسخ عمى العاقبة ( لامع بصيرة ) أى علم وخبرة (فاعلم أنه) أى الفعل الذى خطر بقلبك (من الشيطان) أى من وسوسته ( فاجتنبه وإن وجدت نفسك ) فى ذلك الفعل ( على ضد ذلك ) المذكور من النشاط وعدم الخشية وما بعده ، يعنى به ( مع خشية لامع نشاط ومع تأن) أى تثبت فى الأمور (لامع عجلة ومع خوف لامع أمن ومع بصارة للعاقبة لامع عمى) أى عنها ( فاعلم أنه ) أى الخاطر الذى وجدت على الضد ( من الله سبحانه ، أو ) أنه ( من الملك ) الملهم . هذا آخر كلام شيخه رحمه الله تعالى ، ثم قال المصنف ( قلت أنا : وكأن النشاط خفة فى الإنسان للفعل من غير بصيرة ) أى خبرة وتأمل للعاقبة ( و ) من غير ( ذكر ثواب ينشطه ) أى ينشط الإنسان البصيرة وذكر الثواب ( فى ذلك ) الفعل وقول المصنف رحمه الله ينشطه بفتح أوله وكسر ثالثه من باب ضرب إذا كان متعديا كما هنا ، وفى القاموس : ونشط الدلو من باب ضرب : نزعها بلا بكرة انتهى ، وأما إذا كان لازما فهو من باب تعب . وفى المصباح : نشط فى عمله ينشط من باب تعب : خف وأسرع نشاطا وهو نشيط ، ونشطت الحبل نشطا من باب ضرب: عقدته بأنشوطة والأنشوطة بضم الهمزة : ربطة دون العقدة إذا مدت بأحد طرفيها انفتحت ، وأنشطت الأنشوطة بالألف: حللتها ، وأنشطت العقال: حللته ، وأنشطت البعير من عقاله أطلقته: انتهى. (وأما الثانى) وهو التأنى والتمهل فى الأمور لامع العجلة ( فمحمود إلا فى مواضع معلومة معدودة ، وذكر فى الخبر عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم : العجلة من الشيطان ) أى لأنها خفة وطيش يجلب الشر ويمنع الخير وذلك مما يحبه الشيطان فأضيف إليه ، كذا قاله العزيزى ( إلا فى خمسة مواضع ) أحدها ( تزويج البكر إذا أدركت ) أى بلغت ( و ) ثانيها ( قضاء الدين إذا وجب ) أى ثبت

وَتَجْهِيزُ المَيِّتِ إِذَا مَاتَ ، وَقِرَى الضَّيْفِ إِذَا نَزَلَ ، وَالتَّوْبَةِ مِنَ الذَّنْبِ إِذَا أَذْنَبَ .

---

(و) ثالثها (تجهيز الميت إذا مات) من غسله وكفنه ودفنه وغير ذلك (و) رابعها (قرى الضيف إذا نزل) أى ضيافته وإطعامه . والضيف النزيل ينزل على غيره دعى أم لم يدع يكون للواحد والجمع ، لأنه فى الأصل مصدر تقول : زيد ضيف والزيدان ضيف والزيدون ضيف وهند ضيف والهندان ضيف والهندات ضيف ، من أضفته وضيفته إذا أنزلته بك ضيفا ، وضفته وتضيفته إذا نزلت عنده ضيفا ، وقد يجمع على أضياف وضيوف وضيفان وأضائف وهى ضيف وضيفة ( و ) خامسها ( التوبة من الذنب إذا أذنب ) والتوبة لغة : الرجوع ، وشرعا الرجوع عن الذنب بأن يقلع عنه ويندم عليه ويعزم ألا يعود اليه ويرضى الآدمى فى ظلامته وتصح التوبة من الذنب وإن كان مصرا على ذنب آخر ، وإذا تاب توبة صحيحة بشروطها ثم عاد لذلك الذنب الثانى لم تبطل توبته ، هذا مذهب أهل السنة ، قال العلقمى : وتوبة الكافر مقطوع بقبولها وما سواها من أنواع التوبة هل قبولها مقطوع به أم مظنون ؟ فيه خلاف أهل السنة . واختار إمام الحرمين أنه مظنون وهو الأصح . قال القرطبى : من استقرأ الشريعة علم أن الله يقبل توبة الصادقين قطعا نقله فى الفتح وأقره ، كذا أفاده العزيزى . والحديث المذكور رواه أبو نعيم فى الحلية قال حدثنا محمد بن الحسين ابن موسى قال : سمعت نصر بن أبى نصر يقول : سمعت أحمد بن سليمان الكفرسانى يقول : وجدت فى كتاب عن حاتم الأصم قال : كان يقال العجلة من الشيطان إلا فى خمس : إطعام الطعام إذا حضر الضيف ، وتجهيز الميت إذا مات ، وتزويج البكر اذا أدركت ، وقضاء الدين اذا وجب ، والتوبة من الذنب إذا أذنب . انتهى. قال العراقى : روى الترمذى من حديث سهل بن سعد « الأناة من الله والعجلة من الشيطان » وسنده ضعيف . وأما الاستثناء فروى أبو داود من حديث سعد بن أبى وقاص « التؤدة فى كل شىء خير إلا فى عمل الآخرة » ، وقال الأعمش : لا أعلم إلا أنه رفعه ، وروى المزى فى التهذيب فى ترجمة محمد بن موسى بن نفيع عن مشيخة من قومه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « الأناة فى كل شىء إلا فى ثلاث إذا صيح فى خيل الله وإذا نودى بالصلاة وإذا كانت الجنازة » الحديث ، وهذا مرسل ، وللترمذى من حديث على « ثلاثة لا تؤخرها: الصلاة إذا أتت ، والجنازة إذا حضرت ، والأيم إذا وجدت كفؤا » وسنده حسن . وقال الزبيدى : حديث سهل بن سعد رواه أيضا العسكرى وغيره من طريق عبد المهيمن بن عباس بن سهل ابن سعد عن أبيه عن جده ، وقد تكلم بعضهم فى عبد المهيمن وضعفه من قبل حفظه ، فهذا معنى قول العراقى : وسنده ضعيف . وأما حديث سعد بن أبى وقاص فرواه أبو داود فى الأدب والحاكم فى الإيمان والبيهقى فى السنن ، وقال الحاكم صحيح على شرطهما ، وقال المنذرى لم يذكر الأعمش فيه من حديثه ولم يجزم برفعه ، وقوله إلا فى عمل الآخرة : أى فإن المستحسن الجهد فيه لتكثير القربات ورفع الدرجات وأمور الآخرة محمودة العواقب فلا ينبغى التؤدة فيها ، كان البوشنجى

وَأَمَّا الْخَوْفُ فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فِى إِتْمَامِهِ وَأَدَائِهِ عَلَى وَجْهِهِ وَحَقِّهِ وَقَبُولِ اللهِ تَعَالَى إِيَّاه .

---

فى الخلاء فدعا خادمه فقال : انزع قميصى وأعطه فلانا . فقال هلا صبرت حى تخرج ؟ قال خطر لى بذله ولا آمن من نفسى التغير » .

ومن شواهد هذا الباب حديث أنس « التأنى من الله والعجلة من الشيطان » رواه أبو بكر ابن أبى شيبة ومن طريقه أبو يعلى وابن منيع والحارث بن أبى أسامة فى مسانيدهم من رواية سنان ابن سعد ، ورواه البيهقى فسماه سعد بن سنان وسعد ضعيف ، وقيل لم يسمع من أنس ، وحديث ابن عباس مرفوعا « إذا تأنيت أصبت أو كدت تصيب وإذا استعجلت أخطأت أو كدت تخطىء » رواه البيهقى من طريق محمد بن سواد ، عن سعيد بن سماك بن حرب عن أبيه عن عكرمة عنه . وسعيد قال فيه ابن أبى حاتم متروك ، وحديث عقبة بن عامر مرفوعا « من تأنى أصاب أو كاد ومن عجل أخطأ أو كاد » ، رواه الطبرانى والعسكرى والقضاعى من طريق ابن لهيعة عن مشرح ابن هامان عنه . وروى العسكرى من حديث سهل بن أسلم عن الحسن رفعه مرسلا « التأنى من الله والعجلة من الشيطان فتبينوا » أى تثبتوا فى الأمور ، وقال ابن القيم : إنما كانت العجلة من الشيطان لأنها خفة وطيش وحدة فى العبد تمنعه من التثبت والوقار والحلم وتوجب وضع الشىء بغير محله وتجلب الشر وتمنع الخير وهي متولدة بين خلقين مذمومين : التفريط ، والاستعجال قبل الوقت انتهى . وأما حديث على عند الترمذى فلفظه «ثلاث لا تؤخرهن : الصلاة إذا أتت» . هكذا بفوقيتين بخط العراقي : وقال التوربشتى ، هو تصحيف والمحفوظ آنت بالمد والنون على زنة حانت «والجنازة إذا حضرت والأيم إذا وجدت كفؤا » ،هكذا أخرجه فى الصلاة ورواه الحاكم فى النكاح وصححه . وقال الترمذى غريب ، وليس سنده بمتصل وهو من رواية وهب عن سعد ابن عبد الله الجهنى عن محمد بن عمر بن على عن أبيه عن على . قال الذهبي : وسعد مجهول وقد ذكره ابن حبان فى الضعفاء انتهى . وجزم الحافظ ابن حجر في تخريج الهداية بضعف سنده وقال فى تخريج الرافعي . رواه من هذا الوجه فجعل محله سعيد بن عبد الرحمن الجحى وهو من أغاليطه الفاحشة انتهى ، ولما رواه البيهقى فى سننه عن سعيد عن عبد الله هذا ، قال : وفى الباب أحاديث كلها واهية أمثلها هذا ؛ وبه عرف ما فى جزم الحافظ العراقي بحسنه ، والله أعلم . وفى هذا الحديث قصة وهى ماأخرجه ابن دريد والعسكرى « أن معاوية رضى الله عنه قال يوما وعنده الأحنف ابن قيس : ما يعدل الأناة شيء ؟ فقال الأحنف إلا فى ثلاث : تبادر بالعمل الصالح أجلك ، وتعجل إخراج ميتك ، وتنكح كفؤا ، فقال رجل إنا لا نفتقر فى ذلك إلى الأحنف، قال: فلم ؟ قال: لأنه عندنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثنا على فذكره » ، أفاده العلامه المحقق الزبيدى ( وأما الخوف فيحتمل أن يكون ) أى الخوف ( فى إتمامه وأدائه ) أى الفعل الذى خطر بقلبك ( على وجهه ) أى جهة صوابه ( وحقه ، و ) يحتمل أن يكون الخوف فى ( قبول الله إياه ) أى ذلك الفعل

وَأَمَّا بصارَةُ الْعاقِبَةِ فَبِأَنْ يَتَبَصَّرَ وَيَتَيَقَّنَ أَنَّهُ رُشْدٌ وَخَيْرٌ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ لِرُؤْيَةِ الثَّوَابِ فى الْعُقْبَى وَرَجَائِهِ . فَاعْلَمْ ذٰلِكَ مُوَفَّقًا . فَهٰذِهِ جُمْلَةُ الْفُصُولِ الثَّلاثَةِ الَّتِى لَزِمَتْكَ مَعْرِفَتُهَا فى فَصْلِ الْخَوَاطِرِ فَارْعَهَا وَأَمْعِنِ النَّظَرَ فِيهَا مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّهَا مِنَ الْعُلُومِ اللَّطِيفَةِ وَالْأَسْرَارِ الشَّرِيفَةِ فى هٰذَا الْبَابِ ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ بِفَضْلِهِ .

﴿ وَأَمَّا فَصْلُ الْحِيَلِ وَالْمُخَادَعَاتِ مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ .

فَمَجْرَى ذٰلِكَ وَمِثَالُهُ : أَنَّ مَكَايِدَ الشَّيْطَانِ مَعَ ابْنِ آدَمَ فى الطَّاعَةِ فِى سَبْعَةِ أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا : أَنْ يَنْهَاهُ عَنْهَا ، فَإِنْ عَصَمَهُ اللهُ تعالى رَدَّهُ بِأَنْ قالَ إِنِّى لَمُحْتَاجٌ إِلى ذٰلِكَ جِدًّا إِذْ لاَ بُدَّ لِى مِنَ التَّزَوُّدِ مِنْ هٰذِهِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ لِلْآخِرَةِ الَّتِى لاَ انْقِضَاءَ لَهَا ، ثُمَّ يَأْمُرُهُ بِالتَّسْوِيفِ ، فَإِنْ عَصَمَهُ اللهُ تَعَالَى وَرَدَّهُ بِأَنْ قالَ لَيْسَ أَجَلِى بِيَدِى ، عَلَى أَنِّى إِنْ سَوَّفْتُ عَمَلَ الْيَوْمِ إِلَى غَدٍ ،

---

أيقبل أم لا ؟ ( وأما بصارة العاقبة فبأن يتبصر ويتيقن ) أى صاحب الخاطر ( أنه ) أى الفعل المذكور ( رشد ) أى صواب ( وخير ويحتمل أن يكون ) التبصر والتيقن ( لرؤية الثواب فى العقبى ) أى فى الآخرة ( ورجائه ) أى الثواب ( فاعلم ذلك ) أى المذكور من الاحتمالات ( موفقا فهذه ) أى التى ذكرناها من الأقوال ( جملة الفصول الثلاثة التى لزمتك ) أى وجبت عليك ( معرفتها فى فصل الخواطر فارعها ) أى فاحفظ هذه الفصول الثلاثة ( وأمعن ) أى بالغ ( النظر فيها مااستطعت فإنها ) أى الفصول الثلاثة ( من العلوم اللطيفة ) أى الدقيقة ( والأسرار الشريفة فى هذا الباب ) أى باب الخواطر ( والله الموفق ) أى لمرضاته ( بفضله ) وإحسانه .

﴿وأما فصل الحيل﴾ بكسر الحاء وفتح الياء جمع حيلة: أى خديعة ومكر (والمخادعات من الشيطان فمجرى ذلك) أى طريق جريان الحيل والمخادعات (ومثاله أن مكايد الشيطان مع ابن آدم فى الطاعة فى سبعة أوجه : أحدها أن ينهاه ) أى ابن آدم ( عنها ) أى الطاعة ( فإن عصمه الله تعالى ) من الشيطان ( و ) حفظه منه ( رده ) أى الشيطان ، وذلك ( بأن قال ) أى ابن آدم للشيطان ( إنى لمحتاج إلى ذلك ) العمل لله تعالى والطاعة له ( جدا ) بكسر الجيم : أى حقا ( إذ لابد ) أى لاغنى ( لى من التزود ) أى أخذ الزاد ( من هذه الدنيا الفانية للآخرة التى لاانقضاء ) ولا انقطاع ( لها ) أى الآخرة ( ثم يأمره ) أى يأمر الشيطان ابن آدم من وجه ثان ( بالتسويف ) أى التأخير للعمل ( فإن عصمه الله تعالى و ) حفظه ( رده ) أى الشيطان ( بأن قال ) ابن آدم للشيطان اللعين ( ليس أجلى ) أى مدة حلول موتى ( بيدى ، على أنى إن سوفت ) أى أخرت ( عمل اليوم إلى غد

فَعَمَلُ غَدٍ مَتَى أَعْمَلُهُ ؟ فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلاً ، ثُمَّ يَأْمُرُهُ بِالْعَجَلَةِ فَيَقُولُ لَهُ عَجِّلْ عَجِّلْ لِتَتَفَرَّغَ لِكَذَا وَكَذَا ، فَإِنْ عَصَمَهُ اللّٰهُ تَعَالَى وَرَدَّهُ بِأَنْ قَالَ : قَلِيلُ الْعَمَلِ مَعَ التَّمَامِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِهِ مَعَ النُّقْصَانِ ، ثُمَّ يَأْمُرُهُ بِإِتْمَامِ الْعَمَلِ مُرَاآةً لِلنَّاسِ ، فَإِنْ عَصَمَهُ اللّٰهُ تَعَالَى رَدَّهُ ، بِأَنْ قَالَ : مَا الَّذِى أَعْمَلُ بِمُرَاآةِ النَّاسِ ؟ أَفَلَا تَكْفِينِي رُؤْيَةُ اللّٰهِ تَعَالَى ، ثُمَّ يُرِيدُ أَنْ يُوقِعَهُ فِى الْعُجْبِ فَيَقُولُ : مَا أَعْظَمَكَ وَمَا أَيْقَظَكَ وَمَا أَفْضَلَكَ ! فَإِنْ عَصَمَهُ اللّٰهُ تَعَالَى رَدَّهُ بِأَنْ قَالَ : الْمِنَّةُ لِلّٰهِ تَعَالَى فِى ذٰلِكَ دُونِى فَهُوَ الَّذِى خَصَّنِى بِتَوْفِيقِهِ وَجَعَلَ لِعَمَلِي قِيمَةً عَظِيمَةً بِفَضْلِهِ ، وَلَوْلَا فَضْلُهُ فَمَاذَا كَانَ قِيمَةُ هٰذَا الْعَمَلِ فِى جَنْبِ نِعْمَةِ اللّٰهِ تَعَالَى عَلَيَّ وَجَنْبِ مَعْصِيَتِي لَهُ ؟ . ثُمَّ يَأْتِيهِ مِنْ وَجْهٍ سَادِسٍ ، وَهُوَ أَعْظَمُهَا وَلَا يَقِفُ عَلَيْهِ إِلَّا مُتَيَقِّظٌ ، وَهُوَ :

---

فعمل غد متى أعمله ؟ ) أى عمل الغد ( فإن لكل يوم عملا ) مخصوصا ( ثم يأمره ) أى ابن آدم من وجه ثالث ( بالعجلة ) أى الإسراع فى العمل ( فيقول ) أى الشيطان ( له ) أى لابن آدم ( عجل ) أمر من العجل ( عجل ) أى أسرع أنت ( لتتفرغ لكذا وكذا ) من الأشغال ( فإن عصمه الله تعالى و ) حماه من ذلك اللعين ( رده بأن قال ) ابن آدم له ( قليل العمل مع التمام ) بإتيان أركانه وشروطه ( خير من كثيره ) أى العمل ( مع النقصان ) مما ذكر ( ثم يأمره ) من وجه رابع ( بإتمام العمل مراءاة ) أى لأجلها ( للناس ، فان عصمه الله تعالى و ) حماه ( رده بأن قال ) ابن آدم ( ماالذى ) أى أى شىء ( أعمل بمراءاة الناس ؟ أفلا تكفينى رؤية الله تعالى ؟ ثم يريد ) الشيطان من وجه خامس ( أن يوقعه ) أى ابن آدم ( فى العجب ) أى الإعجاب بنفسه ( فيقول : ماأعظمك ) ماتعجبية مبتدأ ، وأعظمك فعل ماض ، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوبا عائد على ما ، والكاف مفعوله على حذف مضاف : أى ماأعظم قدرك ، وكذا يقال فى قوله ( وما أيقظك ) أى مانبهك من نوم الغفلة ( وما أفضلك ) أى ماأكثر فضلك ( فان عصمه الله تعالى رده ) أى الشيطان ( بأن قال : المنة ) بكسر الميم : أى النعمة الثقيلة ( لله تعالى فى ذلك ) أى فى عظم القدر ويقظان القلب وكثرة الفضل ( دونى ) أى دون فعل نفسى ( فهو ) تعالي ( الذى خصنى بتوفيقه ) لمرضاته ( وجعل ) سبحانه ( لعملى قيمة عظيمة بفضله ) وإحسانه ( ولولا فضله ) وجوده ( فماذا ) أى أي شىء ( كان قيمة هذا العمل في جنب نعمة الله تعالى على وجنب معصيتى له ) تعالى ( ثم يأتيه ) أى يأتى الشيطان ابن آدم ( من وجه سادس ، وهو ) أى هذا الوجه السادس ( أعظمها ) أى الأوجه السبعة فى المكر والخديعة وأكثرها ضررا ( ولا يقف ) أى لايطلع ( عليه ) أى على الوجه السادس : أي المكر فيه ( إلا متيقظ ) أى متنبه القلب ( وهو ) أى بيان الوجه السادس

أَنْ يَقُولَ: اُجْتَهِدْ أَنْتَ فِى السِّرِّ فَإِنَّ اللهَ تَعالى سَيُظْهِرُهُ عَلَيْكَ وَيَلْبِسُ كُلَّ عَامِلٍ عَمَلَهُ . وَأَرَادَ بِذٰلِكَ ضَرْباً مِنَ الرِّيَاءِ ، فَإِنْ عَصَمَهُ اللهُ تَعَالى رَدَّهُ بِأَنْ قالَ : يَا مَلْعُونُ إِلى الآنَ كُنْتَ تَأْتِينِي مِنْ وَجْهِ إِفْسَادِ عَمَلِي ، وَالآنَ تَأْتِينِي مِنْ وَجْهِ إِصْلاَحِهِ لِتُفْسِدَهُ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللهِ تَعَالى ، وَهُوَ سَيِّدِى إِنْ شَاءَ أَظْهَرَ وَإِنْ شَاءَ أَخْفَى ، وَإِنْ شَاءَ جَعَلَنِي خَطِيرًا ، وَ إِنْ شَاءَ جَعَلَنِي حَقِيرًا ، وَذٰلِكَ إِلَيْهِ ، مَا أُبَالِي إِنْ أَظْهَرَ ذٰلِكَ لِلنَّاسِ أَوْ لَمْ يُظْهِرْهُ . فَلَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ ، ثُمَّ يَأْتِيهِ مِنْ وَجْهٍ سَابِعٍ وَيَقُولُ : لاَ حَاجَةَ لَكَ إِلَى هٰذَا الْعَمَلِ لِأَنَّكَ إِنْ خُلِقْتَ

---

(أن يقول) أى الشيطان لابن آدم (اجتهد أنت في السر) أى فى العمل الذى تسره وتخفيه عن الناس (فإن الله تعالى سيظهره) أى عملك فى السر (عليك) أى إظهارا يعرفك به الناس ويمدحونك ويقولون فيك : أنت من عباد الله المخلصين (ويلبس) أى يخلط هذا اللعين (كل عامل عمله) بأدق الحيل والمخادعات .

[ تنبيه ] قوله يلبس هو بكسر الباء لأن الماضى بفتحها لاغير ، هذا فى الأمور المعنوية . قال تعالى « وللبسنا » أى خلطنا « عليهم مايلبسون » وأما فى الأمور المحسوسة فانه بكسر الباء فى الماضى وفتحها فى المضارع . قال تعالى « يلبسون ثيابا خضرا » ونظم بعضهم ذلك فقال :

بعين مضارع فى لبس ثوب أتى فتح وفى الماضى بكسر
وفي خلط الأمور أتى بعكس لعينها خذه بغير عسر

( وأراد ) أى قصد الشيطان ( بذلك ) أى بالقول المذكور ( ضربا ) أى نوعا ( من الرياء ) أى والتلبيس ( فان عصمه الله تعالى و ) حفظه من الشيطان ( رده بأن قال ) ابن آدم ( ياملعون ) أى المبعد من الرحمة ( إلى الآن ) أى هذا الزمن الحاضر ( كنت تأتينى من وجه إفساد عملى والآن ) أى فى هذا الوجه السادس ( تأتينى من وجه إصلاحه ) أى العمل الذى أعمله ( لتفسده ) أى العمل ( إنما أنا عبد الله نعالى ، وهو ) سبحانه (سيدى ) وخالق ، فإن الأمور كلها بيده ( إن شاء ) تعالى إظهار عملى ( أظهر وإن شاء ) إخفاءه ( أخفى ) ماعملناه ( وإن شاء ) سبحانه وتعالى جعل قدرى عظيما ( جعلنى خطيرا ) أي عظيما شريفا ( وإن شاء ) سبحانه جعل قدرى ذليلا ( جعلنى حقيرا ) أي ذليلا مهينا ( وذلك ) الأمر من الاظهار والإخفاء ونحو ذلك ( إليه ) أى مفوض اليه تعالى ( ماأبالى ) أى لا أكترث ( إن أظهر ) تعالى ( ذلك ) الذى كنت أعمله ( للناس أولم يظهره ) الله لهم ( فليس بأيديهم شيء ) من النفع والضر ( ثم يأتيه ) أى يأتى الشيطان ابن آدم ( من وجه سابع ويقول : لاحاجة لك إلى هذا العمل ) الذى اجتهدت فيه ( لأنك إن خلقت )

سَعِيدًا لَمْ يَضُرَّكَ تَرْكُ الْعَمَلِ ، وَإِن خُلِقْتَ شَقِيًّا لَمْ يَنْفَعْكَ فِعْلُهُ ، فَإِنْ عَصَمَهُ اللهُ تَعَالَى رَدَّهُ بِأَنْ قَالَ : إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ ، وَعَلَى الْعَبْدِ امْتِثَالُ الْأَمْرِ لِعُبُودِيَّتِهِ ، وَالرَّبُّ أَعْلَمُ بِرُبُوبِيَّتِهِ يَحْكُمُ مَا يَشَاءُ وَيَفْعَلُ مَا يُرِيدُ . وَلِأَنَّهُ يَنْفَعُنِي الْعَمَلُ كَيْفَمَا كُنْتُ لِأَنِّي إِنْ كُنْتُ سَعِيدًا احْتَجْتُ إِلَيْهِ لِزِيَادَةِ الثَّوَابِ ، وَإِنْ كُنْتُ شَقِيًّا فَأَنَا مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ كَيْ لَا أَلُومَ نَفْسِي ، عَلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يُعَاقِبُنِي عَلَى الطَّاعَةِ بِكُلِّ حَالٍ وَلَا يَضُرُّنِي عَلَى أَنِّي إِنْ أُدْخِلْتُ النَّارَ وَأَنَا مُطِيعٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَدْخُلَهَا وَأَنَا عَاصٍ ، فَكَيْفَ وَوَعْدُهُ حَقٌّ وَقَوْلُهُ صِدْقٌ . وَقَدْ وَعَدَ عَلَى الطَّاعَاتِ بِالثَّوَابِ فَمَنْ لَقِيَ اللهَ تَعَالَى عَلَى الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ لَمْ يَدْخُلِ النَّارَ أَلْبَتَّةَ ؟ وَدَخَلَ الْجَنَّةَ لَا لِاسْتِحْقَاقِهِ بِعَمَلِهِ الْجَنَّةَ وَلَكِنْ لِوَعْدِ اللهِ الصَّادِقِ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ ، وَلِهَذَا الْمَعْنَى أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنِ السُّعَدَاءِ ، إِذْ قَالُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ،

---

بالبناء للمفعول : أى خلقك الله وقدرك ( سعيدا ) فى الأزل ( لم يضرك ترك العمل ، وإن خلقت شقيا لم ينفعك فعله ) أى هـذا العمل ( فان عصمه الله تعالى رده ) أى الشيطان ( بأن قال ) أى ابن آدم (إنما أنا عبد ، و) حق (على العبد امتثال الأمر لعبوديته ، والرب) تعالى (أعلم بربوبيته يحكم مايشاء ويفعل مايريد ، ولأنه ) أى الشأن ( ينفعنى العمل كيفما كنت ) مطلقا سعيدا أو شقيا ( لأنى إن كنت سعيدا احتجت إليه ) أى إلى ذلك العمل ( لزيادة الثواب ) والأجر فى الدار الآخرة ( وإن كنت شقيا فأنا محتاج إليه ) أى العمل (كى لاألوم نفسى ) بترك الامتثال لأمر ربى ( على أن الله تعالى لايعاقبنى على الطاعة بكل حال ولا يضرنى ) عليها ( على أنى إن أدخلت النار وأنا مطيع ) لله تعالى ( أحب إلىّ من أن أدخلها ) أى النار ( وأنا عاص ) له تعالي ( فكيف ) يكون ذلك ( ووعده ) تعالى ( حق ، وقوله ) جلّ وعزّ ( صدق ، وقد وعد ) سبحانه وتعالى ( على ) فعل ( الطاعات بالثواب فمن لقى الله تعالى ) بالموت ( على الإيمان والطاعة لم يدخل النار ألبتة ) أى قطعا ( ودخل الجنة ، لا ) يدخلها ( لاستحقاقه بعمله ) دخول ( الجنة ولكن ) دخلها ( لوعد الله الصادق تعالى وتقدس ، ولهذا المعنى ) وهو دخول الجنة بوعده الكريم وفضله العظيم لا بالعمل المدخول الذميم ( أخبر الله تعالى عن ) حال ( السعداء إذ قالوا : الحمد لله الذى صدقنا وعده) بالجنة : أى فى قوله «تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا » كما صرح به الخطيب . قال حكيم من الحكماء العارفين : الشيطان يأتى ابن آدم من قبل المعاصى ، فإن امتنع منها أتاه من وجه النصيحة حتى يلقيه فى بدعته ويحسن له إياها ، فإن أبى أمره بالتحرج والشدة حتي يحرم ما ليس بحرام ، فإن أبي من ذلك شككه فى وضوئه وصلاته حتى يخرج عن العلم

فَتَيَقَّظْ رَحِمَكَ اللهُ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ كَمَا تَرَى وَتَسْمَعُ قِسْ عَلَيْهِ سَائِرَ الْأَحْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ تَعَالَى وَاسْتَعِذْ بِهِ فَإِنَّ الْأَمْرَ بِيَدِهِ وَمِنْهُ التَّوْفِيقُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

---

فإن أبى خفف عليه أعمال البر حتى يراه الناس صابرا عفيفا فتميل قلوبهم إليه ويعجب بنفسه وبه يهلكه وعنده تشتد الحاجة فإنها آخر درجة ، ويعلم أنه لو جازوها أفلت منه إلى الجنة فآخر أعماله إذا عجز عن ابن آدم إيقاعه فى العجب وهو سوس الأعمال وبه يتم الهلاك ، فإن سلم منه نجا بعمله . أعاذنا الله منه ، وقد يستأنس لهذا القول بحيث « ان الشطان قعد لابن آدم بطرق فقعد له بطريق الإسلام ، فقال أتسلم ؟ أتترك دينك ودين آبائك ؟ فعصاه وأسلم ؛ ثم قعد له بطريق الهجرة فقال أتهاجر أتدع أرضك وسماءك ؟ فعصاه وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال : أتجاهد وهو تلف النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح نساؤك ويقسم مالك فعصاه وجاهد . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فمن فعل ذلك فمات كان حقا على الله أن يدخله الجنة » قال العراقي : رواه النسائى من حديث سبرة بن أبي فاكه بإسناد صحيح (فتيقظ) أى تنبه من سنة الغفلة (رحمك الله ) جملة دعائية ( فإن الأمر ) أى أمر الطاعة لرب العالمين ( كما ترى ) من كثرة مكايد الشيطان ومكره ( وتسمع وقس عليه ) أى على هذا الأمر ( سائر الأحوال والأفعال ، واستعن بالله تعالى واستعذ ) واعتصم ( به ) تعالى من الشيطان الرجيم ( فإن الأمر ) كله ( بيده ) أى بقدرته تعالى ( ومنه ) سبحانه ( التوفيق ) أى لمرضاته (ولا حول ) لنا نتحول به عن المعصية موجود ( ولا قوة ) لنا نتقوى بها على الطاعات موجودة ( إلا ) وهما ( بالله ) أى بإعانته سبحانه ( العلى ) الأعلى : أى البالغ فى العلو ، إذ لا رتبة إلا وهى منحطة عن رتبته ، أو الذى علا عن أن تدرك الخلق ذاته أو تتصور صفاته بالكنه والحقيقة فهو المرتفع ( العظيم ) فى ذاته على كل من سواه فليس لعظمته بداية ولا لكنه جلاله نهاية ، وليست بتعظيم الأغيار جل قدره عن الحد والمقدار وأظهر معانى العظمة القوة والقدرة ، وفيه إشارة لمجموع صفاته النفسية والمعنوية والقدسية وحظ العبد منه قوله صلى الله عليه وسلم « من تعلم وعلم فذلك يدعى فى ملكوت السماء عظيما » وأن يستحقر نفسه ويذللها بالإقبال والانقياد لأوامره تعالى واجتناب نواهيه .

[ تنبيه ] ينبغى الإكثار من : لا حول ولا قوة إلا بالله . قال صلى الله عليه وسلم لأبى هريرة « ألا أدلك على كلمة من تحت العرش من كنز الجنة تقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فيقول الله أسلم عبدى واستسلم » أى فوض أمر الكائنات إليه تعالى وانقاد له بنفسه مخلصا ، فإن لا حول يدل على نفى التدبير للكائنات وإثباته له تعالى . وقال عليه السلام لقيس بن سعد « ألا أدلك على باب الجنة » وفي رواية « على كنز من كنوز الجنة ؟ قال بلى ، قال لاحول ولا قوة إلا بالله العلي

العظيم » أى لأنها لما تضمنت براءة النفس من حولها وقوتها إلى حوله تعالى وقوته كانت موصـلة إلى الجنة ، كذا قاله العلامة بابصيل .

## ﴿ العائق الرابع ﴾

وهذا آخر العوائق الأربعة (النفس) الأمارة بالسوء المتبعة للشهوة المائلة إلى الهوى ، المجانبة للحق والهدى فيما تأمر به وتنهى عنه : قال العلامة سعيد بابصيـل وهى : أى النفس لطيفة ربانية خلقها الله سبحانه وتعالى قبل الأجساد بألفى عام ، إذ هى الروح ، فكانت حينئذ فى جوار الحق وقربه فتستفيض من حضرته بلا واسطة فلما أمرها الله أن تتعلق بالأجساد عرفت الغير فحجبت عن حضرته لبعدها عنه ، فلذا احتاجت لمذكر . قال تعالى « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » فهى قبل تعلقها بالجسد روحا وبعده نفسا فلايصح لعاقل الرضا عنها ولا موالاتها ، كيف وقد قال تعالى حاكيا عن سيدنا يوسف عليه السلام « وما أبرئ نفسى » الآية . قال فى روح البيان : أى لا أنزهها عن السوء ولا أشهد لها بالبراءة الـكلية ، قاله تواضعا لله تعالى وهضما لنفسه الـكريمة لا تزكية لها ، وعجبا بحاله فى الأمانة والمراد لا أنزهها من حيث هى هى ولا أسند إليها فضيلة بمقتضى طبعها ، بل بتوفيق الله تعالى ، فإن جميع النفوس أمارة بالقبائح والمعاصى لاستلذاذها بها .

ومن هنا وجب القول بأن كل من كان أوفر عقلا وأجل قدرا عنده تعالى كان أبصر بعيوب نفسه ، ومن كان أبصر بها كان أعظم اتهاما لنفسه وأقل إعجابا ، إلا ما رحم ربى من النفوس التى عصمها ، ومن جملتها نفسى ونفوس الأنبياء والملائكة ، فالنفوس من حيث هى كالبهائم . قال فى [ التأويلات النجمية ] خلقت النفس على جبلة الأمارة بالسوء طبعا حين خليت إلى طبعها لا يأتى منها إلا الشر ولا تأمر إلا بالسوء ، ولكن إذا رحمها ربها ونظر إليها بنظر العناية قلبها من طبعها وبدل صفاتها ، فيبدل الأمارية بالمأمورية ، وشريرتها بالخيرية ، فإذا تنفس صبح الهداية فى ليلة البشرية وأضاء أفق سماء القلب صارت النفس لوامة تلوم نفسها على سوء فعلها وندمت على ما صدر منها فتتوب إليه تعالى ، فإن الندم توبة ، وإذا طلعت شمس العناية من أفق الهداية صارت النفس الملهمة لتنورها بأنوار شمس العناية فألهمها نورها فجورها وتقواها ، وإذا بلغت شمس العناية وسط سماء الهداية وأشرقت الأرض بنور ربها صارت النفس المطمئنة بجذبة : ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فليجتهد العبد مع نفسه حتى يصل إلى الاطمئنان فيتخلص من كيدها انتهى . قال تعالى « وأما من خاف مقام ربه » الآية . وقال عليه السلام « أعدى الأعداء نفسك التى بين جنبيك » وقال محمد بن واسع رحمه الله : من مقت نفسه فى ذات الله أمنه الله من مقته . وقال الجنيد: الأمارة هى الداعية إلى المهالك ؛ المعينة للأعداء ، المتبعة للهوى ، المتنعمة بأنواع الأسواء . وقال جعفر : لم يتهم نفسه على الدوام ولم يخالفها فى جميع الأحوال ويجبرها على مكروهها فى سائر الأيام كان مغرورا ، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها . قال الجنيد : أرقت ليلة فقمت إلى وردى فلم أجد ما كنت أجده من الحلاوة فأردت أن أنام فلم أقدر فقعدت فلم أطق القعود ففتحت الباب

ثُمَّ عَلَيْكَ يَا طَالِبَ الْعِبَادَاتِ ، عَصَمَكَ اللهُ وَإِيَّانَا بِالْحَذَرِ مِنْ هٰذِهِ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ فَإِنَّهَا أَضَرُّ الْأَعْدَاءِ . وَبَلَاؤُهَا أَصْعَبُ الْبَلَاءِ ، وَعِلَاجُهَا أَعْسَرُ الْأَشْيَاءِ وَدَاؤُهَا أَعْضَلُ الدَّاءِ وَدَوَاؤُهَا أَشْكَلُ الدَّوَاءِ ، وَإِنَّمَا ذٰلِكَ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا عَدُوٌّ مِنْ دَاخِلٍ ،

---

فخرجت فإذا رجل ملتف بعباءة مطروح على الطريق ، فلما أحس بى رفع رأسه وقال : تأخرت إلى الساعة ؟ . قلت يا سيدى من غير موعد . فقال بلى قد سألت محرك القلوب أن يحرك إلى قلبك ، فقلت : فما حاجتك ؟ قال متى يصيرداء النفس دواءها ؟ قلت إذا خالفت هواها صار داؤها دواءها فأقبل على نفسه ، وقال اسمعى فقد أجبتك بهذا الجواب سبع مرات فأبيت إلى أن سمعتيه من الجنيد وانصرف ولم أعرفه . قال شيخ الإسلام : ولها ، أى النفس أربعة أنواع : الأمارة بالسوء . قال تعالى « إن النفس لأمارة بالسوء » وهى نفس الكافر . واللوامة . قال تعالى : « ولا أقسم بالنفس اللوامة » وهى نفس عصاة المؤمنين . والملهمة . قال تعالى « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » وهى نفس عامة المؤمنين الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا . والمطمئنة . قال تعالى « يا أيتها النفس المطمئنة » ، الآية وهى نفس الأنبياء والأولياء والصديقين ، وقيل غير ذلك ، واللوامة إذا أطاعت المطمئنة لامت ذاتها فى الدنيا ، وإن أطاعت الأمارة لامت ذاتها فى الآخرة ، انتهى بمعناه . وفى شرح البردة للخربوطى أن الصوفية قالوا : إن النفس ست . الأولى الأمارة ، وهى التى تميل إلى الطبيعة البدنية وتأمر باللذات والشهوات الحسية وتجذب القلب لجهة السفلية فهى مأوى الشرور ومنبع الأخلاق الذميمة ، لأنها مبدأ الكبر ونحوه ، وهى نفس الكفار والشياطين والفاسقين . والثانية اللوامة ، وهى التى تنورت بنور القلب فتطيع الغافلة مرة وتعصى أخرى ثم تندم فتلوم نفسها ، وهى منبع الندامة ، لأنها مبدأ الهوس والعثرة والحرص وهى نفس العامة . والثالثة المطمئنة ، وهى التى تنورت بنور القلب حتى تخلت عن صفاتها الذميمة وتخلقت بالأخلاق الحميدة ، وهى نفس المتعلمين العاملين . والرابعة الملهمة ، وهى التى ألهمها العلم والتواضع والقناعة والسخاوة فلذا كانت منبع الصبر والتحمل والشكر وهى نفس الأولياء الكرام والخامسة المرضية ، وهى التى رضيت بتلك عن الله كما قال تعالى « ورضوا عنه » ويترك فيها الكرامات ويعرف فيها الله تعالى ، وهى نفس العارفين . والسادسة الصالحة ، وهى التى مقام الأسرار بين الله وبينها ؛ وهى نفس الأنبياء والمرسلين . قال المصنف رحمه الله ( ثم عليك ) أى الزم ( يا طالب العبادات ) لله رب العالمين ( عصمك ) أى حفظك ( الله وإيانا ) من آفات النفس جملة دعائية ( بالحذر من هذه النفس الأمارة بالسوء ، فإنها أضر الأعداء وبلاؤها أصعب البلاء وعلاجها أعسر الأشياء وداؤها أعضل ) أى أصعب ( الداء ودواؤها أشكل الدواء ، وإنما ) يلزم عليك ( ذلك ) الحذر ( لأمرين : أحدها أنها ) أى النفس ( عدو من داخل ) ولا كذلك الشيطان فإنه

وَاللِّصُّ إِذَا كَانَ مِنْ دَاخِلِ الْبَيْتِ عَزَّتِ الْحِيلَةُ فِيهِ وَعَظُمَ الضَّرَرُ ، وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ :

نَفْسِي إِلَى مَا ضَرَّنِي دَاعِي ... تُكَثِّرُ أَسْقَامِي وَأَوْجَاعِي

كَيْفَ احْتِيَالِي مِنْ عَدُوٍّ إِذَا ... كَانَ عَدُوِّي بَيْنَ أَضْلاَعِي

وَالثَّانِي أَنَّهُ عَدُوٌّ مَحْبُوبٌ وَالْإِنْسَانُ عَمٍ عَنْ عَيْبِ مَحْبُوبِهِ لاَ يَكَادُ يُبْصِرُ عَيْبَهُ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

وَلَسْتَ تَرَى عَيْباً لِذِي الْوِدِّ وَالْإِخَا ... وَلاَ بَعْضَ مَا فِيهِ إِذَا كُنْتَ رَاضِيَا

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ ... وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا

---

عدو من خارج ، ولذلك قيل : الخروج عن النفس هو النعمة العظمى لأنها أعظم حجاب بين الشخص وربه .

وقد سئل بعض المشايخ عن الإسلام فقال ذبح النفس بسيوف المخالفة : أى لأنها إذا اعتادت اللذات لا تنصرف إلى الطاعات إلا بالمجاهدات والتوبيخات الشديدة ، ولذا سميت هذه الأمور سيوفا ، وذبحها قهرها ونقلها عن هواها ، كذا قرره العلامة بابصيل . وقال سهل بن عبد الله : ماعبد الله بشىء مثل مخالفة النفس والهوى فهى رأس العبادة وأول مراتب السعادة ( واللص ) بتثليث اللام : أى السارق ( إذا كان من داخل البيت عزت ) أى قلت ( الحيلة فيه ) أى اللص ( وعظم الضرر ، ولقد صدق القائل ) حيث قال ( نفسى إلى ما ضرنى ) فى العاقبة ( داعى * تكثر أسقامي ) أى أمراضى ( وأوجاعى ) جمع وجع وهو المرض ( كيف احتيالى من عدو إذا * كان عدوى بين أضلاعى ) جمع ضلع ، وهى عظام الجنبين كما فى المصباح . ( والثانى ) من الأمرين ( أنه ) أى ما ذكر من النفس ( عدو محبوب والإنسان عم ) بوزن راض اسم فاعل من عمى كرضى ، أى فاقد البصر كما أفاده القاموس ، والمراد كناية عن عدم التفات الإنسان وإعراضه عما يأتى وهو قوله رحمه الله (عن عيب محبوبه لا يكاد ) أى لا يقرب الإنسان ( يبصر ) بضم أوله وكسر ثالثه من أبصر كما قاله ابن المدابغى ( عيبه ) أى عيب المحبوب ونقصه ( كما قال القائل ) من بحر الطويل ( ولست ترى عيبا لذى ) أى صاحب ( الود ) بضم الواو وفتحها وكسرها : المودة والمحبة (و) لذى ( الإخا ) بكسر الهمزة مع القصر للوزن : أى الأخوة ( ولا ) ترى ( بعض ما ) أى العيب الذى ثبت ( فيه ) أى فى ذى المودة والأخوة ( إذا كنت راضيا . وعين الرضا عن كل عيب ) ونقص ( كليلة ) أى غاضة ( ولكن عين السخط تبدى ) أى تظهر ( المساويا ) والألف للاطلاق جمع مساءة ، وهى مصدر ميمي بمعنى القبيح من القول والفعل ، وذلك لأن

فَإِذًا يَسْتَحْسِنُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ كُلَّ قَبِيحٍ ، وَلاَ يَكَادُ يَطَّلِعُ عَلَى عَيْبٍ لَهَا وَهِيَ فِى عَدَاوَتِهَا وَأَضْرَارِهَا ، فَمَا أَوْشَكَ مَا تُوقِعُهُ فِى فَضِيحَةٍ وَهَلاَكٍ وَهُوَ لاَ يَشْعُرُ إِلاَّ أَنْ يَحْفَظَهُ اللهُ تَعَالَى بِفَضْلِهِ ، وَيُعِينَهُ عَلَيْهَا بِرَحْمَتِهِ .

ثُمَّ أَقُولُ : تَأَمَّلْ أَيُّهَا الرَّجُلُ نُكْتَةً وَاحِدَةً مُقْنِعَةً ، وَهِيَ أَنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ وَجَدْتَ أَصْلَ كُلِّ فِتْنَةٍ وَفَضِيحَةٍ وَخِزْيٍ وَهَلاَكٍ وَذَنْبٍ وَآفَةٍ وَقَعَ فِى خَلْقِ اللهِ تَعَالَى مِنْ أَوَّلِ الْخَلْقِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ قِبَلِ هٰذِهِ النَّفْسِ ، إِمَّا بِهَا وَحْدَهَا أَوْ بِمُعَاوَنَتِهَا وَمُشَارَكَتِهَا وَمُسَاعَدَتِهَا . فَأَوَّلُ الْمَعْصِيَةِ لِلّٰهِ تَعَالَى كَانَتْ مِنْ إِبْلِيسَ ، وَكَانَ سَبَبُهُ بَعْدَ الْقَضَاءِ السَّابِقِ هَوَى النَّفْسِ بِكِبْرِهَا وَحَسَدِهَا ،

---

الإنسان إذا غلب الحب على قلبه ولم يكن له داع من عقل أو دين أصمه حبه عن العذل وأعماه عن الرشد . وقال بعضهم فى ذلك * وعين أخى الرضا عن ذاك تعمى * ( فإذا ) أى حين إذا كان الأمر كما قاله القائل ( يستحسن الإنسان من نفسه كل ) أمر ( قبيح ولا يكاد يطلع على عيب لها ) أى لنفسه بخلاف عيب غيره فإنه يرى ذلك . وهذا من أقبح القبائح ، ولله در القائل :

أرى كل إنسان يرى عيب غيره ... ويعمى عن العيب الذى هو فيه
فلا خير فيمن لا يرى عيب نفسه ... ويعمى عن العيب الذى بأخيه

(وهى) أى تلك النفس ( فى عداوتها وأضرارها فما أوشك ) أى أقرب فعل تعجب (ماتوقعه) أى صاحبها ( فى فضيحة وهلاك وهو ) أى صاحب النفس ( لايشعر ) أى لا يعلم ( إلا أن يحفظه الله تعالى بفضله ويعينه عليها ) أى على قهر النفس وقمعها ( برحمته ) تعالى فإنه نجا من الفضائح والمهالك ( ثم أقول : تأمل ) من التأمل بمعنى إعمال الفكر ومزيد التدبير ( أيها الرجل ) المريد لسلوك طريق الآخرة [ نكتة ] أى لطيفة مستخرجة بالفكر مؤثرة فى القلب ( واحدة مقنعة ) بوزن مكرمة اسم فاعل من أقنع الرباعى : أى كافية لمن تفكرها وتأملها ، أو مصدر ميمى بمعنى قناعة مبالغة على حد عدل زيد ( وهى ) أى النكتة المقنعة ( أنك إذا نظرت ) أى تأملت ( وجدت أصل كل فتنة ) أى بلية ( وفضيحة وخزى ) أى ذل ( وهلاك وذنب وآفة وقع ) أى كل ذلك ( فى خلق الله تعالى من أول الخلق إلى يوم القيامة من) متعلق بقوله وجدت ( قبل ) بكسر القاف أى جهة ( هذه النفس ) الأمارة بالسوء ( إما بها وحدها ) أى منفردة بذاتها ( أو بمعاونتها ومشاركتها ومساعدتها فأول المعصية لله تعالى كانت من إبليس ) اللعين ، وهى مخالفة أمر الله تعالى بالسجود لآدم عليه السلام ( وكان سببه ) أى عصيان إبليس ( بعد القضاء السابق ) فى علم الله الأزلى ( هوى النفس ) أى ما تهواه وتحبه من الصفة المذمومة ( بكبرها ) أى بسبب كبر نفس اللعين عن السجود لآدم عليه السلام ( وحسدها ) لآدم على ما شرفه الله وآتاه من فضله .

أَلْقَتْهُ بَعْدَ عِبَادَةِ ثَمَانِينَ أَلْفَ سَنَةٍ عَلَى مَا قِيلَ فِى بَحْرِ الضَّلَالِ فَغَرِقَ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ إِذْ لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ دُنْيَا وَلا خَلْقٌ وَلَا شَيْطَانٌ ، بَلْ كَانَتِ النَّفْسُ بِكِبْرِهَا وَحَسَدِهَا فَعَمِلَتْ بِهِ مَا عَمِلَتْ ، ثُمَّ ذَنْبُ آدَمَ

---

قال بعض السلف : إن أول خطيئة كانت هى الحسد حسد إبليس آدم عليه السلام فأبى أن يسجد له فحمله على المعصية ، وعن ابن مسعود رفعه « إياكم والكبر ، فإن إبليس حمله الكبر على أن لا يسجد لآدم ، وإياكم والحرص فإن آدم حمله الحرص على أكل الشجرة ، وإياكم والحسد فإن ابنى آدم إنما قتل أحدهما صاحبه حسدا ، فهن أصل كل خطيئة » . أخرجه القشيرى فى الرسالة وابن عساكر فى التاريخ من حديثه . وقال بعض الحكماء : إياكم والحسد فإن الحسد أول ذنب عصى الله تعالى به فى السماء وأول ذنب عصى الله به فى الأرض . وإنما أراد بقوله أول ذنب عصى الله تعالى به فى السماء ، يعنى إبليس حين أبى أن يسجد لآدم وقال « خلقتنى من نار وخلقته من طين » فحسده فلعنه الله تعالى بذلك ، وأما الذى عصى الله تعالى به فى الأرض فهو قابيل بن آدم حين قتل أخاه هابيل حسدا ، وهو قوله تعالى « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قرّبا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين » . وكذا حكي أن عون بن عبد الله دخل على المفضل بن المهلب وكان ابن المهلب يومئذ على واسط مدينة بالعراق ، فقال إنى أريد أن أعظك بشيء ، فقال وما هو ؟ قال إياك والكبر ، فإنه أوّل ذنب عصى الله به ثم قرأ « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس » الآية ، وإياك والحرص فإنه أخرج آدم من الجنة أمكنه الله سبحانه من جنة عرضها السموات والأرض يأكل منها إلا شجرة واحدة نهاه الله عنها فأكل منها فأخرجه الله تعالى منها ثم قرأ « اهبطوا منها » إلى آخر الآية وإياك والحسد فإنما قتل ابن آدم أخاه حين حسده ، ثم قرأ « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق » الآيات ، وإذا ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمسك ، وإذا ذكرت النجوم فأمسك ( ألقته ) أى ألقت المعصية إبليس اللعين ( بعد عبادة ثمانين ألف سنة على ما قيل فى بحر الضلال ) والكفر ، بل قد روى عن كعب الأحبار رضى الله عنه «أن إبليس اللعين كان خازن الجنة أربعين ألف سنة ، ومع الملائكة ثمانين ألف سنة ، ووعظ الملائكة عشرين ألف سنة ، وسيد الكروبيين ثلاثين ألف سنة ، وسيد الروحانيين ألف سنة ، وطاف حول العرش أربعة عشر ألف سنة ، وكان اسمه فى سماء الدنيا العابد ، وفى السماء الثانية الزاهد ، وفى السماء الثالثة العارف ، وفى السماء الرابعة الولىّ ، وفى الخامسة التقىّ ، وفى السادسة الخازن ، وفى السابعة عزازيل ، وفى اللوح المحفوظ إبليس ، وهو غافل عن عاقبة أمره . ( فغرق ) اللعين ( إلى أبد الآبدين إذ لم يكن هنالك ) أى أوّل عصيان إبليس ( دنيا ولا خلق ولا شيطان بل كانت ) أى وجدت ( النفس بكبرها وحسدها فعملت به ) أى اللعين ( ما عملت ) من المعصية والمخالفة لأمر الله تعالى ( ثم ذنب ) أبينا ( آدم

وَحَوَّاء عَلَيْهِمَا السَّلامُ طَرَحَتْهُمَا شَهْوَةُ النَّفْسِ فى ذٰلِكَ وَحِرْصُهُمَا عَلَى الْبَقَاءِ وَالْحَيَاة. حَتَّى اُغْتَرَّا بِقَوْلِ إِبْلِيسَ فَكَانَ ذٰلِكَ إِذًا بِعَوْنِ النَّفْسِ وَشِرْكَتِهَا حَتَّى سَقَطَا بِذٰلِكَ مِنْ جِوَارِ اللهِ تَعالى وَقَرَارِ الْفِرْدَوْسِ إِلى هٰذِهِ الدُّنْيَا الْحَقِيرَةِ النَّكِدَةِ الْفَانِيَةِ الْمُهْلِكَةِ وَلَقِيَا مَا لَقِيَا وَلَقِيَ أَوْلادُهُمَا مَا لَقَوْا مِنْ ذٰلِكَ الْيَوْمِ إِلى أَبَدِ الآبِدِينَ .

---

و ) زوجته (حواء عليهما) الصلاة و (السلام) وذلك أ كلهما عليهما السلام من الشجرة التى نهيا عنها وأورد عليه أن آدم معصوم ، فكيف يخالف النهى ؟ وأجيب بوجوه : منها أنه اعتقد أن النهى للتنزيه لا للتحريم ، ومنها أنه نسى النهى ، ومنها أنه اعتقد نسخه بسبب مقاسمة إبليس له إنه لمن الناصحين فاعتقد أنه لا يحلف أحد بالله كاذبا ( طرحتهما ) أى آدم وحوّاء (شهوة النفس ) بوسوسة إبليس ألقى فى خاطرهما كما قاله الزبيدى ( فى ذلك ) أى فعل المنهى عنه ( و ) ألقاهما فى ذلك ( حرصهما على البقاء والحياة حتي اغترا ) أى آدم وحواء ( بقول إبليس ) اللعين لهما « هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » وقوله « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » ومقاسمته لهما « إنى لكما لمن الناصحين » ( فكان ذلك ) أى الاغترار ( إذا ) أى حين قاله اللعين ما ذكر ( بعون النفس ) أى نفسهما ( وشركتها حتى سقطا ) عليهما السلام ( بذلك ) أى بقول إبليس ومعاونة النفس ( من جوار الله تعالى ) مجاورة معنوية ( و ) من ( قرار ) هما فى جنة ( الفردوس إلى هذه الدنيا الحقيرة النكدة ) أى القليلة ( الفانية المهلكة ). فهبط آدم بسرنديب من أرض الهند على جبل يقال له نود ، وهبطت حواء بجدة ، وإبليس بالأبلة من أعمال البصرة ( ولقيا ) عليهما السلام ( ما لقيا ) من الأحزان فى دار الهوان ، وقد قيل إن آدم عليه السلام لما نزل الأرض مكث ثلثمائة سنة لا يرفع رأسه إلى السماء حياء من الله تعالى ، وقد قيل : لو أن دموع أهل الأرض جمعت لكانت دموع داود أكثر ، ولو أن دموع داود ودموع أهل الأرض جمعت لكانت دموع آدم أكثر ، كذا ذكره الخازن والقصة فى شأن آدم وحواء عليهما السلام مشهورة فى القرآن ( ولقى أولادهما ) أى آدم وحواء ( ما لقوا ) من ظلم بعضهم بعضا ( من ذلك اليوم ) أي يوم الهبوط من الجنة ( إلى أبد الآبدين ) وفى [شرح المواهب] للزرقانى ما نصه :

واختلفوا فى أن حوّاء خلقت فى الجنة ، فقال ابن إسحق خلقت قبل دخول آدم الجنة ، لقوله تعالى « أسكن أنت وزوجك الجنة » وقيل خلقت فى الجنة بعد دخول آدم الجنة لأنه لما أسكن الجنة مشى فيها مستوحشا ، فلما نام خلقت من ضلعه القصرى من شقه الأيسر ليسكن إليها ويأنس بها قاله ابن عباس ، وينسب لأكثر المفسرين ، وعلى هذا قيل : قال الله تعالى « اسكن أنت وزوجك الجنة » بعد خلقها وهما فى الجنة . وقيل قبل خلقها وتوجه الخطاب للمعدوم لوجوده فى علم الله تعالى كذا نقله الجمل .

الناس أنك خير منى وأفضل ويفتخر ولدك على ولدي ، فقال هابيل : وما ذنبي ؟ « إنما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين » قال عبد الله بن عمر : كان المقتول أشد ، ولكنه منعه التحرج أن يبسط إلى أخيه يده . قال الله تعالى « فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله » الآية . قال السدى : لما قصد قابيل قتل هابيل راغ هابيل فى رءوس الجبال ، ثم أتاه يوما من الأيام وهو نائم ، فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات . وقال ابن جريج : لم يدر قابيل كيف يقتل أخاه فتمثل له إبليس وأخذ طيرا فوضع رأسه على حجر ثم شدخه بحجر آخر وقابيل ينظر فعلمه القتل ، فرضخ قابيل رأس هابيل بين حجرين وهو مستسلم صابر ، وكان عمر هابيل يوم قتل عشرين سنة .

واختلفوا فى مصرعه وموضع قتله ، فقال ابن عباس : على جبل ثور . وقيل على عقبة حراء . وحكى ابن جرير الطبرى قال جعفر الصادق : بالبصرة فى موضع المسجد الأعظم ، فلما قتله تركه ولم يدر ما يصنع به ، لأنه كان أول ميت على وجه الأرض من بنى آدم فقصدته السباع ، فحمله على ظهره فى جراب أربعين يوما . وقال ابن عباس رضى الله عنهما سنة حتى أروح وأنتن وعكفت عليه الطير والسباع ينظرون أن يرمى به فتأكله ؛ فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه ثم حفر له بمنقاره ورجليه حفيرة ثم ألقاه فيها وواراه بالتراب وقابيل ينظر ، وذلك قوله تعالى « فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض » : يعنى يحفرها وينثر ترابها « ليريه كيف يوارى سوأة أخيه » فلما رأى قابيل فعل الغراب « قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين » : يعنى على حمله على ظهره مدة سنة لا على قتله . وقيل : إنه ندم على قتل أخيه لأنه لم ينتفع بقتله ، وسخط عليه أبواه وإخوته ، فندم لأجل ذلك ، لا لأجل أنه جنى جناية واقترف ذنبا عظيما بقتله ، فلم يكن ندمه ندم توبة وخوف وإشفاق من فعله ولأجل ذلك لم ينفعه الندم . وفى الحديث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل » . قال المطلب بن عبد الله بن حنطب : لما قتل ابن آدم أخاه رجفت الأرض بما عليها سبعة أيام ، وشربت دم المقتول كما تشرب الماء ، فناداه الله تعالى أين أخوك هابيل ؟ فقال : ما أدرى ما كنت عليه رقيبا ؛ فقال الله تعالى : إن دم أخيك ليناديني من الأرض فلم قتلت أخاك ؟ . قال فأين دمه إن كنت قتلته ؟ فحرم الله على الأرض من يومئذ أن تشرب دما بعده أبدا . وروى عن الضحاك عن ابن عباس قال « لما قتل قابيل هابيل كان آدم بمكة فاشتاك الشجر ، وتغيرت الأطعمة ، وحمضت الفواكه ، واغبرت الأرض ، فقال آدم قد حدث فى الأرض حدث ؛ فأتى الهند فوجد قابيل قد قتل هابيل » وقيل لما رجع آدم سأل قابيل عن أخيه ؛ فقال ما كنت عليه وكيلا ، فقال بل قتلته ولذلك اسود جلدك . وقال سالم بن أبى الجعد لما قتل قابيل هابيل مكث آدم مائة سنة لا يضحك . وفى الخازن قال أصحاب الأخبار : فلما مضى من عمر آدم مائة وثلاثون سنة ، وذلك بعد قتل هابيل بخمسين سنة ، ولدت له حواء شيثا ،

ثُمَّ حَدِيثُ هَارُوتَ وَمَارُوتَ كَانَ السَّبَبَ فِى شَأْنِهِمَا الشَّهْوَةُ ،

وتفسيره : هبة الله ، يعنى أنه خلف من هابيل وعلمه الله ساعات الليل والنهار وعلمه عبادات الخلق فى كل ساعة وأنزل عليه خمسين صحيفة ، وصار وصى آدم وولى عهده . وأما قابيل فقيل له اذهب فذهب طريدا شريدا فزعا مرعوبا لا يأمن من رآه ، فأخذ بيد أختـه إقليما وهرب بها إلى عدن من أرض اليمن ، فأتاه إبليس وقال له إنما أكلت النار قربان هابيل لأنه كان يعبدها فانصب أنت نارا تـكون لك ولعقبك ، فبنى بيت النار فهو أول من عبد النار ؛ وكان قابيل لا يمر به أحد إلا رماه بالحجارة ، فأقبل ابن لقابيل أعمى ومعه ابنه ، فقال ابن الأعمي لأبيه هذا أبوك قابيل فرمي الأعمى أباه قابيل فقتله ، فقال ابن الأعمي لأبيه قتلت أباك قابيل ، فرفع الأعمي يده ولطم ابنه ، فمـات ، فقال الأعمى : ويل لى قتلت أبي برميتى وقتلت ابنى بلطمتي ، فلما مات قابيل علقت إحدى رجليه بفخذه وعلق بها فهو معلق بها إلى يوم القيامة ، ووجهه إلى الشمس حيث دارت ، وعليه حظيرة من نار فى الصيف ، وحظيرة من ثلج في الشتاء ، فهو يعذب بذلك إلي يوم القيامة . قالوا واتخذ أولاد قابيل آلات اللهو من الطبول والزمور والعيدان والطنابير ؛ وانهمكوا فى اللهو وشرب الخمر وعبادة النار والفواحش ، حتي أغرقهم الله تعالي جميعا بالطوفان فى زمن نوح عليه السلام ، فلم يبق من ذرية قابيل أحد ، وأبقى الله ذرية شيث ونسله إلى يوم القيامة .

قال المصنف رحمه الله تعالى ( ثم حديث هاروت وماروت ) هما اسمان سريانيان للملـكين ، ومنع صرفهما للعجمة والعلمية (كان السبب فى شأنهما الشهوة ) . اعـلم أن المفسرين ذكروا لهذين الملـكين قصة عظيمة طويلة . حاصلها أن الملائـكة لما اعترضوا بقولهم « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » ومدحوا أنفسهم بقولهم « ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » أراهم الله تعالى ما يدفع دعواهم ، فركب فى هاروت وماروت منهم شهوة وأنزلهما حاكمين فى الأرض فافتتنا بالزهرة مثلت لهما من أجمل النساء ، فلما وقعا بها خيرا بين عذابى الدنيا والآخرة فاختارا عذاب الدنيا ، فهما يعذبان إلى يوم القيامة ، ونازع جماعة فى أصل ثبوت هذه القصة وليس كما زعموا لورود الحديث بل صحته بها ، وسيأتى لفظه . ومن جملته أنها لما مثلت لهما وراوداها عن نفسها أمرتهما بالشرك فامتنعا ، ثم بالقتل فامتنعا ، ثم بشرب الخمر فشرباها ، ثم وقعا بها وقتلا ، ثم أخبرتهما بما فعلاه نخيرا كما ذكروا ، ومن المنازعين الفخر قال : هذه القصة رواية فاسدة مردودة ليس فى كتاب الله ما يدل عليها ، بل فيه ما يبطلها من وجوه :

[ الأول ] عصمة الملائـكة من كل ذنب . ويجاب بأن محل العصمة ماداموا بوصف الملائكة ، أما إذا انتقلوا إلى وصف الإنسان فلا ، على أنه يعلم الحديث المذ كور أن ما وقع لهما إنما هو من باب التمثيل لا الحقيقة ، لأن الزهرة تمثلت لهما امرأة وفعلت بهما ما مر دفعا لقولهم « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » كما يأتى ذكر ذلك فى الحديث . [ الثانى ] زعم أنهما خيرا بين العذابين فاسد ، بل كان الأولى أن يخيرا بين التوبة والعذاب

ثُمَّ هَلُمَّ جَرًّا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

---

لأن الله خير بينهما من أشرك طول عمره فهذان أولى . ويجاب بأن ذلك إنما فعل تغليظا للعقوبة عليهما ولا يقاسان بمن أشرك ، لأن الأمور التوقيفية لا مجال للرأى فيها .

[ الثالث ] من أعجب الأمور أنهما يعلمان الناس السحر في حال كونهما يعذبان ويدعوان إليه وهما يعاقبان . ويجاب بأنه لا عجب فى ذلك ، إذ لا مانع أن العذاب يفتر عنهما فى ساعات فيعلمان فيها لأنهما أنزلا فتنة عليهما لما وقع لهما مما ذكروا على الناس لتعلمهم منهما السحر ، كذا أفاده العلامة ابن حجر فى الزواجر في بيان السحر . وقد أفاد أيضا فى بيان شرب الخمر ، أخرج ابن حبان فى صحيحه ، وقيل الصحيح وقفه على كعب عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن آدم لما أهبط إلى الأرض قالت الملائكة : أى رب أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون » قالوا ربنا نحن أطوع لك من بنى آدم . قال الله تعالى للملائكته : هلموا ملكين من الملائكة ، فننظر كيف يعملان ؟ قالوا ربنا هاروت وماروت . قال : اهبطا الى الأرض ، فتمثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر ، فجاآها فسألاها نفسها ، فقالت لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الإشراك قالا : والله لا نشرك بالله أبدا ، فذهبت عنهما ثم رجعت إليهما ومعها صبى تحمله ، فسألاها نفسها ، فقالت لا والله حتى تشربا هذه الخمر فشربا فسكرا فوقعا عليها وقتلا الصبى ، فلما أفاقا قالت المرأة : والله ما تركتما من شيء أبيتما على إلا فعلتماه حين سكرتما ، فخيرا عند ذلك بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا » انتهى . قال ابن عباس : وذلك إذ علما أنه ينقطع فهما ببابل يعذبان . قيل إنهما معلقان بشعورهما إلى قيام الساعة ، وقيل : إنهما منكوسان يضربان بسياط الحديد . وقيل : إن رجلا قصدهما ليتعلم السحر ، فوجدهما معلقين بأرجلهما مزرقة عيونهما مسودة جلودهما ، ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلا قدر أربع أصابع ، وهما يعذبان بالعطش ؛ فلما رأى ذلك هاله فقال لا إله إلا الله ، فلما سمعا كلامه قالا لا إله إلا الله ، من أنت ؟ قال رجل من الناس ، فقالا من أى أمة أنت ؟ قال من أمة محمد صلى الله عليه وسلم قالا : أوقد بعث محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال نعم ، فقالا الحمد لله وأظهرا الاستبشار ، فقال الرجل مم استبشاركما ؟ قال إنه نبى الساعة وقد دنا انقضاء عذابنا ( ثم هلم جرا إلى يوم القيامة ) هو منصوب على المفعول المطلق محذوف العامل . أى جر جرا ، أو على الحال بتأويل الصفة : أى هلم جرا ، وهلم كلمة بمعنى الدعاء إلى الشيء كتعال فتكون لازمة ، وقد تستعمل متعدية ، نحو « هلم شهداءكم » : أى أحضروهم ، وهى مركبة عند البصريين من هاء التنبيه ومن لم ، كأن المنادى أراد لم نفسك إلينا : أي ضم نفسك إلينا أو قرب ، وحذفت الألف من الهاء تخفيفا لكثرة الاستعمال ، وعند الكوفيين من هل أم : أى اقصد ، فنقلت حركة الهمزة إلى اللام ، وسقطت ، وليس ببعيد أن يكون أصلها هلم بمعنى هنا ثم تصرفوا فيها . وهي عند الحجازيين من

وَلاَ تَجِدُ فى الْخَلْقِ فِتْنَةً وَلاَ فَضِيحَةً وَلاَ ضَلاَلاً وَلاَ مَعْصِيَةً إِلاَّ وَأَصْلُهَا النَّفْسُ وَهَوَاهَا وَإِلاَّ كَانَ الْخَلْقُ فى سَلاَمَةٍ وَخَيْرٍ ، وَإِذَا كَانَ عَدُوٌّ بِهٰذَا الضَّرَرِ كُلِّهِ فَحَقٌّ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَهْتَمَّ بِأَمْرِهِ ، وَاللهُ تَعَالَى وَلِيُّ الْهِدَايَةِ وَالتَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا الْحِيلَةُ إِذًا لَنَا فى هٰذَا الْعَدُوِّ وَمَا التَّدْبِيرُ فى أَمْرِهِ فَبَيِّنْ لَنَا ذٰلِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّا ذَكَرْنَا فِيمَا تَقَدَّمَ أَنَّ أَمْرَهَا عَسِيرٌ صَعْبٌ إِذْ لاَ يُمْكِنُ قَهْرُهَا بِمَرَّةٍ كَسَائِرِ الْأَعْدَاءِ إِذْ هِيَ الْمَطِيَّةُ وَالْآلَةُ . وَقِيلَ إِنَّ أَعْرَابِيًّا دَعَا لِإِنْسَانٍ بِخَيْرٍ، فَقَالَ : كَبَتَ اللهُ تَعَالَى كُلَّ عَدُوٍّ لَكَ إِلاَّ نَفْسَكَ، وَلاَ يُمْكِنُ إِهْمَالُهَا بِمَرَّةٍ لِمَكَانِ ضَرَرِهَا فَتَحْتَاجُ إِلَى طَرِيقٍ بَيْنَ الطَّرِيقَيْنِ ،

---

أسماء الأفعال يستوى فيها الواحد والجمع والتذكير والتأنيث . ومنه فى سورة الأحزاب « والقائلين لإخوانهم هلم إلينا » . وتميم تجريها مجرى رد على أنها فعل أمر ، وأهل نجد يصرفونها : أى يستعملون منها غير الأمر لأنهم يجعلونها فعلا ويلحقونها الضمائر ، فيقولون فى المثنى هلما ؟ وفى المؤنث هلمى . وفى الجمع الذكور هلموا ، وللنساء هلممن ، وعليه أكثر العرب والأول أفصح ، فلا تجد فى الخلق فتنة ولا فضيحة ولا ضلالا ولا معصية إلا وأصلها النفس وهواها : أى النفس . ولما كان الهوى سببا للهلاك أجمع على ذمه العارفون ؟ ووردت بذمه الآيات والأحاديث لأنه ينتج من الأخلاق قبائحها ، ويظهر من الأفعال فضائحها ، ويجعل ستر المروءة مهتوكا ، ومدخل الشر مسلوكا . وقال ابن عباس : الهوى إله يعبد من دون الله وتلا قوله تعالى « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » الآية . وقال الشعبي : إنما سمى هوى لأنه يهوى بصاحبه إلى النار . وبالجملة فالهوى أصل كل بلية . والخلاص منه عسر جدا إلا بتوفيق من الله تعالى (وإلا) أى إن لم توجد النفس والهوى (كان الخلق فى سلامة) من المعاصى ( وخير ، وإذا كان عدو ) متلبسا ( بهذا الضرر كله فحق ) أى وجب ( للعاقل أن يهتم ) ويجتهد ( بأمره ) أى العاقل ليكون فى سلامة ونيل خير فى الدنيا والآخرة ( والله تعالى ولى الهداية والتوفيق بفضله ) وجوده وكرمه ( فإن قلت ) لى ( فما الحيلة إذا ) أى إذا كان العدو بهذا الضرر ( لنا فى ) قهر ( هذا العدو ) أى النفس الأمارة بالسوء ( وما التدبير ) أى النظر ( فى أمره ) أى هذا العدو ( فبين ) أنت ( لنا ذلك ) الحيلة والتدبير فما ذكر ( فاعلم ) هداك الله (أنا ) قد ( ذكرنا فيما تقدم ) أى فى عقبة العوائق (أن أمرها ) أى النفس ( عسير صعب ) مرادف لما قبله ( إذ لا يمكن قهرها ) ودفعها ( بمرة كسائر الأعداء إذ هى المطية ) أى المركب ( والآلة ) ولا مطمع فى موافقتها ( وقيل إن أعرابيا ) أى رجلا من سكان البادية ( دعا لإنسان بخير فقال ) أى ذلك الأعرابى ( كبت ) أى أذل ( الله تعالى كل عدو لك إلا نفسك ، ولا يمكن إهمالها ) أى تركها ( بمرة لمكان ضررها فتحتاج ) أنت ( إلى طريق بين الطريقين ) :

تُرَبِّيهَا وَتُقَوِّيهَا بِقَدْرِ مَا تَحْتَمِلُ فِعْلَ كُلِّ خَيْرٍ وَتُضْعِفُهَا وَتَحْبِسُهَا عَلَى حَدٍّ لَا تَتَمَادَى فَأَنْتَ مِنْ أَمْرِهَا فِي عِلَاجٍ شَدِيدٍ وَنَظَرٍ لَطِيفٍ .

ثُمَّ قَدْ ذَكَرْنَا فِي أَمْرِهَا أَنْ تُلْجِمَهَا بِلِجَامِ التَّقْوَى وَالْوَرَعِ لِتَحْصُلَ الْفَائِدَتَيْنِ جَمِيعاً .

فَإِنْ قُلْتَ : إِنَّ هٰذِهِ دَابَّةٌ جَمُوحٌ وَبَهِيمَةٌ صَعْبَةٌ شَكِسَةٌ لَا تَنْقَادُ لِلِّجَامِ ، فَمَا الْحِيلَةُ فِيهَا حَتَّى تُمَكِّنَنَا مِنْهَا ؟ فَاعْلَمْ أَنَّكَ فِيهَا صَادِقٌ ، وَالْحِيلَةُ تَذْلِيلُهَا حَتَّى تَنْقَادَ لِلِّجَامِ .

قَالَ عُلَمَاؤُنَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ : إِنَّمَا يُذَلِّلُ النَّفْسَ وَيَكْسِرُ هَوَاهَا ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ : أَحَدُهَا : مَنْعُ الشَّهَوَاتِ فَإِنَّ الدَّابَّةَ الْحَرُونَ تَلِينُ إِذَا نُقِصَ مِنْ عَلَفِهَا ، وَالثَّانِي حَمْلُ أَثْقَالِ

---

الأول ( تربيها ) أي النفس وتعهدها ( وتقويها بقدر ما تحتمل ) أي تلك النفس ( فعل كل خير و ) الثاني ( تضعفها وتحبسها ) بفتح التاء وكسر الباء من باب ضرب ( على حد لا يتمادى ) أي لايتطاول ؛ وفي نسخة : لاتتمادى بالتاء في أوله : أي لاتتجاوز النفس عن الحد ( فأنت من أمرها في علاج شديد ونظر لطيف ) أي فكر دقيق ( ثم ) إنا ( قد ذكرنا في أمرها ) أي النفس في عقبة العوائق ( أن تلجمها ) أي تقيدها ( بلجام التقوى والورع ) وهو ترك الشبهات ، والتقوى والورع أسام اشتقت من معان شرطها الخوف فإن خلا عن الخوف لم يسم بهذه الأسامي ( لتحصل الفائدتين ) السابقتين هناك وهما استعمالها في المصالح والمراشد ومنعها من المهالك والمفاسد ( جميعا . فإن قلت ) لي ( إن هذه ) النفس الأمارة بالسوء ( دابة ) أي بمنزلتها ( جموح ) أي غير منقادة لراكبها . وفي المصباح : جمح الفرس براكبه يجمح بفتحتين جماحا بالكسر وجموحا : استعصى حتى غلبه ، فهو جموح بالفتح ، وجامح يستوي فيه الذكر والأنثى ( وبهيمة صعبة شكسة ) أي سيئة الخلق ، يقال شكس شكسا وشكسة فهو شكس ، مثل شرس شراسة من باب تعب فهو شرس وزنا ومعنى . والسراسة بالفتح : سوء الخلق كما أفاده المصباح (لاتنقاد) أي لاتطيع ( للجام فما الحيلة فيها ) أي الدابة الجموح التي هي النفس ( حتى تمكننا ) أي تلك الحيلة ( منها فاعلم أنك فيها ) أي في وصف النفس بأنها مثل الدابة الجموح والبهيمة الصعبة (صادق) غير كاذب ( و ) أما ( الحيلة) فهو ( تذليلها ) وكسر هواها (حتى تنقاد) أي النفس ( للجام . قال علماؤنا رضي الله عنهم) في بيان مايذلل النفس ويكسر هواها ( إنما يذلل النفس ويكسر هواها ثلاثة أشياء: أحدها منع الشهوات )أي مشتهياتها ( فإن الدابة الحرون ) بوزن الرسول : أي التي لاتنقاد ، وفي المختار : فرس حرون لاينقاد وإذا اشتد به الجري وقف ، وقد حرن من باب دخل وحرن بالضم صارحرونا والاسم الحران (تلين) وتضعف ( إذا نقص ) بالبناء للمفعول (من علفها ) بفتحتين : أي معلوفها ( والثاني حمل أثقاله

العِبَادَاتِ عَلَيْهَا ، فَإِنَّ الْحِمَارَ إِذَا زِيدَ فِى حَمْلِهِ مَعَ النُّقْصَانِ مِنْ عَلَفِهِ تَذَلَّلَ وَانْقَادَ . وَالثَّالِثُ : الِاسْتِعَانَةُ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالتَّضَرُّعُ إِلَيْهِ بِأَنْ يُعِينَكَ ، وَإِلَّا فَلَا مَخْلَصَ ، أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ( إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّى ) فَإِذَا وَاظَبْتَ عَلَى هٰذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ انْقَادَتْ لَكَ النَّفْسُ الْجَمُوحُ بِإِذْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَحِينَئِذٍ تُبَادِرُ إِلَى أَنْ تَمْلِكَهَا وَتُلْجِمَهَا وَتَأْمَنَ مِنْ شَرِّهَا .

فَإِنْ قُلْتَ : فَبَيِّنْ لَنَا الْآنَ مَا هُوَ التَّقْوَى حَتَّى نَعْلَمَهُ ؟ فَاعْلَمْ أَوَّلًا أَنَّ التَّقْوَى كَنْزٌ عَزِيزٌ ، فَلَئِنْ ظَفِرْتَ

---

العبادات عليها ) أى النفس ( فإن الحمار إذا زيد فى حمله مع النقصان من علفه ) أى الحمار ( تذلل وانقاد . والثالث الاستعانة بالله عز وجل والتضرع إليه ) تعالى ( بأن يعينك ) على قهر النفس وكسر هواها ( وإلا ) أى إن لم تطلب الإعانة بالله والتضرع إليه ( فلا مخلص ) أى لاخلوص ولا سلامة من مكايد النفس وبوائقها ( أما تسمع قول يوسف )النبى ( عليه) الصلاة و (السلام ) «وما أبرئ نفسى» ( إن النفس لأمارة بالسوء ) من حيث إنها بالطبع مائلة إلى الشهوات فتهم بها وتستعمل القوى والجوارح فى أثرها كل الأوقات ، كذا ذكره البيضاوى . والسوء : لفظ جامع لكل مايهم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية . والسيئة : الفعلة القبيحة ( إلا مارحم ربى ) أى إلا وقت رحمة ربى أو إلا مارحمه الله من النفوس فعصمه من ذلك . وقيل : الاستثناء منقطع أى ولكن رحمة ربى هى التى تصرف الإساءة كما فى البيضاوى . وقال ابن عباس : معناه إلا من عصم ربى فتكون ما بمعنى من ، فهو كقوله « ما طاب لكم من النساء » يعنى من طاب لكم وعلى هذا المنقطع معناه : لكن من رحم ربى فعصمه من متابعة النفس الأمارة بالسوء ( فإذا واظبت ) أى لزمت ( على هذه الأمور الثلاثة انقادت لك النفس الجموح بإذن اللهعز وجل )وإرادته ( فحينئذ ) أى حين إذ تنقاد لك النفس ( تبادر ) أى تسرع ( إلىأن تملكها ) وتمسكها (وتلجمها) بضم التاء وكسر الجيم : أى تقيد النفس باللجام ( و ) مبادرتك بذلك إلى أن ( تأمن من شرها . فإن قلت فبين ) وفصل ( لنا الآن ) أى فى هذا الموضع ( ماهو التقوى ) أى أى شئ يسمي بها ( حتي نعلمه ) أى المسمى بالتقوى ( فاعلم أولا أن التقوى ) معنى جامع للعبادة ينتظم هذا المعنى فى قوله تعالى « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » حتى أن العاقبة صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها كما صار الحمد مخصوصا بالله تعالى والصلاة مخصوصة برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين والصلاة على سيدنا محمد وآله أجمعين ، وقد خصص الله تعالى التقوى بالإضافة إلى نفسه فقال « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » وبالجملة إن التقوى ( كنز عزيز ، فلئن ظفرت ) بكسر الفاء

بِهِ فَكَمْ تَجِدُ فِيهِ مِنْ جَوْهَرٍ شَرِيفٍ ، وَعِلْقٍ نَفِيسٍ ، وَخَيْرٍ كَثِيرٍ وَرِزْقٍ كَرِيمٍ وَفَوْزٍ كَبِيرٍ وَغُنْمٍ جَسِيمٍ وَمُلْكٍ عَظِيمٍ ، فَكَأَنَّ خَيْرَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ جُمِعَتْ فَجُعِلَتْ تَحْتَ هٰذِهِ الْخَصْلَةِ الْوَاحِدَةِ الَّتِي هِيَ التَّقْوَى . وَتَأَمَّلْ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ ذِكْرِهَا ، فَكَمْ عَلَّقَ بِهَا مِنْ خَيْرٍ ، وَكَمْ وَعَدَ عَلَيْهَا مِنْ أَجْرٍ وَثَوَابٍ ، وَكَمْ أَضَافَ إِلَيْهَا مِنْ سَعَادَةٍ ، وَأَنَا أَعُدُّ لَكَ مِنْ جُمْلَتِهَا اثْنَتَيْ عَشْرَةَ خَصْلَةً : أَوَّلُهَا الْمِدْحَةُ وَالثَّنَاءُ ، قَالَ اللّٰهُ تَعَالَى : ( وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ) . وَالثَّانِي الْحِفْظُ وَالْحِرَاسَةُ مِنَ الْأَعْدَاءِ ، قَالَ اللّٰهُ تَعَالَى : ( وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ) . وَالثَّالِثُ التَّأْيِيدُ وَالنُّصْرَةُ ، قَالَ اللّٰهُ تَعَالَى : ( إِنَّ اللّٰهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ) وَقَالَ تَعَالَى : ( وَاللّٰهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ )

---

من باب طرب ( به ) أى بالكنز العزيز الذى هو مثل التقوى ( فكم ) أى كثيرا ( تجد فيه ) أي الكنز ( من جوهر شريف وعلق نفيس ) والعلق بالكسر: النفيس من كل شئ ، وأيضا الثوب الكريم والترس والسيف ، كذا فى سراج السالكين ؛ وعلى هذا فوصفه بالنفيس فى كلام المصنف للتأكيد ( وخير كثير ورزق كريم وفوز كبير وغنم ) فى الكليات: كلّ شيء مظفور به فإنه يسمى غنما بالضمّ ومغنم وغنيمة ( جسيم ) أى عظيم ( وملك ) بضمّ الميم وسكون اللام ( عظيم ، فكأن خيرات الدنيا والآخرة جمعت فجعلت تحت هذه الخصلة الواحدة التي هى التقوى ، وتأمل ما في القرآن من ذكرها ) فى أكثر من سبعين موضعا (فكم علق) سبحانه وتعالي ( بها من خير وكم وعد عليها من أجر وثواب ) عطف تفسير ( وكم أضاف ) أى نسب ( إليها ) أى التقوى ( من سعادة ) عظيمة ( وأنا أعد ) أى أحسب ( لك من جملتها اثنتى عشرة خصلة : أوّلها المدحة ) بالكسر الثناء الحسن ( والثناء ) الجميل ( قال الله تعالى : وإن تصبروا ) على ذلك : أى ما ذكر من قوله تعالى « لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا » ( وتتقوا ) الله ( فان ذلك ) أى المذكور من الأمرين : الصبر والتقوى ( من عزم الأمور ) أى من معزوماتها التى يجب العزم عليها . (و) الأمر ( الثانى الحفظ والحراسة من الأعداء قال الله تعالى : وإن تصبروا ) على أذاهم ( وتتقوا ) الله فى موالاتهم وغيرها ( لا يضركم ) بكسر الضاد وسكون الراء من ضار يضير وتضمّ الضاد والراء من ضرّ يضرّ ( كيدهم شيئا ) نصب على المصدرية : أي لا يضركم شيئا من الضرر بفضل الله وحفظه ( و ) الأمر ( الثالث التأييد والنصرة . قال الله تعالى : إن الله مع الذين اتقوا ) الكفر والمعاصى ( والذين هم محسنون ) بالطاعة والصبر ؛ وقوله : بالعون والنصر متعلق بقوله مع الذين ( وقال تعالى : والله ولى المتقين ) أى المؤمنين .

وَالرَّابِعُ النَّجَاةُ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالرِّزْقُ مِنَ الْحَلَالِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) . وَالْخَامِسُ إِصْلَاحُ الْعَمَلِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ) . وَالسَّادِسُ : غُفْرَانُ الذُّنُوبِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) . وَالسَّابِعُ مَحَبَّةُ اللَّهِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) وَالثَّامِنُ الْقَبُولُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) . وَالتَّاسِعُ الْإِعْزَازُ وَالْإِكْرَامُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) وَالْعَاشِرُ : الْبِشَارَةُ عِنْدَ الْمَوْتِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) .

---

( و ) الأمر (الرابع النجاة من الشدائد) والأهوال (والرزق) بالرفع عطف على النجاة (من الحلال قال الله تعالى: ومن يتق الله يجعل له مخرجا) من كرب الدنيا والآخرة (ويرزقه من حيث لا يحتسب) يخطر بباله . (والخامس إصلاح العمل، قال الله تعالى: ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا) صوابا ( يصلح لكم أعمالكم ) أى يتقبلها ، أو يوفقكم للأعمال الصالحة ، وآخر الآية « ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » أى نال غاية مطلوبه . ( والسادس غفران الذنوب، قال الله تعالى: ويغفر لكم ذنوبكم. والسابع محبة الله قال الله تعالى : إن الله يحب المتقين ) بإتمام العهود ( والثامن القبول ) للأعمال ( قال الله تعالى: إنما يتقبل الله من المتقين ) يعني أن حصول التقوى شرط فى قبول الأعمال، أفاده الخازن (والتاسع الإعزاز والإكرام ، قال الله تعالى : إن أكرمكم عند الله أتقاكم . والعاشر البشارة عند الموت . قال الله تعالى ) « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ( الذين آمنوا ) منصوب بإضمار أعنى أو لأنه صفة لأولياء أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف : أى هم الذين آمنوا ، كذا ذكره النسفى فى مدارك التنزيل وحقائق التأويل ( وكانوا يتقون ) أى يتقونه بامتثال أمره واجتناب نهيه ( لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ) . اختلفوا فى هذه البشرى ؛ فروي عن عبادة بن الصامت قال : «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : لهم البشرى فى الحياة الدنيا ؟ قال هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له » أخرجه الترمذي . وله عن رجل من أهل مصر قال «سألت أبا الدرداء عن هذه الآية «لهم البشرى فى الحياة الدنيا » قال : ماسألنى عنها أحد منذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها وقال ما سألنى عنها أحد غيرك منذ أنزلت: هى الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له» وروى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال « لم يبق بعدى من النبوة إلا المبشرات . قالوا وما المبشرات ؟ قال: الرؤيا الصالحة» وروى الشيخان عن أبى هريرة أن رسول

الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب ، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة » هذا لفظ البخاري ، ولمسلم « إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا ، ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزءا من النبوة » والرؤيا ثلاث : الرؤيا الصالحة بشرى من الله ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه .

قال بعض العلماء : ووجه هذا القول أنا إذا حملنا قوله تبارك وتعالى « لهم البشرى » على الرؤيا الصالحة الصادقة ، فظاهر هذا النص يقتضى أن لاتحمل هذه الحالة إلا لهم ، وذلك لأن ولى الله هو الذى يكون مستغرق القلب والروح بذكر الله عز وجل ، ومن كان كذلك فانه عند النوم لا يبقى فى قلبه غير ذكر الله ومعرفته ، ومن المعلوم أن معرفة الله فى القلب لا تفيد إلا الحق والصدق . فإذا رأى الولى رؤيا أو رؤيت له كانت تلك الرؤيا بشرى من الله عز وجل لهذا الولى. قال الخطابى : فى هذه الأحاديث توكيد لأمر الرؤيا وتحقيق منزلتها ، وإنما كانت جزءا من أجزاء النبوة فى حق الأنبياء دون غيرهم ؛ وكان الأنبياء عليهم السلام يوحى إليهم فى منامهم كما يوحى إليهم فى اليقظة . قال الخطابى : قال بعض العلماء : معنى الحديث أن الرؤيا تأتى على موافقة النبوة لا أنها جزء من النبوة . وقال الخطابى وغيره فى معنى قوله « الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة » أقام النبي صلى الله عليه وسلم فى النبوة ثلاثا وعشرين سنة على الصحيح ، وكان قبل ذلك بستة أشهر يرى فى المنام الوحى فهى جزء من ستة وأربعين جزءا . وقيل إن المنام لعل أن يكون فيه إخبار بغيب ، وهو أحد مراتب النبوة ، وهو يسير فى جانب النبوة ، لأنه لا يجوز أن يبعث الله بعد محمد صلى الله عليه وسلم نبيا يشرع الشرائع ويبين الأحكام ولا يخبر بغيب أبدا ، فإذا وقع لأحد فى المنام الإخبار بغيب يكون هذا القدر جزءا من النبوة لا أنه نبى ، وإذا وقع ذلك لأحد فى المنام يكون صدقا ، والله أعلم . وقيل فى تفسير الآية : إن المراد بالبشرى فى الحياة الدنيا هى الثناء الحسن وفى الآخرة الجنة ، ويدل على ذلك ما روى عن أبي ذر قال « قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت الرجل يعمل من الخير ويحمده الناس عليه ؟ قال : تلك عاجل بشرى المؤمن » . أخرجه مسلم . قال الشيخ محي الدين النووى : قال العلماء : معنى هذه البشرى المعجلة له بالخير وهى دليل للبشرى المؤخرة له فى الآخرة بقوله « بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار » وهذه البشرى المعجلة دليل على رضا الله عنه ومحبته له وتحبيبه إلى الخلق كما قال ثم يوضع له القبول فى الأرض هذا كله إذا حمده الناس من غير تعرض منه لحمدهم وإلا فالتعرض مذموم . قال بعض المحققين : إذا اشتغل العبد بالله عز وجل استنار قلبه وامتلأ نورا فيفيض من ذلك النور الذى فى قلبه على وجهه فتظهر عليه آثار الخشوع والخضوع فيحبه الناس ويثنون عليه فتلك عاجل بشراه بمحبة الله له ورضوانه عليه . وقال الزهرى وقتادة فى تفسير البشرى هى نزول الملائكة بالبشارة من الله عند الموت ، ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى « تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » . وقال عطاء عن ابن عباس : البشرى

وَالْحَادِيَ عَشَرَ: النَّجَاةُ مِنَ النَّارِ ، قالَ اللهُ تعالى : ( ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا ) وَقالَ تعالى : (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْـقَى) . وَالثَّانِيَ عَشَرَ : الْخُلُودُ فى الْجَنَّةِ ، قالَ اللهُ تَعَالَى : ( أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ) فَهٰذَا بيَانُ كُلِّ خَيْرٍ وَسَعَادَةٍ فى الدَّارَيْنِ تَحْتَ هٰذِهِ التَّقْوَى ، فَلَا تَنْسَ

---

فى الدنيا عند الموت تأتيهم الملائكة بالبشارة وفى الآخرة بعد خروج نفس المؤمن يعرج بها إلى الله تعالى ويبشر برضوان الله تعالى . وقال الحسن : هى مابشر الله به المؤمنين فى كتابه من جنته وكريم ثوابه . ويدل عليه قوله تعالى « لاتبديل لـكلمات الله » يعنى لاخلف لوعد الله الذى وعد به أولياءه وأهل طاعته فى كتابه وعلى ألسنة رسله ولا تغيير لذلك الوعـد « ذلك هو الفوز العظيم » يعني ماوعدهم به فى الآخرة ، والله أعلم ( والحادى عشر النجاة من النار . قال الله تعالى ثم ننجى ) مشـددا ومخففا ( الذين اتقوا ) الشرك والـكفر من جهنم ( وقال تعالى وسيجنبها ) أى سيبعد عنها ( الأتقى ) بمعنى التقى ( والثاني عشر ) وهذا آخر الخصال التى ذكرها المصنف ( الخلود فى الجنة . قال الله تعالى : أعدت ) أى الجنة ( للمتقين ) الله بعمل الطاعات وترك المعاصى ( فهذا ) المذكور من اثنتى عشرة خصلة ( بيان كل خير وسعادة فى الدارين ) أى الدنيا والآخرة ( تحت هذه التقوي ) وفى الأمر بالتقوى وفضيلته قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » . وقال عليه الصلاة والسلام « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليـكم عبد حبشى » الحديث. وقال عليه الصلاة والسلام «اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة» وكان عليه الصلاة والسلام يقول فى دعائه« اللهم إنى أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى» وقال عليه الصلاة والسلام «لافضل لأبيض على أسود ولا لعربى على عجمى إلا بتقوى الله ، أنتم من آدم وآدم من تراب » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لرجل استوصاه « عليك بتقوي الله فإنه جماع كل خير ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية المسلم ، وعليك بذكر الله فإنه نور لك » . وروى « أن أنسا يقول : قيل يا نبى الله من آل محمد ؟ قال . كل تقي » وقال على كرم الله وجهه « إنه لايهيج على التقوى زرع قوم » ومعنى يهيج : يهلك . وقال الأعمش : من كان رأس ماله التقوى كلت الألسنة عن أن تصف ربحه . وكان سهل بن عبد الله يقول : لامعين إلا الله ، ولا دليل إلا رسول الله ، ولا زاد إلا التقوى ، ولا عمل إلا الصبر عليه . وقال الـكتانى : قسمت البلوي على الدنيا ، وقسمت الآخرة على التقوى . وكان الجريرى يقول : من لم يحكم بينه وبين الله التقوى والمراقبة لم يصل إلى الـكشف والمشاهدة . وكان بشر الحافى ينشد شعرا :

موت التقي حياة لانفاد لها ... قد مات قوم وهم فى الناس أحياء

وفضل التقوى والمتقين أكثر من أن يحصر ، وفيما ذكرناه كفاية للناظر بعين الإنصاف (فلاتنس

نَصِيبَكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ مِنْهَا . ثُمَّ الَّذِي يَخْتَصُّ بِهِ هٰذَا الشَّأْنُ مِنْ أَمْرِ الْعِبَادِ ثَلَاثَةُ أُصُولٍ : أَحَدُهَا التَّوْفِيقُ وَالتَّأْيِيدُ أَوَّلاً ، وَهُوَ لِلْمُتَّقِينَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ( إِنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ) . وَالثَّانِي إِصْلَاحُ الْعَمَلِ وَإِتْمَامُ التَّقْصِيرِ ، وَهُوَ لِلْمُتَّقِينَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ( يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ) . وَالثَّالِثُ : قَبُولُ الْعَمَلِ ، وَهُوَ لِلْمُتَّقِينَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ( إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ) وَمَدَارُ الْعِبَادَةِ عَلَى هٰذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ : التَّوْفِيقُ أَوَّلاً حَتَّى تَعْمَلَ ، ثُمَّ الْإِصْلَاحُ لِلتَّقْصِيرِ حَتَّى يَتِمَّ ، ثُمَّ الْقَبُولُ إِذَا تَمَّ . وَهٰذِهِ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَتَضَرَّعُ فِيهَا الْعَابِدُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَيَسْأَلُونَ فَيَقُولُونَ : رَبَّنَا وَفِّقْنَا لِطَاعَتِكَ وَأَتْمِمْ تَقْصِيرَنَا وَتَقَبَّلْ مِنَّا ، وَقَدْ وَعَدَ اللهُ تَعَالَى ذٰلِكَ كُلَّهُ عَلَى التَّقْوَى وَأَكْرَمَ بِهَا الْمُتَّقِي سَأَلَ أَوْ لَمْ يَسْأَلْ ، فَعَلَيْكَ بِهٰذِهِ التَّقْوَى إِنْ أَرَدْتَ عِبَادَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ بَلْ إِنْ أَرَدْتَ سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَالْعُقْبَى ،

---

نصيبك أيها الرجل منها ) أى التقوى ( ثم الذى يختص به هذا الشأن من أمر العبادة ثلاثة أصول: أحدها التوفيق والتأييد ) والنصرة ( أولا، وهو ) أى التوفيق والتأييد ( للمتقين كما قال الله تعالى: إن الله مع المتقين . والثانى إصلاح العمل وإتمام التقصير وهو للمتقين كما قال الله تعالى : يصلح لكم أعمالكم . والثالث قبول العمل، وهو ) أى القبول ( للمتقين كما قال الله تعالى : إنما يتقبل الله من المتقين ؛ ومدار العبادة ) أى أصلها وملاكها ( على هذه الأمور الثلاثة ) وهى ( التوفيق أولا حتى تعمل، ثم الإصلاح للتقصير ) فى العمل ( حتى يتم ) ذلك العمل ( ثم القبول إذا تم ) أى العمل ( وهـذه الأمور الثلاثة ) هي ( التى يتضرع فيها ) أى الأمور الثلاثة ( العابدون إلى الله تعالى ويسألون فيقولون ) يا ( ربنا وفقنا لطاعتك وأتم تقصيرنا وتقبل منا ) إنك أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين ( وقد وعد الله تعالى ذلك ) أى ما ذكر من الأمور الثلاثة ( كله على التقوى وأكرم ) تعالى ( بها ) أى التقوى ( المتقي ) كما تقدم بيانه ( سأل ) المتقى الإكرام ( أو لم يسأل ) ذلك ( فعليك ) أى الزم وتمسك ( بهذه التقوى إن أردت عبادة الله سبحانه بل إن أردت سعادة الدنيا والعقبى ) أى الآخرة . والحاصل لاينال خير عاجلا ولا آجلا إلا بالتقوى ولايدفع شر عاجلا ولا آجلا ظاهرا ولا باطنا إلا بالتقوى ، وهي وصية رب العالمين للأولين والآخرين . قال تعالى « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » وبما ذكر علم أنها مدار كل سعادة فى الدارين ، ولهذا لاينهدم مابنى عليها على تعاقب الدهر، وخذ بها زادك إلى المعاد قبل أن تندم حيث لاينفع الندم ولا الملام ، وأنشد بعضهم من بحر الطويل :

وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ :

مَنِ اتَّقَى اللهَ فَذَاكَ الَّذِى سِيقَ إِلَيْهِ الْمَتْجَرُ الرَّابِحُ

وَكَتَبَ بَعْضُهُمْ هٰذَا الْبَيْتَ :

لاَ يَتْبَعُ الْمَرْءَ إِلى قَبْرِهِ غَيْرُ التُّقَى وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ

وَقَالَ غَيْرُهُ :

مَنْ عَرَفَ اللهَ فَلَمْ تُغْنِهِ مَعْرِفَةُ اللهِ فَذَاكَ الشَّقِىّ

مَا يَصْنَعُ الْعَبْدُ بِعِزِّ الْغِنَى وَالْعِزُّ كُلُّ الْعِزِّ لِلْمُتَّقِى

مَا ضَرَّ ذَا الطَّاعَةِ مَا نَالَهُ فِى طَاعَةِ اللهِ وَمَاذَا لَقِى

وَكَتَبَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضِ الْقُبُور :

لَيْسَ زَادٌ سِوَى التُّقى فَخُذِى مِنْهُ أَوْ دَعِى

ثُمَّ تَأَمَّلْ أَصْلاً وَاحِداً ، وَهُوَ أَنَّهُ هَبْ

---

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولقيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت على أن لاتكون كمثله وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

( ولقد صدق القائل ) حيث قال شعرا من بحر السريع وهو مستفعلن مستفعلن مفعولات مرتين ( من اتقى الله فذاك الذى * سيق إليه ) أى المتقى ( المتجر ) بفتح الميم وسكون التاء (الرابح) أى التجارة الرابحة : وهى سعادة الدارين ( وكتب بعضهم هذا البيت ) من بحر السريع أيضا ( لايتبع المرء إلى قبره * غير التقى ) أى تقواه ( والعمل الصالح . وقال غيره ) أى غير بعضهم من بحر السريع كما تقدم ( من عرف الله فلم تغنه * معرفة الله فذاك الشقى ) ضد السعيد ( ما ) أى شىء ( يصنع العبد بعز الغنى * والعز كل العز للمتقى . ماضر ) مانافية ( ذا الطاعة ) أى صاحبها ( مانااله * فى طاعة الله وماذا لقى . وكتب بعضهم على بعض القبور ) شعرا من بحر الخفيف المجزوء ( ليس زاد ) ينفع فى الدنيا والآخرة ( سوى التقى ) أى التقوى ( فخذى ) أيتها النفس ( منه ) أى من التقوى، وفى نسخة: فخذ الزاد تكن عزيزا شريفا فى الدارين ( أو دعى ) أى اتركى من ذلك تكن من الخاسرين فيهما ( ثم تأمل ) أيها الرجل المريد لطريق الآخرة ( أصلا واحدا وهو ) أى هذا الأصل ( أنه ) أى الحال والشأن ( هب ) يعنى احسب ، يقال هب زيدا منطلقا : أى احسبه يتعدى إلى مفعولين ولايستعمل منه ماض ولا مستقبل فى هذا المعنى، صرح به فى تاج المصادر

أَنَّكَ قَدْ تَعِبْتَ جَمِيعَ عُمْرِكَ فِى الْعِبَادَةِ وَجَاهَدْتَ وَكَابَدْتَ حَتَّى حَصَلَ لَكَ مَا تَمَنَّيْتَ ، أَلَيْسَ الشَّأْنُ كُلُّهُ فِى الْقَبُولِ ؛ وَلَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : ( إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ) فَرَجَعَ الْأَمْرُ كُلُّهُ إِلى التَّقْوَى . وَلِذٰلِكَ رُوِىَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ : مَا أَعْجَبَ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَعَلَى آلِهِ وسلَّمَ بِشَىْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا أَعْجَبَهُ أَحَدٌ إِلاَّ ذُو تُقًى .

---

وغيره ، ونقله شيخ الإسلام الهروى وعبد الحق وأقراه ( أنك قد تعبت جميع عمرك فى العبادة وجاهدت وكابدت ) أى تحملت المشقة فى العبادة . وفى المختار : كابد الأمر قاسى شدته ( حتى حصل لك ماتمنيت) ورجوت ( أليس الشأن ) المطلوب والمقصود ( كله فى القبول ، ولقد علمت أن الله تعالى يقول «إنما يتقبل الله من المتقين» فرجع الأمر ) أى أمر العبادة ( كله إلي التقوى ) لأنها أساس كل الخيرات ( ولذلك ) أى إرجاع الأمور كلها إلى التقوى . ( روي عن ) أم المؤمنين ( عائشة ) الصديقية بنت الصديق الحبيبة بنت الحبيب ( رضى الله عنها ) تزوجها صلى الله عليه وسلم بمكة ، وهي بنت ست بعد تزوجه بسودة بشهر وقبل الهجرة بسنة ودخل بها فى المدينة فى شوال منصرفه من بدر سنة اثنتين من الهجرة ، وهى بنت تسع سنين ، وتوفى صلى الله عليه وسلم وهى بنت ثمانية عشرة سنة ، وعاشت بعده أربعين سنة فإنها توفيت وسنها سبع أو ثمان وخمسون لثلاث عشرة بقيت من رمضان بعد الوتر ، وصلى عليها أبو هريرة لإمارته على المدينة حينئذ من قبل مروان روى لها ألف حديث ومائتان وعشرة وقيل ألف وعشرة اتفق البخارى ومسلم منها علي مائة وأربعة وسبعين وانفرد البخارى بأربعة وسبعين ومسلم بثمانية وستين ، كذا فى شرح الأربعين ( أنها قالت : ما أعجب ) أى ما أفرح ( رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بشئ ) وفى رواية شئ ( من الدنيا ولا أعجبه ) أى ولا أفرحه ( أحد إلا ذو تقى ) لله ، هكذا نقله العلامة ابن علوى الحداد ولم يذكر إسناده . قال العلامة ابن حجر . وتقواه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من غضبه تعالى وقاية تقية منه ، وهي امتثال أوامره تعالى واجتناب نواهيه وهذا على حد اتقوا الله : أى غضبه وهو أعظم ما يتقى ، إذ ينشأ عنه عقابه الدنيوى والأخروى ، ويحذركم الله نفسه ، وهو أهل التقوى وأهل المغفرة ، وفسر ذلك صلي الله عليه وسلم فقال « قال الله تعالى أنا أهل أن أتقى ، فمن اتقاني فلم يجعل معى إلها آخر فأنا أهل أن أغفر له » . وقد تضاف التقوى إلى عقابه أو مكانه أو زمانه : أى العقاب . فمثال الأول والثانى نحو « واتقوا النار » . ومثال الثالث « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله » إلى أن قال : ثم حقيقة التقوى متوقفة على العلم ، إذ الجاهل لا يعلم كيف يتقى لا من جانب الأمر ولا من جانب النهى ، وبهذا تظهر فضيلة العلم وتميزه على سائر العبادات والأحوال والمقامات لتوقفها جميعها عليه ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم « ما عبد الله بشىء أفضل من فقه فى دين » وقال « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ويلهمه رشده » . والمراد بالعلم المتوقف عليه

وَعَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ قالَ : مَكْتُوبٌ فى التَّوْرَاةِ : يَا بْنَ آدَمَ اتَّقِ اللهَ وَنَمْ حَيْثُ شِئْتَ . وَبَلَغَنِي عَنْ عامِرِ بْنِ عَبْدِ قَيْسٍ أَنَّهُ بَكَى عِنْدَ مَوْتِهِ ، وَكَانَ يُصَلِّى كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ أَلْفَ رَكْعَةٍ ثُمَّ يَأْتِى إِلى فِرَاشِهِ فَيَقُولُ : يَا مَأْوَى

---

ذلك هو العلم العينى الذى لا رخصة للمكلف فى تركه ، وهو تعلم ما أنت متلبس به ، فنحو الصلاة وشروطها وأركانها والصوم وشروطه وأركانه يتعين على كل مكلف تعلم ظواهرها وما يكثر وقوعه منها ، وكذا الزكاة لمن له مال ، والحج لمن استطاعه . ونحو البيع لمن أراد مباشرته ، والنكاح لمن أراد الدخول فيه ، ومعاشرة الزوجات لمن أراد تزوج امرأة ثانية ، فمن علم ماخوطب به عينا أو أراد التلبس به ثم اجتنب كل منهى وفعل كل مأمور فهو المتقى الكامل الذى لا يزال يتقرب إلى الله تعالى بالنوافل حتى يحبه الحديث ، ومن ثم أخرج ابن حبان وغيره عن أبى ذر « قلت يارسول الله أوصنى قال : أوصيك بتقوى الله فإنها رأس الأمر كله » وعن أبى سعيد الخدرى «قلت يا رسول الله أوصنى قال : أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل شىء » . وفى رواية « عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير » وأخرج الترمذى عن يزيد بن سلمة « أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم قال يا رسول الله إنى سمعت منك حديثا كثيرا فأخاف أن ينسينى أوله آخره، فحدثنى كلمة تكون جماعا ، قال : اتق الله فيما تعلم » ( و ) روى ( عن قتادة ) بن دعامة بكسر الدال المهملة كان تابعيا وكان عالما كبيرا ولد أعمى ، سمع أنس بن مالك وعبد الله بن سرجس وأبا الطفيل وابن المسيب وأبا عثمان النهدى والحسن وابن سيرين وعكرمة وزرارة بن أوفى والشعبى وخلائق غيرهم من التابعين ، وروى عنه جماعة من التابعين : منهم سليمان التيمى ، وحميد الطويل ، والأعمش ، وأيوب وخلائق من تابعى التابعين : منهم المطر الوراق ، وجرير بن حازم ، وشعبة ، والأوزاعى وغيرهم ،وأجمعوا على جلالته وتوثيقه وحفظه وإتقانه وفضله ، توفى سنة سبع عشرة ، وقيل ثمانى عشرة ومائة وهو ابن ست وخمسين سنة . وقيل خمس وخمسين رحمه الله ( أنه قال: مكتوب فى التوراة يا ابن آدم اتق الله ونم) بفتح النون أمر من نام ينام ( حيث شئت ) هكذا ساقه ابن علوى الحداد ولم يذكر إسناده . وروى عن أبى أمامة صدي ابن عجلان الباهلى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب فى حجة الوداع فقال : « اتقوا الله وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأدوا زكاة أموالكم وأطيعوا أمراءكم تدخلوا جنة ربكم » . رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح ، كذا فى رياض الصالحين ( وبلغنى عن عامر بن عبد ) الله بن ( قيس ) هو أبو بردة عامر بن أبى موسى عبد الله ابن قيس الأشعرى من سادات التابعين ، وكان أبوه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم عليه من اليمن فى الأشعريين فأسلموا . وأبو بردة كان قاضيا على الكوفة وله مكارم ومآثر مشهورة. مات سنة أربع ومائة . وقيل غير ذلك ( أنه بكى عند موته ) أى عند إرادته ( وكان ) عامر (يصلى كل يوم وليلة ألف ركعة ثم يأتى ) بعد صلاته ( إلى فراشه فيقول يا مأوى ) أي مرجع

كُلِّ شَرٍّ ، وَاللهِ مَا رَضِيتُكَ لِلهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، وَبَكِى يَوْماً ، فَقِيلَ لَهُ : مَا يُبْكِيكَ ؟ قَالَ قَوْلُهُ تعالى : ( إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَقِينَ ) .

ثُمَّ تَأَمَّلْ نُكْتَةً أُخْرَى ، وَهِيَ أَصْلُ الْأُصُولِ ، وَهِيَ مَا ذَكَرَ أَنَّ بَعْضَ الصَّالِحِينَ قَالَ لِبَعْضِ أَشْيَاخِهِ : أَوْصِنِي بِوَصِيَّةٍ ، فَقَالَ : أُوصِيكَ بِوَصِيَّةِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لِلْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ ) قُلْتُ أَنَا : أَلَيْسَ اللهُ تَعَالَى أَعْلَمَ بِصَلَاحِ الْعَبْدِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ ، أَوْ لَيْسَ هُوَ أَنْصَحَ لَهُ وَأَرْحَمَ وَأَرْأَفَ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ ؟ وَلَوْ كَانَتْ فِى الْعَالَمِ خَصْلَةٌ هِيَ أَصْلَحُ لِلْعَبْدِ وَأَجْمَعُ لِلْخَيْرِ وَأَعْظَمُ لِلْأَجْرِ وَأَجَلُّ فِى الْعُبُودِيَّةِ وَأَعْظَمُ فِى الْقَدْرِ وَأَوْلَى بِالْحَالِ وَأَنْجَحُ فِى الْمَآلِ مِنْ هٰذِهِ الْخَصْلَةِ الَّتِي هِيَ التَّقْوَى لَكَانَ اللهُ تَعَالَى أَمَرَ بِهَا

---

( كل شر والله ) العظيم ( مارضيتك لله ) أى لأجل الله ( طرفة عين. وبكى يوما ) من الأيام ( فقيل ما يبكيك ) أى أىّ شئ يبكيك ؟ ( قال ) عامر أبكانى ( قوله تعالى : إنما يتقبل الله من المتقين ) . قال المصنف رحمه الله ( ثم تأمل نكتة ) أى لطيفة مختارة ( أخرى ) قال شيخ الإسلام الهروى النكتة تجمع على نكت بضم النون وفتح الكاف .وأما النكات بالضم فعلى كون الألف للاشباع مثل الدرهام فى الدرهم والخاتام فى الخاتم كما يستفاد من المغرب وحقائق المنظومة أو على قلب الكسرة ضمة كما قال جدى فى تنظيره فى تفسير قوله تعالى « ومن الناس من يقول » الآية ، فإن النكات بالكسر جمع كقصعة وقصاع وبقعة وبقاع ، صرح به فى المغرب ، وإنما ارتكبنا ذلك لأن فعالا بالضم ليس من أبنية الجمع عند الجمهور والمحققين . لكنه ذكر فى الصحاح أن رخالا بالضم والكسر جمع رخل بكسر الخاء المعجمة : أى الأنثي من ولد الضأن ، والله أعلم ( وهى ) أى تلك النكتة ( أصل الأصول وهى ما ذكر ) من ( أن بعض الصالحين قال لبعض أشياخه أوصنى بوصية فقال ) شيخه ( أوصيك بوصية الله رب العالمين للأولين والآخرين ) وهى ( قوله تعالى : ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ) وهذه الآية قطب القرآن ، لأن مدار القرآن كله على هذا قاله العلامة الزبيدى ( قلت أنا : أليس الله تعالى أعلم بصلاح العبد ) فى دينه ودنياه ( من كل أحد أو ليس هو ) جل وعز ( أنصح ) أى أراد الخير ( وأرحم ) أى أشد رحمة ( وأرأف) أى أشد رأفة من كل أحد بلى هو تعالى أعلم وأنصح وأرحم وأرأف من كل أحد من العالمين ( ولو كانت فى العالم ) أى فى عالم الدنيا ( خصلة هى أصلح للعبد وأجمع للخير وأعظم للأجر والثواب ) ( وأجلّ ) أى أعظم ( فى العبودية وأعظم فى القدر ) أى الرتبة والمنزلة ( وأولى ) أى أفضل ( بالحال وأنجح ) أى أكثر نجاحا وظفراً للمراد ( فى المآل ) أى فى العاقبة ( من هذه الخصلة التى هى التقوى لكان الله تعالي أمر بها ) أى الخصلة التى هى أصلح للعبد من

عِبادَهُ وَأَوْصَى خَوَاصَّهُ بِذٰلِكَ لِكَمَالِ حِكْمَتِهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ ، فَلَمَّا أَوْصَى بِهٰذِهِ الْخَصْلَةِ الْوَاحِدَةِ وَجَمَعَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنْ عِبَادِهِ فِى ذٰلِكَ وَاقْتَصَرَ عَلَيْهَا عَلِمْتَ أَنَّهَا الْغَايَةُ الَّتِي لَا تَجَاوُزَ عَنْهَا وَلَا مَقْصِدَ دُونَهَا ، وَأَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَمَعَ كُلَّ نُصْحٍ وَدَلَالَةٍ وَإِرْشَادٍ وَتَنْبِيهٍ وَتَأْدِيبٍ وَتَعْلِيمٍ وَتَهْذِيبٍ فِى هٰذِهِ الْوَصِيَّةِ الْوَاحِدَةِ كَمَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَعَلِمْتَ أَنَّ هٰذِهِ الْخَصْلَةَ الَّتِي هِيَ التَّقْوَى هِيَ الْجَامِعَةُ لِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، الْكَافِيَةُ لِجَمِيعِ الْمُهِمَّاتِ الْمُبَلِّغَةُ إِلَى أَعْلَى الدَّرَجَاتِ فِى الْعُبُودِيَّةِ ، وَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ :

أَلَا إِنَّمَا التَّقْوَى هِيَ الْعِزُّ وَالْكَرَمْ ۞ وَحُبُّكَ لِلدُّنْيَا هُوَ الذُّلُّ وَالْعَدَمْ
وَلَيْسَ عَلَى عَبْدٍ تَقِيٍّ نَقِيصَةٌ ۞ إِذَا صَحَّحَ التَّقْوَى وَإِنْ حَاكَ أَوْ حَجَمْ

وَهٰذَا أَصْلٌ لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ ، وَفِيهِ كِفَايَةٌ لِمَنْ أَبْصَرَ النُّورَ وَاهْتَدَى وَعَمِلَ بِذٰلِكَ وَاسْتَغْنَى ،

---

هذه التقوى ( عباده وأوصى ) أى أمر ( خواصه ) وأصفياءه ( بذلك ) المذكور من الأصلح والأولى للعبد ( لكمال حكمته ) تعالى (وسعة رحمته، فلما أوصى ) أى أمر الله تعالى ( بهذه الخصلة الواحدة ) التى هي التقوى ( وجمع ) سبحانه وتعالى ( الأولين والآخرين من عباده فى ذلك ) الأمر بالتقوى ( واقتصر ) تعالى ( عليها ) أى التقوى ( علمت أنها الغاية ) الأقصى ( التى لاتجاوز عنها ) أى الغاية ( ولا مقصد ) أى لاقصد ( دونها ) أى غيرها (و) علمت ( أنه عز وجل قد جمع كل نصح ودلالة وإرشاد ) للخيرات ( وتنبيه وتأديب وتعليم ) لعباده ( وتهذيب ) لأخلاقهم ( فى هذه الوصية الواحدة كما يليق بحكمته ) تعالى ( ورحمته ، وعلمت ) أيضا (أن هذه الخصلة التى هي التقوى هي الجامعة لخيري الدنيا والآخرة الكافية ) بالرفع صفة للتقوى ( لجميع المهمات المبلغة ) أى الموصلة ( إلى أعلى الدرجات فى العبودية وقد أحسن من قال ) وهو أبو العتاهية حين حجم شخصا من بحر الطويل ( ألا ) أداة تنبيه ( إنما التقوى هي العز والكرم ) لقوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ( وحبك للدنيا هو الذل والعدم * وليس على عبد تقى ) لربه ( نقيصة * إذا صحح ) أى العبد ( التقوى وإن حاك ) أي نسج ثوبا . وفى لسان العرب : حاك الثوب يحوكه حوكا وحياكا وحياكة نسجه ، ورجل حائك من قوم حاكة وحوكة أيضا، وهو من الشاذ ( أو حجم ) أى المتقى ، وفى المختار: الحجم فعل الحاجم وبابه نصر والاسم الحجامة بالكسر والمحجم والمحجمة قارورته ( وهذا ) أى ماقلنا ( أصل لامزيد عليه ) فى حسنه واختصاره ( وفيه ) أى فى هذا الأصل ( كفاية لمن أبصر النور واهتدى وعمل بذلك ) أى بمقتضى نوره وهدايته ( واستغنى )

وَاللهُ وَلِيُّ الهِدَايَةِ وَالتَّوْفِيقِ بِمَنِّهِ .

فَإِنْ قُلْتَ : لَقَدْ عَظُمَ قَدْرُ هٰذِهِ الخَصْلَةِ وَجَلَّ مَوْقِعُهَا وَاشْتَدَّتِ الحَاجَةُ إِلى مَعْرِفَتِهَا ، فَلاَ بُدَّ الآنَ مِنْ تَفْصِيلِهَا . فَاعْلَمْ أَنَّ الأَمْرَ كَذٰلِكَ ، فَحَقَّ لَهَا أَنْ يَجِلَّ قَدْرُهَا وَيَلْزَمَ طَلَبُهَا وَتَمَسَّ الحَاجَةُ إِلَى مَعْرِفَتِهَا ، وَلٰكِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ خَطِيرٍ وَكَبِيرٍ يَحْتَاجُ فِى اجْتِلاَبِهِ إِلى طَلَبٍ كَثِيرٍ وَتَعَبٍ كَبِيرٍ وَهِمَّةٍ عَالِيَةٍ وَجُهْدٍ شَدِيدٍ ، فَإِذًا كَمَا أَنَّ هٰذِهِ الخَصْلَةَ خَصْلَةٌ عَظِيمَةٌ كَبِيرَةٌ ، فَإِنَّ المُجَاهَدَةَ فِى طَلَبِهَا وَالقِيَامَ بِحَقِّهَا وَالعِنَايَةَ فِى تَحْصِيلِهَا أَيْضًا لِفِعْلٌ كَبِيرٌ وَشَأْنٌ عَظِيمٌ ، فَإِنَّ المَكَارِمَ عَلَى حَسَبِ المَكَارِهِ ، وَإِنَّ اللَّذَّاتِ عَلَى حَسَبِ المُؤْنَاتِ ، وَاللهُ تَعالى يَقُولُ : ( وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ ) وَهُوَ الرَّءوفُ الَّذِى بِيَدِهِ تَيْسِيرُ كُلِّ عَسِيرٍ ، فَاسْتَمِعْ وَتَنَبَّهْ وَتَفَهَّمْ جِدًّا بَيَانَ هٰذِهِ الخَصْلَةِ حَتَّى تَعْلَمَهَا ، ثُمَّ تَشَمَّرْ لِلْقِيَامِ بِهَا وَاسْتَعِنْ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ

---

أى اكتفى به ( والله ولى الهداية والتوفيق بمنه ) تعالى وكرمه . ( فإن قلت : لقد عظم قدر ) أى رتبة ( هذه الخصلة ) التى هى التقوى ( وجلّ ) أى عظم ( موقها ) أى تلك الخصلة فى القلوب ( واشتدت الحاجة إلى معرفتها فلا بد ) أى لاغنى ( الآن ) أى فى شدة الاحتياج إلي معرفة ذلك ( من تفصيلها ) وبيانها ( فاعلم أن الأمر كذلك ) أى لا بد من التفصيل ( فحق ) أى وجب وثبت ( لها ) أى لهذه الخصلة ( أن يجل قدرها ) أى يعظم رتبتها ومنزلتها ( ويلزم طلبها ) علي سالكى طريق الآخرة ( وتمس الحاجة إلى معرفتها ولـكنك تعلم ) يقينا ( أن كل خطير ) أى عظيم وشريف ( وكبير يحتاج فى اجتلابه ) أى إتيان كل خطير ونيله ( إلى طلب كثير وتعب كبير وهمة عالية وجهد شديد ) واجتهاد بالغ ( فإذا ) أى إن كان الأمر الخطير يحتاج فى تحصيله إلى مثل الطلب الكثير والتعب الكبير فـ( كـ ) لذلك (ما) هنا ، وهو ( أن هذه الخصلة ) وهى التقوى ( خصلة عظيمة كبيرة ؛ فإن المجاهدة فى طلبها و ) إن ( القيام بحقها والعناية ) أى القصد والاهتمام ( فى تحصيلها أيضا ) أى كـكل أمر خطير ( لفعل كبير وشأن عظيم ، فان المكارم ) والمحامد ( على حسب ) بفتح السين : أى على قدر وعدد المشاق و ( المكاره ) أى ماتكرهه النفوس ( وإن اللذات على حسب المؤنات ) جمع مؤنة ، بمعنى الثقل والشدة والتعب ( والله تعالى يقول: والذين جاهدوا فينا ) أى فى حقنا ( لنهدينهم سبلنا ) أى طرق السير إلينا والوصول إلى مرضاتنا ( وإن الله لمع المحسنين ) أى المؤمنين بالنصر والعون ( وهو الرءوف ) الرحيم ( الذى بيده ) أى بقدرته ( تيسير كل عسير فاستمع ) بأذنك سماع قبول ( وتنبه وتفهم ) بقلبك بتدبر وتأمل ( جدا بيان هـذه الخصلة ) المذكورة ( حتي تعلمها ثم تشمر ) أى تهيأ واجتهد ( للقيام بها ) أى الخصلة ( واستعن بالله عز وجل

حَتّى تَعْمَلَ بِمَا تَعْلَمُ ، فَإنّ الشَّأْنَ كُلَّهُ فى ذٰلِكَ ، وَاللّهُ وَلِىُّ التَّوْفِيقِ وَالْهِدَايَةِ بِفَضْلِهِ .

فَنَقُولُ : اُعْلَمْ أَوَّلاً بَارَكَ اللّهُ فى دِينِكَ ، وَزَادَ فى يَقِينِكَ : أَنّ التَّقْوَى فى قَوْلِ شُيُوخِنا رَحِمَهُمُ اللّهُ هُوَ تَنْزِيهُ الْقَلْبِ عَنْ ذَنْبٍ لَمْ يَسْبِقْ عَنْكَ مِثْلُهُ حَتّى تَحْصُلَ لَكَ مِنْ قُوَّةِ الْعَزْمِ عَلَى تَرْكِها وِقايَةٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمَعَاصِى ، هٰكَذَا قالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللّهُ .

---

حتي تعمل بما تعلم ، فإن الشأن ) أى شأن العبادة ( كله فى ذلك ) المذكور من الخصلة التى هى التقوى ( والله ولى التوفيق والهداية بفضله ) وإحسانه ( فنقول : اعلم أولا بارك الله فى دينك وزاد فى يقينك ) جملة دعائية ( أن التقوى ) معمول اعلم ( فى قول شيوخنا ) من الطائفة الصوفية ( رحمهم الله هو تنزيه القلب ) وتطهيره ( عن ذنب لم يسبق ) بكسر الباء من باب ضرب ( عنك مثله ) أى الذنب ( حتي تحصل لك من قوة العزم على تركها ) أى الذنوب ( وقاية ) بالرفع فاعل تحصل : أى صيانة ( بينك وبين المعاصى هكذا ) أى مثل ماقالوا ( قال شيخنا ) أبو بكر الوراق ( رحمه الله ) . وقال النصراباذى : التقوى أن يتقى العبد ماسواه تعالي . وقال سهل : من أراد أن تصح له التقوى فليترك الذنوب كلها ، وقال أبو عبد الله الروذبارى : التقوى مجانبة مايبعدك عن الله . وقال ذو النون المصرى : التقى من لايدنس ظاهره بالمعارضات ولا باطنه بالعلالات ، ويكون واقفا مع الله موقف الاتفاق . وكان ابن عطاء يقول : للتقوى ظاهر وباطن ، فظاهره محافظة الحدود ، وباطنه النية والإخلاص . وقال ذو النون :

فلا عيش إلا مع رجال قلوبهم ... تحن إلي التقوى وترتاح إلى الذكر
سكون إلى روح اليقين وطيبه ... كما سكن الطفل الرضيع إلى الحجر

وقيل يستدل على تقوى الرجل بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر على ماقد فات . وقال طلق بن حبيب : التقوى عمل بطاعة الله على نور من الله مخافة عقاب الله . وقال على بن أحمد الجيزى : التقوى لغة اجتناب الشخص مايضره فى دينه ودنياه . وفى اصطلاح الشرع : امتثال الأوامر واجتناب النواهى ، وقد تخص باجتناب الشبهات . انتهي ، وتكاليف الشرع لاتخرج عن ذلك كما قاله بعض المحققين . وقال أبو حفص : التقوى بالحلال المحض لاغير . وقال الواسطى : التقوى أن يتقى من تقواه يعنى من رؤية تقواه ، والمتقى مثل ابن سيرين اشترى أربعين نحيا سمنا فأخرج غلامه فأرة من نحى ، فسأله من أى نحي أخرجتها ؟ فقال لا أدرى فصبها كلها ، ومثل أبي يزيد اشترى بهمذان حب القرطم ففضل منه شىء ، فلما رجع إلى بسطام رأى فيه نملتين ، فرجع إلى همذان فوضع النملتين .

ويحكي أن أبا حنيفة كان لايجلس فى ظل شجرة غريمه ، ويقول فى الخبر « كل قرض جر نفعا فهو ربا » وقيل : إن أبا يزيد غسل ثوبه فى الصحراء مع صاحب له ، فقال صاحبه نعلق الثوب فى جدار الكرم ؟ فقال لا ، لاتغرز الوتد فى جدار الناس ، فقال نعلقه فى الشجر ؟ فقال لا ،

وَذٰلِكَ أَنَّ أَصْلَ لَفْظَةِ التَّقْوَى فى اللُّغَةِ هُوَ الْوَقْوَى بِالْوَاوِ ، وَهُوَ مَصْدَرُ الْوِقَايَةِ ، يُقَالُ وَقَى يَقِي وِقَايَةً وَوَقْوَى فَأُبْدِلَتْ عَنِ الْوَاوِ تاءٌ كَمَا هُوَ فى الْوُكْلَانِ وَالتُّكْلَانِ وَنَحْوِهِمَا فَقِيلَ تَقْوَى ، فَإِذًا لَمَّا حَصَلَتْ وِقَايَةٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْمَعَاصِي مِنْ قُوَّةِ عَزْمِهِ عَلَى تَرْكِهَا وَتَوْطِينِ قَلْبِهِ عَلَى ذٰلِكَ فَيُوصَفُ حِينَئِذٍ بِأَنَّهُ مُتَّقٍ ،

---

إنه يكسر الأغصان ، فقال نبسطه على الإذخر ؟ فقال لا ، إنه علف الدواب لانستره عنها ، فولى ظهره إلي الشمس والقميص على ظهره حتى جفّ جانب ، ثم قلبه حتى جف الجانب الآخر . وقيل إن أبا يزيد دخل يوما الجامع فغرز عصاه فى الأرض فسقطت ووقعت على عصا شيخ بجنبه ركز عصاه فى الأرض فألقتها فانحنى الشيخ وأخذ عصاه فمضى أبو يزيد الى بيت الشيخ واستحله وقال كان السبب فى انحنائك تفريطي فى غرز عصاي حيث احتجت إلى أن تنحنى . وروئى عتبة الغلام بمكان يتصبب عرقا فى الشتاء ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال إنه مكان عصيت الله فيه ، فسئل عنه فقال كشطت من هذا الجدار قطعة طين غسل بها ضيف لى يده ولم أستحلّ من صاحبه . وقال إبراهيم بن أدهم : بت ليله تحت الصخرة ببيت المقدس ، فلما كان بعض الليل نزل ملكان ، فقال أحدهما لصاحبه من ههنا ؟ فقال الآخر إبراهيم بن أدهم ، فقال ذاك الذى حط الله درجة من درجاته ، فقال لم ؟ قال لأنه اشترى بالبصرة التمر فوقعت تمرة على تمره من تمر البقال فلم يردها على صاحبها . قال إبراهيم فمضيت إلى البصرة واشتريت التمر من ذلك الرجل وأوقعت تمرة على تمره ورجعت إلى بيت المقدس وبت فى الصخرة ؛ فلما كان بعض الليل إذا أنا بملكين نزلا من السماء ، فقال أحدهما لصاحبه من ههنا ؟ فقال الآخر إبراهيم بن أدهم ، فقال ذاك الذى رد الله مكانه ورفعت درجته ، ذكره القشيرى فى الرسالة ( وذلك ) أى بيان أخذ المعنى المذكور من التقوى ( أنّ أصل لفظة التقوى فى اللغة هو الوقوى بالواو وهو ) أى لفظ الوقوى ( مصدر الوقاية ) أى منها ( يقال وقى يقى وقاية ) أى وقاه الله السوء يقيه وقاية بالكسر : حفظه وصانه ، والوقاء مثل كتاب : كل ما وقيت به شيئا . وروى أبو عبيد عن الكسائى الفتح فى الوقاية والوقاء أيضا ، واتقيت الله اتقاء ، والتقية والتقوى اسم منه ، والتاء مبدلة من الواو ، والأصل وقوى من وقيت ( ووقوى فأبدلت عن الواو تاء كما هو ) أي كابدال الذى ثبت ( فى الوكلان والتكلان ونحوهما ) كتراث فى وراث ( فقيل تقوى ، فإذن ) أى حين إذ كان أصل لفظة التقوى كذلك ، فأقول لك ( لما حصلت وقاية بين العبد وبين المعاصى من قوة عزمه ) أى قصده ( على تركها ) أى المعاصى (و) من ( توطين ) أى تقرير ( قلبه ) أى العبد . قال العلامة عبد الحق : وطن نفسه على الأمر : مهدها لفعله وذللها وسكنها وأقرها عليه ( على ذلك ) أى ترك المعاصى ( فيوصف ) العبد ( حينئذ ) أى حين إذ حصلت الوقاية من قوة العزم على الترك وتوطين القلب على ذلك ( بأنه متق

وَيُقالُ لِذٰلِكَ التّنْزِيهِ وَالْعزْمِ وَالتّوْطِينِ تقْوَى . وَالتّقْوَى فى الْقُرْآنِ تُطْلَقُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاء : أَحَدُها : بِمَعْنَى الْخَشْيَةِ وَالْهَيْبَةِ ، قالَ اللهُ تعالَى : ( وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ) وَقالَ اللهُ تعالَى : ( وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلى اللهِ ). وَالثّانِي : بِمَعْنَى الطّاعَةِ وَالْعِبادَةِ ، قالَ اللهُ تَعالَى : ( يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ ) .

---

ويقال لذلك التنزيه والعزم والتوطين : تقوى . والتقوى فى القرآن تطلق على ثلاثة أشياء : أحدها بمعنى الخشية والهيبة . قال الله تعالى وإياى فاتقون ) أى دون غيرى . ( وقال الله تعالي : واتقوا يوما ترجعون ) بالبناء للمفعول تردون ، وللفاعل تصيرون ( فيه ) أى فى ذلك اليوم ( إلى الله ) هو يوم القيامة . ( والثانى ) أن التقوى ( بمعنى الطاعة والعبادة . قال الله تعالى : يا أيها الدين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ) أى حق تقواه ، وما يجب منها وهو استفراغ الوسع فى القيام بالمواجب والاجتناب عن المحارم ، كقوله « فاتقوا الله ما استطعتم » كما فسره البيضاوى . قال مقاتل بن حبان : كان بين الأوس والخزرج عداوة في الجاهليـة وقتال ، فلما هاجر رسـول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة أصلح بينهم ، فافتخر بعد ذلك منهم رجلان : وهما ثعلبة بن غنم من الأوس وأسعد بن زرارة من الخزرج ، فقال الأوس منا خزيمة بن ثابت ذوالشهادتين ومنا حنظلة غسيل الملائـكة ومنا عاصم بن ثابت بن أفلح حمي الدبر ومنا سعد بن معاذ الذى اهتزعرش الرحمن له : أي لموته ، ورضى الله بحكمه فى بنى قريظة . وقال الخزرجى : منا أربعة أحكموا القرآن : أبى بن كعب ومعاذ بن جبـل وزيد بن ثابت وأبو زيد ، ومنا سعد بن عبادة : خطيب الأنصار ورئيسهم ، فجرى الحديث بينهما ، فغضبا وأنشدا الأشعار وتفاخرا ، فجاء الأوس والخزرج ومعهم السلاح ، فأتاهم النبي صلى الله عليه وسلم فأصلح بينهم ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية « يا أيها الذى آمنوا اتقوا الله حق تقاته » . قال ابن عباس رضى الله عنهما : هو أن يطاع فلا يعصى ، ويشـكر فلا يكفر ، ويذكر فلا ينسى . وقال مجاهـد هو أن تجاهدوا فى الله حق جهاده ، ولا تأخذكم فى الله لومة لائم ، وتقوموا لله بالقسط ولو على أنفسكم وآبائكم وأبنائـكم . وعن أنس قال « لا يتقى الله عبد حق تقاته حتى يخزن لسانه » . وقيل حق تقاته ، يعنى واجب تقواه : وهو القيام بالمواجب واجتناب المحارم .

واختلف العلماء فى هذا القدر من هذه الآية هل هو منسوخ أم لا ؟ على قولين : أحدهما أنه منسوخ ، وذلك أنه لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين وقالوا يا رسول الله ومن يقوى على هذا ؟ فأنزل الله تعالى الناسخ وهو قوله تعالى في سـورة التغابن « فاتقوا الله ما استطعتم » : وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد والسدى رضى الله عنهم .

والقول الثاني : أنها محـكمة غير منسوخة ، وهورواية عن ابن عباس أيضا ، وبها قال طاوس . وموجب هذا الاختلاف يرجع إلى معنى الآية ، فمن قال إنها منسوخة قال : حق تقاته هو أن يأتى

قالَ ابْنُ عَبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا :

العبد بكل ما يجب لله ويستحقه ، فهذا يعجز العبد عن الوفاء به فتحصيله ممتنع ، ومن قال بأنها محكمة قال إن حق تقاته أداء مايلزم العبد على قدر طاقته فكان قوله تعالى « اتقوا الله مااستطعتم » مفسرا لحق تقاته لا ناسخا ولا مخصصا ؛ فمن اتقى الله ما استطاع فقد اتقاه حق تقواه . وقيل معنى حق تقاته كما يجب أن يتقي ، وذلك بأن يجتنب جميع معاصيه . وقيل في معنى قول ابن عباس رضى الله عنهما هو أن يطاع فلا يعصى هـذا صحيح ، والذى يصدر من العبد على سبيل السهو والنسيان غير قادح فيه ، لأن التكليف فى تلك الحال مرفوع عنه ، وكذلك قوله : وأن يشكر فلا يكفر ، فواجب على العبد حضور ما أنعم الله به عليه بالبال ، وأما عند السهو فلا يجب عليه ، وكذلك قوله وأن يذكر فلا ينسى ؛ فإن هذا إنما يجب عند الدعاء والعبادة لا عند السهو والنسيان كما ذكره الخازن . ( قال ) حبر الأمة وبحر العلم أبو الخلفاء ، وترجمان القرآن : أبو العباس عبد الله ( ابن عباس ) عم النبي صلى الله عليه وسلم ( رضى الله عنهما ) ولد قبل الهجرة بثلاث سنين بالشعب ، وبنو هاشم محصورون فيه قبل خروجهم منه بيسير ، وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة وقيل ابن خمس عشرة ، وصححه أحمد ، وقيل ابن عشر ويؤيد الأول ما صح عنه من قوله فى حجة الوداع « وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام » : أى قاربته ، وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل ، اللهم علمه الحكمة وتأويل القرآن ، اللهم بارك فيه وانشر منه « أى أكثر نسله واجعله من عبادك الصالحين » اللهم زده علما وفقها » . وثبت عنه أنه قال : رأيت جبريل مرتين وهذا سبب عماه فى آخر عمره فإنه ورد أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمن رآه معه ولم يعرفه ، فقال له ذاك جبريل أما إنه ستفقد بصرك ، وفى ذلك يقول :

إن يأخذ الله من عينى نورهما ... ففى لسانى وقلبى منهما نور

قلبى ذكى وعقلى غير ذى دخل ... وفى فمى صارم كالسيف مأثور

وكان عمر يقول : ابن عباس فتى الكهول ، له لسان سئول ، وقلب عقول ، وكان يحبه ويدنيه من مجالسه ويدخله مع كبار الصحابة ويستشيره ويعده للمعضلات . وقال ابن مسعود : نعم ترجمان القرآن ابن عباس لو أدرك أسناننا ما عاشره منا أحد . وقال مسروق : أدركت خمسمائة من الصحابة إذا خالفوا ابن عباس لم يزل يقررهم حتي يرجعوا إلى ما قال . وقال : كنت إذا رأيته قلت أحلم الناس ، وإذا تكلم قلت أفصح الناس ، وإذا حدث قلت أعلم الناس . وقال عمرو بن دينار : ما رأيت مجلسا أجمع لكل خير من مجلس ابن عباس . وروى أنه لما وضع ليصلى عليه جاء طائر أبيض قال شيخنا هو روحه ، فوقع على أكفانه ثم دخل فالتمس فلم يوجد ، فلما سوى التراب سمع قائل يقول « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك » الآية ، روى له ألف حديث وستمائة

أَطِيعُوا ٱللّٰهَ حَقَّ طَاعَتِهِ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : هُوَ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى ، وَأَنْ يُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى ، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرَ . وَالثَّالِثُ : بِمَعْنَى تَنْزِيهِ الْقَلْبِ عَنِ الذُّنُوبِ ، فَهٰذِهِ هِيَ الْحَقِيقَةُ فِي التَّقْوَى دُونَ الْأَوَّلَيْنِ ، أَلَا تَرَى أَنَّ اللّٰهَ تَعَالَى يَقُولُ : ( وَمَنْ يُطِعِ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللّٰهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ )

---

وستون ، اتفق الشيخان منها على خمسة وتسعين ، وانفرد البخارى بثمانية وعشرين ، ومسلم بتسعة وأربعين . مات بالطائف ودفن بها سنة ثمان وستين فى خلافة ابن الزبير رضى الله تعالى عنهم ، وقيل سنة تسع ، وقيل سنة سبعين ، وصلى عليه محمد بن الحنفية . وقال مات ربانى هذه الأمة ، ومناقبه كثيرة رضى الله تعالى عنه أكثر من أن تحصر ، وأظهر من أن تنشر ، لما حفه من تلك الدعوات الباهرة ، وظهر على غرر فضائله من الخصوصيات الظاهرة المطبوقة بالتوفيق من الصغر والمصحوبة بالفقه ، فقد استأذنه صلى الله عليه وسلم وهو على يمينه حين شرب فقال أتأذن لى أن أعطى الأشياخ ؟ أى أبا بكر وعمر وغيرهما ، فقال والله لا أوثر بنصيبى منك فتل القدح فى يده : أى وضعه صلى الله عليه وسلم فى يد ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ( أطيعوا الله حق طاعته ) هكذا ذكره العلامة أبو طاهر فى تفسيره [ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ] ( وقال مجاهد ) بن جبر ، ويقال ابن جبير بالتصغير : المكى المخزومى ، وهو تابعى ، إمام متفق على جلالته وإمامته ، سمع ابن عمر وابن عباس وجابر بن عبد الله وابن عمرو بن العاص وأبا سعيد وأبا هريرة وعائشة وغيرهم من الصحابة ، رضى الله تعالى عنهم ، وسمع من التابعين : طاوسا وابن أبى ليلى ومصعب بن سعد وآخرين . روى عنه طاوس وعكرمة وعمرو بن دينار وأبو الزبير والحكم وابن عون والأعمش ومنصور وحماد بن أبى سليمان وطلحة بن مصرف وأيوب السختيانى وعبد الله بن أبى نجيح وخلائق لا يحصون ، وهو إمام فى الفقه والتفسير والحديث . قال مجاهد: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة . وقال خصيف : كان أعلمهم بالتفسير مجاهد ، ومناقبه كثيرة مشهورة . وقال ابن بكير : توفى مجاهد سنة إحدى ومائة وهو ابن ثلاث وثمانين سنة ، كذا فى سراج السالكين ( هو ) أى تفسير قوله تعالى « حق تقاته » ( أن يطاع ) الله : أى أن يطيعه العبد ( فلا يعصى ، وأن يذكر ) بالبناء للمفعول كما فى سابقه ولاحقه ( فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر ) وهذا التفسير روى عن ابن عباس أيضا كما ذكر فى قول مقاتل بن حيان. ( الثالث ) أن التقوى ( بمعنى تنزيه القلب عن الذنوب ، فهذه هى ) أى الثالثة ( الحقيقة فى التقوى دون الأولين ) أى الأول والثانى ( ألا ترى أن الله تعالى يقول : ومن يطع الله ورسوله فيما يأمر وينهى ، أو فى الفرائض والسنن ( ويخشى الله ) أى يخافه على ما صدر منه من الذنوب ( ويتقه ) فيما بقى من عمره ، هكذا فى تفسير البيضاوى وغيره ( فأولئك ) أى العالو الرتبة ( هم الفائزون ) بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم المقيم ، وقرأ : يتقه

ذِكْرَ الطَّاعَةَ وَالْخَشْيَةَ ، ثُمَّ ذَكَرَ التَّقْوَى فَعلِمْتَ أَنَّ حَقِيقَةَ التَّقْوَى مَعْنًى سِوَى الطَّاعَةِ .
وَالْخَشْيَةِ، وَهِيَ تَنْزِيهُ الْقَلْبِ عَمَّا ذَكَرْنَاهُ ، ثُمَّ قَالُوا رَحِمَهُمُ اللهُ : مَنَازِلُ التَّقْوَى ثَلَاثَةٌ :
تَقْوَى عَنِ الشِّرْكِ ، وَتَقْوَى عَنِ الْبِدْعَةِ ، وَتَقْوَى عَنِ الْمَعَاصِي الْفَرْعِيَّةِ ، وَلَقَدْ ذَكَرَهَا اللهُ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِى آيَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَهِيَ قَوْلُهُ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ : ( لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا
ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ) . فَالتَّقْوَى الْأُولَى تَقْوَى عَنِ الشِّرْكِ وَالْإِيمَانِ الَّذِى فِى مُقَابَلَتِهَا التَّوْحِيدُ ،
وَالتَّقْوَى الثَّانِيَةُ : عَنِ الْبِدْعَةِ وَالْإِيمَانِ الَّذِى ذُكِرَ مَعَهَا إِقْرَارُ عُقُودِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ .

---

بكسر الهاء بلا إشباع قالون وحفص ويعقوب . وقرأ أبو عمرو وأبو بكر وهشام فى أحد أوجهه الثلاثة بإسكانها . والثانى لهشام الإشباع . والثالث الاختلاس . وقرأ ابن ذكوان والباقون وهم ورش وابن كثير وخلف عن حمزة وعن نفسه والكسائي بالاشباع بلا خلاف . وقرأ حفص بسكون القاف مع اختلاس الهاء كما مر ( ذكر ) سبحانه وتعالى فى هذه الآية ( الطاعة والخشية ثم ذكر التقوى ) فى قوله يتقه ( فعلمت أن حقيقة التقوى معنى سوى الطاعة والخشية وهى ) أى تلك الحقيقة ( تنزيه القلب عما ذكرناه ) من الذنب الذي لم يسبق مثله ( ثم ) بعد أن علمت حقيقتها ( قالوا ) أى شيوخنا فى بيان أقسامها ( رحمهم الله : منازل ) أى مراتب ( التقوى ثلاثة ) : الأولى ( تقوى عن الشرك ) بالله . ( و ) الثانية تقوى ( عن البدعة ) فى دين الله . ( و ) الثالثة ( تقوى عن المعاصى الفرعية ، ولقد ذكرها ) أى المنازل الثلاث ( الله سبحانه وتعالى فى آية واحدة ، وهي قوله جل من قائل ) من فيه زائدة ، وقائل حال من الضمير فى جل : أى جل حالة كونه قائلا ( ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات ) أى الفرائض والنوافل ( جناح ) أى إثم ( فيما طعموا ) أى أكلوا من الخمر والميسر قبل التحريم ( إذا مااتقوا ) المحرمات ( وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقو وآمنوا ) أى ثبتوا على التقوى والايمان ( ثم اتقوا ) الظلم ( وأحسنوا ) العمل كما فى الجلالين وغيره؛ فالمراد بالتقوى الأولي ترك المحرمات؛ وبالثانية المداومة عليه؛ وبالثالثة اتقاء الظلم : هـذا ما سلكه بعضهم ، لكن المصنف رحمه الله فسر ذلك بقوله ( فالتقوى الأولى تقوى عن الشرك ، و ) أما ( الإيمان الذى فى مقابلتها ) أى التقوى الأولى فهو ( التوحيد والتقوى الثانيـة ) تقوى ( عن البدعة ، و ) أما ( الإيمـان الذى ذكر معها ) أى التقوى الثانية ( إقرار عقود ) أى اعتقادات أهل ( السنة ) أى طريق النبي صلي الله عليه وسلم ( والجماعة ) أى طريق الصحابة رضى الله عنهم . قال العلامة الزبيدى : إذا أطلق أهل السنـة والجماعة فالمراد بهم الأشاعرة والماتريدية . قال الخيالى فى حاشيته على شرح العقائد هم أهل السنة والجماعة هذا هو المشهور فى ديار خراسان والعراق والشام وأكثر الأقطار ، وفى ديار ما وراء النهر يطلق ذلك

علي الماتريدية أصحاب الإمام أبي منصور ، وبين الطائفتين اختلاف فى بعض المسائل كمسألة التكوين وغيرها . وقال الكستلى فى حاشيته عليه : المشهور من أهل السنة فى ديارخراسان والعراق والشام وأكثر الأقطار هم الأشاعرة أصحاب أبي الحسن الأشعرى أول من خالف أبا على الجبائى ورجع عن مذهبه إلى السنة والجماعة . وفى ديار ما وراء النهر الماتريدية أصحاب أبى منصور الماتريدية وتلميذ أبى نصر العياضى تلميذ أبى بكر الجوزجاني صاحب أبي سليمان الجوزجانى صاحب محمد بن الحسن صاحب الإمام أبى حنيفة ، وبين الطائفتين اختلاف فى بعض الأصول كمسألة التكوين ومسألة الاستثناء فى الأيمان ومسألة إيمان المقلد ، والمحققون من الفريقين لا ينسب أحدهما الآخر إلى البدعة والضلالة . وقال ابن السبكى في شرح عقيدة ابن الحاجب : اعلم أن أهل السنة والجماعة كلهم قد اتفقوا على معتقد واحد فيما يجب ويجوز ويستحيل وإن اختلفوا فى الطرق والمبادى الموصلة لذلك أو فى كمية ما هنالك ؛ وبالجملة فهم بالاستقراء ثلاث طوائف : الأولى أهل الحديث ومعتمد مباديهم الأدلة السمعية ، أعنى الكتاب والسنة والإجماع . الثانية أهل النظر العقلى والصناعة الفكرية ؛ وهم الأشعرية والحنفية ، وشيخ الأشعرية أبو الحسن الأشعرى ، وشيخ الحنفية أبو منصور الماتريدى ، وهم متفقون فى المبادى العقلية فى كل مطلب يتوقف السمع عليه وفى المبادى السمعية فيما يدرك العقل جوازه فقط والعقلية والسمعية فى غيرها . واتفقوا فى جميع المطالب الاعتقادية إلا فى مسئلة التكوين ومسئلة التقليد . الثالثة أهل الوجدان والكشف وهم الصوفية ومباديهم مبادى أهل النظر والحديث فى البداية والكشف والإلهام في النهاية ، وما أحسن قول السبكى من بحر الكامل :

والكل معتقدون أن إلهنا    متوحد فرد قديم دانى
حى عليم قادر متكلم    عال ولا يعنى علو مكان
باق له سمع وإبصار يريـ    ـد جميع مايجرى من الإنسان
قد نزهوا الرحمن عن شبه وقد    دانوا بما جاء فى القرآن

وليعلم أن كلا من الإمامين أبى الحسن وأبى منصور رضى الله عنهما لم يبدعا من عندهما رأيا ولم يشتقا مذهبا : إنما هما مقرران لمذاهب السلف مناضلان عما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأحدهما قام بنصرة نصوص مذهب الشافعى ومادلت عليه . والثانى قام بنصرة نصوص مذهب أبى حنيفة ومادلت عليه وناظر كل منهما ذوى البدع والضلالات حتى انقطعوا وولوا منهزمين وهذا فى الحقيقة هو أصل الجهاد الحقيقى ، فالانتساب إليهما إنما هو باعتبار أن كلا منهما عقد على طريق السلف نطاقا وتمسك وأقام الحجج والبراهين عليه ، فصار المقتدى به فى تلك المسالك والدلائل يسمى أشعريا وماتريديا .

ألا ترى أن مذهب أهل المدينة نسب إلى مالك ، ومن كان على مذهب أهل المدينة يقال له مالكي ، ومالك إنما جرى على سنن من كان قبله وكان كثير الاتباع لهم ، إلا أنه لما زاد المذهب بيانا وبسطا عزى إليه ؛ كذلك أبو الحسن الأشعرى لافرق ليس له فى مذهب السلف أكثر من بسطه وشرحه وتآليفه في نصرته .

وَالتَّقْوَى الثَّالِثَةُ عَنِ المَعاصِي الْفَرْعِيَّةِ وَلاَ إِقْرَارَ فِي هٰذِهِ الْمَنْزِلَةِ ، فقَابَلَهَا بِالْإِحْسانِ وَهُوَ الطَّاعَةُ وَالِاسْتِقَامَةُ عَلَيْهَا ، فَتَكُونُ مَنْزِلَةَ مُسْتَقِيمِي الطَّاعَةِ ، فَالْآيَةُ جَمَعَتْ ذِكْرَ المَنازِلِ الثَّلاَثِ : مَنْزِلَةِ الْإِيمانِ ، وَمَنْزِلَةِ السُّنَّةِ ، وَمَنْزِلَةِ اسْتِقَامَةِ الطَّاعَةِ ؛ فَهٰذَا ما قَالَهُ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللهُ فِي بَيَانِ مَعْنَى التَّقْوَى . قُلْتُ : وَأَنَا وَجَدْتُ التَّقْوَى بِمَعْنَى اجْتِنَابِ فُضُولِ الْحَلاَلِ ، وَهُوَ مَا رُوِيَ فِي الْخَبَرِ الْمَشْهُورِ عَنِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أَنَّهُ قالَ : « إِنَّمَا سُمِّيَ الْمُتَّقُونَ مُتَّقِينَ لِتَرْكِهِمْ مَا لاَ بَأْسَ بِهِ حَذَرًا عَمَّا بِهِ بَأْسٌ »

---

قال التاج : وقد أخذ عامة أصحاب الشافعي بما استقر عليه مذهب أبي الحسن . وصنف أصحاب الشافعي كتبا كثيرة علي وفق ماذهب إليه الأشعرى ، إلا أن بعض أصحابنا من أهل السنة والجماعة خطأ أبا الحسن فى بعض المسائل مثل قوله : التكوين والمكون واحد ونحوها ، فمن وقف على المسائل التى أخطأ فيها أبو الحسن وعرف خطأه فلا بأس له بالنظر فى كتبه فقد أمسك كتبه كثير من أصحابنا من أهل السنة والجماعة ونظروا فيها ( والتقوى الثالثة ) تقوى ( عن المعاصى الفرعية ولا إقرار فى هــذه المنزلة ) أى الثالثة ( فقابلها ) الله تعالى ( بالإحسان : وهو الطاعة والاستقامة عليها ) أى الطاعة (فتكون) أى هذه المنزلة (منزلة مستقيمي الطاعة ) أى المستقيمين عليها ( فالآية ) الواحدة وهي قوله تعالي « ليس على الذين آمنوا » الآية ( جمعت ذكر المنازل الثلاث ) وهى ( منزلة الإيمان ومنزلة السنة ومنزلة استقامة الطاعة ، فهذا ) أى المذكور من تقسيم منازل التقوى على الثلاثة ( ماقاله العلماء رحمهم الله فى بيان معنى التقوى ) وقيل التقوى على وجوه : للعامة تقوى الشرك . وللخاصة تقوى المعاصى . وللأولياء تقوى التوسل بالأفعال . وللأنبياء تقوى نسبة الأفعال ، إذ تقواهم منه إليه جل وعز ، هكذا أورده أبو القاسم القشيرى ( قلت وأنا وجدت التقوى بمعنى اجتناب فضول الحلال ) هو كالحل ماانحلت عنه التبعات ضد الحرام ، وفسره الإمام مالك والشافعى بما لم يرد بتحريمه دليل وأبو حنيفة بمادل دليل على حله، فالمسكوت عنه حلال عندهما دونه ويؤيدهما « قل لاأجد فيما أوحي إلى محرما » الآية . وأما فضوله : أي الحلال فهو مايزيد علي قدر الكفاية كما قاله بعضهم ( وهو ) أى كون التقوى ، بمعنى الاجتناب ( ماروى فى الخبر المشهور عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال : إنما سمى المتقون متقين ) جمع متق ، وهو لغة اسم فاعل من وقاه فاتق ، والوقاية : فرط الصيانة ، ومنه فرس واق : أى يقي لجامه أن يصيبه أدنى شئ من بوله . وشرعا من يقي نفسه تعاطى مايستوجب العقوبة من فعل أو ترك ، هكذا قاله الزبيدى (لتركهم مالا بأس به حذرا عما به بأس ) يعني لتركهم تناول الحلال مخافة من الوقوع فى الحرام ، قال العراق : رواه ابن ماجه وقال الزبيدى : وكذلك رواه الترمذى والحاكم كلهم من حديث عطية بن عروة السعدى . قال الترمذى : حسن غريب ولفظهم جميعا « لا يبلغ

فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَجْمَعَ بَيْنَ مَاقَالَهُ عُلَمَاؤُنا رَحِمَهُمُ اللهُ . وَبَيْنَ مَا جَاءَ فِى الْخَبَرِ عَنِ النبىِّ صلى اللهُ عليه وسلم فَيَكُونُ حَدًّا جَامِعًا وَمَعْنًى بَالِغًا .

فَأَقُولُ: التَّقْوَى : هُوَ اجْتِنَابُ كُلِّ مَا تَخَافُ مِنْهُ ضَرَرًا فِى دِينِكَ ، أَلاَ تَرَى أَنَّهُ يُقَالُ لِلْمَرِيضِ الْمُحْتَمِى إِنَّهُ يَتَّقِى إِذَا اجْتَنَبَ كُلَّ شَىْءٍ يَضُرُّهُ فِى بَدَنِهِ : مِنْ طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ أَوْ فَاكِهَةٍ أَوْ غَيْرِهَا . ثُمَّ الَّذِى يُخَافُ مِنْهُ الضُّرُّ فِى أَمْرِ الدِّينِ قِسْمَانِ : مَحْضُ الْحَرَامِ وَالْمَعْصِيَةِ . وَفُضُولُ الْحَلاَلِ ، لِأَنَّ الِاشْتِغَالَ بِفُضُولِ الْحَلاَلِ وَالِانْهِمَاكَ فِيهِ يَسْتَجِرُّ صَاحِبَهُ إِلَى الْحَرَامِ وَمَحْضِ الْعِصْيَانِ ، وَذَلِكَ لِشَرَهِ النَّفْسِ وَطُغْيَانِهَا وَتَمَرُّدِ الْهَوَى وَعِصْيَانِهِ ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَأْمَنَ الضَّرَرَ فِى أَمْرِ دِينِهِ اجْتَنَبَ الْخَطَرَ ،

---

العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذرا مما به بأس » ويسمى هذا ورع المتقين ؛ وهو الدرجة الثالثة من درجات الورع . قال عمر : كنا ندع تسعة أعشار الحلال خوف الوقوع فى الحرام ( فأحببت أن أجمع بين ماقاله علماؤنا رحمهم الله ) وهو أن التقوى تنزيه القلب عن ذنب لم يسبق عنك مثله حتى تحصل لك من قوة العزم على تركه وقاية بينك وبين المعاصى ( وبين ماجاء فى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم ) وهو مامر آنفا ( فيكون ) أى مجموع الدليلين ( حدا جامعا ) للمحدود ( ومعنى بالغا ) أى كامـلا ( فأقول : التقوى هو اجتناب كل ماتخاف منه ضررا فى دينك : ألا ترى أنه ) أى الشأن ( يقال للمريض المحتمى ) أى الممتنع عما يضره ( إنه ) أى المريض ( يتقى ) وذلك ( إذا اجتنب كل شىء يضره ) أى المريض ( فى بدنه من طعام أوشراب أو فاكهة أو غيرها ) من المشتهيات ( ثم ) الأمر ( الذى يخاف ) بالبناء للمفعول ( منه فى أمر الدين قسمان ) الأول ( محض الحرام ) أى خالصه ، وهو مانص أو أجمع على تحريمه بعينه أو جنسه أو على أن فيه عقوبة أو وعيدا ، ثم التحريم إما لمفسدة أو مضرة خفية كالربا ومذكى المجوس أو واضحة كالسم والخمر ( و ) محض ( المعصية. و ) الثانى ( فضول الحلال ) وذلك ( لأن الاشتغال بفضول الحلال و ) أن ( الانهماك ) أى الدخول ( فيه ) أى فضول الحلال . وفى المختار انهمك الرجل فى الأمر : أى جد ، ولج: بمعنى دخل ( يستجر ) أى الاشتغال بالفضول والانهماك فيه ( صاحبه إلى ) محض ( الحرام ومحض العصيان، وذلك ) أى علة طلب الجر لصاحبه ( لشره النفس) أى شـدة حرصها . والشره : غلبة الحرص ، وقد شره من باب طرب فهو شره كما أفاده المختار ( وطغيانها ) أى تجاوزها الحد ( وتمرد الهوى ) أى طغيانه وعتوه ( وعصيانه ) أى الهوى ( فمن أراد أن يأمن الضرر فى أمر دينـه اجتنب ) أى مريد الأمان ( الحظر ) أى الحرام

وَامْتَنَعَ عَنْ فُضُولِ الْحَلَالِ حَذَرًا أَنْ يَجُرَّهُ إِلَى مَحْضِ الْحَرَامِ عَلَى مَا قَالَهُ صلى الله عليه وسلم لِتَرْكِهِمْ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَذَرًا عَمَّا بِهِ بَأْسٌ ، يَعْنِي لِتَرْكِهِمْ فُضُولَ الْحَلَالِ حَذَرًا عَنِ الْوُقُوعِ فِى الْحَرَامِ ؛ فَالتَّقْوَى الْبَالِغَةُ الْجَامِعَةُ اجْتِنَابُ كُلِّ مَا فِيهِ ضَرَرٌ لِأَمْرِ الدِّينِ وَهُوَ الْمَعْصِيَةُ وَالْفُضُولُ هٰذَا تَفْصِيلُهَا .

وَأَمَّا إِذَا أَرَدْنَا تَحْدِيدَهَا عَلَى مَوْضُوعِ عِلْمِ الشَّرْعِ ، فَنَقُولُ : حَدُّ التَّقْوَى الْجَامِعُ تَنْزِيهُ الْقَلْبِ عَنْ شَرٍّ لَمْ يَسْبِقْ عَنْكَ مِثْلُهُ بِقُوَّةِ الْعَزْمِ عَلَى تَرْكِهِ حَتَّى يَصِيرَ ذٰلِكَ وِقَايَةً بَيْنَكَ وَبَيْنَ كُلِّ شَرٍّ ، ثُمَّ الشُّرُورُ ضَرْبَانِ : شَرٌّ أَصْلِيٌّ ، وَهُوَ مَا نَهَى اللّٰهُ عَنْهُ تَحْرِيمًا كَالْمَعَاصِي الْمَحْضَةِ ، وَشَرٌّ غَيْرُ أَصْلِيٍّ ، وَهُوَ مَا نَهَى عَنْهُ تَأْدِيبًا ، وَهُوَ فُضُولُ الْحَلَالِ كَالْمُبَاحَاتِ الْمَأْخُوذَةِ بِالشَّهْوَةِ . فَالْأُولَى تَقْوَى فَرْضٍ يَلْزَمُ بِتَرْكِهَا عَذَابُ النَّارِ . وَالثَّانِيَةُ : تَقْوَى خَيْرٍ وَأَدَبٍ يَلْزَمُ بِتَرْكِهَا الْحَبْسُ

---

( وامتنع عن فضول الحلال حذرا ) أى تحرزا من ( أن يجره ) ذلك الفضول ( إلى محض الحرام على ما قاله ) رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) إنما سمى المتقون متقين ( لتركهم ) أى المتقين ( مالا بأس به حذرا عما به بأس ) . قال المصنف ( يعنى ) أى النبي صلى الله عليه وسلم ( لتركهم فضول الحلال حذرا عن الوقوع فى الحرام، فالتقوى البالغة) أى الكاملة ( الجامعة ) هى( اجتناب كل مافيه ضرر لأمر الدين ، وهو ) أى مافيه الضرر ( المعصية والفضول ) وكل مالا يعنيه فى الدين ( هذا ) الذى ذكرناه من الحد الجامع ( تفصيلها ) أى التقوى ( وأما إذا أردنا تحديدها على موضوع علم السر ) أى الخفى ، وذكر المصنف فى الإملاء أن السر ماخفى عن الخلق فلا يعلم به إلا الحق . وسر السر مالا يحس به السر . والسر ثلاثة : سر العلم ، وسر الحال ، وسر الحقيقة ؛ فسر العلم حقيقة العالمين بالله عز وجل ، وسر الحال معرفة مراد الله فى الحال من الله ، وسر الحقيقة ما وقعت به الإشارة ( فنقول : حد التقوى الجامع تنزيه القلب ) أى تبريئه وتطهيره ( عن شر لم يسبق ) بكسر الباء على حد ضرب ( عنك مثله بقوة العزم على تركه ) أى الشر ( حتى يصير ذلك ) أى التنزيه الحاصل من قوة العزم ( وقاية ) أى صيانة ( بينك وبين كل شر . ثم الشرور ضربان ) أي نوعان : النوع الأول ( شر أصلى ، وهو ما نهي الله عنه ) أى عن فعله ( تحريما كالمعاصى المحضة ) أى الخالصة . ( و ) النوع الثانى ( شر غير أصلي، وهو مانهى) الله (عنه تأديبا ، وهو فضول الحلال كالمباحات المأخوذة بالشهوة ) أى شهوة النفس (فالأولى) وهي الاجتناب عن كل معصية ( تقوى فرض يلزم بتركها ) أى الأولى ( عذاب النار ) فى الآخرة ( والثانية ) وهى الاجتناب عن الفضول (تقوى خير وأدب يلزم بتركها ) أى الثانية ( الحبس ) على الصراط

وَالْحِسَابُ وَالتَّعْيِيرُ وَاللوْمُ ؛ فَمَنْ أَتَى بِالْأُولى فَهُوَ فى الدَّرَجَةِ الدُّنْيا مِنَ التّقْوَى ، وَهِيَ مَنْزِلَةُ مُسْتَقِيمِي الطَّاعَةِ ، وَمَنْ أَتَي بِالْأُخْرَى فَهُوَ فِي الدَّرَجَةِ الْعُلْيَا مِنَ التَّقْوَى ، وَذٰلِكَ مَنْزِلَةُ مُسْتَقِيمِي تَرْكِ الْمُبَاحِ ، فَإِذَا جَمَعَ الْعَبْدُ بَيْنَهُمَا أَعْنِي اجْتِنَابَ كُلِّ مَعْصِيَةٍ وَفُضُولٍ . فَقَدِ اسْتَكْمَلَ مَعْنَى التَّقْوَى وَقَامَ بِحَقِّهَا وَجَمَعَ كُلَّ خَيْرٍ فِيهَا ، وَهٰذَا هُوَ الْوَرَعُ الْكَامِلُ الَّذِي هُوَ مِلَاكُ أَمْرِ الدِّينِ ، وَذٰلِكَ مَنْزِلَةُ الْأَدَبِ عَلَى بَابِ اللهِ تَعَالَى ، فَهٰذَا مَعْنَى التّقْوَى وَبَيَانُهَا فى الْجُمْلَةِ فَافْهَمْهُ مُوَفَّقاً إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

فَإِنْ قُلْتَ : فَفَصِّلْ لَنَا الآنَ هٰذَا الْمَعْنى فى النفْسِ وَاسْتِعْمالَهُ فِيها ، فَإِنَّ الْحَاجَةَ جَاءَتْ مِنْ هُنَالِكَ لِنَعْلَمَ كَيْفَ نُلْجِمُ هٰذِهِ النَّفْسَ بِهٰذَا الْمَعْنَى الَّذِي فَصَّلْتَ مِنْ حَقِيقَةِ التَّقْوَى .

فَأَقُولُ: أَجَلْ إِنَّما تَفْصِيلُهُ فى أَمْرِ هٰذِهِ النَّفْسِ أَنْ تَقُومَ عَلَيْها بِقُوَّةِ الْعَزْمِ فَتَمْنَعَهَا عَنْ كُلِّ مَعْصِيَةٍ وَتَصُونَهَا عَنْ كُلِّ

---

( والحساب والتعيير ) أى إظهار العيب ( واللوم ) أى العذل والذم ( فمن أتى بالأولي ) أى تقوى فرض ( فهو فى الدرجة الدنيا ) أى الدنيئة ( من التقوى ، وهي ) أى هذه الدرجة (منزلة) أى رتبة ( مستقيمى الطاعة ، ومن أتى بالأخرى ) وهي تقوى خير وأدب (فهوفى الدرجة العليامن التقوى وذلك ) أى مافعله من الدرجة العليا ( منزلة مستقيمي ترك المباح ، فإذا جمع العبد بينهما ) أى الدرجتين ( أعنى ) بهما ( اجتناب كل معصية و ) اجتناب كل ( فضول فقد استكمل ) أى العبد ( معنى التقوى ) وحقيقتها ( وقام بحقها ) أى التقوى ( وجمع ) أى العبد ( كل خير فيها ) أى فى تلك التقوى (وهذا هو ) أى جمع العبد بين الرتبتين ( الورع الكامل الذى هو ملاك أمر الدين ) أى أصله وأساسه (وذلك) أى الورع الكامل ( منزلة الأدب على باب الله تعالى، فهذا ) الذى ذكرناه من الحد الجامع على موضوع علم السر (معنى التقوى وبيانها فى الجملة) من غير تفصيل كثير ( فافهمه ) أى هذا المعنى ( موفقا إن شاء الله . فإن قلت ففصل ) أى بين أنت ( لنا الآن ) أى بعد ذكر الحد المذكور ( هذا المعنى ) أى معنى التقوى ( فى النفس واستعماله ) أى هذا المعنى ( فيها ) أى النفس ( فإن الحاجة جاءت من هنالك ) أى النفس ( لتعلم كيف نلجم ) أى نقيد ( هذه النفس بهذا المعنى الذى فصلت ) أى بينت ( من حقيقة التقوى . فأقول أجل ) أى نعم فصلت وبينت . وفى المختار: أجل جواب مثل نعم . قال الأخفش : هو أحسن من نعم فى التصديق ونعم أحسن منه فى الاستفهام ( إنما تفصيله ) أى معنى التقوى ( فى أمر هذه النفس أن تقوم عليها ) أى النفس ( بقوة العزم فتمنعها عن كل معصية وتصونها ) أى تحفظها ( عن كل

فُضُولٍ . فَإِذَا فَعَلْتَ ذٰلِكَ كُنْتَ قَدِ اتَّقَيْتَ اللّٰهَ تَعَالَى فِى عَيْنِكَ وَأُذُنِكَ وَلِسَانِكَ وَقَلْبِكَ وَبَطْنِكَ وَفَرْجِكَ وَجَمِيعِ أَرْكَانِكَ وَأَلْجَمْتَهَا بِلِجَامِ التَّقْوَى، وَلِهٰذَا الْبَابِ شَرْحٌ يَطُولُ، وَقَدْ أَشَرْنَا إِلَيْهِ فِى كِتَابِ : [ إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ ] .

وَأَمَّا الَّذِى لَابُدَّ مِنْهُ هٰهُنَا، فَأَنْ نَقُولَ : مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَّقِىَ اللّٰهَ فَلْيُرَاعِ الْأَعْضَاءَ الْخَمْسَةَ فَإِنَّهُنَّ الْأُصُولُ ، وَهِىَ : الْعَيْنُ وَالْأُذُنُ وَاللِّسَانُ وَالْقَلْبُ وَالْبَطْنُ فَيَحْرِصُ عَلَيْهَا بِالصِّيَانَةِ لَهَا عَنْ كُلِّ مَا يَخَافُ مِنْهُ ضَرَرًا فِى أَمْرِ الدِّينِ مِنْ مَعْصِيَةٍ وَحَرَامٍ وَفُضُولٍ وَإِسْرَافٍ مِنْ حَلَالٍ ، وَإِذَا حَصَلَ صِيَانَةَ هٰذِهِ الْأَعْضَاءِ فَمَرْجُوٌّ أَنْ يَكْفِىَ سَائِرَ أَرْكَانِهِ وَيَكُونَ قَدْ قَامَ بِالتَّقْوَى الْجَامِعَةِ بِجَمِيعِ بَدَنِهِ لِلّٰهِ تَعَالَى ، فَدَعَتِ الْحَاجَةُ إِلَى بَيَانِ خَمْسَةِ فُصُولٍ لِهٰذِهِ الْأَعْضَاءِ وَتَفْصِيلِ مَا يَحْرُمُ فِى حَقِّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَلَى قَدْرِ مَا يَلِيقُ بِهٰذَا الْكِتَابِ .

---

فضول. فإذا فعلت ذلك ) أى منع النفس عن كل معصية وصونها وحفظها عن كل فضول ( كنت قد اتقيت الله تعالى فى عينك وأذنك ولسانك وقلبك وبطنك وفرجك وجميع أركانك ) أى جوارحك ( وألجمتها ) أى العين وما بعدها ( بلجام التقوى ولهذا الباب ) أى باب التقوى ( شرح يطول وقد أشرنا إليه ) أى الشرح ( فى ) تصنيفنا ( كتاب إحياء علوم الدين ) ولكن الذى فى هذا المختصر كاف لمن تأمله بصافى الفكر . ولذلك لم أنقل مافى الإحياء فى هذا المقام روما للايجاز والاختصار ( وأما الذى لابد منه ) من معنى التقوى ( ههنا ) أى فى هذا المختصر ( فأن نقول: من أراد أن يتقى الله فليراع ) أى فليحافظ ( الأعضاء الخمسة فانهن ) أى هذه الأعضاء الخمسة ( الأصول وهى العين والأذن واللسان والقلب والبطن ) وكل واحد من هذه نعمة يجب على صاحبه أداء شكره باستعماله فى طاعة الله تعالى ( فيحرص ) العبد ( عليها ) أى الأعضاء الخمسة ( بالصيانة ) والوقاية ( لها عن كل ما يخاف منه ضررا فى أمر الدين من معصية ) بيان لما يخاف منه الضرر ( وحرام وفضول ) وهو مالا يعنيه فى الدارين ( وإسراف ) أى مجاوزة حد ( من حلال وإذا حصل ) العبد ( صيانة هذه الأعضاء ) الخمسة ( ف ) هو ( مرجو أن يكفى سائر أركانه ) أى جوارحه ( ويكون قد قام بالتقوى الجامعة بجميع بدنه لله تعالى فدعت الحاجة إلى بيان خمسة فصول لهذه الأعضاء و ) دعت أيضا إلى ( تفصيل ما يحرم فى حق كل واحد منها ) أى الأعضاء ( على قدر ما يليق بهذا الكتاب ) المختصر المسمى بالمنهاج .

## ﴿ الفصل الأول : فصل العين ﴾

ثُمَّ عَلَيْكَ وَفَّقَكَ اللهُ وَإِيَّانَا بِحِفْظِ الْعَيْنِ

﴿ الفصل الأول ﴾ من الفصول الخمسة ( فصل العين . ثم عليك ) أى الزم ( وفقك الله وإيانا بحفظ العين ) عن الوقوع فى المعاصى وهى كثيرة : منها النظر إلى شئ من جميع بدن أحد من النساء الأجنبيات مع القصد بخلاف النظر فجأة ثم الغض أو لنحو معاملة كبيع وشراء ليرجع بالعهدة ويطالب بالثمن مثلا ، أو لشهادة تحملا ، أو أداء لها أو عليها : كنظر فرج لشهادة بزنا أو ولادة أو نحو ذلك ، وتعمده للشهادة جائز وإن تيسر النساء أو المحارم ، والفرق بينها وبين نحو القصد أن النساء ناقصات ، وقد لا تقبل شهادتهن والمحارم قد لا يشهدون كما فى التحفة ، ولا بأس بالتأمل فى جسدها وعليها ثياب ما لم يكن ثوب يبين حجمها ، وإلا فلا ينظر إليه لقوله عليه الصلاة والسلام « من تأمل خلف امرأة ورأى ثيابها حتى تبين له حجم عظامها لم يرح رائحة الجنة » كما أفاده بعض المحققين ، ومنها النظر شزرا إلى المسلم، فإنه يحرم النظر بالاستحقار والاستخفاف إلى أى مسلم كان من المسلمين صغيرا أو كبيرا قال عليه الصلاة والسلام « لا تحاسدوا » الحديث وقال فى آخره « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » قال القرطبي في تفسير قوله تعالى « بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان » من لقب أخاه وسخر به ، فهو فاسق . والسخرية : الاستحقار والإستهانة والتنبيه على العيوب والنقائص بوجه يضحك منه ، وقد تكون بالمحاكاة بالفعل والقول أو الإشارة أو الإيماء أو الضحك علي كلامه إذا تخبط فيه أو غلطه أو على ضعته أو قبح صورته .

وقد عد العلامة ابن حجر فى الزواجر الاستهزاء والسخرية بالمسلم من الكبائر . ومنها نظر العورات ولو مع اتحاد الجنس جمع عورة . وهى لغة النقص . وشرعا مايجب ستره ، والمراد به هنا السرة والركبة وما بينهما : قال تعالى « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » الآيات ثم قال : « وقل للمؤمنات » الآية . وقال عليه الصلاة والسلام « لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة ، ولا يفضى الرجل إلى الرجل فى ثوب واحد ، ولا المرأة إلى المرأة فى ثوب واحد » :

وسئل الشبلى رحمه الله تعالى عن قوله تعالى « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » فقال : أبصار الرءوس عن المحرمات وأبصار القلوب عن الخطرات ، وإليه يشير حديث « زنا العين بالنظر ، وزنا القلب بالفكر » وورد أنه يعذر فى النظرة الأولى، ففى حديث « يا علي لاتتبع النظرة النظرة فان لك الأولي وليست لك الثانية » . والنظرة سهم مسموم من سهام إبليس المرجوم ، لأنها تدعو إلى الفكر والفكر يدعو إلى الزنا ، والمحتاط من حسم المادة . قال حجة الإسلام الغزالى رحمه الله : أول العشق السالب للعقل نظرة تقع بغير قصد إلى صورة ، ثم لا تزال تقوى وتسترسل حتى تصير عشقا

ثُمَّ حَدِيثُ قَابِيلَ وَهابِيلَ كانَ السَّبَبَ فى أَمْرِهِمَا الْحَسَدُ وَالشُّحُّ

﴿تنبيه﴾ اعلم أن لفظ آدم غيرمنصرف للعلمية ووزن الفعل إذ وزنه أأدم : أفعل ، أبدلت فاؤه ألفا فأصله أأدم بهمزتين الأولى متحركة والثانية ساكنة فأبدلت الثانية وهى فاؤه ألفا على القاعدة المذكورة فى قول ابن مالك .

ومدّا ابدل ثانى الهمزين من كلمة ان يسكن كآثر وائتمن

وعلة هذا الإبدال التخفيف لاستثقال اجتماع الهمزتين ، وهو مشتقّ من أديم الأرض ، وهو ظاهر وجهها لأنه مخلوق منـه . في الحديث « خلق الله آدم من أديم الأرض كلها ، فخرجت ذريته على نحو ذلك : منهم الأبيض والأسود والأحمر والسهل والحزن والطيب والخبيث» أومشتق من الأدمة بضم الهمزة وسكون الدال : وهى حمرة تميل إلى السواد ، كما قاله العلامة ابن حجر . وقال بعضهم : خلق الله آدم من ستين نوعا من أنواع الأرض وطبائعها ، فجاءت أولاده مختلفي الألوان والطبائع . قيل : ولهذا المعنى أوجب الله فى الكفارة إطعام ستين مسكينا بعدد أنواع بنى آدم ليعمهم الجميع بالصدقة ، وكان طوله ستين ذراعا ، والذراع ثمانية أشبار ، فهو أربعمائة وثمانون شبرا ، وعاش ألف سنة ، أفاده الشبرخيتى ( ثم حديث قابيل وهابيل ) ابنى آدم ( كان السبب فى أمرهما الحسد والشح ) أى البخل .

قال أهل العلم بقصص النبيين وأخبار الماضين : إن حواء كانت تلد لآدم توأمين فى كل بطن غلاما وجارية ، وكان جميع من ولدته حواء أربعين ولدا من ذكر وأنثى فى عشرين بطنا : أولهم قابيل وتوأمته إقليما ، وآخرهم عبد المغيث وتوءمته أم المغيث ، ثم أكثر الله فى نسل آدم كما قال تعالى «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة» الآية . قال ابن عباس : لم يمت آدم حتى رأي من ولده وولد ولده أربعين ألفا .

واختلف العلماء فى وقت مولد قابيل وهابيل ، فقال بعضهم : غشى آدم حواء بعد مهبطهما إلى الأرض بمائة سنة ، فولدت له قابيل وتوأمته إقليما فى بطن ، ثم هابيل وتوأمته لبودا فى بطن واحد . وقال محمد بن إسحق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأوّل : إن آدم كان يغشى حواء فى الجنة قبل أن يصيب الخطيئة ، فحملت له بقابيل وتوأمته ، فلم تجد عليهما وحما ولا نصبا ولا طلقا حين ولدتهما ولم تر معهما دما لطهارة لبنه ، فلما هبطا إلى الأرض واطمأنا بها تغشاها ، فحملت بهابيل وتوأمته لبودا ، فوجدت فيهما الوحم والنصب والطلق والدم حتى إذا كبر أولاده زوّج غلام هذا البطن جارية البطن الأخرى ، وزوّج جارية هذا البطن غلام البطن الأخرى ، وكان الرجل منهم يتزوّج أية أخواته شاء غير توأمته التى ولدت معه فإنها لا تحل له ، وذلك لأنه لم يكن نساء يومئذ إلا أخواتهم وأمهم حوّاء ، فكبر قابيل وأخوه هابيل ، وكان بينهما سنتان فى قول الكلبى ، فلما بلغوا أمرالله تعالى آدم أن يزوج قابيل لبودا أخت هابيل ، ويزوج هابيل

إقليما أخت قابيل ، وكانت أخت قابيل من أجمل النساء وأحسنهن خلقا من لبودا ، فذكر آدم ذلك لهما فرضى هابيل وسخط قابيل وقال هى أختى ولدت معى فى بطن وهى أحسن من أخت هابيل فأنا أحق بها ونحن من أولاد الجنة وهما من أولاد الأرض ، فقال له أبوه آدم إنها لا تحل لك ، فأبى أن يقبل ذلك منــه ، وقال : إن الله تعالى لم يأمرك بهذا وإنما هو من رأيك ، فقال لهما آدم قربّا لله قربانا فأيكما تقبل قربانه فهو أحق بها . وقال معاوية بن عمار : سألت جعفرا الصادق أكان آدم زوج ابنته من ابنه ، فقال معاذ الله لو فعل ذلك لما رغب عنه رسول الله صلى الله عليه وسـلم ولا كان دين آدم إلا دين نبينا محمد صلى الله عليه وسـلم ، إن الله أهبط آدم وحواء إلى الأرض وجمع بينهما ، وولد له بنت فسماها عناق فبغت وهى أوّل من بغى فى الأرض فسلط الله من قتلها ؛ فولد لآدم على أثرها قابيل ثم ولد له هابيل ، فلما أدرك قابيل أظهر الله تعالى جنية من الجن يقال لها عمالة فى صورة إنسية ، وخلق لها رحما وأوحى الله تعالى إلى آدم أن زوجها من قابيل فزوجها منه ، فلما أدرك هابيل أهبط الله تعالى إلى آدم حوراء فى صورة إنسية ، وخلق الله تعالى لها رحما وكان اسمها تركة ، فلما نظر إليها هابيل ورمقها أوحى الله إلى آدم أن زوّجها من هابيل ففعل ، فقال قابيل يا أبت ألست أكبر من أخي وأحقّ بما فعلت به منه ؟ فقال يابنىّ إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ؛ فقال لا ولـكنك آثرته على هواك ، فقال إن كنت تريد أن تعلم ذلك فقربا قربانا فأيكما تقبل قربانه فهو أولى بها من صاحبه . قالوا وكانت القرابين حينئذ إذا كانت مقبولة نزلت من السماء نار بيضاء فأكلتها وإن لم تكن مقبولة لم تنزل النار ، بل تأكلها الطير والسباع ، فخرجا من عنـد آدم ليقربّا القربان ، وكان قابيل صاحب زرع فقرب صبرة من طعام من أردأ زرعه ، وأضمر فى نفسه : لا أبالى أيتقبل منى أم لا ؟ لا يتزوج أختى أحد غيرى أبدا ؛ وكان هابيل صاحب غنم فعمد إلى أحسن كبش في غنمه فقربه وأضمر فى نفســه الرضا بالله والتسليم لأمره . وقال إسماعيل بن رافع : إن هابيل نتج له كبش فى غنمه فلما كبر لم يكن له مال أحب إليه منه وكان يحمله على ظهره ، فلما أمر بالقربان قربه . قال فوضعا قربانهما على جبل ثم دعا آدم فنزلت النار من السماء فأكلت قربان هابيل ولم تأكل من قربان قابيل حبة ، لأنه لم يكن زاكى القلب ، وقبل قربان هابيل لأنه كان زاكى القلب ، فما زال الـكبش يرتع فى الجنة حتى فدى به ابن إبراهيم ، فذلك قوله تعالى « فتقبل من أحدهما » : يعنى هابيل « ولم يتقبل من الآخر » : يعنى قابيل إلى قوله « من المتقين » فنزلا عن الجبل وتفرقا ، وقد غضب قابيل لما رد الله قربانه وظهر فيه الحسد والبغى ، وكان يضمرهما قبل ذلك فى نفسه إلى أن أتى آدم مكة ليزور البيت ، فلما أراد أن يأتى مكة قال للسماء : احفظى ولدى بالأمانة فأبت ، فقال ذلك للأرض والجبال : فأبيا ، فقال ذلك لقابيل . فقال نعم ترجع وتراه كما يسرك ، فرجع آدم وقد قتل قابيل هابيل ، فذلك قوله تعالى « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا » : يعنى قابيل حين حمل أمانة أبيه ثم خانه . قالوا : فلما غاب آدم أتى قابيل إلى هابيل وهو فى غنمه . فقال لأقتلنك ، قال ولم ؟ قال لأن الله قبل قربانك ولم يقبل قربانى وتنـكح أختى الحسناء وأنكح أختك الدميمة فيتحدث

وقد تقتل العاشق إذا عف ، فإن وقع فى الزنا هالك فى دينه ، وبهلاكه يكون هلاك الأبد ، فإذا ترك النظر سلم من الفكر فيسلم من الزنا قال عليه الصلاة والسلام « العين تزنى ، والقلب يصدق ذلك أو يكذبه » وقال عليه الصلاة والسلام « ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء » .

﴿ تنبيه ﴾ ما يحرم نظره من الرجل أو المرأة متصلا يحرم نظره منفصلا كقلامة يد أو رجل فتجب مواراتها وكذا الدم . قال فى التحفة : وما قيل مالا يتميز بشكله كشعر ينبغى حل نظره غفلة عما فى الروضة فإنه نقله فيها احتمالا عن الإمام ثم ضعفه . قال العلامة بابصيل : من أقبح المحرمات وأشد المحظورات اختلاط الرجال بالنساء فى الجموعات لما يترتب على ذلك من المفاسد والفتن القبيحة . قال سيدنا الحداد فى بعض مكاتباته لبعض الأمراء : وما ذكرتم من اجتماع النساء متزينات بمحل قريب من محل رجال يجتمعون فيه منسوب لسيدنا عمر المحضار ، فإن خيفت فتنة بنحو سماع صوت فهو من المنكرات التى يجب النهى عنها على ولاة الأمر ويحسن من غيرهم إذا خاف على نفسه أن لا يحضرهم لقوله عليه الصلاة والسلام لما وصف الفتنة « وعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العامة » وهذا الزمان وأهله قد صار إلى فساد عظيم وفتن هائلة وإعراض عن الله والدار الآخرة لا يمكن الاحتراز عنها انتهى بمعناه . قال فى التحفة : ويحرم أيضا نظر شىء من بدن أمرد وهو من لم يبلغ أوان طلوع اللحية غالبا ، ويظهر ضبط ابتدائه بحيث لو كان صغيرة لاشتهيت ولو بلا شهوة خوف فتنة لأنه مظنة الفتنة كالمرأة ، بل قيل إنه أعظم إذ لا يحل بحال وإنما لم يؤمروا بالاحتجاب للمشقة فى ترك التعلم والسبب واكتفاء بوجوب الغض عنهم إلا لحاجة تعليمه ما يجب تعليمه كالفاتحة وما يتعين من الصنائع ، وقد بالغ السلف فى التنفير عنهم وسموهم الأنتان لاستقذارهم شرعا . ووقع نظر بعضهم على أمرد فأعجبه فأخبر أستاذه فقال : سترى غبه فنسى القرآن بعد عشرين سنة . وشرط الحرمة مع أمن الفتنة وانتفاء الشهوة عدم المحرمية من الناظر بنسب أو رضاع أو مصاهرة والسيادة ، وأن يكون للمنظور جميلا بحسب طبع الناظر ، لأن الحسن يختلف باختلاف الطباع ؛ وخرج بالنظر المس فيحرم وإن حل النظر كما جزم به بعضهم وتحرم الخلوة به . وقال العلامة ابن حجر فى الزواجر إن نظره ومسه والخلوة به مع الشهوة وخوف الفتنة من الكبائر . والأصح حرمتها معه كالمرأة ولو بلا شهوة وفتنة حسما للمادة ، ثم قال وقد حرم بعض العلماء الخلوة مع الأمرد فى بيت أو حانوت أو حمام قياسا على المرأة ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما » وفى المرد من يفوق النساء لحسنه ، فالفتنة به أعظم ولأنه يمكن فى حقه من الشر ما لا يمكن فى حق المرأة فهو بالتحريم أولى ، وأقاويل السلف فى التنفير عنه والتحذير من رؤيته أكثر من أن تحصر وسواء فى كل ما ذكرناه نظر المنسوب إلى الصلاح وغيره . ودخل سفيان الثورى الحمام فدخل عليه صبى حسن الوجه فقال أخرجوه عنا فإنى أرى مع كل امرأة شيطانا ومع كل أمرد سبعة عشر شيطانا . وجاء رجل إلى الامام أحمد بأمرد حسن ، فقال له من هذا ؟ فقال ابن أختى ، فقال لا تجىء به إلينا مرة أخرى ولا تمش معه بطريق لئلا يظن بك من لا يعرفك سوءا ، أعاذنا الله من ذلك بمنه وكرمه إنه جواد كريم رءوف

فَإِنَّهَا سَبَبُ كُلِّ فِتْنَةٍ وَآفَةٍ وَأَذْكُرُ فِي أَمْرِهَا ثَلَاثَةَ أُصُولٍ كَافِيَةٍ . أَحَدُهَا : مَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : ( قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ

---

رحيم . ومنها : أي من معاصى العين النظر فى بيت الغير بغير إذنه ، والنظر فى شيء أخفاه كذلك وقد عد العلامة ابن حجر فى الزواجر الاطلاع من نحو ثقب ضيق فى دار غيره بغير إذنه على حرمه من الكبائر لقوله عليه الصلاة والسلام « ثلاث لا يحل لأحد أن يفعلهن : لا يؤم رجل قوما فيخص نفسه بالدعاء دونهم فان فعل فقد خانهم ، ولا ينظر فى قعر بيت قبل أن يستأذن : فان فعل فقد دخل : أى صار كالذى دخل بيت غيره بلا إذنه ، ولا يصلي وهو حقن حتى يخفف ». وروى أن رجلا اطلع على رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجرته ، فقال النبي له : لو علمت أنك تنظر لطعنت بها : أى بمدراة كانت معه عينك « إنما جعل الاستئذان من أجل البصر » وقال عليه الصلاة والسلام «من اطلع فى بيت قوم بغيرذنهم فقدحل لهم أن يفقئوا عينه » وقال عليه الصلاة والسلام « أيما رجل كشف سترا فأدخل بصره قبل أن يؤذن له فقد أتى حدا لا يحل له أن يأتيه ولو أن رجلا فقأ عينه لهدرت ، ولو أن رجلا مر على باب لاستر له فرأى عورة أهله فلا خطيئة ، إنما الخطيئة على أهل المنزل » وقال عليه الصلاة والسلام « من دخلت عينه قبل أن يستأذن ويسلم فلا إذن له وقد عصى ربه » .

﴿ تنبيه ﴾ ما ذكر فى هذه الأحاديث من أنه يجوز لصاحب المنزل أن يفقأ عين ذلك الناظر ولو أنثى ومراهقا جائز عندنا بشرط أن يكون الناظر قاصدا نظرا محرما من كوة ضيقة أو شق باب مردود أو سطح غير ذلك المنزل كسطح مسجد ومنارة وصاحب الدار مكشوف العورة ولو غير السوءة أو بها حرمه كزوجة ومحرم وأمة وأمرد يحرم نظره ولو مستورات إذ قد ينكشفن ولا يجب أن ينذره قبل الرمى خلافا للامام وأن يكون الرمي حال النظر بنحو حصاة من كل خفيف يقصد بمثله العين وإن أعماها ، فإن لم يمكن رمي عينه أو لم يندفع بخفيف استغاث عليه ، فان لم يندفع ضربه بنحو سلاح مما يردعه ، وأن يكون للناظر محرم مستترة ولو غير ساكنة أو زوجة أو أمة ولو مكشوفة وغير ساكنة كما ستوجهه فى الفتح وإلا لم يجز لشبهة النظر حينئذ بخلاف محرم مكشوفة ما بين السرة والركبة لحرمة النظر حينئذ ، وأن لا يكون فيه متاع ، وخرج بالعين غيرها وبالمنزل نحو مسجد وللمنظورة ومحارمها رميه وإن لم يستحقوا منفعة المنزل كما استوجهه فى الفتح وبضيق الواسع كباب مفتوح وكوة واسعة وشباك واسع لتقصير صاحبه إلا أن ينذره فيرميه ولو فتح الناظر الباب ولم يتمكن صاحبه من إغلاقه جاز الرمى إذ لا تقصير .

وبالجملة فالنظر بريد الزنا كما قاله بعضهم ، فينبغى للعبد حفظ عينه ( فانها ) أى العين ( سبب كل فتنة وآفة . وأذكر فى أمرها ثلاثة أصول كافية ) لمن تأملها حق التأمل ( أحدها ما قال الله سبحانه : قل للمؤمنين يغضوا ) والغض إطباق الجفن بحيث يمنع الرؤية ( من أبصارهم ) أي عما

وَيَحفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذٰلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ) .

وَاعْلَمْ أَنِّى تَأَمَّلْتُ هٰذِهِ الآيَةَ فَإِذَا فِيهَا مَعَ قِصَرِهَا ثَلاثَةُ مَعَانٍ عَزِيزَةٌ : تَأْدِيبٌ وَتَنْبِيهٌ وَتَهْدِيدٌ . فَأَمَّا التَّأْدِيبُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ( قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ) وَلاَ بُدَّ لِلْعَبْدِ مِنَ امْتِثَالِ أَمْرِ السَّيِّدِ وَالتَّأَدُّبِ بِآدَابِهِ ، وَإِلاّ فَيَكُونَ سَيِّئَ الأَدَبِ فَيُحْجَبُ فَلاَ يُؤْذَنُ لَهُ فى حُضُورِ المَجْلِسِ وَالمُثُولِ بِالحَضْرَةِ فَافْهَمْ هٰذِهِ النُّكْتَةَ وَتَأَمَّلْ مَا تَحْتَهَا فَإِنَّ فِيهَا مَا فِيهَا . وَأَمَّا التَّنْبِيهُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ( ذٰلِكَ أَزْكَى لَهُمْ )

---

عما لايحلّ النظر إليه ، قيل معناه يغضوا أبصارهم فمن زائدة ، وقيل من للتبعيض لأنه لايجب الغض عما يحل إليه النظر وإنما أمروا أن يغضوا عما لا يحلّ النظر إليه كما فسره الخازن ( ويحفظوا فروجهم ) أى عما لا يحل . قال أبو العالية : كل مافى القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا إلا فى هذا الموضع فإنه أراد به الاستتار حتى لا يقع بصر الغير عليـه . فإن قلت كيف أدخل من على غض البصر دون حفظ الفرج ، قلت : فيـه دلالة على أن أمر النظر أوسع ، ألا ترى أن المحارم لابأس بالنظر إلى شعورهن وثديهن وأعضادهن وأقدامهن ، وكذلك الجوارى المستعرضات فى البيع ، والأجنبية يجوز النظر إلى وجهها وكفيها للحاجة إلى ذلك . وأما أمر الفروج فمضيق وكفاك أن أبيح النظر إلا ما استثنى منـه ، وحظر الجماع إلا ما استثنى منه . فان قلت كيف قدم غض البصر على حفظ الفرج . قلت لأن النظر بريد الزنا ورائد الفجور والبلوة فيه أشد ولا يكاد أحد يقدر على الاحتراس منه ( ذلك ) أى غض البصر وحفظ الفرج ( أزكى لهم ) أى أنفع لهم وأطهر لما فيه من البعد عن الريبة كما فى البيضاوى ( إن الله خبير بمـا يصنعون ) لا يخفى عليـه إجالة أبصارهم واستعمال سائر حواسهم وتحريك جوارحهم وما يقصـدون بها فليـكونوا على حذر منه فى كل حركة وسكون . ( واعلم أنى تأملت ) وتدبرت ( هـذه الآية فإذا فيها ) أى الآية ( مع قصرها ثلاثة معان عزيزة ) : أحدها ( تأديب ، و ) ثانيها ( تنبيه ، و ) ثالثها ( تهديد ) أى تخويف ( فأما التأديب فقوله تعالى : قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ) وهذا أمر ( ولا بد للعبد من امتثال أمر السيد و ) من ( التأديب بآدابه ) أى السيد والتخلق بأخلاقه ( وإلا ) أى إن لم يمتثل أمر السـيد ولم يتأدب بآدابه ( فيـكون سيئ الأدب فيحجب ) بالبناء للمفعول : أى يحجب المسيء عن حضرة ربه ( فلا يؤذن له ) أى المسيء الأدب ( فى حضور المجلس و ) فى ( المثول ) أى القيام ( بالحضرة ) أى حضرة سيده ( فافهم هذه النـكتة ) النادرة ( وتأمل ما تحتها فإن فيها ) أى هذه النـكتة ( ما فيها ) أى مافى النـكتة ،وهذا إشارة إلى سريان الأثر من الأعضاء الظاهرة إلى الباطن والقلب كما يكون سريان الأثر من الباطن والقلب إلى الأعضاء الظاهرة كصفرة الوجل وحمرة الخجل فى الوجه ، كذا فى سراج السالكين، تأمل ( وأما التنبيه ، فقوله تعالى : ذلك أزكى لهم

وَيُطلَقُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ وَاللهُ أَعْلَمُ . الْأَوَّلُ : ذٰلِكَ أَطْهَرُ لِقُلُوبِهِمْ ، وَالزَّكَاةُ الطَّهَارَةُ وَالتَّزْكِيَةُ : التَّطْهِيرُ . وَالثَّانِي : ذٰلِكَ أَنْمَى لِخَيْرِهِمْ وَأَكْثَرُ ، وَالزَّكَاةُ فِي الْأَصْلِ : النُّمُوُّ ، فَنَبَّهَ عَلَى أَنَّ فِي غَضِّ الْبَصَرِ تَطْهِيرَ الْقَلْبِ وَتَكْثِيرَ الطَّاعَةِ وَالْخَيْرِ ، وَذٰلِكَ أَنَّكَ إِنْ لَمْ تَغُضَّ بَصَرَكَ وَأَرْخَيْتَ عِنَانَهُ تَنْظُرْ إِلَى مَالَا يَعْنِيكَ فَلَا يَخْلُو مِنْ أَنْ تَقَعَ عَيْنُكَ عَلَى حَرَامٍ ، فَإِنْ تَعَمَّدْتَ فَذَنْبٌ كَبِيرٌ ، وَرُبَّمَا تَعَلَّقَ قَلْبُكَ بِذٰلِكَ فَتَهْلِكُ إِنْ لَمْ يَرْحَمِ اللهُ تَعَالَى ، فَلَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الْعَبْدَ لَيَنْظُرُ النَّظْرَةَ يَنْغَلُ فِيهَا قَلْبُهُ

---

ويطلق ) هذا ( على معنيين ، والله أعلم : الأول ذلك أطهر لقلوبهم ) من دنس الإثم هكذا فسره ابن عباس ( والزكاة الطهارة والتزكية التطهير ) ومن ذلك قوله تعالى « قد أفلح من زكاها » أى طهرها من الذنوب ( والثانى ذلك أنمى ) أى أزيد ( لخيرهم وأكثر . والزكاة فى الأصل ) أى فى اللغة ( النمو ) أى الزيادة ، يقال زكا الزرع إذا نما من باب قعد كما فى المصباح ، ومن باب سما كما فى المختار . وتطلق أيضا على البركة ، يقال زكت النفقة إذا بورك فيها . وعلى كثرة الخير ، يقال فلان زاك : أى كثير الخير . وعلى التطهير . قال تعالى « قد أفلح من زكاها » أى طهرها من الأدناس كما سبق ، وعلى المدح قال تعالى « فلا تزكوا أنفسكم » أى لا تمدحوها ( فنبه ) تعالى ( على أن فى غض البصر تطهير القلب ) من دنس الإثم ، وقوله تطهير بالنصب اسم أن مؤخرا . قال ابن مالك :

وراع ذا الترتيب إلا فى الذى  كليت فيها أو هنا غير البذى

( وتكثير الطاعة ) عطف على قوله تطهير ( و ) إكثار ( الخير وذلك ) أى بيان تطهير القلب وتكثير الطاعة والخير ( أنك إن لم تغض ) بضم الغين من باب رد ( بصرك وأرخيت ) أى أرسلت ( عنانه ) بكسر العين : أى لجامه ( تنظر إلى مالا يعنيك ) أى لا يهمك مما لا منفعة فيه بفتح أوله من عناه الأمر : إذا تعلقت عنايته به . والذى يعنى الإنسان من الأمور ما يتعلق بضرورة حياته فى معاشه وسلامته فى معاده ، وفى الحديث « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » رواه الترمذى وغيره ( فلا يخلو من أن تقع عينك على حرام ، فإن تعمدت ) إلى نظره ( ف ) هو ( ذنب كبير وربما تعلق قلبك بذلك ) أى الحرام الذى رأيته ( فتهلك ) مع الهالكين ( إن لم يرحم الله تعالى ) ولله در القائل :

كم نظرة فعلت فى قلب صاحبها  فعل السهام بلا قوس ولا وتر
يسر ناظره ما ضر خاطره  لا مرحبا بسرور عاد بالضرر

( فلقد روى إن العبد لينظر النظرة ينغل ) أى ينفسد وبابه طرب ( فيها ) أى بسبب النظرة ( قلبه

كَمَا يَنغل الْأَدِيمُ فِى الدِّبَاغِ فَلَا يَنتَفِعُ بِهِ أَبَدًا وَإِنْ كَانَ مُبَاحًا ، فَرُبَّمَا يَشْتَغِلُ قَلْبُكَ بِهِ فَجَاءَكَ الْوَسَاوِسُ وَالْخَوَاطِرُ بِسَبَبِهِ وَلَعَلَّكَ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ فَتَبْقَى مَشْغُولَ الْقَلْبِ مُنْقَطِعًا عَنِ الْخَيْرِ ، وَإِنْ كُنْتَ لَمْ تَرَ ذَلِكَ كُنْتَ مُسْتَرِيحًا عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ . وَفِى هٰذَا الْمَعْنَى ذُكِرَ عَنْ عِيسَى صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ : « إِيَّاكُمْ وَالنَّظْرَةَ فَإِنَّهَا تَزْرَعُ فِى الْقَلْبِ الشَّهْوَةَ ، وَكَفَى بِهَا لِصَاحِبِهَا فِتْنَةً »

---

كما ينغل الأديم ) وهو الجلد قبل أن يدبغ ( فى الدباغ فلا ينتفع به ) أى بقلبه ( أبدا ) هكذا ذكره المصنف هنا ، وذكره فى الإحياء بلفظ : قال بعض السلف : إن العبد ليأكل أكلة فينقلب قلبه فينغل كما ينغل الأديم فلا يعود إلى حاله أبدا ولم يذكر إسناده ( وإن كان ) ما رأيته بعينك ( مباحا فربما يشتغل قلبك به ) أى بالمباح ( فجاءك الوساوس والخواطر بسببه ) أى المباح أى رؤيته ( ولعلك لا تصل إليه ) أي إلى تناول ما رأيته من المباح لمانع من الموانع ( فتبقى مشغول القلب ) بالفكر فى ذلك ( منقطعا عن الخير ) هذا شؤم عدم حفظ العين المسمى بزناها ، وزنا العين كما قاله حجة الإسلام وغيره هو من كبار الصغائر وهى تؤدى إلى القرب إلى الكبيرة الفاحشة وهى زنا الفرج ، وأول خطايا الفرج شهوة القلب بمسامرة الفكر وهو معفو ، كما أن النظر الأول معفو ، والخطيئة الثانية إنعاظ الفرج عن شهوة القلب فهذا عمل ، فإن ظهرت الشهوة من الفرج فهى معصية ، ومن لم يقدر على غض بصره لم يقدر على حفظ دينه ، لأن أصل البلاء كله من النظر ( وإن كنت لم تر ذلك ) المذكور من المباح وغيره مما لا ينفعك ( كنت مستريحا عن ذلك ) الذى ذكر من الوساوس والخواطر ( كله ، وفى هذا المعنى ) الذى ذكرناه ( ذكر عن عيسى ) ابن مريم هو عبد الله ورسوله وكلمته وروح منه ( صلوات الله عليه : إياكم والنظرة فإنها تزرع فى القلب الشهوة وكفى بها ) أى النظرة ( لصاحبها فتنة ) هكذا ذكره فى الإحياء . وأخرج أبو نعيم فى الحلية ، فقال حدثنا أبو بكر بن مالك ، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثنى أبى ، حدثنا معتمر عن إسحاق بن سويد عن العلاء بن زياد قال « لاتتبع بصرك رداء المرأة فإن النظر يجعل فى القلب شهوة » . وقال سعيد بن جبير : إنما جاءت الفتنة لداود عليه السلام من قبل النظرة ولذلك قال لابنه سليمان عليهما السلام : يا بنى امش خلف الأسد والأسود ولا تمش خلف المرأة ، وقيل ليحيى بن زكريا عليهما السلام ما بدء الزنا ؟ قال : النظر والتمنى ؛ فالنظر من العين ، والتمنى من القلب ، والفرج يصدق أو يكذب . وقال الفضيل بن عياض : يقول إبليس هى قوسى القويمة التى أرمى بها وسهمى الذى لا يخطئ فى إصابة غرضى : يعنى النظرة ، وقلما يخلو الإنسان فى تردده عن وقوع البصر على النساء والصبيان فمهما يخيل إليه الحسن تقاضى الطبع المعاودة . وعنده ينبغى أن يقرر فى نفسه أن هذه المعاودة عين الجهل فإنه إن حقق النظر فاستحسن ثارت النفس بالشهوة وعجز عن الوصول إلى المطلوب فلا يحصل له إلا التحسر وإن استقبح لم يلتذ ، لأن الاستلذاذ

وَقالَ ذُو النُّونِ : نِعْمَ حَاجِبُ الشَّهَوَاتِ غَضُّ الْأَبصارِ ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ :

وَأَنْتَ إِذَا أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا     لِقَلْبِكَ يَوْمًا أَتْعَبَتْكَ الْمَنَاظِرُ
رَأَيْتَ الَّذِى لاكُلَّهُ أَنْتَ قَادِرٌ     عَلَيْهِ وَلاَ عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ

فاذن

---

لايكون إلا مع الاستحسان وتألم فى نفسه لأنه قصد الالتذاذ فقد فعل ما آلمه فلا يخلو فى كلتا حالتيه عن معصية وعن تألم وعن تحسر ، ومهما حفظ العين بهذا الطريق اندفع عن قلبه كثير من الآفات ، فإن أخطأت عينه وحفظ الفرج مع التمكن والتيسر ، فذلك يستدعى غاية القوة ونهاية التوفيق من الله تعالى . فقد روى أبو نعيم فى الحلية عن أبى بكر بن عبد الله المزنى أن قصابا أولع بجارية لبعض جيرانه فأرسلها أهلها فى حاجة لهم إلى قرية أخرى فتبعها وراودها عن نفسها فقالت له لاتفعل لأنا أشد حبا لك منى ولكن أخاف الله تعالى . قال القصاب وأنت تخافينه وأنا لاأخافه ؟ قال : فرجع تائبا فأصابه العطش حتى كاد ينقطع عنقه ، فاذا هو برسول لبعض أنبياء بنى إسرائيل فسأله فقال مالك ؟ قال : العطش قال تعال حتى ندعو الله بأن تظلنا سحابة حتى ندخل القرية . قال القصاب : مالى من عمل صالح فادع أنت قال : فأنا أدعو وأمن أنت : أى قل آمين على دعائى ، فدعا الرسول وأمن هو فأظلتهما سحابة حتى انتهيا إلى القرية ، فأخذ القصاب إلى مكانه فمالت السحابة معه . فقال له الرسول زعمت أن ليس لك عمل صالح وأنا الذى دعوت وأنت الذى أمنت فأظلتنا سحابة ثم تبعتك دونى ، لتخبرنى بأمرك فأخبره بما جرى له مع الجارية ، فقال الرسول : إن التائب عند الله تعالى بمكان ليس أحد من الناس بمكانه (وقال) أبو الفيض (ذو النون) المصرى واسمه ثوبان بن إبراهيم . وقيل اسمه الفيض بن إبراهيم ، توفى سنة خمس وأربعين ومائتين فائق هذا الشأن وأوحد وقته علما وورعا وحالا وأدبا ، وهو معدود فى جملة من روى الموطأ عن الإمام مالك رضى الله تعالى عنه . قال القشيرى : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى رحمه الله يقول : سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت يوسف بن الحسين يقول حضرت مجلس ذى النون يوما وجاءه سالم المغربى ، فقال له يا أبا الفيض ما كان سبب توبتك ؟ قال: عجب لاتطيقه قال بمعبودك إلاأخبرتنى ، فقال ذوالنون أردت الخروج من مصر إلى بعض القرى فنمت فى الطريق فى بعض الصحارى ، ففتحت عينى فإذا أنا بقنبرة عمياء سقطت من وكرها على الأرض ، فانشقت الأرض فخرج منها سكر جتان : إحداهما ذهب والأخرى فضة وفى إحداهما سمسم وفى الأخرى ماء فجعلت تأكل من هذا وتشرب من هذا فقلت حسبى قد تبت ، ولزمت الباب إلى أن قبلنى الله عز وجل ( نعم حاجب الشهوات غض الأبصار ولقد أحسن القائل ) من بحر الطويل ( وأنت إذا أرسلت طرفك ) بسكون الراء : أى عينك ( رائدا ) أى طالبا ( لقلبك يوما ) من الأيام ( أتعبتك المناظر . رأيت الذى ) اشتهيته ( لا كله ) أى جميع الذى رأيته من المشتهيات ( أنت قادر * عليه ) أى على كله ( ولا عن ) تناول ( بعضه ) أى الذى رأيته ( أنت صابر . فإذن ) أى حين إذ علمت ماقاله عيسى عليه السلام من أن النظرة

مَهْمَا كُنْتَ غَاضًّا لِلْبَصَرِ حَافِظًا لِلعَيْنِ لاَتَنْظُرُ إِلَى مَالاَ يَعْنِيكَ وَلاَ يُهِمُّكَ كُنْتَ نَقِي الصَّدْرِ فارِغَ الْقَلْبِ مُسْتَرِيحًا عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْوَسْوَاسِ سَالِمَ النَّفْسِ عَنِ الآفَاتِ مُتَزَايِدًا فِى الْخَيْرَاتِ فَتَنَبَّهْ لِهٰذِهِ النُّكْتَةِ الْجَامِعَةِ وَاللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُوَفِّقُ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

وَأَمَّا التَّهْدِيدُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنّ اللّٰهُ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) وَقالَ تعالَى: (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) وَكَفَى بِهٰذَا تَحْذِيرًا لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ فَهٰذَا أَصْلٌ وَاحِدٌ مِنْ كِتَابِ اللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ .

الْأَصْلُ الثَّانِى مَارَوَيْنَا عَنْ رَسُولِ اللّٰهِ صلى اللّٰهُ عليه وسلم أَنَّهُ قالَ « إِنّ النَّظَرَ إِلَى مَحَاسِنِ الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ فَمَنْ تَرَكَهَا أَذَاقَهُ اللّٰهَ تَعَالَى طَعْمَ عِبَادَةٍ تَسُرُّهُ»

---

الواحدة تزرع فى القلب شهوة وتكفى لصاحبها فتنة ( مهما كنت غاضا للبصر حافظا للعين لاتنظر إلى مالا يعنيك ) أي لاينفعك ( ولا يهمك ) أى لم يحوجك بالنظر إليه (كنت نقى الصدر ) أى طاهر القلب ( فارغ القلب ) من الشواغل (مستريحا عن كثير من الوسواس ) والخواطر ( سالم النفس عن الآفات متزايدا فى الخيرات، فتنبه ) أيها الرجل ( لهذه النكتة الجامعة ) أى التى ذكرناها من التنبيه المأخوذ من قوله تعالي « ذلك أزكى لهم » إلى آخره ( والله عز وجل الموفق بمنه ) أي بفضله تعالى ( وكرمه ) إنه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين ( وأما التهديد فقوله تعالى : إن الله خبير بما يصنعون ) من الخير والشر ( وقال تعالى: يعلم ) سبحانه وتعالى ( خائنة الأعين ) أى خيانتها التى هى أخفى مايقع من أفعال الظاهر وهو الإشارة ، كذا قاله الشربينى ؛ ويصح أن يكون ذلك من إضافة الصفة للموصوف : أى العين الخائنة بمسارقتها النظر إلى مالا يحل . قال العلامة عبد الحق : والنظرة الخائنة كالنظرة الثانية إلى المحرم واستراق النظر اليه ( وما تخفى الصدور ) أى القلوب من العزم على فعل المعصية والطاعة ( وكفى بهذا ) المذكور من الدليلين المخوفين ( تحذيرا ) وتخويفا ( لمن خاف مقام ربه ) أى قيامه بين يدى ربه ( فهذا ) التهديد ( أصل واحد من كتاب الله عز وجل . الأصل الثانى ماروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن النظر إلى محاسن المرأة ) والمحاسن هى مواضعها الحسنة من البدن ، ومفرده محسن ، وقيل لاواحد له أفاده فى سراج السالكين ( سهم مسموم من سهام إبليس ) اللعين ( فمن تركها ) أى النظرة خوفا من الله تعالى كما فى رواية ( أذاقه الله تعالى طعم ) أى حلاوة ولذة ( عبادة تسره ) أى تفرحه رواه الحاكم وصحح إسناده من حديث حذيفة ، وأورده ابن الجوزى فى كتابه [ تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر ] بلفظ « النظر إلى المرأة سهم مسموم من سهام إبليس ، فمن تركه ابتغاء مرضاة الله أعطاه الله إيمانا فى قلبه يجد حلاوته » وقال صلى الله عليه وسلم « لكل ابن آدم حظه من

وَإِنْ وَجَدَ أَنَّ حَلاَوَةَ الْعِبَادَةِ وَلَذَّةَ الْمُنَاجَاةِ مِنَ الْعَابِدِينَ بِمَكَانٍ وَهٰذَا شَيْءٌ مُجَرَّبٌ عَلَيْهِ وَتَحَقَّقَهُ مَنْ عَمِلَ بِهِ ، لِأَنَّهُ إِذَا امْتَنَعَ عَنِ النَّظَرِ إِلَى الاَ يَعْنِيهِ يَجِدُ لَذَّةً لِلْعِبَادَةِ وَحَلاَوَةً لِلطَّاعَةِ وَلِلْقَلْبِ صَفْوَةً لَمْ يَجِدْهَا قَبْلَ ذٰلِكَ .

الْأَصْلُ الثَّالِثُ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى كُلِّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِكَ يَصْلُحُ لِمَاذَا وَيُنْظَرُ لَهُ مَاذَا؟ فعلَى حَسَبَ ذٰلِكَ

---

الزنا ، فالعينان تزنيان وزناهما النظر ، واليدان تزنيان وزناهما البطش ، والرجلان تزنيان وزناهما المشي ، والفم يزني وزناه القبل ، والقلب يهم ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه » . رواه مسلم والبيهقي ، وهذا الحديث إشارة إلى أن أصل زنا الفرج العينان ، فإنهما له رائدان ، وإليه داعيان وقد قالوا : من سرح ناظره أتعب خاطره ، ومن كثرت لحظاته دامت حسراته وضاعت أوقاته . قال الشاعر :

نظر العيون إلى العيون هو الذي  جعل الهلاك إلى الفؤاد سبيلا

وقالت أم سلمة رضى الله عنها « استأذن ابن أم مكتوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا وميمونة جالستان، فقال عليه الصلاة والسلام احتجبا، فقلنا أوليس بأعمى لايبصرنا ؟ فقال : وأنتما لاتبصرانه » رواه أبو داود والنسائي والترمذي وقال حسن صحيح ، وهذا الحديث يدل على أنه لايجوز للنساء مجالسة العميان كما جرت به العادة فى المآتم والولائم، فيحرم على الأعمى الخلوة بالنساء الأجانب ، صرح بذلك غير واحد من العلماء ، ويحرم على المرأة مجالسة الأعمى وتحديق النظر إليه لغير حاجة ضرورية فإنه علي كل حال أجنبي وفيه مافى الرجال وأكثر ، لأن غض البصر عن المحارم ممايورث قوة على الجماع ، وهؤلاء قدحجبت أبصارهم عن الرؤية ، فرجعت قوتها إلى الجماع فلهم فيه حظ أكثر من الذى يبصر ، فحينئذ فتنة النساء بهم أكثر ، فيجب منعهن عن الخلوة بهم ومحادثتهم فإنهم أشد ضررا من إبليس .

ومن المشهور قول العامة : مامن فتنة تكون فى بيت الإنسان إذا حقق أصلها إما من امرأة أو فقيه أعمى كما صرح به العلامة الزبيدى ( وإن وجد أن حلاوة العبادة ولذة المناجاة ) إلى الله تعالى ( من العابدين بمكان ) أى رتبة ومنزلة ( وهذا ) أى إن ترك النظر إلى مالا يعنيه يلقيه ويذيقه حلاوة العبادة ولذة المناجاة ( شيء مجرب عليه وتحققه من عمل به لأنه ) أى العبد ( إذا امتنع عن النظر إلى مالا يعنيه ) ولا يفيده فى دينه ودنياه ( يجد لذة للعبادة وحلاوة للطاعة و ) يجد ( للقلب صفوة لم يجدها ) أى صفوة القلب ( قبل ذلك ) أى الامتناع عما ذكر .

(الأصل الثالث أن تنظر إلي كل عضو من أعضائك يصلح ) أى العضو ( لماذا ) أى لأى شيء يفعله ( وينظر له ) أى للعضو بالبناء للمجهول ( ماذا ) يصلح له ( فعلى حسب ذلك ) أى النظر فى أمر

تَصُونُهُ وَتَحْفَظُهُ ؛ فالرِّجْلُ

---

كل العضو ( تصونه وتحفظه ) مرادف لما قبله ( فالرجل ) يجب عليك أن تحفظها عن معاصيها وهى كثيرة : منها المشى بها فى كل محرم ومعصية ، وذلك كالمشى بها فى سعاية بمسلم أو قتله أو فيما يضره إذا كان ذلك بغير حق . قال عليه الصلاة والسلام « الساعى متلف » أى مهلك بسعايته نفسه والمسعى به وإليه ، وعدها فى الزواجر من الكبائر . ثم قال : وكونها كبيرة إذا كان ماينشأ عنها صغيرة إلا أن يقال تصير كبيرة بما ينضم لذلك من الرعب بالمسعى به وإرجاف أهله وترويعهم بطلب السلطان ، كذا قيل . والصواب أنها كبيرة لأنها نميمة بل هى أقبح أنواعها وقد ثبت فى الصحيح بتسمية النميمة كبيرة . والمراد السعى إلى سلطان أو غيره من الولاة بالبرئ ، وأما ما جازت فيه شهادة الحسبة فليس منها ، بل يجب الرفع فيه إلا لعذر . وقد قال فى الجواهر : قال النووى : فلو دعت إلى النميمة حاجة فلا منع منها كما إذا أخبره شخص أن إنسانا يريد الفتك به أو بأهله أو ماله وأخبره أن فلانا يسعى بما فيه مفسدة . ويجب على الوالي الكشف عن ذلك وما أشبهه ، فكل ذلك لاحرمة فيه ، بل قد يجب تارة ، ويندب أخرى بحسب المواطن . ومنها : أى من معاصى الرجل التبختر فى المشى ، وهو من الكبائر إن قصد به التكبر المنضم إليه نحو استحقار الخلق ، وأما تقرير الشيخين صاحب العمدة على أنه صغيرة فمحمول على ما إذا لم ينته به الحال إلى قصد ذلك . كما قاله العلامة بابصيل . قال تعالى « ولا تمش فى الأرض مرحا » الآية . قال النووى . والمرح : التبختر . وقال عليه الصلاة والسلام « إذا مشت أمتي المطيطياء وخدمتهم فارس والروم سلط بعضهم على بعض » ، والمطيطياء بضم ففتح مصغر ولم تكبر : التبختر ومد اليدين فى المشى . وقال عليه الصلاة والسلام « من تعظم فى نفسه واختال فى مشيته لقى الله وهو عليه غضبان » . وقال عليه الصلاة والسلام « بئس العبد عبد تخيل واختال ونسى الكبير المتعال » الحديث . ومنها تخطى رقاب المصلين إلا إذا صدر من إمام . وكذا من غيره لفرجة أمامهم لتقصيرهم لسدها ، وذلك لقوله عليه الصلاة والسلام « من تخطى رقاب الناس يوم الجمعة اتخذ جسرا إلى جهنم » . وفى حديث « الذى يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة ويفرق بين اثنين بعد خروج الإمام كجار قصبه : أى أمعاءه فى النار » . قال القسطلانى : قال العراقى والمشهور اتخذ مبنيا للمفعول : أى يجعل جسرا على طريق جهنم ليوطأ ويتخطى كما يتخطى رقاب الناس فإن الجزاء من جنس العمل ، ويحتمل البناء للفاعل : أى اتخذ لنفسه جسرا يمشى عليه إلى جهنم بسبب ذلك . قيل والتقيد بالجمعة للغالب ، وجرى بعض المتأخرين على أنه كبيرة وكأنه أخذه من هذه الأحاديث ، وهو وإن كان قريبا إلا أن الأصح من مذهبنا أنه مكروه إلا فى مسائل . ويجمع بينه وبين تلك الأحاديث بحملها على من آذى به الناس أذي شديدا عرفا ، وحمل الكراهة على ما إذا خف ذلك الأذى . ومنها المرور بين يدى المصلى صلاة صحيحة فى اعتقاد المصلى ولو نفلا : أى بينه وبين سترته وإن لم يجد طريقا آخر حيث لم يقصر المصلى كما فى الفتح . وفى النهاية أنه يجوز إذا اضطر إليه لإنقاذ نحو غريق . قال الكردى : وهو المعتمد ، بل نقل

الإمام عن الأئمة جوازه إن لم يجد طريقا واعتمده الأسنوى وغيره لكنه ضعيف ، ومحل الحرمة إذا كملت شروط سترته بأن قرب منها ثلاثة أذرع فأقل بذراع اليد المعتدلة ، وتحسب من العقب عند ابن حجر ومن الأصابع عند الرملي وكانت مرتفعة ثلثى ذراع إن وجدها وإلا فمصلى يفترشه فإن لم يجده فخطا يخطه من قدميه إلى نحو القبلة ، وشرطهما كالمرتفع ، فإن فقد شرط من ذلك كأن قصر بصلاته فى محل يغلب فيه المرور ذلك الوقت كالمطاف أو ترك فرجة فى صف أمامه فاحتيج للمرور بين يديه لسدها لم يحرم وإن تعددت الصفوف فى الأخيرة ، وذلك لقوله عليه الصلاة والسلام « لو يعلم المار بين يدى المصلي ماذا عليه لكان أن يقف أربعين خريفا خيرا له من أن يمر بين يديه » ومنها مد الرجل إلى المصحف . قال فى التحفة فيحرم كما قاله الزركشى لكن إذا كان المصحف غير مرتفع على شئ لما فيه من إهانته كالقائه بقاذورة وكتبه بنجس ومسه بعضو متنجس برطب مطلقا أو بجاف غير معفو عنه . ومنها المشى بها إلى كل أمر محرم فى الشرع فعله أو قوله أو سماعه ، وكذا إلى ماهو فى الأصل مباح كبيع وشراء ، لكن يحصل بالمشى إليه نحو تخلف عن واجب من واجبات الشرع كأن يحصل به تأخير نحو صلاة عن وقتها . قال تعالى « ياأيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولاأولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » وإنما وجب عليك حفظ الرجل من المعاصى كلها ، لأن الرجل إنما خلقت ( للمشى ) إلى طاعة الله تعالى ( فى رياض الجنة وقصورها. و ) أما ( اليد ) فاحفظها عن أن تضرب بها مسلما أو ذميا بغير مسوغ شرعى كالضرب فى الوجه أو تقتله بها بمباشرة أو بسبب كحفر البئر عدوانا أو تتناول بها مالاحراما أو تؤذى بها أحدا من الخلق أو تخون بها فى أمانة أو تكتب بها مالا يجوز النطق به فإن القلم أحد اللسانين فاحفظ القلم عما يجب حفظ اللسان منه .

والحاصل أن معاصى اليد كثيرة : منها التطفيف فى الكيل والوزن والذرع والسرقة والنهب والغصب والمكس والغلول من الغنيمة . ومنها اللعب بالنرد وكل ما فيه قمار وهو حرام كما فى الأم وجرى عليه الأصحاب والشيخان وغيرهما . وقيل مكروه وزيف بأن الأخبار صريحة فى التحريم بل في كونه كبيرة فلا يعول عليه : أى هذا القيل . كيف وقد نقل القرطبى اتفاق العلماء على تحريم اللعب به . قال عليه الصلاة والسلام « من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله » . وقال عليه الصلاة والسلام « مثل الذى يلعب بالنرد ثم يقوم يصلى مثل الذى يتوضأ بالقيح ودم الخنزير ثم يقوم فيصلى» أى فلا تقبل صلاته كما صرحت به رواية أخرى ،وحكمة تحريمه أن فيه حزراو تخمينا فيؤدى للتخاصم والفتن التى لا غاية لها . ففطم الناس عنه حذرا من الشرور المترتبة عليه وكل ما كان كذلك فهو حرام كما ذكره العلامة بابصيل .

ومنها لمس جزء من بدن المرأة الأجنبية إذا كان ذلك عمدا وبغير حائل مطلقا بشهوة أو بغير

لِكَأْسِ الشَّرابِ وَتَنَاوُلِ الأَثْمَارِ وَكَذٰلِكَ فِى سَائِرِ الأَعْضَاءِ

شهوة ؛ وإذا كان به شهوة حرم ولو مع اتحاد جنس كرجل مع مثله وامرأة كذلك لورود الحديث بأن زنا اليد البطش بها . ومثل الأجنبية في ذلك الأمرد . وقد عدلمسهما في الزواجر من الكبائر. ومن ذلك آلات اللهو المحرمة كالطنبور والرباب والمزمار بل وجميع الأوتار . قال في كف الرعاع عن الدونق : قد علم من غير شك أن الشافعي حرم سائر أنواع المزامير والشبابة من جملتها ، وإنما حرمت هذه الأشياء لما فيها من الصد عن ذكر الله وعن الصلاة ومفارقة التقوى والميل إلى الهوى والانغماس في المعاصي ، وأطال في تقرير التحريم ، وأنه الذي درج عليه الأصحاب من لدن الشافعي إلى آخر وقته من البصريين والبغداديين والخراسانيين والشاميين ومن سكن الجبال وما وراء النهر واليمن كلهم يستدل بقصة ابن عمر رضي الله عنهما ، يعني حديث زمارة الراعي ، وقد بسطها رحمه الله بما تنبغي مراجعته ، وإنما تمنع اليد عن المعاصي المذكورة لأن اليد ( ا ) أخذ ( كأس الشراب وتناول الأثمار ) في الجنة مع الأبرار ( وكذلك ) الصيانة والحفظ ( في سائر الأعضاء ) وهو الفرج فاحفظه عن المعاصي : منها الزنا ، أعاذنا الله منه بمنه وكرمه ، وهو من الكبائر كما في الزواجر ، لقوله تعالى « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » ، وقوله تعالى « واللاتي يأتين الفاحشة » الآيات . وقوله عليه الصلاة والسلام « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » . وقوله عليه الصلاة والسلام « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله إلا في إحدى ثلاث : زنا بعد إحصان فإنه يرجم » الحديث ، وقوله عليه الصلاة والسلام « الزناة تشتعل وجوههم نارا » . وفي الحديث « إن السموات والأرض السبع تلعن الشيخ الزاني ، وإن فروج الزناة ليؤذي أهل النار نتن ريحها » . وقال عليه الصلاة والسلام « لا تزال أمتي بخير مالم يفش فيهم ولد الزنا ، فإذا فشا فيهم ولد الزنا فأوشك أن يعمهم الله بعذاب » وقال عليه الصلاة والسلام « إذا ظهر الزنا ظهر الفقر والمسكنة » . وقال عليه الصلاة والسلام « ما ظهر في قوم الزنا والربا إلا أحلوا بأنفسهم عذاب الله » . وورد « إن في جهنم واديا فيه حيات وعقارب كل عقرب بقدر البغل لها سبعون شوكة في كل شوكة سم تضرب الزاني وتفرغ سمها في جسده يجد مرارة وجعها ألف سنة ثم يتهرى لحمه ويسيل من فرجه القيح والصديد »

ثم اعلم أنه على ثلاث مراتب : الأولى بأجنبية خلية عن نحو الزوج وهو عظيم أمره كما علمت . والثانية بنحو متزوجة وهو أعظم فاحشة وقبحا . والثالثة بمحرم وهو أقبح وأقبح . وهو من الثيب أقبح منه من البكر ، بدليل اختلاف حديهما كما هو مبسوط في محله ، ومن الشيخ أقبح من الشباب لكمال عقله ، ومن الحر أقبح منه من القن ، ومن العالم أقبح منه من الجاهل . ومن معاصي الفرج اللواط وهو أعظم من الزنا ، بدليل قول مالك وأحمد رحمهما الله تعالى : يرجم اللوطي ولو غير محصن ، بخلاف الزاني غير المحصن . وقول جماعة : يشدد في حده مالم يشدد به في حد الزاني . وفي الإحياء : إن الزنا أشد ، لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين فيكثر وقوعه

ويعظم ضرره : أي لأنه يترتب عليه اختلاف الأنساب ، وكم ورد فى ذمه والتشديد فيه : قال عليه الصلاة والسلام « إن أخوف ما أخاف على أمتى عمل قوم لوط » وقال عليه الصلاة والسلام « إذا كثرت اللوطية رفع الله عز وجل يده عن الخلق فلا يبالي فى أى واد هلكوا » . وقال عليه الصلاة والسلام « لعن الله من عمل عمل قوم لوط ثلاثا » وهو من عملهم كما قصه الله علينا فى غير ما آية تحذيرا لنا أن نفعل فعلهم فيصيبنا ما أصابهم . قال تعالى « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها » الآية .

ومنها ترك الختان بعد البلوغ ، إذ هو واجب حينئذ على المكلف سواء الذكر والأنثى ، وكان من ملة إبراهيم عليه السلام . قال تعالى « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا » . وقال عليه الصلاة والسلام لرجل أسلم « ألق عنك شعار الكفر واختتن » أما ختان الصبى والمجنون فغير واجب . قال العلامة ابن حجر فى الزواجر : وتركه بعد البلوغ من الرجل والمرأة من الكبائر كذا ذكره بعضهم ؛ وله نوع اتجاه فى ترك ختان الذكر لما يترتب عليه من المفاسد التي من جملتها ترك الصلاة غالبا ، لأن غير المختون لا يصح استنجاؤه حتي يغسل الحشفة التى داخل قلفته ، لأنها لما كانت مستحقة الإزالة كان ما تحتها فى حكم الظاهر فوجب غسله : والظاهر من أحوال غير المختون التساهل فى ذلك وعدم الاعتناء فلا تصح صلاته ، وكان هذا ملحظ من عده كبيرة ، وأما فى حق الأنثى فلا وجه لكونه كبيرة ، ثم رأيت فى كلام الأصحاب مايصرح بما ذكرته وذلك أنهم حكوا وجهين فى قبول شهادة الأقلف . قال بعض شراح المنهاج كالكمال الدميرى والصحيح أنا إذا أوجبنا الختان فتركه بلا عذر فسق ، فأفهم أن الكلام إنما هو فى الذكر دون الأنثى وأن الذكر يفسق بتركه الختان بلا عذر ، ويلزم من فسقه به كونه كبيرة ووجهه ما قدمته . قال بعضهم وعدّ هذا من معاصى الفرج باعتبار أنه متعلق به ، وإلا فهو من المعصية بكل البدن فليتأمل .

﴿تنبيه : فيما جاء فى حفظ الفرج﴾ روى « أن كفلا من بنى إسرائيل كان لا يتورع من ذنب أتته امرأة فأعطاها ستين دينارا ليطأها ، فلما راودها عن نفسها ارتعدت وبكت ، فسألها فقالت هذا عمل ما عملته وحملتنى عليه الحاجة ، فقال أنا أحرى بذلك اذهبى فلك ما أعطيتك والله لا أعصيه بعدها أبدا ، فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه : إن الله قد غفر للكفل » وفى الحديث « من يضمن لى ما بين لحييه وما بين رجليه تضمنت له بالجنة » . وعشق بعض العرب امرأة فمكنته من نفسها ، فلما أراد الفعل وقف ففكر وأراد القيام ، فقالت له مالك ؟ فقال إن من يبيع جنة عرضها السموات والأرض بقدر فتر لقليل الخبرة بالمساحة ثم تركها .

ووقع لبعض الصالحين أنه حدثته نفسه بفاحشة فأدخل أصبعه بفتيلة وقال يانفس إن صبرت على حرها مكنتك مما تريدين ، فحست نفسه أن روحه كادت تخرج من شدة حرها وهو يتجلد على ذلك ويقول هل تصبرين وإذا لم تصبرى على هذه النار اليسيرة التى طفئت بالماء سبعين مرة حتى

## فَالْعَيْنُ إِنَّمَا هِيَ لِلنَّظَرِ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ

قدر أهل الدنيا على مقابلتها فكيف تصبرين على حر نار جهنم المتضاعفة حرارتها على هذه سبعين ضعفا ، فرجعت نفسه عن ذلك الخاطر ولم يخطر لها بعد ذلك والله الموفق .

قال المصنف رحمه الله ( فالعين ) إنما خلقت لك لتهتدى بها فى الظلمات ، وتستعين بها فى الحاجات ، وتنظر بها إلى عجائب ملكوت الأرض والسموات ، وتعتبر وتتعظ بما فى عجائبهما من الدلالات الواضحات على وحدانية الله كما قال تعالى « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » : أى ينظرون بعيون عقولهم ويعتبرون ، لأنها دلائل على عظيم القدرة وباهر الحكمة و ( إنما ) خلقت ( هي ) أى العين أيضا ( للنظر إلى رب العالمين سبحانه ) فى جنة عدن ، يعنى الانكشاف التام من غير إحاطة بحدود المرئى تعالى ونهايته لاستحالة الحدود والنهايات عليه تعالى ، فكأن المؤمنين يعلمونه بلا حد ونهاية ، وبلا كيف يرونه كذلك ، فيرى لافى مكان ولا فى جهة ، ولا باتصال شعاع ولا على مسافة بينه تعالى وبين الرائى ، لأن الرؤية عندنا نوع من الإدراك يخلقه الله متى شاء ولأى شىء شاء فى أى محل شاء ، بل يحار العبد فى العظمة والجلال حتى لايعرف اسمه ولا يشعر بمن حوله من الخلائق ، فان العقل يعجز هنالك عن الفهم ، ويتلاشى الكل فى جنب عظمته تعالى ، ولله در القائل اللقانى :

ومنه أن ينظر بالأبصار ... لكن بلا كيف ولا انحصار
للمؤمنين إذ بجائز علقت ... هذا وللمختار دنيا ثبتت

وقال العلامة القارى :

يراه المؤمنون بغير كيف ... وإدراك وضرب من مثال
فينسون النعيم إذا رأوه ... فياخسران أهل الإعتزال

وهل يجوز أن يرى فى المنام ؟ فقيل لا ، وقيل نعم ، والحق أنه لامانع من هذه الرؤية وإن لم تكن رؤيا حقيقة ، ومن جملة من رآه فى المنام الامام أحمد بن حنبل ؛ فقد نقل عنه انه رآه فى المنام تسعة وتسعين مرة وقال لئن رأيته تمام المائة لأسألنه عن أفضل مايتقرب به المقربون ، فرآه تمام المائة ، وسأله فقال له بتلاوة كلامى يا أحمد ، فقال بفهم وبغير فهم ؟ فقال بفهم وبغير فهم . وقد قال بعض الصوفية : إنه رأى ربه فى منامه على وصفه ، فقيل له كيف رأيته ؟ فقال انعكس بصرى فى بصيرتى فصرت كلى بصرا ، فرأيت من ليس كمثله شىء . قال فى البدر اللامع :

وَلَيْسَ فِى الدَّارَيْنِ كَرَامَةٌ أَجلُّ وَأَكْبَرُ مِنْ ذٰلِكَ فَحَقِيقٌ لِشَيْءٍ يَنْتَظِرُ وَيُرْجَى لَهُ مِثْلُ هٰــذِهِ الْكَرَامَةِ أَنْ يُصَانَ وَيُحْفَظَ وَيُعَزَّ وَيُكْرَمَ . فَهٰذِهِ الْأُصُولُ الثَّلَاثَةُ إِذَا أَحْسَنْتَ التَّأَمُّلَ فِيهَا كَفَتْكَ الْمُؤْنَةُ فِى هٰذَا الْفَصْلِ ، وَاللهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقُ ، وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

﴿ الفصل الثانى الأذن ﴾

فَعَلَيْكَ بِصِيَانَةِ سَمْعِكَ عَنِ الْخَنَا وَالْفُضُولِ

يراه مؤمنون فى القيامه وهل يرى الآن وفى المنامه
قلت أرى الامكان فيهما أسد أما الوقوع يقظة فالجل رد
نعم لطه وقعت على الجلى ووقعت فى النوم لابن حنبل

والدلائل على جواز الرؤية كثيرة ليس هذا محل ذلك فانظر شرح الإحياء للعلامة السيد مرتضى الحسينى تجد كلاما حسنا فى بحث الرؤية ودلائله وغير ذلك ( وليس فى الدارين ) أى دار الدنيا والآخرة ( كرامة أجل ) أى أعظم ( وأكبر من ذلك ) أى النظر إلى رب العالمين ( فحقيق ) أى جدير لائق ( لشىء ينتظر ويرجى له ) أى للشىء ( مثل هــذه الكرامة ) العظيمة التى هى الرؤية لوجهه الكريم ( أن يصان ) أى ذلك الشىء ( ويحفظ ) مرادف لما قبله ( ويعز ويكرم ، فهذه الأصول الثــلاثة ) الكافية فى أمر العين ( إذا أحسنت التأمل فيها ) أى فى الأصول الثلاثة ( كفتك المؤنة ) أى الشدة والتعب ( فى هذا الفصل ) الأول وهو فصل العين ( والله ولى التوفيق ) والهداية ( وهو حسبى ) أى كافى، فحسب بمعنى كاف فهو بمعنى اسم الفاعل . قال تعالى « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » أى كافيه . فالحاصل أن من اكتفى بالله كفاه وأعطاه سؤله ومناه ، وكشف همه وأزال غمه ، كيف لا؟ ومن التجأ إلى ملك من الملوك حفظه وسلك به أحسن السلوك فالأولى بذلك من يحتسب رب العالمين، ويكتفى به عن الخلائق أجمعين ( ونعم الوكيل ) أى نعم الموكول إليه الأمر ، فوكيل فعيل بمعنى مفعول ، لأن عباده وكلوا أمورهم إليه ، واعتمــدوا فى حوائجهم عليه . وقيل معناه القائم على خلقه بما يصلحهم ، فوكل أمور عباده إلى نفسه وقام بها فرزقهم وقضى حوائجهم ، ومنحهم كل خــير ، ودفع عنهم كل شر ، فوكيل على هــذا بمعنى فاعل والأول هو المشهور ، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره ، والله أعلم .

﴿ الفصل الثانى ﴾ من الفصول الخمسة ( الأذن ) أى فصل الأذن فى بيان حفظها ( فعليك ) أى الزم ( بصيانة سمعــك ) وحفظه ( عن الخنا ) أى الفحش ( والفضول ) من الكــلام كافشاء سر زوجته وهى سره بأن يذكر كل منهما مايقع بينهما من تفاصيل الجماع ونحوها مما يخفى واحفظها أيضا عن أن تصغى بها إلى البدعة أو إلى ذكر مساوى الناس وغيرها من الفواحش، فانما خلقت

وَذٰلِكَ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا لِمَا رُوِيَ أَنَّ الْمُسْتَمِعَ شَرِيكُ الْمُتَكَلِّمِ ، وَفِي ذٰلِكَ يَقُولُ الْقَائِلُ :

تَحَرَّ مِنَ الطُّرْقِ أَوْسَاطَهَا وَعُدَّ عَنِ الْجَانِبِ الْمُشْتَبِهِ
وَسَمْعَكَ صُنْ عَنْ سَمَاعِ الْقَبِيحِ كَصَوْنِ اللِّسَانِ عَنِ النُّطْقِ بِهِ
فَإِنَّكَ عِنْدَ اسْتِمَاعِ الْقَبِيحِ شَرِيكٌ لِقَائِلِهِ فَانْتَبِهِ

---

الأذن لك لتسمع بها كلام الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكمة أوليائه ، وتتوصل باستفادة العلم إلى الملك المقيم والنعيم الدائم فى جوار رب العالمين ، فإذا أصغيت بها إلى شىء من المكاره صار ماكان نافعا لك ضارا عليك ، وانقلب ما كان سبب فوزك بالثواب سبب هلاكك بحصول العقاب إن لم تتب ، وهذا غاية الخسران ( وذلك ) أى لزوم صيانة السمع عن الفحش والفضول ( لأمرين : أحدهما ) لقوله تعالى « سماعون للكذب أكالون للسحت » فقد سوّى الله تعالى فى هذه الآية بين المستمع وآكل السحت ، فهذا دليل على أن ماحرم قوله حرم الإصغاء اليه ، لأن إصغاءه حينئذ يكون دليلا على رضاه المحرم . وقوله تعالى « لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت » ، فالسكوت على الغيبة حرام ، والساكت يشارك المغتاب فى الإثم . وقوله تعالى « فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذا مثلهم » أى فى الإثم ، و( لما روى أن المستمع شريك المتكلم ) أى فى الإثم . قال العراقى : غريب ، وللطبرانى من حديث ابن عمر بسند ضعيف « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة » . قال الزبيدى : رواه فى الكبير وكذا الخطيب فى التاريخ بلفظ « نهى عن الغناء وعن الاستماع إلى الغناء ، وعن الغيبة والاستماع إلى الغيبة ، وعن النميمة والاستماع إلى النميمة » : قال الهيتمى فى سندها . فرات بن السائب وهو متروك ، وذكره العلامة عبد الرءوف المناوى فى كنوز الحقائق عن الغزالى بلفظ «المغتاب والمستمع شريكان فى الإثم» . (وفى ذلك) أى فى كون المستمع شريك القائل فى الإثم وهو أحد المغتابين ( يقول القائل ) من بحر المتقارب ( تحرّ ) أى اطلب واجتهد ( من الطرق أوساطها . وعد ) أى تجاوز ( عن الجانب المشتبه ، وسمعك ) بالنصب ( صن ) أى احفظ ( عن سماع القبيح . كصون اللسان عن النطق به ) أى بذلك القبيح ( فإنك عند استماع القبيح . شريك لقائله ) فى الإثم والحرمة ( فانتبه ) بكسر الهاء للضرورة : أى فانتبه وتيقظ من نوم الغفلة . قال النووى : ولا بد من كراهة نحو الغيبة بقلبه إن خاف ضررا ظاهرا فى نهيه باليد أو باللسان ، ومتى اضطر إلى القعود فى ذلك المجلس الذى فيه نحو الغيبة وعجز عن الإنكار أو أنكر فلم يقبل منه ولم يمكنه المفارقة بطريق حرم عليه الاستماع والإصغاء له ، بل طريقه أن يذكر الله تعالى بلسانه وقلبه أو بقلبه أو يفكر فى أمر آخر ليشتغل عن استماعها ، ولا يضره بعد ذلك السماع من غير استماع وإصغاء فى هذه الحالة ، فإن تمكن بعد

وَالثَّانِي أَنَّ ذٰلِكَ يُهَيِّجُ الْخَوَاطِرَ وَالْوَسَاوِسَ فِى الْقَلْبِ ثُمَّ مِنْ ذٰلِكَ يَبْدُو الْاِشْتِغَالُ فِى الْبَدَنِ فَمَا يَبْقَى لِلْعِبَادَةِ شَيْءٌ .

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الْكَلَامَ الَّذِى يَقَعُ فِى قَلْبِ الْإِنْسَانِ وَسَمْعِهِ بِمَنْزِلَةِ الطَّعَامِ الَّذِى يَقَعُ فِى جَوْفِهِ فَمِنْهُ الضَّارُّ وَمِنْهُ النَّافِعُ، وَمِنْهُ الْغِذَاءُ وَمِنْهُ السُّمُّ بَلْ إِنَّ بَقَاءَ الْكَلَامِ وَتَجَرُّعَهُ أَكْثَرُ وَأَبْلَغُ مِنَ الطَّعَامِ، فَإِنَّ الطَّعَامَ يَزُولُ عَنِ الْمَعِدَةِ بِنَوْمٍ وَغَيْرِهِ وَرُبَّمَا يَبْقَى أَثَرُهُ زَمَانًا ثُمَّ يَزُولُ وَلَهُ دَوَاءٌ يُزِيلُ أَثَرَهُ مِنْ جِسْمِ الْإِنْسَانِ، وَأَمَّا الْكَلَامُ الَّذِى وَقَعَ فِى قَلْبِهِ فَرُبَّمَا يَبْقَى مَعَهُ جَمِيعَ عُمُرِهِ وَلَا يَنْسَاهُ، فَإِنْ كَانَ رَدِيئًا فَلَا يَزَالُ يُتْعِبُهُ وَيُعْيِيهِ وَتَرِدُ بِسَبَبِهِ خَوَاطِرُ فِى الْقَلْبِ وَوَسَاوِسُ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُعْرِضَ عَنْهَا،

---

ذلك من المفارقة وهم مستمرون فى الغيبة ونحوها وجب عليه المفارقة ، وروى عن إبراهيم بن أدهم أنه دعي إلى وليمة لحضر فذكروا رجلا لم يأتهم ، فقالوا إنه ثقيل، فقال إبراهيم: أنا قد فعلت هذا بنفسى حيث حضرت موضعا يغتاب فيه الناس ، فخرج ولم يأ كل ثلاثة أيام . (والثانى) من الأمرين (أن ذلك ) أى سماع الفحش والفضول ( يهيج ) أى يحرك ( الخواطر والوساوس فى القلب ثم من ذلك ) أى من هيجان الخواطر والوساوس واضطرابهما فى القلب (يبدو) أى يظهر ( الاشتغال فى البدن فما يبقى للعبادة شيء ) وإن وجدت تلك العبادة فلا تحصل لذلك لذة وحلاوة أصلا ( ثم اعلم أن الكلام الذى يقع فى قلب الإنسان وسمعه ) أى آذنه ( بمنزلة الطعام الذى يقع فى جوفه ) أى بطنه ( فمنه ) أى الطعام ( الضار ومنه النافع ومنه الغذاء ) والقوة ( ومنه السم ) القاتل ( بل إن بقاء الكلام ) فى القلب ( وتجرعه ) أى كظم غصص الكلام فيه ( أكثر وأبلغ ) أى أشد ( من الطعام فان الطعام يزول عن المعدة ) وهى مقر الطعام والشراب وتخفف بكسر الميم وسكون العين ، وجمعت على معد ، مثل سدرة وسدر كما فى المصباح ( بنوم وغيره ) كالدواء المزيل لذلك الطعام ( وربما يبقي أثره ) أى الطعام ( زمانا ) طويلا ( ثم يزول ) ذلك الأثر ( وله ) أى للطعام ( دواء يزيل أثره من جسم الإنسان ، وأما الكلام الذى وقع فى قلبه ) أى الإنسان ( فربما يبقى ) أى الكلام فلا يزول ( معه ) أى الإنسان ( جميع عمره ولا ينساه ) أى الإنسان ذلك الكلام الواقع فى قلبه ( فإن كان ) أى الكلام الواقع فيه ( رديئا ) خسيسا ( فلا يزال ) أى الكلام ( يتعبه ) بضم الياء وكسر العين من الإتعاب : أى يوقعه فى التعب والمشقة ( ويعييه ) أى يوقعه فى العيب. وفى نسخة يعنته : أى يوقعه فى العنت بمعنى المشقة كما فى سراج السالكين وعلى هذا فهو مرادف لسابقه ( وترد ) أى تحضر وتجيء ( بسببه ) أى الكلام الرديء والخسيس ( خواطر فى القلب ووساوس يحتاج ) الإنسان ( إلى أن يعرض ) بضم الياء وكسر الراء : أى يصد ( عنها ) أى

وَيَعْدِلَ بِقَلْبِهِ عَنْ تَذَكُّرِهَا وَيَسْتَعِيذَ بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا . وَلاَ يَأْمَنُ أَنْ يَحْمِلَهُ عَلَى بَلِيَّةٍ وَيُحَرِّكَهُ حَتَّى يَقَعَ آخِرَ الْأَمْرِ فِى آفَةٍ عَظِيمَةٍ بِسَبَبِ ذٰلِكَ . وَلَوْ كُنْتَ حَفِظْتَ سَمْعَكَ عَمَّا لاَ يَعْنِيكَ كُنْتَ عَنْ هٰذِهِ الْمُؤَنِ مُسْتَرِيحاً فَلْيَنْظُرِ الْعَاقِلُ فِى ذٰلِكَ وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

﴿ الفصل الثالث اللسان ﴾

ثُمَّ عَلَيْكَ بِحِفْظِ اللِّسَانِ وَضَبْطِهِ وَتَقْيِيدِهِ فَإِنَّهُ أَشَدُّ الْأَعْضَاءِ جِمَاحاً وَطُغْيَاناً وَأَكْثَرُهَا فَسَاداً وَعُدْوَاناً .

---

عن الخواطر والوساوس ( و ) أن ( يعدل ) أى الإنسان بفتح الياء وكسر الدال من باب جلس : أى يميل وينصرف ( بقلبه عن تذكرها ، و ) أن ( يستعيذ بالله من شرها ) أى الخواطر والوساوس ( ولا يأمن ) الإنسان من ( أن يحمله ) ذلك الكلام الردىء ( على بلية ويحركه ) أى يحرك الكلام الإنسان على تلك البليـة ( حتى يقع آخر الأمر فى آفة عظيمة بسبب ذلك ) الكلام القبيح : أى سماعـه ( ولو كنت حفظت سمعك عما لا يعنيك ) كما هو المطلوب منك ( كنت عن هذه المؤن ) أى المشقات ( مستريحا، فلينظر العاقل ) بقلبه ( فى ذلك ) الذى ذكرناه من مطلوبية حفظ الأذن عن السماع فيما لا يعنيه وفائدة حفظها وبلية تركه ( وبالله ) تعالى لا بغيره ( التوفيق ) إلى مرضاته وفهم حكمه وأسراره .

﴿ الفصل الثالث ﴾ من الفصول الخمسة ( اللسان ) أى فى بيان حفظه وتقييده وغير ذلك . اعلم أن اللسان من نعم الله العظيمة ، ولطائف صنعه الغريبة ؛ فهو صغير جرمه عظيم طاعته وإثمه ، إذ لا يتبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان ؛ ثم إنه ما من موجود ومعلوم ، خالق أو مخلوق ، متخيل أو معلوم ، مظنون أو موهوم إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفى ، فإن كلّ ما يتناوله العلم يعبر عنه اللسان إما بحق أو باطل ، ولا شىء إلا والعلم متناول له ولا يخرج إلى الوجود إلا بواسطة تعبير اللسان ، وهذه خاصـة خصه الله بها لا توجد فى سائر الأعضاء ، فاللسان حينئذ رحب الميدان ليس له مردود ، ولا لمحاله منتهى وحدّ لسعة متعلقاته ، له فى الخير مجال رحب ، وفي الشر ذيل سحب ، فمن أطلق عذبة اللسان ، وأهمله مرخى العنان ، سلك به الشيطان فى كل ميدان ، وساقه إلي شفا جرف هار إلى أن يضطره ويلجئه إلى البوار ، ولا يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع ، ولا يطلقه إلا فيما ينفعه إما فى الدنيا حالا أو فى الآخرة مآلا ، ويمنعه عن كل ما يخشى غائلته فى عاجلته وآجلته ، ولذلك قال المصنف رحمـه الله ( ثم عليك بحفظ اللسان وضبطه وتقييده فإنه ) أى اللسان ( أشد الأعضاء جماحا وطغيانا وأكثرها ) أى الأعضاء ( فسادا وعدوانا ) وظلمـا فانه لا تعب فى إطلاق اللسان ولا مؤنة فى تحريكه ، وقد

وَلَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّهُ قَالَ : قُلْتُ: يَارَسُولَ اللهِ مَا أَكْثَرُ مَاتَخَافُ عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِلِسَانِ نَفْسِهِ ثُمَّ قَالَ: هٰذَا . وَعَنْ يُونُسَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ: إِنِّى وَجَدْتُ نَفْسِي تَحْتَمِلُ مُؤْنَةَ الصِّيَامِ فِى الْحَرِّ الشَّدِيدِ بِالْبَصْرَةِ. وَلَا تَحْتَمِلُ تَرْكَ كَلِمَةٍ لَا تَعْنِيهَا فَعَلَيْكَ إِذَنْ بِالتَّحَفُّظِ جِدًّا وَبَذْلِ الْمَجْهُودِ . وَتَذَكَّرْ خَمْسَةَ أُصُولٍ :
أَحَدُهَا مَارَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،

---

يتساهل الخلق فى الاحتراز من آفاته وغوائله ودواهيه المترتبة عليه وفى الحذر عن مصايده وحبائله وجهلوا أنه أعظم آلة للشيطان فى استغواء الإنسان ، فبه يملك نواصيهم ويغتالهم ، وقد بسط الكلام على آفاته حجة الإسلام في الإحياء فانظره تجد شفاء بينا وكلاما حسنا ( ولقد روينا عن سفيان بن عبد الله ) بن ربيعة بن الحارث الثقفى الطائفي صحابى ، وكان عامل عمر على الطائف ، روى له مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه ( أنه قال : قلت يا رسول الله ما أكثر ما تخاف علي ؟ فأخذ ) أي أمسك نبينا ( عليه الصلاة والسلام بلسان نفسه ثم قال ) صلى الله عليه وسلم ( هـذا ) أى اللسان. قال العراقى : رواه الترمذى وصححه والنسائى وابن ماجه عن عقبة بن عامر أنه قال «قلت: يا رسول الله ما النجاة ؟ قال أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك». وقال سهل ابن سعد الساعدى : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم « من يتكفل لى ما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة » . وقال أنس : قال صلى الله عليه وسلم « من وقى شر قبقبه وذبذبه ولقلقه فقد وقى الشر كله » . القبقب هو البطن ، والذبذب هو الفرج ، واللقلق هو اللسان ، فهذه الشهوات الثلاث تهلك أكثر الخلق وروى « أن معاذا قال يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لسانه ثم وضع عليه أصبعه » . ( وعن يونس بن عبيد الله ) التابعى الجليل ، اتفقوا على جلالته وتوثيقه ؛ توفى سنة تسع وثلاثين ومائة ( إنى وجدت نفسى تحتمل مؤنة ) أى مشقة ( الصيام فى الحر الشديد بالبصرة ) اسم بلد شرقى عن مصر القاهرة ، وعرضه شمالى بقدر ثلاثين درجة واثنين وثلاثين دقيقة ، وطوله ستة عشر درجة وستة وثلاثون دقيقة كما حققه الزرقاوى فى زيجه ( ولاتحتمل ) نفسى ( ترك كلمة لا تعنيها ) أى لا تنفعها .

قال المصنف ( فعليك إذن ) أى إذا عرفت قول يونس بن عبد الله ( بالتحفظ ) أي تحفظ اللسان (جدا وبذل المجهود) فى تحصيل المطلوب ( وتذكر خمسة أصول : أحدها ماروى أبو سعيد) سعد بن مالك بن سنان الأنصارى الخزرجي ( الخدرى رضى الله عنه ) استصغر أبو سعيد يوم أحد فرد ، وغزا بعد ذلك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثنتى عشرة غزوة ، وكان أبوه مالك صحابيا استشهد يوم أحد رضى الله عنه ، روى لأبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم ألف حديث ومائة وسبعون حديثا ، اتفق البخارى ومسلم علي ستة وأربعين منها ، وانفرد البخارى بستة عشر ومسلم باثنين وخمسين ، وروى أبو سعيد عن جماعة من الصحابة أيضا : منهم أبو بكر وعمر وعثمان

أَنَّ ابْنَ آدَمَ إِذَا أَصْبَحَ بَكَرَتِ الْأَعْضَاءُ كُلُّهَا إِلَى اللِّسَانِ وَقُلْنَ لَهُ نَنْشُدُكَ أَنْ تَسْتَقِيمَ فَإِنَّكَ إِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا. قُلْتُ: وَالْمَعْنَى فِيهِ (وَاللهُ أَعْلَمُ) أَنَّ نُطْقَ اللِّسَانِ يُؤَثِّرُ فِي أَعْضَاءِ الْإِنْسَانِ بِالتَّوْفِيقِ وَالْخِذْلَانِ. يُؤَكِّدُ هٰذَا الْمَعْنَى مَا حُكِيَ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ أَنَّهُ قَالَ: إِذَا رَأَيْتَ قَسَاوَةً فِى قَلْبِكَ وَوَهْنًا فِى بَدَنِكَ وَحِرْمَانًا فِى رِزْقِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ قَدْ تَكَلَّمْتَ فِيمَا لَا يَعْنِيكَ.

---

وزيد بن ثابت وأبو قتادة وعبدالله بن سلام وأبوه مالك بن سنان، وروى عنه جماعة من الصحابة منهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله وغيرهم رضى الله تعالى عنهم أجمعين وروى عنه خلائق من التابعين: منهم بن المسيب وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وأبوسلمة وحميد ابنا عبد الرحمن بن عوف وعامر بن سعد وعطاء بن يزيد وعطاء بن يسار وعبيد بن حنين بنونين ونافع وخلائق. وكان رضى الله عنه من فقهاء الصحابة وفضلائهم البارعين، ومناقبه كثيرة، توفى بالمدينة يوم الجمعة سنة أربع وستين، وقيل سنة أربع وسبعين، ودفن بالبقيع (أن ابن آدم إذا أصبح) أى دخل فى الصباح (بكرت) أى أسرعت (الأعضاء) جمع عضو بالضم وبالكسر لغة: كل عضو وافر بلحمه (كلها) بالرفع تأكيد (إلى اللسان وقلن) أى الأعضاء (له) أى اللسان (ننشدك الله) أى نسألك بالله (أن تستقيم فإنك إن استقمت) أى اعتدلت (استقمنا) أى اعتدلنا تبعا لك (وإن اعوججت) أى ملت عن طريق الاعتدال والهدى (اعوججنا) أى ملنا عنه اقتداء بك، قال الطيبى: وهذا لا تناقض بينه وبين خبر «إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله» الحديث، لأن اللسان ترجمان القلب وخليفته فى ظاهر البدن، فإذا أسند إليه الأمر فهو مجاز في الحكم، وهذا الحديث رواه الترمذى فى الزهد وابن خزيمة فى صحيحه، والبيهقى عن أبى سعيد الخدرى بلفظ «إذا أصبح ابن آدم فان الأعضاء كلها تكفر اللسان، فتقول: اتق الله فينا فانما نحن بك، فان استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»: (قلت والمعنى فيه) أى هذا الحديث المروى عن أبى سعيد (والله أعلم) جملة معترضة (أن نطق اللسان يؤثر فى أعضاء الانسان بالتوفيق) على الطاعة (والخذلان) ضد التوفيق، فهو خلق القدرة على المعصية والداعية إليها، أو خلق المعصية (يؤكد) أى يقوى (هذا المعنى) الذى ذكرناه (ماحكى عن مالك بن دينار) هو أبو يحيى البصرى رضى الله عنه، مات سنة إحدى وثلاثين ومائة بالبصرة (أنه قال: إذا رأيت قساوة فى قلبك، ووهنا) أى ضعفا (فى بدنك، وحرمانا) أى حجابا ومنعا (فى رزقك فاعلم أنك قد تكلمت فيما لا يعنيك) من فضول الكلام. واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر بضبط، بل المهم محصور فى كتاب الله تعالى. قال الله عز وجل «لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس». وقال صلى الله عليه وسلم «طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه، وأنفق الفضل من ماله» فانظر وتأمل

وَالْأَصْلُ الثَّانِى: حِفْظُ وَقْتِكَ فَإِنَّ أَكْثَرَ مَايَتَكَلَّمُ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى فَعَلَى الْأَقَلِّ يَكُونُ لَغْوًا يَضِيعُ الْوَقْتُ بِهِ .

---

كيف قلب الناس الأمر فى ذلك ، فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان .وقال ابن مسعود أنذرتكم فضول الكلام بحسب أحدكم من الكلام مابلغ حاجته . وقال ابراهيم بن يزيد التيمى : المؤمن إذا أراد أن يتكلم نظر ، فان كان كلامه له تكلم ، وإن كان عليه أمسك عنه ، والفاجر إنما كلامه رسلا رسلا : أى كثيرا يتبع بعضه بعضا . وقال الحسن البصرى : من كثر كلامه كثر كذبه ، ومن كثر ماله كثرت ذنوبه ، ومن ساء خلقه عذب نفسه . وقال عمرو بن دينار : « تكلم رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم فأكثر ، فقال له كم دون لسانك من حجاب : فقال شفتاى وأسنانى ، قال أفما كان لك فى ذلك ما يرد كلامك ؟ » وفى رواية أنه قال ذلك فى رجل أثنى عليه فاستهتر ؛ أى بالغ وأطال فى الكلام ، ثم قال : ما أوتى رجل شرا من فضل فى لسانه . وقال عمر بن عبد العزيز : إنه ليمنعنى من كثير من الكلام خوف المباهاة ، وقال بعض الحكماء . إذا كان الرجل فى مجلس فأعجبه الحديث فليسكت ، وإن كان ساكتا فأعجبه السكوت فليتكلم . وقال يزيد بن أبى حبيب : من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع وإن وجد من يكفيه ، فإن فى الاستماع سلامة وزيادة فى العلم ، والمستمع شريك المتكلم فى الكلام إلا من عصم الله ، وفى الكلام ترفق وتزين وزيادة ونقصان ، وقال ابن عمران : أحق ما طهر الرجل لسانه ، ورأى أبو الدرداء امرأة سليطة اللسان فقال : لو كانت هذه خرساء كان خيرا لها . وقال إبراهيم النخعى يهلك الناس خلتان : فضول المال ، وفضول الكلام ، فهذه مذمة فضول الكلام وكثرته ، والله الموفق . ﴿والأصل الثانى﴾ من الأصول الخمسة ( حفظ وقتك فإن أكثر مايتكلم به الإنسان من غير ذكر الله تعالى ) وتلاوة كتابه ( فعلى الأقل يكون ) أى أكثر الكلام ( لغوا ) وباطلا ( يضيع الوقت به ) أى بالكلام اللغو ، فيكون الإنسان قد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالي ، فإن المؤمن لا يكون صمته إلا فكرا ، ونظره إلا عبرة ، ونطقه إلا ذكرا، هكذا قال النبى صلى الله عليه وسلم ، بل رأس مال الإنسان أوقاته ، ومهما صرفها إلى مالا يعنيه ولم يدخر بها ثوابا فى الآخرة فقد ضيع رأس ماله وخسر خسرانا مبينا ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » بل ورد ما هو أشد من هذا . قال أنس بن مالك « استشهد غلام منا يوم أحد فوجدنا على بطنه حجرا مربوطا من الجوع فمسحت أمه عن وجهه التراب وقالت هنيئا لك الجنة يابنى ، فقال صلى الله عليه وسلم: ومايدريك لعله كان يتكلم فيما لايعنيه ويمنع مالايضره » . قال العراقى : رواه الترمذى . وفى حديث آخر « أن النبى صلى الله عليه وسلم فقد كعب بن عجرة فسأل عنه فقالوا مريض فخرج يمشى حتى أتاه عائدا له ، فلما دخل عليه قال أبشر يا كعب ، فقالت أمه هنيئا لك الجنة يا كعب ، فقال صلى الله عليه وسلم : من هذه المتألية على الله ؟ قال كعب : هي أمى

وَذُكِرَ أَنَّ حَسَّانَ بْنَ أَبِي سِنَانٍ مَرَّ عَلَى غُرْفَةٍ بُنِيَتْ فَقَالَ: مُنْذُ كَمْ بُنِيَتْ هٰذِهِ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ . وَقَالَ يَانَفْسِي الْغَرُورَةَ تَسْأَلِينَ عَمَّا لَا يَعْنِيكِ وَعَاقَبَهَا بِصَوْمِ سَنَةٍ . قُلْتُ : فَيَاطُوبَى لِلْمُهْتَمِّينَ بِأَنْفُسِهِمْ : وَيَاوَيْحَ الْغَافِلِينَ الَّذِينَ خَلَعُوا الْعِذَارَ وَأَرْخَوُا الْعِنَانَ ، وَاللّٰهُ الْمُسْتَعَانُ .

وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ وَأَحْسَنَ حَيْثُ يَقُولُ :

---

يا رسول الله ! قال وما يدريك يا أم كعب لعل كعبا قال ما لا يعنيه أو منع مالا يغنيه » . قال حجة الإسلام : ومعناه إنما يتهيأ للجنة من لا يحاسب ، ومن تكلم فيما لا يعنيه حوسب عليه ؟ وإن كان كلامه مباحا فلا تتهيأ الجنة مع المناقشة فى الحساب فإنه نوع عذاب « من نوقش الحساب عذب » وعن محمد بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول من يدخل الجنة من هذا الباب رجل من أهل الجنة ، فدخل عبد الله بن سلام فقام إليه ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بذلك، وقالوا أخبرنا بأوثق عمل فى نفسك ترجو به ؟ فقال إنى لضعيف وإن أوثق ما أرجو به الله سلامة الصدر وترك مالا يعنيني » . قال العراقي : رواه ابن أبى الدنيا .وقال أبو ذر رضى الله عنه قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل فى الميزان ؟ قلت: بلى يا رسول الله ، قال : هو الصمت ؛ وحسن الخلق ، وترك ما لا يعنيك » قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا أيضا . (وذكر : أن حسان بن أبى سنان ) البصرى صدوق عابد من أتباع التابعين ( مر على غرفة ) عالية ( بنيت ) أى الغرفة ( فقال ) ابن أبى سنان ( منذ كم بنيت هذه ) أى تلك الغرفة ، فتذكر أن هذا الكلام فضول لايعنيه ( ثم أقبل ) ابن أبى سنان يلوم ( على نفسه وقال: يا نفسى الغرورة ) أى كثيرة الغرور والخداع ( تسألين عما لا يعنيك وعاقبها) أى عاقب ابن أبى سنان نفسه ( بصوم سنة . قلت : فياطوبى للمهتمين ) والمجتهدين ( بأنفسهم وياويح الغافلين ) أى هلا كهم ( الذين خلعوا ) أى سلبوا ( العذار ) من اللجام دواله : أى جانباه ، وهو ماسال على خد الفرس ، ويقال للمنهمك فى الغى المتبع هواه خلع عذاره : أى الحياء وهذا مثل للشاب المنهمك فى غيه أى ألقى عنه جلباب الحياء كما خلع الفرس العذار فجمح وطمح ، ويستعمل فى رسن الدابة ، وقولهم : فلان خلع العذار يفعل ويقول مايشاء ولا يبالى ولا يخاف من الله ومن ملامة الناس كالدابة التى لارسن لها على رأسها ( وأرخوا ) أى أرسلوا ( العنان ) بكسر العين : أى الخيط، وهذا كناية عن استرسالهم في الشهوات من غير تقييد بلجام التقوى فهم كالدابة التى أرخى لها عنانها ، وتذهب وتروح أينما كانت ( والله المستعان ) فى كل مطلوب على كل حال ( ولقد صدق القائل وأحسن حيث يقول ) من بحر الخفيف :

وَاغْتَنِمْ رَكْعَتَيْنِ فِى ظُلْمَةِ اللَّيْلِ إِذَا كُنْتَ خَالِياً مُسْتَرِيحاً
وَإِذَا مَا هَمَمْتَ بِاللَّغْوِ فِى الْبَاطِلِ فَاجْعَلْ مَكَانَهُ تَسْبِيحاً
وَلُزُومُ السُّكُوتِ خَيْرٌ مِنَ النُّطْقِ وَإِنْ كُنْتَ فِى الْكَلَامِ فَصِيحاً

( واغتنم ) أمر من الغنيمة : أى اطلبها ( ركعتين فى ظلمات الليل إذا كنت خاليا ) وفى نسخة فارغا ( مستريحا . وإذا ماهممت ) أى قصدت، وما زائدة ( باللغو فى الباطل فاجعل مكانه ) أى الباطل ( تسبيحا . ولزوم السكوت ) عما لايعنيك ( خير من النطق ) بمالا يعنيك ( وإن كنت فى الكلام فصيحا) بليغا ، وبالجملة إن السكوت سلامة ، ولله در القائل :

العلم زين والسكوت سلامة فإذا نطقت فلا تكن مكثارا
ماإن ندمت على سكوت مرة ولقد ندمت على الكلام مرارا

وما أحسن حميد بن عباس حيث يقول من بحر الطويل :

لعمرك ماشىء علمت مكانه أحق بسجن من لسان مذلل
على فيك مما ليس يعنيك شأنه بقفل وثيق حيث كنت فأقفل
فرب كلام قد جرى من ممازح فساق إليه سهم حتف معجل
وللصمت خير من كلام ممازح فكن صامتا تسلم وإن قلت فاعدل
ولا تك فى جنب الأخلاء مفرطا وإن كنت أبغضت البغيض فأجمل
فانك لاتدرى متى أنت مبغض حبيبك أو تهوى بغيضك فاعقل

وعن صفوان بن سليم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن : الصمت وحسن الخلق » . وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت » . وقال الحسن البصرى : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « رحم الله عبدا تكلم فغنم أو سكت فسلم » . وقيل لعيسى عليه السلام : دلنا على عمل ندخل به الجنة ؟ قال : لاتنطقوا أبدا. قالوا: لانستطيع ذلك . قال فلا تنطقوا إلا بخير . وقال سليمان بن داود عليهما السلام : إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب . وعن البراء بن عازب قال « جاء أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال دلنى على عمل يدخلنى الجنة ؟ قال : أطعم الجائع ، وأسق الظمآن ؛ وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، فإن لم تطق فكف لسانك إلا من خير » وقال صلى الله عليه وسلم « اخزن لسانك إلا من خير فانك بذلك تغلب الشيطان » .وقال الأوزاعى : كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أما بعد فإن من أكثر ذكر الموت رضى من الدنيا باليسير ، ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فما يعنيه . وقال الحسن البصرى: ماعقل دينه من لم يحفظ لسانه . وقال بعض الحكماء : فى الصمت سبعة آلاف خير ، وقد اجتمع ذلك كله فى سبع كلمات فى كل كلمة منها ألف : أولها إن الصمت عبادة

وَالْأَصْلُ الثَّالِثُ : حِفْظُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَصُنْ لِسَانَهُ وَأَكْثَرَ الْكَلَامَ يَقَعُ لَا مَحَالَةَ فِي غِيبَةِ النَّاسِ ، كَمَا قِيلَ : مَنْ كَثُرَ لَغَطُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ ،

---

من غير عناء . والثانى زينة من غير حلى . والثالث هيبة من غير سلطان . والرابع حصن من غير حائط . والخامس الاستغناء عن الاعتذار إلى أحد . والسادس راحة الكرام الكاتبين . والسابع ستر لعيوبه ، ويقال : الصمت زين للعالم وستر للجاهل ، والأخبار والآثار فى فضيلة الصمت أكثر من أن تحصى وفيما ذكرناه كفاية لأولى الألباب . ﴿والأصل الثالث﴾ من الأصول الخمسة ( حفظ الأعمال الصالحة ) عن الآفات المهلكات ( فإن من لم يصن لسانه ) عما لايعنيه ( وأكثر الكلام يقع لامحالة ) أى قطعا ( فى غيبة الناس كما قيل ) فى الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم ( من كثر لغطه ) . وفى رواية : كلامه ( كثر سقطه ) أى سقوطه فى الكلام وكذبه ، وتمام الحديث « ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به » : أى لأن السقط كما قاله العلامة الزبيدى مالا عبرة بهولا نفع فيه ، فإن كان لغوالاإثم فيه حوسب على تضييع عمره ، وكفران النعمة بصرف نعمة اللسان عن الذكر إلى الهذيان ، وقلما سلم من الخروج إلى مايوجب الإثم فتصير النار أولى به من الجنة لذلك ، قال العراقي : رواه أبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر باسناد ضعيف وقد رواه أبو حاتم بن حيان فى روضة العقلاء والبيهقى فى الشعب موقوفا على عمر بن الخطاب . قال الزبيدى : وكذلك رواه الطبرانى فى الأوسط والقضاعى فى مسند الشهاب والعسكرى فى الأمثال كلهم من حديث ابن عمر ؛ ولفظ العسكرى « من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه كثر كذبه ، ومن كثر كذبه كثرت ذنوبه » والباقي سواء ، فبعضهم رواه من طريق ابن عجلان ، وبعضهم من طريق يحي بن أبي كثير ، كلاهما عن نافع عن ابن عمر مرفوعا . وقال العسكرى : أحسبه وهما ، وإن الصواب أنه عن عمر من قوله وقول العراقى بسند ضعيف لأن فيه إبراهيم ابن الأشعث ، ذكره ابن حيان فى الثقات وقال فيه : يغرب ويخطىء وينفرد ويخالف ، ولذا قال ابن الجوزي حديث لايصح . وقال ابن أبى الدنيا في الصمت : حدثنى أحمد بن عبيد التيمى ، حدثنا عبيد الله بن محمد التيمى ، حدثنا دريد بن مجاشع عن غالب القطان عن مالك بن دينار عن الأحنف بن قيس قال : قال عمر بن الخطاب « من كثر كلامه كثر سقطه » . ورواه العسكرى من هذه الطريق ، ولفظه « قال لى : يا أحنف من كثر ضحكه قلت هيبته ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شىء عرف به ، ومن كثر كلامه كثرسقطه ، ومن كثر سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه » وكذا أورده العسكرى من طريق معاوية فى قصة قال فيها معاوية « من كثر كلامه كثر سقطه » وفى الباب عن معاذ؛ وفى تاريخ ابن عساكر من حديث أبى هريرة « من كثر ضحكه استخف بحقه ، ومن كثرت دعابته ذهبت جلالته ، ومن كثر مزاحه ذهب وقاره ، ومن شرب الماء على الريق ذهب بنصف قوته ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه كثرت خطاياه ، ومن كثرت خطاياه كانت النار أولى به» قال ابن عساكر

وَالْغِيبَةُ : هِيَ الصَّاعِقَةُ الْمُهْلِكَةُ لِلطَّاعَاتِ عَلَى مَا قِيلَ : إِنَّ مَثَلَ مَنْ يَغْتَابُ النَّاسَ مَثَلُ مَنْ نَصَبَ مَنْجَنِيقًا فَهُوَ يَرْمِي بِهِ حَسَنَاتِهِ شَرْقًا وَغَرْبًا يَمِينًا وَشِمَالاً .

---

غريب الإسناد والمتن . وفى الزهد لابن المبارك ومن جهته ابن أبى الدنيا فى الصمت من طريق شفى الأصبحى قال : ومن كثر كلامه كثرت خطيئته ، هكذا حققه الزبيدى ( والغيبة ) بكسر الغين هى تناول العرض بما يكره ، وقد نص الله سبحانه على ذمها فى كتابه وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة ، فقال تعالى « ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه » وقال عليه الصلاة والسلام « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاتحاسدوا ولا تباغضوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، وكونوا عباد الله إخوانا » . وعن جابر بن عبد الله وأبى سعيد الخدرى رضى الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياكم والغيبة فان الغيبة أشد من الزنا ، فان الرجل قد يزنى ويتوب فيتوب الله سبحانه عليه وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه » ، ولهذا حكى أن رجلا اغتاب ابن الجلاء فأرسل يستحله فأبى وقال ليس فى صحيفتى حسنة أحسن منها فكيف أمحوها . وعن أبى هريرة رضى الله عنه « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال : إذا ذكرت أخاك بما يكره فقد اغتبته . قيل أرأيت إن كان مافى أخى ما أقول ؟ قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » يعنى قلت فيه بهتانا . وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ليلة أسرى بى إلى السماء مررت بقوم يقطع اللحم من جنوبهم ثم يلقمونه ثم يقال لهم كلوا ما كنتم تأكلون من لحم أخيكم ، فقلت ياجبريل من هؤلاء ؟قال هؤلاء من أمتك الهمازون اللمازون». قال أبو الليث يعنى المغتابين . وعن مجاهد بن جبر المكى قال في قوله تعالي « ويل لكل همزة لمزة » الهمزة الطعان فى الناس ، واللمزة : الذى يأكل لحوم الناس . وقال قتادة بن دعامة البصرى : ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاث أثلاث : ثلث من الغيبة ، وثلث من البول ، وثلث من النميمة . وقال الحسن البصرى : والله للغيبة أسرع فى دين المؤمن من الأكلة فى الجسد . قال بعضهم : أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة فى الصوم ولا فى الصلاة ؛ ولكن فى الكف عن أعراض الناس . وسمع علىّ ابن الحسين رضى الله عنهما رجلا يغتاب آخر ، فقال له إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : عليكم بذكر الله فانه شفاء ، وإياكم وذكر الناس فانه داء . والأخبار والآثار فى ذمّ الغيبة أكثر من أن تحصى وفيما ذكرناه كفاية ، نسأل الله حسن التوفيق لطاعته . وبالجملة إن الغيبة ( هى الصاعقة ) قطعة من النار ( المهلكة للطاعات على ما قيل : إن مثل من يغتاب الناس مثل من نصب منجنيقا) وهى آلة ترمى بها الحجارة مؤنثة وقد تذكر كما فى سراج السالكين ( فهو ) أى المغتاب ( يرمى به ) أى بالمنجنيق ( حسناته ) أى المغتاب ( شرقا وغربا يمينا وشمالا ) يغتاب واحدا خراسانيا ، وآخر حجازيا ، وآخر تركيا فيفرق حسناته ويقوم ولا شىء معه ، هكذا

ذكره أبو القاسم القشيري في الرسالة . قال حجة الإسلام مصنفنا الغزالى وغيره : اعلم أن حدّ الغيبة على ما ذكره العلماء أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه ، وسواء بلغه أو لم يبلغه سواء ذكرت مما يكرهه نقصانا فى بدنه أو فى نسبه أو فى خلقه بالضمّ أو فى فعله أو فى قوله أو فى دينه أو فى دنياه حتى فى ثوبه الذى يلبسه وفى داره التي يسكنها ودابته التى يركبها . أما البدن فكذكرك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة وجميع مايتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان ، وأما النسب فبأن تقول أبوه نبطى : أى ممن يخدم الأرض بالحراثة أو هندى، هذا إذا كان يكره الاعتزاء إلى أحد هذين أو فاسق أو خسيس أو إسكاف أو زبال أو شيء مما يكرهه كيفما كان ؛ فالمناط هو الكراهة ، وأما من يعتاد شيئا من ذلك فخرا له ، فلا يكونُ إطلاق مثله على اللسان غيبة له ، وأما الخلق فبأن تقول هو سيء الخلق إما فى المعاملة أو فى المحاورة ، بخيل بماله متكبر على إخوانه ، مراء شديد الغضب فى أحواله ؛ جبان بارد الهمة ، عاجز فى كثير من أموره ضعيف القلب لا جرءة له متهور : أى مفرط فى الشجاعة حتي يرمى نفسه فى النار وما يجرى مجراه وأما فى أفعاله المتعلقة بالدين فكقولك : هو سارق أو مختلس أو كذاب أو شارب خمر أو خائن أوظالم أو متهاون بالصلاة وبالطهارة أو بالزكاة ، فيؤخر الصلاة عن وقتها ويشتغل بغيرها ، ولا يعطي زكاة ماله أو تقول هو لا يحسن الركوع والسجود فى صلاته أولا يحترزعن النجاسات أو ليس بارا بوالديه أو بأحدهما أو لا يضع الزكاة فى مواضعها أو لا يحسن قسمتها أو لايحرس صومه من الرفث: وهو الكلام القبيح، ومن الغيبة والتعرض لأعراض الناس بالاستطالة فيها ، وأما فعله المتعلق بالدنيا فكقولك : إنه قليل الأدب يتهاون بالناس ويسخر بهم ولا يرى لأحد حقا على نفسه ويرى لنفسه حقا عليهم أو أنه كثير الكلام كثير الأكل أو أنه كثير النوم وينام فى غير وقته ويجلس فى غير موضعه ، وأما في ثوبه فكقولك . إنه واسع الكم طويل الذيل يجره إلى الأرض ، وسخ الثياب دنس الجيب ونحو ذلك مما يكرهه ؛ وقد قال قوم لا غيبة فى الدين ولو كان المغتاب يكره ذلك لأنه ذم ما ذمه الله تعالى فذكره بالمعاصى ، وذمه بها يجوز زجرا له ، بدليل ما روى «أنه ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة وكثرة صلاتها وصومها ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها ، فقال هى فى النار ، وذكرت عنده امرأة أخرى بأنها بخيلة ، فقال فماخيرها إذاً ؟ » قال حجة الإسلام : وهذا فاسد لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى تعرف الأحكام الشرعية بالسؤال والبحث ، ولم يكن غرضهم من سياق قول من الأقوال التنقص ولا الهضم للجانب ، ولا يحتاج إليه فى غير مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والدليل عليه إجماع الأمة على أن من ذكر غيره من ورائه بما يكرهه فهو مغتاب لأنه داخل فيما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حد الغيبة كما ذكر من الأخبار . قال العلامة الزبيدى : وفيما ذكره الغزالى بحث ، لأن الصحابة كانوا عارفين بأن أذى الجار والبخل من الصفات الذميمة ، وقد يقال إن هذا : أى المذكور من الأخبار عام، وقد خص منها أحكام فلا حجة فيه ولا إلزام فتأمل .

﴿ تنبيه ﴾ عد العلامة ابن حجر في الزواجر الغيبة والسكوت عليها رضا أو تقريرا من الكبائر قال وعدها هو ماجرى عليه كثيرون ، ويلزمه أن السكوت عليها رضا بها كبيرة ، ثم رأيت الأذرعي صرح به ، نعم لو لم يمكنه دفعها فيلزم عند الأمكنية مفارقة المغتاب ، وماقيل إنها صغيرة ضعيف أو باطل وقد نقل القرطبي وغيره الإجماع علي أنها كبيرة وهو الذى تدل عليه الأحاديث الصحيحة لكنها بحسب المفسدة خفة وثقلا خلافا للعلامة زين الدين بن عبد العزيز المليبارى ؛ وحمل مانقلوا من الإجماع المذكور على غيبة أهل العلم وحملة القرآن لعموم البلوى بها . قال السيد البكرى : وإنما حمل الإجماع على ذلك ولم يبق على إطلاقه لعموم البلوى بالغيبة فيحصل حرج عظيم لو لم يحمل عليه انتهى .

ثم إن الأصل فى الغيبة الحرمة ، وقد تجب أو تباح لغرض صحيح شرعى لايتوصل إليه إلا بها. وينحصر فى ستة أسباب : الأول التظلم ، فلمن ظلم أن يشكو لمن يظن أن له قدرة على إزالة ظلمه أو تخفيفه . والثانى الاستعانة على تغيير منكر يذكره لمن يظن قدرته على إزالته بنحو : فلان يعمل كذا فازجره بقصد التوصيل لإزالة المنكر وإلا كان غيبة محرمة مالم يكن جاهلا . الثالث الاستفتاء بأن يقول للمفتى : ظلمنى فلان بكذا فهل يجوز له وماطريقي فى خلاصى منه أو تحصيل حق أو نحو ذلك ، والأفضل أن يبهمه فيقول : ماتقول فى شخص أو زوج كان من أمره كذا ، وإنما جاز التصريح باسمه لأن المفتي قد يدرك من تعيينه معنى لايدركه من إبهامه . الرابع تحذير المسلمين من الشر ونصحهم كجرح الرواة والشهود والمصنفين والمتصدين لإفتاء أو علم أو قراءة مع عدم أهلية أو مع نحو فسق أو بدعة وهم دعاة إليها ولو سرا فتجوز إجماعا بل تجب ، وكأن يشير وإن لم يستشر على مريد تزوج أو مخالطة لغيره فى أمر دينى أو دنيوى ، وقد علم فى ذلك الغير قبيحا منفرا كفسق أو بدعة أو طمع أو غير ذلك كفقر فى الزوج بترك تزوجه ، ثم إن اكتفي بنحو لايصلح لك لم يزد عليه وإن توقف على ذكر عيب ذكره بلا زيادة كاباحة ميتة لمضطر ولا بد أن يقصد بذلك بذل النصيحة لله دون حظ آخر ، وكثيرا مايغفل عن ذلك ومن ذلك أن يعلم فى ذى ولاية قادحا فيجب عليه ذكره ذلك لمن يقدر على عزله وتولية غيره أو على نصحه وحثه علي الاستقامة الخامس أن يتجاهر بفسقه أو بدعته كالمكاسين وشربة الخمر ظاهرا وذى الولايات الباطلة فيجوز ذكرهم بما يتجاهرون به دون غيره ، فيحرم ذكرهم بعيب آخر إلا أن يكون له سبب آخر مما مر . السادس التعريف بنحو لقب كالأعمش والأصم والأقرع والأعور وإن أمكن تعريفه بغيره وتعريفه به على جهة التعريف لا التنقيص والأولى بغيره إن سهل ، وأكثر هذه الأسباب الستة مجمع عليه ويدل لها من السنة أحاديث صحيحة مشهورة .

﴿ فروع ﴾ :(الأول) سئل حجة الإسلام الغزالى مصنف هذا الكتاب عن غيبة الكافر ، فقال هي فى حق المسلم محذورة لثلاث علل : الإيذاء ، وتنقيص ماخلقه الله تعالى ، وتضييع الوقت بما لايعنى . والأولى تقتضى التحريم ، والثانية الكراهة ، والثالثة خلاف الأولى . وأما الذمي فكالمسلم فيما يرجع إلي المنع من الإيذاء ، لأن الشرع عصم دمه وعرضه وماله . قال الزركشى فى الخادم :

والأولى هو الصواب . وقدقال عليه الصلاة والسلام « من سمع: أى أسمع يهوديا أونصرانيا مايؤذيه فله النار » ولا كلام بعد هذا لظهور دلالته على الحرمة . وأما الحربى فليس بحرم على الأولى ، ويكره على الثانية والثالثة . وأما المبتدع فإن كفر فكالحربى وإلا فكالمسلم ، وأما ذكره ببدعته فليس مكروها .

( الثانى ) قد يتوهم من خد الغيبة أنها تختص باللسان وليس كذلك إذ علة التحريم الإيذاء وهذا موجود حيث أفهمت الغير مايكرهه المغتاب ولو بتعريض وفعل وإشارة وإيماء وغمز ورمز وكتابة بلا خلاف كما قاله النووى ، وكذا سائر مايتوصل به إلى فهم المقصود كأن يمشي مشيته ، بل هو أعظم كما قاله الغزالى لأنه أبلغ من التصريح والتفهيم وأنكى للقلب ، والغيبة بالقلب هي أن تظن به السوء وتصمم عليه بقلبك من غير أن تستند فى ذلك إلى مسوغ شرعى فهذا هو الذى يتعين أن يكون مرادهم بالغيبة بالقلب ، وأما مجرد الحكاية عن مبهم لمخاطبك لكنه معين عندك فليس فيه ذلك الاعتقاد والتصميم فافترقا ، ثم رأيته صرح به فى الإحياء .

ومن أخبث أنواع الغيبة مايقع لبعض المرائين من أن يذكر عنده غيره ، فيقول : الحمد لله الذى ما ابتلانا بقلة الحياء أو بالدخول على السلاطين ، وليس قصده بدعائه إلا أن يفهم عيب ذلك الغير ، وقد يزيد خبثه فيقدم مدحه حتي يظهر تنصله فى الغيبة فيقول كان فلان مجتهدا فى العبادة أو العلم لكنه فتر وابتلى بما ابتلينا به كلنا ، وهو قلة الصبر فيذكر نفسه ومقصوده ذم غيره والتمدح بالتشبه بالصالحين فى ذم نفوسهم فيجمع بين ثلاث فواحش : الغيبة ، والرياء ، وتزكية النفس ، بل أربعة لأنه يظن بجهله أنه مع ذلك من الصالحين المتعففين عن الغيبة ، ومنشأ ذلك الجهل ، فإن من تعبد على جهل لعب به الشيطان وضحك عليه وسخر به فأحبط عمله وضيع تعبه وأرداه إلى دركات البوار والضلال ، ومن ذلك أن يقول : ساءنى ماوقع لصديقنا من كذا ، فنسأل الله أن يعافيه وهو كاذب وما درى الجاهل أن الله مطلع على خبث ضميره وأنه قد تعرض بذلك لمقت الله أعظم مما يتعرض له الجهال إذا جاهروا به ، ومن ذلك الإصغاء للمغتاب على جهة التعجب ليزداد نشاطه واسترساله فى الغيبة وما درى الجاهل أن التصديق بالغيبة غيبة بل الساكت عليها شريك المغتاب ، كما فى خبر « المستمع أحد المغتابين » فلا يخرج عن الشركة إلا إن أنكر بلسانه ولو بأن يخوض فى كلام آخر فإن عجز فبقلبه ، ويلزمه مفارقة المجلس إلا لضرورة ولا ينفعه أن يقول بلسانه أو يشير بنحو يده اسكت وقلبه مشته لاستمراره فيها . وفى الحديث « من أذل عنده مؤمن وهو يقدر على أن ينصره فلم ينصره أذله الله يوم القيامة على رءوس الخلائق » .

( الثالث ) البواعث على الغيبة كثيرة ، وهى : عامة وخاصة ، فالعامة إما تشفى الغيظ بذكر مساوى من أغضبه ، وقد لايشفيه ذلك فيحتقن الغضب فى باطنه ويصير حقدا ثابتا ، فيكون سببا دائما ، فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة ، وأما موافقة الإخوان ومجاملتهم بالاسترسال معهم فيما هم فيه أو إبداء نظير ماأبدوه خشية أنه لوسكت وأنكر استثقلوه ونفروا عنه ويظن لجهله أن هذا من المجاملة فى الصحبة ، بل وقد يغضب لغضبه إظهارا للجاهلية فى السراء والضراء

وَبَلَغَنَا عَنِ الحَسَنِ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ : يَاأَبَا سَعِيدٍ إِنَّ فُلَانًا اغْتَابَكَ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِطَبَقٍ فِيهِ رُطَبٌ وَقَالَ بَلَغَنِي أَنَّكَ أَهْدَيْتَ إِلَيَّ حَسَنَاتِكَ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُكَافِئَكَ . وَذُكِرَتِ الْغِيبَةُ عِنْدَ ابْنِ الْمُبَارَكِ

---

فيخوض معهم فى ذكر المساوى والعيوب فيهلك ، وإما أن يستشعر من غيره أنه يريد تنقيصه أو الشهادة عليه عند كبير فيسبقه بذكر مساويه عند ذلك الكبير ليسقطه من عينه ، وربما روج كذبه بأن يبدأ بذكر الصدق من عيوبه ثم يتدرج إلى غيره ليشهد بصدقه فى ذلك أنه صادق فى الكل ، وإما أن ينسب لقبيح فيبرأ منه بأن فاعله فلان وهو قبيح . وأما التصنع كفلان جاهل فهمه ركيك تدريجا لإظهار فضله وسلامته عن مثل ذلك . وأما الحسد لثناء الناس عليه ومحبتهم له فيريد أن يغضبهم إليه بالقدح فيه ، وأما اللعب فيذكر من غـيره ما يضحك به الناس ، وأما السخرية فى غيبته وكذا فى حضرته تحقيرا له والخاصة وهي أشر وأخبث . أما التعجب من فعل غيره منـكرا ، كأن يقول : ما أعجب ما رأيت من فلان أو عجيب من فلان كيف يحب أمته وهي قبيحة ! أو كيف يقرأ على فلان الجاهل فهو وإن صدق إلا أنه كان غنيا عن ذكره باسمه ، وأما الاغتمام مما ابتلى به كان يقول : مسكين فلان ساءتنى بلواه بكذا فهو وإن صدق فى اغتمامه لـكن من حقه أن لا يذكر اسمه . وأما الغضب من أجل مقارفة غيره لمنـكر فيظهر غضبه لله ويذكر اسمه ، وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف ولا يظهره على غيره أو يستر اسمه ولا يذكره فهذه الثلاثة مما يغمض إدراكها على العلماء فضلا عن العوام لظنهم أن التعجب والرحمة والغضب إذا كان لله كان عذرا فى ذكر الاسم وهو خطأ ، بل الرخص فى الغيبة الأعذار السابقة فقط ، والفرض أنه لا شيء منها هنا ، كذا ذكره العلامة بابصيل ( وبلغنا عن الحسن ) البصرى رحمه الله تعالى ( أنه قيل له يا أبا سعيد ) كنية الحسن ( إن فلانا اغتابك فبعث ) أى أرسل ( إليه ) الحسن ( بطبق ) وهو الذى يؤكل عليه . وفى المصباح : الطبق من أمتعة البيت ، والجمع أطباق مثل سبب وأسباب ، وطباق أيضا مثل جبل وجبال ( فيه ) أى فى الطبق ( رطب . وقال ) الحسن ( بلغنى أنك أهديت إلي حسناتك فأحببت أن أ كافئك ) أى أجازيك عليها فاعذرني فإنى لا أقدر أن أ كافئك على التمام ، هكذا أخرجه أبو نعيم فى الحلية ، ونقله فى الإحياء ( وذكرت الغيبة عند ) أبى عبدالرحمن عبد الله ( بن المبارك ) بن الواضح الحنظلى مولاهم المروزى الإمام المجمع على إمامته وجلالته فى كل شيء ، الذى تتنزل الرحمة بذكره ، وترتجى المغفرة بحبه ، وهو من تابعى التابعين سمع هشام بن عروة الأنصارى وسليمان التيمى وحميدا الطويل وإسماعيل ابن أبى خالد وعبد الرحمن بن يزيدبن جابر والأعمش وابن عون وموسى بن عقبة وجماعات وغيرهم من التابعين وخلائق غيرهم من أتباع التابعين : منهم سفيانان ومالك وشعبة والحمادان ومعمر ، وآخرون لا ينحصرون ، روي عنه الثورى وجعفر بن سليمان وداود العطار وأبو الأحوص والفضيل

ابن عياض وأبو إسحاق الفزارى وأبو داود الطيالسى ومحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ويحيى القطان وابن مهدى وابن وهب وعبد الرزاق وخلائق غيرهم ، وكان أبوه تركيا مملوكا لرجل من همدان ؛ وأمه خوارزمية . قال أبو أسامة : ما رأيت أطلق للعلم من ابن المبارك فى الشام ومصر واليمن والحجاز ، روينا عن الحسن بن عيسى قال : اجتمع جماعة من أصحاب ابن المبارك ، فقالوا تعالوا نعد خصال ابن المبارك من أبواب الخير ، فقالوا : جمع العلم والفقه والأدب والنحو واللغة والزهد والشعر والفصاحة والورع والإنصاف وقيام الليل والعبادة والشدة فى رأيه وقلة الكلام فيما لا يعنيه وقلة الخلاف على أصحابه ، وكان كثيرا ما يتمثل بهذين البيتين :

وإذا صاحبت فاصحب صاحبا ذا حياء وعفاف وكرم

قائلا للشئ لا إن قلت لا وإذا قلت نعم قال نعم

وقال العباس بن مصعب : جمع ابن المبارك الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء والتجارة والمحبة عند الفرق . وقال سفيان بن عيينة حين توفى ابن المبارك رحمه الله كان فقيها عالما عابدا زاهدا سخيا شجاعا ، وقال عمار بن الحسن يمدحه ببيتين :

إذا سار عبد الله من مرو ليلة فقد سار منها نورها وجمالها

إذا ذكر الأحبار من كل بلدة فهم أنجم فيها وأنت هلالها

قال المعتمر بن سليمان : ما رأيت مثل ابن المبارك يصاب عنده الشئ الذى لا يصاب عند أحد. وقال عبد الرحمن بن مهدى : حدثنى ابن المبارك وكان نسيج وحده . وقال هو أفضل من الثورى فقيل له إن الناس يخالفونك ، فقال إن الناس لم يجربوا ، ما رأيت مثل ابن المبارك . وقال أيضا الأئمة أربعة : الثورى ، ومالك، وحماد بن زيد، وابن المبارك . وقال الأوزاعى لأبى عثمان الكلابى لو رأيت ابن المبارك لقرت عينيك ، وقال أبو إسحاق الفزارى : ابن المبارك إمام المسلمين . وقال أبو أسامة: ابن المبارك فى أصحاب الحديث كأمير المؤمنين فى الناس . قال أحمد بن حنبل : لم يكن فى زمن ابن المبارك أطلب للعلم منه ، رحل إلى اليمن ومصر والشام والبصرة والكوفة ، وكان من رواة العلم وأهل ذلك، كتب عن الصغار والكبار، وجمع أمرا عظيما وكان صاحب حديث حافظا وقال عبد الرحمن بن أبى جميل : قلنا لابن المبارك يا عالم المشرق حدثنا فسمعنا سفيان فقال ويحكم عالم المشرق والمغرب وما بينهما . وقال شعيب بن حرب : كنا نأتي ابن المبارك نحفظ عنه فما نستطيع أن نلقلق عليه بشئ . وروينا عن عشير بن القاسم قال : لما قدم ابن المبارك وهارون الرشيد بالرقة أشرفت أم ولد له من قصر ، فرأت الغبرة قد ارتفعت والنعال قد تقطعت وانجفل الناس ، فقالت من هذا ؟ فقالوا عالم من خراسان يقال له ابن المبارك ، فقالت هذا والله الملك لا الملك هارون الذى لا يجمع الناس إلا بالسوط والخشب . وقال أسود بن سالم : كان ابن المبارك إماما يقتدى به وهو من أثبت الناس فى السنة . وقال محمد بن سعد : طلب ابن المبارك العلم وروى رواية كثيرة وصنف كتبا كثيرة فى أبواب العلم وصنوفه ، وقال الشعر فى الزهد والحث على الجهاد ، وسمع علما

فَقَالَ : لَوْ كُنْتُ مُغْتَابًا أَحَدًا لَاغْتَبْتُ أُمِّي لِأَنَّهَا أَحَقُّ بِحَسَنَاتِي ، وَذُكِرَ أَنَّهُ فَاتَ حَاتِمًا الْأَصَمَّ لَيْلَةً الْقِيَامُ فَعَيَّرَتْهُ زَوْجَتُهُ ، فَقَالَ إِنَّ أَقْوَامًا صَلَّوْا بِاللَّيْلِ الْبَارِحَةَ ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا نَالُوا مِنِّي ، فَتَكُونُ صَلَاتُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مِيزَانِي .

وَالْأَصْلُ الرَّابِعُ : السَّلَامَةُ مِنْ آفَاتِ الدُّنْيَا عَلَى مَا قَالَ سُفْيَانُ : لَا تَتَكَلَّمْ بِلِسَانِكَ مَا تَكْسِرُ بِهِ أَسْنَانَكَ . وَقَالَ الْآخَرُ: لَا تَبْسُطَنَّ لِسَانَكَ فَيُفْسِدُ عَلَيْكَ شَأْنَكَ،

---

كثيرا . وكان ثقة مأمونا حجة كثير الحديث ، توفى بهيت منصرفا من الغزو سنة إحدى وثمانين ومائة وهو ابن ثلاث وستين سنة . وقال البخارى : توفى فى رمضان من السنة المذكورة . قال العلامة عبد الحق : هيت مدينة معروفة على الفرات فوق الأنبار . قال الخطيب : حدث عن ابن المبارك معمر والحسين بن داود ، وبين وفاتيهما مائة واثنتان وثلاثون سنة . وقيل مائة وثلاثون سنة ، كذا نقله صاحب سراج السالكين عن تهذيب الأسماء ( فقال ) ابن المبارك ( لو كنت مغتابا أحدا لاغتبت أمى لأنها ) وفى الرسالة لأبي القاسم القشيرى والدى لأنهما ( أحق ) أن تأخذ ( بحسناتي ) أو آخذ من سيئاتها يوم القيامة كما فى شرح الإحياء ( وذكر أنه فات حاتم الأصم ) هو أبو عبد الرحمن حاتم بن علوان ، ويقال حاتم بن يوسف الأصم من أكابر مشايخ خراسان ، وكان تلميذ شقيق ، وأستاذ أحمد بن خضرويه . مات سنة سبع وثلاثين ومائتين؛ وقد سبق ذكر ترجمته رحمه الله تعالى ( ليلة ) من الليالى ( القيام ) أى صلاة الليل ( فعيرته ) أى عيبته ( زوجته ، فقال ) حاتم الأصم ( إن أقواما صلوا بالليل البارحة ) أى أقرب ليلة مضت، قال عبد الحق: والبارحة الأولى لليلة التى قبلها ، وهو من برح : أى زال ، والعرب تقول بعد الزوال . فعلنا البارحة كذا ، وقيل الزوال : فعلنا الليلة كذا ( فلما أصبحوا ) أى دخلوا فى الصباح ( نالوا منى ) أى اغتابونى ( فتكون صلاتهم ) أى ثواب صلاة هؤلاء القوم ( يوم القيامة فى ميزانى ) أى ميزان حسناتى .

﴿ والأصل الرابع ﴾ من الأصول الخمسة ( السلامة من آفات الدنيا على ما قال ) أبو عبد الله ( سفيان ) بن سعيد الثورى الكوفى ، الإمام الجامع لأنواع المحاسن ، وهو من تابع التابعين ، ولد سنة سبع وتسعين ، وتوفى بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة رضى الله تعالى عنه ( لا تتكلم بلسانك ما تكسر به أسنانك . وقال الآخر: لا تبسطن ) أى ترسلن ( لسانك فيفسد عليك شأنك ) ولله در القائل :

لا تنطقن بما كرهت فربما ... نطق اللسان بحادث فيكون

وقال بعض الحكماء : ست خصال يعرف بهن الجاهل أحدها الغضب فى غيرشيء يعنى يغضب على ابن آدم وعلى الحيوان وعلى كل شيء يستقبله منه مكروه ، فهذا من علامة الجهل . والثانى فى غير نفع ؛ فينبغى للعاقل أن لا يتكلم بكلام لا فائدة له فيه ، وينبغى له أن يتكلم بكل كلام فيه منفعة

وَأَنْشَدُوا :

أَحْفَظْ لِسانَكَ لاَ تَقُولُ فَتُبْتَلَى    إِنَّ الْبَلاَءَ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ

وَلِابْنِ الْمُبَارَكِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ :

أَلاَ أحْفَظْ لِسَانَكَ إِنَّ اللِّسَانَ    سَرِيعٌ إِلى الْمَرْءِ فى قَتْـــلِهِ

وَإِنَّ اللِّسَانَ دَلِيلُ الْفُؤَادِ    يَدُلُّ الرِّجَالَ عَلَى عَقْـــلِهِ

وَلِابْنِ الْمُطِيعِ رَحِمَهُ اللهُ :

لِســـانُ المرْءِ لَيْثٌ فى كَمِينٍ    إِذَا خَلَّى عَلَيْهِ لَهُ إِغَارَهْ

---

فى أمر دنياه وآخرته . والثالث العطية فى غير موضع يعنى يدفع ماله إلي من لا يكون له فى ذلك أجر وهو علامة الجهل . والرابع إفشاء السر عند كل أحد . والخامس الثقة بكل إنسان . والسادس أن لا يعرف صديقه من عدوه ، يعنى أن الرجل ينبغى له أن يعرف صديقه فيطيعه ويعرف عدوه فيحذره ( وأنشدوا ) فى معنى ذلك من بحر الكامل ( احفظ لسانك لا تقول ) أى لا تتكلم ( فتبتلى * إن البلاء موكل بالمنطق ) مصدر ميمى : أى النطق (ولابن المبارك رضى الله عنه) من بحر المتقارب (ألا احفظ لسانك إن اللسان * سريع إلى المرء في قتله . وإن اللسان دليل الفؤاد) أى يدل على ما فى القلب ( يدل ) أى اللسان ( الرجال على عقله ) ولبعضهم :

يموت الفتى من عثرة من لسانه    وعثرته بالرجل تبرى على مهل

ولآخر :

احفظ لسانك واستعذ من شره    إن اللسان هو العـدو الذابح

وزن الكلام إذا نطقت بمجلس    وزنا يلوح به الصواب اللائح

فالصمت من سعد السعود بمطلع    يحمى الفتى والنطق سعد الذابح

(ولابن أبى المطيع) شعر من بحر الوافر (رحمه الله) وفى نسخة: عن ابن المطيع، وفى أخرى لابن مطيع ، وهو عبد الله بن مطيع بن الأسـود بن حارثة بن نضلة بن عوف بن عبيد بن عريج ابن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى العدوى المدنى ، ولد فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ولأبيه صحبة كان من رجال قريش جلدا وشجاعة ؛ كان على قريش يوم الحرة وقتل مع ابن الزبير بمكة ، وكان قد استعمله على الكوفة ، روى له مسلم حديثا واحدا ، كذا قاله الزبيدى ( لسان المرء ليث ) أى كأنه أسد (فى كمين) فى المغرب كمن كمونا : توارى واستخفى، ومنه الكمين من حيل الحرب وهو أن يستخفوا فى مكمن لا يفطن لهم انتهى ( إذا خلى عليه ) أى المرء ( له ) أى للمرء متعلق قوله ( إغاره ) أى أوقع اللسان صاحبه فى الإغارة ، في لسان العرب الإغارة المصدر والغارة

فَصُنْهُ عَنِ الْخَنَا بِلِجَامِ صَمْتٍ يَكُنْ لَكَ مِنْ بَلِيَّاتٍ سِتَارَهْ

وَفِى الْمَثَلِ السَّائِرِ : رُبَّ كَلِمَةٍ تَقُولُ لِصَاحِبِهَا : دَعْنِي ، نَسْأَلُ اللهَ التَّوْفِيقَ بِرَحْمَتِهِ .

الْأَصْلُ الْخَامِسُ : ذِكْرُ آفَاتِ الْآخِرَةِ وَعَوَاقِبِهَا ، وَأَذْكُرُ فِيهِ نُكْتَةً وَاحِدَةً ، وَهِىَ أَنَّهُ لاَ يَخْلُو إِمَّا أَنْ تَقُولَ قَوْلاً مَحْظُورًا حَرَامًا أَوْ قَوْلاً مُبَاحًا مِنْ فُضُولٍ لاَ يَعْنِيكَ ، فَإِنْ كَانَ مَحْظُورًا حَرَامًا فَفِيهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ تَعَالَى الَّذِى لاَ طَاقَةَ لَكَ بِهِ ، فَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : « لَيْلَةَ أُسْرِىَ بِى رَأَيْتُ فِى النَّارِ قَوْمًا يَأْكُلُونَ الْجِيَفَ ، فَقُلْتُ : يَا جِبْرِيلُ مَنْ هٰؤُلاَءِ ؟ قَالَ: هٰؤُلاَءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ » .

---

الاسم من الاغارة على العدو ، وفى المصباح أغار على العدو : هجم عليهم ديارهم وأوقع بهم (فصنه) أي احفظه ( عن الخنا ) أى الفحش من الكلام ( بلجام صمت ) فى مختار الصحاح صمت : سكت وبابه نصر وصماتا وصمتانا أيضا بالضم ( يكن لك من بليات ستاره ) الستارة مايستر به ( وفى المثل السائر ) أى الجارى بين الناس ( رب كلة تقول لصاحبها : دعنى ) أى اتركنى ، وهذا يضرب فى النهى عن الإكثار مخافة الإهجار. ذكروا أن ملكا من ملوك حمير خرج متصيدا ومعه نديم وكان يقربه ويكرمه فأشرف على صخرة ملساء ووقف عليها فقال له النديم لو أن إنسانا ذبح على هذه الصخرة إلى أين كان يبلغ دمه ؟ فقال الملك : اذبحوه عليها ليرى دمه أين يبلغ فذبح عليها ، فقال الملك : رب كلة تقول لصاحبها : دعنى ( نسأل الله التوفيق برحمته . الأصل الخامس ) وهذا آخر الأصول الخمسة ( ذكر آفات الآخرة وعواقبها ، وأذكر فيه ) أى فى هذا الأصل الخامس ( نكتة واحدة وهى ) أى هذه النكتة (أنه) أى الحال والشأن (لايخلو إما أن تقول قولا محظورا حراما) تفسير للمحظور ( أو قولا مباحا من فضول لايعنيك فإن كان ) القول ( محظورا حراما ففيه ) أى في المحظور ( من عذاب الله تعالى الذي لاطاقة ) أى لا قوة ( لك به ) أى بالعذاب ( فقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «ليلة أسرى بى رأيت فى النار قوما يأكلون الجيف ) جمع جيفة ، وهى جثة الميت ( فقلت : يا جبريل من هؤلاء ) الذين يأكلون الجيف ؟ ( قال ) جبريل عليه السلام ( هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ) ويقعون فى أعراضهم» . وفى رواية رواها أبو سعيد الخدرى قال : « هؤلاء من أمتك الهمازون اللمازون» . وروى ابن أبى الدنيا فى الصمت قال : حدثنى أبو بكر محمد بن أبى عتاب ، حدثنا عبد القدوس أبو المغيرة ، عن صفوان ابن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مررت ليلة أسرى بى على قوم يخمشون وجوههم بأظافيرهم ، فقلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون فى أعراضهم » . وقال أيضا حدثنا حسين

وَلَقَدْ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمُعَاذٍ : «اُقْطَعْ لِسَانَكَ عَنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ وَطُلَّابِ الْعِلْمِ ، وَلاَ تُمَزِّقِ النَّاسَ بِلِسَانِكَ فَتُمَزِّقَكَ كِلاَبُ النَّارِ » .

---

ابن مهدى ، حدثنا عبد القدوس أبو المغيرة ، حدثنا صفوان بن عمرو السكسكي ، حدثنى راشد ابن سعد وعبد الرحمن بن جبير بن نفير ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم » وقال أبو هريرة رضى الله عنه : «من أكل لحم أخيه فى الدنيا قرب إليه لحمه فى الآخرة ، فقيل له كله ميتا كما أكلته حيا فيأكله فيضج ويكلح : أى يعبس وجهه» رواه بن أبى الدنيا هكذا موقوفا (ولقد قال) رسول الله ( صلى الله عليه وسلم لمعاذ ) هو بالذال المعجمة أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل الأنصارى الخزرجى الجشمى المدنى الفقيه الفاضل الصالح أسلم معاذ وهو ابن ثمان عشرة سنة ، وشهد العقبة الثانية مع السبعين من الأنصار ، ثم شهد بدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين عبد الله بن مسعود ، وروى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة حديث وسبعة وخمسون حديثا اتفق البخارى ومسلم على حديثين ، وانفرد البخارى بثلاث ، ومسلم بحديث . روى عنه ابن عمر وابن عباس وابن عمرو ابن العاصى وأبو قتادة وجابر وأنس وأبو ثعلبة وعبد الرحمن بن سمرة وآخرون من الصحابة رضى الله عنهم وخلائق من التابعين ، توفى فى طاعون عمواس بالشام سنة ثمان عشرة ، وقيل سبع عشرة . والصحيح الأول ، وقبره فى مشاق غورسيان ، وعمواس التى نسب إليها الطاعون بين الرملة وبيت المقدس نسب الطاعون إليها ؛ لأنه بدأ منها وهو بفتح العين والميم ، وتوفى شهيدا فى الطاعون وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وقيل أربع وثلاثين ، وقيل ثمان وثلاثين . وعن جابر ابن عبد الله قال : كان معاذ من أحسن الناس وجها وخلقا وأسمحهم كفا ، ولما وقع الطاعون بالشام قال معاذ : اللهم أدخل على آل معاذ نصيبهم من هذا ، فطعنت له امرأتان فماتتا ، ثم طعن ابنه عبد الرحمن فمات ، ثم طعن معاذ فجعل يغشى عليه فإذا أفاق قال : رب غمنى غمك فوعزتك إنك لتعلم أنى أحبك ثم يغشى عليه ، فاذا أفاق قال مثله ؛ ولما حضرته الوفاة قال : مرحبا بالموت مرحبا زائرا حبيب جاء على فاقة ، اللهم إنك تعلم أنى أخافك وأنا اليوم أرجوك أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى الأنهار ولا لغرس الأشجار ، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر ، وأحوال معاذ كثيرة ومناقبه غير محصورة رضي الله عنه ( اقطع لسانك عن ) الوقيعة فى إخوانك من ( حملة القرآن ) يعنى من حفظ مبانيه وعرف معانيه وعمل بأوامره ونواهيه ( وطلاب العلم ) أى والناس عامة ( ولا تمزق الناس بلسانك ) أى لاتطعن فى عرضهم ولاتغتب ولاتشتم ( فتمزقك ) أى تشققك ( كلاب النار ) أى

وَعَنْ أَبِي قِلَابَةَ قَالَ : إِنَّ فِي الْغِيبَةِ خَرَابَ الْقَلْبِ مِنَ الْهُدَى ، فَنَسْأَلُ اللّٰهَ تَعَالَى الْعِصْمَةَ مِنْ ذٰلِكَ بِفَضْلِهِ هٰذَا فِي الْكَلَامِ الْمَحْظُورِ . وَأَمَّا الْمُبَاحُ فَفِيهِ أَرْبَعَةُ أُمُورٍ : أَحَدُهَا : شَغْلُ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ بِمَا لَا خَيْرَ فِيهِ وَلَا فَائِدَةَ ، وَحَقٌّ لِلْمَرْءِ أَنْ يَسْتَحِيَ مِنْهُمَا فَلَا يُؤْذِيهِمَا ، قَالَ اللّٰهُ تَعَالَى : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ »

---

جهنم يوم القيامة فى النار . قال الله تعالى « والناشطات نشطا » هل تدرى ماهن يا معاذ؟ قلت ماهى بأبى أنت وأمى يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم: كلاب فى النار تنشط اللحم من العظم قلت بأبي وأمي يا رسول الله من يطيق هذه الخصال ومن ينجو منها ؟ قال : يا معاذ إنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه ، إنما يكفيك من ذلك أن تحب للناس ماتحب لنفسك ، وتكره لهم ماتكره لنفسك فإذن أنت يامعاذ قد سلمت » وهذا الحديث رواه ابن المبارك عن خالد بن معدان

( وعن أبى قلابة ) بكسر القاف البصرى الجرمي طلب للقضاء فهرب إلى الشام ، وهو عبد الله ابن زيد كان رأسا فى العلم والعمل ، مات بالشام سنة مائة وست . والجرمي بفتح الجيم والراء كما فى سراج السالكين ( أنه قال : إن فى الغيبة خراب القلب) أى فساده ( من الهدى ، فنسأل الله تعالى العصمة ) والحفظ ( من ذلك ) أى خراب القلب من الهدى ( بفضله ) ومنه ( هذا ) المذكور من العذاب الذى لاطاقة لك به ( فى الكلام المحظور . وأما المباح ) من الكلام ( ففيه أربعة أمور : أحدها شغل ) الملائكة ( الكرام ) على الله ( الكاتبين ) للأعمال فى الصحف كما تكتب الشهود من الناس ليقع الجزاء على غاية التحرير ، وتعظيم الكتبة بكونهم كراما عند الله لتعظيم الجزاء لأن تعظيمهم يدل على تعظيم شغلهم وهو ضبط الأعمال ، فيدل على تعظيم جزائها ، إذ لو لم يكن مايترتب على الأعمال عظيما لم يكن ضبطها وكتبها عظيما كما أفاده بعض المفسرين ( بما لاخير فيه ) متعلق بالشغل ( ولا فائدة ، وحق ) أى وجب ( للمرء أن يستحى منها ) أى الملكين الكاتبين للأعمال ( فلا يؤذيها ) بما لاخير فيه ولا نفع ( قال الله تعالى : مايلفظ من قول ) أى مايتكلم العبد من كلام يخرج من فيه ( إلا لديه ) أى عنده ( رقيب ) أى ملك يرقب عمله ( عتيد ) أى حاضر أينما كان سوى وقت الغائط ، وعند جماعه فانها يتأخران عنه فلا يجوز للانسان أن يتكلم فى هاتين الحالتين حتى لايؤذى الملائكة بدنوهما منه وهو على تلك الحالة حتى يكتبا مايتكلم به . قيل إنهما يكتبان عليه كل شىء يتكلم به حتى أنينه فى مرضه وقيل لايكتبان إلا ماله أجر وثواب أو عليه وزر وعقاب . وقيل إن مجلسهما تحت الشعر على الحنك ، وكان الحسن البصرى يعجبه أن ينظف عنفقته . روى البغوى بإسناد الثعلبي عن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر »

وَالثَّانِي إِرْسَالُ كِتَابٍ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ اللَّغْوِ وَالْهَذَرِ ، فَلْيَحْذَرِ الْعَبْدُ مِنْ ذَلِكَ وَلْيَخْشَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ .

وَذُكِرَ أَنَّ بَعْضَهُمْ نَظَرَ إِلَى رَجُلٍ يَتَكَلَّمُ بِالْخَنَا ، فَقَالَ : يَا هَذَا وَيْحَكَ ، إِنَّمَا تُمْلِي كِتَابًا إِلَى رَبِّكَ فَانْظُرْ مَاذَا تُمْلِي ؟ وَالثَّالِثُ قِرَاءَتُهُ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ الْجَبَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءوسِ الْأَشْهَادِ بَيْنَ الشَّدَائِدِ وَالْأَهْوَالِ ، عَطْشَانَ عُرْيَانَ جَيْعَانَ مُنْقَطِعًا عَنِ الْجَنَّةِ مَحْبُوسًا عَنِ النِّعْمَةِ . وَالرَّابِعُ : اللَّوْمُ وَالتَّعْيِيرُ بِمَاذَا قُلْتَ ، وَانْقِطَاعُ الْحُجَّةِ ، وَالْحَيَاءُ مِنْ رَبِّ الْعِزَّةِ ، فَقَدْ قِيلَ : إِيَّاكَ وَالْفُضُولَ، فَإِنَّ حِسَابَهُ يَطُولُ ، وَكَفَى بِهَذِهِ الْأُصُولِ وَاعِظًا لِمَنِ اتَّعَظَ ، وَقَدْ بَسَطْنَا فِي كِتَابِ [ أَسْرَارِ مُعَامَلَاتِ الدِّينِ ] مَا فِيهِ مَقْنَعٌ فَانْظُرْ مَا فِيهِ تَجِدِ الشِّفَاءَ .

---

(والثاني) من الأمور الأربعة (إرسال كتاب إلى الله سبحانه وتعالى من اللغو والهذر) أي الكلام الساقط والباطل. وفي القاموس وغيره : هذر كلامه كفرح : كثر في الخطأ والباطل ، والهذر محركة : الكثير الرديء، أو سقط الكلام الذي لا يعبأ به ، هذر في منطقه يهذر هذرا وتهذارا وأهذر هذى : أي خلط وتكلم بما لا ينبغي ( فليحذر العبد من ذلك ) أي إرسال الكتاب الذي فيه اللغو والهذر ( وليخش الله عز وجل . وذكر أن بعضهم ) أي السلف الصالحين ( نظر إلى رجل يتكلم بالخنا ) أي الفحش ( فقال ) البعض ( ياهذا ) أي المتكلم ( ويحك إنما تملي ) أي تقرئ ( كتابا إلى ربك فانظر ماذا ) أي أي شيء ( تملي ) إليه تعالى . ( والثالث ) من الأمور الأربعة ( قراءته ) أي كتاب أعمالك ( بين يدي الملك الجبار ) جل جلاله ( يوم القيامة على رءوس الأشهاد ) أي حضرتهم ؛ والأشهاد جمع شاهد كصاحب وأصحاب، والمراد من يقوم يوم القيامة للشهادة على الناس من الملائكة والأنبياء والمؤمنين ( بين الشدائد والأهوال ) عطف تفسير ( عطشان ) أي ذا عطش ( عريان ) نقيض اللابس ( جيعان منقطعا عن الجنة محبوسا عن النعمة . والرابع ) هذا آخر الأمور الأربعة ( اللوم ) أي العذل ، يقال : لامه لوما من باب قال : عذله فهو ملوم على النقص ، والفاعل لائم ؛ والجمع لوم مثل راكع وركع ، كما في المصباح ( والتعيير ) أي التقبيح ( بماذا ) أي بأي شيء ( قلت ، وانقطاع الحجة والحياء من رب العزة ) سبحانه وتعالى ( فقد قيل ) أي قاله بعضهم ( إياك ) أي احذر ( والفضول ) وهو ما لا ينفع في الدارين من قول أو فعل (فان حسابه يطول ، وكفى بهذه الأصول ) الخمسة ( واعظا لمن اتعظ ) وتذكر ( وقد بسطنا في كتاب أسرار معاملات الدين ) من الإحياء ( ما فيه مقنع ) أي كاف ( فانظر ما فيه ) أي في الكتاب ( تجد الشفاء ) والبيان وقد لقطنا عبارته قليلا في أثناء كلامه هنا قصدا للاختصار والإيجاز كما هو شرط هذه التعليقات في أول هذا المختصر .

[ خاتمة ] نسأل الله حسن الختام . يتعين عليك معرفة علاج الغيبة ، وهو إما إجمالى بأن تعلم أنك قد تعرضت بها لسخط الله تعالى وعقوبته كما دلت عليه الآية والأخبار ، وأيضا فهى تحبط حسناتك فاحذر أن تكون سببا لفناء حسناتك وزيادة سيئاتك فتكون من أهل النار ، وقد ورد فى الخبر « ماالنار فى اليبس بأسرع من الغيبة فى حسنات العبد » ومن ثم قال رجل للحسن البصرى : بلغنى أنك تغتابني ؟ فقال مابلغ من قدرك عندى أنى أحكمك فى حسناتى ، ومما ينفعك أيضا أنك تتدبّر فى عيوبك وتجتهد فى الطهارة منها لتدخل تحت قوله عليه الصلاة والسلام « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » وتستحي من أن تذم غيرك بما أنت متلبس به أو بنظيره ، فإن كان أمرا خلقيا فالذم له ذم للخالق ، إذ من ذم صنعة ذم صانعها ، وأن تعلم أن تأذى غيرك بالغيبة كتأذيك بها فكيف ترضى لغيرك ماتتأذى به . وإما تفصيلى بأن تنظر فى باعثها فتقطعه من أصله ، إذ علاج العلة إنما يكون بقطع سببها ، ويجب على المغتاب أن يبادر إلى التوبة بشروطها المقررة فى بابها . قال أبو الليث السمرقندي : قد تكلم العلماء فى توبة المغتاب هل تجوز من غير أن يستحل من صاحبه . قال بعضهم : يجوز . وقال بعضهم : لا يجوز مالم يستحل من صاحبه ، وهو عندنا علي وجهين إن كان ذلك القول قد بلغ إلى الذى اغتابه فتوبته أن يستحل منه وإن لم يبلغ فليستغفر الله تعالى ويضمر أن لا يعود إلى مثله . وروى أن رجلا أتى ابن سيرين فقال : إنى اغتبتك فاجعلنى فى حل ، فقال وكيف أحل ما حرم الله فكأنه أشار اليه بالاستغفار والتوبة إلى الله تعالى مع استحلاله منه ، فإن لم تبلغ إلى صاحبه تلك الغيبة فتوبته أن يستغفر الله تعالى ويتوب إليه ولا يخبر صاحبه فهو أحسن لكيلا يشتغل قلبه به ، والأصح كما قال العلامة بابصيل : أنه لابد من الاستحلال ، وزعم بعضهم أن العرض لا عوض له فلايجب الاستحلال منه بخلاف المال مردود بأنه وجب في العرض حق حد القذف ، وفي الحديث الصحيح « الأمر بالاستحلال من المظالم قبل يوم لا درهم فيه ولا دينار ، وإنما هى حسنات الظالم تؤخذ للمظلوم وسيئات المظلوم تطرح على الظالم » فتعين الاستحلال ، نعم الغائب والميت ينبغي أن يكثر لهما من الاستغفار والدعاء ، ويندب لمن سئل فى التحليل : وهو العفو أن يحلل ولا يلزمه لأن ذلك تبرع منه وفضل ، وكان جمع من السلف يمتنعون من التحليل ، ولو أنه قال بهتانا لم يكن ذلك فيه فإنه يحتاج إلى التوبة فى ثلاثة مواضع : أحدها أن يرجع إلى القوم الذين تكلم بالبهتان عندهم ويقول إنى قد ذكرت عندكم فلانا بكذا وكذا فاعلموا أنى كاذب فى ذلك . والثاني أن يذهب إلى الذي قال عليه البهتان ، ويطلب منه أن يجعله فى حل . والثالث أن يستغفر الله تعالى ويتوب إليه فليس شئ من الذنوب أعظم من البهتان فإن سائر الذنوب تحتاج إلى توبة واحدة . وفى البهتان يحتاج إلى التوبة فى ثلاثة مواضع ، وقد قرن الله تعالى البهتان بالكفر ، فقال تعالى « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » ويقال لا تكون الغيبة إلا فى قوم معلومين حتى لو ذكر أهل مصر من الأمصار ؟ فقال هم بخلاء أو قوم سوء لا يكون غيبة لأن فيهم البر والفاجر وعلم أنه لم يرد به الجميع والكف عن ذلك أفضل ،

وذكر عن بعض الزهاد أنه اشترى قطنا لامرأته ، فقالت المرأة : إن باعة القطن قوم سوء قد خانوك فى هذا القطن فطلق الرجل امرأته ، فسئل عن ذلك فقال : إنى رجل غيور فأخاف أن يكون القطانون كلهم خصماءها يوم القيامة فيقال إن امرأة فلان تعلق بها القطانون فلأجل ذلك طلقتها . وقال : «ثلاثة لا يكون غيبتهم غيبة: سلطان جائر وفاسق معلن وصاحب بدعة» يعنى إذا ذكر فعلهم ومذهبهم ، ولو ذكر شيئا من أبدانهم بعيب فيهم لكان ذلك غيبة ، ولكن إذا ذكر فعلهم ومذهبهم فلا بأس لكى يحذرهم الناس . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « اذكروا الفاجر بما فيه لكى يحذره الناس » . قال أبو الليث الغيبة على أربعة أوجه : فى وجه هى كفر ، وفى وجه هى نفاق ، وفى وجه هى معصية ، والرابع مباح وهو مأجور ؟ فأما الوجه الذى هو كفر فهو أن يغتاب المسلم فيقال له لا تغتب فيقول ليس هذا غيبة وأنا صادق فى ذلك فقد استحل ما حرم الله تعالى ومن استحل ماحرم الله تعالى صار كافرا نعوذ بالله ، وأما الوجه الذى هو نفاق فهو أن يغتاب إنسانا فلا يسميه عند من يعرف أنه يريد منه فلانا فهو يغتابه ويرى من نفسه أنه متورع فهذا هو النفاق . وأما الذى هو معصية ، فهو أن يغتاب إنسانا ويسميه ويعلم أنها معصية فهو عاص وعليه التوبة . والرابع أن يغتاب فاسقا معلنا بفسقه أو صاحب بدعة فهو مأجور لأنهم يحذرون منه إذا عرفوا حاله كما فى الخبر السابق .

وحكى عن محمد بن إبراهيم السمرقندى: أن الأنبياء الذين لم يكونوا مرسلين عليهم الصلاة والسلام بعضهم كانوا يرون فى المنام وبعضهم كانوا يسمعون الصوت ولا يرون شيئا وكان نبى من الأنبياء ممن يرى فى المنام رأى ذات ليلة فى المنام قيل له : إذا أصبحت فأول شىء يستقبلك فكله ، والثانى اكتمه ، والثالث اقبله . والرابع لا تؤيسه . والخامس اهرب منه ، فلما أصبح أول شىء استقبله جبل أسود عظيم ، فوقف وتحير وقال أمرنى ربى أن آكله أآكل هذا ؟ ثم رجع إلى نفسه وقال إن ربى لا يأمرنى بما لا أطيق ، فلما عزم على أكله ومشى إليه ليأكله ، فلما دنا منه صغر ذلك الجبل ، فلما انتهى إليه وجده لقمة أحلى من العسل فأكله وحمد الله تعالى ومضى فاستقبله طست من ذهب وقال أمرت بأن أكتمه ، فحفر بئرا فى الأرض ودفنه فيها ومضى ، والتفت فإذا الطست فوق الأرض ، فرجع مرتين أو ثلاثا وهو يدفنه فيها ، ومضى فالتفت فإذا هو على وجه الأرض قال إنى فعلت ما أمرت به ، فذهب فاستقبله طائر خلفه بازى يريد أن يأخذه ، فقال يا نبى الله أغثنى ، فقبله وجعله فى كمه فجاء البازى فقال يا نبى الله إنى كنت جائعا وإنى كنت فى طلب هذا الصيد من منذ الغداة حتى أردت أخذه فلا تؤيسنى من رزقى ، فقال فى نفسه إنى قد أمرت أن أقبل الثالث وقد قبلته ، وقد أمرت أن لا أؤيس الرابع والرابع هذا البازى فكيف أصنع ، فلما تحير فى ذلك أخذ السكين وقطع من فخذ نفسه قطعة من لحم فرمى بها البازى حتى أخذها ومضى ثم أرسل الطائر ومضى، فرأى الخامس جيفة منتنة فهرب، فلما أمسى قال يارب إنى قد فعلت ما أمرتنى فبين لى ما كان من أمر هذه الأشياء ، فرأى فى منامه أنه قيل له: أما الأول الذى أكلته فهو الغضب يكون فى الأول كالجبل وهو فى آخره إذا صبر وكظم غيظه أحلى من العسل . والثانى فهو من

﴿ الفصل الرابع : القلب ﴾

ثُمَّ عَلَيْكَ بِحِفْظِهِ وَإِصْلَاحِهِ وَحُسْنِ النَّظَرِ فِي ذَلِكَ وَبَذْلِ الْمَجْهُودِ ، فَإِنَّهُ أَعْظَمُ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ خَطَرًا وَأَكْثَرُهَا أَثَرًا وَأَدَقُّهَا أَمْرًا وَأَشَقُّهَا إِصْلَاحًا وَأَصْعَبُهَا حَالًا ، وَأَذْكُرُ فِيهِ خَمْسَةَ أُصُولٍ مُقْنِعَةٍ : ﴿ الْأَصْلُ الْأَوَّلُ ﴾ قَوْلُهُ تَعَالَى : ( يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ) وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ( وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ) وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ( إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ) كَمْ ذَكَرَهُ وَكَرَّرَ ذِكْرَهُ فِي الْقُرْآنِ ، وَكَفَى بِاطِّلَاعِ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ تَحْذِيرًا وَتَهْدِيدًا لِلْخَوَاصِّ مِنَ الْعِبَادِ ، لِأَنَّ الْمُعَامَلَةَ مَعَ عَلَّامِ الْغُيُوبِ خَطَرٌ خَطِيرٌ ،

---

عمل حسنة فإن كتمه فإنه يظهر . والثالث من ائتمنك بأمانة فلا تخنه . وأما الرابع فإذا سألك إنسان حاجة فاجتهد فى قضائها وإن كنت محتاجا إليها . والخامس الغيبة فاهرب من الذين يغتابون الناس ، والله أعلم .

﴿الفصل الرابع﴾ من الفصول الخمسة ( القلب ) وهو كالراعى للجوارح ، فانبعاثها للطاعة أو ضدها من تلقائه ، ولا تحصل منها حركة أوسكون إلا وقدوقعت فيه إرادته والإقبال إليه بعد إرادته تعالى فتقوم به وتنشط لفعله إن خيرا فخير وإن شرا فشر كما قال عليه الصلاة والسلام « ألا وإن فى الجسد مضغة » الحديث ، وكما قال القائل :

وإذا حلت الهداية قلبا    نشطت فى العبادة الأعضاء

( ثم عليك بحفظه وإصلاحه ) أى القلب لتصلح به جوارحك ( وحسن النظر فى ذلك ) أى فى أمر القلب ( وبذل المجهود ، فإنه أعظم هذه الأعضاء خطرا وأكثرها ) أى الأعضاء ( أثرا )وفى نسخة : أشرا أى كفرانا للنعمة ( وأدقها أمرا وأشقها إصلاحا وأصعبها حالا ، وأذكر فيه ) أى فى هذا الفصل الرابع ( خمسة أصول مقنعة ) أى كافية لمن تأملها وتدبرها بخالص الفكر . ﴿ الأصل الأول ﴾ من هذه الخمسة ( قوله تعالى: يعلم ) الله ( خائنة الأعين وما تخفى الصدور ) أى القلوب ( وقوله تعالى : والله يعلم مافى قلوبكم ، وقوله تعالي : إنه ) عز وجل (عليم بذات الصدور) بالضمائر قبل أن يعبر عنها سرا وجهرا ( كم ذكره ) أى القلب ( وكرر ) تعالى ( ذكره فى القرآن وكفي باطلاع العليم الخبير تحذيرا وتهديدا ) أي تخويفا ( للخواص من العباد لأن المعاملة) أى العبادة بمعنى عمل العبد لله فليست المفاعلة من الجانبين بل من جانب واحد إلا إن نظر لكون المولى يعامل عبده بالاثابة، كما أن العبد يعامل ربه بالعبادة فتكون من الجانبين ( مع علام الغيوب خطر خطير ) وفي أكثر النسخ خطيرة بدل خطر خطير : أى عظيمة كما فى سراج السالكين

فَانْظُرْ مَاذَا يَعْلَمُ مِنْ قَلْبِكَ .

﴿الْأَصْلُ الثَّانِي﴾ : قَوْلُ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَبْشَارِكُمْ ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ » فَالْقَلْبُ إِذَنْ مَوْضِعُ نَظَرِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَيَا عَجَبًا مِمَّنْ يَهْتَمُّ بِوَجْهِهِ الَّذِي هُوَ مَوْضِعُ نَظَرِ الْخَلْقِ فَيَغْسِلُهُ وَيُنَظِّفُهُ مِنَ الْأَقْذَارِ وَالْأَدْنَاسِ وَيُزَيِّنُهُ بِمَا أَمْكَنَهُ لِئَلَّا يَطَّلِعَ مَخْلُوقٌ فِيهِ عَلَى عَيْبٍ وَلَا يَهْتَمُّ بِقَلْبِهِ الَّذِي هُوَ مَوْضِعُ نَظَرِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَيُطَهِّرَهُ وَيُزَيِّنَهُ وَيُطَيِّبَهُ ، كَيْ لَا يَطَّلِعَ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَى دَنَسٍ فِيهِ وَشَيْنٍ وَآفَةٍ وَعَيْبٍ بَلْ يُهْمِلُهُ بِفَضَائِحَ وَأَقْذَارٍ وَقَبَائِحَ لَوِ اطَّلَعَ الْخَلْقُ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهَا لَهَجَرُوهُ وَتَبَرَّءُوا مِنْهُ وَطَرَدُوهُ ،

---

( فانظر ماذا ) أى أى شئ ( يعلم من قلبك . الأصل الثاني ) من الأصول الخمسة ( قول رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله تعالي لا ينظر إلى صوركم ) أى لا يجازيكم على ظاهرها ( وأبشاركم ) أي أبدانكم ( وإنما ينظر إلى قلوبكم ) أى إلي طهارة قلوبكم التي هى محل التقوى وأوعية الجواهر وكنز المعارف ؛ فمعنى النظر الاختيار والرحمة والعطف ، لأن النظر فى الشاهد دليل المحبة وتركه دليل البغض « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا » وهذا الحديث رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة بلفظ « إن الله تعالى لا ينظر إلي صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . وأخرج الطبرانى عن أبى مالك الأشعرى « إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى أحسابكم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه وإنما أنتم بنو آدم وأحبكم إلي أتقاكم » ( فالقلب إذن ) أى حين إذ عرفت هذا الحديث ( موضع نظر رب العالمين ، فياعجبا ممن يهتم بوجهه الذي هو ) أى الوجه ( موضع نظر الخلق فيغسله ) بالماء ( وينظفه ) بضم الظاء من باب ظرف : أى ينقيه (من الأقذار) جمع قذر : وهو الوسخ (والأدناس) جمع دنس ، وهو الوسخ فهما مترادفان ( ويزينه ) أى وجهه ( بما أمكنه ) من أنواع الزينة ( لئلا يطلع مخلوق فيه ) أى في وجهه ( على عيب ، و ) مع ذلك ( لا يهتم ) ولا يتفقد ولا يراقب ( بقلبه الذى هو موضع نظر رب العالمين فيطهره ) أى قلبه من الصفات المذمومات ( ويزينه ويطيبه ) بالصفات المحمودة ( كيلا يطلع الرب جل جلاله علي دنس ) ووسخ ( فيه ) أى القلب ( وشين ) بفتح الشين: ضد الزين ( وآفة وعيب بل يهمله ) أى يترك قلبه مهملا ومرسلا ( بفضائح وأقذار وقبائح لو اطلع الخلق على واحد منها ) أى من تلك الفضائح والأقذار والقبائح ( لهجروه ) أى تركوه ( وتبرءوا ) أى الخلق ( منه ) أى المتصف بما ذكر ( وطردوه ) أى أبعدوه

وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ .

﴿الْأَصْلُ الثَّالِثُ﴾ : أَنَّ الْقَلْبَ مَلِكٌ مطَاعٌ وَرَئِيسٌ مُتَّبَعٌ ، فَالْأَعْضَاءُ كُلُّهَا تَبَعٌ ، فَإِذَا صَلَحَ الْمَتْبُوعُ صَلَحَ التَّبَعُ ، وَإِذَا اسْتَقَامَ الْمَلِكُ اسْتَقَامَتِ الرَّعِيَّةُ ، وَيُبَيِّنُ لَكَ ذٰلِكَ مَا رُوِىَ عَنِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليهِ وَسَلم أَنَّهُ قالَ : « إِنَّ فى الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلاَ وَهِىَ الْقَلْبُ » وَإِذَا كَانَ صَلاَحُ الْكُلِّ فى ذٰلِكَ وَجَبَ صَرْفُ الْعِنَايَةِ إِلَيْهِ .

---

(واللهالمستعان) أيالمطلوب منه الإعانة. ﴿الأصل الثالث﴾ من الأصول الخمسة (أن القلب ملك مطاع ورئيس متبع فالأعضاء كلها له) أى القلب ( تبع فإذا صلح ) بفتح اللام وضمها والفتح أفصح وأشهر ( المتبوع صلح التبع ) بفتح التاء والباء جمع التابع يكون واحدا وجمعا ويجمع على أتباع كسبب وأسباب ( وإذا استقام الملك استقامت الرعية ، ويبين لك ذلك ) أى تبعية الأعضاء للقلب ( ماروى عن النبى صلي الله عليه وسلم أنه قال : إن في الجسد مضغة ) أى قطعة لحم قدر ما يمضغ فى الفم تقريبا لـكنها وإن صغرت فى الصورة عظمت فى الرتبة ( إذا صلحت ) أى بالإيمان والعلم والعرفان . وقال العلامة عبد الحق معناه انشرحت بالهداية ( صلح ) بها ( الجسد كله ) بالأعمال والإخلاص والأحوال ( وإذا فسـدت ) تلك المضغة بالجحود والـكفران والضلالة ( فسد ) بها (الجسد كله ) بالفجور والعصيان والمنـكرات ( ألا ) حرف تنبيه ( وهى القلب ) لأنه مبدأ الحركات البدنية والإرادات النفسانية ، فإن صدرت عند إرادة صالحة تحرّك البدن حركة صالحة ، أو فاسدة ففاسدة فهو ملك والأعضاء رعية وهذاالحديث أخرجه البخارى ومسلموالترمذى وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن النعمان بن بشير ( وإذاكان صلاح الكل ) أى جميع الأعضاء وفساده ( فى ذلك )أى فى صلاح القلب وفساده ( وجب) على سالك طريق الآخرة ( صرف العناية ) أى القصد ( إليه ) أى إلى إصلاح القلب ، وصلاح القلب يكون بملازمة المراقبة لله سبحانه وتعالى فى جميع الحركات والسكنات واللحظات والخطرات . وهى لغة دوام ملاحظة المقصود . واصطلاحا دوام النظر بالقلب إليه تعالى وترقب ما يبدو من أفعاله وأحكامه ، ويعبر عنـه باشتشعارك نظر الله إليك فى حركاتك وسكناتك ، وسببها معرفة الله بصفاته ، ومعرفة وعده ووعيده وأحكامه . وثمرتها حسن الأدب والسلامة من شديد الحساب والتحلى بحلية الأولياء ذوى الألباب وهي ممدوحة ومطلوبة . قال تعالى « وكان الله على كلّ شيء رقيبا ، إن الله كان عليكم رقيبا » أى فراقبوه ، وقال صلى الله عليه وسلم فى حديث جبريل « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تـكن تراه فإنه يراك » فأشار بقوله فإن لم تـكن الخ إلى حالة المراقبة من العبد ، لأن ابتداءها علم العبد باطلاع الربّ سبحانه وتعالى عليه فاستدامته لهذا العلم مراقبة لربه . وقيل أشار بقوله : أن تعبد الله كأنك تراه لا بقوله فإن لم

تـكن ، وإن فى الحديث مراقبتين : مراقبة العبد للحق فى القول الأول وعكسه فى القول الثانى ، ومراقبة العبد للحق أصل كلّ خير وبركة ، ولا يكاد يصل إلى المراقبة إلا بعد فراغ المحاسبة لنفسه وهى التثبت قبل الفعل ليزنه بميزان الشرع ، فإذا حاسب نفسه على ما سلف وأصلح حاله فى الوقت ولازم طريق الحق وأحسن ما بينه وبين الله تعالى مع مراعاة القلب وحفظ الأنفاس راقب الله تعالى فى عموم أحواله فيعلم أنه عليه رقيب ومن قلبه قريب يعلم حاله ويرى فعله ويسمع قوله ، ومن تغافل عن ذلك فهو بمعزل عن بداية الوصلة به تعالى ، فـكيف عن حقائق المراقبة له ؟ فمن لم يحكم بينه وبين الله التقوى والمراقبة لم يصل إلى الـكشف والمشاهدة ، والمراد بالـكشف والمشاهدة قلة الغفلة وارتفاع الحال ويكونان بإحكام ذلك . قيل من راقب الله تعالى فى خواطره الواردة على قلبه عصمه الله فى جوارحه ، لأن أول عامل من الإنسان قلبه والخواطر تدعو عمل القلب والجوارح ، فتارة تـكون شيطانية ، وتارة نفسانية ، وتارة بواسطة ملك ، وتارة بلا واسطة بأن تخلق فى قلب العبد ، فمن ثبت عند خواطره وعلم حكم ما دعت إليه ووزنه بالشرع ، وقبل ما ينبغى ونفى ما لا ينبغى سـلم فى عقود قلبه وأفعال جوارحه . وقال ابن عمر رضى الله عنهما لعبد يرعى غنما : تبيـع منها ؟ فقال العبد ليست لى ، فقال قل لصاحبها أكلها الذئب ، فقال العبد وأين الله ؟ فاشتراه والغنم من سيده وأعتقه ووهبها له . قال الجنيد : من تحقق أى ثبت فى المراقبة خاف على فوت حظه من ربه لأنها على درجات ، فقد يراقب العبد أحكام ربه ليسلم من العقاب أو لزيادة الثواب أو ليرتفع عنـه الحجاب أو ليـكون من الأحباب ، فإذا وصـل لهذا الحال الشريف راقب ربه وأدام نظره لما يتفضل به عليه ليسلم من الغفلات التى يفوت بسببها حظه من مولاه ، فمراقبته له بهذا التقدير خوفا من فوات حظه منه أفضل المراقبات ، وكان بعض المشايخ يخص بعض تلامذته بإقبال أكثر من غيره . فسئل عن ذلك فقال لهم ليأخذ كل واحد منـكم طيرا وليذبحه حيث لا يراه أحد فذبح كل منهم طيره إلا ذاك فرجع به حيا وقال لم أجد موضعا لا يرانى أحد فيه لأن الله يرانى ، فقال الشيخ بهذا أخصه ، وفيه دلالة على أن مقام المراقبة أفضل المقامات وإن ارتفعت مقامات العابدين وقوى اجتهادهم لشغلهم بصلاح القلوب والأحوال ، والمراقب قد غلب على قلبه نظره إليه . وقال ذو النون : المراقبة إيثار ما أمر الله تعالى فى تعظيم ما عظم وتصغير ما صغر ولا يتم ذلك إلا باستشعار نظر الله فى حركاته وسكناته . قال الجنيد : من حسنت رعايته دامت ولايته . وقيل المراقبة : تورث المحاسبة فاذكر نظر الله إليك واطلاعه عليك . وعلامة المراقب ما حكى أن أبا محمد الجريرى جاور بمكة سنة فلم ينم ولم يتكلم ولم يستند لحائط ، وأن أبا بكر الـكتانى جاور بها ثلاثين سنة تحت ميزاب الـكعبة ليلا ونهارا شتاء وصيفا . وقال المحاسبى : حقيقة المراقبة مراقبة الله فى الطاعة بالفعل وفى المعصية بالترك ، ومراقبته تعالى أشد تعبا من مكابدة قيام الليل وصيام النهار وإنفاق المال فى سبيل الله ومن جميع العبادات البدنية . وقال ذو النون : تعلمت من الهر خصلتين : حسن السؤال ، وحسن المراقبة ، ومثل المراقب من له ضيعة وله خصماء فيها وكان يريد إخراجه منها ، فإن عجز عن إقامة حجته كان سببا لخروجه منها وهو لا يجـد بدا منها لما فيها من كفاية مؤنته

فهو أبدا متيقظ من سقط الكلام ، لأن كلا يجتهد فى الخصام ، فالمؤمن صاحب المثل . والضيعة : الإيمان ، والخصماء : جميع الجوارح وكلها تريد إخراجه من إيمانه الذى يرجو به الثواب ، كذا ذكره العلامة ابن سعيد بابصيل رحمه الله رحمة واسعة . وقد ذكر العلامة الزبيدى تفصيل ماأورده مشايخ السادة النقشبندية قدس الله أرواحهم الزكية فى هذا الباب فانهم أحظى الناس بهذه المرابطة دون سائر أرباب السلوك ، فقال : اعلم أنهم قالوا إن المراقبة نسبة زكية وعبودة خفية ، فمن تحقق بها نور الله قلبه بنور المعرفة وشرح صدره بكشف الحقيقة ، فلم تخطئ فراسته ولم تبطئ مكاشفته وصح له التصريف فى عالمى الملك والملكوت والتقريب فى حضرة الجبروت وحسنت معاملته مع لله تعالى فى جميع الحالات وتمت له عمارة الأوقات ، ولكونها أعظم العبادات كانت خواص الصحابة يشتغلون بدوامها فى سائر الحالات ، وهى من الطرق الموصلة إلى المشاهدات وهى على ثلاثة أنواع الأول استدامة العلم باطلاع الحق عليه فى جميع الأحوال مع مراعاة الاتباع بجميع الأحكام . الثانى مطالعة أثمار الأسماء والصفات والمسارعة إلى الله بالوصول بجميع العبادات . الثالث مكاشفة أسرار حقائق الأسماء والصفات ومشاهدة أنوار تجليات الذات ، وهذا النوع درجة ولاية الصغرى وهو مايبلغه السالكون بالمراقبة ، وفى هذه المراقبة يحصل له مقام الفناء فى الفناء وتنتفى الحالات وتثبت المقامات . وأما كيفية المراقبة فأن يكون السالك طاهر الظاهر والباطن والمكان حاضر القلب مع الله مرفوعا عن الوساوس والخيالات ، محفوظا عن سائر المشوشات يجلس مستقبل القبلة على ركبتيه غامض العينين متبرئا عن حوله وقوته ناسيا جميع علمه ومعرفته معطلا حواس ظاهره وقوى باطنه ثم يتوجه بالقلب المطلق مع الجذبة الإلهية إلى جناب ذات الحق على طريق الاستهلاك فيه حتى يزول عنه تزاحم الخواطر بالكلية وتغلب روحانيته على جسمانيته ولا ينفك عن هذه الحالة ، فاذا استقرت وكانت له كالصفة اللازمة أمكن له الاستقامة والتقرب بسائر الأعمال . وفى مقام المراقبة حالة أخرى تسمى عندهم بالوقوف القلبى ، وهو عبارة عن التوجه إلى حقيقة الروح الإنسانى من جهة القلب ، لأن الروح الإنسانى محيطة بجميع مافى حضرة الربوبية إحاطة انطباعية مطابقة للوجوه فى نفس الأمر ، فمن توجه إلى روحه من قلبه فقد ينكشف له مافى حضرة الربوبية من الأسرار فيصل بذلك إلى معرفة ربه بالمعرفة الشهودية ، لأن حقيقة الروح الإنسانى كالمرآة لتلك الحاضرة لما فيه من القوة العقلية التى هى جوهر إلهى ؛ فمن كشف ذلك الجوهر رأى فيه جميع صفات الله وأسمائه وذاته تعالى بالانطباع الظلى ورأى فيه أيضا جميع الموجودات العقلية والحسية . وكيفية الاشتغال بالوقوف القلبى أن يجرد السالك أولا عقله من جميع الادركات ثم يعطل جميع قواه وحواسه عن أحكامها ثم يسلخ نفسه عن الهيكل الجسمانى وبعد ذلك يتوجه بالبصيرة إلى حقيقة القلب على طريق الاستغراق والاستهلاك ويداوم على ذلك فكلما تزداد توجهه إلى حقيقة القلب تزداد معرفته لنفسه وكلما تزداد معرفته لنفسه تزداد معرفته لربه سبحانه . والحاصل أنه لابد فى هذه الصورة من التجرد عن الذوات الجسمانية ولواحقها ، ونحو العلوم الرسمية وملازمة التوجه

إلي حقيقة القلب على الدوام ليتم له الانجلاء الروحانى الغير المقيد بشىء من عوارض الأجسام فيرى حقيقة قلبه فى تلك الحالة نورا بسيطا محتويا بجميع ماكان وما يكون .

وصورة أخرى من الوقوف القلبي أن يتوجه السالك إلى دائرة قلبه بعد تجريده عن الشواغل ثم يلاحظ بدنه فى وسط تلك الدائرة كالكرة ويخيل روحه نافذا من أقطار السموات والأرض ويستغرق فى تلك الملاحظة على الدوام ويرجع إليها كلما يذهل عنها إلى أن يفنى عن ملاحظة تلك الكرة المفروضة ويتعطل جميع قواه وحواسه عن أحكامها ، فعند حصول هذه الحالة يظهر له أن روحه نوراني محض ويستهلك جميع مافى ضمن السموات والأرض فى تلك النورانية حتى لايبقى فى الوجود فى نظره غير روحه الذى هو الأمر الإلهى ، وبعد ذلك تستهلك نورانية الروح أيضا فى نور الحق سبحانه ، لأن دائرة نور الروح متصلة بأفق نور الحق سبحانه ونور الحق غالب علي جميع الأنور ، وجميع الأنوار متلاش عند ظهور نورالحق كتلاشى سائر الأضواء عند ظهور ضوء الشمس فحينئذ لايبقى فى الظهور إلا نوار الحق الذى هو الوجود المطلق جلت عظمته وهذا هو حقيقة الحقائق .

وصورة أخرى من الوقوف القلبي أن يتوجه السالك إلى قلبه ثم يتصور روحه فى قلبه نورا محضا بلا نهاية ويتصور فى حق روحه النور إلى صورة بدنه وصور العالم كالطير فى الهواء ويتصور روحه محيطا بتلك الصورة ، وتلك الصور محاطة بذلك الروح ، وهو ينظر إلى تلك الصور فى جو الروح ويستغرق فى النظر إليها حتى يتحد بتلك الصور فى التصور ويزداد فى الاتحاد بتلك الصور بالتشوق إليها حتى يتخيل أنه تلك الصور ويداوم على ذلك التصور بالتكرار فيه حتى يكون كأنه هو الحقيقة النوعية الكلية لجميع العالم التى لانهاية ولا انقسام لها ، بل يكون وحدة صرفة بمجموع تلك الصور ، فمن جعل روحه متكيفا بهذه الكيفية عرف حقيقة روحه ، لأن حقائق العالم كلها منطوية فى الروح الإنسانى والروح الإنسانى حاو عليها ، فمن عرف روحه بتلك الجمعية للحقائق كلها فقد عرف روحه ، وبه يتصل إلى معرفة ربه جل وعز .

وصورة أخرى من الوقوف القلبي أن يتوجه إلى قلبه بعد تجريد نفسه ويتصور فيه نورا بسيطا وحدانيا مجردا عن الكيفيات كلها غير متعلق بشىء ظاهرا على العالم الجسمانى كظهور الشمس على الجسمانيات بالنسبة إلى ذلك النور البسيط كالذرة فى شعاع الشمس ، ثم يعلق نظره بذلك النور البسيط ويداوم على ذلك النظر لذلك النور البسيط حتى يستغرق فى ذلك النظر بحيث لا يبقى له شعور لغير ذلك النظر ، فعند ذلك يتجلى له نور الحق سبحانه لأن جميع الأنوار المجردة ينتهى إلى نور الحق سبحانه .

وصورة أخرى من الوقوف القلبي أن يتوجه إلى قلبه ويلاحظ فيه أن نظر الله محيط به من جميع الجهات ويجعل ذاته محاطة بنظر الله تعالى ويستمر على تلك الملاحظة وبهذا الاستمرار تصغر ذاته تحت نظر الله تعالى حتي لا يبقى لها بالتدريج أثر من الوجود فيفنى عن وجوده الإمكانى ولا يشاهد فيه ولا فى الأشياء كلها إلا وجود الحق سبحانه وقد وصل .

﴿الْأَصْلُ الرَّابِعُ﴾ أَنَّ الْقَلْبَ خِزَانَةُ كُلِّ جَوْهَرٍ لِلْعَبْدِ نَفِيسٍ وَكُلِّ مَعْنًى خَطِيرٍ أَوَّلُهَا الْعَقْلُ ،

---

﴿تتمة﴾ قالوا المراقبة من أقرب الطرق إلى الله تعالى من حيث التقرب إليه ، وهذه الأقربية ليست على إطلاقها بالنسبة إلى أهل الجذبة فإنها أقرب الطرق فى حقهم . وأما بالنسبة إلى السالك فتكون أبعد الطرق ، لأن السلوك يقتضى الرياضات والمجاهدات فى أوائله فلا تنفعه المراقبة ابتداء وهذا موكول إلى فراسة الشيخ البصير العارف ، فإن رأى فى مريده الجذبة الإلهية غالبة عليه شغله بمراقبة اسم الذات وإن رآه عاريا عنها أمره بالنفى والإثبات وملازمة الرياضات حتى يتمكن الذكر من قلبه فينجذب إلى الله تعالى بقلبه فحينئذ يشغله بالمراقبة ، وذلك على الترتيب والتدريج ، وقد قالوا إن اسم الذات ذكر المجردين عن قيد السوى ، والنفى والإثبات ذكر المقيدين بقيد السوى لأن مقام صاحب اسم الذات فرق مجرد كما أشار إليه قوله تعالى « قل: اللهُ ثم ذرهم » الخ ، ومقام صاحب النفى والإثبات فرق مقيد كما أشار إليه الحديث « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله » فلكون اسم الذات من الأسماء الجبروتية والنفى والإثبات من الأسماء الملكية كان الوصول بذكر اسم الذات إلى عالم الجبروت لأهل الجذبة أقرب من الوصول إليه بذكر النفى والإثبات ، وحيث قد فرغنا من ذكر المراقبة ومتعلقاتها فلنعد إلى شرح كلام المصنف قال رحمه الله تعالى: ﴿الأصل الرابع﴾ من الأصول الخمسة (أن القلب خزانة كل جوهر للعبد نفيس ، و) خزانة (كل معنى خطير ) أى شريف وعظيم ( أولها ) أى الجواهر المخزونة فى قلب العبد ( العقل ) وهو مشترك لمعان مختلفة ذكرها المصنف رحمه الله تعالى فى كتاب [ العلم من إحياء العلوم ] فانظر كلامه هناك تجد كلاما لا مزيد لحسنه ، ولكن المتعلق بهذا المقام من جملة تلك المعانى المذكورة معنيان : أحدهما أن العقل قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور فيكون عبارة عن صفة العلم الذى محله القلب . وقد ورد فى أخبار داود عليه السلام أنه سأل ابنه سليمان عليهما السلام أين موضع العقل منك ؟ قال القلب لأنه قالب الروح والروح قالب الحياة . والثانى أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب لأنه كذلك ، أعنى بالقلب هنا اللطيفة لا المضغة ، وقد يطلق ويراد به محل الإدراك أعنى المدرك ، وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال الله عز وجل وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا أكرم على منك بك آخذ وبك أعطي وبك أثيب وبك أعاقب » . قال الشيخ نجم الدين راويه رحمه الله تعالى استدل به على أن العقل متهيء لقبول الوحى والإيمان به ، وفى رواية : « وبك أعبد » إذ كان هو أول من اختص من الله بالوحى ، والخطاب والمحبة والمعرفة والعبادة والعبودية والنبوة بأنباء الحق تعالى إذ نبؤه عن نفسه ومعرفة ربه ، وإذا أمعنت النظر وأيدت بنور الله تحقق لك أن المعرفة بالعقل . والموصوف باختصاص الوحى والخطاب والمحبة والمعرفة والعبادة والعبودية

والنبوة هو روح حبيب الله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه الذى قال «أول ماخلق الله روحى وفى رواية نورى» فروحه جوهر نورانى ، ونوره هو العقل وهو عرض قائم بجوهره، ومن هنا قال صلى الله عليه وسلم «كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد» أى لم يكن يعد روحا ولا جسدا ، ومن هنا قال : «من عرف نفسه فقد عرف ربه» ، لأنه عرف نفسه بتعريف الله إذ قال له : «ما خلقت خلقا أحب إلى منك» . وعرف الله أيضا بتعريف الله نفسه إياه إذ قال : «وعزتى وجلالى ماخلقت خلقا أحب إلى منك » فعرف أنه الإله الذى من صفاته العزة والجلال والخالقية والمحبة وهو المعروف لكل عارف وله القدرة والحكم على الأخذ والعطاء والثواب والعقاب ، وهو المستحق للعبادة . وقد جاء عن بعض الكبراء من الأئمة : إن أول المخلوقات ملك كروبى يسمى العقل .وهو صاحب القلم بدليل توجه الخطاب إليه فى قوله « أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر » ولما سماه قلما قال له أخبر عما هو كائن إلى يوم القيامة ، وتسميته قلما كتسمية صاحب السيف سيفا ، ولا يبعد أن يسمى روح النبى صلى الله عليه وسلم ملكا لغلبة صفة الملكية عليه كما يسمى جبريل عليه السلام روحا لغلبة الروحانية عليه كقوله : فلان شعلة نار ، لحدة ذهنه ، ويسمى عقلا لوفور عقله ، وقلما لكتابة المكونات ونورا لنورانيته ؛ وقد يكون العقل فى اللغة بمعنى العاقل ، فعلى هذا التقدير والتأويل يكون روح النبى صلى الله عليه وسلم هو المخلوق الأول ، ولكنه بهذه الاعتبارات ملك وعقل ونور وقلم ، والقلم قريب المعنى من العقل قال تعالى « علم بالقلم » جاء فى التفسير عن بعضهم : أى بالعقل ؛ لأن الأشياء تعلم بالعقل ؛ وفى قوله أقبل إلى آخره إشارة إلا أن للعقل إقبالا وإدبارا فورث إقباله المقبلون وهم السابقون المقربون من الأنبياء والأولياء ، وهم أصحاب الميمنة وهم أهل الجنة ، وورث إدباره المدبرون ، وهم أصحاب المشأمة ، وهم أهل النار يدل عليه قوله تعالى « وكنتم أزواجا ثلاثة » الآية ، والله أعلم .

﴿ تنبيه ﴾ اعلم أن من شأن العقل أن يرى و يختار أبدا الأفضل والأصلح فى العواقب وإن كان على النفس فى المبدأ مؤنة ومشقة ، والهوى على الضد من ذلك فإنه يؤثر ما يدفع به المؤذى فى الوقت . وإن كان يعقبه مضرة من غير نظر منه فى العواقب كالصبى الرمد الذى يؤثر أكل الحلوات واللعب فى الشمس على أكل الهليلج والحجامة ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات» وأيضا فإن العقل يرى صاحبه ماله وماعليه ، والهوى يريه ماله دون ما عليه ويعمى عليه ما يعقبه من المكروه ؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « حبك للشىء يعمى ويصم » ولذلك ينبغى للعاقل أن يتهم رأيه أبدا فى الأشياء التى هى له لاعليه ويظن أنه هوى لا عقل ويلزمه أن يستقصى النظر فيه قبل إمضاء العزيمة ، حتى قيل : إذا عرض لك أمران فلم تدر أيهما أصوب ؟ فعليك بما تكرهه لا بما تهواه فأكثر الخير فى الكراهة . قال الله تعالى « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » وقال « وعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » . وأيضا فإن ما يرى العقل يتقوى عليه إذا فزع فيه إلى الله عز وجل بالاستخارة وتساعد عليه العقول الصحيحة إذا فزع إليها بالاستشارة ، وتنشرح له الصدور

إذا استعين فيه بالعبادة ، وما يشير به الهوى فبالضد من ذلك ، وأيضا فإن العقل يرى ما يرى بحجة وعذر ، والهوى يرى ما يرى بشهوة وميل ، وربما تشبه الهوى بالعقل فيتعلق بشبهة مزخرفة ومعذرة مموهة كالعاشق إذا سئل عن عشقه والتناول لطعام ردئ إذا سئل عن فعله . قال بعض العلماء : إذا مال العقل نحو مؤلم جميل ، والهوى نحو ملذ قبيح فتنازعا بحسب عرضيهما وتحاكما إلى القوة المدبرة بادر نور الله إلى نصرة العقل ووساوس الشيطان إلى نصرة الهوى كما قال الله تعالى « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » فمن كانت القوة المدبرة فيه من أولياء الشيطان ومحبيه لم تر نور الحق فعميت عن نفع الآجل واغترت بلذة العاجل فجنحت إلى الهوى كما قال تعالى « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » الآية . ومتى كانت من حزب الله وأوليائه اهتدت بنوره واستهانت بلذة العاجل وطلبت الآجل كما قال تعالى « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم . إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف » الآية . ومما نبه على فساد الهوى قوله تعالى « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » : أى لو أعطى كل إنسان ما يهواه مع أن كل واحد يهوى أن يكون أغنى الناس وأعلاهم منزلة ، وأن ينال فى الدنيا الخير الأبدى بلا مزاولة ولا تعلم لكان فى ذلك فساد العالم . وقيل فى قوله تعالى « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة » الآية . ضرب الله الشجرة الطيبة مثلا للعقل والخبيثة مثلا للهوى ففرع الطيبة النور والإسلام وفرع الخبيثة الكفر والضلال . إن قيل ما الفرق بين الشهوة والهوى ؟ قيل الشهوة ضربان : محمودة ، ومذمومة ، فالمحمودة من فعل الله تعالى ، وهى قوة جعلت فى الإنسان لينبعث بها النفس لنيل ما يظن فيه صلاح البدن ، والمذمومة من فعل الشر ، وهي استجابة النفس لما فيه لذاتها البدنية ، والهوى هو هذه الشهوة الغالبة إذ استتبعت الفكرة وذاك أن الفكرة بين العقل والشهوة والعقل فوقها والشهوة تحتها ، فمتى ارتفعت الفكرة ومالت نحو العقل صارت رفيعة فولدت المحاسن . وإذا اتضعت ومالت نحو الهوى والشهوة صارت وضيعة فولدت القبائح والنفس قد تريد بمشورة العقل تارة وبمشورة الهوى تارة ، ولهذا قد تسمى الهوى إرادة . وقال بعض الحكماء : خير ما أعطى الإنسان عقل يردعه ، فإن لم يكن فحياء يمنعه ، فإن لم يكن فخوف يقمعه ، فإن لم يكن فمال يستره ، فإن لم يكن فصاعقة تحرقه فتريح منه العباد والبلاد ، وتحقيقه أن البواعث على فعل الخيرات الدنيوية ثلاث : أدناها الترغيب والترهيب مما يرجى نفعه ويخشى ضره . والثانى رجاء الحمد وخوف الذم ممن يعتد بحمده وذمه . والثالث تحرى الخير وطلب الفضيلة ، وكذلك البواعث إلى الخيرات الأخروية ثلاثة : الأولى الرغبة فى ثواب الله والمخافة من عقابه وتلك منازل العامة . والثانية رجاء حمده ومخافة ذمه ، وتلك منازل الصالحين . والثانية طلب مرضاة الله فى المتحريات ، وتلك منزلة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وهى أعزها وجودا ؛ ولذلك قيل لرابعة : ألا تسألين فى دعائك الجنة ؟ فقالت الجار قبل الدار ، وبهذا النظر قال بعضهم : من عبد الله بعوض فهو لئيم . فان قال فما يقول فى حديث «أكثر أهل الجنة البله» وهو جمع أبله من لا عقل له

وَأَجَلُّهَا مَعْرِفَةُ اللهِ تَعَالَى التِي هِيَ سَبَبُ سَعَادَةِ الدَّارَيْنِ ،

فكيف يكون من لاعقل له من أكثر أهل الجنة ؟. والجواب عنه بوجوه : الأولّ أن المراد بالبله الجاهلون بأمر الدنيا العالمون بأمر الآخرة . الثانى أن من عبد الله للجنة فهو أبله فى جنب من يعبده لكونه ربا مالكا . الثالث المراد بهم أهل المعاصى الذين عفا الله عنهم ، وأما العقلاء المطيعون فهم أهل الدرجات العلى ، والله أعلم .

قال المصنف رحمه الله تعالى ( وأجلها ) أى أعظم الجواهر فى القلب ( معرفة الله تعالى التى هى سبب سعادة الدارين ) أى الدنيا والآخرة . قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى : المعرفة على لسان العلماء هو العلم ؛ فكل علم معرفة ، وكل معرفة علم ، وكل عالم بالله تعالى عارف ، وكل عارف عالم ، وعند هؤلاء الصوفية المعرفة صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته ثم صدق الله تعالى فى معاملته ثم تنق عن أخلاقه الرديئة وآفاته ثم طال بالباب وقوفه ودام بالقلب اعتكافه فحظى من الله تعالى بجميل إقباله وصدق الله تعالى فى جميع أحواله وانقطع عنه هواجس نفسه ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره ، فإذا صار من الخلق أجنبيا ومن آفات نفسه بريا ومن المساكنات والملاحظات نقيا ، ودام فى السر مع الله تعالى مناجاته وحق فى كل لحظة إليه رجوعه وصار محدثا من قبل الحق سبحانه بتعريف أسراره فيما يجريه من تصاريف أقداره يسمى عند ذلك عارفا ،وتسمى حالته معرفة ؛ وبالجملة فبمقدار أجنبيته عن نفسه تحصل معرفته بربه عزّ وجلّ . وقد تكلم المشايخ فى المعرفة فكل منهم نطق بما وقع له وأشار إلى ما وجده فى وقته ؛ فقال الأستاذ أبو على الدقاق رحمه الله تعالى : من أمارات المعرفة بالله حصول الهيبة من الله تعالى ، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته . وقال أيضا : المعرفة توجب السكينة فى القلب كما أن العلم يوجب السكون فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته .

وقال الشبلى: ليس لعارف علاقة، ولا لمحبّ شكوى، ولا لعبد دعوى، ولا لخائف قرار، ولا لأحد من الله عز وجل فرار . وقد سئل عن المعرفة فقال : أولها الله تعالى وآخرها ما لا نهاية له . وقال أحمد بن عاصم الأنطاكى : من كان بالله أعرف كان له أخوف . وقال بعضهم : من عرف الله تعالى تبرم بالبقاء وضاقت عليه الدنيا بسعتها ، فقد حكى الله عن كعب بن مالك وأصحابه لما تخلفوا عن غزوة تبوك وهجروا إلى أن نزل فيهم قرآن أنهم ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، وذلك لمعرفتهم بالله وعظمته وعظمة رسوله وتخلفهم عن الجهاد مع رسوله ، فكل من عرف الجليل العظيم لا يحتمل قلبه الاشتغال بغيره ولا البعد عنه . وقيل من عرف الله تعالى صفا له العيش وطابت له الحياة وهابه كل شىء وذهب عنه خوف المخلوقين وأنس بالله تعالى ، وقيل من عرف الله تعالى ذهب عنه رغبة الأشياء ، وكان بلا فعل ولا وصل . وقيل المعرفة توجب الحياء والتعظيم كما أن التوحيد يوجب الرضى والتسليم . وقال الحسين بن منصور : إذا بلغ العبد إلى مقام المعرفة أوحى الله تعالى إليه بخواطره وحرس

ثُمَّ الْبَصَائِرُ الَّتِي بِهَا التَّقَدُّمُ وَالْوَجَاهَةُ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، ثُمَّ النِّيَّةُ الْخَالِصَةُ فِي الطَّاعَاتِ الَّتِي يَتَعَلَّقُ بِهَا ثَوَابُ الْأَبَدِ ، ثُمَّ أَنْوَاعُ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ

---

سره أن يسنح فيه غير خاطر الحق . وقال أيضا : علامة العارف أن يكون فارغا من الدنيا والآخرة . وقال سهل بن عبد الله : المعرفة غايتها شيئان : الدهش ، والحيرة . وقال رجل للجنيد من أهل المعرفة أقوام يقولون : إن ترك الحركات من باب البر والتقوى ، فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندى عظيم ، والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا ، فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله تعالى وإلى الله تعالى رجعوا فيها ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة .

وقال أبو يعقوب النهرجورى : قلت لأبى يعقوب السوسى هل يتأسف العارف على شئ غير الله عز وجل ، فقال وهل يرى غيره فيتأسف عليه ؟ قلت : فبأى عين ينظر إلى الأشياء ؟ قال بعين الفناء والزوال . وقيل تبكى عينه ويضحك قلبه ، وكان يوسف بن على يقول : لايكون العارف عارفا حقا حتى لو أعطى مثل ملك سليمان عليه السلام لم يشغله عن الله عز وجل طرفة عين . وقال أبو سليمان الدارانى : إن الله يفتح للعارف وهو على فراشه ما لا يفتح لغيره وهو قائم يصلى قال الجريرى : سئل أبو تراب عن صفة العارف؟ فقال : الذى لا يكدره شيء ويصفو به كل شئ . وسئل الجنيد عن قول ذى النون المصرى فى صفة العارف : كان ههنا فذهب فقال الجنيد : العارف الذى لا تحصره حال عن حال ولا يحجبه منزل عن التنقل فى المنازل فهو مع أهل كل مكان بمثل الذى هو فيه يجد مثل الذى يجدون وينطق بمعالمها لينتفعوا بها .

وسئل أبو سعيد الخراز هل يصير العارف إلى حال يجفو عليه البكاء ، فقال نعم إنما البكاء فى أوقات سيرهم إلى الله تعالى ، فإذا نزلوا إلى حقائق القرب وذاقوا طعم الوصول من بره زال عنهم ذلك . وقال عبد الله الرازى سمعت محمد بن الفضل يقول : المعرفة حياء للقلب مع الله تبارك وتعالى ( ثم البصائر ) جمع بصيرة ، وهى قوة للقلب بنور القدس يرى بها حقائق الأشياء وبواطنها بمثابة البصر للنفس يرى به صور الأشياء وظواهرها ، وهي التى يسميها الحكماء القوة العاقلة ، والقوة القدسية ، كذا قاله السيد الجرجانى ( التى بها ) أى بالبصائر ( التقدم ) فى الرتبة على سائر الخلق فى الدارين ( والوجاهة ) أى القدر والشرف ( عند الله عز وجل ، ثم النية الخالصة فى الطاعة التى يتعلق بها ) أي النية الخالصة ( ثواب الأبد ، ثم أنواع العلوم ) وهى كثيرة لا تحصى ( و ) أنواع ( الحكم ) بكسر الحاء وفتح الكاف جمع حكمة وهي ما تكمل به نفس العبد من المعارف والأحكام. وقال ابن قتيبة : هى العلم والعمل ولا يكون الرجل حكيما حتى يجمعهما . وقال أبو بكر بن دريد كل حكمة وعظتك أودعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهى حكمة . وقيل هي فهم القرآن . وقيل هى الفقه فى الدين . وقيل هى السنة ، وفسرها الخازن بأنها الإصابة فى القول والعمل ووضع كل

التِي هِيَ شَرَفُ الْعَبْدِ وَسَائِرُ الْأَخْلَاقِ الشَّرِيفَةِ ، وَالْخِصَالِ الْحَمِيدَةِ الَّتِي بِهَا يَحْصُلُ تَفَاضُلُ الرِّجَالِ عَلَى مَا فَصَّلْنَا وَشَرَحْنَا فِي كِتَابِ [ أَسْرَارِ مُعَامَلَاتِ الدِّينِ ] وَحَقَّ لِمِثْلِ هٰذِهِ الْخِزَانَةِ أَنْ تُحْفَظَ وَتُصَانَ عَنِ الْأَدْنَاسِ وَالْآفَاتِ وَتُحْرَسَ وَتُحْرَزَ مِنَ السُّرَّاقِ وَالْقُطَّاعِ وَتُكَرَّمَ وَتُجَلَّ بِضُرُوبِ الْكَرَامَاتِ ، لِئَلَّا يَلْحَقَ تِلْكَ الْجَوَاهِرَ الْعَزِيزَةَ دَنَسٌ وَلَا يَظْفَرَ بِهَا وَالْعِيَاذُ بِاللهِ عَدُوٌّ .

﴿الْأَصْلُ الْخَامِسُ﴾ : أَنِّي تَأَمَّلْتُ حَالَهُ فَوَجَدْتُ لَهُ خَمْسَةَ أَحْوَالٍ لَيْسَتْ لِغَيْرِهِ مِنْ أَعْضَاءِ ابْنِ آدَمَ ، أَحَدُهَا : أَنَّ الْعَدُوَّ قَاصِدٌ إِلَيْهِ مُقْبِلٌ عَلَيْهِ مُلَازِمٌ لَهُ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ ، فَهُوَ مَنْزِلُ الْإِلْهَامِ وَالْوَسْوَسَةِ يَقْرَعَانِهِ بِالدَّعْوَتَيْنِ أَبَدًا ، الْمَلَكُ وَالشَّيْطَانُ ،

---

شيء موضعه ( التي هي ) أي الحكم ( شرف العبد وسائر الأخلاق الشريفة والخصال الحميدة ) أي المحمودة ( التي بها يحصل تفاضل الرجال على ما فصلنا ) أي بيناه ( وشرحنا في كتاب : أسرار معاملات الدين ) من إحياء علوم الدين . وقد أشبع رحمه الله تعالى الكلام على الصفات المحمودة هناك تركنا نقله في هذا المقام روما للاختصار ( وحق ) أي وجب ( لمثل هذه الخزانة ) التي هي القلب ( أن تحفظ وتصان ) مرادف لما قبله ( عن الأدناس والآفات وتحرس وتحرز ) كلاهما بالبناء للمفعول بمعنى واحد ( من السراق ) جمع سارق ( والقطاع ) جمع قاطع ( وتكرم وتجل ) بناؤهما للمفعول : أي تعظم تلك الخزانة ( بضروب الكرامات ) أي أنواعها ( لئلا يلحق تلك الجواهر العزيزة دنس ) من الأدناس ( ولا يظفر بها ) أي الجواهر ( والعياذ بالله ) جملة معترضة بين الفعل وفاعله ( عدو ) من الشيطان .

﴿ الأصل الخامس ﴾ هـذا آخر الأصول الخمسة ( إني تأملت حاله ) أي القلب ( فوجدت له خمسة أحوال ليست لغيره ) أي القلب ( من أعضاء ابن آدم : أحدها ) أي الأحوال الخمسة ( أن العدو ) وهو الشيطان ( قاصد إليه ) أي إلى القلب ( مقبل عليه ملازم له ) أي غير منفك عن القلب ( فإن الشيطان جاثم ) أي قائم ( على قلب ابن آدم ، فهو ) أي القلب ( منزل الإلهام ) أي محل نزوله من الملك (و) منزل (الوسوسة) من الشيطان (يقرعانه) أي يدقانه وينقرانه ( بالدعوتين أبدا : الملك والشيطان ) بدل من الضمير في قوله يقرعانه على اللغة الفصحى ، ولتجاذب القلب بين هـذين المسلطين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » . رواه مسلم من حديث ابن عمر ، وذلك أن الله يتعالى عن أن يكون له أصبع مركبة من لحم وعظم ودم وعصب منقسمة بالأنامل ، ولكن روح الأصبع سرعة التقلب والقدرة على

التحريك والتغيير فإنك لا تريد أصبعك لشخصه ، بل لفعله فى التقليب والترديد ؛ كما أنك تتعاطى الأفعال بأصابعك والله تعالى يفعل ما يفعله باستسخار الملك والشيطان ، وهما مسخران بقدرته فى تقليب القلوب : أى تجرها إلى خير أو شر ؛ كما أن أصابعك مسخرة لك فى تقليب الأجسام مثلا والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك ولقبول آثار الشيطان صلاحا متساويا بطرفيه ليس يترجح أحدهما على الآخر ، وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والإكباب على الشهوات والإعراض عنها ، فإن اتبع الإنسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسليط الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عش الشيطان ومعدنه ، وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه بأن تنصل عنها واسترذلها وتشبه بأخلاق الملائكة عليهم السلام صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم . قال حجة الإسلام وغيره : إن القلوب فى الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ثلاثة :

[أحدها] قلب عمر بالتقوى وزكا بالرياضة وطهر عن خبائث الأخلاق تنقدح فيه خواطر الخير، وهى التى ترد من الله تعالى بواسطة الملائكة من خزائن الغيب ومداخل الملكوت الأعلى فينصرف العقل إلى التفكر فيما خطر له ليعرف دقائق الخير فيه ويطلع على أسرار فوائده فينكشف له بنور البصيرة وجهه ويتبين له أمره فيحكم بأنه لا بد من فعله فيستحثه عليه ويدعوه إلى العمل به ، وهذا القلب هو المتطلع إلى الروح العلوى الميال إليه ، وهو القلب المؤيد الذى ورد فيه أنه أجرد فيه سراج يزهو فينظر الملك إلى هذا القلب فيجده طيبا فى جوهره طاهرا بتقواه مستنيرا بضياء العقل معمورا بأنوار المعرفة مغمورا بأنوار اليقين فيراه صالحا لأن يكون له مستقرا ومهبطا لتنزلاته، فعند ذلك يمده بجنود معنوية لا ترى وبهداية إلى خيرات أخرى تتراءى حتى ينجر الخير إلى الخير وهلم جرا كذلك على الدوام ولا يتناهى إمداده بالترغيب فى الخير فى كل لحظة وبتيسير الأمر عليه فى كل حركة وسكون ، وإليه الإشارة بقوله تعالى « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى» فالإعطاء إشارة إلى تزكية العمل . والاتقاء هو عمارة القلب بالتقوى، والتصديق بالحسنى هو التطهر عما يضاد الأخلاق المحمودة .

[ القلب الثانى ] القلب المخذول المضاد للتوفيق المشحون بالهوى المدنس بالأخلاق المذمومة مثل الجهل والطمع وحب الدنيا وغيرها ، المفتوح فيه أبواب الشياطين ، المسدود عنه أبواب الملائكة، ومبدأ الشر فيه أن ينقدح فيه خاطر من الهوى ويهجس فيه ، لأن كل قلب اجتمع فيه ثلاثة معان لم تفارقه : خواطر الهوى ، وهى الجهل، والطمع، وحب الدنيا ، ثم يضعف خاطر الهوى ويقوى على قدر ضعف هذه الثلاثة وقوتها ، ويظهر خاطر الهوى فى القلب على قدر تمكن هذه الثلاثة من النفس وخفائها فبعد ذلك ينظر القلب إلى حاكم العقل ليستفتى منه ويستكشف وجه الصواب فيه فيكون العقل قد ألف خدمة الهوى وأنس به واستمر على استنباط الحيل فى موافقة الهوى ومساعدته فتسول النفس وتزين وتساعد عليه ، وذلك لأن بين القلب والنفس منازعات ومحادثات وترددا وتألفا فيكون أنسه بالهوى إنما هو بتسويل النفس له من قول أو فعل فيواقعها أحيانا فتروم عليه النفس من نواحيه وتحسن له تلك الموافقة ، وحينئذ ينشرح الصدر بالهوى وتنبسط

فيه ظلماته لا نخناس جند العقل : أى تأخره عن مدافعته فيقوى سلطان الشيطان لاتساع مكانه بسبب انتشار الهوى فى جوانبه فيقبل عليه بالتزين والغرور والأماني الكاذبة ويخدعه بها ويوحى بذلك زخرفا من القول غرورا فيضعف سلطان الإيمان بالوعد والوعيد ويخبو نور اليقين لخوف الآخرة إذ يتصاعد من الهوى عند التمكن دخان مظلم إلى القلب يملأ جوانبه فيحجب البصيرة حتى تنطفئ أنواره فيصير العقل فيه كالعين التى ملأ الدخان أجفانها فلا تقدر أن تنظر إلى شيء وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب إذا استولت عليه أعمت بصيرته حتى لا يبقى للقلب إمكان التوقف والاستبصار فى جليات الحقائق، ولو فرض أنه بصره واعظ وأسمعه ما هو الحق فيه وأفهمه بحسن تقريره عمي عن الفهم وصم عن السمع وهاجت الشهوة فيه وسطا الشيطان وتحركت الجوارح على وفق الهوى وظهرت المعصية إلي عالم الشهادة من خزائن الغيب بقضاء من الله وقدر ، وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله تعالى « أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » وبقوله تعالى . « لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون » وبقوله تعالى « سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » وهذا هو القلب المنكوس الذى ذكر فى حديث حذيفة عند تقسيم القلوب وهو الميال إلى النفس ، وإليه الإشارة بقوله تعالى « إن النفس لأمارة بالسوء » .

[ القلب الثالث ] قلب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه إلي الشر فيلحقه خاطر الإيمان فيدعوه إلى الخير ، فتنبعث النفس بشهوتها إلى نصرة خاطر الشر ، فتقوى الشهوة وتحسن التمتع والتنعم والتلذذ ، فينبعث العقل إلى خاطر الخير ، ويدفع فى وجه الشهوة ويقبح فعلها وينسبها إلى الجهل ويشبهها بالبهيمة والسبع فى تهجمها على الشر وقلة اكتراثها بالعواقب ، وهذا هو معاقبة القلب للنفس حين تكدره منها فيما انطلقت فيه بهواها ، وذلك يكون عند عود العبد من مواطن مطالبات النفس والإقبال على الذكر والمراقبة ، وعند دفع العقل فى وجه الشهوة تميل النفس إلى نصح العقل وتضعف قوتها ، فيحمل الشيطان حملة على العقل فيقوى داعي الهوى ويقول ما هذا التحرج البارد والتكلف الذى لا معنى له ولم تمنع هواك فتؤذى نفسك وهل ترى أحدا من أهل عصرك يخالف هواه أو يترك غرضه أفتترك لهم ملاذ الدنيا يتمتعون بها وتحجر على نفسك حتى تبقى محروما شقيا متعوبا يضحك عليك أهل الزمان أتريد أن يزيد منصبك على فلان وفلان ، وقد فعلوا مثل ما اشتهيت ولم يمتنعوا من التمتع بالملاذ ، أما ترى العالم الفلانى ليس يحترز من مثل ذلك ولو كان ذلك شرا لا متنع عنها أتريد أن تكون أفضل منه ؟ فتميل النفس إلى الشيطان وتنقلب إليه بمقتضى جبلتها الأصلية وتلقى نصح العقل إلى ورائها فيحمل الملك على الشيطان ويقول هل هلك إلا من اتبع لذة الحال في العاجل ونسى العاقبة، أفتقنع بلذة يسيرة قريبة الزوال وتترك لذة الجنة ونعيمها أبد الآباد لاتنقطع ، أم تستثقل ألم الصبر عن شهوة زائلة ولا تستثقل ألم النار التى من عذب بها لم يفلح، أتغتر بغفلة الناس عن أنفسهم واتباعهم هواهم ومساعدتهم الشيطان مع أن عذاب النار لا يخفى عنك بمعصية غيرك ، أرأيت لو كنت فى زمان صيف ووقف الناس كلهم فى الشمس

وَالثَّانِى : أَنَّ الشُّغْلَ لَهُ أَكْثَرُ ، فَإِنَّ الْعَقْلَ وَالْهَوَى كِلاَهُمَا فِيهِ فَهُوَ مُعْتَرَكُ الْعَسْكَرَيْنِ : الْهَوَى وَجُنُودِهِ ، وَالْعَقْلِ وَجُنُودِهِ ، فَهُوَ أَبَدًا بَيْنَ مُحَارَبَتِهِمَا وَتَقَاتُلِهِما وَتَنَاقُضِهِمَا ، وَحَقَّ بِالثَّغْرِ أَنْ يُحْرَسَ وَيُحْصَنَ وَلاَ يُغْفَلَ عَنْهُ . وَالثَّالِثُ : أَنَّ الْعَوَارِضَ لَهُ أَكْثَرُ ، فَإِنَّ الْخَوَاطِرَ لَهُ كَالسِّهَامِ لاَ تَزَالُ تَقَعُ فِيهِ ، وَكَالْمَطَرِ لاَ تَزَالُ تُمْطِرُ عَلَيْهِ

---

وكان لك بيت بارد مظلل أ كنت تساعد الناس أو تطلب لنفسك الخلاص؟ فكيف تخالف الناس خوفا من حرّ الشمس ولا تخالفهم خوفا من حرّ النار ، فعند ذلك تميل النفس إلى قول الملك فلا يزال متردّدا بين الجندين متجاذبا بين الحزبين إلى أن يغلب علي القلب ما هو أولى به ، فإن كانت الصفات التى فى القلب الغالب عليها الصفات الشيطانية من الجهل والطمع وحب الدنيا وغيرها غلب الشيطان وكانت تلك الصفات جندا له ومداخل إلى القلب ومال القلب بحكم الغلبة إلى جنسه من أحزاب الشياطين معرضا عن حزب الله تعالى وأوليائه ومساعدا لحزب الشيطان وأعدائه وجرى بسبب ذلك على أعضائه بسابق القضاء والقدر ما هو سبب بعده عن حضرة الله تعالى ، وإن كان الأغلب على القلب الصفات الملكية لم يصغ القلب إلى إغواء الشيطان وتحريضه إياه على العاجلة وتهوينه أمر الآجلة ، بل مال إلى حزب الله تعالى وظهرت الطاعة بموجب ما سبق من القضاء على جوارحه ، وأما الثبات على الدوام مع حزب الملائكة أو حزب الشياطين فنادر من الجانبين قليل الوقوع . ( والثاني أن الشغل له ) أى للقلب ( أ كثر ) من غيره ( فإن العقل والهوى كلاهما فيه ) أى فى القلب. وقيل محل العقل الرأس ( فهو ) أى القلب (معترك ) أى موضع حرب ( العسكرين: الهوى وجنوده ) أى جنود الهوى وهى عشرة : الحسد ، والتجبر ، والعجب ، والكبر ، والغل ، والمكر ، والوسوسة ، والمخالفة فى الأمر ، وسوء الظن ، والجدال ، كذا أفاده الهمدانى ( والعقل وجنوده ) أى جنود العقل وتوابعه ، وهى سبع وعشرون : العلم ، والمعرفة ، والدراية ، والحكمة والذكاء ، والذهن ، والفهم ، والفطنة ، وجودة الخاطر ، وجودة الوهم والخيال والبديهة ، والرؤية والكياسة ، والخبرة ، وإصابة الظن والفراسة ، والزكانة[1] ، والكهانة ، ودقة النظر ، والرأي ، ، والتدبير وصحة الفكر ، وسرعة الذكر ، وجودة الحفظ ، والبلاغة ، والفصاحة ، وهذا العقل أساس لكل واحد منها ومظلع لأسرار معارفها كذا أفاده الزبيدى ( فهو ) أى القلب ( أبدا بين محاربتهما وتقاتلهما ) أى العسكرين (وتناقضهما) وفى نسخة: وتناضلهما ، ناضله مناضلة نضالا ونيضالا كقيتال: باراه فى رمى السهم ( وحق بالثغر ) وهو مايلى دار الحرب وموضع المخافة من فروج البلدان ( أن يحرس ويحصن ) أى الثغر وهما بالبناء للمفعول ، وكذا قوله رحمه الله ( ويغفل عنه ) أى عن ذلك الثغر . ( والثالث أن العوارض له ) أى للقلب ( أ كثر فإن الخواطر له ) أى القلب ( كالسهام لا تزال تقع ) أى الخواطر ( فيه ) أى فى القلب ( وكالمطر لا تزال تمطر ) أى الخواطر ( عليه ) أى

---

(١) الزكانة : الظن أو العلم كما فى القاموس اه .

لَيْلاً وَنَهَارًا لاَ تَنْقَطِعُ وَلاَ أَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى مَنْعِهَا فَتَمْتَنِعَ ، وَلَيْسَ بِمَنْزِلَةِ الْعَيْنِ الَّتِي بَيْنَ الْجَفْنَانِ تُغَمِّضُ فَتَسْتَرِيحُ ، أَوْ تَكُونُ فِي مَوْضِعٍ خَالٍ أَوْ لَيْلٍ مُظْلِمٍ فَتَكْفِي رُؤْيَتَهُمَا ، أَوْ كَاللِّسَانْ الَّذِي هُوَ مِنْ وَرَاءِ الْحَاجِبَيْنِ : الْأَسْنَانِ وَالشَّفَتَيْنِ ، وَأَنْتَ الْقَادِرُ عَلَى مَنْعِهِ وَتَسْكِينِهِ ، بَلِ الْقَلْبُ غَرَضٌ لِلْخَوَاطِرِ لاَ تَقْدِرُ عَلَى مَنْعِهَا وَالتَّحَفُّظِ عَنْهَا بِحَالٍ ، وَهِيَ لاَ تَنْقَطِعُ عَنْكَ بِوَقْتٍ ؛ ثُمَّ النَّفْسُ مُسَارِعَةٌ إِلَى اتِّبَاعِهَا ، وَالْامْتِنَاعُ عَنْ ذَلِكَ فِي مَجْهُودِ الطَّاقَةِ أَمْرٌ شَدِيدٌ وَمِحْنَةٌ عَظِيمَةٌ . وَالرَّابِعُ : أَنَّ عِلاَجَهُ عَسِيرٌ ، إِذْ هُوَ غَيْبٌ عَنْكَ فَلاَ تَكَادُ تَشْعُرُ حَتَّى تَدِبَّ فِيهِ آفَةٌ وَتَحْدُثَ لَهُ حَالَةٌ فَتَحْتَاجُ إِلَى أَنْ تَبْحَثَ عَنْ ذَلِكَ أَتَمَّ الْبَحْثِ بِطُولِ الْجَهْدِ وَدَقِيقِ النَّظَرِ وَكَثْرَةِ الرِّيَاضَةِ .

---

على القلب ( ليلا ونهارا لا تنقطع ولا أنت تقدر على منعها ) أى تلك الخواطر ( فتمتنع ) أى عنك (وليس) القلب ( بمنزلة العين التي بين الجفنين ) تثنية جفن : وهو غطاء العين من أعلاها وأسفلها وهو مذكر كما فى المصباح ( تغمض ) وفى محيط المحيط غمض عينه : أطبق جفنيها ( فتستريح أو تكون ) أنت ( فى موضع خال ) عن الناس وغيرهم (أو) تكون فى ( ليل مظلم فتكفى رؤيتهما ) أى العينين ( أو كاللسان الذى هو من وراء الحاجبين ) يعنى بهما ( الأسنان والشفتين وأنت القادر على منعه وتسكينه ) أى اللسان ( بل القلب غرض ) بفتح الغين والراء : الهدف الذى يرمى إليه (للخواطر لا تقدر على منعها ) أى الخواطر ( و ) لا تقدر على ( التحفظ عنها ) أى عن الخواطر الواردة على القلب(بحال) من الأحوال ( وهى لا تنقطع ) أى الخواطر ( عنك بوقت ) من الأوقات ( ثم النفس مسارعة إلى اتباعها ) أى الخواطر ( والامتناع عن ذلك) أى عن اتباع النفس للخواطر ( فى مجهود الطاقة ) الاضافة بيانية كما فى سراج السالكين ( أمر شديد ومحنة ) أى مشقة ( عظيمة ) إلا على من يسره الله للتوفيق الخاص على ذلك . ( والرابع أن علاجه ) أى القلب ( عسير ) أى صعب ( إذ هو غيب ) أى خفى لا يطلع (عنك، فلا تكاد) أى تقرب ( تشعر ) أى تعلم ( حتى تدب ) أى تمشى ( فيه ) أى فى القلب آفة ) مهلكة ( وتحدث ) بضم الدال من باب دخل (له ) أى للقلب ( حالة فتحتاج ) أنت ( إلى أن تبحث ) وتفحص ( عن ذلك ) أى عما فى القلب من الآفة وغيرها ( أتم البحث بطول الجهد ) بالفتح : أى المشقة ( ودقيق النظر ) أى الفكر فى ذلك ( وكثرة الرياضة ) أى رياضة النفس ، والرياضة مصدر راض. قال أهل اللغة: هى استبدال الحال المذمومة بالحال المحمودة ، وقال بعض الحكماء : هي الإعراض عن الأغراض الشهوانية . وقيل الرياضة ملازمة الصلاة والصوم ومحافظته أثناء الليل ، والنوم عن موجبات الإثم واللوم وسد باب النوم والبعد عن صحبة القوم . وقيل الرياضة عبارة عن تهذيب الأخلاق النفسية .

وَالْخَامِسُ : أَنَّ الآفَاتِ إِلَيْهِ أَسْرَعُ ، فَهُوَ إِلَى الانْقِلَابِ أَقْرَبُ ، فَلَقَدْ قِيلَ إِنَّ الْقَلْبَ أَسْرَعُ انْقِلَابًا مِنَ الْقِدْرِ فِي غَلَيَانِهَا ، وَلِذَلِكَ قِيلَ :

مَا سُمِّيَ الْقَلْبُ إِلَّا مِنْ تَقَلُّبِهِ ۞ وَالرَّأْيُ يَضْرِبُ بِالْإِنْسَانِ أَطْوَارَا

ثُمَّ إِنْ زَلَّ الْقَلْبُ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ ، فَزَلَّتُهُ أَعْظَمُ ، وَوُقُوعُهُ أَصْعَبُ وَأَفْظَعُ ، إِذْ أَدْنَاهُ قَسْوَةٌ وَمَيْلٌ إِلَى غَيْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَمُنْتَهَاهُ خَتْمٌ بِكُفْرٍ ،وَالْعِيَاذُ بِاللهِ تَعالى ، أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تَعالى : ( أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ) فَكَانَ الْكِبْرُ بِقَلْبِهِ فَحَمَلَهُ عَلَى الْإِبَاءِ وَالْكُفْرُ بِظَاهِرِهِ ، أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تَعالى : ( وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ،

---

( والخامس أن الآفات إليه ) أى الى القلب ( أسرع فهو ) أى القلب ( إلى الانقلاب ) والاضطراب ( أقرب فلقد قيل : إن القلب أسرع انقلابا من القدر ) بكسر القاف وهو إناء يطبخ فيه فهو مؤنث أو يذكر ويؤنث، والجمع قدور ( فى غليانها ) بفتحات أو ثوران القدر أى مافيها، وفى محيط المحيط غلت القدر تغلى غليا وغليانا: جاشت وثارت بقوة الحرارة ، ولا يقال غليت ( ولذلك ) أى لسرعة القلب انقلابا ( قيل ) من بحر البسيط ( ما سمى القلب إلا من تقلبه ) أى من جهة تقليبه من حال إلى حال فالتقلب والا نتقال من شأن القلب ( والرأى ) أى العقل ( يضرب بالإنسان أطوارا ) أى يحول الإنسان ويصيره أطوارا فلما كان فى رأى كان طورا غير الآخر ، والأطوار جمع طور وهو الحال ( ثم إن زل القلب ) عن الايمان ( والعياذ بالله فزلته ) أى القلب ( أعظم ووقوعه ) أى سقوطه ( أصعب ) أى أشد ( وأفظع ) أى أهول وأقبح من وقوع غيره وسقوطه ( إذ أدناه ) أى أقل زلة القلب ( قسوة وميل الى غير الله سبحانه وتعالى ، ومنتهاه ) أى غاية زلته ( ختم بكفر ) . وفى نسخة ختم ونكرة بالله تعالى ( والعياذ بالله تعالى، أما تسمع قوله تعالى : أبى واستكبر ) أى امتنع إبليس عما أمر به استكبارا من أن يتخذه ، أى آدم عليه السلام وصلة فى عبادة ربه أو يعظمه ويتلقاه بالتحية أو يخدمه ويسعى فيما فيه خيره وصلاحه ، والإباء : امتناع باختيار والتكبر أن يرى الرجل نفسه أكبر من غيره، والاستكبار طلب ذلك بالتشبع ( وكان من الكافرين) أى فى علم الله تعالى فإنه وجبت له النار لسابق علم الله تعالى بشقاوته . روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى يقول : يا ويله » : وفى رواية « يا ويلتاه أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة : وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار » ( فكان الكبر بقلبه ) أى إبليس اللعين ( فحمله على الإباء ) أى الامتناع (والكفر بظاهره ، أما تسمع قوله تعالى : ولكنه أخلد إلى الأرض) أى مال بلعم بن باعوراء

وَأَتبعَ هَوَاهُ ) فَكانَ المَيْلُ وَأَتِّبَاعُ الْهَوَى بِقَلْبِهِ فَحَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ الذَّنْبِ المَشْئُومِ بِنَفْسِهِ أَمَا تَسْمعُ قَوْلَهُ تعالى: ( وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ) وَلِهَذَا المَعْنَى أَيُّهَا الرَّجُلُ خَافَ عِبَادُ اللهِ تعالى الْخَوَاصُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَبَكَوْا عَلَيْهَا وَصَرَفُوا عِنَايَتَهُمْ إِلَيْهَا ، قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ فِى وَصْفِهِمْ : ( يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ) جَعَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِنَ الْمُعْتَبِرِينَ بِالْعِبَرِ الْمُهْتَمِّينَ بِمَوَاضِعِ الْخَطَرِ المُوَفَّقِينَ لِإِصْلَاحِ قُلُوبِهِمْ بِحُسْنِ النَّظَرِ ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ أَمْرَ هٰذَا الْقَلْبِ لَمُهِمٌّ جِدًّا ، فَأَخْبِرْنَا عَنِ الْمَعَانِى الَّتِى تُصْلِحُهُ ، وَعَنِ الآفاتِ الَّتِى تَعْتَرِضُهُ فَتُفْسِدُهُ

---

الى الدنيا أو إلى السفلة ( واتبع هواه ) فى إيثار الدنيا واسترضاء قومه وأعرض عن مقتضى الآيات ( فكان الميل ) أى ميل بلعم الى الدنيا ( واتباع الهوى ) فى إيثارها ( بقلبه فحمله ) الميل واتباع الهوى ( على ذلك الذنب المشئوم ) الشؤم: ضد البركة ( بنفسه ، أما تسمع قوله تعالى : ونقلب أفئدتهم ) عن الحق فلا يفهمونه ( وأبصارهم ) فلا يبصرونه فلا يؤمنون بالآيات ( كما لم يؤمنوا به ) أى بما أنزل من الآيات ( أول مرة ونذرهم فى طغيانهم ) أى تجاوزهم الحد بالكفر (يعمهون ) أى وندعهم متحيرين لانهديهم من الهول، أو تتقلب أحوالها فتفقه القلوب مالم تكن تفقه وتبصر الأبصار مالم تكن تبصر ، أوتتقلب القلوب من توقع النجاة وخوف الهلاك والأبصار من أى ناحية يؤخذ بهم ويؤتى كتابهم ، كذا فسره البيضاوى ، والطغيان مصدر طغى يطغى طغيانا ، وطغيانا بكسر الطاء وضمها ، ولام طغى قيل ياء ، وقيل واو : يقال: طغيت وطغوت ، وأصل المادة مجاوزة الحد . ومنه « إنا لما طغى الماء » . والعمه : التردد والتحير ، وهو قريب من العمى إلا أن بينهما عموما وخصوصا ، لأن العمى يطلق على ذهاب ضوء العين ؟ وعلى الخطأ فى الرأى ، والعمه لايطلق إلا على الخطأ فى الرأى ، يقال: عمه يعمه من باب طرب عمها وعمهانا فهو عمه وعامه ، كذا أفاده السمين ( ولهذا المعنى ) وهو سرعة انقلاب القلب وعظم زلته ( أيها الرجل ) السالك لطريق الأخرة ( خاف عباد الله تعالى الخواص على قلوبهم وبكوا عليها ) أى القلوب ( وصرفوا عنايتهم ) واهتمامهم ( إليها ) أى إلى مراعاة قلوبهم . ( قال الله سبحانه فى وصفهم ) أى الخواص ( يخافون يوما تتقلب فيه ) أى فى ذلك اليوم ( القلوب والأبصار ) وهو يوم القيامة ( جعلنا الله وإياكم ) جملة دعائية ( من المعتبرين بالعبر ) جمع عبرة، وهى العظة يتعظ بها ( المهتمين ) والمجتهدين ( بمواضع الخطر ) أى الخوف ( الموفقين لإصلاح قلوبهم بحسن النظر ) والفكر ( إنه ) تعالى ( أرحم الراحمين ) وأكرم الأكرمين . ( فإن قيل إن أمر هذا القلب لمهم جدا فأخبرنا عن المعانى التى تصلحه ) أى القلب ( و ) أخبرنا ( عن الآفات التى تعترضه فتفسده ) أى تفسد الآفات هذا القلب

عَسَى أَنْ نُوَفَّقَ لِلْاجْتِهَادِ فِى الْعَمَلِ بِذَٰلِكَ .

يُقَالُ لَهُ : اعْلَمْ أَنَّ تَفْصِيلَ هٰذِهِ الْمَعَانِى لَطَوِيلٌ لَا يَحْتَمِلُهُ هٰذَا الْكِتَابُ ، وَإِنَّمَا عُلَمَاءُ الْآخِرَةِ عُنُوا بِاسْتِخْرَاجِ ذٰلِكَ وَتَصْنِيفِهِ فِى هٰذِهِ النُّكْتَةِ لَا غَيْرُ ، وَقَدْ ذَكَرُوا فِيمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ ذٰلِكَ نَحْوًا مِنْ تِسْعِينَ خَصْلَةً مَحْمُودَةً ، وَفِى أَضْدَادِهَا الْمَذْمُومَةِ ، ثُمَّ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالْمَسَاعِى الْوَاجِبَةِ وَالْمَحْظُورَةِ نَحْوَ ذٰلِكَ فِى سَائِرِ تَفَاصِيلِهَا ، وَلَعَمْرِى إِنَّ مَنْ أَهَمَّهُ أَمْرُ دِينِهِ وَانْتَبَهَ مِنْ رَقْدَةِ الْغَافِلِينَ وَنَظَرَ لِنَفْسِهِ فَلَا يَكُونُ تَحْصِيلُ جَمِيعِ

---

( عسى أن نوفق ) بالبناء للمفعول : أي وفقنى ربنا الكريم ( للاجتهاد فى العمل بذلك ) أى بما تصلح القلب عن المفسدات ( يقال له ) أى للقائل الذى سأل عن أمر القلب ( اعلم أن تفصيل هذه المعانى ) التى تصلح القلب ( لطويل لا يحتمله ) أى هذا التفصيل ( هذا الكتاب ) المختصر المسمى بالمنهاج ( وإنما علماء الآخرة عنوا ) أى قصدوا ( باستخراج ذلك ) أى التفصيل بما ذكر ( وتصنيفه فى هذه النكتة ) وهو العمل بما يصلح القلب والتطهير عن مفسداته كما قرره البعض ( لا غير ) هذه النكتة ( وقد ذكروا ) أى علماؤنا ( فما يحتاج إليه من ذلك ) أى المذكور من المعانى التى تصلح القلب والآفات التى تفسده ( نحوا ) أى مقدارا ( من تسعين خصلة محمودة ، و ) ذكروا ( فى أضدادها المذمومة ، ثم من الأفعال والمساعى الواجبة والمحظورة ) أى المحرمة ( نحو ذلك ) أى تسعين : وفى نسخة وغير ذلك كالمكروهات والمندوبات ( فى سائر تفاصيلها ) أى مع جميع تفاصيل الأضداد والأفعال ( ولعمرى ) فى محيط: المحيط العمر : الدين . ومنه لعمرى فى القسم أى لدينى انتهى . وقال فاضل الروم حلبى فى حاشية [ المطول ] قوله لعمرى يمكن أن يحمل على حذف المضاف : أى لواهب عمرى ، وكذا أمثاله مما أقسم به لغير الله تعالى ، كقوله تعالى « والشمس ، والليل » ونظائره : أى ورب الشمس الخ ؛ ويمكن أن يكون المراد بقولهم لعمرى وأمثاله ذكر صورة القسم لتأكيد مضمون الكلام وترويجه فقط لأنه أقوى من سائر المؤكدات وأسلم من التأكيد بالقسم بالله تعالى لوجوب البر به ، وليس الغرض اليمين الشرعى وتشبيه غير الله تعالى به فى التعظيم حتى يرد عليه أن الحلف بغير اسمه تعالى وصفاته مكروه كما صرح به النووى فى شرح مسلم بل الظاهر من كلام مشايخنا أنه كفر إن كان باعتقاد أنه حلف يجب البر به ، وحرام إن كان بدونه كما صرح به بعض الفضلاء ، وذكر صورة القسم على الوجه المذكور لا بأس به ، ولهذا شاع بين العلماء كيف وقد قال عليه الصلاة والسلام « قد أفلح وأبيه ؟ » . وقال عز من قائل « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » فهذا جرى على رسم اللغة ؛ وكذا إطلاق القسم على أمثاله ( إن من أهمه ) أي أحزنه ( أمر دينه وانتبه من رقدة الغافلين ) بفتح الراء : أى نومتهم ( ونظر ) أي تفكر ( لنفسه ) أى فيما يصلحها فى الدارين ( فلا يكون تحصيل جميع

ذٰلِكَ وَالْعَمَلُ بِهِ عَلَيْهِ كَثِيرًا إِذَا وَفَّقَهُ اللهُ تَعَالَى، وَقَدْ ذَكَرْنَا نُبْذَةً مِنْهَا فِي شَرْحِ عَجَائِبِ الْقَلْبِ مِنْ كِتَابِ [ إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ ] وَأَتَيْنَا عَلَى شَرْحِ جَمِيعِهَا بِتَفَاصِيلِهَا

---

ذلك ) أى ما يحتاج إليه من الصفات المذكورة مع أضدادها (و) لا يكون ( العمل به ) أى بجميع ما يحمد من الصفات والاجتناب على ما يذم منها ( عليه ) أى على من أهمه أمر دينه ( كثيرا إذا وفقه الله تعالى ، وقد ذكرنا نبذة ) أى قطعة كافية . وفى محيط المحيط ربما استعملت النبذ للقطعة من الشىء على حدة كالنبذة من الكتاب ( منها ) أى من الصفات المحمودة والمذمومة ( فى ) كتابنا ( شرح عجائب القلب من ) جملة ( كتاب إحياء علوم الدين ) وتلخيص ما فى ذلك أن الإنسان اجتمع عليه أربعة أنواع من الأوصاف ، وهى الصفات السبعية ، والبهيمية ، والشيطانية والربانية وكل ذلك مجموع فى القلب فيجتمع فى الإنسان خنزير وكلب وشيطان وحكيم ، فالخنزير هو الشهوة ؛ والكلب هو الغضب ، والشيطان لا يزال يهيج شهوة الخنزير وغيظ السبع ، ويغرى أحدهما بالآخر ويحسن لهما ماهما مجبولان عليه ، والحكيم الذى هو مثال العقل مأمور بأن يدفع كيد الشيطان ومكره بأن يكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة ونوره المشرق الواضح ، فطاعة خنزير الشهوة يصدر منها صفة الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والحرص والجشع والملق والحسد والحقد والشماتة وغيرها من الأوصاف الذميمة ، وطاعة كلب الغضب تنتشر منها إلى القلب صفة التهور ، وهو الإقدام على أمور لاتنبغى والبذالة والبذخ والصلف والاستشاطة والتكبر والعجب والاستهزاء والاستخفاف وتحقير الخلق وإرادة الشر ، وشهوة الظلم وغيرها من الأوصاف الذميمة ، وطاعة الشيطان بطاعة الشهوة ، والغضب يحصل منها صفة المكر والخداع والحيلة والدهاء والجرأة والتلبيس والتضريب والغش والخب والخنا وأمثالها من الأوصاف الذميمة ، ولو قهر الجميع تحت سياسة الصفة الربانية لاستقر فى القلب من الصفة الربانية العلم والحكمة واليقين والإحاطة بحقائق الأشياء ومعرفة الأمور على ما هى عليه والاستيلاء على الكل بقوة العلم ونور البصيرة واستحقاق التقدم على الخلق بكمال العلم وجلاله ولاستغنى عن عبادة الشهوة والغضب ولا نتشر إليه من ضبط خنزير الشهوة ورده إلى حد الاعتدال صفات شريفة تضاد تلك الصفات المذكورة مثل العفة والقناعة والهدوء والزهد والورع والتقوى والانبساط وحسن الهيئة والحياء والظرف والمساعدة للاخوان على الخير وأمثالها من الصفات الحميدة ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب وقهرها وردها إلى حد الواجب صفة الشجاعة والكرم والنجدة وضبط النفس عن الوقوع فى رذيلة والصبر على المكاره والحلم والاحتمال والعفو والثبات فى الأمر والنبل : أى رفعة المقام إلى المطالب والشهامة والوقار وغيرها من الصفات الحميدة ، فالقلب فى حكم مرآة قد اكتنفته هذه الأمور المؤثرة فيه ، وهذه الآثار على التوالى والتتابع واصلة إلى القلب لا ينفك عنها . انتهى ما لخصناه من شرح العجائب روما للايجاز ( وأتينا على شرح جميعها بتفاصيلها ) أى

وَكَيْفِيَةِ عِلاَجِهَا فِي كِتَابِ [ أَسْرَارِ مُعَامَلاَتِ الدِّينِ ]

الصفات المذكورة ( وكيفية علاجها فى كتاب أسرار معاملات الدين ) وتفصيله وكيفيته طويلة لكنا لخصنا بعض ذلك فى هذا المقام ببيان علاج هذه الصفات الثلاث ، وهى الغضب ، والحسد والعجب للايجاز ، والاختصار فنقول : إن كل علة علاجها إنما يكون بضدها فعلاج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل ، أما العلم فهو ستة أمور :

[الأول] أن يتفكر فى الأخبار التى وردت فى فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال: منها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من كفّ غضبه كف الله عنه عذابه ، ومن اعتذر الى ربه قبل الله عذره ، ومن خزن لسانه ستر الله عورته » رواه ابن أبى الدنيا فى ذم الغضب من حديث أنس. وقال صلى الله عليه وسلم « من كظم غيظا ولو شاء أن يمضيه لأمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا » وفى رواية « ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا » . رواه ابن أبى الدنيا من حديث أبى هريرة إلى غير ذلك من الأخبار ، فعند ذلك يرغب فى ثوابه فيمنعه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التشفى والانتقام وينطفىء عنه غيظه .

[الثانى] أن يخوف نفسه بعقاب الله ، وهو أن يقول : قدرة الله على أعظم من قدرتى على هذا الإنسان ، فلو أمضيت غضبي عليه فما آمن أن يمضى الله غضبه على يوم القيامة أحوج ما أن أكون الى العفو فقد قال تعالى فى بعض الكتب التى أنزلها على رسله « يا ابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق» أخرجه ابن شاهين فى الترغيب ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيفا الى حاجة فأبطأ عليه ، فلما جاء قال لولا القصاص لأوجعتك : أى القصاص فى القيامة . رواه أبو يعلى من حديث أم سلمة .

[الثالث] أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمر العدو لمقابلته والسعى فى هدم أغراضه والشماتة بمصائبه ، وهو لا يخلو عن المصائب فيخوف نفسه بعواقب الغضب فى الدنيا إن كان لا يخاف من الآخرة ، والعلم بهذا مهم للغاية ، فإن عاقبة العداوة وخيمة ومن كان له عدو متشمر فى إيصال السوء إليه لا يرتاح فى معيشته مطلقا فإذا عصم نفسه من الغضب سلم من هذه الورطة .

[ الرابع ] أن يتفكر فى قبح صورته عند الغضب بأن يتذكر صورة غيره فى حالة الغضب فى نفسه ومشابهة صاحبه للكلب الضارى والسبع العادى ومشابهة الحليم الهادى التارك للغضب للأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء ، ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس وبين أن يتشبه بالعلماء والأنبياء فى عادتهم لتميل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء إن كان قد بقى معه مسكة من عقل .

[ الخامس ] أن يتفكر فى السبب الذى يدعوه إلي الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ ولا بد أن يكون له سبب مثل قول الشيطان : إن هذا يحمل منك على العجز وصغر النفس والذلة والمهانة وتصير حقيرا في أعين الناس فيقول لنفسه ما أعجبك تأنفين من الاحتمال الآن ولا تأنفين من خزى

يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منك وتحذرين من أن تصغرى في أعين الناس ولا تحذرين من أن تصغرى عند الله والملائكة والنبيين فمهما كظم فينبغي أن يكظمه لله .

[ السادس ] أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشيء على وفق مراد الله لا على وفق مراده فكيف يقول مرادى أولى من مراد الله ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه هذا ما يتعلق بالعلم . وأما العمل فأن تقول بلسانك: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، هكذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقال عند الغيظ . وكان رسول الله صلي الله عليه وسلم « إذا غضبت عائشة أخذ بأنفها وقال يا عويش قولى : اللهم رب النبي محمد اغفر لى ذنبي من مضلات الفتن » فيستحب أن تقول ذلك ؛ فإن لم يزل بذلك فاجلس إن كنت قائما واضطجع إن كنت جالسا واقرب من الأرض التى منها خلقت لتعرف بذلك ذل نفسك واطلب بالجلوس والاضطجاع بالسكون ، فإن سبب الغضب الحرارة وسبب والحرارة الحركة ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الغضب جمرة توقد في القلب ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه ، فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئا ، فإن كان قائما فليجلس ، وإن كان جالسا فلينم ، فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل ، فإن النار لا يطفئها إلا الماء » . فقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء فإنما الغضب من النار » . وفى رواية « إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء » .

وعلاج الحسد الذى هو من الأمراض العظيمة للقلوب بالعلم والعمل . أما العلم فهو أن تعرف تحقيقا أن الحسد ضرر عليك فى الدنيا والدين وأنه لا ضرر فيه على المحسود فى الدنيا والدين ، بل ينتفع به فيهما ، ومهما عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك فارقت الحسد لا محالة . أما كونه ضررا عليك فى الدين ، فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله وكرهت نعمته التى قسمها بين عباده وعدله الذى أقامه فى ملكه بخفى حكمته فاستنكرت ذلك واستقبحته ، وهذه جناية على حدقة التوحيد وقذى فى عين الإيمان ، وناهيك بها جناية على الدين، وقد انضاف إلى ذلك أنك غششت رجلا من المؤمنين وتركت نصيحته وفارقت أولياء الله وأنبياءه فى حبهم الخير لعباده تعالى وشاركت إبليس وسائر الكفار فى محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم، وهذه خبائث تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب وتمحوها كما يمحو الليل النهار . وأما كونه ضررا عليك فى الدنيا فهو أنك تتألم بحسدك فى الدنيا أو تتعذب به ولا تزال فى كمد وغم ، إذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم ، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم فتبقى مغموما محروما متشعب القلب ضيق الصدر قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك فقد كنت تريد المحنة لعدوك فتنجزت فى الحال محنتك وغمك نقدا ، ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك. وأما أن المحسود ينتفع به فى الدين والدنيا فواضح . أما منفعته فى الدين : فهو أنك مظلوم من جهتك لاسيما إذا أخرجك الحسد إلى القول والفعل بالغيبة والقدح فيه وهتك ستره وذكر مساويه فهذه هدايا تهديها اليه : أعنى أنك بذلك تهدى إليه حسناتك حتى تلقاه يوم القيامة مفلسا محروما

عن النعمة كما حرمت فى الدنيا عن النعمة فكأنك أردت زوال النعمة عنه فلم تزل عنه نعم كان لله عليه نعمة إذ وفقك للحسنات فنقلتها إليه فأضفت نعمة إلى نعمة، وأضفت إلى نفسك شقاوة إلى شقاوة. وأما منفعته فى الدنيا فهو أن أغراض الخلق مساءة الأعداء وغمهم وشقاوتهم وكونهم معذبين مغمومين ، ولا عذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد ، وغاية أمانى أعدائك أن يكونوا فى نعمة وأن تكون فى غم وحسرة بسببهم وقد فعلت بنفسك ماهو مرادهم ومتمناهم ، ولذلك لايشتهى عدوك موتك بل يشتهى أن تطول حياتك ولكن فى عذاب الحسد لتنظر إلى نعمة الله عليه فينقطع قلبك حسدا ، ولذلك قيل :

لامات أعداؤك بل خلدوا حتى يروا فيك الذى يكمد
لازلت محسودا على نعمة فإنما الكامل من يحسد

ففرح عدوك بغمك وحسدك أعظم من فرحه بنعمته ، ولو علم خلاصك من ألم الحسد وعذابه لكان ذلك أعظم مصيبة وبلية عنده ، فما أنت فيما تلازمه من غم الحسد إلا كما يشتهيه عدوك فإذا تأملت هذا عرفت أنك عدو نفسك وصديق عدوك إذا تعاطيك ماتضررت به فى الدنيا والآخرة وانتفع به عدوك فيهما وصرت مذموما عند الخالق والخلائق شقيا في الحال والمآل ونعمة المحسود دائمة شئت أم أبيت ليس بيدك شىء ، ثم لم تقتصر على تحصيل مراد عدوك حتى وصلت إلي إدخال أعظم سرور علي إبليس الذى هو أعدى أعدائك ، لأنه لما رآك محروما من نعمة العلم والورع والجاه والمال الذى اختص به عدوك خاف أن تحب ذلك له فتشاركه في الثواب بسبب المحبة ، لأن من أحب الخير للمسلمين كان شريكا فى الخير فخاف إبليس أن تحب ماأنعم الله به على عبده من صلاح دينه ودنياه فتفوز بثواب الحب فبغضه إليك حتى لاتلحقه بحبك كما لم تلحقه بعملك ؛ فانظر كيف حسدك إبليس ففوت عليك ثواب الحب ثم لم يقنع به حتى بغض إليك أخاك وحملك على الكراهة حتى أثمت ، وكيف لاوعساك تحاسد رجلا من أهل العلم وتحب فيه أن يخطىء يوما فى مسئلة فى دين الله تعالى وينكشف خطؤه ليفتضح بين الناس ، وتحب أن يخرس لسانه حتى لايتكلم أو يمرض حتى لايعلم ولا يتعلم ، وأى إثم يزيد على ذلك إذا تأملت فيه فليتك إذ فاتك اللحاق به ثم اغتممت بسببه سلمت من الإثم وعذاب الآخرة . وقد جاء فى الحديث « أهل الجنة ثلاثة : المحسن : أى فى عمله ، والمحب له ، والكاف عنه » أى من يكف عنه الأذى والحسد والبغض والكراهة ، فانظر كيف أبعدك إبليس عن جميع المداخل الثلاثة حتى لاتكون من أهل واحد منها ألبتة ، فقد نفذ فيك جسد إبليس وما نفذ حسدك في عدك بل على نفسك فهذه هي الأدوية العلمية ، فمهما تفكر الإنسان فيها بذهن صاف عن كدر الغش وقلب حاضر انطفأت نار الحسد فى الحال ، وعلم أنه مهلك نفسه ، ومفرح عدوه ، ومسخط ربه ومنغص عيشه ومشيت حاله . وأما العمل النافع فيه فهو أن يحكم الحسد ، فكل مايتقضاه الحسد من قول وفعل فينبغى أن يكلف نفسه نقيضه وضده ، فان بعثه الحسد على القدح فى محسوده كلف لسانه المدح له والثناء عليه ، وإن حمله على التكبر عليه ألزم نفسه التواضع له والاعتذار إليه ، وإن بعثه على

كف الإنعام عليه ألزم نفسه الزيادة فى الإنعام عليه ، فمهما فعل ذلك عن تكلف وعرفه المحسود طاب قلبه وأحبه ، ومهما ظهر حبه عاد الحاسد وأحبه ، وتولد من ذلك الموافقة التى تقطع مادة الحسد ، لأن التواضع وحسن الثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب المنعم عليه ويسترقه ويستعطفه ويحمله على مقابلة ذلك بالإحسان ، ثم ذلك الإحسان يعود إلى الأول فيطيب قلبه ويصير ماتكلفه أولا طبعا آخرا ، ولا يصدنه من ذلك قول الشيطان له فيما يوسوس إليه : لو تواضعت وأثنيت عليه حمله العدو على العجز منك أو على النفاق أو الخوف ، وأن ذلك مذلة ومهانة ، وذلك من خدع الشيطان ومكايده ، فإنما مقصود الشيطان أن تكون العداوة والبغضاء بين المسلمين على الأبد ، بل المجاملة على أى حال تكلفا كانت أو طبعا تكسر سورة العداوة من الجانبين وتكسر حدتها وتعود القلب إلى التألف والتحاب والتوادد ، وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد وغم التباغض ، فهذه هى أدوية الحسد علما وعملا ، وهى نافعة جدا إلا أنها مرة على القلوب جدا ولكن النفع فى الدواء المر ، فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء .

وأما العجب فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل ؛ لأن علة العجب الجهل المحض فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادة والصدقة والغزو وسياسة الخلق وإصلاحهم ، فإن العجب بهذا أبلغ من العجب بالجمال والقوة والنسب وكل مالا يدخل تحت اختياره ولا يراه من نفسه ، فنقول : الورع والتقوى والعبادة والعمل الذى يعجب به من حيث إنه فيه فهو محله ومجراه أو من حيث إنه منه وبسببه وبقدرته وقوته ، فإن كان يعجب به من حيث إنه فيه وهو محله ومجراه يجرى فيه وعليه من جهة غيره ، فهذا جهل من المعجب ، لأن المحل إنما هو مسخر ومجرى لامدخل له فى الايجاد والتحصيل فكيف يعجب بما ليس فيه ولا مدخل له فيه وإن كان يعجب به من حيث هو منه وإليه باختياره حصل وبقدرته تم ، فينبغى أن يتأمل فى قدرته وإرادته وأعضائه وسائر الأسباب التى بها يتم عمله أنها من أين كانت له وكيف تيسرت له ، فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حق سبق له ومن غير وسيلة يدلى بها ، فينبغى أن يكون إعجابه بجود الله تعالى وكرمه وفضله إذ أفاض عليه مالا يستحقه وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة عن بها ، فمهما برز الملك لغلمانه ونظر إليهم وخلع من جملتهم على واحد منهم لالصفة فيه ولا لوسيلة ولا لجمال ولا لخدمة ، فينبغى أن يتعجب المنعم عليه من فضل الملك وحكمه وإيثاره له من دونهم من غير استحقاق فإعجابه بنفسه من أين وما سببه ولم ينبغى أن يعجب هو بنفسه ، نعم يجوز أن يعجب العبد فيقول الملك حكم عدل لا يظلم ولا يقدم ولا يؤخر إلا لسبب خفى على مدركه ، فلولا أنه تفطن فى صفة من الصفات المحمودة الباطنة لما اقتضى الإيثار بالخلعة ولما آثرنى بها فيقال له وتلك الصفة أيضا هى من خلعة الملك وعطيته التى خصصك بها عن غيرك من غير وسيلة أو هى عطية غيره ، فإن كانت من عطية الملك أيضا لم يكن لك أن تعجب بها ، بل كان كما لو أعطاك فرسا فلم تعجب به فأعطاك غلاما فصرت تعجب به وتقول إنما أعطانى غلاما لأنى صاحب فرس فأما غيرى فلا فرس له ، فيقال وهو الذى أعطاك الفرس فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والغلام معا

وَهُوَ كِتابٌ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ عَظِيمُ الْفَائِدَةِ وَلاَ يَنْتَفِـعُ بِهِ إلاَّ فُحُولُ الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخُونَ فى الْعِلْمِ ،

---

أو يعطيك أحدهما بعد الآخر ، فإذا كان الكل منه فينبغى أن يعجبك جوده وفضله لانفسك، وأما إن كانت تلك الصفة من غيره فلا يبعد أن تعجب بتلك الصفة ، وهذا يتصور فى حق الملوك فى الدنيا ولا يتصور فى حق الجبار القاهر ملك الملوك المنفرد باختراع الجميع المنفرد بإيجاد الموصوف والصفة ، فإنك إن عجبت بعبادتك وقلت وفقنى للعبادة لحبى له ، فيقال ومن خلق الحب فى قلبك ؟ فستقول هو ، فيقال فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك إذ لاوسيلة لك ولاعلاقة، فيكون الإعجاب بجوده إذ أنعم بوجودك وبوجود صفاتك وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك ؛ فإذا لامعنى لعجب العابد بعبادته ، وعجب العالم بعلمه ، وعجب الجميل بجماله ، وعجب الغنى بغناه ، لأن كل ذلك من فضل الله ومن إحسانه وجوده وكرمه ، وإنما هو محل لفيضان فضل الله وجوده والله أعلم ( وهو ) أى كتاب الإحياء الذى فيه شرح عجائب القلب وأسرار معاملات الدين وغيرها ( كتاب مستقل بنفسه ) أى الكتاب الذى لم يسبق إليه ( عظيم الفائدة ولا ينتفع به ) أى الكتاب المنفرد ( إلافحول العلماء ) أى رواتهم، فى محيط المحيط : الفحل الراوى ، والجمع فحول ، ويقال هم فحول : أى رواة ( الراسخون ) أى الثابتون ( فى العلم ) أى علم الآخرة كما فى نسخة ، وقد أثنى على كتاب الإحياء للمصنف عالم من علماء الاسلام وغير واحد من عارف الأنام ، بل جمع أقطاب وأفراد ، فقال فيه الحافظ الإمام الفقيه أبو الفضل العراقى فى تخريجه : إنه من أجل كتب الاسلام فى معرفة الحلال والحرام ، جمع فيه بين ظواهر الأحكام ونزع إلى سرائر دقت عن الأفهام ، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل ، ولم يتبحر فى اللجة بحيث يتعذر الرجوع إلى الساحل ، بل مزج فيه علمى الظاهر والباطن ، ومزج معانيها فى أحسن المواطن ، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه ، وسلك فيه من النمط أوساطه مقتديا بقول على كرم الله وجهه : خير هذه الأمة النمط الأوسط يلحق بهم التالى ، ويرجع إليهم الغالى . قال بعض الأخيار فى مدحه قصيدة طويلة منها :

أيا طالبا شرح الكتاب وسنة ... وقانون قلب القلب بحر الرقائق
عليك بإحياء العلوم ولبها ... وأسرارها كم قد حوى من دقائق
كتاب جليل لم يصنف قبله ... ولا بعده مثل له فى الطرائق

وقال النووى . كاد الاحياء أن يكون قرآنا . وقال الشيخ أبو محمد الكازرونى: لو محيت جميع العلوم لاستخرجت من الإحياء ، وكان السيد الجليل كبير الشأن ، تاج العارفين ، وقطب الأولياء الشيخ عبد الله العيدروس رضى الله عنه يكاد يحفظه نقلا . وروى عنه أنه قال : مكثت سنين أطالع كتاب [ الإحياء ] كل فصل وحرف منه ، وأعاوده وأتدبره فيظهر لى منه فى كل يوم علوم وأسرار عظيمة ومفهومات غزيرة غير التى قبلها .

وَمَوْضُوعُ هٰذَا الْكِتَابِ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهِ الْمُبْتَدِي وَالْمُنْتَهِي وَالْقَوِيُّ

ومن كلامه رضى الله عنه: عليكم يا إخوانى بمتابعة الكتاب والسنة ، أعنى الشريعة المشروحة فى الكتب الغزالية خصوصا كتاب ذكر الموت ، وكتاب الفقر والزهد . وكتاب التوبة وكتاب رياضة النفس .

ومن كلامه : عليكم بملازمة كتاب [إحياء علوم الدين] فهو موضع نظر الله ، وموضع رضا الله ، فمن أحبه وطالعه وعمل بما فيه فقد استوجب محبة الله ومحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحبة ملائكة الله وأنبيائه وأوليائه ، وجمع بين الشريعة والطريقة والحقيقة فى الدنيا والآخرة وصار عالما فى الملك والملكوت :

ومن كلامه الوجيز العزيز : لو بعث الله الموتى لما أوصوا الأحياء إلا بما فى الإحياء .

ومن كلامه : اعلموا أن مطالعة الإحياء تحضر القلب الغافل فى لحظة كحضور سواد الحبر بوقوع الزاج فى العفص والماء ، وتأثير كتب الغزالى واضح ظاهر مجرب عند كل مؤمن .

ومن كلامه : أجمع العلماء العارفون بالله على أنه لا شىء أنفع للقلب وأقرب إلى رضا الرب من متابعة حجة الاسلام الغزالى ومحبة كتبه ، فإن كتب الامام الغزالى لباب الكتاب والسنة ، ولباب المعقول والمنقول ، والله وكيل على ما أقول ، ومن طالع كتاب [ إحياء علوم الدين ] فهو من المهتدين .

ومن كلامه : بخ بخ بخ لمن طالع [إحياء علوم الدين] أو كتبه أو سمعه ،وكلامه رضى الله عنه فى تصانيفه وغيرها مشحون من الثناء على الامام الغزالى وكتبه والحث على العمل بها خصوصا [ إحياء علوم الدين ] . وقال السيد الكبير العارف بالله على بن أبى بكر بن عبد الرحمن السقاف : لو قلب أوراق الإحياء كافر لأسلم ؛ ففيه سر خفي يجذب القلوب شبه المغناطيس . قال العلامة عبد القادر بن عبد الله العيدروس باعلوى قدس سره: وهذا صحيح، فإنى مع خسيس قصدى وقساوة قلبي أجد عند مطالعتى له من انبعاث الهمة وعزوف النفس عن الدنيا ما لا مزيد عليه ثم يفتر رجوعى إلى ما أنا فيه ومخالطة أهل الكثافات ، ولا أجد ذلك عند مطالعة غيره من كتب الوعظ والرقائق وما ذاك إلا لشىء أودعه الله فيه وسر مصنفه وحسن قصده ، والمراد بالكافر هنا فيما يظهر الجاهل بعيوب النفس المحجوب عن إدراك الحق : أى فبمجرد مطالعته للكتاب المذكور يشرح الله صدره وينور قلبه ، وذلك لأن الوعظ إذا صدر عن قلب متعظ كان حريا أن يتعظ به سامعه .

والحاصل أن فضائل [الإحياء] لا تحصى وفيما ذكرنا كفاية .

( وموضوع ) أى مقصود ( هذا الكتاب ) يعنى هذا المختصر المسمى « بالمنهاج » ( أن ينتفع به ) أى بهذا المختصر ( المبتدىء ) وهو الآخذ فى صغار العلم ، وإن شئت قلت : المبتدى هو من لم يقدر على تصوير المسئلة ( والمنتهى ) وهو الآخذ فى كباره ، وإن شئت قلت : هو من قدر على تصوير المسئلة وعلى إقامة الدليل عليها ( والقوى )

وَالضَّعِيفُ ، فَنَظَرْنَا فِى الْأُصُولِ الَّتِي لاَ بُدَّ مِنْ ذِكْرِهَا فِى عِلاَجِ الْقَلْبِ ، وَالْحَاجَةُ إِلَيْهَا مَاسَّةٌ وَلاَ غُنْيَةَ عَنْهَا أَلْبَتَّةَ فِى شَأْنِ الْعِبَادَةِ فَوَجَدْنَاهَا أَرْبَعَةَ أُمُورٍ : هِيَ مَدَاحِضُ الْعَابِدِينَ وَآفَاتُ الْمُجْتَهِدِينَ ؛ وَهِيَ فِتَنُ الْقُلُوبِ وَبَلِيَّاتُ النُّفُوسِ تَعُوقُ وَتَشِينُ وَتُفْسِدُ وَتُتْلِفُ ، وَأَرْبَعَةٌ فِى مُقَابَلَتِهَا فِبِهَا قِوَامُ الْعُبَّادِ وَانْتِظَامُ الْعِبَادَةِ وَصَلاَحُ الْقُلُوبِ فَالآفَاتُ الْأَرْبَعُ : الْأَمَلُ وَالِاسْتِعْجَالُ وَالْحَسَدُ وَالْكِبْرُ ، وَالْمَنَاقِبُ الْأَرْبَعُ : قِصَرُ الْأَمَلِ وَالتَّأَنِّى فِى الْأُمُورِ وَالنَّصِيحَةُ لِلْخَلْقِ وَالتَّوَاضُعُ وَالْخُشُوعُ ، فَهٰذِهِ هِيَ الْأُصُولُ فِى صَلاَحِ الْقُلُوبِ وَفَسَادِهَا ، وَالنُّكْتَةُ الَّتِي عَلَيْهَا الْمَدَارُ فَلْتَبْذُلِ الْمَجْهُودَ فِى التَّحَرُّزِ مِنْ هٰذِهِ الآفَاتِ وَالتَّحْصِيلِ لِهٰذِهِ الْمَنَاقِبِ تُكْفَ الْمُؤَنَ وَتَظْفَرْ بِالْمَقْصُودِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ هٰذِهِ الآفَاتِ بِكَلِمَاتٍ وَجِيزَةٍ مُقْنِعَةٍ .

أَمَّا طُولُ الْأَمَلِ ،

---

أى شديد الفهم ( والضعيف ) أى ضعيف الفهم ( فنظرنا فى الأصول التى لابد من ذكرها فى علاج القلب ) أى مداواته ( والحاجة ) أى لأن الحاجة ( إليها ) أى إلى معرفة هذه الأصول ( ماسة ولا غنية ) أي لابد ( عنها ألبتة ) أى قطعا ( فى شأن العبادة فوجدناها ) أى تلك الأصول ( أربعة أمور هى مداحض ) أى موضع زلل ( العابدين وآفات المجتهدين ،وهى ) أى هذه الأربعة ( فتن القلوب وبليات النفوس تعوق ) أى تمنع الأمور الأربعة عن الخير ( وتشين ) أى تعيب القلوب والنفوس ( وتفسد ) هما ( وتتلف ) هما عطف مرادف ( و ) وجدنا أيضا ( أربعة ) من الأمور ( فى مقابلتها ) أى مقابلة الأمور الأربعة المدحضة لأقدام العابدين والمجتهدين ( فبها ) أى بسبب هذه الأربعة المقابلة للأمور المدحضة ( قوام العباد وانتظام العبادة وصلاح القلوب ، فالآفات الأربع : الأمل ، والاستعجال ، والحسد ، والكبر ) وسيأتى تفصيلها ( والمناقب ) أى الفضائل ( الأربع : قصر الأمل والتأنى ) أى الترفق والتمهل والتثبت ( فى الأمور ) إلا ما استثنى منها كتزويج البكر وغيره ( والنصيحة ) أى إرادة الخير ( للخلق والتواضع والخشوع ) كلاهما بمعنى واحد ، ولذا صح عده أربعة ( فهذه هى ) أى الأمور الثمانية ( الأصول فى صلاح القلوب ) بالنسبة للمناقب الأربع ( وفسادها ) أى القلوب بالنسبة للآفات الأربع ( و ) هى ( النكتة التى عليها المدار ) أى مدار شأن العبادة ( فلتبذل المجهود ) والطاقة ( فى التحرز من هذه الآفات ) الأربع ( و ) فى ( التحصيل لهذه المناقب ) الأربع ( تكف المؤن ) جمع مؤنة بمعنى الثقل والشدة ( وتظفر ) بفتح الفاء : أى تفز ( بالمقصود إن شاء الله تعالى ، وسأخبرك عن هذه الآفات بكلمات وجيزة ) أى قصيرة ( مقنعة ) أى مكفية فنقول : ( أما طول الأمل ) اعلم أن الأمل هو توقع حصول الشئ

فَإِنَّهُ الْعائِقُ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ وَطاعَةٍ ، وَالْجالِبُ لِكُلِّ شَرٍّ وَفِتْنَةٍ ، وَإِنَّهُ الدَّاءُ الْعُضَالُ الَّذِى يُوقِعُ الْخَلْقَ فى أَنْواعِ الْبَلِيَّاتِ ،

---

وأكثر مايستعمل فيما يبعد حصوله ، فمن عزم على سفر إلى بلد بعيد يقول: أملت الوصول ولا يقول طمعت إلا إن قرب منها ، فإن الطمع ليس إلا فى التقريب والرجاء بين الأمل والطمع ، فإن الراجى قد يخاف أن لا يحصل مأموله، ويقال لما فى القلب مما ينال من الخير أمل ، ومن الخوف إيحاش ، ولما لا يكون لصاحبه ولا عليه خطر ، ومن الشر وما لا خير فيه وسواس . وقصره : حبس النفس عنه ، يقال : قصرت نفسى عن هذا الأمر : إذا لم يطمح إلى غيره ، وقصرت من طرفى : لم أرفعه إلى مكروه ( فإنه العائق ) أى المانع ( عن كل خير وطاعة ، والجالب ) أى الباعث ( لكل شر وفتنة وإنه ) أى طول الأمل ( الداء العضال ) أى الشديد الذى أعجز الأطباء ( الذى يوقع الخلق فى أنواع البليات ) والمحن .

واعلم أن طول الأمل له سببان: أحدهما: الجهل، والآخر: حب الدنيا، أما حب الدنيا فهو أنه إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها ، فامتنع قلبه عن الفكر فى الموت الذى هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه لا محالة، والانسان مشغوف بالأمانى الباطلة فيمنى نفسه أبدا بما يوافق مراده وانما يوافق مراده البقاء فى الدنيا ، فلا يزال يتوهمه ويقدره فى نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وملابس وضياع وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفا على هذا الفكر موقوفا عليه وحبسا لديه ، فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدر قربه ، فإن خطر له فى بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوّف ووعد نفسه ، وأصل هذه الأمانى كلها حب الدنيا والأنس بها والغفلة عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم «إن روح القدس نفث فى روعى: أحبب من أحببت فانك مفارقه ، وعش ما شئت فانك ميت ، واعمل ماشئت فانك مجزى به» .

وأما الجهل فهو أن الانسان قد يعول على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشرة من رجال البلد وإنما قلوا لأن الموت فى الشباب أكثر فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبى وشاب ، وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعده فجأة ولا يدرى أن ذلك غير بعيد ، وإن كان ذلك بعيدا فالمرض فجأة غير بعيد ، وكل مرض فانما يقع فجأة وإذا مرض لم يكن الموت بعيدا؛ ولو تفكر هذا الغافل وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص لعظم استشعاره واشتغل بالاستعداد له ، ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا طلباه إلى طول الأمل وإلى الغفلة من تقدير الموت القريب ، وإذا عرفت أن سبب طول الأمل الجهل وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه . أما الجهل فيدفع بالفكر الصافى من القلب الحاضر وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة ، وأما حب الدنيا فالعلاج فى إخراجه من القلب شديد ، وهو الداء العضال الذى أعيا

فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا طَالَ أَمَلُكَ هَاجَ لَكَ مِنْهُ أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ :

أَحَدُهَا : تَرْكُ الطَّاعَةِ وَالْكَسَلُ فِيهَا ، تَقُولُ : سَوْفَ أَفْعَلُ وَالْأَيَّامُ بَيْنَ يَدَيَّ وَلَا يَفُوتُنِي ذَلِكَ ، وَلَقَدْ صَدَقَ دَاوُدُ الطَّائِيُّ رَحِمَهُ اللهُ حَيْثُ قَالَ : مَنْ خَافَ الْوَعِيدَ قَرُبَ عَلَيْهِ الْبَعِيدُ ، وَمَنْ طَالَ أَمَلُهُ سَاءَ عَمَلُهُ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِيُّ ،

---

الأولين والآخرين علاجه ، ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ؛ ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا ، فان حب الخطير هو الذى يمحو عن القلب حب الحقير ، فان رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها، وإن أعطى ملك الأرض من المشرق إلي المغرب ، وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدر منغص ، فكيف يفرح بها أو يترسخ فى القلب حبها مع الإيمان بالآخرة إيمانا يقينا ، فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده ، ولا علاج فى تقدير الموت فى القلب إلا أن يفرغ قلبه عن كل فكر سواه ويجلس في خلوة ويباشر ذكر الموت صميم قلبه ولا أنفع فى ذلك مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال ، وأنهم كيف جاءهم الموت فى وقت لم يحتسبوا ، ويتذكر مرضهم وأملهم وركونهم إلى الدنيا والجاه والمال ثم يذكر مصارعهم وتحسرهم على فوات العمر وتضييعه . أما من كان مستعدا لمجيئه فقد فاز فوزا عظيما ؛ وأما من كان مغرورا بطول الأمل فقد خسر خسرانا مبينا . هذا ، وإذا علمت ما ذكر ( فاعلم أنك إذا طال أملك هاج ) أى تحرك وانبعث ( لك منه ) أى من طول الأمل (أربعة أشياء : أحدها ترك الطاعة والكسل ) بفتحتين : أى التثاقل عن الأمر ( فيها ) أى الطاعة ( تقول سوف أفعل ) كذا وكذا من الخير (والأيام بين يدى ولا يفوتنى ذلك) أى فعل الطاعة ولايدرى هذا المسكين المسوف أن الذى يدعوه إلي التسويف اليوم هو معه غدا ؛ وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخا ( ولقد صدق ) أبو سليمان ( داود ) بن نصير ( الطائى ) الكوفى ( رحمه الله ) توفى سنة ستين أو خمس وستين ومائة (حيث قال : من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن طال أمله ساء عمله) رواه أبو نعيم فى الحلية ، فقال : حدثنا إبراهيم بن عبد الله ، حدثنا محمد بن إسحاق « ح » وحدثنا أبو حامد أحمد ابن محمد بن الحسين ، حدثنا الحسين بن إسمعيل قالا : حدثنا محمد بن يحي الأزدى ، حدثنا بشر ابن مصلح ، حدثنا أبو محمد صدقة الزاهد ، قال : خرجنا مع داود الطائى فى جنازة بالكوفة قال : فقعد داود ناحية وهى تدفن فجاء الناس فقعدوا قريبا منه فتكلم فقال : من خاف الوعيد قصر عليه البعيد ، ومن طال أمله ضعف عمله ، وكل ما هو آت قريب .

واعلم يا أخى أن كل شىء يشغلك عن ربك فهو عليك مشئوم ، واعلم أن أهل الدنيا جميعا من أهل القبور إنما يندمون على ما يخلفون ويفرحون بما يقدمون ، فما ندم عليه أهل القبور أهل الدنيا عليه يقتتلون وفيه يتنافسون وعليه عند القضاة يختصمون ( وقال يحي بن معاذ الرازى

رَحِمَهُ اللهُ : الْأَمَلُ قَاطِعٌ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ ، وَالطَّمَعُ مَانِعٌ مِنْ كُلِّ حَقٍّ ، وَالصَّبْرُ صَائِرٌ إِلى كُلِّ ظَفَرٍ ، وَالنَّفْسُ دَاعِيَةٌ إِلى كُلِّ شَرٍّ .

وَالثَّانِي : تَرْكُ التَّوْبَةِ وَتَسْوِيفُها ، تَقُولُ : سَوْفَ أَتُوبُ ، وَفى الْأَيَّامِ السَّعَةُ وَأَنا شَابٌّ ، وَسِنِّى قَلِيلٌ ، والتَّوْبَةُ بَيْنَ يدَىَّ ، وَأَنا قَادِرٌ عَلَيْها مَتَى رُمْتُها ، وَرُبَّمَا اغْتالَهُ الْحِمامُ فى الْإِصْرَارِ فَاخْتَطَفَهُ الْأَجَلُ قَبْلَ إِصْلاحِ الْعَمَلِ .

وَالثَّالِثُ : الْحِرْصُ عَلَى الْجَمْعِ وَالِاشْتِغالِ بِالدُّنْيَا عَنِ الْآخِرَةِ ،

---

رحمه الله ) توفى سنة ثمان وخمسين ومائتين ، والرازى بالزاى نسبة إلى الرى مدينة من بلاد الديلم ( الأمل قاطع عن كل خير، والطمع ) بفتحتين ( مانع من كل حق ، والصبر صائر ) أى راجع ( إلى كل ظفر ) وفوز ( والنفس ) الأمارة ( داعية إلى كل شر . والثانى ) من الأمور الأربعة ( ترك التوبة ) أى ترك الرجوع عما لا يرضى الله إلى ما يرضيه مما هو محمود فى الشرع ( وتسويفها ) أى تأخيرها ( تقول سوف أتوب ، وفى الأيام سعة وأنا شاب وسنى ) أى عمرى ( قليل والتوبة بين يدى وأنا قادر عليها ) أى التوبة ( متى رمتها ) أى قصدتها وطلبتها ( و ) لا يدرى هـذا المسكين أنه ( ربما اغتاله ) أى أخذه فى غفلة . وفى المختار · غاله الشىء من باب قال ، واغتاله إذا أخـذه من حيث لم يدر ( الحمام ) بالكسر : أى قضاء الموت وقدره ( في ) حال ( الإصرار )أى الإقامة فى الذنوب ( فاختطفه ) أى استلب هذا المسوف ( الأجل ) أى مدة حلول الموت ( قبل إصلاح العمل) وذلك فى وقت لا يحتسبه ولم يكن فى باله فتطول عند ذلك حسرته . وأكثر أهل النار صياحهم من سوف يقولون واحزناه من سوف كما ورد فى الخبر . ( والثالث) من الأمور الأربعة ( الحرص) أى الرغبة المذمومة ( على الجمع ) أى جمع المال كما فى سراج السالكين ( والاشتغال بالدنيا ) أى بطلبها ( عن الآخرة ) قال أبو الليث السمرقندى رحمه الله : الحرص على وجهين : حرص مذموم وحرص غير مذموم وتركه أفضل ، فالحرص الذى هو مذموم فهو أن يشغله عن أداء أوامر الله تعالى أو تريد جمع المال للتكاثر والتفاخر . وأما الذى هو غير مذموم فهو أن لا يترك شيئا من أوامر الله تعالى لأجل المال ولا يريد به التفاخر . فهذا غير مذموم ، لأن أصحاب رسـول الله صلى الله عليه وسلم كان بعضهم يجمع المال ولم ينـكر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أن تركه أفضل . وروى عن مسروق قال . قلت لعائشة رضى الله عنها يا أماه ما أكثر ما كان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل البيت ؟ قالت : أكثر ما سمعته يقول إذا دخل البيت « لو أن لابن آدم واديين من ذهب لتمنى إليهما ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب » . وإنما جعل الله هذا المال ليقام به الصلاة ويؤتى به الزكاة . وروى عن قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « يهرم من ابن آدم

تَقُولُ : أَخَافُ الفَقْرَ فِى الْكِبَرِ وَرُبَّمَا أَضْعُفُ عَنِ الاُكْتِسَابِ . وَلاَ بُدَّ لِى مِنْ شَىْءٍ فَاضِلٍ أَدَّخِرُهُ لِمَرَضٍ أَوْ هَرَمٍ أَوْ فَقْرٍ ، هٰذَا وَنَحْوُهُ مِمَّا يُحَرِّكُ إِلَى الرَّغْبَةِ فِى الدُّنْيَا وَالْحِرْصِ عَلَيْهَا وَالاِهْتِمَامِ لِلرِّزْقِ ، تَقُولُ أَيْشْ آكُلُ وَأَيْشْ أَشْرَبُ وَأَيْشْ أَلْبَسُ ، وَهٰذَا الشِّتَاءُ وَهٰذَا الصَّيْفُ وَمَالِى شَىْءٌ وَلَعَلَّ الْعُمْرَ يَطُولُ فَأَحْتَاجَ ، وَالْحَاجَةُ مَعَ الشَّيْبِ شَدِيدَةٌ ، وَلاَ بُدَّ لِى مِنْ قُوتٍ وَغُنْيَةٍ عَنِ النَّاسِ .هٰذِهِ وَأَمْثَالُهَا تُحَرِّكُ إِلَى طَلَبِ الدُّنْيَا وَالرَّغْبَةِ فِيهَا وَالْجَمْعِ لَهَا وَالْمَنْعِ لِمَا عِنْدَكَ مِنْهَا . وَأَقَلُّ مَا فِى الْبَابِ أَنْ يَشْغَلَ قَلْبَكَ وَيُضِيعَ عَلَيْكَ عُمْرَكَ أَوْ وَقْتَكَ وَيُكْثِرَ هَمَّكَ وَغَمَّكَ بِلاَ فَائِدَةٍ وَلاَ طَائِلٍ عَلَى مَا رُوِىَ عَنْ أَبِى ذَرٍّ رَضِىَ اللّٰهُ عَنْهُ ،

---

كل شىء إلا اثنتان : الحرص والأمل » ( تقول: أخاف ) على نفسى ( الفقر فى ) حال ( الكبر ) بوزن العنب ( وربما أضعف ) أى أعجز أنا ( عن الاكتساب ولا بد لى من شىء فاضل أدخره ) أي أتخذه ذخرا ( لمرض أو هرم ) أى كبر سن ( أو فقر . هذا ) مبتدأ خبره قوله مما يحرك : أى هذا القول الذى صدر من الحريص على طلب الدنيا ( ونحوه ) أى القول المذكور ( مما يحرك إلى الرغبة فى ) طلب ( الدنيا والحرص عليها والاهتمام ) والاعتناء ( للرزق تقول أيش ) تحريف أى شىء ( آكل ) من الطعام ( وأيش أشرب ) من الماء ( وأيش ألبس ) من الملابس ، وهو بفتح الباء ( وهذا الشتاء ) أى هذا الزمان الحاضر فصل الشتاء ، وهو من رأس الجدى إلى رأس الحمل ، سمى بذلك لأن مدة حلول الشمس فيه هى زمان الشتاء ( وهذا الصيف ) وهو من رأس السرطان إلى رأس الميزان يسمى فصل الصيف ، لأن مدة حلول الشمس فيه هى زمان الصيف ، وهما فصلان من فصول السنة العربية . وهى أربعة فصول : الربيع ، والخريف وما تقدم ، وهذا فى معظم المعمور ، وأما سكان خط الاستواء ففصولهم فى السنة ثمانية كما هو مقرر فى محله ( ومالى ) أى ليس لى ( شىء ) من المأكول والمشروب والملبوس أتخذها أو أدخرها للأزمنة المذكورة ( ولعل العمر ) أى مدة حياتى ( يطول فأحتاج ) لذلك الشىء المذكور ( والحاجة مع الشيب ) أى مع الكبر ( شديدة ولا بد لى من قوة وغنية ) فى محيط المحيط : الغنية . اسم بمعنى الغنى ، وماله غنية : أى بد ( عن الناس ، هذه ) أى أقاويل الحريص فى أمر الرزق واهتمامه بقلبه فى ذلك ( وأمثالها تحرك إلى طلب الدنيا والرغبة فيها ) أى الدنيا ( والجمع لها والمنع ) عن الإنفاق ( لما عندك منها ، وأقل مافى الباب ) أى باب طول الأمل ( أن يشغل قلبك ) بما لايعنيك بل يضرك ( ويضيع عليك عمرك أو وقتك ) الذى لاعوض له إن فات ( ويكثر همك وغمك بلا فائدة ولا طائل ) أى نفع ، وذلك ( على ماروى عن أبى ذر رضى الله عنه ) اسمه جندب بضم الجيم وبضم

أَنَّهُ قالَ : قَتَلَنِي هَمُّ يَوْمٍ لَمْ أُدْرِكْهُ ، قِيلَ وَكَيْفَ ذٰلِكَ يَا أَبَا ذَرٍّ ؟ قالَ : إِنَّ أَمَلِي جَاوَزَ أَجَلِي .

---

الدال وفتحها ابن جنادة بضم الجيم، وكان أبو ذر رضيَ الله عنه من السابقين إلى الاسلام ، ثبت فى صحيح مسلم أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول الإسلام ، فقال يا رسول الله : من اتبعك على هذا ؟ قال : حر وعبد ، وأنه أقام بمكة ثلاثين بين يوم وليلة وأسلم ، ثم رجع إلى بلاد قومه بإذن النبى صلى الله عليه وسلم ثم هاجر إلى النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وصحبه حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم . روى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائتا حديث وأحد وثمانون حديثا، اتفق البخارى ومسلم منها على اثنى عشر حديثا ، وانفرد البخارى بحديثين، ومسلم بسبعة عشر . روى عنه ابن عباس رضى الله عنهما وأنس بن مالك وعبد الرحمن بن غنم وزيد بن وهب والمعرور بن سويد والأحنف بن قيس وقيس بن عباد بضم العين وتخفيف الباء وأبو الأسود الدؤلى وأبو مراح بضم الميم وبالحاء المهملة وابن أخيه عبد الله بن الصامت ويزيد بن شريك التيمي والد إبراهيم وجبير بن نفير وابن مسلم وأبو إدريس الخولانى وخرشة بن الحر وخلق سواهم . توفى أبو ذر بالربذة سنة اثنتين وثلاثين . قال المدائنى : وصلى عليه ابن مسعود ، ثم قدم ابن مسعود المدينة فأقام عشرة أيام ثم توفى . وكان أبو ذر طويلا عظيما وكان زاهدا متقللا من الدنيا ، وكان مذهبه أنه يحرم على الانسان ادخار مازاد على حاجته، وكان قوالا بالحق ، كذا فى سراج السالكين ، ووصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عدة أحاديث بأنه أصدق الناس لهجة : أى كلاما، وفى رواية « ماأظلت الخضراء : أى السماء ، ولا أقلت الغبراء: أى حملت الأرض أصدق لهجة من أبى ذر » وهو أول من حيا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحية الاسلام ، وهى قوله : السلام عليكم . وقال على كرم الله وجهه فى حقه : وعاء ملئ علما ، ثم أوكئ عليه : أى غطى فلم يخرج منه شيء حتى قبض، وهذا كناية عن عدم نسيان شيء منه، أفاده فى شرح الأربعين وغيره ( أنه قال قتلنى هم يوم لم أدركه ) أى اليوم ( قيل : وكيف ذلك ) أى قتلك هم اليوم . (يا أباذر؟ قال إن أملى جاوز أجلى) أى مدة حلول موتى،ولقد صدق رضى الله عنه فى قوله إن الأمل جاوز الأجل ، فقد روى عن ابن مسعود رضي الله عنه قال « خط النبى صلى الله عليه وسلم خطا مربعا ، وخط خطا فى الوسط ، وخط خطا خارجا ، وخط خطوطا صغارا إلى هذا الذى فى الوسط من حواليه فقال هذ الانسان .



الخط وقد حال الأجل بينه وبين أمله ، وهذه الخطوط الصغار الأمراض . فإن أخطأه هذا نهشه هذا ، وان أخطأه هذا نهشه هذا ، وإن أخطأته كلها أصابه الهرم » وقال أنس رضى الله عنه

وَالرَّابِعُ : القَسْوَةُ بِالْقَلْبِ وَالنِّسْيَانُ لِلآخِرَةِ ، لِأَنَّكَ إِذَا أَمَّلْتَ العَيْشَ الطويلَ لاَ تَذْكُرُ المَوْتَ وَالقَبْرَ ، كما قالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ :

---

«خط النبي صلى الله عليه وسلم خطوطا ، فقال: هذا الانسان ، وهذا الأمل ، وهذا الأجل ، فبينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب وهو أجله المحيط به » وهذا تنبيه منه صلى الله عليه وسلم على تقصير الأمل واستشعار الأجل خوف بغتته ومن غيب عنه أجله فهو حرى بتوقعه وانتظاره خشية هجومه عليه فى حال غرة وغفلة ، فينبغى للعاقل أن يجاهد أمله وهواه فإن ابن آدم مجبول على الأمل وورد أنه صلى الله عليه وسلم قال « لايزال قلب الكبير شابا فى حب الدنيا وطول الأمل » وقال ابن عمر: رآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أصلح خصا: أى بيتا من القصب، فقال: « ماهذا ؟ قلت: خص لنا نصلحه ، فقال ماأرى الأمر إلا أقرب من ذلك » فعلم أن قصر الأمل أصل كل خير وطوله أصل كل شر ، فإن من لايقدر فى نفسه أنه يعيش غدا لايسعى لكفايته ولا يهتم بها فيصير حرا من رق الحرص والطمع والذل لأبناء الدنيا ، ومن يقدر أنه يعيش عشر سنين مثلا يصير عبدا لهذه الأوصاف الذميمة ولا يكفيه شىء من الدنيا ، ولا يملأ عينه وبطنه إلا التراب كما جاء فى الحديث ( والرابع ) هذا آخر الأمور الأربعة ( القسوة بالقلب ) لأنه يقال قسوة القلب من أربعة أشياء : أولها بطن ممتلىء . والثانى صحبة صاحب السوء . والثالث نسيان الذنوب الماضية . والرابع طول الأمل فينبغى للمسلم أن يقصر أمله فانه لايدرى فى أى نفس يموت ، وفى أى قدم يموت . قال الله تعالى « وماتدرى نفس بأى أرض تموت » ،

قال بعض المفسرين : بأى قدم يموت ، وفى آية أخرى « إنك ميت وإنهم ميتون » . وقال تعالى « فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون » كما نبه عليه العلامة أبو الليث السمرقندى ( والنسيان للآخرة ، لأنك إذا أملت العيش ) أى الحياة ( الطويل لاتذكر الموت والقبر كما قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه ) ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشى الهاشمى المكى المدنى الكوفى أمير المؤمنين ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكناه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا تراب فكان أحب ما ينادى به إليه ، وهو أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمؤاخاة وصهره على فاطمة سيدة نساء العالمين وأبو السبطين وأول هاشمى ولد بين هاشميين وأول خليفة من بنى هاشم ، وهو أحد العشرة الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، وأحد الخلفاء الراشدين ، وأحد العلماء الربانيين والشجعان المشهورين والزهاد المذكورين وأحد السابقين إلى الإسلام : أى من الصبيان . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسمائة حديث وستة وثمانين حديثا ، اتفق البخارى ومسلم منها على عشرين ، وانفرد البخارى بتسعة ، ومسلم بخمسة عشر ، توفى بالكوفة ليلة الأحد التاسع عشر من شهر رمضان سنة أربعين ، كذا فى سراج السالكين ، وذكر العلامة ابن حجر فى الصواعق المحرقة أن سبب وفاته رضى الله عنه أنه لما

طال النزاع بينه وبين معاوية رضي الله عنها انتدب ثلاثة نفر من الخوارج عبد الرحمن بن ملجم المرادى والبرك وعمرو التميميين فاجتمعوا بمكة وتعاهدوا وتعاقدوا ليقتلن هؤلاء الثلاثة : عليا ومعاوية وعمرو بن العاصى ويريحوا العباد منهم ، فقال ابن ملجم : أنا لكم بعلىّ ، وقال البرك : أنا لكم بمعاوية ، وقال عمرو أنا لكم بعمرو بن العاصى وتعاهدوا على أن ذلك ليلة حادى عشر أو ليلة سابع عشر رمضان ثم توجه كل منهم إلى مصر صاحبه ، فقدم ابن ملجم الكوفة فلقى أصحابه من الخوارج فكاتمهم ما يريد وواقفه منهم شبيب بن عجرة الأشجعى وغيره ، فلما كانت ليلة الجمعة سابع عشر رمضان سنة أربعين استيقظ علىّ سحرا وقال لابنه الحسن : رأيت الليلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت يارسول الله ما لقيت من أمتك خيرا ؟ فقال ادع الله عليهم ، فقلت اللهم أبدلنى بهم خيرا لى منهم ، وأبدلهم بى شرّا لهم منى وأقبل عليه الأوز يصحن في وجهه فطردوهن ، فقال دعوهنّ فإنهنّ نوائح ، ودخل عليه المؤذن فقال الصلاة ، فخرج على الباب ينادى : أيها الناس الصلاة الصلاة ، فشد علية شبيب فضربه بالسيف فوقع سيفه بالباب وضربه ابن ملجم بسيفه فأصاب جبهته إلى قرنه ووصل دماغه وهرب ، فشبيب دخل منزله فدخل عليه رجل من بنى أمية فقتله ، وأما ابن ملجم فشد عليه الناس من كل جانب فلقيه رجل من همدان فطرح عليه قطيفة ثم صرعه وأخذ السيف منه وجاء به إلى على ، فنظر إليه وقال النفس بالنفس إذا مامت فاقتلوه كما قتلنى وإن سلمت رأيت فيه رأيى ، وفى رواية والجروح ، فأمسك وأوثق وأقام على الجمعة والسبت ، وتوفي ليلة الأحد وغسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر ، ومحمد بن الحنفية يصب الماء ، وكفن فى ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ، وصلى عليه الحسن وكبر عليه سبعا ، ودفن بدار الإمارة بالكوفة ليلا أو بالقرى موضع يزار الآن أو بين منزله والجامع الأعظم أقوال ، ثم قطعت أطراف ابن ملجم ، وجعل فى قوصرة وأحرقوه بالنار . وقيل : بل أمر الحسن بضرب عنقه ثم حرقت جيفته أم الهيثم بنت الأسود النخعية ، وكان على فى شهر رمضان الذى قتل فيه يفطر ليلة عند الحسن ، وليلة عند الحسين ، وليلة عند عبد الله بن جعفر ولا يزيد على ثلاث لقم ويقول : أحب أن ألقى الله وأنا خميص ، فلما كانت الليلة التى قتل فى صبيحتها أكثر الخروج والنظر إلى السماء . وجعل يقول : والله ما كذبت ولا كذبت وإنها الليلة التى وعدت ، فلما خرج وقت السحر ضربه ابن ملجم الضربة الموعود بها فى الحديث الذى أخرجه أحمد والحاكم بسند صحيح عن عمار بن ياسر « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلى أشقى الناس رجلان أحيمر ثمود الذى عقر الناقة والذى يضربك ياعلى على هذه : يعنى قرنه حتى يبل منه هـذه » : يعنى لحيته ، وقد ورد ذلك من حديث على وصهيب وجابر بن سمرة وغيرهم . وأخرج أبو يعلى عن عائشة قالت « رأيت النبى صلى الله عليه وسلم التزم عليا وقبله وهويقول بأبى الوحيدالشهيد » .وروى الطبرانى وأبو يعلى بسند رجاله ثقات إلا واحدا منهم فإنه موثق أيضا أنه صلي الله عليه وسلم قال له يوما من أشقى الأولين ؟ قال الذي عقر الناقة يارسول الله . قال : صدقت . قال فمن أشقي الآخرين ؟ قال لاعلم لى يارسول الله . قال «الذى يضربك على هذه» وأشار صلى الله عليه وسلم إلي يافوخه

« إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَتَانِ : طُولُ الْأَمَلِ ، وَاتِّبَاعُ الْهَوَى » أَلاَ وَإِنَّ طُولَ الْأَمَلِ يُنْسِي الْآخِرَةَ ، وَاتِّبَاعُ الْهَوَى يَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ ،

---

فكان على رضى الله عنه يقول لأهل العراق : أى عند تضجره منهم : وددت أنه قد انبعث أشقاكم فخضب هذه : يعنى لحيته من هذه ووضع يده على مقدم رأسه ، وصح أيضا أن ابن سلام قال له لاتقدم العراق فإنى أخشى أن يصيبك بها ذباب السيف ، فقال على وايم الله لقد أخبرنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أبو الأسود : فما رأيت كاليوم قط محارب يخبر بذا عن نفسه ، وعمى أى أخفى قبر علي لئلا ينبشه الخوارج . وقال شريك : نقله ابنه الحسن إلى المدينة . وأخرج ابن عساكر أنه لما قتل حملوه ليدفنوه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينماهم فى مسيرهم ليلا إذ ندّ الجمل الذى عليه فلم يدر أين ذهب ولم يقدر عليه ، فلذلك يقول أهل العراق هو فى السحاب وقال غيره : إن البعير وقع في بلاد طيء فأخذوه ودفنوه ، وكان لعلي حين قتل ثلاث وستون سنة . وقيل أربع وستون ، وقيل خمس وستون ، وقيل سبع وخمسون ، وقيل ثمان وخمسون وسئل وهو على المنبر بالكوفة عن قوله تعالى « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » فقال : اللهم غفرا هذه الآية نزلت فىّ وفى عمي حمزة وفى ابن عمى عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، فأما عبيدة فقضى نحبه شهيدا يوم بدر ، وحمزة قضى نحبه شهيدا يوم أحد . وأما أنا فأنتظر أشقاها يخضب هذه من هذه ، وأشار بيده إلى لحيته ورأسه ، عهد عهده إلىّ حبيبى أبو القاسم صلى الله عليه وسلم . ولما أصيب دعا الحسن والحسين رضى الله عنهم ، فقال لهما : أوصيكما بتقوى الله ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تبكيا علي شيء زوى منها عنكما ، وقولا الحق وارحما اليتيم وأعينا الضعيف واصنعا للآخرة ، وكونا للظالم خصما وللمظلوم أنصارا ، واعملا لله ولا تأخذكما فى الله لومة لائم ، ثم نظر إلى ولده محمد ابن الحنفية ، فقال له : هل حفظت ماأوصيت به أخويك ؟ قال : نعم ، فقال أوصيك بمثله وأوصيك بتوقير أخويك لعظم حقهما عليك ولا تواثق أمرا دونهما ، ثم قال : أوصيكما به ، فإنه أخوكما وابن أبيكما وقد علمتما أن أباكما كان يحبه ، ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله إلى أن قبض ، كرم الله وجهه .

وبالجملة إن فضائله كثيرة عظيمة حتى قال أحمد : ما جاء لأحد من الفضائل ماجاء لعلى . وقال اسمعيل القاضى والنسائى وأبو على النيسابورى لم يرد فى حق أحد من الصحابة بالأسانيد الحسان أكثر ما جاء فى على رضى الله عنه ( إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان : طول الأمل ، واتباع الهوى ، ألا ) أداة تنبيه (وإن طول الأمل ينسى الآخرة ، واتباع الهوى يصد) أى يمنع (عن الحق) أى عن قبوله ، ثم قال : ألا وإن الدنيا قد ولت فذاء فلم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء اصطبها صاحبها ، ألا وإن الآخرة قد أقبلت ولكل منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن كل ولد سيلحق بأمه يوم القيامة ، وإنما اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب

فَإِذَنْ يَصِيرُ فِكْرُكَ وَمُعْظَمُ أَمْرِكَ فِى حَدِيثِ الدُّنْيَا وَأَسْبَابِ الْعَيْشِ وَفِى صُحْبَةِ الْخَلْقِ وَنَحْوِها ، فَيَقْسُو الْقَلْبُ مِنْ ذٰلِكَ ، وَإِنَّمَا رِقَّةُ الْقَلْبِ وَصَفْوَتُهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ ،

---

ولا عمل ، هكذا بطوله ذكره الشريف الموسوى فى نهج البلاغة ، ورواه الحاكم فى التاريخ والديلمى من حديث جابر بلفظ « إن أخوف ما أخاف على أمتى الهوى وطول الأمل ، فأما الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة ، وهذه الدنيا مرتحلة ذاهبة ، وهذه الآخرة مقبلة صادقة ولكل واحدة منهما بنون ، فان استطعتم أن تكونوا من بنى الآخرة ولا تكونوا من بنى الدنيا فافعلوا ، فإنكم اليوم فى دار عمل ولا حساب ، وأنتم غدا فى دار حساب ولا عمل» وروى ابن النجار من حديث على « إن أشد ما أتخوف عليكم خصلتان : اتباع الهوى ، وطول الأمل . فأما اتباع الهوى فإنه يعدل عن الحق ، وأما طول الأمل فالحب للدنيا » . قال العراقى : روى ابن أبى الدنيا فى كتاب [ قصر الأمل ] « إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان : اتباع الهوى وطول الأمل . فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق ، وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا ثم قال : ألا إن الله تعالي يعطى الدنيا من يحب ويبغض ، وإذا أحب عبدا أعطاه الإيمان : ألا إن للدين أبناء وللدنيا أبناء ، فكونوا من أبناء الدين ولاتكونوا من أبناء الدنيا ، ألا إن الدنيا قد ارتحلت مولية ، ألا إن الآخرة قد ارتحلت مقبلة ، ألا وإنكم فى يوم عمل ليس فيه حساب ، ألا وإنكم توشكون فى يوم حساب ليس فيه عمل » ورواه أيضا من حديث جابر بنحوه وكلاهما ضعيف وروى ابن عدى من حديث جابر « أخوف ما أخوف على أمتى الهوى وطول الأمل » . ورواه ابن النجار من حديثه بلفظ « أخوف ما أخاف عليكم طول الأمل واتباع الهوى ، فأما اتباع الهوى فيضل عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة ، ألا وإن الدنيا قد ترحلت مدبرة والآخرة قد ترحلت مقبلة ولكل بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل » قال العقيلى : فيه يحى بن مسلمة بن قعنب حدث بالمناكير . وقد رواه ابن عساكر فى التاريخ من حديث على موقوفا (فإذن) أى إن كنت لاتذكر الموت والقبر ( يصير فكرك ومعظم أمرك فى حديث الدنيا وأسباب العيش ، و ) يصير معظم فكرك وأمرك أيضا ( فى صحبة الخلق ونحوها ) من أمور الدنيا ( فيقسو القلب من ذلك ) أى من اشتغال فكرك وقصدك فى أمر الدنيا وغيره ( وإنما رقة القلب وصفوته بذكر الموت ) والأخبار التى تدل على فضيلة ذكره كثيرة منها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثروا من ذكر هاذم اللذات » معناه : نغصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى . قال العراقى . رواه الترمذى من حديث أبى هريرة . وقال صلى الله عليه وسلم « لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينا » . قال العراقى : رواه البيهقى فى الشعب . وقالت عائشة رضى الله عنها : « قلت يارسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال نعم من يذكر الموت فى اليوم والليلة عشرين مرة » قال الزبيدى . رواه الطبرانى فى الأوسط . وقال أنس رضى الله عنه :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثروا من ذكر الموت فإنه يمحص الذنوب ويزهد فى الدنيا فإن ذكرتموه عند الغنى هدمه ، وإن ذكرتموه عند الفقر أرضاكم بعيشكم » . قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا فى الموت . قال حجة الإسلام الغزالى : وإنما سبب هذه الفضيلة كلها أن ذكر الموت يوجب التجافى عن دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للآخرة ، والغفلة عن الموت تدعو إلى الانهماك فى شهوات الدنيا . ومنها « أنه ذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فأحسنوا الثناء عليه ، فقال كيف ذكر صاحبكم للموت ؟ قالوا : ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت ، قال فإن صاحبكم ليس هنالك » . قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا من حديث أنس ؛ وقال ابن عمر رضى الله عنهما « أتيت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة ، فقال رجل من الأنصار : من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله ؟ فقال أكثرهم ذكرا للموت وأشدهم استعدادا له أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة » . قال العراقى: رواه ابن ماجه بسند جيد .

ومن الآثار التى يناسب إيرادها فى فضل ذكر الموت والاستعداد له ما قال بعضهم فى قوله تعالى « ولا تنس نصيبك من الدنيا » هو الكفن ، فهو وعظ متصل بما تقدم من قوله «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة » : أى اطلب فيما أعطاك الله من الدنيا بصرفها فيما يوصل إليها ولا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك الذى هو الكفن كما قيل :

نصيبك مما تجمع الدهر كله    رداءان تلوى فيهما وحنوط

وقال حامد اللفاف : من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب ونشاط العبادة ، ومن نسى الموت عوقب بثلاثة أشياء : تسويف التوبة ، وترك الرضا بالكفاف ، والتكاسل بالعبادة . وقال بعضهم : لا يدخل ذكر الموت بيتا إلا رضى أهله بما قسم لهم . قال أبو نواس :

ألا أين الذين فنوا وماتوا    أما والله ما ماتوا لتبقى

وقال أبو حمزة الخراسانى : من أكثر ذكر الموت حبب إليه كل باق وبغض إليه كل فان ؟ وروى ابن أبى الدنيا عن رجاء بن حيوة قال «ما أكثر عبد ذكر الموت إلا ترك الفرح والحسد» وروى ابن أبى شيبة فى المصنف وأحمد فى الزهد عن أبى الدرداء قال «من أكثر ذكر الموت قل حسده وقل فرحه » . وروى ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت « أن صفية بنت شيبة رضى الله عنها قالت إن امرأة اشتكت إلى عائشة رضى الله عنها قساوة قلبها ، فقالت أكثرى ذكر الموت يرق قلبك ففعلت فرق قلبها فجاءت تشكر عائشة » . وقال الحسن البصرى رحمه الله : فضح الموت الدنيا فلم يترك لذى لب فرحا ، وروى أبو نعيم فى الحلية عن أبى عمران قال : قال عمر بن عبد العزيز: من قرب الموت من قلبه استكثر مافى يديه ، وروى عن القداح قال : كان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير ويبكى حتى تجرى دموعه على لحيته . وعن عبد الوهاب عن عطاء عن سعيد قال : كان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت اضطربت أوصاله . وعن عمر بن ذر

قال ، قال عمر بن عبد العزيز : ما أحب أن يهون على الموت لأنه آخر ما يؤجر عليه المؤمن . وعن الأوزاعي قال : قال عمر فذكر نحوه . وروى عن جابر بن نوح قال : كتب عمر بن العزيز إلى بعض أهل بيته : أما بعد فإنك إن استشعرت ذكر الموت فى ليلك ونهارك بغض إليك كل فان ، وحبب إليك كل باق والسلام ، وروى عن مجمع التيمى قال : ذكر الموت غنى . وعن سميط قال : من جعل الموت نصب عينيه لم يبال بضيق الدنيا ولا بسعتها ، وروى ابن أبى الدنيا عن الحسن قال : ماألزم عبد قلبه ذكر الموت إلا صغرت الدنيا عنده وهان عليه جميع ما فيها . وعن قتادة قال : كان يقال طوبى لمن ذكر ساعة الموت . وعن مالك بن دينار قال : قال حكيم : كفى بذكر الموت للقلوب حياة للعمل : وعن أبى حازم قال : يا ابن آدم بعد الموت يأتيك الخبر . ويروى عن على رضى الله عنه قال « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » . وقد نظم هذا المعنى الحافظ العراقى فقال :

وإنما الناس نيام من يمت    منهم أزال الموت عنه وسنه

وروى أبو نعيم فى الحلية : أن عمر بن عبد العزيز قال لميمون بن مهران يا ميمون ما أرى القبر إلا زيارة ، ولا بد للزائر أن يرجع إلى منزله : يعنى إلى الجنة أو النار . وعن رجاء بن حيوة قال : ذكر عمر بن عبد العزيز الموت يوما فقال يتمثل :

ألم تر أن الموت أدرك من مضى    فلم ينج منه ذو جناح ولا ظفر

اعلم أن أوقع طريق في تحقيق ذكر الموت فى القلب كما قاله حجة الإسلام الغزالى وغيره أن يكثر العبد ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله ، فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ، ويتذكر صورهم الجميلة فى مناصبهم وأحوالهم التى كانوا يتقلبون فيها ، ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم ، وكيف تبددت أجزاؤهم فى قبورهم ، وكيف أرملوا نساءهم ، وأيتموا أولادهم ، وضيعوا أموالهم ، وخلت عنهم مساجدهم ومدارسهم ومجالسهم ، وانقطعت آثارهم ، فمهما تذكر رجلا وفصل فى قلبه حاله وكيفية موته ، وتوهم صورته ، وتذكر نشاطه ، وتردده ، وأمله للعيش والبقاء ، ونسيانه للموت ، وانخداعه بموافقة الأسباب ، وركونه إلى القوة والثبات ، وميله إلى الضحك واللهو ، وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع ، وأنه كيف يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله ، وكيف كان ينطق والآن قد أكل الدود لسانه ، وكيف كان يضحك والآن قد أكل التراب أسنانه ، وأنه كيف كان يدبر لنفسه مالا يحتاج إلى عشر سنين فى وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر وهو غافل عما يراد به حتى جاءه الموت فى وقت لم يحتسبه فانكشفت له صورة الملك القابض للروح وهو عزرائيل عليه السلام وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار كما يشير اليه ما أخرجه الطبرانى فى الكبير عن عبد الله بن عمرو « إذا توفى الله المؤمن أتته الملائكة بحريرة بيضاء ، فيقولون اخرجى إلى روح الله ، فتخرج كأطيب ريح المسك ، وأما الكافر فتأتيه ملائكة العذاب بمسح ، فيقولون اخرجى إلى غضب الله فتخرج كأنتن جيفة ، فعند ذلك ينظر العبد أنه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كعاقبتهم » . قال أبو الدرداء رضى الله عنه : إذا ذكرت الموت فعد نفسك كأحدهم . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : السعيد من وعظ بغيره .

والقبر ،

---

وقال عمر بن عبد العزيز فى خطبته : ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غاديا أو رائحا إلى الله عز وجل تضعونه فى صدع : أى شق من الأرض قد توسد التراب وخاف الأحباب وقطع الأسباب أخرجه أبو نعيم فى الحلية ، فملازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى وأهل البلاء هو الذى يجدد ذكر الموت فى القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه ، فعند ذلك يوشك أن يستعد له ويتجافى عن دار الغرور ، وإلا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى والفائدة فى التحذير والتنبيه ، ومهما طاب قلبه بشىء من الدنيا ينبغى أن يتذكر فى الحال أنه لابد من مفارقته . نظر عبد الله بن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها ثم بكى ، فقال والله لولا الموت لكنت بك مسرورا ولولا مانصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا ، ثم بكى بكاء شديدا حتى ارتفع صوته . رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت ، ولذلك ينبغى للمؤمن كما قاله العلامة أبو الليث رحمه الله أن يكثر ذكر الموت فإنه لاغنية للمؤمن من ست خصال : أولها علم يدله على الآخرة . والثانى رفيق يعينه على طاعة الله ويمنعه عن معصيته . والثالث معرفة عدوه والحذر منه . والرابع عبرة يعتبر بها فى آيات الله وفى اختلاف الليل . والخامس إنصاف الخلق كيلا يكون يوم القيامة خصم . والسادس الاستعداد للموت قبل نزوله لكيلا يكون مفتضحا يوم القيامة (و) ذكر ( القبر ) . قال سفيان الثورى رحمه الله : من أكثر من ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة ، ومن غفل عنه وجده حفرة من حفر النار ، وروى عن على كرم الله وجهه أنه قال فى خطبته : يا عباد الله الموت الموت ليس منه فوت إن أقمتم له أخذكم ، وإن فررتم منه أدرككم ، الموت معقود بنواصيكم ، فالنجاة النجاة الوحا الوحا ، فإن وراءكم طالبا حثيثا : وهو القبر ، ألا وإن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ، ألا وإنه يتكلم فى كل يوم ثلاث مرات فيقول : أنا بيت الظلمة ، أنا بيت الوحشة ، أنا بيت الديدان ، ألا وإن وراء ذلك اليوم يوما أشد من ذلك اليوم ، يوما يشيب فيه الصغير ، ويسكر فيه الكبير ، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ألا وإن وراء ذلك اليوم نارا حرها شديد ، وقعرها بعيد ، وحليها حديد ، وماؤها صديد ، ليس لله فيها رحمة . قال الراوى : فبكى المسلمون بكاء شديدا ، فقال كرم الله وجهه : وإن وراء ذلك اليوم جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، أجارنا الله وإياكم من العذاب الأليم ، وأحلنا وإياكم دار النعيم . وروى عن أسيد بن عبد الرحمن أنه قال : بلغنى أن المؤمن إذا مات فحمل قال أسرعوا بى ، فاذا وضع فى لحده كلمته الأرض وقالت إنى كنت أحبك وأنت على ظهرى فأنت الآن أحب إلى ، وإذا مات الكافر فحمل قال أرجعوا بى ، فإذا وضع فى لحده كلمته الأرض فقالت إنى كنت أبغضك وأنت على ظهرى ، فأنت الآن أبغض إلى . وروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه وقف على قبر فبكى فقيل له إنك تذكر الجنة والنار ولا تبكى وتبكى من هذا فقال

وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَأَحْوَالِ الآخِرَةِ ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَمِنْ أَيْنَ يَكُونُ لِقَلْبِكَ رِقَّةٌ وَصَفْوَةٌ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ( فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ) فَإِذَنْ أَنْتَ إِذَا طَوَّلْتَ أَمَلَكَ قَلَّتْ طَاعَتُكَ وَتَأَخَّرَتْ تَوْبَتُكَ وَكَثُرَتْ مَعْصِيَتُكَ وَاشْتَدَّ حِرْصُكَ وَقَسَا قَلْبُكَ وَعَظُمَتْ غَفْلَتُكَ عَنِ الْعَاقِبَةِ فَذَهَبَتْ ـ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ إِنْ لَمْ يَرْحَمِ اللهُ تَعَالَى ـ آخِرَتُكَ ، فَأَيُّ حَالٍ أَسْوَأُ مِنْ هٰذِهِ ؟ وَأَيُّ آفَةٍ أَعْظَمُ مِنْ هٰذِهِ ؟ وَكُلُّ هٰذَا بِسَبَبِ طُولِ الْأَمَلِ ؛ وَأَمَّا إِنْ قَصَّرْتَ أَمَلَكَ وَقَرَّبْتَ مِنْ نَفْسِكَ مَوْتَكَ وَتَذَكَّرْتَ حَالَ أَقْرَانِكَ وَإِخْوَانِكَ الَّذِينَ غَافَصَهُمُ الْمَوْتُ فِي وَقْتٍ لَمْ يَحْتَسِبُوهُ ،

---

فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فان نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه » ويقال : إن الأرض تنادى كل يوم خمس مرات: أول نداء تقول : يا ابن آدم تمشى على ظهرى ومصيرك إلى بطنى . والثاني تقول : يا ابن آدم تأكل الألوان على ظهرى وتأكلك الديدان فى بطنى . والثالث تقول : يا ابن آدم تضحك على ظهرى فسوف تبكي فى بطنى . والرابع تقول: يا ابن آدم تفرح على ظهرى فسوف تحزن فى بطنى . والخامس تقول : يا ابن آدم تذنب على ظهرى فسوف تعذب فى بطنى ، فينبغى للعاقل أن يكثر من ذكر القبر قبل أن يدخله (و) ذكر ( الثواب ) فى الجنة بأنواع نعيمها (و) ذكر (العقاب) فى النار (و) ذكر ( أحوال الآخرة ) وشدائدها ، وقد أشبع الكلام على ذلك حجة الإسلام الغزالى فى الإحياء فانظره فانه مهم ( وإذا لم يكن شيء من ذلك ) أى من ذكر الموت والقبر والثواب والعقاب وأحوال الآخرة وأهوالها ( فمن أين يكون لقلبك رقة وصفوة . قال الله تعالى «فطال عليهم الأمد) أى الزمان بطول أعمارهم وآمالهم، أو ما بينهم وبين أنبيائهم ( فقست قلوبهم ) وكثير منهم فاسقون» : أى خارجون عن دينهم رافضون لما فى كتبهم من أجل فرط القسوة (فإذن) أى حين إذ علمت قوله تعالى (أنت إذا طولت أملك) بطول العمر (قلت طاعتك وتأخرت توبتك وكثرت معصيتك واشتد حرصك) وطمعك بطلب الدنيا وجمعها ( وقسا قلبك وعظمت غفلتك عن العاقبة ) أى آخر أمرك (ـ فذهب والعياذ بالله إن لم يرحم الله تعالى ) جملة معترضة بين الفعل وفاعله ( آخرتك ـ فأى حال أسوأ ) أى أكثر سوءا ( من هذه ) أى قسوة القلوب وعظم غفلتها عن العاقبة ( وأى آفة أعظم من هذه ) البليات المذكورة ( وكل هذا ) أى أسوأ الحالات وأعظم الآفات ( بسبب طول الأمل ؛ وأما إن قصرت أملك وقربت من نفسك موتك وتذكرت ) فى قلبك ( حال أقرانك ) أى أصحابك وإخوانك وأقاربك ( الذين غافصهم ) أى فاجأهم ( الموت ) فى سراج السالكين غافصه مغافصة : فاجأه وأخذه على غرة منه (فى وقت لم يحتسبوه) أى الموت

وَلَعَلَّ حَالَكَ مِثْلُ حَالِهِمْ ، فَاحْذَرِي يَا نَفْسِي الْغُرُورَ ، وَاذْكُرِى مَا قَالَ عَوْفُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رَحِمَهُ اللهُ : كَمْ مِنْ مُسْتَقْبِلٍ يَوْمًا لَمْ يَسْتَكْمِلْهُ ، وَمُنْتَظِرٍ غَدًا لَمْ يُدْرِكْهُ ، لَوْ رَأَيْتَ الْأَجَلَ وَمَسِيرَهُ لَأَبْغَضْتَ الْأَمَلَ وَغُرُورَهُ ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ « اَلدُّنْيَا ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ : أَمْسِ مَضَى مَابِيَدِكَ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَغَدًا لَاتَدْرِى أَتُدْرِكُهُ أَمْ لَا ؟ وَيَوْمٌ أَنْتَ فِيهِ فَاغْتَنِمْهُ »

---

فى ذلك الوقت ( ولعل حالك مثل حالهم ؛ فاحذرى يانفسي الغرور ) أى السكون إلى ما يوافق الهوي. قال فى التعريفات : الغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع : أى عن شبهة وخدعة من الشيطان . والغرور : الدنيا وتوصف به فيقال : دنيا غرور ، وما يتغرغر به من الأدوية وماغرك ، أو يخص بالشيطان (واذكرى ما قال عوف) صوابه كما فى سراج السالكين عون ( بن عبد الله ) الراوي عن ابن مسعود ( رحمه الله ) هو عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي الكوفى أخو عبيد الله بن عبد الله أحد الفقهاء السبعة ، سمع ابن عمر وأبا هريرة ويوسف ابن عبد الله بن سلام وعائشة رضى الله عنهم ، وسمع من التابعين أخاه وأبا هريرة وغيرهما . روى عن ابن مسعود وابن عباس مرسلا لم يسمعهما . وروى عنـه الزهرى وأبو الزبير وأبو إسحاق الشيبانى ومحمد بن عجلان وآخرون من التابعين . قال يحي بن معين وغيره ثقة . روى له مسلم مات قبل سنة عشرين ومائة (كم من مستقبل يوما ) من الأيام ( لم يستكمله ) أى اليوم لمفاجأة الموت فى أثنائه( و ) كم ( منتظرغدا لم يدركه، لو رأيت الأجل) أى وقت حلول الموت ( ومسيره ) أى الأجل ( لأبغضت الأمل وغروره ) رواه ابن أبي شيبة عن عون بن عبد الله قال : « ما أحد ينزل الموت حق منزلته إلاعبدا عدّ غدا ليس من أجله ، كم من مستقبل يوما لايستكمله، وراج غدا لا يبلغه، إنك لو ترى الأجل ومسيره لأبغضت الأمل وغروره» هكذا نقله الزبيدى (أما سمعت قول عيسي ابن مريم عليه السلام : الدنيا ثلاثة أيام ) أحدها ( أمس مضى ما بيدك منـه ) أى ليس بيدك من اليوم الماضى ( شيء ، و ) ثانيها ( غد لا تدرى أتدركه أم لا . و ) ثالثها ( يوم أنت فيه فاغتنمه ) أى اغتنم اليوم الذى أنت فيه بالعمل الصالح ، فان الموت قد يطرأ عليك فيمنعك منه فترحل بغير زاد ، ولله در القائل :

تأهب للذى لابد منـه    فان الموت ميقات العباد
أترضى أن تـكون رفيق قوم    لهم زاد وأنت بغير زاد

وذلك لأن من مات انقطع عمله وفات أمله وحق ندمه وتوالى حزنه وهمه فاستسلف لك منك . واعلم أنه سيأتي عليك زمان طويل وأنت تحت الأرض لا يمكنك أن تذكر الله عز وجل ، فبادر

ثُمَّ قَوْلَ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : اَلدُّنْيَا ثَلاَثُ سَاعَاتٍ : سَاعَةٌ مَضَتْ ، وَسَاعَةٌ أَنْتَ فِيهَا ، وَسَاعَةٌ لاَ تَدْرِي أَتُدْرِكُهَا أَمْ لاَ ؛ فَلَسْتَ تَمْلِكُ بِالْحَقِيقَةِ إِلاَّ سَاعَةً وَاحِدَةً ، إِذِ الْمَوْتُ مِنْ سَاعَةٍ إِلَى سَاعَةٍ ، ثُمَّ قَوْلَ شَيْخِنَا رَحِمَهُ اللهُ : اَلدُّنْيَا ثَلاَثَةُ أَنْفَاسٍ : نَفَسٌ مَضَى عَمِلْتَ فِيهِ مَا عَمِلْتَ ، وَنَفَسٌ أَنْتَ فِيهِ ، وَنَفَسٌ لاَ تَدْرِي أَتُدْرِكُهُ أَمْ لاَ ؛ إِذْ كَمْ مِنْ مُتَنَفِّسٍ نَفَساً فَفَاجَأَهُ الْمَوْتُ قَبْلَ النَّفَسِ الآخَرِ فَلَسْتَ تَمْلِكُ إِلاَّ نَفَساً وَاحِدًا بِالْحَقِيقَةِ لاَ يَوْمًا وَلاَ سَاعَةً ، فَبَادِرْ فِي هٰذَا النَّفَسِ الْوَاحِدِ إِلَى الطَّاعَةِ قَبْلَ أَنْ يَفُوتَ وَإِلَى التَّوْبَةِ، فَلَعَلَّكَ فِي النَّفَسِ الثَّانِي تَمُوتُ، وَلاَ تَهْتَمَّ بِالرِّزْقِ ، فَلَعَلَّكَ لاَ تَعِيشُ

---

فبادر في حياتك واغتنم فرصة الإمكان لعل أن تسلم من العقاب والهوان ، وما أحسن ما قيل :

إذا هبت رياحك فاغتنمها — فعقبى كل خافقة سكون
ولا تغفل عن الإحسان فيها — فما تدرى السكون متى يكون
وإن تظفر بذاك فلا تقصر — فإن الدهر عادته يخون

وروى الترمذي « ما من ميت يموت إلا ندم ، قالوا وما ندامته ؟ قال: إن كان محسنا أن لا يكون زاد ، وإن كان مسيئا أن لا يكون استعتب » أي تاب وأصلح شأنه ، فلذا يتعين اغتنام ما بقي من العمر إذ هو لا قيمة له : قال ابن جبير : كل يوم يعيشه المؤمن غنيمة ( ثم ) اسمع ( قول أبي ذر الغفاري رضي الله عنه ) بكسر الغين وتخفيف الفاء ، نسبة إلى غفار بن مليك بن ضمرة بن بكر ابن عبد مناف بن كنانة ، وقد تقدمت ترجمته ( الدنيا ثلاث ساعات : ساعة مضت . وساعة أنت فيها ، وساعة لا تدرى أتدركها ) أى الساعة المستقبلة ( أم لا ) تدركها ( فلست تملك بالحقيقة إلا ساعة واحدة إذ الموت من ساعة إلي ساعة ، ثم ) اسمع أيضا ( قول شيخنا ) هو أبو بكر الوراق ( رحمه الله : الدنيا ثلاثة أنفاس ) جمع نفس بفتح الفاء ، وهو جزء من الهواء يخرج من البدن في جزء من الزمن ( نفس مضى عملت فيه ما عملت ) من العمل الصالح أو غيره ( ونفس أنت فيه ونفس لا تدرى أتدركه أم لا، إذ كم من متنفس نفسا ففاجأه الموت قبل النفس الآخر فلست تملك إلا نفسا واحدا بالحقيقة ، لا ) تملك ( يوما ولا ساعة فبادر ) أى أسرع (في هذا النفس الواحد إلى الطاعة قبل أن يفوت ) أي يذهب هذا النفس عنك ، فاذا فات فلا عود له ، فينبغى لك الأدب معه تعالى ومراقبته في كل نفس من أنفاسك فتكون في كل نفس سالكا طريقا إليه تعالي ، وهو معنى قولهم : الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق . قال بعضهم : إن اليوم ينادى كل وقت بقوله: يابن آدم أنا يوم جديد وأنا بما عملت فيه شهيد فاغتنمنى فانك لا تدركني إذا غربت الشمس (و) بادر ( إلى التوبة فلعلك في النفس الثاني تموت ولا تهتم بالرزق ) أي بطلبه ( فلعلك لا تعيش

فَتَحْتَاجَ إِلَيْهِ فَيَكُونُ وَقْتُكَ ضَائِعاً وَالْهَمُّ فَاضِلاً ، وَمَا عَسَى أَنْ يَهْتَمَّ الْإِنْسَانُ بِالرِّزْقِ لِيَوْمٍ وَاحِدٍ أَوْ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ نَفَسٍ وَاحِدٍ ، أَمَا تَذْكُرُ مَا قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لِأُسَامَةَ : « أَمَا تَعْجَبُونَ مِنْ أُسَامَةَ الْمُشْتَرِى بِصَبْرِ شَهْرٍ ، إِنَّ أُسَامَةَ لَطَوِيلُ الْأَمَلِ ، وَاللهِ مَا وَضَعْتُ قَدَمًا فَظَنَنْتُ أَنِّى أَرْفَعُهَا ، وَلَا لُقْمَةً فَظَنَنْتُ أَنِّى أُسِيغُهَا حَتَّى يُدْرِكَنِي الْمَوْتُ ، وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ »

---

فتحتاج إليه ) أى الرزق ( فيكون وقتك ضائعا ) أى ذاهبا لا فائدة ولا نفع فيه فتكون قد خسرت خسرانا مبينا ( و ) يكون ( الهم فاضلا ) أى زائدا لا حاجة إليه ( وما عسى أن يهتم الإنسان بالرزق ) يحتمل أن تكون ما نافية : أى ماينبغى أن يوجد رجاء اهتمام الإنسان بالرزق ويحتمل أن تكون استفهاما إنكاريا : أى أى شىء رجاء اهتمامه بالرزق ( ليوم واحد أو ساعة واحدة أو نفس ) بفتح الفاء ( واحد ، أما تذكر ما قال النبى صلى الله عليه وسلم لأسامة ) بن زيد هو مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن مولاه وابن مولاته وحبه وابن حبه أبو محمد . وقيل أبو زيد : وقيل أبو زيد: وقيل أبو خارجة أسامة بن زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبى الهاشمى، وأمه أم أيمن بركة رضى الله عنهما . روى لأسامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة وثمانية وعشرون حديثا اتفق البخارى ومسلم منها على خمسة وانفرد البخارى بحديثين ومسلم بحديثين، توفى بالمدينة . وقيل بوادى القرى ، وحمل إلى المدينة سنة أربع وخمسين ( أما تعجبون من أسامة المشترى ) وليدة : أى جارية ( بصبر شهر إن أسامة لطويل الأمل، والله ماوضعت قدما فظننت أنى أرفعها ) أى القدم ( ولا ) لقمت ( لقمة فظننت أنى أسيغها ) أى أبتلع تلك اللقمة بسهولة ، ويقال ساغ الشراب يسوغ سوغا : سهل فى الحلق وسغته أنا أسوغه يتعدى ولا يتعدى ، كذا قاله الحريرى ، وفى المختار ساغ الشراب : سهل مدخله فى الحلق ، وبابه قال ، وساغه غيره وبابه قال وباع ، والأجود أساغه غيره . قال الله تعالى « يتجرعه ولا يكاد يسيغه » ( حتى يدركنى الموت والذى نفسى بيده ) أى روحى بقدرته وتصريفه كما أفاده العزيزى . وقال البركوى : والذى جار ومجرور متعلق بأقسم المقدر ، ونفسى مبتدأ وبيده ظرف مستقر خبره ، والجملة صلة الموصول والمعنى والله الذى روحى فى قبضة قدرته ( إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين ) وفى الإحياء فى الكتاب العاشر من ربع المنجيات ، قال أبو سعيد الخدرى : اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر ، فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ألا تعجبون من أسامة المشترى إلى شهر إن أسامة لطويل الأمل والذى نفسى بيده ما طرفت عيناى إلا ظننت أن شفرى لا يلتقيان حتى يقبض الله روحى ، ولا رفعت طرفى فظننت أنى واضعه حتى أقبض ، ولا لقمت لقمة إلا ظننت أنى لا أسيغها حتى أغص بها من الموت ثم قال يا ابن آدم : إنه

فإذا أَنتَ أَيُّها الرَّجلُ تذكَّرتَ هذهِ الأَذْكارَ وواظَبْتَ عَلى ذلِكَ بالإعادةِ والتَّكرارِ قصُرَ أَمَلُكَ بإِذنِ اللهِ تَعالى ، فَحِينَئِذٍ ترَى نفسَكَ تُبادِرُ إلى الطَّاعاتِ وتُعجِّلُ توبتَكَ فتَسقُطُ عَنكَ مَعصِيتُكَ وتَزْهَدُ في الدُّنيا وطَلَبِهَا ، فَيَخِفُّ حِسابُكَ وتَبِعَتُكَ ويَقعُ قَلْبُكَ في تَذَكُّرِ الآخِرةِ وأَهْوالِهَا وَما هُوَ إلاَّ مِنْ نَفسٍ إلَى نَفسٍ تَصيرُ إِلَيْهَا وَتُعايِنُهَا وَاحِدًا فَوَاحِدًا فَتزُولُ عنْكَ القَسْوَةُ وتَبْدُو لَكَ الرِّقَّةُ والصَّفْوَةُ وتَستَشْعِرُ عِنْدَ ذٰلِكَ الخَوْفَ مِنَ اللهِ تَعالى وَالخَشْيَةَ ،

---

كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى ، والذى نفسى بيده إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين » انتهى : قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا في قصر الأمل، والطبرانى فى مسند الشاميين، وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف . قال الزبيدى : ورواه كذلك ابن عساكر في التاريخ وعن ابن عباس رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج : أى إلى الخلاء يهريق الماء فيتمسح بالتراب : أى يتيمم به فأقول له : يا رسول الله إن الماء منك قريب فيقول ما يدرينى لعلى لا أبلغه » ( فإذا أنت أيها الرجل ) الذى يريد قصر الأمل ( تذكرت ) أى بقلبك ( هذه الأذكار ) المذكورة من قول عون بن عبد الله وقول عيسى بن مريم عليهما السلام وغيرهما ( وواظبت ) أى لازمت ( على ذلك ) أى التذكر بهذه الأذكار ( بالإعادة والتكرار ) عطف تفسير ، كذا قيل ( قصر أملك بإذن الله تعالى ) وإرادته ( فحينئذ ) أى حين إذ قصر أملك ( ترى نفسك تبادر ) وتسارع ( إلى الطاعات ) وترك المعاصى والزلات ( وتعجل توبتك فتسقط عنك معصيتك ) أى التي قد فعلتها بسبب التوبة النصوح ( وتزهد فى الدنيا، و ) عن ( طلبها فيخف حسابك وتبعتك ) أى ما يتبعك من حقوق الآدميين (و) عند ذلك ( يقع قلبك فى تذكر الآخرة وأهوالها ) وشدائدها ( وما هو ) أى ليس وقوع التذكر ( إلا من نفس ) بفتح الفاء كما قرره بعضهم وكذا قوله ( إلى نفس تصير إليها ) أى الآخرة ( وتعاينها ) أى تلك الآخرة ( واحدا فواحدا فتزول عنك القسوة ) أى قسوة قلبك ( وتبدو ) أى تظهر ( لك الرقة والصفوة ) أى رقة قلبك وصفوته (وتستشعر) أنت (عند ذلك) أى عند زوال القسوة وظهور الرقة والصفوة ( الخوف من الله تعالى والخشية ) أى من عظمته سبحانه وتعالى، والخوف منه تعالى هو أن يخاف عقابه ، وقد فرض الله على عباده أن يخافوه فقال « وخافون إن كنتم مؤمنين » وعنه عليه السلام « ومن خاف الله خافه كل شىء ومن لم يخف الله خاف كل شىء » وعن أبى حفص: الخوف سراج القلب به يبصر ما فيه الخير والشر ، ومن علم أن لا نافع ولا ضار إلا الله تعالى لم يخف غيره من سبع ونار وغيرهما كما وقع لإبراهيم الخليل عليه السلام ، فمن لم يخف غيره أمن من كل مخوف وإن خاف من بعض المخلوقات فإنما يخاف أن يسلطه الله عليه ، ويكون خوفه من البعوضة أن

فَيَسْتَقِيمُ لَكَ أَمْرُ عِبَادَتِكَ ، وَيَقْوَى الرَّجَاءُ فى ان تَسْتَعِدَّ فى عَاقِبَتِكَ وَتَظْفَرَ بِالْمُرَادِ فى عَاقِبَتِكَ ، وَكُلُّ ذٰلِكَ بَعْدَ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى بِسَبَبِ هٰـــذِهِ الْخَصْلَةِ الَّتِى هِيَ قِصَرُ الْأَمَلِ .

وَلَقَدْ حُكِيَ أَنَّ زُرَارَةَ بْنَ أَوْفَى رَحِمَهُ اللهُ ،

---

يسلطها الله عليه أشد منْ خوفه من الهرة ومن الهرة أشد من الفيل والأسد ، ومن خافه تعالى خافه كل شيء كما مر ، لأن عامة الخوف منه تعالى على باطن الخائف من آثار مشاهدة الجلال ، ومن تجلى عليه الجلال كساه ملابس الهيبة فهابه كل شيء، فالخائف تارة يخاف المخلوقات، وتارة يأمنها والثانى أعلى ، وعن أبى سليمان الدارانى أنه ينبغى أن يكون الغالب على القلب الخوف ، لأنه إذا غلب الرجاء فسد القلب . قال شيخ الإسلام : ومع ذلك فاذا استقامت أحوال العبد كان الكمال فى استوائهما فى قلبه، وهو الذى أوصى به أبو بكر عمر رضى الله عنهما بقوله: ليكون العبد راغبا راهبا لا يتألى على الله ولا يقنط منْ رحمته ( فيستقيم لك أمر عبادتك ويقوى الرجاء فى أن تستعد فى عاقبتك وتظفر ) أى تفوز ( بالمراد فى عاقبتك ) أى فى آخر أمرك ، وفى نسخة فى آخرتك ( وكل ذلك ) أى المذكور من المبادرة إلى الطاعات وما بعدها ( بعد فضل الله تعالى ) حاصل ( بسبب هذه الخصلة ) العظيمة ( التى هى قصر الأمل ) وله أربع كرامات . قال الفقيه السمرقندى رحمه الله : من قصر أمله أكرمه الله تعالى بأربع كرامات : إحداها أن يقويه على طاعته لأن العبد إذا علم أنه يموت عن قريب لا يهتم بما يستقبله من المكروه ويجتهد فى الطاعات فيكثر عمله . والثانى يقل همومه لأنه إذا علم أنه يموت عن قريب لا يهتم بما يستقبله من المكروه . والثالث يجعله راضيا بالقليل لأنه إذا علم أنه يموت عن قريب فانه لا يطلب الكثرة وإنما يكون همه هم آخرته . والرابع أن ينور قلبه لأنه يقال نور القلب من أربعة أشياء : أولها بطن جائع . والثانى صاحب صالح . والثالث حفظ الذنب القديم . والرابع قصر الأمل ( ولقد حكى أن زرارة ) بضم أوله ( ابن أوفى رحمه الله ) هو العامرى القرشى البصرى من التابعين يكنى أبا حاجب كان من العباد وثقه النسائى وابن حبان، قال ابن سعد مات فجأة فى الصلاة سنة ثلاث وتسعين بعد المائة . قال الزبيدى : وهو فى أثناء قراءة قوله تعالى « فإذا نقر فى الناقور » وأخرجه أبو نعيم فى الحلية من وجهين : الأول قال حدثنا أبو بكر بن مالك ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنا هدبة بن خالد ، حدثنا أبو جناب القصاب واسمه عون بن ذكوان قال صلى بنا زرارة بن أوفى صلاة الصبح فقرأ « يا أيها المدثر » حتى إذا بلغ « فإذا نقر فى الناقور » خر ميتا. الثانى قال حدثنا أحمد بن عنبر ، حدثنا عبد الله ابن أحمد ، حدثنا روح بن عبـد المؤمن ، حدثنا غياث بن المثنى القشيرى ، حدثنا بهز بن حكيم قال صلى بنا زرارة بن أوفى فى مسجد بنى قشير فقرأ « فإذا نقر فى الناقور » فخر ميتا فحمل إلى داره

قِيلَ لَهُ فِى النَّوْمِ بَعْدَ مَوْتِهِ : أَىُّ الْأَعْمَالِ أَبْلَغُ فِيمَا عِنْدَكُمْ ؟ قَالَ الرِّضَا وَقِصَرُ الْأَمَلِ ، فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ أَيُّهَا الْأَخُ ، وَابْذُلِ الْمَجْهُودَ فِى هٰذَا الْأَصْلِ الْكَبِيرِ فَإِنَّهُ الْأَهَمُّ وَالْأَعْظَمُ فِى صَلَاحِ الْقَلْبِ وَالنَّفْسِ ، وَاللهُ تَعَالَى وَلِىُّ التَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ .

وَأَمَّا الْحَسَدُ فَإِنَّهُ الْمُفْسِدُ لِلطَّاعَاتِ الْبَاعِثُ عَلَى الْخَطِيئَاتِ ،

---

وكنت فيمن حمله إلى داره ( قيل له فى النوم بعد موته: أى الأعمال أبلغ فيما عندكم ؟ قال) ابن أوفى ( الرضا ) بحكمه تعالى ( وقصر الأمل ) . وقال الحسن البصرى رحمه الله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكلكم يحب أن يدخل الجنة ؟ قالوا : نعم يارسول الله . قال قصروا من الأمل وثبتوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء » . قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا ، وقال الثورى : ليس الزهد فى الدنيا بلبس الخشن ولا أكل الغليظ إنما الزهد قصر الأمل .

قال المصنف رحمه الله تعالى ( فانظر لنفسك أيها الأخ وابذل المجهود ) والطاقة ( فى ) تحصيل ( هذا الأصل الكبير ) الذى هو قصر الأمل ( فانه ) أى هذا الأصل ( الأهم والأعظم فى صلاح القلب والنفس ، والله ) سبحانه و ( تعالى ولىّ التوفيق ) والهداية ( بفضله ورحمته ) تعالى .

(وأما الحسد) وهو كما قال الراغب تمنى زوال نعمة على مستحقها ، وربما كان معه سعى فى إزالتها وفى الصحاح إنه تمنى زوال نعمة المحسود إليك ، وعليه جرى ابن الأثير فى النهاية حيث قال إن الحسد أن يرى لأخيه نعمة فيتمنى أن تزول عنه وتكون له دونه ، فاتفقوا على أن الحسد تمنى زوال نعمة الغير . وشرط الراغب كون الغير مستحقا ، والصحاح كون الحاسد يتمنى انقلاب النعمة إليه ، ولذلك قال الزبيدى : إن الحسد تمنى زوال نعمة من يستحق تلك النعمة ، فالحاسد يعاند المقادير الإلهية ويطلب وضع الحق فى غير موضعه أو زواله عن موضعه . وقال العلامة عبد الحق : هو سخط قضاء الله تعالى والاعتراض عليه فيما لاعذر للعبد فيه . وقيل تمنى زوال نعمة المحسود أو حصول معصية له ، وسببه الكبر والعداوة أو خبث النفس أو بخل بنعمة الله على عباده ، وهذا أحد مراتب الحسد ، والمرتبة الثانية أن يحب زوال النعمة إليه كما فى الصحاح لرغبته فى تلك النعمة مثل رغبته فى دار حسنة أو امرأة جميلة أو ولاية نافذة أو سعة من الرزق نالها غيره وهو يحب أن تكون له ، ومطلوبه تلك النعمة لازوالها عنه ، ومكروهه فقد النعمة لاتنعم غيره بها ، والمرتبة الثالثة أن لايشتهى عين تلك النعمة لنفسه ، بل يشتهى مثلها ، فان عجز عن مثلها أحب زوالها عن المنعم عليه كى لايظهر التفاوت بينه وبين غيره ، فالشق الأول غير مذموم وهو المسمى غبطة ومنافسة ، والشق الثانى مذموم ، والمرتبة الرابعة أن يشتهى لنفسه مثل تلك النعمة فان لم تحصل فلا يحب زوالها عن المنعم عليه ، وهذا الأخير هو المعفو عنه إن كان فى الدنيا ، والمندوب إليه إن كان فى الدين ( فانه المفسد للطاعات الباعث ) أى الحامل ( على الخطيئات ) وهى كثيرة :

وَإِنَّهُ الدَّاءُ الْعُضَالُ الذِى يُبْتَلَى بِهِ الْكَثِيرُ مِنَ الْقُرَّاءِ وَالْعُلَمَاءِ فَضْلاً عَنِ الْعَامَّةِ وَالْجُهَّالِ حَتَّى أَهْلَكَهُمْ وَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ . أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم : « سِتَّةٌ يَدْخُلُونَ النَّارَ بِسِتَّةٍ : الْعَرَبُ بِالْعَصَبِيَّةِ ، وَالْأُمَرَاءُ بِالْجَوْرِ ، وَالدَّهَاقِينُ بِالْكِبْرِ ، وَالتُّجَّارُ بِالْخِيَانَةِ ، وَأَهْلُ الرَّسَاتِيقِ بِالْجَهْلِ ، وَالْعُلَمَاءُ بِالْحَسَدِ ،

---

منها أن الحاسد يعترض على مولاه في القسمة ويضاد حكمه فيها ، ومنها إعانة إبليس اللعين . قال بعض الحكماء : بارز الحاسد ربه من خمسة أوجه : أولها قد أبغض كل نعمة قد ظهرت على غيره. والثانى سخط لقسمته : يعنى يقول لربه لم قسمت هكذا ، والثالث أنه ضن بفضله : يعنى أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وهو يبخل بفضل الله تعالى ، والرابع خذل ولى الله تعالى ، لأنه يريد خذلانه وزوال النعمة عنه . والخامس أعان عدوه : يعنى إبليس لعنه الله ، ويقال الحاسد لاينال فى المجالس الا مذمة وذلا ، ولا ينال من الملائكة إلا لعنة وبغضا ، ولا ينال فى الخلوة إلا جزعا وغما ولا ينال عند النزع إلا شدة وهولا ، ولا ينال فى الموقف إلا فضيحة ونكالا ،ولا ينال فى النار إلا حارا واحتراقا ( وإنه ) أى الحسد ( الداء العضال ) أى المشكل مداواته ( الذى يبتلى به الكثير من القراء والعلماء فضلا عن العامة ) أى أكثر الناس ( والجهال ) أى إذا كان أكثر القراء والعلماء يبتلى بهذا الحسد، فابتلاؤه لكل العامة والجهال أولى ، وفضلا مصدر منصوب إما بفعل محذوف هو حال من الداء أو صفة له ، هذا ، وفى استعماله في الاثبات كما هنا نظر لقول ابن هشام لايستعمل إلا فى النفى نحو فلان لايملك درهما فضلا عن دينار : أى لايملك درهما ، ولا دينارا ، وأن عدم ملكه الدينار أولى من عدم ملكه الدرهم ، قاله القاضى زكريا ، وفى بعض التقارير أن بعضهم صرح بأنها تستعمل فى الاثبات إذا كان مؤولا بالنفى كما هنا فان قوله رحمه الله الذى يبتلى الخ فى قوة قولنا الذى لايترك به الكثير ، ولكن قال العلامة البنانى عن تقرير شيخه إنها تستعمل فى الاثبات بلا شرط ( حتى أهلكهم ) ذلك الحسد ( وأوردهم ) أى أدخلهم ( النار ، أما تسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ستة ) أى ستة أصناف ( يدخلون النار بستة ) أى بسبب ستة أشياء يوم القيامة قبل الحساب كما فى رواية ( العرب ) وهم سكان البادية كما فى الإتحاف ( بالعصبية ) الجاهلية وهى الجدل فى النسب كما فى سراج السالكين ( والأمراء بالجور ) أى الظلم على الرعية ( والدهاقين ) جمع دهقان بالكسر وهو رئيس القرية ( بالكبر ) أى التكبر على أهل قريته ( والتجار بالخيانة ) فى معاملاتهم ( وأهل الرساتيق ) أى أصحاب القرى ( بالجهل ) فى أمور الدين ( والعلماء بالحسد ) يعنى العلماء الذين يطلبون الدنيا يحسد بعضهم بعضا ، فينبغى للعالم أن يتعلم العلم ليطلب به الآخرة ، فاذا كان العالم يطلب بعلمه الآخرة فانه لايحسد أحدا ولا يحسده أحد ، وإذا تعلم لطلب الدنيا فانه يحسد كما قال الله عن علماء اليهود « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » يعنى أن اليهود كانوا يحسدون رسول الله وأصحابه ، فكانوا يقولون :

وَإِنَّ بَلِيَّةً بَلَغَ شُؤْمُهَا أَنْ أَوْرَدَتِ الْعُلَمَاءَ النَّارَ لَحَقِيقٌ أَنْ يُحْذَرَ مِنْهَا

وَاعْلَمْ أَنَّ الْحَسَدَ يُهَيِّجُ خَمْسَةَ أَشْيَاءَ : أَحَدُهَا : فَسَادُ الطَّاعَاتِ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « اَلْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ »

---

لو كان هو رسول الله صلى الله عليه وسلم لشغله ذلك عن كثرة النساء . قال الله سبحانه وتعالى « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » يعنى النبوة وكثرة النساء كذا أفاده العلامة أبو الليث السمرقندى ، وهذا الحديث رواه أبو منصور الديلمى من حديث ابن عمر وأنس بسندين ضعيفين كما قاله العراقى . قال الزبيدى : ولفظ الديلمى من حديث أنس « ستة يعذبهم الله بذنوبهم يوم القيامة : الأمراء بالجور ، والعلماء بالحسد ، والعرب بالعصبية ، وأهل الأسواق بالخيانة ، والدهاقين بالكبر ، وأهل الرساتيق بالجهل » وأما حديث ابن عمر فأخرجه أبو نعيم فى الحلية بلفظ « ستة يدخلون النار بغير حساب : الأمراء بالجور ، والعرب بالعصبية ، والدهاقين بالكبر ، والتجار بالكذب ، والعلماء بالحسد ، والأغنياء بالبخل » : ومما جاء فى المرفوع « الحسد يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل » . رواه الديلمى من حديث معاوية بن حيدة (و) إذا علمت ذلك فاعلم ( أن بلية بلغ شؤمها أن أوردت ) أى أدخلت البلية ( العلماء النار ، لحقيق ) وجدير ( أن ) أى بأن ( يحذر منها ) أى تلك البلية : ( واعلم أن الحسد يهيج ) أى يحرك ( خمسة أشياء : أحدها فساد الطاعات . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحسد ) المذموم كما تقدم بيانه ( يأكل الحسنات ) : قال الطيبى : الأكل هنا استعارة لعدم القبول وإن حسناته مردودة عليه وليست بثابتة فى ديوان عمله الصالح حتى تحبط ( كما تأكل النار الحطب ) فتعدمه وتمحوه وذلك لأن الحسد اعتراض على الله فيما لاعذر للعبد فيه ، لأنه لاتضره نعمة الله على عبده ، والله لايعبث ولا يضع الشئ فى غير محله ، فكأنه نسب ربه للجهل والسفه ولم يرض بقضائه ، فلذلك ردّت حسناته من ديوان الأعمال . قال العراقى : رواه أبو داود من حديث أبى هريرة وابن ماجه من حديث أنس ، وأخرجه الخطيب بسند حسن .

وقد ورد فى ذم الحسد أخبار كثيرة : منها هذا الخبر . وقال صلى الله عليه وسلم فى النهى عن الحسد وأسبابه وثمراته «لاتحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا» وقال صلى الله عليه وسلم « كاد الفقر أن يكون كفرا ، وكاد الحسد أن يغلب » أى كاد فى قلب الحاسد أن يغلب العلم بالقدر ، فلا يرى أن النعمة التى حسد عليها أنها صارت إليه بقدر الله تعالى وقضائه كما أنها لا تزول إلا بقضائه وقدره ، وغرض الحاسد زوال نعمة المحسود ولو تحقق لم يحسده واستسلم وعلم أن الكل بقدر كما أفاده العلامة الزبيدى . قال العراقى رواه أبو مسلم الكشى والبيهقى فى الشعب . وقال صلى الله عليه وسلم « أخوف ما أخاف على أمتى أن يكثر فيهم المال

فيتحاسدون ويقتتلون». أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي عامر الأشعرى. وقال صلى الله عليه وسلم «استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فان كلّ ذى نعمة محسود» . قال العراقى: رواه ابن أبي الدنيا.

ومن الآثار مما يدخل فى الباب قال الأحنف بن قيس : لا راحة لحسود : أخرجه البيهقى فى الشعب ، وروى ابن عمر : أن إبليس قال لنوح : اثنتان أهلك بهما بنى آدم : الحسد ، وبالحسد لعنت وجعلت شيطانا رجيما ، والحرص أبيح آدم بالجنة كلها فأصبت حاجتى منه بالحرص : أخرجه ابن أبى الدّنيا فى ذمّ الحسد .

ومن الحكمة : الحسود لا يسود : أى لا تحصل له سيادة لا في الدنيا ولا فى الآخرة ، بل يعود عليه فيهما ضرر الحسد ، وهو ألم الهم والحزن فى الدنيا ، وألم العقوبة فى الآخرة . وفى الرسالة وقيل في قوله تعالى « قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن » قيل : مابطن من الحسد. قال الزبيدى: والمشهور مابطن من معاصى القلب من حسد وغيره، كالعجب والحقد وسوء الظن ، وقيل أثر الحسد يستبين فيك قبل أن يتبين فى عدوك . وقال الأصمعى : رأيت أعرابيا أتت عليه مائة وعشرون سنة فقلت ما أطول عمرك ؟ قال تركت الحسد فبقيت . وفى بعض الآثار : إن فى السماء الخامسة ملكا يمر به عمل عبد له ضوء كضوء الشمس ، فيقول له الملك قف فأنا ملك الحسد أضرب به وجه صاحبه فانه حاسد . ويقال الحاسد ظالم غشوم لايبقي ولايذر. وقال معاوية : ليس فى خلال الشر خلة أعدل من الحسد يقتل الحاسد غما قبل المحسود ، وقيل : أوحى الله إلى سليمان بن داود عليهما السلام : أوصيك بسبعة أشياء : لا تغتابن صالح عبادى ، ولا تحسدن أحدا من عبادى ، فقال سليمان عليه السلام يا رب حسبي : أى يكفيني هذان فى الزجر فلا تذكر لى البقية ، ولعله ذكرها فى وقت آخر ، وقيل : الحاسد إذا رأى نعمة بهت ، وإذا رأى عثرة شمت ، وقيل الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له ، بخيل بما لا يملكه ، وقيل : إياك أن تعتنى مودة من يحسدوك فانه لايقبل إحسانك . وقيل : إذا أراد الله سبحانه أن يسلط على عبد عدوا له لايرحمه، سلط عليه حاسده ، وأنشدوا :

كل العداوة قد ترجى إماتتها ... إلا عداوة من عاداك من حسد

وقال ابن المعتز :

قل للحسود إذا تنفس صعدة ... يا ظالما وكأنه مظلوم

وقال غيره : وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود

وقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالي بعد أن رماه بعض حساده بالزنا ، ونجاه الله تعالى من ذلك : هذين البيتين :

إن يحسدونى فانى غير لائمهم ... قبلى من الناس أهل الفضل قد حسدوا

فدام لى ولهم مابى وما بهم ... ومات أكثرهم غيظا بما يجدوا

( والثانى ) من الأشياء الخمسة ( فعل المعاصى والشرور ) وذلك ( على ما قال ) أبو عبد الله

وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ رَحِمَهُ اللهُ : لِلْحَاسِدِ ثَلَاثُ عَلَامَاتٍ : يَتَمَلَّقُ إِذَا شَهِدَ ، وَيَغْتَابُ إِذَا غَابَ ، وَيَشْمَتُ بِالْمُصِيبَةِ إِذَا نَزَلَتْ .

قُلْتُ : وَحَسْبُكَ ان اللهَ تَعَالَى أَمَرَنَا بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّ الْحَاسِدِ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ : « وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ » كَمَا أَمَرَنَا بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَالسَّاحِرِ ، فَانْظُرْ كَمْ لَهُ مِنَ الشَّرِّ وَالْفِتْنَةِ حَتَّى أَنْزَلَهُ مَنْزِلَةَ الشَّيْطَانِ وَالسَّاحِرِ ، حَتَّى أَنْ لَا مُسْتَعَانَ عَلَيْهِ وَلَا مُسْتَعَاذَ إِلَّا بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

وَالثَّالِثُ : التَّعَبُ وَالْهَمُّ مِنْ غَيْرِ فَائِدَةٍ ، بَلْ مَعَ ذَلِكَ وِزْرٌ وَمَعْصِيَةٌ ، كَمَا قَالَ

---

(وهب بن منبه رحمه) ويقال له الذماري بكسر الذال المعجمة منسوب إلى ذمار : قرية على مرحلتين من صنعاء اليمن ، وهو تابعى جليل من المشهورين بمعرفة الكتب الماضية ، سمع جابر بن عبد الله وابن عباس وابن عمرو بن العاص وأبا سعيد الخدرى وأبا هريرة وأنسا والنعمان بن بشير ، روى عنه عمرو بن دينار وعوف الأعرابى والمغيرة بن حكيم وآخرون ، واتفقوا على توثيقه ، توفى سنة أربع عشرة ومئة من الهجرة . وقال ابن سعد : سنة عشر ومائة (للحاسد ثلاث علامات : يتملق ) أى يتودد ويتلطف ( إذا شهد ) المحسود فى مجلس هذا الحاسد ( ويغتاب ) أى الحاسد ( إذا غاب ) المحسود عن المجلس ( ويشمت ) أى يفرح الحاسد ( بالمصيبة ) أى مصيبة محسوده ( إذا نزلت ) أى أصابت تلك المصيبة للمحسود ( قلت : وحسبك ) أى يكفيك ( أن الله تعالى أمرنا بالاستعاذة من شرّ الحاسد ، فقال سبحانه ) وتعالى ( ومن شرّ حاسد إذا حسد ) أى إذا أظهر حسده وعمل بمقتضاه ، لأنه إذا لم يظهر فلا ضرر يعود منه على من حسده ، بل هو الضار لنفسه لاغتمامه بسرور غيره ، وهو الأسف على الخير عند الغير ، والاستعاذة من شر هذه الأشياء بعد الاستعاذة من شر ما خلق إشعار بأن شر هؤلاء أشد ، وختم بالحسد ليعلم أنه شرها ، كذا قاله النسفى (كما أمرنا ) الله تعالى ( بالاستعاذة من شر الشيطان ) فى قوله « من شر ما خلق » . قيل : يريد به إبليس خاصة لأنه لم يخلق الله خلقا هو شر منه ، ولأن السحر لا يتم إلا به وبأعوانه وجنوده كما فى الخازن (و) من شر ( الساحر ) فى قوله سبحانه « ومن شر النفاثات فى العقد » ( فانظر كم له ) أى للحاسد ( من الشر والفتنة حتى أنزله ) أى أنزل الله الحاسد وأقامه ( منزلة الشيطان والساحر حتى أن لا مستعان عليه ) أى على الحاسد ( ولا مستعاذ إلا بالله رب العالمين . والثالث ) من الأشياء الخمسة ( التعب والهم من غير فائدة ، بل مع ذلك ) أى التعب والهم ( وزر ومعصية ) عطف تفسير (كما قال ) الزاهد المشهور أبو العباس محمد بن صبيح

اَبْنُ السَّمَّاكِ رَحِمَهُ اللهِ : لَمْ أَرَ ظَالِماً أَشْبَهَ بِالْمَظْلُومِ مِنَ الْحَاسِدِ ، نَفْسٌ ذَائِمٌ وَعَقْلٌ هَائِمٌ وَغَمٌّ لَازِمٌ .

وَالرَّابِعُ : عَمَى الْقَلْبِ حَتَّى لَا يَكَادُ يَفْهَمُ حُكْماً مِنْ أَحْكَامِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَلَقَدْ قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : عَلَيْكَ بِطُولِ الصَّمْتِ

---

( ابن السماك رحمه الله ) الكوفى مولى بنى عجل، كان كبير القدر دخل على الرشيد فوعظه وخوفه ( لم أر ظالما أشبه بالمظلوم من الحاسد ) وهو ( نفس ) أى شخص . قال العلامة عبد الحق : النفس مؤنث إن أريد بها الروح ، نحو « خلقكم من نفس واحدة » وإن أريد بها الشخص فمذكر، يقال عندى خمسة عشر نفسا ( ذائم ) بالذال المعجمة : أى حقير ، يقال ذأمه يذؤمه ذأما: عابه وحقره وذمه وطرده وخزاه ، مثل ذأمه فهو مذءوم ، كذا فى سراج السالكين (وعقل هائم) أى متحير ( وغم لازم ) أى لا ينفك ، وقد روى نحو ذلك من قول عمر بن عبد العزيز : مارأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد : غم دائم ونفس متتابع ، كذا فى الرسالة ، وروى أيضا من قول الخليل بن أحمد : مارأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد : نفس ذائم ، وعقل هائم ، وحزن لازم رواه البيهقى في الشعب . ( والرابع ) من الأشياء الخمسة ( عمى القلب ) أى عدم اهتدائه ( حتى لا يكاد يفهم حكما من أحكام الله عز وجل ، فلقد قال سفيان ) بن سعيد ( الثورى رحمه الله ) وتقدمت ترجمته ( عليك ) أى الزم ( بطول الصمت ) الصمت هو السكوت والضم لغة فيه كالصمات بالضم أيضا ، وقد صمت صموتا . قال الطيبي : الصمت أبلغ من السكوت لأنه يستعمل فيما لا قوة له للمنطق وفيما له قوة النطق . قال القشيرى رحمه الله : الصمت سلامة وهو الأصل وعليه ندامة ، إذ ورد عنه الزجر ، فالواجب أن يعتبر فيه الشرع والأمر والنهى ، والسكوت فى وقته صفة الرجال كما أن النطق فى موضعه من أشرف الخصال ؛ ثم قال : والسكوت على قسمين : سكوت بالظاهر وسكوت بالقلب والضمائر ، فالمتوكل يسكت قلبه عن تقاضى الأرزاق ، والعارف يسكت قلبه مقابلة للحكم بنعت الوفاق ، فهذا بجميل صنعه واثق ، وهذا بجميع حكمه قانع ، وفى معناه قالوا :

تجرى عليك صروفه وهموم سرك مطرقه

وربما يكون سبب السكوت حيرة البديهة فانه إذا ورد كشف عن وصف البغتة خرست العبارات عند ذلك فلا بيان ولا نطق ، وطمست الشواهد هنالك فلا علم ولا حس . قال الله تعالى « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا » فأما إيثار أرباب المجاهدة السكوت ، فلما علموا ما فى الكلام من الآفات ثم ما فيه من حظ النفس وإظهار صفات المدح إلى أن يتميز بين أشكاله بحسن النطق وغير هذا من آفات الخلق ، وذلك نعت أرباب الرياضات ، وهو أحد أركانهم فى حكم المنازلة وتهذيب الخلق . وقال بعض الحكماء ، إنما خلق للانسان لسان واحد وعينان وأذنان ليسمع ويبصر أكثر مما يقول ، أى فينبغي أن يكون كلامه أقل من سماعه ورؤيته ، ولذلك حكمة أخرى ، وهى أن العبد لما احتاج إلى أن يسمع ويرى من جهتيه تفضل

تَمْلِكِ الْوَرَعَ ، وَلاَ تَكُنْ حَرِيصاً عَلَى الدُّنْيَا تَكُنْ حَافِظاً ، وَلاَ تَكُنْ طَعَّاناً تَنْجُ مِنْ أَلْسُنِ النَّاس ، وَلاَ تَكُنْ حَاسِدًا تَكُنْ سَرِيعَ الْفَهْمِ .

وَالْخَامِسُ : الْحِرْمَانُ وَالْخِذْلاَنُ ، وَلاَ يَكَادُ يَظْفَرُ بِمُرَادٍ وَيُنْصَرُ عَلَى عَدُوٍّ كَمَا قَالَ حَاتِمُ الْأَصَمُّ رَحِمَهُ اللهُ : الضَّغِينُ غَيْرُ ذِي دِينٍ ،

---

عليه الحق بعينين وأذنين ، وأما اللسان فترجمان عما فى الضمير فلا يحتاج إلى تعدده كما قاله شيخ الإسلام ، وقيل صمت العوام بألسنتهم ؟ وصمت العارفين بقلوبهم ، وصمت المحبين من خواطر أسرارهم ، وقيل : لسان الجاهل مفتاح حتفه ، فان فعلت ذلك ، يعنى طول الصمت (تملك الورع) وهو ترك ما لايعنيك من الفضلات كما قاله ابراهيم بن أدهم . وقال يونس بن عبيد : الورع الخروج من كل شبهة ومحاسبة النفس فى كل طرفة : وقال يحى بن معاذ : الورع على وجهين : ورع فى الظاهر ، وهو أن لا يتحرك إلا لله تعالى، وورع فى الباطن، وهو أن لايدخل قلبك سواه تعالى (ولا تكن حريصا على الدنيا تكن حافظا ولا تكن طعانا ) أى عيابا ( تنج من ألسن الناس ولا تكن حاسدا تكن سريع الفهم . والخامس ) هذا آخر الأشياء الخمسة ( الحرمان ) أى المنع عن المقصود : قال صاحب سراج السالكين : الحرمان بالكسر مصدر بمعنى المنع ونقيض الرزق (والخذلان) مصدر : أى الإهانة وترك النصرة ، وفى المختار خذله يخذله بالضم خذلانا بكسر الخاء: ترك عونه ونصرته (ولا يكاد) أى لا يقرب ( يظفر ) أي ينال ( بمراد وينصر على عدو كما قال ) أبو عبد الرحمن ( حاتم ) بن علوان ( الأصم رحمه الله) وقد تقدمت ترجمته ( الضغين) أى الحاقد، أى المتصف بالحقد على عباد الله تعالى (غير ذى دين) أى كامل، والحقد ما ينشأ عن كتمان الغضب بسبب العجز عن التشفى حالا فيرجع إلى الباطن ويحتقن فيه فيتمكن به بعض من يحقد عليه وحسده وإضمار العداوة له فى قلبه دائما ، فيتمنى زوال نعمته ويغم بها ويفرح بمصيبته ويشمت ببليته ويطلق لسانه فيه بما لا يحل ويؤذيه ويمنعه حقه من صلة ورد مظلمة وكل ذلك شديد التحريم وإذا صار طبيعة للشخص ولم يقدر على دفعه وعمل بمقتضاه ولم يكرهه حرم عليه من حيث إنه تعاطى سببه إذ هو مكلف بعدم تعاطى سبب المحرم وعدم العمل بمقتضاه وكراهيته ومثله فى ذلك العجب والكبر والحسد كما قاله العلامة السحيمى ، ثم هو من الكبائر لقوله عليه الصلاة والسلام « المؤمن ليس بحقود وإن الله يطلع على عباده فى ليلة النصف من شعبان فيغفر للمستغفرين ويرحم المسترحمين ويؤخر أهل الحقد كما هم عليه » وفى حديث « فيغفر للمؤمنين ويملى الكافرين ويدع أهل الحقد بحقدهم حتى يدعوه » وورد « تعرض الأعمال فى كل يوم الاثنين ويوم الخميس فيغفر لكل عبد مؤمن إلا عبدا بينه وبين أخيه شحناء فيقال اتركوا هذين حتى يفيئا » أى يصطلحا كما فى حديث آخر ، وروى « ينزل الله : أى أمره ورحمته ـ إلى سماء الدنيا ليلة النصف

وَالْعَائِبُ غَيْرُ عَابِدٍ ، وَالنَّمَّامُ غَيْرُ مَأْمُون

---

من شعبان فيغفر لكل مؤمن إلا العاق والمشاحن » وفي حديث « إلا رجل مشرك أو مشاحن » وكل ماورد في ذم الغضب يشمله كالحسد إذهما من نتائجه ( والعائب غير عابد ) أي خالص (والنمام) أي الذي يتحدث مع القوم فينم عليهم فيكشف ما يكره كشفه ( غير مأمون ) ولا موثوق بصداقته وكيف لا وهو لاينفك عن الكذب ونحوه كما يأتي . قال في الزواجر : وعرفوا النميمة بأنها نقل كلام الناس بعضهم في بعض على وجه الإفساد بينهم . قال في الإحياء : هذا هو الأكثر ولا تختص بذلك ، بل هي كشف ما يكره كشفه سواء أكرهه المنقول عنه أو إليه أو ثالث ، وسواء كان كشفه بقول أو كتابة أو رمز أو إيماء ، وسواء كان المنقول فعلا أو قولا عيبا أو نقصا في المنقول عنه أو غيره ، فحقيقتها إفشاء السر وهتك ما يكره كشفه ، وحينئذ فينبغي السكوت عن حكاية كل شيء شوهد من أحوال الناس إلا مافي حكايته نفع لمسلم أو دفع ضرر عنه كما لو رأى من يتناول مال غيره ، فعليه أن يشهد به لا من يخفي ملك نفسه فذكره ، فان كان ما نم به نقصا وعيبا في المحكي عنه فهو غيبة أيضا انتهى. قال العلامة بابصيل في [إسعاد الرفيق على سلم التوفيق] والذي يتجه أن النميمة الأقبح من الغيبة ينبغي أن لا توجد بوصف كونها كبيرة إلا إذا كان فيما ينم به مفسدة تقارب مفسدة الإفساد الذى صرحوا به ، وينبغى لمن أطلق أنها كبيرة أن لا يشترط فيها إلا كونها فيها مفسدة كمفسدة الغيبة وإن لم تصل للافساد بين الناس ، وقد اتفقوا على عدها كبيرة ، وبه صرح الحديث . قال المنذرى ، أجمعت الأمة على تحريمها وأنها من أعظم الذنوب عند الله عز وجل ، قال تعالى - هماز مشاء بنميم - ثم قال - عتل بعد ذلك زنيم - أى دعى ، وأخذ منه أن ولد الزنا لا يكتم شيئا فعدم كتمه دليل على أنه ولد زنا ؛ وقال تعالى - ويل لكل همزة لمزة - قيل اللمزة النمام . وقيل إن حمالة الحطب كانت نمامة حمالة الحديث إفسادا بين الناس ، وسميت النميمة حطبا لأنها تنشر العداوة بين الناس كما أن الحطب ينشر النار ، وقال عليه الصلاة والسلام « لايدخل الجنة نمام » وفي رواية « قتات » وهو النمام أو الذى يستمع لكلامهم وهم لا يعلمون ثم ينم . وورد « إن ثلث عذاب القبر من الغيبة ، وثلثه من النميمة ؛ وثلثه من البول ، والنميمة والحقد في النار لايجتمعان في قلب مسلم ، وليس مني ذو حسد ولا نميمة ولا كهانة ولا أنا منه ، وشر عباد الله المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة ، وإن أبغضكم إلى الله المشاءون بالنميمة المفرقون بين الإخوان ، وأيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها برىء ليشينه بها في الدنيا كان حقا على الله أن يذيبه بها يوم القيامة في النار » واستسقى موسى عليه السلام فما أجيب فأوحى الله تعالى إليه أني لا أستجيب لك ولا لمن معك وفيكم نمام قد أصر على النميمة ، فقال موسى يارب من هو حتى نخرجه من بيننا ؟ فقال ياموسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماما ، فتابوا جميعهم فسقوا ، وزار بعض السلف أخوه فنم له عن صديقه ، فقال ياأخى : أطلت الغيبة وجئتني بثلاث جنايات بغضت إلى أخي وشغلت قلبي بسببه واتهمت نفسك الأمينة ، وقبل من أخبرك بشتم غيرك

وَالْحَسُودُ غَيْرُ مَنْصُورٍ .

قُلْتُ : الْحَسُودُ كَيْفَ يَظْفَرُ بِمُرَادِهِ ، وَمُرَادُهُ زَوَالُ نِعَمِ اللهِ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَيْفَ يُنْصَرُ عَلَى أَعْدَائِهِ وَهُمْ عِبَادُ اللهِ الْمُؤْمِنُونَ ،

---

لك فهو الشاتم لك ؛ وجاء رجل إلى على بن الحسين رضى الله عنهما فنم له عن شخص فقال اذهب بنا إليه فذهب معه وهو يرى أنه ينتصر لنفسه ، فلما وصل إليه قال يا أخى إن كان ما قلت فى حقا فغفر الله لى ، أو باطلا فغفر الله لك . ويقال عمل النمام أضر من عمل الشيطان ، لأن عمله بالمواجهة ، وعمل الشيطان بالوسوسة .

وحكى أنه اشترى من استخف بالنميمة عبدا نودى عليه أنه غير معيب إلا أنه نمام فمكث أياما حتى فتن بينه وبين زوجته بأنه يريد التزوج أو التسرى وقال لها خذى الموسى واحلقى بها شعرات من حلقه ليسحره لها فصدقته ، ثم قال الغلام لزوجها إنها تريد ذبحك الليلة فتناوم لترى ذلك ففعل فجاءته لتحلق فقال صدق الغلام ، فلما أهوت إلى حلقه أخذ الموسى وذبحها فجاء أهلها وقتلوه فوقع القتال بين الفريقين بشؤم ذلك النمام ، ولقد أشار سبحانه وتعالى إلى قبح النمام وعظيم الشر المترتب عليه بقوله ــ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق ــ الآية ، عافانا الله من ذلك بمنه وكرمه .

[ تنبيه ] الباعث على النميمة إرادة السوء بالمحكى عنه أو الحب للمحكي له أو الفرح بالخوض فى الفضول . وعلاجها بنحو ما مر فى الغيبة ، ويجب على من حملت النميمة إليه ستة أمور : أن لا يصدق الحامل ، لأن النمام فاسق إجماعا . وقال الله تعالى ــ إن جاءكم فاسق ــ وأن ينهاه عن العود لمثله وأن يبغضه فى الله إن لم تظهر له التوبة وأن لا يحمله ما حكى له علي التجسس والبحث حتي يتحقق لقوله تعالى « اجتنبوا كثيرا من الظن » الآية ، وأن لا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه فلا يحكي نميمته فيقول قد حكي لى فلان كذا فانه يكون به نماما ومغتابا وآتيا بما عنه نهى. وقال الحسن رحمه الله : من نم لك نم عليك أشار به إلى أن النمام ينبغى أن يبغض وأن لا يؤتمن ولا يوثق بصداقته،وكيف لا ؟ وهو لا ينفك عن الكذب والغيبة والنميمة والقذف والخيانة والغل والحسد والإفساد بين الناس والخديعة وهو ممن سعى فى قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض . قال الله تعالى « إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم » والنمام منهم ( والحسود غير منصور ) بل هو مغضوب عليه لأنه جاحد لا يرضى بقضاء الواحد كما قاله بعضهم ( قلت الحسود كيف يظفر ) وينال ( بمراده. ومراده ) جملة حالية ( زوال نعم الله تعالى عن عباده المسلمين، وكيف ينصر ) أى الحسود ( على أعدائه وهم ) أى أعداء الحسود ( عباد الله المؤمنون ) بل الحسود هو المعذب فى قلبه الذى لا يرحم ولا يزال فى عذاب دائم فى الدنيا وهو حصول الغم والهيام فى العقل والوزر إلى موته، ولعذاب الآخرة أشد

وَلَقَدْ أَحْسَنَ أَبُو يَعْقُوبَ رَحِمَهُ اللهُ فِيمَا قَالَ : اللَّهُمَّ صَبِّرْنَا عَلَى تَمَامِ النِّعَمِ عَلَى عِبَادِكَ وَحُسْنِ أَحْوَالِهِمْ ، وَإِنَّهُ دَاءٌ يُفْسِدُ عَلَيْكَ الطَّاعَةَ وَيُكْثِرُ شَرَّكَ وَمَعْصِيَتَكَ وَيَمْنَعُكَ رَاحَةَ النَّفْسِ وَفَهْمَ الْقَلْبِ، وَالنُّصْرَةَ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَالظَّفَرَ بِالْمَطْلُوبِ ، فَأَيُّ دَاءٍ يَكُونُ أَدْوَأَ مِنْهُ ، فَعَلَيْكَ بِمُعَالَجَةِ نَفْسِكَ مِنْ ذَلِكَ ، وَاللهُ تَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

﴿ وَأَمَّا الِاسْتِعْجَالُ وَالتَّرَقِّي فِي الْبِرِّ ﴾ فَإِنَّهُ الْخَصْلَةُ الْمُفَوِّتَةُ لِلْمَقَاصِدِ الْمُوقِعَةُ فِي الْمَعَاصِي فَإِنَّ مِنْهَا تَبْدُو آفَاتٌ أَرْبَعٌ : إِحْدَاهَا : أَنْ يَقْصِدَ الْعَابِدُ مَنْزِلَةً فِي الْخَيْرِ وَالِاسْتِقَامَةِ وَيَجْتَهِدَ فَرُبَّمَا يَسْتَعْجِلُ فِي نَيْلِهَا ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِوَقْتِهَا ، فَإِمَّا أَنْ يَفْتُرَ وَيَيْأَسَ فَيَتْرُكَ الِاجْتِهَادَ فَيُحْرَمَ تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ ، وَإِمَّا أَنْ يَغْلُوَ فِي الْجُهْدِ وَإِتْعَابِ النَّفْسِ فَيَنْقَطِعَ عَنْ تِلْكَ الْمَنْزِلَةِ فَهُوَ بَيْنَ إِفْرَاطٍ وَتَفْرِيطٍ، وَكِلَاهُمَا نَتِيجَةُ الِاسْتِعْجَالِ . وَلَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ

---

وأكبر من العذاب الحاصل فى الدنيا ( ولقد أحسن أبو يعقوب ) إسحق بن محمد النهرجورى (رحمه الله) صحب أبا عمرو المكي وأبا يعقوب السوسى والجنيد وغيرهم ، مات بمكة مجاورا بها سنة ثلاثين وثلثمائة كما فى الرسالة القشيرية ( فيما قال : اللهم صبرنا على تمام النعم على عبادك وحسن أحوالهم ، و ) اعلم ( أنه ) أى الحسد ( داء يفسد عليك الطاعة ويكثر شرك ومعصيتك ويمنعك ) هذا الداء ( راحة النفس وفهم القلب ، و ) يمنعك ( النصرة على الأعداء والظفر بالمطلوب فأى داء ) أى لاداء ( يكون أدوأ ) أى أكثر داء ( منه ) أى من ذلك الحسد ( فعليك بمعالجة نفسك من ذلك ) الداء الذى هو الحسد ( والله تعالى ولى التوفيق ) والهداية لأقوم الطريق ( بمنه ) تعالى ( وكرمه . وأما الاستعجال والترقى فى البر ) وفى نسخة والنزق أى العجلة والخفة (فانه الخصلة المفوتة للمقاصد ) من أنواع الخيرات ( الموقعة فى المعاصى ) وأنواع الشرور ( فإن منها ) أى تلك الخصلة ( تبدو ) أى تظهر ( آفات أربع : إحداها أن يقصد العابد ) بعبادته ( منزلة ) أى رتبة ( فى الخير والاستقامة ) فيه ( ويجتهد فربما يستعجل ) أى العابد ( فى نيلها ) أى المنزلة ( وليس ذلك ) أى وقت الاستعجال ( بوقتها ) أى المنزلة ، أى نيلها ( فإما أن يفتر ) بفتح الياء وضم التاء من باب دخل أى ينقطع وينكسر العابد ( وييأس ) أى يقنط ( فيترك الاجتهاد ) فى تحصيل تلك المنزلة ( فيحرم ) بالبناء للمفعول : أى يحجب ويمنع ( تلك المنزلة ) التي يقصدها ( وإما أن يغلو ) أى يتجاوز الحد ( فى الجهد وإتعاب النفس فينقطع ) العابد بسبب غلوه فى ذلك الجهد ( عن ) نيل ( تلك المنزلة فهو ) أى هذا العابد المستعجل ( بين إفراط ) أى تجاوز للحد فى أمره ( وتفريط ) أى تقصير ( وكلاهما ) أى الإفراط والتفريط ( نتيجة الاستعجال ) وثمرته ( ولقد روى عن النبى

صلى اللهُ عليهِ وَسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إِنَّ دِينَنَا هٰذَا مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لاَ أَرْضاً قَطَعَ وَلاَ ظَهْرًا أَبْقَى » وَفِى الْمَثَلِ السَّائِرِ : إِنْ لَمْ تَسْتَعْجِلْ تَصِلْ . وَلِقَائِلٍ :

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّى بَعْضَ حَاجَتِهِ     وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

وَالثَّانِيَةُ : أَنْ يَكُونَ لِلْعَابِدِ حَاجَةٌ فَيَدْعُوَ اللهَ تَعَالَى فِيهَا وَيُكْثِرَ الدُّعَاءَ ،

---

صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن دينا ) الذى نحن عليه، وهو ما شرعه الله تعالي ورسوله صلى الله عليه وسلم واستمر العمل به ( هـذا ) إشارة لجلالة الدين ومزيد رفعته وتعظيمه . قال العلامة ابن المدابغي : فالإشارة بلفظ «هذا» فى هذا الحديث لتعظيم المشار إليه الذى هو هنا الدين بالقرب تنزيلا باعتبار جلالته منزلة القريب ، لأن الأمر العظيم من شأنه أن يطلب القرب منه وتتوجه الهمم إلى الوصول إليه، ووافقه العلامة المناوى حيث قال فنكتة الإتيان به : أى باللفظ المذكور التنويه بشأن الدين وعظمته وإحضاره في ذهن السامع كأنه يخبره مشاهدا له ليتميز عنده أكمل تميز ، ولهذا أتى بما يشار به للقريب بيانا لحاله فى القرب ( متين ) أى صلب شديد ( فأوغل فيه برفق ) أى سر فى هذا الدين من غير تحمل ما لاتطيق والإيغال السير الشديد والوغول الدخول فى الشىء ( فإن المنبت ) اسم فاعل من الانبتات بمعنى الانقطاع : أى المنقطع عن أصحابه فى السفر وعطبت راحلته ( لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى ) أى فلا هو قطع الأرض التى قصدها ولا هو أبقى ظهره ، أى راحلته ينتفع به ، وفى كتاب مجمع الأمثال أنه عليه الصلاة والسلام رأى رجلا اجتهد فى العبادة حتى هجمت عيناه، أى غارتا ، فقال له إن هذا الدين متين إلى آخره انتهى ، وهذا الحديث : رواه أحمد والبزار والبيهقى والعسكرى فى الأمثال من حديث جابر وضعف ، وقد روى مختصرا من حديث أنس «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق» رواه هكذا أحمد والضياء، ويروى. إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تكرهوا عبادة الله إلى عباده ، فان المنبت لايقطع سفرا ولا يستبقى ظهرا» . رواه البيهقى من حديث عائشة . وقال البيهقي : روى هذا الحديث من طرق موصولا ومرسلا ومرفوعا وموقوفا وفيه اضطراب ورجح البخارى في التاريخ إرساله ، كذا فى الإتحاف ( وفى المثل السائر ) أي الجارى بين السنة الناس ( إن لم تستعجل تصل ) إلى مطلوبك ، لأن من استعجل شيئا قبل أوانه عوقب بحرمانه كذا قيل ( ولقائل ) شعرا من بحر البسيط ( قد يدرك المتأنى ) أى المتمهل والمتثبت ؛ يقال تأنى فى الأمر وبه واستأنى : ترفق وتمهل وتثبت واتأد وتوقر وانتظر، والرجل: انتظره ( بعض حاجته ؛ وقد يكون مع المستعجل الزلل ) مصدر اسم يكون : أى الهفوات والسقطات وقد يكنى به عن ارتكاب الذنوب (و) الآفة ( الثانية أن يكون للعابد حاجة ) إما دنيوية أو أخروية ( فيدعو الله فيها ) أى الحاجة ( ويكثر ) أى العابد ( الدعاء

وَيَجِدَّ فَرُبَّمَا يَسْتَعْجِلُ الْإِجَابَةَ قَبْلَ وَقْتِهَا فَلاَ يَجِدُهَا فَيَفْتُرُ وَيَسْأَمُ فَيَتْرُكُ الدُّعَاءَ فَيُحْرَمُ حَاجَتَهُ وَمَقْصُودَهُ ،

---

ويجد ) أى يجتهد . قال العلامة عبد الحق : الجد الاجتهاد فى الأمر والمبالغة فيه ( فربما يستعجل الاجابة قبل وقتها فلا يجدها ) أى حاجته ( فيفتر ) أى يضعف ( ويسأم ) أى يمل ( فيترك الدعاء فيحرم ) بالبناء للمفعول : أى يمنع ( حاجته ومقصوده ) وهذا مذموم جدا لأنه جاهل من كل وجه قد يكره الشىء وهو خير له ويحب الشىء وهو شر له ، بل المحمود على العبد كما قاله بعض المشايخ رحمه الله أن يسلم نفسه إلى مولاه ويعلم أن الخيرة له فى جميع مابه يتولاه وإن خالف ذلك مراده وهواه ، فاذا دعا وطلب من مولاه شيئا يرى أن له فيه مصلحة أيقن بالاجابة لامحالة . قال الله عز وجل « ادعونى أستجب لكم » . وقال تعالى « وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » . وعن جابر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مامن أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ماسأل أو كف عنه من السوء مثله مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم » . وعن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما من داع يدعو إلا استجاب الله له دعوته أو صرف عنه مثلها سوءا أو حطّ من ذنوبه بقدرها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم » فإذن الاجابة المطلقة حاصلة لكل داع بحق حسبما ورد الوعد الصدق إلا أن الاجابة أمرها إلى الله تعالى يجعلها متى شاء ، وقد يكون المنع وتأخر العطاء إجابة وعطاء لمن فهم عن الله تعالى ذلك ، فلا ييأس العبد من فضل الله تعالى إذا رأى منعا أو تأخيرا وإن ألحّ فى دعائه وسؤاله ، وقد يكون تأخير ذلك إلى الآخرة خيرا له ، فقد جاء فى بعض الأخبار « يبعث عبد فيقول الله تعالى له ألم آمرك برفع حوائجك إلى ؟ فيقول نعم وقد رفعتها إليك ، فيقول الله تعالى ما سألت شيئا إلا أجبتك فيه ولكن نجزت لك البعض فى الدنيا ومالم أنجزه فى الدنيا فهو مدخر لك نخذه الآن حتى يقول ذلك العبد ليته لم يقض لى حاجة فى الدنيا » . وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى النهى عن الاستعجال فى إجابة الدعاء فى قوله « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول قد دعوت فلم يستجب لى » . وقد دعا موسى وهرون عليهما السلام على فرعون فيما أخبر الله به عنهما حيث قالا « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » ثم أخبر أنه أجاب دعاءهما بقوله سبحانه وتعالى « قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » . قال ابن عباس رضى الله عنهما : بين الدعاء وبين الاجابة بهلاك فرعون أربعون سنة . قال أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه فى قوله تعالى « فاستقيما » : أى على عدم استعجال ما طلبتما ، «ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون» هم الذين يستعجلون الإجابة ، وناهيك شرفا وحظا ما يتحصل له بسبب مداومة الدعاء من محبة الله تعالى وموافقة رضاه ، فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله يحب الملحين فى الدعاء » . وقد جاء فى الحديث قال جبريل

وَالثَّالِثَةُ : أَنْ يَظْلِمَهُ إِنْسَانٌ فَيَغِيظَهُ فَيُعَجِّلَ بِالدُّعَاءِ عَلَيْهِ فَيَهْلِكَ مُسْلِمٌ بِسَبَبِهِ ، وَرُبَّمَا يَتَجَاوَزُ عَنِ الْحَدِّ فَيَقَعُ فِى مَعْصِيَةٍ وَهَلَاكٍ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ( وَيَدْعُو الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً ) وَالرَّابِعَةُ : أَنَّ أَصْلَ الْعِبَادَةِ وَمِلَاكَهَا الْوَرَعُ . وَالْوَرَعُ أَصْلُهُ النَّظَرُ الْبَالِغُ فِى كُلِّ شَىْءٍ ، وَالْبَحْثُ التَّامُّ عَنْ كُلِّ شَىْءٍ هُوَ بِصَدَدِهِ مِنْ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَلُبْسٍ وَكَلَامٍ وَفِعْلٍ ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ مُسْتَعْجِلاً فِى الْأُمُورِ غَيْرَ مُتَأَنٍّ ،

---

عليه السلام يا رب عبدك فلان اقض له حاجته ، فيقول دعوا عبدى فإنى أحب أن أسمع صوته » رواه أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومقتضى هذا أن من الناس من يعجل الله له نوال حاجته لكراهة صوته ، وقد روى هذا المعنى أيضا منصوصا ، فليكن العبد خائفا من ذلك عند تعجيل إجابة دعائه . قال أبو محمد عبد العزيز المهدوىّ رضى الله عنه : كل من لم يكن فى دعائه تاركا لاختياره وراضيا باختيار الحق فهو مستدرج ، وهو ممن قيل له: اقضوا حاجته فإنى أكره أن أسمع صوته ، فإذا كان فى دعائه مع اختيار الحق تعالى لامع اختيار نفسه كان مجابا وإن لم يعط ، والأعمال بخواتيمها انتهى ، وقد تكون الإجابة مرتبة على شروط لاعلم للداعى بها فتؤخر لعدم وقوع ذلك أو بعضه ، وذلك مثل وجوب الاضطرار ، قال الله تعالى « أمن يجيب المضطر إذا دعاه » فرتب الإجابة على الاضطرار . وقال بعض العارفين : إذا أراد الله أن يستجيب دعاء عبد رزقه الاضطرار فى الدعاء ، والاضطرار لايتحققه العبد من نفسه فى جميع حالاته . قال بعضهم: المضطر الذى رفع إلى الله تعالى يده لم ير لنفسه عملا ، وهذا حال شريف ومقام منيف يعسر على أكثر الناس الوصول إليه فكيف يتحقق ماينبنى عليه ﴿ و ) الآفة ( الثالثة أن يظلمه ﴾ أى العابد ( إنسان ) مسلم ( فيغيظه ) أى يغضب الإنسان ذلك العابد المظلوم (فيعجل ) أى العابد (الدعاء عليه) أى على الظالم ( فيهلك مسلم بسببه ) أى بسبب دعائه عليه بالهلاك ( وربما يتجاوز ) العابد في دعائه ( عن الحد فيقع فى معصية وهلاك ) ففى الحديث « إن المظلوم ليدعو على ظالمه حتى يكافئه ثم يبقى للظالم فضل عنده يطالبه به يوم القيامة » . ( قال الله تعالى : ويدعو الإنسان بالشر ) أى يدعو الله عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله ، أو يدعوه بما يحسبه خيرا وهو شر ( دعاءه ) أى مثل دعائه ( بالخير وكان الانسان عجولا ) يسارع إلى كل ما يخطر بباله لاينظر عاقبته . ﴿ و ) الآفة ( الرابعة أن أصل العبادة وملاكها ﴾ أى قوامها ( الورع ) وهو ترك الشبهات والفضلات وما لا تدعو إليه حاجة دينية كما قاله شيخ الاسلام ( والورع أصله النظر البالغ ) أى الفكر الكامل ( فى كل شىء والبحث التام عن كل شىء هو ) أى العابد ( بصدده ) أى بقصد كل شئ ( من أكل وشرب ولبس ) للثياب ( وكلام وفعل ، فإذا كان الرجل ) العابد ( مستعجلا فى الأمور ) أى ( غير متأن

وَلاَ مُتَثَبِّتٍ مُتَبَيِّنٍ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ تَوَقُّفٌ وَنَظَرٌ فِي الْأُمُورِ كَمَا يَجِبُ ، وَيَتَسَارَعُ إِلَى كَلَامٍ فَيَقَعُ فِي الزَّلَلِ ، وَإِلَى كُلِّ طَعَامٍ فَيَقَعُ فِي الْحَرَامِ وَالشُّبْهَةِ ، وَكَذَلِكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ فَيُفَوِّتُهُ الْوَرَعُ وَأَيُّ خَيْرٍ فِي عِبَادَةٍ بِلاَ وَرَعٍ ؟ وَإِذَا كَانَ فِي خَصْلَةِ الْانْقِطَاعِ عَنْ مَنَازِلِ الْخَيْرِ وَحِرْمَانِ الْحَاجَاتِ وَهَلاَكِ الْمُسْلِمِينَ وَهَلاَكِهِ ، ثُمَّ خَطَرِ فَوْتِ الْوَرَعِ الَّذِي هُوَ رَأْسُ الْمَالِ فَحَقٌّ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَهْتَمَّ لَهَا بِالْإِزَالَةِ وَإِصْلاَحِ النَّفْسِ بَعْدَهَا ، وَاللهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ .

( وَأَمَّا الْكِبْرُ ) فَإِنَّهُ الْخَصْلَةُ الْمُهْلِكَةُ رَأْسًا ، أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تَعَالَى : (أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ )

---

ولا متثبت متبين ) أى طالب للبيان ( لم يقع منه ) أى من الرجل المستعجل (توقف ونظر فى الأمور كما يجب) من التوقف والتأمل فيها ( ويتسارع إلى كلام فيقع فى الزلل و ) يتسارع ( إلى كل طعام) وشراب ولبس ( فيقع فى الحرام والشبهة ، وكذلك ) أى مثل الوقوع فى الزلل والحرام (فى كل أمر) يفعله ( فيفوته ) أى المستعجل (الورع ،وأى خير) أى لاخير (فى عبادة بلا ورع ،وإذاكان) المستعجل (فى خصلة الانقطاع عن منازل ) أى مراتب ( الخير وحرمان الحاجات وهلاك المسلمين وهلاكه ثم ) فى ( خطر فوت الورع الذى هو ) أى الورع (رأس المال ) أى أصله (فحق) أى وجب (للانسان) المريد لمنازل الخير والاستقامة ( أن يهتم لها ) أى للخصلة التى هى الآفات الأربع ( بالإزالة وإصلاح النفس بعدها ) أى بعد إزالتها (والله ولى التوفيق بمنه وفضله) تعالى. ﴿وأما الكبر﴾ بكسر فسكون اسم من التكبر . قال ابن القوطية : هو اسم من كبر الأمر إذا عظم ، والكبر العظمة والكبرياء مثله ، ويقال كبر الصغير وغيره يكبر من باب تعب كبرا وزان عنب ومكبرا كمسجد فهو كبير ، وكبر الشىء من باب قرب : عظم فهو كبير أيضا والاستكبار مثل التكبر ؛ فالكبر اسم لحالة يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه ، وأن يرى نفسه أعظم من غيره ( فإنه الخصلة المهلكة رأسا ) أى ابتداء غير مستطرد إليه من غيره ( أما تسمع قوله تعالى : أبى ) أى امتنع إبليس من السجود فلم يسجد ( واستكبر ) أى تكبر وتعظم عن السجود لآدم ( وكان من الكافرين ) أى فى علم الله ، أو صار منهم باستقباحه أمر الله تعالى إياه بالسجود لآدم واعتقادا بأنه أفضل منه والأفضل لايحسن أن يؤمر بالتخضع للمفضول بالتوسل به كما أشعر به قوله « أنا خير منه » جوابا لقوله « مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين » لابترك الواجب وحده كما فى البيضاوى وقد ذم الله تعالى الكبر فى مواضع من كتابه فقال تعالى « لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا » وقال تعالى « إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » وذم الكبر فى القرآن كثير ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ، ولا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان »

وَلَيْسَتْ هٰذِهِ الْخَصْلَةُ بِمَنْزِلَةِ سَائِرِ الْخِصَالِ الَّتِى تَقْدَحُ فِى عَمَلٍ وَتَضُرُّ بِفَرْعٍ وَإِنَّمَا تَضُرُّ بِالْأَصْلِ

---

وقال صلى الله عليه وسلم « تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة مالى لا يدخلنى إلا الضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم ، فقال الله للجنة إنما أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى ، وقال للنار إنما أنت عذابى أعذب بك من أشاء ، ولكل واحدة منكما ملؤها » وقال صلى الله عليه وسلم « بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسى الجبار الأعلى ، بئس العبد عبد تجبر واختال ونسى الكبير المتعال ، بئس العبد عبد غفل وسها ونسى المقابر والبلى ، بئس العبد عبد عتا وبغى ونسى المبدأ والمنتهى » وعن ثابت أنه قال « بلغنا أنه قيل يا رسول الله ما أعظم كبر فلان؟ فقال أليس بعده الموت » وعن محمد بن واسع قال : دخلت على بلال بن أبى بردة فقلت له: يا بلال إن أباك حدثنى عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن فى جهنم واديا يقال له هبهب حق على الله أن يسكنه كل جبار ، فإياك يا بلال أن تكون ممن يسكنه » وقال صلى الله عليه وسلم « إن فى النار قصرا يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم » وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم إنى أعوذ بك من نفخة الكبرياء » وقال « من فارق روحه جسده وهو برىء من ثلاث دخل الجنة: الكبر والدين والغلول »

ومن الآثار التى وردت فى ذم الكبر : قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : لا يحقرن أحد أحدا فإن صغير المسلمين عند الله كبير . وقال وهب بن منبه رحمه الله تعالى : لما خلق الله جنة عدن نظر إليها فقال : أنت حرام على كل متكبر . وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره ، فجاء يوما ومصعب ماد رجليه فلم يقبضهما وقعد الأحنف فزحمه بعض الزحمة فرأى أثر ذلك فى وجهه ، فقال الأحنف : عجبا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين :أى مرة من مجرى بول أبيه ، وثانية من مجرى بول أمه . وقال الحسن البصرى رحمه الله: العجب من ابن آدم يغسل الخرء بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يتكبر يعارض جبار السموات . وقال محمد ابن على بن الحسين بن على رضي الله عنهم : ما دخل قلب امرىء شىء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قل أو كثر .

وسئل سلمان الفارسى رضى الله عنه عن السيئة التى لا تنفع معها حسنة ؟ فقال الكبر . وقال النعمان بن بشير على المنبر : إن للشيطان مصالى وفخوخا وإن من مصالى الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله ، والفخر بإعطاء الله ، والكبر على عباد الله ، واتباع الهوى فى غير ذات الله . والأدلة من الآيات والأخبار والآثار فى ذم الكبر كثيرة ، وفيما ذكرناه كفاية لأصحاب العقول الكاملة ( وليست هذه الخصلة ) التي هى الكبر ( بمنزلة سائر الخصال التي تقدح فى عمل ) من الأعمال ( وتضر ) أى الخصال ( بفرع ) من المسائل الفرعية ( وإنما تضر ) أى هذه الخصلة ( بالأصل )

وَتَقْدَحُ فى الدِّينِ وَالِاعْتِقَادِ ، وَإِذَا قَوِيَتْ وَغَلَبَتْ لَا تُتَدَارَكُ ، وَالْعِيَاذُ بِاللهِ ، ثُمَّ أَقَلُّ مَا يَهِيجُ مِنْهَا عَلَى صَاحِبِهَا أَرْبَعُ آفَاتٍ :

إِحْدَاهَا : حِرْمَانُ الْحَقِّ ، وَعَمَى الْقَلْبِ عَنْ مَعْرِفَةِ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى ، وَفَهْمِ أَحْكَامِ اللهِ تَعَالَى . قالَ اللهُ تعالى : ( سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ) . وَقَالَ تَعَالَى : ( كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ) .

وَالثَّانِيَةُ : الْمَقْتُ وَالْبُغْضُ مِنَ اللهِ تَعَالَى ، قالَ اللهُ تعالى : ( إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ) وَرُوِىَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قالَ : « يَا رَبِّ مَنْ أَبْغَضُ خَلْقِكَ إِلَيْكَ ؟ قالَ : مَنْ تَكَبَّرَ قَلْبُهُ ، وَغَلُظَ لِسَانُهُ ، وَصَفِقَ عَيْنُهُ ، وَبَخِلَتْ يَدُهُ ، وَسَاءَ خُلُقُهُ » .

وَالثَّالِثَةُ : الْخِزْىُ وَالنَّكَالُ ،

---

أى الإيمان ( وتقدح فى الدين والاعتقاد ، وإذا قويت وغلبت ) أى تلك الخصلة ( لا تتدارك ) أى بالحسنة كما قاله الفارسى ( والعياذ بالله ) من تلك الخصلة المهلكة ( ثم أقل ما يهيج ) أى يتحرك ( منها ) أى الخصلة ( على صاحبها أربع آفات : إحداها حرمان الحق وعمى القلب ) كناية عن الضلالة والعلاقة عدم الاهتداء ( عن معرفة آيات الله تعالى ، و ) عن ( فهم أحكام الله تعالى . قال الله تعالى : سأصرف عن آياتى ) المنصوبة فى الآفاق والأنفس . قال ابن جريج: عن خلق السموات والأرض وما فيهما من الآيات ( الذين يتكبرون فى الأرض ) بالطبع على قلوبهم فلا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها ( بغير الحق ) صلة يتكبرون : أى يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل أو حال من فاعله . قيل فى التفسير : سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم ؛ وذلك بالطبع عليها . رواه ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عيينة ، وفى بعض التفاسير: سأحجب قلوبهم عن الملكوت فلا يشاهدون أسرارها ، وقيل سأصرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا ( وقال تعالى كذلك ) أى مثل إضلالهم ( يطبع ) يختم ( الله ) بالضلال ( على كل قلب متكبر جبار ) بتنوين قلب ودونه ، ومتى تكبر القلب تكبر صاحبه وبالعكس كما فسره بعض المفسرين ( و ) الآفة ( الثانية المقت والبغض ) عطف تفسير كما أفاده صنيع المختار ( من الله تعالى ، قال الله تعالى: إنه ) سبحانه وتعالى ( لا يحب المستكبرين ) فضلا عن الذين استكبروا عن توحيده أو اتباع رسوله ( وروى أن موسى عليه السلام قال : يارب من أبغض خلقك إليك ؟ قال ) الله تعالى ( من تكبر قلبه وغلظ لسانه ) أى بالكلام الفحش ( وصفق عينه ) أى ردها وغمضها عن أنواع الخيرات ( وبخلت يده وساء خلقه ) بضمتين . أى صورة باطنه ، ولذلك قيل: خصلتان لا يجتمعان فى مؤمن: البخل وسوء الخلق. ( و ) الآفة ( الثالثة الخزى ) أى الهوان ( والنكال ) أى العقاب، والنكال فى الأصل اسم للقيد من الحديد

فى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، قالَ حَاتِمٌ رَحِمَهُ اللهُ : أُجْتَنِبُ أَنْ يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ عَلَى ثَلَاثَةٍ : عَلَى الْكِبْرِ ، وَالْحِرْصِ ، وَالْخُيَلَاءِ ،

---

واللجام لأنه يمنع به ؛ وسمى العقاب نكالا لأنه يمنع به غير المعاقب أن يفعل فعله ويمنع المعاقب أن يعود إلى فعله الأول ، والتنكيل : إصابة الغير بالنكال ليرتدع غيره ، ونكل عن كذا ينكل نكولا : امتنع ( فى الدنيا والآخرة. قال ) أبو عبد الرحمن ( حاتم ) بن علوان ( رحمه الله ) توفى سنة سبع وثلاثين ومائتين ، وتقدمت ترجمته ( اجتنب أن يدركك الموت على ثلاثة : على الكبر ) أى التكبر ( والحرص ) على المال والدنيا . قال صلى الله عليه وسلم كما فى مسلم وغيره « يهرم ابن آدم ، وتشب معه خصلتان : الحرص على المال ، والحرص على العمر . قلب الشيخ شاب على حب اثنتين : حب العيش والمال » وقال عليه الصلاة والسلام « أخوف ما أخاف على أمتى الهوى وطول الأمل » . وقال عليه الصلاة والسلام « إن الله ليغضب للسائل الصدوق كما يغضب لنفسه » . وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة الواردة فى ذم ذلك .

واعلم أن الحرص من أسباب البخل ، وهو من الصفات الذميمة الوخيمة التى جبل عليها الإنسان كالطمع وقلة القناعة . حكى أن أعرابيا عتب أخاه على الحرص فقال : يا أخى أنت طالب ومطلوب يطلبك من لا تفوته ، وتطلب أنت ما قد تفيته ، وكأن ما غاب عنك قد كشف لك ، وما أنت فيه قد نقلت عنه كأنك يا أخى لم تر حريصا محروما ولا زاهدا مرزوقا ، وفى ذلك قيل وأحسن من قاله :

أراك يزيدك الإثراء حرصا ... على الدنيا كأنك لا تموت

فهل لك غاية إن صرت يوما ... إليها قلت حسبى قد رضيت

ولأبى الطيب المتنبى :

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله ... مخافة فقر فالذى فعل الفقر

أى إنفاق نفيس عمره فى إتعاب النفس على مضمون خشية أن يفتقر هو عين الفقر الحاضر . وقد بسط الكلام وأطال فى بيان ذلك مصنفنا حجة الإسلام رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين ( والخيلاء ) بضم الخاء ، وحكى كسرها فى المحكم وغيره والياء مفتوحة ممدودا . قال النووى قال العلماء : الخيلاء والمخيلة والبطر والزهو والتبختر كلها بمعنى واحد ، وهو حرام . ويقال خال الرجل خالا واختال اختيالا إذا تكبر وهو رجل خال : أى متكبر وصاحب خال : أى صاحب كبر انتهى . وفى [ محيط المحيط ] : الخيلاء والمخيلة : العجب والكبر . وقال العراقى فى شرح الترمذى وكأنه مأخوذ من التخيل إلى الظن ، وهو أن يخيل له أنه بصفة عظيمة وهو مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تعظم فى نفسه واختال فى مشيته لقى الله وهو عليه غضبان » وقد بسط

فَإِنَّ الْمُتَكَبِّرَ لاَ يُخْرِجُهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يُرِيَهُ الْهَوَانَ مِنْ أَرْذَلِ أَهْلِهِ وَخُدَّامِهِ ، وَالْحَرِيصُ لاَ يُخْرِجُهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يُحْوِجَهُ إِلَى كِسْرَةٍ أَوْ شَرْبَةٍ وَلاَ يَجِدُ مَسَاغاً ، وَالْمُخْتَالُ لاَ يُخْرِجُهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يُمَرِّغَهُ اللهُ بِبَوْلِهِ وَقَذَرِهِ ؛ وَقِيلَ: مَنْ تَكَبَّرَ بِغَيْرِ حَقٍّ أَوْرَثَهُ اللهُ تَعَالَى ذُلاًّ بِحَقٍّ .

وَالرَّابِعَةُ : النَّارُ وَالْعَذَابُ فِى الْعُقْبَى عَلَى مَا رُوِىَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِى وَالْعَظَمَةُ إِزَارِى ، فَمَنْ نَازَعَنِى

---

الكلام فى ذلك حجة الاسلام رحمه الله تعالى (فإن المتكبر لايخرجه الله تعالى من) دار ( الدنيا حتى يريه الهوان ) نقيض العز (من أرذل أهله وخدامه) أى المتكبر (والحريص لايخرجه الله تعالى من الدنيا ) أى من دارها ( حتى يحوجه) الله عز وجل ( إلى كسرة ) أى قطعة من الخبز ، وفى [محيط المحيط] : الكسرة القطعة من الشىء المكسور ، ومنه الكسرة من الخبز جمعه كسر وكسرات (أو شربة ) من الماء ، وفى [محيط المحيط] الشربة المرة ، ومن الماء مايشرب دفعة واحدة ، وفيه أيضا الشربة مقدار الرى من الماء كالحسوة ( ولا يجد ) أى الحريص ( مساغا ) أى مدخلا سهلا فى الحلق ( والمختال ) أى المتكبر المعجب بنفسه ( لايخرجه الله تعالى من الدنيا حتى يمرغه ) بضم الياء وفتح الميم مع كسر الراء المشددة من التمريغ : أى يقلب الله ذلك المختال ويلوثه ( ببوله وقذره ) أى وسخه وغائطه . والجمع أقذار كما فى محيط المحيط ( وقيل من تكبر بغير حق أورثه الله تعالى ذلا) أى هوانا (بحق . و) الآفة ( الرابعة النار والعذاب فى العقبى ) أى فى الآخرة وذلك ( على ماروى أن الله تعالى يقول : الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ) اختلفوا فى معنى ذلك ، فقال الكلاباذى : الرداء عبارة عن الجمال والبهاء ، والإزار عبارة عن الجمال والستر والحجاب ، فكأنه قال : لايليق الكبرياء إلا بى ، لأن من دونى صفات الحدوث ، لازمة له وسمة العجز ظاهرة عليه . والإزار عبارة عن الإقناع عن الإدراك والإحاطة به علما والكيفية لذاته وصفاته ، فكأنه قال : حجبت خلق عن إدراك ذاتى وكيفية صفاتى بالجلال والعظمة . وقال عياض : الكبرياء الكبر ، وهو الترفع على الغير ، بأن يرى لنفسه عليه شرفا ، والعظمة كون الشىء فى نفسه كاملا شريفا مستغنيا ، فالأول أرفع من الثانى ، إذ هو غاية العظمة فلذا مثله بالرداء . وقيل الكبرياء الترفع عن الانقياد ، وذلك لايستحقه إلا الحق ؛ فكبرياء ألوهيته التى هى عبارة عن استغنائه واستعلائه ومثلهما بالرداء إبرازا للمعقول فى صورة المحسوس ، فكما لايشارك الرجل فى ردائه وإزاره لايشارك البارى فى هذين فانه الكامل المنعم المنفرد بالبقاء وما سواه ناقص محتاج . وقال العلامة الزبيدى الكبرياء كناية عن كمال الذات . وأعنى بكمال الذات كمال الوجود ، وكمال الوجود يرجع إلى شيئين : أحدهما دوامه أزلا وأبدا . والثانى أن وجوده هو الوجود الذى يصدر عنه وجود كل موجود ، ومعنى كونهما إزاره ورداءه أنهما من خاص صفاته كما يليق به ( فمن نازعنى ) أى جاذبنى

فِى وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَدْخَلْتُهُ نَارَ جَهَنَّمَ .

وَالمَعْنَى أَنَّ الْعَظَمَةَ وَالْكِبْرِيَاءَ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِى تَخْتَصُّ بِى ؛ فَلَا تَنْبَغِى لِأَحَدٍ غَيْرِى كَمَا أَنَّ رِدَاءَ الْإِنْسَانِ وَإِزَارَهُ يُخْتَصُّ بِهِ لَا يُشَارَكُ فِيهِ وَإِنَّ خَصْلَةً تَفُوِّتُكَ مَعْرِفَةَ الْحَقِّ وَفَهْمَ مَعَانِى آيَاتِ اللهِ تَعَالَى وَأَحْكَامِهِ الَّذِى هُوَ أَصْلُ الْأَمْرِ كُلِّهِ تُثْمِرُ لَكَ الْمَقْتَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَالْخِزْىَ فِى الدُّنْيَا وَالنَّارَ فِى الآخِرَةِ ؛ لَا يَنْبَغِى لِعَاقِلٍ أَنْ يَغْفُلَ عَنْ نَفْسِهِ فَلَا يُصْلِحُهَا بِإِزَالَتِهَا بِالْحَذَرِ وَالتَّحَرُّزِ وَالِاسْتِعَاذَةِ بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ جَلَّ وَعَزَّ وَلِىُّ الْعِصْمَةِ

---

( فى واحد منهما ) بأن تعظم على عبادى وتكبر ( أدخلته نار جهنم ) ولا أبالى كما فى رواية قال الزمخشرى هذا وارد عن غضب شديد ومناد على سخط عظيم. وقال صاحب الحكم : كن بأوصاف ربوبيته متعلقا ، وبأوصاف عبوديتك متحققا ، منعك أن تدعى ماليس لك مما للمخلوقين ، أفيبيح لك أن تدعى وصفه وهو رب العالمين ؟ وقد أفاد هذا الوعيد أن التكبر والتعاظم من الكبائر ، قال العراقى : وهذا الحديث رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه واللفظ له . وقال أبو داود « قذفته فى النار » وقال مسلم : عذبته . وقال رداؤه وإزاره بالغيبة ، وزاد مع أبى هريرة أبا سعيد أيضا . وقال الزبيدى وبلفظ أبى داود رواه أيضا أحمد وهناد والدارقطنى فى الأفراد ، ورواه ابن حبان فى صحيحه بلفظ : ألقيته فى النار ، ورواه القضاعى فى مسنده من طريق عطاء ابن السائب عن أبيه عن أبى هريرة مثله ، ورواه سمويه فى فوائده من حديث أبى هريرة وأبى سعيد معا بلفظ مسلم إلا أنه قال : ردائى وإزارى ، ورواه الحاكم فى مستدركه من وجوه أخر بلفظ : قصمته وبدون ذكر العظمة ، وعند الحكيم الترمذى من حديث أنس « يقول الله عز وجل : لى العظمة والكبرياء والفخر والقدر سرى ، فمن نازعنى واحدة منهن كببته فى النار » ( والمعنى ) أى معنى هذا الحديث ( أن العظمة والكبرياء من ) جملة ( الصفات التى تختص بى فلا تنبغى ) ولا تليق ( لأحد غيرى كما أن رداء الإنسان وإزاره يختص ) بالبناء للمفعول : أى يختص الرداء والإزار ( به ) أى بالإنسان ( لايشارك ) أى لايشاركه أحد ( فيه ) أى فى ذلك الرداء والإزار ( و ) بعد أن عرفت ماذكر اعلم ( أن خصلة ) يعنى الكبر ( تفوتك معرفة الحق و ) تفوتك ( فهم معانى آيات الله تعالى و ) فهم ( أحكامه الذى ) نعت للمعرفة ( هو أصل الأمر ) أى أمر الدين ( كله ثم تثمر ) أى تلك الخصلة ( لك المقت ) والبغض ( من الله سبحانه وتعالى و ) تثمر ( الخزى ) أى الذل ( فى الدنيا و ) توجب ( النار فى الآخرة لاينبغى ) خبر أن خصلة ( لعاقل أن يغفل ) بضم الفاء ( عن نفسه فلا يصلحها بازالتها ) أى الخصلة ( بالحذر والتحرز والاستعاذة بالله من ذلك ) أى من الخصلة التى تثمر الخزى فى الدنيا والنار فى الآخرة (وهو جل وعز ولى العصمة) أى الحفظ

وَالتَّوْفِيقِ بِمَنِّهِ ،

---

( والتوفيق بمنه ) وكرمه تعالى . ولنذكر طريق معالجة الكبر على الاختصار لأنه يتعين على كل إنسان الخلاص من ورطته إذ هو من المهلكات ولا يخلو أحد من شيء منه ، فإزالته فرض عين كما قاله المصنف أبو حامد وغيره ، ولا تمكن تلك الإزالة بمجرد التمنى بل بالمعالجة باستعمال أدويته النافعة فى إزالته من أصله ، فأقول : طريق ذلك كما ذكره العلامة ابن سعيد باصيل مفتى الشافعية وغيره : أن يعرف الإنسان نفسه حق المعرفة ، وذلك بأن يتأمل أن بدايته من أذل الأشياء وأحقرها وهو التراب ، ثم المنى ووسطه من عدم التأهل لاكتساب العلوم والمعارف وحيازة المناصب ونهايته الزوال والفناء والعود إلى مثل بدايته ، ثم إعادته إلى ذلك الموقف الأكبر ، ثم إلى الجنة أو النار ، ومن أظهر ما أشار لكل ذلك قوله تعالى « قتل الإنسان ما أكفره ؟ من أى شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره » وقوله تعالى : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا » الآيات ، فما صار شيئا مذكورا إلا وهو على أخس الأوصاف والنعوت إذ لم يخلق فى ابتدائه كاملا ، بل خلقه جمادا ميتا لايسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم ، فبدأ بموته الذى هو العدم قبل حياته ، وهى الوجود ، وبضعفه قبل قوته ، وبجهله قبل علمه ، وبعماه قبل بصره ، وبصممه قبل سمعه ، وببكمه قبل نطقه ، وبضلالته قبل هداه ، وبفقره قبل غناه ، وبعجزه قبل قدرته ؟ فمن تأمل ذلك ونظائره علم أنه أذل وأحقر من كل ذليل وحقير ، ولا يليق به إلا الذل والتواضع والمهانة ، فتلك أخص أوصافه بأن يعرف ربه ليعلم أنه لا تليق العظمة والكبرياء والجلال إلا له عز وجل بخلاف نفسه ، فإنه لايليق به الفرح لحظة ، فكيف البطر والخيلاء ولو ظهر له آخر أمره والعياذ بالله تعالى لربما اختار أن يكون بهيمة ولو كلبا ليصير معها ترابا ولا يكون إنسانا يسمع خطابا أو يلقى عذابا سيما إن كان فى علمه تعالى أنه من أهل النار ، فمن هذا حاله وعاقبته كيف يتكبر ويرى نفسه شيئا حتى يعتقد له فضلا ؟ وأى عبد لم يذنب ذنبا يستحق به العقوبة إلا أن يعفو الله الكريم بفضله وإحسانه ويجبر الكسر بمنه والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظن ؛ فمن تأمل ذلك حقيقة التأمل زال عنه النظر لعلمه وعمله ونحوهما وتواضع لله وقر إليه من كل شيء ، وعلم أنه أحقر وأذل شيء ، كيف وهو يجوز أن يكون عند الله شقيا . ومما يظهر التكبر الكامن فى النفس ويعلم به من سولت له نفسه أنها متنزهة عنه أن يناظر فى مسئلة مع بعض أقرانه ويظهر الحق على يد صاحبه فان اطمأن لقبوله وأعلن بشكره وفضله إذ ظهر له الحق على يديه وكان كذلك مع كل مناظر ظهرت القرائن علي براءته من الكبر ، وإن اختل شرط من ذلك فهو كامن فيه ، فعليه علاجه بالتفكر فيما مر ونحوه إلى أن تنقطع عروقه من نفسه وبأن يقدم أقرانه على نفسه فى المجالس ونحوها ، لكن على وجه لايظن به فيه أظهر تواضعا وإلا كأن يترك صفهم ويجلس مع النعال كان ذلك عين الكبر ، وبأن يجيب دعوة الفقير ويحادثه

فَهٰذَا بَعْضُ مَاحَضَرَنَا فِي هٰذِهِ الخِصَالِ الأَرْبَعِ مِنَ الآفَاتِ، وَحَسْبُ العَاقِلِ وَاحِدَةٌ مِنْهَا فَضْلاً عَنِ الكُلِّ إِذَا أَهَمَّهُ أَمْرُ قَلْبِهِ وَحَامَى عَنْ أَمْرِ دِينِهِ، وَاللهُ المُوَفِّقُ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَإِذَا كَانَ الأَمْرُ بِهٰذِهِ المَنْزِلَةِ مِنْ آفَاتِ هٰذِهِ الخِصَالِ وَلُزُومِ التَّحَفُّظِ مِنْهَا فَلَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ حَقِيقَتِهَا وَحَدِّهَا ، فَبَيِّنْ لَنَا ذٰلِكَ لِنَعْرِفَ كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى التَّحَفُّظِ عَنْهَا .

فَاعْلَمْ أَنَّ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا كَلَامًا كَثِيرًا وَقَدْ أَشْبَعْنَا القَوْلَ فِيهِ فِي كِتَابِ الإِحْيَاءِ وَالأَسْرَارِ ، وَنَحْنُ نَذْكُرُ مَالَابُدَّ مِنْ ذِكْرِهِ وَلَا يَقَعُ الغِنَى عَنْهُ فَنَقُولُ وَ بِاللهِ التَّوْفِيقُ :

أَمَّا الأَمَلُ فَقَالَ أَكْثَرُ عُلَمَائِنَا رَحِمَهُمُ اللهُ : إِنَّهُ إِرَادَةُ الحَيَاةِ لِلوَقْتِ

---

ويجالسه ويمر فى الأسواق لحاجته وحاجة الفقراء والمنقطعين ، وبأن يحمل حاجته وحاجة غيره فان ذلك براءة من الكبر كما فى الحديث ، ويستوي ذلك عنده فى الخلا وبحضرة الملا ، وإلا فهو متكبر أو مراء وكل ذلك من أمراض القلوب وعللها المهلكة إن لم يتدارك وقد أهمل الناس طبها واشتغلوا بطب الأجساد مع أنه لاسلامة فى الآخرة إلا بسلامة القلوب . قال الله تعالى « إلا من أتى الله بقلب سليم » أى من الشرك أو مما سوى الله ، والله ولى التوفيق والهداية ( فهذا ) أى الذى ذكرناه فى هذا المختصر (بعض ماحضرنا فى هذه الخصال الأربع) وهى طول الأمل والاستعجال والحسد والكبر ( من الآفات؛ وحسب ) أى كاف ( العاقل واحدة منها ) أى من الخصال الأربع ( فضلا عن الكل ) أى كل هذه الخصال ( إذا أهمه ) أى العاقل ( أمر قلبه وحامى عن أمر دينه ) أى حافظ عليه ( والله الموفق . فان قلت فانها كان الأمر بهذه المنزلة من آفات هذه الخصال ) الأربع ( ولزوم التحفظ منها ) أى من آفاتها ( فلا بد من معرفة حقيقتها وحدّها ) أى الخصال الأربع ( فبين لنا ذلك ) أي المذكور من حقيقتها وحدّها ( لنعرف الطريق إلى التحفظ منها ) أى تلك الآفات ( فاعلم أن فى كل واحدة منها ) أى من الخصال الأربع (كلاما كثيرا) لا يحتمله هذا الكتاب لوفاء العهد بالاختصار كما علم من خطبته (وقد أشبعنا القول) استوفيناه وأكثرناه يقال أشبع الكلام : أى فخمه وأحكمه واستوفاه كما فى محيط المحيط (فيه) أى فى كل هذه الخصال ( فى ) تصنيفنا (كتاب الإحياء ) أى إحياء علوم الدين.( والأسرار ) أى أسرار معاملات الدين ( ونحن نذكر ههنا) أى فى هذا المختصر المسمى بالمنهاج ( ما ) أى قولا مختصرا ( لابد ) أى لاغنى ( من ذكره ولا يقع الغنى ) مقصودا وهو الكفاية (عنه) أى عن القول المختصر ( فنقول وبالله التوفيق : أما الأمل ) أى طوله ( فقال أكثر علمائنا رحمهم الله : إنه إرادة الحياة للوقت

الْمُتَرَاخِي بِالْحُكْمِ، وَقِصَرُ الْأَمَلِ تَرْكُ الْحُكْمِ فِيهِ بِأَنْ تُقَيِّدَهُ بِالْاسْتِثْنَاءِ بِمَشِيئَةِ اللهِ وَعِلْمِهِ فِي الذِّكْرِ أَوْ بِشَرْطِ الصَّلَاحِ فِي الْإِرَادَةِ، فَإِذَنْ إِنْ ذَكَرْتَ حَيَاتَكَ بِأَنِّي أَعِيشُ بَعْدَ نَفَسٍ ثَانٍ أَوْ سَاعَةٍ ثَانِيَةٍ أَوْ يَوْمٍ ثَانٍ بِالْحُكْمِ وَالْقَطْعِ، فَأَنْتَ آمِلٌ وَذَلِكَ مِنْكَ مَعْصِيَةٌ إِذْ هُوَ حُكْمٌ عَلَى الْغَيْبِ، فَإِنْ قَيَّدْتَهُ بِالْمَشِيئَةِ وَالْعِلْمِ مِنَ اللهِ فَقُلْتَ أَعِيشُ إِنْ شَاءَ اللهُ أَوْ إِنْ عَلِمَ اللهُ أَنْ أَعِيشَ فَقَدْ خَرَجْتَ عَنْ حُكْمِ الْأَمَلِ وَوُصِفْتَ بِتَرْكِ الْأَمَلِ، وَكَذَلِكَ إِنْ أَرَدْتَ حَيَاتَكَ لِلْوَقْتِ الثَّانِي قَطْعًا فَأَنْتَ آمِلٌ، وَإِنْ قَيَّدْتَ إِرَادَتَكَ بِشَرْطِ الصَّلَاحِ خَرَجْتَ عَنْ حُكْمِ الْأَمَلِ وَوُصِفْتَ بِقِصَرِ الْأَمَلِ مِنْ حَيْثُ تَرَكْتَ الْحُكْمَ فِيهِ فَعَلَيْكَ بِتَرْكِ الْحُكْمِ فِي ذِكْرِ الْبَقَاءِ وَإِرَادَتِهِ، وَالْمُرَادُ بِالذِّكْرِ ذِكْرُ الْقَلْبِ، ثُمَّ الْمُرَادُ مِنْهُ التَّوْطِينُ عَلَى ذَلِكَ وَالتَّثْبِيتُ لِلْقَلْبِ عَلَيْهِ، فَافْهَمْ ذَلِكَ رَاشِدًا إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

---

المتراخي) أي المتسع والمنتظر (بالحكم، وقصر الأمل) هو (ترك الحكم فيه) أي في الأمل (بأن تقيده) أي الأمل (بالاستثناء بمشيئة الله وعلمه) تعالى (في الذكر) أي بأن تقول إن شاء الله أو تقول إن علم الله أن أعيش ونحو ذلك (أو) تقيده (بشرط الصلاح في الارادة، فإذن) أي فحين إذ عرفت ما قاله هؤلاء الأعلام في الأمل اعلم أنك (إن ذكرت حياتك بأني أعيش بعد نفس) بفتح الفاء ريح يدخل ويخرج من فم وأنف الحي ذي الرئة حال التنفس والجمع أنفاس كما في محيط المحيط (ثان أو) بعد (ساعة ثانية أو يوم ثان بالحكم والقطع) أي الجزم (فأنت آمل) أي ذو أمل طويل (وذلك) أي صدور الأمل بالحكم والقطع (منك معصية إذ هو) أي الحكم والقطع أنك حي بعد لحظة من الزمان (حكم على الغيب) أي ما غاب عنك (فان قيدته) أي الأمل بمعنى إرادة الحياة للوقت المتراخي (بالمشيئة والعلم من الله فقلت: أعيش إن شاء الله أو إن علم الله أن أعيش فقد خرجت عن حكم الأمل ووصفت) بالبناء للمفعول (بترك الأمل، وكذلك) أي مثل المعصية (إن أردت حياتك للوقت الثاني قطعا) أي جزما (فأنت آمل، وإن قيدت إرادتك بشرط الصلاح خرجت عن حكم الأمل ووصفت) بالبناء المفعول (بقصر الأمل من حيث تركت الحكم فيه) أي الأمل (فعليك) أي الزم (بترك الحكم في ذكر البقاء) أي الحياة (وإرادته) أي البقاء (والمراد بالذكر ذكر القلب) لا ذكر اللسان (ثم المراد منه) أي من ذكر القلب (التوطين) أي تقرير القلب وتمهيده، وفي [محيط المحيط]: وطن نفسه على الأمر مهدها لفعله وذللها وسكنها وأقرها عليه (على ذلك) أي على ترك الحكم في الأمل (والتثبيت للقلب عليه) أي ترك الحكم فيه (فافهم ذلك) المراد الذي ذكر (راشدا) أي إصابة للرشد والصواب (إن شاء الله عز وجل.

ثُمَّ الْأَمَلُ ضَرْبَانِ: أَمَلُ الْعَامَّةِ وَأَمَلُ الْخَاصَّةِ، فَأَمَلُ الْعَامَّةِ أَنْ تُرِيدَ الْحَيَاةَ وَالْبَقَاءَ لِجَمْعِ الدُّنْيَا وَالتَّمَتُّعِ بِهَا، وَهٰذِهِ مَعْصِيَةٌ مَحْضَةٌ، وَضِدُّهَا قِصَرُ الْأَمَلِ. قَالَ اللّٰهُ تَعَالَى: (فَذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ). وَأَمَّا الْخَاصَّةُ فَأَنْ تُرِيدَ الْبَقَاءَ لِإِتْمَامِ عَمَلِ خَيْرٍ فِيهِ خَطَرٌ وَهُوَ مَالَا يَسْتَيْقِنُ الصَّلَاحَ لَهُ فِيهِ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا يَكُونُ خَيْرٌ مُعِينٍ لَا يَكُونُ لِلْعَبْدِ فِيهِ أَوْ فِي إِتْمَامِهِ صَلَاحٌ بِأَنْ يَقَعَ بِسَبَبِهِ فِي عُجْبٍ وَآفَةٍ لَا يَقُومُ بِهَا هٰذَا الْخَيْرُ، فَإِذَنْ لَيْسَ لِلْعَبْدِ إِذَا ابْتَدَأَ فِي صَلَاةٍ أَوْ صَوْمٍ أَوْ غَيْرِهِ أَنْ يَحْكُمَ بِأَنَّهُ يُتِمُّهُ إِذْ هُوَ غَيْبٌ وَلَا أَنْ يَقْصِدَ ذٰلِكَ قَطْعًا، لِأَنَّهُ رُبَّمَا لَا يَكُونُ لَهُ فِيهِ صَلَاحٌ. بَلْ يُقَيِّدُ ذٰلِكَ بِالْاسْتِثْنَاءِ أَوْ بِشَرْطِ الصَّلَاحِ لِيَخْلُصَ مِنْ عَيْبِ الْأَمَلِ. قَالَ اللّٰهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ،

---

ثم الأمل ضربان ) أى نوعان ( أمل العامة ) أى الجاهلين ( وأمل الخاصة ) أى العلماء ( فأمل العامة أن تريد الحياة والبقاء لجمع ) متاع ( الدنيا والتمتع بها ) أى الدنيا ( وهـذه ) أى إرادة الحياة والبقاء لذلك ( معصية محضة ) أى خالصة ( وضدها ) أى الإرادة المذكورة ( قصر الأمل ) أى حبسه ( قال الله تعالى: فذرهم ) أى اترك الكفار يامحمد ( يأكلوا ويتمتعوا) بدنياهم ( ويلههم ) أى يشغلهم ( الأمل) بطول العمر وغيره عن الإيمان ( فسوف يعلمون ) عاقبة أمرهم ( وأما الخاصة ) أى أملهم فهو ( أن تريد ) الحياة و ( البقاء لإتمام عمل خير فيه ) أى فى العمل ( خطر ) أى متردد بين أن يوجد وبين أن لا يوجد كما فى محيط المحيط ( وهو ) أى العمل الذى فيه الخطر ( مالا يستيقن ) أى العبد ( الصلاح له ) أى للعبد الذى يعمل ( فيه ) أى فى العمل ( فانه ) أى الحال والشأن ( ربما يكون خـير معين لا يكون للعبد فيه ) أى الخير المعين ( أو ) لا يكون له ( فى إتمامه صلاح ) وذلك ( بأن يقع ) العبد ( بسببه ) أى عمل الخير (فى عجب وآفة) من الآفات المهـلكات ( لايقوم بها ) أى بسبب تلك الآفات ( هـذا الخير ) المعين ( فاذن ) أى حين إذ قد يكون الخير ليس فيه ولا فى إتمامه صلاح ( ليس ) أى لايجوز ( للعبد إذ ابتدأ فى صلاة أو صوم أو غيره ) من أنواع الطاعات ( أن يحكم ) قطعا وجزما( بأنه ) أى العبد ( يتمه ) أى العمل الذى إبتدأ به ( إذ هو ) أى الاتمام ( غيب ) أى خفى لايعلمه إلا الله ( ولا ) يجوز ( أن يقصد ) أي العبـد ( ذلك ) الإتمام ( قطعا لأنه ) أى الشأن ( ربمـا لا يكون له ) أى للعبد ( فيـه ) أى فى ذلك الإتمـام ( صلاح ) كأن يقع بسببه فى الرياء والعجب وغـير ذلك من الآفات ( بل يقيد ) العبد ( ذلك ) أى إتمـام العمل ( بالاستثناء ) بمشيئة الله وعلمه ( أو بشرط الصلاح ليخلص من عيب الأمل . قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام : ولا تقولن لشىء ) أى لأجل شىء تعزم

إِنِّى فَاعِلٌ ذٰلِكَ غَداً إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ) . وَضِدُّ هٰذَا الْأَمَلِ فِيما قَالَ الْعُلَمَاءُ النِّيَّةُ الْمَحْمُودَةُ

---

عليه ( إنى فاعل ذلك ) الشىء ( غدا ) أي فيما يستقبل من الزمان ولم يرد الغد خاصة كما ذكره النسفي ( إلا أن يشاء الله ) أى إلا متلبسا بمشيئة الله تعالى ، بأن تقول إن شاء الله ولا تقل لأجل الشيء بغير استثناء ، وذلك أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين ، فقال أخبركم غدا، ولم يقل إن شاء الله فلبث الوحى أياما ثم نزلت هذه الآية ، كذا ذكره الخازن فى تفسيره ( وضد هذا الأمل ) أى أمل الخاصة ( فيما قال العلماء ) أى العارفون بالكتاب والسنة ، وورد في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم خطب للناس يوما فقال : « يا أيها الناس اتبعوا العلماء فانهم سرج الدنيا ومصابيح الآخرة» كذا فى العزيزى . وسرج الدنيا : أى منوروها جمع سراج ، وورد « ثلاثة تضىء فى الأرض لأهل السماء كما تضىء النجوم فى السماء لأهل الأرض ، وهى المساجد وبيت العالم وبيت حافظ القرآن» ( النية المحمودة ) .

واختلف العلماء فى حد النية ، فقال الجوهرى : النية العزم . وقال الخطابى : هى قصدك الشىء بقلبك وتحرى الطلب منك له . وقيل : هى:عزيمة القلب . وقال التيمى : هى وجهة القلب وقال البيضاوى : هى عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقا لغرض من جانب نفع أو دفع ضر حالا أو مآلا والشرع خصها بالارادة المتوجهة نحو الفعل ابتغاء لوجه الله تعالى وامتثالا لحكمه. وقال النووى : النية القصد، وهو عزيمة القلب . وتعقبه الكرمانى بأن المتكلمين قالوا: القصد إلى الفعل هو ما نجده فى أنفسنا حال الايجاد ، والعزم قد يتقدم عليه ويقبل الشدة والضعف بخلاف القصد ففرقوا بينهما من وجهين فلا يصح تفسيره به ، وكلام الخطابى أيضا مشعر بالمغايرة بينهما. وقال العراقي فى شرح التقريب : اختلف فى حقيقة النية ؛ فقيل هي الطلب ، وقيل الجد فى الطلب ، ومنه قول ابن مسعود: من ينوى الدنيا تعجزه ، أى يجد فى طلبها . وقيل القصد للشىء بالقلب . وقيل عزيمة القلب . وقال الزركشى فى قواعده : حقيقة النية ربط القصد بمقصود معين ، والمشهور أنها مطلق القصد إلى الفعل . وقال الماوردى : هى قصد الشيء مقترنا بفعله ، فان قصده وتراخى عنه فهو عزم .

[ مهمة ] قال القرافى فى كتاب الأمنية : إن جنس النية هو الارادة ، وهى الصفة المخصصة لأحد طرفى الممكن بما هو جائز عليه من وجود أو عدم أو هيئة دون هيئة أو حالة دون حالة أو زمان دون زمان ، وجميع ما يمكن أن يتصف الممكن به بدلا من خلافه أو ضده أو نقيضه أو مثله غير أنها فى الشاهد لا يجب لها حصول مرادها ، وفى حق الله تعالى يجب لها ذلك لأنها فى الشاهد عرض مخصوص مصرف بالقدرة الإلهية والمشيئة الربانية هي ومرادها ، وفي حق الله تعالى معنى ليس بعرض واجبة الوجود متعلقة بذاتها أزلية واجبة النفوذ فيما تعلقت به ؛ ثم الارادة متنوعة إلي العزم والهم والنية والشهوة والقصد والاختيار والقضاء والقدرة والعناية والمشيئة ، فهى عشرة

ألفاظ ، فالعزم هو الارادة الكائنة على وفق الداعية ، والداعية ميل يحصل فى النفس لما أشعرت به من اشتمال المراد على مصلحة خالصة أو راجحة ، والميل جائز على الخلق ممتنع على الله تعالى ، فلا جرم ، لايقال فى حق الله تعالى عزم بمعنى أراد الارادة الخالصة المصممة ، بل عزائم الله تعالى طلبه الراجع إلى كلامه النفسى ، فظهر الفرق بين العزم والارادة . وأما الهم فى مثل قوله تعالى « ولقد همت به وهم بها » . وفى قوله صلى الله عليه وسلم « من هم بحسنة » فالظاهر أنه مرادف وأن معناهما واحد ، ويستحيل على الله تعالى كما يستحيل العزم . وأما النية فهى إرادة تتعلق بإمالة الفعل إلى ما يقلبه لا بنفس الفعل من حيث هو فعل ، ففرق بين قصدنا لفعل الصلاة وبين قصدنا لكون ذلك قربة أو فرضا أو نفلا أو أداء أو قضاء أو غير ذلك مما هو جائز على الفعل ، فالارادة المتعلقة بأصل الكسب والايجاد هى المسماة بالارادة ، ومن جهة أن هذه الارادة مميلة للفعل إلى بعض جهاته الجائزة عليه تسمى من هذا الوجه نية ، فصارت الارادة إذا أضيف إليها هذا الاعتبار نية وهذا الاعتبار هو تمييز الفعل عن بعض رتبه جائز على الله تعالى ، فانه سبحانه قد يريد بالفعل الواحد نفع قوم وضر قوم وهداية قوم إلى غير ذلك مما هو جائز على فعله ، غير أن أسماء الله توقيفية ، فلا يسمى الله تعالى ناويا ويسمي مريدا : هذا إن اقتصر على هذا الاعتبار العام وهو مطلق إمالة الفعل إلى بعض جهاته حكم شرعى فينوى إيقاع الفعل على الوجه الذى أمر الله تعالى به أو نهى عنه أو أباحه . ومنهم من يقول : بل أخص من هذا ، وهو أن يميل الفعل إلى جهة التقريب والعبادة ، وعلى التقديرين فيستحيل على الله تعالى معناها ، بخلاف المعنى العام ، وتفارق النية الإرادة من وجه آخر ، وهو أن النية لا تتعلق إلا بفعل الناوى ، والارادة تتعلق بفعل الغير كما يريد معونة الله تعالى وإحسانه وليست فعلنا . وأما الشهوة فهى إرادة متعلقة براحات البشر كالملاذ ودفع الآلام فيستحيل على الله تعالى . وأما القصد فهو الإرادة الكائنة بين جهتين كمن قصد الحج من مصر ومن غيرها ، وهو بهذا المعنى مستحيل على الله تعالى . وأما الاختيار فهو الارادة الكائنة بين شيئين فصاعدا ، ومنه قوله تعالى « واختار موسى قومه سبعين رجلا » أى أرادهم دون غيرهم مضافا إلى اعتقاد رجحان المختار ، وهو جائز على الله تعالى . قال تعالى « ولقد اخترناهم على علم على العالمين » . وأما القضاء فهو الارادة المقرونة بالحكم الخبري ، فقضاء الله تعالى لزيد بالسعادة إرادته سعادته مع إخباره بكلامه النفسى عن سعادته ، ومنه قضاء الحاكم إذا أخبر عن حكم الله تعالى فى تلك الواقعة إخبارا إنشائيا ، ولذلك تعذر نقضه بخلاف الفتيا ، وأما العناية فهى الارادة المتعلقة بالشيء على نوع من الحصر والتخصيص ، ولذلك قال العوفى :

* إياك أعنى واسمعى يا جاره *

أى أخصك دون غيرك ، ولم يقل إياك أريد ، ويقولون ما يعنى بكلامه أى ما يخصه به من المعانى التى يحتملها دون غيره ، وهذا التفسير جائز على الله تعالى غير أن أسماءه توقيفية ، فلا يقال الله عان وإن قيل مريد . وأما المشيئة فالظاهر أنها مرادفة للارادة . وقالت الحنفية : هي

وَإِنَّمَا قَالُوا ذٰلِكَ عَلَى ضَرْبٍ مِنَ الْاتِّسَاعِ . لِأَنَّ النَّاوِيَ بِالنِّيَّةِ الْمَحْمُودَةِ يَكُونُ مُمْتَنِعاً مِنَ الْأَمَلِ ، فَهٰذَا حُكْمُ الْأَمَلِ، وَالنِّيَّةُ الْمَحْمُودَةُ إِذْ قَدْ مَسَّتِ الْحَاجَةُ إِلَيْهَا وَإِلَى مَعْرِفَتِهَا مَعَ أَنَّهَا الْأَصْلُ الْأَصِيلُ قَالُوا رَحِمَهُمُ اللهُ فِي حَدِّهَا الْجَامِعِ التَّامِّ : إِنَّ النِّيَّةَ الصَّحِيحَةَ الْمَحْمُودَةَ إِرَادَةُ أَخْذِ عَمَلٍ مُبْتَدَاً بِهِ قَبْلَ سَائِرِ الْأَعْمَالِ بِالْحُكْمِ مَعَ إِرَادَةِ إِتْمَامِهِ بِالتَّفْوِيضِ وَالْاسْتِثْنَاءِ.

---

مباينة وجعلوها مشتقة من الشيء ، والشيء اسم الموجود حتي قالوا : إذا قال الحالف إن شئت دخول الدار فعبدى حر فأراد دخول الدار لايعتق حتى يدخل ولا تكفي الإرادة ، وأطلنا فى كشف كتب اللغة ولم نجد للمشيئة معنى إلا الارادة ، فهذه التفاسير والتغايرات بين هذه المعانى العشرة يساعد عليها الاستعمال والأصول الموجودة لعدم الترادف ، فتلخص أن النية غير التسعة الباقية لما ذكر من خصوصيتها وخصوصيات كل من التسعة المفقودة فى النية ، فيجزم الناظر بالفرق حينئذ ولا يضر كون الاستعمال قد يتوسع فيه فيستعمل أراد ومراده نوى أو عزم أو قصد أو عنى، فانها متقاربة المعنى حتى يكاد يجزم فيها بالترادف تكثيرا لفوائد اللغة، وبهذا تظهر الحكمة فى قوله صلى الله عليه وسلم « الأعمال بالنيات » ولم يقل بالإرادات أو غير ذلك فانه صلى الله عليه وسلم لم يرد إلا الإرادة الخاصة المميلة للفعل إلى جهة الأحكام الشرعية كما تقدم فى تفسير النية ، كذا أفاده الزبيدى ( وإنما قالوا ذلك ) أى النية المحمودة ضد الأمل ( على ضرب ) أى نوع ( من الاتساع لأن الناوى بالنية المحمودة يكون ممتنعا من الأمل ، فهذا ) أى الذى ذكرناه ( حكم الأمل والنية المحمودة إذ قد مست الحاجة إليها ) أى النية المحمودة ( وإلى معرفتها مع أنها الأصل الأصيل ) أى المحكم ( قالوا ) أى العلماء ( رحمهم الله فى حدها ) أى فى بيان حد النية المحمودة ( الجامع التام : إن النية الصحيحة المحمودة ) هى ( إرادة أخذ عمل مبتدأ به ) أى بذلك العمل ( قبل سائر الأعمال بالحكم ) والجزم ( مع إرادة إتمامه ) أى العمل بالتفويض إلى الله تعالى ( والاستثناء) بمشيئه تعالي . قال الشهاب القرافى : النية قسمان : فعلية موجودة ، وحكمية معدومة فاذا نوى المكلف أول العبادة فهذه نية فعلية ، ثم إذا ذهل عن النية حكم صاحب الشرع بأنه ناو ومتقرب ، فهذه هى النية الحكمية ، أى حكم الشرع ببقاء حكمها لأنه موجود وكذلك الاخلاص والإيمان والنفاق والرياء وجميع أحوال القلب إذا شرع فيها واتصف القلب بها كانت فعلية ، وإذا ذهل عنها حكم صاحب الشرع ببقاء أحكامها لمن كان اتصف بها قبل ذلك حتى لو مات الانسان مغمورا بالمرض حكم صاحب الشرع له بالاسلام المتقدم بالولاية والصديقية وجميع المعارف المتقدمة وإن لم يتلفظ بالشهادة عند الموت ، وعكسه يحكم له بالكفر والنفاق وجميع مساوى الأخلاق وإن كان لايستحضر فيها شيئا عند الموت ولا يتصف بها ، بل يوم القيامة الأمر كذلك ، ومنه قوله تعالى « إنه من يأت ربه مجرما » مع أنه لا يكون يوم القيامة مجرما ولا كافرا ، ولا عاصيا لظهور

فَإِنْ قِيلَ فَلِمَ جَازَا الْحُكْمُ فِى الْابْتِدَاءِ وَوَجَبَ التَّفْوِيضُ وَالْاسْتِثْنَاءُ فِى الْإِتْمَامِ ؟ يُقَالُ لَهُ لِفَقْدِ الْخَطَرِ فِى الْابْتِدَاءِ إِذْ هُوَ فِى حَالِ الْابْتِدَاءِ لَيْسَ بِشَىْءٍ مُتَرَاخٍ عَنْكَ وَلِثُبُوتِ الْخَطَرِ فِى الْإِتْمَامِ إِذْ هُوَ يَقَعُ فِى وَقْتٍ مُتَرَاخٍ؛ فَفِيهِ الْخَطَرَانِ: خَطَرُ الْوُصُولِ لَا تَدْرِى هَلْ تَصِلُ إِلَى ذَلِكَ أَمْ لَا، وَخَطَرُ الْفَسَادِ لَا تَدْرِى هَلْ فِى ذَلِكَ صَلَاحٌ أَمْ لَا، فَإِذَا وَجَبَ الْاسْتِثْنَاءُ لِخَطَرِ الْوُصُولِ وَالتَّفْوِيضُ لِخَطَرِ الْفَسَادِ فَإِذَا حَصَلَتِ الْإِرَادَةُ عَلَى هَذِهِ الشُّرُوطِ تَكُونُ حِينَئِذٍ نِيَّةً مَحْمُودَةً مُخْرَجَةً عَنْ حَدِّ الْأَمَلِ وَآفَتِهِ فَتَأَمَّلْ جِدًّا ، فَهَذِهِ هَذِهِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ حِصْنَ قِصَرِ الْأَمَلِ ذِكْرُ الْمَوْتِ ،

---

الحقائق عند الموت وصار الأمر ضروريا ، فمعناه محكوما له بالإجرام كما يحكم لغيره بالايمان ، واكتفى صاحب الشرع بالايمان والنية الحكمية للمشقة في استمرارها بالفعل . وقال أيضا فى نية الحسنة يثاب عليها حسنة واحدة ، وفعل الحسنة يثاب عليها عشرة ، لأن الأفعال هى المقاصد والنيات وسائل ، والوسائل أخفض رتبة من المقاصد . وقال الكرمانى : من جاء بنية الحسنة فقد جاء بالحسنة ومن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، فيلزم أن من جاء بنية الحسنة فله عشر أمثالها فلا يبقى فرق بين الحسنة ونية الحسنة . قال السيوطى : لا نسلم أن من جاء بنية الحسنة فقد جاء بالحسنة بل يثاب على نية الحسنة ، فظهر الفرق انتهى . قال الزبيدى : قال بعض الأفاضل وكنت بحثت مع السراج البلقينى بالخشابية بجامع عمرو هل تضعف هذه الحسنة أيضا ، وقلت : ينبغى أن تضعف ، لقوله تعالى « إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها » الآية ، فقال نعم وتضعف من جنس ماهم فيه انتهى ، وهو كلام حسن . (فإن قيل فلم) أى لأى شيء ( جاز الحكم فى الابتداء ) أى ابتداء العمل ( ووجب التفويض والاستثناء فى الاتمام ) أى إتمام العمل ( يقال له ) أي للقائل إنما جاز، الحكم فى ابتداء العمل والتفويض والاستثناء فى إتمامه ( لفقد الخطر فى الابتداء إذ هو ) أى العمل ( فى حال الابتداء ليس بشىء متراخ عنك ولثبوت الخطر فى الإتمام إذ هو ) أى الإتمام ( يقع فى وقت متراخ ، ففيه ) أى فى الاتمام ( الخطران ) الأول ( خطر الوصول لا تدرى هل تصل إلى ذلك ) أى إتمام العمل ( أم لا ) تصل إليه (و) الثانى ( خطر الفساد ) أي فساد العمل بسبب إتمامه ( لا تدرى هل فى ذلك ) الاتمام ( صلاح أم لا ، فاذا ) أي إذا كان فى الاتمام خطران (وجب الاستثناء) فى الابتداء (لخطر الوصول) إلى ذلك (و) جب (التفويض) فى الإتمام ( لخطر الفساد ؟ فاذا حصلت الارادة على هذه الشروط ) أى من الاستثناء والتفويض فى الحالين (تكون) أى الارادة (حينئذ) أى حين إذ حصلت على هذه الشروط (نية) صحيحة (محمودة مخرجة عن حد الأمل وآفته ) أى الأمل ( فتأمل جدا ، فهذه ) أى الجملة المذكورة ( هذه ) أى عظيمة . ( واعلم أن حصن قصر الأمل ذكر الموت ) وسكرته ومرارة

كأسه وصعوبته ، فانه مفرح للقلوب ، ومبك للعيون ، ومفرق للجماعات ، وهاذم اللذات : أي قاطعها وقاطع للاقتيات . قال العلماء : الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف ، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ، ومفارقة وحيلولة بينهما ، وتبدل حال ، وانتقال من دار إلى دار ، والروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة ، وهذا قول أهل السنة والجماعة وفقهاء الحجاز والعراق وغيرهم . ومعنى انقطاع تعلق الروح بالبدن انقطاع تصرفها عنه بخروجه عن طاعتها ، فان الأعضاء آلات للروح تستعملها ، حتى إنها تبطش باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب ، والقلب هنا عبارة عن الروح والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن والغم والكمد ، ويتنعم بأنواع الفرح والسرور . وكل ذلك لايتعلق بالأعضاء ، فكل ماهو وصف للروح ، فيبقى معها بعد مفارقة الجسد وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلي أن تعاد الروح إلىالجسد ، ولا يبعد أن تعاد إلى الجسد فى القبر ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث . وأهل السنة أثبتوا الإحياء فى كل من الحالين ، وأما بين النفختين فهو حال خمود وهمود بموت الخلق بينهما من غير أن يكون بينهما حى سوى الملك الإله الواحد القهار . والدليل على الإحياء في القبر مبنى على صحة ماورد به الخبر ونزل عليه القرآن من عذاب القبر ، لأن العذاب والألم لايصح إلا لحي . ومما يعين على ذكر الموت زيارة القبور : أخرج مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « زوروا القبور فإنها تذكر الموت » وأخرج ابن ماجه والحاكم عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تزهد فى الدنيا وتذكر الآخرة » . وأخرج الحاكم عن أبى سعيد أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإن فيها عبرة » . وأخرج أيضا عن أنس رضى الله عنه مرفوعا « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها ترق القلب وتدمع العين وتذكر الآخرة ولا تقولوا هجرا » . وأخرج أيضا عن بريدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولتزدكم زيارتها خيرا » وأخرج أيضا عنأبي ذر قال : قال لي رسول الله صلىالله عليه وسلم « زر القبور تذكر بها الآخرة، واغسل الموتى فإنمعالجة جسد خاو موعظة بليغة ، وصل على الجنائز لعل ذلك يحزنك فإن الحزين فى ظل الله يتعرض لكل خير » . قال العلماء رضى الله عنهم . وينبغى لمن يزور القبور أن يكون جوعان فإن الشبع يحجب العبد عن الاعتبار بالموتى وأن يكون غير عازم على فعل شيء من المعاصى فان العازم فى حضرة الشياطين فلا يصح اعتبار ، وأن يكون زاهدا فى الدنيا فإن الراغب فيها من لازمه قساوة القلب ، ولذلك عدم غالب الناس الاتعاظ برؤية القبور ، وربما زار أحدهم مشاهد الأولياء ولم يحصل عنده بكاء ولارقة ، لأن غالب الناس صاروا يجعلون ذلك وسيلة إلى الاجتماع ببعضهم بعضا كالمواضع التى يتنزهون فيها من الأنهار والبساتين . فزر يا أخى القبور وأنت متفكر فيما إليه مصيرك كما كان عليه السلف الصالح ، فسلم عليهم وأنت حاضر القلب خاشع بقولك : السلام عليكم دارقوم مؤمنين

وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » قاصدا بالمشيئة سرعة اللحوق بهم، لأن الموت محقق لايدخله مشيئة عادة. وإياك والمشى على قبور المسلمين بنعل أو بهيمة لاسيما إن بالت أو راثت فإن ثواب زيارتك كلها قد لايساوى بول دابتك على مسلم واحد، فإذا وقف الزائر على قبر يزوره فليعتبر به كيف صار تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب، وعدم رد الجواب، وصار يتمنى أنه يرجع إلى الدنيا فيعمل صالحا فلا يجاب، وإن كان قبر سلطان أو أمير فينظر إلى حصول ذلك الذل بعد العز بعد أن قاد الجيوش والعساكر، وتأنس بالأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذخائر، ثم أتاه الموت بغتة على غير ميعاد، فلم يتركه يتهيأ للزاد، وإن كانت المقبرة مما دفن فيها أخواته وأصحابه فليتأمل إلى ما كانوا فيه من بلوغ الآمال، وجمع الأموال، وبناء الدور، وغرس البساتين، وصحة الأجسام، ولذيذ الطعام، وينظر كيف انقطعت آمالهم، ولم تغن عنهم دورهم وأموالهم، وكيف محا التراب محاسن وجوههم، وكيف تفرقت فى الأرض أعضاؤهم وسائر أجزائهم، وكيف ترملت من بعدهم نساؤهم، وتيتمت أطفالهم، وذلوا بعدهم بعد ما كانوا فيه من العز فى حياتهم؟ وليحذر من الاغترار بالصحة وطول الأمل، فقد رأينا أصحابنا كلهم أتاهم الموت على غير ميعاد، ولم يكن فى أمل أحد منهم أنه يموت تلك الأيام، فعن قريب يقع لأحدنا ماوقع لهم، ويندم أحدنا حيث لاينفعه الندم، كذا ذكره أبو عبد الله القرطبى فى مختصره، وبالجملة إن فوائد زيارة القبور غير الذى ذكرناه من الاعتبار كثيرة سيما زيارة قبور الأنبياء والصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء والصالحين: منها التوسل بهم إلى الله تعالى، ومنها غير ذلك من أنواع الخيرات، فقد روى البخارى عن أنس رضى الله عنه « أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس فقال اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك صلى الله عليه وسلم فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا فيسقون » ثم يتوسل بأهل تلك المقابر أعنى بالصالحين منهم فى قضاء حوائجه ومغفرة ذنوبه، ثم يدعو لنفسه ولوالديه ولمشايخه ولأقاربه ولأهل تلك المقابر ولأموات المسلمين ولأحيائهم وذريتهم إلى يوم الدين ولمن غاب عنه من إخوانه، ويجأر إلى الله تعالى بالدعاء عندهم ويكثر التوسل بهم إلى الله تعالى، لأنه سبحانه وتعالى اجتباهم وشرفهم وكرمهم؛ فكما نفع بهم فى الدنيا ففى الآخرة أكثر، فمن أراد حاجة فليذهب إليهم ويتوسل بهم، فإنهم الواسطة بين الله تعالى وخلقه، ولقد تقرر فى الشرع وعلم مالله تعالى بهم من الاعتناء وذلك كثير مشهور، وما زال الناس من العلماء والأكابر كابرا عن كابر مشرقا ومغربا يتبركون بزيارة قبورهم ويجدون بركة ذلك حسا ومعنى. وقد ذكر الشيخ الامام أبو عبد الله بن النعمان رحمه الله فى كتابه المسمى بـ[سفينة النجاء لأهل الالتجاء] بعد كلام ماهذا لفظه: تحقق لدى البصائر والاعتبار أن زيارة قبور الصالحين محبوبة لأجل التبرك مع الاعتبار فإن بركة الصالحين جارية بعد مماتهم كما كانت فى حياتهم، والدعاء عند قبور الصالحين والتشفع بهم معمول به عند علمائنا المحققين من أئمة الدين. قال العلامة ابن حجر ولايعترض على ماذكر من أن من كانت له حاجة فليذهب إليهم وليتوسل بهم بقوله عليه الصلاة

والسلام «لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ، ومسجدى ، والمسجد الأقصى » ، فقد قال الامام الجليل أبو حامد الغزالى رحمه الله فى كتاب [آداب السفر] من كتاب [الإحياء] له ماهذا نصه : القسم الثانى ، وهو أن يسافر لأجل العبادة إما لجهاد أو حج إلى أن قال: ويدخل فى جملته زيارة قبور الأنبياء وقبور الصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء ، وكل من يتبرك بمشاهدته فى حياته يتبرك بزيارته بعد موته . ويجوز شد الرحال لهذا الغرض ، ولا يمنع من هذا قوله صلى الله عليه وسلم « لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى والمسجد الأقصى » لأن ذلك فى المساجد لأنها متماثلة بعد هذه المساجد ولا فرق بين زيارة الأنبياء والأولياء والعلماء فى الفضل وإن كان يتفاوت فى الدرجات تفاوتا عظيما بحسب اختلاف درجاتهم عند الله عز وجل . قال الإمام فخر الدين الرازى فى المطالب فى الفصل الثالث عشر فى بيان كيفية الانتفاع بزيارة القبور والموتى : إن الإنسان إذا ذهب إلى قبر إنسان قوى النفس كامل الجوهر ووقف هناك ساعة وحصل تأثير فى نفسه حين حصل من الزائر تعلق بزيارة تلك التربة ، فلا يخفى أن لنفس ذلك الميت تعلقا بتلك التربة أيضا ، فحينئذٍ يحصل لنفس الزائر الحى ولنفس ذلك الإنسان الميت ملاقاة بسبب اجتماعهما على تلك التربة ، فصار هاتان النفسان شبيهتين بمرآتين صقيلتين متقابلتين بحيث ينعكس الشعاع من كل واحدة منها إلى الأخرى ، فكل ما حصل فى نفس هذا الزائر الحى من المعارف والبراهين والعلوم الكسبية والأخلاق الفاضلة من الخشوع لله تعالى والرضا بقضاء الله تعالى ينعكس منه نور إلى روح ذلك الإنسان الميت ، وكل ما حصل في ذلك الإنسان الميت من العلوم المشرقة والآثار القوية الكاملة ينعكس منه نور إلى روح هذا الحى الزائر ، وبهذه الطريقة تصير تلك الزيارة سببا لحصول تلك المنفعة الكبرى والبهجة العظمى لروح هذا الزائر ، فهذا هو السبب والأصل فى مشروعية الزيارة ، ولا يبعد أن يحصل منها أسرار أخرى أدق مما ذكرنا ، وتمام الحقائق ليس إلا عند الله تعالى انتهى كلام الرازى . قال سيدى العلامة أحمد دحلان رحمه الله فى [تقريب الأصول لتسهيل الوصول] : قد صرح كثير من العارفين أن الولى بعد وفاته تتعلق روحه بمريديه فيحصل لهم ببركته أنوار وفيوضات ، وممن صرح بذلك قطب الإرشاد سيدى عبد الله بن علوى الحداد فإنه قال رضي الله عنه : الولى يكون اعتناؤه بقرابته واللائذين به بعد موته أكثر من اعتنائه بهم فى حياته لأنه فى حياته كان مشغولا بالتكليف وبعد موته طرح عنه الأعباء ، والحى فيه خصوصية وبشرية وربما غلبت إحداهما الأخرى وخصوصا فى هذا الزمان فإنها تغلب البشرية والميت ما فيه إلا الخصوصية فقط . وقال القطب الحداد أيضا : إن الأخيار إذا ماتوا لم تفقد منهم إلا أعيانهم وصورهم ، وأما حقائقهم فموجودة فهم أحياء فى قبورهم ، وإذا كان الولى حيا فى قبره فإنه لم يفقد شيئا من علمه وعقله وقواه الروحانية بل تزداد أرواحهم بعد الموت بصيرة وعلما وحياة روحانية وتوجها إلى الله تعالى ، فإذا توجهت أرواحهم إلى الله تعالى فى شىء قضاه سبحانه وتعالى وأجراه إكراما لهم ، وهذا معنى قول بعضهم إن لهم التصرف فالتصرف الحقيقى الذى هو التأثير والخلق والإيجاد لله تعالي وحده لا شريك له ، ولا تأثير للولى ولا غيره.

وَحِصْنَ حِصْنِهِ ذِكْرُ فَجْأَةِ الْمَوْتِ وَأَخْذُهُ عَلَى غِرَّةٍ وَغَفْلَةٍ وَهُوَ فى غُرُورٍ وَفُتُورٍ فاحْتَفِظْ بِهٰذِهِ الْجُمْلَةِ وَحَصِّلْهَا مُوَفَّقًا فَإِنَّ الحَاجَةَ مَاسَّةٌ إِلَيْهَا، وَدَعْ عَنْكَ تَضْيِيعَ الْوَقْتِ فى الْقِيلِ وَالْقَالِ وَمُلاَحَاةِ الرِّجَالِ ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ بِفَضْلِهِ .

وَأَمَّا الْحَسَدُ : فَهُوَ إِرَادَةُ زَوَالِ نِعَمِ اللهِ تَعَالَى عَنْ أَخِيكَ الْمُسْلِمِ مِمَّا لَهُ فِيهِ صَلاَحٌ ، فَإِنْ لَمْ تُرِدْ زَوَالَهَا عَنْهُ

---

فى شيء قط لا حيا ولا ميتا ، فمن إعتقد أن للولى أو غيره تأثيرا فى شيء فهو كافر بالله تعالى ، فأهل البرزخ من الأولياء فى حضرة الله تعالى ، فمن توجه إليهم وتوسل بهم فإنهم يتوجهون إلي الله تعالى فى حصول مطلوبه ، فالتصرف الحاصل منهم هو توجههم بأرواحهم إلى الله تعالى والتصرف الحقيقى لله وحده ، فالواقع منهم من جملة الأسباب العادية التى لا تأثير لها وإنما يوجد الأمر عندها لابها على حسب ما أجراه الله تعالى من العوائد ، ولا تغتر بالشبهات التى تمسك بها الوهابية فى منع التوسل والزيارة فإنها حجة باطلة ، وقد بسط الكلام على ردها العلامة السيد أحمد دحلان فى كتاب [ خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام ] ونقله العلامة يوسف النبهانى فى كتاب [ شواهد الحق ] فانظره فإنه مهم . ولنرجع إلى خدمة كلام المصنف قال رحمه الله تعالى ( وحصن حصنه ) أي قصر الأمل ( ذكر فجأة الموت ) أى هجومه بغتة من غير توقع ولا معرفة ( وأخذه ) أى الموت ( على غرة ) بكسر الغين ( وغفلة ) عطف تفسير ، لأن الغرة بالكسر الغفلة كما فى المصباح ( وهو ) أى العبد ( فى غرور ) بالضم : ما اغتر به من متاع الدنيا ( وفتور ) أى انكسار وضعف ، وذلك لأن الموت لايدخل فى وقت مخصوص وحال مخصوص وسن مخصوص ، فلا بد من هجومه على كل حال ( فاحتفظ بهذه الجملة ) التى ذكرناها ، وهى أن حصن قصر الأمل ذكر الموت وحصن حصنه ذكر فجأته ( وحصلها موفقا فإن الحاجة ماسة إليها ) أى الجملة ( ودع ) أى اترك ( عنك تضييع الوقت فى القيل والقال ) أى المخاصمة والمراء والجدال . فى محيط المحيط: القال والقيل مصدران أو اسمان من القول ويعربان بحسب العوامل ، يقال : كثير قال الناس وقيلهم ، وقيل هما فى الأصل فعلان ماضيان جعلا اسمين واستعملا استعمال الأسماء وأبقى فتحهما ليدل على ما كانا عليه ، ويدل عليه مافى الحديث « نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قيل وقال » بالفتح . قيل هو من قولهم قيل كذا ، وقال فلان كذا ، وقيل بناؤهما على كونهما فعلين محكمين متضمنين الضمير ، والقال الابتدا والسؤال ، والقيل الجواب انتهى (وملاحاة الرجال) أى منازعتهم وفى المختار لاحاه ملاحاة ولحاء : نازعه ، وفى المثل: من لاحاك فقد عاداك انتهى (والله الموفق بفضله) تعالى وإحسانه .

( وأما الحسد ) المذموم ( فهو إرادة زوال نعم الله تعالى عن أخيك المسلم مما ) أى من أنواع النعم ( له ) أى لأخيك المسلم ( فيه صلاح، فإن لم ترد زوالها ) أى النعم ( عنه ) أى عن

وَلٰكِنْ تُرِيدُ لِنَفْسِكَ مِثْلَهَا فَهُوَ غِبْطَةٌ . وَعَلَى هٰذَا يُحْمَلُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ «لَا حَسَدَ إِلَّا فِى اثْنَتَيْنِ» الْخَبَرَ : أَىْ لَا غِبْطَةَ إِلَّا فِى ذٰلِكَ ، فَعَبَّرَ عَنِ الْغِبْطَةِ بِالْحَسَدِ اتِّسَاعًا فِى ذٰلِكَ لِمُقَارَبَتِهِمَا ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهَا صَلَاحٌ فَأَرَدْتَ زَوَالَهَا عَنْهُ فَذٰلِكَ غَيْرَةٌ فَهٰذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ هٰذِهِ الْخِصَالِ .

وَأَمَّا ضِدُّ الْحَسَدِ فَالنَّصِيحَةُ : وَهِىَ إِرَادَةُ بَقَاءِ نِعَمِ

---

أخيك ( ولكن تريد لنفسك مثلها ) أى تلك النعم ( فهو ) أى تمنى حصول مثلها لك من غير أن تريد زوالها عن أخيك (غبطة) أى حسن الحال ، وهى اسم من غبطته غبطا من باب ضرب : إذا تمنيت مثل ما ناله من غير أن تريد زواله عنه لما أعجبك منه وعظم عندك . وفى الحديث « أقوم مقاما يغبطنى فيه الأولون والآخرون » وهذا جائز فانه ليس بحسد، فان تمنيت زواله فهو الحسد كذا قاله الفيومى فى المصباح ( وعلى هذا ) أى المذكور من الغبطة ( يحمل قوله عليه ) الصلاة و ( السلام : لاحسد إلا فى اثنتين ) أى فى نفسين أو خصلتين . وروى بالتذكير : أى فى شأن اثنين . قال العلامة عبد الحق : والظاهر أن معناه لو جاز الحسد لما جاز إلا فيما ذكر، وأما ما قيل من أنه يؤخذ من الحديث إباحة نوع من الحسد لتضمنه المنفعة فى الدارين غير صحيح ( الخبر ) منصوب على أنه مفعول لمحذوف : أى اقرأ تمامه ، وهو « رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها » أخرجه البخارى ومسلم وابن ماجه عن ابن مسعود رضى الله عنه . وأخرج أحمد والبخارى والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار فسمعه جار له فقال ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالا فهو يهلكه فى الحق فقال رجل ليتنى أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل» ( أي لا غبطة إلا ذلك ) المذكور من الخصلتين ( فعبر عن الغبطة بالحسد اتساعا ) أى مجازا ( فى ذلك ) أى فى التعبير بالحسد ( لمقاربتهما ) أى الغبطة والحسد ( فان لم يكن له ) أى لأخيك المسلم (فيها ) أى فى تلك النعم ( صلاح فأردت زوالها عنه ) أى عن أخيك ( فذلك ) أى الذى أردته من زوال النعم عن أخيك من غير أن يكون له فيها صلاح ( غيرة ) أى حمية فى [محيط المحيط] غار الرجل على امرأته من فلان وهى عليه من فلانة يغار غيرة وغيرا وغارا من باب علم : أنف من الحمية وكره شركة الغير فى حقه بها فهو غيران وغيور ومغيار وهي غيرى وغيور ، والاسم الغيرة ( فهذا ) أى الذى ذكرناه ( هو الفرق بين هذه الخصال ) وهى الغبطة والحسد والغيرة . ( وأما ضد الحسد فالنصيحة ) وهى لغة : الإخلاص والتصفية . وشرعا : إخلاص الرأى من الغش للمنصوح وإيثار مصلحته ، كذا فى شرح الأربعين ، والمراد هنا ماقاله المصنف رحمه الله تعالى (وهى إرادة بقاء نعم

اللهِ تَعَالَى عَلَى أَخِيكَ الْمُسْلِمِ مِمَّا لَهُ فِيهَا صَلَاحٌ . فَإِنْ قِيلَ كَيْفَ نَعْلَمُ أَنَّ لَهُ فِيهَا صَلَاحًا أَوْ فَسَادًا لِنَنْصَحَهُ أَوْ نَحْسُدَهُ . فَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ لَنَا غَالِبُ الظَّنِّ بِذَٰلِكَ وَغَلَبَةُ الظَّنِّ مِنَّا تَجْرِي مَجْرَى الْعِلْمِ فِي هَٰذِهِ الْمَوَاضِعِ ؛ ثُمَّ إِنِ اشْتَبَهَ عَلَيْكَ فَلَا تُرِيدَنَّ زَوَالَ نِعْمَةِ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ بَقَاءَهَا إِلَّا مُقَيَّدًا بِالتَّفْوِيضِ وَشَرْطِ الصَّلَاحِ لِتَتَخَلَّصَ مِنْ حُكْمِ الْحَسَدِ وَيَحْصُلَ لَكَ فَائِدَةُ النَّصِيحَةِ . وَأَمَّا حِصْنُ النَّصِيحَةِ الْمَانِعِ مِنَ الْحَسَدِ فَهُوَ ذِكْرُ مَا أَوْجَبَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ مُوَالَاةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَحِصْنُ هَٰذَا الْحِصْنِ ذِكْرُ مَا عَظَّمَ اللهُ تَعَالَى مِنْ حَقِّ الْمُؤْمِنِ وَرَفَعَ مِنْ قَدْرِهِ

---

الله تعالى على أخيك المسلم مما له فيها ) أى النعم ( صلاح . فإن قيل كيف نعلم أن له ) أى للمسلم ( فيها ) أى فى تلك النعم ( صلاحا أوفسادا لننصحه ) أى المسلم ( أو نحسده ) أى فى تلك النعم (فاعلم أنه ) أى الحال والشأن ( قد يكون لنا غالب الظن بذلك ) أى بأن للمسلم فى تلك النعم صلاحا أو فسادا ( وغلبة الظن منا تجرى مجرى العلم فى هذه المواضع ، ثم إن اشتبه ) الأمر ، وهو كون النعم فى أخيك المسلم يقتضى الصلاح أو الفساد ( عليك فلا تريدن زوال نعمة أحد من المسلمين أو ) تريد ( بقاءها ) أى النعمة ( إلا مقيدا بالتفويض وشرط الصلاح لتخلص ) وتسلم ( من حكم الحسد ) المذموم ( ويحصل لك فائدة النصيحة ) وإرادة الخير ( وأما حصن النصيحة المانع ) بالرفع على أنه صفة للحصن ( من الحسد فهو ) أى حصن النصيحة ( ذكر ما أوجبه الله تعالى من موالاة المسلمين ) واستيفاء حقوقهم وهى كثيرة ، وقد بسط الكلام على ذلك حجة الإسلام الغزالى فى إحيائه ( وحصن هذا الحصن ذكر ماعظم الله تعالى من حق المؤمن و ) ما ( رفع ) الله سبحانه ( من قدره ) أى رتبة المؤمن ، فإنه سبحانه وتعالى قال « واخفض جناحك للمؤمنين » وقال تعالى « من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » وقال تعالى « ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه » وقال تعالى « ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب » . وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » متفق عليه . وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ومن مر فى شىء من مساجدنا أو أسواقنا ومعه نبل فليمسك أو ليقبض على نصالها بكفه أن يصيب أحدا من المسلمين منها بشىء » متفق عليه . وعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » متفق عليه . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « قبل النبى

صلى الله عليه وسلم الحسن بن على رضى الله عنهما وعنده الأقرع بن حابس ، فقال الأقرع إن لى عشرة من الولد ماقبلت منهم أحدا ، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من لايرحم لايرحم » متفق عليه . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « قدم ناس من الأعراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا أتقبلون صبيانكم ؟ فقال نعم قالوا لكنا والله مانقبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة » متفق عليه . وعن جرير ابن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لايرحم الناس لايرحمه الله » متفق عليه . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « المسلم أخو المسلم لايظلمه ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة » متفق عليه . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المسلم أخو المسلم لايخونه ولا يكذبه ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه التقوى هاهنا بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم » رواه الترمذى وقال حديث حسن ، وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا ، المسلم أخو المسلم لايظلمه ولا يحقره ولا يخذله التقوى هاهنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » رواه مسلم . قال النووى : النجش أن يزيد فى ثمن سلعة ينادى عليها فى السوق ونحوه ولا رغبة له فى شرائها ، بل يقصد أن يغر غيره وهذا حرام . والتدابر أن يعرض عن الإنسان ويهجره ويجعله كالشىء الذى وراء الظهر والدبر ، وعن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » متفق عليه ، وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، فقال رجل يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوما أرأيت إن كان ظالما كيف أنصره ؟ قال: تحجزه أو تمنعه من الظلم ، فإن ذلك نصره » رواه البخارى . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « حق المسلم على المسلم خمس : رد السلام ، وعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وإجابة الدعوة ، وتشميت العاطس » متفق عليه، وفى رواية لمسلم «حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه » وعن أبى عمارة البراء بن عازب رضى الله عنهما قال « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبع ونهانا عن سبع ، أمرنا بعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وتشميت العاطس ، وإبرار القسم ، ونصر المظلوم ، وإجابة الداعى ، وإفشاء السلام . ونهانا عن خواتيم أو تختم بالذهب ، وعن شرب بالفضة ، وعن المياثر الحمر ، وعن القسى ، وعن لبس الحرير والإستبرق والديباج »

وَمَا لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنَ الْكَرَامَاتِ الْعَظِيمَةِ فِى الْعُقْبَى

متفق عليه ، وفى رواية « وإنشاد الضالة » فى السبع الأول . قال النووى : المياثر بياء مثناة قبل الألف وثاء مثلثة بعدها ، وهى جمع ميثرة ، وهى شىء يتخذ من حرير ويحشى قطنا أو غيره ويجعل فى السرج وكور البعير يجلس عليه الراكب . والقسى بفتح القاف وكسر السين المهملة المشددة : وهى ثياب تنسج من حرير وكتان مختلطين وإنشاد الضالة تعريفها ( وما له ) أى وذكر ما للمؤمن ( عند الله من الكرامات العظيمة فى العقبى ) أى كالتنعم فى جنة النعيم ، والنظر إلى وجهه الكريم . قال الله تعالى « إن المتقين فى جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين » وقال تعالى « يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون » وقال تعالى « إن المتقين فى مقام آمين فى جنات وعيون يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين كذلك وزوجناهم بحور عين يدعون فيها بكل فاكهة آمنين لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم » . وقال تعالى « إن الأبرار لفى نعيم على الأرائك ينظرون تعرف فى وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون » والآيات فى الباب كثيرة معلومة . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرءوا إن شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » متفق عليه . وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها فى السماء ستون ميلا ، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن ولا يرى بعضهم بعضا » متفق عليه . وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة سنة ما يقطعها » متفق عليه ، وروياه فى الصحيحين أيضا من رواية أبى هريرة رضى الله عنه قال « يسير الراكب فى ظلها مائة سنة ما يقطعها » . وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة ياأهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك فيقول : هل رضيتم فيقول وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون وأى شىء أفضل من ذلك . فيقول أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا » متفق عليه . وعن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال إنكم سترون ربكم

وَمَا لَكَ فِيهِ مِنَ الفَوَائِدِ الْجَلِيلَةِ فِى الدُّنْيَا مِنَ التَّعَاوُنِ وَالتَّظَاهُرِ وَالْجَمَاعَاتِ وَالْجُمُعَاتِ .

---

عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته» متفق عليه وعن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم » رواه مسلم . قال الله تعالى « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » والأحاديث فى ذا الباب كثيرة ، وفيما ذكرناه كفاية لذوى العقول السليمة ( و ) ذكر ( مالك فيه ) أي في المؤمن ( من الفوائد الجليلة في الدنيا من التعاون والتظاهر ) بمعنى واحد . قال الله تعالي «وتعاونوا على البر والتقوى» وقال تعالى « والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» قال الامام الشافعى رحمه الله كلاما معناه أن الناس أو أكثرهم فى غفلة عن تدبر هذه السورة (والجماعات ) أى الفوائد الحاصلة من جماعات الصلوات . روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة » متفق عليه . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلاة الرجل فى جماعة تضعف على صلاته فى بيته وسوقه خمسا وعشرين ضعفا ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحطت عنه بها خطيئة ، فاذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه مادام فى مصلاه مالم يحدث تقول اللهم صل عليه اللهم ارحمه ولا يزال فى صلاة ما انتظر الصلاة » متفق عليه ، وهذا لفظ البخاري ، وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « والذى نفسى بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحتطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ، ثم آمر رجلا فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم » متفق عليه . وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مامن ثلاثة فى قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان فعليكم بالجماعة فانما يأكل الذئب من الغنم القاصية » رواه أبو داود باسناد حسن ( و ) من ( الجمعات ) روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام ، ومن مس الحصى فقد لغا » رواه مسلم . وعنه رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » رواه مسلم . وعنه وعن ابن عمر رضي الله عنهم أنهما سمعا رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول على أعواد منبره « لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم

ثُمَّ مَا تَرْجُو مَنْ شَفَاعَتِه فِى الآخِرَةِ

ثم ليكونن من الغافلين» رواه مسلم (ثم) ذكر (ما ترجو من شفاعته) أى المؤمن (فى الآخرة) لأن الله تعالى بفضله يقبل فى المؤمنين شفاعة الأنبياء والصديقين بل شفاعة العلماء والصالحين، وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن معاملة فان له شفاعة فى أهله وقرابته وأصدقائه ومعارفه فكن حريصا على أن تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعة، وذلك بأن لاتحقر آدميا أصلا، فان الله تعالى خبأ ولايته فى عباده، فلعل الذى تزدريه عنك هو ولى الله، ولا تستصغر معصية أصلا فان الله خبأ غضبه فى معاصيه فلعل غضب الله تعالى فيه، ولا تستحقر أصلا طاعة فان الله تعالى خبأ رضاه فى طاعته، فلعل رضاه فيه ولو الكلمة الطيبة أو اللقمة الصغيرة أو النية الحسنة أو مايجرى مجراه، وشواهد الشفاعة فى القرآن والأخبار كثيرة. قال الله تعالى «ولسوف يعطيك ربك فترضى» قال الحسن: هى الشفاعة رواه ابن أبى حاتم. وقال صلى الله عليه وسلم «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد، وجعلت لى الأرض مسجدا وترابها طهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأعطيت الشفاعة، وكل نبى بعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» فهذه شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولآحاد أمته من العلماء والصالحين شفاعة أيضا كما تقدم ذكره حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر من ربيعة ومضر» وقال صلى الله عليه وسلم «يقال للرجل قم يا فلان فاشفع فيقوم الرجل فيشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله». وقال أنس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول: يا فلان هل تعرفنى؟ فيقول لا والله ما أعرفك من أنت؟ فيقول أنا الذى مررت بى في الدنيا فاستسقيتنى شربة ماء فسقيتك قال قد عرفت، قال فاشفع لى بها عند ربك، فيسأل الله تعالى ذكره ويقول إنى أشرفت على أهل النار فنادانى رجل من أهلها فقال هل تعرفنى؟ فقلت لا، من أنت؟ فقال أنا الذى استسقيتنى فى الدنيا فسقيتك فاشفع لى عند ربك فشفعنى فيه فيشفعه الله فيه فيؤمر به فيخرج من النار» والأخبار فى ذلك كثيرة.

﴿تنبيهان: الأول﴾ اعلم أنه قد أنكر بعض المعتزلة والخوارج الشفاعة فى إخراج من أدخل من المذنبين النار وتمسكوا بقوله تعالى «فما تنفعهم شفاعة الشافعين» وقوله تعالى «ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع». وأجاب أهل السنة بأن هذه الآيات فى الكفار. قال القاضى عياض: مذهب أهل السنة جواز الشفاعة عقلا ووجوبها سمعا لصريح قوله تعالي «يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا» وقوله «ولا يشفعون إلا لمن ارتضى» وقوله «عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا» المفسر بها عند الأكثرين.

﴿الثاني﴾ فى تفصيل الشفاعة هى خمس كما قاله النووى تبعا لعياض : الأولى فى الإراحة من هول الموقف . الثانية فى إدخال قوم الجنة بغير حساب . الثالثة فى إدخال قوم حوسبوا واستحقوا العذاب أن لا يعذبوا . الرابعة فى إخراج من أدخل النار من العصاة . الخامسة فى رفع الدرجات انتهى . قال العراقي فى شرح التقريب : وإنما أنكر الخوارج وبعض المعتزلة من هذه الأقسام إخراج قوم من النار بعد دخولهم فيها ، والشفاعة فى إدخال قوم الجنة بغير حساب ولا عذاب ، وفى قوم حوسبوا واستوجبوا النار فى عدم دخولهم إياها ، فهذه أقسام ثلاثة ولم ينكروا الشفاعة العظمى للاراحة من هول الموقف وتعجيل الحساب ، والشفاعة فى زيادة الدرجات فى الجنة لأهلها انتهى .

ولكل هذه الأقسام دلائل مستنبطة من الأخبار الطويلة ، فالشفاعة الأولى يدل عليها حديث أبي هريرة وحديث أنس « حتي يريحنا من مكاننا فيأتون آدم » . وأما الثانية فيدل عليها مافى آخر حديث أبى هريرة « فأرفع رأسى فأقول أمتي يارب أمتى ، فيقال يامحمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن » . وأما الثالثة فيدل عليها قوله فى حديث حذيفة « ونبيكم على الصراط يقول رب سلم » . وأما الرابعة فحديث عمران بن الحصين عند البخارى « يخرج قوم من النار بشفاعة محمد فيدخلون الجنة ويسمون الجهنميين » . وأما الخامسة وهى رفع الدرجات فقال النووى فى الروضة : إنها من خصائصه صلى الله عليه وسلم ولم يذكر لذلك مستندا ، وقد ذكر القاضى عياض شفاعة سادسة ، وهى شفاعته صلي الله عليه وسلم لعمه أبى طالب فى تخفيف العذاب كما فى الصحيح « وجدته فى غمرات النار فأخرجته إلى ضحضاح » . وزاد بعضهم سابعة ، وهى الشفاعة لأهل المدينة ، لحديث « كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة » وتعقبه الحافظ ابن حجر فى الفتح بأن متعلقها لا يخرج من الخمس المذكورة ، وبأنه لو عد مثل ذلك لعد حديث عبد الملك بن عباد رفعه « أول من أشفع له أهل المدينة ثم أهل مكة ثم أهل الطائف » رواه البزار وأخرى لمن زار قبره الشريف ، وأخري لمن أجاب المؤذن ثم صلي عليه صلى الله عليه وسلم ، وأخرى فى التجاوز عن تقصير الصلحاء لكن هذه مندرجة فى الخامسة ، وزاد القرطي ، أنه أول شافع فى دخول أمته الجنة قبل الناس ، وزاد بالفتح أخرى ، فمن استوت حسناته وسيئاته أن يدخل الجنة ، وهم أهل الأعراف ؛ وشفاعة أخرى وهى شفاعته صلى الله عليه وسلم فيمن قال « لا إله إلا الله » ولم يعمل خيرا قط ، كما فى حديث أنس . قالوا ويرد الخمسة أربعة ؛ وما عداها لا يرد كما لا ترد الشفاعة فى التخفيف عن صاحبي القبرين وغير ذلك لكونه من جملة أحوال الدنيا . فإن قلت : فأى شفاعة ادخرها صلي الله عليه وسلم لأمته ، أما الأولى فلا تختص بهم بل هى لاراحة الجميع كلهم وهى المقام المحمود وكذلك باقى الشفاعات الظاهر أنه يشاركهم فيها بقية الأمم . والجواب أنه يحتمل أن المراد الشفاعة العظمي التى للاراحة من هول الموقف ، وهى وإن كانت غير مختصة بهذه الأمم لكنهم الأصل فيها وغيرهم تبع لهم ، ويحتمل أن تكون الشفاعة الثانية وهي التى فى إدخال قوم الجنة بغير حساب

فَهٰذِهِ وَنَحْوُهَا مِمَّا يَبْعَثُ عَلَى النُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ وَيُجَنِّبُكَ مِنْ أَنْ تَحْسُدَهُ فِى نِعْمَةٍ أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَى إِيَّاهَا وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَلِىُّ التَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ .

وَأَمَّا الْعَجَلَةُ فَإِنَّهَا الْمَعْنَى الرَّاتِبُ فِى الْقَلْبِ الْبَاعِثُ عَلَى الْإِقْدَامِ عَلَى الْأَمْرِ بِأَوَّلِ خَاطِرٍ دُونَ التَّوَقُّفِ فِيهِ وَالِاسْتِطْلَاعِ مِنْهُ ، بَلْ الِاسْتِعْجَالُ فِى اتِّبَاعِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ ، وَضِدُّهَا الْأَنَاةُ وَهُوَ الْمَعْنَى الرَّاتِبُ فِى الْقَلْبِ الْبَاعِثُ عَلَى الِاحْتِيَاطِ فِى الْأُمُورِ وَالنَّظَرِ فِيهَا وَالتَّأَنِّى فِى اتِّبَاعِهَا وَالْعَمَلِ بِهَا .

وَأَمَّا التَّوَقُّفُ فَضِدُّهُ التَّعَسُّفُ . قَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ : الْفَرْقُ بَيْنَ التَّوَقُّفِ وَالتَّأَنِّى أَنَّ التَّوَقُّفَ قَبْلَ الدُّخُولِ فِى الْأَمْرِ حَتَّى يَسْتَبِينَ لَهُ رُشْدُهُ . وَالتَّأَنِّى بَعْدَ الدُّخُولِ

---

وهي المختصة بهذه الأمة ؛ فإن الحديث الوارد فيها « يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفا بغير حساب » ولم ينقل ذلك فى بقية الأمم . ويحتمل أن يكون المراد مطلق الشفاعة المشتركة بين الشفاعات الخمس . وكون هذه الأمة يشاركونهم فيها أو فى بعضها لاينافى أن يكون عليه الصلاة والسلام أخر دعوته بشفاعته لأمته فلعله لايشفع لغيرهم من الأمم بل يشفع لهم أنبياؤهم ، ويحتمل أن تكون لغيرهم تبعا كما تقدم فى الشفاعة العظمى والله أعلم ( فهذه ) أى الأذكار لحقوق المؤمن ورفع منزلته عند الله وما حصل له من الكرامات وغير ذلك ( ونحوها ) أى مثل هذه الأذكار من الفوائد الجليلة ( مما يبعث ) أى يحملك ( على النصح ) وإرادة الخير ( لكل مسلم ، ويجنبك ) أى يبعدك ( من أن يحسده فى نعمة أعطاه ) أى المسلم ( الله تعالى إياها ) أى تلك النعمة ( والله سبحانه ) وتعالى ( ولي التوفيق بفضله . وأما العجلة ) أى الإسراع فى الأمور . وفى المختار : العجلة ضد البطء ( فإنها ) أى العجلة ( المعنى الراتب ) أى الثابت . وفى المختار : رتب الشيء ثبت ودام وبابه دخل وأمر راتب : أى دائم ثابت ( فى القلب الباعث ) بالرفع : أى الحامل ( علي الإقدام علي الأمر ) أى الشجاعة عليه . فى محيط المحيط : أقدم على الأمر شجع . وفى المختار : الاقدام الشجاعة ( بأول خاطر دون التوقف فيه ) أى فى الأمر ( و ) دون ( الاستطلاع ) أى طلب الاطلاع والعلم ( منه ) أى الأمر الذى يخطر بأول خاطر ( بل ) حمله ( الاستعجال فى اتباعه ) أى هذا الأمر ( والعمل به وضدها ) أى تلك العجلة ( الأناة ) بوزن القناة : أى الحلم والرفق والانتظار والوقار ( وهو المعنى الراتب فى القلب الباعث ) بالرفع ( على الاحتياط فى الأمور و ) علي ( النظر ) والتأمل ( فيها ) أى الأمور ( والتأنى ) أى التمهل والتثبت ( فى اتباعها و ) فى ( العمل بها ) أى بتلك الأمور . ( وأما التوقف فضده التعسف ) أى التمشي فى غير الطريق . ( قال شيخنا ) أبو بكر الوراق ( رحمه الله : الفرق بين التوقف والتأنى أن التوقف قبل الدخول ) أى الشروع ( فى الأمر حتى يستبين له ) أى للعبد ( رشده ) أى صواب الأمر وإصابته فيه ( والتأنى ) يكون ( بعد الدخول

فِيهِ حَتَّى يُؤَدِّيَ لِـكُلِّ جُزْءٍ مِنْهُ حَقَّهُ . ثُمَّ مُقَدِّمَاتُ الْأَنَاةِ ذِكْرُ وُجُوهِ الْخَطَرِ فِى الْأُمُورِ الَّتِى تَعْتَرِضُ لِلْإِنْسَانِ وَضُرُوبِ الآفَاتِ الْمَخُوفَةِ فِيهَا ، وَذِكْرُ مَا فِى النَّظَرِ التَّثَبُّتُ مِنَ السَّلَامَةِ وَمَا فِى التَّعَسُّفِ وَالِاسْتِعْجَالِ مِنَ النَّدَامَةِ وَالْمَلَامَةِ . وَهٰذِهِ وَأَمْثَالُهَا مِمَّا يَبْعَثُ عَلَى التَّأَنِّى وَالتَّوَقُّفِ فِى الْأُمُورِ وَيَمْنَعُ مِنَ الِاسْتِعْجَالِ وَالتَّعَسُّفِ ، وَاللهُ تَعَالَى وَلِىُّ الْعِصْمَةِ بِرَحْمَتِهِ .

وَأَمَّا الْـكِبْرُ فَاعْلَمْ أَنَّهُ خَاطِرٌ فِى رَفْعِ النَّفْسِ وَاسْتِعْظَامِهَا ، وَالتَّـكَبُّرُ اتِّبَاعُه ، وَالضَّعَةُ خَاطِرٌ فِى وَضْعِ النَّفْسِ وَاحْتِقَارِهَا ، وَالتَّوَاضُعُ اتِّبَاعُهُ وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا

---

فيه ) أى فى ذلك الأمر ( حتى يؤدى ) العبد ( لـكل جزء منه ) أى من الآمر ( حقه ) أى حق الجزء الذى يؤديه . ( ثم مقدمات الأناة ذكر وجوه الخطر فى الأمور التى تعترض ) وتحـدث ( للانسان و ) فى ( ضروب ) أى أنواع ( الآفات المخوفة فيها ) أى فى الأمور ( وذكرما ) بالرفع معطوف على ذكر وجوه ( فى النظر ) أى الفـكر ( والتثبت من السلامة ) بيان لما : أي السلامة من الآفات المخوفة (و) ذكر ( مافى التعسف والاستعجال من الندامة والملامة ، وهـذه ) أى الأذكار ( وأمثالها مما يبعث على التأنى والتوقف فى الأمور ، و) مما ( يمنع من الاستعجال والتعسف ، والله تعالى ولى العصمة ) أى الحفظ ( برحمته ) ومنته . ( وأما الـكبر ) بالـكسر : اسم من التـكبر ( فاعلم أنه خاطر فى رفع النفس واستعظامها ) أى النفس مع النظر إلى الغير بين الاحتقار والذل ؛ ولذلك يسمى الـكبر أيضا عزة وتعظما ( والتـكبر اتباعه ) أى اتباع خاطر الرفع والاستعظام مع ماذكر ؛ أما لواستعظم نفسه ولـكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يكون متكبرا عليه ولو استحقر غيره ، ومع ذلك رأى نفسه أحقر لم يتكبر : ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتـكبر ، بل المتكبر أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره كما قاله بعض المحققين ( والضعة ) بفتح الضاد وكسرها ( خاطر فى وضع النفس واحتقارها ، والتواضع اتباعه ) أى الخاطر ، والتواضع : تفاعل من الوضع بمعنى الخشوع والذل . والفرق بين التواضع والضعة أن التواضع رضا الانسان بمنزلة دون ماتستحقه منزلته ، والضعة وضع الانسان نفسه بمحل يزرى به . والفرق بين التواضع والخشوع أن التواضع يعتبر بالأخلاق والأفعال الظاهرة والباطنة ، والخشوع يقال باعتبار أفعال الجوارح ، ولذلك قيل : إذا تواضع القلب خشعت الجوارح قاله الراغب . وقال ابن القيم : الفرق بين التواضع والمهانة أن التواضع يتولد من بين العلم بالله وصفاته ومحبته وإجلاله وبين معرفته بنفسه ونقائصها وعيوب عمله وآفاتها فيتولد من ذلك خلق هو التواضع ، وهو انـكسار القلب لله وخفض جناح الذل من الرحمة للخلق . والمهانة : الدناءة والخسة وابتذال النفس فى نيل حظوظها كتواضع الفاعل للمفعول به ( وكل واحد منهما ) ؛

عامِيٌّ وَخاصِيٌّ ؛ فالتَّواضُعُ الْعامِيُّ هُو الاكْتِفاءُ بِالدُّونِ مِنَ المَلْبَسِ وَالْمَسْكَنِ وَالْمَرْكَبِ

---

أى التكبر والتواضع ( عامى وخاصى ، فالتواضع العامى هو الاكتفاء بالدون ) أى الأدنى ( من الملبس والمسكن والمركب ) وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « البذاذة من الإيمان » فقال هارون بن سعيد الأيلى أحد رواة هذا الحديث سألت معن بن عيسى القزاز عن معنى البذاذة ، فقال هو الدون من الثياب . وقال العلامة الزبيدى : هى رثاثة الهيئة وترك الترفه فى البدن والملبس ، وجعله من أخلاق أهل الايمان ، لأن المؤمن يؤثر الخمول بين الناس ، ويقصد التواضع ، ويزهد فى الدنيا ، ويكف نفسه عن الفخر والكبرياء ، فالبذاذة أليق به ؛ هذا إذا قصد به ذلك لا لأن يظهر به الفقر ، ويصون المال فليس هذا من الايمان ؛ بل عرض النعمة للكفران ، وأعرض عن شكر المنعم المنان .

وقد مدح الله عباده المؤمنين بالتواضع فقال « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا » يعنى متواضعين ، ومدحهم بتواضعهم وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالتواضع فقال « واخفض جناحك للمؤمنين ــ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » ومدح النبي صلى الله عليه وسلم بخلقه فقال « وإنك لعلى خلق عظيم » وكان خلقه التواضع ، لأنه روى فى الخبر « أنه كان يركب الحمار ويجيب دعوة المملوك » فثبت أن التواضع من أحسن الأخلاق ، وكان السلف الصالحون أخلاقهم التواضع فوجب علينا أن نقتدى بهم رضى الله عنهم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مازاد الله عبدا بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه » رواه مسلم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن تواضع فى غير مسكنة ، وأنفق مالا جمعه فى غير معصية ورحم أهل الذل والمسكنة ، وخالط أهل الفقه والحكمة » . رواه البخارى فى التاريخ ، والبغوى فى معجم الصحابة ، وقال صلى الله عليه وسلم « خيرنى ربي بين أمرين : أن أكون عبدا رسولا أو ملكا نبيا فلم أدر أيهما أختار ؟ وكان صفيي من الملائكة جبريل ، فرفعت رأسى إليه ، فقال تواضع لربك ، فقلت : عبدا رسولا » رواه الطبرانى من حديث ابن عباس . وأوحى الله تعالي إلى موسى عليه السلام « إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتى ولم يتعاظم على خلقى وألزم قلبه خوفى وقطع نهاره بذكرى ؛ وكف نفسه عن الشهوات لأجلى » رواه الديلمى من حديث حارثة بن وهب رفعه . وقال صلى الله عليه وسلم « الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى » . رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب اليقين مرسلا . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : قال صلى الله عليه وسلم « إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السماء السابعة » رواه البيهقى فى الشعب . وقال صلى الله عليه وسلم « التواضع لايزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرحمكم الله » رواه الأصفهانى فى الترغيب والترهيب ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه يوما « مالى لاأرى عليكم حلاوة العبادة ؟ قالوا وما حلاوة العبادة ؟ قال : التواضع » . قال عمر رضى الله عنه : إن العبد إذا تواضع لله رفع الله

وَالتَّكَبُّرُ فِي مُقَابَلَتِهِ التَّرَفُّعُ عَنْ ذٰلِكَ، وَالتوَاضُعُ الْخَاصِيُّ: هُوَ تَمْرِينُ النَّفْسِ عَلَى قبُولِ الحَقِّ مِمَّنْ كانَ وَضِيعاً أَوْ شَرِيفاً ، وَالتَّكَبُّرُ فِى مُقَابَلَتِهِ التَّرَفُّعُ عَنْ ذٰلِكَ ، وَهُوَ مَعْصِيَةٌ كَبِيرَةٌ وَخَطِيئَةٌ عَظِيمَةٌ ؛

---

حكمته وقال انتعش رفعك الله . وقال جرير بن عبد الله : انتهيت إلى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بنطع له وقد جاوزت الشمس النطع فسويته عليه ، ثم إن الرجل استيقظ فإذا هو سلمان الفارسى فذكرت له ماصنعت ، فقال لى يا جرير تواضع لله فى الدنيا فإنه من تواضع لله رفعه الله يوم القيامة، يا جرير أتدرى ماظلمة النار يوم القيامة ؟ قلت :لا، قال : إنه ظلم الناس بعضهم بعضا فى الدنيا . وقالت عائشة رضى الله عنها : إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة التواضع . وقال يوسف ابن أسباط: يجزى قليل الورع من كثير العمل ، ويجزى قليل التواضع من كثير الاجتهاد . وقال قتادة : من أعطى مالا أو جمالا أو ثيابا أو علما ثم لم يتواضع كان عليه وبالا يوم القيامة . وقيل : أوحى الله تعالى إلي عيسى عليه السلام « إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أتممها عليك » وقال كعب الأحبار : ماأنعم الله على عبد من نعمة فى الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها فى الدنيا ورفع له بها درجة فى الآخرة ، وما أنعم الله على عبد من نعمة فى الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله إلا منعه الله نفعها فى الدنيا وفتح له طبقا من النار يعذبه إن شاء أو يتجاوز » وقيل لعبد الملك بن مروان : أىالرجال أفضل ؟ قال: من تواضع عن قدرة، وزهد عن رغبة ، وترك النصرة عن قوة . وقال يونس بن عبيد البصرى وقد انصرف من عرفات لم أشك فى الرحمة لولا أنى كنت معهم إنى أخشى أنهم حرموا بسببى ، ويقال أرفع مايكون المؤمن عند الله أوضع مايكون عند نفسه ، وأوضع مايكون عند الله أرفع مايكون عند نفسه . وقال أبو على الجوزجانى : النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد ، فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة ، وإذا أراد الله به خيرا لطف به فى ذلك ، فإذا هاجت فىنفسه نار الكبر أدركها التواضع مع نصر الله تعالى ، وإذا هاجت نار الحسد فى نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عز وجل ، وإذا هاجت فى نفسه نار الحرص أدركتها القناعة مع عون الله عز وجل، ويقال: لاعز إلا لمن تذلل لله عزّ وجلّ ، ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عزّ وجلّ ولا أمن إلا لمن خاف الله عزّ وجلّ ، ولا ربح إلا لمن ابتاع نفسه من الله عزّ وجلّ ، والأخبار والآثار فى هذا الباب أكثرمن أنتحصى وفيماذكرنا كفاية لمنتأمل حقالتأمل والتدبر (والتكبر) الذى ( فى مقابلته ) أى التواضع العامى ( الترفع عن ) ذلك أى الاكتفاء بالدون ( والتواضع الخاصى هو تمرين ) أى تليين ( النفس على قبول الحق ممن كان ) سواء كان ( وضيعا ) أى رجلا دنيئا ومحطوط القدر ( أو شريفا ، والتكبر ) الذى ( فى مقابلته ) أى التواضع الخاصى ( الترفع عن ذلك ) أى عن قبول الحق من الوضيع ( وهو ) أى الترفع عن القبول ( معصية كبيرة وخطيئة عظيمة ) وكان بعضهم يقول : التواضع هو الاستسلام للحق وترك الاعتراض على الحكم .

ثُمَّ حِصْنُ التَّوَاضُعِ الْعَامِيُّ أَنْ تَذْكُرَ مَبْدَأَكَ وَمُنْتَهَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِ فِي الْحَالِ مِنْ ضُرُوبِ الآفَاتِ وَالْأَقْذَارِ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: أَوَّلُكَ نُطْفَةٌ مَذِرَةٌ وَآخِرُكَ جِيفَةٌ قَذِرَةٌ وَأَنْتَ فِيمَا بَيْنَهُمَا حَامِلُ الْعَذِرَةِ، وَحِصْنُ التَّوَاضُعِ الْخَاصِيُّ هُوَ ذِكْرُ عُقُوبَةِ الْعَادِلِ عَنِ الْحَقِّ الْمُتَمَادِي فِي الْبَاطِلِ فَهَذِهِ جُمْلَةٌ كَافِيَةٌ لِمَنِ اسْتَبْصَرَ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ وَوَلِيُّ التَّوْفِيقِ .

---

وسئل الفضيل عن التواضع ؟ فقال : تخضع للحق وتنقاد له وتقبله ممن قاله . وسئل الجنيد عن التواضع ، فقال : خفض الجناح للحق ، ولين الجانب لهم . وقال ابن عطاء : التواضع قبول الحق ممن كان . وقال ابن عباس : من التواضع أن يشرب الرجل من سؤر أخيه : وقال حمدون القصار : التواضع أن لاترى لأحد إلى نفسك حاجة لافي الدين ولا في الدنيا . وقال الشبلي : ذلي عطل ذل اليهود : أي المذكور في قوله تعالى « ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا » فهم أذل الخلق ، والمعنى ذلي في نفسي أعظم من ذل اليهود في أنفسهم ، لأن ذلهم قهري وذلي عن علم بما عليه نفسي من النقص وهذا لايلزم منه جحده لفضل ربه عليه ، لأن ماذكر من الذل بالنظر إلى نفسه ، وما هو فيه من الفضل جار عليه ربه ، فهو ذليل عزيز كذا ذكره القشيري ( ثم حصن التواضع العامي أن تذكر مبدأك ومنتهاك و ) تذكر ( ماأنت عليه في الحال ) أي الحال الذي بين المبدإ والمنتهى ( من ضروب الآفات ) أي أنواعها ( والأقذار كما قال بعضهم ) وهو مالك بن دينار: ( أولك نطفة مذرة ) أي متغيرة ( وآخرك جيفة قذرة ) أي نتنة ( وأنت فيما بينهما ) أي الأول والآخر ( حامل العذرة ) بفتح العين وكسر الذال المعجمة : أي الغائط أخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة مالك بن دينار ، فقال : حدثنا الحسن بن علي بن الخطاب الوراق حدثنا محمد بن عثمان ابن أبي شيبة حدثنا إبراهيم بن العباس الكاتب حدثنا الأصمعي قال : مر المهلب بن أبي صفرة على مالك بن دينار وهو يتبختر في مشيته ، فقال له مالك ما علمت إلا هذه المشية تكره إلا بين الصفين، فقال له المهلب أما تعرفني ؟ فقال مالك : أعرفك أحسن المعرفة . قال : وما يعرفك مني؟ قال : أما أولك فنطفة مذرة ، وأما آخرك فجيفة قذرة ، وأنت بينهما تحمل العذرة قال فقال المهلب الآن عرفتني حق المعرفة . وأخرج من طريق سلام بن مسكين عن مالك بن دينار أنه لقي بلال بن أبي بردة والناس يطوفون حوله ، فقال له : أما تعرفني ؟ قال بلي أعرفك ، أولك نطفة ، وأوسطك جيفة ، وأسفلك دودة . قال : فهموا به أن يضربوه . فقال لهم : أنا مالك ابن دينار فركب ومضى ( وحصن التواضع الخاصي هو ذكر عقوبة العادل ) أي المائل والمتجاوز ( عن الحق التمادي ) أي مديم الغي . في محيط المحيط : تمادي فلان في غيه تماديا لج ودام في فعله ( في الباطل فهذه ) أي الجملة التي ذكرناها ( جملة كافية لمن استبصر ) وتأمل بفكره الصافي عن الشواغل الدنيوية (والله الموفق وولي التوفيق) .

﴿ الفصل الخامسُ: فى البطن وحفظِه ﴾

ثُمَّ عَلَيْكَ يَاطَالِبَ الْعِبَادَةِ بِحِفْظِ الْبَطْنِ وَإِصْلَاحِهِ فَإِنَّهُ أَشَقُّ الْأَعْضَاءِ إِصْلَاحًا عَلَى الْمُجْتَهِدِ وَأَكْثَرُهَا مُؤْنَةً وَشُغْلاً وَأَعْظَمُهَا ضَرَرًا وَأَثَرًا لِأَنَّهُ الْمَنْبَعُ وَالْمَعْدِنُ وَمِنْهُ تَهِيجُ الْأُمُورُ فِى الْأَعْضَاءِ مِنْ قُوَّةٍ وَضَعْفٍ وَعِفَّةٍ وَجِمَاعٍ وَنَحْوِهِ؛ فَعَلَيْكَ إِذًا بِصِيَانَتِهِ عَنِ الْحَرَامِ

---

﴿ الفصل الخامس ) هذا آخر الفصول الخمسة التى تتعلق بالأعضاء ( فى البطن وحفظه ﴾ من تناول الحرام والشبهة . ( ثم عليك يا طالب العبادة ) الخالصة ( بحفظ البطن ) عما ذكر ( وإصلاحه فانه أشق الأعضاء إصلاحا على المجتهد ) فى العبادة ( وأكثرها ) أى الأعضاء ( مؤنة ) أى ثقلا وشدة ( وشغلا وأعظمها ) .أى تلك الأعضاء ( ضررا وأثرا لأنه ) أى البطن ( المنبع والمعدن ) أى للآفات ( ومنه ) أى من البطن ( تهيج ) أى تتحرك ( الأمور فى الأعضاء من قوة وضعف وعفة ) أى كف عن الحرام ونحوه . فى التعريفات العفة : هيئة للقوة الشهوية متوسطة بين الفجور الذى هو إفراط هذه القوة والجمود الذى هو تفريطها ، فالعفيف من يباشر الأمور على وفق الشرع والمروءة ( وجماح ) بالكسر : أى غلبة . فى محيط المحيط: جمح الرجل ركب هواه فلم يمكن رده (ونحوه) أى المذكورة من القوة وما بعدها، وبالجملة إن أعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن ، فبها أخرج آدم وحواء عليهما السلام من دار القرار التى هي الجنة إلى دار الذل والافتقار التى هى الأرض إذ نهيا عن أكل الشجرة فغلبتهما شهواتهما بوسوسة إبليس ألقى فى خاطرهما حتى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما ، والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبع الآفات إذ يتبعها شهوة الفرج وشدة الشبق والهيجان إلى المنكوحات ، ثم تتبع شهوة الطعام والنكاح شدة الرغبة والميل فى الجاه والمال اللذين هما وسيلة إلى التوسع فى المنكوحات والمطعومات ، ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات ، ثم تتولد بينهما آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء ، ثم يتداعى ذلك إلى ارتكاب الحقد والحسد والعداوة والبغضاء، ثم يفضى ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغى والمنكر والفحشاء، وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة، وترك سياستها وإهمال مايتولد منها من بطر الشبع والامتلاء ولو ذلل العبد نفسه بالجوع وضيق به مجاري الشيطان لأذعنت لطاعة الله عز وجل ، ولم تسلك سبيل البطر والطغيان على الله عز وجل ولم ينجر به ذلك إلي الانهماك فى الدنيا وإيثار العاجلة على العقبى ، وقد ذم الله تعالى هذا الإيثار فقال « بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » ولم يتكالب كل هذا التكالب على الدنيا ؛ وإذا عظمت آفة شهوة البطن ( فعليك إذا ) أى حين عظمت آفة البطن وشق إصلاحه على المجتهد ( بصيانته ) أى البطن (عن) تناول ( الحرام

وَالشُّبْهَةِ أَوَّلاً ثُمَّ عَنْ فُضُولِ الْحَلاَلِ ثَانِياً إِنْ كَانَتْ لَكَ هِمَّةٌ فِى عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى، فَأَمَّا الْحَرَامُ وَالشُّبْهَةُ فَإِنَّمَا يَلْزَمُكَ التَّجَنُّبُ لِثَلاثَةِ أُمُورٍ : أَوَّلُهَا حَذَرًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ قَالَ اللهُ تَعَالَى : (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا) . وَقَالَ النَّبِىُّ صلى اللهُ عليه وسلم :«كُلُّ لَحْمٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ» .

---

والشبهة أولا ، ثم ) الصيانة ( عن فضول الحلال ثانيا إن كانت لك همة ) علية . قال الزبيدى : الهمة قوة راسخة في النفس طالبة لمعالى الأمور هاربة من سفسافها ( فى عبادة الله تعالى ، فأما الحرام والشبهة فإنما يلزمك التجنب ) أي التباعد (لثلاثة أمور: أولهاحذرا) أي تحرزاً واجتنابا(من نار جهنم . قال الله تعالى : إن الذين يأكلون أموال اليتامي ظلما ) أى تعديا من غير أن يكون لهم فيها حق ( إنما يأكلون فى بطونهم ) أى ملء بطونهم ( ناراً ) أى مثل النار كما قاله الزبيدى . وقال بعضهم : أي يجر إلى النار ويئول إليها . وعن أبى بردة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال « يبعث الله قوما من قبورهم تتأجج أفواههم نارا ، فقيل من هم ؟ فقال ألم تر أن الله يقول ( إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا) » أي سيدخلون نارا، ووجه الاستدلال بها التعريف بأن أكل أموال اليتامي حرام ووعيده شديد . وقال الله تعالي « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » إلى قوله « ولا تقتلوا أنفسكم » قيل من أكل حراما فقد قتل نفسه لأنه سبب إهلاكها وتعذيبها، فعرف من ذلك أن أكل أموال الناس بالباطل حرام ، وفى ارتكابه إهلاك النفس ، وقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقي من الربا إن كنتم مؤمنين » ثم قال « فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » ثم قال « وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم » ثم قال « ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » فما توعد الله ولا تهدد فى معصية بمثل ماتوعد فى أكل الربا ، فإنه عز وجل عظم شأنه بوصفين عظيمين إعظاما له وترهيبا منه حيث جعل أكل الربا فى أول الأمر مؤذنا بمحاربة الله عز وجل والرسول ، وفى آخره متعرضا للنار بالخلود فيها ، ومن ذلك اشترط للايمان ترك الربا بقوله « إن كنتم مؤمنين » وهي للشرط والجزاء ، ثم أوجب التوبة بعد إعلامه بالظلم منهم فى قوله « إن كنتم » إلى آخرها ، ثم نص على تحريمه بقوله تعالى « وأحل الله البيع وحرم الربا » ثم توعد بالخلود فى النار بقوله « هم فيها خالدون » وهذا من شديد الخطاب وعظيم العذاب ، فلذلك يخاف على مدمن الربا المختوم له به غير التائب منه أن يموت على الكفر لعلة ذكر الخلود ، والآيات الواردة فى ذلك لاتحصر . ( و ) أما الأخبار فقد ( قال النبى صلى الله عليه وسلم « كل لحم نبت من سحت ) بضم السين والحاء وسكونها أى حرام ( فالنار أولى به » ) أى من الجنة لتطهره النار عن ذلك باحراقها إياه ، وهذا على ظاهر الاستحقاق : أما إذا تاب أو غفر له من غير توبة وأرضى خصومه أو نالته شفاعة شفيع فهو خارج من هذا الوعيد ، كذا أفاده العلامة

وَالثَّانِي: أَنَّ آكِلَ الحَرَامِ وَالشُّبْهَةِ مَطْرُودٌ لاَيُوَفَّقُ لِلْعِبَادَةِ، إِذْ لاَيَصْلُحُ لِخِدْمَةِ اللهِ تَعَالَى إِلاَّ كُلُّ طَاهِرٍ مُطَهَّرٍ . قُلْتُ أَنَا : أَلَيْسَ اللهُ تَعَالَى قَدْ مَنَعَ الْجُنُبَ عَنِ الدُّخُولِ فِي بَيْتِهِ وَالْمُحْدِثَ عَنْ مَسِّ كِتَابِهِ ؟. قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: (وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا) . وَقَالَ اللهُ تَعَالَى : (لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ) . مَعَ أَنَّ الْجَنَابَةَ وَالْحَدَثَ أَمْرٌ مُبَاحٌ فَكَيْفَ بِمَنْ هُوَ مُنْغَمِسٌ فِي قَذَرِ الْحَرَامِ وَنَجَاسَةِ السُّحْتِ وَالشُّبْهَةِ ؟ وَمَتَى يُدْعَى إِلَى خِدْمَةِ اللهِ الْعَزِيزِ وَذِكْرِهِ الشَّرِيفِ سُبْحَانَهُ ؟ كَلاَّ فَلاَ يَكُونُ ذَلِكَ أَبَدًا. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِي رَحِمَهُ اللهُ :

---

علي القاري في [مرقاة المفاتيح لمشكاة المصابيح] . قال العراقي . وهذا الحديث رواه الترمذي من حديث كعب بن عجرة وحسنه ، ووجد بخط الحافظ في الحلية من حديث أبي بكر وعائشة وجابر « كل جسد نبت من سحت » ونحوه من حديث ابن عباس في الصغير للطبراني . وقال صلى الله عليه وسلم « من أصاب مالا من مأثم فوصل به رحما أو تصدق به أو أنفقه في سبيل الله جمع الله ذلك جميعا ثم قذفه في النار » رواه أبو داود في المراسيل . وقال صلى الله عليه وسلم « من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار » رواه الديلمي في مسند الفردوس ، والأخبار في ذا الباب أكثر ( والثاني ) من الأمور الثلاثة ( أن آكل الحرام والشبهة مطرود ) أي مبعد عن الخير ( لايوفق ) بالبناء للمفعول : أي لايوفقه الله تعالى ( للعبادة ) الخالصة ( إذ لايصلح لخدمة الله تعالى ) أي طاعته ( إلا كل طاهر مطهر ) عن الآثام وتناول الحرام ، وعن كل مايسخطه تعالي ( قلت أنا : أليس الله تعالى قد منع الجنب عن الدخول في بيته ) أي مسجده تعالى ، والإضافة للتشريف كقوله ناقة الله ( و ) منع ( المحدث ) أي حدثا أصغر أو أكبر ( عن مس كتابه ) العزيز وهو القرآن ( قال عز من قائل ولا جنبا ) بالإيلاج أو الإنزال ونصبه على الحال ، وهو يطلق على المفرد وغيره ( إلا عابرى ) أي مجتازى ( سبيل ) طريق : أي مسافرين ( حتى تغتسلوا ) فلكم أن تصلوا واستثنى المسافر لأن له حكما آخر ، وقيل المراد النهى عن قربان مواضع الصلاة : أي المساجد إلا عبورها من غير مكث ( وقال الله تعالى لا يمسه ) أي القرآن خبر بمعنى النهى ( إلا المطهرون ) أي الذين طهروا أنفسهم من الأحداث ( مع أن الجنابة ) بفتح الجيم ( والحدث أمر مباح فكيف ) الحال ( بمن هو منغمس ) أي داخل ؛ وفي [محيط المحيط] انغمس في الماء واغتمس غاص فيه وفي الشيء دخل فيه ( في قذر الحرام ) أي وسخه ( ونجاسة السحت ) أي الحرام ( والشبهة ومتى يدعى ) بالبناء للمفعول : أي ذلك المنغمس ( إلى خدمة الله العزيز ) وطاعته ( وذكره الشريف سبحانه ) وتعالى ( كلا ) أي حقا ( فلا يكون ذلك ) أي الدعوة إلى خدمة الله تعالى وطاعته ( أبدا وقال ) أبو زكريا ( يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله ) أحد رجال

الطَّاعَةُ مَخْزُونَةٌ فِى خَزَائِنِ اللهِ تَعَالَى، وَمِفْتَاحُهَا الدُّعَاءُ ، وَأَسْنَانُهَا الحَلَالُ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمِفْتَاحِ أَسْنَانٌ فَلَا يَنْفَتِحُ الْبَابُ وَإِذَا لَمْ يَنْفَتِحْ بَابُ الْخَزَانَةِ كَيْفَ يَصِلُ إِلَى مَا فِيهَا مِنَ الطَّاعَةِ. وَالثَّالِثُ أَنَّ آكِلَ الْحَرَامِ وَالشُّبْهَةِ مَحْرُومٌ مِنْ فِعْلِ الْخَيْرِ، فَإِنِ اتَّفَقَ لَهُ فِعْلُ خَيْرٍ فَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَيْهِ غَيْرُ مَقْبُولٍ مِنْهُ ، فَإِذَنْ لَا يَكُونُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْعَنَاءُ وَالْكَدُّ وَشَغْلُ الْوَقْتِ ، قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم « كَمْ مِنْ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلا السَّهَرُ وَكَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلاَّ الْجُوعُ وَالظَّمَأُ» . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمَا : لَا يَقْبَلُ اللهُ صَلَاةَ امْرِئٍ

---

الطريقة ، توفى يوم الاثنين لستّ عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ثمان وخمسين ومائتين ، وتقدم ذكر بعض ترجمته ( الطاعة ) أى طاعة الله تعالى ، وهى كل مافيه رضا وتقرب إلى الله تعالى وهي عندنا موافقة الأمر ، وعند المعتزلة موافقة الإرادة ( مخزونة فى خزائن الله تعالى ) قدجمع فيها كل خير ، وفى بعض النسخ: خزانة من خزائن الله تعالى (ومفتاحها ) الذى تفتح به ( الدعاء ) أى حسن التضرع إلى الله تعالى ( وأسنانه ) أى المفتاح ( الحلال ) أى لقمة الحلال كما فى نسخة، فالمدار عليها كما أن مدار المفتاح على أسنانه ( فإذا لم يكن للمفتاح أسنان فلا ينفتح الباب ، وإذا لم ينفتح باب الخزانة ) بالفتح ولا تكسر كما قاله الزبيدى ، خلافا للعلامة عبد الحق حيث قال بالكسر واحدة الخزائن ( كيف يصل ) العبد ( إلى مافيها ) أى الخزانة ( من الطاعة . والثالث ) هذا آخر الأمور الثلاثة ( أن آكل الحرام والشبهة محروم ) أى ممنوع ومحجوب ( من فعل الخير، فإن اتفق له ) أى لآكل الحرام والشبهة ( فعل خير فهو ) أى فعله ( مردود عليه ) أى على فاعله الذى يأكل الحرام والشبهة ( غير مقبول منه ) أى من ذلك الآكل لما ذكر ( فإذن ) أي حين رد عمله عليه ولا يقبل منه ( لايكون له ) أى للمتصف بما ذكر ( من ذلك ) أى من فعل الخير ( إلا العناء ) بفتح العين : أى التعب ( والكد ) أى المشقة ( وشغل الوقت ) بما لافائدة فيه فذلك هو الخسران المبين . قال الشعرانى : إن أكل الحرام أو الشبهة يظلم القلب ويحجبه عن دخول حضرة الله تعالى ويخلق الثياب ( قال ) رسول الله ( صلى الله عليه وسلم« كم من قائم ليس له من قيامه) أى صلاته ( إلا السهر» ) بفتحتين أى اليقظة ، وذلك لعدم الكف عن المحرمات والشبهات رواه الدارمي عن أبى هريرة رضى الله عنه (و) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا ( « كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والظمأ » ) أى بسبب عدم الكف عما ذكر ، وقيل هو الذى يصوم ويفطر على حرام ، رواه النسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وفى رواية الدارمي عن أبى هريرة « كم من صائم ليس له من صيامه إلا الظمأ » وفى المختار الظمأ العطش انتهى والعطش خلاف الرى (و) روى ( عن ) ترجمان القرآن عبد الله ( بن عباس رضى الله عنهما) أنه قال: ( لايقبل الله صلاة امرىء ) أى لم يكتب له صلاة مقبولة مع كونها مجزئة مسقطة

فِى جَوْفِهِ حَرَامٌ فَهٰذِهِ هٰذِهِ .

وَأَمَّا فُضُولُ الْحَلَالِ فَإِنَّهُ آفَةُ الْعُبَّادِ وَبَلِيَّةُ أَهْلِ الْاجْتِهَادِ، فَإِنِّى تَأَمَّلْتُ فَوَجَدْتُ فِيهِ عَشْرَ آفَاتٍ هُنَّ أُصُولٌ فِى هٰذَا الشَّأْنِ: الْأُولَى: أَنَّ فِى كَثْرَةِ الْأَكْلِ قَسْوَةُ الْقَلْبِ وَذَهَابُ نُورِهِ .

---

للقضاء كالصلاة بمحل مغصوب كما صرح به الزبيدى ( فى جوفه حرام ) وقد روى عنه أيضا « من أكل حراما لم يقبل الله منه صرفا ولا عدلا » وفى مسند الفردوس للديلمى من حديث ابن مسعود « من أكل لقمة من حرام لم يقبل منه صلاة أربعين ليلة ولم تستجب له دعوة أربعين ليلة وكل لحم ينبته الحرام فالنار أولى به ، وإن اللقمة الواحدة من الحرام لتنبت اللحم » . وقال سهل ابن عبد الله التسترى رحمه الله تعالى : من أكل الحرام عصت جوارحه : أى عن الطاعات شاء أم أبى علم أو لم يعلم ومن كانت طعمته حلالا أطاعته جوارحه ووفقت للخيرات ، وقال أيضا : من لم يكن مطعمه من حلال لم يكشف الحجاب عن قلبه ولم ترفع العقوبة عنه ، وما يبالي بصلاته وصيامه إلا أن يعفو الله عنه . وقال أيضا : إنما حرموا مشاهدة الملكوت وحجبوا عن الوصول بشيئين : سوء الطعمة . وبذاء الخلق . وقال بعض العلماء : الدعاء محجوب عن السماء بفساد الطعمة . وقال علي بن الفضيل لأبيه : يا أبت إن الحلال قليل وعزيز ، فقال: يابنى وإن عز فإن قليله عند الله كثير . وقال ابن المبارك : من صلي وفى بطنه طعام من حرام أو علي ظهره سلك من حرام لم تقبل صلاته . وقال يوسف بن أسباط وسفيان الثورى : لا طاعة للوالدين فى الشبهة .

وفى وجه التفسير فى قوله تعالى « فإن له معيشة ضنكا » قيل هو أكل الحرام كما قيل فى قوله تعالى « فلنحيينه حياة طيبة » قيل أكل الحلال ورزقه ، وكان بشر إذا ذكر الإمام أحمد يقول قد فضل علىّ بثلاثة ، وذكر أنه يطلب الحلال لنفسه ولغيره وأنا أطلبه لنفسى . وقال سفيان الثورى رحمه الله : من أنفق من الحرام فى طاعة الله كان كمن طهر الثوب النجس بالبول ، والثوب النجس لا يطهره إلا الماء والذنب لا يكفره إلا الحلال ( فهذه ) الجملة ( هذه ) أى عظيمة .

(وأما فضول الحلال) وهو ما أخذ من الحلال لشهوة النفس كما يأتى فى القسم الثانى من أقسام المباح للمصنف رحمه الله ( فإنه ) أى هذا الفضول ( آفة العباد ) بضم العين جمع عابد ، وفى نسخة العبادة ( وبلية أهل الاجتهاد ) فى العبادة (فإنى تأملت فوجدت فيه) أى فى فضول الحلال ( عشر آفات هن أصول فى هذا الشأن: الأولى ) منها ( أن فى كثرة الأكل قسوة القلب وذهاب نوره ) وصفائه وذهاب إيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة ، فإن الشبع يورث البلادة والجمود ، ويعمى القلب بتراكم الحجب عليه ، ويكثر البخار فى الدماغ بصعوده من المعدة إليه فيثقل القلب بسببه عن الجريان فى ميدان الأفكار ، وعن سرعة الإدراك لما يلقى إليه بل الصبى إذا أكثر الأكل بطل حفظه وفسد ذهنه،

رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أَنَّهُ قال: «لاَ تُمِيتُوا الْقَلْبَ بِكَثْرَةِ الطعامِ وَالشَّرَابِ فَإِنَّ الْقَلْبَ يَمُوتُ كَالزَّرْعِ إِذَا كَثُرَ عَلَيْهِ الْمَاءُ» وَلَقَدْ شَبَّهَ فى ذٰلِكَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ بِأَنَّ الْمَعِدَةَ كَالْقِدْرِ تَحْتَ الْقَلْبِ تَغْلِي، وَالْبُخَارُ يَرْتَفِعُ إِلَيْهِ، فَكَثْرَةُ الْبُخَارِ تُكَدِّرُهُ وَتُسَخِّمُهُ

---

وصار بطيء الفهم والإدراك. وقال ابن عباس رضى الله عنهما: قال النبي صلي الله عليه وسلم «من شبع ونام قسا قلبه».

وليس يخفي أن غاية المقصود من العبادات الفكر الموصل إلى المعرفة والاستبصار بحقائق الحق والشبع يمنع، والجوع يفتح بابه، والمعرفة باب من أبواب الجنة. فبالحرى أن تكون ملازمة الجوع قرعا لباب الجنة، ولهذا قال لقمان لابنه: يابنى إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة. وقال أبو يزيد البسطامى: الجوع سحاب، فإذا جاع العبد أمطر القلب الحكمة. وقال النبي صلى الله عليه وسلم «نور الحكمة الجوع والتباعد من الله عز وجل الشبع، والقربة إلى الله تعالى حب المساكين والدنو منهم، لا تشبعوا فتطفئوا نور الحكمة من قلوبكم، ومن بات فى خفة من الطعام بات الحور حوله حتى يصبح» رواه ابن عساكر فى التاريخ والديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة رضى الله عنه. (روى عن النبى صلي الله عليه وسلم أنه قال «لا تميتوا القلب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب يموت كالزرع) يموت (إذا كثر عليه) أى الزرع (الماء») قال العراقي: لم أقف له على أصل. وقال النبي صلي الله عليه وسلم «أفضلكم عند الله منزلة يوم القيامة أطولكم جوعا وتفكرا، وأبغضكم عند الله عز وجل يوم القيامة كل نئوم أكول شروب». وقال النبي صلي الله عليه وسلم «ثلاثة تورث قسوة القلب: حب النوم، وحب الراحة، وحب الأكل». وقال صلي الله عليه وسلم «من شبع فى الدنيا جاع يوم القيامة، ومن جاع فى الدنيا شبع يوم القيامة». وقال صلي الله عليه وسلم «من أكل فوق الشبع فقد أكل الحرام» كذا ذكره السيوطى فى اللباب (ولقد شبه ذلك) أى القلب في أن موته بكثرة الطعام والشراب (بعض الصالحين) رحمه الله تعالى (بأن المعدة) أى مقر الطعام والشراب من الإنسان (كالقدر) بكسر القاف: آنية يطبخ فيها وهى مؤنثة، ولهذا تدخل الهاء فى التصغير فيقال قديرة، وجمعها قدور مثل حمل وحمول، قاله فى المصباح (تحت القلب) أى اللحم الصنوبرى الشكل كما هو ظاهر (تغلي) من باب رمى: أى تثير بقوة الحرارة. وفى [محيط المحيط] غلت القدر تغلى غليا وغليانا بالأى: جاشت وثارت بقوة الحرارة ولا يقال غليت (والبخار) بضم الباء وهو كل شيء يسطع من الماء الحار أو من الندى وهو شبه الدخان كما فى حاشية التحفة (يرتفع إليه) أى إلى القلب (فكثرة البخار تكدره) أى ذلك القلب (وتسخمه) بضم التاء وفتح السين مع كسر الخاء المعجمة المشددة، من التسخيم: بمعنى التسويد كما

الثَّانِيَةُ : أَنَّ فى كَثْرَةِ الأَكلِ فِتْنَةَ الأَعْضَاءِ وَهَيْجُهَا وَانبِعَاثُهَا للفُضُولِ وَالفَسَادِ فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَانَ شَبْعَانَ بَطِرًا اشْتَهَتْ عَيْنُهُ النَّظَرَ إِلَى مَالاَ يَعْنِيهِ مِنْ حَرَامٍ أَوْ فُضُولٍ وَالأُذُنُ الاسْتِمَاعَ إِلَيْهِ وَاللِّسَانُ التَّكَلُّمَ وَالفَرْجُ الشَّهْوَةَ وَالرِّجْلُ المَشْىَ إِلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَ جَائِعاً تَكُونُ الأَعْضَاءُ كُلُّهَا سَاكِنَةً هَادِئَةً لاَتَطْمَحُ إِلَى شَىْءٍ مِنْ هٰذَا وَلاَ تَنْشَطُ لَهُ ، وَلَقَدْ قَالَ الأُسْتَاذُ أَبُو جَعْفَرٍ رَحِمَهُ اللهُ : إِنّ البَطْنَ عُضْوٌ إِنْ جَاعَ هُوَ شَبِعَ سَائِرُ الأَعْضَاءِ ، يَعْنِى تَسْكُنُ فَلاَ تُطَالِبُكَ بِشَىْءٍ ، وَإِنْ شَبِعَ هُوَ جَاعَ سَائِرُ الأَعْضَاءِ ، وَجُمْلَةُ الأَمْرِ أَنَّ أَفْعَالَ الرَّجُلِ وَأَقْوَالَهُ عَلَى حَسَبِ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ، إِنْ دَخَلَ الحَرَامُ خَرَجَ الحَرَامُ

---

هو مقتضى صنيع المختار : أى تسود كثرة البخار القلب . ( الثانية ) من الآفات العشرة ( أن فى كثره الأكل فتنة الأعضاء وهيجها ) أى تحركها ( وانبعاثها ) عطف تفسير ، فى [محيط المحيط] هاج الشىء يهيج هيجا وهياجا وهيجانا : ثار وتحرك وانبعث ( للفضول ) أى مالا ينفع فيه من الأقوال والأفعال ( والفساد ، فإن الرجل إذا كان شبعان ) بوزن سكران ومؤنثه شبعى (بطرا) أى أشرا وهو شدة المرح وبابه طرب كما فى المختار : وعبارة [محيط المحيط] بطر الرجل يبطر بطرا نشط وأشر وحار ودهش من قلة احتمال النعمة ، وطغى بالنعمة أو اعتراه دهش مع سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها وصرفها إلى غير وجهها فهو بطر ( اشتهت ) جواب إذا ( عينه ) أى الشبعان ( النظر إلى مالا يعنيه من حرام أو فضول و ) اشتهت ( الأذن الاستماع إليه ) أى مالا يعنيه ( و ) اشتهى ( اللسان التكلم ) بمالا يفيده ( و ) اشتهى ( الفرج الشهوة ) أى إتيانها ( و ) دعت ( الرجل المشي إليه ) أي إلى ما لاينفع صاحبها ؟ بل قد يضره ( وإن كان ) الرجل ( جائعا تكون الأعضاء كلها ساكنة ) أى غير متحركة ( هادئة ) بمعنى ما قبله . وفى المختار هدأ : سكن وبابه قطع وخضع وأهدأه سكنه ( لا تطمح ) بفتح الميم من باب خضع : أى لا تنظر ( إلى شىء من هذا ) أى المذكور مما لا يعنيه من حرام أو فضول ( ولا تنشط ) أى تلك الأعضاء ( له ) أى لشىء من ذلك . ( ولقد قال الأستاذ أبو جعفر رحمه الله : إن البطن عضو إن جاع هو ) أى ذلك البطن ( شبع ) بكسر الباء من باب طرب كما فى المختار ( سائر الأعضاء ) . قال المصنف رحمه الله ( يعنى ) أى يريد الأستاذ أبو جعفر بقوله شبع ( تسكن ) أى سائر الأعضاء ( فلا تطالبك بشىء ، وإن شبع هو ) أى ذلك البطن ( جاع سائر الأعضاء ) وتحرك إلى طلب الشىء ( وجملة الأمر ) أى حاصله ( أن أفعال الرجل وأقواله على حسب طعامه ) أى على قدره وعلى وفقه وهو بفتح السين ( و ) قدر ( شرابه إن دخل الحرام ) من الطعام والشراب ( خرج الحرام)

وَإِنْ دَخَلَ الْفُضُولُ خَرَجَ الْفُضُولُ كَأَنَّ الطَّعَامَ بَذْرُ الْأَفْعَالِ، وَالْأَفْعَالُ نَبْتٌ تَبْدُو مِنْهُ. الثَّالِثَةُ: أَنَّ فِي كَثْرَةِ الْأَكْلِ قِلَّةَ الْفَهْمِ وَالْعِلْمِ فَإِنَّ الْبِطْنَةَ تُذْهِبُ الْفِطْنَةَ، وَلَقَدْ صَدَقَ الدَّارَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ حَيْثُ قَالَ: إِذَا أَرَدْتَ حَاجَةً مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلَا تَأْكُلْ حَتَّى تَقْضِيَهَا فَإِنَّ الْأَكْلَ يُغَيِّرُ الْعَقْلَ، وَهَذَا أَمْرٌ ظَاهِرٌ عَلِمَهُ مَنْ اخْتَبَرَهُ. الرَّابِعَةُ: أَنَّ فِي كَثْرَةِ الْأَكْلِ قِلَّةَ الْعِبَادَةِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَكْثَرَ الْأَكْلَ ثَقُلَ بَدَنُهُ وَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ وَفَتَرَتْ أَعْضَاؤُهُ فَلَا يَجِيءُ مِنْهُ شَيْءٌ وَإِنِ اجْتَهَدَ إِلَّا النَّوْمَ كَالْجِيفَةِ الْمُلْقَاةِ؛ وَلَقَدْ قِيلَ: إِذَا كُنْتَ بَطِيناً فَعُدَّ نَفْسَكَ زَمِيناً؛

---

من الأفعال والأقوال (وإن دخل الفضول) أى فضول الطعام والشراب (خرج الفضول) مما ذكر من أحواله (كأن الطعام) والشراب (بذر الأفعال و) كأن (الأفعال نبت تبدو) أى تظهر تلك الأفعال (منه) أى من ذلك النبت. (الثالثة) من الآفات العشرة (أن فى كثرة الأكل قلة الفهم والعلم) بالحكمة الإلهية (فإن البطنة) بكسر الباء مع سكون الطاء: أى الامتلاء من الطعام. وفى أمثالهم: البطنة تأفن الفطنة: أى تنقص الفهم، كذا ذكره الحريرى فى مقاماته (تذهب) بضم التاء من أذهب الرباعى (الفطنة) بالكسر: أى الحذق والفهم، وقد تفسر بجودة تهيء النفس لتصور مايرد عليها من الغير ويقابلها الغباوة، بل ذكر المصنف فى الإحياء أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعودوا كل جسم ماعتاد» (ولقد صدق) أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد الزاهد (الدارانى رحمه الله) المشهور أحد رجال الطريقة كان من جملة السادات وأرباب الجد فى المجاهدات، وكانت وفاته سنة خمس ومائتين، وقيل سنة خمس عشرة ومائتين، والدارانى بفتح الدال المهملة وبعد الألف راء مفتوحة، وبعد الألف الثانية نون نسبة إلى داريا: وهى قرية بغوطة دمشق، والنسبة إليها على هذه الصورة من شواذ النسب، والياء فى داريا مشددة كما فى سراج السالكين (حيث قال: إذا أردت حاجة من حوائج الدنيا والآخرة فلا تأكل حتى تقضيها) أى تلك الحاجة (فإن الأكل يغير العقل). قال المصنف (وهذا) أى ماقاله الدارانى (أمر ظاهر) واضح (علمه) أى هذا الأمر (من اختبره) أى جربه وجهله من لم يختبره ولم يجربه. (الرابعة) من الآفات العشرة (أن فى كثرة الأكل قلة العبادة، فإن الإنسان إذا أكثر الأكل) أكثر الشرب وإذا أكثر الشرب (ثقل بدنه، و) إذا ثقل بدنه (غلبته عيناه وفترت) أى ضعفت (أعضاؤه فلا يجىء منه) أى الإنسان الذى يكثر الأكل (شيء، وإن اجتهد إلاالنوم كالجيفة الملقاة) أى المطروحة فى الأرض. (ولقد قيل: إذا كنت بطينا) أى عظيم البطن من كثرة الأكل أو أكولا كما قاله العلامة عبد الحق (فعد نفسك زمينا) أى صاحب زمانة: وهو مرض يدوم زمانا طويلا كما فى المصباح، وذكر فى

وَلَقَدْ ذُكِرَ عَنْ يَحْيى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ إِبْلِيسَ بَدَا لَهُ وَعَلَيْهِ مَعَالِيقُ فَقَالَ لَهُ يَحْيى: مَاهٰذِهِ ؟ فَقَالَ : هٰذِهِ الشَّهَوَاتُ الَّتِى أَصِيدُ بِهَا بَنِى آدَمَ ؛ فَقَالَ لَهُ ؟ هَلْ تَجِدُ لِى

---

[محيط المحيط] الزمين ذو الزمانة انتهى. وأيضا فيه الزمانة مصدر العاهة وعدم بعض الأعضاء وتعطيل القوى والأطباء يخصونها بالشلل وهو يبس فى اليد . ( ولقد ذكر عن يحي ) بن زكريا ( عليه السلام ) .

قال الواحدى : قال المفسرون : أول من آمن بعيسى يحي عليهما السلام ، وكان يحي أسن من عيسى على نبينا وعليهما الصلاة والسلام . قال العلماء بالتاريخ : قتل يحي قبل أبيه زكريا ، وفضائله فى القرآن مشهورة ، واتفقوا على أنه قتل ظلما شهيدا وأخذ رأسه ووضع فى طست وغضب الله تعالى على قاتليه ، وسلط عليهم بختنصر وجيوشه « فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا » . قال العلماء : أول من سمى بيحي يحي بن زكريا . قال الله تعالى « لم نجعل له من قبل سميا » وتولى الله تسميته تعظيما له ، وسماه بخصوص يحي ، لأن به حي رحم أمه بعد موته بالعقم . وفي يحي قولان : أحدهما ، وهو المشهور عند أهل التفسير أنه منقول من الفعل المضارع ، وقد سموا بالأفعال كثيرا نحو يعيش ويعمر . وقال قتادة : وسموه يحي لأن الله أحياه بالايمان . قال الزجاج حي بالعلم ، وعلى هذا فهو ممنوع من الصرف للعلمية ووزن الفعل نحو يزيد ويشكر وتغلب. والثانى أنه أعجمى لاشتقاق له ، وهذا هو الظاهر فامتناعه للعلمية والعجمة الشخصية ويقال فى جمعه على كلا القولين : يحيون رفعا ويحيين نصبا وجرا على حد قول الخلاصة :

واحذف من المقصور فى جمع على حد المثنى مابه تكملا

ويقال فى تثنيته : يحييان رفعا ، ويحيين نصبا وجرا على حد قوله فيها :

آخر مقصور تثنى اجعله يا إن كان عن ثلاثة مرتقيا

ويقال فى النسب إليه يحي بحذف الألف ، ويحيوى بقلبها واوا ، ويحياوى بزيادة ألف قبل الواو المنقلبة عن الألف الأصلية على حد قوله :

وإن تكن تربع ذا ثان سكن فقلبها واوا وحذفها حسن

ويقال فى تصغيره يحي بوزن فعيعل على حد قوله :

فعيعل مع فعيعيل لما فاق كجعل درهم دريهما

( إن إبليس ) اللعين ( بدا ) أى ظهر (له) أى ليحي عليه السلام ( وعليه ) أى إبليس (معاليق) جمع معلاق بالكسر: مايعلق به اللحم وغيره ، وما يعلق بالزاملة أيضا نحو القمقمة والقربة والمطهرة كما فى المصباح ( فقال له يحي ) عليه السلام ( ماهذه ) المعاليق؟ ( فقال ) اللعين ( هذه ) أى المعاليق ( الشهوات ) أى آلة اصطيادها ( التى أصيد بها بنى آدم ، فقال ) عليه السلام ( له هل تجد لى

فِيهَا شَيْئًا؟ قالَ :لاَ إِلاَّ أَنَّكَ شَبِعْتَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَثَقَّلْنَاكَ عَنِ الصَّلاَةِ، قَالَ يَحْيى عَلَيْهِ السَّلام: لاَجَرَمَ أَنِّي لاَ أَشْبَعُ بَعْدَهَا أَبَدًا . قَالَ إِبْلِيسُ : لاَجَرَمَ أَنِّي لاَ أَنْصَحُ بَعْدَهَا أَحَدًا أَبَدًا فَهٰذِهِ فِيمَنْ لَمْ يَشْبَعْ فِى عُمْرِهِ إِلاَّ لَيْلَةً ، فَكَيْفَ بِمَنْ لاَ يَجُوعُ فِى عُمْرِهِ لَيْلَةً . ثُمَّ يَطْمَعُ فِى الْعِبَادَةِ؟ وَقالَ سُفْيَانُ رَحِمَهُ اللهُ: الْعِبَادَةِ حِرْفَةٌ ، وَحَانُوتُهَا الْخَلْوَةُ وَآلَتُهَا المجَاعَةُ . الْخَامِسَةُ أَنَّ فِى كَثْرَةِ الأَكْلِ فَقْدَ حَلاَوَةِ الْعِبَادَةِ .

---

فيها ) أى المعاليق ( شيئا ) من الشهوات ؟ ( قال ) اللعين ( لا ) نجد لك فيها شيئا ( إلا أنك شبعت ذات ليلة فثقلناك عن الصلاة. قال يحى عليه السلام: لاجرم ) أى لابد ، وذكر فى الصحاح الجرم : القطع ، وقد جرم النخل واجترمه : أى صرمه، وقولهم : لاجرم ، قال الفراء : هي كلمة كانت فى الأصل بمنزلة لا بد ولا محالة فجرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم وصارت بمنزلة حقا ، فلذلك يجاب عنه باللام كما يجاب بها عن القسم ، ألاترى أنهم يقولون:لاجرم لآتينك . وقال قوم : إن لازائدة، ونقل فى المغنى عن الفراء أن «لا» لاتزاد فى أول الكلام، ويجوز أن يقال إن لاجرم نظير لابد، فعل من الجرم : وهو القطع كما أن بد فعل من التبديد: وهو التفريق ( أنى لاأشبع بعدها ) أى تلك الليلة ( أبداً . قال إبليس ) الملعون ( لاجرم أنى لاأنصح ) أى لا أذكر النصيحة التي ذكرتها لك ( بعدها ) أى بعد هذه المرة ( أحدا أبدا ) . قال المصنف رحمه الله تعالى ( فهذه ) أى القصة ( فمن لم يشبع فى عمره إلا ليلة ) واحدة كيحي عليه السلام ( فكيف ) الحال ( بمن لايجوع فى عمره إلا ليلة ثم يطمع فى العبادة . وقال سفيان ) بن سعيد الثورى الكوفى الجامع لأنواع المحاسن ( رحمه الله ) وهو من تابعى التابعين ، وتقدمت ترجمته ( العبادة حرفة ) أى صناعة ( وحانوتها ) أى دكانها .

واختلف فى وزن الحانوت فقيل أصلها فعلوت، مثل ملكوت من الملك، ورهبوت من الرهبة لكن قلبت الواو ألفا لتحركها وانفتاح ماقبلها كما فعل بطالوت وجالوت ونحوه، وقيل أصلها حانوة على فعلوة بسكون العين وضم اللام مثل عرقوة وترقوة ، لكن لما كثر استعمالها خففت بسكون الواو ثم قلبت الهاء تاء كما قيل فى تابوت وأصله تابوة فى قول بعضهم ، وقال الفارابى : الحانوت فاعول وأصلها الهاء لكن أبدلت تاء لسكون ما قبلها ، والجمع الحوانيت ، والحانوت يذكر ويؤنث فيقال هو الحانوت . وقال الزجاج، الحانوت مؤنثة فإن رأيتها مذكرة فإنما يعنى بها البيت ورجل حانوتى نسبة على القياس، والحانة : البيت الذى يباع فيه الخمر ،وهو الحانوت أيضا ، والجمع حانات والنسبة حانى على القياس كذا في المصباح ( الخلوة وآلتها المجاعة ) أى الجوع ، يشير بذلك إلى أن الخلوة والجوع ركنان عظيمان لأساس العبادة ، ولا تتم إلا بهما وفيهما سجن النفس وضيقها، ويتبع الخلوة الصمت ، ويتبع الجوع السهر ، فهى أركان أربعة كما صرح به الزبيدى . ( الخامسة ) من الآفات العشرة ( أن فى كثرة الأكل فقد حلاوة العبادة ) ولذة المناجاة والتأثر بالذكر ، فكم من ذكر

قالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مَا شَبِعْتُ مُنْذُ أَسْلَمْتُ لِأَجِدَ حَلَاوَةَ عِبَادَةِ رَبِّي وَمَارَوِيتُ مُنْذُ أَسْلَمْتُ اشْتِيَاقًا إِلَى لِقَاءِ رَبِّي ،

---

يجرى على اللسان مع حضور القلب لما يذكر وفهم معانيه لكن القلب لا يلتذ به ولا يتأثر منه الفوات موجب الاستعداد الذى هو الرقة والصفاء الحاصلان من الجوع حتى كأن بين القلب وبين أثر الذكر حجابا من قساوة القلب ، وبالجملة إن خلو المعدة عن الطعام والشراب هو السبب الأظهر فى رقة القلب . قال الجنيد رحمه الله : يجعل أحدهم بينه وبين صدره مخلاة من الطعام ، ويريد أن يجد حلاوة المناجاة أو يسمع فهم الخطاب . وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : إذا جاع القلب وعطش صفا ورق وإذا شبع عمى وغلظ ( قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه ) واسمه عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن عامر ، واجتمعت الأمة على تسميته صديقا . قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : إن الله تعالى هو الذى سمى أبا بكر على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم صديقا ، وسبب تسميته أنه بادر إلى تصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم ولازم الصدق ، فلم يقع منه هناة ولا وقفة فى حال من الأحوال . روى للصديق رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة حديث واثنان وأربعون حديثا ، اتفق البخارى ومسلم منها على ستة، وانفرد البخارى بأحد عشر، ومسلم بحديث ، وسبب قلة رواياته مع تقدم صحبته وملازمته النبى صلى الله عليه وسلم أنه تقدمت وفاته قبل انتشار الأحاديث واعتناء التابعين بسماعها وتحصيلها وحفظها ، روى عنه عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى وعبد الرحمن بن عوف وابن مسعود وحذيفة وابن عمرو بن العاص وزيد ابن ثابت والبراء بن عازب وأبو هريرة وعقبة بن الحارث وابنته عائشة ، وطارق بن شهاب ، روى عنه جماعات من التابعين : منهم قيس بن أبى حازم وأبو عبد الله الصنابحى وخلق غيرهم كذا فى سراج السالكين .

وأخرج سيف والحاكم عن ابن عمر قال : كان سبب موت أبى بكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كمدا فما زال جسمه ينقص حتى مات. وأخرج الواقدى والحاكم عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان أول بدء مرض أبى بكر أنه اغتسل يوم الاثنين لسبع خلون من جمادى الآخرة وكان يوما باردا فحم خمسة عشر يوما لا يخرج إلى صلاة، وتوفي يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة ، وله رضى الله عنه ثلاث وستون سنة كذا ذكره العلامة ابن حجر فى الصواعق ، وبالجملة إن مناقب أبى بكر رضى الله عنه جليلة عظيمة واسعة جدا ( ما شبعت منذ أسلمت لأجد ) أى لأن أجد ( حلاوة عبادة ربى، وما رويت ) أى ارتويت من الماء (منذ أسلمت اشتياقا إلى لقاء ربى ) جل وعز .

وأخرج أبو نعيم فى الحلية من طريق موسى بن سعيد عن مالك بن دينار قال : بلغنى أن عيسى عليه السلام قال لأصحابه : جوعوا بطونكم وأظمئوها وأعروها وانصبوها لعل قلوبكم أن ترى الله عز وجل . قال الزبيدى : يعنى بحقيقة الزهد وصفاء القلب ، فالجوع مفتاح الزهد وباب الآخرة

وَهٰذِهِ صِفَاتُ الْمُكَاشَفِينَ، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ مُكَاشَفاً، وَإِلَيْهِ أَشَارَ صلى الله عليه وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ « مَافَضَلَكُمْ أَبُو بَكْرٍ بِفَضْلِ صَوْمٍ وَلاَ صَلاَةٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ بِشَيْءٍ وَقَرَ فِي نَفْسِهِ » وَقَالَ الدَّرَانِيُّ: أَحْلَى مَا تَكُونُ الْعِبَادَةُ إِذَا الْتَزَقَ بَطْنِي بِظَهْرِي . السَّادِسَةُ أَنَّ فِيهِ خَطَرَ الْوُقُوعِ فِي الشُّبْهَةِ ،

---

وفيه ذل النفس واستكانتها وضعفها وانكسارها وفى ذلك حياة القلب وصلاحه ( وهذه) أى الصفة التى هى ترك الشبع فى الأكل وترك الارتواء فى الشرب ( صفات المكاشفين ) رضوان الله عليهم أجمعين ( فكان أبو بكر ) عبد الله بن عثمان التيمى الصديق ( رضى الله عنه مكاشفا ) بصيغة اسم المفعول : أى يكشف بالأسرار الإلهية ( وإليه ) أى إلي كونه رضى الله عنه مكاشفا بما ذكر (أشار) رسول الله ( صلى الله عليه وسلم بقوله : «مافضلكم أبو بكر ) الصديق ( بفضل صوم ) أى بكثرته ( ولا صلاة ) ولا بكثرة رواية للحديث ولا فتوى ولا كلام ( وإنما ) فضلكم ( هو ) أى أبو بكر ( بشيء) وفى رواية « بسر» (وقر) بالبناء للمفعول : أى وضع وأثبت ذلك الشيء ( فى نفسه» ) أى فى قلبه . قال العراقى : لا أصل لهذا الحديث مرفوعا ، وإنما يعرف فى قول بكر بن عبد الله المزنى كذلك رواه الحكيم الترمذى فى نوادره انتهى . قال العلامة الزبيدى ولفظ الحكيم «ما فضل أبو بكر بكثرة صلاة ولا بكثرة صيام ولكن بسر وقر فى صدره » وبكر بن عبد الله المزني ثقة سمع من ابن عباس وابن عمر، وعنه سليمان التيمى ومبارك وخلق ؛ توفى سنة ١٨٠ وعزاه ابن القيم إلي أبى بكر بن عياش من قوله ولفظه « ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر فى قلبه » قال وهذا موضع المثل المشهور :

من لى بمثل سيرك المذلل ... تمشى رويدا وتجيء فى الأول

أورد ذلك فى بحث أفضلية العلم ، فقال: العلم يعرف بمقادير الأعمال ومراتبها وفاضلها من مفضولها وراجحها من مرجوحها فصاحبه لا يختار لنفسه إلا أفضل الأعمال، والعامل بلا علم يظن أن الفضيلة فى كثرة المشقة فهو يتحمل المشاق وإن كان ما يعانيه مفضولا، ورب عمل فاضل ، والمفضول أكثر مشقة منه ، واعتبر هذا بحال الصديق رضى الله عنه فانه أفضل الأمة ، ومعلوم أن فيهم من هو أكثر عملا وحجا وصوما وقراءة ، ولذلك قال مصنفنا أبو حامد الغزالى رحمه الله : فليكن حرصك واجتهادك فى طلب ذلك السر المصون ، فهو الجوهر النفيس والدر المكنون « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » ودع عنك ما تطابق أكثر الناس على تفخيمه وتبجيله وتعظيمه لأسباب ظاهرة ودواع متوافرة يطول تفصيلها فى هذا الموضع .( وقال ) أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد (الدارانى) رحمه الله: ( أحلى ماتكون العبادة إذا التزق ) أى التصق ( بطنى بظهرى ) هو إشارة إلى ما ذكر من وجدان التلذذ فى تلك الحالة ، والتصاق الظهر بالبطن كناية عن قلة الأكل . ( السادسة ) من الآفات العشرة ( أن فيه ) أى فى كثرة الأكل ( خطر ) أى خوف ( الوقوع فى الشبهة

وَالْحَرَامِ ، لِأَنَّ الْحَلَالَ لَا يَأْتِيكَ إِلَّا قُوتًا ؛ وَلَقَدْ رَوَيْنَا عَنِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّ الْحَلَالَ لَا يَأْتِيكَ إِلَّا قُوتًا ، وَالْحَرَامَ يَأْتِيكَ جُزَافًا جُزَافًا » . السَّابِعَةُ أَنَّ فِيهِ شَغْلَ الْقَلْبِ وَالْبَدَنِ بِتَحْصِيلِهِ أَوَّلاً وَبِتَهْيِئَتِهِ ثَانِيًا ، ثُمَّ بِأَكْلِهِ ثَالِثًا ، ثُمَّ بِالْفَرَاغِ عَنْهُ وَالتَّخَلُّصِ . رَابِعًا بِالسَّلَامَةِ مِنْهُ . خَامِسًا بِأَنْ تَبْدُوَ مِنْهُ آفَةٌ فِى الْبَدَنِ بَلْ آفَاتٌ وَعِلَلٌ فِى الدُّنْيا ،وَلَقَدْ قالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « أَصْلُ كُلِّ دَاءِ الْبَرَدَةُ » يَعْنِي

---

والحرام ) وذلك ( لأن الحلال لايأتيك إلا قوتا ) أى ما يقوتك ( ولقد روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الحلال لا يأتيك إلا قوتا و ) إن ( الحرام يأتيك جزافا جزافا ) هذا الثانى تأكيد للأول : أى بكثرة من غير تقدير ، والجزاف مثلثة الجيم ، والضم أفصح . ( السابعة ) من الآفات العشرة ( أن فيه ) أى فى كثرة الأكل ( شغل القلب والبدن بتحصيله ) أى الطعام بشراء أو غيره ( أولا وبتهيئته ) أى إصلاح ذلك الطعام وطبخه واحتياجه إلى آلات لذلك . وفى القاموس : هيأ تهيئة وتهييئا : أصلحه ( ثانيا ثم بأكله ثالثا ثم بالفراغ عنه ) أى عن أكله ، ثم الاحتياج إلى غسل اليد واستعمال الخلال فى أسنانه ليخرج فضول الطعام منها ( والتخلص رابعا ) بكثرة تردداه إلى بيت الماء لكثرة شربه وامتلاء معدته ( ثم بالسلامة منه ) أى الطعام ( خامسا ) وذلك ( بأن تبدو ) أى تظهر ( منه ) أى من أكله لذلك الطعام ( آفة فى البدن بل آفات وعلل ) جمع علة وهى المرض ( فى الدين ) ومعلوم أن كثرة الأكل يدعو إلى قعود الأعضاء عن العبادة ، وذلك من جملة آفات الدين ، والآفات المصروفة إلى ماذكر لو صرفها إلى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه وعظم أجره. قال السرى السقطى رحمه الله: رأيت مع على بن إبراهيم الجرجانى سويقا يستف منه ، فقلت له وما دعاك إلى هذا ؟ فقال إنى حسبت ما بين المضغ إلى الاستفاف سبعين تسبيحة فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة ، فانظر كيف أشفق على وقته ولم يضيعه فى المضغ ، وكل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لاقيمة لها ؛ ولذلك قالوا : تضييع الوقت يورث المقت ، فينبغى أن يستوفى منها خزانة باقية فى الآخرة لاآخر لها ، وذلك بصرفه إلى ذكر الله وطاعته ولا يدعه يذهب مجانا ، ومن جملة مايتعذر بكثرة الأكل الدوام على الطهارة وملازمة المسجد فانه يحتاج إلى الخروج منه كل ساعة لكثرة شرب الماء وإراقته ضرورة ، ومن جملته الصوم فإنه يتيسر لمن تعود الجوع ويسهل عليه، فالصوم ودوام الاعتكاف فى المسجد ودوام الطهارة وصرف أوقات شغل الأكل وأسبابه إلى العبادة أرباح كثيرة ، وإنما استحقرها الغافلون الذين لايعرفون قدر الدين ، لكن هم كما قال الله تعالى فيهم « رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » ( ولقد قال ) رسول الله ( صلى الله عليه وسلم « أصل كل داء البردة ) . قال المصنف والجوهرى وصاحب القاموس بفتحتين ( يعنى )

التُّخَمَةَ ، وَأَصْلُ كُلِّ دَاءٍ الأَزْمَةُ ، يَعْنِي الْجُوعَ وَالْحِمْيَةَ .

وَعَنْ مَالِكِ بْنِ دِينارٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : يَا هؤُلاَءِ لَقَدِ اخْتَلَفْتُ إِلَى الْخَلاَءِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي بِسَبَبِ كَثْرَةِ الأَكْلِ ، فَيَا لَيْتَ أَنَّ اللهَ جَعَلَ رِزْقِي فِي حَصَاةٍ أَمَصُّهَا حَتَّى أَمُوتَ ،

---

أي يريد النبي صلى الله عليه وسلم بالبردة ( التخمة ) بوزن رطبة والجمع بحذف الهاء ، والتخمة بالسكون لغة ، والتاء مبدلة من واو لأنها من الوخامة بمعنى أن الطعام يثقل على المعدة فتضعف عن هضمه فيحدث منه الداء ( وأصل كل دواء الأزمة ) بفتح فسكون ، وأصلها الشدة والقحط . قال المصنف ( يعنى ) أى النبي عليه الصلاة والسلام بذلك ( الجوع والحمية ) أى الامتناع من الطعام الذى يضره ، فى [محيط المحيط] الحمية ماحمى من شىء ، والاسم من حمى المريض : إذا منعه عما يضره ، أو من احتمى بهذا المعنى . قال العراقى : لم أجد لهذا الحديث أصلا انتهى . قال الزبيدى رواه الخلال من حديث عائشة بلفظ « الأزم دواء ، والمعدة بيت الداء ، وعودوا بدنا ماعتاد » وقيل : الحمية رأس الدواء ، من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب ، وروى ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت من طريق وهب بن منبه قال : أجمعت الأطباء على أن رأس الطب الحمية ، وأجمعت الحكماء على أن رأس الحكمة الصمت ، ونخط الحافظ ابن حجر : الجملة الأولى من الحديث لها أصل من حديث أوله « أصل كل داء البردة » وهو حديث ضعيف رواه ابن عدى فى الكامل وأبو نعيم فى الطب النبوى ، ورواه أيضا المستغفرى فى الطب النبوى والدارقطنى فى العلل كلهم من طريق تمام بن نجيح عن الحسن البصرى عن أنس رفعه بهذا ، وتمام ضعفه الدارقطنى وغيره ووثقه ابن معين وغيره ، ولأبى نعيم أيضا من حديث ابن المبارك عن السائب بن عبد الله عن على ابن زحر عن ابن عباس مرفوعا مثله ، ومن طريق عمرو بن الحارث عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد رفعه أصل « كل داء من البردة » ومفرداتها ضعيفة . وقد ذكر الدارقطنى عقب حديث أنس مالفظه ، وقد رواه عباد بن منصور عن الحسن من قوله ، وهو أشبه بالصواب ، وجعله الزمخشرى فى الفائق من كلام ابن مسعود رضى الله عنه ( و ) روى ( عن ) أبى يحي ( مالك ابن دينار ) البصرى وهو من موالى بنى أسامة بن لؤى القرشى ، كان عالما زاهدا كثير الورع قنوعا لايأكل إلا من كسبه ، وكان يكتب المصاحف بالأجرة ، وروى عنه أنه قال : قرأت فى التوراة : إن الذى يعمل بيده طوبى لمحياه ومماته ، وله مناقب عديدة وآثار شهيرة ، توفى سنة إحدى وثلاثين ومائة بالبصرة قبل الطاعون بيسير رحمه الله تعالى ( أنه كان يقول : يا هؤلاء ) أى أهل البصرة ( لقد اختلفت ) أى ترددت ( إلى الخلاء ) أى محل قضاء الحاجة ( حتى استحييت من ربى بسبب كثرة الأكل ) والشرب ( فياليت أن الله جعل رزقى فى حصاة أمصها ) بضم الميم كما فى القاموس : أى أمص الحصاة بطرف لسانى ( حتى ) أى إلى أن ( أموت ) قال المصنف

ثُمَّ لَابُدَّ فِي هٰذِهِ الْجُمْلَةِ مِنْ طَلَبِ الدُّنْيَا وَالطَّمَعِ إِلَى النَّاسِ وَتَضْيِيعِ الْوَقْتِ بِسَبَبِ كَثْرَةِ الْأَكْلِ مَالَمْ يَخَفْ . الثَّامِنَةُ : مَا يَنَالُهُ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ وَشِدَّةِ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ ؛ وَرُوِيَ فِي الْأَخْبَارِ «إِنَّ شِدَّةَ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ عَلَى قَدْرِ لَذَّاتِ الدُّنْيَا» فَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ هٰذِهِ أَكْثَرَ لَهُ مِنْ تِلْكَ . التَّاسِعَةُ : نُقْصَانُ الثَّوَابِ فِي الْعُقْبَى ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ»

---

( ثم لابد فى هذه الجملة ) التى ذكرناها (من) بيان مقدم لقوله مالم يخف ( طلب الدنيا والطمع إلى ) ما فى أيدى ( الناس وتضييع الوقت بسبب كثرة الأكل مالم يخف ) من باب رمى ( الثامنة ) من الآفات العشرة ( مايناله ) أى الذى يكثر الأكل ( من أمور الآخرة ) أى من أنواع العقوبة ( وشدة ) الألم فى ( سكرات الموت . وروى فى الأخبار : إن شدة سكرات الموت على قدر لذات الدنيا ، فمن أكثر من ) تناول ( هذه ) اللذات فقد ( أكثر له ) أى لنفسه ( من تلك ) أى شدة ألم سكرات الموت ، وذلك لأن كل لذيذ يشتهيه الإنسان وتدعو إليه نفسه وتطالبه به ، وأكله اقتضى ذلك بطرا فى نفسه وقسوة فى قلبه ، وأنسا بلذات الدنيا حتى يألفها ، ويأنس بها ، ويكره الموت ولقاء الله تعالى لامحالة ، لأن الفطم عن المألوف صعب ، وتصير الدنيا جنة فى حقه ، ويكون الموت سجنا له ومضيقا ، وإذا منع نفسه عن شهواتها وضيق عليها وحرمها لذاتها صارت الدنيا سجنا عليه ومضيقا له فاشتهت نفسه الافلات منها ، فيكون الإفلات إطلاقها من ذلك المضيق والحبس ، وقد روى مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » ( التاسعة ) من الآفات العشرة ( نقصان الثواب فى العقبى ) أى فى الآخرة ( قال الله تعالى ) « ويوم يعرض الذين كفروا على النار » ( أذهبتم ) أى يقال لهم أذهبتم ، وهو ناصب اليوم ( طيباتكم ) لذائذكم ( فى حياتكم الدنيا ) باستيفائها ، فلم يبق لكم بعد الاستيفاء شىء منها ، وعن عمر رضى الله عنه : لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وأحسنكم لباسا ، ولكن أستبقى طيباتى ( واستمتعتم ) استنفعتم ( بها ) بالطيبات ( فاليوم تجزون عذاب الهون ) أى الذى فيه ذل وخزى ( بما كنتم تستكبرون ) تتكبرون ( فى الأرض ) عن الإيمان ( بغير الحق ) بلا حق كان لكم ( وبما كنتم تفسقون ) تكفرون وتعصون فى الأرض فى الدنيا كما فسره ابن عباس رضى الله عنهما .

واعلم أن الله تعالى لما وبخ الكافرين بالتمتع بالطيبات آثر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه والصالحون بعدهم اجتناب اللذات فى الدنيا رجاء ثواب الآخرة . وروى الشيخان عن عمر بن الخطاب قال : «دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو متكئ على رمال حصير قد أثر فى جنبه فقلت : أستأنس يا رسول الله ! قال نعم ، فجلست فرفعت رأسى ، فى البيت فوالله ما رأيت فيه شيئا

فَإِنَّهُ بِقَدْرِمَا تَأْخُذُ مِنْ لَذَّاتِ الدُّنْيَا يَنْقُصُ مِنْ لَذَّاتِ الآخِرَةِ ،

---

يردالبصر إلاأهبة ثلاثة ، فقلت: ادع الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم ولا يعبدون الله فاستوي جالسا ثم قال أفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا فقلت استغفر لي يا رسول الله» . وروى الشيخان أيضا عن عائشة قالت « ما شبع آل محمد من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله صلي الله عليه وسلم » . ورويا أيضا عنها قالت « كان يأتى علينا الشهر ما نوقد فيه نارا إنما هو الأسودان التمر والماء إلا أن نؤتى باللحيم » وفي رواية أخرى « قالت كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله صلي الله عليه وسلم نار . قال عروة : قلت يا خالة ، فما كان يعيشكم ! قالت : الأسودان التمر والماء إلا أنه قد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيران من الأنصار ، وكانت لهم منائح ، فكانوا يرسلون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من ألبانها فتسقينا » وعن ابن عباس قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت الليالى المتتابعة طاويا وأهله لا يجدون عشاء ، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير » أخرجه الترمذى ، وله عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد أخفت في الله مالم يخف أحد وأوذيت في الله مالم يؤذ أحد ، ولقد أتى على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالى ولبلال طعام إلاشيء يوارى إبط بلال » . وروى البخارى عن أبي هريرة قال « لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفة ما منهم رجل عليه رداء إما إزار وإما كساء قد ربطوا فى أعناقهم ، فمنها ما يبلغ نصف الساقين ، ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته » . وروى أيضا عن إبراهيم بن عبد الرحمن : أن عبد الرحمن بن عوف أتى بطعام وكان صائما فقال : قتل مصعب بن عمير وهو خير مني فكفن في بردة إن غطى رأسه بدت رجلاه وإن غطى رجلاه بدا رأسه قال: وأراه قال : قتل حمزة وهو خير منى فلم يوجد ما يكفن فيه إلا بردة ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط ، وقد خشيت أن تكون عجلت لنا طيباتنا فى حياتنا الدنيا ، ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام . وقال جابر بن عبد الله : رأى عمر بن الخطاب لحما معلقا في يدى فقال : ما هذا يا جابر ؟ قلت : اشتهيت لحما فاشتريته ، فقال عمر: أو كلما اشتهيت يا جابر اشتريت أماتخاف هذه الآية « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا » ( فانه ) أى الشأن ( بقدر ما تأخذ من لذات الدنيا ينقص من لذات الآخرة ) فكل من تنعم في الدنيا ولو بسماع صوت من طائر حسن الصوت أو بالنظر إلى خضرة بجنب ماء جار أو تحت شجرة مثلا أو شربة ماء بارد ونحو ذلك فانه ينقص من حظه فى الآخرة أضعافه فان كل ذلك من نعيم الدنيا ، وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعمر رضى الله عنه « هذا من النعيم الذى تسأل عنه » أشار به إلى الماء البارد . والتعرض لجواب السؤال فيه ذل وخوف وخطر ومشقة وانتظار ، كل ذلك من نقصان الحظ كذا ذكره المصنف في بعض كتبه ، وعلى هذا لا ينبغى للمريد أن يتنعم كل التنعم لأنه لا سبيل إلى إهمال النفس فى الشهوات فى المباحات واتباعها بكل حال ، فانه يخشى على المريد أن يتخذه عادة ولا يأمن من تألم

وَلِهَذَا الْمَعْنَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا عَرَضَ الدُّنْيَا عَلَى نَبِيِّنَا صلى اللهُ عليه وسلم قَالَ لَهُ : وَلَا أَنْقُصُكَ مِنْ آخِرَتِكَ شَيْئًا ،

---

قلبه وتوقان نفسه إليه ومنازعتها إياه لا سيما إذا كان مبتدئا فى السلوك غمرا لا يعرف خبء النفس ودواهيها ، ولا يفطن لمكرها وآفاتها ، فان ترك ذلك أفضل ، فليتركه حينئذ لأجل الله تعالى خوفا أن يشتهيه فيحرص على مثله ويدخل مداخل السوء من أجله ويبيع دينه فمه أو خشية تمكن العادة منه فتتعذر عليه التوبة لدخوله فى الشبهات عند اعتياد الشهوات ، لأن العادة جند من جنود الله تعالى يقهر العلم لأجله تعذرت الاستقامة ولولا العادة لكنا تائبين ، ولولا الابتلاء لكان التائبون مستقيمين فليترك حينئذ أكل الطيبات إذا صارت شهوات ، وخشى منها مطالبة العادات ودواعى النفس بالآفات ناويا بذلك صلاح قلبه وتمكين نفسه ليملك بذلك نفسه قبل أن تملكه وتعظم عادتها قبل أن تهلكه ويغلب بالترك طبعه وهواه قبل أن يكونا بالشهوة يغلباه وبقدر ما يجاهد نفسه ويترك شهواته يتمتع فى الدار الآخرة بشهواته ، وقد كان هذا طريق طائفة من السلف إلى الله تعالى ثم انقرضوا فانمحى طريقهم وخلف من بعدهم خلف من العلماء اتبعوا الشهوات ولم يتغالوا فى هذه المقامات ولا سلك بهم هذه الطرقات فلم يتكلموا فى طرق الشهوات فلذلك درس هذا الطريق وعفا أثره لفقد سالكه وعدم كاشفه فمن عمل به وسلكه فقد أظهره ، ومن أظهره فقد أحيا أهله . قال صاحب القوت : حدثنى بعض علمائنا عن بعض المريدين من أهل البصرة قال : نازعتنى نفسى خبزا وسمكا فمنعتها فقويت مطالبتها واشتدت مجاهدتى لها عشرين سنة ، قال : فلما مات رآه بعضهم فى المنام قال : ماذا فعل الله بك ؟ فقال : لا أحسن أن أصف لك ما تلقانى به ربى من النعيم والكرامة ، وكان أول شىء استقبلنى به خبز أرز وسمكا ، وقال كل اليوم شهوتك هنيئا بغير حساب (ولهذا المعنى) وهو نقصان لذات الآخرة بقدر لذات الآخرة بقدر لذات الدنيا . روى ( أن الله تعالى لما عرض الدنيا ) بمفاتيحها وخزائنها ( على نبينا صلى الله عليه وسلم قال ) سبحانه وتعالى ( له ) صلى الله عليه وسلم ( ولا أنقصك من آخرتك شيئا ) أى جناح بعوضة فأبى أن يقبلها ، قال العراقى هكذا أورده ابن أبى الدنيا مرسلا ، ورواه أحمد والطبرانى متصلا من حديث أبى مويهبة فى أثناء حديث فيه « إنى قد أعطيتك خزائن الدنيا والخلد ثم الجنة » الحديث وسنده صحيح ، ورواه أيضا أحمد والترمذى وابن سعد والطبرانى والبيهقى من حديث أبى أمامة أن نبينا صلى الله عليه وسلم قال « إن ربى عرض على أن يجعل لى بطحاء مكة ذهبا ، فقلت : لا يارب ، ولكن أجوع يوما وأشبع يوما ، فأما اليوم الذى أجوع فيه ، فأتضرع إليك وأدعوك ، وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك » . قال أبو طالب فى قوت القلوب : والفقر اختيار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حسن اختيار الله لما خيره من أن يجرى له الأودية مالا ويجعل له ذهبا وفضة

خَصَّهُ بِذٰلِكَ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ لِغَيْرِهِ النُّقْصَانَ إِلاَّ أَنْ يَتَفَضَّلَ اللهُ عَلَيْكَ بِذٰلِكَ .

وَلَقَدْ رُوِيَ أَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ أَضَافَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَهَيَّأَ لَهُ طَعَامًا ، فَقَالَ عُمَرُ : هٰذَا لَنَا فَمَا لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ مَاتُوا وَلَمْ يَشْبَعُوا مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ قَالَ خَالِدٌ : لَهُمُ الْجَنَّةُ

---

ولاينقصه ذلك من درجته ذلك عند الله شيئا فاختار بحسن توفيق الله وعصمته له الأحب إلي الله والأخير عند الله ، إذ قد ضمن له إن أعطاه لاينقصه فلم يبق إلا محبة الله ، فكانت آثر عنده من ترك نقيضه ، فقال « لاحاجة لى بذلك بل أجوع يوما وأشبع يوما أحمدك إذا شبعت وأتضرع إليك إذا جعت » وعن ابن عباس قال « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يمشى وجبريل معه فصعد علي الصفا ، فقال له النبي صلي الله عليه وسلم : ياجبريل والذى بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد كف سويق ولاسفة دقيق ، فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفظعته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمر الله القيامة أن تقوم ؟ قال لا ، ولكن هذا إسرافيل عليه السلام قد نزل إليك حين سمع كلامك فأتاه إسرافيل فقال : إن الله عز وجل سمع ماذكرت فبعثنى بمفاتيح الأرض وأمرنى أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة فعلت ، وإن شئت نبيا ملكا ، وإن شئت نبيا عبدا ، فرفع رأسه إلى جبريل كأنه يستشيره ، فأوحى إليه جبريل أن تواضع لله ، فقال نبيا عبدا ثلاثا » . قال المصنف ( خصه ) أى خص الله النبي صلى الله عليه وسلم ( بذلك ) أى بعدم النقص ( فدل ) هذا الاختصاص ( على أن لغيره ) صلي الله عليه وسلم ( النقصان ) بالنصب اسم إن مؤخرا ( إلا أن يتفضل الله عليه ) أى على غير النبي عليه الصلاة والسلام ( بذلك ) أي المذكور من عدم النقص ( ولقد روى أن خالد بن الوليد ) هو أبو سليمان ، وقيل أبو الوليد القرشى المخزومي ، أسلم بعد الحديبية في ذى القعدة سنة ست من الهجرة وشهد غزوة مؤتة وسماه النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ سيف الله وشهد خيبر وفتح مكة وحنينا . روى له عن رسول الله صلي الله عليه وسلم ثمانية عشر حديثا اتفق البخارى ومسلم على حديث ، روى عنه ابن عباس وجابر والمقدام بن معدى كرب وأبو أمامة ابن سهل الصحابيون رضي الله عنهم ، وروى عنه من التابعين قيس بن أبى حازم وأبو وائل وغيرهما ، وكان من المشهورين بالشجاعة والشرف والرياسة توفى فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة إحدى وعشرين ، وكانت وفاته بحمص وقبره مشهور على نحو ميل من حمص ، وقيل توفى بالمدينة ، قاله أبو زرعة الدمشقى عن دحيم والصحيح الأول ، وحزن عليه عمر والمسلمون حزنا شديدا وفضائله كثيرة مشهورة ( أضاف عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ) أى عمر وخالد ( وهيأ ) خالد ( له ) أى لعمر ( طعاما ،فقال عمر هذا ) الطعام ( لنا فما ) أى أىّ الذى ( للفقراء المهاجرين الذين ماتوا ولم يشبعوا من خبز الشعير؟ قال خالد: لهم ) أى للفقراء المهاجرين ( الجنة

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قالَ عُمَرُ : لَئِنْ فازُوا بِالْجَنةِ وَكَانَ هٰذَا حَظَّنَا مِنَ الدُّنْيَا فَقَدْ بَانُوا مِنَّا بَوْنًا مُبِيِنًا .

وَرُوِىَ أَنَّ عُمَرَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ عَطِشَ يَوْمًا فَدَعَا بِمَاءٍ فَأَعْطَاهُ رَجُلٌ إِدَاوَةً فِيهَا مَاءٌ نُبِذَ فِيهِ تَمَرَاتٌ ، فَلَمَّا قَرَّبَهَا عُمَرُ مِنْ فِيهِ وَجَدَ الْمَاءَ بَارِدًا حُلْوًا فَأَمْسَكَ وَقَالَ : أَوَّهْ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : وَاللهِ مَا أَلَوْتُهُ حَلاَوَةً يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ : ذٰلِكَ الَّذِى مَنَعَنِى مِنْهُ ، وَيْحَكَ ، لَوْلاَ الآخِرَةُ لَشَارَكْنَاكُمْ فِى عَيْشِكُمْ . الْعَاشِرَةُ : الْحَبْسُ وَالْحِسَابُ وَاللَّوْمُ وَالتَّعْبِيرُ فِى تَرْكِ الْأَدَبِ فِى أَخْذِ الْفُضُولِ وَطَلَبِ الشَّهَوَاتِ ، فَإِنَّ « الدُّنْيَا حَلاَلُهَا حِسَابٌ ، وَحَرَامُهَا عِقَابٌ » .

---

ياأمير المؤمنين ، قال عمر ) والله ( لئن فازوا بالجنة وكان هذا ) الطعام ( حظنا ) أى نصيبنا ( من الدنيا فقد بانوا ) أى فارقوا ( منا بونا ) أى فراقا وبعدا ( مبينا . وروى أن عمر ) بن الخطاب ( رضى الله عنه عطش ) من باب طرب ضد روى ( يوما ) من الأيام ( فدعا ) أى طلب ( بماء فأعطاه ) رضى الله عنه ( رجل إداوة ) أى مطهرة والجمع الأداوى بوزن المطايا كما فى المختار (فيها) أي فى الإداوة ( ماء ) بارد كما فى رواية ( نبذ ) بالبناء للمفعول : أى طرح الرجل ( فيه ) أى فى الماء البارد ( تمرات ) فيصير هذا الماء حلوا ( فلما قربها ) أي تلك الإداوة ( عمر من فيه ) أى فمه رضى الله عنه ( وجد الماء باردا حلوا فأمسك ) أى فامتنع من شربه ( وقال ) عمر ( أوّه ) كلمة تقال عند الشكاية أو التوجع ( فقال الرجل ) الذى أعطاه لما رأى من امتناع عمر ( والله ماألوته ) أى ماقصرت الماء ( حلاوة ياأمير المؤمنين ، فقال عمر رضى الله عنه ذلك ) أى ماوجدته من الحلاوة ( الذى منعنى منه ) أى من شرب ذلك الماء ( ويحك ) كلمة رحمة ( لولا الآخرة لشاركناكم فى عيشكم ) رواه سليمان بن المغيرة عن ثابت قال : اشتهى عمر الشراب فأتى بشربة من عسل فجعل يدير الإناء فى يده ويقول : لاأشربها وتذهب حلاوتها وتبقى مرارتها ، ثم وضعها إلى رجل من القوم فشربها . وروى جعفر بن سليمان حدثنا حوشب عن الحسن قال : أتي عمر بشربة عسل فذاقها فإذا ماء وعسل ، فقال اعزلوا عنى حسابها : اعزلوا عنى مؤنتها ، وإنما قال ذلك لأنه علم أنه حلال ، وفى الحلال حساب ، وفى الحساب نوع عذاب ، فمن حوسب نوقش ، وقد أشار إلى ذلك أبو سعيد الخراز حين نوع الجوع ، فقال : ومنهم من وجد الشئ الصافى فتركه زهدا فيه من مخافة طول الحساب والوقوف والسؤال ( العاشرة ) هذه آخر الآفات العشرة (الحبس والحساب واللوم والتعيير فى ترك الأدب فى أخذ الفضول ) أى فضول الحلال ( وطلب الشهوات ، فان ) رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ( الدنيا حلالها حساب وحرامها عقاب) وفى نسخة «عذاب»

وَزِينَتُها إِلَى تَبابٍ » فَهٰذِهِ جُمْلَةُ الْعَشَرَةِ وَفِى إِحْدَاهَا كِفَايَةٌ لِمَنْ نَظَرَ لِنَفْسِهِ ؛ فَعَلَيْكَ أَيُّها الْمُجْتَهِدُ بِالْأَحْتِياطِ الْبالِغِ فِى الْقُوتِ كَىْ لاَ تَقَعَ فِى حَرَامٍ أَوْ شُبْهَةٍ فَيَلْزَمُكَ الْعَذَابُ ، ثُمَّ بِالِاقْتِصَارِ مِنَ الْحَلَالِ عَلَى مَا يَكُونُ عُدَّةً عَلَى عِبادَةِ اللهِ تَعالَى ، فَلَا تَقَعْ فِى شَرٍّ فَتَبْقَى فِى الْحَبْسِ ، وَاللهُ وَلِىُّ التَّوْفِيقِ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَبَيِّنْ لَنا أَوَّلاً حُكْمَ الْحَرَامِ وَالشُّبْهَةِ وَحَدَّهُما : فَأَقُولُ لَعَمْرُ اللهِ لَقَدْ أَشْبَعْنا الْقَوْلَ فِيهِ فِى أَسْرارِ مُعامَلاَتِ الدِّينِ ، وَذَكَرْنا لَهُ كِتاباً مُفْرَدًا فِى كِتابِ : الْإِحْياء ، لٰكِنَّا نُشِيرُ إِلَى كَلِماتٍ مُفْرَدَةٍ بِحَيْثُ

---

( وزينتها إلى تباب ) أى خسران وهلاك . قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب من طريقه موقوفا على على بن أبى طالب باسناد منقطع بلفظ « وحرامها نار » ولم أجده مرفوعا انتهى ، لكن صرح أبو حامد الغزالى بأنه مرفوع ، وأخرجه الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس بلفظ «ياابن آدم الدنيا حلالها حساب وحرامها عقاب» نبه عليه الحافظ السخاوى فى المقاصد وزاد آخرون «وشبهتها عقاب» وبيان ذلك فى قول يوسف بن أسباط ووكيع بن الجراح قال : الدنيا عندنا على ثلاث مراتب : حلال وحرام وشبهات ، فحلالها حساب ، وحرامها عقاب ، وشبهاتها عتاب ، فخذ من الدنيا مالا بد منه ، فإن كان ذلك حلالا كنت زاهدا ، وإن كان شبهة كنت ورعا ، وإن كان حراما كان عقابا يسيرا ، ويؤيده ما رواه البيهقى من حديث ابن عمر ، «الدنيا خضرة حلوة من اكتسب فيها مالا من حله وأنفقه فى حقه أثابه الله عليه وأورده جنته ، ومن اكتسب فيها مالا من غير حله وأنفقه فى غير حقه أحله الله دار الهوان ورب متخوض فى مال الله ورسوله له النار إلى يوم القيامة » ( فهذه ) أى جمل الآفات التي ذكرناها بسبب كثرة الأكل ( جملة ) الآفات (والعشرة وفى إحداها ) أى الجمل العشرة ( كفاية لمن نظر ) وتفكر ( لنفسه ، فعليك ) أى الزم (أيها المجتهد ) فى العبادة ( بالاحتياط البالغ ) أى الواصل إلى نهاية الكمال ( في ) أمر ( القوت كى لاتقع فى حرام أو شبهة فيلزمك العذاب ) إن وقعت فى ذلك(ثم) عليك ( بالاقتصار من الحلال على ما يكون عدة ) بضم العين ، أى استعدادا (على عبادة الله تعالى ، فلا تقع فى شر فتبقى فى الحبس والله ولي التوفيق ) والهداية بفضله تعالى وإحسانه ( فإن قلت ) لى ( فبين لنا أولا حكم الحرام والشبهة و ) بين ( حدها فأقول ) لك ( لعمر الله ) اللام لتوكيد الابتداء والخبر محذوف والتقدير لعمر الله قسمى ، ومعنى لعمر الله أحلف بدوام الله وبقائه ( لقد أشبعنا القول فيه ) أى المذكور من الحكم والحد ( في ) كتاب ( أسرار معاملات الدين وذكرنا له ) أى للمذكور منهما ( كتابا مفردا ) وهو كتاب الحلال والحرام ( فى كتاب الإحياء ) ولكن تلخيص بعضه مذكور فى هذا الشرح ( لكنا نشير إلى كلمات مفردة ) مختصرة ( بحيث

تَصِلُ إِلَى فَهْمِ الضَّعِيفِ الْمُبْتَدِى ، إِذْ مَقْصُودُ هٰذَا الْكِتَابِ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهِ الْمُبْتَدِى فِى الْعِبَادَةِ ، وَيُعِينُ الطَّالِبَ ، قالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : كُلُّ مَا تَيَقَّنْتَ كَوْنَهُ مِلْكاً لِلْغَيْرِ مَنْهِيًّا عَنْهُ فِى الشَّرْعِ فَهُوَ حَرَامٌ مَحْضٌ ، وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَكَ يَقِينٌ بِذٰلِكَ وَلٰكِنْ يَغْلِبُ عَلَى ظَنِّكَ أَنَّهُ كَذٰلِكَ فَهُوَ شُبْهَةٌ . وَقالَ آخَرُونَ : بَلِ الْحَرَامُ الْمَحْضُ مَا يَكُونُ بِهِ عِلْمٌ أَوْ غَالِبُ ظَنٍّ ، لِأَنَّ غَلَبَةَ الظَّنِّ مِنَّا تَجْرِى مَجْرَى الْعِلْمِ فِى كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْكَامِ . فَأَمَّا إِذَا تَسَاوَتِ الْأَمَارَتَانِ حَتَّى تَبْقَى شَاكًّا لَا يَكُونُ لِأَحَدِهِمَا تَرْجِيحٌ عِنْدَكَ ، فَذٰلِكَ شُبْهَةٌ يُشْبِهُ أَنَّهُ حَلَالٌ وَيُشْبِهُ أَنَّهُ حَرَامٌ فَاشْتَبَهَ أَمْرُهُ عَلَيْكَ وَالْتَبَسَ حَالُهُ

---

تصل ) تلك الكلمات ( إلى فهم الضعيف المبتدى إذ مقصود هذا الكتاب ) المسمى بمنهاج العابدين ( أن ينتفع به المبتدى فى العبادة ويعين ) أى هذا الكتاب ( الطالب . قال بعض العلماء : كل ما تيقنت كونه ماسكا للغير منهيا عنه فى الشرع فهو حرام محض ) أى خالص ( وأما إذا لم يكن لك يقين بذلك ) أى بكونه ماسكا للغير ( ولكن يغلب علي ظنك أنه كذلك ) أى ملك للغير ( فهو شبهة ) أى مشتبهة ، وقد ذكر العلامة ابن حجر أن المشتبه هو كل ما ليس بواضح الحل والحرمة مما تنازعته الأدلة وتجاذبته المعانى والأسباب ، فبعضها يعضده دليل الحرام وبعضها يعضده دليل الحلال ؛ ومن ثم فسر أحمد وإسحاق وغيرهما المشتبه بما اختلف في حلِّه كالخيل أو شربه كالنبيذ أو لبسه كجلود السباع أو كسبه كبيع العينة ، وهو أن يبيع متاعا بثمن ثم بعد أن يقبضه المشترى يبيعه لبائعه بأقل مما اشتراه ، وهو حلال عندنا حرام عند الغير لأنه من حيل الربا ، وفسر أحمد ذلك المشتبه باختلاط الحلال والحرام ، وحكم هذا أنه يخرج قدر الحرام ويأ كل الباقى عند كثيرين من العلماء سواء أقل الحرام أم كثر ، ومن المشتبه معاملة من فى ماله حرام فالورع تركها مطلقا وإن جازت ، وقيل واعتمده الغزالى إن كان أ كثر ماله الحرام حرمت معاملته ، وقيل هو ما لم يرد فيه نص من الشارع بتحليل ولا تحريم كنبات غير مألوف لم تعرف العرب هل هو مضر أم لا بخلاف الحلال فإن الحلال فسره الإمام مالك والشافعى بما لم يرد بتحريمه دليل وأبو حنيفة بما دل دليل علي حله وتظهر ثمرة الخلاف فى المسكوت عنه الذى جهل أصله ، فعندمالك والشافعى هو من الحلال إذ هو الأشبه بيسر الدين ؛ وعند أبى حنيفة هو من الحرام ( وقال آخرون بل الحرام المحض ما يكون به علم ) لك ( أو غالب ظن ) بكونه منهيا عنه فى الشرع ( لأن غلبة الظن منا تجرى مجرى العلم فى كثير من الأحكام : فأما إذا تساوت الأمارتان ) أى العلامتان الدالتان على الحل والحرمة ( حتى تبقى شاكا لا يكون لأحدهما ) أى الأمارتين ( ترجيح ) على الآخر ( عندك فذلك ) أى ما تساوت فيه الأمارتان ( شبهة يشبه أنه حلال ويشبه أنه حرام فاشتبه أمره عليك والتبس حاله) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات

لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع فى الشبهات واقع الحرام كالراعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه» رواه الشيخان، فهذا الحديث نص فى إثبات الأقسام الثلاثه والمشكل منها القسم المتوسط الذى لايعرفه كثير من الناس وهو الشبهة فلا بد من بيانها وكشف الغطاء عنها فإن مالا يعرفه الكثير قد يعرفه القليل . فنقول : اعلم أن الحلال المطلق ما انتفى عن ذاته الصفات المحرمة له وعن أسبابه ما يجر إلي خلل فيه كنحو الغصب ، ومنه : أى الحلال صيد احتمل أنه صيد وانفلت من صائده ، ومعار احتمل موت المعير وانتقاله إلى ورثته وصورته أنه استعار ثوبا مثلا للبسه ثم خيل له أن يكون ذلك المعيرمات وانتقل ذلك الثوب لورثته فالملك فيه حينئذ لهم ولم يقع منهم إذن له فى الاستعمال وليس هذا مشتبها فلا ورع فى العمل بذلك الاحتمال لأنه هوس لعدم اعتضاده بشيء مع أن الأصل عدمه وإنما المشتبه الذى يتجاذبه سببان متعارضان يؤديان إلي وقوع التردد فى حله وحرمته كما مر ، وأن الحرام ما فى ذاته صفة محرمة كالإسكار أو فى سببه ما يجر إليه خللا كالبيع الفاسد . ومنه ما تحققت حرمته واحتمل حله كمغصوب احتمل إباحة مالكه فهو حرام صرف، وليس من المشتبه لما قررناه فى نظيره إذ الذى فيهما احتمال محض لا سبب له فى الخارج إلا مجرد التجويز العقلى : وهو لا عبرة به فليسا من المشكوك فيه . وأما المشتبه بالمعنى الذى قررناه آنفا فهو أقسام أربعة :

[ القسم الأول ] الشك فى المحلل والمحرم، فإن تعادلا استصحب السابق، وإن كان أحدهما أقوى لصدوره عن دلالة معتبرة فى العين فالحكم له : أى للأحد الأقوي ، فلو رمى صيدا فجرحه فوقع فى ماء أو نار أو على طرف سطح أو جبل فسقط منه أو على شجرة فصدمه غصنها أو أرسل كلبه وشركه فيه كلب آخر وشك فى قاتله منهما حرم ، لأن الأصل فى الميتة التحريم ، وقد وجد سبب يحال عليه الموت فلا يزال بالشك فى المبيح ، ولو جرح طير الماء وهو على وجهه ومات أو جرحه وهو خارج الماء فوقع فيه أو هو فى مائه والرامى فى سفينة فى الماء حل أو فى البر فلا إن لم ينته بالجرح إلى حركة مذبوح .

[ القسم الثانى ] الشك فى طرو محرم على الحل المتيقن فالأصل الحل، فلو قال إن كان ذا الطائر غرابا فامرأتى طالق ، وقال آخر إن لم يكنه فامرأتى طالق والتبس أمره لم يقض بالتحريم على واحد منهما علي الأصح ، لأن كلا منهما علي يقين الحل بالنسبة إلى نفسه ، إذ لم يعارضه بالنظر إليه وحده شيء ، وإنما عارضه يقين التحريم بالنظر إلى ضم غيره إليه ولا مسوغ لهذا الضم ، لأن المكلف إنما يكلف بما يخصه على انفراده ، ومن ثم لو قالهما واحد فى زوجتيه كأن علق طلاق إحداهما بكونه غرابا والأخرى بكونه غيره لزمه اجتنابهما ، لأن إحداهما طلقت منه يقينا ، وأصل الحل فيهما عارضه يقين التحريم فى إحداهما بالنظر إليه وحده فارتفع به ذلك الأصل .

[ القسم الثالث ] أن يكون الأصل التحريم ثم يطرأ ما يقتضى الحل بظن غالب فإن اعتبر سبب الظن شرعا حل وألغى ذلك النظر لذلك الأصل وإلا فلا ، فلو أرسل كلبا على صيد ثم غاب صاحبه

عنه بعد جرحه حل إن كان الجرح مذففا سواء كان فيه أثر غيره أم لا ، وكذا إن كان الجرح غير مذفف ولم يكن فيه أثر غيره ، بخلاف مالو غاب عنه قبل جرحه ثم وجده مجروحا ميتا فإنه يحرم وإن تضمخ الكلب بدمه؛ ولو وجدت شاة مذبوحة ولم يدرمن ذبحها ، فإن كان أهل البلد مسلمين فقط أو كانوا أغلب حلت ، وإن كان نحو المجوس أكثر أو استويا حرمت ، لأن أصل التحريم حينئذ لم يعارضه أقوى منه ،

[ القسم الرابع ] أن يعلم الحل ويغلب على الظن طرو محرم ، فإن لم تستند غلبته لعلامة تتعلق بعينه لم تعتبر ومن ثم حكمنا بطهارة ثياب الخمارين والجزارين والكفرة المتدينين باستعمال النجاسة ، وإن استندت لعلامة تتعلق بعينه اعتبرت وألغى أصل الحل لأنها أقوى منه ، فلو رأى ظبية تبول في ماء كثير فوجده عقب البول متغيرا ، وشك هل تغيره به أو بمكث مثلا وأمكن تغيره بالبول فهو نجس ؛ بخلاف مالو وجده متغيرا بعد مدة أو وجده عقبه غير متغير ثم ظهر التغير أو لم يمكن التغير بالبول لقلته فإنه طاهر عملا بالأصل الذى لم يعارضه حينئذ ما هو أقوى منه .

والحاصل أنه إذا تعارض أصلان أو أصل وظاهر ، فقال جماعة من متأخرى الخراسانيين : إن فى كل مسئلة من ذلك قولين ، لكن قال النووى فى شرح المهذب : هذا الإطلاق ليس على ظاهره فإن لنا مسائل يعمل فيها بالظاهر بلا خلاف كشهادة عدلين فإنها تفيد الظن ويعمل بها بالإجماع ولا نظر إلي أصل براءة الذمة ، ومسئلة بول الظبية وأشباهها ومسائل يعمل فيها بالأصل بلا خلاف ، كمن ظن حدثا أو طلاقا أو عتقا أو أصلى ثلاثا أم أربعا فإنه يعمل بالأصل بلا خلاف . قال : والصواب فى الضابط ماحرره ابن الصلاح ، فقال : إذا تعارض أصلان أو أصل وظاهر وجب النظر فى الترجيح كما في تعارض الدليلين ، فإن تردد فى الراجح فهى مسائل القولين ، وإن ترجح دليل الظاهر حكم به بلا خلاف ، وإن ترجح دليل الأصل حكم به بلا خلاف انتهى ، فالأقسام حينئذ أربعة :

[ أولها ] ماترجح فيه الأصل جزما ، وضابطه أن يعارضه احتمال مجرد كما مر فى مسئلتى الصيد والمعار .

[ ثانيها ] ماترجح فيه الظاهر جزما ، وضابطه أن يستند إلى سبب نصبه الشارع كشهادة العدلين واليد فى الدعوى ورواية الثقة وإخباره بدخول وقت أو برؤية ماء وإخبار المرأة بحيضها فى العدة أو يستند إلى سبب عرف عادة كأرض بشط نهر الظاهر أنها تغرق وتنهار فى الماء فلا يجوز استئجارها ، ومثل الزركشى له باستعمال السرجين فى أواني الفخار فيحكم بنجاستها قطعا ونقله عن الماوردى وبالماء الهارب من الحمام لاطراد العادة بالبول فيه ، وفى هذا التمثيل نظر كما بينه العلامة ابن حجر فى شرحى الإرشاد والعباب ، وعلى تسليمه فيعفي عن تلك الأوانى كما نص عليه الشافعي فإنه لما دخل مصر سئل عنها ؟ فقال : إذا ضاق الأمر اتسع ، أو يستند إلي سبب ضم إليه مايعضده كما مر فى بول الظبية .

ثُمَّ الِامْتِنَاعُ عَنِ الَّذِى هُوَ حَرَامٌ مَحْضٌ حَتْمٌ وَاجِبٌ ، وَعَنِ الَّذِى هُوَ شُبْهَةٌ تَقْوًى وَوَرَعٌ ، وَهٰذَا أَوْلَى الْقَوْلَيْنِ عِنْدَنَا .

[ ثالثها ] ماترجح فيه الأصل على الأصح ، وضابطه أن يستند الاحتمال فيه إلى سبب ضعيف وأمثلته لاتكاد تنحصر . ومنها مامر فى نحو ثياب الخمارين ، ومالو أدخل كلب رأسه فى إناء وأخرجه وفمه رطب ولم يعلم ولوغه فهو طاهر ، وما لو تنحنح إمامه فظهر منه حرفان فلا يفارقه لأن الأصل بقاء صلاته ولعله معذور ، ومالو امتشط محرم فرأى شعرا وشك هل نتفه أو انتتف فلا فدية عليه لأن النتف لم يتحقق ، والأصل براءة الذمة .

[ رابعها ] ماترجح فيه الظاهر على الأصل ، وضابطه أن يكون سببا قويا منضبطا . فلو شك بعد الصلاة فى ترك ركن غير النية والتحرم أو شرط كأن تيقن الطهارة وشك فى ناقضها لم تلزمه الإعادة لأن الظاهر مضى عبادته على الصحة ، أو شك بعد فراغ الفاتحة أو الاستنجاء أو غسل الثوب فى بعض كلماتها أو هل استجمر بحجرين أو ثلاث أو هل استوعب الثوب لم يؤثر لذلك ، ولو اختلفا فى صحة عقد صدق مدعيها لأن الظاهر جريان العقود بين المسلمين على قانون الشرع ؛ وفى تعارض الأصلين تارة يجزم بأحدهما وتارة يجرى خلاف ، ويرجح ماعضده ظاهر وغيره . قال ابن الرفعة : ولو كان فى جهة أصل وفى أخرى أصلان قدما جزما . قال الامام : وليس المراد بتعارضهما تقابلهما على جهة واحدة فى الترجيح فإن هـذا كلام متناقض ، بل المراد التعارض بحيث يتخيل الناظر فى ابتداء نظره ، فإذا حقق فكره رجح ( ثم الامتناع عن الذى هو حرام محض حتم واجب ) بمعنى واحد (و) الامتناع ( عن الذى هو شبهة تقوى وورع ، وهـذا ) أى ماقاله آخرون ( أولى القولين ) أى أفضلهما ( عندنا ) .

واعلم أن الورع عن الحرام على أربع درجات :

[ الأولى ] ورع العدول والمزكين ، وهو الذى يجب الفسق باقتحامه والتعرض له وتسقط العدالة به ويثبت اسم العصيان والتعرض للنار بسببه وهو الورع عن كل ماتحرمه فتاوى الفقهاء فى الظاهر وهو أول المراتب ، وفى هذا وقع النزاع بين الإمامين التقى السبكى وابن عدلان ، فأثبته السبكي ، ونفاه ابن عدلان كما هو مصرح به فى الطبقات الكبرى للتاج السبكى فى ترجمة ابن عدلان .

[ الثانية ] ورع الصالحين ، وهو الامتناع عما عسى يتطرق إليه احتمال التحريم ، ولكن المفتى إذا رفع إليه مثل هذه الحادثة يرخص فى التناول منه بناء على الظاهر ، ولا يلتفت إلى مايتطرق ويقول نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر ، ثم يقول : تطرق احتمال التحريم متوقع ولم يقع بعد فلا حكم له عندى فهو إذن من مواقع الشبهة على الجملة فلنسم هذا التحرج عن مثل ذلك ورع الصالحين لأنهم الذين يتجنبون عن مواقع الشبهة فى الحال والمتواقع ، وهو فى الدرجة الثانية بالنسبة إلى ورع العدول .

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا تَقُولُ فِي قَبُولِ جَوَائِزِ السَّلَاطِينِ فِي هٰذَا الزَّمَانِ . فَاعْلَمْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ، فَقَالَ قَوْمٌ : كُلُّ مَالاَ يُتَيَقَّنُ أَنَّهُ حَرَامٌ فَلَهُ أَخْذُهُ . وَقَالَ آخَرُونَ : لا يَحِلُّ أَنْ يَأْخُذَ مَالاَ يَتَحَقَّقُ أَنَّهُ حَلَالٌ ، لِأَنَّ الْأَغْلَبَ فِي هٰذَا الْعَصْرِ عَلَى أَمْوَالِ السَّلَاطِينِ الْحَرَامُ ، وَالْحَلَالُ فِي أَيْدِيهِمْ مَعْدُومٌ أَوْ عَزِيزٌ . وَقَالَ قَوْمٌ : إِنَّ صِلَاتِ السَّلَاطِينِ تَحِلُّ لِلْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ إِذَا لَمْ يَتَحَقَّقْ أَنَّهَا حَرَامٌ ، وَإِنَّمَا التَّبِعَةُ عَلَى الْمُعْطِي ، قَالُوا : لِأَنَّ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قَبِلَ هِدِيَّةَ الْمُقَوْقِسِ مَلِكِ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ

---

[ الثالثة ] مالا تحرمه الفتوى الشرعية ومع ذلك لاشبهة فى حله فى الحال ولكن يخاف منه أداؤه إلى محرم شرعى وهو ترك مالا بأس به مخافة مما به بأس وهذا ورع المتقين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة مابه بأس » أي يترك تناول الحلال مخافة من الوقوع فى الحرام ، رواه ابن ماجه .

[ الرابعة ] مالا بأس به أصلا ولا يخاف أن يؤدى إلى مابه بأس ولكنه يتناول لغير الله عز وجل ، ولا يتناول على نية التقوى به علي عبادة الله وحسن طاعته أو تتطرق إلى أسبابه المسهلة إليه كراهية أو معصية ، فالامتناع على هذه الصورة من التناول وهو ورع الصديقين هو أعلى المراتب فى الورع ، كما أن الصديقية أعلى المراتب بعد النبوة . ( فإن قيل : فما تقول فى قبول جوائز ) جمع جائزة : وهى العطية أى عطايا ( السلاطين ) والأمراء ( فى هذا الزمان ، فاعلم أن العلماء ) رحمهم الله تعالى ( اختلفوا فيه ) أى فى القبول ( فقال قوم ) منهم ( كل مالا يتيقن أنه حرام فله ) أى فيجوز للشخص (أخذه . وقال آخرون : لايحل أن يأخذ ) من السلاطين ( مالا يتحقق أنه حلال ) فلا تحل شبهة أصلا ( لأن الأغلب فى هذا العصر على أموال السلاطين الحرام والحلال في أيديهم ) أى السلاطين ( معدوم أو عزيز ) أى قليل وجوده ؛ نقل كلا من القولين أبو طالب المكي فى القوت . قال حجة الإسلام وكلاهما إسراف والاعتدال ماذكرنا وهو الحكم بأن الأغلب إذا كان حراما حرم ، وإن كان الأغلب حلالا وفيه يقين حرام فهوموضع توقفنا فيه . ( وقال قوم : إن صلات السلاطين ) جمع صلة بمعنى العطية ( تحل للغنى والفقير إذا لم يتحقق أنها ) أى تلك الصلات ( حرام ، وإنما التبعة ) أى الذنب ( على المعطى ، قالوا ) محتجين بذلك ( لأن النبي صلي الله عليه وسلم قبل هدية المقوقس ) بكسر الميم وسكون القاف الأولى مع فتح الواو والقاف الثانية ( ملك الإسكندرية ) مدينة مشهورة على ساحل البحر ، وعرضها إحدى وثلاثون درجة .

ذكر السيوطى فى المحاضرة نقلا عن هشام وغيره أنه لما كانت سنة ست من الهجرة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطب بن أبى بلتعة رضى الله عنه إلى المقوقس بكتاب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس عظيم القبط : سلام على من

وَاسْتَقْرَضَ مِنَ الْيَهُودِ مَعَ قَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ : ( أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ) قالوا : وَقَدْ أَدْرَكَ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ أَيَّامَ الظَّلَمَةِ وَأَخَذُوا

اتبع الهدى : أما بعد ، فانى أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، «يا أهل الكتاب تعالوا إلي كلة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » فلما قرأه أخذه وضمه إلى صدره وجعله في حق من عاج وختم عليه ، ثم دعا كاتبا يكتب بالعربية : لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك : أما بعد ، فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيا قد بقي وكنت أظن أنه يخرج من الشأم وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك جاريتين لهما مكان فى القبط عظيم وبغلة شهباء وحمارا أشهب وثيابا من قباطى مصر وعسلا من بنها ، فلما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلمه أن كل ذلك هدية قبله رسول الله صلي الله عليه وسلم وأبقى عنده مارية أم إبراهيم ووهب أختها لجهم بن قيس العبدى ، وسمى البغلة دلدل ، وسمى الحمار يعفور ، وأعجبه العسل فدعا لبنها بالبركة فبقيت . وفى تهذيب الأسماء : المقوقس : صاحب الإسكندرية الكافر الذى أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم مارية أم إبراهيم وأختها مسيرين والبغلة ، ذكره ابن منده وأبو نعيم فى كتاب الصحابة ، وما زال نصرانيا . ومنه فتح المسلمون مصر فى خلافة عمر رضى الله عنه . قال ابن ما كولا اسم المقوقس جريج ، يعنى بجيمين أولهما مضمومة ( و ) قالوا : إن النبى صلى الله عليه وسلم ( استقرض ) أى طلب القرض ، وهو بفتح القاف أشهر من كسرها ، ويطلق اسما بمعنى الشيء المقرض ومصدرا بمعنى الإقراض وهو تمليك الشيء على أن يرد بدله ، وسمى بذلك لأن المقرض يقطع للمقترض من ماله ويسميه أهل الحجاز سلفا ( من اليهود ) . روى الشيخان عن عائشة : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اشترى من يهودى طعاما إلى أجل ورهنه درعا له حديد » انتهى ، واليهودى يقال له أبو الشحم رهن ذلك على ثلاثين صاعا من شعير لأهله ، وفارق صلي الله عليه وسلم الدنيا ولم يفتكه على الأصح كما فى [ أسنى المطالب ] وإنما افتكه سيدنا على كرم الله وجهه ، خلافا لما ذكره القليوبى على الخطيب ، وأما حديث « نفس المؤمن مرهونة بدينه حتى يقضى عنه » : أى محبوسة فى القبر غير منبسطة فهو محمول على غير الأنبياء تنزيها لهم ، على أنه فى حق من قصر بالاستدانة ولم يخلف وفاء ، أما من لم يقصر فى الاستدانة أو خلف وفاء فلا تحبس نفسه ، قال القسطلانى : وفي هذا الحديث بيان جواز معاملة غير المسلمين وإن كانوا يأكلون أموال الربا كما أخبر الله تعالى عنهم ولكن مبايعتهم وأكل طعامهم مأذون لنا فيه بإباحة الله . وقد ساقاهم النبى صلى الله عليه وسلم على خيبر كما فى الخبر ، وذلك ( مع قول الله سبحانه : أكالون ) أى اليهود ( للسحت ) أى الحرام كالرشا ( قالوا ) أى الذين جوزوا أخذ أموال السلاطين إذا كان فيها حرام وحلال مهما لم يتحقق أن عين المأخوذ حرام ( وقد أدرك جماعة من الصحابة ) رضوان الله عليهم ( أيام الظلمة ) الجائرين ( وأخذوا )

مِنْهُمْ ، فَمِنْهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ عُمَرَ وَغَيْرُهُمْ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

---

الأموال ( منهم ) أى من الظلمة ( فمنهم ) أى من هؤلاء الجماعة ( أبو هريرة ) أخـذ من مروان ابن الحكم ويزيد بن معاوية ومن عبد الملك بن مروان ( و ) عبد الله ( بن عباس و ) عبد الله ( ابن عمر ) أخذ من الحجاج بن يوسف الثقفى ، كان عاملا من طرف عبد الملك ( وغيرهم ) أى هؤلاء الثلاثة كأبى سعيد الخدرى وزيد بن ثابت وأبى أيوب الأنصارى وجرير بن عبـد الله وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك ( رضوان الله عليهم أجمعين ) وأخذ كثير من التابعين : منهم الشعبي وإبراهيم النخعى والحسن البصرى وابن أبى ليلى ، وأخذ الشافعى رحمـه الله من هارون الرشيد ألف دينار فى دفعة واحدة ، وأخذ مالك من الخلفاء أموالا جمة كالمنصور والمهدى . وقال على كرم الله وجهه : خذ ما يعطيك السلطان فإنما يعطيك من الحلال وما يأخذ من الحلال أكثر ، قال حجة الإسلام الغزالى . وإنما ترك من ترك العطاء منهم تورعا مخافة على دينه أن يحمل أخذه ذلك على مالا يحل : ألا ترى إلى قول أبى ذر رضى الله عنـه للأحنف بن قيس : خذوا العطاء ما كان نحلة ، فاذا كان أثمـان دينـكم فدعوه . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : إذا أعطينا قبلنا ، وإذا منعنا لم نسأل ، وهو مصداق الخبر المشهور « إذا أوتيت من غير سؤال فخذه وتموله » وعن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة : كان إذا أعطاه معاوية بن أبى سفيان أول خلفاء بنى أمية سكت وإن منعه وقع فيه : أى تـكلم وعاتب على تأخير عطائه . وعن حبيب بن أبى ثابت قال : رأيت هدايا المختار بن عبيد تأتى إلى ابن عمر وابن عباس فيقبلانها . وعن الحسن أنه كان يأخذ هدايا الأمراء . وعن محمد بن الحسن عن أبى حنيفة عن حماد : أن ابراهيم النخعى خرج إلى زهير بن عبـد الله الأزدى وكان عاملا على حلوان يطلب جائزته هو وذر الهمدانى . قال محمد وبه نأخذ مالم نعرف شيئا حراما بعينه ، وهو قول أبى حنيفة . وعن الزبير بن عدى : أنه قال : قال سلمان الفارسى رضى الله عنه : إذا كان لك صديق عامل على عمل من أعمال السلطان أو تاجر يقارف الربا فى معاملته فدعاك إلى طعام أو نحوه أو أعطاك شيئا فاقبله ، فان المهنأ لك : أى حيث لم تعرفه وعليـه الوزر حيث علمه ، فإذا ثبت هذا فى المرابى فالظالم فى معناه : أى يجوز قبول عطيته والإجابة إلى دعوته كما صرح به المصنف . وقال النخعى : لا بأس بجائزة العمال أن للعامل مؤنة ورزقا يعطاه تحت عمالتـه ، ويدخل بيت ماله الخبيث والطيب فما أعطاك فهو من طيب ماله ، فقد ظهر لك أنه أخذ هؤلاء كلهم جوائز السلاطين الظلمة وكلهم طعنوا على من أطاعهم فى معصية الله تعالى ، وزعمت هذه الفرقة أن ما ينقل من امتناع جماعة من أخذها لا يدل على التحريم ، بل على الورع والاحتياط كالخلفاء الراشدين وأبى ذر وغيرهم من الزهاد رضى الله عنهم فانهم امتنعوا من الحلال المطلق زهدا ، ومن الحلال الذى يخاف إفضاؤه إلى محذور ورعا وتقوى ؛

وَقَالَ آخَرُونَ : لا يحلُّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ شَيْءٌ لِغَنِيٍّ وَلاَ لِفَقِيرٍ ، إِذْ هُمْ مَوْسُومُونَ بِالظُّلْمِ ، وَالْغَالِبُ عَلَى مَالِهِمِ السُّحْتُ وَالْحَرَامُ وَالْحُكْمُ لِلْغَالِبِ فَيَلْزَمُ الاجْتِنَابُ . وَقَالَ آخَرُونَ : مَالاَ يُتَيَقَّنُ أَنَّهُ حَرَامٌ فَهُوَ حَلاَلٌ لِلْفَقِيرِ دُونَ الْغَنِيِّ إِلاَّ أَنْ يَعْلَمَ الْفَقِيرُ أَنَّ ذَٰلِكَ عَيْنُ الْغَصْبِ فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَهُ إِلَّا لِيَرُدَّهُ عَلَى مَالِكِهِ ، وَلاَ حَرَجَ عَلَى الْفَقِيرِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ أَمْوَالِ السُّلْطَانِ لِأَنَّهَا إِنْ كَانَتْ مِلْكَ السُّلْطَانِ فَأَعْطَى الْفَقِيرَ فَلَهُ أَخْذُهُ بِلاَ رَيْبٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ فَيْءٍ أَوْ خِرَاجٍ أَوْ عُشْرٍ فَلِلْفَقِيرِ فِيهِ حَقٌّ وَكَذَٰلِكَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : مَنْ دَخَلَ الْإِسْلاَمَ طَائِعاً وَقَرَأَ الْقُرْآنَ ظَاهِراً فَلَهُ فِي بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ كُلَّ سَنَةٍ مِائَتَا دِرْهَمٍ وَرُوِيَ مِائَتَا دِينَارٍ إِنْ لَمْ يَأْخُذْهَا

---

فإقدام هؤلاء عليها يدل على الجواز ، وامتناع أولئك لا يدل على التحريم . ( وقال آخرون : لا يحل من أموالهم) أى السلاطين الظلمة (شيء لغني ولا لفقير ، إذ هم ) أى الظلمة ( موسومون ) أى معلومون ( بالظلم والغالب على مالهم السحت والحرام ) بمعنى واحد ( والحكم للغالب ، فيلزم الاجتناب . وقال آخرون : مالا يتيقن ) من أموالهم ( أنه حرام فهو حلال للفقير دون الغنى إلا أن يعلم الفقير أن ذلك ) المأخوذ من أموالهم (عين الغصب فليس ) أى لا يجوز ( له ) أى للفقير أن يأخذه ) أى المال الذى علم أنه عين الغصب ( إلاليرده ) أى يرد الفقير المال المغصوب (على مالكه ) أى المغصوب ، وحينئذ جاز له الأخذ لقصد ذلك ( ولاحرج ) أى لا إثم ( على الفقير أن يأخذ من أموال السلطان ، لأنها إن كانت) أى تلك الأموال ( ملك السلطان ) وحقه ( فأعطى ) السلطان ( الفقير فله أخذه ) أى المال الذى يعطيه السلطان ( بلا ريب ) أى بلا شك ( وإن كانت ) أى تلك الأموال ( من فىء ) وهو مانيل من الكفار بعد أن تضع الحرب أوزارها . وفي المصباح : الفيء : الخراج والغنيمة سمى فيئا تسمية بالمصدر لأنه فاء من قوم إلى قوم وهو بالهمزة ولا يجوز الإدغام ( أو خراج ) أى جزية مأخوذة عن الرءوس والأرضين ( أو عشر ) يؤخذ من الكفار إذا اختلفوا إلى بلاد المسلمين ( فللفقير فيه ) أى فى المأخوذ من الفيء أو الخراج أو العشر (حق ، وكذلك) أى يثبت الحق ( لأهل العلم . قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : من دخل الإسلام طائعا ) غير مكره ( وقرأ القرآن ظاهرا فله فى بيت مال المسلمين كل سنة مائتا درهم ، وروى مائتا دينار ) الدينار : أى الذي هو مثقال عشرون قيراطا ، والدرهم أربعة عشر قيراطا ، والقيراط خمس شعيرات ، فيكون الدرهم الشرعى سبعين شعيرة ، والمثقال مائة شعيرة ، فهو درهم وثلاث أسباع درهم ، كذا ذكره العلامة عبد الحق نقلا من الدر المختار ( إن لم يأخذها )

فى الدُّنيَا أَخْذَهَا فى الآخِرَةِ ، وَإِذَا كَانَ كَذٰلِكَ فَالْفَقِيرُ وَالْعَالِمُ يَأْخُذَانِ مِنْ حَقِّهِمَا قَالُوا : وَإِذَا كَانَ الْمَالُ مُخْتَلِطاً بِمَالٍ مَغْصُوبٍ لَا يُمْكِنُ تَمييزُهُ أَوْ غَصْباً لَا يُمْكِنُ رَدُّهُ عَلَى صَاحِبِهِ وَذُرِّيَّتِهِ فَلاَ مَخْلَصَ لِلسُّلْطَانِ مِنْهُ إِلاَّ بِأَنْ يَتصدَّقَ بِهِ ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيَأْمُرَهُ بِالصَّدَقَةِ عَلَى الْفَقِيرِ وَيَنْهِيَ الْفَقِيرَ عَنْ قَبُولِهَا أَوْ يَأْذَنَ لِلْفَقِيرِ فى الْقَبُولِ وَهُوَ عَلَيْهِ حَرَامٌ ، فَإِذَنْ لِلْفَقِيرِ أَنْ يَأْخُذَ إِلاَّ عَيْنَ الْغَصْبِ وَالْحَرَامِ فَلَيْسَ لَهُ أَخْذُهُ .

---

أى تلك الدراهم والدنانير المذكورات ( فى الدنيا أخذها فى الآخرة ، وإذا كان ) الأمر ( كذلك ) أى ماقاله على بن أبى طالب كرم الله وجهه ( فالفقير والعالم يأخذان من حقهما . قالوا ) أى العلماء ( وإذا كان المال مختلطا بمال مغصوب لايمكن تمييزه ) أى المال عن المغصوب ( أو ) كان المال ( غصبا لايمكن رده على صاحبه وذريته فلامخلص ) أى لاخلوص ( للسلطان منه ) أى من المال المختلط ( إلا بأن يتصدق ) أى السلطان ( به ) أى بذلك المختلط ( وما كان الله ليأمره ) أى السلطان ( بالصدقة على الفقير وينهى ) الله ( الفقير عن قبولها ) أى الصدقة ( أو يأذن ) جل وعز ( للفقير فى القبول ، وهو ) أى هذا القبول ( عليه ) أي على الفقير ( حرام ، فاذن ) أى حين لايحرم القبول على الفقير ( للفقير ) أى يجوز له ( أن يأخذ ) مال السلطان ( إلا عين الغصب والحرام فليس له أخذه ) أى المال المأخوذ من عين الغصب .

والحاصل أن الورع فى حق السلاطين أربع درجات :

[ الدرجة الأولى ] أن لايأخذ من أموالهم أصلا كثر أو قل كما فعله الورعون وكما يفعله الخلفاء الراشدون ، حتى إن أبا بكر رضى الله عنه حسب جميع ماكان يأخذه من مال بيت المال ، فبلغ ستة آلاف درهم فغرمها لبيت المال وردها إليه ؛ وحتى إن عمر رضى الله عنه كان يقسم مال بيت المال يوما فدخلت أبنة له وكان يحبها حبا شديدا فأخذت درهما من المال فنهض عمر رضى الله عنه فى طلبها حتى سقطت الملحفة عن منكبيه ودخلت الصبية إلى بيت أهلها فزعة تبكى وجعلت الدرهم فى فمها حرصا عليه فأدخل عمر أصبعه فأخرجه من فيها وطرحه على الخراج وقال : يا أيها الناس : ليس لعمر ولا لآل عمر إلا ما للمسلمين قريبهم وبعيدهم وكسح أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه بيت المال بعد تقسيم مافيه على المستحقين فوجد درهما فمر بنى لعمر رضى الله عنه فأعطاه أبو موسى الدرهم فرأى عمر فى يد الغلام الدرهم فسأله عنه ، فقال أعطانيه أبو موسى ، فقال : يا أبا موسى ماكان فى أهل المدينة بيت أهون عليك من آل عمر ، أردت أن لايبقى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أحد إلا طلبنا بمظلمة ورد الدرهم إلى بيت المال هذا مع أن المال كان حلالا لأنه كان مال الغنائم والفىء ولكن خاف أن لايستحق هو ذلك القدر فكان يستبرئ لدينه ويقتصر على الأقل امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى مالا يريبك » ولقوله « من ترك الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه » . ولما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من التشديدات والزواجر فى الأموال السلطانية حتى إنه قال

صلى الله عليه وسلم حين بعث أبا الوليد عبادة بن الصامت إلى الصدقة « اتق الله يا أبا الوليد لا تجيء يوم القيامة ببعير تحمله على رقبتك له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة لها ثؤاج ، فقال يا رسول الله أهكذا يكون ؟ قال : نعم والذى نفسى بيده إلا من رحم الله وتجاوز عنه ، قال عبادة فوالذى بعثك بالحق لا أعمل على شىء أبدا » وروى أن ابنا لطاوس افتعل كتابا على لسانه إلى عمر بن عبد العزيز فأعطاه ثلثمائة دينار فباع طاوس ضيعة له باليمن وبعث من ثمنها إلى عمر بثلثمائة دينار ، وهذا مع أن السلطان مثل عمر بن عبد العزيز وناهيك به زهدا وورعا ، فهذه هى الدرجة العليا فى الورع .

[الدرجة الثانية] هو أن يأخذ مال السلطان ولكن إنما يأخذه إذا علم أن ما يأخذه من جهة حلال فاشتمال يد السلطان على حرام آخر لا يضره ، وعلى هذا ينزل جميع ما نقل من الآثار أو أكثرها أو ما اختص منها بأكابر الصحابة والورعين منهم مثل ابن عمر رضى الله عنه فإنه كان من المبالغين فى الورع فكيف يتوسع فى مال السلطان وقد كان من أشدهم إنكارا عليهم وأشدهم ذما لأموالهم ، وذلك أنهم اجتمعوا عند ابن عامر وهو فى مرضه الذى مات فيه وأشفق على نفسه من ولايته للأعمال وكونه مأخوذا عند الله تعالى بها ، فقالوا له إنا لنرجو لك الخير من الله تعالى حفرت الآبار فى طريق البصرة إلى مكة وسقيت الحاج وصنعت كذا وصنعت كذا يعددون عليه من الخيرات وابن عمر ساكت لا يتكلم ، فقال ابن عامر ماذا تقول يا ابن عمر ؟ فقال أقول ذلك إذا طاب المكسب وزكت النفقة وسترد يوم القيامة فترى وتعاين . وفى حديث آخر أنه قال « إن الخبيث لا يكفر الخبيث » ، وإنك قد وليت البصرة ولا أحسبك إلا قد أصبت منها شرا ، فقال له ابن عامر ألا تدعو لى ؟ فقال ابن عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول » فهذا قوله فيم صرفه إلى الخيرات فما ظنك بغيرها . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال فى أيام الحجاج بن يوسف الثقفى : ماشبعت من الطعام منذ انتهبت الدار يوم قتل عثمان إلى يومى هذا ، وروى عن على رضى الله عنه أنه كان له سويق فى إناء مختوم يشرب منه ، فقيل أتفعل هذا بالعراق مع كثرة طعامه ؟ فقال: أما إنى لا أختمه بخلا به ولكن أكره أن يجعل فيه ما ليس منه وأكره أن يدخل بطنى غير طيب ، فهذا هو المألوف منهم والمحكى فى سيرهم . وكان ابن عمر لا يعجبه شىء إلا خرج منه فطلب منه نافع مولاه بثلاثين ألفا فقال إنى أخاف أن تفتننى دراهم ابن عامر وكان هو الطالب اذهب فأنت حر ، فبهذا يتضح أنه لا يظن به وبمن كان فى منصبه من أمثاله أنه أخذ ما لا يدرى أنه حلال حاشاهم من تلك .

[الدرجة الثالثة] أن يأخذ ما أخذه من السلطان ليتصدق به على الفقراء أو يفرقه على المستحقين فإن كل مالا يتعين مالكه، هذا حكم الشرع فيه ، فإذا كان السلطان بحيث إن لم يؤخذ منه ذلك المال لم يفرقه على أرباب الاستحقاق واستعان به على ظلمه وما يحمله على ارتكاب أسبابه ، فقد قال المصنف رحمه الله : إن أخذه وتفرقته على من يستحقه أولى من تركه فى يد السلطان ، وهذا قد رآه بعض العلماء جائزا ، وعلى هذا ينزل ما أخذه أكثرهم ، وكذا قال ابن المبارك

إن الذين يأخذون الجوائز اليوم من السلاطين ويحتجون بابن عمر وعائشة وبغيرهما ما يقتـدون بهم ، لأن ابن عمر فرق ما أخـذ جميعه حتى استقرض فى مجلسه بعد تفرقته ستين ألفـا ، وعائشة فعلت مثل ذلك ، وجابر بن زيد قبل ما لا فتصدق به وقال رأيت أنى آخـذه منهم وأتصـدق أحب إلى من أن أدعها فى أيديهم ، وهكذا فعل الشافعى رحمه الله بما قبله من هارون الرشيد وهو ألف دينار فإنه فرقه على قريش كله عن قرب حتى لم يمسـك لنفسه حبة واحدة .

[ الدرجة الرابعة ] ألا يتحقق أن المأخوذ حلال ولا يفرقه بل يستبقى عنده ولـكن يأخذه من سلطان أكثر ماله حلال، وهكذا كان الخلفاء فى زمان الصحابة والتابعين بعد الخلفاء الراشدين ولم يكن أكثر مالهم حراما، ويدل عليه تعليل على رضى الله عنه حيث قال فان ما يأخذه من الحلال أكثر وهذا مما جوزه جماعة من العلماء تعويلا على الأكثر . فاذا فهمت هذه الدرجات الأربع تحققت أن إدرارات الظلمة فى زماننا لا تجرى مجرى ذلك ، وأنها تفارقه من وجهين قاطعين للنزاع : [أحدهما] أن أموال السلاطين فى عصرنا حرام كلها أو أكثرها ؛ وكيف لا والحلال من أموالهم إنما هو بحسب مداخلها مثل الصدقات والفىء والغنيمة ولا وجود لهذه الثلاثة وليس يدخل منها شىء فى يد السلطان الآن ولم يبق إلا الجزية المضروبة على الـكفار وإنما تؤخذ منهم بأنواع من الظلم لا يحل أخذها به فإنهم يجاوزون حدود الشرع فى المأخوذ والمأخوذ منه والوفاء لهم بالشرط ، ثم إذا نسبت ذلك إلى ما ينصب إليهم من الخراج المضروب على المسلمين والمصادرات والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشيره فلا حول ولا قوة إلا بالله .

[ والوجه الثانى ] أن الظلمة فى العصر الأول لقرب عهـدهم بزمان الخلفاء الراشـدين كانوا مستشعرين من ظلمهم ، ومتشوفين إلى استمالة قلوب الصحابة والتابعين ، وحريصين على قبولهم عطاياهم وجوائزهم . وكانوا يبعثون إليهم من غير سؤال منهم ولا إذلال لمنصبهم بل كانوا يتقلدون المنة بقبولهم ما يرسلون ويفرحون به ، وكانوا يأخذون منهم ويفرقون على المستحقين ، ولا يطيعون السلاطين فى أغراضهم صحيحة كانت أو فاسدة ، ولا يغشون مجالسهم ولا يكثرون جمعهم ولا يحبون بقاءهم فى الدنيا بل يدعون عليهم بالويل والهلاك ، ويطلقون اللسان فيهم بالـكلام ، وينـكرون المنـكرات منهم ، فما كان يحذر أن يصيبوا من دينهم بقدر ما أصابوا من دنياهم فلم يكن بأخذهم بأس ، فأما الآن فلا تسمح نفوس السلاطين بعطية إلا لمن طمعوا فى استخدامه واستصحابه والتـكثر به لسوادهم والاستعانة به على أغراضهم الدنيوية والتجمل بغشـيان مجالسهم وتـكليفهم المواظبة على الدعاء والثنـاء والتزكية لهم ، والإطراء فى حضورهم ومغيبهم ، فلو لم يذل الآخذ منهم نفسه بالسؤال أولا ، وبالتردد فى الخـدمة ثانيا ، وبالثناء الحسن والدعاء بالبقاء ثالثا ، وبالمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة به رابعا ، وبتـكثير جمعه فى مجلسه وموكبه خامسا وبإظهار الحب والموالاة والمناصرة له على أعدائه سادسا : وبالستر على ظلمه ومقابحه ومفاسده ومساوى أعماله سابعا ، وبالانتساب إليه فى أحواله ثامنا ، والتعويل عليه فى مهماته تاسعا ، وجر

وَهٰذِهِ الْمَسَائِلُ لَا يُمكِنُ الْفَتْوَى فِيهَا إِلَّا بِبَسْطٍ وَتَشْقِيقٍ ، وَاسْتِيعَابُ الْقَوْلِ فِيهَا يُخْرِجُ عَنِ الْمَقْصُودِ مِنْ الْكِتَابِ ، فَإِنْ أَرَدْتَ مَعْرِفَتَهَا فَطَالِعْ كِتَابَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مِنْ كِتَابِ إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ الَّذِي صَنَّفْنَاهُ تَجِدْهُ مَشْرُوحًا مبيَّنًا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا تَقُولُ فِي صِلَاتِ أَهْلِ السُّوقِ وَغَيْرِهِمْ هَلْ يلزَمُ رَدُّهَا أَوْ الْبَحْثُ عَنْهَا وَقَدْ عَلِمْتَ مُجَازَفَتَهُمْ وَقِلَّةَ نَظَرِهِمْ فِي مُعَامَلَتِهِمْ وَكَذٰلِكَ صِلَاتُ الْإِخْوَانِ . فَالْجَوَابُ أَنَّهُ

---

أسباب تحصيل الأموال إليه عاشرا لم ينعم عليه بدرهم واحد ، بل لم يلتفت إليه ولو كان في فضل الشافعى رحمه الله مثلا . فإذن لا يجوز أن يؤخذ منهم فى هذا الزمان مايعلم أنه حلال لا فضائه إلى هذه المعانى العشرة فكيف مايعلم أنه حرام أو يشك فيه ، فمن استجرأ على أخذ أموالهم وشبه نفسه بالصحابة والتابعين بأنهم قد أخذوا من أمراء زمانهم ، فقد قاس الملائكة بالحدادين وأين هم من هؤلاء ، ففى أخذ الأموال منهم حاجة داعية إلى مجالسهم ومراعاتهم وخدمة عمالهم وأتباعهم المنسوبين إليهم واحتمال الذل منهم والثناء عليهم والتردد إلى أبوابهم بكرة وعشية ، وكل ذلك معصية كما بينه المصنف رحمه الله ، فاذا قد تبين مما ذكر مداخل أموالهم وما يحل منها ومالا يحل ، فلو تصور أن يأخذ الإنسان منها ما يحل بقدر استحقاقه وهو جالس فى بيته ، فيساق إليه بلا سؤال ولا إرسال واسطة ولا إذلال لايحتاج فيه إلى تفقد عامل من عمالهم وخدمته ولا إلى الثناء عليهم وتزكيتهم فى المجالس ولا إلى مساعدتهم إن احتاجوا إليه ، فلا يحرم الأخذ من هذا الوجه ولكن يكره ذلك ( وهذه المسائل ) المذكورة ( لايمكن الفتوى فيها إلا ببسط ) أى زيادة طلب ( وتشقيق ) أى مشقة كما فى سراج السالكين (و) أما ( استيعاب القول فيها ) أى فى تلك المسائل فهو ( يخرج عن المقصود ) وهو الاختصار ( من ) هذا ( الكتاب ) المسمى : [ المنهاج ] ( فان أردت معرفتها ) أى المسائل ( فطالع كتاب الحلال والحرام من كتاب إحياء علوم الدين الذى صنفناه تجده ) أى ماأردت معرفته من مسائل الحلال والحرام والشبهات ونحوذلك (مشروحا مبينا إن شاء الله تعالى) ولكن بعض تلخيصه مسطور فى هذا الشرح . ( فان قيل : فما تقول فى صلاة أهل السوق؟ ) أى عطاياهم ( وغيرهم ) أى من الذين يجازفون فى معاملتهم ( هل يلزم ردها) أى الصلات أم لا؟ ( أو ) هل يلزم (البحث عنها) أى تلك الصلات أم لا؟ ( و ) الحال أنهم ( قد علمت مجازفتهم ) أى مساهلتهم . قال الفيومى : الجزاف بيع الشىء لايعلم كيله ولا وزنه ، وهو اسم من جازف مجازفة من باب قتل . وقال ابن القطاع : جزف فى الكيل جزفا : أكثر منه ، ومنه الجزاف والمجازفة فى البيع وهو المساهلة والكلمة دخيلة فى العربية ، ويؤيده قول ابن فارس : الجزف : الأخذ بكثرة كلة فارسية ، ويقال لمن يرسل كلامه إرسالا من غير قانون جازف فى كلامه فأقيم نهج الصواب مقام الكيل والوزن ( وقلة نظرهم فى معاملتهم وكذلك ) أى مثل صلات أهل السوق ومن فى معناهم ( صلات الإخوان ) أى المسلمين( فالجواب أنه ) أى الحال

إِذَا كَانَ ظَاهِرُ الإِنْسَانِ الصَّلاَحَ وَالسَّتْرَ فَلاَ حَرَجَ عَلَيْكَ فِى قَبُولِ صِلَتِهِ وَصَدَقَتِهِ وَلاَ يَلْزَمُ الْبَحْثُ بِأَنْ تَقُولُ قَدْ فَسَدَ الزَّمَانُ فَإِنَّ هٰذَا سُوءُ ظَنٍّ بِذٰلِكَ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ ،

---

والشأن ( إذا كان ظاهر الإنسان الصلاح والستر ) عن الفسق ( فلا حرج ) أى لا إثم ( عليك فى قبول صلته وصدقته ) أى ذلك الإنسان ( ولا يلزم ) عليك ( البحث ) والتفتيش وذلك ( بأن تقول قد فسد الزمان ) والظلم غالب على الناس فهذا منهم ( فان هذا ) البحث والتجسس وسواس شيطانى و ( سوء ظن بذلك الرجل المسلم ) بعينه ، وإن بعض الظن إثم وباله على صاحبه وهذا الرجل المسلم يستحق باسلامه عليك ألا تسىء الظن به فانك قد نهيت عنه . قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم » وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إياكم والظن فان الظن أكذب الحديث » رواه الشيخان ، فان أسأت الظن بهذا المسلم بعينه لأنك رأيت فسادا من غيره بسوء ظنك فقد جنيت عليه وأثمت به فى الحال نقدا من غير شك ، ولو أخذت المال لكان كونه حراما مشكوكا فيه ، لأن كلا من الاعتقادين لهما سببان متقابلان ويدل على ذلك القبول من غير بحث أنا نعلم أن الصحابة رضى الله عنهم فى أيام غزواتهم على الكفار وسائر أسفارهم وتحركاتهم كانوا ينزلون فى القرى بالضم جمع قرية ولا يردون القرى بالكسر الضيافة ويدخلون البلاد ولا يحترزون من الأسواق التى فيها ، وكان الحرام أيضا موجودا فى زمانهم بالكثرة ، وما نقل عنهم سؤال ولا بحث إلا عن ريبة وتهمة إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسأل عن كل ما يحمل إليه فى كل أحيانه بل سأل فى أول قدومه إلى المدينة مهاجرا عما يحمل إليه أصدقة أم هدية ؟ كما رواه أحمد والحاكم، لأن قرينة الحال تدل وهو دخول المهاجرين الأولين إلى المدينة وهم فقراء لكونهم خرجوا بأنفسهم مجردين عن أملاكهم فارين بدينهم فغلب على الظن أن ما يحمل إليهم من الطعام يحمل بطريق الصدقة لا غير ، ثم إسلام المعطى ويده لا يدلان على أنه ليس بصدقة ، وكان صلى الله عليه وسلم يدعى إلى الضيافات فيجيب إليها، ولا يسأل أصدقة أم لا؟ كما هو مشهور معروف فى الصحيحين ، لأن العادة ماجرت بالتصدق بالضيافة ولذلك دعته أم سليم ودعاه الخياط كما فى الحديث الذى رواه أنس بن مالك ، وقدم إليه طعاما فيه قرع ودعاه الرجل الفارسى ، فقال صلى الله عليه وسلم أنا وعائشة ؟ فقال لا ثم أجابه بعده فذهب هو وعائشة رضى الله عنها يتساوقان فى المشى فقدم إليهما إهالة بالكسر: الودك المذاب ولم ينقل السؤال من ذلك أصدقة أم لا ؟ وسأل أبو بكر رضى الله عنه عبده عن كسبه لما رابه من أمره ، وسأل عمر رضى الله عنه الذى سقاه اللبن من إبل الصدقة إذ رابه فإنه أعجبه طعمه ، ولم يكن على ما كان يألفه كل مرة وهذه أسباب الريبة فكل من وجد ضيافة عند رجل مجهول لم يكن عاصيا باجابته من غير تفتيش وبحث ، بل لو رأى فى داره تجملا ومالا كثيرا فليس له أن يقول الحلال عزيز قليل ، وهذا الذى أراه كثير فمن أين يجتمع هذا من الحلال؟ لأن هذا الشخص

بَلْ حُسْنُ الظَّنِّ بِالْمُسْلِمِينَ مَأْمُورٌ بِهِ .

بعينه يحتمل أن يكون ورث مالا من مورثه بطريق الشرع أو اكتسبه من وجه طيب فهو بعينه يستحق إحسان الظن به ولا يقول إنه حرام ، ولايجوز له أن يسأله بل إن كان يتورع ولا يدخل جوفه إلا مايدرى من أين هو فهو حسن لابأس به فليتلطف فى الترك ، وإن كان لابد له من أكله فليأكل بغير سؤال ولا بحث إذ السؤال إيذاء له وهتك سترعنه وإيحاش له وهو حرام بلاشك، إذ قد ورد الوعيد فيمن آذى أخاه وفيمن هتك ستره . فان قات : لعل هـذا الشخص لايتأذى بذلك السؤال ، فاعلم أن هذا لعله يتأذى فأنت تسأل حذرا من لعل ، فان قنعت بلعل فلعله ماله حرام . وليس الإثم المحذور فى إيذاء مسلم قولا أو فعلا بأقل من الإثم فى أكل الشبهة والحرام، والغالب على الناس حصول الوحشة بالتفتيش والبحث الدقيق ، ولا يجوز له أن يسأل من غيره من حيث يدرى هو به لأن الايذاء فى ذلك أكثر ، وإن سأل من حيث لايدرى هو ففيه إساءة ظن وهتك ستر وفيه تجسس وفيه تحسين وتزيين للغيبة ، وكل ذلك منهى عنه فى الكتاب العزيز ؛ وكم من زاهد جاهل يوحش القلوب فى التفتيش ويتكلم بالكلام الخشن المؤذى ، وإنما يحسن الشيطان ذلك عنده ويزينه طلبا للشهرة بين الناس بأكل الحلال ، ولو كان باعثه محض الدين لكان خوفه على قلب مسلم أن يتأذى ويستوحش أشد من خوفه على بطنه أن يدخله مالايدرى وهو غير مؤاخذ بما لايدرى إذ لم يكن هناك علامة توجب الاجتناب . وأما الإيذاء والتجسس والاغتياب فانه مؤاخذ بكل من ذلك ، فليعلم أن طريق الورع الترك دون التجسس ، وإذا لم يكن بد من الأكل فالورع الأكل وإحسان الظن ، وهذا هو المألوف المعروف من أحوال الصحابة رضى الله عنهم كما يعرفه من سبر سيرهم ، ومن زاد عليهم فى الورع فهو ضال عن الرشد مبتدع وليس بمتبع سنتهم ، فلن يبلغ أحد مد أحدهم ولا نصيفه ، ولو أنفق مافى الأرض جميعا كما جاء ذلك فى الخبر . كيف وقد أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم طعام بريرة مولاة عائشة رضى الله عنها فقيل إنه صدقة فقال «هو لها صدقة ولنا هدية» ولم يسأل عن المتصدق عليها ، فكان المتصدق به عليها مجهولا عنده صلي الله عليه وسلم ولم يمتنع كما أخرجه الشيخان من حديث أنس رضى الله عنه ( بل حسن الظن بالمسلمين مأمور به ) قال عليه الصلاة والسلام « خصلتان ليس فوقهما شىء من الخير حسن الظن بالله وحسن الظن بالمسلمين» . وعن الإمام الشافعى رضي الله عنه : من أحب أن يختم له بخير فليحسن الظن بالناس . وقال سيدى الحبيب أبو بكر السكران باعلوى : مانلت مانلت إلا بحسن الظن فى الصالحين وجميع المسلمين . وقال سيدى الحبيب أبو بكر بن عبدالله العيدروس باعلوى : ماخسر صاحب حسن الظن وإن أخطأ فانه غير ملوم ، حسن الظن الكنز الأكبر والاسم الأعظم. احذروا سوء الظن فانه دليل علي الشقاء ويخشى منه سوء الخاتمة ، وعليكم بزيارة الأولياء والتعرف بهم فهم الوسائط إلى الله تعالى . وقال والده سيدى الحبيب عبد الله الملقب بالعيدروس : ترك الغيبة مملكة ، وترك النميمة سلطة ، وحسن الظن ولاية ، وهو معنى قول الجنيد

ثُمَّ أَعْلَمْ مَاهُوَ الْأَصْلُ فِى هٰذَا الْبَابِ وَهُوَ أَنَّ هٰهُنَا شَيْئَيْنِ : أَحَدُهُمَا حُكْمُ الشَّرْعِ وَظَاهِرُهُ؛ وَالثَّانِى حُكْمُ الْوَرَعِ وَحَقُّهُ، فَحُكْمُ الشَّرْعِ أَنْ تَأْخُذَ مَا أَتَاكَ مِمَّنْ ظَاهِرُهُ صَلَاحٌ وَلَا تَسْأَلْ إِلَّا أَنْ تَتَيَقَّنَ أَنَّهُ غَصْبٌ أَوْ حَرَامٌ بِعَيْنِهِ، وَحُكْمُ الْوَرَعِ أَنْ لَا تَأْخُذَ شَيْئًا مِنْ أَحَدٍ حَتَّى تَبْحَثَ عَنْهُ غَايَةَ الْبَحْثِ وَتَسْتَقْصِيَ غَايَةَ الْاسْتِقْصَاءِ

---

قدس سره : التصديق بعلمنا ولاية . أى لأن التصديق لايحصل إلا من صاحب حسن ظن . وقال الديريني رحمه الله : من أحب أن الوجود كله يمده بالخير، فليجعل نفسه تحت الخلق كلهم فان المدد مع الخلق كالماء ، وهو إنما يجري في المواضع المنخفضة ، وفى العهود: أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نبجل العلماء والصالحين والأكابر وإن لم يعملوا بعلمهم ، ونقوم بواجب حقهم ونكل أ مرهم إلي الله تعالى ، فمن أخل بواجب حقوقهم من الإكرام والتبجيل فقد خان الله ورسوله ، فان العلماء نواب الله ورسوله وذلك كفر، وقد كفر بعضهم من قال عميمة عالم بالتصغير وروى الطبراني « ثلاثة لايستخف بهم إلا منافق ذو الشيبة المسلم وذو العلم والإمام المقسط » أى العادل . قال الخطيب البغدادى : كل من حمل العلم ولم يتكلم فيه بجرح فهو عدل ، فكيف بمن ظهرت عدالته وحسن هديه ودلالته من غير ثبوت مايقتضى خلاف ذلك ، فهذا الذي نعتقد ولايته وقال السيد السمهودى : كنت مع شيخى شرف الدين المناوى رحمه الله تعالى فمررنا بقوم فوقع فى نفسى من بعضهم شيء وجال ذلك فى نفسى فكاشفنى الشيخ عنه وقال : جميع هؤلاء أعتقد ولايتهم ، لأنى ماعلمت من أحد منهم تقصيرا فى شيء من حقوق الله وحقوق عباده ، وما أحسن قول من قال من بحر الوافر :

إلهى لاتعذبنى فاني ... مقر بالذى قد كان منى
ومالى حيلة إلا رجائى ... وعفوك إن عفوت وحسن ظنى
فكم من زلة لى والخطايا ... وأنت علىّ ذو فضل ومن
إذا فكرت فى ندمى عليها ... عضضت أناملى وقرعت سنى
يظن الناس بى خيرا وإنى ... لشر الناس إن لم تعف عنى
أجن لزهرة الدنيا جنونا ... وأفنى العمر فيها بالتمنى

(ثم اعلم) أرشدك الله تعالى (ماهو الأصل فى هذا الباب) أى باب قبول الجوائز (وهو) أى ماهو الأصل (أن هاهنا) أى فى هذا الباب (شيئين: أحدهما حكم الشرع وظاهره والثاني حكم الورع وحقه فحكم الشرع) هو ( أن تأخذ ماأتاك ممن ظاهره صلاح ولا تسأل ) من أين هو ( إلا أن تتيقن أنه ) أى ماأتاك ( غصب أو حرام بعينه ) فلا تأخذه (و) أما ( حكم الورع ) فهو (أن لاتأخذ شيئا من أحد حتى تبحث عنه ) أى عن ذلك الشيء ( غاية البحث وتستقصى غاية الاستقصاء ) أى تستتبع غاية التتبع

فَتَسْتَيْقِنَ أَنَّهُ لَاشُبْهَةَ فِيهِ بِحَالٍ وَإِلَّا فَتَرُدَّهُ ، فَلَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ غُلَامًا لَهُ أَتَاهُ بِلَبَنٍ فَشَرِبَهُ ، فَقَالَ الْغُلَامُ : كُنْتُ إِذَا جِئْتُكَ بِشَيْءٍ تَسْأَلُنِي عَنْهُ وَلِمَ لَمْ تَسْأَلْنِي عَنْ هٰذَا اللَّبَنِ ؟ فَقَالَ : وَمَا قِصَّتُهُ ؟ فَقَالَ : رَقَيْتُ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَأَعْطَوْنِي هٰذَا ، فَتَقَيَّأَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَقَالَ : اللَّهُمَّ هٰذِهِ مَقْدِرَتِي ، فَمَا بَقِيَ فِي الْعُرُوقِ فَأَنْتَ حَسْبُهُ ،

---

والبحث ( فتستيقن أنه لاشبهة فيه ) أى الشيء الذى أتاك من أحد ( بحال ) من الأحوال ( وإلا ) بأن كان فيه شبهة ( فترده ) ولا تأخذه ( فلقد روينا عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه : أن غلاما له أتاه ) أى أتى الغلام أبا بكر ( بلبن ) من كسبه ( فشربه ) أى شرب أبو بكر ذلك اللبن ( فقال الغلام ) لأبى بكر يا سيدى ( كنت إذا جئتك بشيء تسألنى عنه ) أى عن أصل ذلك الشيء ( ولم ) ماالستفهامية حذفت ألفها لدخول حرف الجر عليها على حد قوله :

وما فى الاستفهام إن جرت حذف ألفها وأولها الها إن تقف

أى لأى شيء وسبب ( لم تسألنى عن هذا اللبن ؟ ) الذى شربته (فقال) أبوبكر ( وما قصته ) أى كيف خبر هذا اللبن وأى سبب نلت هذا ( فقال ) الغلام ( رقيت ) بفتح الراء والقاف من باب رمي والجمع رقى مثل مدية ومدى أى عوذت بالله ونفثت (قوما) وفى رواية : تكهنت أى أخبرتهم عن بعض الأمور المغيبة ، وفى أخرى للبخارى: تكهنت لإنسان (فى الجاهلية) وهى الحالة التى كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله ورسوله وشرائع الإسلام وقال بعضهم المشهور أن الجاهلية اسم للناس الذين كانوا قبل الإسلام أى قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم كما صرح به الشيخ أبو على سموا بذلك لكثرة جهالاتهم ( فأعطونى هذا ) اللبن ( فتقيأ أبو بكر الصديق رضى الله عنه وقال اللهم هذه ) الفعلة وهي تقيؤه رضى الله عنه ( مقدرتي ) أى قدرتى ( فما بقى ) من اللبن المشروب ( فى العروق ) ويخلط فى الأمعاء ( فأنت حسبه ) أى كافيه، وفى رواية وقال اللهم إنى أعتذر إليك مما حملت العروق وخالط الأمعاء قال الزبيدى رواه أبو نعيم فى الحلية ولفظه حدثنا أبو عمرو بن حمدان حدثنا الحسن بن سفيان حدثنا يعقوب بن سفيان حدثنا عمرو بن مضمر البصرى حدثنا عبد الواحد بن زيد عن أسلم الكوفى عن مشرف الطيب عن زيد بن أرقم قال كان لأبى بكر مملوك يغل عليه فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة فقال له المملوك مالك كنت تسألنى كل ليلة ولم تسألنى الليلة قال حملنى على ذلك الجوع من أين جئت بهذا قال مررت بقوم فى الجاهلية فرقيت لهم فوعدونى فلما كان اليوم مررت بهم فإذا عرس لهم فأعطونى قال أف لك كدت أن تهلكنى فأدخل يده في حلقه فجعل يتقيأ وجعل لايخرج فقيل له إن هذه لاتخرج إلا بالماء فدعا بعس من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمي بها فقيل له رحمك الله كل هذا من أجل هذه اللقمة فقال لولم تخرج إلا

فَهٰذَا يَدُلُّكَ عَلَى وُجُوبِ الْبَحْثِ عَمَّا تَقَدَّمُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ لَكَ نَظَرٌ فِي الْوَرَعِ وَحَقِّهِ فَهٰذِهِ هٰذِهِ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَكَأَنَّ الْوَرَعَ يُخَالِفُ الشَّرْعَ وَحُكْمَهُ . فَاعْلَمْ أَنَّ الشَّرْعَ مَوْضُوعٌ عَلَى الْيُسْرِ وَالسَّمَاحَةِ ، وَلِذٰلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم : « بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ » وَالْوَرَعُ مَوْضُوعٌ عَلَى التَّشْدِيدِ وَالِاحْتِيَاطِ ، كَمَا قِيلَ الْأَمْرُ عَلَى الْمُتَّقِي أَضْيَقُ مِنْ عَقْدِ التِّسْعِينَ

---

مع نفسى لأخرجتها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به » فخشيت أن ينبت فيه شيء من جسدى من هذه اللقمة ورواه عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة نحوه ورواه محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر نحوه وفى بعض الأخبار أنه صلى الله عليه وسلم لما أخبر بذلك قال «أو ماعلمتم أن الصديق لايدخل جوفه إلا طيبا» ( فهذا ) الحديث ( يدلك علي وجوب ) التفتيش و ( البحث عما تقدم ) بفتح التاء وسكون القاف مع ضم الدال من باب نصر أى تجيء ( عليه ) أى من الأطعمة وغيرها ( إن كان لك نظر ) أى فكر ( فى الورع وحقه فهذه ) الجملة المذكورة ( هذه ) أى عظيمة ( فإن قلت فكأن الورع يخالف الشرع وحكمه فاعلم أن الشرع موضوع ) أى وضعه الشارع ( على اليسر والسماحة ) أى التساهل والسعة (ولذلك) أى لأجل الموضوع على ذلك ( قال النبي صلى الله عليه وسلم « بعثت ) أى أرسلت ( بالحنيفية السمحة » ) أى الشريعة المائلة عن كل دين باطل فهى حنيفية فى التوحيد سمحة فى العمل أى سهلة وآخره « من خالف سنتى فليس منى » أخرجه الخطيب عن جابر بن عبد الله وهو حديث حسن لغيره ( والورع موضوع على التشديد والاحتياط كما قيل الأمر على المتقي أضيق من عقد التسعين ) لأنه أضيق العقود .

[ فائدة جليلة ] ضع فى بطن الكف للواحد الخنصر وللاثنين البنصر وللثلاثة الوسطى وللأربعة أقم الخنصر وللخمسة البنصر وللستة ضع البنصر وأقمها ثم ضع على أعلى الكف للسبعة الخنصر وللثمانية البنصر وللتسعة الوسطى وللعشرة رأس السبابة على خط وسط الإبهام وافتح البواقي وللعشرين تمام ظفره بين أصلى السبابة والوسطى وللثلاثين رأس الإبهام على رأسها وللأربعين على ظهر الأسفل منها وللخمسين على الخط بينهما فى جانب الكف وللستين علي الأوسط منها وللسبعين علي الأعلى منها وللثمانين رأسها علي ظهر المفصل الأعلى منه وللتسعين على الأدنى منه هذه فى اليمنى وكذلك فى اليسري إلا أن آحادها مئات وعشراتها ألوف وما بين العقود بتركيب ما تحتها يبلغ تسعة آلاف كذا أفاده العلامة المحدث رفيع الدين الدهلوى عليه رحمة الله الغني القوي، وأفاده العلامة ابن عابدين رحمه الله في رفع التردد من عقد الأصابع عند التسمية الواحد ضم الخنصر لأقرب باطن

ثُمَّ الْوَرَعُ مِنَ الشَّرْعِ أَيْضاً وَكِلَاهُمَا فِى الْأَصْلِ وَاحِدٌ ، وَلَكِنْ لِلشَّرْعِ حُكْمَانِ : حُكْمُ الْجَوَازِ ، وَحُكْمُ الْأَفْضَلِ الْأَحْوَطِ ؛ فَالْجَائِزُ يُقَالُ لَهُ : حُكْمُ الشَّرْعِ ، وَالْأَفْضَلُ الْأَحْوَطُ يُقَالُ لَهُ : حُكْمُ الْوَرَعِ ، فَهُمَا مَعَ تَمَيُّزِهِمَا وَاحِدٌ فِى الْأَصْلِ ، فَافْهَمْ ذٰلِكَ رَاشِداً إِنْ شَاءَ اللّٰهُ تَعَالَى

فَإِنْ قُلْتَ : فَإِذَا جَازَ الْبَحْثُ وَالِاسْتِقْصَاءُ عَنْ كُلِّ شَىْءٍ فَسَدَ عَلَيْنَا مَا نَأْخُذُهُ فِى هٰذَا الزَّمَانِ ، وَتَعَذَّرَ الْأَمْرُ بِمَرَّةٍ عَلَى صَاحِبِ الْوَرَعِ إِذْ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ بَلَاغٍ يُبَلِّغُهُ إِلَى الطَّاعَةِ ، فَاعْلَمْ أَنَّ طَرِيقَ الْوَرَعِ شَدِيدٌ

---

الكف منه ضما محكما الاثنان ضم البنصر معها كذلك الثلاثة ضمهما مع الوسطى الأربعة ضمها ورفع الخنصر الخمسة ضم الوسطى فقط الستة بضم البنصر فقط السبعة ضم الخنصر فقط مع مدها حتى تصل إلى لحمة أصل الإبهام الثمانية ضم البنصر معها كذلك التسعة ضمهما مع الوسطى كذلك العشرة جعل طرف السبابة على باطن نصف الإبهام العشرون أدخل الإبهام بين السبابة والوسطى بحيث يكون ظهرها بين عقدى السبابة الثلاثون إلزاق طرف السبابة بطرف الإبهام الأربعون وضع باطن الإبهام على ظاهر السبابة الخمسون عطف الابهام كأنها راكعة السبعون وضع طرف الابهام على وسط السبابة مع عطف السبابة إليها قليلا الثمانون مد الإبهام والسبابة كأنهما ملتصقان خلقة التسعون ضم طرف السبابة إلى أصلها وعطف الابهام عليها ثم انقل الحساب إلى اليد اليسرى واجعل المائة كعقد الواحد وهكذا . والحاصل أن عقد الخنصر والبنصر والوسطى من اليمنى للآحاد والسبابة والابهام للعشرات بتبديل كيفية الوضع وكذلك عقد الخنصر والبنصر والوسطى من اليسرى للمئات والسبابة والابهام منها للألوف فغاية ماتجمع اليمنى من العدد تسعة وتسعون وما تجمعه اليسرى تسعمائة وتسعة آلاف . هذا ، وقد يوجد فى بعض المواضع اختلاف فى بعض الكيفيات التى ذكرناها وكأنه اختلاف اصطلاح والله أعلم (ثم الورع من الشرع أيضا وكلاهما) أى الورع والشرع (فى الأصل واحد ولكن للشرع حكمان) الأول (حكم الجواز و) الثانى (حكم الأفضل الأحوط فالجائز يقال له حكم الشرع والأفضل الأحوط يقال له حكم الورع فهما مع تميزهما) أى الجائز والأفضل (واحد فى الأصل فافهم ذلك) المذكور من اتحاد الجائز والأفضل فى الأصل (راشدا) أى موافقا للصواب (إن شاء الله تعالى. فان قلت فاذا جاز البحث والاستقصاء) فى [محيط المحيط] استقصى استقصاء بلغ الغاية (عن كل شىء فسد علينا ما نأخذه) من أموال السلطان وغيره (فى هذا الزمان وتعذر) أى تعسر (الأمر بمرة على صاحب الورع إذلابد) أى لاغنى (له) أى لصاحب الورع (من بلاغ) أى كفاية (يبلغه) أى يوصله (إلى الطاعة فاعلم أن طريق الورع) أى سلوك ذلك (شديد) إلا على من وفقه الله

وَأَنَّ مَنْ قَصَدَ سُلُوكَهُ يُشْتَرَطُ أَنْ يُوطِّنَ نَفْسَهُ وَقَلْبَهُ عَلَى احْتِمَالِ الشِّدَّةِ وَإِلاَّ فَلاَ يَتِمُّ لَهُ ذَلِكَ، وَلِهَذَا الْمَعْنَى صَارَ الْكَثِيرُ مِنْ أَهْلِ الْوَرَعِ وَالسَّابِقُونَ إِلَى جَبَلِ لُبْنَانَ وَغَيْرِهِ فَاقْتَصَرُوا عَلَى أَكْلِ الْحَشِيشِ وَثَمَرَاتٍ تَافِهَةٍ لاَ شُبْهَةَ فِيهَا بِحَالٍ ، فَمَنْ سَمَتْ هِمَّتُهُ إِلَى نَيْلِ مَنْزِلَةِ الْوَرَعِ الْأَعْلَى فَعَلَيْهِ أَنْ يَحْتَمِلَ الشَّدَائِدَ وَيَصْبِرَ عَلَيْهَا ، وَيَسْلُكَ طَرِيقَ أُولَئِكَ

---

تعالى ويسره على ذلك والورع ورعان ورع فرض وورع حذر فالورع الفرض الورع عن معاصى الله تعالى والورع الحذر الورع عن الشبهات ولذلك قال العلامة أبو الليث رحمه الله علامة الورع أن يرى عشرة أشياء فريضة على نفسه أولها حفظ اللسان عن الغيبة لقوله تعالى « ولا يغتب بعضكم بعضا » والثاني الاجتناب عن سوء الظن لقوله تعالى « اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم » ولقول النبى صلى الله عليه وسلم « إياكم والظن فإنه أكذب الحديث » والثالث الاجتناب عن السخرية لقوله تعالى « لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم » والرابع غض البصر عن المحارم لقوله تعالى « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » والخامس صدق اللسان لقوله تعالى « وإذا قلتم فاعدلوا » والسادس أن يعرف نعمة الله على نفسه لكيلا يعجب بنفسه لقوله تعالى « بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان إن كنتم صادقين » والسابع أن ينفق ماله فى الحق ولا ينفقه فى الباطل لقوله تعالى « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا » يعنى لم ينفقوا فى المعصية ولم يمنعوا من الطاعة « وكان بين ذلك قواما » أى عدلا. والثامن أن لا يطلب لنفسه العلو والكبر لقوله تعالى « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا » والتاسع المحافظة على الصلوات الخمس فى أوقاتها بركوعها وسجودها لقوله تعالى « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » والعاشر الاستقامة على السنة والجماعة لقوله تعالى « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » ( و ) اعلم ( أن من قصد سلوكه ) أى الورع ( يشترط أن يوطن ) أى يقرر ( نفسه وقلبه على احتمال الشدة ) والمشقة ( وإلا ) أى وإن لم يوطن نفسه على ذلك ( فلا يتم له ذلك ) الورع أى سلوكه ( ولهذا المعنى ) المذكور وهو توطين النفس والقلب على احتمال الشدة والألم ( سار ) أي رحل ( الكثير من أهل الورع و ) سار ( السابقون ) إلى الخيرات ( إلي جبل لبنان ) بضم اللام : جبل بالشام (وغيره) أى غير هذا الجبل من بطون الأودية والفلوات ( فاقتصروا على أكل الحشيش ) أى الكلأ اليابس ( و ) أكل ثمرات تافهة ) أى خسيسة تفه الشيء تفها من باب تعب وتفاهة أيضا إذا خس وحقر فهو تافه كذا فى المصباح ( لا شبهة فيها ) أى فى تلك الثمرات والحشيش ( بحال ) من الأحوال ( فمن سمت ) أى علت ( همته إلى نيل منزلة الورع الأعلى فعليه أن يحتمل الشدائد و ) أن ( يصبر عليها ) أى على مقاساة تلك الشدائد ( و ) أن ( يسلك طريق أولئك ) الذين هم أهل الورع والسابقون إلى الخيرات الساكنون

لِينَالَ مَنْزِلَتَهُمْ ، وَأَمَّا إِنْ أَقَامَ بَيْنَ النَّاسِ وَأَ. كَلَ مِمَّا يَتَدَاوَلُونَهُ فِي أَيْدِيهِمْ فَلْيَكُنْ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ الْمَيْتَةِ لاَ يَقْدُمُ عَلَيْهَا إِلاَّ عِنْدَ الضَّرُورَةِ ، ثُمَّ لاَ يَتَنَاوَلُ مِنْهَا إِلاَّ بِمِقْدَارِ مَا يُبَلِّغُهُ إِلَى الطَّاعَةِ ، فَيَكُونُ لَهُ عُذْرٌ فِي ذَٰلِكَ وَلاَ يَضُرُّهُ وَإِنْ كَانَ فِي أَصْلِهِ شُبْهَةٌ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَوْلَى بِالْعُذْرِ ، وَلِهَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : فَسَدَ السُّوقُ فَعَلَيْكُمْ بِالْقُوتِ .

وَلَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ وَهْبِ بْنِ الْوَرْدِ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ كَانَ يُجَوِّعُ نَفْسَهُ يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةً ثُمَّ يَأْخُذُ رَغِيفاً وَيَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لاَ أَقْوَى عَلَى الْعِبَادَةِ وَأَخْشَى الضَّعْفَ

---

في لبنان وغيره ( لينال ) ذو همة علية ( منزلتهم وأما إن أقام بين الناس وأ كل مما يتداولونه في أيديهم ) أي يتحصلونه مرة لهذا ومرة لهذا تداول القوم الشيء تداولا وهو حصوله في يدهذا تارة وفي يد هذا أخرى والاسم الدولة بفتح الدال وضمها كذا في المصباح وقال صاحب المختار تداولته الأيدى أي أخذته هذه مرة وهذه أخرى ( فليكن ) أي أ كله مما يتداول الناس ( عنده ) أي السالك لطريق الورع (بمنزلة الميتة) وذلك أنه ( لا يقدم عليها ) أي علي أ كلها ( إلا عند الضرورة) لسد الرمق ( ثم لا يتناول منها ) أي من المأ كولات التي بمنزله الميتة (إلا بمقدار مايبلغه إلى الطاعة فيكون له ) أي لذلك السالك ( عذر في ذلك ) أي في أخذ المقدار ( ولا يضره ) تناول ذلك (وإن كان في أصله) أي هذا المقدار (شبهة فإن الله تعالى أولى) أي أحق (بالعذر) أي بقبول العذر (ولهذا) المعنى وهو كون ذلك الأخذ عذرا له وعدم ضرره (قال الحسن البصرى رحمه الله فسد السوق) بسبب كثرة الخيانة ونحوها ولذلك قال محمد بن شمال رحمه الله لما دخل السوق يا أهل السوق سوقكم كاسد وبيعكم فاسد وجاركم حاسد ومأواكم النار ( فعليكم ) أي الزموا ( بالقوت ) أي بما يقتات به في إقامة البنية دون الفضول (ولقد بلغني عن وهب بن الورد) بن أبي الورد المخزومي مولاهم المكي ويقال اسمه عبد الوهاب ووهيب لقب له وكنيته أبو عثمان ويقال أبو أمية روى عن عطاء مرسلا وعن عمر ابن محمد بن المنكدر روى عنه عبدالله بن المبارك وعمارة بن القعقاع ومحمد بن يزيد بن خنبش وقال يحيى بن معين هو ثقة وقال أبو حاتم كان من العباد وكانت له أحاديث ومواعظ وزهد وكان سفيان الثوري إذا حدث الناس وفرغ من حديثهم قال قوموا بنا إلى الطبيب يعني وهيبا توفي سنة ثلاث وخمسين ومائة روى له مسلم كذا نقله العلامة عبد الحق عن تهذيب الأسماء ( رحمه الله أنه كان يجوع نفسه يوما أو يومين أو ثلاثة) من الأيام ( ثم يأخذ ) ابن الورد ( رغيفا ويقول اللهم إنك تعلم أني لا أقوى ) أي ليس لي قوة في [محيط المحيط] قوي يقوى قوة ضد ضعف فهو قوي وقوي على الأمر طاقه وليس به قوة أي طاقة (علي العبادة وأخشى الضعف ) أي ضعف بدني عن القيام على العبادة

وَإِلاَّ لَمْ آكُلْهُ ، اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ خَبَثٍ أَوْ حَرَامٍ فَلاَ تُؤَاخِذْنِي بِهِ ، ثُمَّ يَبُلُّ الرَّغِيفَ فِي الْمَاءِ فَيَأْكُلُهُ .

قُلْتُ : فَهٰذَانِ الطَّرِيقَانِ لِلطَّبَقَةِ الْعُلْيَا مِنْ أَهْلِ الْوَرَعِ فِيمَا نَعْلَمُهُ ؛ وَأَمَّا مَنْ دُونَهُمْ فَلَهُمْ احْتِيَاطٌ وَبَحْثٌ عَلَى مِقْدَارٍ ، وَلَهُمْ أَيْضاً نَصِيبٌ مِنَ الْوَرَعِ عَلَى مِقْدَارٍ ، وَبِقَدْرِ مَا تَتَعَنَّى تَنَالُ مَا تَتَمَنَّى ، وَاللهُ تَعَالَى لاَ يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ .

فَإِنْ قِيلَ : فَهٰذَا جَانِبُ الْحَرَامِ فَأَخْبِرْنَا عَنْ جَانِبِ الْحَلاَلِ ، وَمَا حَدُّ الْفُضُولِ الَّذِي يَلْزَمُ مِنْهُ الْحَبْسُ وَالْحِسَابُ، وَمَا الْمِقْدَارُ الَّذِي إِذَا أَخَذَهُ الْعَبْدُ يَكُونُ ذٰلِكَ أَدَباً، وَلاَ يَكُونُ فُضُولاً وَلاَ عَلَيْهِ فِيهِ حَبْسٌ وَلاَ حِسَاب

يُقَالُ لَهُ فَاعْلَمْ أَنَّ أَحْوَالَ الْمُبَاحِ

---

( وإلا ) أى إن لم أخش الضعف ( لم آكله ) أى هذا الرغيف بل أتركه وأكله مع قوله ذلك هو المسمى بالأكل فى حال العذر مع ذكر الحجة وهو خير وحسنة وأدب كما يأتى فى مبحث المباح للمصنف رحمه الله تعالى ( اللهم إن كان فيه ) أى فى هذا الرغيف ( شىء من خبث ) أى شبهة ( أو حرام فلا تؤاخذنى ) أى لا تعاقبنى ( به ) أى بسبب الشىء الذى فى هذا الرغيف من الخبث والحرام ( ثم يبل ) من باب رد أى ابن الورد بعد دعائه ( الرغيف بالماء فيأكله . قلت فهذان الطريقان ) أى طريق احتمال الشدائد والصبر عليها وسلوك طريق أولئك السابقين إلى الجبل وغيره وطريق الإقامة بين الناس والأكل مما يتداولونه فى أيديهم بالأخذ على مقدار ما يبلغه إلى الطاعة ( للطبقة العليا من أهل الورع فيما نعلمه وأما من دونهم ) أى دون الطبقة العليا فى الرتبة ( فلهم ) أى لمن دونهم ( احتياط وبحث على مقدار ) أى قدر من مراتبهم ( ولهم أيضا ) أى كالطبقة العليا ( نصيب ) وحظ ( من الورع على مقدار ) أى قدر احتياطهم وبحثهم ( وبقدر ما تتعنى ) أى تتعب ( تنال ما تتمنى ) أى ما ترجوه ( والله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا ) أى لا يترك أعمالهم تذهب ضياعا بل يجازيهم بأعمالهم الصالحة ( وهو عليم بما يفعلون . فإن قيل فهذا ) أى الذى ذكرته بقولك ثم اعلم ما هو الأصل فى هذا الباب ( جانب الحرام فأخبرنا عن جانب الحلال و ) أخبرنا ( ما حد الفضول الذى يلزم منه ) أى من أخذ الفضول ( الحبس والحساب وما المقدار الذى إذا أخذه ) أى ذلك المقدار ( العبد يكون ذلك ) أى أخذ المقدار ( أدبا ولا يكون ) أخذه ( فضولا ولا عليه ) أى العبد ( فيه ) أى فى أخذه ذلك ( حبس ولا حساب يقال ) فى الجواب ( له ) أى للقائل المذكور ( فاعلم أن أحوال المباح

فى الْجُمْلَةِ ثَلاثَةُ أَقْسامٍ ، أَحَدُهَا : أَنْ يَأْخُــذَهُ الْعَبْدُ مُفَاخِرًا مُكَاثِرًا مُباهِيًا مُرَائِيًا فَيَكُونُ الْأَخْذُ مِنْهُ فِعلاً مُنْكَرًا يَسْتَوْجِبُ عَلَى ظَاهِرِ فِعْلِهِ الْحَبْسَ وَالْحِسَابَ وَاللَّوْمَ وَالتَّعْيِيرَ وَهُوَ مُنْكَرٌ وَشَرٌّ يَسْتَوْجِبُ عَلَى بَاطِنِ فِعْلِهِ وَهُوَ التَّكَاثُرُ وَالتَّفَاخُرُ عَذَابَ النَّارِ ، وَذَلِكَ الْقَصْدُ مِنْهُ مَعْصِيَةٌ وَذَنْبٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ( إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ، إِلَى قَوْلِهِ وَفِى الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ) .

---

فى الجملة ثلاثة أقسام أحدها أن يأخذه ) أى المباح ( العبد مفاخرا ) على الفقراء ( مكاثرا ) أى طالبا كثرة المال (مباهيا ) أى مفاخرا على الأقران ( مرائيا فيكون الأخذ ) أى أخذ العبد ( منه ) أي من المباح ( فعلا منكرا ) ينكره الشرع ( يستوجب على ظاهر فعله ) أى المباح ( الحبس والحساب واللوم والتعيير وهو ) أى ظاهر الفعل الذى يستوجب ما ذكر ( منكر وشر يستوجب على باطن فعله ) أى المباح ( وهو ) أى باطن الفعل ( التكاثر ) للأموال ( والتفاخر ) أى التباهي على الغير ( عذاب النار ) بالنصب مفعول يستوجب ( وذلك القصد )أى قصد التفاخر والتكاثر والمباهاة والرياء في أخذ المباح (منه) أى من العبد (معصية وذنب لقوله تعالى) اعلموا (أنما الحياة الدنيا) أى مدة الحياة فى هذه الدار الدنيا وإنما أراد من صرف حياته فى غير طاعة الله فحياته مذمومة ومن صرف حياته فى طاعة الله فحياته خير كلها ثم وصفها بقوله ( لعب ) أى باطل لا حاصل له كلعب الصبيان (ولهو) أى فرح ساعة ثم ينقضى عن قريب (وزينة) أى منظر يتزينون به وقوله تعالى « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو» أى باطل وغرور لا بقاء لها وهل المراد بهذه الحياة حياة المؤمن والكافر قولان أحدهما أن المراد بها حياة الكافر لأن المؤمن لا يزداد بحياته فى الدنيا إلا خيرا لأنه يحصل فى أيام حياته من الأعمال الصالحة والطاعة ما يكون سببا لحصول السعادة فى الآخرة، وأما الكافر فان كل حياته فى الدنيا وبال عليه قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد حياة أهل الشرك والنفاق والقول الثاني أن هذا عام فى حياة المؤمن والكافر لأن الإنسان يلتذ باللعب واللهو ثم عند انقضائه تحصل له الحسرة والندامة لأن الذى كان فيه من اللعب واللهو سريع الزوال لا بقاء له فبان بهذا التقرير أن المراد بهذه الحياة حياة المؤمن والكافر وأنه عام فيهما وإنما شبه الحياة الدنيا باللعب واللهو لسرعة زوالها وقصر عمرها كالشىء الذى يلعب به وقيل معناه أن أمر الدنيا والعمل لها لعب ولهو فأما فعل الخير والعمل الصالح فهو من فعل الآخرة وإن كان وقوعه فى الدنيا كذا ذكره الخازن ( إلى قوله ) تعالى (وفى الآخرة عذاب شديد) أى لمن كانت حياته بهذه الصفة قال أهل المعانى زهد الله بهذه الآية فى العمل للدنيا وهذه صفة حياة الكافرين وحياة من يشتغل باللعب واللهو وأول الآية « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد».

وَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلَالًا مُبَاهِيًا مُكَاثِرًا مُفَاخِرًا مُرَائِيًا لَقِيَ اللهُ تَعَالَى وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ » فَالْوَعِيدُ عَلَى قَصْدِهِ ذَلِكَ بِقَلْبِهِ .

وَالْقِسْمُ الثَّانِي : أَنْ يَأْخُذَ الْحَلَالَ لِشَهْوَةِ نَفْسِهِ لَا غَيْرُ ، فَذَلِكَ مِنْهُ شَرٌّ يَسْتَوْجِبُ عَلَيْهِ الْحَبْسَ وَالْحِسَابَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ( ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ) .

---

(وقال النبي عليه ) الصلاة و (السلام من طلب الدنيا حلالا) أى فضلا أن يطلب حراما (مباهيا) على غيره (مكاثرا) حال كونه طالبا كثرة المال لا حسن الحال ولا صرفه فى تحسين المآل (مفاخرا) أى على الفقراء كما هو دأب الأغنياء من الأغبياء (مرائيا) إن فرض عنه صدور خير أو عطاء (لقى الله تعالى و هو) جل وعز (عليه) أى على الطالب بالصفات المذكورة (غضبان) رواه أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (فالوعيد) فى هذا الخبر إنما هو (على قصده) أى الطالب المذكور (ذلك) أى المباهاة والتكاثر وغيرهما (بقلبه. والقسم الثانى أن يأخذ الحلال لشهوة نفسه) أى العبد (لا غير) بالضم أى لا يأخذ الحلال لغير شهوة نفسه بل يأخذ لشهواتها ( فذلك ) أى الأخذ بهذ القصد (منه) أى من الآخذ (شر يستوجب عليه) أى على الآخذ (الحبس والحساب لقوله تعالى: ثم لتسألن ) حذف منه نون الرفع لتوالى النونات وواو ضمير الجمع لا التقاء الساكنين ( يومئذ ) يوم رؤية الجحيم (عن النعيم) الذى ألهاكم والخطاب مخصوص بكل من ألهاه دنياه عن دينه والنعيم مخصوص بما يشغله للقرينة والنصوص الكثيرة كقوله « قل من حرم زينة الله — كلوا من الطيبات » وقيل الآية مخصوصة بالكفار كما فى البيضاوى وقيل إن هذا السؤال يعم الكافر والمؤمن وهو الأولى لكن سؤال الكافر توبيخ وتقريع لأنه ترك شكر ما أنعم الله به عليه والمؤمن يسئل سؤال تشريف وتكريم لأنه شكر ما أنعم الله به عليه وأطاع ربه فيكون السؤال فى حقه تذكرة بنعم الله عليه يدل على ذلك ما روى عن الزبير قال لما نزلت «ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم» قال الزبير يارسول الله وأى نعيم نسئل عنه وإنما هما الأسودان التمر والماء قال «أما إنه سيكون» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن واختلفوا فى النعيم الذى يسئل العبد عنه فروى عن ابن مسعود رفعه قال «لتسئلن يومئذ عن النعيم قال الأمن والصحة» وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أول ما يسئل عنه العبد يوم القيامة من النعيم فيقال له ألم نصح لك جسمك ونروك من الماء البارد» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وروى مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم أو ليلة فاذا هو بأبي بكر وعمر فقال صلى الله عليه وسلم: ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ قالا الجوع يارسول الله قال وأنا والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما فقوموا فقاموا فأتى رجلا من الأنصار فاذا هو ليس فى بيته فلما رأته المرأة قالت مرحبا وأهلا فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أين فلان قالت ذهب يستعذب لنا الماء إذ جاء الأنصارى فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ثم قال الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافا منى قال فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال كلوا وأخذ المدية فقال

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « حَلاَلُهَا حِسَابٌ » .

وَالْقِسْمُ الثَّالِثُ : أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الْحَلَالِ فِى حَالِ الْعُذْرِ قَدْرًا يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى وَيَقْتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ فَذَلِكَ مِنْهُ خَيْرٌ وَحَسَنَةٌ وَأَدَبٌ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ وَلَا عِقَابَ بَلْ يَسْتَوْجِبُ عَلَيْهِ الْأَجْرَ وَالْمِدْحَةَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ( أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ) وَقَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلَالاً اسْتِعْفَافًا عَنِ الْمَسْئَلَةِ وَتَعَطُّفًا عَلَى جَارِهِ وَسَعْيًا عَلَى عِيَالِهِ

---

له رسول الله صلي الله عليه وسلم إياك والحلوب فذبح لهم شاة فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا فلما شبعوا ورووا قال رسول الله صلي الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر والذى نفسى بيده لتسئلن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم» وأخرجه الترمذى بأطول من هذا وفيه «ظل بارد ورطب طيب وماء بارد» وروى عن ابن عباس قال النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار يسأل الله العبيد يوم القيامة فيما استعملوها وهو أعلم بذلك منهم وقيل يسأل عن الصحة والفراغ والمال روى البخارى عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ» وقيل الذى يسئل العبد عنه هو القدر الزائد على مايحتاج إليه فانه لابد لكل أحد من مطعم ومشرب وملبس ومسكن وقيل يسئل عن تخفيف الشرائع وتيسير القرآن وقيل عن الإسلام فانه أكبر النعم وقيل يسئل عما أنعم به عليكم وهو محمد صلى الله عليه وسلم الذى أنقذكم به من الضلال إلي الهدى والنور وامتن به عليكم (وقال) النبى (عليه الصلاة والسلام حلالها) أى الدنيا (حساب) رواه ابن أبى الدنيا والبيهقي فى الشعب من طريقه موقوفا علي على بن أبى طالب وآخرها وحرامها النار (والقسم الثالث أن يأخذ) أى العبد (من الحلال فى حال العذر قدرا يستعين به) أى بهذا القدر المأخوذ (علي عبادة الله تعالي و) أن (يقتصر على ذلك) القدر الذى أخذه ولا يزيد عليه (فذلك) الأخذ (منه) أى من العبد (خير وحسنة وأدب لاحساب عليه) أى على العبد فى أخذه المذكور (ولا عقاب بل يستوجب) أخذه ذلك (عليه الأجر والمدحة) أى أحسن الثناء فى القاموس مدحه كمنعه مدحا ومدحة أحسن الثناء عليه (لقوله تعالى) «ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» (أولئك) أى الداعون بالحسنتين (لهم نصيب) حظ وافر فى الجنة (مما كسبوا) أى من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة وهو الثواب الذي هو النافع الحسنة أو من أجل ما كسبوا وسمى الدعاء كسبا لأنه من الأعمال والأعمال موصوفة بالكسب كذا ذكره النسفي (وقال) رسول الله (صلي الله عليه وسلم: من طلب الدنيا حلالا ) أى حال كون المطلوب حلالا (استعفافا) أي لأجل طلب العفة (عن المسئلة) أى من سؤال مخلوق مثله (وتعطفا) أى ترحما وتلطفا (علي جاره) من الفقراء فى تحسين حاله بما يكون زائدا لديه (وسعيا علي عياله ) من زوجته وأطفاله ومن يجب عليه مؤنته

جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ » وَذٰلِكَ لِمَا قَصَدَ بِهِ هٰذَا الْمَقْصُودَ الْمَحْمُودَ لِلّٰهِ سُبْحَانَهُ فَهٰذِهِ هٰذِهِ فَاعْلَمْهَا .

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا شَرْطُ الْمُبَاحِ حَتَّى يَصِيرَ خَيْرًا وَحَسَنَةً كَمَا ذَكَرْتُمْ ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَحْتَاجُ فِي كَوْنِهِ خَيْرًا فِي الْأَصْلِ إِلَى شَرْطَيْنِ :

---

(جاء يوم القيامة ووجهه) أي والحال أن وجهه من جهة كمال النور وغاية السرور (كالقمر ليلة البدر) قيد به لأنه وقت كماله قال بعض المحققين وإن لم يكن في ليلة أربع عشرة وقولهم البدر هو القمر ليلة أربع عشرة تقريبي قال العراقي وهذا الحديث رواه أبو الشيخ في الثواب وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة بسند ضعيف انتهى قال الزبيدي أورده أبو نعيم في ترجمة ابن السماك عن الثوري عن الحجاج بن فرافصة عن مكحول عن أبي هريرة بلفظ «من طلب الدنيا حلالا استعفافا عن المسئلة وسعيا على العلم وتلطفا على جاره بعثه الله يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر ومن طلب الدنيا حلالا مكاثرا بها مفاخرا لقي الله وهو عليه غضبان» ثم قال غريب من حديث مكحول لا أعلم له راويا عنه إلا الحجاج وهو عند الخطيب والديلمي بلفظ « من طلب مكسبه من مال حلال يكف به وجهه عن مسئلة الناس وولده وعياله جاء يوم القيامة مع النبيين والصديقين هكذا وأشار بأصبعه السبابة والوسطى » وكان صلى الله عليه وسلم جالسا مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة وقد بكر يسعى فقالوا ويح هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم «لا تقولوا هذا فانه إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان » رواه الطبراني من حديث كعب بن عجرة ( وذلك ) أي حصول الثواب الذي هو كمال النور وغاية السرور ( لما قصد ) أي طالب الحلال (به) أي بطلبه الحلال وأخذه ( هذا المقصود ) وهو الاستعفاف عن المسئلة والتعطف على الجار والسعي على العيال ( المحمود لله سبحانه ) وتعالى ( فهذه ) الجملة التي هي أقسام أحوال المباح ( هذه ) أي عظيمة ( فاعلمها ) أي هذه الجملة وتأملها تجد ماينشرح به صدرك إن شاء الله تعالى ( فإن قيل فما شرط المباح حتى يصير خيرا وحسنة ) يثاب عليها ( كما ذكرتم) في القسم الثالث ( فاعلم أنه) أي الحال والشأن ( يحتاج في كونه ) أي المباح (خيرا) وحسنة ( في الأصل إلى شرطين ) وإنما احتاج إلى هذين لأن المباح من حيث وصفه بالاباحة خص باستواء فعله وتركه على السواء بأن أذن الشارع في فعله وتركه على السواء من غير ترجيح أحدهما على الآخر باقتضاء مدح أو ذم كما قال بعضهم :

وخص مايباح باستواء   الفعل والترك على السواء

أَحَدُهُمَا : الْحَالُ ، وَالثَّانِي : الْقَصْدُ ؛ فَالْحَالُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي حَالِ عُذْرٍ ، وَهُوَ بِحَيْثُ إِنْ لَمْ يَأْخُذْهُ تُؤْخَذْ نَفْسُهُ ، وَتَفْسِيرُهُ أَنْ يَكُونَ حَالُهُ إِنْ لَمْ يُؤْخَذْ ذَلِكَ الْمُبَاحُ يَنْقَطِعُ لِسَبَبِهِ عَنْ فَرْضٍ أَوْ سُنَّةٍ أَوْ نَفْلٍ فَيَكُونُ ذَلِكَ أَفْضَلَ مِنْ تَرْكِ الْمُبَاحِ فَإِنَّ تَرْكَ مُبَاحِ الدُّنْيَا فَضِيلَةٌ ، فَإِذَا كَانَ الْحَالُ كَذَلِكَ فَهُوَ حَالُ الْعُذْرِ ، وَأَمَّا الْقَصْدُ فَهُوَ أَنْ يَقْصِدَ بِهِ الْعُدَّةَ وَالِاسْتِعَانَةَ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ ، وَهُوَ أَنْ يَذْكُرَ بِقَلْبِهِ أَنَّهُ لَوْلَا مَا فِيهِ مِنَ التَّوَصُّلِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ لَمَا أَخَذْتُ ذَلِكَ، فَهَذَا ذِكْرُ الْحُجَّةِ فَلَمَّا حَصَلَ ذِكْرُ الْحُجَّةِ فِي حَالِ الْعُذْرِ صَارَ ذَلِكَ الْأَخْذُ مِنَ الدُّنْيَا لِلْحَلَالِ خَيْرًا وَحَسَنَةً وَأَدَبًا ، وَأَمَّا لَوْ كَانَ حَالُهُ حَالَ الْعُذْرِ وَلَا يَكُونُ لَهُ هَذَا الْقَصْدُ وَالذِّكْرُ ، أَوْ يَكُونُ لَهُ هَذَا الْقَصْدُ وَالذِّكْرُ ، وَلَا يَكُونُ فِي حَالِ الْعُذْرِ فَلَا يَصِيرُ ذَلِكَ الْأَخْذُ مِنْ جُمْلَةِ الْخَيْرَاتِ ، ثُمَّ الِاسْتِقَامَةُ عَلَى حِفْظِ هَذَا الْأَدَبِ تَحْتَاجُ إِلَى بَصِيرَةٍ وَقَصْدٍ مُجْمَلٍ بِأَنَّهُ

---

( أحدهما الحال والثانى والقصد فالحال يجب أن يكون فى حال عذر وهو ) أى حال العذر ( بحيث إن لم يأخذه ) أى لم يأخذ العبد ذلك المباح ( توخذ نفسه ) وفى نسخة يؤاخذ عند الله ( وتفسيره ) أى بيان قولنا بحيث إن لم يأخذه توخذ نفسه ( أن يكون حاله ) أى العبد ( إن لم يأخذ ذلك المباح ينقطع بسببه ) أى عدم أخذه للمباح ( عن فرض أو سنة أو نفل ) هما مترادفان ( فيكون ذلك ) أى أخذ المباح ( أفضل من ترك المباح فإن ترك مباح الدنيا فضيلة فإذا كان الحال كذلك ) أى الانقطاع عن الفرض والنفل إن لم يأخذ ذلك المباح ( فهو ) أى هذا الحال ( حال العذر، وأما القصد فهو أن يقصد ) العبد ( به ) أى بأخذ المباح ( العدة ) بضم العين أى الاستعداد ( والاستعانة على عبادة الله سبحانه ) وتعالى ( وهو) أى قصد العدة والاستعانة ( أن يذكر ) العبد ( بقلبه أنه ) أى الشأن ( لولا مافيه ) أي فى أخذ المباح ( من التوصل إلى عبادة الله سبحانه لما أخذت ذلك ) أى ليس لى أن آخذ ذلك المباح ( فهذا ) الذكر ( ذكر الحجة فلما حصل ذكر الحجة) بقلبه ( فى حال العذر صار ذلك الأخذ من الدنيا للحلال خيرا وحسنة وأدبا ، وأما لوكان حاله ) أي العبد ( حال العذر و) لـكن ( لايكون ) أى لايوجد ( له هذا القصد ) أى قصد الاستعداد والاستعانة على العبادة ( والذكر ) أى للحجة بالقلب ( أو يكون له ) أى للعبد ( هـذا القصد والذكر و ) لـكن ( لايكون ) حاله (فى حال العذر فلا يصير ذلك الأخذ) من الدنيا للحلال ( من جملة الخيرات ) التي يثاب عليها (ثم الاستقامة على حفظ هذا الأدب ) أى أدب أخذ الحلال ( تحتاج ) أى الاستقامة على ذلك ( إلى بصيرة ) أي علم وخبرة (و) إلى ( قصد مجمل ) من غير تفصيل وذلك ( بأنه ) أى العبد

لاَ يَأْخُذُ مِنَ الدُّنْيَا بِحَالٍ إِلاَّ لِلْعُدَّةِ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ تعالى حَتى إِنَّهُ إِنْ سَهَا عَنْ ذِكْرِ الْحُجَّةِ فِي حَالِ أَجْزَأَهُ ذَلِكَ الْقَصْدُ الْمُجْمَلُ عَنْ تَجْدِيدِ ذِكْرِ الْحُجَّةِ . قالَ شَيْخُنا رَحِمَهُ اللهُ : فَصَارَتِ الْأُمُورُ الثَّلاَثَةُ مُعْتَبَرَةً فِيهِ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْ وَجْهٍ ، يَعْنِي أَنَّ الذِّكْرَ وَالْحَالَ مُعْتَبَرَانِ فِي حُصُولِ كَوْنِهِ خَيْرًا أَصْلاً ، وَالْقَصْدُ الْمُجْمَلُ الْمُقْتَضِي عَنْ بَصِيرَةٍ بِمَنْزِلَةِ الْأَدَبِ مُعْتَبَرٌ فِي الِاسْتِقَامَةِ عَلَيْهِ ، فَافْهَمْ ذَلِكَ رَاشِدًا .

فَإِنْ قِيلَ : فَإِنْ أَخَذَ مِنَ الدُّنْيَا الْحَلاَلَ بِشَهْوَةٍ فَهَلْ يَكُونُ ذَلِكَ مَعْصِيَةً ، وَهَلْ يَلْزَمُ عَلَيْهِ عَذَابٌ ، وَهَلِ الْأَخْذُ بِالْعُذْرِ فَرْضٌ أَمْ لاَ ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ فَضِيلَةٌ وَنُسَمِّيهِ خَيْرًا وَحَسَنَةً ، وَالْأَمْرُ بِهِ أَمْرُ تَأْدِيبٍ ، وَالْأَخْذُ بِالشَّهَوَاتِ شَرٌّ وَسَيِّئَةٌ ، وَالنَّهْيُ عَنْهُ نَهْيُ زَجْرٍ وَأَدَبٍ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِمَعْصِيَةٍ ، وَلاَ يَكُونُ عَلَيْهِ عَذَابُ النَّارِ ، وَإِنَّمَا عَلَيْهِ الْحَبْسُ وَالْحِسَابُ وَاللَّوْمُ وَالتَّعْيِيرُ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا هَذَا الْحَبْسُ وَالْحِسَابُ اللَّذَانِ يَلْزَمَانِ الْعَبْدَ .

---

( لا يأخذ من الدنيا بحال إلا للعدة ) والاستعانة ( على عبادة الله تعالى حتى إنه إن سها ) أى غفل ( عن ذكر الحجة فى حال أجزأه ) أى كفاه ( ذلك القصد المجمل عن تجديد ذكر الحجة . قال شيخنا ) أبو بكر الوراق ( رحمه الله فصارت الأمور الثلاثة ) أى الحال والقصد والبصيرة ( معتبرة فيه ) أي فى أخذ المباح ( كل واحد ) منها ( من وجه ) قال المصنف رحمه الله ( يعنى ) أى يريد شيخنا بذلك ( أن الذكر ) أى ذكر الحجة ( والحال ) أى حال العذر ( معتبران فى حصول كونه ) أى الأخذ ( خيرا أصلا ) أى فى الأصل ( والقصد المجمل المقتضى ) أى الطالب ( عن بصيرة بمنزلة الأدب معتبر فى الاستقامة عليه ) أى على الأخذ ( فافهم ذلك ) المذكور من صيرورة الأمور الثلاثة معتبرة فى الأخذ بالعذر ( راشدا ) إن شاء الله تعالى ( فإن قيل فإن أخذ ) العبد ( من الدنيا الحلال بشهوة ) أى شهوة نفسه ( فهل يكون ذلك ) أى أخذ الحلال بالشهوة ( معصية ) يعاقب عليها ( وهل يلزم عليه ) أى على الأخذ ( عذاب وهل الأخذ ) أى أخذ الحلال من الدنيا ( بالعذر فرض أم لا ) يكون عذرا ( فاعلم أن ذلك ) أى الأخذ بالعذر ( فضيلة ونسميه خيرا وحسنة والأمر به ) أى أخذ المباح بالعذر ( أمر تأديب والأخذ بالشهوات ) أى بما تشتهيه النفس ( شر وسيئة والنهى عنه ) أى عن الأخذ بالشهوات ( نهى زجر وأدب وليس ذلك ) أى الأخذ بالشهوات ( بمعصية ولا يكون عليه ) أى العبد الآخذ بماذكر ( عذاب النار وإنما عليه الحبس والحساب واللوم ) أى العذل ( والتعيير ) أى التوبيخ ( فإن قلت: فما هذا الحبس والحساب اللذان يلزمان العبد .

## فاعْلَمْ أَنَّ الْحِسَابَ أَنْ تُسْأَلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّاذَا اكْتَسَبْتَ، وَفِيمَاذَا أَنْفَقْتَ، وَمَاذَا أَرَدْتَ بِذَلِكَ؟

فاعلم) أرشدك الله (أن الحساب أن تسئل يوم القيامة عماذا اكتسبت وفيماذا أنفقت وماذا أردت بذلك) أي بالاكتساب والإنفاق وبالجملة أنك تسئل عن القليل والكثير والنقير والقطمير والجليل والحقير روى الترمذي مرفوعا « أول مايسئل عنه العبد يوم القيامة أن يقال له ألم نصح لك جسمك ونروك من الماء البارد » وروى أبو نعيم مرفوعا « ما من عبد خطا خطوة إلا يسئل عنها ماأراد بها » وروى مسلم مرفوعا « لايزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسئل عن أربع عن عمره فيم أفناه وعن جسده فيم أبلاه وعن عمله فيم عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه » زاد في رواية « وفيم أنفقه » وروى عن عمر رضى الله عنه مرفوعا قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا كان يوم القيامة يأتي الله تعالى بعبد من عبيده فيوقفه بين يديه ويسأله عن جاهه كما يسأله عن عمله وعلمه » وروى مسلم مرفوعا « يدني الله تعالى المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه أي ستره وكرمه وملاطفته فيقرره بذنوبه فيقول أتعرف ذنب كذا في يوم كذا فيقول أعرف فيقول الله عز وجل أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى صحيفة حسناته وأما الكافر والمنافق فينادى عليهم على رءوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » وكان علي بن أبي طالب رضى الله عنه يقول « إذا كان يوم القيامة يختلي الله عز وجل بعبده المؤمن فيوقفه على ذنوبه ذنبا ذنبا ثم يغفر له لايطلع على ذلك ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ويستر عليه من ذنوبه مايكره أن يوقف عليه ثم يقول لسيئاته كوني حسنات » ويقول علي رضى الله عنه سمعت ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى مسلم ذلك بمعناه وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول « يدنى الله تعالى العبد منه يوم القيامة ويضع عليه كنفه ويستره عن الخلائق كلها ويدفع إليه كتابه في ذلك الستر يقول له يا ابن آدم اقرأ كتابك قال فيمر بالحسنة فيبيض بها وجهه ويمر بالسيئة فيسود بها وجهه فيقول الله عز وجل أنا أعرف بها منك قد غفرتها لك فلا يزال يسجد بين يدى الله تعالى إذا قبلت له حسنة أو غفرت له سيئة ولايرى الخلائق منه إلا ذلك السجود حتى إن الخلائق ينادى بعضهم بعضا طوبى لهذا العبد لم يعص ربه قط ولا يدرون ماذا لقي فيما بينه وبين الله عز وجل حتى أوقفه بين يديه انتهى ». قال القرطبي ومثل هذا لايقال من قبل الرأي فهو في حكم المرفوع إن شاء الله تعالى وروى الحافظ أبو نعيم عن الامام عبد الرحمن الأوزاعي رحمه الله تعالى أنه كان يقول قد يغفر الله تعالى الذنوب ولكن لا يمحوها من الصحيفة حتي يوقف العبد عليها يوم القيامة وإن تاب منها وقال غيره إنما ذلك في ذنوب تاب منها قبل موته والله أعلم. وروى مسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه مرفوعا أنه قال « ما ستر الله على عبد ذنوبا في الدنيا إلا سترها عليه في الآخرة » ورواه غيره أيضا وفي صحيح مسلم مرفوعا عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه « من ستر على مسلم عورته في الدنيا ستر الله عورته يوم القيامة » واعلم أن الله تعالى يكلم العبد ليس بينه وبينه ترجمان وذلك لأنه كان [illegible] بحكم الإيمان فأكرمه الله تعالى بمناجاته في الآخرة على الكشف والشهود فيا سرور أهل الخير بذلك ويا حزن

أهل الشر حين يقع لهم التوبيخ والتقريع وروى البخارى والترمذى مرفوعا « مامنكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر عن يمينه فلا يرى إلا ما قدم وينظر عن شماله فلا يرى إلا ما قدم وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمره » وفى رواية «ولو بكلمة طيبة» . قال العلماء وقوله صلى الله عليه وسلم «ما منكم من أحد» خطاب للمؤمنين فإن الكافرين لا يكلمهم الله تعالى ولا ينظر إليهم كما وردت به السنة فهو مخصوص بالمؤمنين . قال القرطبي : فتفكروا أيها الإخوان في عظيم جناياتكم إذا ذكرتم ذنوبكم شفاها جوابا لسؤال ربكم إذا قال لأحدكم يا عبدى أما استحيت منى حين بارزتنى بالقبائح فليتك جعلتنى كآحاد العباد الذين كنت تستحى منهم حال عصيانك ألم أكن رقيبا على عينيك حين تنظر بهما إلى ما لا يحل لك ؟ ألم أكن رقيبا علي أذنيك حين سمعت بهما ما لا يحل لك ألم أكن رقيبا على لسانك حين تكلمت به مالا يحل لك؟ ألم أكن رقيبا على فرجك حين زنيت به وهكذا على جميع جوارحكم الظاهرة والباطنة لابد من سؤال العبد إذا حصلت المناقشة فإن اعترف ذاب لحم وجهه من الخجل والحياء من الله وإن أنكر وشهدت عليه الجوارح بما فعلت اشتد عليه الحال أكثر وأكثر فنعوذ بالله من الفضيحة على رءوس الأشهاد والعاقل من أكثر فى هذه الدار من الاستغفار فإنه يطفىء غضب الجبار بل لو استغفر العبد بقية عمره من ذنب واحد كان قليلا فكيف بمن لا يحصر ذنوبه ديوان مباشر فاعلموا ذلك أيها الإخوان وتداركوا أنفسكم بالاستغفار فقد قال الله تعالى « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » والحمد لله رب العالمين . واعلم أيضا أنه يجاء يوم القيامة لأجل القصاص من استطال فى حقوق الناس ولأجل حبسه لهم حتي ينتصفوا منه روى مسلم مرفوعا «لتؤدين الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتي يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» وروى البخارى مرفوعا «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو مال فليتحلل منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ودرهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذت من سيئات صاحبه فتحمل عليه » وروى مسلم مرفوعا « أتدرون من المفلس ؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولامتاع قال إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل انقضاء ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار» وروى مرفوعا « من مات وعليه دينار أو درهم قضى من حسناته يوم القيامة ليس ثم دينار ولا درهم » وروى مرفوعا « يحشر الله العباد وأومأ بيده إلى الشام فيناديهم بصوت يسمعه من بعد ومن قرب أنا الملك الديان فلا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عليه مظلمة حتي اللطمة ولا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولأحد من أهل الجنة عليه مظلمة حتى اللطمة فقالوا يارسول الله إنما نأتي لله حفاة عراة فقال بالحسنات والسيئات» وكان الربيع بن خثيم رحمه الله يقول: إن أهل الدين يوم القيامة أشد تقاضيا له منكم فى الدنيا يحبس أحدكم لهم حتى يأخذوا منه حقوقهم فيقول المديون يارب ألست ترانى عريانا حافيا فيقول تعالى خذوا من حسناته بقدر الذى لكم فإن لم تكن له حسنات قال زيدوا عليه من سيئاتكم . وفى الحديث مرفوعا « صاحب الدين مأسور يوم

القيامة بالدين » وفي الحديث « يقول الله عز وجل للملائكة خذوا من أعمال المديون الصالحة وأعطوا لكل إنسان بقدر مظلمته ، فإن كان المديون وليا لله عز وجل وفضل من حسناته مثقال حبة من خردل ضاعفها الحق تعالى له حتى يدخله بها الجنة ثم قرأ صلى الله عليه وسلم إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما وإن كان المديون عبدا شقيا قالت الملائكة يارب قد فنيت حسناته وبقي عليه مطالبون فيقول الله عز وجل للملائكة خذوا من أعمالهم فأضيفوها إلى سيآته وصكوا له صكا إلى النار » وفي الحديث أيضا مرفوعا « إنه ليكون للوالدين على ولدهما دين فإذا كان يوم القيامة يتعلقان به فيقول أنا ولدكم فيودان ويتمنيان لوكان أكثر من ذلك » وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول بلغنا أن الرجل يتعلق بالرجل يوم القيامة وهو لا يعرفه فيقول مالك وما بيني وبينك معرفة ولا معاملة فيقول إنك كنت تراني على المنكر والخطايا فلا تنهاني. فإن قال أحد من ضعفاء العقول كيف توضع سيئات العبد على ظهر من لم يعملها وقد قال تعالى « ولا تزر وازرة وزر أخرى » فالجواب أن الله تعالى هو صاحب الأحكام الشرعية فله أن يضعها حيث شاء وقد قال الله تعالى في آية أخرى « وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم » فإياكم والاعتراض على شيء من أحكام ربكم التي حكم بها والحمد لله رب العالمين ، والذي يجب عليكم أن تحاسبوا أنفسكم قبل يوم الحساب . قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : حاسبوا أنفسكم على أعمالكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزن عليكم . قال العلماء رضى الله عنهم حساب العبد نفسه أن يتوب من كل معصية فعلها قبل موته ويرد جميع المظالم إلى أهلها ويستحل كل من وقع في عرضه حتى تطيب نفسه فإذا حاسب نفسه كذلك دخل الجنة بغير حساب إن شاء الله تعالى، إذ الحساب لا يكون يوم القيامة إلا على ما فرط العبد فيه بترك المحاسبة. وكان الإمام الغزالي مصنف هذا الكتاب رحمه الله يقول كم من متعلق بأخيه يوم القيامة يقول يارب قد ذكرني في غيبتي بما يسوءني وكم ممن يقول يارب قد جاورني فأساء جواري وآذاني بلسانه وآذى أولادي بشم رائحة طعامه ولم يطعمهم منه شيئا وكم ممن يتعلق بأخيه يقول قد عاملتني فغشيتني وأخفيت عني عيب متاعك حين بعتني وكم ممن يتعلق بأخيه ويقول إنك رأيتني في اليوم الفلاني محتاجا وأنت غني فلم تعطني حاجتي وكم ممن يتعلق بأخيه يقول يارب قد استحقرني ورأى نفسه خيرا مني وكم ممن يقول لأخيه قد رأيتني مظلوما وكنت قادرا على رفع الظلم عني فلم تفعل فلا يزال المظلومون يتعلقون بمن ظلمهم من إخوانهم والظالم بين أيديهم ذليل خاضع من هول ذلك اليوم مبهوت متحير من كثرة أرباب الحقوق عليه محبوس عن دخول الجنة حتى ينتصفوا كلهم منه وهناك ينادى المنادي اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب . قال القرطبي سمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول: العاقل من أكثر من الأعمال الصالحة في هذه الدار وأخلص فيها ليصل في الدار الآخرة ويعطيها لأصحاب الحقوق التي عليه حتى يرضوا وإلا فلابد من طرح سيئات المظلومين على ظهر الظالم كما ثبت في الأحاديث وكان يقول ربما أكثر العبد من الأعمال الصالحة حتى صارت في عينه كالجبال وظن النجاة بها فنوقش فيها فطلعت كلها مخلوطة بالرياء فأحبطت فكان حكمه حكم من فتح مطلبا وأخذ منه جرابا يعتقده ذهبا ثم أتى به إلى داره ففتحه فاذا كله خنفس أو عذرة نسأل الله

وَالْحَبْسُ حَبْسٌ عَنِ الْجَنَّةِ مُدَّةَ الْحِسَابِ ، وَذٰلِكَ فِى عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ بَيْنَ أَهْوَالِهَا وَمَخَاوِفِهَا عُرْيَانًا عَطْشَانَ وَكَفَى بِذٰلِكَ بَلِيَّةً .

---

العافية وذكر الامام القشيرى فى شرحه المقسط الجامع أنه لو كان على العبد دانق وله عمل سبعين نبيا مادخل الجنة حتي يؤدى ذلك الدانق ، وذكر أنه يعطى لصاحب الدانق فى دانقه يوم القيامة سبعمائة صلاة مقبولة فلايرضيه ذلك وكانحجة الإسلام مصنف هذا الكتاب رحمه الله يقول لو تأمل العبد الصائم القائم فى عبادته طول الليل والنهار ورآها بعين الانصاف دون عين الاغترار لوجد ثوابها كلها قد لايرضي به واحد يوم القيامة فى مرور غيبة على خاطره إذا حكمه الله تعالى فيه لاسيما الأعداء والحاسدون . وكان رحمه الله يقول ربما يأتى العبد الصائم القائم فىعبادته طول الليل والنهار العالم العامل يوم القيامة فلا يجد فى صحيفته حسنة واحدة فيقول يارب أين ثواب أعمالى ؟ فيقول له نقلت إلى صحائف خصمائك كل يوم بيومه وربما يأتى العبد يوم القيامة فيعطى صحيفته فيجدها كلها سيئات فيقول يارب إنى لاأعلم أنى وقعت فى هذه السيئات فيقال له هذه سيئات خصومك الذين وقعت فى أعراضهم واحتقرتهم ورأيت نفسك أفضل منهم وظلمتهم فى المعاملة والمبايعة والمجاورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والمدارسة وسائر أصناف المعاملات. وكانالأستاذ أبوالقاسم القشيرى رحمه الله يقول بلغنا أن الملائكة تقول للبهائم والوحوش إذا حشروا : إن الله لم يحشركم لثواب ولا لعقاب وإنما حشركم لتشهدوا فضائح بنى آدم التي كانوا يخفونها عن الناس انتهى . نسأل الله تعالى أن يستر فضائحنا فىذلك اليوم آمين اللهم آمين . وقال أبو بكر بن العربي رحمه الله تؤخذ المظالم من جميع الأعمال إلا الصوم لقوله تعالى « الصوم لى وأنا أجزى به » لكن بشرط أن يكون غير معلوم لأحد من الخلق ولا مكتوبا فى الصحف فإن هذا هو الذى يستره الله عن العباد ويخبئه للعبد حتي يكون عليه جنة من العذاب فإذا طرح المظلومون سيئاتهم على هذا الظالم الصائم الذى لم يعلم أحد بصيامه وجدوا الصوم جنة عليه ولا تضره تلك السيئات . قال القرطبي وهو تأويلحسن وجمع بين الآيات والأخبار. وقد ورد فى الصحيح «إن الله تعالى يصلح بين عباده فى الآخرة ويرضى عنهم خصماءهم » كما ورد « أن الله تعالى يقول لمن شدد فى استقصاء حقه ولم يبق للظالم حسنة أرفع بصرك وانظر فينظر فإذا قصر من ذهب وبساتين فيقول يارب لمن هذا ؟ فيقول الحق جل وعلا لمن أعطى ثمنه فيقول ومن يقدر على ذلك ؟ فيقول له الحق تعالى أنت قال بماذا ؟ فيقول بعفوك عن أخيك قال يارب فإنى قد عفوت عنه فيقول خذ بيد أخيك وأدخله الجنة » قال العلماء رضى الله عنهم ويجب حمل هذا على من لم يرد الله أن يعذبه وأراد أن يعفو عنه ويرضى عنه خصماءه جمعا بين الأحاديث . قالالمصنف (والحبس حبس عن) دخول ( الجنة مدة الحساب وذلك) الحبس ( فىعرصات القيامة بين أهوالها ومخاوفها ) وشدائدها ( عريانا ) بلالباس ( عطشان وكفى بذلك) الباء زائدة أى كفىذلك الحبس مع تلكالأهوال والمخاوف (بلية) أى مصيبة : روى فى الآثار

« إن الله تعالى يحشر الأمم من الجن والإنس عراة أذلاء قد نزع الملك من ملوك أهل الأرض ولزمهم الذل والصغار بعد عزهم وتجبرهم على عباد الله فى أرضه ولم يعملوا بوصيته سبحانه وتعالى ثم أقبلت الوحوش من أماكنها منكسة رءوسها بعد توحشها من الخلائق وانفرادها فى البرارى والقفار ذليلة خاضعة من هول ذلك اليوم مع أنها ليس عليها خطيئة ولا وقعت فى ريبة ثم وقفت من وراء الخلق كلهم ذليلة منكسرة لخالقها ثم أقبلت الشياطين بعد عتوها خاضعة ذليلة للعرض على الديان فإذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامها تناثرت نجوم السماء من فوقها وطمست الشمس والقمر فأظلمت عليهم الدنيا وصارت سماء الدنيا من فوقهم فدارت بعظمها فوق رءوسهم والخلق كلهم ينظرون إلى تلك الأهوال فبينما هم كذلك إذا انشقت السماء بغلظها فوق رءوسهم وهى مسيرة خمسمائة عام حتى يقطع سمكها فياشدة هول صوت انشقاقها فى أسماع الخلائق ثم تمزقت وانفطرت من هول ذلك اليوم ثم ذابت حتى صارت كالفضة المذابة كما أشار إليه قوله تعالى « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » وقوله تعالى « يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن » أى كالصوف المنفوش وهو أضعف الصوف ثم هبطت الملائكة من حافتها إلى الأرض بالتقديس لربها فتفزع جميع الخلائق من شدة عظم أجسامهم وهول أصواتهم ومخافة من أن يكونوا أمروا بأخذ الخلائق إلى النار ثم يأخذون مصافهم محدقين بالخلائق منكسين رءوسهم لعظم هول ذلك اليوم ذليلين خاضعين لربهم وكذلك ملائكة السماء الثانية وما بعدها إلى السماء السابعة قد أضعف أهل كل سماء على أهل السماء التى بعدها فى العدد وكبر الأجسام والأصوات فإذا حضروا كلهم الموقف واجتمع أهل السموات السبع وأهل الأرضين السبع زاد حر الشمس مقدار حرها عشر سنين ثم أدنيت من الخلائق قاب قوس أو قوسين ولا ظل فى ذلك اليوم إلا ظل عرش الرحمن فمن الناس من يكون فى ظل العرش ومنهم من يكون فى ضح الشمس أى حرها قد صهرته واشتد منها كربه وأقلقته مع شدة ازدحام الأمم وتضايقها ودفع بعضها بعضا وانقطاع الأعناق من شدة العطش قد اجتمع عليهم فى ذلك الموقف حر الشمس ووهج أنفاسهم وتزاحم أجسامهم وفاض العرق منهم على وجه الأرض ثم على أقدامهم على قدر مراتبهم ومنازلهم عند ربهم من السعادة والشقاوة فمنهم من يبلغ العرق إلى منكبيه ومنهم من يبلغ إلى حقويه ومنهم من يبلغ شحمة أذنيه ومنهم من قد ألجمه العرق وكاد أن يغيب فيه » .

وروى عن الضحاك رضى الله عنه أنه قال « إذا كان يوم القيامة أمر الله سماء الدنيا فتشققت بأهلها فتكون الملائكة على حافاتها حتى يأمرها الرب بالنزول فينزلون إلى الأرض فيحيطون بالأرض ومن فيها ثم يأمر الله أهل السماء التى تليها فينزلون فيكونون صفا خلف ذلك الصف ثم السماء الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة ثم ينزل الملك الأعلى فى بهائه وجماله وملكه وبجنبته اليسرى جهنم فيسمعون زفيرها وشهيقها فلا يأتون قطرا من أقطارها إلا وجدوا صفوفا قياما من الملائكة فذلك قوله تعالى « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات

والأرض فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان » فالسلطان هو العدل فبينما هم كذلك إذ سمعوا المنادى للوقوف للحساب فأقبلوا إلى الحساب» نسأل الله تعالى اللطف . وذكر مصنفنا حجة الإسلام الغزالى في كتاب كشف علوم الآخرة أن الخلائق إذا اجتمعوا فى صعيد واحد من الأولين والآخرين أمر الله تعالى بملائكة سماء الدنيا فأحدقت من وراء الخلائق حلقة واحدة فاذاهم مثلهم عشر مرات ثم أمر بملائكة السماء الثانية أن يحدقوا بهم فإذا هم مثلهم عشرين مرة ثم أمر بملائكة السماء الثالثة أن يحدقوا بهم فإذا هم مثل ملائكة السماء الثانية ثلاثين مرة ثم أمر بملائكة السماء الرابعة أن يحدقوا بهم كذلك حلقة واحدة فإذا هم مثلهم أربع مرات ثم أمر بملائكة السماء الخامسة فإذا هم مثل ملائكة الرابعة خمسين مرة ثم بملائكة السادسة فإذا هم مثل ملائكة السماء الخامسة ستين مرة ثم بملائكة السماء السابعة فإذا هم مثل السادسة سبعين مرة حلقة واحدة على جميع من تقدم من خلق السموات والأرض وتزاحمت الخلائق فتدافعوا على بعضهم بعضا حتي يكون فوق القدم ألف قدم حتى يخوض الناس فى العرق . وفى حديث «لوأرسلت السفن فى عرق الخلائق فىذلك اليوم لجرت » كما جاءت به الأخبار . قال وربما يكون العرق على بعض المتقين يسيرا كالقاعد فى الحمام وربما يكون عليه بلة كالعطشان إذا شرب الماء . وكان بعض التابعين رضى الله عنه يقول : تدنو الشمس يوم القيامة من الخلائق حتى لو مد أحد يده لنالها ويضاعف حرها على قوم مقدار سبعين مرة من حرها الآن أيام الصيف وكان بعض السلف الصالح يقول : لو طلعت الشمس على الأرض كهيئتها يوم القيامة لأحرقت الأرض وذابت الجبال ونشفت الأنهار وصار الملوك فى الصغار والذل كالذر من دوسهم بأقدام الناس فليس المراد أن خلقهم يكون كهيئة الذر كما قد يتوهم إنما هم كالذر فى مذلتهم وانخفاض نفوسهم فعلى قدر ما تكبروا ذلوا وصغروا . قال المصنف الغزالي رحمه الله : وفى ذلك اليوم من كان من السعداء ومات له أولاد أطفال يخرجون له بكيزان من كيزان الجنة فيسقونه ماء باردا عذبا صافيا وقد رأى بعض الصالحين فى منامه أن القيامة قد قامت وكأنه فى الموقف عطشان والصبيان الصغار يسقون الناس . قال فقلت لهم ناولونى شربة فقال لى واحد منهم ألك فينا ولد ؟ فقلت لا قال ليس لك عندنا نصيب من هذا الماء . قال المصنف رحمه الله : وأما أهل الصدقات فيكونون فى ذلك اليوم تحت ظل صدقاتهم لايحسون بحر ذلك اليوم فلا يزالون كذلك ألف عام حتى إذا سمعوا نقر الناقور وجلت قلوب الخلائق وخشعت أبصارهم لعظيم نقرته وظنوا نزول العذاب بهم فبيناهم كذلك إذ برز لهم العرش العظيم تحمله ثمانية أملاك كما ذكر الله تعالى فى كتابه قدر كل ملك مسيرة عشرين ألف سنة ولهم زجل عظيم بالتسبيح لا تطيق العقول سماعه حتى يستقر العرش فى الأرض البيضاء التي خلقها الله تعالى يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات لاستقرار العرش فيها إذا جاء وفى ذلك الوقت تطرق الناس رءوسهم وتشفق البرايا كلهم من الأهوال وترعب أجساد الأنبياء ويكثر خوف العلماء العاملين وتفزع الأولياء والصديقون والشهداء والصالحون من عذاب الله فبينما هم كذلك إذ غشيهم نور حتى يغلب على نور الشمس التى كانوا فى حرها فلا يزالون يموجون بعضهم فى بعض ألف عام. هذا

والجليل جل جلاله لاينظر إليهم ولا يكلمهم كلمة واحدة فحينئذ يذهبون إلى آدم عليه الصلاة والسلام ثم إلى نبي بعد نبي يشفع لهم ويعتذر كل واحد من الأنبياء عن عدم تقدمه للشفاعة فلا يزالون كذلك ألف عام حتى ينتهي الأمر إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيقول: أنا لها كما هو مذكور في الصحيحين وفي ذلك اليوم تكور الشمس وتنكدر النجوم وتمور السماء فوق الخلائق مورا وتنفطر انفطارا من عظيم هول ذلك اليوم وتنشق بالغمام المنزل عليهم من فوقهم وتكشط السموات وتنزل الملائكة تنزيلا وتقوم الخلائق على أقدامهم من مقدار أربعين عاما إلى ثلثمائة عام في الظلمة التي دون الصراط المسمى في الحديث بالجسر . وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنهما تزدحم الخلائق يوم القيامة كازدحام النشاب في الجعبة، والسعيد في ذلك اليوم هو من يجد لقدمه موضعا يضعه عليه فإذا دعى الخلائق إلي الميزان كادت عقولهم تطير من الخوف فمن ثقلت موازينه نادى مناد ألا إن فلان ابن فلان ثقلت موازينه وسعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا، ومن خفت موازينه نادى منادٍ ألا إن فلان ابن فلان شقى شقاوة لا يسعد بعدها أبدا فإن المسلمين والمؤمنين من سائر الأمم في الجنان متفاوتون في المراتب والمنازل. وأما الكفار فلا تقام لهم موازين مطلقا وفي حديث مسلم مرفوعا «إن العرق يوم القيامة ليذهب في الأرض سبعين باعا وإنه يبلغ إلى أفواه الناس أى حتي يلجمهم» كما في رواية أخرى . وعن ابن عباس في قوله تعالى « يوم يقوم الناس لرب العالمين» قال يقومون في العرق في ذلك اليوم ألف عام . وروى الوائلي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوما « كيف بكم إذا جمعكم الله تعالى كالنشاب في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم» وذكر أبو الفرج بن الجوزى رحمه الله أن جبريل عليه السلام خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم من يوم القيامة حتى أبكاه فقال يا جبريل ألم يغفر الله لى ماتقدم من ذنبي وما تأخر فقال يامحمد لتشهدن من هول ذلك اليوم ماينسيك المغفرة انتهى. قال العلماء وإذا عرق الخلائق في ذلك اليوم من شدة حر الشمس كان كل واحد غارقا في عرقه لا يتعداه إلى من هو بجانبه كما لايمشى أحد في نور أحد يوم القيامة إنما نور كل إنسان على قدر نفسه وهذا من القدرة التي تكون في زمن الآيات يوم القيامة ، ونظير ذلك مايقع في الدنيا يكون المؤمن يمشى في نور إيمانه والكافر بجانبه في ظلمة كفره لا يناله من نور المؤمن شيء وكذلك البصير يمشى مع الأعمى ملاصقا لا يناله من نور بصره شيء فافهم . فإن قال قائل فمن أين يحصل ذلك العرق على كل من عرق في ذلك اليوم . فالجواب أنه يحصل عليه من عدم إخراجه في دار الدنيا في مرضاة الله تعالى من جهاد وحج وصيام وقيام وتردد في قضاء حوائج المسلمين وحفر الآبار والقبور لمصالح العباد ونحو ذلك فإذا كان يوم القيامة استخرجه الله منه في مواقف القيامة بواسطة ما يقع له من الحياء والخجل أو من الخوف والوجل. وقال سيدى علي الخواص رحمه الله إنما تعظم الأهوال على العبد يوم القيامة . لأجل تفريطه في عمل الخيرات هنا وكان حجة الإسلام يقول من سلم من الجهل والغرور علم أن تعب العرق وتحمل مصائب الدنيا أهون أمرا وأقصر زمنا من عرق الكرب والانتظار يوم القيامة . وقال أبو حازم رضى الله عنه لو نادى مناد من السماء ألا إن فلان بن فلان أمن من أهوال القيامة لكان الواجب عليه الخوف من دخول النار فنسأل الله تعالى من فضله

أن يلطف بنا فى ذلك اليوم ويحنن علينا من يأخذ بيدنا فى تلك الشدائد آمين . ومما ينجي العبد من أهوال يوم القيامة ويخفف عنه كربه العمل الصالح وإنظار المعسر أو وضعه، ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » وأخرج الترمذى فى نوادر الأصول عن عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه قال « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ونحن فى مسجد المدينة فقال : إنى رأيت البارحة عجبا رأيت رجلا من أمتى جاءه ملك ليقبض روحه فجاءه بدواء يداويه فرده عنه ورأيت رجلا من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوءه فاستنقذه من ذلك ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكرالله فخلصه من بينهم وفى رواية من أيديهم ورأيت رجلا من أمتى يلهث عطشا كلما ورد حوضا منع منه فجاءه صيامه فسقاه وأرواه ورأيت رجلا من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فخلصته من أيديهم ورأيت رجلا من أمتى والنبيون حلقا حلقا كلما دنا من حلقة طردوه فجاءه اغتساله من الجنابة فأجلسه إلي جنبي ورأيت رجلا من أمتى بين يديه ظلمة ومن تحته ظلمة وعن شماله ظلمة فبينما هو متحير فيها إذ جاءته حجته وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه فى النور ورأيت رجلا من أمتى يكلم المؤمنين فلا يكلمونه فجاءته صلة الرحم فقالت يا معشر المؤمنين كلموه فكلموه ورأيت رجلا من أمتى يتقى وهج النار وشررها بيده عن وجهه فجاءته صدقته فصارت سترا على وجهه وظلا على رأسه ورأيت رجلا من أمتى قد أخذته الزبانية من كل مكان فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذاه من أيديهم وأدخلاه مع ملائكة الرحمة ورأيت رجلا من أمتى جاثيا علي ركبتيه بينه وبين ربه حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده وأدخله على ربه ورأيت رجلا من أمتي قد خف ميزانه فجاءه أفراطه فثقلت موازينه ورأيت رجلا من أمتى قائما علي شفير جهنم فجاءه خوفه من الله فاستنقذه من ذلك ومضى ورأيت رجلا من أمتى قد هوى للنار فجاءته دموعه التى كان يبكيها من خشية الله فى الدنيا فاستخرجته من النار ورأيت رجلا من أمتىَ قائما على الصراط يزحف أحيانا ويحبو أحيانا ويتعلق أحيانا فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة » وروى مسلم مرفوعا « من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه » . وفى رواية لمسلم مرفوعا أيضا « من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله فى ظله » وكان أنس بن مالك رضى الله عنه يقول من أنظر مديونا فله بكل يوم عند الله وزن أحد ما لم يطالبه . وفى الحديث مرفوعا « من كسا عاريا أو آوى مسافرا أعاذه الله من أهوال يوم القيامة » . وأخرج الطبراني مرفوعا « من لقم أخاه لقمة حلواء صرف الله عنه مرارة الموقف فى القيامة » وروى الحافظ أبو نعيم مرفوعا « إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها صلاة ولا صيام ولا حج ولا عمرة قالوا وما يكفرها يا رسول الله ؟ قال الهموم فى طلب المعيشة » فاعلموا ذلك أيها الإخوان وحصلوا

فَإِنْ قِيلَ : فَإِذَا قَدْ أَحَلَّ اللهُ لَنَا هٰذَا الْحَلَالَ ، فَاللَّوْمُ وَالتَّعْيِيرُ فِى أَخْذِهِ لِمَاذَا ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّوْمَ وَالتَّعْيِيرَ لِتَرْكِهِ الْأَدَبَ كَمَنْ أُجْلِسَ عَلَى مَائِدَةِ الْمَلِكِ فَتَرَكَ الْأَدَبَ فَإِنَّهُ يُعَيَّرُ بِذٰلِكَ وَيُلَامُ ، وَإِنْ كَانَ الطَّعَامُ لَهُ مُبَاحًا فَالْأَصْلُ فِى هٰذَا الْبَابِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ الْعَبْدَ لِعِبَادَتِهِ ، وَهُوَ عَبْدٌ لِلّٰهِ تَعَالَى مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ، فَحَقٌّ لِلْعَبْدِ أَنْ يَعْبُدَ اللهَ تَعَالَى مِنْ وَجْهٍ يُمْكِنُهُ وَيَجْعَلَ أَفْعَالَهُ كُلَّهَا عِبَادَةً مِنْ أَىِّ وَجْهٍ أَمْكَنَهُ ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ وَآثَرَ شَهْوَةَ نَفْسِهِ وَاشْتَغَلَ بِذٰلِكَ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ مَعَ تَمَكُّنِهِ مِنْ ذٰلِكَ مِنْ غَيْرِ تَعَذُّرٍ ، وَالدَّارُ دَارُ خِدْمَةٍ وَعِبَادَةٍ ، لَا دَارُ تَنَعُّمٍ وَشَهْوَةٍ ، فَيَسْتَحِقُّ اللَّوْمَ بِذٰلِكَ وَالتَّعْيِيرَ مِنْ سَيِّدِهِ ؛ فَتَأَمَّلْ هٰذَا الْأَصْلَ رَاشِدًا وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِىِّ الْعَظِيمِ .

---

الزاد قبل يوم الميعاد وافعلوا هذه الخصال لتخفف عنكم الأهوال والله يتولى هداكم وهو يتولى الصالحين والحمد لله رب العالمين . ثم قال المصنف رحمه الله ( فإن قيل فإذا ) كان الأمر ( قد أحل الله لنا هذا الحلال فاللوم والتعيير فى أخذه ) أى الحلال ( لماذا ) أى لأى شىء كان ذلك ( فاعلم أن اللوم والتعيير لتركه ) أى ترك العبد فى أخذ ذلك الحلال ( الأدب ) وذلك ( كمن أجلس ) بالبناء للمفعول ( على مائدة الملك ) ليأكلها ( فترك الأدب فانه يعير بذلك ) أى بترك الأدب ( ويلام ) عليه ( وإن كان الطعام له ) أى لمن أجلس على المائدة ( مباحا فالأصل فى هذا الباب ) أى باب أخذ المباح ( أن الله تعالى خلق العبد لعبادته ) كما هو مذكور فى نص كتابه « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ( وهو عبد لله تعالى من كل وجه ) وفى كل حال ( فحق ) أى وجب ( للعبد أن يعبد الله تعالى من كل وجه يمكنه و ) أن ( يجعل أفعاله ) أى العبد ( كلها عبادة من أى وجه أمكنه فإن لم يفعل ) العبد ( ذلك ) أى الجعل المذكور ( وآثر ) أى اختار ( شهوة نفسه واشتغل بذلك ) أى بإيثار الشهوة واختيارها ( عن عبادة ربه مع تمكنه من ذلك ) أى العبادة ( من غير تعذر ، والدار ) أى والحال أن الدار التي هى الدنيا ( دار خدمة و ) دار (عبادة) لله تعالى (لا دار تنعم و) لا (شهوة فيستحق) أى العبد الذى آثر شهوته (اللوم بذلك) أى بسبب إيثار الشهوة والاشتغال عن العبادة مع التمكن منها (و) يستحق ( التعيير ) أى التوبيخ ( من سيده ) الخالق له ( فتأمل هذا الأصل ) وهو أن الله خلق العبد لعبادته ( راشدا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ) أى لاتحول عن معصية الله إلا بالله ولا قوة على طاعة الله إلا بعون الله هكذا ورد تفسيره عنه عليه السلام عن جبريل أفاده العلامة يوسف السنبلاوينى ، والعلى المرتفع الرتبة المنزه عما سواه ، والعظيم ذو العظمة والكبرياء قاله الصاوى وإنما أتى المصنف رحمه الله بالحوقلة لأجل التبرى منها فهذه علامة الإخلاص منه رحمه الله كما قال بعضهم صحح عملك بالإخلاص وصحح

فَهٰذِهِ الْجُمْلَةُ الَّتِي أَرَدْنَا بَيَانَهَا فِي إِصْلَاحِ النَّفْسِ وَإِلْجَامِهَا بِلِجَامِ التَّقْوَى، فَارْعَهَا حَقَّهَا وَاحْتَفِظْ بِهَا جِدًّا تَفُزْ بِالْخَيْرِ الْكَثِيرِ فِي الدَّارَيْنِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ، وَاللهُ وَلِيُّ الْعِصْمَةِ وَالتَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ .

---

إخلاصك بالتبرى من الحول والقوة . وأيضا هي غراس الجنة كما فى حديث المعراج لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا إبراهيم عليه السلام جالسا عندباب الجنة علي كرسى من زبرجد أخضر قال لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: مر أمتك فلتكثر من غراس الجنة فإن أرضها طيبة واسعة فقال وما غراس الجنة ؟ فقال له: لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . ومن فوائدها ما فى فوائدالشرجى قال ابن أبى الدنيا بسنده إلي النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «من قال كل يوم لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم مائة مرة لم يصبه فقر أبدا » . وروى فى الخبر أيضا « إذا نزل بالإنسان مهم وتلا لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثلاثمائة مرة فرج الله عنه» أى أقلها ذلك ذكره العلامة يوسف فى حاشيته علي المعراج .

[ تنبيه ] قال العلماء رضى الله عنهم اعلم أنه لايثاب ذاكر على ذكر إلا إذا عرف معناه ولو إجمالا بخلاف القرآن فيثاب قارئه مطلقا نبه علي ذلك القليوبى ( فهذه الجملة ) المذكورة هى ( التى أردنا بيانها فى إصلاح النفس وإلجامها ) أى النفس ( بلجام التقوى ) لتكون على صراط الله المستقيم ( فارعها ) اى احفظ هذه الجملة ( حقها واحتفظ بها ) أى بهذه الجملة ( جدا تفز بالخير الكثير فى الدارين ) اى دار الدنيا والآخرة ( إن شاء الله تعالى ، والله ولى العصمة ) والحفظ (و) ولى ( التوفيق بفضله ) وإحسانه .

---

تم الجزء الأول من سراج الطالبين

ويليـه :

الجزء الثانى وأوله : فصل فى الحث على بذل المجهود فى معالجة الدنيا والخلق والشيطان والنفس

# فهرس

## الجزء الأول من سراج الطالبين

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة